تفسير القرآن الكريم

وإعرابه وبيانه

تأليف

الشيخ محمد علي طه الدرة

(رحمه الله)

المجلد الثاني

سورة آل عمران وسورة النساء

دار ابن كثير

www.lisanarb.com
مكتبة لسان العرب

بسم الله الرحمن الرحيم

مكتبة لسان العرب
أ. علاء الدين شوقي
@lisanarb
www.lisanarb.com

تفسير القرآن الكريم

وإعرابه وبيانه

المجلد الثاني

سورة آل عمران وسورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

1430 هـ ـ 2009 م

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع
والتصوير و النقل و الترجمة و التسجيل المرئي و المسموع
و الحاسوبي و غيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من

دار ابن كثير

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق ـ بيروت

ردمك : 978-9953-520-23-0

الموضوع : تفسير - علوم القرآن

العنوان : تفسير القرآن الكريم و إعرابه و بيانه 10/1

التأليف : الشيخ محمد علي طه الدرة

الورق : كريم

ألوان الطباعة : لونان

عدد الصفحات : 7520

القياس : 17×24

التجليد : فني - كعب لوحة

الوزن : 13 كغ

التنفيذ الطباعي : 53dots - بيروت

التجليد : مؤسسة فؤاد البعينو للتجليد - بيروت

دمشـــق ـ حلبـــوني ـ جـادة ابن ســـــينا ـ بناء الجـــابي
ص.ب : 311 ـ صالة المبيعات تلفاكس: 2225877 - 2228450
مكتب تلفاكس: 2243502 - 2458541
بـيروت ـ بـرج أبي حيـدر ـ خـلف دبـوس الأصلي ـ بناء الحديقة
ص.ب : 113/6318 ـ تلفاكس : 01/817857 - جوال : 03/204459
www.ibn-katheer.com - info@ibn-katheer.com

9 789953 520230

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هي مدنية، وهي مئتا آية، وثلاثة آلاف، وأربعمئة وثمانون كلمة، وأربعة عشر ألفاً، وخمسمئة، وعشرون حرفاً. انتهى خازن.

هذا؛ وسميت السُّورة بـ (آل عمران) لورود ذكر قصَّة تلك الأسرة الفاضلة (آل عمران) والد مريم أم عيسى، وما تجلَّى فيها من مظاهر القدرة الإلهية بولادة مريم البتول، وابنها عيسى عليهما السَّلام، وقد ورد في بيان فضل هذه السورة الكريمة ما يلي:

فعن النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**يؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بالْقُرآنِ وَأَهْلِهِ؛ الذِين كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ، تَقْدُمُهُ سورةُ البقرةِ، وآلِ عِمْرانَ**». مسلم.

وعن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**اقْرَؤُوا الْقُرآنَ، فإِنَّهُ يأتي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعاً لأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: البقَرَةَ، وآلَ عمرانَ، فإنَّهما يأتِيان يومَ الْقِيامَةِ، كأنَّهما غَمَامَتَانِ، أو غَيَابَتَان ـ أَوْ: كأنهما فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ ـ تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا. اقْرَؤُوا سورةَ (البقرَةِ) فإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلَا تَسْتَطِيعُها الْبَطَلَةُ**». أخرجه مسلم. قال معاوية بن سلام: بلغني: أنَّ البطلة: السَّحرةُ.

﴿الٓمٓ ①﴾

انظر ما ذكرته في أول سورة البقرة ففيه الكفاية.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ②﴾

الشرح: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: إخبار بأنه سبحانه المنفرد بالألوهيَّة لجميع الخلائق. ﴿ٱللَّهُ﴾: عَلَمٌ على الذات الواجب الوجود، المستحقُّ لجميع المحامد، وهو اسم الله الأعظم الذي إذا دعي به أجاب، وإذا سئل عنه؛ أعطى، وإنَّما تخلَّفت الإجابة في بعض الأحيان عند الدُّعاء به لتخلُّف شروط الإجابة، الَّتي أعظمُها أكل الحلال. ولم يُسَمَّ به أحد سواه. قال تعالى في سورة (مريم) رقم [١٥]: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي: هل تسمَّى أحدٌ الله غير الله؟! وقد ذكر في القرآن الكريم في ألفين وثلاثمئة وستين موضعاً، علماً بأنَّه لم يذكر في سورتي (الرَّحمن)، و(الواقعة).

﴿الْحَيُّ﴾ أي: الذي لا يموت أبداً. ﴿الْقَيُّومُ﴾ أي: بغيره. فجميع الموجودات مفتقرةٌ إليه، وهو غنيٌّ عنها، ولا قوام لها بدون أمره. وهما اسمان من أسماء الله الحسنى. وأصل ﴿الْحَيُّ﴾: الْحَيِيْ بياءين متحركتين. فسكنت الأولى، ثم أدغمت في الثانية، وأصل ﴿الْقَيُّومُ﴾: الْقَيْوُوم؛ لأنه مِنْ قام بالأمر، يقوم، فاجتمعت الواو، والياء، وسبقت إحداهما بالسكون، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، قال الشَّاعر: [الخفيف]

إنّما الْعَرْشُ لِلَّذِي يَرْزُقُ النَّا ... سَ وَحَيٌّ عَلَيْهِمُ قَيُّومُ

هذا؛ و﴿الْقَيُّومُ﴾: القائم بذاته، والقائم بتدبير الخلق، ومصالحهم فيما يحتاجون إليه في معاشهم، ومعادهم.

نبيه: قال المفسِّرون، وأصحاب السِّير: أنزلت هذه الآية في وفد نجران، وكانوا ستين راكباً، قدموا على رسول الله ﷺ، وفيهم أربعة عشر رجلاً مِنْ أشرافهم، منهم ثلاثة نفر إليهم يؤول أمرهم، وهم: العاقب: واسمه: عبد المسيح، وهو أميرُهم، وصاحب مَشُورَتهم؛ الذي لا يصدرون إلا عن رأيه. والسَّيد، واسمه: الأيهم، وهو عالمهم القائم بمالهم، وصاحب رحلهم، الذي يقوم بأمر طعامهم، وشرابهم. وأبو حارثة بن علقمة، وهو أسْقُفُّهُمْ، وحَبْرهم، وكان ملوك الروم يكرمونه لما بلغهم عن عِلْمِهِ، واجتهاده في دينه. فدخلوا مسجد رسول الله ﷺ حين يُصلِّي العصر، وعليهم ثياب الحِبَرات؛ جُبَبٌ، وأرْدِيَةٌ، يقول مَنْ رآهم من أصحاب النبي ﷺ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت صلاتُهم، فقاموا للصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: «**دَعُوهُمْ**». فصلُّوْا إلى المشرق.

فلمَّا فرغوا كلَّم السيد، والعاقب رسول الله ﷺ، فقال لهما رسول الله ﷺ: «**أَسْلِمَا**». قالا: أسلمنا قبلك، قال: «**كَذَبْتُمَا يَمْنَعُكُمَا مِنَ الإسْلام دَعْواكما للهِ وَلداً، وَعِبَادَتُكُمَا الصَّلِيبَ، وَأَكْلُكُمَا الخنْزِيرَ**». قالا: إن لم يكن عيسى ولداً لله، فَمَنْ أبوه؟! وخاصموه جميعاً في عيسى، عليه الصَّلاة والسلام، فقال ﷺ: «**أَلَسْتُمْ تَعلمونَ: أنَّ ربَّنَا حيٌّ لا يموتُ، وَأَنَّ عِيسَى يَأْتِي عليهِ الموتُ؟!**» قالوا: بلى! قال: «**أَلَسْتُمْ تعلمونَ: أَنَّ رَبَّنَا قَيِّمٌ عَلَى كُلِّ شيءٍ، يَحْفَظُهُ، ويَرْزُقُهُ؟**» قالوا: بلى! قال: «**فهَلْ يَمْلِكُ عِيسَى شَيْئَاً من ذلك؟**». قالوا: لا! قال: «**ألستم تعلمون: أن الله تعالى لا يخفىٰ عليه شَيءٌ فِي الأَرْضِ، وَلَا فِي السَّمَاءِ؟!**». قالوا: بلى! قال: «**فَهَلْ يَعْلَمُ عيسَى مِنْ ذَلِكَ إِلّا مَا عَلِمَ؟!**» قالوا: لا!.

قال: «**ألستمْ تعلمونَ: أن رَبَّنَا صوَّرَ عيسى في الرَّحم كَيْفَ شَاءَ، وَرَبُّنا لا يَأْكُلُ، وَلَا يَشْرَبُ؟!**» قالوا: بلى! قال: «**أَلَسْتُمْ تَعلَمونَ أَنَّ عِيسى حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، كَمَا تَحمِلُ الْمرأةُ، ثم وضعتْهُ كَمَا تَضَعُ المرأةُ وَلَدَها، ثُمَّ غُذِّيَ، كَمَا يُغَذَّى الصَّبيُّ، ثُمَّ كانَ يَطْعَمُ، وَيَشْرَبُ، وَيُحْدِثُ؟!**» قالوا: بلى! قال: «**فكيفَ يَكونُ إلهاً، كَمَا زَعْمتمْ؟!**». فسكتوا، فأنزل الله صدر سورة (آل عمران)

إلى بضع وثمانين آيةً منها. زاد بعضهم، فقالوا: يا محمد! ألست تزعم: أنَّ عيسى كلمةُ الله، وروحٌ منه؟ قال: بلى! قالوا: حسبنا، ثمَّ أبوْا إلا جحوداً إلى أنْ آل أمرُهم إلى أنْ دعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة المذكورة في الآية [٦١] الآتية.

الإعراب: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿لَآ﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿إِلَٰهَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب، والخبر محذوف، تقديره: موجودٌ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر لا محل له. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل فيه ثلاثة أوجه: الأوَّل: كونه بدلاً من اسم (لا) على المحل؛ إذ محله الرَّفع على الابتداء، والثاني: كونه بدلاً من ﴿لَآ﴾ وما عملت فيه؛ لأنها وما بعدها في محل رفع بالابتداء عند سيبويه، والثالث: كونه بدلاً من الضمير المستكن في الخبر المحذوف، وهو الأقوى. ﴿ٱلْحَيُّ﴾: يجوز فيه أربعة أوجه: أحدها أن يكون بدلاً من: ﴿هُوَ﴾ بدل ظاهرٍ من مضمر، الثاني: أن يكون خبر مبتدأ محذوف، أي: هو الحيُّ، وحسن حذفه توالي اللفظ بـ ﴿هُوَ﴾ مرتين، والثالث: أن يكون خبراً ثانياً لقوله: ﴿ٱللَّهُ﴾ أخبر عنه أولاً بقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وذلك عند من يرى تعدُّد الخبر مختلفاً بالإفراد، والجملة، الرابع: أن يكون صفة للضمير، وذلك عند الكسائي، فإنه يجيز وصف الضمير الغائب بصفة مدح، فهو يشترط هذين الشَّرطين: أن يكون غائباً، وأن تكون الصفة صفة مدح. ﴿ٱلْقَيُّومُ﴾: يجري فيه ما جرى في سابقه، وإن اعتبرته بدلاً من: ﴿ٱلْحَيُّ﴾ فلست مفنداً، وهو الأقوى؛ لأنهما اسمان كريمان من أسماء الله الحسنى على المعتمد. والله أعلم، وأجلُّ، وأكرم. والجملة الاسمية: ﴿ٱللَّهُ﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. هذا، وقال مكي: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ، وخبره: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ و﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال من: ﴿ٱللَّهُ﴾ وقيل: من المضمر في: ﴿نَزَّلَ﴾ تقديره: الله نزل عليك الكتاب متوحداً بالربوبية، وقيل: هو بدل من موضع ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾، ثمَّ قال: ﴿ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾: نعتان لـ ﴿ٱللَّهُ﴾ تبارك وتعالى. وكلُّ ما قاله غير جارٍ على سنن العربية.

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾

الشرح: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ﴾: قال: ﴿نَزَّلَ﴾ بالنسبة للقرآن الكريم، وقال: (أنزل) بالنسبة للتَّوراة؛ لأن الأول يفيد التكثير، مرَّةً بعد مرَّةٍ، وهو ما اتصف به القرآن؛ لأنه نزل مفرقاً في ثلاثٍ وعشرين سنةً على حسب الوقائع، ومقتضيات الأحوال على ما نرى عليه الشِّعر، والخطابة، بخلاف التوراة والإنجيل، فإنَّهما نزلا دفعةً واحدةً. ونزول القرآن مفرَّقاً كان ممَّا يريب الكافرين، كما حكى الله سبحانه عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فبيَّن سبحانه الحكمة من ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ الآية رقم [٣٢] من سورة (الفرقان).

هذا؛ و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ في اللغة: الضم، والجمع، وسمِّيت الجماعة من الجيش كتيبةً لاجتماع أفرادها على رأي واحدٍ، وخطَّةٍ واحدةٍ، كما سمِّي الكاتب كاتباً؛ لأنه يضمُّ الكلام بعضَه إلى بعضٍ، ويجمعه، ويرتِّبه، وفي الاصطلاح: اسم لجملةٍ مختصة من العلم، مشتملةٍ على أبوابٍ وفصولٍ، ومسائل غالباً. وقد أكثر الشُّعراء في مدح الكتاب.

وبالجملة: فالكتاب هو نعم الذُّخر، والشُّغل، والحِرفة، جليسٌ لا يضرُّك، ورفيق لا يملُّك، يطيعك باللَّيل طاعته بالنَّهار، ويطيعك في السَّفَر طاعته في الحَضَرِ، إنْ ألِفْتَه على الأيام؛ خلَّد ذكرك، وإن درسته؛ رفع بين النَّاس قدرك. وإن أردت الزِّيادة؛ فانظر الآية رقم [١٠١] من سورة (البقرة).

﴿بِٱلْحَقِّ﴾: الحق: خلاف الباطل، وضدُّه، قال الراغب ـ رحمه الله تعالى ـ: أصل الحق المطابقة، والموافقة، كمطابقة رِجْلِ الدَّار في حقِّه لدورانه على الاستقامة. والحقُّ يقال لموجد الشيء بحسب ما تقتضيه الحكمة، ولذلك قيل في الله تعالى: هو الحقُّ. وللموجود بحسب مقتضى الحكمة: حقٌّ، ولذلك يقال: فِعْلُ الله كله حقٌّ، نحو الموت، والحساب... إلخ. وللاعتقاد في الشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، نحو: اعتقاد زيد في الجنة حقٌّ، وللفعل والقول الواقعين بحسب ما يجب، وقدر ما يجب، في الوقت الذي يجب، نحو: قولك حق، وفعلك حق، ويقال: أحققت ذا، أي: أثبته حقّاً، أو حكمت بكونه حقّاً. انتهى بغدادي.

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يعني: لما قبله من الكتب المتقدِّمة المنزلة على الأنبياء، والمرسلين، فهي تصدِّقه بما أخبرت به، وبشَّرت في قديم الزمان، وهو يصدِّقها؛ لأنَّه وافق ما أخبرت به، وبشَّرت من الوعد من الله بإرسال محمَّدٍ ﷺ، وإنزال القرآن الكريم.

هذا؛ وقوله: ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ من مجاز الكلام، وذلك: أنَّ (ما بين يديه): أمامه فقيل: كلُّ شيءٍ تقدَّم على الشَّيء: هو بين يديه لغاية ظهوره، واشتهاره. هذا؛ والتوراة: هي الكتاب الذي أُنزل على موسى، عليه الصلاة والسَّلام. والتوراة معناها: الضِّياء، والنور، مشتقَّةٌ من: وَرَى الزند: إذا خرجت ناره، وأصلها: تَوْرَيَة على وزن تفْعَلة، التاء زائدة، وتحرَّكت الياء، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. وقيل: التوراة مأخوذة من التَّوْرِيَة، وهي: التعريض بالشيء، والكتمان لغيره، فكان أكثر التَّوراة معاريض، وتلويحات من غير تصريحٍ، وإيضاح. هذا قول المؤرِّج، والجمهور على القول الأوَّل، لقوله تعالى في سورة (الأنبياء) رقم [٤٨]: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ هذا؛ وأنِّثت التوراة نظيرة لموماة، ودوداة، ونحوها في كلام العرب. ويُجمع التوراة على: توارٍ.

والإنجيل: هو الكتاب الذي أنزل على عيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة وألف سلام، يذكَّر، ويؤنَّث، فمن أنَّث؛ أراد الصحيفة، ومن ذكَّر؛ أراد الكتاب، وهو الأكثر. ويجمع على أنا جيل، وهو مشتقٌّ من النَّجل، وهو الأصل، كأنه أصل الدِّين يُرجع إليه، ويؤتَمُّ به، ومنه سمي الولد، والنَّسل: نجلاً لخروجه من والديه، كما قال الشاعر: [الطويل]

إِلَى مَعْشَرٍ لَمْ يُورِثِ اللُّؤْمَ جَدُّهُمْ أَصَاغِرَهُمْ، وَكُلُّ فَحْلٍ لَهُمْ نَجْلُ

ويقال: لعن الله ناجِليْهِ، يعني: والديه؛ إذ كانا أصلَه. ويقال: [مجزوء الوافر]

وبِئْسَ النَّجْلُ مَا نَجَلَا

هذا وقد يسمَّى القرآن: إنجيلاً أيضاً، كما روي في قصَّة موسى ـ على نَبِيِّنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: أنه قال: «**يا ربِّ! أرى في الألواح أقواماً أناجيلهم في صدورهم، فاجعلهم أمَّتي. فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ له: تلك أمةُ أحمد يا موسى!**» وإنَّما أراد بالأناجيل القرآن، هذا والإنجيل خال من الأحكام، والتَّشريع، وكلُّ ما فيه حِكَمٌ، ومواعظ؛ لذا فالنَّصارى عيالٌ علينا في كثيرٍ من الأحكام، وخاصَّةً المواريث، وقد دخل الإنجيلَ التَّحريفُ، والتزييفُ، كما دخلا التَّوراة، وما إنجيل متَّى، ومرقس... إلخ إلا من اختراعهم، وابتداعهم.

﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل تنزيل القرآن. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ أي: لقوم موسى، وعيسى، أو لجميع الناس، فيكون حالاً من الكتب الثلاثة: القرآن، والتوراة، والإنجيل. هذا؛ وأصل ﴿هُدًى﴾: هُدَياً، أو هُدَيٌ، بضم الهاء، وفتح الدال، وتحريك الياء منونةً، فقلبت الياء ألفاً لتحُركها، وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان: الألف، والتنوين الذي يرسم ألفاً في حالة النَّصب بحسب الأصل، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار: ﴿هُدًى﴾ وإنَّما أتوْا بياء أخرى لتدل على الياء المحذوفة، بخلاف ما إذا لم يأتوا بها، وقالوا: هُداً، فلا يوجد ما يدل عليها. وهذا الإعلال يجري في كل اسم مقصور مجرد من أل، والإضافة.

﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ يعني: الفارق بين الحقِّ، والباطل. قيل: أراد به القرآن، وإنَّما أعاده تعظيماً لشأنه، ومدحاً؛ لكونه فارقاً بين الحقِّ، والباطل، وقيل: إنَّما أعاد ذكره؛ ليتبيِّن: أنه تعالى أنزله بعد التوراة، والإنجيل، ليجعله فارقاً بين ما اختلف فيه اليهود، والنصارى في أمر عيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة وألف سلام، وقيل: المراد الكتب الثلاثة؛ لأنَّها كلَّها هدىً للناس، ومفرِّقةً بين الحلال، والحرام، والحق، والباطل، والغيِّ، والرَّشاد بما يذكره الله من الحجج البينات، والدلائل الواضحات، والبراهين القاطعات، ويبينه، ويوضحه، ويفسِّره ويقرِّره، ويرشد إليه، وينبه عليه.

الإعراب: ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿اللَّهُ﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿الْكِتَابَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها، أو هي في محل رفع خبر ثان للمبتدأ، أو هي في محل نصب حال من الضمير المستتر في: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ والرابط الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها. ﴿بِالْحَقِّ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿الْكِتَابَ﴾ أي: ملتبساً بالحقِّ. ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال ثانية منه. ﴿لِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿مُصَدِّقًا﴾ و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة أيضاً. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) أو بمحذوف

صفتها، التقدير: مصدقاً لِلَّذي، أو لشيءٍ يوجد بين يديه، و﴿بَيْنَ﴾: مضاف، ﴿يَدَيْهِ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنّى صورةً، وحذفت النون للإضافة، والهاء في محل جر بالإضافة. هذا؛ وابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ يعتبر اللّام ـ في مُغنيه ـ زائدةً، ويسمِّيها: «لام التقوية» فإذاً (ما) مجرورة لفظاً منصوبة محلاً. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (البروج): ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وفي سورة (المعارج). ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ وفي سورة (الأنبياء): ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾. وأورد ابن هشام قول حاتم الطائيِّ، وقيل: هو لقيس بن عاصم المنقري ـ رضي الله عنه ـ وهو الشَّاهد رقم [٣٩٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

إِذَا مَـا صَـنَـعْـتِ الـزَّادَ فَـالْـتَـمِـسِـي لَـهُ   أَكِـيـلاً فَـإِنِّـي لَـسْـتُ آكِـلَـهُ وَحْـدِي

﴿وَأَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله تقديره: هو. ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها على جميع الوجوه المعتبرة فيها. ﴿وَٱلْإِنجِيلَ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾. وقيل: مبني على الضم في محل جر بـ ﴿مِن﴾ لقطعه عن الإضافة لفظاً، لا معنىً ﴿هُدًى﴾: حال من: ﴿ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ ولم يثنَّ؛ لأنه مصدر، ويجوز أن يكون حالاً من الإنجيل، ودلَّ على حالٍ للتوراة محذوفة، كما يدلُّ أحد الخبرين على الآخر، وهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليلٌ عليها، وليست عينها. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلقان بـ ﴿هُدًى﴾ أو بمحذوف صفة له ﴿وَأَنزَلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: جحدوا آيات القرآن، ولم يؤمنوا بها. هذا؛ (وآيات الله) جمع: آية، وهي في الأصل: العلامة الظاهرة، وتقال للمصنوعات في هذا الكون من حيث إنَّها تدل على وجود الصَّانع، وعلمه، وقدرته، قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٦٤]: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وقال في هذه السورة رقم [١٩٠]: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ...﴾ إلخ، كما يقال لكلِّ طائفةٍ من القرآن، كما في هذه الآية، كما تُطلق على المعجزة الخارقة للعادة، مثل انشقاق القمر، ونحوه، وتطلق على الموعظة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾. كما تطلق، ويراد بها العبرة، والاعتبار، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ...﴾ إلخ رقم [١٣] الآتية. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾: في الدنيا بسبب كفرهم بالسَّيف، والقتل، والجلاء، وغير ذلك، وفي الآخرة بالخلود في النار وبئس القرار! ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾: قويٌّ غالبٌ على أمره، فلا يمنعه شيء من إنجاز وعده، ووعيده. ﴿ذُو ٱنتِقَامٍ﴾: صاحب عقوبة شديدة لِمَنْ عصاه،

لا يقدر على مثلها أحد. والنقمة عقوبة المجرم، وقد تكون ظلماً، وعدواناً، قال تعالى في سورة (الأعراف) في الآية رقم [١٢٦] حكاية عن قول السحرة لفرعون: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا...﴾ إلخ، وقال تعالى في سورة (البروج): ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ يقال: نقم من كذا: إذا أنكره، وانتقم منه: إذا كافأه، والفعل نَقَم، يَنْقِمُ من باب: ضرب. ونَقِم، يَنْقَمُ من باب فَهِم، يفهَم، وعلم يعلَم. قال أبو جهل الخبيث في غزوة بدر، التي كانت فيها خيبتُه، وخزيُه ـ وهو الشاهد رقم [٦٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الرجز]

مَا تَنْقِمُ الحَرْبُ الْعَوَانُ مِنِّي بَازِلُ عَامَيْنِ حَدِيثٌ سِنِّي

لِمِثْلِ هَذَا وَلَدتْنِي أُمِّي

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و(آيات) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿شَدِيدٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ ولم تقترن الجملة الاسمية بالفاء لشدَّة ارتباط الكفر بالعذاب، فلا حاجة إلى رابط، هذا وجوز اعتبار الجار والمجرور متعلِّقين بمحذوف خبر: ﴿إِنَّ﴾ و﴿عَذَابٌ﴾ فاعلاً بمتعلقه. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الاعتراض. (الله): مبتدأ. ﴿عَزِيزٌ﴾: خبر أول. ﴿ذُو﴾: خبر ثان مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنَّه من الأسماء الخمسة، وهو مضاف، و﴿ٱنتِقَامٍ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام، الغرض منها التَّهديد، والوعيد، فلا محلَّ لها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ...﴾ إلخ: أي: لا يغيب عن علمه شيء، فهو العالم بما كان، وما يكون؛ فكيف يكون عيسى إلهاً، أو ابن إله؟!... وهل تخفى عليه هذه الأشياء. وقدَّم ذِكْرَ الأرضِ على السماء ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، والمراد بما في الأرض، وبما في السماء من كلِّيٍّ، وجزئيٍّ. وخصَّهما بالذِّكر؛ لأنَّ الحسَّ البشري لا يتجاوزهما، هذا وأصل سماء: سماو، فيقال في إعلاله، تحرَّكت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ولم يعتدَّ بالألف الزائدة؛ لأنَّها حاجز غير حصين، فالتقى ساكنان: الألف الزائدة، والألف المنقلبة، فأبدلت الثانية همزة. وقل مثله في إعلال «بناء» ونحوه من «صحراء، وحمراء، وزرقاء».

هذا؛ والسَّماء يذكر، ويؤنث، وهو كل ما علاك، فأظلَّك، ومنه قيل لسقف البيت: سماء. والسماء يطلق على المطر، يقال: ما زلنا نطأ السَّماء حتى أتيناكم. قال معاوية بن مالك: [الوافر]

إذا نَــزَلَ الـــسَّـــمَـــاءُ بِـــأَرْضِ قَـــوْمٍ رَعَـــيْـــنَـــاهُ وَإِنْ كَـــانُـــوا غِـــضَـــابَـــا

أراد بالسماء المطر، ثمَّ أعاد الضمير عليه في: رعيناه بمعنى النبات. وهذا يسمَّى في فن البديع بالاستخدام.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَخْفَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿عَلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿شَيْءٌ﴾: فاعل يخفى، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿فِي ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿شَيْءٌ﴾. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ﴾: معطوفان على ما قبلها.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾

الشرح: ﴿هُوَ﴾ أي: الله. ﴿ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: يخلقكم، فالتَّصوير: جعل الشيء على صورةٍ، والصُّورة هيئة يكون عليها الشَّيء بالتَّأليف. والأرحام: جمع: رحم، وهو موضع الجنين في بطن المرأة، وغيرها من الحيوانات. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ أي: من الصُّور المختلفة المتفاوتة في الخلقة، من ذكورةٍ، وأنوثة، وبياض، وسواد، وحسنٍ، وقبحٍ، وقصرٍ، وطولٍ، وسلامةٍ، وعاهةٍ، إلى غير ذلك من السَّعادة، والشَّقاء. وخذ ما يلي:

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصَّادق المصدوق: «**إنَّ أحدَكُمْ يُجْمَعُ فِي بُطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً، ثم يكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُم يَكُونُ مضغة مِثلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُبْعَثُ اللهُ إِليهِ ملكاً بأربعِ كَلِماتٍ: فَيَكْتُبُ عَمَلَهُ، وأجله، ورِزْقَهُ، وشقيٌّ، أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، فَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بعملِ أهلِ الجنَّة، فَيَدْخُلُ الجنَّة، وإِنَّ الرَّجُل لَيَعْمَلُ بعَمَل أهل الجنَّة، حَتَّى مَا يَكونُ بَيْنَهُ، وبينَها إِلّا ذراعٌ، فَيَسْبِقُ عليهِ الكِتَابُ، فيعملُ بِعملِ أَهْلِ النَّار، فَيَدْخلُ النَّارَ**». رواه البخاريُّ [٣٣٣٢]، هذا؛ وانظر الآية رقم [٥] من سورة (الحج) والآية رقم [١٢] وما بعدها من سورة (المؤمنون) وانظر آية التوحيد في الآية رقم [٢٨] و[٢٩] من سورة (البقرة) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

وفي صحيح مسلم من حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ يهوديّاً قال للنبي ﷺ: وجئت أَسْأَلُكَ عَنْ شيءٍ لا يعلمه أحدٌ من أهل الأرض، إلا نَبِيٌّ، أو رجلٌ، أو رجلان، قال: «**يَنْفَعُكَ إِنْ حدَّثْتُكَ؟**» قال: أسمع بأذني، قال: جئتُ أسألك عن الولد؟ فقال النبي ﷺ: «**مَاءُ الرَّجلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا، فَعَلا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ المرأةِ؛ أَذْكَرَا بِإِذْنِ الله تعالى، وإذا عَلَا مني المرأةِ منيَّ الرَّجل آنثا بإذنِ اللهِ**». الحديث رقم [٣١٥] [٣٤].

هذا؛ والآية وسابقتها واردتان على النَّصارى، وذلك: أنَّ عيسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ كان يخبر بالغيب، فيقول: أكلتَ في دارك كذا، وصنعتَ كذا، وأنَّه أحيا

الميت، وأبرأ الأكمه، والأبرص، وخلق من الطِّين طيراً، فادَّعت النصارى فيه الإلهية، وقالوا: ما قدر على ذلك إلا أنَّه إله. فردَّ الله تعالى عليهم بذلك، وأخبر: أنَّ الإله المستحقَّ لهذا الاسم هو الذي لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السَّماء، وأنَّه المصور في الأرحام كيف يشاء، وأنَّ عيسى عليه السلام صوَّره الله في الرَّحم، فنبه بكونه مصوراً في الرَّحم على أنَّه عبدٌ مخلوقٌ كغيره، وأنَّه يخفى عليه ما لا يخفى على الله، عزَّ، وجلَّ.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا خالق، ولا مصوِّر إلا الله، وذلك دليل وحدانيته، فكيف يكون عيسى إلهاً مصوِّراً، وهو مُصَوَّر. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾: القوي الغالب؛ الذي لا يغالب. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: المحكم، أو ذو الحكمة. هذا؛ ولا يصلح مكانَ الاسمين الكريمين هنا: (الغفور الرحيم) ونحوهما.

الإعراب: ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السُّكون في محل رفع خبره. ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الله، وهو العائد، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾: متعلقان بما قبلهما، ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال من فاعل ﴿يَشَآءُ﴾ بعده. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل: ﴿يُصَوِّرُكُمْ﴾ أو من مفعوله، هذا وذكر الجمل نقلاً عن السَّمين: أنَّ ﴿كَيْفَ﴾ أداة شرط وتعليق، وذكره ابن هشام في المغني، وذكرته أنا في سورة (الغاشية)، وأرى: أنَّ تعليق الجملة بحرف جرٍّ محذوف ـ التقدير: يصوركم في الأرحام بكيفيةٍ يشاؤها ـ هو الأولى، والأقوى. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: انظر الآية رقم [٢] فالإعراب مثله، والجملة هنا مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾

الشرح: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن. والخطاب لسيِّد الخلق، وحبيب الحقِّ ﷺ. ﴿مِنْهُ﴾: من القرآن. ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾: مُبيِّنات، مفصَّلات، واضحات الدَّلالة، أحكمت عبارتها من احتمال التأويل، والاشتباه، وحفظت من الإجمال، والاحتمال، سمِّيت: محكمةً مِنَ الإحكام، كأنَّه تعالى أحكمها، فمنع الخلق من التَّصرُّف فيها؛ لظهورها، ووضوح معناها.

﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أصله؛ الذي يُرجَعُ إليه في الأحكام، ويُعمل به في الحلال، والحرام، فلا يحتجن إلى تأويل. والقياس: أمهات بالجمع، فأفرد إما لأنَّ المعنى: كلُّ واحدة منهنَّ، وإما

لأنَّ مجموع الآيات بمنزلةٍ أمٍّ واحدةٍ، وكلام الله كلُّه شيءٌ واحد. قال الشَّريف الرضي: هذه استعارةٌ، والمراد بها: أنَّ هذه الآيات جماع الكتاب، وأصله، فهي بمنزلة الأم له، وكأنَّ سائر القرآن يتبعها، أو يتعلق بها، كما يتعلَّق الولد بأمِّه، ويفزع إليها في مَهَمِّهِ. انتهى صفوة التفاسير.
﴿وَأُخَرُ﴾: جمع أخرى، ولم يصرف (أُخَرُ) لأنَّه معدول به عن الآخر.

﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: لا يفهم معناها، كالحروف المقطعة الموجودة في أوائل السُّور، ومنه قوله تعالى في سورة (الفتح): ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، وقوله تعالى في سورة (طه) وغيرها: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾، ومنه وقت قيام السَّاعة، وخروج يأجوج، ومأجوج، والدَّجال، ونزول عيسى عليه السلام وجعله كله محكماً بقوله تعالى في أول سورة هود: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: في النُّظم، والرَّصف، وأنَّه حقٌّ من عند الله، وأنَّه ليس فيه عيب قطعاً، وجعله متشابهاً بقوله تعالى في سورة (الزُّمر): ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ بمعنى: يشبه بعضُه بعضاً في الحُسْنِ، والصِّدق، والفصاحة، والبلاغة، والتَّناسب بدون تعارضٍ، ولا تناقضٍ، وفي تركيب النَّظم، وصحة المعنى، والدَّلالة على المنافع العامَّة.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: ميل عن الحقِّ، ومنه: زاغت الشَّمس عن كبد السماء، وزاغت الأبصار. وهذه الآية تعمُّ كلَّ طائفةٍ من كافرٍ، وزنديقٍ، وجاهلٍ، وصاحب بدعةٍ؛ وإن كانت الإشارة بها في ذلك الوقت إلى نصارى نجران. وقال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: إن لم يكونوا الحرورية، وأنواع الخوارج؛ فلا أدري مَنْ هم؟ نعم منهم الزَّنادقة، والقرامطة الطاعنون في القرآن، ومَنْ على شاكلتهم من الباطنيين الذين يقولون: للقرآن ظاهرٌ، وباطن، فيقولون: القرآن محرَّفٌ، ومبدَّل. وخرَّج مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: تلا رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ إلخ، ثم قال: «**إذا رأيتم الذين يتَّبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الَّذين سمَّاهم الله؛ فاحذروهم**». وأثبت أبو أمامة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّهم الخوارج.

ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تَفَرَّقَتْ بَنُو إِسْرَائيلَ عَلَى اثنتينِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَاحِدَةً في الجَنة، وسَائِرُهُمْ في النَّارِ، وَلَتَزِيدَنَّ عَلَيْهِمْ هذِهِ الأُمَّةُ، واحدةٌ في الجنَّةِ، وسَائِرَهُمْ في النَّارِ**».
﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ أي: إنما يأخذون بالمتشابه الَّذي يمكنهم أن يُحرِّفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها؛ لاحتمال لفظه لِمَا يصرفونه، فأمَّا المحكم؛ فلا نصيب لهم فيه؛ لأنَّه دامغ لهم، وحجَّةٌ عليهم.

﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ أي: طلب الإضلال لأتباعهم إيهاماً لهم: أنَّهم يحتجُّون على بدعتهم بالقرآن، وهو حجَّةٌ عليهم، لا لهم، كما لو احتجَّ النَّصارى بأنَّ القرآن نطق بأن عيسى روح الله، وكلمتُه ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، وتركوا الاحتجاج بقوله تعالى في سورة (الزخرف): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ وبقوله تعالى في هذه السُّورة: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ

ءَادَمَ...﴾ إلخ رقم [٥٩]. ﴿وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ أي: تحريفه على ما يريدون، ويشتهون. ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يعلم تفسير المتشابه، ومعناه الحقيقي إلا الله وحده. وقيل: يجوز أن يكون للقرآن تأويلٌ، استأثر الله بعلمه، ولم يُطْلِع عليه أحداً من خلقه، كالحروف المقطَّعة... إلخ. انظره فيما سبق.

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ أي: الثابتون في العلم. وهم الذين أتقنوا علمهم؛ بحيث لا يدخل في علمهم شكٌّ، والرُّسوخ: الثبوت في الشَّيء، وكلُّ ثابتٍ راسخٌ، وأصله في الأجرام: أن يرسخ الجبل، والشَّجر في الأرض. قال الشاعر: [الطويل]

لَقَدْ رَسَخَتْ فِي الصَّدْرِ مِنِّي مَوَدَّةٌ ... لِلَيْلَى أَبَتْ آيَاتُهَا أَنْ تَغَيَّرَا

هذا؛ وقال ابن أبي حاتم بسنده: حدَّثنا عبيد الله بن يزيد ـ وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ: أنساً، وأمامة، وأبا الدرداء رضي الله عنهم ـ: أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن الرَّاسخين في العلم، فقال: «**مَنْ بَرَّتْ يَمِينُهُ، وصَدَقَ لِسَانُهُ، واسْتَقَامَ قَلْبُهُ، وَمَنْ عَفَّ بَطْنُهُ، وَفَرْجُهُ، فَذَلِكَ مِنَ الرَّاسِخينَ في الْعِلْمِ**». وقال ابن المنذر في تفسيره عن نافع بن يزيد: الرَّاسخون في العلم: المتواضعون لله، المتذلِّلون له في مرضاته، لا يتعاظمون على مَنْ فوقهم، ولا يحتقرون مَنْ دونهم. هذا؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ استعارةٌ، والمراد بها: المتمكنون في العلم تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوَّارة، وهذا أبلغ من قوله: والثابتون في العلم. هذا؛ والراسخ في العلم مَنْ وَجَدَ مِنَ العِلْمِ في علمه أربعة أشياء: التَّقوى فيما بينه وبين الله تعالى، والتواضع فيما بينه وبين النَّاس، والزُّهد فيما بينه وبين الدُّنيا، والمجاهدة فيما بينه وبين النَّفس.

﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سمَّاهم راسخين في العلم بقولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ فرسوخهم في العلم هو الإيمان به، وقال عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ: في هذه الآية انتهى علم الراسخين في العلم بتأويل القرآن إلى أن قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ يعني: المحكم، والمتشابه، والناسخ، والمنسوخ، وما علمنا به، وما لم نعلم، ونحن معتقدون في المتشابه بالإيمان به، ونكل معرفته إلى الله تعالى، وفي المُحكم يجب علينا الإيمان به، والعمل بمقتضاه. ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾: انظر الآية رقم [٢٦٩] من سورة (البقرة).

تنبيه: فإن قيل: القرآن نزل لإرشاد العباد، فهلا كان كلُّه محكماً؟! والجواب: أنَّه نزل بألفاظ العرب، وعلى أسلوبهم، وكلامُهم على ضربين: الموجز الذي لا يخفى على سامع. هذا هو الضَّرب الأول، والثاني: المجاز، والكنايات، والإرشادات، والتلويحات. وهذا هو المستحسن عندهم، فأنزل الله القرآن على الضَّربين. ليتحقَّق عجزُهم، فكأنه قال: عارضوه بأيِّ الضَّربين شئتم. ولو نزل كلُّه محكماً؛ لقالوا: هلَّا نزل بالضَّرب المستحسن عندنا.

وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: الحكمة في ذلك ـ والله أعلم ـ أن يظهر فضل العلماء؛ لأنه لو كان كلُّه واضحاً لم يظهر فضلُ بعضهم على بعضٍ، وهكذا يفعل من يصنف تصنيفاً، يجعل بعضَه واضحاً، وبعضَه مشكلاً، ويترك للجُثْوَة موضعاً؛ لأنَّ ما هان وجوده؛ قلَّ بهاؤه. انتهى.

وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ بسنده: سمع رسول الله ﷺ قوماً يتدارؤون، فقال: «**إنَّما هَلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ بِهَذَا، ضَرَبُوا كِتَابَ اللهِ بَعْضَهُ بِبَعْضٍ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ كِتَابُ اللهِ لِيُصَدِّقَ بَعْضُهُ بَعْضاً، فَلا يُكَذِّبُوا بَعْضَهَ بِبَعْضٍ، فَمَا عَلِمْتُمْ مِنْهُ؛ فَقولُوا آمَنَّا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ؛ فَكِلُوهُ إِلَى عَالِمِهِ**». وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٠٩] من سورة (البقرة)؛ تجد ما يسرُّك، ويثلج صَدْرَك.

الإعراب: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ﴾: مبتدأ، وخبر. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وهو العائد. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿ءَايَٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿مُّحْكَمَٰتٌ﴾: صفة: ﴿ءَايَٰتٌ﴾ والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾. هذا؛ ويجوز اعتبار مضمون: ﴿مِنْهُ﴾ مبتدأ؛ لأنَّه بمعنى: بعضه، و﴿ءَايَٰتٌ﴾ خبره، وتبقى الجملة حالاً من الكتاب، والرابط الضمير فقط على الاعتبارين. ﴿هُنَّ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿أُمُّ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية في محلِ رفع صفة: ﴿ءَايَٰتٌ﴾. ﴿وَأُخَرُ﴾: معطوف على آيات عطف مفرد على مفرد. ﴿مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: حرف عطف، وتفريع. (أما): أداة شرط، وتفصيل، وتوكيد. أمَّا كونها أداة شرط؛ فلأنها قائمة مقام أداة الشرط، وفعله، بدليل لزوم الفاء بعدها؛ إذ الأصل: مهما يك من شيءٍ؛ فالذين في قلوبهم زيغٌ، فيتبعون. وأمَّا كونها أداة تفصيل؛ فلأنها في الغالب تكون مسبوقة بكلام مجملٍ، وهي تفصله. ويعلم ذلك مَنْ تتبَّع مواقعها. وأمَّا كونها أداة توكيد؛ فلأنها تحقِّق الجوابَ، وتفيد: أنَّه واقعٌ لا محالة؛ لكونها علَّقته على أمرٍ متيقَّن. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿زَيْغٌ﴾: فاعل متعلَّق الجار والمجرور؛ إذ التقدير: الذين يوجد في قلوبهم زيغٌ. هذا؛ ويجوز اعتبار الجار والمجرور متعلِّقين بمحذوف خبر مقدَّم، و﴿زَيْغٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية صلة الموصول. ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾: الفاء: واقعة في جواب (أما). ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية لا محلَّ لها؛ لأنها معطوفة، ومفرَّعةٌ عما قبلها، وكذا لو اعتبرتها مستأنفة. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿تَشَٰبَهَ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿مَا﴾ وهو العائد. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿تَشَٰبَهَ﴾ المستتر،

و(من) بيان لما أبهم في ﴿مَا﴾. ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله، وهو مضاف، و﴿ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. ﴿وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿يَعۡلَمُ﴾: فعل مضارع. ﴿تَأۡوِيلَهُۥٓ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ٱللَّهُۗ﴾: فاعله. والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل: ﴿تَشَٰبَهَ﴾ المستتر، والرابط الواو، والضمير. ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ﴾: قال مجاهد وحده: معطوف على لفظ الجلالة، واحتجَّ له بعض أهل اللُّغة. فقال: معناه: والراسخون في العلم يعلمونه قائلين: آمنا. وقال ابن مسعود، وابن عباس، وأُبِّيُّ بن كعب، وعائشة ـ رضي الله عنهم ـ: مستأنف على أنه مبتدأ، والوقف التام على لفظ الجلالة. ﴿فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾: متعلقان بـ (الراسخون). ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال على قول مجاهد، وفي محل رفع خبر: (الراسخون) على قول ابن عباس... إلخ، ومثل هذه الآية الكريمة قول الشاعر: [مجزوء الكامل]

الــرِّيــحُ تَــبْــكِــي شَــجْــوَهَــا وَالْــبَــرْقُ يَــلْــمَــعُ فِــي الــغَــمَــامَــهْ

فـ «البرق» يجوز اعتباره مبتدأ، والجملة بعده خبره، ويجوز عطفه على الريح، والجملة في محل نصب حال منه. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ. ﴿مِّنۡ عِندِ﴾ متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿رَبِّنَاۗ﴾ مضاف إليه مجرور، و(نا): في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل لا محل لها. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿يَذَّكَّرُ﴾: فعل مضارع. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿أُوْلُواْ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و﴿أُوْلُواْ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مضاف إليه. والجملة الاسمية مستأنفة، أو هي معترضة في آخر الكلام، لا محل لها على الاعتبارين، وفيها مدحٌ للرَّاسخين في العلم بجودة الذِّهن، وحسن النَّظر.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨﴾

الشرح: هذه الآية من دعاء الراسخين في العلم، ويجوز أن يكون المعنى: قل يا محمد! ويقال: إزاغة القلب: فساد، وميل عن الحقِّ، والدين. وهل كانوا يخافون ـ وقد هدوا ـ أن ينقلهم الله إلى الفساد؟ والجواب: لعلَّهم سألوا إذ هداهم الله ألا يبتليهم بما يثقل عليهم من الأعمال، فيعجزوا عنه. وقال ابن كيسان ـ رحمه الله تعالى ـ: سألوا أن لا يَزيغوا، فيُزيغ الله

قلوبهم. مثل قوله تعالى في سورة (الصف): ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ ومعنى: ﴿لَا تُزِغۡ﴾ إلخ: ثبتنا على هدايتك؛ إذ هديتنا، وألا نزيغ فنستحقَّ أن تزيغ قلوبُنا، وروى الترمذيُّ من حديث شِهْر بن حَوْشب ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت لأمِّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ: يا أم المؤمنين! ما كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك؟ قالت: كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ: **«يَا مُقَلِّبَ القُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِك»**. فقلت: يا رسول الله! ما أكثر دعاءَك: يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك؟ قال: **«يا أُمَّ سَلمة! إِنَّهُ لَيْسَ آدَمِيٌّ إِلَّا وَقَلْبُهُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ من أَصَابع الله، فمن شاء أَقَام، ومن شاءَ أَزَاغَ»**. وهذه الآية، وأمثالها حجَّة على المعتزلة، ومن نحا نحوهم في قولهم: إنَّ الله لا يضلُّ العباد، ولو لم تكن الإزاغة من قبله؛ لمَّا جاز أن يدعى في دفع ما لا يجوز عليه فعله. وروي: أنَّ أمَّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ سألت النبي ﷺ أن يعلِّمها دعوةً تدعو بها لنفسها، فقال: قولي: **«اللَّهُمَّ رَبَّ محمدٍ النبيِّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَذْهِبْ غَيْظَ قَلْبِي، وَأَجِرْنِي مِنْ مُضِلَّاتِ الْفِتَنِ»**.

﴿وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ﴾: امنحنا، وتكرَّم علينا برحمةٍ من عندك تفضلاً، وتكرماً لا عن سببٍ منَّا، ولا عملٍ. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾: الهبة: العطية الخالية من الأعواض، والأغراض، و﴿ٱلۡوَهَّابُ﴾: صفة الله تعالى؛ الذي يعطي كلَّ أحدٍ على قدر استحقاقه، وخالية ممَّا ذكره. وهو المتفضل بما ينعم على عباده، لا يجب عليه شيء. هذا؛ و(لَدُنْ) بمعنى: عند، وفيها إحدى عشرة لغة، أفصحها إثبات النون ساكنة، وهي لغة القرآن الكريم، وهي بجميع لغاتها معناها: أول غاية زمان، أو مكان، وقلَّما تفارقها «مِنْ» الجارة لها، فإذا أضيفت إلى الجملة؛ تمحضت للزَّمان؛ لأن ظروف المكان لا يضاف منها إلى الجملة إلا «حيث». ويجوز تصدير الجملة بحرف مصدري لمَّا لم يتمحض (لَدُنْ) في الأصل للزَّمان، وإذا أضيفت للضَّمير؛ وجب إثبات النُّون؛ لأنه لا يقال: لده، ولا: لدك.

فائدة: قال مكيُّ بن أبي طالب القيسي ـ رحمه الله تعالى ـ: ونداء الربِّ قد كثُر حذف (يا) النداء منه في القرآن الكريم. وعلَّة ذلك: أنَّ في حذف (يا) من نداء الربِّ تعالى، فيه معنى التعظيم له، والتنزيه، وذلك: أنَّ النداء فيه ضرب من معنى الأمر، لأنَّك إذا قلت: يا زيد! فمعناه: تعال يا زيد، أدعوك يا زيد. فحذفت (يا) من نداء الرب؛ ليزول معنى الأمر، وينقص؛ لأنَّ (يا) تؤكِّده، وتظهر معناه، فكان في حذف (يا) التعظيمُ، والإجلالُ، والتنزيهُ للربِّ تعالى، فكثر حذفها في القرآن الكريم، والكلام العربيُّ في نداء الربِّ لذلك المعنى. انتهى.

الإعراب: ﴿رَبَّنَا﴾: منادى حذف منه حرف النداء، و(نا) في محل جر بالإضافة. من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿لَا﴾: دعائية. ﴿تُزِغۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾والفاعل مستتر، تقديره: أنت. ﴿قُلُوبَنَا﴾: مفعول به، و(نا) في محل جر بالإضافة. ﴿بَعۡدَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، وهو مضاف، و﴿إِذۡ﴾ ظرف مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿هَدَيۡتَنَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة: ﴿إِذۡ﴾

إليها، والغالب، والكثير أن تحذف الجملة المضافة إليها: ﴿إِذْ﴾ ويعوَّض عنها تنوينُ: (إذٍ) مثل قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾. ﴿وَهَبْ﴾: فعل دعاء، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِن﴾: حرف جر. ﴿لَّدُنكَ﴾: اسم مبني على السكون في محل جر بـ ﴿مِن﴾ والجار والمجرور متعلقان بـ (هب) أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿رَحْمَةً﴾ كان صفةً له، فلمَّا قدِّم عليه صار حالاً، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿رَحْمَةً﴾: مفعول به، والآية الكريمة في محل نصب مقول قول الراسخين في العلم.

﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿أَنتَ﴾: فيه ثلاثة أوجه: الأول أن يكون توكيداً لاسم (إنَّ) على المحل، والثاني: أن يكون ضمير فصل لا محل لها من الإعراب، وعلى هذين الوجهين فـ ﴿الْوَهَّابُ﴾ خبر (إنَّ) والثالث: أن يكون في محل رفع مبتدأ، و﴿الْوَهَّابُ﴾ خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر (إنَّ) والجملة الاسمية: ﴿إِنَّكَ﴾ إلخ تعليل للدعاء، وهي مِنْ جملة قول الرَّاسخين أيضاً.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ۝٩﴾

الشرح: الآية الكريمة من بقية دعاء الراسخين في العلم، وذلك: أنَّهم طلبوا من الله تعالى أن يثبت قلوبهم على الحقِّ، وأن يمنحهم الهداية، والرَّحمة، وذلك من مصالح الدين، والدنيا، ثم إنَّهم أتبعوا ذلك بقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ...﴾ إلخ، ومعناه: إنَّا نوقن إنك جامع الناس للجزاء في يوم القيامة، ونعلم: أنَّ وعدك حقٌّ، لا شكَّ فيه، وأنَّك لا تخلف الميعاد. فهو كقوله في سورة (النساء) رقم [٨٧]: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾.

هذا؛ و(الريب): الشكُّ، تقول: رابني هذا الأمر، أي: أوقعني في ريبة، أي: في شكٍّ، وحقيقة الريبة: قلق النفس، واضطرابها، قال الرسول ﷺ: «**دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ**». أخرجه الترمذيُّ، والنسائيُّ عن الحسن بن عليٍّ سِبْط رسول الله ﷺ وريحانته، رضي الله عنه.
وقد يستعمل الرَّيب في التُّهمة، قال جميل بن معمر العُذريُّ: [الطويل]

بُثَيْنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي ... فَقُلْتُ كِلَانَا يَا بُثَيْنُ مُرِيبُ

واستعمل أيضاً في الحاجة، كما قال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ ... وَخَيْبَرَ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا

هذا؛ و﴿الْمِيعَادَ﴾ بمعنى الموعد، والوعد، ويحتمل الزَّمان، والمكان، وأصله: مِوْعاد. قلبت الواو ياء؛ لسكونها، وانكسار ما قبلها. ومثله: ميثاق، وميزان... إلخ.

الإعراب: ﴿رَبَّنَآ﴾: إعرابه مثل ما قبله. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿جَامِعُ﴾: خبر (إنَّ) وهو مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿لِيَوْمٍ﴾: متعلِّقان بـ ﴿جَامِعُ﴾. ﴿لَّا﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ» ﴿رَيْبَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (لا) والجملة الاسمية في محل جرٍّ صفة (يوم). ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُخْلِفُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْمِيعَادَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والآية الكريمة بكاملها من مقول قول الرَّاسخين، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محلَّ لها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله، ورسوله. ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ﴾ إلخ. لن تنفع، ولن تدفع عنهم أموالهم، ولا أولادهم من عذاب الله شيئاً، وفي معناه قوله تعالى في سورة (سبأ) رقم [٣٧]: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾. وأيضاً قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [٥٥] ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، وانظر الآية رقم [١١٦].

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الإشارة إلى الذين كفروا، على اختلاف مللهم، ونحلهم. ﴿هُمْ وَقُودُ ٱلنَّارِ﴾: بفتح الواو؛ أي: ما توقد به النَّار، وأما بضمها فهو المصدر، وكذلك الاسم منه، وبعضهم قال: كلٌّ من الفتح، والضم يجري في الآلة، والمصدر، وكذا يقال في الْوَضوء، والسَّحور، والطَّهور، ونحو ذلك، ولكن المشهور الأول، والمراد في الآلة: ما توقد به، وبالمصدر الفعل، والحدث. ويقرأ بفتح الواو وضمِّها.

هذا؛ والمال قال فيه ابن الأثير: المال في الأصل: كلُّ ما يُملك من الذَّهب، والفضَّة، ثمَّ أطلق على كلِّ ما يُقتنى، ويُملك من الأعيان، وأكثر ما يُطلق عند العرب على الإبل؛ لأنَّها كانت أكثرَ أموالهم، وقال الجوهريُّ: ذكر بعضهم: أنَّ المال يؤنَّث، وأنشد لحسَّان ـ رضي الله عنه ـ: [البسيط]

الْمَالُ تُزْرِي بِأَقْوَامٍ ذَوي حَسَبٍ وَقَدْ تُسَوِّدُ غَيْرَ السَّيِّدِ الْمَالُ

وعن الفضل الضَّبيِّ: المال عند العرب: الصَّامت، والناطق، فالصَّامت: الذَّهب، والفضَّة، والجواهر، والنَّاطق: البعير، والبقرة، والشَّاة، فإذا قلت عن بدويٍّ: كثر ماله؛ فهو الناطق، وإذا قلت عن حضريٍّ: كثر ماله؛ فهو الصَّامت. هذا؛ والنَّشب يُطلق على المال الثابت، كالضِّياع،

والدُّور. قال عمرو بن معدي كرب الزَّبيدي ـ رضي الله عنه ـ في ذلك ـ وهو في فتح القريب المُجيب رقم [٥٩٧] وفي كتابنا: «فتح رب البرية» رقم [٤٨٥] ـ: [البسيط]

أَمَرْتُكَ الخَيْرَ فَافْعَلْ مَا أُمِرْتَ بِهِ فَقَدْ تَرَكْتُكَ ذَا مَالٍ وَذَا نَشَبِ

هذا؛ وقد قال الرَّسول ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنيٍّ لِغِنَاهُ؛ فَقَدْ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِهِ». وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّ الإيمان متعلِّق بثلاثة أشياء: المعرفة بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان، فإذا تواضع بلسانه، وأعضائه؛ فقد ذهب الثُّلثان، فإذا انضمَّ إليه القلب؛ فقد ذهب الكلُّ.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محلِّ نصب اسمه. ﴿كَفَرُوا﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة ﴿الَّذِينَ﴾. ﴿لَن﴾: حرف ناصب. ﴿تُغْنِيَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَن﴾ وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة. قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: وقرأ الحسن: (يُغْنِيْ) بالياء، وسكون الياء الآخرة للتخفيف، وأنشد الفرَّاء: [الرجز]

كَأَنَّ أَيْدِيهِنَّ بِالْقَاعِ الْقَرِقْ أَيْدِيْ جَوَارٍ يَتَعَاطَيْنَ الْوَرِقْ

﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾: فاعل. ﴿تُغْنِيَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. الواو: حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي. ﴿أَوْلَادُهُم﴾: معطوف على ما قبله، والهاء فيهما في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿تُغْنِيَ﴾ وهما في محل نصب مفعول به. ﴿شَيْئًا﴾: مفعول مطلق، أو نائب عنه، وجوز أن يكون مفعولاً به، وعليه فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال منه كان صفةً له، فلما قُدِّم عليه صار حالاً على القاعدة الَّتي ذكرتُها مراراً.

(أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿هُمْ﴾: ضمير فصل لا محل له من الإعراب أو هو مبتدأ مبني على السكون في محل رفع. ﴿وَقُودُ﴾: خبر: (أولئك): أو هو خبر الضَّمير، وعليه فالجملة الاسمية في محل رفع خبر (أولئك) و﴿وَقُودُ﴾ مضاف، و﴿النَّارِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية: ﴿وَأُولَٰئِكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾

الشرح: ﴿كَدَأْبِ﴾ الدأب: العادة، والشَّأن، والحال. وهو أيضاً مصدر: دأب في عمله يدأب، دأباً، ودؤوباً: إذا وُجد، واستمرَّ فيه. وهو من باب: قطع. وهو بمعانيه كلِّها تفتح الهمزة، وتسكن، قال امرؤ القيس في معلقته رقم [٦] [الطويل]

كَدَأْبِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

والدائبان: الليل، والنهار، والشمس، والقمر. قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾. والمعنى: اعتاد كفار قريش، ومن على شاكلتهم من العرب الكفر، والإعنات للنبي ﷺ كما اعتاد آل فرعون ومنْ معه قبلهم من الكافرين من إعنات الأنبياء. والمراد بـ ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: قوم ثمود، وقوم نوح، على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المعنى كصنيع آل فرعون. . . إلخ.

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾: يحتمل أن يكون المراد بالآيات: المعجزات، وأن يكون المراد الآيات الكونية المنصوبة للدَّلالة على الوحدانية، كما قال تعالى في سورة (يوسف) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: فأهلكهم الله بسبب كفرهم، وعنادهم، وشقاقهم. ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾: شديد الأخذ، والانتقام ممَّن يخالف أوامره، ونواهيه.

هذا؛ و﴿ءَالِ﴾: أصله: أهل، فأبدلت الهاء همزة ساكنة، فصار: «أأْل» ثمَّ أبدلت الهمزة الثانية الساكنة مدّاً مجانساً لحركة الهمزة الأولى على القاعدة: «إذا اجتمع همزتان: الأولى متحركة، والثانية ساكنة، قلبت الثانية مدّاً مجانساً لحركة الهمزة الأولى». وذلك مثل آدم، وإيمان، وأُومن، فإنَّ الأصل: أَأْدم، وإِأْمان، وأُؤْمن. وقلب الهاء همزة سائغ مستعمل لغة كما في أراق، فإنَّ أصله هَراق، كما تقلب الهمزة هاء، ومن قول الشاعر ـ وهو الشَّاهد رقم [٤١٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أَلَا يَا سَنَا بَرْقٍ عَلَى قُلَلِ الْحِمَى ... لِهَنَّكَ مِنْ بَرقٍ عَلَيَّ كَرِيمُ

«لِهَنَّكَ» أصلها: لأنَّك والأوَّل كثير، وهو مستعمل في الشِّعر العربي، وغيره، وهذا مذهب سيبويه. وقال الكسائي: أصله: (أَوَل) كجَمَل مِن: آل يؤول، تحركت الواو. وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. وقد صغَّروه على: أُهَيْل، وهو يشهد للأول، وعلى: أُوَيْل، وهو يشهد للثاني، ولا يستعمل: «آل» إلا فيما له خطر، وشأن، بخلاف «أهل» يقال: آل النبي، وآل المَلِك، ولا يقال: آل الحجَّام، ولكن أهلُه، ولا ينتقض بآل فرعون؛ فإنَّ له شرفاً باعتبار الدُّنيا. واختلف في جواز إضافته إلى المُضمر، فمنعه الكسائي، والنَّحاس، وزعم أبو بكر الزَّبيدي: أنه من لحن العوام. والصَّحيح جوازه، كما في قول عبد المطلب بن هاشم جدِّ النبي ﷺ: [مجزوء الكامل]

لَا هُمَّ إِنَّ الْمَرْءَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فامْنَعْ رِحَالَكْ

وَانْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيـ ... ـبِ وعَابِدِيهِ الْيَومَ آلَكْ

وفي الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ**». و﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: قومه، وأتباعه، وأهل دينه، وكذلك آل الرسول ﷺ مَنْ هم على دينه، وملَّته في

عصره، وسائر الأعصار؛ سواءٌ كان نسيباً له، أو لم يكن، ومن لم يكن على دينه، وملَّته، فليس من آله، ولا من أ هله؛ وإن كان نسيبه، وقريبه، خلافاً للرَّافضة، حيث قالت: إن آل الرسول ﷺ: فاطمة، والحسن، والحسين، وذريَّتهما فقط. دليلنا الآية الكريمة، وقوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ وقوله تعالى في سورة (غافر): ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: آل دينه، وملَّته؛ إذ لم يكن له ذريَّة، ولا أب، ولا عم، ولا أخ، ولا عصبة، ولأنَّه لا خلاف: أنَّ مَنْ ليس بمؤمنٍ، ولا موحِّدٍ؛ فإنَّه ليس من آل محمَّدٍ، وإن كان قريباً له. ولأجل هذا يقال: إنَّ أبا لهب، وأبا جهل ليسا من آله، ولا من أهل ملَّته، وإن كان بينهما وبين النبي ﷺ قرابةٌ. ولأجل هذا؛ فإن الله تعالى قال في ابن نوحٍ: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾. وفي صحيح مسلم عن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ جهاراً غير سرٍّ، يقول: «**ألا إنَّ آل أبي ـ يعني: فلاناً ـ لَيْسُوا لِي، بأوْلِياءَ، إنَّما وَلِيِّيَ اللهُ، وصالحُ المؤمنين**». وانظر ما ذكرته في سورة (الأحزاب) بهذا الصدد ـ والله ولي التوفيق ـ وورد: «**أنا جَدُّ كلّ تقيٍّ، ولو كَانَ عبداً حبشيّاً**» أي: وإن كان ضعيفاً.

هذا؛ و﴿فِرْعَوْنَ﴾ قال المسعودي ـ رحمه الله تعالى ـ: ولا يعرف لفرعون تفسير في العربية. وظاهر كلام الجوهري: أنَّه مشتق من العتو، فإنَّه قال: والفراعنة: العتاة، وقد تفرعن، وهو ذو فرعنة، أي: ذو دهاء، ومكر. وقال الزَّمخشري في الكشاف: وفرعون علمٌ لمن ملك العمالقة في مصر، كقيصر لِمَلك الروم، وكسرى لِملك الفرس، ولعتو الفراعنة اشتقوا: تفرعْنَ فلان: إذا عتا، وتجبَّر. وفي ملح بعضهم: [الكامل]

قَدْ جَاءَهُ الْموسَى الْكَلُومُ فَزَادَ فِي ... أَقْصَى تَفَرْعُنِهِ وَفَرْطِ عَرَامِهِ

هذا؛ والموسى: ما يحلف به شعر الرأس: والكلوم فعول من الكلم، وهو الجرح، والعرام: الشرُّ، والخبث، وضمير «جاء» راجع إلى الصَّبيِّ، وهذا كناية عن الختان، وبه النموُّ، والفتوَّة، لا كناية عن حلق العانة، كما قيل. قال المولى سعد الدين: وهذا مع وضوحه، وشهرته فقد خفي حتَّى قيل: إنه كناية عن حلق العانة. وكان فرعون موسى مصعب بن الريَّان، وقيل: ابنه الوليد من بقايا قوم عاد، وفرعون يوسف ـ على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام ـ ريان ابن الوليد، وبينهما أكثر من أربعمئة سنة، وكان فرعون موسى قد عاش ستمئة وعشرين سنة، لم ير مكروهاً قط، ولو حصل له في تلك المدَّة جوعُ يوم، أو وجع يوم، أو حمَّى يوم؛ لمَّا ادَّعى الألوهية. وقال الرسول ﷺ في حقِّ أبي جهل الخبيث، «**فرعوني أشدُّ من فرعون موسى**». وفي الآية التفات من الغيبة إلى التكلُّم، ومنه إلى الغيبة. انظر الالتفات في الآية رقم [٢٥٣].

الإعراب: ﴿كَدَأْبِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: كفرت العرب كفراً ككفر آل فرعون، فهو يعني: أنَّ الجار والمجرور متعلقان بمحذوف

صفة لمصدر محذوف، وردَّ النَّحاس بقوله: لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بـ ﴿كَفَرُواْ﴾ لأن ﴿كَفَرُواْ﴾ داخلة في الصلة. و(دأب) مضاف، و﴿ءَالِ﴾ مضاف إليه، و﴿ءَالِ﴾ مضاف، و﴿فِرْعَوْنَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جرمه الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ فيه وجهان: الأول: العطف على: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ فيكون مبنيّاً على الفتح في محل جر، والثاني: اعتباره مبتدأ، فيكون مبنيّاً على الفتح في محل رفع. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، التقدير: الذين وجدوا من قبلهم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿كَذَّبُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق.

﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و(نا) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وما عطفت عليه، وهي على تقدير «قد» قبلها، أو هي في محل رفع خبر (الذين) على اعتباره مبتدأ، والجملة الاسمية على هذا الاعتبار مستأنفة لا محل لها. ﴿فَأَخَذَهُمُ﴾ فعل ماض، والهاء مفعول به، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿شَدِيدُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلْعِقَابِ﴾ مضاف إليه من إضافة الصفة المشبهة لفاعلها، والجملة الاسمية هذه معترضة في آخر الكلام، وفيها تهويل للمؤاخذة، وزيادة تخويف للكفرة.

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾

الشرح: قال محمد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ: لمَّا أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة؛ جمع اليهود في سوق بني قينقاع، فقال: «**يا معشر اليهود! احذروا من الله مثل ما نزل بقريش يوم بدر قبل أن ينزل بكم ما نزل بهم، فقد عرفتم أنِّي نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم، وعهد الله إليكم**». فقالوا: يا محمد! لا يغرنَّك، أنَّك قتلت أقواماً أغماراً، لا علم لهم بالحرب، فأصبت فيهم فرصةً، والله لو قاتلناك؛ لعرفت أنا نحن النَّاس! فأنزل الله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ﴾. فهذه رواية عكرمة، وابن جبير عن ابن عباس، رضي الله عنهم أجمعين. وفي رواية أبي صالح عنه: أنَّ اليهود لمَّا فرحوا بما أصاب المسلمين يوم أحدٍ؛ نزلت. والأولى أصحُّ.

﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ أي: في الدنيا بالقتل، والأسر، والتشريد. ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾: تساقون. والحشر: الجمع، ومنه قوله تعالى في سورة (الكهف): ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ وهذا كثيرٌ في القرآن الكريم بصيغة الماضي، والمضارع، والأمر، مثل قوله في سورة (الصَّافات): ﴿۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: هي الدار الَّتي يُعذِّب الله فيها الفجرة، والكفرة في الآخرة. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: الفراش، تقول: مهد، يمهد من باب قطع. ومهد الفراش: بسطه. وسوَّاه، وسهَّله، وأصلحه، وفيه تهكم بالكافرين، والفاسدين المفسدين؛

حيث جُعلت لهم جهنمُ غطاءً، ووطاءً، فأُكْرِموا بذلك، كما تُكرِم الأمُّ ولدَها بالعطاء، والوطاء اللينَيْن. وانظر الآية رقم [٤٦] الآتية والمخاطب بـ ﴿قُل﴾ سيِّد الخلق، وحبيب الحق ﷺ.

الإعراب: ﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وجملة ﴿كَفَرُواْ﴾ مع المتعلَّق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾: السين: حرف استقبال، وتنفيس. (تغلبون): فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ معطوفة عليها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾: متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والعجمة، وجملة: ﴿قُل﴾ إلخ، مستأنفة لا محل لها.

(بئس): فعل ماض جامد لإنشاء الذم. ﴿ٱلْمِهَادُ﴾: فاعله. والمخصوص بالذم محذوف، التقدير: هي. وهذا المخصوص إما خبر لمبتدأ محذوف، أو هو مبتدأ مؤخر، خبره الجملة الفعلية. هذا؛ والجملة: «بئس المهاد المذمومة هي» إمَّا مِنْ تمام القول، فتكون في محل نصب مقول القول، وإما مستأنفة، أو معترضة في آخر الكلام لتهويل جهنَّم، وتفظيع حال أهلها.

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِى فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ هذا الخطاب للمؤمنين، وفائدته تثبيت نفوسهم، وتشجيعها؛ حتى يقدموا على حرب مِثْلَيهم، وأمثالهم. ويحتمل: أن الخطاب لجميع الكفار، من يهود المدينة، ومشركي العرب، هذا؛ ولم يؤنث الفعل: ﴿كَانَ﴾ لأحد أمرين: الأول الفصل بالجار والمجرور. والثاني: كون ﴿ءَايَةٌ﴾ مؤنثاً مجازيّاً، وما كان كذلك يجوز تأنيث فعله، وتذكيره. قال تعالى في سورة المزمل: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾، وقال امرؤ القيس: [المتقارب]

بَرَهْرَهَةٌ رُؤْدَةٌ رَخْصَةٌ ... كَخُرْعُوبَةِ الْبَانَةِ الْمُنْفَطِرْ

هذا؛ و: ﴿ءَايَةٌ﴾: عبرة، وعظة. ﴿فِى فِئَتَيْنِ﴾: طائفتين. ﴿فِئَةٌ﴾: طائفة، وجماعة من الناس، وهي اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: قوم، وفريق، ومعشر... إلخ. ﴿ٱلْتَقَتَا﴾ أي: يوم بدر. ﴿تُقَٰتِلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: في طاعة الله، ومن أجل إعلاء كلمته؛ إذ لا يذكر لفظ القتال، أو الجهاد؛ إلا ويقرن بقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وفي ذلك دلالة واضحةٌ على أنَّ الغاية من القتال، والجهاد غايةٌ شريفةٌ نبيلةٌ، هي إعلاء كلمة الله، لا السيطرة، أو المغنم، أو الاستيلاء في الأرض، أو غير ذلك من الغايات الدنيئة.

﴿وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ﴾ أي: بالله، ورسوله. ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾: يرى المشركون المؤمنين مثلي عدد المشركين، وكانوا قريباً من ألف مقاتل، أو مثلي عدد المسلمين، وكانوا ثلاثمئة وبضعة عشر رجلاً، وكان ذلك بعد أن قلَّلهم الله في أعينهم، حتى اجترؤوا عليهم، وتوجَّهوا إليهم، فلمَّا لاقوهم؛ كثروا في أعينهم؛ حتَّى غُلِبوا. وكان ذلك مدداً من الله تعالى للمؤمنين. أو يرى المؤمنون المشركين مثلي المؤمنين، قال تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٤٣]: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ إلخ، وقال في الآية بعدها ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾ إلخ؛ حتى قال ابن مسعود رضي الله عنه لمن كان بجانبه: أتراهم سبعين؟ قال: أراهم مئة، قال: فلما أخذنا الأسارى؛ أخبرونا: أنهم كانوا ألفاً.

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: كما أيَّد المسلمين السابقين في غزوة بدر، وغيرها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ أي: لَعِظَةً، وتذكيراً، واعتباراً لأصحاب العقول السليمة، والبصائر النيرة، فيستدلُّون بذلك على قدرة الله تعالى، وقال تعالى في سورة (الحشر): ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ فيكون ﴿الْأَبْصَارِ﴾ جمع: بصيرة، وهو غير معروف في اللغة؛ لأنَّ جمع البصيرة بصائر، فالأولى اعتباره جمع: بصر بمعنى العلم.

هذا؛ والعين تطلق على الماء الجاري، أو النابع من الأرض، وجمعها في القلَّة: أعين، وفي الكثرة: عيون، قال تعالى في سورة (الذاريات) وغيرها: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ وتجمع في الكثرة أيضاً على: أعيان، وهذا غير مشهور، وقليل الاستعمال. كما تطلق العين على العين الباصرة، وهو أكثر، وأشهر ما تستعمل في أولئك، كما تطلق على الجاسوس، كما في قولك: بث الأمير عيونه في المدينة، أي: بث جواسيسه، كما تطلق على ذات الشخص، كما في قولك: جاء خالد عينه، وتطلق على الشَّمس. وعين الشيء خياره، وتطلق على النقد من ذهب، وغيره، وإليك قول الشاعر: [البسيط]

وَاسْتَخْدَمُوا الْعَيْنَ مِنِّي وَهْيَ جَارِيَةٌ ... وَقَدْ سَمَحْتُ بِهَا أَيَّامَ وَصْلِهِمُو

فالمراد بـ «العين» نفسه، وذاته، والمراد بـ «جارية» عينُه الباصرة، الَّتي تجري بالدَّمع. والمراد بقوله: (بها): نقد الذهب، وهذا يسمَّى في فن البديع استخداماً. وتطلق العين على أشياء كثيرة أيضاً، وعلى المطر الهاطل من السَّحاب، قال عنترة في معلقته رقم [٢٩] وهو الشاهد رقم [٣٥٩] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الكامل]

جَادَتْ عَلَيْهِ كُلُّ عَيْنٍ ثَرَّةٍ ... فَتَرَكْنَ كُلَّ حَدِيقَةٍ كَالدِّرْهَمِ

هذا؛ وأعيان القوم: أشرافهم، وبنو الأعيان: الأخوة من الأبوين.

الإعراب: ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿كَانَ﴾ أو هما متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ تقدَّم على

اسمها. أو هما متعلقان بمحذوف حال من ﴿ءَايَةٌ﴾ كان نعتاً له، فلمَّا قدم عليه صار حالاً على القاعدة التي ذكرتها مراراً. ﴿ءَايَةٌ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾. ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿كَانَ﴾ على الاعتبار الأول، والثالث في: ﴿لَكُمْ﴾. أو هما متعلقان بمحذوف صفة: ﴿ءَايَةٌ﴾ على الاعتبار الثاني، وجملة: ﴿قَدْ كَانَ﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وقال الجمل: جواب قسم مقدَّر، ، ولا أرى له وجهاً إلا على تقدير اللام: لقد كان... إلخ. ﴿الْتَقَتَا﴾: فعل ماض مبني على الفتح، المقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث السَّاكنة، والتي حُرِّكت بالفتحة أيضاً لالتقائها ساكنة مع الألف التي هي في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية في محل جر صفة: ﴿فِئَتَيْنِ﴾.

﴿فِئَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: إحداهما فئة. هذا؛ وقرئ بالجر على أنَّه بدل بعض من: ﴿فِئَتَيْنِ﴾ كما قرئ بالنصب على أنه مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أعني فئة. وقيل: على الحال. ﴿تُقَاتِلُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى فئة، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية في محل صفة: ﴿فِئَةٌ﴾. ﴿فِي سَبِيلِ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿اللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَأُخْرَى﴾ معطوف على: ﴿فِئَةٌ﴾ على جميع حركاتها، وهو أقوى من اعتبارها خبراً لمبتدأ محذوف. ﴿كَافِرَةٌ﴾: صفة (أخرى) على جميع حركاتها أيضاً. ﴿يَرَوْنَهُم﴾: مضارع مرفوع، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من (أخرى) بعد وصفها بـ﴿كَافِرَةٌ﴾ أو هي صفة ثانية لها. ﴿مِّثْلَيْهِمْ﴾: حال من الضمير المنصوب، فهي حال متداخلة من وجه، فهو منصوب وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه مثنى، وحذفت النون للإضافة. والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿رَأْيَ﴾: مفعول مطلق، وهو مضاف، و﴿الْعَيْنِ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله. (الله) مبتدأ. ﴿يُؤَيِّدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿بِنَصْرِهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يَشَاءُ﴾: فعل مضارع والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو: شيئاً يشاؤه.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿فِي ذَلِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿لَعِبْرَةً﴾: اللام: لام الابتداء، (عبرة): اسم ﴿إِنَّ﴾ مؤخر، ﴿لِأُولِي﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة(عبرة)، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة لأنه ملحق بجمع المذكر، وحذفت النون للإضافة، و(أولي) مضاف و﴿الْأَبْصَارِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها.

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)﴾

الشرح: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ...﴾ إلخ: حُسِّنت في أعينهم، وأُشربت محبتُها في قلوبهم، حتى تهالكوا عليها، وأعرضوا عن غيرها. والمزين في الحقيقة هو الله تعالى؛ إذ ما من شيء إلا هو فاعله، وكلٌّ من الشيطان، والقوة الحيوانية، وما خلقه الله فيها من الأمور البهيمية، والأشياء الشهية مزيِّن بالعرض. انتهى بيضاوي.

هذا؛ وفي كثير من الآيات: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾. وفي كثير منها إسناد الفاعل إلى الله، مثل قوله تعالى: ﴿زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾. وفي كثير ﴿زُيِّنَ﴾ بالبناء للمجهول، والمزيِّن في الحقيقة هو الله تعالى عند أهل السنة، وإنما جعل الشيطان آلةً بإلقاء الوسوسة في قلوب العباد، وليس له قدرة أن يضل، أو يهدي أحداً، وإنما له الوسوسة فقط ممَّن أراد الله، وقدر شقاوته سلطه عليه؛ حتى يقبل وسوسته. وهذا مبني على أنَّ العبد لا يخلق أفعال نفسه، وإنما يخلقها الله تعالى، كما قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾.

وأما المعتزلة؛ فيسندون الوسوسة، والتزيين إلى الشيطان حقيقةً، وهذا مبنيٌّ على اعتقادهم: أنَّ العبد يخلق أفعال نفسه، وهو مبني على القاعدة الفاسدة في إيجاب رعاية الصلاح، والأصلح للعبد، وامتناع أن يخلق الله تعالى للعبد إلا ما هو مصلحة له، فمن ثم اعتبروا التزيين من الله تعالى مجازاً، ومن الشيطان حقيقةً، ولو عكسوا الجواب؛ لفازوا بالصواب، وإلى الله المرجع والمآب. وتزيين الله للابتلاء، وليتبيَّن عبد الشهوة من عبد المولى، وهو ظاهر قول عمر ـ رضي الله عنه ـ: (اللَّهُمَّ لَا صَبْرَ لَنا عَلَى ما زَيَّنْتَ لَنا، إلَّا بِكَ).

وقوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ دليلٌ واضح، وصريحٌ: أنَّ الله هو الفاعل المختار، فالمعتزلة تقول: العبد يخلق أفعال نفسه، والجبرية تقول: ليس للعبد كسب، بل هو مجبورٌ كالريشة المعلَّقة في الهواء، تقلبها الرياح كيف شاءت، فالمعتزلة فرَّطوا، والجبرية أفرطوا، وتوسط أهلُ السُّنَّة، وخير الأمور أواسطها؛ حيث قالوا: ليس للعبد في أفعاله الاختيارية إلا الكسب، فليس مجبوراً كما تقول الجبرية، وليس خالقاً لها كما تقول المعتزلة، فخرج مذهبهم من بين فرث، ودم خالصاً سائغاً للشاربين. قال أحد الجبريَّة مورداً على أهل السنة: [البسيط]

مـا حـيـلـةُ الـعَـبْـدِ وَالأَقْـدَارُ جَـارِيَـةٌ ... عَـلَـيْـهِ فِـي كُـلِّ حَـالٍ أَيُّـهَـا الـرَّائِـي؟

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مكتوفاً، وَقَالَ لَهُ: إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تَبْتَلَّ فِي الْمَاءِ

فأجابه بعض أهل السنة بقوله: [البسيط]

إِنْ حَفَّهُ اللُّطفُ لَمْ يَمْسَسْهُ مِنْ بَلَلٍ وَلَمْ يُبَالِ بِتَكْتِيفٍ وَإِلْقَاءِ

وَإِنْ يَكُنْ قَدَّرَ الْمَوْلَى بِغَرْقَتِهِ فَهُوَ الْغَرِيقُ وَلَوْ أُلْقِي بِصَحْرَاءِ

﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: المشتهيات، سماها الله شهوات مبالغةً، وإيماءً إلى أنهم انهمكوا في محبتها، حتَّى أحبوا شهوتها. وحركت الهاء بالفتح فرقاً بين الاسم، والنعت، ومفردها: شهوة، واتباع الشهوات مُرْدٍ، وطاعتها مُهلكةٌ. وأخرج مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**حَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ**» والمعنى: أنَّ الجنة لا تنال إلا بطاعة الله؛ وإن كان ثقيلةً على النفس، وأنَّ النار لا يُنْجَى منها إلا بترك المحرَّمات؛ التي تشتهيها النفس وعبَّر الله عن المشتهيات بالشَّهوات مبالغةً، كأنَّها نفس الشهوات، وتنبيهاً على خسَّتها؛ لأنَّ الشهوات مسترذلةٌ عند العقلاء.

﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: بدأ الله بذكر النساء من المشتهيات؛ لأنَّ الالتذاذ بهن أكثر، والاستئناس بهن أتمُّ، ولأنهنَّ حبائل الشيطان، وأقرب إلى الافتتان بهنَّ، كما ثبت في الصحيح: أنه ﷺ قال: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**». ففتنة النساء أعظم من جميع الأشياء. ويقال: في النِّساء فتنتان، وفي الأولاد فتنةٌ واحدةٌ، فأما اللَّتان في النساء؛ فإحداهما أن تؤدي إلى قطع الأرحام؛ لأنَّ المرأة تأمر زوجها بقطعه عن الأمهات، والأخوات. والثاني بأن يُبتلى بجمع المال من الحلال، والحرام بسبب مطالب الزوجة، التي لا تنتهي، ولا سيما في هذا الزمن. وانظر إعلال ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ في الآية رقم [٦١] الآتية.

﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: مفرده: ابن. وإنَّما ثنَّى بالبنين؛ لأنهم ثمرات القلوب، وقرَّة الأعين، كما قال القائل: [السريع]

وَإِنَّمَا أَوْلَادُنَا بَيْنَنَا أَكْبَادُنَا تَمْشِي عَلَى الأَرْضِ

لَوْ هَبَّتِ الرِّيحُ عَلَى بَعْضِهِمْ لَامْتَنَعَتْ عَيْنِي مِنَ الْغَمْضِ

وحب البنين تارة يكون للتفاخر، والتباهي، والزينة، فهو مذموم، وتارةً يكون لتكثير النَّسل، وتكثير أمَّة محمد ﷺ ممَّن يعبد الله وحده لا شريك له، فهذا محمودٌ ممدوحٌ، كما ثبت في الحديث: «**تزوَّجُوا الوَدُودَ الولودَ، فإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأممَ يَومَ الْقِيَامَةِ**». رواه أبو داود، والنسائي عن معقل بن يسار، رضي الله عنه، ولهذا ثنَّى بالبنين بعد النساء، وفي حديث الرسول ﷺ: «**الولدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَحْزَنَةٌ**» ولأنهم فروع منهنَّ، وثمراتٌ نشأت عنهنَّ. وقدَّموا على الأموال لأنَّهم أحبُّ إلى المرء من ماله. وخصَّ البنون بالذكر دون البنات؛ لأن حبَّ الذكر أكثر من حبِّ

الأنثى، ولأن والده يتكثَّر به، ويعضده، ويقوم مقامه. وحب المال كذلك، تارةً يكون للفخر، والخيلاء، والتكبُّر على الضعفاء، والتجبُّر على الفقراء، فهذا مذمومٌ. وتارةً يكون للنفقة في القُرُبات، وصلةِ الأرحام، والقراباتِ، ووجوه البرِّ، والطاعات. فهذا ممدوحٌ محمودٌ شرعاً.

﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾: جمع قنطار. هذا؛ وقد اختلف المفسرون في مقدار القنطار على أقوال، وحاصلها: أنه المال الجزيل، كما قاله الضحَّاك، وغيره. و﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾: المجَّمع بعضها فوق بعض، وتقول العرب: قنطرت الشيء: إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة؛ لإحكامها، قال طرفة بن العبد في معلَّقته رقم [٢٢]: [الطويل]

كَقَنْطَرَةِ الرُّومِيِّ أقسم رَبُّهَا ... لَتُكْتَنَفَنْ حَتَّى تُشَادَ بِقَرْمَدِ

﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ﴾: هذان أصل التعامل مع الناس، فلذا خُصَّا بالذِّكر، فالذهب يذكَّر، ويؤنث، وهو مأخوذ من الذَّهاب. والفضَّة مأخوذة من انفضَّ الشيء: تفرق، ومنه فضضت القوم، فانفضوا؛ أي: فرقتهم، فتفرقوا. وهذا الاشتقاق يشعر بزوالها، وعدم ثبوتها كما هو مشاهد في الوجود. ومن أحسن ما قيل في هذا المعنى قول بعضهم: [البسيط]

النَّارُ آخِرُ دِينَارٍ نَطَقْتَ بِهِ ... وَالْهَمُّ آخِرُ هَذَا الدِّرْهَمِ الْجَارِي

وَالْمَرْءُ بَيْنَهُمَا إِنْ كَانَ ذَا وَرَعٍ ... مُعَذَّبُ الْقَلْبِ بَيْنَ الْهَمِّ وَالنَّارِ

﴿وَٱلْخَيْلِ﴾: (الخيل): اسم جمع لا واحد لها من لفظها، وتجمع على: خيول. والخيل مؤنثة؛ لأنَّ أسماء الجموع التي لا واحد لها من لفظها؛ إذا كانت لغير الآدميين مثل: خيل، وغنم، وإبل، فالتأنيث لها لازم. وإذا قالوا: خيلان، وغنمان، وإبلان؛ فإنَّما يريدون قطيعين من الخيل، والغنم، والإبل. وقال ابن كيسان: حُدِّثت عن أبي عبيدة: أنه قال: واحد الخيل: خائل، مثل: طاير، وطير، وسمِّي الفرس بذلك لأنه يختال في مشيه. وفي الخبر من حديث عليٍّ رضي الله عنه؛ قال: «**إن اللهَ خلقَ الفَرَسَ من الرِّيحِ، ولذَلِكَ جَعَلَها تطِيرُ بِلا جناحٍ**». وسمِّيت خيلاً؛ لأنَّها موسومةٌ بالعز، فمن ركبها اعتز بنحلة الله له، ويختال بها على أعداء الله تعالى. وسمي الواحد فرساً؛ لأنه يفترس مسافات الأرض افتراس الأسد وَثَباناً، وسمي عربيّاً؛ لأنه جيء به من بعد آدم لإسماعيل جزاءً عن رفع قواعد البيت، وإسماعيل عربيٌّ فصارت نحلة من الله، فسمي عربيّاً. والأحاديث في مدح الخيل، ومدح من يقتنيها، وينفق عليها كثيرة.

﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ يعني: الراعية في المروج، والمسارح. قال سعيد بن جبير ـ رضي الله عنه ـ يقال: سامت الدَّابة، والشاة: إذا سرحت، تسوم سوماً، فهي سائمة. وقيل: (المسوَّمة) من السِّمة، وهي العلامة. واختلفوا في تلك العلامة. فقيل الغُرَّة، والتحجيل. وقيل: هي الخيل البلق. وقيل: هي المعلمة بالكيِّ. وقيل: ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: المضمَّرة الحسان. قال النابغة: [الوافر]

بِضُمْرٍ كَالْقِدَاحِ مُسَوَّمَاتٍ عَلَيْهَا مَعْشَرٌ أَشْبَاهُ جِنِّ

(والأنعام): جمع: نَعَم، وهي الإبل، والبقر، والغنم، والماعز، وهي الأزواج الثمانية المذكورة في سورة (الأنعام) ولا يقال للجنس الواحد منها: نَعَم؛ إلا للإبل خاصَّةً، فإنه غلب عليها. قال حسَّان ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنِيسٌ خِلَالَ مُرُوجِهَا نَعَمٌ وَشَاءُ

هذا؛ وفي سنن ابن ماجه عن عروة البارقي ـ رضي الله عنه ـ يرفعه؛ قال: «**الإبلُ عِزٌّ لأَهْلِهَا، والغَنَمُ بَرَكَةٌ، وَالخيْرُ مَعْقُودٌ بنواصي الخيْلِ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ**».

﴿وَٱلْحَرْثِ﴾: الأرض المعدَّة للزراعة، والغراس. وفي صحيح البخاريِّ عن أبي أمامة الباهليِّ ـ رضي الله عنه ـ وقد رأى سكةً، وشيئاً من آلة الحرث، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل هذا بيتَ قومٍ إلا دخله الذُّلُّ**». قال المهلَّب: المعنى ـ والله أعلم ـ: الحضُّ في هذا الحديث على معالي الأمور، وطلب الرِّزق من أشرف الصناعات، وذلك لِمَا خشي النبي ﷺ على أمته من الاشتغال بالحرث، وتضييع ركوب الخيل في سبيل الله؛ لأنهم إن اشتغلوا بالحرث؛ غلبتهم الأمم الراكبة للخيل المتعيشة من مكاسبها، فحضَّهم على التعيش من الجهاد، لا من الإخلاد إلى عمارة الأرض، ولزوم المِهْنَة. وفي الوقت نفسه رغَّب الرسول ﷺ في الزِّراعة، فقال: «**ما مِنْ مُسْلِمٍ غرسَ غرساً، أَوْ زَرَعَ زَرْعاً، فيأكُلُ منهُ طَيرٌ، أَوْ إِنسانٌ، أَوْ بَهِيمةٌ؛ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**». أخرجاه في الصَّحيحين عن أنسٍ، رضي الله عنه. وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ عن سويد بن هبيرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُ مَالِ امْرِئٍ، لَهُ مُهْرَةٌ مَأْمُورَةٌ، أَوْ سِكَّةٌ مَأْبُورَةٌ**». المأمورة: الكثيرة النَّسل، والسِّكة: النخل المصطف، والمأبورة: الملقَّحة.

قال العلماء: ذكر الله تعالى أربعة أصناف من المال، كلُّ نوعٍ من المال يتموَّل به صنفٌ من الناس، أمَّا الذهب، والفضة؛ فيتمول بها التُّجار، وأمَّا الخيل المسوَّمة، فيتموَّل بها الملوك، وأمَّا الأنعام؛ فيتموَّل بها أهل البوادي. وأمَّا الحرث؛ فيتمول به أهل الرساتيق (القرى) فتكون فتنة كلِّ صنف من النَّوع الذي يتموَّل به. وأما النِّساء، والبنون؛ فهي فتنةٌ للجميع.

﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى جميع ما ذكر. ﴿مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: يتمتع به فيها، ثم يفنى، كما تفنى. وهذا منه تعالى تزهيد في الدنيا، وانظر الترغيب في الآخرة في الآية التالية، وقد قال الرسول ﷺ: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وخير مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**». أخرجه مسلمٌ، والنَّسائي عن عبد الله بن عمرو، رضي الله عنهما.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ﴾: عندية تشريف، وتكريم، لا عندية مكان. ﴿حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾: حسن المرجع والثَّواب، مِنْ: آب، يؤوب إياباً: إذا رجع، قال امرؤ القيس: [الوافر]

وَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ مِنَ الْغَنِيمَةِ بِالإِيَابِ

وقال عَبيد بن الأبرص في معلَّقته: [مُخلّع البسيط]

وَكُـــلُّ ذِي غَـــيْـــبَـــةٍ يَـــؤُوبُ وَغَـــائِـــبُ الـــمَـــوْتِ لَا يَـــؤُوبُ

وأصل مآب: مَأْوَب، مثل: مَقْوَل، فقل في إعلالهما: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علَّة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلَّة، فنقلت حركة الواو إلى الهمزة، والميم قبلها، ثمَّ يقال: تحركت الواو بحسب الأصل، وانفتح ما قبلها الآن، فقلبت ألفاً.

الإعراب: ﴿زُيِّنَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان به. ﴿حُبُّ﴾: نائب فاعله، وهو مضاف، و﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾ مضاف إليه. من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. التقدير: حبُّهم الشهوات. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾. ﴿وَٱلْبَنِينَ﴾: معطوف على ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ﴾: معطوف على ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾. ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ صفة له. ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ﴾: متعلقان بـ ﴿ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾، وقيل: متعلقان بمحذوف حال من (القناطير). ﴿وَٱلْخَيْلِ﴾: معطوف على النِّساء. ﴿ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾: صفة (الخيل). ﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ﴾: معطوفان أيضاً على ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾. والجملة الفعلية: ﴿زُيِّنَ﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿مَتَٰعُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. (الله): مبتدأ. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم، ﴿حُسْنُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ، وهذا وإن اعتبرت الظرف متعلقاً بمحذوف خبر المبتدأ فـ ﴿حُسْنُ﴾ يكون فاعلاً به؛ أي: بمتعلقه، وهو وجهٌ صحيح لا غبار عليه، التقدير: والله يوجد عنده حسن. و﴿حُسْنُ﴾ مضاف، و﴿ٱلْمَـَٔابِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ﴾ إلخ في محل نصب حال من متاع الحياة، والرابط الواو فقط، والعامل في الحال اسم الإشارة، وهو أولى من العطف على ما قبلها.

﴿۞ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ﴾: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحقِّ ﷺ، والمعنى: هل تريدون أن أخبركم بما هو أفضل، وأعظم ممَّا ذُكر في الآية السَّابقة من المشتهيات؟ هذا؛

و(أنبئكم) مضارع ماضيه «نبّأ». هذا؛ والأفعال: نبَّأ، وأنبا، وخبَّر، وأخبر، وحدَّث تتعدى لاثنين: إلى الأول بنفسها، وإلى الثاني بحرف الجر، وقد يحذف الجار تخفيفاً، وقد يحذف الأول للدلالة عليه. وقد جاءت الاستعمالات الثلاث في قوله تعالى من سورة (التَّحريم): ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ تعدى لاثنين، حذف أولهما، والثاني مجرور بالياء، أي: نبأت به غيرها، وقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ﴾ ذكرهما، وقوله: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ ذكرهما، وحذف الجار، فالأول تعدى إلى مفعولٍ صريح، وإلى الثاني بحرف الجر، والفعل الثاني مثله، والثالث تعدَّى إلى مفعولين صريحين. وهذا إذا لم يدخل: (نبَّأَ، وَأَنْبأَ) على المبتدأ، والخبر؛ جاز أن يكتفى فيها بمفعول واحد، وبمفعولين، فإذا أدخلا على المبتدأ، والخبر؛ تعدَّى كلٌّ واحد إلى ثلاثة مفاعيل، ولم يجز الاقتصار على الاثنين دون الثالث؛ لأن الثالث هو خبر المبتدأ في الأصل، فلا يقتصر دونه، كما لا يقتصر على المبتدأ دون الخبر. ومثال دخول أحدهما على المبتدأ، أو الخبر قولك: نبأت زيداً عمراً منطلقاً، أو: أنبأت زيداً عمراً مجتهداً، ففي المثالين يجب نصب ثلاثة مفاعيل. والله وليُّ التوفيق. ومن ذلك قول النابغة الذبياني ـ وهو الشاهد رقم [٢٠] من كتابنا: فتح رب البريَّة إعراب شواهد جمع الدروس العربية ـ: [الكامل]

نُبِّئْتُ زُرْعَةَ وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا ... يُهْدِي إِلَيَّ غَرَائِبَ الأَشْعَارِ

وأيضاً قوله ـ وهو الشاهد رقم [٢١] من الكتاب المذكور ـ: [البسيط]

نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي ... وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الأَسَدِ

وأيضاً قول قيس بن الملوِّح ـ وهو الشاهد رقم [١١٨] من كتابنا فتح القريب المجيب إعراب شواهد مغني اللبيب ـ: [الطويل]

ونُبِّئْتُ لَيْلَى أَرْسَلَتْ بِشَفَاعَةٍ ... إِلَيَّ فَهَلَّا نَفْسُ لَيْلَى شَفِيعُهَا

هذا؛ والنبأ: الخبر وزناً ومعنىً، ويقال: النبأ أخصُّ من الخبر؛ لأنَّ النبأ لا يطلق إلا على كل ما له شأن، وخطر من الأخبار. وقال الراغب: النبأ: خبر ذو فائدة، يحصل به علم، أو غلبة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل نبأ؛ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثلاثة، وحقُّه أن يتعرَّى عن الكذب، كالمتواتر، وخبر الله تعالى، وخبر الرَّسول ﷺ. هذا؛ وقد يجيء الفعل من نبَّأ غير مضمن معنى: أعلم، فلذلك يعدى بواحد بنفسه، وللآخر بحرف الجر، كما في الآية المذكورة.

﴿لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المراد: المهاجرون، والأنصار، يعرفهم، ويشوقهم الله إلى الآخرة، قال العلماء: ويدخل في هذا الخطاب كُلُّ مَنِ اتَّقى الشرك، فأخبرهم الله: أن ما عنده، أي: الذي ادَّخره لهم خيرٌ ممَّا كان في الدنيا؛ وإن كان محبوباً عندهم، فرغَّبهم الله على ترك ما يحبُّون لما يرجون.

﴿جَنَّٰتٌ﴾: جمع: جنة، وهي البستان من النخل، والشَّجر الكثير المتكاثف؛ الَّذي يجنُّ؛ أي: يستر ما يكون متداخلاً فيه. وسمِّيت دار الثواب: جنَّة؛ لما فيها من النَّعيم؛ الذي لا يَنْفَدُ.

وجمع الجنَّة على جنَّات يَدُلُّ على جنات كثيرةٍ مرتَّبةٍ مراتب بحسب أعمال العاملين، لكلِّ طبقةٍ منهم جنَّة من تلك الجنان، وهي سبع، بل ثمان: جنة الفردوس، وجنة عدن، وجنة النعيم، ودار الخلد، ودار المقامة، ودار السلام، وجنة المأوى، وعليُّون، وفي كل منها مراتب ودرجات متفاوتة على حسب درجات الأعمال، والعمال. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي: من تحت قصورها، وأشجارها، ولم يجر لها ذكر؛ لأن الجنَّات تدلُّ عليها، والأنهار لا تجري، وإنما يجري الماء فيها، فهو من تسمية الشيء باسم محله، ويسمى مجازاً مرسلاً، وهو كثير في كتاب الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي أهلها، وقال الشاعر: [الكامل]

نُـبِّـئْـتُ أَنَّ الـنَّـارَ بَـعْـدَكَ أُوْقِـدَتْ ... واسْـتَـبَّ بَـعْـدَكَ يَـا كُـلَـيْـبُ الْـمَـجْـلِـسُ

أي: أهل المجلس. هذا؛ و﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ جمع: نهر، وهو معروف في الدُّنيا، ولكن شتان ما بين أنهار الجنَّة، وأنهار الدُّنيا، فأنهار الجنة من أنواع الأشربة من العسل، واللبن، والخمر، والماء وغير ذلك. هذا؛ ويجمع النَّهر على أنهرُ، ونهرُ، ونهور، وأنهار. وهاء النَّهر تسكَّن، وتفتح؛ هذا وروي: أنَّ أنهار الجنَّة ليست في أخاديد، إنَّما تجري على سطح الجنة منضبطة بالقدرة حيث شاء أهلها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: ماكثين مقيمين فيها أبداً. وهذا من تمام السَّعادة، فإنَّهم مع هذا النعيم في مقامٍ أمين، يعيشون مع زوجاتهم في هناءٍ خالدٍ، لا يعتريه انقطاع، ولا يصيبهم مرض، ولا همٌّ، ولا غمٌّ، ولا يطرأ عليهم عجزٌ، وشيخوخةٌ، فقد روى مسلمٌ عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهم - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَهْلَ الجنة يَأكلون فِيْها، وَيَشْرَبونَ، وَلا يَتْفِلون، وَلا يَبُولُون، وَلا يتغوَّطون، وَلا يَمْتَخِطُون**». قالوا: فما بال الطعام؟! قال: «**جشاءٌ، وَرَشْحٌ كَرَشْحِ المِسْكِ. يُلْهَمُون التَّسبيح، والتَّحْمِيد، كما تُلْهَمُون النَّفَس**».

﴿وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ أي: ولهم في الجنَّة زوجات مطهَّرات من الأقذار، والأدناس الحِسِّيَّة، والمعنويَّة. فالحسِّيَّة: مثل الحيض، والنفاس، والبول، والغائط، والنُّخام. والمعنوية: مثل سوء الخلُق، وإيذاء الأزواج، وعدم طاعتهم، والانصياع لأوامرهم. وكذلك نساء الدُّنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين، كما قال تعالى في سورة (الواقعة): ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ۝٣٥ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ ولكل مؤمن في الجنة زوجتان من نساء الدنيا، وعدد من الحور العين على حسب درجته، ومكانته عند الله تعالى. ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾: أي يحل عليهم رضوانه، فلا يسخط عليهم بعده أبداً، ولهذا قال تعالى في سورة (براءة): ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي: إنَّ رضوان الله الذي ينزله عليهم أكبر من كلِّ ما سلف ذكره من نعيم الجنَّة. وخذ ما يلي:

فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله تَبارك وَتَعالَى يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا، وَسَعْدَيْكَ، وَالخيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ! فَيَقُولُ: هَلْ رَضَيْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَالَنَا لا نَرْضَى يَا رَبَّنَا؛ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ؟! فَيَقُولُ: أَلَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: وَأَيُّ شيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُم بَعْدَهُ أَبَدَاً!**». متفق عليه.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ يعني: إن الله عالمٌ بمن يؤثر ما عنده من النَّعيم المقيم مِمَّن يؤثر شهوات الدنيا، فيجازي كلّاً على عمله، فيثيب، ويعاقب على قدر الأعمال.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾: الهمزة: حرف استفهام، واستخبار، (أنبئكم): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: أنا، والكاف مفعول به. ﴿بِخَيْرٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ: مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿مِّن ذَٰلِكُمْ﴾: متعلقان بـ (خيرٍ) واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم. ﴿ٱتَّقَوْا﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بالخبر المحذوف، أو هو متعلق بمحذوف حال من الضمير المستتر في متعلق الجار والمجرور، وهو بدوره عائد على: ﴿جَنَّٰتٌ﴾ و(عند) مضاف، و﴿رَبِّهِمْ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿جَنَّٰتٌ﴾ مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها، ويكون الوقف على: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ جيداً. هذا وجه للإعراب.

وقيل: ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلقان بـ (خير) وعليه فـ ﴿جَنَّٰتٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي جنات. ولا تنس: أن ﴿جَنَّٰتٌ﴾ يقرأ بالجر، وخُرِّج على أنه بدل من: (خير). ﴿تَجْرِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الياء للثقل. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلقان بما قبلهما، وقيل: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ وهو ضعيف و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعل تجري، والجملة الفعلية صفة: ﴿جَنَّٰتٌ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من واو الجماعة منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم. والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿وَأَزْوَٰجٌ﴾: معطوف على ﴿جَنَّٰتٌ﴾. ﴿مُّطَهَّرَةٌ﴾: صفة له. ﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾: معطوف على جنات أيضاً. وهذا على رفع ﴿جَنَّٰتٌ﴾ وأما على قراءة الجر فـ (أزواج) و(رضوان): مبتدأ محذوف الخبر، التقدير: ولهم أزواجٌ ورضوانٌ. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ (رضوان) أو بمحذوف صفة له. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام، فيها وعد، ووعيد. ﴿بِٱلْعِبَادِ﴾: متعلقان بـ ﴿بَصِيرُۢ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦﴾

الشرح: هذه الآية الكريمة، والتي بعدها تصفان المتَّقين الذين أكرمهم الله بالخلود في دار النعيم. ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا﴾ أي: صدقنا بك، وبكتبك، وبرسلك، واليوم الآخر، وبملائكتك، وقضائك، وقدرك خيره، وشره. ﴿فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: سيئاتنا، ومعاصينا. والذنب يطلق على مخالفة الله فيما أمر، وفيما نهى عنه، وهو على درجات، منها: الصغائر، ومنها: الكبائر، وتفصيلها معروف في محالِّها. هذا؛ وذنوب بالمعنى المتقدِّم بضم الذال، وهو بفتحها بمعنى النصيب، قال تعالى في سورة (الذَّاريات) رقم [٥٩]: ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾. وهو أيضاً الدَّلو العظيمة في الأصل، قال الراجز: [الرجز]

إِنَّــا إِذَا شَــارَبَــنَــا شَــرِيــبٌ لَــهُ ذَنُــوبٌ وَلَــنَــا ذَنُــوبُ
فَــإِنْ أَبَــى كَــانَ لَــهُ الْــقَــلِــيْــبُ

﴿وَقِنَا﴾: فعل دعاء من الوقاية، وهي التحرُّز من المهالك في الدنيا، والآخرة، وصيغته صيغة أمر، فهو من اللَّفيف المفروق: «وقى، يقي» فتحذف فاؤه من المضارع مثل كلِّ فعلٍ مثال، كوعد، يعد، ووزن، ويزن. . . إلخ، والأمر منه: اوقنا بهمزة وصل، حذفت منه الواو، كما حذفت من مضارعه، واستغني عن همزة الوصل لتحرك الحرف المبدوء به، وتحذف لامه مع فائه لبنائه على حذف حرف العلة مثل كلِّ فعلٍ ناقص معتلِّ الآخر، مثل: اسعَ، وادعُ، وارمِ. فيبقى فعل الأمر فعلاً واحداً (قِ) ومثله: وعى، يعي، عِ، ووفى، يفي، فِ، وولي، يلي، لِ، ووطى، يطي، طِ، و وأى يئي إِ. قال: «أبو يعقوب بن يوسف الدباغ الصقلي» وهو الشاهد رقم [١٣] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الخفيف]

إِنَّ هِــنْــدُ الْــمَــلِــيــحَــةُ الْــحَــسْــنَــاءَ وَأْيَ مَــنْ أَضْــمَــرَتْ لِــخِــلٍّ وَفَــاءَ

«إنَّ» أصله: «إينَّ» بمعنى: «عدي» فحذفت الياء لالتقائها ساكنةً مع النون المدغمة. «وَأْيَ»: وَعْدَ.

وإذا لم يتصل به ضمير تلحقه هاء السكت. فتقول: قِهْ، فِهْ، لِهْ، عِهْ، طِهْ، إِهْ، وبِهِ يلغز، كما في قول القائل: [الرجز]

فِــي أَيِّ لَــفْــظٍ يَــا نُــحَــاةَ الْــمِــلَّــهْ حَــرَكَــةٌ قَــامَــتْ مَــقَــامَ الْــجُــمْــلَــهْ؟

هذا؛ و﴿عَذَابَ﴾ اسم مصدر لا مصدر؛ لأن المصدر تعذيب؛ لأنه من: عذَّب، يعذِّب، بتشديد الذال فيهما، وقيل: هو مصدر على حذف الزوائد، ومثله: عطاء، وسلام، ونبات، من: أعطى، وسلَّم، وأنبت. هذا؛ والعذاب: كل ما شقَّ على الإنسان احتماله، ومنعه من مراده، وهو النَّكال: وزناً، ومعنىً.

أما ﴿ٱلنَّارِ﴾ فأصلها النَّورَ: تحركت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، وهي من المؤنث المجازي، وقد تذكَّر، وتصغيرها: نويرة، والجمع: أنورُ، ونيران، ونيرة، ويكنى بها عن جهنَّم؛ التي سيعذب الله بها الكافرين، والفاسقين، كما أنها تستعار للشدَّة، والضيق، والبلاء. قال الشاعر: [الطويل]

وَأَلْقَى عَلَى قَيْسٍ من النَّارِ جَذْوَةً شَدِيداً عَلَيْهَا حَرُّهَا والْتِهَابُهَا

والفعل: نار، ينور، يستعمل لازماً، ومتعدياً إذا بدئ بهمزة التعدية، كما في قولك: أنارت الشمس الكون.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فيه أوجه: الإتباع على البدلية من: (الذين اتقوا) فيكون مبنيّاً على الفتح في محل جر. والقطع على إضمار: أمدح، أو أعني، فيكون مبنيّاً على الفتح في محل نصب. والقطع على إضمار «هُمْ» فيكون مبنيّاً على الفتح في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف. ﴿يَقُولُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى حذف منه حرف النداء. و(نا) في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿إِنَّنَآ﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا) في محل نصب اسمها. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ) وهنا قد وقعت (نا) ضميراً مشتركاً بين الرفع، والنصب، والجر. ﴿فَٱغْفِرْ﴾: الفاء: حرف عطف على رأي مَنْ يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، وأراها في مثل ذلك الفاء الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدَّر. (اغفر): فعل دعاء، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ذُنُوبَنَا﴾: مفعول به. و(نا): في محل جرٍّ بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر، التقدير: وإذا كان الإيمان حاصلاً منا؛ فاغفر لنا ذنوبنا. والكلام كلُّه في محل نصب مقول القول. (قنا): فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: «أنت» ونا مفعول به أول. ﴿عَذَابَ﴾: مفعول به ثان، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّارِ﴾ مضاف إليه من إضافة اسم المصدر لظرفه، وفاعله محذوف. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: يعني: على أداء الواجبات، وعن المحرَّمات، والمنهيَّات، وفي البأساء والضراء، وحين البأس، والصَّابرين على أنواع البلاء. (الصادقين) يعني: في إيمانهم، قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: هم قوم صدقت نيَّاتهم، واستقامت ألسنتُهم، وقلوبهم في السرِّ، والعلانية، والصِّدق يكون في القول، والفعل، والنِّيَّة، فأمَّا صدق القول؛ فهو مجانبة الكذب

فيه. وأما الصّدق في الفعل هو عدم الانصراف عنه قبل تمامه. والصِّدق في النيَّة: العزم على الفعل؛ حتى يبلغه. ﴿وَٱلْمُنفِقِينَ﴾: يعني أموالهم في طاعة الله تعالى. ويدخل فيه: نفقة الرجل على نفسه، وعلى أهله، وأقاربه، وصلة رحمه، والزّكاة، والنفقة في القُربات. وانظر ما ذكرته في سورة البقرة؛ تجد ما يسرُّك.

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾: ومثله قوله تعالى في سورة (الذاريات): ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾. هذا؛ والأسحار جمع: سحر: آخر الليل، وهو بفتحتين، وهو بكسر السين، وسكون الحاء: خزعبلاتٌ، وضلالات يقوم بها أفَّاكون، ودجَّالون. وهو بفتح السين، وسكون الحاء: منتهى قصبة الحلقوم، ومنه قول أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ: قبض رسول الله ﷺ، ورأسهُ بَيْنَ سَحْرِي، وَنَحْرِي. انتهى جمل نقلاً من السَّمين.

وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: في هذه الآية الكريمة حصرٌ لمقامات السَّالك على أحسن ترتيب، فإنَّ معاملته مع الله تعالى: إمَّا توسل، وإمَّا طلبٌ، والتوسُّل إمَّا بالنفس، وهو منعها من الرَّذائل، وحبسها على الفضائل، والصبر يشملُها. وإمَّا بالبدن، وهو إما قولي، وهو الصِّدق، وإما فعلي، وهو القنوت؛ الذي هو ملازمة الطَّاعة. وإمَّا بالمال، وهو الإنفاق في سبيل الخير، وأمَّا الطلب؛ فبالاستغفار؛ لأنَّ المغفرة أعظم المطالب، بل الجامع لها. وتوسيط الواو بينها للدلالة على استقلال كلِّ واحدةٍ منها، وكمالِهم فيها، أو لتغاير الموصوفين بها. وتخصيص الأسحار بالذِّكر؛ لأنَّ الدُّعاء فيها أقرب إلى الإجابة؛ لأنَّ العبادة حينئذٍ أشقُّ، والنَّفس أصفى، والرُّوع أجمع للمجتهدين. قيل: إنَّهم كانوا يصلُّون إلى السَّحر، ثم يستغفرون بالأسحار، ويدعون انتهى بحروفه.

نعم؛ قال نافع مولى ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: كان ابن عمر يُحيي اللَّيل، ثمَّ يقول: يا نافع! أسْحَرْنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصَّلاة، فإذا قلت: نعم؛ قد يستغفر، ويدعو حتَّى يصلِّي الصُّبح. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**ينزلُ ربُّنَا تَبارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى الثُّلُثُ الأَخِيرُ، فيقُولُ: مَنْ يَدعُونِي، فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟! مَنْ يَسْأَلَنِي فَأُعْطِيَهُ؟! مَنْ يسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ؟! حتى يَطْلُعَ الفَجْرُ**» متَّفق عليه. فهذا الحديث من أحاديث الصِّفات، وللعلماء فيه، وفي أمثاله مذهبان معروفان: مذهب السَّلف: الإيمان به، وإجراؤه على ظاهره، ونفي الكيفية عنه. والمذهب الثاني هو مذهب مَنْ يتأوَّلُ أحاديث الصِّفات، انظر الآية رقم [٧]. وبالجملة فقد وصف الله تعالى هؤلاء بما وصف، ثمَّ بيَّن: أنَّهم مع ذلك لشدَّة خوفهم، ووجلهم: أنهم يستغفرون بالأسحار، وروي: أنَّ لقمان ـ عليه السلام ـ قال لابنه: يا بني! لا تكن أعجز من الدِّيك، فإنه يصوِّت بالأسحار؛ وأنت نائم على فراشك. وقد قال الزمخشري: وخصَّ الأسحار؛ لأنَّهم كانوا يقدِّمون قيام الليل، فيحسن طلب الحاجة بعده، كما قال تعالى في سورة (فاطر): ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾.

هذا؛ وإنَّ الله جلَّت قدرته حثَّنا على الاستغفار في جميع الأوقات، ورغَّبنا فيها الرَّسول ﷺ في جميع الحالات، فعن عبد الله بن بُسْر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**طُوبَى لِمَنْ وُجِدَ فِي صَحِيفَتِهِ اسْتِغْفَارٌ كَثِيرٌ!**» رواه ابن ماجه، والبيهقيُّ. وعن محمَّد بن عبد الله ابن محمد بن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ عن أبيه عن جدِّه، قال: أتى رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: واذنوباه! واذنوباه! فقال هذا القول مرَّتين، أو ثلاثاً، فقال رسول الله ﷺ: «**قُلِ: اللهمَّ مَغْفِرَتُكَ أَوْسَعُ مِنْ ذُنُوبِي! ورَحْمَتُكَ أَرْجَى عِنْدِي مِنْ عَمَلِي!**». فقالها، ثم قال: «**عُدْ**»، فعاد، ثم قال: «**عُدْ**» فعاد، ثم قال: «**قُمْ فَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَكَ**».

وعن بلال بن يسار بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: حدثني أبي عن جدِّي: أنه سمع النبيَّ ﷺ يقول: «**مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ القَيُّومُ، وَأَتوبُ إِلَيْهِ؛ غُفِرَ لَهُ؛ وإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ**». رواه أبو داود، والترمذيُّ. وانظر الآية رقم [١٣٥] الآتية.

الإعراب: ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: صفة: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أو بدل منه، وذلك على اعتباره في محل نصب، أو في محل جر، وأما على اعتباره في محل رفع؛ ف ﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ يكون منصوباً بفعل محذوف، تقديره: أمدح، أو أعني، ونحو ذلك، وعلامة النصب، أو الجر فيه، وفيما بعده الياء نيابةً عن الفتحة، أو الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد، وفي كلِّ واحدٍ منها ضمير مستتر، هو فاعله؛ لأنها كلَّها أسماء الفاعلين.

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ...﴾ إلخ: بيَّن الله، وأعلم عباده بانفراده بالوحدانية. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: خلق الله تعالى الأرواح قبل الأجساد بأربعة آلاف سنة، وخلق الأرزاق قبل الأرواح بأربعة آلاف سنة، فشهد لنفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق حين كان، ولم تكن سماء، ولا أرض، ولا بر، ولا بحر، فقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

﴿وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ أي: وشهد الملائكة. فمعنى شهادة الله تعالى: الإعلام، والإخبار. ومعنى شهادة الملائكة، والمؤمنين: الإقرار، والاعتراف بأنَّه لا إله إلا هو. ولمَّا كان كل واحدٍ من هذين الأمرين يسمَّى شهادة؛ حسن إطلاق الشهادة عليها. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: وشهد أولو العلم بأنَّه لا إله إلا هو. وفيه دليلٌ على فضل العلم، وشرف العلماء، فإنَّه لو كان أحد أشرف من العلماء؛ لقرنهم الله باسمه، واسم ملائكته، كما قرن اسم العلماء؛ لذا قال في شرف العلم لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ فلو كان شيءٌ أشرف من العلم؛ لأمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يسأله المزيد منه، كما أمره أن يستزيده من العلم. وخذ ما يلي:

فعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ غَدَا يُرِيدُ العِلْمَ يَتَعَلَّمُهُ للهِ؛ فَتَحَ اللهُ لَهُ باباً إلى الجنةِ، وَفَرَشَتْ لَهُ الملائكةُ أَكْنَافَهَا، وَصَلَّتْ عليْهِ ملائكةُ السَّمَواتِ، وَحِيتانُ الْبَحْرِ، ولِلْعَالِمِ مِنَ الفضل عَلَى الْعَابِدِ كالقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ على أصْغَرِ كوكبٍ في السَّماء، والعُلَماءُ ورثةُ الأنبياء، وإنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَاراً، وَلَا دِرْهَماً، ولكنَّهُمْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فمن أخذَهُ أَخَذَ بحظٍّ وافرٍ، وَمَوْتُ العالِم مُصيبةٌ لَا تُجْبَرُ، وَثُلمَةٌ لَا تُسَدُّ، وَهُوَ نَجْمٌ طُمِسَ، ومَوْتُ قَبيلةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالِمٍ**» رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه.

﴿قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ﴾ أي: بالعدل، ومعناه: أنه تعالى قائم بتدبير خلقه، كما يقال: فلان قائم بأمر فلان، يعني: أنه مدبِّر له، ومتعهِّد لأسبابه. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ ذكرها للتأكيد، وفائدتها: الإعلام بأنَّ هذه الكلمة أعظم الكلام، وأشرفه. ففيه حثٌّ للعباد على تكرارها، والاشتغال بها، فإنه مَنِ اشتغل بها؛ فقد اشتغل بأفضل العبادات، وأعظم الطَّاعات. وخذ ما يلي:

فعن غالب القطَّان، عن الأعمش؛ قال: حدَّثني أبو وائل عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُجَاءُ بصاحِبِها يَومَ القِيامةِ، فيقولُ اللهُ تعالى: عبدي عَهِدَ إِلَيَّ، وَأَنَا أَحَقُّ مَنْ وَفَّى بالعهدِ، أَدْخِلُوا عبدي الجنَّةَ**». رواه الطَّبراني في الكبير. وقال الخازن: وروى البغوي بسند الثعلبي عن غالب القطَّان... إلخ، والمراد بصاحبها: الَّذي يقول الآية.

وقد ورد في فضل الآية الكريمة أيضاً: أنَّ من قرأها عند منامه، وألحق بها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ ثمَّ قال: وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عند الله وديعة، فمات من ليلته؛ مات على إيمانٍ كاملٍ، ويجزيه بها ربُّنا ما تقدَّم في الحديث الشريف. وذكر القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ حديثاً عن أنس ـ رضي الله عنه ـ بشأن قراءة الآية عند النَّوم فيه مجازفات كبيرة، وضعفه ظاهرٌ للعيان. والله أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

ذكر في سبب نزول الآية الكريمة: أنَّه لمَّا استقرَّ الرسول ﷺ بالمدينة؛ وفد عليه حَبْران من أحبار الشام، فلمَّا دخلا عليه؛ عرفاه بالصِّفة، والنَّعت، فقالا له: أنت محمد؟ قال: «**نعم**». قالا: وأنت أحمد؟ قال: «**نعم**». قالا: نسألك عن شهادة، فإن أنت أخبرتنا بها؛ آمنا بك، وصدَّقناك، فقال لهما رسول الله ﷺ: «**سلاني!**» فقالا: أخبرنا عن أعظم شهادة في كتاب الله. فنزلت: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ...﴾ إلخ الآية، فأسلم الرجلان، وصدَّقا برسول الله ﷺ.

وخذ المحاورة اللَّطيفة بين العقل، والعلم، حيث يقول القائل، وقد أحسن، وأجاد: [البسيط]

عِلْمُ الْعَلِيْمِ وَعَقْلُ الْعَاقِلِ اخْتَلَفَا ... مَنْ ذَا الَّذِي مِنْهُمَا قَدْ أَحرَزَ الشَّرَفَا

فَالْعِلْمُ قَالَ أَنَا أَحْرَزْتُ غَايَتَهُ ... والعَقْلُ قَالَ أَنَا الرَّحْمَن بِي عُرِفَا

فَأَفْصَحَ الْعِلْمُ إِفْصَاحاً وَقَالَ لَهُ ... بِأَيِّنَا اللهُ فِي فُرقانِهِ اتَّصَفَا؟

فَبَانَ لِلْعَقْلِ أَنَّ الْعِلْمَ سَيِّدُهُ ... فَقَبَّلَ العقلُ رَأسَ الْعِلْمِ وانْصَرَفَا

الإعراب: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، وقال أبو البقاء والزَّمخشري: يقرأ: (شهداء لله) بالنصب على الحال من الأسماء السابقة، وبالرَّفع على تقدير: هم شهداءُ لله، ويكون: و﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ معطوفين على الضمير المستتر بـ (شهداء). وجاز ذلك للفصل، وهذه القراءة لا تعطي المعنى الجيد كما في القراءة الأولى، وعلى كلٍّ فهي قراءة شاذَّةٌ: ﴿أَنَّهُۥ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها، والجملة الاسمية: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في محل رفع خبر: (أنَّ) و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، أو هو في محل نصب بنزع الخافض، التقدير: يكون لا إله إلا الله، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، ﴿وَأُوْلُواْ﴾: معطوف أيضاً، فهو مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و(أولو) مضاف، و﴿ٱلْعِلْمِ﴾ مضاف إليه. ﴿قَآئِمَۢا﴾: حال من لفظ الجلالة، أو من الضمير المنفصل، وهي حال لازمة على الاعتبارين، والعامل في الحال معنى الجملة، و﴿بِٱلْقِسْطِۚ﴾ متعلقان بـ ﴿قَآئِمَۢا﴾ لذا فهو يحمل ضمير مستتراً هو فاعله. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾: انظر إعراب هذه الجملة، وسابقتها في أول السُّورة.

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ١٩﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ أي: إن الدين المرضي عند الله هو الإسلام، كما قال تعالى في سورة (المائدة): ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًاۚ﴾ وقال في الآية رقم [٨٥] الآتية: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ وانظر شرح: ﴿ٱلدِّينِ﴾ في سورة (البقرة) رقم [٢٥٦] و﴿ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ هو الدخول في السِّلم، وهو الاستسلام، والانقياد، والدخول في الطاعة. و﴿ٱلْإِسْلَٰمُۗ﴾ وهو الشريعة المرضية عند الله، والمبعوث به الرسل من لدُنْ آدم إلى عهد نبينا، عليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام، وهو المبنيُّ على التوحيد، وهو المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف.

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ أي: من اليهود، والنصارى، أو من أرباب الكتب المتقدمة في دين الإسلام. فقال قوم: إنه حق، وقال قوم: إنه مخصوص بالعرب، ونفاه آخرون مطلقاً، أو اختلفوا في التوحيد، فثلثت النصارى، وقالت اليهود: عزيز ابن الله، وكان هذا منهم بعد ما علموا حقيقة الأمر، وتمكَّنوا من العلم بها، أي: بالحجج الدامغات، والآيات السَّاطعات، والمعجزات الباهرات. ﴿بَغْيَۢا بَيْنَهُمْۗ﴾: أي: بغي بعضهم على

بعضٍ، فاختلفوا في الحقِّ بسبب تحاسدهم، وتباغضهم، وتدابرهم، فحمل بعضُهم بغضَ البعض الآخر على مخالفته في جمع أقواله، وأفعاله؛ وإن كانت حقّاً.

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي: مَنْ جحد ما أنزل الله في كتابه من صفة الرسول ﷺ ﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لا يحتاج إلى عدٍّ، ولا إلى عقدٍ، ولا إلى إعمال فكرٍ، كما يفعله الحُسَّاب، ولهذا قال تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ وقال الرسول ﷺ في دعائه يوم الخندق: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ...**» إلخ. والمعنى: أن الله تعالى، لا يشغله شأن عن شأن، فكما يرزقهم في ساعةٍ واحدةٍ، يحاسبهم لذلك في ساعة واحدة. قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ رقم [٢٨] من سورة (لقمان) وقيل للإمام عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: كيف يحاسب الله العباد في يوم؟! قال: كما يرزقهم في يوم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إذا أخذ الله في حسابهم: لَمْ يَقِل أهل الجنة إلا فيها. هذا؛ ويقيل مِنْ القيلولة وهي الاستراحة وقت الظهيرة. ومعنى الحساب وفائدته تعريف الله العباد مقادير الجزاء على أعمالهم، وتذكيره إيَّاهم ما قد نسوه بدليل قوله تعالى في سورة (المجادلة): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۚ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ﴾.

هذا؛ وأما البغي، فهو الظلم، والاعتداء على حقِّ الغير، وعواقبه ذميمةٌ، ومآله وخيمٌ، وعقباه أليمة؛ ولو أنَّ له جنوداً بعدد الحصى، والرَّمل، والتُّراب. ورحم الله مَنْ يقول ـ وهو الشاهد رقم [٢٣٩] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [البسيط]

لَا يَأْمَنِ الدَّهْرَ ذُو بَغْيٍ وَلَو مَلِكاً ... جُنودُهُ ضَاقَ عَنْهَا السَّهْلُ وَالْجَبَلُ

وعن النبي ﷺ: أنَّه قال: «**لا تَمْكُرْ، وَلَا تُعِنْ مَاكِراً، وَلَا تَبْغِ، وَلَا تُعِنْ بَاغِياً، وَلَا تنْكُثْ، وَلَا تُعِنْ نَاكِثاً**». وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾. وقال جلَّ شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم﴾ وقال جلَّ ذكره: ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ وقال أبو بكر الصِّديق ـ رضي الله عنه ـ: «**ثلاثٌ من كُنَّ فِيهِ؛ كُنَّ عَلَيْهِ**» وتلا الآيات الثلاث، وعن النبي ﷺ قال: «**أَسْرَعُ الخيْرِ ثَوَاباً صِلَةُ الرَّحِمِ، وَأَعْجَلُ الشَّرِّ عِقَاباً الْبَغْيُ، وَالْيَمِينُ الْفَاجِرَةُ**». وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنه قال: «**لَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ؛ لَدُكَّ الْبَاغِي**».

فأخذه بعض الشعراء، فقال: [البسيط]

يَا صَاحِبَ الْبَغْيِ إنَّ الْبَغْيَ مَصْرَعَةٌ ... فَارْبَعْ فَخَيْرُ مَقَالِ الْمَرْءِ أَعْدَلُهُ

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْماً عَلَى جَبَلٍ ... لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

وكان المأمون يتمثَّل بهذين البيتين في أخيه الأمين حين ابتدأه بالبغي عليه. قال الشَّاعر الحكيم: [الكامل]

وَالْــبَــغْــيُ يَــصْــرَعُ أَهْــلَــهُ وَالــظُّــلْــمُ مَــرْتَــعُــهُ وَخِــيــم

«جاء» يستعمل متعدياً إن كان بمعنى: بلغ، ولازماً إن كان بمعنى: أقبل، ومثله: أَتَى. ﴿أُوتُوا﴾: أصله أُوتِيُوا فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء والواو، فحذفت الياء، فصارت (أُوتِوْا) ثم قلبت الكسرة ضمة لمناسبة الواو، فصار ﴿أُوتُوا﴾.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلدِّينَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف حال من: ﴿ٱلدِّينَ﴾ والعامل فيه: ﴿إِنَّ﴾ لما فيها من معنى الفعل، وهو: أؤكد، و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿ٱلْإِسْلَٰمُ﴾: خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها. هذا؛ ويقرأ بفتح همزة (أنَّ) فيكون المصدر المؤول منها، ومن اسمها، وخبرها بدلاً مِنْ: ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ في الآية السابقة بدل اشتمال، أو بدل كلٍّ من كلٍّ. (ما): نافية. ﴿ٱخْتَلَفَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل: ﴿ٱخْتَلَفَ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وهو أقوى من العطف على الجملة الاسمية قبلها.

﴿أُوتُوا﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿ٱخْتَلَفَ﴾. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾: فعل ماض، ومفعوله، وفاعله، و﴿مَا﴾: المصدرية، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بإضافة بعد إليه، التقدير: من بعد مجيء العلم لهم. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿مَا﴾ موصولة، أو موصوفة، فهي في محل جر بإضافة: ﴿بَعْدِ﴾ إليها، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: إلا من بعد الذي، أو: شيء جاءهم العلم به. ﴿بَغْيًۢا﴾: مفعول لأجله. وقيل: حال، وهو ضعيف، ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿بَغْيًۢا﴾ لأنه مصدر.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (من): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى: (مَنْ). ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(آيات) مضاف. ﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إن): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿سَرِيعُ﴾: خبر: (إنَّ) وهو مضاف، و﴿ٱلْحِسَابِ﴾ مضاف إليه، مِنْ إضافة الصفة المشبهة لفاعلها، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد. هذا؛ وإن اعتبرت الجواب محذوفاً، التقدير: فلا يضرك كفره، فالجملة الاسمية: (إن الله...) إلخ تكون تعليلية لا محل لها، ولكن الأول أقوى معنى. هذا؛ وقد اختلف في خبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) فابن هشام يقول: هو جملة الشرط، وقيل: هو جملة الجواب، والمرجح عند المعاصرين: أنه جملتا الشرط، والجواب، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن يَكْفُرْ﴾ إلخ مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾: الخطاب لِسيِّد الخلق، وحبيب الحقِّ محمد ﷺ. وواو الجماعة عائدة على اليهود، والنصارى. ﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ أي: انْقَدْتُ لله بقلبي، ولساني، وجميع جوارحي، وإنَّما خصَّ الوجه بالذكر؛ لأنه أشرف الجوارح الظَّاهرة، وأجمعها، فإذا خضع وجه الإنسان لشيءٍ؛ فقد خضع له سائر جوارحه، قال الشاعر: وهو زيد بن عمرو بن نفيل، وهو من المتحنفين في الجاهلية: [المتقارب]

أَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ ... لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلَالَا

هذا؛ ويعبَّر بالوجه عن الذات، ومنه قوله تعالى في سورة (الرحمن): ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وفي آخر سورة (القصص): ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ ومثله في سورة (البقرة) رقم [١١٢]، فيكون مجازاً مرسلاً من إطلاق الجزء، وإرادة الكلِّ.

وقيل: أراد بالوجه العمل، أي: أخلصت عملي لله، وقصدت بعبادتي الله. ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ أي: أسلم وجهه لله، كما أسلمت. ويجمع وجه: على وجوه، ويقال: أجوه بإبدال الواو همزة.

﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾: وهم اليهود، والنصارى، وعبَّر عنهم بـ ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ زيادة في التشنيع، والتقبيح عليهم، فإنَّ كفرهم بمحمد ﷺ، واختلافهم فيما بينهم مع علمهم بالتوراة، والإنجيل في غاية القبح، والشَّناعة، ولكنهم في هذه الأيام اتَّحدوا، واتَّفقوا على معاداة العرب والمسلمين، ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ يعني: العرب الوثنيين، ووصف العرب بالأميين للذمِّ ما عدا النبي ﷺ فإنَّه وصف في سورة (الأعراف) بالأميِّ للمدح، والتَّشريف، والتَّعظيم. وانظر الآية [٧٥] الآتية.

﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾: لفظه: استفهام، ومعناه: أمر، أي: أسلموا، ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ﴾ يعني: إلى الفوز، والفلاح، والنجاح في الدنيا، والآخرة. فلما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على اليهود الذين كانوا في المدينة، وعلى النصارى الذين جاؤوا من نجران؛ قالوا جميعاً: قد أسلمنا. فقال ﷺ لليهود: «**أتشهدون: أن موسى كليم الله، وعبده، ورسوله، وعزير نبيٌّ**». فقالوا: معاذ الله! وقال للنصارى: «**أتشهدون: أن عيسى كلمة الله، وعبده، ورسوله**». قالوا: معاذ الله أن يكون عيسى عبداً!

﴿وَّإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أعرضوا عن الإيمان بك يا محمد، وعن شريعتك، ولم يقبلوا منك ما قلت لهم. ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ يعني: عليك تبليغ الرسالة، وليس عليك هدايتهم، كما قال تعالى

في سورة (الرَّعد) له: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾. هذا؛ و﴿ٱلْبَلَٰغُۗ﴾ مصدر لـ: بَلَغ بتخفيف اللام، واسم مصدر لـ: بلَّغ بتشديد اللام، مثل: عذاب، وسلام... إلخ. هذا؛ واختلف علماء الناسخ والمنسوخ في هذه الآية، فذهبت طائفة إلى أنها محكمة، والمراد بها تسلية النبي ﷺ؛ لأنَّه كان يحرص على إيمانهم، ويتألم لتركهم الإجابة، وذهبت طائفة إلى أنَّها منسوخة بآية السيف؛ لأن المراد بها الاقتصار على التبليغ، وهذا منسوخ بآية السَّيف المذكورة في سورة الحجِّ، وهي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۚ﴾.

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ أي: عليم، وخبير بأحوال العباد، فيهدي مَنْ يستحقُّ الهداية، ويضل من يستحقُّ الإضلال، وله الحجَّة البالغة، والحكمة التامَّة، والقدر النَّافذ، والحكم الصائب. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿فَإِنْ﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿حَآجُّوكَ﴾: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَقُلْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قل): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿أَسْلَمْتُ﴾: فعل، وفاعل. ﴿وَجْهِىَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿أَسْلَمْتُ﴾ والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: (قل...) إلخ في محل جزم جواب الشرط، و(إن) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له. ﴿وَمَنِ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع معطوف على تاء الفاعل، وجاز ذلك للفصل بينها بالمفعول به، وقيل: هو في محل نصب مفعول معه. ﴿ٱتَّبَعَنِۗ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة في محل نصب مفعول به. وقد قرأ بعضهم: (اتبعني) بإثبات الياء. والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. هذا؛ وحذف ياء المتكلم من آخر الفعل كثير، ولا سيما في رؤوس الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾. هذا؛ وأجاز مكي اعتبار (مَنْ) مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره: ومن اتبعن أسلم وجهه لله، كما أجاز عطفه على: (الله).

﴿وَقُل﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿لِّلَّذِينَ﴾: متعلقان به. ﴿أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾: انظر الآية السابقة. والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ معطوف على (الذين) مجرور مثله، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿ءَأَسْلَمْتُمْۚ﴾: الهمزة: حرف استفهام بمعنى الأمر. (أسلمتم): فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. وجملة: ﴿فَقُلْ﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها. فهي في محل جزم مثلها، ولا يصعب عليكم بعد هذا إعراب: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ﴾.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تَوَلَّوْا﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة التي هي فاعله في محل جزم فعل الشرط، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها، كما رأيت في التي قبلها. ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنما): كافة ومكفوفة. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿الْبَلَاغُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لا تحلُّ محلَّ المفرد، و(إنْ) ومدخولها معطوف على ما قبله، لا محل له مثله، والجملة الاسمية: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ معترضة في آخر الكلام، فيها وعد، ووعيد.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١)﴾

الشرح: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾: يجحدون القرآن، وينكرونه، وهم اليهود، والنصارى. ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ إلخ: كان أكثر أنبياء بني إسرائيل يأتيهم الوحي، ولم يكن يأتيهم كتاب، مثل: يحيى، وزكريا، ويوشع، وشمويل، وحزقيل، وغيرهم؛ لأنهم كانوا ملتزمين بأحكام التوراة، فكانوا يعظون قومهم، وينصحونهم، فيقتلونهم، فيقوم رجال ممَّن آمن بهم، وصدَّقهم، فيذكِّرونهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر، فيقتلونهم أيضاً. فهم ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: بالعدل بين الناس.

روى البغوي بسند الثعلبي عن أبي عبيدة بن الجراح ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! أيُّ الناس أشد عذاباً يوم القيامة؟ قَالَ: «**رَجُلٌ قتلَ نبيّاً، أَوْ رَجُلاً أَمَرَ بِالمعروفِ، وَنَهَى عنِ الْمُنْكَرِ**» ثم قَرَأَ رسول الله ﷺ: ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ إلى أن انتهى إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا عبيدةَ! قتلَتْ بنو إسرائيلَ ثلاثةً وأربعينَ نبيّاً من أوَّلِ النَّهارِ في سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، فَقَامَ مئةٌ واثنَا عشرَ رجلاً مِنْ عُبَّادِ بني إِسْرَائِيلَ، فأمروهُمْ بالمعروفِ، ونهوهمْ عن المنكرِ، فقتلوهمْ جميعاً من آخِرِ النهارِ في ذلك اليومِ الذين ذكرهمُ الله فِي كتابِهِ، وأَنْزَلَ الآية فيهمْ**».

﴿فَبَشِّرْهُم﴾: أمر من البشارة، وهي الإخبار بما يظهر أثره على البشرة ـ وهي ظاهر الجلد ـ لتغييرها بأوَّل خبر يرد عليها، ثمَّ الغالب أن يستعمل في السرور مقيداً بالخبر المبشَّر به، وغير مقيد به أيضاً، ولا يستعمل في الشر إلا مقيداً منصوصاً على المبشَّر به على سبيل التهكُّم، كما في هذه الآية، وقال تعالى في سورة (النَّحل) رقم [٥٨]: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾. هذا؛ وحمله بعضهم على الاستعارة، وهو: أنَّ إنذار الكفار بالعذاب قام مقام

بشرى المحسنين بالثَّواب. وفي هذه الآية توبيخٌ لليهود؛ الذين كانوا في زمن رسول الله ﷺ وإن كان أسلافهم الذين قتلوا الأنبياء، ومثله كثير في القرآن، كما في قوله تعالى في (البقرة): ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ...﴾ إلخ الآية رقم [٦١] ونحوها.

هذا؛ ودلَّت الآية الكريمة على أنَّ الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر كان واجباً في الأمم السابقة، وهو فائدة الرِّسالة، وخلافة النُّبوة، قال الحسن ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَمَرَ بِالْمَعْروفِ، وَنَهى عَنِ المُنْكَرِ؛ فَهُوَ خَلِيفَةُ اللهِ في أَرْضِهِ، وَخَلِيفَةُ رَسُولِهِ، وخليفةُ كتابه»**. وعن درَّة بنت أبي لهب ـ رضي الله عنه ـ قالت: قلت: يا رسول الله! مَنْ خير النَّاس؟ قال: **«أَتْقَاهُمْ لِلرَّبِّ، وَأوصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ، وآمَرُهُمْ بالمعروفِ، وأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ»**. وعن أنس بن مالكٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل: يا رسول الله! متى نَتْرِكُ الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر؟ قال: **«إِذَا ظَهَرَ فِيكُمْ مَا ظَهَرَ فِي الأُمَمِ قَبْلَكُم»**. قُلْنَا: يا رسولَ الله! ومَا ظهر في الأمم قبلنا؟!

قال: **«المُلْكُ فِي صِغَارِكُمْ، وَالْفَاحِشَةُ فِي كِبارِكُمْ، وَالْعِلْمُ فِي رُذَالِتكُمْ»**. أخرجه ابن ماجه برقم [٤٠١٦]. قال زيد ـ رحمه الله تعالى ـ: تفسير معنى قوله النبي ﷺ: **«والعلمُ في رُذَالَتِكُمْ»**: إذا كان العلم في الفُسَّاق، وأزيد أنا: والمنافقين. ومعنى: صغاركم: الحقيرون، الذليلون. ومعنى كباركم: العظماء في أَعْيُنِ الناس.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها. ﴿يَكْفُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، ﴿بِـَٔايَـٰتِ﴾: متعلقان به، و(آيات) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، والجملة بعدها معطوفة عليها، ﴿بِغَيْرِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وقيل: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ و(غير) مضاف، و﴿حَقٍّ﴾ مضاف إليه، وكذلك جملة: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ معطوفة أيضاً، لا محل لها مثلها، ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة في: ﴿يَأْمُرُونَ﴾.

﴿فَبَشِّرْهُم﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: ومن كفر؛ فبشرهم. (بشرهم): فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: «أنت»، والهاء مفعول به، والجملة لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المقدر، والجملة الشرطية معترضة بين اسم: ﴿إِنَّ﴾ وخبرها، وهو الجملة الاسمية الآتية، هذا وجهٌ للإعراب، والوجه الثاني: اعتبار الفاء زائدة في خبر ﴿إِنَّ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ ودخلت الفاء على الخبر؛ لأن الموصول الذي هو اسم «إنَّ» يشبه الشرط في العموم. قال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: وقد منع سيبويه إدخال الفاء في خبر «إن»، كـ: «ليت»، «ولعلَّ» ولذلك قيل: الخبر: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ...﴾ إلخ، وهو ما ذكرته أولاً. هذا؛ والذي قرأته في مغني اللبيب: أنَّ الخلاف حاصل في وقوع الجملة الإنشائية خبراً

لـ «إنَّ» فمنهم من يجيزه ومنهم من يمنعه، والمانعون يؤوِّلون الجملة الإنشائية الواقعة خبراً لـ «إن» بجملة خبرية، أو يعتبرونها مقولة لقول محذوف. انظر الشاهد رقم [١٠٠١] من كتابنا فتح القريب المجيب، وهذا نصه: [البسيط]

إِنَّ الَّـذِيـنَ قَـتَـلْـتُـمْ أَمْـسِ سَـيِّـدَهُـمْ ... لَا تَـحْـسَـبُـوا لَـيْـلَـهُـمْ عَـنْ لَـيْـلِـكُـمْ نَـامَـا

والشاهد رقم [١٠٠٢] منه، وهذا نصه: [الرجز]

إِنِّـي إِذَا مَـا الْـقَـوْمُ كَـانُـوا أَنْـجِـيَـهْ ... وَاضْـطَـرَبَ الْـقَـوْمُ اضْـطِـرابَ الأَرْشِـيَـهْ

هُـنَـاكَ أَوْصِـيـنـي وَلَا تُـوصِـي بِـيَـهْ

ولم يتعرَّض ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ لدخول الفاء في خبر «إنَّ» أو إحدى أخواتها، والذي تعرض لذلك الأشموني ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال: وإذا دخل شيء من نواسخ الابتداء على المبتدأ؛ الذي اقترن خبره بالفاء؛ أزال الفاء؛ إن لم يكن (إنَّ، أو أنَّ، أو لكنَّ) بإجماع المحقِّقين، فإن كان (إنَّ، أو أَنَّ، أو لكنَّ) جاز بقاء الفاء. نصَّ على ذلك في «إنَّ، وأنَّ» سيبويه، وهو الصحيح الذي ورد القرآن المجيد به، وأورد آيات كثيرة، من جملتها الآية التي نحن بصدد شرحها، وإعرابها. فأنت ترى: أن البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ قد نقل عن سيبويه عكس ما ذكره الأشموني، والمنقول عن الأخفش ـ رحمه الله تعالى ـ: أنه هو الذي منع دخول الفاء الزائدة على خبر المبتدأ المنسوخ بأيِّ ناسخ كان. وقد أطلت عليك في هذه المسألة لأحيلك على هذه الآية كلَّما عرض لنا شيء من هذا القبيل. تأمَّل، وتدبَّر، وربك أعلم. وانظر الآية رقم [٩٠] الآتية.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ إلخ: أي: المتصفون بتلك الصفات القبيحة، وهم اليهود؛ الذين قتلوا الأنبياء، والذين أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر. والنصارى؛ الذين رفضوا الإسلام، ويُلحق بهم الوثنيون من العرب في كلِّ زمانٍ، ومكان. ﴿حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ﴾: بطلت أعمالهم الصالحة، من صدقة، وحسن جوار، وصلة رحم، وغير ذلك، فلا يجدون لها أجراً، وثواباً في الدُّنيا، ولا في الآخرة. بسبب كفرهم بمحمَّدٍ ﷺ. وقد بيَّن الله سبحانه في سورة (النور) رقم [٣٩] وفي سورة (الفرقان) رقم [٢٣]: أن أعمال الكفار الصَّالحة في نظرهم إنَّما هي كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً، وهي هباء منثور، لا قيمة لها عند الله، ولا تنفع أصحابها شيئاً. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ أي: مانعين يمنعونهم من عذاب الله تعالى.

هذا؛ وفي المصباح المنير: حَبِط العمل، يحبَط مِنْ باب: تعب، حبْطاً بالسُّكون، وحُبوطاً: فسد، وهدر، وحبَط، يَحْبِط من باب: ضَرَبَ لغة، وقرئ بها في الشواذِّ، وحبِط دم فلان من باب تعب: هدر، وأحبطت العمل، والدم بالألف: أهدرته. وفي المختار: والحَبَط بفتحتين: أن تأكل الماشية، فتكثر حتى تنتفخ لذلك بطونها، ولا يخرج عنها ما فيها، وقيل: هو أن ينتفخ بطنها من أكل الدرق، وهو الحندقوق. وفي الحديث: «**إنَّ مِمَّا يَنْبُتُ الرَّبيعُ ما يقتُلُ حَبطاً، أَوْ يُلِمُّ**». انتهى واسم هذا الدَّاء: الحُباط، والفعل: حبط لازم، ويتعدَّى بالهمزة، كما في قوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْۚ﴾.

الإعراب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر: (إنَّ) في الآية السابقة، أو هي مستأنفة لا محل لها، انظر الآية السابقة. ﴿حَبِطَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾: فاعل، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، في الدنيا: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال مِنْ: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ﴾. ﴿وَٱلْأَخِرَةِ﴾: معطوف على: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مِّن﴾: حرف جر صلة. ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه الواو المقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بالياء التي جلبها حرف الجر الزائد. هذا؛ ويجوز اعتبار (ما) نافية حجازية عاملة عمل «ليس» وباقي الإعراب ظاهر، والجملة الاسمية في محل نصب من الاسم الموصول، والرابط: الواو، والضمير. وهو أقوى من العطف على الجملة الاسمية السابقة.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ إلخ: تعجيب للنبي ﷺ، ولكل من تأتَّى منه الرؤية، والنَّظر من حال أهل الكتاب، وسوء صنيعهم، فهو استفهام تعجيب، وتشويق إلى استماع ما بعده، وهو جار مجرى المَثَل في معنى التعجُّب. ﴿أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: أعطوا حظّاً، ونصيباً من التوراة. والمراد بذلك الحظِّ، والنصيب ما بُيِّن لهم في التوراة من العلوم، والأحكام؛ التي من أهمها ما علموه من نعوت النَّبي ﷺ، وحقيقة الإسلام. ﴿يُدْعَوْنَ﴾: الداعي هو محمد ﷺ. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾: هو القرآن، أو التوراة. وذلك: أنَّ اليهود دُعوا إلى حكم القرآن، فأعرضوا عنه. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ الله ـ عز وجل ـ جعل القرآن حَكَماً فيما بينهم وبين رسول الله ﷺ فحكم القرآن على اليهود، والنَّصارى: أنهم على غير الهُدى، فأعرضوا عنه.

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أيضاً: أنَّ رسول الله ﷺ دخل بيت المِدْراس على جماعةٍ من اليهود، فدعاهم إلى الله ـ عز وجل ـ فقال له نُعيم بن عمرو، والحارث بن زيد: على أيِّ دين أنت يا محمد؟! فقال: «**على ملة إبراهيم**». قالا: إنَّ إبراهيم كان يهوديّاً. فقال رسول الله ﷺ: «**هَلُمُّوا إلى التوراة فهي بيتنا، وبينكم!**» فأبيا عليه، فأنزل الله هذه الآية، فعلى هذا القول يكون المراد بكتاب الله: التوراة.

وروي عنه أيضاً: أنَّ رجلاً، وامرأة من أهل خيبر زنيا، وكان في كتابهم الرَّجم، فكرهوا رجمهما لشرفهما فيهم، فرفعوا أمرهما إلى رسول الله ﷺ ورجَوْا أن تكون عنده رُخصة، فحكم عليهما بالرَّجم، فقال النعمان بن أوفى، وبحريُّ بن عمرو: جُرْتَ عليهما يا محمد، وليس عليهما الرَّجم. فقال رسول الله ﷺ: «**بيني وبينكم التَّوراة**». فقالوا: قد أنصفت، فقال: «**مَنْ أعلمُكم بالتوراة؟**». فقالوا: رجل أعور، يقال له: عبد الله بن صُوريا، يسكن فَدْك، فأرسَلُوا إليه، فقدم المدينة، وكان جبريل عليه السلام قد وصفه للنبي ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «**أنت ابن صوريا؟**» قال: نعم، قال: «**أنت أعلم اليهود بالتَّوراة؟**» قال: كذلك يزعمون. فدعا رسول الله ﷺ بالتوراة، وقال له: اقرأ، فقرأ حتى أتى على آية الرَّجم، وضع يده عليها، وقرأ ما بعدها، فقال عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله! قد جاوزها، ثم قام، ورفع كفَّه عنها، وقرأها على رسول الله ﷺ وعلى اليهود، وفيها: (إنَّ المُحْصَنَ، والمُحْصَنَة إذا زنيا، وقامت عليهما البينة؛ رُجِمَا، وإن كانت المرأة حُبلى؛ تُربِّص بها حتَّى تضع ما في بطنها). فأمر رسول الله ﷺ باليهوديين، فرجما، فغضبت اليهود لذلك، فأنزل الله الآية الكريمة.

﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: ليقضي بينهم. وإضافة الحكم إلى الكتاب هو على سبيل المجاز. ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾: يعرض، وأصله: الإعراض، والإدبار عن الشيء بالجسم، ثمَّ استعمل في الإعراض عن الأوامر، والأديان والمعتقدات اتِّساعاً، ومجازاً. ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ أي: الرُّؤساء، والعلماء منهم. هذا؛ والفريق أكثر من الفرقة، وهو اسم جمع لا واحد له من لفظه، كرهط، ومعشر، وجمعه في أدنى العدد: فِرْقة، وفي الكثير: فُرَقاء. وقال الأعلم ـ رحمه الله تعالى ـ الفريق: يقع للمفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث، مثل: صديق، وعدو، وقعيد.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتشويق، وتعجيب. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم، ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بلم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به، وهو: بَصَرِيٌّ، فاكتفى بالجار والمجرور. وجملة: ﴿أُوتُوا۟ نَصِيبًا﴾ صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلقان بـ ﴿نَصِيبًا﴾، أو بمحذوف صفة له. ﴿يُدْعَوْنَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو

نائب فاعله، وهو المفعول الأوَّل. ﴿إِلَىٰ كِتَٰبِ﴾: متعلقان به، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، والجملة الفعلية في محل نصب حال من: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ...﴾ إلخ، والرابط: الضمير فقط، و﴿كِتَٰبِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿لِيَحۡكُمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ أو إلى: ﴿ٱللَّهِ﴾ و«أن» المضمرة، والفعل: (يحكم) في تأويل مصدر في محلِّ جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَتَوَلَّىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿فَرِيقٞ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿يُدۡعَوۡنَ﴾ إلخ، فهي في محل نصب حال مثلها. ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿فَرِيقٞ﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿وَهُم﴾: الواو: واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿مُّعۡرِضُونَ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلّاً بـ (مِنْ)، والرابط: الواو، والضمير. وقيل: معطوفة على متعلق: ﴿مِّنۡهُمۡ﴾. وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: حال من: ﴿فَرِيقٞ﴾، وإنما ساغ ذلك لتخصصه بالصِّفة. والأول أقوى، وأولى بالاعتبار.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤﴾

الشرح: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى التولِّي، والإعراض المذكور في الآية السَّابقة. ﴿بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ إلخ: قال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّ اليهود كانوا يقولون: إنَّ هذه الدُّنيا سبعة آلاف سنة، وإنَّما نعذب في النار يوماً بكل ألف سنة، وإنما هي سبعة أيام معدودة، فأنزل الله تعالى الآية رقم [٨٠] من سورة (البقرة) ردّاً عليهم. وقال العوفي عن ابن عباس أيضاً. قالوا: لن تمسنا النار إلا أربعين يوماً، وهي مدَّة عبادة آبائهم العجل. هذا وقد جاء وصف: ﴿أَيَّامٗا﴾ في هذه الآية وفي آية الصيام بلفظ ﴿مَّعۡدُودَٰتٖۖ﴾ وجاء في الآية رقم [٨٠] من سورة البقرة بلفظ: ﴿مَّعۡدُودَةٗۚ﴾ وهذا يدلُّ على أنَّه يجوز في العربية استعمال اللفظتين في وصف ﴿أَيَّامٗا﴾.

فاليهود جازمون بدخول النار من أجل عبادة آبائهم العجل، فدخولُها يطهِّرهم من عبادة آبائهم، ومن ذنوبهم، وقبائحهم؛ الَّتي يفعلونها. ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾. ﴿وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم...﴾ إلخ: خدعهم ظنُّهم، واعتقادهم الفاسد من أنَّ النار لن تصيبهم إلا أياماً قلائل. أو: أن آباءهم يشفعون لهم. أو: أن يعقوب ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ وعده الله تعالى ألا يعذب أولاده إلا تحلَّة القسم.

الإعراب: ﴿ذَالِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. (أنهم): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿قَالُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة، والواو فاعله، والألف للتفريق، هذا هو الإعراب المتعارف عليه والإعراب الحقيقي أن تقول: مبني على فتح مقدر على آخره، منع من ظهوره اشتغال المحل بالضمِّ الذي جيء به لمناسبة واو الجماعة، والجملة الفعلية مع مقولها في محل رفع خبر (أن) و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿ذَالِكَ﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿لَن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿تَمَسَّنَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَن﴾ و(نا): مفعول به. (النار): فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. (إلا): حرف حصر. ﴿أَيَّامًا﴾ ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، أو هو منصوب بنزع الخافض. ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾: صفة ﴿أَيَّامًا﴾ منصوب مثلهن، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿وَغَرَّهُمْ﴾: فعل ماض، والهاء مفعول به. في دينهم: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، وقيل: الجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿يَفْتَرُونَ﴾ بعدهما، والمعنى يؤيده. ﴿مَّا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل رفع فاعل. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه. ﴿يَفْتَرُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿كَانُواْ﴾ والجملة الفعلية صلة ﴿مَّا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: غرهم الذي أو شيء كانوا يفترونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر في محل رفع فاعل، التقدير: غرَّهم افتراؤهم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿قَالُواْ...﴾ إلخ، فهي في محل رفع مثلها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من واو الجماعة، فلست مفنداً، والرابط الواو والضمير، ويجب تقدير «قد» قبلها لتقرِّبها من الحال.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَكَيْفَ إِذَا...﴾ إلخ: قال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: استعظامٌ لما يحيق بهم في الآخرة، وتكذيبٌ لقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا...﴾ إلخ والمعنى: فكيف يكون حالهم؟! أو فكيف يصنعون؟! ﴿لِيَوْمٍ﴾: في يوم. قاله الكوفيون، وقال البصريون: التقدير: جمعناهم لحساب يوم لا ريب فيه؛ أي لا شكَّ فيه: أنه واقع، وكائن، وهو يوم القيامة، وفيه تهديدٌ، ووعيد لهم، واستعظامٌ لما أُعِدَّ لهم في ذلك اليوم، وأنهم يقعون فيه لا محالة، ولا حيلة لهم فيه، وأنَّ ما حدَّثوا به أنفسهم، وسهَّلوه عليها تعلُّلٌ بباطل، وطمعٌ فيما لا يكون، ولا يحصل لهم. قيل: إنَّ

أول راية ترفع لأهل الموقف يوم القيامة من رايات الكفار راية اليهود، تفضحهم على رؤوس الأشهاد، ثمَّ يؤمر بهم إلى النار؛ لأنهم افتروا المفتريات. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ أي: جوزيت كل نفسٍ بما عملت من خيرٍ، أو شرٍّ، إنْ خيراً؛ فخيرٌ، وإن شرّاً؛ فشرٌّ. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي: بنقص حسنة؛ إن كانت لهم حسنات، أو زيادة سيئة، والكفر أعظم السيئات، وأعظم الجرائم. وواو الجماعة عائدة إلى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ على المعنى؛ لأنه في معنى كل إنسان. هذا؛ والتعبير بالماضي عن المستقبل؛ لتحقُّق وقوعه.

هذا؛ و﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾ أي: لليهود، وللناس أجمعين. وهذا في الأعيان، ويقال: أجمع الأمر إذا عزم عليه، والأمر مُجْمَع. ويقال أيضاً: إجمعْ أمرك، ولا تدعه منتشراً. قال تعالى حكاية عن قوم فرعون، وأشياعه في سورة (طه) رقم [٦٤]: ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ ولا يقال: أجمع أعوانه وشركاءه، وإنَّما يقال: جمع أعوانه، وأصدقاءه. وهذا مبنيٌّ على قاعدة: «**يقال: أجمع في المعاني، وجَمَعَ في الأعيان**». هذا هو الأكثر، والمستعمل، وقد يستعمل كلٌّ واحد مكان الآخر، قال تعالى في سورة (طه): ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

هذا؛ والمراد بـ (يوم) في هذه الآية يوم القيامة وما فيه من الحساب، والعذاب، والأهوال. وقد ذكرا الله طوله في سورة (الحج) بقوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ رقم [٤٧]. هذا؛ واليوم في الدنيا: هو الوقت من طلوع الشَّمس إلى غروبها، وهذا في العرف، وأما اليوم الشَّرعي، فهو من طلوع الفجر إلى غروب الشَّمس. كما يطلق اليوم على اللَّيل والنَّهار معاً، وقد يراد به الوقت مطلقاً، تقول: ذخرتك لهذا اليوم، أي: لهذا الوقت، والجمع: أيَّام، أصله أيوام، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء. وجمع الجمع: أياويم. وأيام العرب: وقائعها، وحروبها، وأيام الله: نعمه، ونقمه. قال تعالى في سورة (يونس) رقم [١٠٢]: ﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ﴾. وقال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾ ويقال: فلان ابن الأيام، أي: العارف بأحوالها، ويقال: أنا ابن اليوم؛ أي: اعتبر حالي فيما أنا فيه. وخذ قوله تعالى في الآية رقم [١٤٠] الآتية: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ وانظر شرح الليل، والنهار في الآية رقم [٢٧٤] من سورة (البقرة).

الإعراب: ﴿فَكَيْفَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (كيف): اسم استفهام مبني على الفتح في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: كيف حالهم. أو هو في محل نصب حال، عامله محذوف، التقدير: كيف يصنعون، والجملة سواء أكانت اسمية، أم فعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل المقدر، أو هو متعلق بنفس المبتدأ الذي قدرناه. ﴿جَمَعْنَاهُمْ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿لِيَوْمٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. هذا، ومثل هذه الآية في إعرابها الآية

رقم [٤١] من سورة (النساء) ومثل الآيتين قول الفرزدق ـ وهو الشاهد رقم [٢٢٥] من كتابنا فتح رب البرية، والشاهد رقم [٥٢٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

فَكَيْفَ إِذَا مَرَرْتَ بِدَارِ قَوْمٍ وجِيرَانٍ لَنَا كَانُوا كِرَامِ؟

﴿لَا﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ» (ريب): اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿فِيهِ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿لَا﴾ والجملة الاسمية في محل جر صفة: (يوم). (وُفِّيتْ): فعل ماض مبني للمجهول مبني على الفتح، والتاء للتأنيث. ﴿كُلُّ﴾: نائب فاعله، وهو المفعول الأول، وهو مضاف، و﴿نَفْسٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مَّا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأوليين مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو: شيئاً كسبته. وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع الفعل بمصدر في محل نصب مفعول به ثان، التقدير: وُفِّيت كلُّ نفسٍ كسبها. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُظْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع... إلخ، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والرابط: الواو، والضمير.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿قُلِ﴾: خطاب للرّسول ﷺ؛ أي: يا محمد قل معظماً لربِّك، وشاكراً له، ومفوضاً إليه أمرك، ومتوكلاً عليه في جميع شؤونك. ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ أصله: يا الله، قاله الخليل، وسيبويه، فحذفت «يا» وعوض عنها الميم المشدَّدة في الآخر، وهذا الحذف، والتعويض من خصائص الاسم الكريم، كدخول «يا» عليه مع لام التعريف، وقطع همزته، ودخول تاء القسم عليه، ولا يجمع بين العوض، والمعوض إلا في ضرورة الشعر، كقول الشاعر: [الرجز]

وَمَا عَلَيْكِ أَنْ تَقُولِي كُلَّمَا سَبَّحْتِ أَوْ هَلَّلْتِ يَا اللَّهُمَّا

أُرْدُدْ عَلَيْنَا شَيْخَنَا مُسَلَّمَا فَإِنَّنَا مِنْ خَيْرِهِ لَنْ نَعْدِمَا

وأيضاً قول أمية بن أبي الصَّلت ـ وهو الشاهد رقم [٤٤٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الرجز]

إِنَّ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمَّا وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا؟

إِنِّي إِذَا مَا حَدَثٌ أَلَمَّا أَقُولُ يَا اللَّهُمَّ يَا اللَّهُمَّا

هذا؛ وقال الكوفيُّون: فإنَّ الأصل في: ﴿اللَّهُمَّ﴾ يا الله آمنَّا بخير. والأول هو المعتمد. ﴿مَالِكَ الْمُلْكِ﴾: يتصرَّف فيما يمكن التصرف فيه تصرف المُلَّاك فيما يملكون. ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾: تعطي، وتمنح مَنْ تشاء النصيب الذي قسمت له من المُلك. ﴿وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ﴾: تسلب، وتسترد المُلك ممَّن تشاء أن تنزعه منه. ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ﴾: يعني: محمداً ﷺ بالنبوَّة، والرِّسالة، وكلَّ مؤمن بالإيمان، ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ﴾ إذلاله بالكفر، كاليهود، والنَّصارى بأخذ الجزية منهم، ونزع النبوة عنهم. ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾: يعني: النَّصر، والغنيمة. هذا؛ وقد ذكر الله سبحانه الخير، والشرَّ من قدرته أيضاً، اكتفاءً بالمقابل، وإنَّما خصَّ الخير بالذكر؛ لأنه المرغوب فيه، أو لأنه المقضيُّ بالذَّات، والشرُّ مقضيٌّ بالعرض؛ إذ لا يوجد شرٌّ جزئيٌّ ما لم يتضمن خيراً كلّيّاً. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: قادر مقتدر؛ يعني: من إيتاء الملك مَنْ تشاء، وإعزاز مَنْ تشاء، وإذلال مَنْ تشاء.

هذا؛ وفي الآية الكريمة من المحسِّنات البديعيَّة الطباق بين: (تؤتي، وتنزع) وبين: (تعزُّ، وتذلُّ)، والإيجاز بالحذف، حيث حذف مفعول الأفعال الأربعة، كما تراه في الإعراب، وكذلك الاقتصار على ذكر الخير، دون ذكر الشرِّ، فإن فيه تعليم الأدب لنا مع الله، فالشرُّ لا ينسب إليه تعالى أدباً، وإن كان منه خَلْقاً، وتقديراً، كما قال تعالى في (سورة النِّساء) رقم [٧٨]: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ ومع ذلك قال تعالى في الآية بعدها: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾.

تنبيه: ذكر البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: أن النبي ﷺ وعد أصحابه مُلْكَ كسرى، وقيصر، وهم في أشدِّ المحن، وذلك في غزوة الخندق المسماة بغزوة الأحزاب أيضاً، فقال المنافقون: هيهات! هيهات! ما يعدنا محمدٌ إلا غروراً، يعدنا ملك كسرى، وقيصر، وأحدنا لا يجرؤ على البراز خارجاً، فنزلت الآية الكريمة. وانظر سورة (الأحزاب).

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا فتح رسول الله ﷺ مكة؛ وعد أمتَّه ملك فارس، والروم، فقال المنافقون، واليهود: هيهات! هيهات! من أين لمحمد ملك فارس، والروم، وهم أعزُّ، وأمنع من ذلك؟! ألم يكف محمداً مكة، والمدينة حتى طمع في ملك فارس، والروم؟! فأنزل الله هذه الآية. وهذا ضعيف، ويضعِّفه: أنَّ اليهود قد قضي عليهم قبل فتح مكة.

هذا؛ وفي بعض كتب الله المنزلة: أنا الله ملك الملوك، ومالك الملك، قلوب الملوك ونواصيهم بيدي، فإن العبادُ أطاعوني؛ جعلتهم عليهم رحمةً، وإن هم عصوني؛ جعلتهم عليهم عقوبة، فلا تشتغلوا بسبِّ الملوك، ولكن توبوا إليَّ أعطِفْهُمْ عليكم. هذا؛ و(يشاء) ماضيه: شاء، وأصله شَيِءَ على فَعِل بكسر العين، بدليل قولك: شئت شيئاً، وقد قلبت الياء ألفاً؛ لتحركها، وانفتاح ما قبلها. ومفعوله محذوف يقدر في هذه الآية على حسب المعنى، ويكثر حذف مفعوله، ومفعول: أراد حتى كاد لا ينطق به إلا في الشيء المستغرب، مثل قوله تعالى

في سورة (الأنبياء) رقم [١٧]: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ وقال الشاعر الخزيمي: [الطويل]

فَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَبْكِي دماً لَبَكَيْتُهُ عَلَيْهِ وَلَكِنْ سَاحَةُ الصَّبْرِ أَوْسَعُ

وينبغي أن تعلم: أنه يكثر حذف مفعول هذين الفعلين بعد «لو» كما رأيت.

و«شَيْء» في اللُّغة: عبارة عن كل موجود. إمَّا حسّاً كالأجسام، وإما حكماً كالأقوال، نحو قلت شيئاً. وجمع الشيء: أشياء، غير منصرف، واختلف في علَّته اختلافاً كثيراً، والأقرب ما حكي عن الخليل ـ رحمه الله تعالى ـ: إن وزنه شَيْآء وزان حمراء، فاستثقل وجود همزتين في تقدير الاجتماع، فنقلت الأولى إلى أول الكلمة، فبقيت وزن لَفْعَاء، كما قلبوا أدْ ؤُ راً، فقالوا: أدر وشبهه، وجمع الأشياء: أشايا.

وأما اليد؛ فإنها تطلق في الأصل على اليد الجارحة، وقد تطلق على النفس، والذات، كما في قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٩٥]: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ وقد تطلق على القدرة، والقوة، وهو كثيرٌ مثل قوله تعالى في سورة (صٓ) رقم [١٧]: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ﴾ وخذ قول عروة بن حزام العذري، وهو الشاهد رقم [١١٦] من كتابنا فتح رب البرية: [الطويل]

وَحُمِّلْتُ زَفْرَاتِ الضُّحَا فَأَطَقْتُهَا وَمَالِي بِزَفْرَاتِ الْعَشِيِّ يَدَانِ

كما تطلق اليد على النعمة، والمعروف، يقال: لفلان يدٌ عندي؛ أي: نعمةٌ، ومعروفٌ، وإحسانٌ. كما تطلق على الحيلة، والتدبير، فيقال: لا يد لي في هذا الأمر، أي: لا حيلة لي فيه، ولا تدبير. ويد الله في هذه الآية، وشبهها فيها مذهبان: مذهب الخلف التأويل بمعنى: القدرة، والقوة. ومذهب السَّلف: التفويض، يقولون: الله أعلم بمراده. وبعضهم يقول: لله يد تليق به.

الإعراب: ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: أنت. ﴿اللَّهُمَّ﴾: منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب بيا المحذوفة، والمعوض عنها الميم المشددة في الآخر. ﴿مَالِكَ﴾: فيه أوجه: أحدها: أنه بدل من: ﴿اللَّهُمَّ﴾. والثاني: أنه عطف بيان. الثالث: أنه منادى ثانٍ، حذف منه حرف النداء، أي: يا مالك الملك. الرابع: أنَّه نعت لـ ﴿اللَّهُمَّ﴾ على الموضع، فلذلك نصب، وهذا ليس مذهب سيبويه، فإنه لا يجيز نعت هذه اللفظة لوجود الميم في آخرها؛ لأنها أخرجتها عن نظائرها من الأسماء، وأجاز المبرد من ذلك، واختاره الزجَّاج. قالا: لأن الميم بدل من (يا)، والمنادى مع (يا) لا يمتنع وصفه، فكذا ما هو عوض منها، وأيضاً فإن الاسم الكريم لم يتغيَّر عن حكمه، ألا ترى إلى بقائه مبنيّاً على الضم، كما كان مبنيّاً مع (يا). انتهى جمل نقلاً عن السمين، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (الروم): ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ...﴾ إلخ. وقولهما: المنادى مع (يا) لا يمتنع وصفه، أي: كما في قول جرير في مدح عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه، وهو الشاهد رقم [١٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

فَـمَـا كَـعْـبُ بْـنُ مـامـةَ وَابْـنُ سُـعْـدَى ... بِـأَجْـوَدَ مِـنْـكَ يَـا عُـمَـرُ الْـجَـوَادَا

و﴿مَٰلِكَ﴾ مضاف، و﴿ٱلْمُلْكِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه وجوباً تقديره: أنت. ﴿تُؤْتِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدرة على الياء للثقل، والفاعل تقديره: أنت. ﴿ٱلْمُلْكَ﴾ مفعول به أول. ﴿مَن﴾ اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿تَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: «أنت»، ومفعوله محذوف، التقدير: تشاء إتيانه المُلك، والجملة الفعلية: قال أبو البقاء ـ رحمه الله تعالى ـ: هي وما بعدها من المعطوفات خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: أنت تؤتي... إلخ، وقيل: مستأنفة لا محل لها، وقيل: في محل نصب حال، وانتصاب الحال من المنادى مختلف فيه، وتقدير الجملة الثانية: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ أن تنزعه منه. أقول: مجيء الحال من المنادى مستعمل من غير خلافٍ، كقول الشَّاعر: [البسيط]

يـاأَيُّـهَـا الـرَّبْـعُ مَـبْـكِـيَّـاً بِـسَـاحَـتِـهِ

وقال مكيٌّ: في موضع الحال من المضمر في: ﴿مَٰلِكَ﴾. وقوله: مستأنف الأولى أن يقال: جملة ابتدائية؛ لأنه يكثر وقوع الجمل الفعلية بعد النداء، واعتبارها ابتدائية أولى؛ لأنه لا يقع نداء إلا وبعده جملة فعلية، ويكثر أن تكون إنشائية، وهي بمنزلة الجواب عن النداء، وأما الوجه الأول؛ الذي ذكره؛ فلا مسوَّغ له، والجملة الباقية معطوفة على جملة: ﴿تُؤْتِي﴾ إلخ، ولا خفاء في إعرابها، وتقدير الجملتين: ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ﴾ إعزازه. ﴿وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ إذلاله.

﴿بِيَدِكَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْخَيْرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، وقيل فيها ما قيل بالجمل قبلها. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبَّه بالفعل، والكاف اسمها. على كلِّ: متعلقان بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ بعدهما، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾ مضاف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر (إنَّ) والجملة الاسمية مفيدة للتعليل.

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله تعالى: أنه مالك الملك؛ أردفه بذكر قدرته الباهرة في حال الليل، والنهار، وفي المعاقبة بينهما. وحال إخراج الحي من الميت، ثمَّ عطف عليه: أنه يرزق من يشاء بغير حساب، وفي ذلك دلالة على أنَّ من قدر على تلك الأفعال العظيمة المُحيِّرة لذوي الأفهام، والعقول؛ فهو قادر على أن ينزع النبوة من اليهود، والنصارى، وأن ينزع المُلك من فارس، والروم، واليهود، ويذلهم جميعاً، ويؤتيه العرب، ويعزُّهم.

﴿تُولِجُ﴾: تدخل، والماضي: أولج، فهو رباعي، ومصدره: الإيلاج، وأما الثلاثي فهو: ولج، يلج، ومصدره: الولوج. والمراد بإيلاج الليل في النَّهار، وبالعكس بأن يزيد كلٌّ منهما بما نقص من الآخر، وهو ظاهر في طول الليل، وقصره تبعاً لفصول السنة. هذا؛ وفي الجملتين ردُّ العَجُز على الصَّدر، وفيها استعارة عجيبة، فإنَّ الإيلاج عبارة عن إدخال هذا على هذا، أو إدخال هذا في هذا، وذلك؛ لأنَّ ما ينقصه من الليل يزيده في النهار، والعكس، ولفظ الإيلاج أبلغ؛ لأنَّه يفيد إدخال كلٍّ واحدٍ منهما في الآخر بلطيف الممازجة، وشديد الملابسة. وبين ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ وبين ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾ طباق، وهو من المحسِّنات البديعية.

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾: ﴿ٱلۡحَيَّ﴾ كالإنسان، والطائر، و﴿ٱلۡمَيِّتِ﴾: النُّطفة تخرج من الإنسان، والبيضة تخرج من الطائر. ﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ﴾: الإنسان، والطائر من النطفة، والبيضة.

﴿وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ﴾: النطفة، والبيضة من الإنسان، والطائر. ويقال أيضاً في جميع البذور، وما يخرج منها من النباتات. وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ معناه: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، وروي نحوه عن سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ. وروى معمر بن الزُّهري: أنَّ النبي ﷺ دخل على نسائه، فإذا بامرأة حسنة الهيئة، قال: «مَنْ هذه؟» قلن: إحدى خالاتك قال: لومَنْ هي؟« قلن: هي خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث، فقال ﷺ: «**سُبْحَانَ الَّذِي يُخرجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ**». وكانت امرأةً صالحةً، وكان أبوها كافراً. خذ قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٢٢]: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ كَذَٰلِكَ﴾. انظر شرحها هناك.

﴿وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ أي: بغير تقدير، فيوسع في الدنيا استدراجاً تارةً، وابتلاءً أخرى. وأما رزقه في الآخرة للمؤمنين؛ فيكون تكريماً واسعاً، لا يضبطه عدٌّ، ولا كيل، ولا وزنٌ بخلاف رزق الدُّنيا؛ فإنه مضبوط محصور، ورزق الآخرة لا ينتهي عدده، ولا ينقطع مدده، صافٍ عن كدِّ الاكتساب، وخوف الحساب، ولا منَّة فيه، ولا عذاب.

هذا و(ميت) أصله: مْيوِت، فقل في إعلاله: اجتمعت الواو، والياء، وسبقت إحداهما بالسُّكون، فقلبت الواو ياء، وأدغمت الياء، في الياء. هذا؛ وتخفف الياء بالسُّكون، فيقال: مَيْت، بفتح الميم وسكون الياء، وهو مَنْ فارقت روحُه جسَده، وجمعه: أموات، وأما المشدَّد؛ فهو الحي الذي سيموت، وعليه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وجمعه: موتَى، قال بعض الأدباء في الفرق بينهما: [الطويل]

أَيَـا سَـائِـلـي تَـفْـسِـيـرَ مَـيْـتٍ وَمَـيِّـتٍ ... فَـدُونَـكَ قَـدْ فَـسَّـرْتُ مَـا عَـنْـهُ تَـسْـأَلُ
فَـمَـنْ كَـانَ ذا رُوحٍ فَـذَلِـكَ مَـيِّـتٌ ... وَمَـا الْـمَـيْـتُ إِلَّا مَـنْ إِلى الْـقَـبْـرِ يُـحـمَـلُ

هذا هو الغالب في الاستعمال، وقد يتعاوضان، كما في قول عديٍّ بن الرَّعلاء ـ وهما الشاهد رقم [٨٣٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الخفيف]

لَيسَ مَنْ مَاتَ، فاستراحَ بِمَيتٍ ... إنما المَيتُ مَّيتُ مَيِّتُ الأحياءِ

إنما المَيتُ مَنْ يَعيشُ كئيباً ... كاسفاً بالُهُ قليلَ الرَّجاءِ

ومنه الآية التي نحن بصدد شرحها، والآية رقم [٩٥] من سورة (الأنعام) حيث استعمل المشدَّد فيها لفاقد الحياة والرُّوح، كما هو واضح فيها.

الإعراب: ﴿تُولِجُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿ٱلَّيۡلَ﴾: مفعول به. ﴿فِي ٱلنَّهَارِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وإن اعتبرت حكمها حكم ما قبلها؛ فلست مفنِّداً، والجملة بعدها معطوفة عليها، وإعرابها لإخفاء فيه. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به أول، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: ترزق الذي، أو شخصاً تشاؤه رزقاً واسعاً بغير حساب. ﴿بِغَيۡرِ﴾: متعلقان بواسعاً الذي قدرته لك، وقال أبو البقاء: متعلقان بمحذوف حال من المفعول المحذوف، أو من الفاعل، أو بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، وكل هذه الأقوال لا طائل تحتها؛ لأنَّ الفعل: (ترزق) ينصب مفعولين، لأنه بمعنى: تعطي، وتمنح، وقد نصبهما. والثاني فيهما: «رزقاً» الذي قدرته.

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾

الشرح: نهى الله المؤمنين في هذه الآية عن موالاة الكافرين لقرابةٍ، أو صداقةٍ، ونحوهما؛ حتى لا يكون حبُّهم، وبغضهم إلا لله، كما نهى عن الاستعانة بهم في الغزو، وسائر الأمور الدِّينيَّة، والدُّنيوية، وإنَّما يجب الحب للمؤمنين خاصَّةً، والمعاونة، والمساعدة لهم، وبهم، ومثل هذه قوله تعالى في سورة (المائدة) رقم [٥١]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَ...﴾ إلخ، وقال تعالى في سورة (النساء) رقم [١٤٤]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ...﴾ إلخ، وفي أوَّل سورة (الممتحنة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي...﴾ إلخ. انظر شرح الآيات في محالها.

هذا؛ ويروي التاريخ: أنه لمَّا وقع الخلاف بين معاوية، وعليٍّ بن أبي طالب عرض قيصر الروم مساعدته لمعاوية، فردَّ عليه معاوية بقوله: أنا أستعين بكافر على مسلم، والله لو قُطِّعتُ إرباً إرباً ما استعنت بكافرٍ على مسلم، وانظر الآية رقم [١١٨] الآتية.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ﴾ أي: ومن يوال الكفار، ويستعين بهم على المؤمنين، أو ينقل إليهم أخبار المؤمنين، أو يطلع الكافرين على عورات المؤمنين، فليس من دين الله في شيء، وليس من ولايته في شيء. وهذا أمرٌ مقول من أنَّ ولاية المولى معاداة أعدائه، وموالاة الله، وموالاة الكفار صنوان لا يجتمعان. كما قال الشاعر: [الطويل]

تُـوَدُّ عَـدُوِّي ثُـمَّ تَـزْعَـمُ أَنَّـنِـي ... صَـدِيـقُـكَ لَـيْـسَ الـنَّـوكُ عَـنْـكَ بِـعَـازِبِ
فَـلَـيْـسَ أَخِـي مَـنْ وَدَّنِـي رَأي عَـيْـنِـهِ ... ولَـكِـنْ أَخِـي مَـنْ وَدَّنِـي فِـي الـمَـغَـايِـبِ

﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾ المعنى: إن الله نهى المؤمنين عن موالاة الكفار، ومداهنتهم، إلا أن يكون الكفار غالبين ظاهرين، أو يكون المؤمن في قوم كافرين، فيداريهم؛ وقلبه مطمئنٌّ بالإيمان، دفعاً عن نفسه من غير أن يستحل حراماً، أو مالاً حراماً، أو يظهر الكفار على عورات المسلمين. والتقية لا تجوز إلا مع خوف القتل مع سلامة النية. قال الله تعالى في سورة (النَّحل) رقم [١٠٦] ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ انظر شرحها هناك، فإنه جيد. والحمد لله! ثم هذه التقية رخصةٌ، فلو صبر على إظهار إيمانه حتى قتل؛ كان له بذلك أجرٌ عظيم، وأنكر قوم التقيَّة.

فقال معاذ بن جبل، ومجاهد ـ رضي الله عنهم ـ: كانت التقية في جِدَّة الإسلام قبل قوَّة المسلمين، فأمَّا اليوم ـ أي: في زمننا ـ فقد أعزَّ الله الإسلام أن يتَّقوا من عدوِّهم. وقال الحسن البصريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: التقية جائزة للإنسان إلى يوم القيامة. أقول: وفي هذه الأيام واقعة، ولا بدَّ منها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإنَّ المسلم مضايق في دينه، وإقامة شعائره. هذا؛ وإن الشِّيعة يقولون: إن عليّاً ـ رضي الله عنه ـ سكت عن المطالبة بالخلافة تقية، فهم يصمونه بالجُبن، وهم لا يعلمون، وحاشاه من الجُبن، هذا وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ليس التَّقيَّة بالعمل، إنما التقيَّة باللِّسان. ورضي الله عن أبي الدَّرداء؛ إذ قال: إنا لنبشُّ في وجه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم.

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ أي: نقمته، وسطوته، وعذابه في مخالفة أمره، وموالاة أعدائه. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾: المرجع، والمنقلب، والمآب، فيجازيكم بأعمالكم، إنْ خيراً؛ فخير، وإن شرّاً؛ فشرّ. وفي هذه الآية تهديدٌ عظيم، ووعيدٌ شديد. و﴿تُقَىٰةً﴾ أصله: (وقيَةً) على وزن فُعَلة، ويجمع على: تُقَى، كرطبة، ورطب، فأبدلت الواو تاءً، والياء ألفاً لتحرُّكها، وانفتاح ما قبلها. وانظر مثلها في الآية رقم [١٠٢] مع اختلاف المعنى هنا، وهناك، فالإعلال واحدٌ.

الإعراب: ﴿لَّا﴾: ناهية جازمة. ﴿يَتَّخِذِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّا﴾. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به أوَّل منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون فيه وفي سابقه عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول به ثان. ﴿مِن دُونِ﴾: متعلقان بـ ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ لأنه جمع: ولي، أو هما متعلقان بمحذوف صفة له. وقال الجمل: متعلقان بمحذوف حال من

الفاعل، وأوَّله تأويلاً فيه تكلُّف. و﴿دُونِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مضاف إليه مجرور... إلخ، والجملة الفعلية: ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَفْعَلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، وفاعله مستتر يعود إلى: (مَنْ). ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب مفعول به، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ لها. ﴿فَلَيْسَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ليس): فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى (مَنْ). ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿شَيْءٍ﴾ كان صفة له، فلمَّا قدم عليه، صار حالاً، على القاعدة: (نعت النكرة إذا تقدَّم عليها صار حالاً). ﴿فِي شَيْءٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: (ليس). والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما رأيت، في الآية رقم [١٩] والجملة الاسمية: (مَنْ...) إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر.

﴿أَن تَتَّقُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤوَّل في محل جر بحرف جر محذوف، والجار والمجرور بدل من معلَّل محذوف، وفي السمين: وهذا استثناء مفرغ من المفعول لأجله، والعامل فيه: ﴿لَّا يَتَّخِذِ﴾ أي: لا يتخذ المؤمن الكافر وليّاً لشيءٍ من الأشياء، ولا لغرض من الأغراض، إلا للتقية ظاهراً؛ بحيث يكون مواليه في الظاهر، ومعاديه في الباطن، وعليه فقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ...﴾ معترض بين العلة، ومعلولها. انتهى جمل. ﴿تُقَىٰةً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: تتقوا تقاة. أو عامله المذكور، وهو أولى، أو هو مفعول به، على تأويل تتقوا المذكور بـ «تخافوا تقاة».

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾: الواو: حرف استئناف. (يحذركم): فعل مضارع، والكاف مفعول به أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿نَفْسَهُۥ﴾: مفعول به ثان، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها.

﴿قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾

الشرح: يخبر الله تعالى عباده: أنه يعلم السرائر، والضمائر، والظواهر، وأنَّه لا تخفى عليه منهم خافية، بل علمه محيط بهم في جميع الأحوال، والأزمان، واللحظات، والأوقات، وجميع

ما في السموات والأرض، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة، ولا أصغر من ذلك في جميع أقطار الأرض، والبحار، والجبال، والأنهارگ والمراد ـ والله أعلم ـ: أنه تعالى يعلم ما تُكِنُّه الصدور من ولاية الكفار، وحبِّهم، وموالاتهم. وبين (تُخفوا) و(تبدوا) طباق، وهو من المحسِّنات البديعية.

هذا؛ وذكر الله الصدور؛ لأنَّها وعاء القلوب. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: فيقدر على عقوبتكم، وعلى الانتقام منكم؛ إن لم تنتهوا عن موالاة الكفار؛ لأنه تعالى يتَّصف بعلم ذاتي محيط بالمعلومات، وقدرةٍ ذاتيَّة تعمُّ المقدورات بأسرها، فلا تجسروا على عصيانه؛ إذ ما من معصية؛ إلا وهو مطلع عليها، قادر على العقاب بها. وينبغي أن تعلم: أنَّ الحبَّ في الله، والبغض في الله عظيم في الإيمان. وخذ ما يلي:

فعن معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَعْطَى لله، وَمَنَعَ لله، وأَحَبَّ لله، وَأَبْغَضَ لله، وأَنْكَحَ لله؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ إِيمَانَهُ**». أخرجه الإمام أحمد، والترمذي.

هذا؛ والفعل: (يعلم) في هذه الآية من المعرفة، لا من العلم اليقيني، والفرق بينهما: أن المعرفة تكتفي بمفعول واحد. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

لِعِلْمِ عِرْفَانٍ وَظَنِّ تُهْمَهْ   تَعْدِيَةٌ لِوَاحِدٍ مُلْتَزَمَهْ

بخلافه من العلم اليقيني، فإنَّه ينصب مفعولين، أصلهما: مبتدأ، وخبر. وأيضاً فالمعرفة تستدعي سبق جهل، وأن متعلِّقها الذوات دون النِّسب، بخلاف العلم؛ فإنَّ متعلقه المعاني، والنِّسب. وتفصيل ذلك: أنك إذا قلت: عرفت زيداً، فالمعنى أنَّك عرفت ذاته، ولم يتجاوز مفعولاً؛ لأن العلم والمعرفة تناول الشيء نفسه، ولم يقصد إلى غير ذلك. وإذا قلت: علمت زيداً فقيهاً، لم يكن المقصود: أنَّ العلم تناول نفس زيد فحسب، وإنَّما المعنى: أنَّ العلم تناول كون زيد موصوفاً بهذه الصِّفة. هذا؛ ولا يعزب عن بالك: أنَّ في ﴿مَا﴾ بألفاظها الثلاثة تغليباً لغير العقلاء على العقلاء.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُخْفُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، التقدير: الذي يوجد في صدوركم. والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿تُبْدُوهُ﴾: فعل مضارع معطوف على ما قبله مجزوم مثله، والواو فاعله، والهاء مفعول به. ﴿يَعْلَمْهُ﴾: فعل مضارع جواب الشرط، والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية. و﴿إِن﴾ ومدخولها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة.

﴿وَيَعْلَمُ﴾: الواو: حرف استئناف. (يعلم): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مَا﴾: مفعول به. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة: ﴿مَا﴾. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه، ومحله مثله، والجملة الفعلية: ﴿وَيَعْلَمُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، ولم أطلع على قراءة بنصب الفعل، أو جزمه، وهو جائز عربيَّةً، كما رأيت شرح ذلك في الآية رقم [٢٨٤] من سورة (البقرة). ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف عطف. (الله): مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ ﴿قَدِيرٌ﴾ بعدهما، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾ مضاف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَ تَجِدُ...﴾ إلخ: يعني: يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خيرٍ، أو شرٍّ، كما قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ﴾ وقال جلَّ ذكره في سورة (القيامة): ﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ فما رأى من أعماله حسناً؛ سرَّه، وأفرحه، وما رآه من قبيح؛ ساءه، وأغصَّه، وودَّ لو أنَّه تبرَّأ منه، وأن يكون بينهما أمدٌ بعيدٌ، كما يقول لشيطانه الذي كان مقروناً به في الدُّنيا، وأضلَّه، وأغواه، وجرَّأه على فعل السُّوء، كما حكى الله ذلك عنه بقوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ وبين: ﴿مُّحْضَرًا﴾ و﴿بَعِيدًا ۗ﴾ طباق، وهو من المحسِّنات البديعية. هذا؛ و﴿تَجِدُ﴾ أصله: تَوْجِد، حذفت الواو لوقوعها بين عدويتها، وهما الفتحة، والكسرة، ويقال: بين الياء، والكسرة في مضارع الغائب: (يجد) قياساً على مضارع الحاضر. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ﴾: يخوِّفكم عقابه، وبطشه، وانتقامه، وذكرت لك مراراً: أنَّه يعبَّر عن الذَّات بالنفس. ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾: فيه إشارة إلى أنَّه سبحانه إنَّما نهاهم عن معصيته، وحذَّرهم عقابه رأفةً بهم، ومراعاةً لمصالحهم، فإنَّه سبحانه ذو مغفرةٍ تُرجى رحمته، وذو عقابٍ يُخشى عذابه. هذا؛ والأمد: الغاية، وجمعه: آماد، ويقال: استولى على الأمد، أي: غلب سابقاً، قال النابغة في استعطاف النُّعمان بن المُنذر في معلَّقته البيت رقم [٢٥] [البسيط]

إلَّا لِمِثْلِكَ أَوْ مَنْ أَنْتَ سَابِقُهُ سَبْقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الأَمَدِ

هذا؛ والرأفة: شدَّة الرحمة، والعطف، والحنان. والله منزَّه عمَّا يكون في القلب، و﴿رَءُوفٌ﴾ صيغة مبالغة، ومن رأفته جلَّ ذكره بعباده أن جعل النعيم الدائم في الجنة جزاء على العمل المتقطع في الدنيا، ومن رأفته: أنه يقبل توبة عبده المذنب، ومن رأفته: أنَّ نفس العباد، وأموالهم ملكه، ثم إن يشتري ملكه بملكه فضلاً منه، ورحمةً، وإحساناً. وفي الصحيح: أنَّ رسول الله ﷺ رأى امرأة من السَّبي في غزوة حنين قد فُرِّق بينها، وبين ولدها، فجعلت كلما

رأت صبيّاً من السَّبي أخذته، فألصقته بصدرها، وهي تدور على ولدها، فلَّما وجدته؛ ضمَّته إليها، وألقمته ثديها، فقال رسول الله ﷺ: «**أترَوْنَ هَذِهِ طارحةً وَلَدَهَا في النَّارِ؛ وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لا تَطْرَحَهُ؟**». قالوا: لا يا رسول الله! قال: «**فَوَ اللهِ لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بولَدِهَا**».

الإعراب: ﴿يَوْمَ﴾: مفعول به لفعل محذوف، التقدير: اذكر يوم. وذهب الزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنسفي إلى جواز اعتباره منصوباً بـ ﴿تَوَدُّ﴾، وقدَّروا تقديرات فيها تكلُّف. وقال القرطبيُّ - رحمه الله تعالى - متعلق بقوله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ﴾ إلخ. وقيل: هو متصل بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. انتهى. والمعتمد الأول، ومثله قوله تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ...﴾ إلخ. ﴿تَجِدُ﴾: فعل مضارع. ﴿كُلُّ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿نَفْسٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به أول. ﴿عَمِلَتْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى نفس، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو: شيئاً عملته. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ متعلقان بمحذوف حال من المفعول المحذوف، و﴿مِنْ﴾ بيان لما أبهم في (ما). ﴿مُحْضَرًا﴾: مفعول ثان لـ ﴿تَجِدُ﴾ أو هو حال من الضمير المحذوف. ﴿وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ﴾: معطوف على ما قبله، وهو مثله في إعرابه، وتقديره.

﴿تَوَدُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والجملة الفعلية في محل نصب حال من فاعل: ﴿عَمِلَتْ﴾ المستتر، والرابط الضمير فقط. ﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿أَنَّ﴾ حرف مشبه بالفعل. ﴿بَيْنَهَا﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر: ﴿أَنَّ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿وَبَيْنَهُۥ﴾: معطوف عليه، والهاء فيهما في محل جر بالإضافة. ﴿أَمَدًا﴾ اسم ﴿أَنَّ﴾ مؤخر. ﴿بَعِيدًا﴾: صفته، والمصدر المؤول من ﴿أَنَّ﴾ واسمها، وخبرها في محل رفع مبتدأ عند سيبويه، وخبره محذوف، التقدير: ولو أمد بعيد موجود، وقال المبرد: المصدر المؤول في محل رفع فاعل لفعل محذوف. التقدير: ولو ثبت وجود أمد بعيد بينها وبين ما عملته. وقول المبرد هو المرجح؛ لأنَّ «لو» لا يليها إلا فعل ظاهر، أو مقدَّر، والفعل المقدر، وفاعله جملة فعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب: ﴿لَوْ﴾ محذوف، التقدير: لسرت بذلك، و﴿لَوْ﴾ ومدخولها في محل نصب مفعول به لـ ﴿تَوَدُّ﴾ هذا؛ وبعضهم يعتبر: ﴿لَوْ﴾ مصدرية تؤول مع ما بعدها بمصدر مفعول به لـ ﴿تَوَدُّ﴾ وهذا غير مسلَّم له؛ لأن الحرف المصدري لا يدخل على مثله. تأمل!

هذا؛ ويظهر لي جواز اعتبار (ما) الثانية مبتدأ، وجملة: ﴿تَوَدُّ...﴾ إلخ في محل رفع خبره، والرابط الضمير المجرور محلاً بالإضافة، والمعنى يؤيد هذا الوجه، وتكون الجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ فعل مضارع، وفاعله، ومفعولاه، والجملة الفعلية

مستأنفة لا محل لها. (الله) مبتدأ. ﴿رَءُوفُۢ﴾ خبره. ﴿بِٱلۡعِبَادِ﴾: متعلقان به، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من لفظ الجلالة؛ فلست مفنداً.

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾

الشرح: ﴿قُلۡ﴾: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحقِّ محمد ﷺ. ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾: المحبة: ميل النفس إلى الشيء لكمالٍ أدركته فيه، بحيث يحملها على ما يقربها إليه، والعبد إذا علم: أن الكمال الحقيقي ليس إلا لله، عز وجل، وأنَّ كل ما يراه كمالاً من نفسه، أو من غيره؛ فهو من الله، وبالله، وإلى الله؛ لم يكن حبه إلا لله، وفي الله، وذلك يقتضي إرادة طاعته، والرغبة فيما يقربه إليه، فلذلك فسرت المحبة بإرادة الطاعة، وجعلت مستلزمة لاتباع الرسول ﷺ، والحرص على مطاوعته. انتهى بيضاوي.

لذا فهذه الآية حاكمة على كل من ادعى المحبَّة لله؛ وليس هو على الطريقة المستقيمة؛ التي أمر الله بها، وحثَّ عليها الرسول ﷺ بقوله، وفعله، فهو كاذب في دعواه، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ: أنه قال: «**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا؛ فَهُوَ رَدٌّ**». ورحم الله من يقول: [الكامل]

تَـعْـصِـي الإِلَـهَ وَأَنْـتَ تُـظْـهِـرُ حُـبَّـهُ ... هَـذَا لَـعَـمْـرِي فِـي الْـقِـيَـاسِ بَـدِيـعُ
لَـوْ كَـانَ حُـبُّـكَ صَـادِقَـاً لأَطَـعْـتَـهُ ... إِنَّ الْـمُـحِـبَّ لِـمَـنْ يُـحِـبُّ مُـطِـيـعُ

ومن دعائه ﷺ: «**اللَّهم ارْزُقْنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ، وَحُبَّ ما يقربُني إلى حُبِّكَ، واجعلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِليَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ**». لذا فدليل حبِّ الله امتثال أمره، واجتناب نهيه. ودليل محبة الرسول ﷺ الاقتداء به، والأخذ بتعاليمه، والسير على سنته، وطريقته. ﴿يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم لله، وهو محبَّته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء، والحكماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ. ومعنى محبة الله للعبد: رضاه عنه، وغفر ذنوبه، وستر عيوبه. ومعنى بغضه للعبد: طرده من رحمته، وإبعاده من جنته. وأظهر لفظ الجلالة في مقام الإضمار في الثاني لزيادة التفخيم، والتعظيم. وخذ ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ إِذَا أَحبَّ عَبداً؛ دَعَا جبريلَ، فقالَ: إِنِّي أحبُّ فلاناً، فأحبَّه. قال: فيحبُّهُ جبريلُ، ثمَّ ينادِي في السَّمَاءِ: إنَّ الله يحبُّ فلاناً، فأحبُّوه، فيحبُّهُ أَهلُ السماءِ، قال: ثم يُوضَع لَهُ القَبولُ في الأرضِ. وإذا أَبْغَضَ عَبْدَاً؛ دعا جبريل، عليه السلام، فيقولُ: إنِّي أُبْغِضُ فلاناً، فأَبْغِضْهُ. قال: فَيُبْغِضُهُ جِبريلُ، ثم ينادِي في**

أهل السماءِ: إن الله يُبْغِض فلاناً، فأَبْغَضُوهُ. قال: فَيُبْغِضُونَهُ، ثم تُوضَعُ لَهُ البغضَاءَ في الأرضِ». أخرجه مسلم، رحمه الله.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾: وهذا من ثمرات محبَّة الله أيضاً، وعبَّر سبحانه عن رضاه عن عبده المحبِّ له على طريق الاستعارة، أو المقابلة، المعبَّر عنها في البلاغة بالمشاكلة؛ لأن المحبة من فعل القلوب، والله لا قلب له مثلنا. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لأوليائه. ﴿رَّحِيمٌ﴾: بهم. وهما صيغتا مبالغة.

يروى: أنَّ الآية الكريمة نزلت لمَّا قالت اليهود: ﴿نَحْنُ أَبْنَاؤُا اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ فعرضها عليهم رسول الله ﷺ فلم يقبلوها. وقيل: نزلت في وفد نجران، ولمَّا قالوا: إنَّما نعبد المسيح حبّاً لله. وقيل: نزلت في أقوام زعموا على عهد رسول الله ﷺ: أنهم يحبُّون الله، فأُمِرُوا أن يجعلوا لقولهم تصديقاً من العمل. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿تُحِبُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿اللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: ﴿كُنتُمْ﴾ والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط، (اتبعوني): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد. و﴿إِن﴾ ومدخولها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿يُحْبِبْكُمُ﴾: فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للأمر، والكاف مفعول به. ﴿اللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها لوقوعها جواباً للطلب. ﴿وَيَغْفِرْ﴾: معطوف على ما قبله مجزوم مثله، والفاعل يعود إلى: ﴿اللَّهُ﴾ والجملة معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ذُنُوبَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَاللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خبران له، والجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام مقرِّرة لما قبلها.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)﴾

الشرح: ﴿قُلْ أَطِيعُوا...﴾ إلخ، يروى: أنَّه لمَّا نزلت الآية السابقة؛ قال عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول رأس المنافقين لأصحابه: إنَّ محمداً يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا أن نحبَّه كما أحبَّت النَّصارى عيسى ابن مريم، فأنزل الله هذه الآية.

هذا؛ وطاعة الله: امتثال أمره، واجتناب نهيه، وطاعة الرسول ﷺ: الأخذ بتعاليمه، والتمسُّك بسنَّته، قال تعالى في سورة (الحشر): ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ وقد قرن الله طاعته بطاعة رسوله في هذه الآية، وفي الآية رقم [٥٩] من سورة (النساء): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ...﴾ إلخ، وفي كثير من الآيات: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾. هذا؛ وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى في غير هذا الموضع ـ: وفي حديثٍ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ ثَلَاثٍ؛ فرق الله بينهُ وبينَ رحمتِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ: مَنْ قَالَ: أَطِيعَ الله، ولَا أَطِيعُ الرَّسولَ، والله يقول**: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ ومن قال: أُقيم الصَّلاة، ولا أوتي الزكاة، والله يقول: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ومن فرَّق بين شكر الله، وشكر والديه، والله عز وجل يقول: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾».

هذا؛ وقال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: فإنَّه. ويكثر مثله في القرآن الكريم إذا أعظمت الشيء أعدت ذكره، وأنشد سيبويه قول عدي بن زيد العبادي ـ وهو الشاهد رقم [٨٨٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الخفيف]

لَا أَرَى الْمَوتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيءٌ   نَغَصَ الْمَوْتُ ذَا الْغِنَى وَالْفَقِيرَا

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: أنت. ﴿أَطِيعُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون؛ لأنَّ مضارعه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف هي الفارقة بين واو العلَّة، وواو الضمير. هذا هو الإعراب المتعارف عليه بين الناس، والأصل أن يقال في مثل ذلك:

فعل أمر مبني على سكون مقدَّر على آخره، منع من ظهوره إرادة التخلُّص من التقاء الساكنين، وحرِّك بالضمة لمناسبة واو الجماعة. وما أجدرك أن تلاحظ هذا في كلِّ فعل أمر مسندٍ إلى واو الجماعة، أو إلى ألف الاثنين، مثل: أطيعا، وقد حُرِّك بالفتحة لمناسبة ألف الاثنين، أو إلى ياء المؤنثة المخاطبة: أطيعي، وقد حرك بالكسرة لمناسبة ياء المخاطبة. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ﴾: مستأنفة لا محل لها.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل مضارع مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، أصله: تتولوا، فحذفت تاء المضارعة. أو هو ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة في محل جزم فعل الشرط، واعتباره مضارعاً أقوى ليبقى الكلام على نسقٍ واحد، وهو الخطاب. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إن): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾ و﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية

في محل رفع خبر: (إنَّ) والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط. هذا؛ وإن اعتبرت الجواب محذوفاً، تقديره: فلا تحزن، ونحوه؛ فتكون الجملة الاسمية مفيدة للتعليل. وهو كلام لا غبار عليه، والشرط، ومدخوله مستأنف، ومفرَّع عمَّا قبله، لا محلَّ له أيضاً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ اختار، واختصَّ بالرِّسالة، والخصائص الرُّوحانية، والجسمانيَّة، ولذلك قووا على ما لم يقوَ عليه غيرهم. (آل إبراهيم): إسماعيل، وإسحاق، وأولادهم، ونبينا ﷺ مِنْ نسل إسماعيل. (آل عمران): موسى، وهارون، أو عيسى؛ لأنَّ أمَّه ابنة عمران، وهو المعتمد بدليل الآيات التالية، وكان بين العمرانيين ألف وثمانمئة سنة. وانظر شرح (آل) في الآية رقم [١١]. وفي البخاريِّ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: آل إبراهيم، وآل عمران المؤمنون من آل إبراهيم، وآل عمران، وآل ياسين، وآل محمد، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقيل: المراد من آل إبراهيم نفسه، وكذا آل عمران، ومنه قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٤٨]: ﴿وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾.

هذا؛ وانظر شرح خلق آدم في سورة (البقرة) مفصلاً، وقد عمَّر عليه السلام تسعمئة وستين سنة أما نوح ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ فاسمه السَّكن، وقيل: عبد الغفار، وسمي نوحاً لكثرة نوحه على نفسه، وهو ابن لمك بن متوشلح بن أخنوخ، وهو إدريس النبي، وكان نوح نجاراً، واختلفوا في سبب نوحه، فقيل: لدعوته على قومه بالهلاك، وقيل: لمراجعته ربه في شأن ابنه كنعان، وقيل: لأنه مرَّ بكلب مجذوم، فقال له: اخسأ يا قبيح! فأوحى الله إليه: أعبتني، أم عبت الكلب، وقيل: أنطقه الله، فقال: أتسخر من الخالق، أم من المخلوق؟ ونوح أول رسولٍ بشريعةٍ، وأول نذير على الشرك، وأنزل الله عليه عشر صحائف.

وهو أول من عذَّبته أُمَّته لردِّهم دعوته، وأهلك الله أهل الأرض بدعائه، وكان أبا البشر كآدم، على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام، وكان أطول الأنبياء عمراً، عمَّر ألفاً وخمسين سنة، وقيل: عمر ألفاً وسِتّاً وخمسين سنة، ولم تنقص قوَّته، ولم يَشِبْ، ولم تسقط له سنٌّ، وصبر على إيذاء قومه طول عمره، وكان أبواه مؤمنين بدليل دعوته لهما بالمغفرة في الآية الأخيرة من السورة باسمه. ويروى: أنَّ جبريل ـ عليه السلام ـ قال له: يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا؟ قال: وجدتُها كدار لها بابان، دخلت من أحدهما، وخرجت من الآخر. وبشريعته غُيِّرت بعض أحكام شريعة آدم، ولا سيما تحريم زواج الأخوات. ونوح مِنْ أولي العزم الخمسة، ويقال له: شيخ المرسلين.

وأمَّا إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ فقد عاش مئة وخمساً وسبعين سنة، وبينه وبين نوح ألف سنة وستمئة وأربعون سنة، وبنوه: إسماعيل، وأمه هاجر، ولد قبل إسحاق بأربع عشرة سنة، وعاش مئة وسبعاً وثلاثين سنة، وكانت سنه يوم مات أبوه تسعاً وثمانين سنة، وإسحاق، وأمُّه سارة، وعاش مئة وثمانين سنة، ثم لمَّا توفيت سارة؛ تزوج إبراهيم ـ عليه السلام ـ قطوراً ابنة يقطن الكنعانية، فولدت له: مدين، ومديان، ويقشان، وزوان، ويشباق، وشوما، فهم ستة مع الاختلاف في تسميتهم بحسب الروايات، فيكون جملة أولاده من صلبه ثمانية. وإبراهيم من أولي العزم الخمسة.

﴿وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ اختلف في هذا، فإن كان عمران أبا موسى، وهارون، فإنَّما اختارهما الله على العالمين حيث أنزل على قومهما المنَّ، والسلوى، وذلك لم يكن لأحد من الأنبياء في العالم، وإن كان أبا مريم فإنَّه اصطفى له مريم بولادة عيسى من غير أب، ولم يكن ذلك لأحد في العالم. وهو ما رجَّحته سابقاً، والمراد بـ ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عالمو زمانهم؛ لأنَّ سيدنا، وحبيبنا أفضل الرُّسل جميعاً، وأمته أفضل الأمم بفضل الله وإنعامه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. هذا؛ وعمران والد موسى وهارون هو ابن يصهر، بن فاهث، بن لاوي بن يعقوب، وعمران، والد مريم هو ابن أشيم بن أمون، وقيل: ابن ماثان، وهو من ولد سليمان بن داود، على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام.

تنبيه بل فائدة: يقول بعض الناس: إنَّ المراد بـ (عمران) أبو طالب والد عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ فهم يزعمون: أن اسم أبي طالب عمران، يريدون من ذلك ما يريدون من التَّحريف، والتبديل، والتزييف، واسم أبي طالب الحقيقي عبد مناف.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى الله والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾. ﴿ءَادَمَ﴾: مفعول به، وما بعده معطوف عليه، و(آل): مضاف، و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة، و(آل) مضاف، و﴿عِمْرَٰنَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، وزيادة الألف والنون. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل: ﴿ٱصْطَفَىٰٓ...﴾ وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة، لا محلَّ لها من الإعراب على الاعتبارين.

﴿ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾

الشرح: ﴿ذُرِّيَّةًۢ﴾: هي النسل من بني آدم، وهي تطلق على الجمع، كما في قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٩]: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾. وتطلق على الواحد،

كما في قوله تعالى في الآية رقم [٣٨] الآتية حكاية عن قول زكريا ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾. قيل: هي مشتقة من الذَّرا بفتح الذال، وهو كل ما استذريت به، يقال: أنا في ظلِّ فلان، وفي ذراه؛ أي: في كنفه، وستره، وتحت حمايته. وهي بضم الذال أعلى الشيء. وقيل: هي مشتقة من الذَّرْء، وهو الخلق. قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ رقم [٢٤] من سورة (الملك) وقال تعالى: ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ رقم [١١] من سورة (الشورى) فأبدلت همزة الذرء ياءً، ثم شدِّدت الياء، وتبعتها الراء في التَّشديد.

﴿بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ يعني: إن الآلَيْنِ ذريةٌ واحدة متشعبة بعضها من بعض، تناصرت على الحق، وقيل: متسلسلة في الاجتباء، والاصطفاء، والنبوة. ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾: لأقوال الناس. ﴿عَلِيمٌ﴾: بأفعالهم، فيصطفي، ويختار من كان مستقيم القول، والعمل، أو هو سميع بقول امرأة عمران، عليم بنيتها.

الإعراب: ﴿ذُرِّيَّةً﴾: بدل من (نوح) وما بعده. وقيل: بدل من الآلَيْنِ فقط، أو هو حال من: ﴿آدَمَ﴾ وما عطف عليه. قاله الأخفش، ومكي: والعامل فيه: ﴿اصْطَفَى﴾. ﴿بَعْضُهَا﴾: مبتدأ، وها في محل جر بالإضافة. ﴿مِنْ بَعْضٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب صفة: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ (الله) مبتدأ، ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾: خبران لـ (الله). والجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام، فهي مؤكدة لمعنى الكلام السابق.

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾﴾

الشرح: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾: اسمها حَنةٌ بنت فاقوذ بن قنبل أم مريم جدَّة عيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. و﴿عِمْرَانَ﴾ أبو مريم لم يكن نبيّاً، وكذا أبو موسى لم يكن نبيّاً أيضاً. ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قيل: إن سبب نذرها هذا: أنَّها كانت كبيرة لا تلد، وكانوا أهل بيت من الله بمكانٍ، وأنَّها كانت تحت شجرة، فبصرت بطائر يزقُّ فرخاً له، فتحرَّكت نفسها لذلك، ودعت ربَّها أن يهب لها ولداً، ونذرت: إن ولدت؛ أن تجعل ولدها محرَّراً، أي: حقيقاً خالصاً لله تعالى، خادماً للكنيسة، حبيساً عليها، مفرغاً لعبادة الله تعالى. وكان ذلك جائزاً في شريعتهم، وكان على أولادهم أن يطيعوهم، فكان المحرَّر عندهم إذا حُرِّر جُعِلَ في الكنيسة يخدمها، ولا يبرح مقيماً فيها حتى يبلغ الحلم، ثم يخيَّر، فإن اختار الإقامة فيها؛ لا يجوز له بعد ذلك الخروج منها، وإن أبى؛ ذهب حيث شاء، ولم يكن أحد من أنبياء بني إسرائيل، وعلمائهم إلا ومن أولاده من هو محرَّر لخدمة بيت المقدس، ولم يكن يحرَّر إلا الذكور، ولا تصلح الجارية لخدمة بيت المقدس، لِمَا يصيبها من الحيض، والأذى، فحرَّرت

امرأة عمران ما في بطنها لخدمة بيت المقدس، وسألت ربَّها أن يقبل منها ما حرَّرت، ووقفت، فقال لها زوجها: ويحك ما صنعت؟ أرأيت إن كان ما في بطنك أنثى؛ فلا تصلح لذلك. فوقعا في همٍّ شديدٍ من أجل ذلك، ثمَّ توفي زوجها، وهي حامل بمريم، عليها السلام.

الإعراب: ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بفعل محذوف، تقديره: اذكر. أو هو مفعول به لهذا المقدر، وهو قول محمد بن يزيد، وقال أبو عبيد: ﴿إِذْ﴾ زائدة، وعلَّقه الزَّجاج بالفعل: ﴿ٱصْطَفَىٰٓ﴾ وعلقه مكي بـ ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ والأول هو المعتمد. ﴿قَالَتِ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿ٱمْرَأَتُ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿عِمْرَٰنَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية وزيادة الألف والنون، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿رَبِّ﴾ انظر الآية رقم [٢٥٩] من سورة (البقرة) ففيها الكفاية. ﴿إِنِّى﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمها.

﴿نَذَرْتُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ). ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به: ﴿فِى بَطْنِى﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة الموصول، وعلامة الجر كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿مُحَرَّرًا﴾: حال من: ﴿مَا﴾ ليس غيرُ، ووقعت ﴿مَا﴾ لغير العاقل للإبهام.

﴿فَتَقَبَّلْ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (تقبل): فعل دعاء، وفاعله تقديره: أنت، ومفعوله محذوف، التقدير: تقبل مني ما نذرته. ﴿مِنِّىٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ذلك حاصلاً مني؛ فتقبله مني، والآية بكاملها في محل نصب مقول القول. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ انظر إعراب مثلها في الآية رقم [٨] وهي مفيدة للتعليل، لا محل لها من الإعراب.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾: التأنيث لما نذرته، وإنَّما أنث؛ لأنه كان أنثى. ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾. قالت ذلك تحسراً، وتحزُّناً إلى ربِّها؛ لأنَّها كانت ترجو أن تلد ذكراً. والسبب ما ذكرته في الآية السابقة. وقد خرجت الجملة الفعلية من معنى الإخبار إلى معنى التحسُّر، والتحزُّن.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ أي: عالم بما ولدت، وهو إخبار من الله تعالى. وقرئ بضم التاء على أنها فاعل، فيكون من كلام أمِّ مريم على تقدير: أنها لمَّا قالت: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ خافت أن تكون أخبرت الله بذلك، فأزالت هذه الشبهة بقولها: (واللهُ أعلمُ بما وَضَعْتُ).

﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾: يعني في خدمته الكنيسة، والعُبَّاد الذين فيها، والأصل: وليس الأنثى كالذكر، فحصل في الكلام قلب، والمراد منه تفضيل الذكر على الأنثى؛ لأنَّ الذكر يصلح للخدمة، ولا تصلح الأنثى لضعفها، وما يحصل لها من الحيض، ولأنَّها عورة، ولا يجوز لها الحضور مع الرِّجال، وكانت مريم من أجمل النِّساء، وأفضلهنَّ في وقتها، كما ستعرفه فيما بعد.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ يعني: العابدة، والمطيعة بلغتهم، فأرادت بذلك التقرُّب، والطلب إليه أن يعصمها؛ حتَّى يكون فعلها مطابقاً لاسمها، وأن يصدق ظنُّها بها، ألا ترى كيف أتبعته طلب الإعاذة لها، ولولدها من الشَّيطان الرَّجيم، ومعنى ﴿أُعِيذُهَا﴾ أجيرها، وأحصِّنها، وأحفظها بكفالتك لها. ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: انظر الآية رقم [٢٦٨] من سورة (البقرة) لشرحه، ومعناه.

هذا؛ و﴿ٱلرَّجِيمِ﴾ فعيل بمعنى مفعول، أي: إنه مرجوم باللَّعن، والطَّرد عن الخير، وعن رحمة الله تعالى. قيل: هو فعيل بمعنى فاعل، أي: إنَّه يرجم غيره بالإغواء، والوسوسة.

وأصل الرَّجم: الرمي بالحجارة. والرَّجم: القتل، واللَّعن، والطَّرد، والشَّتم. وقد قيل: هذا كله في قوله تعالى حكاية عن قول قوم نوح له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ رقم [١١٦] من سورة (الشُّعراء). والرَّجم: القول بالظن، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ﴾ رقم [٢٢] من سورة (الكهف)، وقال زهير في معلَّقته رقم [٢٩]: [الطويل]

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذُقْتُمُ ... وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرَجَّمِ

بعد هذا: ففي صحيح مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلَّا نَخَسَهُ الشَّيْطَانُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخاً مِنْ نَخَسةِ الشَّيْطَانِ، إِلَّا ابْنَ مَرْيَمَ، وَأُمَّهُ»**. ثمَّ قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا...﴾ إلخ. قال العلماء: أفاد هذا الحديث: أنَّ الله تعالى استجاب دعاء أمِّ مريم، فإنَّ الشيطان ينخس جميع ولد آدم حتَّى الأنبياء، والأولياء إلا مريم، وابنها، ولا يلزم من نخس الشَّيطان إضلال المنخوس، وإغواؤه، فكم تعرَّض الشيطان للأنبياء، والأولياء بأنواع الإفساد، والإغواء، ومع ذلك عصمهم الله ممَّا يرومه الشَّيطان منهم. كما قال تعالى في سورة (الإسراء): ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ مع أنَّ كل واحد من بني آدم قد وكل به قرينُه من الشَّياطين، كما بينته فيما سبق. فمريم، وابنها وإن عُصِمَا مِنْ نخسه؛ فلم يُعْصَما من ملازمته لهما، وقال ابن الرُّومي في صُراخ المولود: [الطويل]

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ

وَإِلَّا فَمَا يُبْكِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهُ ... لأَفْسَحُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ

إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ ... بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا يُهَدَّدُ

يقول: إنَّما يكون بكاء الطفل ساعة الولادة؛ لما يعلم: أنَّ الدنيا موضع الفتن، ومكان المحن، وإلا فما يُبكيه منها؛ والحال: أنه نجا من ضيق الرَّحِم، وانفصل منه إلى موضع هو أفسح، وأرغد منه؟!

الإعراب: ﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: حرف استئناف. (لمّا): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي ظرف بمعنى «حين» عند ابن السَّراج، والفارسي، وابن جنِّي، وجماعة. تتطلَّب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه. وصوَّب ابن هشام الأول، والمشهور الثاني. ﴿وَضَعَتْهَا﴾: فعل ماض، والفاعل يعودّ إلى: ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ والتاء للتأنيث. و(ها) مفعول به، والجملة الفعلية ابتدائية لا محل لها على اعتبار (لمّا) حرفاً، وهي في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً. ﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ أيضاً. ﴿رَبِّ﴾: منادى حذف منه حرف النداء منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة للتخفيف، وانظر الآية رقم [١٢٦] من سورة (البقرة) إن أردت الزيادة، والجملة الندائية، وما بعدها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَتْ...﴾ إلخ جواب (لمَّا) لا محل لها، و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له.

﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمها. ﴿وَضَعْتُهَآ﴾: ماض، وفاعله، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ). ﴿أُنثَىٰ﴾: حال مؤكدة، وهي على تأويله بـ «مؤنثاً»، وقيل: بدل من الهاء. ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾: مبتدأ وخبر. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿أَعْلَمُ﴾ وضعت: فعل ماض، والتاء للتأنيث والفاعل يعود إلى: ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ والجملة الفعلية صلة: (ما) والعائد محذوف، التقدير: بالذي وضعته، واعتبار (ما) موصوفة، ومصدرية ضعيف معنىً، والجملة الاسمية معترضة لا محلَّ لها. ﴿وَلَيْسَ﴾: الواو: حرف عطف. (ليس): فعل ماض ناقص. ﴿ٱلذَّكَرُ﴾: اسمها. ﴿كَٱلْأُنثَىٰ﴾: متعلِّقان بمحذوف خبر: (ليس) هذا؛ ويجوز اعتبار الكاف اسماً بمعنى: مثل، فتكون مبنية على الفتح في محل نصب خبرها، وهي مضاف، و(الأنثى) مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذُّر، وجملة: (ليس. . .) إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها.

﴿وَإِنِّي﴾: الواو: حرف عطف. (إني): حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلِّم اسمها. ﴿سَمَّيْتُهَا﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله الأول. ﴿مَرْيَمَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محلِّ رفع خبر: (إنَّ) والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿وَإِنِّيٓ﴾: حرف مشبه بالفعل، والياء اسمها. ﴿أُعِيذُهَا﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: أنا، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (إنَّ) والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَذُرِّيَّتَهَا﴾: معطوف على الهاء الواقعة

مفعولاً به. وها في محلِّ جرٍّ بالإضافة. ﴿مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿أُعِيذُهَا﴾. ﴿ٱلرَّجِيمِ﴾: صفة: ﴿ٱلشَّيۡطَٰنِ﴾.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقًاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

الشرح: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أي: فقبل الله سبحانه مريم؛ الَّتي نذرتها أمُّها، كما تقدَّم. وقيل: معنى التقبُّل: التكفل في التربية، والقيام بشأنها. ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ أي: قبلها الله قبولاً حسناً. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سلك بها طريق السُّعداء. ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي: سوَّى خَلْقها من غير زيادة، ولا نقصان، فكانت تنبت في اليوم ما ينبت المولود في عام واحد. هذا؛ والقبول، والنبات اسما مصدر، والمصدر: تَقَبُّلاً، وإنباتاً؛ لأن فعلهما تقبَّل، وأَنْبَت، وهما مثل: عطاء، وسلام، وعذاب... إلخ، قال القطامي ـ وهو الشاهد رقم [٥٣٠] من كتاب: «فتح رب البريَّة» ـ: [الوافر]

أَكُفْراً بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي ... وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِئَةَ الرِّتَاعَا

أراد بعد إعطائك، لكن لمَّا قال: أنبتها؛ دلَّ على نبت، كما قال امرؤ القيس قائد الشُّعراء إلى النَّار. [الطويل]

فَصِرْنَا إِلَى الْحُسْنَى وَرَقَّ كَلَامُنَا ... وَرُضْتُ فَذَلَّتْ صَعْبَةً أَيَّمَا إِذْلَال

وإنَّما مصدر ذلَّت: ذلٌّ، ولكنَّه ردَّه إلى معنى: أَذْلَلتْ، وكذلك كلُّ ما يرد عليك في هذا الباب. فمعنى: تقبل، وقبل واحد، وأيضاً قول القطامي: [الوافر]

وَخَيْرُ الأَمْرِ مَا اسْتَقْبَلْتَ مِنْهُ ... وَلَيْسَ بِأَنْ تَتَبَّعَهُ اتِّبَاعَا

لأن تتبعت، وأتبعت بمعنى واحد، والأصل في القوم ضم القاف؛ لأنه مصدر مثل الدُّخول، والخروج، والفتح جاء في حروف قليلة، مثل الوَلوع، والْوَزوع، هذه الثلاثة لا غيرُ، قاله أبو عمرو، والكسائي، والأئمة.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾: ضمها إليه؛ أي: ألزم الله زكريا كفالتها، وقدَّر ذلك، ويسَّره له، وكانت أمُّها لمَّا ولدتها لفَّتها بخرقة، وأتت بها الأحبار سدنة بيت المقدس، وقالت: دونكم هذه النَّذيرة، فتنافسوا فيها؛ لأنها بنت إمامهم، وصاحب قُربانهم، فقال زكريا ـ عليه السلام ـ: أنا أحقُّ بها؛ لأن خالتها عندي؛ لأن زكريا، وعمران تزوجا أختين، وكانت إيشاع بنت فاقوذ، وهي أمُّ يحيى بن زكريا، وكانت حنَّة بنت فاقوذ أخت إيشاع عند عمران، فقال الرُّهبان،

والأحبار: لا! حتَّى نقترع، فانطلقوا، وهم تسعة وعشرون إلى نهر الأردن، وألقوا أقلامهم على أنَّ من ثبت قلمه في الماء، وصعد؛ فهو أولى بها، فثبت قلم زكريا، فأخذها، وبنى لها غرفةً في المسجد بسلَّم، لا يصعد إليها غيره، وكان يأتيها بأكلها، وشربها، ودهنها، فيجد عندها فاكهة الصَّيف في الشِّتاء، وفاكهة الشِّتاء في الصيف.

هذا؛ والمحراب في اللغة أكرم موضع في المجلس، والمراد به الغرفة التي بناها لها زكريا في المسجد، سمِّيت بذلك؛ لأنها محلُّ محاربة الشَّيطان؛ لأنَّ المتعبد فيها يحاربه، ولذلك يقال لكلِّ محلٍّ من محال العبادة: محراب. قال وضاح اليمن: [السريع]

رَبَّةُ مِحْرَابٍ إِذَا جِئْتُهَا لَمْ أَلْقَهَا أو أَرْتَقِي سُلَّما

أي: ربة غرفة. ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ أي: من أين لك هذا؟ قاله أبو عبيدة، والنحاس. وهذا فيه تساهل؛ لأنَّ أين سؤال عن الموضع، وأنَّى سؤال عن المذهب، والجهات، والمعنى: من أي المذاهب، ومن أي الجهات لك هذا؟ وقد فرَّق الكُميت بينهما؛ حيث قال: [المنسرح]

أَنَّى وَمِنْ أَيْنَ آبَكَ الطَّرَبُ مِنْ حَيْثُ لَا صَبْوَةٌ وَلَا رِيَبُ

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: هو من الجنَّة يرزقني الله إياه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: يحتمل أن يكون من كلام مريم، وأن يكون مستأنفاً من الله تعالى، وانظر الآية رقم [٢٧]. وفي هذا دليل على جواز كرامات الأولياء على أيديهم، وظهور خوارق العادات.

تنبيه: روى: أن فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ أهدت إلى رسول الله ﷺ على طبقٍ رغيفين، وبضعة لحم، فرجع بها إليها؛ أي: أرسلها إليها، أو أخذها، ورجع بها مغطاةً، وقال: هلمِّي يا بنية! فكشفت عن الطَّبق، فإذا هو مملوءٌ خبزاً، ولحماً، فقال لها: أنَّى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب، فقال: الحمد الذي جعلك شبيهة بسيدة نساء بني إسرائيل! ثمَّ جمع عليّاً، والحسن، والحسين، وجميع أهل بيته، فأكلوا، وشبعوا، وبقي الطعام كما هو، فأوسعت على جيرانها! انتهى جمل نقلاً من أبي السعود.

الإعراب: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: الفاء: حرف عطف. (تقبلها): فعل ماض. و(ها) مفعول به. ﴿رَبُّهَا﴾: فاعله، و(ها) في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿قَالَتْ﴾ في الآية السابقة. هذا؛ ويقرأ الفعل بلفظ الدُّعاء، و(ربَّها) بالنصب؛ أي: يا ربها، وكذا الفعلان. (أنبتها) و(كفلها) قال أبو البقاء، والزَّمخشري: فيكون الفاعل مستتراً تقديره: أنت، وتكون الجملة من مقول ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ ولكن على تقدير الفاء الفصيحة؛ أي: وإذا كان ذلك حاصلاً مني؛ فتقبلها. ﴿بِقَبُولٍ﴾: متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول مطلق. ﴿حَسَنٍ﴾: صفة (قبول)، وجملة: ﴿وَأَنۢبَتَهَا﴾ معطوفة على ما قبلها على

القراءتين. ﴿نَبَاتًا﴾: مفعول مطلق. ﴿حَسَنًا﴾: صفة له. (كَفَّلَهَا): فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿رَبُّهَا﴾ و(ها) مفعول به أول. ﴿زَكَرِيَّا﴾: مفعول به ثان منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، ويقرأ الفعل بتخفيف الفاء، فيكون: ﴿زَكَرِيَّا﴾ فاعلاً به.

﴿كُلَّمَا﴾. (كل): ظرفية متعلقة بجوابها؛ إذ هي تحتاج إلى جملتين، مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه. (ما): مصدرية توقيتية. ﴿دَخَلَ﴾: فعل ماض. ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿زَكَرِيَّا﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الألف للتعذر. ﴿ٱلْمِحْرَابَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل: ﴿دَخَلَ﴾ عند بعض النُّحاة، وفي مقدِّمتهم سيبويه، والمحقِّقون ـ وعلى رأسهم الأخفش ـ ينصبونه على التوسُّع في الكلام بإسقاط الخافض، لا على الظرفية، فهو منتصب عندهم انتصاب المفعول به على السَّعة بإجراء اللازم مجرى المتعدِّي، ومثل ذلك قل في: دخلت المدينة، ونزلت البلد، وسكنت الشَّام، وأيضاً قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٦١]: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ وهذا إن كان الفعل ثلاثيّاً، وأمَّا إذا كان رباعيّاً بأن دخلت عليه همزة التعدية، ونصب مفعولين، فالمفعول الثاني يقال فيه ما ذكر في مفعول الثلاثي، والمفعول الأوَّل يكون صريحاً، مثل: أدخلت خالداً البيتَ، و(ما) والفعل: ﴿دَخَلَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بإضافة (كلَّ) إليه، التقدير: كلَّ وقت دخول عليها المحراب، وهذا التقدير، وهذه الإضافة هما اللذان سببا الظرفية لـ (كل) وقيل: (ما) نكرة موصوفة، والجملة الفعلية بعدها صفة لها، وهي بمعنى: وقت أيضاً، والمدرِّسون في هذا الزمن يقولون: ﴿كُلَّمَا﴾ أداة شرط غير جازمة، ولا يعرفون هذا الإعراب، والتفصيل. ﴿وَجَدَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى ﴿زَكَرِيَّا﴾. ﴿عِندَهَا﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿وَجَدَ﴾ أو هو متعلق بمحذوف حال من: ﴿رِزْقًا﴾ كان صفة له... إلخ. ﴿رِزْقًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية جواب: ﴿كُلَّمَا﴾ لا محل لها، و﴿كُلَّمَا﴾ ومدخولها كلام مستأنف، لا محلَّ له.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿زَكَرِيَّا﴾، (يا): أداة نداء، تنوب مناب «أدعوا». (مريم): منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب بـ (يا). ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم مبني على السكون في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدم. ﴿لَكِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالخبر المحذوف، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر فيه. ﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر، والهاء حرف تنبيه لا محل له، والجملة الاسمية، والجملة الندائية كلتاهما في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. وقد أغرب الجمل كلَّ الغرابة حيث قال: إنَّ ﴿قَالَ﴾ هي العامل في ﴿كُلَّمَا﴾ وهو يعني: أنها الجواب، ثم ناقص نفسه، فقال: استئناف مبني على سؤال، كأنه قيل: فماذا قال زكريا عند مشاهدة هذه الآية؟ فقل: ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ...﴾ إلخ، وعلى قوله الأول فجملة: ﴿وَجَدَ

عِندَهَا رِزْقًا﴾ في محل نصب حال من زكريا، والمعنى لا يؤيده. كما أغرب أبو البقاء، فقال: ويجوز أن يكون التقدير: فقال، فحذف الفاء. وهو تكلُّف لا داعي له أيضاً.

﴿قَالَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى ﴿مَرْيَمَ﴾ هو: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، ﴿مِنْ عِندِ﴾: متعلقان بمحذوف خبره، و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَتْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَرْزُقُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به أوَّل، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يرزق الذي، أو: شيئاً يشاؤه رزقاً واسعاً. ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾: ﴿بِغَيْرِ﴾: متعلقان بـ «واسعاً» الذي قدرته لك. وقال أبو البقاء: متعلقان بمحذوف حال من المفعول؛ لأن الفعل ﴿يَرْزُقُ﴾ ينصب مفعولين؛ لأنه بمعنى: يعطي، ويمنح، وقد نصبهما، والثاني منهما: ﴿رِزْقًا﴾ الذي قدرته، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول؛ إن كانت من كلام مريم عليها السلام، ومستأنفة؛ إن كانت من كلام الله تعالى.

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾

الشرح: ﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المكان حيث هو قاعد عند مريم، أو في ذلك الوقت. فقد يستعار: هنا، وحيث، وثمَّ للزَّمان، وإن كان الأصل فيهنَّ للمكان. ومثله قوله تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ وقال في سورة (الكهف): ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾ ومثلها في سورة (الأعراف)، و(الفرقان)، و(الأحزاب) وسورة (ص) و(غافر). ولمَّا رأى زكريا، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام إتيان الرزق لمريم في غير أوانه، وعلم: أنَّ القادر على ذلك قادرٌ على الإتيان بالولد على الكبر، وكان أهل بيته قد انقرضوا؛ سأل الله الولد، وكان ذلك في جوف اللَّيل لمَّا دخل محرابه للصَّلاة، والعبادة. ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾ أي: نسلاً صالحاً، مباركاً، تقيّاً، رضيّاً. وإنما قال: ﴿طَيِّبَةً﴾ لتأنيث لفظ الذرية، كقول الشاعر: [الوافر]

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرى ... وَأَنْتَ خَلِيفَةٌ ذَاكَ الْكَمَالِ

فأنَّث «ولدته» لتأنيث لفظ الخليفة، وروي من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال، قال النبيُّ ﷺ: **«أيُّ رَجُلٍ مَاتَ، وَتَرَكَ ذُرِّيَّةً طيِّبَةً؛ أَجْرَى الله لَهُ مِثْلَ أَجْرِ عَمَلِهِمْ، وَلَمْ يَنْقُصْ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً»**. ﴿إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾: سامعه، ومجيبه.

وإذا ثبت هذا؛ فالواجب على الإنسان أن يتضرَّع إلى الله في هداية ولده، وزوجه بالتوفيق لهما، والهداية، والصَّلاح، والعفاف، والرعاية، وأن يكونا معينين له على دينه، ودنياه، حتَّى تعظم منفعته بهما في أولاه، وأخراه، ألا ترى قول زكريا في سورة (مريم): ﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ وقال هنا: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾.

هذا؛ ودلَّت الآية الكريمة على طلب الولد الصَّالح، وهي سنَّة المرسلين والصِّدِّيقين، قال الله تعالى في الآية رقم [٣٨] من سورة (الرعد): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾. وقال تعالى في سورة (الفرقان) في وصف عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾. ودعا الرسول ﷺ لأنس، ولغيره من الصحابة بكثرة الولد. وأخرج أبو داود عن معقل بن يسار ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**تَزَوَّجُوا الْوَدُودَ الْوَلُودَ فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

الإعراب: ﴿هُنَالِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب على الظَّرفية المكانية، أو الزمانية متعلِّق بالفعل بعده، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له.

﴿دَعَا﴾: فعل ماض مبني على الفتح المقدر على الألف للتعذر. ﴿زَكَرِيَّا﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿رَبَّهُۥ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿زَكَرِيَّا﴾. ﴿رَبِّ﴾: منادى حذف منه أداة النداء منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم المحذوفة... إلخ. ﴿هَبْ﴾: فعل دعاء، والفاعل تقديره: أنت. ﴿لِي﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: متعلقان بالفعل ﴿هَبْ﴾ أيضاً، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ كان صفة له: فلما قدم عليه صار حالاً، و(لدن): مبني على السكون في محل جر بـ(مِنْ) والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿ذُرِّيَّةً﴾ مفعول به. ﴿طَيِّبَةً﴾: صفة له، وجملة: ﴿هَبْ لِي...﴾ إلخ في محلِّ نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مفسرة للدعاء، لا محل لها مثلها. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها.

﴿سَمِيعُ﴾: خبرها، وهو مضاف، و﴿الدُّعَاءِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل لا محل لها، وهي في محل نصب مقول القول.

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾

الشرح: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: ناداه جبريل وحدَه، وجُمِع، كما في قولهم: فلانٌ يركب الخيل، ويلبس الثياب، وماله غير فرس، وثوب. أو على أنه أُريد بالعام الخاصُّ تعظيماً له. انتهى جمل.

ومثله نداؤه لمريم الآتي. وأنث الفعل؛ لأن لفظ: ﴿ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ جمع تكسير، وما كان مثله، يجوز تذكير الفعل، وتأنيثه، تقول: جاء الرِّجال، وجاءت الرجال، وذكِّر في سورة (الرعد) في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ لذا. لا يستدل بهذه الآية على تأنيث الملائكة. ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾: من المعلوم: أنَّ كيفية الصلاة تختلف في الديانات السَّابقة عن كيفية صلاتنا. والمحراب موضع الصلاة، كما رأيته فيما سبق. ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ﴾: سمَّاه الله بذلكِ؛ لأنه أحياه بالإيمان، والعلم، والنبوَّة. وقال بعضهم: سمي بذلك؛ لأن الله تعالى أحيا به النَّاس بالهدى. وقيل: لأنَّه أحيا به رحم أمِّه. وقيل: هو أعجميٌّ لا اشتقاق له.

﴿مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: المراد به عيسى، على نبينا، وحبيبنا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام. وسمِّي (كلمة) لأن الله تعالى. قال له: كن، فكان من غير أب، وكان يحيى أول مَنْ آمن بعيسى، وصدَّقه، وكان يحيى أكبر من عيسى بثلاث سنين، ويقال بستة أشهر، وكانا ابني خالة، كما قدَّمت لك، فلمَّا سمع زكريا شهادته؛ قام إلى عيسى فضمَّه إليه، وهو في خِرْقةٍ.

﴿وَسَيِّدٗا﴾: يسود قومه، ويفوقهم في العلم، والتقوى، والصلاح. روي: أنه ما همَّ بمعصية قطُّ، وقال الزَّجاج: السَّيد: الذي يفوق أقرانه في كلِّ شيءٍ من الخير، وقال الكسائيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ السيد من المَعِز: المُسِنُّ. وفي الحديث: «ثنيٌّ مِنَ الضَّأنِ خيرٌ من السَّيِّد من الْمَعِز». قال الشاعر في ممدوحه: [الطويل]

سَـواءٌ عَـلَـيْـهِ شـاةُ عـامٍ دَنَـتْ لَـهُ ... لِـيَـذْبَـحَـهَـا لِـلـضَّـيْـفِ أَمْ شَـاةُ سَـيِّـدِ

﴿وَحَصُورٗا﴾: أصله من الحَصْرِ، وهو الحبس. يقال: حصرني، وأحصرني: إذا حبسني. قال ابن ميادة: [الطويل]

وَمَـا هَـجْـرُ لَـيْـلَـى أَنْ تَـكُـونَ تَـبَـاعَـدَتْ ... عَـلَـيْـكَ وَلَا أَنْ أَحْـصَـرَتْـكَ شَـغُـولُ

والحصور: الذي لا يأتي النِّساء، كأنَّه مُحْجِمٌ عنهنَّ، فـ (يحيى) عليه السلام حصور، فعول بمعنى فاعل: لا يأتي النساء، ولا يقربهنَّ مع القدرة على الجماع حصراً لنفسه عن الشَّهوات، ولعلَّ هذا كان شرعَه، فأما شرعُنا؛ فالنكاح مفضَّل على العزوبة. والحصور: البخيل، قال الأخطل: [البسيط]

وَشَـارِبٍ مُـرْبِـحٍ بِـالْـكَـأْسِ نَـادَمَـنِـي ... لَا بِـالْـحَـصُـورِ وَلَا فِـيْـهَـا بِـسَـوَّارِ

والحصور: الملك؛ لأنَّه كالمحبوس من وراء حجاب. قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الكامل]

وَقُـمَـاقِـمٍ غُـلْـبِ الـرِّجَـالِ كَـأَنَّـهُـمْ ... جِـنٌّ لَـدَى بَـاب الْـحَـصُـورِ قِـيَـامُ

﴿وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾: هذا؛ والصَّلاح درجة عالية، ومكانة رفيعة، ولذلك سألها يوسف الصدِّيق في الآية رقم [١٠١] من السورة المسماة باسمه. وسألها إبراهيم في الآية رقم [٨٣] من

سورة (الشعراء) وسألها سليمان في الآية رقم [١٩] من سورة (النمل) وقال تعالى في حقِّ إسماعيل، وإدريس، وذي الكفل ـ على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة وألف سلام ـ: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

هذا؛ و﴿قَآئِمٌ﴾ أصله: قاوِم، اسم فاعل من: قام، فقلبت الواو ألفاً لتحركها، وانفتاح ما قبلها، ولم يعتدَّ بالألف الزائدة؛ لأنها حاجز غير حصين، فالتقى ساكنان: الألف الزائدة، والألف المنقلبة، فأبدلت الثانية منهما همزة، ومثله قل في اليائي: بائِع، فإن أصله: بايع. و(سيِّد) أصله: سيْوِد، فاجتمعت الياء والواو، والأول منهما ساكن، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت في الياء، فصار سيد.

أمَّا (كلمة) ففيها ثلاث لغات: الأولى: كَلِمَة، على وزن: نَبِقَةٌ، وهي الفصحى، ولغة أهل الحجاز، وبها نطق القرآن الكريم في آيات كثيرة، وجمعها: كَلِمَ، كنبق. والثانية: كِلْمَة، على وزن سِدْرة. والثالثة: كَلْمَة، على وزن نمرة، وهما لغتا تميم، وجمع الأولى كِلْم كِسدْر، والثانية كَلْم كَتَمْر، وكذلك كل ما كان على وزن فَعِل، نحو كَبِد، وكتف، فإنه يجوز فيه اللغات الثلاث، فإن كان الوسط حرف حلق، جاز فيه لغة رابعة، وهي إتباع الأول للثاني في الكسر، نحو: فِخِذ، وشِهِد. وهي في الأصل: قولٌ مفرد، مثل: محمد، وقام، وقعد، وفي، ولن، وقد تطلق على الجمل المفيدة، كما في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ وقال النبي ﷺ: «**أصدقُ كلمةٍ قالها شاعرٌ كلمةُ لبيدٍ**: [الطويل]

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ـ مَا خَلَا اللهَ ـ بَاطِلُ»

المراد بـ«كلمة»: الشطر الأول بكامله. وتقول: قال فلان: كلمة، والمراد به كلام كثير، وهو شائع، ومستعمل عربيَّةً في القديم، والحديث. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

كَلَامُنَا لَفْظٌ مُفِيْدٌ كَاسْتَقِمْ وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ

وَاحِدُهُ كَلِمَةٌ وَالْقَوْلُ عَمْ وَكِلْمَةٌ بِهَا كَلَامٌ قَدْ يُؤَمْ

الإعراب: ﴿فَنَادَتْهُ﴾: الفاء: حرف عطف. (نادته): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث الساكنة، والهاء مفعول به. ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها في الآية السابقة، لا محل لها مثلها، والجملة الاسمية: ﴿وَهُوَ قَآئِمٌ﴾ في محل نصب حال من الضمير الواقع مفعولاً به. ﴿يُصَلِّى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى زكريا، والجملة الفعلية تحتمل أن تكون في محل رفع خبر ثان للمبتدأ: (هو) وأن تكون في محل نصب حال من الضمير الواقع مفعولاً به، فيكون من تعدُّد الحال، وهو جملة، وأن تكون في محل نصب حال من الضمير المستتر بـ﴿قَآئِمٌ﴾ فتكون من تداخل الحال، وعلى كلِّ الوجوه؛ فالرابط الضمير، وهو الفاعل المستتر. ﴿فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾: متعلقان بـ﴿قَآئِمٌ﴾ أو بالفعل: ﴿يُصَلِّى﴾ على التنازع.

﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يُبَشِّرُكَ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾ والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿أَنَّ﴾ و﴿أَنَّ﴾ واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: بكون الله، والجار والمجرور متعلقان بالفعل نادى. هذا؛ ويقرأ بكسر همزة (إن). وعليه فالجملة اسمية، وهي في محل نصب مفعول به لنادى، وهو بمعنى: قال، وهو أولى من تقدير قول محذوف، ﴿بِيَحْيَىٰ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من: (يحيىٰ). ﴿بِكَلِمَةٍ﴾: متعلقان بـ﴿مُصَدِّقًا﴾ لأنه اسم فاعل، لذا فيه ضمير مستتر هو فاعله. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: (كلمة). ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا﴾: هذه الأسماء معطوفة على ﴿مُصَدِّقًا﴾. ﴿مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: (نبيّاً).

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾

الشرح: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾: هذا استفهام عن كيفية حدوث الغلام، ووجوده، واستبعاد من حيث العادة، أو استعظام لشأن خلقه، أو هو تعجب من قدرة الله، لا استبعاد، وإنكار، فلا يرد: كيف قال زكريا ذلك؟ ولم يكن شاكّاً في قدرة الله تعالى عليه. انتهى جمل بتصرُّف.

وأيضاً في معنى الاستفهام وجهان: أحدهما: أنه سأل: هل يكون له الولد؛ وهو، وامرأته على حاليهما، أو يُردَّان إلى حال مَنْ يلد؟ الثاني: سأل: هل يرزق الولد من امرأته العاقر، أو مِنْ غيرها؟ هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ بمعنى أصلح رحمها، وهيأه للحمل، وجعلها ولوداً بقدرته، وإرادته.

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾: قال ابن عباس، والضَّحاك ـ رضي الله عنه ـ: كان يوم بُشِّر ابن عشرين ومئة سنة، وكانت امرأته بنت ثمان وتسعين سنة، وكان عمر إبراهيم، وزوجه سارة يوم بُشِّرا بإسحاق مثل عمر زكريا، وزوجه، كما ذكرته في الآية رقم [٧٢] من سورة (هود) على نبينا، وحبيبنا، وشفيعنا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: من العجائب، وخوارق العادات مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخٍ فانٍ، وعجوزٍ عاقر. هذا؛ وقد قال في حقِّ زكريا: ﴿يَفْعَلُ﴾ وفي حق مريم: ﴿يَخْلُقُ﴾ مع اشتراكهما في بشارتهما بولد؛ لأن استبعاد زكريا لم يكن لأمرٍ خارق، بل نادر، وبعيد، فحسن التعبير بيفعل، واستبعاد مريم كان لأمرٍ خارق، أي: لأغْرَبِيَّتِهِ؛ لأنه اختراعٌ بلا مادة، أي: من غير إحالة على سبب ظاهر، فكان ذكر الخلق أنسب. انتهى جمل.

هذا، و﴿عَاقِرٌ﴾: لا تلد؛ لأنه مشتق من العقر، وهو القطع؛ لقطعه النسل. ولم يؤنَّث؛ لأن العقر من أوصاف النِّساء، كما في حائض، وطالق، ونحو ذلك. وقيل: عاقر، يراد به ذات عقر على النَّسب، ولو كان على الفعل؛ لقال: عقرت، فهي عقيرة؛ كأنَّ بها عقراً، أي: كبراً من السنِّ يمنعها من الولد. أما ﴿غُلَٰمٌ﴾ فإنه يطلق على الصبي دون البلوغ مشتقٌ من الغُلمة، وهو شدة طلب النكاح، واغتلم الفحل غُلْمَةً: هاج من شهوة الضِّراب. قالت ليلى الأخيليَّة في مدح الحجَّاج: [الطويل]

إِذَا هَبَطَ الْحَجَّاجُ أَرْضاً مَرِيضَةً ... تَتَبَّعَ أَقْصَى دَائِهَا فَشَفَاهَا
شَفَاهَا مِنَ الدَّاءِ الْعُضَالِ الَّذِي بِهَا ... غُلَامٌ إِذَا هَزَّ الْقَنَاةَ سَقَاهَا

ويجمع غلام على: غِلمان، وغِلْمة، وأغْلِمة. كما يطلق على العبد، والأجير؛ وإن كانا كبيرين. هذا؛ وقد يقال للأنثى غلامة. خذ قول الشاعر: [الطويل]

فَلَمْ أَرَ عَامَاً أَكْثَرَ الدهرُ هَالِكاً ... وَوَجْهَ غُلَامٍ يُشْتَرَى وَغُلَامَهُ

وقال أوس بن غلفاء الهجيمي يصف فرساً: [الوافر]

وَمُرْكِضَةٍ صَرِيحِي أَبُوهَا ... تُهَانُ لَهَا الْغُلَامَةُ وَالْغُلَامُ

الإعراب: ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿زَكَرِيَّا﴾. ﴿رَبِّ﴾: منادى مثل سابقه. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام مبني على السكون بمعنى: كيف في محل نصب على الحال مِنْ ﴿غُلَٰمٌ﴾ والعامل: ﴿يَكُونُ﴾. وإن اعتبرته بمعنى: من أين؟ فيكون في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر: ﴿يَكُونُ﴾ على نقصانه، ومتعلق به على تمامه. ﴿لِى﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿يَكُونُ﴾ تقدم على اسمها، وذلك على الوجه الأول في: ﴿أَنَّىٰ﴾ أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿غُلَٰمٌ﴾ وذلك على الوجه الثاني في: ﴿أَنَّىٰ﴾ وأيضاً على اعتبار ﴿يَكُونُ﴾ تامّاً. ﴿غُلَٰمٌ﴾: اسم ﴿يَكُونُ﴾، أو فاعل به، وجملة: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَقَدْ﴾: الواو: واو الحال. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. (بلغني): فعل ماض، والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به. ﴿ٱلْكِبَرُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ياء المتكلم، والرابط: الواو، والضمير. ﴿وَٱمْرَأَتِى﴾: مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة. ﴿عَاقِرٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وفاعله مستتر تقديره: هو، يعود إلى: (الله). ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر، و(ذا) اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، واللام للبعد،

والكاف حرف خطاب لا محل له، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله الفعل الذي بعده، التقدير: الله يفعل ما يشاء فعلاً كائناً مثل ذلك الفعل. هذا؛ وقيل: الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: الأمر كذلك، كما قيل: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، و﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ مؤخر. والأول هو المعتمد. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ على الوجهين الأولين في: ﴿كَذَٰلِكَ﴾. ﴿يَفۡعَلُ﴾: فعل مضارع، وفاعله يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: يفعل الذي أو شيئاً يشاؤه، وجملة: ﴿يَفۡعَلُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو لفظ الجلالة، وأما على الوجه الثالث في لفظ الجلالة؛ فالجملة الفعلية في محل نصب حال منه، والكلام: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ﴿٤١﴾﴾

الشرح: ﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ﴾: علامة أعرف بها حمل امرأتي بالغلام؛ لأستقبله بالفرح، والسرور، والشُّكر للربِّ الغفور. ﴿قَالَ ءَايَتُكَ﴾ أي: علامتك على الذي طلبت معرفة علمه: ﴿أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: لا تقدر على تكليم الناس ثلاثة أيام؛ أي: مدَّة ثلاثة أيام بلياليها. والقائل جبريل بأمر الله تعالى له. ﴿إِلَّا رَمۡزٗاۗ﴾ يعني: إشارة، وهي قد تكون باليد، وبالعين وبالإيماء بالرأس، وكانت إشارته بالإصبع المسبِّحة. وقد يكون الرمز باللِّسان من غير تبيين كلام، وهو الصوت الخفي شبه الهمس. ومن الإشارة بالعين قول عمر ابن أبي ربيعة المخرومي: [الطويل]

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا ... إِشَارَةَ مَحْزُونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ
فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قَالَ مَرْحَباً ... وَأَهْلاً وسَهْلاً بِالْحَبِيبِ الْمُتَيَّمِ

قال جمهور المفسرين: عُقِد لسانه عن تكليم الناس ثلاثة أيام مع بقائه على قدرة التسبيح والذِّكر، ولذلك قال في الآية: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ يعني: في أيام منعك من الكلام. وهذه من الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة؛ لأنَّ قدرته على التسبيح، والذكر مع عجزه على تكليم الناس بأمور الدنيا، وذلك مع صحة الجسم، وسلامة الجوارح من أعظم المعجزات. وإنما منع من الكلام مع الناس ليخلص في الأيام الثلاثة لعبادة الله تعالى، وذكره، ولا

يشغل لسانه بشيء آخر. توفيراً منه على قضاء حق هذه النعمة الجسيمة، وشكراً لله على إجابته فيما طلب الآية من أجله، وأن يكون ذلك دليلاً على وجود الحمل؛ ليتمَّ سروره بذلك. هذا؛ وقال قتادة، وغيره: إنَّما أمسك لسانه عن الكلام عقوبةً لسؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إيَّاه ببشارة الولد. وقالوا: وكذلك إن لم يكن مِنْ مرض: خرس، أو نحوه؛ ففيه على كل حال عقابٌ له.

هذا؛ و﴿رَمْزًا﴾ بفتح الراء، وسكون الميم، ويقرأ بضمهما، وقرئ بفتحهما، على أنه جمع: رامز كخادم، وخدم، وهو حال مِنْ: ﴿زَكَرِيَّا﴾ وَمِنْ ﴿النَّاسَ﴾ أي: من الفاعل، والمفعول. ومثله قول عنترة ـ وهو الشاهد رقم [١٥٢] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الوافر]

مَـتَـى مَـا تَـلْـقَـنِـي فَـرْدَيْـنِ تَـرْجُـفْ ... رَوَانِـفُ أَلْـيَـتَـيْـكَ وَتُـسْـتَـطَـارَا

فقوله: فردين: حال من الفاعل المستتر، وياء المتكلِّم المفعول به. وأيضاً قول الآخر: [الكامل]

فَـلَـئِنْ لَـقِـيْـتُـكَ خَـالِـيَـيْـنِ لَـتَـعْـلَـمَـنْ ... أَيِّـي وَأَيُّـكَ فَـارِسُ الأَحْـزَابِ؟

فقوله: خاليين حال من تاء المتكلم، وكاف الخطاب.

هذا، و(العشي) ومثله: عشية، وجمعها: عشيات، ويراد بهما: الوقت من صلاة المغرب إلى العتمة، وهو قول الجوهري، وقال: قلت: قال الأزهري: العشيُّ ما بين زوال الشَّمس وغروبها. انتهى. وهذا هو المعتمد. و(الإبكار) هو من طلوع الشمس إلى الضَّحوة الكبرى. ومثله: بُكرة (بضم الباء وسكون الكاف) قال زهير في معلقته: [الطويل]

بَـكَـرْنَ بُـكُـوراً وَاسْـتَـحَـرْنَ بِـسُـحْـرَةٍ ... فَـهُـنَّ وَوَادِي الـرَّسِّ كَـالْـيَـدِ فِـي الـفَـمِ

قال: بكَر، وبكَّر، وابتكر، وأبكَر، وباكَر كلُّه بمعنى واحد. هذا؛ وبين (العشي) و(الإبكار) طباق، وهو نوع من المقابلة، كما يقال العشي بالغدو، كما في قوله تعالى في سورة (غافر) في حق فرعون، وأشياعه: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ كما يقابل العشي بالغداة، قال تعالى في سورة (الكهف): ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ كما يقابل الغدو بالآصال، وهو جمع أصيل، قال تعالى في سورة (النور): ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ...﴾ إلخ، ومثله في آخر سورة (الأعراف).

الإعراب: ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿زَكَرِيَّا﴾. ﴿رَبِّ﴾: تقدم إعرابها. ﴿ٱجْعَل﴾: فعل دعاء: والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿لِّيٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ءَايَةً﴾: مفعول به، والجملة الفعلية، والندائية كلتاهما في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ مستأنفة، لا محل لها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى جبريل. ﴿ءَايَتُكَ﴾: مبتدأ، والكاف في محل جر بالإضافة. (أن): حرف مصدري، ونصب. (لا): نافية. ﴿تُكَلِّمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن) والفاعل مستتر، تقديره: أنت، و(أنْ) والفعل

المضارع في تأويل مصدر في محل رفع خبر المبتدأ، التقدير: آيتك عدم تكليمك الناس، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به. ﴿ثَلَٰثَةَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، و﴿ثَلَٰثَةَ﴾: مضاف، و﴿أَيَّامٍ﴾ مضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿رَمۡزٗاۗ﴾: مستثنى بـ ﴿إِلَّا﴾ وانظر الشرح.

﴿وَٱذۡكُر﴾ الواو: حرف عطف. (اذكر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: فاشكر، واذكر، والفاء هي الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا حصل منك عدم القدرة على الكلام؛ فاشكر، واذكر. وهذا الكلام كلُّه في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿رَّبَّكَ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿كَثِيرٗا﴾: صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: اذكر ربك ذكراً كثيراً. وبعضهم يعربه: نائب مفعول مطلق. ﴿وَسَبِّحۡ﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: أنت، ومفعوله محذوف، التقدير: سبح ربك، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿بِٱلۡعَشِيِّ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾: معطوف على ما قبله.

خاتمة: ولد يحيى، عليه السلام، وتولَّاه ربُّه بعنايته، ورعاه برعايته، وحفظه من المعاصي، والسَّيئات، وكمَّله، وجمَّله بأحسن الصفات، وكريم الأخلاق والعادات، وقد فاق قومه في عبادة، وطاعة ربِّ الأرض، والسموات، وقد برع في الشريعة الموسوية، وصار مرجعاً مهمَّاً لكل من يستفتي في أحكامها، وكان أحد حكام البلاد الشَّامية في عهده. يقال له: هيرودس، وكانت له بنت أخ، يقال لها: هيروديا بارعة الجمال، أراد عمُّها أن يتزوَّجها، وكانت البنت، وأمُّها تريدان ذلك، غير أنَّ يحيى عليه السلام لم يرض عن هذا الزواج، ولم يوافق عليه؛ لأنَّه محرَّم في التوراة، فانتهزت أمُّ الفتاة إخراج بنتها إلى عمِّها في زينتها، فرقصت أمامه، فَسُرَّ منها، وطلب إليها أن تقول ما تتمنَّاه؛ ليعمله لها، وكانت أمُّها قد لقَّنتها أن تطلب رأس يحيى بن زكريا في هذا الطَّبق إذا سألها عمُّها أن تقول ما تتمنَّاه، فقال: ويحك سليني غير هذا. قالت: لا أسألك غيره، فلمَّا أبت عليه؛ بعث إليه، فأتي برأسه في الطبق، والرأس يتكلَّم؛ حتى وضع بين يديه، وهو يقول: لا تحلُّ لك، فلمَّا أصبح إذا دمه يغلي، ويفور، فأمر بترابٍ، فألقي عليه، فارتفع الدَّم فوقه، فلم يزل يغلي، ويفور؛ حتى جاء بختنصر، كما عرفته.

فلمَّا سمع زكريا عليه السلام أن ابنه يحيى قد قُتِل؛ انطلق هارباً في الأرض؛ حتَّى دخل بستاناً عند بيت المقدس فيه الأشجار، فنادته شجرة: يا نبي الله! إلى هنا، فلمَّا أتاها؛ انفتقت له الشَّجرة، ودخل في وسطها، فانضمَّت عليه، فأخذ إبليس ـ أخزاه الله ـ بطرف ردائه، فأخرجه مِنْ شقِّها، وأخذ الملك، وأعوانه يبحثون عن زكريا، عليه السلام؛ حتَّى أتوا البستان، فدلَّهم إبليس

ـ أخزاه الله ـ على الشُّجرة. التي دخلها زكريا، وأراهم طرف ردائه، فأخذوا المناشير، ونشروا الشَّجرة نصفين، فسلَّط الله عليهم أخبث أهل الأرض علجاً مجوسيّاً، كما رأيت في الآية رقم [٢٥٩] من سورة (البقرة) وذكرتها أيضاً في الآية رقم [٥] من سورة (الإسراء) فانتقم الله منهم بدم يحيى، وزكريا، على نبينا، وحبيبنا، وعليهم ألف ألف صلاة، وألف ألف سلام، فقتل عظماءهم، وسبى منهم مئةً وسبعين ألفاً. انتهى بتصرف كبير من قصص الأنبياء للنجّار، وللثّعالبي. وهكذا كان خبث بني إسرائيل، وخروجهم عن طاعة الله تعالى، وقتلهم الأنبياء بغير حقٍّ.

وينبغي أن تعلم: أنَّ قتل هذين النَّبيَّين كان في حياة عيسى، وأنَّهم كانوا جميعاً في زمنٍ واحد، ولم يذكر أحد عمر يحيى عليه السلام، غير أنَّ عبد الوهاب النجار ـ رحمه الله تعالى ـ قال: ولما بلغ المسيح أنَّ يحيى قد قتل؛ جهر بدعوته، وقام في الناس واعظاً. انتهى. وإذا علمت: أن يحيى، وعيسى متقاربان في زمن ولادتهما، وأن عيسى قد رفع، وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة تبيَّن لك أن يحيى لم يعش ثلاثين عاماً. تأمل، وتدبَّر، وربك أعلم، وأجلُّ وأكرم، وصلى الله على حبيبنا وشفيعنا محمدٍ، وعلى عيسى، ويحيى، وزكريا، وجميع الأنبياء والمرسلين، وسلم.

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: قال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: كلَّموها شفاهاً كرامةً لها. ومن أنكر الكرامة زعم: أن ذلك كان معجزة لزكريا، عليه السلام، وإرهاصاً لنبوة عيسى، عليه السلام، فإن الإجماع على أنَّ الله تعالى لم يستنبئ امرأة لقوله تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾. وقيل: ألهموها. وصحَّح القرطبي نبوتها.

والمعتمد الأوَّل للآية القرآنية. والاصطفاء الأول: تقبلها من أمها، ولم تقبل قبلها أنثى، وتفريغها للعبادة، وإغناؤها برزق الجنَّة عن الكسب، وتطهيرها عمَّا يستقذر من النساء. والثاني: هدايتُها، وإرسال الملائكة إليها، وتخصيصها بالكرامات السَّنية، كالولد من غير أب، وتبرئتها ممَّا قذفها اليهود به بإنطاق الطفل، وجعلها، وابنها آيةً للعالمين. والمراد بـ (الملائكة): جبريل وحده، كما في ندائه لزكريا، عليه السلام. هذا؛ وقيل المراد بـ ﴿نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: نساء زمانها، والمعتمد: أنَّ المراد نساء العالمين أجمع إلى يوم الصُّور. وقد نظم بعضهم الأفضلية بينها، وبين غيرها، فقال: [البسيط]

فُضْلَى النِّسَا بِنْتُ عِمْرَانٍ فَفَاطِمَةٌ ... خَدِيجَةٌ ثُمَّ مَنْ قَدْ بَرَّأَ اللهُ

والمراد بـ «مَنْ قد برأ الله»: عائشة ـ رضي الله عنها ـ. وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**كَمُلَ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَرْيَمُ بنتُ**

عِمْرانَ، وَآسِيَةَ امرأةُ فرعونَ، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ. وفَضْلُ عائشةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضلِ الثَّريد عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». متَّفق عليه. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**حسبُكَ مِنْ نساءِ العالمينَ: مَرْيَمُ بِنتُ عِمْرانَ، وخَدِيجةُ بنتُ خُويلدٍ، وفاطِمةُ بنتُ محمدٍ، وَآسِيَةُ امرأَةُ فِرْعَونَ**». أخرجه الترمذي.

قال القرطبي: وروي من طرقٍ صحيحة: أنَّه عليه الصلاة، والسلام قال فيما رواه عنه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «**خَيْرُ نِساءِ العالمين أرْبعٌ: مريمُ بنتُ عمرانَ، وآسِيَةُ بنتُ مزاحمٍ امرأةُ فرعونَ، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ**». ومن حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**أَفْضَلُ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ خَدِيْجَةُ بنتُ خويلدٍ، وفاطمةُ بنتُ محمدٍ، ومريمُ بنتُ عمرانَ، وآسِيَةُ بنتُ مزَاحم امرأةُ فرعون**». وروى موسى بن عقبة بن كُرَيب عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيدةُ نِسَاءِ العالَمينَ مَرْيَمُ، ثمَّ فاطمةُ، ثم خديجةُ، ثم آسِيَةُ**» ثم ذكر رحمه الله تعالى أموراً اختصَّ الله بها مريم، واستدل بها على نبوَّتها. والجواب ما ذكرته سابقاً من أنَّ الله لم ينبِّئ امرأةً بدليل الآية من سورة (الأنبياء). والله الموفق، والمعين، وبه أستعين.

هذا؛ وإن الله تعالى سيزوِّج نبينا ﷺ في الجنَّة مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وكلثوم أخت موسى بن عمران. فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ النبي ﷺ دخل على خديجة ـ رضي الله عنها ـ، وهي في الموت، فقال لها: «**يا خديجةُ! إذا لقيت ضرَّاتك؛ فأقرئِيهِنَّ مني السَّلاَمَ**». فقالت: يا رسول الله! وهل تزوجت قبلي؟! قال: «**لا، ولكنَّ اللهَ زوَّجني مريمَ بنتَ عمران، وآسِيَةَ بنتَ مزاحم امرأة فرعون، وكلثوم أخت موسى**». فقالت له: يا رسول الله بالرِّفاه، والبنين!

وذكر الحافظ ابن عساكر عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: جاء جبريل ـ عليه السلام ـ إلى رسول الله ﷺ فمرَّت خديجة ـ رضي الله عنها ـ فقال جبريل: «إنَّ اللهَ يُقْرِئُها السَّلامَ، وَيُبَشِّرها ببيْتٍ في الجنةِ من قَصَبٍ، بعيدٍ من اللَّهَبِ لا صخب فيهِ، ولا نَصَب، من لؤلؤةٍ جوْفَاءَ بين بيتِ مريمَ بنتِ عِمرانَ، وبيتِ آسِيةَ بنتِ مُزاحم». انتهى. والمحفوظ: أنَّها قالت حينما أعلمها الرسول ﷺ بذلك: هو السَّلام، ومنه السَّلام، وإليه يعود السَّلام. فلم تقل: وعليه السلام؛ لأنَّه لا يجوز للعبد أن يقول: وعلى الله السلام، وهذا مِنْ كمال عقلها، وفهمها، وذكائها ـ رضي الله عنها ـ، وأرضاها.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو: حرف عطف. (إذ): معطوف على مثله في الآية رقم [٣٥]، ﴿قَالَتِ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها.

(يا): أداة نداء تنوب مناب «أدعو». (مريم): منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب بـ (يا). ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾ والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملتان بعدها معطوفتان عليها فهما في محل رفع مثلها. ﴿عَلَىٰ نِسَآءِ﴾:

متعلقان بما قبلهما، و﴿نِسَآءِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والآية كلُّها في محل نصب مقول القول.

﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى...﴾ إلخ: القنوت: الطاعة، والانقياد، والخضوع. وقال تعالى عنها في آخر سورة التحريم: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: أطيلي القيام في الصَّلاة. وقال الأوزاعي: ـ رحمه الله تعالى ـ لما قالت لها الملائكة ذلك؛ قامت في الصَّلاة حتى ورمت قدماها، وسالتا دماً، وقيحاً، عليها السلام. والقنوت: أن تذكر الله قائماً، والقنوت: طول القيام. قاله ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ وقرأ قوله تعالى في سورة (الزُّمر): ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾. وقال النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ الصلاةِ طُولُ الْقُنُوتِ**». أخرجه مسلم، وغيره، وقال الشاعر: [الرمل]

قَـانِـتـاً للهِ يَـدْعُـو رَبَّـهُ ... وَعَـلَـى عَـمْـدٍ مِـنَ الـنَّـاسِ اعـتَـزَلْ

﴿وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى﴾: إنما قدَّم السجود على الرُّكوع؛ لأن الواو لا تقتضي الترتيب، إنَّما هي لمطلق الجمع، كأنه قيل لها: افعلي الركوع، والسجود. وقيل: إنَّما قدم السجود على الركوع؛ لأنه كان كذلك في شريعتهم. وقال ابن الأنباري: أمرها أمراً عامّاً، وحضَّها على فعل الخير، فكأنه قال: استعملي السُّجود في حالٍ، والركوع في حال، ولم يرد تقديم السجود على الركوع، بل أراد العموم بالأمر على اختلاف الحالين، وإنما قال: ﴿وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ ولم يقل: مع الراكعات؛ لأن لفظ الراكعين أعمُّ، فيدخل فيه الرجال، والنساء، والصَّلاة مع الرجال أفضل، وأتم، وعلى كلٍّ ففيه تغليب الرِّجال على النِّساء، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾. وانظر شرح الركوع في الآية رقم [٤٣] من سورة (البقرة) فإنَّه جيد.

هذا؛ و(مريم) بالعبرية بمعنى الخادم، ثم سُمِّي به كثيرٌ من النِّساء، و(مريم) في لسان العرب هي التي تكون مخالطةً، ولم تُذكر امرأة باسمها صريحاً في القرآن الكريم إلا مريم، وقد ذكرت في ثلاثين موضعاً. هذا؛ وفي القاموس المحيط: المريم: هي التي تحبُّ مخالطة الرجال، ولا تفجر. وهذا يناقض ما قبله. قال الشاعر: [الطويل]

وَزَائِـرَةٍ لَـيْـلاً كَـمَـا لاَحَ بَـارِقٌ ... تَـضَـوَّعَ مِـنْـهَـا لِـلْـكِـسَـاءِ عَـبِـيـرُ

فَـقُـلْـتُ لَـهَـا أَهْـلاً وَسَـهْـلاً أَمَـرْيَـمٌ؟ ... فَـقَـالَـتْ: نَـعَـمْ مَـنْ أَنْـتَ قُـلْـتُ لَـهَـا: زِيرُ

الإعراب: ﴿يَٰمَرۡيَمُ﴾: منادى مثل ما قبله. ﴿ٱقۡنُتِي﴾: فعل أمر مبني على حذف النون؛ لأن مضارعه من الأفعال الخمسة، وياء المؤنثة المخاطبة ضمير متصل في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية، وما عطف عليها، والجملة الندائية كلُّ ذلك في محل نصب مقول قول الملائكة. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، وهو مضاف، و﴿ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ مضاف إليه مجرور... إلخ.

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾

الشرح: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما ذكر من أمر زكريا، ويحيى، ومريم، على نبينا، وعليهم ألف صلاة، وألف سلام. ﴿مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ﴾: من أخبار الغيب. والغيب: كلُّ ما غاب عنَّا. ولم تدركه حواسنا، قال الشاعر: [الطويل]

وَبِالغَيْبِ آمَنَّا، وَقَدْ كَانَ قَوْمُنَا ... يُصَلُّونَ للأَوْثَانِ قَبْلَ مُحَمَّدِ

ورحم الله مَنْ يقول: [الطويل]

إِذَا مَا خَلَوْتَ الدَّهْرَ يَوْماً فَلا تَقُلْ ... خَلَوْتُ وَلَكِنْ قُلْ عَلَيَّ رَقِيبُ

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ يَغْفُلُ سَاعَةً ... وَلَا أَنَّ مَا يَخْفَى عَلَيْهِ يَغِيبُ

﴿نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ﴾: نخبرك به بواسطة جبريل الأمين، عليه السَّلام. وأصل الوحي: الإشارة السريعة، والوحي: الكتاب المنزل على الرَّسول المرسل لقومه، مثل موسى، وعيسى، ومحمَّد، صلى الله عليهم أجمعين. والوحي أيضاً: الكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك، وتسخير الطَّير لما خُلِق له إلهام، والوحي إلى النَّحل، وتسخيرها لما خلقها الله له إلهام. واختلف في الوحي إلى أمِّ موسى، فقيل: كان في المنام. وقيل: كان إلهاماً. وقيل: كان يكلِّمها جبريل، عليه السلام. قال تعالى في سورة (طه) حكاية عمَّا أجاب به موسى فرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: إن الحارث بن هشام ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! كيف يأتيك الوحي؟ فقال: **«أحيَاناً يَأْتِيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيَنْفَصِمُ عَنِّي؛ وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ. وَأَحْيَاناً يأْتِيني الْمَلَكُ رَجُلاً، فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعِي مَا يَقُولُ»**. قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فلقد رأيتُه ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فيفصمُ عنهُ؛ وإن جبينه ليتفصَّد عرقاً. أخرجه البخاريُّ ومسلم، وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ قال: سألت رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله! هل تحس بالوحي؟ فقال ﷺ: **«أَسْمَعُ صَلَاصِلَ، ثمَّ أَسْكُتُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَمَا مِنْ مرَّةَ يُوحَى إِلَيَّ؛ إِلَّا ظَنَنْتُ أَنَّ نَفْسِي تُقْبَضُ»**. أخرجه الإمام أحمد، رحمه الله تعالى.

﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ وما كنت موجوداً عندهم. ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ﴾ في النَّهر حين اختصموا، وتنافسوا على كفالة مريم، كلٌّ يريد أن تكون في كنفه، ورعايته، حتَّى فصلت بينهم القُرعة، وكانت من نصيب زكريا، كما رأيت في الآية [٣٧]. هذا؛ و﴿يُلْقُونَ﴾ بمعنى: ألقوا، و﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ بمعنى: اختصموا، أو هما حكاية حال ماضية.

هذا؛ و﴿لَدَيْهِمْ﴾ ظرف مكان بمعنى: عند، وهي معربة مثلها، وقد تستعملان في الزَّمان، وإذا أضيف «لدى» إلى مضمر، ـ كما هنا ـ قلبت ألفه ياءً عند جميع العرب، إلا بني الحارث بن كعب، وبني خُنَاعَةَ، فلا يقلبونها تسوية بين الظاهر، والمضمر، كما لا يقلبون ألف «على» و«إلى» ونحوهما، وعلى لغتهم جاء قول الشاعر: [الوافر]

إِلَاكُمْ يَا خُنَاعَةُ لَا إِلَانَا ... عَزَا النَّاسُ الضَّرَاعَةَ وَالْهَوَانَا

فَلَوْ بَرَأَتْ عقُولُكُمو بَصَرْتُمْ ... بِأَنَّ دَوَاءَ دَائِكُمُو لَدَانَا

وَذَلِكُمُو إِذَا وَاثَقْتُمُونَا ... عَلَى قَصْرِ اعْتِمَادِكُمُو عَلَانَا

ثمَّ اعلم: أنَّ «عند» أمكنُ مِن: «لدى» من وجهين: أحدهما: أنها تكون ظرفاً للأعيان، والمعاني، تقول: هذا القولُ عندي صواب، وعند فلان علمٌ به. ويمتنع ذلك في لدى، ذكره ابن الشَّجري في أماليه، ومَبْرُمان في حواشيه. والثاني: أنَّك تقول: عندي مال؛ وإن كان غائباً، ولا تقول: لديَّ مال إلا إذا كان حاضراً، قاله جماعة، منهم الحريري، وأبو هلال العسكري، وابن الشَّجري. وزعم المعري: أنه لا فرق بينهما، وقول غيره أصحُّ. انتهى. فتح القريب المجيب.

تنبيه: الآية الكريمة تذكِّر النبي ﷺ بما أنعم الله عليه مِنْ نعم. ومثلها كثير في القرآن، وفيه مَنٌّ على الرَّسول العظيم لا يخفى، وهذا المنُّ من الله على نبيِّه مقبولٌ؛ لأنَّ الله عز وجل يمنُّ بما يملك حقيقة، فهو المنعم، والمتفضل، بخلاف منِّ العبد على العبد، فهو مذمومٌ؛ لأنَّ العبد يمنُّ على العبد بما رزقه الله تعالى، وأنعم به عليه، فلا ملك له في الحقيقة. تأمَّل، وتدبَّر.

الإعراب: ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿مِنْ أَنبَآءِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿أَنبَآءِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْغَيْبِ﴾ مضاف إليه. ﴿نُوحِيهِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿نُوحِيهِ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر ثان للمبتدأ، إن عاد الضمير على الإشارة، أو في محل نصب حال من الغيب إن عاد الضمير إليه، هذا وقال الجمل: جملة: ﴿نُوحِيهِ﴾ مستأنفة، وقال أبو البقاء: ﴿مِنْ أَنبَآءِ﴾ متعلقان بالفعل بعدهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المنصوب. ولا أؤيد ما قالا.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال، (ما): نافية. ﴿كُنتَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السُّكون، والتاء اسمه. ﴿لَدَيْهِمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر: (كان) فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المنقلبة ياءً، لاتصاله بالهاء التي هي ضمير متَّصل في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان، مبني على السكون في محل نصب متعلق بالخبر المحذوف، والجملة الفعلية في محل نصب حال من كاف الخطاب، والرابط: الواو، والضمير. ﴿يُلْقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿أَقْلَامَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَيُّهُمْ﴾: مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يَكْفُلُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿أَيُّهُمْ﴾. ﴿مَرْيَمَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: ليعلموا أيهم... إلخ، ومعلوم: أن هذا المحذوف يتحصَّل منه جار ومجرور بالتأويل، وهما متعلقان بالفعل: ﴿يُلْقُونَ﴾ وقدَّر السَّمين المحذوف: ينظرون أيهم... إلخ، وبه قال مكيٌّ، والجملة الفعلية هذه في محل نصب حال من واو الجماعة، وقدَّر الجلال: يقترعون ليظهر لهم أيهم... إلخ، فاعتبره فاعلاً لفعل محذوف، ولا وجه له؛ لأنَّ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، إلا إذا اعتبر: (أيكم) اسماً موصولاً، وجملة: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ...﴾ إلخ مثل سابقتها إعراباً، ومحلاً بسبب العطف.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾

الشرح: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ﴾: انظر الآية رقم [٤٢]. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ سمي هذا الولد: كلمة؛ لأنه وجد بكلمة: «**كن**» فهو من باب إطلاق السبب على المُسَبَّب، والمراد: أنَّه وُجِد من غير واسطة أب؛ لأنَّ غيره وإن وجد بتلك الكلمة لكنه بواسطة أب، وقوله تعالى: ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إيحاء إليها بأنها تلده من غير أبٍ، فلذا ينسب إليها. وعادة الرِّجال نسبتُهم إلى آبائهم. ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا﴾: ذا وجاهةٍ عالية، ومكانة في الدنيا والآخرة، وجاهته في الدنيا بالنبوة، وكثرة الأتباع بالحقِّ، لا الذين حرفوا، وغيروا، وزيَّفوا شريعته، وتعاليمه، وفي الآخرة بالشَّفاعة لهم، والتنصُّل ممَّن بدلوا دينه، وهديه، واتخذوه إلهاً. انظر آخر سورة المائدة، تجده مفصَّلاً. ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي: عند الله يوم القيامة.

هذا؛ و﴿الْمَسِيحُ﴾ لقب عيسى، عليه السلام، وهو من الألقاب المشرفة، كالصدِّيق لأبي بكر، والفاروق لعمر ـ رضي الله عنه ـ. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سمي عيسى مسيحاً؛ لأنه ما مسح ذا عاهة؛ إلا برأ منها. وقيل: لأنه مُسِح بالبركة، كما حكى القرآن قوله

في سورة (مريم): ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾. وقيل: لأنه مُسِح من الأقذار، وطُهِّر من الذنوب. وقيل: سمِّي مسيحاً؛ لأنَّه كان مسيح القدمين، لا أخمص له. ولا أرتضيه؛ لأنه عيب في الرِّجال، ونبينا ﷺ كان خمصان الأخمصين. وأصله بالعبرانية المشيح بالشِّين، فَيُعرَّب، كما عرِّب موسى، وأصله موشى، كما ذكرته لك مراراً. هذا وسمِّي الدَّجال مسيحاً؛ لأنه ممسوح العينين، وقد يكون المسيح بمعنى الكذَّاب، وهو بالدَّجال ألصق، وعليه تكون الكلمة من الأضداد، وبعضهم يقول في الدَّجال: المسيخ بالخاء، قال الشاعر: [الرجز]

إنَّ الْـمَـسِـيـحَ يَـقْـتُـلُ الْـمَـسَـيـخَـا

وأطلق على الدَّجال المسيح بالحاء؛ لأنه يسيح في الأرض؛ أي: يطوفها، ويدخل جميع بلدانها إلا مكَّة، والمدينة، وبيت المقدس، فالدَّجال يمسح الأرض محنةً، وابن مريم يمسحها منحةً. وفي حديث أبي بكر بن أبي شيبة عن سَمُرة بن جُنْدُب ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ: وأنه سيظهر على الأرض كلها إلا الحرم، وبيت المقدس، وأنَّه يحصر المؤمنين في بيت المقدس... وذكر الحديث. وفي صحيح مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ من قول الرسول ﷺ: «**فبينما هو كذلك؛ إذ بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين، واضعاً كَفَّيْهِ على أجنحةِ ملكين. إذا طأطأ رأسه؛ قَطَرَ، وإذا رفعه؛ تحدَّر منه جُمَانٌ، كاللؤلؤ، فلا يَحِلُّ لكافر يجد ريح نَفَسِه إلا مات. ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفُه، فيطلبه؛ حتى يدركه بباب لدٍّ، فيقتله...**» إلخ الحديث بطوله.

قوله: مهرودتين، أي: في شقَّتين، أو حُلَّتين. وقيل: الثوب المهرود الَّذي يُصبغ بالوَرْسِ، ثمَّ بالزعفران. والجمان ـ بضم الجيم ـ: حبات من الفضة، تصنع على هيئة اللؤلؤ الكبار، ولُدٌّ بضم اللام، وتشديد الدال: بلدة في فلسطين.

تنبيه: يحكى: أنَّ طبيباً نصرانيّاً حاذقاً جاء مجلس هارون الرشيد، فناظر عليَّ بن الحسين الواقدي، رحمه الله تعالى، فقال النَّصرانيُّ: إنَّ في كتابكم ما يدل على أن عيسى جزء من الله تعالى، وتلا هذه الآية، وقوله تعالى في سورة (النِّساء) رقم [١٧٠]: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ فقرأ الواقدي رحمه الله له قوله تعالى في سورة (الأحقاف) رقم [١٣]: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ وقال له: إذاً يلزم أن تكون جميع الأشياء جزءاً منه سبحانه. فانقطع النصرانيُّ، وأسلم، وفرح الرَّشيد بذلك فرحاً شديداً، وأعطى الواقديَّ هديةً فاخرةً.

الإعراب: ﴿إِذْ﴾: بدل من مثلها في الآية رقم [٤٢] وقال القرطبيُّ: متعلقة بـ ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ ويجوز أن تكون متعلِّقة بقوله: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ﴾ وقال مكي مثله. والمعنى لا يؤيد قوله قطعاً، وعلى الأول فالكلام كلُّه معترض بين البدل، والمبدل منه. ﴿قَالَتِ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذْ﴾ إليها. (يا): أداة

نداء. (مريم): منادى مفرد علم مبني على الضم في محل نصب بـ (يا). ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يُبَشِّرُكِ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾ والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والآية كلُّها في محل نصب مقول القول. ﴿بِكَلِمَةٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنْهُ﴾: جار، ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: (كلمة).

﴿ٱسْمُهُ﴾: مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: خبره. ﴿عِيسَى﴾: بدل من المسيح، أو عطف بيان عليه، والجملة الاسمية: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى﴾ في محل جر صفة ثانية لـ (كلمة) أو في محل نصب حال من (كلمة) بعد وصفها بما تقدم، والرابط: الضمير. وذكِّر؛ لأنَّ المراد بـ (كلمة) الولد، وذُكِّر لهذا المعنى. ﴿ٱبْنُ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو، و﴿ٱبْنُ﴾ مضاف، و﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة؛ لأنَّه ممنوع من الصَّرف للعلمية والتأنيث المعنوي، والجملة الاسمية هذه في محل نصب حال من: ﴿عِيسَى﴾ أو من (كلمة). وقال ابن المنير ـ رحمه الله تعالى ـ بعد كلام كثير: وأما ﴿عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ فخبر مبتدأ محذوف، تقديره: هو عيسى، وعلى قوله يكون (ابن) صفة عيسى، وتكون: الجملة: هو عيسى... إلخ في محل نصب حال من المسيح، والرابط المبتدأ المحذوف. ﴿وَجِيهًا﴾: حال من: ﴿عِيسَى﴾. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا﴾: متعلقان بـ ﴿وَجِيهًا﴾. ﴿وَٱلْءَاخِرَةِ﴾: معطوف على: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾. ﴿وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾: متعلقان بمحذوف حال أيضاً معطوفة على: ﴿وَجِيهًا﴾ أي: وكائناً من المقرَّبين. هذا؛ واعتبر الجمل ﴿ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ أخباراً للمبتدأ الأول. والمعتمد ما ذكرته أولاً.

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾: المهد هو في الأصل: ما يمهَّد للصبي، ويوطَّأ؛ لينام فيه في رضاعه. قال تعالى في الآية رقم [١٢]: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾. والكلام على حذف مضاف، أي: في زمان المهد، ومدته، والذي تكلَّم به في المهد هو ما حكاه القرآن عنه في سورة (مريم): ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ إلخ، وبعد ما تكلم بهذا الكلام سكت، فلم يتكلَّم حتى بلغ أوان النُّطق عادةً. انتهى جمل. ﴿وَكَهْلًا﴾: زمن الكهولة هو ما بين الثلاثين والأربعين سنة، وفائدة البشارة بكلامه كهلاً؛ والناس في ذلك سواء: البشارة بحياته إلى سن الكهولة، وعدم التفاوت بين كلامه طفلاً، وكلامه كهلاً. انتهى جمل. وقال المهدوي: وفائدة الآية: أنه أعلمهم، أن عيسى عليه السلام يكلمهم في المهد، ويعيش إلى أن يكلمهم كهلاً؛ إذ كانت العادة: أنَّ من تكلَّم في المهد لم يعش. انتهى قرطبي. وهذا يردُّه ما أذكره قريباً.

وقال: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ آيةً، ويكلمهم كهلاً بالوحي، والرِّسالة، وقال أبو العباس ـ رحمه الله تعالى ـ: كلمهم في المهد حين برّأ أمه، فقال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾. وأما كلامه؛ وهو

كهل. فإذا أنزله الله من السماء؛ أنزله على صورة ابن ثلاث وثلاثين سنة ـ وهو الكهل ـ فيقول لهم: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ كما قال في المهد. فهاتان آيتان، وحجَّتان. انتهى. قرطبي.

﴿وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ أي: من العباد الصَّالحين، مثل إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وغيرهم من الأنبياء، وفي وصف عيسى ـ عليه السلام ـ بهذه الصفات المتغايرة إشارةٌ إلى أنَّه بمعزل عن الألوهيَّة. ففيه رد على النَّصارى، وقوله: (من الصالحين) أي: الكاملين في الصلاح، فإنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً؛ لأنه لا يكون لذلك إلا إذا كان في جميع الأفعال، والمتروك مواظباً على المنهج الأصلح، وذلك من تناول جميع المقامات في الدين، والدنيا، في أفعال القلوب، والجوارح، ولهذا قال سليمان ـ عليه الصلاة والسلام ـ بعد النبوة: **«وأَدْخِلْنِي برَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالحينَ»**. وقال يوسف الصديق بعد النبوة أيضاً: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ﴾.

بعد هذا أقول: مشايخ هذا الزمن يحبُّون أن تُقبَّل أيديهم، وأرجلهم، ويقولون: يستحب تقبيل يد الرَّجل الصالح! فهلا يأتون بالرجل الصالح بعدما قدمته في وصف الصالحين؟! وخذ ما يلي: قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: دخلت السُّوق مع النبي ﷺ، فاشترى سراويل، وقال للوزان: **«زِنْ، وَأَرْجِحْ»**. فوثب الوزان إلى يد الرسول ﷺ ليقبلها، فجذب يده، وقال: **«هَذَا تَفْعَلُهُ الأَعَاجِمُ بِمُلُوكِهَا، وَلَسْتُ بِمَلِكٍ، وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ»**. ثمَّ أخذ السراويل، فذهبتُ لأحملها، فقال: **«صَاحِبُ الشَّيءِ أَحَقُّ بِشَيئِهِ أَنْ يَحْمِلَهُ»**. فالرسول ﷺ لم يرض أن تقبل يده، وجذب يده من يد الوزَّان. وقال ما قال، وهم يمدُّون أيديهم على طولها؛ ليتبارك بها مَنْ يقبلها من الناس.

بعد هذا؛ فقد قال صاحب السيرة الحلبية ـ رحمه الله تعالى ـ: وقد تكلَّم جماعة في المهد، نظمهم الجلال السُّيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في قوله: [الطويل]

تَكَلَّمَ فِي الْمَهْدِ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ... وَيَحْيَى وَعِيسَى وَالخَلِيلُ وَمَرْيَمُ
وَمُبْرِي جُرَيْجٍ ثُمَّ شَاهِدُ يُوسُفٍ ... وَطِفْلٌ لَدَى الأُخْدُودِ يَرْوِيهِ مُسْلِمُ
وَطِفْلٌ عَلَيْهِ مُرَّ بِالأَمَةِ الَّتِي ... يُقَالُ لَهَا تَزْنِي وَلَا تَتَكَلَّمُ
وَمَاشِطَةٌ فِي عَهْدِ فِرْعَوْنَ طِفْلُهَا ... وَفِي زَمَنِ الْهَادِي الْمُبَارَكِ يُخْتَمُ

وقال بعضهم: لكنَّ النبي ﷺ حصر مَنْ تكلَّم في المهد في ثلاثة، ولم يذكر نفسه، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، قال: **«لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلَّا ثَلاثَةٌ: عِيسى ابنُ مَرْيَمَ، وصاحبُ جُرَيْجٍ، وَابْنُ الْمَرْأَةِ الَّتِي مُرَّ عليْها بامْرأةٍ، يُقَالُ لَهَا: زَنَتْ»**. وقد يقال: هذا الحصر إضافي، أي: ثلاثة من بني إسرائيل، أو إنَّ ذلك كان قبل أن يعلم بما زاد، ثمَّ بعد هذا أعلمه الله تعالى بما شاء من ذلك، فأخبره به، والله أعلم.

الإعراب: ﴿وَيُكَلِّمُ﴾: الواو: حرف عطف. (يكلم): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى المسيح عيسى. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على: ﴿وَجِيهًا﴾ فهي في محل نصب حال مثله. ﴿فِي ٱلْمَهْدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من فاعله المستتر. ﴿وَكَهْلًا﴾: معطوف على: ﴿وَجِيهًا﴾ أيضاً. ﴿وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: متعلقان بمحذوف معطوف على وجيهاً أيضاً، التقدير: وكائناً من الصالحين.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾

الشرح: ﴿قَالَتْ﴾: قالت تخاطب جبريل الأمين. ﴿رَبِّ﴾: يا رب! أي: يا سيدي، ومثله في سورة (يوسف) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: «**اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ، فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكرَ رَبِّهِ**» لأنه لمَّا تمثل لها؛ قال لها: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ فلمَّا سمعت ذلك منه ذلك؛ استفهمت عن طريق الولد، فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ أي: بنكاح: ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فروي: أن جبريل ـ عليه السلام ـ حين قال لها: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ وفي سُورتها قال لها: ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ نفخ في جيب درعها، وكُمِّها. قاله ابن جريج. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أخذ جبريل رُدْنَ قميصها بإصْبَعِهِ. فنفخ فيه، فحملت من ساعتها بعيسى. وقيل: غير ذلك. انظر ما ذكرته في سُورتها. ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ أي: إذا أراد إحكامه، وإتقانه، كما سبق في علمه. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ أي: احْدُثْ، فيحدث، وليس المراد حقيقة أمر، بل هو تمثيل لما تعلقت به إرادته تعالى. بلا مهلةٍ بطاعة المأمور، والمطيع بلا توقف. انتهى بيضاوي. قال الشاعر: [الطويل]

إِذَا مَـــا أَرَادَ اللهُ أَمْـــراً فَـــإِنَّـــمَـــا يَــقُــولُ لَــهُ كُــنْ قَــوْلَــةً فَــيَــكُــونُ

هذا؛ و﴿بَشَرٌ﴾ يطلق على الإنسان ذكراً، أو أنثى، مفرداً، أو جمعاً، مثل كلمة: «**الفُلك**» تطلق على المفرد، والجمع. وسمي بنو آدم بشراً؛ لبدوِّ بشرتهم، وهي ظاهر الجلد، بخلاف أكثر المخلوقات فإنَّها مكسوة بالشَّعر، أو بالصوف، أو بالرِّيش. هذا؛ و﴿بَشَرٌ﴾ يطلق على المفرد، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ الآية رقم [١٧] من سورة (مريم) ولذا ثُنِّي في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ الآية رقم [٤٧] من سورة (المؤمنون). ويطلق على الجمع كما في قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا﴾ رقم [٣٦] من سورة (مريم).

تنبيه: قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ: القضاء يحتمل الحكم، كقوله تعالى: ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي: ليحكم ما قد علم: أنه يكون كائناً، أو ليتمَّ أمراً كان قد أراده، وما أراد كونه؛ فهو مفعول لا محالة. انتهى. هذا؛ والماضي: قضى.

والمصدر: قضاء (بالمدِّ) لأن لام الفعل ياء؛ إذ أصل ماضيه: (قَضَيَ) بفتح الياء، فقلبت ألفاً؛ لتحركها، وانفتاح ما قبلها. ومصدره: (قضياً) فأبدلت الثانية همزة، فصار قضاءً ممدوداً. وجمع القضاء أقضية كعطاء، وأعطية، وهو في الأصل: إحكام الشيء، وإمضاؤه، والفراغ منه، كما في قول الشاعر، وهو الشاهد رقم [١٧٩] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الخفيف]

وَجْهُكَ الْبَدْرُ لَا بَلِ الشَّمْسُ لَوْ لَمْ يُقْضَ لِلشَّمْسِ كَسْفَةٌ أَوْ أُفُولُ

وقال الشَّماخ في عمر ـ رضي الله عنه ـ يرثيه: [الطويل]

قَضَيْتَ أُمُوراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا بَوَائِقَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ

ويكون بمعنى الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، وبمعنى العلم. تقول: قضيت بكذا، أي: أعلمتك به. وبمعنى الإتمام. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. وبمعنى الفعل، قال تعالى، حكاية عن قول السحرة لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾.

وبمعنى الكتابة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: مَكْتُوباً في اللوح المحفوظ. وبمعنى الفصل، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وبمعنى الخلق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾. وبمعنى بلوغ الأرب، والمراد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا﴾، وبمعنى وفاء الدين، تقول: قضى فلان ما عليه: إذا أوفى ذمته، وأبرأها ممَّا عليه من ديون. انتهى قسطلاني. شرح البخاري بتصرف. وأضيف: أنه يكون بمعنى: أوحينا، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ...﴾ إلخ.

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ فإذا كان القضاء بهذه المعاني؛ فلا يجوز إطلاق القول بأنَّ المعاصي بقضاء الله تعالى؛ لأنَّه إن أريد به الأمر، فلا خلاف: أنه لا يجوز ذلك؛ لأنَّ الله لا يأمر بها، فإنه لا يأمر الفحشاء. وقال زكريا بن سلام: جاء رجل إلى الحسن البصري، فقال: إنَّه طلق امرأته ثلاثاً، فقال: قد عصيت ربك، وبانت منك، فقال الرجل: قضى الله عليَّ، فقال الحسن، وكان فصيحاً: ما قضى الله ذلك! أي: ما أمر به. وقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾.

هذا (والأمر) واحد الأمور، وليس بمصدر: أمر، يأمرُ. قال العلماء: والأمر في القرآن يتصرف على أربعة عشر وجهاً: الأول: الدِّين، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: دين الإسلام. الثاني: القول، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ يعني: قولنا. وقوله تعالى: ﴿فَتَنَـٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾ يعني: قولهم. الثالث: العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ يعني لما وجب العذاب بأهل النار. الرابع: عيسى، عليه السلام. قال تعالى في هذه الآية: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾ يعني: عيسى، وكان في علمه تعالى أن يكون من غير أبٍ. الخامس: القتل ببدر، قال

تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يعني: القتل ببدر، وقوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ يعني: قتل أهل مكَّة.

السادس: فتح مكة، قال تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ يعني: فتح مكة. السَّابع: قتل قريظة، وجلاء النَّضير، قال تعالى: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾.

الثامن: القيامة، قال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ التاسع: القضاء، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ يعني: القضاء. العاشر: الوحي، قال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: ينزل الوحي من السماء إلى الأرض، وقوله تعالى: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ يعني: الوحي. الحادي عشر: أمر الخلق، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ يعني: أمور الخلائق. الثاني عشر: النصر، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ يعنون: النَّصر. الثالث عشر: الذنب، قال تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ أي: جزاء ذنبها. الرابع عشر: الشأن، والفعل، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: فعله وشأنه، وقال جل شأنه: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي: عن فعله، وقوله. انتهى قرطبي.

الإعراب: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ﴾: انظر الإعراب في الآية رقم [٤٠] ففيها الكفاية. ﴿وَلَمْ﴾: الواو: واو الحال، (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم، ﴿يَمْسَسْنِى﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لم) والنون للوقاية، وياء المتكلم مفعول به، ﴿بَشَرٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ياء المتكلم، والرابط: الواو، والضمير. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى جبريل المبلِّغ عن الله ـ قال: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ انظر الآية رقم [٤٠] وما فيها من اعتبارات، والمرجح فيها، والمرجح هنا الوجه الثاني من الاعتبارات، والكلام في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزَّمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، يعني: على السكون في محل نصب. ﴿قَضَىٰٓ﴾: فعل ماض مبني على الفتح مقدَّر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ تقديره: هو. ﴿أَمْرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: واقعة في جواب: ﴿إِذَا﴾. (إنما): كافة ومكفوفة. ﴿يَقُولُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿كُن﴾: فعل أمر تام، وفاعله مستتر تقديره: أنت، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: (إنما يقول...): جواب: ﴿إِذَا﴾ لا محل لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام مستأنف هنا، لا محلَّ له.

تنبيه: ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، وفيه معنى الشرط، واختلف في ناصبها، فقيل: الجواب، واعترض بأن الجواب قد يقترن بالفاء، وما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها.

وقيل: بالشرط. واعترض أيضاً بأنَّها مضافة للشرط، والمضاف إليه، لا يعمل في المضاف، وأجيب عن هذا الاعتراض بأنَّ القائلين: إنَّ الناصب هو الشرط، لا يقولون بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليه، فلذا كان الثاني أرجح، وإن كان الأول أشهر، فقول بعض المعربين، خافض لشرطه، منصوب بجوابه جري على غير الراجح، ولذا كانت عبارة سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ (خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك) محتملةً لما في ذلك من احتمالات.

﴿فَيَكُونُ﴾: الفاء: حرف عطف. (يكون): فعل مضارع تام. وفاعله مستتر تقديره: هو يعود إلى: ﴿أَمْرًا﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو يكون، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. وهذا القول يُعزىٰ لسيبويه. وقيل: إنَّ ﴿يَكُونُ﴾ معطوف على: ﴿يَقُولُ لَهُۥ﴾ وهذا يعزى للزَّجاج، والطَّبري. وقيل: معطوف على: ﴿كُن﴾ من حيث المعنى، وهو قول الفارسي. انتهى سليمان الجمل. هذا؛ وقرأ ابن عامر بالفعل: (يكونَ) بالنَّصب على أنه منصوب بـ: «أنْ» مضمرة بعد الفاء على اعتبارها للسببية، وضعَّفه أبو البقاء. وأقول: لا يمكن سبك مصدر من أن المضمرة، والفعل، وعطفه على مصدر متصيَّد من الفعل السَّبق؛ إذ لا يقال: ليكن حدوث، فحدوث.

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾: الضمير المنصوب يعود إلى: ﴿عِيسَى﴾ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ ويقرأ الفعل بالياء، والنون. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: الخط، والكتابة، فكان ـ عليه الصلاة، والسلام ـ أحسن الناس خطّاً. وقيل: المراد جنس الكتب الإلهية، وأفرد الكتابين: الإنجيل، والتوراة بالذِّكر لزيادة فضلهما، وشرفهما. وانظر الآية رقم [٣]. أما (الحكمة) فهي المعرفة بالدِّين، والفقه في التأويل، والفهم الذي هو منحةٌ، ونورٌ من الله تعالى. قاله مالك، رحمه الله تعالى. وقال أبو بكر بن دريد ـ رحمه الله تعالى ـ كلُّ كلمةٍ وعظتك، أو دَعَتْك إلى مكرمة، أو نهتك عن قبيح؛ فهي حكمةٌ، وقال أبو العالية ـ رحمه الله تعالى ـ: الحكمة: خشيةَ الله، فإن خشية الله رأسُ كل حكمة. وقد روى ابن مردويه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً عن النبي ﷺ: «**رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ اللهِ**». وهو حديثٌ لا أصل له في كتب السُّنة إلَّا أنَّ المعنى صحيح.

خاتمة بل فائدة: قال الصَّلاح الصَّفدي ـ رحمه الله تعالى ـ: رأيت بخط ابن خِلِّكان: أنَّ مسلماً ناظر نصرانيّاً، فقال النَّصرانيُّ في خلال كلامه، مختفياً في خطابه بقبيح آثامه: يا مسلم! كيف كان وجه عائشة زوج نبيكم في تخلُّفها عن الرَّكب عن نبيكم، معتذرة بضياع عِقْدها؟! فقال

له المسلم: يا نصراني! كان وجهها كوجه بنت عمران لما أتت بعيسى تحمله من غير زوج! فمهما اعتقدت في دينك من براءة مريم؛ اعتقدنا مثله في ديننا من براءة عائشة زوج نبينا! فانقطع النَّصرانيُّ، ولم يُحِرْ جواباً.

الإعراب: ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾: الواو: حرف عطف. (يعلمه): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿اللَّهُ﴾ والهاء مفعول به أول. ﴿الْكِتَابَ﴾: مفعول به ثان، والأسماء بعده معطوفة عليه، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل، ذكرت تطييباً لقلبها، وإزاحةً لما همَّها من خوف العتاب، واللوم لمَّا علمت أنَّها تلد من غير زوج. وقيل: معطوفة على: ﴿وَجِيهًا﴾ أي: فهي في محل نصب حال مثله، وارتضاه مكيٌّ، وعلى هذين الاعتبارين؛ فالآية السابقة معترضةٌ بين المتعاطفين.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي: ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل، وكان أول أنبياء بني إسرائيل يوسف بن يعقوب، وآخرهم عيسى، على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام. وتخصيص بني إسرائيل بالذِّكر لبيان: أنه أرسل إليهم خاصةً، ولم تكن رسالته، كما في رسالة نبينا، وعظيمنا محمدٍ ﷺ، فإنها كانت للإنس، والجنِّ، والأبيض، والأسود، والعرب، والعجم.

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: بعلامة على صدقي. والمراد: المعجزات التي أيده الله بها. ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم﴾ أي: أصور لكم؛ أي: لأجل هدايتكم، وتصديقكم بي. ﴿مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ الهيئة: الصورة المهيَّأة. من قولهم: هيأت الشيء: إذا قدَّرته، وأصلحته. ﴿فَأَنفُخُ فِيهِ﴾ أي: في الطين المصور. والضمير للكاف؛ أي: في ذلك الشيء المماثل لهيئة الطير. ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا﴾: فيصير طيراً كسائر الطيور، وانظر شرح الطير في سورة (البقرة) رقم [٢٦٠]. ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه: بتكوين الله، وتخليقه. والمعنى: أني أعمل هذا التصوير أنا، فأما خلق الحياة؛ فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزة على يد عيسى، عليه السلام، مثل نفخ جبريل، عليه السلام، في كمِّ مريم، والصانع هو الله تعالى، قال وهب ـ رحمه الله تعالى ـ: كان الطائر الذي يصنعه يطير مادام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم؛ سقط ميتاً؛ ليتميَّز فعل الخلق من فعل الله تعالى. وقيل: لم يخلق غير الخفاش؛ هذا الذي يطير في الليل. إنما خص الخفاش؛ لأنه من أكمل الطير خلقاً؛ لأنه يطير بلا ريشٍ، وله أسنان. ويقال: إنَّ الأنثى منه لها ثدي، وتحيض، ولا تبيض، كما تبيض سائر الطيور، وإنما يلد كما يلد الحيوان.

﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾ وهو الذي يولد أعمى. ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ البرص: داء معروف، وهو بياض يظهر على جلد الإنسان ينفر منه الناس، فهو داءٌ قبيح. ولم يقل في هذين: ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ لأنهما ليس فيهما كبير غرابة بالنسبة لغيرهما من المعجزات، فتوهُّم الألوهيَّة فيهما بعيد، فلا يحتاج للتنبيه على نفيه.

﴿وَأُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ : قد أحيا أربعة أنفس: العاذر، وكان صديقاً له، وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح. فأما عاذر؛ فإنه كان توفي قبل ذلك بأيام، فدعا الله، فقام بإذن الله، فعاش، وولد له. وأما ابن العجوز، فإنه مرَّ به يُحمل على سريره، فدعا الله، فقام، ولبس ثيابه، وحمل السَّرير على عنقه، ورجع إلى أهله، وولد له. وأما ابنه العاشر؛ فكان أبوها يأخذ العشور من الناس، فكان أتى عليها ليلة، فدعا الله فعاشت، وولد لها، فلمَّا رأوا ذلك؛ قالوا: إنَّك تحيي من كان موته قريباً، فلعلَّهم لم يموتوا، فأصابتهم سكتةٌ، فَأَحْيِ لنا سام بن نوح.

فقال لهم: دلُّوني على قبره، فخرج، وخرج معه القوم؛ حتى انتهى إلى قبره، فدعا الله: فخرج من قبره، وقد شاب رأسُه، فقال له عيسى ـ عليه السلام ـ: كيف شاب رأسك؛ ولم يكن في زمانكم شيب؟ فقال: يا روح الله! إنك دعوتني، فسمعت صوتاً يقول: أجب روح الله!

فظننت: أنَّ القيامة قد قامت، فَمِنْ هول ذلك شاب رأسي، فسأله عن النَّزْع، فقال: يا روح الله، إن مرارة النزع لم تذهب من حنجرتي، وقد كان من وقت موته أكثر من أربعة آلاف سنة، فقال للقوم: صدِّقوه، فإنَّه نبي! فآمن به بعضهم، وكذَّبه بعضهم، وقالوا: هذا سحرٌ.

﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ هذه معجزةٌ أخرى؛ حيث كان يتكلَّم بشيء مِنَ الغائب، فقد كان عليه الصلاة والسلام يخبر الرَّجل بما أكل البارحة، وبما يأكله اليوم، وبما يدَّخر لِلْعَشَاء. وقال سعيد بن جبير، وغيره: كان يخبر الصبيان في الكتَّاب بما يدَّخر آباؤهم؛ حتى منعوهم من الجلوس معه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: في الذي ذُكِرَ من المعجزات. ﴿لَءَايَةً لَّكُمْ﴾ أي: لعلامة، ودلالة على صدق أنِّي رسولٌ من الله إليكم. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: مصدقين بذلك.

تنبيه: قال السَّمين ـ رحمه الله تعالى ـ: قال تعالى في سورة (المائدة) رقم [١١٠]: ﴿بِإِذْنِي﴾ أربع مرات عقيب أربع جمل، وفي (آل عمران): ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ مرَّتين؛ لأن هناك أي: في آيات المائدة إخبار، فناسب الإيجاز، وهنا أي: في آيات (آل عمران) مقام تذكير بالنعمة، والامتنان، فناسب الإسهاب. انتهى بتصرف.

خاتمة: قال كثيرٌ من العلماء: بعث الله كلَّ نبيٍّ من الأنبياء، وأيَّده بمعجزة من جنس ما برع به قومه، فقد كان الغالب على زمان موسى عليه السلام السِّحر، وتعظيم السَّحرة، فأيده الله بقلب العصا حيَّةً؛ حيث بهرت الأبصار، وحيَّرت كل سَحَّار، فلما استيقن السَّحرة: أنها من صنع

العظيم الجبار؛ انقادوا للإيمان، وصاروا من عباد الله الأبرار، وأما قوم عيسى؛ فقد برعوا في الطبِّ، فجاءهم بما ذكر في هذه الآية من المعجزات. بما لا سبيل لأحدٍ إليه؛ إلا أن يكون مؤيداً من ربِّ الأرض، والسَّماء، وأمَّا قوم محمد ﷺ؛ فقد برعوا في الفصاحة، والبلاغة، ونظم الشعر، والسَّجع، فأتاهم بكتابٍ من عند الله أخرسهم، وأسكتهم، وتحدَّاهم بأن يأتوا بعشر سورٍ، بل بسورة مِنْ مثله، فعجزوا، وأنَّى يستطيعون، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً؟! والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَرَسُولًا﴾: معطوف على وجيهاً متضمناً معنى النُّطق، فكأنَّه قال: وناطقاً بأنِّي... إلخ، أو هو مفعول به ثان لفعل محذوف، التقدير: ويجعله رسولاً، وتكون الجملة معطوفة على جملة: (يعلمه...) إلخ. ﴿إِلَىٰ بَنِيٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ (رسولاً) أو بمحذوف صفة له، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و﴿بَنِيٓ﴾: مضاف، و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة. ﴿أَنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء التكلم اسمه. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿جِئْتُكُم﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (أنَّ). ﴿بِـَٔايَةٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من تاء الفاعل، التقدير: جئتكم ملتبساً بآية. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: (آية)، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف عند الخليل، التقدير: بكوني... إلخ، والجار والمجرور متعلِّقان بـ (رسولاً) أو بمحذوف صفة له. وسيبويه يعتبره في محل نصب بنزع الخافض، وجوز أبو البقاء اعتباره في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو أني، ووجوهاً أخر غير جديرة بالاعتبار، والمصدر المؤول من: ﴿أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ فيه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه في محل جر بدلاً من (آية). والثاني: أنه في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي أني. والثالث: أنه بدل من ﴿أَنِّيٓ﴾ الأولى. وهذا هو الأقوى. هذا؛ ويقرأ بكسر الهمزة، فتكون الجملة اسمية، وهي مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها. ﴿كَهَيْـَٔةِ﴾: الكاف: اسم بمعنى: مثل، مبني على الفتح في محل نصب مفعول به للفعل ﴿أَخْلُقُ﴾ والكاف مضاف، و(هيئة) مضاف إليه. هذا؛ ووقوع الكاف اسماً بمعنى: مثل كثيرٌ في القرآن الكريم ذكرته في محاله، وهو وارد في الشعر العربي بكثرة، خذ قول العجَّاج ـ وهو الشاهد رقم [٣٢٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [٤٦١] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الرجز]

بِيضٌ ثَلاثٌ كَنِعَاجٍ جُمِّ يَضْحَكْنَ عَنْ كَالْبَرَدِ الْمُنْهَمِّ

﴿فَأَنفُخُ﴾: الفاء: حرف عطف. (أنفخ): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: أنا. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿أَخْلُقُ...﴾

إلخ، فهي في محل رفع مثلها، والضمير المجرور عائد على الكاف. وقال أبو البقاء: يعود على الهيئة؛ لأنها بمعنى المهيأ، أو يعود على ﴿ٱلطَّيۡرِ﴾ والمعتمد الأول. وجملة: (يكون طيراً) معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع أيضاً. ﴿بِإِذۡنِ﴾: متعلقان بالفعل يكون، أو بمحذوف صفة طيراً، وجملة: ﴿وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع أيضاً. ﴿وَأُحۡيِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: أنا. ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر.

﴿بِإِذۡنِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(إذن): مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع أيضاً.

﴿وَأُنَبِّئُكُم﴾: الواو: حرف عطف. (أنبئكم): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: أنا، والكاف مفعول به أول. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿تَأۡكُلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة: (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: أنبئكم بالذي، أو: بشيء تأكلونه ﴿وَمَا تَدَّخِرُونَ﴾: معطوف على ما قبله، وهو مثله في المحل، والتقدير. ﴿فِي بُيُوتِكُمۡ﴾: متعلقان بالفعل تدّخرون، وحذف مثلها مِنْ ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ اكتفاءً، بها، فهو من حذف الأول لدلالة الثاني عليه، وإن علّقتها بالفعل: ﴿تَأۡكُلُونَ﴾ فيكون الحذف من الثاني لدلالة الأول عليه، والكاف في محل جر بالإضافة.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿إِنَّ﴾ تقدّم على اسمها، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿لَأٓيَةٗ﴾: اللام: لام الابتداء، (آيةً): اسم ﴿إِن﴾ المؤخر. ﴿لَّكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: (آية)، والجملة الاسمية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، أو مستأنفة. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه، والجملة الفعلية لا محلَّ لها لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف؛ لدلالة ما قبله عليه.

﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ﴾: لِمَا تقدَّم قبلي من شريعة موسى، عليه السلام، وذلك؛ لأنَّ الأنبياء ـ عليهم جميعاً السلام ـ يصدِّق بعضهم بعضاً، فكلُّ واحد يصدِّق الذي قبله، ويصدِّق

بما أنزل الله من الكتب، والشرائع، والأحكام. وانظر ما عطف عليه في سورة (الصفّ) فإنّه جيد، ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم...﴾ إلخ: أحلَّ لهم ما حُرِّم عليهم في شريعة موسى كالشُّحوم، والثُّروب، والسَّمك، ولحوم الإبل، والعمل في يوم السبت. وهو يدلُّ على أن شرع عيسى ناسخاً لشرع موسى، عليهما السَّلام؛ أي لبعض الأحكام، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا...﴾ إلخ يدلُّ على أنه جاء مؤيداً لما في التوراة، يستثنى من ذلك ما أحلَّه الله لهم في شريعة عيسى، وأيضاً ما رفعه عنهم من الأغلال، والآصار. هذا؛ وبين (أُحِلَّ) و(حُرِّم) طباق، وهو من المحسِّنات البديعية.

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: وإنَّما وحَّد، وهي آيات كما رأيت في الآية السابقة؛ لأنها جنسٌ واحد في الدَّلالة على رسالته. ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾: خافوه، واعملوا ما يأمركم به. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: فيما آمركم به، وأنهاكم عنه، فإنَّ طاعتي من طاعة الله. هذا؛ والبعض الذي أحلَّه عيسى لهم، وكان محرَّماً عليهم في شريعة موسى ـ عليه السلام ـ مثل تحليل لحوم الإبل، وأشياء من الشُّحوم، كما ذكر الله في سورة الأنعام رقم [١٤٦] انظر شرحها هناك. وقد يوضع (البعض) بمعنى (الكلِّ) إذا انضمَّت إليه قرينةٌ تدل عليه، كما في قول طرفة بن العبد، خاطب به عمرو بن هند المَلك لما أراد قتله: [الطويل]

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

الإعراب: ﴿وَمُصَدِّقًا﴾: حال معطوف على متعلق بـ (آية) في الآية السابقة. وقال البيضاوي، وغيره: عطف على (رسولاً). ولا وجه له لاختلاف العامل، وفاعله. ثمَّ قال: أو هو منصوب بإضمار فعل دل عليه ﴿قَدْ جِئْتُكُم﴾ أي: وجئتكم مصدقاً. وهو جيد، ومؤيِّد للأوَّل؛ الذي ذكرته. ﴿لِمَا﴾: انظر الآية رقم [٣] ففيها الكفاية. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة: (ما) أو بمحذوف صلتها، التقدير: مصدقاً للذي، أو: لشيء يوجد ﴿بَيْنَ يَدَيَّ﴾: و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿يَدَيَّ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه مثنى، وحذفت النون للإضافة، وياء المتكلم ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿مِنَ التَّوْرَاةِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في متعلق الظرف، و﴿مِنَ﴾ بيان لما أبهم في (ما). ﴿وَلِأُحِلَّ﴾ الواو: حرف عطف. (لأحِلّ): مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل مستتر تقديره: أنا، و«أنْ» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، التقدير: وجئتكم؛ لأحل، وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: أو هو مردود على قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ﴾ أو هو معطوف على معنى: (مصدقاً) كقولهم: قد جئتك معتذراً، ولأطيِّب قلبك. ﴿بَعْضَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿الَّذِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿حُرِّمَ﴾ فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى: ﴿الَّذِي﴾ وهو العائد، والجملة صلته. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان به.

﴿وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾: إعرابها مثل إعراب سابقتها، وهي معطوفة على ما قبلها المقدَّرة، وهي: وجئتكم لأحل لكم... إلخ، وكررت الجملة للتوكيد. ﴿فَاتَّقُوا﴾: الفاء: هي الفصيحة. (اتقوا الله): فعل أمر، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جواب لشرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ما ذكر حاصلاً، وواقعاً؛ فاتقوا الله. ﴿وَأَطِيعُونِ﴾: الواو: حرف عطف. (أطيعون): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة المدلول عليها بالكسرة مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

الشرح: ﴿اللَّهَ﴾: انظر الآية رقم [٢]. ﴿رَبِّي﴾: مالكي، وسيدي، ومولاي. ﴿وَرَبُّكُمْ﴾: مالككم، وسيدكم، ومتولِّي أموركم. هذا؛ والربُّ يطلق، ويراد به المالك، والسيد، ومنه قوله تعالى، حكاية عن قول يوسف الصديق ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾. وقال الأعشى: [الكامل]

رَبِّي كَرِيمٌ لَا يُكَدِّرُ نِعْمَةً ... وَإِذَا تُنُوشِدَ فِي الْمَهَارِقِ أَنْشَدَا

كما يقال: رب الدار، ورب الأسرة؛ أي: مالكها، ومتولِّي شؤونها، كما يراد المربِّي، والمصلح. يقال: ربَّ فلانٌ الضيعة، يربُّها: إذا أصلحها. واللهُ ربُّ العالمين: مالكهم، ومربيهم، وموصلهم إلى كمالهم شيئاً فشيئاً، يجعل النطفة علقةً، ثم يجعل العلقة مضغةً، ثم يجعل المضغة عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، ثم يصوره، ويجعل فيه الروح، ثم يخرجه خلقاً، وهو صغير ضعيف، فلا يزال ينمِّيه، وينشِّيه؛ حتى يجعله رجلاً، أو امرأةً كاملين. هذا؛ ولا يطلق لفظ الرب على غير الله تعالى إلا مقيداً بالإضافة، مثل قولك: ربُّ الدار، ورب الناقة، ونحو ذلك، وقد قالوه في الجاهلية لِلْمَلك. قال الحارث بن حِلِّزة في معلقته رقم [٣٨]: [الخفيف]

وَهُوَ الرَّبُّ وَالشَّهِيدُ عَلَى يَوْ ... مِ الْحِيَارَيْنِ وَالْبَلَاءُ بَلَاءُ

والربُّ: المعبود بحق، وهو المراد به عند الإطلاق، ومنه قول راشد بن عبد ربِّه السلمي الصَّحابي ـ رضي الله عنه، وهو الشاهد رقم [١٥٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ ... لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

ولا يجمع إذا كان بهذا المعنى، ويجمع إذا كان معبوداً بالباطل، قال تعالى حكاية عن قول يوسف ـ عليه السلام ـ لصاحبي السِّجن: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾. كما يجمع إذا كان بأحد المعاني السابقة، قال الشاعر: [الطويل]

هَـنِـيـئـاً لأَرْبَـابِ الْـبُـيُـوتِ بُـيُـوتَـهُـمْ وَلـلآكِـلِـيـنَ الـتَّـمْـرَ خَـمْـسَ مـخـمّـسـا

وهو اسم فاعل بجميع معانيه السابقة، أصلُه: رابب، ثم خُفِّف بحذف الألف، وإدخال أحد المثلين في الآخر.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: العبادة: غاية التذلُّل، ولا يستحقُّها إلا مَنْ له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولذلك يحرم السُّجود لغير الله تعالى. وقيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود. أما ﴿صِرَاطٌ﴾ فهو في لغة العرب بمعنى طريق واضح لا اعوجاج فيه، قال جرير في مدح عبد الملك بن مروان: [الوافر]

أَمِـيـرُ الْـمُـؤْمِـنِـيـنَ عَـلَـى صِـرَاطٍ إِذَا اعْـوَجَّ الْـمَـوارِدُ مُـسْـتَـقِـيـمِ

وقال عامر بن الطفيل: [الوافر]

شَـحَـنَّـا أَرْضَـهُـمْ بـالـخَـيْـلِ حَـتَّـى تَـرَكْـنَـاهُـمْ أَذَلَّ مِـنَ الـصِّـرَاطِ

ثمَّ إن العرب تستعير الصراط في كل فعل، وعمل وصف باستقامة، أو اعوجاج، والمراد به هنا: امتثال أمر الله في فيما أمر، وفيما نهى، والأخذ بقول الرسول ﷺ. و﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾: لا اعوجاج فيه، وأصله: (مُسْتَقْوِم) لأنه مِن: استقام، وهو أجوف واوي، فقل في إعلاله: اجتمع معناه حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى القاف قبلها بعد سلب سكونها، فصار: (مُسْتَقِوْم) ثم قلبت الواو ياء لمناسبة الكسرة.

بعد ما تقدَّم: في الآية حجةٌ بالغةٌ على نصارى وفد نجران، ومن قال بقولهم من سائر النصارى إلى يوم القيامة بإخبار الله ـ عز وجل ـ عن عيسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ: أنه كان بريئاً مما نسبه إليه النَّصارى، وأنه كان عبد الله، وخصَّه بنبوته، ورسالته.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها. ﴿رَبِّي﴾: خبرها مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها. ﴿وَرَبُّكُمْ﴾: معطوف على ما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه.

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (اعبدوه): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها جواب لشرط غير جازم. التقدير: وإذا كان ما ذكر حاصلاً، وواقعاً؛ فاعبدوه. ﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، والهاء حرف تنبيه لا محل له. ﴿صِرَاطٌ﴾: خبره. ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾: صفة ﴿صِرَاطٌ﴾ والجملة الاسمية هذه مستأنفة، أو تعليلية، لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢﴾

الشرح: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ﴾ أي: عرف من اليهود ﴿ٱلۡكُفۡرَ﴾ والخبث، واللؤم. والإحساس: الإدراك ببعض الحواس الخمس، وهو الذوق، والشم، واللمس، والسمع، والبصر. وفيه استعارة؛ إذ الكفر ليس بمحسوس، وإنَّما يعلم، ويفطن به، فإطلاق الحسن عليه من نوع الاستعارة. ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: مع الله، والظاهر: أنه أراد: من أنصاري في الدَّعوة إلى الله، كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج: «**مَنْ يُؤْوِينِي؛ حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي؟ فَإِنَّ قُرَيْشاً منَعُونِي أَنْ أُبَلِّغَ كَلَامَ رَبِّي**». وهذه سنَّة الله في أنبيائه، وأوليائه، وقد حكى الله عن لوط قوله في سورة (هود): ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ﴾.

﴿قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ...﴾ إلخ: جمع: حواري، وهم أصفياء عيسى، عليه السلام، وكانوا اثني عشر رجلاً، واختلف في تسميتهم بذلك، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سمُّوا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا صيادين. وقيل: كانوا قصارين. وقيل: كانوا ملوكاً يلبسون الثياب البيض. والحواري: الناصر، فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق، فانتدب الزبير ـ رضي الله عنه ـ، ثم ندبهم: فانتدب الزبير، فقال الرسول ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيّاً وَحَوارِيي الزُّبَيْرُ**». متفق عليه، والحواريات: النساء الحضريات لخلوص ألوانهن، وبياضهن، ونظافتهن. قال الشاعر: [الطويل]

فَقُلْ لِلْحَوَارِيَّاتِ يَبْكِينَ غَيْرَنَا ... وَلَا تَبْكِنَا إِلَّا الْكِلَابُ النَّوَابِحُ

فهو يعني: أنه ليس من عرف بالحضر، والتنعم بالحياة، بل هو من أهل البدو، والمحاربة، ولا يبكى عليه إلا الكلاب؛ اللاتي تُساق معه في البدو، والصيد. ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾: الخطاب لعيسى عليه السلام؛ أي: اشهد لنا عند ربك يوم القيامة حين تشهد الرسل لقومهم، أو عليهم. ﴿مُسۡلِمُونَ﴾: منقادون، طائعون. والإسلام: الاستسلام، والانقياد لأوامر الله. ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾: أنصار دينه. هذا؛ والآية الكريمة تبيِّن: أن الإسلام، والإيمان شيءٌ واحد، ولكن قد يختلفان، كما في آخر سورة (الحجرات).

هذا؛ وقال عبد الوهاب النجار ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿ٱلۡحَوَارِيُّونَ﴾ هم أصحاب المسيح عيسى بن مريم ـ صلوات الله، وسلامه عليه ـ وخاصته؛ الذين اختارهم؛ ليكونوا تلاميذه، وبادروا إلى الإيمان به، وتتلمذوا له، وتعلَّموا منه، وكانوا اثني عشر رجلاً. وهذا اللفظ لم أعرفه عبرانيّاً، وأما عربيّاً فقد قال صاحب القاموس، وقد جاء إطلاق حواري رسول الله ﷺ

على الزُّبير بن العوام، ـ رضي الله عنه ـ، ويظهر: أن لفظ الأنصار في جانب رسول الله ﷺ بمنزلة الحواريين في جانب المسيح عليه السلام. والأناجيل تعبِّر عنهم بلفظ التلاميذ.

وإذا جاز لي هذا اللفظ، فإنِّي أقول: إنَّ معناه: الإخوان في طلب العلم، من لفظ: حور العبري، وهو التلميذ، وجمعه: حوريم، نطق به في العربية حواري، وحواريين. هذا؛ وذكرت أسماء الحواريين في إنجيل متَّى في الإصحاح العاشر، وقد ذكر برنابا أسماء التلاميذ في الفصل الرابع عشر من إنجيله، وهذه أسماء التلاميذ الاثني عشر من إنجل متَّى:

١ـ سمعان الذي يقال له: بُطرس

٢ـ أندرَاوْس أخو سمعان: بُطرس

٣ـ يعقوب بن زيْدي

٤ـ فيلبس

٥ـ بَرْثُو لماوْس

٦ـ يوحنَّا أخو يعقوب

٧ـ توما

٨ـ متَّى العشَّار

٩ـ يعقوب بن حلفي

١٠ـ لباوْس الملقَّب تداوْس

١١ـ سمعان القانوني

١٢ـ يهوذا الأسخريوطي

وهذه أسماء التلاميذ الاثني عشر عند برنابا

١ـ أندراوْس

٢ـ بُطرس

٣ـ برنابا

٤ـ متِّى العشَّار

٥ـ يوحنا بن زيْدي

٦ـ يعقوب بن زيْدي

٧ـ تداوْس

٨ ـ يهوذا

٩ـ بَرْثُولماوْس

١٠ـ فيلبس

١١ـ يعقوب بن حلفي

١٢ـ يهوذا الأسخريوطي

ومن ذلك نرى: أنَّ برنابا نقص من الحواريين عند متَّى اثنين، وهما: سمعان الغيور المعروف بالقانوني، وتوما، ووضع مكانهما اسمه، واسم تداوس، فهل الصواب معه؟ ولكن الكنيسة لما رأت إنجيله يخالف ما تهوى حذفت اسمه، واسم سمعان من بين التلاميذ؛ لأنهما كانا متطابقين في الرأي، قد يكون ذلك، وأنَّهم اكتفوا في عقابه بهذا مع بقاء اسمه بين الرسل؛ الذين حملوا قسطاً عظيماً في نشر الدعوة، والتبشير باقتراب ملكوت السموات، وهؤلاء الحواريون الذين استجابوا لعيسى، عليه السلام، وهم الذين بثهم في القرى اليهودية؛ ليدعوا الكفار بدعوة المسيح، ومن غلا في شأنه، أو كذَّبه، وردَّ دعوته. وقد قص شأن الحواريين في هذه السورة، وفي آخر سورة (المائدة) وفي سورة (الصف). انتهى بتصرف.

وهذا يدل على أنَّ رسالة عيسى ـ على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ أعم من رسالة جميع المرسلين قبله، وذكرت أكثر من هذا في سورة (الصف).

الإعراب: ﴿فَلَمَّآ﴾: الفاء: حرف استئناف. (لـمَّا): انظر الآية رقم [٣٦] ﴿أَحَسَّ﴾: فعل ماض. ﴿عِيسَىٰ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: (لمَّا) إليها على اعتبارها ظرفاً، ولا محلَّ لها على اعتبار (لمَّا) حرفاً. ﴿مِنْهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الكفر. ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: مفعول به. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿عِيسَىٰ﴾. ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَنصَارِىٓ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. من إضافة المصدر، أو هو من إضافة جمع اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ ﴿أَنصَارِىٓ﴾ أو بمحذوف حال منه، التقدير: ملتجأ، أو ذاهباً، ونحوه، والجملة الاسمية: ﴿مَنْ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ جواب (لمَّا) لا محل لها، و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له، أو هو معطوف على محذوف التقدير: فكذبوه فلمَّا... إلخ.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿نَحْنُ﴾: ضمير منفصل مبني على

الضم في محل رفع مبتدأ. ﴿أَنصَارُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، وإضافته لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية في محل نصب حال مِنْ: ﴿أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ وهي على تقدير «قد» قبلها، أو هي في محل رفع خبر ثان للمبتدأ، أو هي في محل نصب مقول القول، أو هي مستأنفة، لا محل لها. فهذه احتمالات أربعة. وعلى الاستئناف فالوقف على لفظ الجلالة جيد. والجملة الاسمية: ﴿نَحْنُ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَٱشْهَدْ﴾: الواو: حرف عطف. (اشهد): فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: أنت. ﴿بِأَنَّا﴾: الباء: حرف جر. (أنَّا): حرف مشبه بالفعل. و(نا): اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿مُسْلِمُونَ﴾: خبرها مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، و(أنَّا) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿ءَامَنَّا﴾ وجملة: (اشهد...) إلخ معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: فاسمع، واشهد... إلخ والفاء هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدَّر، التقدير: وإذا كان ذلك واقعاً، وحاصلاً منا؛ فاشهد... إلخ، والشرط المقدَّر، ومدخوله في محل نصب مقول القول.

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

الشرح: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا﴾: توجه الحواريُّون بالخطاب إلى الله تعالى. ﴿بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ أي: على عيسى، عليه السلام، والمراد به: الإنجيل؛ الذي أنزله الله، لا إنجيل متَّى، ولا مرقس... إلخ. ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ أي: عيسى. ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾: لك بالوحدانية، ولرسولك بالصِّدق، والبلاغ، فأثبت أسماءنا مع أسمائهم، واجعلنا في عدادهم، ومعهم فيما تكرمهم به. والمراد: مع الأنبياء الذين يشهدون لأتباعهم. وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين الذين سأل الحواريون أن يكونوا معهم مزيد فضل عليهم، وهم الأنبياء، كما قدمت؛ لأن كل نبي شاهد على أمته، كما قال تعالى في سورة (النساء) رقم [٤١]: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المراد: محمد ﷺ، وأمته؛ لأنهم المخصوصون بتلك الفضيلة، فإنهم يشهدون للرُّسل بالبلاغ، كما قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٤٣]: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى، حذفت منه أداة النداء، و(نا) في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿أَنزَلْتَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: آمنا بالذي، أو: بشيء أنزلته،

والكلام من مقول الحواريين. ﴿وَٱتَّبَعۡنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿فَٱكۡتُبۡنَا﴾: الفاء في مثل ذلك يعتبرها من يجيز عطف الإنشاء على الخبر عاطفة، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، وأراها الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ذلك حاصلاً منا؛ فاكتبنا. (اكتبنا): فعل دعاء، والفاعل مستتر تقديره: «أنت»، ونا: مفعول به. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، و﴿مَعَ﴾ مضاف، ﴿ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: مضاف إليه مجرور... إلخ.

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾

الشرح: ﴿وَمَكَرُواْ﴾ يعني: كفار بني إسرائيل؛ الذين أحسَّ عيسى منهم الكفر؛ حيث دبَّروا قتل عيسى، عليه السلام. وأصل المكر: صرف الغير عمَّا يقصده بضربٍ من الحيلة، وهذا شأن اليهود في غابر الأزمان، وحاضرها، فقد قتلوا يحيى، وزكريا، وغيرهما من الأنبياء، وقد نوَّه القرآن الكريم بذلك كثيراً. ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾: جازاهم الله على مكرهم، حيث رفع عيسى إلى السَّماء، وألقى بشبهه على من أراد قتله؛ حتى قتل. هذا؛ والمكر معناه: الخبث، والخداع، والاحتيال، وهو مستحيل في حقِّ الله تعالى، وإنَّما ذكر ذلك من باب المقابلة، وهذا ما يسمَّى عند البلغاء بالمشاكلة؛ أي: ذكر الله سبحانه جزاءهم من جنس صنيعهم، ومنه قوله سبحانه: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ﴾، ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ وانظر الآية رقم [١٥] من سورة (البقرة) إن أردت الزيادة.

قال صاحب البحر المحيط ـ رحمه الله تعالى ـ: سأل رجل الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ فقال: كيف رضي الله ـ سبحانه ـ لنفسه المكر، وقد عاب به غيره. فقال: لا أدري، ولكن أنشدني فلان الطَّهراني: [الوافر]

وَيَقْبُحُ مِنْ سِوَاكَ الْفِعْلُ عِنْدِي ... فَتَفْعَلُهُ فَيَحْسُنُ مِنْكَ ذَاكَا

ثمَّ قال له: قد أجبتك؛ إن كنت تعقل. ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ أي: هو أفضل المجازين بالسيئة العقوبة. ومكر الله في هذه الآية خاصةً إلقاءُ الشبه على صاحبه؛ الَّذي دلَّهم على عيسى حين أرادوا قتله حتَّى قتل، ورفع عيسى إليه. وذلك: أن اليهود لما اجتمعوا على قتل عيسىٰ ـ عليه السلام ـ دخل البيت هارباً منهم، فقال ملكهم لرجل منهم خبيث، هو: يهوذا، وكان أحد الحواريين لكنَّه نافق، ادخل عليه، فاقتله، أو أخرجه، فدخل البيت، فلم يجد عيسى فيه، وألقى الله عليه شبه عيسى، فلمَّا خرج رأوْه على شبه عيسى، عليه السلام، فأخذوه، وقتلوه، وصلبوه، وهو يقول لهم: أنا صاحبكم، ثم قالوا: وجهه يشبه وجه عيسى، وبدنه يشبه بدن صاحبنا، فإن كان هذا صاحبنا؛ فأين عيسى؟ وإن كان هذا عيسى؛ فأين صاحبنا؟ فوقع بينهم قتال، فقتل بعضهم بعضاً. قال تعالى في

سورة (النِّساء) رقم [١٥٧]: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ انظر شرحها هناك؛ تجد ما يسرك.

ومنع الله عيسى منهم، ورفعه إليه، وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم، والمشرب، وطار مع الملائكة، فهو معهم حول العرش، وصار إنسيّاً ملكيّاً أرضيّاً سماويّاً؛ حتَّىٰ ينزلَ آخرَ الزمان.

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذي نَفسِي بيدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فيكمُ ابْنُ مريمَ، حَكَماً، عدلاً، مُقْسِطاً، فيكسرَ الصليبَ، ويقتلَ الخنزيرَ، ويضَعَ الجزيةَ، ويفيضُ المالُ؛ حَتَّى لا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ**». زاد في رواية: «**حتى تكونَ السَّجدة الواحدةُ خيراً من الدنيا وَمَا فِيهَا**». ثم قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ متفق عليه.

الإعراب: ﴿وَمَكَرُوا﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿خَيْرُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلْمَٰكِرِينَ﴾: مضاف إليه مجرور... إلخ، والجملة الاسمية في في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط: الواو، ولفظ الجلالة، الذي أعيد للتفخيم، والتعظيم.

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾

الشرح: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾: اختلف المفسِّرون في هذه الوفاة، فقال جماعة، منهم: قتادة، والضحاك، والفرَّاء: هذا من المقدَّم، والمؤخَّر. تقديره: إني رافعك إليَّ، ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد أن تنزل من السماء في آخر الزمان، كقوله تعالى في سورة (طه): ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ إذ التقدير: وَلَولا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ، وَأَجَلٌ مُسَمَّىً؛ لَكَانَ لِزَاماً. ومثل ذلك قول الأحوص ـ وهو الشاهد رقم [٦٦٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

أَلَا يَا نَخْلَةً مِنْ ذَاتِ عِرْقٍ عَلَيْكِ ورحمةُ اللهِ السَّلَامُ

وأيضاً قول حسَّان ـ رضي الله عنه ـ يهجو أبا سفيان وزوجه هنداً بعد موقعة أحد: [الكامل]

لَعَنَ الإلٰهُ وَزَوْجَهَا مَعَهَا هِنْدَ الْهُنُودِ طَوِيلَةَ الْبَظْرِ

وقال الحسن، وابن جريج: معنى ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: قابضك، ورافعك إلى السماء من غير موت، مثل: توفَّيت مالي من فلان، أي: قبضته. وقال وهب بن منبه: توفَّاه الله ثلاث ساعات

من أوَّل النهار، ثم رفعه إلى السَّماء، وقال الأكثرون: المراد بالوفاة ها هنا: النَّوم، كقوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٦٠]: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ وقوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٤٢]: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾. وكان الرسول ﷺ يقوم إذا قام من النوم: «**الحمدُ لله الذي أحيانا بعدَ مَا أَمَاتَنَا**». وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ معنى متوفيك: مميتك. وهذا أضعف الأقوال، ولعل النسبة إليه ليست صحيحة. والحقُّ: أن الله تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة، ولا نوم، كما قال الحسن، وابن زيد، وهو اختيار الطَّبري، وهو الصَّحيح عن ابن عباسٍ، فترجع الوفاة إلى معنى القبض، وهو فحوى ما حكى الله في قوله في آخر سورة (المائدة): ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾. وهناك قول بأن المعنى: موفيك أجرك غير منقوصٍ.

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: من سوء أعمالهم. وخبث صحبتهم. بمعنى: مخرجك من بينهم، ومنجِّيك من كيدهم. ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ﴾ أي: يغلبونهم بالحجَّة، أو السيف في غالب الأمر، والَّذين اتبعوا عيسى هم النصارى؛ الذين لم يغيِّروا، ولم يبدِّلوا، ويعتقدون: أنَّه رسول الله، لا ابنه، ولكنَّهم صاروا بعد ذلك شيعاً، وفرقاً ثلاثة، ثم صاروا اثنتين وسبعين فرقة. انظر ما ذكرته في الآية رقم [٣٠] من سورة (التوبة) فإنَّه جيد. والحمد لله!.

هذا؛ وإن الذين اتبعوا عيسى بالتوحيد، وعدم الشرك هم المسلمون، فهم أحقُّ بعيسى ـ عليه السلام ـ في الدُّنيا، والآخرة، وإنَّه إذا نزل في آخر الزَّمان يكون واحداً من أمَّة محمد ﷺ كما أنَّ المسلمين أحقُّ بموسى ـ عليه السلام ـ بدليل قول نبينا ﷺ لليهود حينما هاجر من مكَّة المكرمة إلى المدينة، ورآهم يصومون يوم عاشوراء، فسألهم عن سبب صومه، فقالوا: هذا يومٌ صالحٌ نجَّى الله فيه بني إسرائيل، فصامه موسى شكراً لله، فنحن نصومه، فقال لهم ﷺ: «**أنا أحق منكم بموسى**». فصامه، وأمر بصيامه، ولذا عزَّ المسلمون لتمسُّكهم بالتوحيد الذي هو دين محمَّد، ودين جميع الأنبياء، والمرسلين، وفتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وتحقَّق لهم وعد الرسول ﷺ في غزوة الخندق، وهو تحقيق وعد الله لهم في الآية رقم [٥٥] من سورة (النور): ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ...﴾ إلخ، فلهذا لما كانوا هم المؤمنين بعيسى حقّاً سلبوا النَّصارى بلاد مصر، والشام... إلخ.

قال البيضاوي: ـ رحمه الله تعالى ـ: وإلى الآن لم يسمع غلبة اليهود على أتباع عيسى، ولم يتَّفق لهم ملك، ودولة. انتهى. أقول: ولكن في هذه الآية قد قام لهم ملك، ودولة بمساعدة النَّصارى أنفسهم، وبسبب تخاذل المسلمين، وتفرُّقهم، وهجرهم تعاليم دينهم، وسنَّة نبيهم، وما قام لهم في هذه الأيام إنما هو دليل قاطع على رسالة محمد ﷺ حيث أخبر بأنه سيقوم لهم ملك

ودولة، وذلك في قوله ﷺ: **«تُقَاتِلُكُمْ يهودُ، فتُنْصَرُونَ عليهمْ، حتى يقولَ الحجرُ والشَّجرُ: يا مسلمُ! هذا يهوديٌّ اختبأ ورائي تعالَ فاقْتُلْهُ»**. ومقاتلتهم المسلمين لا تكون إلا عن ملك، ودولة، كما هو الحال في هذه الأيام. متى يكون هذا النَّصر؟ ذلك في علم الله، وأغلب الظن أنه لا يكون إلا بعد نزول عيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

وأخرج مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ من حديث النواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: فبينما هما كذلك؛ إذ بعث الله المسيح ابن مريم، عليه السلام، فينزل عند المنارة البيضاء شَرْقيَّ دمشقَ. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ، قال: **«لَيْسَ بينِي، وَبَيْنَ عِيسَى نَبِيٌّ، وَأَنَّه نَازِلٌ، فإذا رأَيْتُمُوهُ، فَاعْرِفُوهُ، فَإِنَّهُ رجلٌ مربوعٌ إلى الحُمْرَةِ، والبياضِ، ينزلُ بينَ مُمَصَّرَتَيْنِ، كأن رَأْسَهُ يقطُرُ، وإِنْ لَمْ يصبْهُ بَلَلٌ، فيقاتل الناسَ على الإسلام، فيدُقُّ الصَّليبَ، ويقتلُ الخنزيرَ، ويضَعُ الجزيةَ، ويُهْلِكُ اللهُ المِلَلَ في زمانِهِ كُلَّهَا إلا الإسلامَ، وَيُهْلِكُ المسيحَ الدجالَ، ثم يمكثُ في الأرضِ أربعينَ سَنَةً، ثم يُتَوَفَّى، وَيُصَلِّي عليهِ المسلمون»**. أخرجه أبو داود.

وأخبر الرسول ﷺ في حديث آخر: أن عيسى ـ عليه السلام ـ هو الذي يقتل الدَّجال الذي ينتظره اليهود، ويكونون جنداً له. كما روي: أن عيسى يتزوَّج، ويولد له ولدان، يُسمِّي أحدهما موسى، والآخر أحمد. ونقل بعضهم: أنَّ عيسى عليه السلام يدفن في حجرة النبي ﷺ، فيقومُ أبو بكر وعمر ـ رضي الله عنهما ـ يوم القيامة بين نبيين: محمد، وعيسى، عليهما السَّلام، والمعتمد: أنَّ عيسى يمكث في الأرض سبع سنوات، ومكث ثلاثاً وثلاثين قبل رفعه، فتكون مدة حياته في الأرض أربعين سنةً. وهذا هو المعتمد إن شاء الله تعالى.

وفي حديث عند أبي داود: أربعين سنة، فيحتمل: أن المراد لبثه في الأرض قبل الرفع، وبعده. وروي: أن الله أرسل سحابة إلى عيسى، فرفعته، فتعلَّقت به أمُّه، وبكت، فقال لها: إنَّ القيامة تجمعنا، وكان ذلك ليلة القدر ببيت المقدس. والله أعلم.

الإعراب: ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل: (مكروا)، أو هو في محل نصب مفعول به لفعل محذوف. تقديره: اذكر، أو هو ظرف متعلق بهذا المقدَّر. ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذْ﴾ إليها. (يا): أداة نداء تنوب مناب: «أدعو». (عيسى): منادى مفرد علم مبني على الضم المقدَّر على الألف في محل نصب بـ (يا). ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم في محل نصب اسمها. ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾: خبر (إن) مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَرَافِعُكَ﴾: معطوف على ما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ما قبله،

وهو مثله في إعرابه، وجملة: ﴿كَفَرُوا﴾ صلة الموصول، لا محل لها، والجملة الاسمية: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول.

﴿وَجَاعِلُ﴾: معطوف على ما قبله، وهو مضاف، و﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿اتَّبَعُوكَ﴾: فعل ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فَوْقَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله. و﴿فَوْقَ﴾ مضاف، و﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ﴾: صلة الموصول، لا محل لها، و﴿يَوْمِ﴾: مضاف، و﴿الْقِيَامَةِ﴾ مضاف إليه. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿إِلَيَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر، والكاف في محل جر بالإضافة. من: إضافة المصدر الميمي لفاعله، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. فهي في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿فَأَحْكُمُ﴾: فعل مضارع والفاعل مستتر، تقديره: «أنا» والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل: (أحكم)، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿تَخْتَلِفُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: (كان) وجملة: ﴿كُنتُمْ...﴾ إلخ صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط: الضمير المجرور محلاً بـ (في).

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يعني: جحدوا نبوَّة عيسى، وخالفوا ملَّته، وقالوا فيه ما قالوا من الباطل، ووصفوه بما لا ينبغي، وهم من سائر اليهود، والنصارى. ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ يعني: بالقتل، والسبي، والذلَّة، وأخذ الجزية منهم. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾: مانعين يمنعونهم من عذابنا في الدنيا، والآخرة.

هذا؛ وفي هذه الآية التفات من الخطاب في الآية السابقة إلى التكلُّم في هذه الآية، ثم التفات من المتكلِّم في هذه الآية إلى الغيبة في الآية التي تليها. وللالتفات فوائد كثيرة، منها: تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر، والملال؛ لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوالٍ واحد. هذه فوائده العامة، ويختص كل موضع بنكت، ولطائف كما هو مقرر في علم البديع، ووجهه حثُّ السامع، وبعثه على الاستماع؛ حيث أقبل المتكلم عليه، وأعطاه فضل عنايته، وخصصه بالمواجهة.

هذا؛ والمراد بالآخرة: الحياة الثانية؛ التي تكون بعد الموت، ثمَّ بعد البعث، ثم بعد الحساب، والجزاء، ودخول الجنة، والخلود فيها، أو دخول النار، والخلود فيها. والأولى لمن آمن، وعمل صالحاً، والثانية لمن كفر، وعمل سيئاً. ورحم الله من يقول: [البسيط]

الْـمَـوْتُ بَـابٌ وَكُـلُّ الـنَّـاسِ دَاخِـلُـهُ ... فَـلَيْـتَ شِعْـرِي بَعْـدَ الْبَـابِ مَا الـدَّارُ؟!

ورحم الله من أجابه بقوله: [البسيط]

الـدَّارُ جَـنَّـةُ عَـدْنٍ إِنْ عَـمِـلْـتَ بِـمَـا ... يُـرْضِـي الإِلَـهَ وَإِنْ خَـالَـفْـتَ فَـالـنَّـارُ

هُـمَـا مَـحَـلَّانِ مَـا لِـلـنَّـاسِ غَـيْـرُهُـمَـا ... فَـانْـظُـرْ لِـنَـفْـسِـكَ مَـاذَا أَنْـتَ مُـخْـتَـارُ

أما الكفر: فهو ضدُّ الإيمان، وهو المراد في الآية، وقد يكون بمعنى جحود النعمة، والإحسان، ومنه قول النبي ﷺ في النِّساء في حديث الكسوف: وأُرِيْتُ النَّارَ، فلم أَرَ مَنْظراً كاليومِ قطُّ أفظعَ، ورأيتُ أكثرَ أهلِهَا النِّسَاءَ. قِيلَ: بِمَ يَا رَسولَ الله؟ قال: «**بِكُفْرِهِنَّ**». قِيلَ: أَيَكْفُرْنَ باللهِ؟ قال: «**يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، وَيَكفرنَ الإِحسانَ، لَو أَحسنتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدهرَ كلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئاً، قالتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ**». أخرجه البخاريُّ برقم (١٠٥٢) وغيره، ويروى بأطول من هذا من رواية أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ، وأصل الكفر في كلام العرب. السِّتر، والتغطية. قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ في معلقته رقم [٤٢] في وصف بقرة وحشيةٍ: [الكامل]

يَـعْـلُـو طَـرِيـقَـةَ مَـتْـنِـهَـا مُـتَـوَاتِـرٌ ... فِـي لَـيْـلَـةٍ كَـفَـرَ الـنُّـجُـومَ غَـمَـامُـهَـا

وسمِّي الزارع كافراً؛ لأنه يلقي البذر في الأرض، ويغطيه، ويستره بالتراب. قال تعالى في تشبيه حال الدنيا في سورة (الحديد) رقم [٢٠]: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾. ويسمى الليل كافراً؛ لأنه يستر كل شيء بظلمته، قال لبيد في معلقته رقم [٦٥]: [الكامل]

حَـتَّـى إِذَا أَلْـقَـتْ يَـداً فِـي كَـافِـرٍ ... وَأَجَـنَّ عَـوْرَاتِ الـثُّـغُـورِ ظَـلَامُـهَـا

كما يطلق لفظ الكافر على النَّهر، قال المتلمِّس حين ألقى الصَّحيفة في النَّهر: [الطويل]

وَأَلْـقَـيْـتُـهَـا بِـالـثَّـنْـيِ مِـنْ جَـنْـبِ كَـافِـرٍ ... كَـذَلِـكَ أُلْـقِـي كُـلَّ رَأْيٍ مُـضَـلَّـلِ

رَضِـيـتُ لَـهَـا بِـالْـمَـاءِ لَـمَّـا رَأَيْـتُـهَـا ... يَـجُـولُ بِـهَـا الـتَّـيَّـارُ فِـي كُـلِّ جَـدْوَلِ

هذا؛ وكفر فلان النعمة، يكفرها، كفراً، أو كفوراً، وكفراناً: إذا جحدها، وسترها، وأخفاها. قال تعالى في سورة (إبراهيم) ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وقال القطامي: ـ وهو الشاهد رقم [٥٣١] من كتابنا: «فتح رب البريَّة» ـ: [الوافر]

أَكُـفْـراً بَـعْـدَ رَدِّ الْـمَـوْتِ عَـنِّـي ... وَبَـعْـدَ عَـطَـائِـكَ الْـمِـئَـةَ الـرِّتَـاعَـا

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (أما): أداة شرط، وتفصيل، وتوكيد. أمَّا كونها أداة شرط؛ فلأنها قائمة مقام أداة الشرط، وفعله بدليل لزوم الفاء بعدها؛ إذ الأصل: مهما يك من شيء؛ فالذين كفروا. . . إلخ، فأنيبت (أمَّا) مناب «مهما يك من شيءٍ» فصار: (أما الذين كفروا). وأما كونها أداة تفصيل؛ فلأنها في الغالب تكون مسبوقة بكلام مجمل، وهي تفصله. ويعلم ذلك مَنْ تتبع مواقعها. وأمَّا كونها أداة توكيد؛ فلأنها تحقق الجواب، وتفيد: أنَّه واقع لا محالة؛ لكونها علقته على أمر متيقن. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وجملة: ﴿كَفَرُواْ﴾ صلة الموصول، لا محل لها. ﴿فَأُعَذِّبُهُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب: (أما). (أعذبهم): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: أنا، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. هذا؛ وأجيز اعتبار الجملة الفعلية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فأنا أعذبهم، وعليه فالجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق، وهو اسم مصدر؛ لأن المصدر: تعذيب. ﴿شَدِيدًا﴾: صفته. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾: جار، ومجرور، متعلقان بالفعل: (أعذب) أو هما متعلقان بمحذوف صفة ثانياً لـ ﴿عَذَابًا﴾ أو هما متعلقان بمحذوف حال منه، بعد وصفه بما تقدَّم. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مِّن﴾: حرف جر صلة. ﴿نَّٰصِرِينَ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه الواو المقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بالياء، التي جلبها حرف الجر الزائد، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، وإن اعتبرت: (ما) نافية حجازية؛ فالأمر واضح، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير الواقع مفعولاً به، والرابط: الواو، والضمير.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾

الشرح: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: الأعمال الصالحات على تفاوتها، واختلاف درجاتها. وعطف العمل الصالح على الإيمان يسمَّى احتراساً. انظر الآية رقم [٢٧٧] من سورة (البقرة). ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْۗ﴾: يعطيهم ثواب أعمالهم الصالحة كاملاً غير منقوص في الدنيا بالنَّصر، والظفر، وفي الآخرة في الجنات العالية، والنعيم المقيم. ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: يسخط، ولا يرحم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وارتكاب المعاصي، والمنكرات، هذا وعدم محبَّة الله كناية عن البغض، والسخط، والغضب، والطرد من رحمته ورضوانه. ومحبته للعبد رضاه عنه، وغفرُ ذنوبه، وستر عيوبه.

تنبيه: لمَّا ذكر الله في الآية السابقة الكافرين، وما أعدَّ لهم من العذاب الشديد، والعقاب الأليم؛ ذكر في هذه الآية المؤمنين الصادقين، وما أعدَّ لهم من النعيم المقيم في جنات النعيم.

وتلك سنة الله في كتابه الكريم، حيث اقتضت حكمتُه تعالى، ورحمتُه، فلا يذكر التصديق من المؤمنين؛ إلا ويذكر التكذيب من الكافرين، ولا يذكر الإيمان؛ إلا ويذكر الكفر، ولا يذكر الجنَّة؛ إلا ويذكر النار، ولا يذكر الرحمة؛ إلا ويذكر الغضب، والسَّخط؛ ليكون المؤمن راغباً راهباً، راجياً خائفاً. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ﴾: انظر الآية السابقة. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب (أما). (يوفيهم): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (الله) تقديره: هو، والهاء مفعول به أول. ﴿أُجُورَهُمْ﴾: مفعول به ثان، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ أو هي في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو يوفيهم، والجملة الاسمية في محل رفع خبره، والجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: (الله). ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. هذا؛ وإن اعتبرتها في محل نصب حال من الفاعل المستتر بالفعل (يوفيهم) على تأويلها بظرف؛ ويكون المعنى: فيوفيهم أجورهم وقت كون الله لا يحبُّ الظالمين، والرابط: الواو فقط، ومثل هذه الآية قول امرئ القيس ـ وهو الشاهد رقم [٨٤٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ وهاكه: [الطويل]

وَقَـدْ أَغْـتَـدِي وَالـطَّـيْـرُ فِـي وُكُـنَـاتِـهَـا بِـمُـنْـجَـرِدٍ قَـيْـدِ الأَوَابِـدِ هَـيْـكَـلِ

والآية الكريمة، والبيت مثل قوله تعالى في سورة (يوسف) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ٥٨﴾

الشرح: ﴿ذَٰلِكَ...﴾ إلخ: الإشارة إلى ما ذكر من خبر عيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾: نقرؤه، ونقُصُّه. والخطاب لسيد الخلق محمَّد ﷺ. ﴿مِنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: آيات القرآن. وقيل: المراد بالآيات: المعجزات، والعلامات الدَّالة على صدقك، ونبوَّتك يا محمد! لأنها أخبار، لا يعلمها إلا مَنْ يقرأ، أو يكتب، أو نبيٌّ يوحى إليه، وأنت أميٌّ لا تقرأ، ولا تكتب، فثبت: أنَّ ذلك من الوحي السَّماويِّ؛ الذي أنزل عليك. انتهى خازن. ﴿وَٱلذِّكْرِ﴾: القرآن. ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾: المحكم؛ أي: لا خلل فيه، ولا تناقض. وقيل: ذو الحكمة. وقيل: الحاكم. أو: وصفه الله بالحكيم؛ لاشتماله على الحكم، أو: لأنه كلام حكيم، أو:

محكمة آياته، لم ينسخ منها شيء. وقيل: ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾ بمعنى المحكوم فيه؛ أي: حكم الله فيه بالعدل، والإحسان، وبالنَّهي عن الفحشاء، والمنكر، وبالجنَّة لمن أطاعه، وبالنَّار لمن عصاه.

الإعراب: ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿نَتۡلُوهُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو للثقل، والفاعل مستتر وجوباً، تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محلِّ رفع خبر المبتدأ. ﴿مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المنصوب، والعامل الفعل، كما يجوز أن يكونا متعلِّقين بخبر ثان للمبتدأ محذوف، كما جوز اعتبار ذلك خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: الأمر ذلك. وفيه ضعف ظاهر، وعلى جميع الاعتبارات؛ فالجملة الاسمية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿وَٱلذِّكۡرِ﴾: معطوف على: ﴿ٱلۡأٓيَٰتِ﴾. ﴿ٱلۡحَكِيمِ﴾: صفته.

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾

الشرح: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ...﴾ إلخ أي: شأن عيسى الغريب، وحاله العجيب كشأن آدم، وحاله، وهو من تشبيه الغريب بالأغرب، والعجيب بالأعجب؛ ليكون أوقع في النفس، وأقطع للخصم، وأفحم له، وإن كان بين آدم، وعيسى ـ على نبينا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام ـ فرق كبير. بعد أن يجتمعا في وصف واحد، فإنَّ آدم خلق مِنْ تراب، ولم يُخلق عيسى مِنْ تراب، فكان بينهما فرق من هذه الجهة، ولكن شبه ما بينهما: أنَّهما خلقا من غير أبٍ. ﴿خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ﴾: صوَّر جسمه من طينٍ لازب مأخوذ من التراب. هذا؛ وقال تعالى في سورة (مريم): ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ﴾ ثم قال له: كن فيكون: أي: أحدث، فيحدث، فهو حكايةُ حالٍ ماضية، أي: فكان بشراً سويّاً، قال الشاعر: [الطويل]

إِذَا مَا أَرَادَ اللهُ أَمْراً فَإِنَّمَا ... يَقُولُ لَهُ كُنْ قَوْلَةً فَيَكُونُ

هذا؛ و﴿ءَادَمَۖ﴾ أصله: أأْدم بهمزتين، انظر: ﴿ءَالِ﴾ في الآية رقم [١١] فهو مثله في إعلاله.

تنبيه: ذكرت لك في أوَّل هذه السورة: أنَّ وفد نجران، قدموا على النبيِّ ﷺ، فقالوا له: ما شأنك تذكر صاحبنا، وتسبُّه؟ فقال: مَنْ هو؟ قالوا: عيسى! تزعم: أنه عبد الله، قال: أجل! إنَّه عبد الله! فقالوا: هل رأيت له مثلاً خُلِقَ من غير أبٍ؟! ومن لا أب له؛ فهو ابن الله. ثمَّ خرجوا من عنده، فجاءه جبريل، عليه السلام، فقال له: قل لهم إذا أتوك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ. والمعنى: أنَّ من لم يقرَّ بأنَّ الله تعالى خلق عيسى من غير أبٍ، مع اعترافه بخلق آدم من غير أبٍ خارجٌ عن طور العقلاء. انتهى خازن، وغيره.

روي: أنَّ بعض العلماء أُسِرَ عند الروم، فقال لهم: لم تعبدون عيسى؟ قالوا: لأنه لا أب له، فقال لهم: آدم أولى؛ لا أب له، ولا أم، فقالوا: كان عيسى يحيي الموتى، فقال: حزقيل أولى؛ لأنَّ عيسى أحيا أربعة نفر، وحزقيل أحيا ثمانية آلاف، فقالوا: إنه كان يبرئ الأكمه، والأبرص، فقال: جرجيس أولى؛ لأنه طُبِخَ، وأُحْرِقَ، ثمَّ خرج سالماً. انتهى نقلاً من السَّمين.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿مَثَلَ﴾: اسمها. و﴿عِيسَىٰ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بمحذوف في محلِّ رفع خبر أول، وهو مُمَهِّدُ للثَّاني، ولا تتمُّ الفائدة به. و﴿عِندَ﴾ مضاف. و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، ﴿كَمَثَلِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ثان لـ ﴿إِنَّ﴾ وهو الذي تمت به الفائدة، و(مثل): مضاف، و﴿ءَادَمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ مَثَلَ﴾: مستأنفة لا محل لها.

﴿خَلَقَهُۥ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهِ﴾ والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من: ﴿ءَادَمَ﴾ والرابط: الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها. وقيل: مفسرة لـ (مثل آدم) وقيل: مستأنفة لا محل لها. ﴿قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾: انظر إعراب هذا الكلام في الآية رقم [٤٧] والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها صناعة؛ لأنَّ ﴿ثُمَّ﴾ هنا لترتيب الخبر، لا لترتيب المخبر عنه؛ لأنَّ قوله: ﴿كُن﴾ لم يتأخر عن خلقه، وإنما هو في المعنى تفسير لمعنى الخلق، وقد جاءت: ﴿ثُمَّ﴾ غير مفيدة بترتيب المخبر عنه. انتهى عكبري باختصار.

﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: ما ذكر في عيسى هو القول الحق؛ الذي لا محيد عنه، ولا مقبول سواه، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟! لا ما يدعيه النَّصارى من أنَّ عيسى ـ عليه السلام ـ ابن الله، أو هو الإله، كما يقول بعضهم: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: الشَّاكِّين في الذي أنت عليه، وهذا على سبيل الفرض، والتقدير؛ لأنَّه من المحال أن يشكَّ النبي ﷺ فيما أنزل إليه من ربِّه. هذا؛ وقيل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمَّته؛ لأن النهي المذكور محالٌ في حقِّه ﷺ. وحاصل الجواب: أنَّ متعلَّق الامتراء هو علم أهل الكتاب بحقيَّة القرآن، وهو أحد الأجوبة في الكشاف. والثاني: أنَّه من باب التهيُّج، والتَّحريض لزيادة الثبات على ما ورد في شأن عيسى، عليه السلام، والوقوف عنده، وهو لكلِّ سامع من أمَّة محمَّد ﷺ بأنَّ عيسى عبد الله، ورسوله، لا ابنه، كما زعمت النَّصارى. بعد هذا؛ فالامتراء: الشَّكُّ، ومنه المراء، والتَّماري، والمماراة؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتخاصمين يشكُّ في قول صاحبه، وما ذكر يكون بمعنى الجدال، كما في قوله تعالى لنبيه ﷺ في سورة (الكهف): ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً

ظَهِيرًا...﴾ إلخ. بعد هذا فالآية مذكورة في سورة (البقرة) برقم [١٤٧] وهناك ذكرت بشأن مماراة اليهود النبيَّ ﷺ في استقبال بيت المقدس في الصَّلاة.

الإعراب: ﴿ٱلْحَقُّ﴾: مبتدأ. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾: متعلقان بمحذوف في محل رفع خبره، والكاف في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. هذا؛ وقيل: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو الحق، فيكون الجار، والمجرور متعلقين بمحذوف حال من: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ أو بمحذوف خبر ثان للمبتدأ المُقدَّر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿فَلَا﴾: الفاء: هي الفصيحة. (لا): ناهية. ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم، واسمه مستتر فيه، تقديره: أنت. ﴿مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبره، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب للشرط المُقدَّر، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً، وحاصلاً؛ فلا تكن... إلخ، والجملة الشرطية مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾

الشرح: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ﴾: جادلك، وخاصمك. والمحاجَّة: المجادلة. والخطاب للنبي ﷺ. ﴿فِيهِ﴾: في شأن عيسى، عليه السلام. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: من البينات الموجبة للعلم بأنَّ عيسى عبد الله، ورسوله. ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا۟﴾: هلموا، وأقبلوا. والمراد: المجيء بالعزم، والرأي. ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾: فيه دليل على أن أبناء البنات يسمَّون: أبناء، كيف لا؟! وقد قال الرسول ﷺ: «**كُلُّ نَبِيٍّ أَبْنَاؤُهُ مِنْ صُلْبِهِ، وَأَبْنَائِي مِنْ صُلْبِ عَلِيٍّ**». ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾: ندعو، ونتضرَّع. والابتهال: التضرُّع، والدعاء، مأخوذ من «البهلة» بفتح الباء، وضمها، وهي: اللعنة. هذا أصله، ثم استعمل في كلِّ دعاء مجتهدٍ فيه؛ وإن لم يكن التعاناً. قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الرمل]

فِي كُهُولٍ سَادَةٍ مِنْ قَوْمِهِ ... نَظَرَ الدَّهْرُ إِلَيْهِمْ فَابْتَهَلْ

أي: اجتهد الدَّهر في هلاكهم. ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ أي: نقول: اللهم العن الكاذب في شأن عيسى. روي: أنَّ النبي ﷺ لمَّا دعاهم إلى المباهلة، قالوا: حتَّى ننظر في أمرنا، فلمَّا تخالفوا؛ قالوا للعاقب ـ وكان صاحب رأيهم ـ: ماذا ترى؟ فقال: والله لقد عرفتم نبوَّة محمد! ولقد جاءكم بالفصل في أمر عيسى، والله ما باهل قوم نبيّاً قطُّ إلا هلكوا! فإن أبيتم إلا إلف دينكم؛ فوادعوا الرَّجل، وانصرفوا إلى بلادكم. فأتوا رسول الله ﷺ، وقد غدا محتضناً للحسين، آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعليٌّ ـ رضي الله عنه ـ يمشي خلفها، وهو يقول: «**إِذَا أَنَا دَعَوْتُ؛ فَأَمِّنُوا**». فقال أسقفهم: يا معشر النَّصارى! إني لأرى وجوهاً. لو سألوا

الله أن يزيل جبلاً من مكانه؛ لأزاله، فلا تُباهلوا؛ فتهلكوا! فأذعنوا لرسول الله ﷺ، وبذلوا الجزية ألفيْ حلة حمراء، وثلاثين درعاً من حديد كلَّ عام، فقال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بيدِهِ لَوْ بَاهَلُوا؛ لَمُسِخُوا قردةً، وَخَنَازِيرَ، وَلاضْطَرَمَ عَلَيْهِمُ الْوَادِي نَاراً، ولاسْتَأْصَلَ اللهُ نَجْرانَ، وَأَهْلَهُ؛ حَتَّى الطَّيرَ عَلَى الشَّجْرِ!**» وهو دليل على نبوَّته، وفضل مَنْ أتى بهم من أهل بيته. انتهى بيضاوي، وغيره. وفي الآية رقم [٩٥] من سورة (البقرة) ما يشبه هذا مع اليهود.

روي: أنهم قالوا للنَّبي ﷺ: ابعثْ معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا، يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها في أموالنا، فإنكم عندنا رضاً! فقال رسول الله ﷺ: «**ائْتُونِي الْعَشِيَّةَ؛ أَبْعَثْ معكُمُ الْقَوِيَّ الأَمِينَ**». فكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يقول: ما أحببت الإمارة قَطُّ حبِّي إيَّاها يومئذ؛ رجاء أن أكون صاحبها، فرحت إلى الظهر مهجِّراً، فلما صلى رسول الله ﷺ الظهر؛ سلم، ثم نظر عن يمينه، وشماله. فجعلت أتطاول له؛ ليراني، فلم يزل يلتمس ببصره؛ حتى رأى أبا عبيدة بن الجراح، فدعاه، فقال: «**اخْرُجْ مَعَهُمْ، فَاقْضِ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**». قال عمر: فذهب بها أبو عبيدة ـ رضي الله عنه ـ.

تنبيه: وإنما خص الله الأبناء، والنساء بالذِّكر؛ لأنهم أعزُّ الأهل، وإنما قدمهم في الذكر على النفس لينبه بذلك على لطف مكانهم، وقرب منزلتهم، ولأنَّ الرَّجل يخاطر بنفسه في سبيلهم، ويحارب دونهم. وينبغي أن تعلم: أن وفودهم على النبي ﷺ كان سنة تسع من الهجرة؛ لأنَّ الزُّهري قال: كان أهل نجران أول من أدَّى الجزية إلى رسول الله ﷺ. وآية الجزية الموجودة في سورة (التوبة) رقم [٣٠] إنما نزلت بعد الفتح.

هذا؛ و(نساء) اسم جمع لا واحد له من لفظه؛ لأنَّ مفرده: امرأة، وجمعها في القلَّة: نسوة، وفي الكثرة: نساء، وتجمع أيضاً على: نسوان، ونَسُون، ونَسْنين. وهذه الجموع كلها مأخوذة من النسيان؛ الذي شرحته مراراً، فهي مطبوعة عليه، إما إهمالاً، وإما كذباً، ويقال لكل هذه الجموع: اسم جمع لا واحد له من لفظه، أمَّا المرأة؛ فهي مأخوذة من المرء، وهو الرجل، فلذا سميت بذلك، والأم حواء ـ عليها ألف صلاة، وألف سلام ـ سميت بذلك؛ لأنها مأخوذة من: حي، وهو: آدم، عليه السلام.

هذا؛ و(أبناء) أصله: أبناوٌ، وهو جمع: ابن، وأصله: بنوٌ. و(نساء) أصله: نِسايٌ. وأيضاً: آباء أصله: أباوٌ؛ لأنه جمع: أب، وأصله: أبَوٌ، فقل في الثلاثة: تحركت الواو والياء، وانفتح ما قبلهما، فقلبتا ألفاً، ولم يعتدَّ بالألف الزائدة؛ لأنها حاجز غير حصين، فالتقى ساكنان، الألف الزائدة، والألف المنقلبة، فأبدلت الثانية همزة.

هذا؛ ولقد سئلت عمَّا يلي: همزة المصدر: استغفار، ونحوه همزة وصل، فإذا جمعت: استغفارات، ونحوه تبقى الهمزة همزة وصل، وهمزة ابن همزة وصل أيضاً، فلما جمع أبناء صارت الهمزة همزة قطع، فما الفرق بينهما؟ والجواب: أنّ همزة المصدر أصلية، وأما همزة

ابن؛ فليست أصلية، إذ أصله: بنوٌ، كما رأيت، فالهمزة فيه بدل من حرف علة أصلي، فلما جمع؛ جُمِعَ على: أبناء، فهذه الهمزة همزة أفعال، وليست همزة ابن كما قد يتوهم.

هذا؛ وقد أمر الله رسوله ﷺ أن يجعل اللعنة على الكاذبين، ولقد كرر الله لعن الكافرين في الآية رقم [١٥٩] من سورة (البقرة) كما لعن الظالمين، والفاسقين، والناقضين للعهد في آيات متفرقة، وهو دليل قاطع على أن من مات على كفره؛ فقد استحق اللعن من الله، والملائكة، والناس أجمعين، وأما الأحياء من الكفار؛ فقد قال بعض العلماء: لا يجوز لعن كافر معين؛ لأن حاله لا يعلم عند الوفاة، فلعله يؤمن، ويموت على الإيمان، وقد قيَّد الله في الآية رقم [١٦١] من سورة (البقرة) إطلاق اللعنة على من مات على الكفر. ويجوز لعن الكفار جملة بدون تعيين، كما في قولك: لعن الله الكافرين، يدل عليه قول النبي ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ اليهودَ، حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ، فَجَمَّلُوهَا، وَبَاعُوهَا**». وذهب بعضهم إلى جواز لعن إنسان معين من الكفار، بدليل قتاله، وهو الصَّحيح، كيف لا؟! وقد لعن حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أبا سفيان، وزوجه هنداً في شعره، ولم ينكر عليه النبي ﷺ. خذ قوله: [الكامل]

لَعَنَ الإِلَهُ وَزَوْجَهَا مَعَهَا هِنْدَ الْهُنُودِ طَوِيلَةَ الْبَظْرِ

وقد لعن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السُّلمي، وغيرهم؛ الذين قدموا المدينة المنورة بعد غزوة أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلِّموه، فقام معهم جماعة من المنافقين، وقالوا للنبي ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا بسوء، وقل: إن لها شفاعة لمن عبدها، وندعك وربك! فشقَّ ذلك على سيد الخلق، وحبيب الحق، فقال له الفاروق: يا رسول الله! ائذن لي في قتلهم، فقال: «**إِنِّي أَعْطَيْتُهُمُ الأَمَانَ**» فقال الفاروق: اخرجوا في لعنة الله، وغضبه. ولم ينكر عليه النَّبيُّ ﷺ ذلك. كيف لا؛ وآية (النور) رقم [٧] تأمر المسلم أن يلعن نفسه إن كان من الكاذبين؟! وأمَّا العصاة من المسلمين فلا يجوز لعن واحدٍ منهم على التَّعيين قطعاً، وأما على الإطلاق؛ فيجوز كما في قولك: لعن الله الفاسقين، والفاسقات، والفاسدين، والفاسدات، والخبيثين، والخبيثات... إلخ؛ لما روي: أنَّ النبي ﷺ، قال: «**لَعَنَ اللهُ السارقَ يسرقُ البيضةَ، والحبلَ، فتُقْطَعُ يَدُهُ**». ولعن رسول الله ﷺ: «**الواشمةَ، والمستوشمةَ، وآكلَ الرِّبَا، ولَعَنَ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأرضِ، ومن انتسبَ إلى غيرِ أبيهِ، ومن عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لوطٍ، ومَنْ أَتَى امرأةً في دبرها، وغير ذلك**». وكل ذلك في الصَّحيح من الأحاديث، وخذ ما يلي:

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئاً؛ صَعِدَتِ اللعنةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبوابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثمَّ تهبِطُ إلى الأَرضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوابُها دُونَها، ثُمَّ تأخذُ يميناً، وشمالاً، فإِنْ لَمْ تجدْ مَسَاغاً؛ رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فإن كانَ أَهْلاً، وَإِلَّا؛ رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِها**». رواه أبو داود.

هذا، وأما (النَّفس) فإنها تجمع في القلة: أنفس، وفي الكثرة: نفوس. والنفس تؤنث باعتبار الروح، وتذكَّر باعتبار الشَّخص؛ أي: فإنها تطلق على الذات أيضاً ـ كما في هذه الآية ـ سواءٌ أكان ذكراً، أم أنثى؟ فعلى الأول قيل: هي جسم لطيف مشتبك بالجسم اشتباك الماء بالعود الأخضر الرطب، فتكون ساريةً في جميع البدن، قال الجنيد ـ رحمه الله تعالى ـ: الروح شيء استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، فلا يجوز البحث عنه بأكثر من أنه موجود. قال تعالى في سورة (الإسراء): ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى....﴾ إلخ.

وقال بعضهم: إنَّ هناك لطيفة ربانية، لا يعلمها إلا الله تعالى، فمن حيث تنكُّرها تسمى عقلاً، ومن حيث حياة الجسد بها تسمَّى روحاً، ومن حيث شهوتها تسمى نَفْساً. فالثلاثة متَّحدة بالذَّات، مختلفة بالاعتبار. وهذا ما تدل عليه الآثار الصِّحاح. هذا؛ ومن الدليل على أن النَّفس هي الروح قوله تعالى في سورة (الزُّمر) رقم [٤٢]: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يريد الأرواح، وذلك بيِّنٌ في قول بلال ـ رضي الله عنه ـ للنبي ﷺ في حديث ابن شهاب: «**أَخَذَ بِنَفْسِي يَا رسُولَ اللهِ الَّذِي أَخَذَ بِنَفسِكَ**». وهذا كان في الوادي الذي ناموا فيه عن صلاة الصبح؛ حتى طلعت الشمس، وهم قافلون من غزو تبوك. والنفس أيضاً: الدم، يقال: سالت نفسُه. قال الشاعر: [الطويل]

تَسِيلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا ... وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيلُ

وقال إبراهيم النَّخعي ـ رحمه الله تعالى، وهو المقرر في الفقه ـ: «**ما ليسَ لَهُ نفس سائلة؛ فإنَّه لا ينجس الماء إذا مات فيه**». والنفس أيضاً، الجسد، قال الشاعر: [الكامل]

نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي سُحَيْمٍ أَدْخَلُوا ... أَبْيَاتَهُمْ تَامُورَ نَفْسِ الْمُنْذِرِ

والتامور أيضاً: الدم. هذا؛ وقد ذكر القرآن الكريم: أنَّ للنفس خمس مراتب: الأمَّارة بالسوء، واللَّوامة، والمطمئنة، والراضية، والمرضية. ويزاد: الملهمة، والكاملة. فالأمَّارة: هي التي تأمر صاحبها بالسوء، ولا تأمر بالخير إلا نادراً، وهي مقهورة، ومحكومة للشَّهوات. وإن سكنت لأداء الواجبات الإلهية، وأذعنت لاتباع الحق، لكن بقي فيها للشهوات سميت: لوامة. وإن زال عنها هذا الميل، وقدرت على معارضة الشهوات، وزاد ميلها إلى عالم القدس، وتلقَّت الإلهامات؛ سميت: ملهمة. فإن سكن اضطرابها، ولم يبق للنفس الشَّهوانية حكم أصلاً؛ سميت مطمئنة، فإن ترقَّت من هذا، وأسقطت المقامات من عينها، وفنيت من جميع مراداتها؛ سميت راضية. فإن زاد هذا الحال عليها؛ صارت مرضيَّةً عند الحق، وعند الخلق. فإن أُمِرَتْ بالرجوع إلى العباد لإرشادهم، وتكميلهم؛ سمِّيت: كاملة. فالنفس لها سبع طبقات، ولها سبع درجات، كما ذكرتُ، وقدَّمْتُ.

وأخيراً خذ ما ذكره القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: وفي الخبر عن النبي ﷺ: أنه قال: «**مَا تَقُولُونَ فِي صَاحِبٍ لَكُمْ، إِنْ أَكْرَمْتُمُوهُ، وَأَطْعَمْتُمُوهُ، وَكَسَوْتُمُوهُ؛ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ. وَإِنْ**

أَهَنْتُمُوهُ، وَأَعْرَيْتُمُوهُ، وَأَجَعْتُمُوهُ؛ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى خَيْرِ غَايَةٍ؟» قالوا: يا رسول الله! هذا شرُّ صاحب، قال: «**فَوَ الَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَنُفُوسُكُمُ الَّتِي بَيْنَ جُنُوبِكُمْ**». انتهى.

الإعراب: ﴿فَمَنْ﴾: الفاء: حرف استئناف. (مَنْ) اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿حَآجَّكَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والكاف مفعول به. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مِنْ بَعْدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما أيضاً، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف. و﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿جَآءَكَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿مَا﴾ وهو العائد، أو الرابط، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها. ﴿مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر العائد على: ﴿مَا﴾ و﴿مِنَ﴾ بيان لما أبهم فيها، هذا ويجوز على مذهب الأخفش اعتبار: ﴿مَا﴾ مصدرية. فيكون فاعل (جاء) ﴿ٱلْعِلْمِ﴾ و﴿مِنَ﴾ مزيدة على مذهبه، وبعد سبك المصدر من: ﴿مَا﴾ والفعل: (جاء) يكون التقدير: من بعد مجيء العلم لك.

﴿فَقُلْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قل): فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: «أنت» ﴿تَعَالَوْاْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿نَدْعُ﴾: فعل مضارع مجزوم لوقوعه جواباً للأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الواو، والضمة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والجملتان في محل نصب مقول القول، وجملة: (قل...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنها لا تحلُّ محلَّ المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه. فقيل: جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح عند المعاصرين، والجملة الاسمية ﴿فَمَنْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿أَبْنَآءَنَا﴾: مفعول به، وما بعده معطوف عليه، و(نا) والكاف في محل جر بالإضافة.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿نَبْتَهِلْ﴾: فعل مضارع معطوف على: ﴿نَدْعُ﴾ مجزوم مثله. ﴿فَنَجْعَل﴾: معطوف عليه أيضاً، وفاعلهما مستتر وجوباً تقديره: نحن. ﴿لَّعْنَتَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، مِنْ إضافة المصدر لفاعله. ﴿عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾: متعلقان بالفعل (نجعل) وهما في محل نصب مفعوله الثاني، وهو قول أبي البقاء، وأرى: أنَّه لا بأس بتعليقهما بـ ﴿لَّعْنَتَ﴾.

﴿إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ هَـٰذَا...﴾ إلخ؛ أي: ما قصَّ الله علينا من خبر عيسى، ومريم هو الحقُّ، دون ما يذكره النَّصارى من أنَّه الله، أو ابن الله. تعالى الله عمَّا يقولون، ويكذِّبون علوّاً كبيراً! هذا؛

و﴿ٱلْقَصَصُ﴾ مصدر: قصَّ فلان الحديث، يقصُّه قصّاً، وقصصاً، وأصله: تتبع الأثر. فلانٌ خرج يقصُّ أثر فلان؛ أي: يَتَتَبَّعُهُ؛ ليعرف أين ذهب، ومنه قوله تعالى في سورة (القصص): ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: اتبعي أثره. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾: فيه إثبات الإلهيَّة لله وحده. وفيه ردٌّ على النصارى، وعلى المشركين؛ الذين يزعمون إلهية غير الله. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: القوي، الغالب، المنتقم ممن عصاه، وخالف أمره، وادَّعى معه إلهاً آخر. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في قضائه، وتدبيره، يضع الأمور مواضعها.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب اسمها، والهاء حرف تنبيه، لا محل له. ﴿لَهُوَ﴾: اللام: هي المزحلقة. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلْقَصَصُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ أو هو ضمير فصل لا محل له، و﴿ٱلْقَصَصُ﴾ خبر: ﴿إِنَّ﴾ ودخلت اللام على ضمير الفصل؛ لأنه إذا جاز أن تدخل على الخبر، فدخولها على ضمير الفصل أولى؛ لأنه أقرب إلى المبتدأ من الخبر، وأصلها أن تدخل على المبتدأ. ﴿ٱلْحَقُّ﴾: صفة: ﴿ٱلْقَصَصُ﴾ والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ هَٰذَا...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿مِنْ﴾: حرف جر صلة. ﴿إِلَٰهٍ﴾: مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر المبتدأ. وقيل: خبر المبتدأ محذوف، التقدير: وما إله لنا، و﴿ٱللَّهُ﴾ بدل من محل: ﴿إِلَٰهٍ﴾ وفيه ضعف، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، أو هي معترضة بين الجملتين المتعاطفتين. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ معطوفة على ما قبلها، وإعرابها مثلها بلا فارق.

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾: أعرضوا عن الإيمان، واتباع ما جئت به يا محمد. وانظر الآية رقم [٢٣]. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي: الذين يعبدون غير الله، ويدعون الناس إلى عبادة غيره. ففيه تهديدٌ، ووعيد لهم. ووضع المظهر: ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾ موضع المضمر: «بهم» ليدل على أن التولِّي عن الحجج، والإعراض عن التوحيد إفسادٌ للدين، والاعتقاد المؤدِّي إلى فساد النفس، بل إلى فساد العالم. انتهى بيضاوي.

الإعراب: ﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة، لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلِّق محذوف، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها

ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَإِن﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنْ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبرها. ﴿بِٱلْمُفْسِدِينَ﴾: متعلقان بـ ﴿عَلِيمٌۢ﴾ والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، و(إنَّ) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ﴾: خطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق محمد ﷺ. ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: المراد بهذا النداء: اليهود، والنصارى، فقد قال المفسرون: لمَّا قدم وفد نجران المدينة؛ اجتمعوا مع اليهود عند النبي ﷺ واختصموا في إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف ألف صلاة، وألف سلام ـ فزعمت النَّصارى: أنه كان نصرانيّاً، وهم على دينه، وهم أولى النَّاس به. وزعمت اليهود: إنه كان يهوديّاً، وهم على دينه، وأولى الناس به. فقال رسول الله ﷺ: كلا الفريقين بريءٌ من إبراهيم، ودينه، بل كان حنيفاً مسلماً؛ وأنا على دينه، فاتَّبعوا دينه الإسلام. فقالت اليهود: ما تريد إلا أن نتَّخذك ربّاً، كما اتخذت النَّصارى عيسى ربّاً. وقالت النصارى: ما تريد إلا أن نقول فيك ما قالت اليهود في عُزير. فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟...﴾ إلخ.

﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ﴾ أي: فيها عدل، وإنصاف، لا ميل فيها، ولا انحراف. قال زهير: [الوافر]

أَرُونِي خُطَّةً لَا ضَيْمَ فِيهَا ... يُسَوِّى بَيْنَنَا فِيهَا السَّوَاءُ

وقال تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٥٨]: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ...﴾ إلخ. هذا؛ ووصفت: ﴿كَلِمَةٍ﴾ بـ ﴿سَوَآءٍۭ﴾ لأنه يستوي فيه المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث.

هذا؛ و(بين) ظرف مكان بمعنى وسْط بسكون السين، تقول: جلس بين القوم، كما تقول: جلس وسْط القوم، ولا يضاف إلا لمتعددٍ، سواء أكان تعدده بسبب التثنية، أو الجمع، أم كان تعدده بسبب العطف، فمثال الأول: جلست بين الزيدين، وجلست بين الأدباء، وفي الآية أضيف إلى الضميرين، وهما بمعنى الجمع، كما ترى. هذا؛ والبين: الفراق، والبعاد. وهو أيضاً: الوصل، فهو من الأضداد، كالجَوْن يطلق على الأسود، والأبيض. وقرئ قوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٩٤]: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ بفتح النون، وضمها، وفسر بالمعنيين: الفراق، والوصل. ومن استعماله بمعنى الفراق، والبعاد قول كعب بن زهير رضي الله عنه ـ وهو الشاهد رقم [٨٠٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

وَمَـا سُـعَـادُ غَـدَاةَ الْـبَـيْـنِ إِذْ رَحَـلُـوا ... إِلَّا أَغَـنُّ غَـضِـيـضُ الـطَّـرْفِ مَـكْـحُـولُ

﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: نوحده بالعبادة، ونخصه فيها. ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ أي: لا نجعل له شريكاً في العبادة، ولا نرى شيئاً في الوجود أهلاً لأن يعبد. ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وذلك: أنَّ النَّصارى عبدوا غير الله، وهو المسيح، وأشركوا به، وهو قولهم: أب، وابن، وروح القدس، فجعلوا الواحد ثلاثة، واتَّخذوا أحبارهم، ورهبانهم أرباباً من دون الله، وذلك: أنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الشِّرك. ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾: أعرضوا عمَّا دعوتَهم إليه، وأمرتَهم به. ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: مخلصون التوحيد لله وحده. والخطاب للنبي ﷺ، ولأصحابه.

وخذ ما يلي: فقد روى الترمذيُّ، وأحمد عن عديِّ بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ، قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهب. فقال: «**يَا عَدِيُّ! اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ**» فطرحْتُهُ، وسمعتهُ يقرأ في سورة (براءة): ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ حتى فرغ، فقلت: يا رسول الله! إنا لسنا نعبدهم، فقال: «**أَلَيْسُوا يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ، فَتُحرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟**» قلت: بلى. قال: «**فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**» قال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله تعالى ـ: [الوافر]

وَهَـلْ بَـدَّلَ الـدِّيـنَ إِلَّا الْـمُـلُـو ... كُ وَأَحْـبَـارُ سُـوءٍ وَرُهْـبَـانُـهَـا؟

لذا فإن كل إنسان يتَّبع إنساناً آخر في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ في تحليل، أو تحريم ما لم يأذن به الله كمن اتخذه ربَّاً. هذا؛ ولا تنس: أن النبي ﷺ أرسل إلى الملوك في السنة السادسة بعد الهجرة بعد غزوة الحديبية، ودعاهم إلى الإسلام، وفي كتابه إلى هرقل ما يلي: «**بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم، من محمدٍ رسولِ اللهِ إلى هِرَقْلَ عظيم الروم، سلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدى، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسلَامِ، أَسْلِمْ؛ تَسْلَمْ، يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، وَإِنَّ تَوَلَّيْتَ؛ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرْيسِيِّينَ**». ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ...﴾ إلخ. وخذ ما يلي:

قال ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ في قطر الندى: وأمَّا: «**هاتِ**» و«**تعال**» فعدَّهما جماعة من النحويين في أسماء الأفعال، والصَّواب: أنهما فعلا أمر، بدليل: أنَّهما دالان على الطلب، وتلحقهما ياء المخاطبة، فتقول: هاتي، وتعالَيْ. واعلم: أنَّ آخر «**هاتِ**» مكسورٌ أبداً، إلا إذا كان لجماعة المذكرين؛ فإنه يضم، فتقول: هاتِ يا زيدُ، وهاتِي يا هندُ، وهاتِيَا يا ز يدانِ، وهاتِيَا يا هندانِ، وهاتِينَ يا هنداتُ، كلُّ ذلك بكسر التاء، وتقول: هاتُوا يا قَوْمُ بضمِّها. قال تعالى في كثير من الآيات: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾. وأنَّ آخِر «**تعالَ**» مفتوح في جميع أحواله من غير استثناء، تقول: تعالَ يا زيدُ، وتعالَيْ يا هندُ، وتَعاليا يا زيدانِ، وتعاليا يا هندان، وتعالَوا يا زيدونَ، وتعالَيْنَ يا هنداتُ، كل ذلك بالفتح. قال تعالى في سورة

(الأنعام): ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ...﴾ إلخ، وقال الله جلَّ ذكره في سورة (الأحزاب): ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾. ومن ثمَّ لحّنوا أبا فراس الحمداني في قوله: [الطويل]

أَيَا جَارَتَا مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا تَعَالِي أُقَاسِمْكِ الْهُمُومَ تَعَالِي

وأقول: إنَّ الفعلين (هاتِ، وتعالَ) ملازمان للأمرية، فلا يأتي منهما مضارع ولا ماضٍ، وهما بمعنى: (أَحْضِرُوا، أو: احْضُرُوا) فالأول متعدٍ، وهو من الرُّباعي، والثاني لازم، وهو من الثلاثي، وأما تعالى، يتعالَى، فهما بمعنى: تعاظم، يتعاظم، أو بمعنى: يتنزه. وقل في إعلال تعالوْا: أصله: تعالَوُوا، ثم تعالَيُوا، فحذفت الضمة التي على الياء للثقل، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، وبقيت الواو؛ لأنها ضمير، وبقيت الفتحة على اللام لتدلَّ على الألف المحذوفة.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. (يا): أداة نداء، تنوب مناب أدعو. (أهل): منادى، وهو مضاف، و﴿الْكِتَابِ﴾ مضاف إليه. ﴿تَعَالَوْا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿إِلَى كَلِمَةٍ﴾: متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به، ولم يذكر مثلهما في الآية رقم [٦١] لأنَّ المقصود هناك مجرد الإقبال، ويجوز أن يكون حذفه للدلالة عليه، تقديره: تعالْوا إلى المباهلة. انتهى جمل نقلاً عن السَّمين. ﴿سَوَاءٍ﴾: صفة ﴿كَلِمَةٍ﴾. ﴿بَيْنَنَا﴾: ظرف مكان متعلّق بسواء، و(نا) في محل جر بالإضافة. (بينكم): ظرف معطوف على ما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة.

﴿أَلَّا﴾: (أنْ): حرف مصدري، ونصب. (لا): نافية. ﴿نَعْبُدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن)، والفاعل تقديره: نحن. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿اللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والمصدر المؤول من: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ﴾ تفسر لـ ﴿كَلِمَةٍ﴾ أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي عدم عبادتنا لغير الله. هذا؛ وأجاز مكي اعتبار (أنْ) مخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والجملة الفعلية بعدها خبرها، ويقال في المصدر المؤول منها، واسمها، وخبرها ما قيل في المصدر السابق. ﴿نُشْرِكَ﴾ و﴿يَتَّخِذَ﴾ معطوفان على: ﴿نَعْبُدَ﴾ وهما شريكان له في النصب، والتأويل. ﴿بَعْضُنَا﴾: فاعل ﴿يَتَّخِذَ﴾. ﴿بَعْضًا﴾ مفعول به أول. ﴿أَرْبَابًا﴾: مفعول به ثان. ﴿مِنْ دُونِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿يَتَّخِذَ﴾ أو هما متعلقان بـ﴿أَرْبَابًا﴾ أو بمحذوف صفة له.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا﴾ انظر الآية السابقة. ﴿اشْهَدُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِأَنَّا﴾: الباء: حرف جر. (أنَّا): حرف مشبه. و(نا) اسمها، حذفت نونها، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿مُسْلِمُونَ﴾: خبر: (أنَّ) مرفوع، وعلامة رفعه الواو، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿اشْهَدُوا﴾ والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: (قولوا...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها... إلخ. ﴿فَإِنْ﴾ ومدخولها كلام مستأنف لا محل له، ورجَّحه ابن هشام في المغني.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: انظر الآية السابقة. ﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ...﴾ إلخ: قال الزجاج رحمه الله تعالى: هذا الآية: أبين حجة على اليهود، والنصارى: إذا التوراة، والإنجيل أنزلا من بعده، وليس فيهما اسم لواحد من الأديان، واسم الإسلام في كلِّ كتاب؛ فكيف يكون يهوديّاً، أو نصرانيّاً، واليهودية، والنصرانية إنما حدثتا بعد إبراهيم بزمن طويل؟! ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ أي: أفلا تفهمون بطلان قولكم، ودحوض حجتكم يا معشر اليهود، والنصارى؛ حتى لا تجادلوا هذا الجدال المحال.

هذا؛ و(أهل): اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: معشر، ورهط. والأهل: العشيرة وذو القربى، ويطلق على الزوجة، والأتباع، والجمع: أهلون، وأَهَال، وآهال، وأهْلات، وأهَلات. وبالأوَّلَيْن قرئ قوله تعالى في سورة (التَّحريم): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

﴿لِمَ﴾: كلمة مؤلفة من حرف، واسم، فالحرف: اللام الجارة، والاسم: (ما) الاستفهامية. وقد حذفت ألفها، كما تحذف مع كلِّ جار، نحو قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكۡرَىٰهَآ﴾، ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾، وذلك للفرق بين الموصولة، والاستفهامية، ويقال: للفرق بين الخبر، والاستخبار. ومن شواهدها الشعرية قول الكميت وهو الشاهد رقم [٥٥٤] من كتابنا فتح القريب المجيب: [الطويل]

فَتِلْكَ وُلَاةُ السُّوءِ قَدْ طَالَ مُكْثُهُمْ ... فَحَتَّامَ حَتَّامَ الْعَنَاءُ الْمُطَوَّلُ؟

وأيضاً عمر بن معد يكرب ـ رضي الله عنه ـ وهو الشاهد رقم [٢٥٠] من كتابنا المذكور: [الطويل]

عَلَامَ تَقُولُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ عَاتِقِي ... إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعُنْ إِذَا الْخَيْلُ كَرَّتِ

وقد ثبتت ألفها مع دخول الجار عليها في ضرورة الشِّعر، ومنه قول حسان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يهجو رجلاً من بني مخزوم، وهو الشاهد رقم [٥٥٦] من الكتاب المذكور: [الوافر]

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ ... كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي دَمَانِ

الإعراب: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: انظر الآية السابقة، والجملة الندائية مستأنفة لا محل لها. ﴿لِمَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما، وعلامة الجر الكسرة المقدرة على الألف المحذوفة للفرق بين الخبر، والاستخبار. ﴿تُحَآجُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون،

والواو فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها، كالجملة الندائية قبلها. ﴿فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿وَمَآ﴾: الواو: واو الحال، (ما): نافية. ﴿أُنزِلَتِ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلتَّوۡرَىٰةُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من: ﴿إِبۡرَٰهِيمَ﴾ والرابط: الواو، والضمير المجرور محلاً بالإضافة الآتي. ﴿وَٱلۡإِنجِيلُ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿أُنزِلَتِ﴾ والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتقريع، وتأنيب، والفاء: حرف استئناف، أو حرف عطف. ﴿تَعۡقِلُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة مقدرة، التقدير: أَطُبِع على قلوبكم، فلا تعقلون؟! والكلام كله معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف لا محل له على الاعتبارين.

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾

الشرح: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: المراد بهم أهل الكتابين. يعني: يا معشر اليهود، والنصارى! ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾: جادلتم، وخاصمتم. ﴿فِيمَا لَكُم بِهِۦ﴾ يعني: فيما وجدتم في كتبكم، وأنزل الله عليكم بيانه في أمر عيسى، وموسى، عليهما السلام، وادعيتم: أنكم على دينهما، وقد أنزل الله عليهما التوراة، والإنجيل؛ لتعملوا فيهما. ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم...﴾ إلخ؛ أي: فلم تجادلون، وتخاصمون في شيءٍ لا علم لكم به، وهو دعواكم: أنَّ إبراهيم كان يهوديّاً، أو نصرانيّاً؛ لأنه لا ذكر لذلك في التوراة، والإنجيل. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾: ما كان عليه إبراهيم ـ عليه السلام ـ من الدين، والشريعة. ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾: شيئاً من شأن إبراهيم، وما كان عليه من الدين والشريعة.

الإعراب: (ها): حرف تنبيه لا محل له. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الهاء: حرف تنبيه أيضاً. (أولاء): اسم إشارة، مبني على الكسر في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها. ﴿حَٰجَجۡتُمۡ﴾ فعل، وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة، مقرِّرة لما قبلها. هذا؛ ويعتبر الكوفيون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسماً موصولاً خبر المبتدأ، والجملة الفعلية صلة له، لا محلَّ لها. ولم يجزه البصريُّون؛ لأن: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة، ولا يكون بمعنى «**الذين**». هذا وجهٌ للإعراب.

الوجه الثاني: اعتبار الضمير مبتدأ، والجملة الفعلية خبره، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منادى بأداة نداء محذوفة، والجملة الندائية معترضة بين المبتدأ، والخبر. وهذا عند الكوفيين، واستدلوا بقول ذي الرُّمَّة ـ وهو الشاهد رقم [١٠٩٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

إِذَا هَمَلَتْ عَيْنِي لَهَا قَالَ صَاحِبِي بِمِثْلِكَ ـ هَذَا ـ لَوْعَةٌ وَغَرَامُ

فإنه أراد: (يا هذا). والبصريُّون يعتبرون حذف حرف النداء من اسمي الجنس، والإشارة شاذّاً، وابن هشام يقول بقولهم، أمَّا ابن مالك، فلم يعتبره شاذّاً؛ لوروده في الشعر العربي، وخذ قوله: [الرجز]

وَغَيْرُ مَنْدُوبٍ وَمُضْمَرٍ وَمَا ... جَا مُسْتَغَاثاً قَدْ يُعَرَّى فَاعْلَمَا

وَذَاكَ فِي اسْمِ الْجِنْسِ وَالْمُشَارِ لَهْ ... قَلَّ وَمَنْ يَمْنَعْهُ فَانْصُرْ عَاذِلَهْ

الوجه الثالث: اعتبار: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مفعولاً به لفعل محذوف، التقدير: أعني هؤلاء، والجملة الفعلية معترضة بين المبتدأ، والخبر. الوجه الرابع: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: مبتدأ، وخبر على تقدير مضاف محذوف، التقدير: هاأنتم مثل هؤلاء، كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، فعلى هذا جملة: ﴿حَٰجَجْتُمْ﴾ في محل نصب حال من ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، والعامل في الحال معنى التشبيه.

الوجه الخامس: اعتبار ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ثانياً، والجملة الفعلية خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ الأول، وهو الضمير.

﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من: ﴿عِلْمٌ﴾ كان صفةً له، فلما قدِّم عليه صار حالاً على القاعدة المعروفة: «نعت النكرة...إلخ». وهذا قول أبي البقاء، وسليمان الجمل، وهذا ضعيف؛ لأنَّ كثيراً من النُّحاة لا يجيزون مجيء الحال من المبتدأ، والأولى تعليقهما بالخبر المحذوف، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف. ﴿عِلْمٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: ﴿لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾: صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط الضمير المجرور محلّاً بالباء. ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ﴾: انظر الآية السابقة. فهي مثلها في إعرابها، والفاء تحتمل أن تكون حرف استئناف، وان تكون حرف عطف على رأي من يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، وأعتبرها في مثل ذلك الفصيحة. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ليس تقدم على اسمها. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور، قل فيهما ما ذكرته فيما قبلهما. ﴿عِلْمٌ﴾: اسم ليس مؤخر، والجملة الفعلية (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط: الضمير المجرور محلّاً بالباء.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. (الله): مبتدأ. ﴿يَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله)، والمفعول محذوف للتعميم، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلّاً بالباء، والرابط الواو فقط، وهي مؤولة بظرف كما رأيت في الآية رقم [٥٧]. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (أنتم): مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية.

﴿تَعۡلَمُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها.

﴿مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٦٧﴾

الشرح: هذه الآية ردٌّ لما ادعى اليهود، والنصارى في شأن إبراهيم، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا﴾: مائلاً عن الأديان الباطلة كلها إلى دين التوحيد. والحنيف: هو الذي يوحد، ويحجُّ، ويضحِّي، ويختتن، ويستقبل القبلة في صلاته، وهو أحسن الأديان، وأسهلها، وأحبُّها إلى الله عز وجل، قال الشاعر المسلم: [الوافر]

وَلَـكِـنَّـا خُـلِـقْـنَـا إِذْ خُـلِـقْـنَـا حَـنِـيـفـاً دِيْـنُـنَـا عَـنْ كُـلِّ دِيـنِ

ورجل حنيف: هو الذي تميل قدماه كلُّ واحدةٍ منهما إلى أختها بأصابعها. قالت أم الأحنف بن قيس ـ رضي الله عنه ـ: [الرجز]

وَاللهِ لَـوْلَا حَـنَـفٌ بِـرِجْـلِـهِ مَـا كَـانَ فِـي فِـتْـيَـانِـكُـمْ مِـنْ مِـثْـلِـهِ

وقال قوم: الحنف: الاستقامة، فسمِّي دين إبراهيم حنيفاً لاستقامته، وسمِّي معوجُّ الرجلين: أحنف تفاؤلاً بالاستقامة، كما قيل للَّديغ: سليم، وللمَهْكلة: مفازة. ﴿مُّسۡلِمٗا﴾: موحداً، وليس المراد: أنه كان على ملة الإسلام، التي جاء بها محمد ﷺ، ولو قلنا بذلك لرُدَّ علينا بما رددنا به على اليهود، والنصارى من أنَّ ملة الإسلام الحادثة حدثت بعد إبراهيم بزمن طويل، فكيف يكون إبراهيم عليها؟! وقل مثل ذلك في إسلام نوح، وغيره من الأنبياء من أنَّ المراد بإسلامهم التوحيد. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾: هذا تعريض بأنَّ اليهود، والنصارى مشركون، لقولهم: عزيز ابن الله، والمسيح ابن الله. وفيه أيضاً ردٌّ على مشركي قريش في ادِّعائهم: أنهم على ملة إبراهيم، وتعريضٌ بشركتهم لعبادتهم الحجارة؛ التي لا تنفع، ولا تضرُّ. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه!

الإعراب: ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾: اسمها. ﴿يَهُودِيّٗا﴾: خبرها، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي. ﴿نَصۡرَانِيّٗا﴾: معطوف على: ﴿يَهُودِيّٗا﴾. ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿إِبۡرَٰهِيمُ﴾. ﴿حَنِيفٗا﴾: خبرها، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿مُّسۡلِمٗا﴾: صفة: ﴿حَنِيفٗا﴾: صفة مؤكدة. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه

يعود إلى: ﴿إِبْرَاهِيمُ﴾ أيضاً. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ أَوْلَى...﴾ إلخ؛ أي: أحقُّ الناس بالانتساب إلى إبراهيم أتباعه؛ الذين سلكوا طريقه، ومنهاجه في عصره، وبعده. ﴿وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ﴾ أي: محمد ﷺ حثَّ أمَّته على الاقتداء به في سيرته. وأفرد ذكره تعظيماً له ﷺ. وقد كان نبينا موافقاً لإبراهيم في التوحيد، وفي أكثر فروع الشريعة. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: من أمة محمد، فهم أحق أيضاً بإبراهيم. ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: متولي أمورهم، وناصرهم، وحافظهم من شرِّ أعدائهم.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: قال رؤساء اليهود: لقد علمت يا محمد! أنَّا أولى الناس بإبراهيم منك، ومن غيرك، فإنَّه كان يهوديّاً، وما بك إلا الحسد لنا! فأنزل الله هذه الآية. هذا؛ وقد ذكر الخازن: أنَّ سبب نزول الآية ما حدث لجعفر بن ابي طالب عند النَّجاشي حين حاولت قريش ردَّهم إليها. ولم يذكر ذلك غيره. والله أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿أَوْلَى﴾: اسمها منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، و﴿أَوْلَى﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ مضاف إليه. ﴿بِإِبْرَٰهِيمَ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿أَوْلَى﴾ وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصَّرف للعلمية والعجمة. ﴿لَلَّذِينَ﴾: اللام هي المزحلقة. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿وَهَٰذَا﴾: الواو: حرف عطف. الهاء: حرف تنبيه لا محل لها. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع معطوف على الموصول. ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾: بدل، أو عطف بيان من اسم الإشارة. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: معطوف على: (الذين اتبعوه) وأجيز النعت. ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ﴾: مبتدأ، وخبر. والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، واعتبارها حالاً، على اعتبارها مؤوَّلة بظرف كما في الآية رقم [٥٧] سديدٌ. ﴿وَلِىُّ﴾: مضاف، و﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مضاف إليه من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه.

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَدَّت﴾: تمنَّت، وأحبَّت، وأرادت. ﴿طَّآئِفَةٌ﴾: جماعة من الناس، ولا واحد لها من لفظها مثل: فريق، ورهط، ونفرٌ. وجمعها: طوائف. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾: المراد بهم:

اليهود. ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾: يخرجونكم عن الإيمان، والإسلام. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾ لأن إثم إضلالهم يعود عليهم، والمؤمنون لا يطيعونهم فيه، فيبوءون بإثم ما تمنوا به إضلال المؤمنين. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾: الشعور: إدراك الشيء من وجه يدقُّ، ويخفى، مشتقٌّ من الشَّعر لدقته، وسمي الشاعر شاعراً؛ لفطنته، ودقة معرفته. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أنَّ وبال تمنيهم راجعٌ على أنفسهم، وأنهم سيحاسبون حساباً عسيراً، وسيعاقبون عقاباً شديداً.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة في معاذ بن جبل. وحُذيفة بن اليمان، وعمَّار بن ياسر ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ حين دعاهم اليهود من بني النضير، وبني قريظة وبني قينقاع إلى دينهم. ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٠٩]: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾.

الإعراب: ﴿وَدَّت﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿طَّآئِفَةٌ﴾: فاعله. ﴿مِّنْ أَهْلِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة: ﴿طَّآئِفَةٌ﴾. و﴿أَهْلِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿لَوْ﴾: حرف مصدري. ﴿يُضِلُّونَكُمْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعوله، و﴿لَوْ﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: ودت طائفة. . .إضلالكم. وإن اعتبرت: ﴿لَوْ﴾ حرف امتناع لامتناع؛ يكون جوابها محذوفاً، ويكون مفعول: ﴿وَدَّت﴾ محذوفاً، ويكون التقدير: ودت طائفة إضلالكم، وكفركم، لو يضلونكم؛ لسرُّوا بذلك، وفرحوا. انتهى جمل نقلاً من السَّمين. والأول أسهل، وأولى بالاعتبار؛ لأنه لا حذف فيه، ولا تقدير.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿يُضِلُّونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية مستأنفة، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من واو الجماعة؛ فلا بأس، والرابط: الواو، والضمير، وجملة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ معطوفة عليها على الاعتبارين.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: الخطاب لليهود اللُّؤماء. ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ يعني: القرآن. أو المراد: الآيات الواردة في التوراة، والإنجيل من نعت محمَّدٍ ﷺ وصفته. وتحريفهم، وتبديلهم ما فيها من البشارة بنبوته، والأمر باتباعه، والاهتداء بهديه. ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾: أن نعته، وصفته مذكور في التوراة، والإنجيل، وذلك: أن أحبار اليهود، كانوا يكتمون الناس نعته، وصفته فإذا خلا بعضهم ببعض؛ أظهروا ذلك فيما بينهم، وشهدوا: أنه حقٌّ. ولا تنس: أن الاستفهام للتوبيخ، والتأنيب.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ﴾: انظر إعراب هذه الكلمات في الآية رقم [٦٥]. ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(آيات) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَأَنتُمۡ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَشۡهَدُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: الخطاب لليهود الخبثاء. ﴿لِمَ﴾ الاستفهام للتوبيخ، والتأنيب. ﴿تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾: اللبس: الخلط، يقال: لبست عليه الأمر، ألبسه: إذا مزجت بيِّنه بمشكله، وحقَّه بباطله، قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٩]: ﴿وَلَلَبَسۡنَا عَلَيۡهِم مَّا يَلۡبِسُونَ﴾ ومن هذا المعنى قول عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ للحارث بن حوط: يا حارث! إنه ملبوسٌ عليك، إن الحق لا يُعْرَف بالرِّجال، اعرف الحق؛ تعرف أهله. وقالت الخنساء ـ رضي الله عنه ـ : [البسيط]

تَرَى الْجَلِيسَ يَقُولُ الْحَقَّ تَحْسَبُهُ رُشْداً، وَهَيْهَاتَ، فَانْظُرَ مَا بِهِ الْتَبَسَا
صَدِّقْ مَقَالَتَهُ، وَاحْذَرْ عَدَاوَتَهُ وَالْبِسْ عَلَيْهِ أُمُوراً مِثْلَ مَا لَبِسَا

وروى سعيد بن جبير عن قتادة يقول: لا تلبسوا اليهودية، والنصرانية بالإسلام؛ وقد علمتم: أنَّ دين الله الذي لا يقبل غيره، ولا يجزي به الإسلام، وأنَّ اليهودية، والنصرانية بدعةٌ، وليست من الله. وعن ابن عباس، وغيره: لا تخلطوا ما عندكم من الحقِّ في الكتاب بالباطل، وهو التغيير، والتبديل؛ الذي فعلوه في التوراة. وقال أبو العالية: قالت اليهود: محمدٌ مبعوث، ولكن إلى غيرنا، فإقرارهم ببعثه حقٌّ، وجحدهم: أنه بُعِثَ إليهم باطل. ﴿وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ﴾ أي: نبوة محمد ﷺ ونعته الموجودين في التوراة، والإنجيل. ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أن نبوَّته حق. وانظر الآية السابقة، والآية مذكورة بحروفها ومعناها في سورة (البقرة) [٤٢].

هذا؛ و(تكتمون) ماضيه: كتم، من باب: نصر، وربما عُدِّيَ إلى مفعولين، فيقال: كتمت زيداً الحديث. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا﴾ والأكثر: أنْ يتعدى للثاني بحرف الجر، قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٥٩]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ وتزاد «مِنْ» جوازاً في المفعول الأول، فيقال: كتمت من زيدٍ الحديثَ، وقد تعدَّى في الآية الكريمة إلى مفعولٍ واحد. وكتم الشيء: بالغ في كتمانه، أي: في إخفائه. قال الرسول ﷺ: «**اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ**». قال صاحب القاموس: والْكَتَم ـ محركة ـ والْكُتْمَان ـ بالضم ـ: نبت يخلط بالحناء، ويخضب به الشَّعر، ويصنع منه مداد الكتابة. انتهى. ورحم الله البوصيري إذ يقول: [البسيط]

فَـإِنَّ أَمَّـارَتِـي بِـالـسُّـوءِ مَـا اتَّـعَـظَـتْ مِـنْ جَـهْـلِـهَـا بِـنَـذِيـرِ الـشَّـيْـبِ وَالْـهَـرَمِ
وَلَا أَعـدَّتْ مِـنَ الـفِـعْـلِ الـجَـمِـيـلِ قِـرَى ضَـيـفٍ أَلَـمَّ بـرأسـي غـيـر مـحـتـشـمِ
لـو كـنـتُ أعـلـمُ أنـي مـا أوقِّـرهُ كَـتَـمْـتُ سِـرّاً بـدَا لِـي مِـنْـهُ بِـالْـكَـتَـمِ

أمَّا (الباطل) فهو ضدُّ الحق، و(الباطل) بمعنى الفاسد، والبطلان عبارة عن عدم الشيء، إما بعدم ذاته، أو بعدم فائدته، ونفعه. هذا؛ وبطل من باب: دخل، والبَطَل ـ بفتحتين ـ: الشجاع، والبُطْل ـ بضم فسكون ـ: الباطل، والكذب، والزور، والبهتان، والبطالة: التعطُّل، والتفرُّغ من العمل، ويجمع باطل على: أباطيل شذوذاً، كما شذ: أحاديث، وأعاريض، وأفاظيع، في جمع حديث، وعريض، وفظيع. هذا؛ ومُبْطِل اسم فاعل مِنْ: أبطل الرُّباعي. هذا؛ والباطل في قوله تعالى في سورة (فصلت): ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾. قال السُّدِّيُّ، وقتادة: الباطل: الشيطان: لا يستطيع أن يغير في القرآن شيئاً، ولا يزيد، ولا ينقص منه، وقوله تعالى في سورة (الشورى): ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ الباطل: الشرك، والبطلة في قول الرسول ﷺ: «**لَا تَسْتَطِيْعُهَا الْبَطَلَةُ**» أي: لا تستطيع قراءة سورة (البقرة)، و(آل عمران) السَّحرة.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ﴾: انظر إعراب هذه الكلمات في الآية رقم [٦٥] ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجملة: (تكتمون الحق) معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، والجملة الاسمية: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. وانظر مثلها في الآية السابقة.

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في كعب بن الأشرف، ومالك بن الصَّيف، وكانا من أحبار اليهود، فإنما قالا لأصحابهما لما حُوِّلت القبلة إلى الكعبة المعظَّمة: آمنوا بما أنزل على المسلمين من تحويل القبلة، وصلُّوا معهم إلى جهة الكعبة أول النهار، ثم صلُّوا إلى صخرة بيت المقدس آخره، لعلهم يقولون: هم أعلم منا؛ وقد رجعوا، فيرجعون. وقيل: إن اثني عشر من أحبار اليهود تقاولوا فيما بينهم بأن يدخلوا في الإسلام أول النهار، ويقولوا في آخره: نظرنا في كتابنا، وشاورنا علماءنا، فلم نجد محمداً بالنَّعت الذي ورد في التوراة. لعلَّ أصحابه يشكُّون فيه، فيرجعوا عن دينهم، ويقولون: هم أهل الكتاب، وهم أعلم منَّا، فيرجعون إلى قبلتنا. فأطلع الله رسوله ﷺ على خبثهم، وما بيتوه من مكرهم، وأنزل الله هذه الآية؛ التي كشفت سوء صنيعهم، فلم يتم لهم ما دبَّروا، ومكروا، ولم يحصل لمكيدتهم في قلوب المسلمين أيُّ أثر،

ولولا هذا الإعلام من الله تعالى لرسوله؛ لكان ربما أثَّر ذلك في قلب بعض مَنْ كان في إيمانه ضعف. انتهى. بيضاوي وخازن بتصرف كبير. ووجه النهار: أوله، وسمي وجهاً؛ لأنَّه أحسنه، وأوَّل ما يواجه منه، قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الكامل]

وَتُضِيءُ فِي وجهِ النَّهارِ مُنِيرَةً ... كَجُمَانَةِ الْبَحْرِيِّ سُلَّ نِظَامُهَا

وفي معلَّقته: «في وجه الكلام» وقال آخر: [الكامل]

مَنْ كَانَ مَسْرُوراً بِمَقْتَلِ مَالِكٍ ... فَلْيَأْتِ نِسْوَتَنَا بِوَجْهِ نَهَارِ

الإعراب: ﴿وَقَالَت﴾: الواو: حرف استئناف. (قالت): فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿طَآئِفَةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿مِّنْ أَهْلِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿طَآئِفَةٌ﴾ و﴿أَهْلِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿ءَامِنُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿بِٱلَّذِىٓ﴾: جار ومجرور، متعلقان بما قبلهما. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى: (الذي) وهو العائد، والجملة الفعلية صلته، لا محل لها. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول. ﴿وَجْهَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱكْفُرُوٓا۟﴾: فعل أمر، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿ءَامِنُوا۟...﴾ إلخ، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿ءَاخِرَهُۥ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿يَرْجِعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (لعلَّ)، والجملة الاسمية تعليل للأمر، لا محل لها.

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾: هذا متصل بما قبله، وهو من قول اليهود، يقول بعضهم لبعض: ولا تصدقوا إلا من تبع ملَّتكم، وهي اليهودية. أو: لا تقرُّوا، وتعترفوا بما نقول لكم إلا لأتباعكم في الدين. ﴿قُلْ﴾ هذا خطاب من الله لرسوله ﷺ. ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ أي: إنَّ الدين دين الله، والبيان بيانه، هو الذي يهدي من يريد سعادته في الدنيا، والآخرة، بما يقيم له من الآيات البينات، والدلائل القاطعات، والحجج الواضحات، وإن أقمتم أيها اليهود المكايد، والحيل لتضليل المسلمين؛ فإنَّ الهداية بيد الله.

﴿أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ﴾ فهذا متصل بكلامهم السَّابق؛ أي: ولا تؤمنوا أن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم من العلم، والحكمة، والكتاب، والآيات من فلق البحر، وإنزال المنِّ، والسلوى عليكم. ﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾ أي: ولا تؤمنوا أن يحاجوكم عند ربكم؛ لأنَّكم أصح ديناً منهم. وقيل: (أو) بمعنى: «حتى» كما قرئ: (إنْ) بكسر الهمزة، فيكون المعنى: ما أعطى الله أحداً من النعم مثل ما أعطيتم يا أمة محمَّد من الدِّين، والحجَّة، والبرهان؛ حتى يحاجُّوكم عند ربكم، فيكون من كلام الله، وليس حكاية عن قول اليهود، وهو في محل نصب مقول القول، أو هو مستأنف.

هذا؛ وقرأ ابن كثير: (آنْ) بالمدِّ على الاستفهام، والتوبيخ، فيكون المعنى، والتقدير: ألِأَن يعطى أحد مثل ما أعطيتم يا معشر اليهود من الكتاب والحكمة، فتحسُّونه، ولا تؤمنون به، فيكون كلُّه من كلام الله تعالى، ثبَّت به قلوب المؤمنين؛ لئلا يشكوا بسبب تلبيس اليهود، وتزويرهم في دينهم، فتكون الآية كلُّها خطاباً للمؤمنين عند تلبيس اليهود؛ لئلا يرتابوا، ولا يشكُّوا.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: الأمور كلُّها تحت تصرُّفه، وهو المعطي المانع، يمنُّ على من يشاء بالإيمان، والعلم، والتصرُّف التام، ويضلُّ من يشاء، فيعمي بصره، وبصيرته، ويختم على قلبه، وسمعه، ويجعل على بصره غشاوةً. وله الحجَّة، والحكمة البالغة.

﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾: يسع خلقه كلهم بالكفاية، والرزق، والجود، والعطاء، وهو واسع الفضل، والرحمة. وقيل: واسع القدرة، والعلم، والرزق. وقيل: هو الغني الَّذي وسع جميع مخلوقاته غناه. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعال عباده، ما يغيب عنه منها شيء، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾.

الإعراب: (لا): ناهية جازمة. ﴿تُؤْمِنُوٓا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. وقيل: اللام زائدة، و(مَنْ): مفعول به فهو مجرور لفظاً منصوب محلاً. وقيل: (مَنْ) منصوبة على الاستثناء على معنى: ولا تؤمنوا لأحد إلا مَنْ، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿تَبِعَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: (مَنْ) وهو العائد، أو الرابط، والجملة صلته، أو صفته. ﴿دِينَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿ءَامِنُوا۟﴾ في الآية السابقة فهي محل نصب مقول القول مثلها.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره أنت. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْهُدَىٰ﴾: اسمها. ﴿هُدَى﴾: خبرها، وعلامة النصب في الأول وعلامة الرفع في الثاني مقدرتان على الألف للتعذر، و﴿هُدَى﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ معترضة، أو مستأنفة حسب ما رأيت في الشرح. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يُؤْتَىٰٓ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿أَحَدٌ﴾: نائب فاعله، وهو المفعول

الأول. ﴿مِّثْلَ﴾: مفعول به ثان، و﴿مِّثْلَ﴾: مضاف، و﴿مَآ﴾: مبنية على السكون في محل جر بالإضافة، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿أُوتِيتُمْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون، والتاء نائب فاعل، وهو المفعول الأول، والجملة الفعلية صلة: (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، وهو المفعول الثاني، التقدير: مثل الذي، أو: شيء أوتيتموه، والمصدر المؤوَّل من: ﴿أَن يُؤْتَىٰٓ﴾ مفعول به لفعل محذوف، والفعل المحذوف، ومفعوله معطوف على ما قبله، وعليه فالجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ...﴾ إلخ معترضة. هذا وجهٌ للإعراب، كما أجيز اعتبار المصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: بأن يؤتى، وهذا عند الخليل. أو المصدر في محل نصب بنزع الخافض عند سيبويه، وهناك وجه آخر، وهو: أن المصدر في محل نصب مفعول لأجله على حذف مضاف، التقدير: مخافة إتيان، وهذا عند البصريين. وعند الكوفيين، التقدير: لئلا يؤتى، وعلى جميع التقديرات؛ فتبقى الجملة الاسمية معترضة.

هذا؛ وعلى قراءة: (إنْ) بكسر الهمزة، فالجملة منفية، وهي في محل نصب مقول القول، وعلى قراءة: (آنْ) بمد الهمزة، فالمصدر المؤول في محل رفع مبتدأ، والخبر محذوف، التقدير: آن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، تصدقون، أو تقرون؛ أي: إيتاءٌ موجودٌ مصدَّقٌ، أو مقرٌّ به، كما جوز أن يكون المصدر في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، التقدير: أتقرون أن يؤتى، أو: تذكرون ذلك، ونحوه، وعلى هذه القراءة؛ فالكلام مرتبط بما قبله، والجملة الاسمية معترضة، كما أجيز اعتبار المصدر في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو: إتيان. قال الواحدي ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذه الآية من مشكلات القرآن، وأصعبه تفسيراً، وإعراباً، ولقد تدبرت أقوال أهل التفسير، والمعاني في هذه الآية، فلم أجد قولاً يطرد فيها من أولها إلى آخرها مع بيان المعنى، وصحة النظم.

﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿يُحَآجُّوكُمْ﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والكاف مفعول به. وقيل: إنَّ النصب بأن مضمرة بعد: ﴿أَوْ﴾ لأنها هنا بمعنى: «حتَّى» أو «إلا أن» فالأول كقول امرئ القيس: [الطويل]

فَقُلْتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكِ إِنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

والثاني كقول زياد الأعجم ـ وهو الشاهد رقم [١٤٦] من كتابنا فتح رب البرية، والشاهد رقم [١٠٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

وَكُنْتُ إِذَا غَمَزْتُ قَنَاةَ قَوْمٍ ... كَسَرْتُ كُعُوبَهَا أَوْ تَسْتَقِيمَا

﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، و﴿عِندَ﴾: مضاف، و﴿رَبِّكُمْۗ﴾: مضاف إليه. والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: أنت. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْفَضْلَ﴾: اسمها. ﴿بِيَدِ﴾: متعلقان بمحذوف خبرها، و(يد) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول

القول، وجملة: ﴿قُلْ﴾: إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿يُؤْتِيهِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء، والفاعل يعود إلى (الله) والهاء مفعول به أول. ﴿مَن﴾ مفعول به ثان، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهِ﴾ والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: يؤتيه الذي، أو: شخصاً يشاؤه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر ثان لـ: ﴿إِنَّ﴾ وقيل: هي مستأنفة لا محل لها، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ معترضة في آخر الكلام متضمنة للتهديد، والوعيد.

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾

الشرح: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ﴾: بنبوته، وتوفيقه، وهدايته. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ يعني: أن كلَّ خير يناله عباده في دينهم، ودنياهم فإنَّه من الله تعالى تفضلاً عليهم، ومنَّةً من غير استحقاق منهم لذلك، بل له المنة، والفضل على عباده. هذا؛ وذكرت في سورة (البقرة) نقلاً عن الجمل: أنَّ الفعل: ﴿يَخْتَصُّ﴾ يستعمل متعدياً، ولازماً، فعلى التعدي فاعله مستتر فيه، والموصول بصلته في محل نصب على المفعولية، والمعنى: والله يختص... إلخ وعلى اللزوم الفاعل هو الموصول بصلته، والمعنى: والله يتميَّز برحمته مَنْ يشاء الله تمييزه. انتهى. ولم أجده لغيره، كما لم أجده في كتب اللغة. وهذه الآية مذكورة بحروفها في سورة (البقرة) برقم [١٠٥] وفي الآية الكريمة ردٌّ، وإبطال لما زعموه بالحجَّة الواضحة.

الإعراب: ﴿يَخْتَصُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿بِرَحْمَتِهِۦ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مَن يَشَآءُ﴾: انظر مثله في الآية السابقة، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿ذُو﴾ خبره مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذُو﴾: مضاف، و﴿ٱلْفَضْلِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْعَظِيمِ﴾: صفة (الفضل) والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من فاعل: ﴿يَخْتَصُّ﴾ المستتر؛ فلست منفداً، ويكون الرابط الواو، وإعادة لفظ الجلالة.

﴿۞وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في اليهود، فأخبر الله تعالى: أن فيهم أمانة، وخيانة. وقسمهم قسمين. والقنطار: عبارة عن المال الكثير، كما رأيت في الآية رقم [١٤]. والدِّينار: عبارة عن

المال القليل. وهو أربعة وعشرون قيراطاً، والقيراط ثلاث حبات من وسط الشعيرات، مجموعه اثنتان وسبعون حبَّة. هذا؛ والدينار أصله: دِنَّار، فعوضت من إحدى النونين ياء طلباً للخفة لكثرة استعماله، يدل عليه أنه يجمع: دنانير، ويصغَّر: دُنَيْنِير، ورحم الله مَنْ يقول فيه: [البسيط]

النَّارُ آخِرُ دِينَارٍ نَطَقْتَ بِهِ وَالْهَمُّ آخِرُ هَذَا الدِّرْهَمِ الْجَارِي

والمرءُ بَيْنَهُمَا إنْ كَانَ ذَا وَرَعٍ مُعَذَّبُ الْقَلْبِ بَيْنَ الْهَمِّ وَالنَّارِ

هذا؛ والأول من أهل الكتاب هو عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ كان حبراً من أحبار اليهود؛ الذين هداهم للإيمان، استودعه رجل مِنْ قريش ألفاً ومئتي أوقية ذهباً، فأداه إليه لمَّا طلبه بدون تأخير. والثاني هو فنحاص بن عازوراء استودعه قرشي آخر ديناراً، فجحده. وقيل: هو كعب بن الأشرف. ﴿إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا﴾ إلا في مدة دوامك قائماً على رأسه مبالغاً في مطالبته، بالتقاضي، والترافع، وإقامة البينة لردِّ الحق، والأمانة منه، هذا وذكر الله تعالى قسمين: مَنْ يؤدِّي، ومن لا يؤدِّي إلا بالملازمة له، وقد يكون من الناس مَنْ لا يؤدي، وإن دمت عليه قائماً، وما أكثرهم في هذا الزَّمن! هذا؛ و﴿دُمْتَ﴾ بضم الدال من باب فَعَل، يفعُل، مثل: قال، يقول، ودام يدوم، وقرئ بكسر الدال فَعَل يَفْعَل، مثل خاف يخاف، على دام يدام، وكذلك: (مِتَّ) فيمن كسر الميم أو ضمها.

﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما يفعلونه من خيانة الأموال. والإشارة بالبعيد للإيذان بكمال غلوِّهم في الشرِّ، والفساد. ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ...﴾ إلخ؛ أي: ليس علينا حرجٌ، ومؤاخذة في أكل أموال مَنْ ليس على ديننا من العرب؛ لمخالفتهم لنا في الدِّين. وادَّعوا: أنَّ ذلك في كتابهم، فأكذبهم الله عز وجل، بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: أنهم كاذبون في دعواهم.

هذا؛ و﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾ جمع: أمِّيٍّ، وهو مَنْ لا يحسن القراءة، والكتابة، وهي صفة ذمٍّ إلا في نبينا ﷺ، فإنَّها له صفة مدح؛ لأنه أتى بعلوم الأوَّلين، والآخرين، كما رأيته في الآية رقم [١٥٧] من سورة (الأعراف) وأميٌّ منسوب إلى الأم؛ التي ولدته، أو إلى الأمة، وهي القامة، والخلقة، كأن الذي لا يقرأ، ولا يكتب قائم على الفطرة، والجبلَّة. قال الرسول ﷺ: «**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نكتبُ، ولا نحسبُ، الشَّهر هَكَذَا، وَهَكَذَا، وَهَكَذَا...**» الحديث، أو هو منسوب إلى الأمة؛ لأنَّها ساذجة قبل أن تعرف المعارف. هذا؛ و(السَّبيل) الطريق يذكَّر، ويؤنث بلفظ واحد، فمن التذكير قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾. ومن التأنيث قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ والجمع على التأنيث: سبول، وعلى التذكير: سُبُل ـ بضمتين ـ وسُبْل، بضمٍّ، وسكون.

هذا؛ والأمانة عظيمة القدر في الدِّين، ومن عظم قدرها: أنها تقوم هي، والرَّحم على جنبتي الصراط ـ كما في صحيح مسلم ـ فلا يمكَّن من الجواز إلا مَنْ حفظهما. وروى مسلمٌ عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: حدَّثنا النبي ﷺ عن رفع الأمانة، قال: «**يَنَامُ الرجلُ النَّومةَ، فتُقْبَضُ الأمانةُ مِنْ قَلْبِهِ... إلخ**» وهو مذكور بطوله في كتاب التَّرغيب والترهيب. وانظر ما ذكرته في آخر سورة (الأحزاب) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك، وخذ هنا ما يلي:

عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**خَيْرُ الْقُرونِ قَرْني، ثمَّ الَّذِين يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يكون بَعْدَهُم قَوْمٌ يَشْهَدُونَ، وَلا يُسْتَشهدونَ، ويَخونون ولا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرون، ولا يُوفونَ، ويظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ**». رواه البخاري، ومسلم. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**» رواه البخاريُّ، ومسلم، ورواه أبو يعلى من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَإِنْ صَامَ، وَصَلَّى، وَحَجَّ، وَاعْتَمَرَ، وقال: إنِّي مُسْلِمٌ**».

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه؛ كان مُنَافِقاً خَالِصَاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ؛ كَانَتْ فِيهِ خصلةٌ مِنَ النِّفَاقِ حتَّى يَدَعَهَا: إذا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**». رواه البخاريُّ، ومسلم.

عن صعصعة بن يزيد: أن رجلاً سأل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. فقال: إنا نصيب في الغزو من أموال أهل الذمَّة الدَّجاجة، والشاة. قال ابن عباس: فتقولان ماذا؟ قال، نقول: ليس علينا بذلك بأس. قال: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾. إنَّهم إذا أدَّوا الجزية؛ لم تحلَّ لكم أموالُهم إلا بطيب أنفسهم.

الإعراب: ﴿وَمِنْ﴾: الواو: حرف استئناف. (من أهل): متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، و﴿أَهْلِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر. هذا هو الإعراب المتعارف عليه في مثل هذا الكلام، ولا أعتمده، وإنَّما أعتمد ما أذكره في الآية رقم [١١٠] الآتية. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَأْمَنْهُ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت، والهاء مفعول به. ﴿بِدِينَارٍ﴾: متعلقان بما قبلهما، والباء الجارة بمعنى: على، ومثله قول راشد بن عبد ربه السُّلمي ـ رضي الله عنه، وهو الشاهد رقم [١٥٧]: من كتابنا فتح القريب المجيب، والشاهد رقم [٤٧٤] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الطويل]

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانُ بِرَأْسِهِ؟ لَقَدْ ذَلَّ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الثَّعَالِبُ

والجملة الفعلية: ﴿تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ﴾ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾: جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء،

والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل يعود إلى: ﴿مَنۡ﴾ والهاء مفعول به. ﴿إِلَيۡكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية، و﴿إِن﴾ ومدخولها صلة: ﴿مَنۡ﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط المفعول في الجملة الأولى، والفاعل في الجملة الثانية؛ لأنَّ كليهما عائد على: ﴿مَنۡ﴾ والجملة الاسمية: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ﴾ هذا الكلام مثل سابقه محلّاً، وإعراباً. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مَا﴾: ظرفية مصدرية. ﴿دُمۡتَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿قَآئِمٗاۗ﴾: خبر «دام» و﴿مَا﴾ والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب على الظرفية الزمانية، متعلق بالفعل: ﴿لَّا يُؤَدِّهِۦٓ﴾ وهو في الأصل مستثنىً من الظرف العام؛ إذ التقدير: لا يؤده إليك في جميع الأزمان إلا في مدَّة دوامك قائماً عليه. وقيل: متعلق بحال محذوفة. ولا وجه له.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿بِأَنَّهُمۡ﴾: الباء: حرف جر. (أنهم): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿قَالُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيۡنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿لَيۡسَ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر فيه، ويقال: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿سَبِيلٞ﴾ بعدهما، والتقدير: في أموال الأميين. ﴿سَبِيلٞ﴾: اسم ليس مؤخر، وجملة: ﴿لَيۡسَ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ﴾إلخ في محل رفع خبر (أنَّ) و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿ذَٰلِكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يقولون): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: مفعول به؛ لأنَّ الفعل بمعنى: يفترون، ولو كان القول على حقيقته؛ لما نصبه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿قَالُواْ﴾ فهي في محل رفع مثلها، أو هي في محل نصب حال، ولكن يجب تقدير مبتدأ قبلها، فتكون في محل رفع خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، وتقدير الكلام: وهم يقولون. ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [٧١].

﴿بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦﴾

الشرح: ﴿بَلَىٰ﴾: ردٌّ لما ادعاه اليهود في الآية السابقة من: أنَّه ليس عليهم إثم، ومؤاخذة في أكل أموال العرب الأميين؛ أي: بلى عليهم السُّخط، والعذاب، والغضب بكذبهم، واستحلال أموال الناس بغير حقٍّ. ﴿مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾: هذه الجملة مقررة للجملة الَّتي سدَّت: ﴿بَلَىٰ﴾

مسدها، والمعنى من أدى حقوق الناس، ووفى بعهوده، ووعوده، واتقى الله، وخافه في جميع تصرفاته؛ فإنَّ الله يحبه، ويرحمه، ويدخله جنته. هذا؛ والمراد بـ ﴿مَنْ﴾ الجماعة، والناس، وقد وضع الظاهر؛ أي: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ موضع المضمر، فإن الأصل: يحبهم، وذلك لإظهار شرف الموفين بعهد الله، والخائفين منه. هذا؛ وقيل: نزلت الآية في عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ وليس ذلك ببعيد، ومع ذلك فهي تعمُّ كلَّ من يفعل ذلك إلى يوم القيامة؛ لأن خصوص السبب لا يمنع التعميم.

هذا؛ و«بلى» حرف جواب، كـ (نعم)، وجَيْر، وأجل، وإي، إلا أنَّ «بلى» حرف جواب لنفي متقدِّم؛ أي: وإبطال، ونقض، وإيجاب له، سواء دخله الاستفهام، أم لا؟ فتكون إيجاباً له، نحو قول القائل: ما قام زيد، فتقول: بلى، أي: قام. وقوله: أليس زيد قائماً؟ فتقول: بلى. أي: هو قائم، قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٧٢]: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لو قالوا: نعم؛ لكفروا.

هذا؛ وعهد الله إلى خلقه ثلاثة عهود؛ الأول: العهد الذي أخذه على جميع ذرية آدم ـ عليه السلام ـ بأن يقرُّوا بربوبيته، وهو قوله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾. والعهد الثاني: خص به النبيين أن يبلغوا الرسالة، ويقيموا الدِّين، وهو قوله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٧]: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ...﴾ إلخ. والعهد الثالث: خصَّ به العلماء من كلِّ أمة، وهو قوله في هذه السورة رقم [١٨٧]: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾.

الإعراب: ﴿بَلَىٰ﴾: حرف جواب في محل نصب مقول القول؛ إذ التقدير: قل: يا محمد: بلى. ﴿مَنْ﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَوْفَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿بِعَهْدِهِۦ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَٱتَّقَىٰ﴾: الواو: حرف عطف. (اتقى): معطوف على ما قبله، فهو مثله في محل جزم، والفاعل يعود إلى: ﴿مَنْ﴾ أيضاً. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ). والجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما رأيت فيما سبق، هذا وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهي مبتدأ، والجملة الفعلية بعدها صلتها، والجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ في محل رفع خبرها، ودخلت الفاء في الخبر؛ لأنَّ الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة الاسمية ﴿مَنْ أَوْفَىٰ...﴾ إلخ على الوجهين مستأنفة، لا محل لها. وقيل: جواب الشرط أو الخبر محذوف: تقديره: يحبه الله. ودل على حذفه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ انتهى جمل نقلاً من السَّمين. وهو قول ابن هشام في المغني، وعليه؛ فالجملة الاسمية هذه تعليلية، لا محل لها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَـٰٓئِكَ لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: يستبدلون. ففيه استعارة تبعية، فالاشتراء مستعار للاستبدال، فعبر عنه بالاشتراء؛ لأن الشراء إنما يكون فيما يحبُّه مشتريه. ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: بما عهد إليهم في التوراة من الإيمان بمحمَّد ﷺ، ومن الوفاء بالأمانات؛ التي عهد عليهم فيها. ﴿وَأَيْمَـٰنِهِمْ﴾: بما حلفوا به من قولهم: لنؤمننَّ به، ولننصرنَّه. ﴿ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: عرض الدنيا؛ إذ كل ما فيها قليل، لا قيمة له بجانب الآخرة. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر. ﴿لَا خَلَـٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: لا نصيب لهم في الآخرة، ونعيمها الدائم، وسعادتها الأبدية. ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: تكليم رضاً، ورحمةٍ، وإنَّما يكلِّمهم تكليم سخط، وغضب، مثل قوله تعالى: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾. ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي: نظر رحمةٍ، ورضاً، وإنَّما ينظر إليهم نظر سخطٍ. ومقت، وكلُّ إنسان، وكلُّ مخلوق في هذا الكون لا يعزب عن علم الله أبداً. وقيل: المراد به هنا: الإعراض؛ لأن مَنْ سخط على غيره، واستهان به؛ أعرض عنه، وعن التكلُّم معه، والالتفات إليه، والمرضي عنه بالعكس. و﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾: هو اليوم الذي يخرج الناس فيه من قبورهم للحساب والجزاء. وأصل القيامة: القوامة، قلبت الواو ياء؛ لانكسار ما قبلها. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾: لا يطهِّرهم من دنس الذنوب بالعذاب المنقطع، إلى النعيم الدائم، بل يخلدهم في النار. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: مؤلم.

بعد هذا قال عكرمة ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت هذه الآية في أحبار اليهود، ورؤسائهم: أبي رافع، وكنانة بن أبي الحقيق، وكعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب؛ الَّذين كتموا ما عهد الله إليهم في التوراة في شأن النبي ﷺ، فبدلوه، وكتبوا بأيديهم غيره، وحلفوا: أنه من عند الله، لئلا تفوتهم الرُّشا، والمآكل؛ التي كانوا يأخذونها من أتباعهم، وسفلتهم.

وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: روى الأئمة عن الأشعث بن قيس ـ رضي الله عنه ـ. قال: كان بيني وبين رجل من اليهود أرض، فجحدني، فقدَّمته إلى النبي ﷺ، فقال لي رسول الله ﷺ: «**هَلْ لَكَ بينةٌ؟**» قلت: لا، قال لليهودي: احلف، قلت: إذاً يحلف. فيذهب بمالي. فأنزل الله تعالى الآية. بعد هذا أقول: الآية تعمُّ كل واحد يفعل شيئاً من ذلك إلى يوم القيامة؛ لأن خصوص السبب، لا يمنع التعميم. وخذ ما يلي:

فعن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنِ اقتطعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ؛ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الجنَّةَ، وَأَوْجَبَ لَهُ النَّارَ**». فقالوا: يا رسول الله! وإن كان شيئاً يسيراً؟! «**قَالَ: وَإِنْ كَانَ قَضِيباً مِنْ أَرَاكٍ**». أخرجه مسلم. وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حَلَفَ عَلَى مَالِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، بِغَيْرِ حَقِّهِ؛ لَقِيَ اللهَ؛ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**».

قال ابن مسعود: ثم قرأ علينا رسول الله ﷺ مصداقه من كتاب الله ـ عز وجل ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ...﴾ إلخ. متفق عليه، والأحاديث في ذلك كثيرة.

تنبيه: دلَّت الآية الكريمة، والأحاديث الصَّحيحة: أنَّ حكم الحاكم لا يُحل المال في الباطن بقضاء الظاهر؛ إذا علم المحكوم له بطلانه. وقد روى الأئمَّة عن أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، وَإِنَّمَا أَنَا بَشرٌ مِثْلُكُمْ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، وَإِنَّمَا أَقْضِي بَيْنَكُمْ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْكُمْ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيهِ شَيْئاً؛ فَلا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ، يَأْتِي بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها. ﴿يَشۡتَرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿بِعَهۡدِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(عهد): مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَأَيۡمَٰنِهِمۡ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة له. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿لَا﴾: نافية للجنس، تعمل عمل: «إنَّ» ﴿خَلَٰقَ﴾: اسم. ﴿لَا﴾ مبني على الفتح في محل نصب. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿لَا﴾، ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُكَلِّمُهُمُ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، لا محل لها مثلها، والجملتان بعدها معطوفتان عليها. ﴿وَلَهُمۡ﴾: الواو: حرف عطف. (لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع أيضاً.

﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٨﴾

الشرح: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقًا﴾ أي: من المحرِّفين للتوراة، ككعب بن الأشرف، ومالك بن الصيف، وحيي بن أخطب، وغيرهم جماعة. ﴿يَلۡوُۥنَ﴾: يميلون عن قراء التوراة الصحيحة إلى

قراءة ما حرَّفوه، وزيَّفوه منها. ومنه قوله تعالى في سورة (النِّساء) رقم [٤٦]: ﴿لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾. انظر شرح (الكتاب) في الآية [٣]. ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: يحرفون الكلم عن مواضعه؛ لتظنُّوه من التوراة، وما هو منها. ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: ما فعلوه من التحريف، والتزييف. ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: ليس من عند الله قطعاً. وباقي الكلام ظاهر معناه.

﴿أَلْسِنَتَهُم﴾ جمع: لسان، وهو على هذا مذكر، كحمار، وأحمرة، ويجمع أيضاً على: لُسُن، بضم اللَّام، وضمِّ السِّين، وتسكينها أيضاً. ويجمع أيضاً على: أَلْسُنْ، وهو على هذا مؤنث كذراع، وأذرع، وتصغيره على التذكير: لُسَيْن، وعلى التأنيث: لُسَيْنَة، وقد يجعل اللسان كناية عن كلمة السُّوء، كما في قول الشاعر ـ وهو الشَّاهد رقم [٣٣٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا وَحِنْتَ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَحِينَا

فيونَّث لا غير، كما يجعل كناية عن الرِّسالة، أو القصيدة من الشِّعر، كقول الآخر: [البسيط]

إِنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ لَا أُسَرُّ بِهَا مِنْ عَلْوَ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ

قال الجوهري: يروى: «من علو» بضم الواو، وفتحها، وكسرها. وفي سورة (النحل) رقم [١٠٣] حيث قال جلَّ ذكره: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾. كما أطلقه على الثناء الجميل، والذكر الحسن في قوله جلَّ ذكره في سورة (مريم)، على نبينا، وعليها ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

الإعراب: ﴿وَإِنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: (إنَّ) تقدَّم على اسمها. ﴿لَفَرِيقًا﴾: اللام: لام الابتداء. (فريقاً): اسم (إنَّ) مؤخر.

﴿يَلْوُۥنَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله. ﴿أَلْسِنَتَهُم﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب صفة: (فريقاً) والجملة الاسمية: ﴿وَإِنَّ...﴾ إلخ معطوفة على الآية رقم [٧٥]: لا محل لها أيضاً. ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والهاء مفعوله الأول. ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محلِّ نصب مفعوله الثاني، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، التقدير: فعلوا ذلك؛ لتحسبوه.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية مهملة، أو حجازية. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، أو في محل رفع اسم (ما). ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلقان

بمحذوف خبر المبتدأ، أو بمحذوف خبر (ما) والجملة على الوجهين اسمية، وهي في محل نصب حال من الضمير المنصوب، والرابط: الواو، والضمير. وقيل: الجملة حال من: ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ والأول أقوى. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يقولون): فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿يَلْوُنَ...﴾ إلخ. ﴿هُوَ﴾: مبتدأ. ﴿مِنْ عِندِ﴾: متعلقان بمحذوف خبره، والجملة الاسمية في محل نصب مفعول القول، و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: إعرابها مثل إعراب سابقتها، وهي في محل نصب حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، والرابط: الواو، والضمير أيضاً. ﴿وَيَقُولُونَ...﴾ إلخ: معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب صفة مثلها.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾

الشرح: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾: ما صحَّ، وما ينبغي. والتعبير بهذين اللفظين، ونحوهما معناه: الحظر، والمنع، فيجئ لحظر الشيء، والحكم بأنَّه لا يجوز، كما في هذه الآية، وفي الآية رقم [٣٦] من سورة (الأحزاب) وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً، كقوله تعالى في سورة (النَّحل): ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾. وربما كان العلم بامتناعه شرعاً، كما في هذه الآية، وقوله تعالى في سورة (الشورى): ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾. وربما كان في المندوبات، كما تقول على سبيل التوبيخ: ما كان لك يا فلان أن تترك صلاة الصبح، والعشاء في الجماعة. ونحو ذلك. ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾: أن يعطيه، وأن يمنحه. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: الإنجيل، أو القرآن، والمراد بـ (بشر) عيسى، أو محمد ﷺ. (الحكم) مثل: الحكمة المذكورة في الآية رقم [٤٨]. (النبوة): هي ما يمنحه الله للأنبياء، والمرسلين من العلوم، والمعارف، والفيوضات الإلهية، مأخوذة مِنَ: النبأ، وهو الخبر، أو: مِنَ النَّبْأة، وهي الارتفاع، والظهور؛ لأنَّ مرتبة النبي فوق كلِّ المراتب، وأعلى كلِّ المناصب. ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى﴾ أي: يدَّعي ذلك الرسول، أو النبي الإلهية، ويدعو الناس إلى عبادته، وتأليهه. هذا؛ و(عباد) جمع: عبد، وهو الإنسان حرّاً، كان، أو رقيقاً. ويقال للملوك: عبدقِن، وله جموع كثيرة، أشهرها: عبيد، وعباد، وعبدان، وعبدة. والإضافة في نحو قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟...﴾ إلخ إضافة تشريف، وتكريم. وذكر العبودية مقام عظيم، ولو كان للنَّبيِّ ﷺ اسم أشرف منه، وأعظم؛ لسمَّاه به حينما أسرى به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، فقال جلَّ ذكره: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ...﴾ إلخ. وفي معناه أنشدوا: [السريع]

يَـا قَـوْمُ قَـلْـبِـي عِـنْـدَ زَهْـرَاء يَـعْـرِفُـهُ الـسَّـامِـعُ والـرَّائِـي
لَا تَـدْعُـنِـي إِلَّا بِـيَـا عَـبْـدَهَـا فَـإِنَّـه أَشْـرَفُ أَسْـمَـائِـي

﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ﴾ جمع: رباني، وفيه قولان: أحدهما: أنه منسوب إلى الربِّ، والألف والنون فيه زائدتان في النسب دلالة على المبالغة. والثاني: أنه منسوب إلى ربَّان، والرَّبان: هو المعلم للخير، ومن يسوس الناس، ويعرِّفهم أمر دينهم، فالألف، والنون دالان على زيادة في الوصف، كهي في: عطشان، ونحوه. والثاني هو قول المبرد. واختلفوا في معنى الرَّباني، فقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: كونوا فقهاءَ، علماءَ. وعنه: كونوا فقهاء معلِّمين.

وقيل: الرَّباني: الذي يربِّي الناس بصغار العلم، وكباره. وقيل: الرَّبانيُّ: العالم الذي يعمل بعمله. وقيل: الرَّباني: العالم بالحلال، والحرام، والأمر، والنهي. وقيل: الرَّبانيُّ: الذي جمع بين علم البصيرة، والعلم بسياسة الناس. ولما مات ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال ابن الحنفية ـ رضي الله عنهما ـ: اليوم مات ربانيُّ هذه الأمَّة. وانظر شرح: ﴿رِبِّيُّونَ﴾: في الآية رقم [١٤٦]: ومعنى الآية على ما تقدَّم: لا أدعوكم إلى أن تكونوا عباداً لي، ولكن أدعوكم إلى أن تكونوا ملوكاً، وعلماء، ومعلمين الناس الخير، ومواظبين على طاعة الله، وعبادته. وقال أبو عبيدة ـ رحمه الله تعالى ـ: أَحْسَبُ: أنَّ هذه الكلمة ليست عربيَّة، إنما هي عبرانيَّة، أو سريانية، وسواء أكانت عربيةً، أو عبرانيةً؟ فهي تدل على الذي علم، وعمل بما علم، وعلَّم الناس طريق الخير. ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ...﴾ إلخ: أي: كونوا ربانيين بسبب كونكم عالمين، ومعلمين، وبسبب دراستكم الكتاب. فنزلت الآية على: أن العلم، والتعليم، والدراسة توجب أن يكون العبد ربانيّاً، فمن اشتغل بالعلم، والتعليم لا لهذا المقصود؛ ضاع علمه، وخاب سعيه.

تنبيه: في الآية الكريمة تكذيب، وردٌّ على النصارى؛ حيث زعموا: أن عيسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ أمرهم بعبادته. وقيل: إنَّ أبا رافع القرظي، والسَّيد النَّجراني، قالا للرَّسول ﷺ: يا محمد! أتريد أن نعبدك، ونتخذَّك ربّاً؟! فقال: معاذ الله أن يُعبد غير الله، وأن نأمر بعبادة غير الله، فما بذلك بعثني الله، ولا بذلك أُمِرْت، فنزلت الآية. وقيل: قال رجل: يا رسول الله! نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك؟ قال: لا ينبغي أن يُسجَد لأحدٍ من دون الله، ولكن أكرموا نبيَّكم، واعرفوا الحقَّ لأهله. وفي حديثٍ آخر: «**لَوْ كَانَ ينبغي لِبَشرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشرٍ؛ لأَمَرْتُ المرأةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا كلَّما دَخَلَ عَلَيْهَا؛ لِمَا فَضَّلَه اللهُ عَلَيْهَا**».

بعد هذا؛ فـ (الناس) اسم جمع، لا واحد له من لفظه، مثل: قوم، ورهط... إلخ: واحده: إنسان، وإنسانة من غير لفظه، وتصغيره: نُوَيْس. وناس، وإنسان، وأناسيُّ، وإنس من مادة واحدة، وهو يطلق على الإنس، والجن، لكن غلب استعماله في الإنس. قال تعالى: ﴿مِن

﴿شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ وأصله: الأناس، حذفت منه الهمزة تخفيفاً على غير قياس، وحذفها مع لام التعريف كاللازم، فلا يكاد يقال: الأناس، وقد نطق القرآن الكريم بهذا الأصل، ولكن بدون لام التعريف في سورة (الإسراء) رقم [٧١]: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾ وقوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٦٠] ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾.

هذا؛ وقيل: الناس مأخوذ من النَّوس، وهو الحركة، يقال: ناس، ينوس: إذا تحرك.

وقيل: أصله من: نَسِيَ، فأصل ناس: نَسِيَ، قُلِبَ، فصار: نَيِس، تحركت الياء، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثم دخلت الألف واللام، فقيل: الناس، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نسي آدم عهد الله، فسمي إنساناً. وقال النبي ﷺ: **«نَسِيَ آدمُ، فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ»**. وقال تعالى في سورة (طه): ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ﴾. وعلى هذا فالهمزة زائدة، قال الشاعر: [الكامل]

لَا تَنْسَيَنْ تِلْكَ الْعُهُودَ فَإِنَّمَا ... سُمِّيتَ إِنْسَاناً لأَنَّكَ نَاسِ

وقال آخر: [البسيط]

فَإِنْ نَسِيتُ عُهُوداً مِنْكَ سَالِفَةً ... فَاغْفِرْ فَأَوَّلُ نَاسٍ أَوَّلُ النَّاسِ

وقيل: سمي إنساناً؛ لأنسه بحواء، عليها السلام. وقيل: لأنسه بربه. قال الشاعر: [الطويل]

وَمَا سُمِّيَ الإِنْسَانُ إِلَّا لأُنْسِهِ ... وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

الإعراب: ﴿مَا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِبَشَرٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يُؤْتِيَهُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ والهاء مفعول به أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾: مفعول به ثان، وما بعده معطوف عليه، والمصدر المؤوَّل من: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ﴾ في محل رفع اسم: ﴿كَانَ﴾ مؤخر، التقدير: ما كان إتيان الله الكتاب... إلخ واقعاً، أو حاصلاً لبشرٍ، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَقُولَ﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله، ويقرأ بالرفع على الاستئناف، وهذا يعني: تقدير مبتدأ، التقدير: ثمَّ هو يقول، والفاعل يعود إلى: (بشر). والجملة الفعلية في محل رفع خبر للضمير المقدر، والجمة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿كُونُواْ﴾: فعل أمر ناقص مبني على حذف النون، والواو اسمه، والألف للتفريق.

﴿عِبَادًا﴾: خبر: ﴿كُونُواْ﴾. ﴿لِّى﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿عِبَادًا﴾. ﴿مِن دُونِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ثانية لـ﴿عِبَادًا﴾ أو بمحذوف حال منه بعد وصفه بما تقدم، وجملة: ﴿كُونُواْ...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول.

﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له، وجملة: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۧنَ﴾ في محل نصب مقول القول لفعل محذوف، التقدير: ولكن يقول: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّۧنَ﴾: والكلام معطوف على ما قبله. ﴿بِمَا﴾ الباء: حرف جر. (ما): مصدرية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿تُعَلِّمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله.

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب خبر ﴿كَانَ﴾، و(ما) المصدرية و﴿كُنتُمْ﴾ في تأويل مصدر في محل جرٍّ بالباء، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل: ﴿كُونُواْ﴾ التقدير: بسبب كونكم معلِّمين، وبسبب كونكم دارسين، وجوز تعليقهما بـ﴿رَبَّٰنِيِّۧنَ﴾. ﴿وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. هذا؛ ويجوز اعتبار (ما) موصولة، أو موصوفة في الموضعين، وذلك على قراءة تشديد اللام، والسين، ويكون العائد، أو الرابط محذوفاً، وهو مفعول الفعلين، تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۧنَ أَرْبَابًاۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ...﴾ إلخ؛ أي: لا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا نبيٌّ مرسل، ولا ملكٌ مقرَّب. ويقرأ الفعل بالنصب عطفاً على: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ﴾ ويقويه ما ذكرته عن اليهود في الآية السابقة، فيكون الفاعل عائداً على (بشر). ويقرأ بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام السابق، فيكون الفاعل عائداً إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ...﴾ إلخ: الاستفهام للتعجب، والإنكار. المعنى: لا يقول هذا، ولا يفعله! فالجهلة من الأحبار، والرُّهبان، ومشايخ الضلال من المسلمين يدخلون في هذا الذَّم، والتوبيخ، بخلاف الرُّسل، وأتباعهم من العلماء العاملين. والخِطاب للمسلمين، وللناس أجمعين.

هذا؛ وقد اتخذت بعض القبائل العربية، والصابئون الملائكة أرباباً من دون الله. وقد ألزم الله الخلق حرمة الملائكة، والأنبياء، وتقديسهم. وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي. وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: رَبِّي، وَلْيَقُلْ سَيِّدِي**». وَانْظُرْ ما ذكرتُهُ في سورة (يوسف) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

هذا؛ و(الملائكة): أجسامٌ نورانية لطيفة، قادرة على التشكُّل، والتمثُّل بأيَّة صورةٍ أرادوا، لا يأكلون، ولا يشربون، لا يبولون، ولا يتغوطون، لا ينامون، ولا يموتون، ولا يهرمون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون. لا يتناكحون، ولا يتناسلون. يلهمون الحمد، والتسبيح لله، كما نلهم النَّفس. لا يوصفون بذكورة، ولا أنوثة، فمن وصفهم بذكورة؛ فسق، ومن وصفهم بأنوثة: كفر، ولهم قدرة خارقة للعادة، ولا تحكم عليهم الصُّورة. ومعناه: أن

الملك إذا تصور بصورة ما، وسدَّد إنسان سهماً نحوه، أو جُنِي عليه بجناية؛ فلا يناله شيء من الأذى، بخلاف الجنِّي؛ إذا تصور بصورة ما؛ فيجري عليه حكم الصُّورة بلحوق الأذى إليه. وانظر ما ذكرته في سورة (الجنِّ) تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك.

وهم كثيرون لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، قال تعالى في سورة (المدثر): ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ يقومون بأعمالٍ مختلفة، كلٌّ فيما وكل إليه من أعمال. ورؤساؤهم عشرة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، ورقيب، وعتيد، ومنكر، ونكير، ورضوان خازن الجنة، ومالك خازن النار. ويتشكَّلون بأشكالٍ حسنة، بخلاف الجنِّ؛ الذين يتشكلون بأشكال قبيحة.

الإعراب: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ﴾: انظر الشرح لإعراب هذه الجملة. ﴿أَن تَتَّخِذُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤول من: ﴿أَن تَتَّخِذُوا﴾: في محل نصب مفعول به ثان عند سيبويه، وفي محل جر بحرف جر محذوف عند الخليل، التقدير: باتخاذكم، والجار، والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾: مفعول به أول. ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿أَرْبَابًا﴾: مفعول به ثان. ﴿أَيَأْمُرُكُم﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكار، وتعجيب. (يأمركم): فعل مضارع، والكاف مفعول به، والفاعل يعود إلى (بشر) أو إلى: ﴿اللَّهُ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، ﴿بِالْكُفْرِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل المفعول الثاني. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. و﴿بَعْدَ﴾ مضاف، و﴿إِذْ﴾ ظرف مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿أَنتُم﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿مُّسْلِمُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل جر بإضافة ﴿إِذْ﴾ إليها.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١)﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ...﴾ إلخ: ذكروا في معنى أخذ الميثاق وجهين: أحدهما: أنه مأخوذ من الأنبياء، والثاني أنه مأخوذ لهم من غيرهم، فلهذا السبب اختلفوا في المعنيِّ بهذه الآية، فذهب قوم إلى: أن الله تعالى أخذ ميثاقاً من النَّبيِّن خاصَّةً قبل أن يبلِّغوا كتاب الله، ورسالاته إلى عباده أن يصدِّق بعضهم بعضاً، وأخذ العهد على كل نبيٍّ أن يؤمن بمن يأتي بعده من الأنبياء، وينصره ـ إن أدركه، وإن لم يدركه ـ أن يأمر قومه بنصرته؛ إن أدركوه، فأخذ الميثاق من موسى أن يؤمن بعيسى، ومن عيسى أن يؤمن بمحمد ﷺ وعليهم أجمعين. هذا قول سعيد بن جبير، والحسن، وطاوس. وقيل: إنَّما أخذ الميثاق من النبيين في أمر محمد ﷺ خاصَّةً، وهو قول عليٍّ، وابن عبَّاس، وقتادة، والسُّدِّيِّ. فعلى هذا القول اختلفوا، فقيل: إنَّما أخذ الميثاق على أهل

الكتاب الذين أرسل إليهم النَّبيِّن، ويدلُّ عليه قوله: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ وإنَّما كان محمَّدٌ ﷺ مبعوثاً إلى أهل الكتاب دون النبيين، وإنما أطلق هذا اللفظ عليهم؛ لأنَّهم كانوا يقولون: نحن أولى بالنبوة من محمَّدٍ؛ لأنا أهل كتاب، والنَّبيُّون منا.

وقيل: أخذ الله الميثاق على النبيِّين، وأممهم جميعاً في أمر محمد ﷺ، فاكتفى بذكر الأنبياء؛ لأنَّ العهد مع المتبوعِ عهدٌ مع التابع. وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. قال عليٌّ كرَّم الله وجهه: ما بعث الله نبيّاً؛ آدم فَمَنْ بعده إلا أخذ عليه العهد في أمر محمَّدٍ ﷺ، وأخذ هو العهد على قومه ليؤمننَّ به، ولئن بعث؛ وهم أحياء؛ لينصرنَّه. انتهى خازن. وقال كثيرٌ من المفسِّرين: إنَّ الأنبياء كانوا يأخذون العهد، والميثاق على أممهم بأنَّه إذا بعث محمد ﷺ أن يؤمنوا به، وينصروه.

ومعنى ﴿مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ﴾: أنَّ الله تعالى وصفه في كتب الأنبياء المتقدِّمة، وشرح فيها أحواله، فإذا جاءت صفاته، وأحواله مطابقةً لما في كتبهم المنزلة؛ فقد صار مصدِّقاً لها، فيجب الإيمان به، والانقياد له. ومعنى ﴿لِّمَا مَعَكُمْ﴾ أي: من الشرائع، والكتاب، والحكمة.

هذا؛ وأصل الفعل: (تؤمنون) فلمَّا اتَّصلت به نون التوكيد؛ صار لتؤمنونُنَّ، فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، فالتقى ساكنان: واو الجماعة، والنون الأولى من المشدَّدة، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، وبقيت الضمة على النُّون قبلها؛ لتدل عليها. وإعلال ما بعده مثله.

﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِىۖ﴾: قال البغويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: قال الله ـ عزَّ وجل ـ للأنبياء حين استخرج الذرية من صلب آدم ـ والأنبياء فيهم كالمصابيح ـ وأخذ عليهم الميثاق في أمر محمَّد ﷺ: أأقرتم؟. وقال الفخر الرازي: يحتمل أن يكون هذا الميثاق ما قُرِّر في عقولهم من الدلائل الدَّالة على أنَّ الانقياد لأمر الله واجبٌ، فإذا جاء رسولٌ، وظهرت المعجزات الدَّالة على صدقه، فإذا أخبرهم بعد ذلك: أنَّ الله أمر الخلق بالإيمان به؛ عرفوا عند ذلك وجوبه بتقرير هذا الدليل في عقولهم. فهذا هو المراد من الميثاق. وهذا إن فسرنا: أن أخذ الميثاق كان من النبيِّن، وكان معناه: قال الله تعالى للنبيين: أأقررتم بالإيمان به، والنصر له؟! وإن فسَّرنا بأنَّ أخذ الميثاق كان على الأمم؛ كان معناه: قال كل نبي لأمته: أأقررتم؟. وذلك؛ لأنه تعالى أضاف أخذ الميثاق إلى نفسه. وإن كان النبيون أخذوه على الأمم؛ فذلك طلب هذا الإقرار، وإضافه إلى نفسه؛ وإن وقع من الأنبياء. هذا؛ والأصر ـ بفتح الهمزة، وكسرها لغتان ـ هو العهد، وهو المراد هنا، وهو في اللغة: الثِّقل، وسمي العهد إصراً؛ لأنه منع، وتشديد. وانظر الآية الأخيرة من سورة (البقرة).

﴿قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ﴾ أي: قال النبيُّون: أقررنا بما ألزمتنا من الإيمان برسلك؛ الذين ترسلهم مصدِّقين لما معنا. ﴿قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ أي: قال الله ـ عز وجل ـ للنبيِّين: فاشهدوا على أنفسكم، أو

على أممكم، وأتباعكم الذين أخذتم عليهم الميثاق. وقيل: قال الله: للملائكة: فاشهدوا. وقيل: معناه: فاعلموا، وبيِّنوا؛ لأن أصل الشهادة العلم، والبيان. ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أي: عليكم، وعلى أتباعكم.

الإعراب: (إذ): ظرف مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب، متعلق بفعل محذوف، تقديره: اذكر وقت، أو هو مفعول به لهذا المحذوف. ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ﴾: فعل ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها، و﴿مِيثَٰقَ﴾: مضاف، و﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر الميمي لفاعله، أو لمفعوله. ﴿لَمَآ﴾: هذا اللفظ يقرأ بكسر اللام، وفتحها، فالكسر أمره هيِّن. فاللام لام التعليل، و(ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعده بمصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿أَخَذَ﴾. هذا قول البيضاوي. وقال القرطبيُّ: متعلقان بمحذوف، التقدير: وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لَتُعَلِّمُنَّ الناس لِمَا جاءكم من كتاب، وحكمة، وَلَتأْخذُن على الناس أن يؤمنوا. وقال ابن هشام في المغني: متعلقان بقوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ الواقع جواباً لأخذ الميثاق على الاتساع في الظرف، والتقدير: لإيتائي، لأجل إيتائي. وجوز اعتبار (ما) موصولة، وموصوفة، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: لِلذي، أو: لِشيء آتيتكموه. وأما الفتح ففيه الأقوال الكثيرة، وها أنذا ألخصها لك مبتدئاً بالمعتمد منها.

الأول: اللام لام الابتداء. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.

﴿ءَاتَيْتُكُم﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية صلة (ما) والعائد محذوف، التقدير: لَلَّذي آتيتكموه. ﴿مِّن كِتَٰبٍ﴾ متعلقان بمحذوف حال من المفعول الثاني المحذوف، العائد على (ما)، و﴿مِّن﴾ بيان لما أُبهم فيها. وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: الجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر (ما) و﴿مِّن﴾ لبيان الجنس. ﴿وَحِكْمَةٍ﴾: معطوف على: ﴿كِتَٰبٍ﴾. ﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف.

﴿جَآءَكُمْ﴾ فعل ماض، والكاف مفعول به. ﴿رَسُولٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة، والعائد في الأولى عائد فيها؛ لأن الجملتين المتعاطفتين كالجملة الواحدة، أو العائد محذوف، التقدير: ثم جاءكم به. ﴿مُّصَدِّقٌ﴾: صفة: ﴿رَسُولٌ﴾. ﴿لِّمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمصدِّق، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٣]. ﴿مَعَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) أو بمحذوف صفتها على اعتبارها موصوفة، والكاف في محل جر بالإضافة، وخبر المبتدأ الذي هو (ما) محذوف؛ إذ التقدير: للذي آتيتكموه... هو الحق، والجملة الاسمية هذه مؤكدة لمعنى القسم، أي: فكأنها قسم ثانٍ. ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب أخذ الميثاق المتضمِّن معنى القسم. (تؤمنن): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه حذف النون المحذوفة لتوالي الأمثال والواو المحذوفة المدلول عليها بالضمة في محل رفع فاعله، ونون التوكيد حرف لا محل له،

والجملة الفعلية جواب أخذ الميثاق المتضمن معنى القسم، لا محل لها، والجملة: ﴿وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ معطوفة عليها، وإعرابها مثلها، والجملة الاسمية: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم...﴾ إلخ معترضة بين القسم، وجوابه مؤكدة لمعنى القسم، كما رأيت.

القول الثاني: اللام واقعة في جواب أخذ الميثاق المتضمِّن معنى القسم، وجملة: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ﴾ جواب قسم محذوف، والقسم المحذوف وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو: (ما) الموصولة، والجملة الاسمية: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم...﴾ إلخ جواب أخذ الميثاق المتضمِّن معنى القسم.

القول الثالث: وهو للزمخشري، وتبعه البيضاوي، والنَّسفي كعادتهما، وبه قال القرطبيُّ، وهو قول المبرد، والكسائي، والزجاج: أن اللام هي الموطئة للقسم، و(ما) تحتمل الشرطية، والموصولة، فعلى الأول؛ فهي في محل نصب مفعول به مقدَّم، وعلى الثاني؛ فهي مبتدأ، وجملة: ﴿ءَاتَيۡتُكُم﴾ فعل الشرط على الأول، وصلة الموصول على الثاني، والعائد محذوف، كما رأيت تقديره فيما سبق. و﴿مِّن كِتَٰبٍ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، أو بمحذوف حال من الضمير المقدَّر. كما سبق، وجملة: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ﴾ جواب القسم المدلول عليه باللام الموطئة، وحذف جواب الشرط على القاعدة: «إذا اجتمع شرط، وقسم فالجواب للسابق منهما». وهذا ضعيف، لا اعتبار له؛ لأنه لا يبقى لأخذ الميثاق جواب، وكذلك إن اعتبرت (ما) موصولة، وخبرها محذوفاً، وجملة: ﴿لَتُؤۡمِنُنَّ﴾ جواب القسم المدلول عليه باللام، ولذا قال ابن هشام في المغني: وعلى هذا؛ فالأحسن ألا تكون اللام موطئة، و(ما) شرطية، بل للابتداء، و(ما) موصولة؛ لأنه حمل على الأكثر.

هذا؛ ويقرأ: (لَمَّا) بفتح اللام وتشديد الميم، وفيها وجهان: أحدهما: أنَّها الزَّمانية، أي: أخذنا ميثاقهم لمَّا آتيناهم شيئاً من كتاب وحكمة، ورجع من الخطاب إلى الغيبة على المألوف من طريقتهم في الالتفات، والثاني: أنه أراد (لمن ما) ثم أبدل من النون ميماً لمشابهتها إيَّاها، فتوالت ثلاث ميمات، فحذفت الثانية لضعفها بكونها بدلاً، وحصول التكرير بها. ذكر هذا المعنى ابن جني في المحتسب. انتهى أبو البقاء.

﴿قَالَ﴾: فعل ماض، وانظر الفاعل في الشرح. ﴿ءَأَقۡرَرۡتُمۡ﴾: الهمزة: حرف استفهام. (أقررتم): فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿وَأَخَذۡتُمۡ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ﴾: متعلقان بما قبلهما، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿إِصۡرِيۖ﴾: مفعول به، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة.

وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿قَالُوٓاْ﴾: ماض، وفاعله. ﴿أَقۡرَرۡنَاۚ﴾: فعل، وفاعل، والمتعلق محذوف، التقدير: أقررنا بذلك، والجملة الفعلية في محل نصب مقول

القول، وجملة: ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿فَٱشْهَدُواْ﴾: الفاء: صلة. (اشهدوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. هذا؛ ويجوز اعتبار الفاء فصيحة، أفصحت عن شرط مقدَّر، التقدير: قال: إذا كان ذلك حاصلاً منكم؛ فاشهدوا. وهذا الكلام في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَأَنَاْ﴾: الواو: واو الحال. (أنا) ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿مَعَكُم﴾: ظرف مكان متعلِّق بما بعده، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، وجوز اعتبارها مستأنفة، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٨٥] بشأن آل عمران، وتعليق الجار، والمجرور يقال مثله في الظرف: ﴿مَعَكُم﴾.

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾

الشرح: ﴿فَمَن تَوَلَّىٰ﴾: أعرض عن الإيمان بمحمد ﷺ، ونصرته. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ الإقرار الذي تقدَّم. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن الإيمان والطاعة. هذا؛ وأعاد الضمير في ﴿تَوَلَّىٰ﴾ على لفظ (مَنْ) وجمع: (أولئك...) إلخ حملاً على معناها، كما في الآية رقم [٨٤] الآتية.

هذا، و﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ جمع: فاسق، وهو الخارج عن حدِّ الاستقامة، وأصل الفسق: الخروج عن القصد، والفاسق في الشرع: الخارج عن أوامر الله بارتكاب المعاصي، وله ثلاث درجات: الأولى: التغابي، وهو أن يرتكب الكبيرة أحياناً مستقبحاً إيَّاها. والثانية: الانهماك، وهو أن يعتاد ارتكابها غير مبالٍ بها، والثالثة: الجحود، وهو أن يرتكبها مستصوباً إيَّاها. فإذا شارف هذا المقام، وتخطى خطَّه؛ فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، ولا بس الكفر، لكن مادام في درجة التغابي، والانهماك؛ فلا يسلب عنه اسم المؤمن، لاتصافه بالتَّصديق، الذي هو مسمَّى الإيمان. انتهى بيضاوي.

الإعراب: ﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جزم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره هو. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، وهو مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿هُمُ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ثانٍ. ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع

خبر (أولئك) هذا؛ وإن اعتبرت الضمير فصلاً فـ: ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ خبر (أولئك) وعلى الوجهين فالجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلفٍ فيه، كما رأيت في الآية رقم [٦١] والجملة الاسمية: ﴿فَمَن...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

الشرح: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾: قال الكلبي ـ رحمه الله تعالى ـ: إن كعب بن الأشرف، وأصحابه اختصموا مع النَّصارى إلى النبي ﷺ، فقالوا: أينا أحقُّ بدين إبراهيم؟ فقال لهم النبيُّ ﷺ: «**كِلَا الفريقيْنِ بريءٌ مِنْ دينِهِ**». فقالوا: لا نرضى بقضائك، ولا نأخذ بدينك. فنزلت الآية الكريمة. والمراد بالاستفهام الإنكار، والتوبيخ. المعنى: أفبعد أخذ الميثاق عليهم، ووضوح الدلائل لهم: إنَّ دين إبراهيم هو دين الله الإسلام؛ أي: أفغير دين الله تطلبون يا معشر اليهود، والنَّصارى؟!.

﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ﴾ أي: استسلم، وانقاد، وخضع، وذلَّ، وكلُّ مخلوق فهو منقاد، ومستسلمٌ لله؛ لأنه مجبولٌ على ما لا يقدر أن يخرج عنه. قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: أسلم المؤمن طوعاً. والكافر عند موته كَرْهاً، ولا ينفعه ذلك لقوله تعالى في آخر سورة (غافر): ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾. ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: فيه تغليب العاقل على غيره، كما غلب غير العاقل على العاقل في غير ما موضع، مثل قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: الطَّوع: الانقياد، والاتِّباع بسهولة، والكَرْه: ما كان بمشقَّةٍ، وإباء من النفس. وأحسن ما قيل في تفسيرها: إنَّه لا سبيل لأحد من الخلق إلى الامتناع على الله في مراده، فأما المسلم؛ فينقاد لله فيما أمره، أو نهاه عنه طوعاً، وأما الكافر، والفاجر؛ فينقاد لله كرهاً في جميع ما يقضي عليه، ولا يمكنه دفع قضائه، وقدره، وخذ قوله تعالى في سورة (الرَّعد): ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾. ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ أي: يرجع الخلق كلهم إلى الله يوم القيامة. ففيه وعيد عظيم، وتهديد شديد لمن خرج عن طاعته، وخالف أمره في الدنيا. هذا؛ وتقرأ الأفعال بالتاء، والياء. هذا؛ وبين ﴿طَوْعًا﴾ و(كرهاً) طباق، وهو من المحسِّنات البديعيَّة.

(غير): اسم شديد الإبهام كـ «مثل» لا يتعرَّف بالإضافة لمعرفةٍ، وغيرها، ولا تدخل عليه (أل) وهو ملازم للإضافة، ويجوز أن يقطع عنها؛ إن فهم المعنى، أو تقدَّمت عليها كلمة

(ليس)، يقال: قبضت عشرة ليس غيْرُ. وهو مبني على الضَّمِّ، أو على الفتح، خلافٌ. وإن أردت الزيادة، فانظر مبحثنا في كتابنا: «فتح القريب المجيب».

فائدة: روى مجاهد عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إذا استصعبت دابة أحدكم، أو كانت شموساً؛ فليقرأ في أذنها هذه الآية: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿أَفَغَيْرَ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وإنكار، وتوبيخ. الفاء: حرف عطف، أو حرف استئناف. غير: مفعول به مقدم، وهو مضاف، و﴿دِينِ﴾ مضاف إليه، و﴿دِينِ﴾ مضاف ﴿ٱللَّهِ﴾مضاف إليه. ﴿يَبْغُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، أو هي معطوفة على جملة مقدَّرة قبلها، التقدير: أيتولون عن الإيمان الحقيقي فغير دين الله يبغون. ويكون الكلام كله مستأنفاً. ﴿وَلَهُۥٓ﴾: الواو: واو الحال. (له): جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿أَسْلَمَ﴾: فعل ماض. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط الواو، والضمير، وهي على تقدير «قد» قبلها. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الوصول. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾: مصدران في موضع الحال مِنْ ﴿مَن﴾ أي: طائعين، ومكرهين. (إليه): جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿يُرْجَعُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها، هذا؛ وجاز مجيء الحال من المضاف إليه؛ لأن المضاف كجزء منه، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَلَا تُـجِـزْ حَـالاً مِـنَ الْـمُـضَـافِ لَـهْ ... إِلَّا إِذَا اقْـتَـضَـى الـمـضـافُ عَـمَـلَـهْ

أَوْ كَـانَ جُـزْءَ مَـالَـهُ أُضِـيـفَـا ... أَوْ مِـثْـلَ جُـزْئِـهِ فَـلَا تَـحِـيـفَـا

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾: لمَّا ذكر الله عز وجل في الآية المتقدمة أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرَّسول؛ الذي يأتي مصدقاً لما معهم؛ فقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ وإنما وحَّد الضمير في قوله: ﴿قُلْ﴾ وجمع في قوله: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ لأنَّه إنما خاطبه بلفظ الوحدان، ليدل هذا الكلام على أنَّه لا يبلغ هذا التكليف عن الله تعالى إلى الخلق إلا هو. ثم قال: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ تنبيهاً على أنَّه حين قال هذا القول وافقه أصحابه، فحسن الجمع في قوله:

﴿ءَامَنَّا﴾. وقال مكيٌّ ـ رحمه الله تعالى ـ: التقدير: قل: قولوا: آمنا، فالضمير في: ﴿ءَامَنَّا﴾ للمأمورين، والآمر لهم النبي ﷺ. ويجوز: أنَّ الأمر له ﷺ. يراد به أمَّته.

﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾: المراد به القرآن الكريم، وإنَّما ذكره؛ لأنه أشرف الكتب، وأنَّه لم يُحَرَّف، ولم يُبَدَّل، وغيره حُرِّف، وبدِّل. ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ إلخ: المراد به الصُّحف التي أنزلت عليه، وقد عمل بها أولاده، وأحفاده. ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾ هم أولاد يعقوب الاثنا عشر، ثم صاروا قبائل، يطلق عليها الأسباط، فالأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل. وقدَّم إسماعيل على إسحاق في الذِّكر لسببين: أولهما: أنه أسبق في الولادة بأربع عشرة سنة، وثانيهما: أنَّه جدُّ نبينا ﷺ، فاستحق التقديم لذلك. وإنَّما خص الله هؤلاء الأنبياء بالذكر؛ لأنَّ أهل الكتاب يعترفون بوجودهم، ولم يختلفوا في نبوَّتهم. ﴿وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ﴾ أي: التوراة. ﴿وَعِيسَىٰ﴾ أي: الإنجيل.

﴿وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾: كما فعل اليهود، والنصارى من الإيمان ببعض الرُّسل، والكفر ببعضهم، كما قال الله فيهم: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ...﴾ إلخ رقم [١٥٠]: من سورة (النساء). ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ أي: منقادون مخلصون له في العبادة، مقرُّون له بالألوهية، والربوبية، لا نشرك معه أحداً أبداً، فالمؤمنون ـ كما في هذه الآية ـ يؤمنون بكل نبيٍّ أرسل، وبكلِّ كتاب أنزل، لا يكفرون بشيءٍ من ذلك. والحمد لله! هذا والآية مذكورة في سورة (البقرة) برقم [١٣٦]: مع الاختلاف في بعض الألفاظ، والمعنى واحد مع ملاحظة ما يلي:

عُدِّي الفعل: ﴿أُنزِلَ﴾ هنا بحرف الاستعلاء (على) وفي سورة (البقرة) بحرف الانتهاء (إلى) لوجود المعنيين؛ إذ الوحي ينزل من فوق، وينتهي إلى الرَّسول، فجاء تارةً بأحد المعنيين، وتارةً أخرى بالمعنى الآخر.

بعد هذا: ف: (النبيُّون) جمع: نبي، يقرأ بالهمز، وبدونه، وهو مأخوذ من النبأ، وهو الخبر؛ لأن النبي يخبر عن ربِّه. وقيل: بل هو مأخوذ من النَّبْوة، وهي الارتفاع؛ لأن رتبة النبي ارتفعت عن رتب الخلق. هذا؛ والنبي غير الرسول بدليل عطفه عليه في قوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٥٢]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ﴾. وقيل: هو أعمُّ منه؛ لأنَّ كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً، أمَّا تعريفهما؛ فالرَّسول: ذكرٌ حرٌّ مِنْ بني أدم سليم عن منفِّرٍ طبعاً، أوحي إليه بشرع يعمل به، ويؤمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بالتبليغ؛ فهو نبيٌّ، وليس رسولاً، فنبينا ﷺ صار نبيّاً بنزول سورة إقرأ عليه، وبعد ستة أشهر من نزولها صار رسولاً بنزول سورة (المدثر).

هذا؛ ويروى: أن أبا ذر ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ عن عدد الأنبياء، فقال: **«مئة ألف وأربعة وعشرون ألفاً»** قال: كم عدد الرُّسل منهم؟ قال: **«ثلاثُمِئةٍ وَثَلَاثَةَ عَشَرَ، أولهم آدمُ،**

وآخِرهُمْ نَبِيُّكُمْ». أخرجه الإمام أحمد، وفي بعض ألفاظه اختلاف بسيط. هذا؛ وأربعةٌ منهم من العرب: هم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ. وإسماعيل بن إبراهيم مستعرب، سكن مكة مع قبيلة جرهم، وتزوَّج منهم بامرأتين. والمذكور من الرُّسل في القرآن الكريم بأسمائهم خمسة وعشرون، ومعرفتهم بأسمائهم واجبة على كلِّ مسلم، ومسلمة من المكلَّفين. وأعني بمعرفتهم: أنه لو أعرض اسم رسول منهم على مسلم، فيجب أن يعرف: أهو من المرسلين، أم لا؟ هذا؛ وقد قال الله تعالى لنبيه ﷺ في سورة (النساء): ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ وقال في سورة (غافر): ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾. هذا؛ وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كلُّ الأنبياء من بني إسرائيل إلا عشرة: نوحاً، وشعيباً، وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وإبراهيمَ، وإسحاق، ويعقوبَ، وإسماعيلَ، ومحمداً، صلى الله عليهم جميعاً، وسلم تسليماً كثيراً.

هذا؛ وقد ذكر الله في آيات (الأنعام) رقم [٨٣]: وما بعدها ثمانية عشر رسولاً بأسمائهم من غير ترتيب لا بحسب الزَّمان، ولا بحسب الفضل؛ لأن الواو العاطفة لا تقتضي الترتيب، وبقي سبعة منهم، لم يذكروا في سورة (الأنعام)، وقد ذكروا في غيرها، وهم: إدريس، وشعيب، وصالح، وذو الكفل، وآدم، ومحمد، صلى الله عليهم جميعاً، وسلم تسليماً كثيراً. فهؤلاء الخمسة والعشرون رسولاً الذين يجب الإيمان بهم، ومعرفتهم تفصيلاً، وقد نظموا في قول بعضهم: [البسيط]

حَتْمٌ عَلَى كُلِّ ذِي التكْلِيفِ مَعْرِفَةٌ ... بِأنبيَاء عَلَى التَّفصِيل قَدْ عُلِمُوا

فِي (تِلْكَ حُجَّتُنَا) مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ ... مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُو

إِدْرِيسُ هُودٌ ولوطٌ صَالِحٌ وَكَذَا ... ذُو الْكِفْلِ آدمُ بالمختارِ قَدْ خُتِمُوا

ويعني في قوله: (تلك حجتنا) آيات الأنعام المذكورة. وينبغي أن تعلم أن هؤلاء الرسل ليسوا بدرجةٍ واحدةٍ من الفضل، بل أرفعهم درجة، وأعلاهم منزلة، أولوا العزم منهم، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وسيد الجميع، وأفضل الخلق قاطبةً محمد صلى الله عليهم جميعاً، وسلم تسليماً.

والرسل والأنبياء ـ صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين ـ تجوز عليهم الأعراض البشرية، فهم يأكلون، ويشربون، ويصحُّون، ويمرضون، وينكحون النساء، ويمشون في الأسواق. تعتريهم الأعراض البشرية من ضعفٍ، وشيخوخةٍ إلا أنهم يمتازون بخصائص كريمةٍ عاليةٍ، ويتَّصفون بصفاتٍ عظيمةٍ جليلة، هي بالنسبة لهم من ألزم اللَّوازم، وهي ما يلي: الصدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة، والعصمة من المعاصي قبل النبوَّة، وبعدها، والسلامة من العيوب المنفِّرة، ويستحيل عليهم ضدُّها.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: «أنت». ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل. والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَمَآ﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر معطوف على (الله). ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب فاعله يعود إلى (ما) وهو العائد، والجملة الفعلية صلتها. ﴿عَلَيۡنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَمَآ أُنزِلَ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله. ﴿عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾: متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة، والأسماء بعده معطوفة عليه. ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف عطف. (ما): معطوفة على ما قبلها. ﴿أُوتِيَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿مُوسَىٰ﴾: نائب فاعل، وهو المفعول الأول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف، والجملة الفعلية صلة (ما) والعائد محذوف، التقدير: والذي أوتيه موسى، وعيسى. ﴿وَٱلنَّبِيُّونَ﴾: معطوف على ما قبله، فهو من عطف العام على الخاص. ﴿مِن رَّبِّهِمۡ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿أُوتِيَ﴾ والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، وأجيز تعليق الجار والمجرور بمحذوف حال من الضمير المحذوف الواقع مفعولاً ثانياً، و﴿مِن﴾ بيان لما أبهم في (ما).

﴿لَا﴾: نافية. ﴿نُفَرِّقُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل نصب حال من (نا) والرابط الضمير فقط. ﴿بَيۡنَ﴾ ظرف مكان متعلق بما قبله، و﴿بَيۡنَ﴾ مضاف، و﴿أَحَدٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة (أحدٍ)، ﴿وَنَحۡنُ﴾: الواو: واو الحال. (نحن): ضمير منفصل مبني على الضم في محل رفع مبتدأ. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿مُسۡلِمُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع... إلخ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من (نا) أيضاً، وهي مؤكدة للإيمان. والرابط: الواو والضمير.

﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٨٥﴾

الشرح: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا﴾ يعني: إن الدين المقبول عند الله هو دين الإسلام، وإنَّ كلَّ دين سواه غير مقبول عنده؛ لأن الدِّين الصحيح ما يأمر الله به، ويرضى عن فاعله، ويثيبه عليه. ﴿وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ يعني: الذين وقعوا في الخسار، وهو: حرمان الثَّواب، وحصول العقاب.

هذا؛ وقيل في تفسير «**الخسران**»: إنَّه جُعِل لكلِّ واحد من بني آدم منزلٌ في الجنة، ومنزلٌ في النَّار، فإذا كان يوم القيامة؛ جعل الله للمؤمنين منازل الكفار التي في الجنَّة، وجعل للكفار منازل المؤمنين التي في النَّار. فذلك هو الخسران! وأيُّ خسران أعظم من هذا الخسران؟! وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا**

لَهُ مَنْزِلَانِ: مَنْزِلٌ فِي الْجَنَّةِ ومَنَزِلٌ فِي النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ؛ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ». فذلك قوله تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَبْتَغِ﴾ فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل يعود إلى(مَنْ) تقديره: هو. ﴿غَيْرَ﴾: مفعول به. ﴿دِينًا﴾: تمييز، هذا وجه، ووجه ثان: ﴿غَيْرَ﴾ حال من﴿دِينًا﴾ كان صفةً له، فلما قُدِّم عليه صار حالاً. ﴿دِينًا﴾: مفعول به. ووجه ثالث. ﴿غَيْرَ﴾ مفعول به. و﴿دِينًا﴾ بدل منه، و﴿غَيْرَ﴾ مضاف، و﴿ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ مضاف إليه. ﴿فَلَن﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لن): حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يُقْبَلَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ(لن) ونائب الفاعل يعود إلى: ﴿غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ﴾. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، وخبر المبتدأ؛ الذي هو(مَنْ) مختلف فيه، كما رأيت فيما تقدَّم.

﴿وَهُوَ﴾: الواو: واو الحال. (هو): مبتدأ. ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلقان باسم فاعل محذوف، التقدير: وإنه خاسر في الآخرة. وقيل: متعلقان بمصدر محذوف، التقدير: خسرانه في الآخرة. وهذا؛ لأن (أل) بمعنى الموصول، والجار والمجرور من صلة الموصول، ولا تتقدم الصلة على الموصول. وقول ثالث: إنَّ ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ ليس بمعنى: الذين خسروا، ولكنه اسم قائم بنفسه، كما يقال: الرجل، والغلام؛ أي: فالألف للتعريف، لا بمعنى «الذي». وهو أولى، وأسهل في الإعراب، فيكون الجار والمجرور: ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ متعلقين به. ﴿مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً بـ: (مِنْ) والرابط: الواو، والضمير، والاستئناف ممكنٌ.

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾

الشرح: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ...﴾ إلخ: قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت الآية الكريمة في اثني عشر رجلاً ارتدُّوا عن الإسلام، وذهبوا إلى مكَّة كفاراً، منهم: الحارث بن سويد الأنصاري، وطعمة بن أبيرق، وحجوج بن الأسلت. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في اليهود، والنصارى، وذلك: أنَّ اليهود كانوا قبل مبعث النبي ﷺ يستفتحون به على الكفار، ويقرُّون به، ويقولون: قد أظلَّ زمان نبي مبعوث، نقتلكم معه قتل عاد، وإرم، انظر الآية رقم [٤٩]: من سورة (البقرة) ـ فلمَّا بعث محمد ﷺ كفروا به بغياً، وحسداً. ومعنى الآية: كيف يرشد

الله للصواب، ويوفق للإيمان قوماً جحدوا نبوة محمد ﷺ بعد تصديقهم إيَّاه، وإقرارهم بما جاء به من عند ربِّه.

﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾ أي: الحجج، والبراهين، والمعجزات الدَّالة على نبوَّته؛ التي بمثلها ثبتت النبوة. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: لا يوفقهم إلى الحقِّ، والصَّواب؛ لما سبق في علمه تعالى: أنهم ظالمون، وأنَّهم لا يهتدون.

هذا؛ والمراد بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في هذه الآية: الكفار، كما عبَّر الله عنهم في آيات كثيرة (المجرمين) و(الفاسقين) و(الكاذبين) وغير ذلك، وإننا نجد الكثير من المسلمين يتَّصفون بهذه الصفات، فهل يوجه إليهم التهديد، والوعيد، كما يوجه إلى الكفار؟ الحقَّ أقول: نعم، يوجَّه إليهم ذلك، ولا سيَّما مَنْ قرأ منهم القرآن الكريم، واطَّلع على أخبار الأمم السابقة، والقرون السالفة؛ كيف نكَّل الله بهم، وجعلهم عبرةً للمعتبرين؟! وإنَّما سُمِّي الكافر ظالماً؛ لأنه وضع العبادة في غير موضعها، وكلُّ مَنْ يدَّعي الإسلام، ولا يعمل بتعاليمه؛ فهو ظالم لنفسه، ويستحقُّ ما يستحقُّ الكافر من العذاب في الدُّنيا، والآخرة.

الإعراب: ﴿كَيْفَ﴾: اسم استفهام، واستبعاد مبني على الفتح في محل نصب حال، عامله ما بعده. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الياء للثقل.

﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿قَوْمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ﴿قَوْمًا﴾. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، وهو مضاف، و﴿إِيمَٰنِهِمْ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة. (شَهِدُوا): ماض، وفاعله. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: اسمها. ﴿حَقٌّ﴾: خبرها، والمصدر المؤوَّل منها، ومن اسمها، وخبرها في محل نصب مفعول به عند سيبويه، وفي محل نصب بنزع الخافض عند الخليل. والجملة الفعلية فيها ثلاثة أوجه: أحدها: أنها في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، وهي على تقدير «قد» قبلها. والثاني: أنَّها معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مثلها؛ أي: كيف يهديكم الله بعد اجتماع الأمرين. والثالث: أن يكون التقدير: وأن شهدوا؛ أي: بعد أن آمنوا، وأن شهدوا، فيكون معطوفاً على: ﴿إِيمَٰنِهِمْ﴾ على هذا التأويل. انتهى عكبري. وأقواها الوجه الأول.

﴿وَجَآءَهُمُ﴾: الواو: حرف عطف. (جَاءَهُمُ): فعل ماض، والهاء مفعول به. ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُۚ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها على الأوجه الثلاثة فيها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَهْدِى﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والفاعل يعود إلى (الله) والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به، ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: صفة: ﴿ٱلْقَوْمَ﴾ منصوب مثله، وعلامة نصبه الياء... إلخ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المرتدُّون عن الإسلام؛ الَّذين مرَّ ذكرهم فيما سبق. ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ أي: الذي يستحقونه فيما سبق من كفرهم، وانظر شرح باقي الكلمات فيما تقدَّم قريباً من هذه السورة.

الإعراب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾: مبتدأ ثان. ﴿أَنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿أَنَّ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿لَعْنَةَ﴾: اسمها المؤخر، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله، و﴿أَنَّ﴾ واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع خبر: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ والجملة الاسمية في محل رفع خبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها، هذا وأجيز اعتبار: ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بدلاً من: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ بدل الاشتمال، فيكون المصدر خبراً عنه. وفيه ضعف ظاهر وانظر الآية رقم [١٣٦] الآتية. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ﴾: معطوفان على لفظ الجلالة. ﴿أَجْمَعِينَ﴾: تأكيد لـ (الناس) على لفظه.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾﴾

الشرح: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: الخلود: الدَّوام، والمراد عدم الخروج أبداً. ﴿فِيهَا﴾ أي: في اللَّعنة المذكورة، أو النار المدلول عليها باللَّعنة. والإضمار قبل الذِّكر تفخيماً لشأنها، وتهويلاً لعظمهما، أو اكتفاءً بدلالة اللَّعنة عليها، وكثيراً ما وقع في القرآن: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وهو عائد على النار. ﴿يُنظَرُونَ﴾: يمهلون، أو: لا ينظر إليهم نظر رحمة. قال تعالى في سورة (الزخرف): ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾.

هذا؛ وقال الإمام الفخر الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: قال قوم: إنَّ عذاب الله للكافرين منقطع، وله نهاية، واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ وبأنَّ معصية الظالم متناهية، فالعقاب بما لا يتناهى ظلمٌ. والجواب: أن قوله: ﴿أَحْقَابًا﴾ لا يقتضي بأنَّ له نهاية؛ لأنَّ العرب يعبِّرون به، وبنحوه عن الدَّوام. ولا ظلم في ذلك؛ لأنَّ الكافر كان عازماً على الكفر ما دام حيّاً، فعوقب دائماً، ولم يعاقب بالدَّائم إلا على دائم، فلم يكن عذابه إلا جزاءً وفاقاً.

الإعراب: ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال مقدَّرة من الضمير المجرور في الآية السَّابقة، وهو عائد على واو الجماعة، منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة... إلخ، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُخَفَّفُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿عَنْهُمُ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْعَذَابُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال أخرى من الضمير المجرور، وهي حال مؤكدة للحال المقدرة، والرابط: الضمير فقط. وقال أبو

البقاء: حال من الضمير المستتر في: ﴿خَٰلِدِينَ﴾ فتكون حالاً متداخلة، أو هي مستأنفة، لا محل لها. أفاده مكيٌّ، رحمه الله. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ. ﴿يُنظَرُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَلَا هُمْ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال أيضاً.

هذا؛ وذكرت لك: أنَّ ﴿خَٰلِدِينَ﴾ حال مقدرة؛ إذ الحال بالنسبة للزَّمان على ثلاثة أقسام:

حال مقارنة، وهي الغالبة، نحو قوله تعالى حكايةً عن قول امرأة إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾. وحال مقدرة، وهي المستقبلة، نحو قوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾. ومنها الحال في هذه الآية، كما رأيت، وحال محكية، وهي الحال الماضية، نحو: جاء زيدٌ أمسِ راكباً. وهناك الحال الموطئة، وهي التي تذكر توطئةً للصفة بعدها؛ بمعنى: أن المقصود الصِّفة، وهذا كثير في القرآن الكريم، خذ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ ف: ﴿ءَايَٰتٍ﴾ حال من الضمير المنصوب، وليست مقصودة.

هذا؛ والحال أيضاً على نوعين: مؤسِّسة، ومؤكِّدة، فالأولى هي التي لا يستفاد معناها بدونها، نحو جاء زيد ضاحكاً، ونحوه، وأكثر ما تأتي الحال من هذا النوع مبينةً هيئة فاعل، أو مفعول. والمؤكدة هي التي يستفاد معناها بدونها، وإنما يؤتى بها للتوكيد، وهذه ثلاثة أنواع:

الأولى: ما يؤتى بها لتوكيد عاملها، وهي الَّتي توافقه معنىً فقط، أو معنىً، ولفظاً، فالأول: كقوله تعالى: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾. والثاني: نحو قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا﴾.

النوع الثاني: ما يؤتى بها لتوكيد صاحبها، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾.

النوع الثالث: ما يؤتى بها لتوكيد مضمون جملة معقودة من اسمين معرفتين جامدين، نحو قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ وقول سالم بن دارة اليربوعي ـ وهو الشاهد رقم [٣٨٥] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [البسيط]

أَنَا ابْنُ دَارَةَ مَعْرُوفاً بِهَا نَسَبِي ... وَهَلْ بِدَارَةَ يَا لِلنَّاسِ مِنْ عَارِ؟

وهناك الحال اللازمة في قراءة من قرأ قوله تعالى في سورة (صٓ) رقم [٢٩]: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ بالنَّصب؛ لأن البركة لا تفارق الكتاب، وهو القرآن. وأيضاً قوله تعالى في الآية رقم [١٩١] الآتية: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾.

وأخيراً خذ الحال السببية، ولم يذكرها أحدٌ من المفسرين، ولا المعربين، ومثالها قوله تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾، وقوله تعالى في سورة (المعارج) وفي سورة (ن):

﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ فلاهية، و﴿خَٰشِعَةً﴾ حال ممَّا من قبلهما في الإعراب، وعند التأويل يتبين لك: أنهما حالان مما بعدهما، وهذا كما في النَّعت السببي في قولك: مررت برجال كريم آباؤهم، وبنسوةٍ كريم أباؤهنَّ، ف: «كريم» صفة لما قبله في الإعراب، وهو في الحقيقة صفة لما بعده. تأمل، وتدبر، وربك أعلم، وأجل، وأكرم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٨٩)﴾

الشرح: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟﴾ أي: رجعوا إلى الإيمان، وتابوا توبةً نصوحاً. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد ارتدادهم عن الإسلام. وذلك: أن الحارث بن سويد الأنصاري لمَّا لحق بالكفار؛ ندم على ذلك، فأرسل إلى قومه أن سلوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟! ففعلوا، فأنزل الله الآية، فبعث بها إليه أخوه الجلاس مع رجلٍ من قومه، فأقبل إلى المدينة تائباً، وقبل رسول الله ﷺ توبته، وحَسُن إسلامه. ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ أي: ضمُّوا إلى التوبة الأعمال الصالحات. وهذا دليل على أنَّ التوبة إذا لم تُتبع بالعمل الصالح؛ فلا قيمة لها. قال تعالى في سورة (طه): ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾.

قال سليمان الجمل ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذا مشروع بيان تقسيم الكفار إلى ثلاثة أقسام: قسم تاب توبةً صحيحة، فنفعته توبته، كما هنا. وقسم تاب توبةً فاسدةً، فلم تنفعه، كما في الآية التالية. وقسم لم يتب أصلاً، كما يأتي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب على الاستثناء من واو الجماعة في الآية السابقة. ﴿تَابُوا۟﴾: فعل ماض، والواو فاعله، والألف للتفريق. والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾ متعلقان بما قبلهما، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له، وجملة: ﴿وَأَصْلَحُوا۟﴾ مع المفعول المحذوف معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: حرف عطف، وتفريع. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ خبران لـ (إنَّ) والجملة الاسمية مفرَّعة عمَّا قبلها، لا محلَّ لها أيضاً، وهذا الإعراب يجعل هذه الجملة لا ارتباط لها بما قبلها. والأَوْلى اعتبار الموصول مبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّ...﴾ إلخ في محل رفع خبره، ودخلت الفاء في الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم. ومضمون الجملة الاسمية: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ في محل نصب مستثنىً من مضمون الكلام السابق. والاستثناء متصل، أو منقطع حسبما رأيت في الشرح، ومثل هذه الآية في الإعراب الآية رقم [١٦٠] من سورة (البقرة) والآية [٦٠] من سورة (مريم) على نبينا، وحبيبنا، وعليها، وعلى ولدها ألف صلاة، وألف سلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾﴾

الشرح: ذكر الله في هذه الآية القسم الثاني من الناس، وهم الذين تابوا توبة فاسدةً، وهم اليهود، فإنَّهم كفروا بعيسى، وبالإنجيل بعد الإيمان بموسى، وبالتوراة، ثم ازدادوا كفراً بمحمَّد ﷺ وبالقرآن. أو: هم اليهود، والنصارى جميعاً، وذلك أنَّهم كفروا بمحمَّدٍ ﷺ لمَّا رأوه بعد إيمانهم به قبل مبعثه؛ لما ثبت عندهم من نعته، وصفته في كتبهم، ثمَّ ازدادوا كفراً بتبديلهم، وتحريفهم التوراة، والإنجيل. ومثل هذه الآية ما ذكره الله بشأن المنافقين في قوله تعالى في سورة (النساء): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا...﴾ إلخ.

﴿لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾: لقد اختلف المفسِّرون في معنى هذه الجملة، فقال الحسن البصري، وعطاء، وقتادة، والسدي: لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، وهو وقت الحشرجة؛ لأنَّ الله تعالى قال في سورة (النساء): ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: إنَّهم الذين ارتدوا، وعزموا على إظهار التوبة لستر أحوالهم، والكفر في ضمائرهم. وقال أبو العالية: هم قومٌ تابوا من ذنوبٍ عملوها في حال الشِّرك، ولم يتوبوا من الشِّرك، فإن توبتهم في حال الشرك غير مقبولة. وقيل غير ذلك. والأول أولى بالاعتبار. وانظر آية (النساء) رقم [١٧ و١٨]. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ أي: الخارجون عن منهج الحقِّ إلى طريق الغيِّ.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، وهو مضاف، و﴿إِيمَٰنِهِمْ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱزْدَادُواْ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿كُفْرًا﴾: تمييز. وقيل: مفعول به، ولا وجه له. ﴿لَّن﴾: حرف ناصب. ﴿تُقْبَلَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ ﴿لَّن﴾. ﴿تَوْبَتُهُمْ﴾: نائب فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مبتدأة لا محل لها. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [٨٢] والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، وهي مؤكدة لمضمونها.

تنبيه: لم تدخل الفاء في خبر: ﴿إِنَّ﴾ هنا. ودخلت في الآية التالية؛ لأنَّ الكلام فيها مبني على الشرط، والجزاء، وأنَّ سبب امتناع قبول الفدية هو الموت على الكفر بخلافه هنا؛ لأن الكلام مبتدأ، وخبر، ولا دليل فيه على التسبب، كما تقول: الذي جاءني له درهم. لم تجعل

المجيء سبباً في استحقاق الدرهم، بخلاف قولك: فله درهم. انتهى كشاف بتصرفٍ كبير. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢١].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

الشرح: هذه الآية تعمُّ جميع من مات على الكفر من اليهود، والنَّصارى، والوثنيين بأنَّ مأواهم جهنم، وبئس المصير، ولا يقبل من أحدهم فداء يفتدي به من عذاب الله، ولو كان بملء الأرض من ذهب. وهذا مبالغة في التيئيس، والتقنيط من رحمة الله، وعفوه. وذكَر الذهب؛ لأنه أعز الأشياء، وأغلاها، وهو على سبيل الفرض والتقدير؛ لأنَّ الملك يوم القيامة لله وحده، ولا يملك عبدٌ يومئذٍ مثقال ذرةٍ من تراب، ولا يقبل من الكافر شفاعةٌ، ولا يؤخذ منه عدل، قال تعالى في سورة (المائدة): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُواْ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. وقيل: معنى الآية: لو أن الكافر أنفق في الدنيا ملء الأرض ذهباً، ثم مات على كفره؛ لم ينفعه ذلك؛ لأنَّ الطاعة مع الكفر غير مقبولةٍ. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: مانعين يمنعونهم من عذاب الله.

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: يقول الله ـ عز وجل ـ لأَهْوَنِ أهل النَّار عذاباً يوم القيامة: «**لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الأَرْضِ مِنْ شَيءٍ؛ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نعمْ! فيقولُ اللهُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، وَأَخَذْتُ عليكَ فِي ظَهْرِ أَبِيكَ آدَمَ أَلَّا تُشْرِكَ بِي شَيْئاً، فَأَبَيتَ إِلَّا الشِّرْكَ**». أخرجه البخاريُّ، ومسلم. وهذا يتعارض ظاهره مع قوله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾.

ويجاب بأن آية (الأعراف) معناها الخضوع، والتذلل، وما في الحديث معناه: الانقياد والطاعة. بعد هذا؛ فالموت: انتهاء الحياة بخمود حرارة البدن، وبطلان حركته، وموت القلب: قسوته، فلا يتأثر بالمواعظ، ولا ينتفع بالنصائح.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسمها، وجملة: ﴿كَفَرُواْ﴾ مع المتعلَّق المحذوف صلة الموصول، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿وَهُمْ كُفَّارٌ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿فَلَن﴾: الفاء: صلة للتأكيد. (لن): حرف ناصب. ﴿يُقْبَلَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ (لن). ﴿مِنْ أَحَدِهِم﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِّلْءُ﴾: نائب فاعل، وهو مضاف، و﴿ٱلْأَرْضِ﴾: مضاف إليه. ﴿ذَهَبًا﴾: تمييز، وقال الكسائي: منصوب بنزع الخافض،

أي: من ذهب، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها بمنزلة البدل من الآية السابقة.

﴿وَلَوِ﴾: الواو: واو الحال. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿ٱفْتَدَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذُّر، والفاعل يعود على ﴿أَحَدِهِم﴾. ﴿بِهِۦٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب (لو) محذوف؛ إذ التقدير: لو افتدى به لا يقبل منه. و(لو) ومدخولها كلام معترض في آخر الكلام، واعتبار (لو) وصلية، والجملة الفعلية في محل نصب حال ضعيف. هذا؛ وقيل: الواو متممة. ولا وجه له بعد التقدير؛ الذي رأيته.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿لَهُمْ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ. هذا، وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ و﴿عَذَابٌ﴾ فاعلاً به؛ فهو كلام لا غبار عليه، والتقدير: أولئك ثابت لهم عذاب. وعلى كلٍّ فالجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٥٦] وهي معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، أو هي في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً باللام. والرابط: الواو، والضمير.

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾﴾

الشرح: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾: فُسِّرَ البرُّ بالجنَّة، والمعنى: لن تدخلوا الجنة، وتُعْطَوْها حتى تنفقوا ممَّا تحبُّون. وقيل: البرُّ: الطاعة، والعمل الصالح، وقد يستعمل في البرِّ حسنُ الصِّدق، وحسن الخلق؛ لأنَّهما من الخير المتوسَّع فيه. فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَلَيْكُمْ بالصِّدْقِ! فَإِنَّ الصِّدْقَ يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرِّ يهدي إلى الجنَّةِ، وما يزال الرجلُ يَصدُقُ، ويَتَحرَّى الصِّدْقَ؛ حتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقاً. وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ! فَإِنَّ الكذبَ يَهْدِي إلى الفُجُورِ، وَإِنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ، وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ؛ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ كَذَّاباً**». رواه الشَّيخان، وغيرهما.

﴿حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ أي: من جيد أموالكم، وأنفسها عندكم. وقد نهى الله عن التصدُّق بالرديء، قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٦٧]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ...﴾ إلخ. هذا؛ والمراد: الصدقات في

وجوه الخيرات كلها. ﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ﴾ يعني: من أيِّ شيءٍ كان، من طيبٍ تحبُّونه، أو من خبيثٍ تكرهونه، فإنَّ الله يعلمه.

بعد هذا، فخذ ما يلي: عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحبَّ أموال إليه بيرُحَاءُ، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها، ويشرب من ماءٍ فيها عذبٍ. قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: فلمَّا نزل قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ قام أبو طلحة، وقال: يا رسول الله! إنَّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ...﴾ إلخ، وإنَّ أحبَّ أموالي إلي «**بيرحاء**» وإنَّها صدقة لله، عزَّ، وجل.

أرجو برَّها، وذُخرها عند الله، فضعها يا رسول الله! حيث أراك الله. فقال رسول الله ﷺ: «**بَخْ بَخْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ**». فهذه كلمة تقال عند المدح، والرضا، وتكريرها للمبالغة، وهي مبنية على السكون، فإذا وُصِلَت جُرَّت، ونوِّنت: فقلت: بَخٍ بَخٍ.

هذا، وقد تبرَّع كثيرٌ من الصحابة في سبيل الله ممَّا يحبُّون، منهم: عمر بن الخطاب، وزيد ابن حارثة، وأبو ذر الغفاري ـ رضي الله عنهم ـ وروي: أنَّ عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ كان يشتري أعدالاً من سكر، ويتصدَّق بها، فقيل له: هَلَّا تصدَّقت بقيمتها؟ فقال: لأنَّ السكر أَحَبُّ إِلَيَّ، فأردت أن أنفق ممَّا أحبُّ.

الإعراب: ﴿لَن تَنَالُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلْبِرَّ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿تُنفِقُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» المضمرة، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، و«أن» المضمرة، والفعل: ﴿تُنفِقُواْ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿تَنَالُواْ﴾. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، و(ما): تحتمل الموصولة، والموصوفة، وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلقين بمحذوف صفة مفعول به محذوف، التقدير: حتى تنفقوا شيئاً كائناً من الذي تحبونه؛ فلا بأس به.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف.(ما): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدَّم. ﴿تُنفِقُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِن شَيْءٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال مِنْ (ما)، و﴿مِن﴾ بيان لما أبهم فيها. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر: (إنَّ). والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط. . . إلخ، والجملة الشرطية مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿۞كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٩٣﴾

الشرح: سبب نزول هذه الآية، والتي بعدها: أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: إنَّك تزعم: أنك على ملَّة إبراهيم، وكان إبراهيم لا يأكل لحوم الإبل، وألبانها، وأنت تأكل ذلك كلَّه، فلست على ملَّته، فقال النبي ﷺ: «كان ذلك حلالاً لإبراهيم». قالوا: كلُّ ما تحرمه التوراة اليوم كان ذلك حراماً على نوح، وإبراهيم حتَّى انتهى إلينا. فأنزل الله عز وجل: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾.

المعنى: ليس الأمر على ما تدَّعيه اليهود من تحريم لحوم الإبل على إبراهيم، بل كان ذلك حلالاً على إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، وإنَّما حرمه يعقوب ـ عليه السلام ـ بسبب من الأسباب، وبقيت تلك الحرمة في أولاده. فأنكر اليهود ذلك، فأمرهم رسول الله ﷺ بإحضار التوراة، وطلب منهم أن يستخرجوا منها: أن ذلك كان حراماً على إبراهيم عليه السلام، فعجزوا عن ذلك، وافتضحوا وبَان كذبُهم فيما ادعوا من حرمة هذه الأشياء على إبراهيم، وفي هذا دليل على صحة نبوَّة محمد ﷺ؛ لأنه كان أميَّاً لم يقرأ الكتب، ولم يعرف ما في التوراة، فلمَّا أخبر: أن ذلك ليس في التوراة؛ علم: أنَّ الذي أخبر به ﷺ وحيٌ من الله تعالى. وفيه دليل على جواز نسخ الأحكام، وتغييرها؛ لأنَّ اليهود كانوا ينكرونه.

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ﴾ أي: كل أنواع الطعام، أو سائر المطعومات. ﴿حِلًّا﴾: مصدر أخبر به عن جمع، فهو يستوي فيه المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث. ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ﴾: فقد روى الطَّبريُّ بسنده عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ عصابةً من اليهود حضرت عند رسول الله ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم! أيُّ الطعام حَرَّم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تعلمونَ أَنَّ إسرائيلَ مَرِضَ مَرضاً شَدِيداً، فَطَالَ سَقَمُهُ مِنْهُ، فنذر لله نَذْراً: لَئِنْ عَافَاهُ اللهُ مِنْ سَقَمِهِ؛ لَيُحَرِّمَنَّ أَحبَّ الطَّعام، والشَّرابِ إليهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطعام إليهِ لحمُ الإبل، وَأَحَبُّ الشرابِ إليهِ ألبانُهَا؟ فقالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ! وكان سبب ذلك: أنه اشتكَى عِرْقَ النَّسَا**» وهو عرقٌ يخرج من الوَرِك، فيستبطنُ الفخذين، ثم يمرُّ بالعرقوب؛ حتى يبلغ الحافر.

﴿قُلۡ فَأۡتُواْ بِٱلتَّوۡرَىٰةِ فَٱتۡلُوهَآ﴾ فلم يأتوا بالتوراة إلى رسول الله ﷺ. فثبت كذبهم، وافتراؤهم، فبهتوا، ولعنوا بما قالوا. ونزلت الآيات رقم [١٦٠]: وما بعدها من سورة (النساء) تُبيِّن: أن هذا التَّحريم كان عقوبةً لليهود بسبب ظلمهم، ومخالفتهم لأوامر ربِّهم، وكان ذلك في زمن موسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام.

بعد هذا، فقد أخرج ابن ماجه في سننه ما يلي: عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**شِفَاءُ عِرْقِ النِّسَا أَلْيَةُ شاةٍ أعرابيةٍ تُذَابَ، ثم تُجَزَّأُ ثلاثةَ أَجْزَاءٍ، ثُمَّ يُشْرَبُ على الرِّيق في كلِّ يَوْمٍ جُزْءٌ**». قال أنس ـ رضي الله عنه ـ: فوصفته لأكثر من مئة، فبرأ بإذن الله تعالى، وقال شعبة: حدَّثني شيخ في زمن الحجَّاج بن يوسف في عرق النَّسا: (أَقْسِمُ لَكَ بِاللهِ الأَعْلَى لَئِنْ لَمْ تَنْتِهِ؛ لأَكْوِيَنَّكَ بِنَارٍ، وَلأَحْلِقَنَّكَ بِمُوسَى!)، ويمسح على ذلك الموضع.

هذا؛ و(بني) أصله: بنين، حذفت النون للإضافة، وهو جمع: ابن مأخوذ من البناء؛ لأن الابن مبنى أبيه، ولذلك ينسب المصنوع إلى الصَّانع، وأصله بُنَيٌّ. وقيل: بَنَوٌ، وتصغيرها على الأول بُنَيٌّ، وعلى الثاني بُنَيْوٌ، ثم يقال فيه: قلبت الواو ياءً، ثم أدغمت في الياء. فصار بُنَيّ. ﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هو نبي الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، على نبيِّنا، وحبيبنا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام، ومعناه في العربية: صفوة الله، أو عبد الله، فـ (إسرا) هو: العبد، أو: الصفوة، و(إيل) هو: الله، وفيه سبع لغات. قرئ بها كلِّها، وتميم يقولون: إسرائين. قال الشاعر، انظر الشاهد [٣٣٢] من كتابنا: «فتح رب البرية» وما يتعلَّق به: [الرجز]

قَالَتْ وَكُنْتُ رَجُلاً قَطِينَا ... هذا لَعَمْرُ اللهِ إسرائينا

الإعراب: ﴿كُلُّ﴾: مبتدأ وهو مضاف، و﴿ٱلطَّعَامِ﴾ مضاف إليه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿كُلُّ﴾. ﴿حِلًّا﴾: خبره، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿لِّبَنِيٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿حِلًّا﴾ أو بمحذوف صفة له، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و(بني): مضاف، و﴿إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب على الاستثناء من اسم: ﴿كَانَ﴾ وجوَّز أبو البقاء اعتباره مستثنىً من الضمير المستتر في: ﴿حِلًّا﴾. ﴿حَرَّمَ﴾: فعل ماض. ﴿إِسْرَٰٓءِيلُ﴾: فاعله. ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: متعلِّقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: إلا الذي، أو: شيئاً حرَّمه إسرائيل. ﴿مِن قَبْلِ﴾: متعلقان بـ ﴿حَرَّمَ﴾ وقيل: متعلقان بـ ﴿كَانَ حِلًّا﴾. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿تُنَزَّلَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ ﴿أَن﴾. ﴿ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾: نائب فاعله، والمصدر المؤول من: ﴿أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ﴾ في محل جر بإضافة: ﴿قَبْلِ﴾ إليه، التقدير: من قبل تنزيل التوراة.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿فَأْتُواْ﴾: الفاء: صلة. (ائْتُوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِٱلتَّوْرَىٰةِ﴾: متعلقان بما قبلهما،

والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. هذا؛ وإن اعتبرت الفاء الفصيحة تفصح عن شرط مقدر، التقدير: قل: إذا كان ما تدَّعونه صحيحاً؛ فأتوا بالتوراة؛ فالكلام كلُّه في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿فَٱتْلُوهَآ﴾ معطوفة على ما قبلها. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبره منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة الشرطية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾

الشرح: ﴿فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ...﴾ إلخ: الافتراء: اختلاق الكذب، والفجور، والإفساد في الأرض. مأخوذ من: فرى الأديم: إذا قطعه. ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: من بعد ظهور الحجَّة بأنَّ التحريم إنَّما كان من جهة يعقوب، ولم يكن محرَّماً مِنْ قَبْلِهِ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: المعتدون، المتجاوزون الحقَّ إلى الباطل، المستحقُّون للعذاب الأليم، والعقاب الشديد؛ لأنَّ كفرهم ظلم منهم لأنفسهم، ولمن أضلُّوه عن الدِّين مِنْ بعدهم.

بعد هذا فالآية الكريمة تُشنِّع على اليهود كذبهم، وافتراءهم، وقبائح أعمالهم، فتصفهم بأنَّهم كاذبون، والكذب ديدنهم، وصفةٌ لازمة لهم في ماضيهم، وحاضرهم. والكذب من أفحش الذنوب الكبار، ومن أخبث ما يتصف به إنسان، وأبرز صفات المنافقين. هذا؛ فقد حذَّر القرآن الكريم منه، والرَّسول ﷺ حذَّر منه؛ ولو في المزاح، والضَّحك، ومهما دعت الحاجة إليه؛ لأنَّ فيه الهلاك، وفي الصِّدق النَّجاة. وخذ ما يلي:

فعن منصور بن المعتمر ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«تحرَّوْا الصِّدْقَ ـ وَإِنْ رَأَيْتُمْ: أَنَّ الْهَلَكَةَ فِيْهِ ـ فَإِنَّ فِيهِ النَّجَاةَ»**. رواه ابن أبي الدنيا. وقال الشاعر: [السريع]

عَلَيْكَ بِالصِّدْقِ، وَلَوْ أَنَّهُ ... أَحْرَقَكَ الصِّدْقُ بِنَارِ الوَعِيدِ

واعتبر الرَّسول ﷺ الكذب من أبرز صفات المنافقين مع الخيانة، والفجور، وخلف الوعد، ولا يكذب إلا حقيرٌ مهين، لا كرامة له بين الناس، قال الشاعر: [البسيط]

لَا يَكْذِبُ الْمَرْءُ إِلَّا مِنْ مَهَانَتِهِ ... أَوْ فِعْلِهِ السُّوءَ أَوْ مِنْ قِلَّةِ الأَدَبِ

لَبَعْضُ جِيفَةِ كَلْبٍ خَيْرُ رَائِحَةً ... مِنْ كَذْبَةِ الْمَرْءِ فِي جِدٍّ وَفِي لَعِبِ

وعن صفوان بن سليم ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل: يا رسول الله! أيكونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانَاً؟ قال: «نَعَمْ» قيل لَهُ: أيكونُ المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعمْ». قيل له: أيكون المؤمن كذَّاباً؟ قال: «لا!». وهذا الحديث ضعيف، رواه مالك هكذا مرسلاً.

هذا؛ وقال تعالى في سورة (النَّحل) رقم [١٠٥] ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ ورحم الله من قال: [البسيط]

عَـوِّدْ لِسَـانَـكَ قَـوْلَ الـصِّـدْقِ تَـحْـظَ بِـهِ إِنَّ الـلِّـسَـانَ لِـمَـا عَـوَّدْتَ مُـعْـتَـادُ

الإعراب: ﴿فَمَنِ﴾: الفاء: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱفْتَرَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف في محلِّ جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) على الله: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْكَذِبَ﴾: مفعول به. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الكذب، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾ اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾: انظر مثلها في الآية رقم [٨٢]: والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور. وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه، كما ذكرته لك مراراً. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهو مبتدأ، والجملة الفعلية بعده صلته، والجملة الاسمية: (أولئك...): خبره، ودخلت الفاء على الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم. والجملة اسمية على الاعتبارين، وهي تحتمل الاستئناف، فلا محل لها، وتحتمل العطف على جملة: ﴿فَأْتُوا۟...﴾ إلخ في الآية السابقة، فتكون من جملة مقول القول.

﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾

الشرح: ﴿قُلْ﴾: خطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ. ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ فيما أخبر: أن لحوم الإبل، وألبانها كانت محلَّلة لإبراهيم، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وإنَّما حرَّمها يعقوب ـ عليه السلام ـ على نفسه، وعلى ذرِّيته للسَّبب الذي ذُكِرَ في الآية السابقة، وكما ذكر الله في سورة (النساء) أنَّ الله حرَّم على اليهود أشياء كثيرةً بفسادهم، وخروجهم عن طاعة ربِّهم، ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي: اتبعوا ما يدعوكم إليه محمَّد ﷺ من ملَّة إبراهيم، وهي الدِّين الصَّحيح، وهو الإسلام. هذا؛ و(المِلَّة): الطريقة، والشريعة، والدِّين. وهي بفتح الميم: الرَّماد الحار. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لم يَدْعُ مع الله إلهاً آخر، ولا عبد سواه.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ ماض، وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿فَٱتَّبِعُوا۟﴾: الفاء: هي الفصيحة. (اتبعوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِلَّةَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والعجمة. ﴿حَنِيفًا﴾: حال من: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾. وجاز مجيء الحال من المضاف إليه؛ لأنَّ المضاف كجزء منه. انظر ما ذكرته في

الآية رقم [٨٣]. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾. ﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل نصب حال مِنْ: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ والرابط: الواو، والضمير، وهي حال متعدِّدة، ومؤكِّدة لما قبلها.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ...﴾ إلخ سبب نزول الآية: أن اليهود قالوا للمسلمين: بيت المقدس قبلتُنا، وهو أفضل من الكعبة، وأقدم، وهو مهاجَر الأنبياء، وقبلتهم، وأرض المحشر. فقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله الآية. ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أي: جعله الله موضعاً للطَّاعات، والعبادات، وقبلةً للصلاة، وموضعاً للحجِّ، وللطواف، تزداد فيه الخيرات، وثواب الطاعات، والنَّاس فيه سواء، كما قال تعالى في سورة (الحجِّ): ﴿جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾. وقوله ﴿لَلَّذِى﴾ أي: لَلْبيت الَّذي ببكة، وفي حذف الموصوف من التفخيم، والتعظيم مالا يخفى.

﴿بِبَكَّةَ﴾ قيل: هي مكة نفسها، والعرب تعاقب بين الباء، والميم، مثل: ضربة لازب، ولازم. وقيل: (بكة) اسم لموضع البيت، و(مكة) اسم للبلد، وقال: محمد بن شهاب: (بكة): المسجد، ومكة: الحرم كلُّه تدخل فيه البيوت. هذا، وقد ذكروا لمكَّة أسماء كثيرةً: مكَّة، وبكَّة، والبيت العتيق، والبيت الحرام، والبلد الأمين، وأمُّ القرى، والنَّاوس؛ لأنَّها تطهِّر من الذنوب، والمقدَّسة، والحاطمة، والرأس، والبلدة، والبَنِيَّة، والكعبة. هذا؛ وقيل: (بكَّة) مشتقة من البك، وهو الازدحام، وسمِّيت (بكة) لازدحام الناس في موضع طوافهم. وقيل: سميت بذلك؛ لأنَّها كانت تدق رقاب الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلمٍ. والبكُّ: دق العنق. قال عبد الله ابن الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ: لم يقصدها جبَّار بسوءٍ؛ إلا وقصمه الله، عزَّ، وجل. وأمَّا مكَّة؛ فقيل: إنها سميت بذلك؛ لأنَّها تمكُّ المخَّ من العظم مِمَّا ينال قاصدها من المشقة.

واختلف العلماء في كون البيت أوَّل بيتٍ وضع الناس على قولين: أحدهما: أنَّه أوَّلٌ في الوضع، والبناء. قال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: خلق الله هذا البيت قبل أن يخلق شيئاً من الأرضين. وهذا قول ابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والسُّدي. وعن عليِّ بن الحسين بن عليٍّ ـ رضي الله عنهم ـ: أنَّ الله تعالى وضع تحت العرش بيتاً، وهو البيت المعمور، وأمر الملائكة أن يطوفوا به، ثمَّ أمر الملائكة الذين في الأرض أن يبنوا بيتاً في الأرض على مثاله، وقدره، فبنوا هذا البيت، واسمه الضراح، وأمر مَنْ في الأرض أن يطوفوا به، كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور. انظر شرح (البيت المعمور) في سورة (الطور). وروي: أن الملائكة بنوْه قبل خلق آدم بألفي عام، وكانوا يحجُّونه، فلمَّا حجَّه آدم؛ قالت الملائكة: برَّ حجُّك يا آدم! لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام. هذا؛ و(البيت) اسمٌ غالب للكعبة، كالنَّجم للثريَّا.

القول الثاني: أنَّ المراد من الأوليَّة كون هذا البيت أوَّل بيتٍ، وضع للنَّاس مباركاً. ويدلُّ عليه سياق الآية. وسئل عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: أهو أول بيت وضع في الأرض؟ قال: لا، قد كان قبله بيوت كثيرة، ولكنَّه أول بيت وضع للناس مباركاً، وهدىً، وفيه مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمناً.

عن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! أَيُّ مسجدٍ وضع أَوَّلُ؟ قال: «**الْمَسْجِدُ الْحَرَامُ**». قلت ثم: أيٌّ؟ قال: «**الْمَسْجِدُ الأَقْصَى**». قلت: كم بينهما؟ قال: «**أَرْبَعُونَ سَنَةً**». قلت: ثمَّ أَيٌّ؟ قال: «**حَيْثُ أَدْرَكَتْكَ الصَّلَاةُ فَصَلِّ، فَكُلُّهَا مَسْجِدٌ**». رواه الإمام أحمد، وأخرجه الشيخان بنحوه، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**صَلاةٌ فِي مَسْجِدَي هَذَا أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ صَلَاةٍ فِيمَا سِوَاهُ إِلَّا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ**». متفق عليه.

وعن أبي الدَّرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بِمِئَةِ أَلْفِ صَلَاةٍ، وَالصَّلَاةُ بِمَسْجِدِي هَذَا بِأَلْفِ صَلَاةٍ، وَالصَّلَاةُ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ بِخَمْسِمِئَةِ صَلَاةٍ**». الطَّبراني.

هذا؛ و(الأول) هو الفرد السَّابق المتقدِّم على ما سواه. وقيل: هو اسم للشيء الذي يوجد ابتداءً، سواءٌ حصل عقبه شيءٌ آخر، أو لم يحصل، وفيه مسائل: الأولى: أنَّ أصله: أَوْ أل بوزن أفعل، قلبت الثانية واواً، ثم أدغمت بما قبلها، فصار: أَوَّل، بدليل قولهم في الجمع: أوائل. وقيل: أصله: وَوَّل بوزن فوْعل، قلبت الأولى همزة، وإنَّما لم يجمع على وأوائل لاستثقالهم اجتماع الواوين بينهما ألف الجمع.

الثانية: الصحيح: أنَّ أوَّل لا يستلزم ثانياً، وإنَّما معناه: ابتداء الشيء، ثم قد يكون له ثانٍ، وقد لا يكون، تقول: هذا أوَّل مالٍ اكتسبته، وقد تكتسب بعده شيئاً، وقد لا تكتسب. وقيل: إنَّه يستلزم ثانياً، كما أنَّ الآخر يقتضي أوَّلاً، فلو قال: إن كان أول ولد تلدينه ذكراً؛ فأنت طالق، فولدت ذكراً، ولم تلد غيره وقع الطَّلاق على الأول، دون الثاني.

الثالثة: لـ (أول) استعمالان: أحدهما: أنه يكون صفة؛ أي: أفعل تفضيل بمعنى: الأسبق، فيعطى هذا حكم أفعل التفضيل، من منع الصرف، وعدم تأنيثه بالتاء، ودخول مَنْ عليه، نحو هذا أول هذين، ولقيته عاماً أَوَّلَ. والثاني: أنه يكون اسماً مصروفاً، نحو لقيته عاماً أَوَّلاً، ومنه قولهم: ماله أَوَّلٌ، ولا آخرٌ.

قال أبو حيان ـ رحمه الله تعالى ـ: في محفوظي: أنَّ (أَوَّل) يؤنث بالتاء، ويصرف أيضاً، فيقال: أولةٌ، وآخرةٌ بالتنوين. انتهى همع الهوامع شرح جمع الجوامع للسُّيوطي، رحمه الله تعالى.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿أَوَّلَ﴾: اسمها، وهو مضاف، و﴿بَيْتٍ﴾ مضاف إليه.

﴿وُضِعَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والفاعل يعود إلى بيت، والجملة الفعلية في محل جر صفة ﴿بَيْتٍ﴾. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿لَلَّذِى﴾: اللام: هي المزحلقة. (الَّذي): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿بِبَكَّةَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صلة الموصول، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والتأنيث. ﴿مُبَارَكًا﴾: حال من: (الَّذي) أو من الضمير المستتر في متعلق الظرف. وقيل: من نائب فاعل ﴿وُضِعَ﴾ أفاده مكيٌّ، وهو ضعيف. ﴿وَهُدًى﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والثابتة دليل عليها، وليست عينها. ﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾: متعلقان بهدىً، أو بمحذوف صفة له، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، والنون عوضٌ من التنوين في الاسم المفرد.

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾

الشرح: ﴿فِيهِ﴾: في البيت المذكور في الآية السابقة. ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾: دلائل واضحات على حرمته، ومزيد فضله، ومن تلك الآيات: ﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ أي: الحجر الذي قام عليه عند بناء البيت، فأثَّرت قدماه فيه، وغاصتا إلى القدمين، وبقي إلى الآن مع تطاول الزَّمان، وتداول الأيدي عليه. ومنها: تضعيف الحسنات للأعمال الصَّالحات، ومنها: انحراف الطُّيور عن موازاتها، فلا تعلوه على مدى الأعصار، ومنها: أنَّ كلَّ جبَّارٍ قصده بسوء قصمه الله، كما فعل الله بأصحاب الفيل. ومنها: أنَّ الوحوش لا تؤذي بعضها في الحرم؛ حتَّى الكلاب لا تُهيج الظِّباء، ولا تصطادها. ومنها: أنَّ الطير إذا مرض منه شيء استشفى بالكعبة، ومنها: تعجيل العقوبة لمن انتهك حرمة هذا البيت. ومنها: أنَّ الغيث إذا كان ناحية الرُّكن اليماني كان الخصب في اليمن، وإذا كان بناحية الشَّام كان الخصب بالشَّام، وإذا عمَّ البيت كان الخصب في جميع البلدان، ومن الآيات التي فيه: الحجر الأسود، والملتزم، وزمزم، والحطيم، ومشاعر الحج؛ التي فيه؛ كلُّها من الآيات. ومنها: أنَّ الآمر ببناء هذا البيت هو الجليل، والمهندس له جبريل، والباني هو إبراهيم الخليل، والمساعد في بنائه هو إسماعيل. فهذه فضيلةٌ عظيمة لهذا البيت، وخذ قول أبي طالب: [الطويل]

وَمَوْطِىءُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ ... عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِياً غَيْرَ نَاعِلِ

هذا؛ و﴿مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ هو الحجر الَّذي وقف عليه عند بناء الكعبة المعظَّمة، كما رأيت، وأصله من الجنَّة كالحجر الأسود. وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ الرُّكنَ، والمقامَ ياقوتتانِ مِنْ ياقوتِ الجَنَّةِ، طَمَسَ اللهُ نُوْرَهُمَا، وَلَوْ لَمْ يَطْمِسْ نُورَهُمَا؛ لأضاءتا ما بَيْنَ الْمَشْرِقِ، وَالْمَغْرِبِ**». أخرجه الترمذيُّ. وقال: هذا يروى عن ابن عمر موقوفاً.

وأصل مقام: مَقْوَم، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علَّة متحرك، والحرف الصَّحيح أولى بالحركة من حرف العلَّة، فنقلت حركة الواو إلى القاف قبلها بعد سلب سكونها. ثمَّ قل: تحركت الواو بحسب الأصل، وانفتح ما قبلها الآن، فقلبت ألفاً.

﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ على نفسه، وماله، ودمه من أن يُهاج فيه، وكان العرب يقتل بعضهم بعضاً، ويغير بعضهم على بعض، وكان من دخل الحرم؛ أمن من القتل، والغارة. وهو المراد من حكم الآية على قول أكثر المفسرين. قال تعالى في سورة (العنكبوت) رقم [٦٧]: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾؟ وقيل: هو خبر بمعنى الأمر: أي: ومن دخله فأمِّنوه. وهو قول ابن عبَّاس، رضي الله عنهما، فيكون خاصّاً بالمسجد الحرام، حتى ذهب أبو حنيفة - رحمه الله - إلى أنَّ من وجب عليه القتل قصاصاً كان، أو حدّاً، فالتجأ إلى الحرم؛ فإنه لا يستوفى منه القصاص، أو الحد فيه، لكنَّه لا يطعم، ولا يبايع، ولا يشارى، و يكلَّم، ويضيَّق عليه؛ حتى يخرج منه، فيقام عليه الحدُّ خارج المسجد. انتهى خازن، وقرطبي. وفنَّد رأيه القرطبي.

وقال الشافعي - رحمه الله تعالى -: إذا وجب عليه القصاص خارج الحرم، ثم لجأ إلى الحرم؛ استوفي منه في الحرم. وأجمعوا على: أنَّه لو قتل في الحرم، أو سرق، أو زنى؛ فإنه يستوفى منه الحدُّ عقوبةً له. وقد أمر الرسول ﷺ بقتل ابن خطل، وهو متعلق بأستار الكعبة. ولا تنس: أن إبراهيم - على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام - قد دعا الله أن يجعل هذا البلد آمناً في سورة (البقرة): ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾.

وفي بيان هذا الأمن قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: «**إنَّ هَذَا البلدَ حَرَّمَهُ اللهُ يَوْمَ خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، فهو حَرَامٌ بحرمةِ اللهِ إِلَى يَوْمِ القيامةِ، لا يُعضَدُ شَوْكُهُ، ولا يُصَادُ صَيْدُهُ، وَلَا تُلْتَقَطُ لقطتُه إِلَّا مَنْ عَرَّفَهَا، وَلَا يُخْتَلى خَلَاهُ**». فقال العبَّاس - رضي الله عنه -: يا رسول الله! إلا الإذخر، فإنَّه لقينهم، ولبيوتهم. فقال: «**إِلَّا الإِذْخِرَ**». أخرجه الشَّيخان عن ابن عباس - رضي الله عنهما -. والقين: الحداد. ويختلى خلاه: يقطع النبات؛ الَّذي ينبت بنفسه، أمَّا ما يزرعه الآدميُّون؛ فلا يمنع من قطعه، وخلعه.

تنبيه: - ذكر الله سبحانه آيتين من الآيات الكثيرة في الآية الكريمة، وطوى غيرهما، فلم يذكره؛ ليدلَّ على تكاثر هذه الآيات. ونحوه في الطيِّ قول الرسول ﷺ: «**حُبِّبَ إِلَيَّ مِنْ دُنْيَاكُمْ ثَلَاثٌ، الطِّيبُ، والنِّسَاءُ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاةِ**» فـ «**قرة عيني**» ليس من الثلاث، بل هو ابتداء كلام؛

لأنَّها ليست من الدُّنيا، والثالث مطويٌّ، وكأنَّه ﷺ ترك ذكر الثالث تنبيهاً عل أنَّه لم يكن من شأنه أن يذكر شيئاً من الدُّنيا، فذكر شيئاً من الدِّين. ونحوه في طيِّ الذكر قول جرير: [البسيط]

كَانَتْ حَنِيفَةُ أَثْلاَثاً فَثُلْثُهُمُو مِنَ الْعَبِيدِ، وَثُلْثٌ مِنْ مَوَالِيهَا

فلم يذكر الثُّلث الثالث.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ...﴾ إلخ أي: يجب على النَّاس أن يحج البيت منهم المستطيع. وقد فسَّر الرسول ﷺ الاستطاعة بوجود الزَّاد، والرَّاحلة. فقد روى الترمذيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ عن الحارث، عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ مَلَكَ زَاداً، أَوْ رَاحِلَةً تُبَلِّغُهُ إِلَى بَيْتِ اللهِ، ولَمْ يَحجَّ؛ فلا عليه أن يموتَ يهوديّاً، أَو نصرانيّاً**». وذَلِكَ: أَنَّ اللهَ يَقُولُ في كتابه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. وروي نحوه عن أبي أمامة، وعمر، رضي الله عنهما.

هذا؛ ويشترط لوجوب الحج أن يكون الطريق آمناً، فإن كان فيه خوفٌ من عدوٍّ مسلمٍ، أو كافرٍ، أو رصديٍّ يطلب الخفارة؛ لا يلزمه، وكذا إن احتاج لدفع رشوةٍ، كما في هذه الأيَّام.

وعن عبد الله بن جبير ـ رضي الله عنهما ـ عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ، قال في خطبته: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الله فَرَضَ الحجَّ عَلَى مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيهِ سَبِيلاً، وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ؛ فليمتْ عَلى أَيِّ حَالٍ شَاءَ، إِنْ شَاءَ يَهوديّاً، أو نصرانيّاً، أو مجوسيّاً، إِلَّا أَنْ يَكُونَ بِهِ عُذْرٌ مِنْ مَرَضٍ، أَو سُلْطَانٍ جَائرٍ، لَا نَصِيبَ لَهُ فِي شَفَاعتي، وَلَا وُرُودِ حَوْضِي**». وقد كان الحجُّ عند العرب معلماً عندهم؛ مع كونهم كانوا يعبدون الحجارة، والأوثان، وكان لهم في أيام الحجِّ أسواقٌ معلومةٌ، ينتفعون فيها.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**أَيُّهَا النَّاسُ! قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيْكُم الْحَجَّ، فحجُّوا**». فقال رجل: كلَّ عام يا رسول الله؟! فسكت؛ حتى قالها الرَّجل ثلاثًا، فقال ﷺ: «**لَوْ قُلْتُ: نَعَمْ؛ لَوَجَبَتْ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ**». ثم قال: «**ذَرُوْنِي مَا تَرَكْتُكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بكثرةِ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ؛ فائتوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ. وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ؛ فَدَعُوهُ**». متَّفق عليه.

بعد هذا في الاستطاعة وجهان: أن يكون مستطيعاً ببدنه، واجداً من ماله ما يبلغه الحج. والثاني: أن يكون معضوباً في بدنه، لا يثبت على مركبه، وهو قادر على من يطيعه إذا أمره أن يحج عنه بأجرةٍ، أو بغير أجرةٍ بعد هذا: فالحج على التَّراخي ما لم يضيق الوقت، وضيق الوقت هو: أن يناهز القادر على مؤونة الحجِّ الستِّين من عمره؛ لأن النبيَّ ﷺ قال: «**أَعْمَارُ أُمَّتِي مَا بَيْنَ السِّتِّينَ إلى السَّبْعِينَ، وَقَلَّ مَنْ يَتَجَاوَزَهَا**». فكأنَّه في هذا العشر قد يتضايق عليه الخطاب، وقال رسول الله ﷺ: «**معتركُ أمتي مِنَ الستِّين إلى السَّبعين، وقلَّ مَنْ يَتَجَاوَزُ ذَلِكَ**».

وإذا اعترض عليه الحجُّ، والزَّواج لنفسه، أو لولده؛ بمعنى: لا يقدر على تنفيذ الأمرين معاً في عامٍ واحدٍ، فليقدِّم الزواج لنفسه، أو لولده غضّاً للبصر، وتحصيناً للفرج، ولا اعتبار لمن يتحجَّج بقوله: الحِجَاز قبل الزَّواج.

وخذ ما يلي: عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ رَزَقَهُ اللهُ امْرَأَةً صَالِحَةً؛ فَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى شَطْرِ دِينِهِ، فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي الشَّطْرِ الْبَاقِي**». رواه الطبرانيُّ، والحاكم. وفي روايةٍ للبيهقي؛ قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا تَزَوَّجَ الْعَبْدُ؛ فَقَدِ اسْتَكْمَلَ نِصْفَ الدِّينِ، فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي النِّصْفِ الْبَاقِي**». والعبد يشمل الذَّكر، والأنثى، والزَّوجة، والزَّوج أصبح كلٌّ منهما لصاحبه ـ في هذا الزمن الفاسد أهلُه ـ الدينَ كلَّه، كيف لا؟! ورُّبنا يقول: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾.

﴿وَمَن كَفَرَ...﴾ إلخ. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي: ومن جحد فريضة الحجِّ؛ فقد كفر، والله غنيٌّ عنه، ويدخل في ذلك اليهود، وغيرهم من الملل الضالَّة؛ الَّتي تدَّعي الإسلام، ولا تؤدي فريضة الحجِّ، ولقد وضعت الجملة موضع: «**ومن لم يحج**» تأكيداً لوجوبه، وتشديداً على تاركه، وتغليظاً عليه. وخذ ما يلي:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: كان الفضل بن عباس رديف النَّبي ﷺ، فجاءته امرأة خَثْعَم تستفتيه، فجعل الفضل ينظر إليها، وتنظر إليه، فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه الفضل إلى الشِّقِّ الآخر، قالت: يا رسول الله! إنَّ فريضة الله على عباده في الحجِّ أدركت أبي شيخاً كبيراً، لا يستطيع أن يثبُت على الراحلة، أفأحجُّ عنه؟ قال: «**نعم**» وذلك في حجة الوداع. أخرجاه في الصَّحيحين.

فقه هذا الحديث: إن كان المتوفَّى قبل أن يحجَّ قادراً على الحج ماديّاً؛ فيجب على ورثته أن يخرجوا حجَّته من رأس ماله وجوباً، وإن كان فقيراً، فإن فعل الوارث ذلك؛ فهو من باب التبرُّع، وله أجره إن شاء الله تعالى. وخذا ما يلي في التَّرغيب في الحجِّ.

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**العمرةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا، وَالْحَجُّ المبرورُ لَيْس لَهُ جزاءٌ إِلَّا الْجَنَّةَ**». متَّفق عليه. وعن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**تَابِعُوا بَيْنَ الْحَجِّ، والْعُمْرَةِ، فَإِنَّهمَا يَنْفيَان الذُّنوبَ، والفقرَ، كما يَنْفِي الكيرُ خبَثَ الْحَدِيدِ، والذهبِ، والفضَّةِ. وَلَيْسَ لحجةٍ مبرورةٍ ثوابٌ إِلَّا الْجَنَّةُ. وَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَظَلّ يَوْمَهُ مُحْرِماً إِلَّا غَابَتِ الشَّمْسُ بِذُنُوبِهِ**». أخرجه الترمذيُّ. وله عن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى مَا عَنْ يَمِينِهِ، وَشِمَالِهِ مِنْ حَجَرٍ، أَوْ شَجَرٍ، أَوْ مدَرٍ، حَتَّى تَنْقَطِعَ الأَرْضُ مِنْ هاهنا، وهاهنا**». وعن النبي ﷺ قوله: «**مَنْ مَاتَ فِي أَحَدِ الحرمَيْنِ؛ بُعِثَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آمِناً**». وعنه ﷺ: «**الحجونُ، والبقيعُ يُؤْخَذُ بأَطْرافِهِمَا، وَيُنْثَرَانِ فِي الجَنَّةِ**». وهما مقبرتا مكَّة، والمدينة. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: وقف رسول الله

ﷺ على ثنيَّة الحجون، وليس فيها يومئذٍ مقبرةٌ، فقال: «**يَبْعَثُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ هَذِهِ البقعة، ومِنْ هَذَا الْحَرَمِ كُلِّهِ سَبْعِين ألفاً، وُجُوهُهُمُ كالقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، يدخُلُون الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، يَشْفَعُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي سَبْعِين ألفاً، وُجُوهُهُمْ كالقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ**». انتهى كشاف.

الإعراب: ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿ءَايَٰتُۢ﴾: مبتدأ مؤخَّر. ﴿بَيِّنَٰتٞ﴾: صفة له، والجملة الاسمية مفسِّرة للهدى، والبركة، أو هي في محل نصب حال أخرى، أو هي في محل نصب حال من الضمير المستتر في: ﴿مُبَارَكٗا﴾ وهو العامل فيها، كما جوز فيها الاستئناف. ﴿مَّقَامُ﴾ مبتدأ، والخبر محذوف؛ إذ التقدير: منها مقام. قاله الأخفش، وقال المبرد: بدل من ﴿ءَايَٰتُۢ﴾ بدل بعض من كل. وقيل: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي مقام، وتبقى الجملة فيها معنى التفسير لـ ﴿ءَايَٰتُۢ﴾. وقول الأخفش معروف في كلام العرب، كما قال زهير: [البسيط]

لَـهَـا مَـتَـاعٌ وَأَعْـوَانٌ غَـدَرْنَ بِـهِ ... قِـتْـبٌ وَغَـرْبٌ إِذَا مَـا أُفْـرِغَ انْـسَـحَـقَـا

وأجاز الزمخشري اعتبار: ﴿مَّقَامُ﴾ عطف بيان من ﴿ءَايَٰتُۢ﴾. ولا وجه له.

و﴿مَّقَامُ﴾ مضاف، و﴿إِبۡرَٰهِيمَۖ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿دَخَلَهُۥ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) والهاء مفعول به. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم جواب الشرط، واسمه يعود إلى (مَنْ). ﴿ءَامِنٗاۗ﴾: خبرها، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ: «إذا» الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه كما ذكرته لك مراراً، وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهو مبتدأ، وجملة: ﴿دَخَلَهُۥ﴾: صلته، وجملة: ﴿كَانَ ءَامِنٗاۗ﴾: خبره، والجملة الاسمية على الاعتبارين مستأنفةٌ من حيث اللفظ، ومعطوفةٌ على سابقتها من حيث المعنى؛ إذ التقدير: ومنها أَمْنُ مَنْ دخله. وأغرب مكيٌّ ـ رحمه الله تعالى ـ حيث قال: (مَنْ) معطوفة على: ﴿مَّقَامُ﴾ على وجوهه. ﴿وَلِلَّهِ﴾: الواو: حرف استئناف. (لله): جار ومجرور متعلقان بخبر مقدَّم، التقدير: واجب لله على الناس؛ أي: متعلقان بالخبر المحذوف، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف. ﴿حِجُّ﴾: مبتدأ مؤخَّر، وهو مضاف، و﴿ٱلۡبَيۡتِ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعل المصدر مستتر فيه، وتقدير الكلام: وواجب لِلّه على الناس أن يحجوا البيت. ﴿مَنِ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع بدل من فاعل المصدر، أو في محل جر بدل من الناس، وقال الكسائيُّ: في محل رفع فاعل بالمصدر، فيفسد المعنى عليه؛ إذ يصير المعنى: واجب لله على الناس أن يحج البيت كلُّ من استطاع، سواءٌ أكان

حاجّاً، أم لم يحجَّ؟ وهذا غير مراد، كما رأيت في الشرح. ﴿ٱسْتَطَاعَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿مَنِ﴾ والجملة الفعلية صلتها. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان به. وأجيز اعتبارهما متعلقين بمحذوف حال مِنْ: ﴿سَبِيلًا﴾ كان صفة له... إلخ. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به. انتهى. وقال الكسائي: ﴿مَنِ﴾: شرط في موضع رفع بالابتداء، و﴿ٱسْتَطَاعَ﴾ فعل شرطه، والجواب محذوف، التقدير: فعليه الحج. وهو تكلُّفٌ لا داعي له. والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَمَن كَفَرَ...﴾ إلخ: إعرابها مثل إعراب سابقتها بلا فارق، والجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محل المفرد، وعلى اعتبار: ﴿مَنِ﴾ موصولة فالجملة الاسمية: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر الموصول، ودخلت الفاء في الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، هذا؛ وعلى اعتبار ﴿مَنِ﴾ شرطية أجيز اعتبار الجواب محذوفاً قياساً على قوله تعالى في سورة (لقمان) رقم [٢٣]: ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ وعليه؛ فالجملة: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها بخلافها في سورة (لقمان) فإنَّها في محل جزم جواب الشرط.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾﴾

الشرح: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ، وفي هذه الآية من التعنيف، والتوبيخ للكفرة من اليهود، وغيرهم ما لا يخفى، وذلك لعنادهم للحقِّ، وكفرهم بآيات الله، وصدِّهم الناس عن دين الله؛ مع علمهم بأنَّ ما جاء به الرسول ﷺ حقٌّ مِنَ الله، وقد توعَّدهم الله على ذلك، وأخبر بأنَّه مطلع على صنيعهم بما خالفوا ما بأيديهم عن الأنبياء، ومعاملتهم الرّسول المبشَّر به بالتكذيب، والجحود، والعناد.

والمراد بـ (آيات الله) السَّمعية، والعقلية الدَّالة على صدق محمد ﷺ فيما يدَّعيه من وجوب الحج، وغيره. وتخصيص أهل الكتاب بالنّداء، دليلٌ على أنَّ كفرهم أقبح؛ لأن معرفتهم بالآيات أقوى، وأنَّهم وإن زعموا: أنَّهم مؤمنون بالتوراة، والإنجيل؛ فهم كافرون بهما لعدم عملهم بتعاليمهما.

الإعراب: ﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر، تقديره: أنت. (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو. (أهل): منادى، وهو مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه ﴿لِمَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، و(ما): اسم استفهام مبني على السكون على الألف المحذوفة للفرق بين الخبر، والاستخبار في محل جرٍّ باللام. ﴿تَكْفُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: متعلقان به، و(آيات): مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملتان: الندائية، والفعلية كلتاهما في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. (الله شهيداً): مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. أو من: لفظ الجلالة، والرابط: الواو، وإعادة الاسم الكريم بلفظه للتفخيم، والتعظيم. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿شَهِيدٌ﴾ و﴿مَا﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بـ﴿عَلَىٰ﴾ والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: شهيد على الذي، أو: شيء تعملونه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بـ﴿عَلَىٰ﴾ التقدير: شهيدٌ على عملكم. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله.

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

الشرح: ﴿لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: تصرفون، وتمنعون الناس عن دين الإسلام مَنْ آمن بالله ورسوله. والفعل بضمِّ الصَّاد. وقرأ الحسن: (تُصِدُّون) بضم التاء، وكسر الصاد. وهما لغتان: صدَّ، وأصد، مثل: صد اللحم، وأصد: إذا أنتن، وضمَّ، وأضم أيضاً: إذا تغيَّر، وهو مِنْ صدَّ صدوداً: إذا تنكَّب. وليس فصيحاً؛ لأن في «صدَّ» مندوحةً عن تكلُّف التعدية بالهمزة. هذا؛ ويأتي الفعل بمعنى: يعرضون، ويميلون، كما في قوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾. ويأتي بمعنى: يضجُّون فرحاً، ولكنه بكسر الصاد، كما في قوله تعالى في سورة (الزخرف): ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ ومصدر الأولين صدٌّ، وصدودٌ، ومصدر الأخير: صديد. والصَّدد: القرب، يقال: داري صدد داره، أي: قبالتها، وقربها. والصَّدد: القصد، تقول: رجعنا إلى ما نحن بصدده؛ أي: بقصده. وهو أيضاً: الميل، والناحية.

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: تطلبون لها اعوجاجاً، وميلاً عن القصد، والاستقامة، وذلك بمنعكم الناس عن الدُّخول في الإسلام، وأنَّث الضمير على اعتبار (السبيل) مؤنثة. والعوج بكسر العين وفتحها، وقد فرَّق العرب بينهما، فخصُّوا المكسور في المعاني، والمفتوح في الأعيان. تقول في دينه، وقوله، وعمله: عِوَج. وتقول في الجدار، وكلِّ شيءٍ قائم: عَوَج (بالفتح) ومعنى قوله تعالى في سورة (طه): ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ أي: لا معدل لهم عن دعائه، فلا يزيغون، ولا ينحرفون. وعاج بالمكان، وَعَوَّج: أقام، ووقف. والعائج: الواقف. قال الفرزدق مِنْ قصيدةٍ مدح بها هشام بن عبد الملك: [الوافر]

أَلَسْتُمْ عَائِجِينَ بِنَا لَعَنَّا ... نَرَى الْعَرَصَاتِ أَوْ أَثَرَ الخِيَامِ

«لعنَّا» لغةٌ في لعلَّ. والرَّجل الأعوج: السَّيِّئ الخلق، وفاسد العمل. والعُوج من الخيل هي الكريمة، التي في أرجلها تحنيب، ويقال: فرس مُحَنَّب: إذا كان بعيد ما بين الرجلين بغير فج. والخيل الأعوجيَّة تنسب إلى فرس كان في الجاهلية.

﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ جمع: شاهد، أو شهيد بمعنى حاضر، وعالم، فيكون المعنى: وأنتم عالمون: أنَّ في التوراة مكتوباً: أنَّ دين الله؛ الَّذي لا يقبل غيره هو الإسلام؛ الذي جاء به محمد ﷺ.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ تكرَّر ورود هذه الجملة في مواطن من القرآن. قال أبو حيَّان ـ رحمه الله تعالى ـ: ولا تأتي هذه الجملة إلا عقب ارتكاب معصية، فتجيء متضمنةً وعيداً، ومعلمةً: أن الله لا يترك أمر الفاسدين سدىً. انتهى. وبالجملة فيها تهديد، ووعيد شديدان، والمعنى: أن الله عالمٌ، ومحيطٌ بأعمالهم صغيرها، وكبيرها، ويجزيهم بها. علماً بأنَّ اليهود، والنصارى جمعوا بين الوصفين: الضلال، والإضلال. كما أشارت الآيتان الكريمتان، فقد كفروا بالإسلام، ثم صدُّوا الناس عن الدخول فيه بإلقاء الشُّبه، والشُّكوك في قلوب الضَّعفة من أتباعهم.

الإعراب: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية السابقة. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به لـ ﴿تَصُدُّونَ﴾. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿مَنْ﴾ وهو العائد، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية صلتها. ﴿تَبْغُونَهَا﴾: فعل مضارع، وفاعل، ومفعوله الأول، والضمير كان مجروراً بحرف الجر، فلمَّا حذف الجار؛ اتصل بالفعل، وانتصب به على حدِّ قوله في سورة (المطففين): ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ ومثل ذلك قول الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [١٠١] من كتابنا فتح رب البريَّة، والشَّاهد رقم [٧٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الكامل]

وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أكمُؤاً وَعَسَاقِلاً ... وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنْ بَنَاتِ الأَوْبَرِ

﴿عِوَجًا﴾: مفعول به ثان على التوسُّع. وقيل: إنَّ الضمير مفعول به صراحةً، و﴿عِوَجًا﴾ حال من الضمير بمعنى معوجَّة، ولا بأس به، وجملة: ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ في محل نصب حال من واو الجماعة، أو من ﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لاشتمالها على ضميرين راجعين إليهما، والجملة الاسمية: ﴿وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ﴾ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): حجازية تعمل عمل: «ليس». ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿بِغَٰفِلٍ﴾: الباء: حرف جر صلة. (غافل): خبر (ما) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، وفاعله مستتر فيه. ﴿عَمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ (غافل) و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بـ (عن) والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط

محذوف، التقدير: بغافل عن الذَّي، أو: عن شيء تعملونه. وعلى اعتبارها مصدرية تؤوَّل مع ما بعدها بمصدر في محل جر بـ (عن) التقدير: وما الله بغافل عن عملكم. والجملة الاسمية هذه في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، فتكون الحال قد تعدَّدت، وهي جملة، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

الشرح: سبب نزول الآية الكريمة، والتي بعدها ما ذكر: أنَّه مرَّ «**شاس بن قيس اليهودي**» ـ لعنه الله تعالى! ـ على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج في مجلس لهم يتحدَّثون، فغاظه تحدُّثهم، وتآلفهم، فأمر شابّاً من اليهود أن يذكِّرهم «**يوم بعاث**» لعلَّهم يغضبون ـ وكان يوماً اقتتلت فيه الأوس، والخزرج قبل الإسلام، وكان الظَّفر فيه للأوس ـ ففعل، فتنازع القوم عند ذلك، وقالوا: السلاح السلاح، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، والأنصار، فقال: «**أدعوى الجاهلية، وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام، وألَّف بين قلوبكم؟!**». فعرف القوم: أنها نزعةٌ من الشَّيطان، وكيدٌ من عدِّوهم، فألقوا السِّلاح. وبكوا، وعانق بعضُهم بعضاً، ثم انصرفوا مع الرَّسول ﷺ سامعين مطيعين، ونزلت الآيتان. قال جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: ما رأيت يوماً أقبحَ أوَّلَ، وأحسن آخراً من ذلك اليوم! هذا؛ وإنما خاطبهم الله عز وجل بنفسه بعد أن أمر رسوله بأن يخاطب أهل الكتاب إظهاراً لجلالة قدرهم، وإشعاراً بأنَّهم هم الأحقَّاء بأن يخاطبهم الله، ويكلمهم. والله أعلمُ، وأجلُّ، وأكرم.

الإعراب: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو. (أيُّها): منادى نكرة مقصودة مبنيَّةٌ على الضمِّ في محل نصب بـ (يا) و (ها): حرف تنبيه لا محل له من الإعراب، وأُقْحِم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنه يجب حينئذ نصب المنادى. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدلاً من: (أي). وانظر الآية رقم [١] من سورة (النساء). ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، والمتعلق محذوف. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُطِيعُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَرِيقًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بـ ﴿فَرِيقًا﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿أُوتُواْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿يَرُدُّوكُم﴾: جواب الشرط مجزوم مثل سابقه، وعلامة

جزمه حذف النون، والواو فاعله، والكاف مفعوله الأول. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، ويجوز تعليقه بـ ﴿كَٰفِرِينَ﴾. و﴿بَعْدَ﴾: مضاف، و﴿إِيمَٰنِكُمْ﴾: مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿كَٰفِرِينَ﴾ مفعول به ثان، أو هو حال من الكاف؛ إن اكتفى: (يَرُدُّ) بمفعول واحد، فهو منصوب، وعلامة نصبه الياء؛ لأنه جمع مذكَّر سالم... إلخ، وجملة: ﴿يَرُدُّوكُم...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنها جملة جواب الشَّرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية، والجملة الشرطية: ﴿إِن تُطِيعُوا...﴾ إلخ لا محلَّ لها كالجملة الندائية قبلها.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٠١﴾

الشرح: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾: الخطاب للأوس، والخزرج، والاستفهام للإنكار، والتعجُّب لكفرهم بنعم الله في وقت اجتمعت لهم الأسباب الدَّاعية إلى الإيمان الصارفة عن الكفر، والتعجُّب إنَّما يليق بمن لا يعلم السَّبب، وذلك على الله مُحَالٌ، فالمراد منه: المنع، والتغليظ، وذلك؛ لأنَّ تلاوة آيات الله ـ وهي القرآن ـ حالاً بعد حال، وكون رسول الله ﷺ فيكم يرشدكم إلى مصالحكم، وذلك يمنع من وقوع الكفر، فكان وقوع الكفر منهم بعيداً على هذا الوجه.

قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: في هذه الآية علمان بينان: كتاب الله تعالى، ونبي الله ﷺ، أما نبي الله؛ فقد مضى، وأما كتاب الله تعالى؛ فقد أبقاه الله بين أظهركم رحمةً منه، ونعمةً، فيه حلالُه، وحرامُه، وطاعتُه، ومعصيتُه. وخذ ما يلي:

عن زيد بن أرقم ـ رضي الله عنه ـ قال: قام رسول الله ﷺ يوماً فينا خطيباً بما يدعى: خُمًّاً بين مكَّة، والمدينة، فحمد الله، وأثنى عليه، ووعظ، وذكَّر، ثمَّ قال: «**أَمَّا بَعْدُ أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَنِي رسُولُ رَبِّي، فأَجِيبَ، وَتَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أولهما: كِتَابُ اللهِ، فيه الهدى، والنُّورُ، فَخُذُوا بكتابِ اللهِ، واسْتَمْسِكُوا بِهِ، وَأَهْلِ بيتي أذكِّركم اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي! أذكِّركم اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي! أذكِّركم الله في أَهْلِ بَيْتِي!**». أخرجه مسلم. وعن ابن عباس: ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ خطب الناس في حجَّة الوداع، فقال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ، وَلَكِنْ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تَحَاقَرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوا. إِنِّي تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَداً، كِتَابَ اللهِ، وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ**». رواه الحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ﴾ أي: يمتنع بالله، ويستمسك بدينه، وطاعته. يقال: أعصم به، واعتصم، وتمسَّك به، واستمسك: إذا امتنع به من غيره، وكلُّ متمسِّكٍ بشيءٍ مُعْصِم، ومُعْتَصِم، وكل مانع شيئاً؛ فهو عاصم. قال الفرزدق: [الوافر]

أَنَا ابْنُ الْعَاصِمِينَ بَنِي تَمِيمٍ		إِذَا مَا أَعْظَمُ الْحَدَثَانِ نَابَا

وقال النَّابغة الذبياني في معلَّقته رقم [٤٦] [البسيط]

يَظَلُّ مِنْ خَوْفِهِ المَلَّاحُ مُعْتَصِماً بِالخَيْزُرَانَةِ بَعْدَ الأَيْنِ وَالنَّجَدِ

وقال أوس بن حِجْر: [الطويل]

فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ، وَهُوَ مُعْصِمٌ وَأَلْقَى بِأَسْبَابٍ لَهُ وَتَوَكَّلا

وعصمه الطعام: منعه من الجوع. قال أحمد بن يحيى: العرب تسمِّي الخبز: عاصماً، وجابراً، وأنشد: [الرجز]

فَلَا تَلُومِينِي وَلُومِي جَابِرا فَجَابِرٌ كَلَّفَنِي الْهَوَاجِرَا

ويسمُّونه: عامراً. ويسمُّون: الجوع: أبا مالك، قال الشاعر: [الطويل]

أَبُو مَالِكٍ يَعْتَادُنِي بِالظَّهَائِرِ يَجِيءُ فَيُلْقِي رَحْلَهُ عِنْدَ عَامِرِ

﴿فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: إلى طريقٍ واضح، وهو طريق الحقِّ المؤدِّي إلى الجنَّة، ومن يجعل ربه ملجأً، ومفزعاً، ومستغاثاً؛ يسدِّد خطاه على طريق الحقِّ، والصواب، ويلهمه رشَده في جميع أموره، وحركاته، وسكناته، والله ولي التوفيق.

الإعراب: ﴿وَكَيْفَ﴾: الواو: حرف عطف. (كيف): اسم استفهام، وإنكار، وتعجب، مبني على الفتح في محل نصب حال من واو الجماعة، والعامل في الحال الفعل بعده. ﴿تَكْفُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والمتعلَّق محذوف، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الشرطية قبلها، أو هي مستأنفة لا محل لها على الاعتبارين. ﴿وَأَنتُمْ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ءَايَٰتُ﴾: نائب فاعل: ﴿تُتْلَىٰ﴾، و﴿ءَايَٰتُ﴾ مضاف، و﴿اللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ...﴾ إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. (فيكم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿رَسُولُهُۥ﴾: مبتدأ مؤخر، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. فهي في محل نصب حال مثلها.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (من): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَعْتَصِم﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلقان به. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿هُدِىَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ﴾ متعلقان به. ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: صفة صراط، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي

يقول: لا محلَّ لها؛ لأنها لم تحل محلَّ المفرد. هذا وإن اعتبرت الجواب محذوفاً، تقديره: فهو آمن، أو: فلا يحزن؛ فالجملة الفعلية تكون تعليلاً للجواب المحذوف، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما قد ذكرته لك مراراً، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن يَعْتَصِم﴾: مستأنفة لا محل لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢)﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في معنى هذه الآية: هو أن يطاع، فلا يعصى، ويشكر، فلا يكفر، ويذكر، فلا ينسى. وقال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: هو أن تجاهدوا في الله حق جهاده، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، وتقوموا بالقسط؛ ولو على أنفسكم، وآبائكم، وأبنائكم. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: لا يتَّقي الله عبدٌ حقَّ تقاته حتى يخزن لسانه. واختلف العلماء في هذا القدر من هذه الآية، هل هو منسوخ، أم لا؟ على قولين: أحدهما: أنه منسوخ، وذلك: أنَّه لمَّا نزلت هذه الآية؛ شقَّ ذلك على الصحابة الكرام، وقالوا: يا سول الله! ومن يقوى على هذا؟! فأنزل الله النَّاسخ، وهو قوله تعالى في سورة (التَّغابن): ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾. وهذا قول ابن عباس، وسعيد بن جبير، وابن زيد، والسُّدِّي. والقول الثاني: أنها محكمةٌ غير منسوخةً. وهو رواية عن ابن عباس أيضاً، وبه قال طاووس.

وموجب هذا الاختلاف يرجع إلى معنى الآية، فمن قال: إنَّها منسوخة، قال: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: هو أن يأتي العبد بكل ما يجب عليه، ويستحقُّه. فهذا يعجز العبد عن الوفاء به، فتحصيله ممتنعٌ. ومن قال: إنَّها محكمة؛ قال: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: أداء ما يلزم العبد على قدر طاقته، فكان قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ مفسراً لحقِّ تقاته، لا ناسخاً، ولا مخصِّصاً، فمن اتقى الله ما استطاع؛ فقد اتَّقاه حقَّ تقواه. وقيل: معنى ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾: كما يجب أن يتقى، وذلك بأن يجتنب جميع معاصيه. وقيل في معنى قول ابن عباس: هو أن يطاع فلا يعصى: صحيحٌ، والذي يصدر من العبد على سبيل الخطأ، والسهو، والنسيان غير قادحٍ فيه؛ لأنَّ التكليف في تلك الحالات مرفوعٌ عنه، وكذلك قوله: وأن يشكر فلا يكفر؛ فواجبٌ على العبد حضور ما أنعم الله به عليه بالبال، وأمَّا عند السَّهو، والخطأ؛ فلا يجب عليه. وكذلك قوله: وأن يذكر فلا ينسى، فإنَّ هذا إنَّما يجب عند الدُّعاء، والعبادة، لا عند السَّهو، والنسيان. انتهى خازن.

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ أي: الزموا الإسلام، ودوموا عليه، ولا تفارقوه؛ حتَّى تموتوا. فالنهي في اللَّفظ عن الموت على غير الإسلام، وهو في المعنى على غير ذلك؛ إذ المعنى: لا تفارقوا الإسلام؛ حتى تموتوا، كما في قولك: لا تصلِّ؛ إلا وأنت خاشع. والمعنى صلِّ الصلاة مقترنةً بالخشوع. وقيل: المعنى: لا تموتن إلا وأنتم مخلصون، مفوضون إلى الله أموركم، تحسنون الظنَّ بالله، عزَّ، وجل.

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية، ثمَّ قال: «**لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّوْمِ، قَطَرَتْ فِي الدُّنْيَا؛ لأَفْسَدَتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بِمَنْ تَكُونُ طَعَامَهُ؟!**» رواه الترمذي، والنسائي وابن ماجه. وانظر إعلال: ﴿تُقَاتِهِۦ﴾ في الآية رقم [٢٨] مع اختلاف المعنى هنا، وهناك.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية رقم [١٠٠]. ﴿ٱتَّقُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مبتدأة كالجملة الندائية قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿حَقَّ﴾: نائب مفعول مطلق، وهو مضاف، و﴿تُقَاتِهِۦ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية. ﴿تَمُوتُنَّ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، وواو الجماعة المحذوفة المدلول عليها بالضمة فاعله، ونون التوكيد حرف لا محلَّ له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿وَأَنتُم﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿مُّسْلِمُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محل نصب حال مستثنى من واو الجماعة مستثنى من عموم الأحوال، والرابط: الواو، والضمير. وهذه الجملة مذكورة بحروفها في سورة (البقرة) [١٣٢].

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠٣﴾

الشرح: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾: الحبل: لفظ مشترك بين معانٍ كثيرة، وأصله في اللغة: السبب الذي يُتوصَّل به إلى البغية، والحاجة، وهو: حبل العاتق بين العنق، والمنكب. والحبل: المستطيل من الرَّمل، ومنه الحديث: والله ما تركت مِنْ حَبْلٍ إلا وقفت عليه؛ فهل لي من حجٍّ، والحبل: رسن الدَّابة، والحبل: العهد، قال الأعشى: [الكامل]

وإِذَا تُـجَـوِّزُهَـا حِـبَـالَ قَـبِـيـلَـةٍ أَخَـذَتْ مِـنَ الأُخْـرَى إِلَـيْـكَ حِـبَـالَـهَـا

يريد الأمان، والحبل: الدَّاهية، قال كُثيِّر عزَّة: [الطويل]

فَـلَا تَـعْـجَـلِـي يَـا عَـزُّ أَنْ تَـتَـفَـهَّـمِـي بِـنُـصْـحٍ أَتَـى الـواشُـوْنَ أَمْ بِـحُـبُـوْلِ

وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: حبل الله: القرآن، وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: القرآن حبلُ الله المتين، وصراطه المستقيم. وروى ابن مردويه عن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ

قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ هَذَا القرآنَ هُوَ حَبْلُ اللهِ المتينُ، وَهُوَ النُّورُ الْمُبِينُ، وَهُوَ الشِّفَاءُ النَّافِعُ، عِصْمَةٌ لِمَنْ تَمَسَّكَ بِهِ، وَنَجَاةٌ لِمَنِ اتَّبَعهُ**». ورُوي عن ابن مسعودٍ أيضاً قال: حبل الله الجماعة. والمعنى متقارب متداخلٌ في كلٍّ ما ذكر، فإنَّ الله تعالى يأمر بالألفة، وينهى عن الفُرقة، فإنَّ الفُرقة هلكةٌ، والجماعة نجاةٌ. ورحم الله ابن المبارك؛ حيث قال: [البسيط]

إنَّ الْـجَـمَـاعَـةَ حَـبْـلُ اللهِ فَـاعْـتَـصِـمُـوا ... مِـنْـهُ بِـعُـرْوَتِـهِ الْـوُثْـقَـى لِـمَـنْ دَانَـا

وعلى كلٍّ ففيه استعارة، حيث شبَّه القرآن بالحبل، واستعير المشبَّه به ـ وهو الحبل ـ للمشبَّه ـ وهو القرآن ـ على سبيل الاستعارة التَّصريحية، والجامع بينهما النَّجاة في كلٍّ.

﴿وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾: ولا تختلفوا في الدِّين، كما اختلف مَنْ قبلكم من اليهود، والنَّصارى. فعن معاوية؛ قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً، فقال: «**أَلَا إنَّ مَنْ قَبْلَكُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَى اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ، ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ وواحدةٌ في الجنَّة، وَهِيَ الْجَمَاعَةُ**». رواه أحمد، وأبو داود برقم [٤٥٩٧]. وزاد في رواية: «**وإنَّه سَيَخْرُجُ مِنْ أُمَّتِي أَقْوَامٌ تَجَارَى بِهِمُ تِلْكَ الأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ بِصَاحِبِهِ، لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ، وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ**». هذا؛ وفي روايةٍ عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ: «**وَإِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ تفرَّقَت اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمُ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً**». قالوا: مَنْ هي يا رسول الله؟! قال: «**مَا أَنَا عَلَيْهِ، وَأَصْحَابِي**».

بعد هذا: أصول الفرق ستٌّ: الحروريَّة، والْقَدَرِيَّة، والجهميَّة، والمرجئة، والرافضة والجبريَّة. هذه أصول الفرق الضَّالَّة، وقد انقسمت كلُّ فرقة إلى اثنتي عشرة فرقة، فصارت اثنتين وسبعين فرقة. انتهى قرطبي. وقد فصَّل ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الفرق تفصيلاً واسعاً، وخذ ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلَاثاً، ويَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثاً، يَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدوهُ، وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جميعاً، وَلَا تَفرَّقُوا، وَأَنْ تُنَاصِحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ. وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاثاً: قِيلَ، وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ**». أخرجه مسلم.

فأوجب الله علينا التمسُّك بكتابه، وسنَّة نبيه، والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع، والمحبَّة، والتآلف، وعدم المنازعات في الأشياء الباطلة، التي لا تمتُّ إلى الدِّين بصلة، وليس فيه دليل على الاختلاف في فروع الشَّريعة، فإن ذلك ليس اختلافاً؛ إذ الاختلاف ما يتعذَّر من الائتلاف، والجمع. وأما حكم مسائل الاجتهاد، فإنَّ الاختلاف فيها بسبب بيان الأحكام، واستخراج معاني العبادة، فليس اختلافاً، وما زالت الصحابة والتابعون لهم بإحسان يختلفون في أحكام الحوادث: وهم مع ذلك متآلفون متحابُّون. قال رسول الله ﷺ: «**اخْتِلَافُ أُمَّتِي رَحْمَةٌ**». انتهى قرطبي بتصرف.

﴿وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ: أمر تعالى بتذكر نعمه، وأعظمها الإسلام، وإتِّباع محمد ﷺ، فإنَّ به زالت العداوة، والفرقة، وحلَّت محلَّها المحبَّة، والألفة. والمخاطب بذلك الأنصار من الأوس، والخزرج، كما تقدَّم. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم: [٦٢ و٦٣] ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ...﴾ إلخ، وقد امتنَّ عليهم، وذكَّرهم رسول الله ﷺ بذلك يوم قسم غنائم حنين، وعتب عليه مَنْ عتب منهم، بما فضَّل عليهم في القسمة بما أراده الله، فخطبهم، فقال: «**يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ! أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلَّالاً، فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ، فَأَلَّفَكُمُ اللهُ بِي؟ وَكُنْتُمْ عَالَةً، فَأَغْنَاكُمُ اللهُ بِي؟**» فكلما قال شيئاً؛ قالوا: الله ورسوله أَمَنُّ. و(أصبحتم) بمعنى: صرتم، فليس على بابه من التوقيت في الصَّباح.

هذا؛ و﴿أَعْدَآءً﴾ أصله: أعدوا؛ لأنَّ مفرده: عدو، ويجمع أيضاً على أعادٍ، وعِدَات، وعدىً. وقيل: أعادٍ جمع: أعداء، فيكون جمع الجمع. وفي القاموس المحيط: والعدا بالضم والكسر اسم الجمع، وسمي العدوُّ عدوّاً لِعَدْوِهِ عليك عند أوَّل فرصة تسنح له للإيقاع بك، والقضاء عليك. كما سمِّي الصديق صديقاً لصدقه فيما يدَّعيه لك من الألفة، والمودة، والمحبَّة. وعدو: ضدُّ الصديق، وهو على وزن فعول بمعنى فاعل، مثل: صبور، وشكور. وما كان على هذا الوزن يستوي فيه المذكر، والمؤنث، والمفرد، والمثنى، والجمع؛ إلا لفظاً واحداً جاء نادراً، قالوا: هذه عدوة الله. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ رقم [٦] من سورة (فاطر) فقد عبَّر به عن مفرد، وقال تعالى حكاية عن قول إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ رقم [٧٧] من سورة (الشعراء) فقد عبَّر به عن جمع، ومثله: صديق؛ أي: في إتيانه بلفظ واحد للمفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث، قال الشاعر ـ وهو الشَّاهد رقم [٣٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

فَلَوْ أَنْكِ فِي يَوْمِ الرَّخَاءِ سَأَلْتِنِي ... طَلَاقَكِ لَمْ أَبْخَلْ وَأَنْتِ صَدِيقُ

وقال آخر: [الرجز]

هُنَّ صَدِيقٌ لِلَّذي لَمْ يَشِبِ

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ...﴾ إلخ: على طرف حفرة، وشفا كل شيء: طرفه، وحرفه، وكذلك شفيره، مثل: شفا البئر، ومنه قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [١٠٩]: ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾. وقال الراجز: [الرجز]

نَحْنُ حَفَرْنَا لِلْحَجِيجِ سَجْلَهْ ... نَابِتَةً فَوْقَ شَفَاهَا بَقْلَهْ

وأشفى على الشيء: أشرف عليه، ومنه: أشفى المريض على الموت، وما بقي منه إلا شفاً؛ أي: قليل: قال ابن السِّكيت ـ رحمه الله تعالى ـ: يقال للرجل عند موته، وللقمر عند امِّحاقه، وللشَّمس عند غروبها: ما بقي منه إلا شَفاً؛ أي قليل. قال العجاج: [الرجز]

وَمَــرْبـــأ عَـــالٍ لِـــمَـــنْ تَـــشَـــرَّفَـــا أَشْـــرَفْـــتُـــهُ بِـــلَا شَـــفًـــى أَوْ بِـــشَـــفَـــى

قوله: بلا شفىً: أي: غابت الشمس، أو بشفىً، أي بقيت منها بقيَّةٌ. هذا؛ فقد شبَّه الله حالهم التي كانوا عليها في الجاهلية بحال مَنْ كان مشرفاً على حفرةٍ عميقة، وهوَّةٍ سحيقة. ففيه استعارة تمثيلية.

وأصله: شَفَوَ فقل في إعلاله: تحرَّكت الواو وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. وقيل: أصله: شَفَي. والمعتمد الأول. ﴿فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾: يحتمل عود الضمير إلى الحفرة، أو إلى النار، أو للشفا، وإنَّما أنِّث للإضافة للمفردة، فاكتسب التأنيث منها على حدِّ قول الأعشى ـ وهو الشاهد رقم [٩٠٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

وَتَــشْــرَقُ بِــالــقَــوْلِ الَّــذِي قَــدْ أَذَعْــتَــهُ كَــمَــا شَــرِقَــتْ صَــدْرُ الْــقَــنَــاةِ مِــنَ الــدَّمِ

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ...﴾ إلخ أي: كما بيَّن الله لكم: أنَّه ألف بين قلوبكم، وصرتم إخواناً متآلفين متحابين، كذلك يبيِّن سائر أحكام دينه على لسان عبده، ورسوله محمدٍ ﷺ. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إلى طريق الحقِّ والصَّواب، والترجي في هذه الآية، وأمثالها، إنَّما هو بحسب عقول البشر؛ لأنَّ الله تعالى لا يقع منه ترجٍّ لعباده، وأعمالهم. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً!.

الإعراب: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية، والتي بعدها معطوفة على ما قبلها. ﴿بِحَبْلِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(حبل) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من واو الجماعة. (لا تَفَرَّقُوا): فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق.

(اذْكُرُوا): أمر، وفاعله... إلخ. ﴿نِعْمَتَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿نِعْمَتَ﴾. ﴿إِذْ﴾: ظرف زمان بمعنى وقت مبني على السكون في محل نصب متعلِّق بـ ﴿نِعْمَتَ﴾ أيضاً، أو بالفعل اذكروا. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السُّكون، والتاء اسمه. ﴿أَعْدَآءً﴾: خبره. ﴿فَأَلَّفَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهِ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، و﴿بَيْنَ﴾: مضاف، و﴿قُلُوبِكُمْ﴾: مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة.

(أصبحتم): فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: (أصبح) أي: متلبسين، أو مشمولين بنعمته. والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. ﴿إِخْوَٰنًا﴾: خبر ثان لـ (أصبح) أو هو حال من تاء الفاعل، أو من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، أو هو خبر واحد لـ (أصبح)، وعليه يكون: ﴿بِنِعْمَتِهِۦٓ﴾: متعلقين بمحذوف حال من تاء الفاعل، أو بمحذوف حال من: ﴿إِخْوَٰنًا﴾: كان صفة له، فلما قُدِّم عليه صار حالاً، ومثله قول الأخطل التَّغلبي ـ وهو الشاهد رقم [١٣٢] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

كَـانَـتْ مَـنَـازِلُ أُلَّافٍ عَـهِـدْتُـهُـمُ إِذْ نَـحْـنُ إِذْ ذَاكَ دُونَ الـنَّـاسِ إِخْـوَانَـا

هذا؛ وإن اعتبرت الفعل تاماً؛ فالإعراب لا يتغيَّر. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص، والتاء اسمه. ﴿عَلَىٰ شَفَا﴾ متعلقان بمحذوف خبره، وعلامة الجر كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر، و﴿شَفَا﴾ مضاف، و﴿حُفْرَةٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿حُفْرَةٍ﴾. (أَنْقَذكُم): فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ والكاف مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها من جمل، فهي في محل جرٍّ أيضاً.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه، وجر، و(ذا) اسم إشارة مبني على السكون في محلِّ جرٍّ بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، عامله ما بعده، التقدير: يبين الله لكم أحكام دينه تبييناً مثل تبيينه لكم: أنه ألف بين قلوبكم... إلخ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿يُبَيِّنُ﴾: فعل مضارع، ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿تَهْتَدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والمتعلَّق محذوف، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (لعلَّ) والجملة الاسمية في محل نصب حال من ضمير الخطاب، والرابط الضمير فقط، وبعضهم يعتبرها للتَّعليل، لا محلَّ لها.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾

الشرح: لمَّا حذر الله من مكايد أهل الكتاب، وأمر بالاعتصام بحبل الله المتين، والتمسُّك بشرعه القويم؛ دعا المؤمنين إلى القيام بواجب الدَّعوة إلى الله، والأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر، وأمر بالائتلاف، وعدم الاختلاف، ثمَّ ذكر ما حلَّ باليهود من الذلِّ، والصَّغار بسبب البغي، والعدوان.

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ...﴾ إلخ: اللام لام الأمر، و(مِنْ) للتبيين، وذلك؛ لأنَّ الله ـ عز وجل ـ أوجب الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر على كلِّ الأمة في قوله تعالى في الآية رقم [١١٠] الآتية، فيجب على كل مكلف الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر بيده، أو بلسانه، أو بقلبه، كما في قول النبيِّ المعظَّم ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَراً؛ فَلْيُغَيِّرْهُ بِيدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإيمان**». رواه مسلم، وغيره عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه. فعلى هذا يكون معنى الآية: كونوا دعاةً إلى الخير، آمرين بالمعروف، ناهين عن المنكر. ومن قال بهذا القول يقول: إنَّ الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض؛ سقط

الإثم عن الباقين. وقيل: إنَّ معنى (مِنْ) للتبعيض، وذلك؛ لأنَّ في الأمَّة مَنْ لا يقدر على الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر لعجزٍ، أو ضعف. وقيل: إنَّ ذلك يختصُّ بالعلماء، وولاة الأمور، فعلى هذا يكون المعنى: ليكن بعضكم آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، وخذ ما يلي:

فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، قال: «**أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ، أَوْ أَمِيرٍ جَائِرٍ**». رواه أبو داود، والترمذيُّ. وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «**سَيِّدُ الشهداءِ حَمْزَةُ بنُ عبْدِ الْمطلبِ، وَرَجُلٌ قَامَ إلَى إِمَامٍ جَائِرٍ، فَأَمَرَهُ، ونَهَاهُ، فَقَتَلَهُ**». أخرجه الترمذيُّ، والحاكم. وعن جرير بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يكونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بالْمَعَاصِي، يقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْه، فلا يغيروا؛ إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ مِنْهُ بعِقَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا**». رواه أبو داود، وابن ماجه. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ عن النبي ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كبيرَنَا، وَيَأْمُرْ بِالمعروفِ، وَيَنْهَ عَنِ الْمُنْكرِ**». رواه أحمد، والترمذيُّ، وابن حبَّان، والأحاديث في ذلك كثيرة.

بعد هذا: ولكن يجب على من يأمر، وينهى أن يكون مؤتمراً منتهياً بنفسه، وإلا كان أمره، ونهيه وبالاً عليه. وخذا ما يلي: عن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يُؤْتَى بِالرَّجلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ، فيدُورُ بهَا كَمَا يَدُورُ الحمارُ فِي الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فيقولونَ: يَا فُلانُ! مالكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ؟! فَيَقُولُ: بَلَى كُنْتُ آمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَا آتِيهِ، وَأَنْهَى عَنِ الْمُنْكرِ وَآتِيهِ**». رواه البخاري، ومسلمٌ. وعن أبي برزة ـ رضي الله عنه ـ قال قال رسول الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخيرِ، وَيَنْسَى نَفْسَهُ مَثَلُ الْفَتِيلَةِ تُضيء لِلنَّاسِ، وَتَحْرِقُ نَفْسَهَا**». والأحاديث في ذلك كثيرة، ورحم الله أبا الأسود الدؤلي؛ إذ يقول ـ وهو الشاهد رقم [٦٧٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [١٤٢] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الكامل]

لَا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ عَارٌ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمُ

ويروى من قول سيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا طَغَى نِسَاؤُكُمْ، وَفَجَرَ شَبَابُكُمْ، وتركْتُمْ جِهَادَكُمْ؟!**». قالوا: وإن ذلك لكائنٌ يا رسول الله؟! قال: «**نَعَمْ وَالَّذِي نفْسِي بِيَدِهِ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ! كَيْفَ بِكُمْ إِذَا تَرَكْتُمُ الأَمْرَ بالمعروفِ، وَالنَّهيَ عَنِ الْمُنْكَرِ؟!**» قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟! قال: «**نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، وَأَشَدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ! كَيْف بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُم المعروف منكراً، والْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً؟!**». قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟! قال: «**نَعَمْ وَالَّذِي نفسي بيدِهِ، وأشدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ! كَيْفَ بِكُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ، ونَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ؟!**» قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟! قال: «**والذي نفسِي بيدِهِ، وأشدُّ مِنْهُ سَيَكُونُ! يقولُ الْحَقُّ عزَّ وجلَّ: بِي حَلَفْتُ لأَفْتِنَنَّهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ حَيْرَانَ**». وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢١] والآية رقم [٧٨] من سورة (المائدة).

بعد هذا انظر شرح الخير في الآية رقم [٢٧١] من سورة (البقرة). و﴿أُمَّةٌ﴾. المراد بها هنا: جماعة، وتكون واحداً إذا كان يُقتدى به، كقوله تعالى في حق إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا...﴾ إلخ، وقال الرسول ﷺ في زيد بن عمرو بن نُفَيْل: «يُبْعَثُ أُمَّةً وحدَه»؛ لأنه لم يشرك في دينه غيره. والأمَّة: الطريقة، والملَّة، والدين، كقوله تعالى حكاية عن قول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. وكلُّ جنس من الحيوان أمَّة، كقوله تعالى في سورة (الأنعام): ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾. ويستدل بهذه الآية من يقول بتناسخ الأرواح. والأمَّة: الحين، والوقت، كقوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد وقتٍ وحينٍ، والأمة: الشجَّة التي تبلغ الدِّماغ. يقال: رجل مأموم. والأمة: أيضاً القامة، يقال: فلان حسن الأمة؛ أي: حسن القامة. قال الشاعر: [المتقارب]

وَإِنَّ مُعَاوِيَةَ الأَكْرَمِينَ حِسَانُ الْوُجُوهِ طِوَالُ الأُمَمْ

هذا؛ والمعروف: ما استحسنه الشرع، والعقل، والفطرة السليمة. والمنكر: ما استقبحه الشرع، والعقل، والفطرة السَّليمة. (أولئك): الإشارة إلى الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، وهو جمع: «**ذلك**» وقد يجمع على: أُلَالِكَ، وأنشد ابن السكيت: [الطويل]

أُلَالِكَ قَوْمِي لَمْ يَكُونُوا أُشَابَةً وَهَلْ يَعِظُ الضِّلِّيلَ إِلَّا أُلَالِكَا؟

وأولئك: لجماعة العقلاء، وربما جاء لغير العقلاء، ومنه قوله تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٣٦]: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ وقال جرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق ـ وهو الشاهد رقم [٨٠] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الكامل]

ذُمَّ الْمَنَازِلَ بَعْدَ مَنْزِلَةِ اللِّوى وَالْعَيْشَ بَعْدَ أُولَئِكَ الأَقْوَامِ

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الفائزون برضا الله، الناجون من غضبه، وعقابه، فهو جمع اسم فاعل من أفلح الرجل: فاز ببغيته، ومراده، وأصله: مُؤَفْلِح، فاستثقلت الفتحة على الهمزة فحذفت، فصار: مُوفْلِح، ثم حذفت الواو لالتقائها ساكنة مع الفاء الساكنة، فصار: مُفْلِح. هذا؛ والفَلَحُ، والفَلَاح مشتقان في اللغة من الشق والقطع، ومنه فلاحة الأرضين، أي: شقها للحرث، ولذلك سمي الزَّراع فلَّاحاً، ويقال للذي شقت شفته السفلى، أو العليا: أفلح، والفَلَاحُ: البقاء، والدوام، قال الأضبط بن قريع السَّعدي في الجاهلية: [المنسرح]

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهُمُومِ سَعَهْ وَالْمُسْيُ وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهْ

يقول: ليس مع كرِّ الليل، والنَّهار بقاء. وقال آخر: [الطويل]

نَحُلُّ بِلَاداً كُلُّهَا حَلَّ قَبْلَنَا وَنَرْجُو الْفَلَاحَ بَعْدَ عَادٍ وَحِمْيَرِ

ولا تنسى أنَّ بين الجملتين: (يأمرون بالمعروف) و(ينهون عن المنكر) مقابلة، وهي من المحسِّنات البديعية.

الإعراب: ﴿وَلْتَكُن﴾: الواو: حرف عطف. اللام: لام الأمر. (تكن): فعل مضارع ناقص مجزوم بلام الأمر. ﴿مِّنكُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل الناقص، أو بمحذوف حال من: ﴿أُمَّةٌ﴾ كان نعتاً له، انظر الآية السابقة. ﴿أُمَّةٌ﴾ اسم: (تكن). ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، ومفعوله، ومفعول ما بعده محذوف للعلم به، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: (تكن). هذا؛ وإن اعتبرت الفعل تامّاً، فـ ﴿أُمَّةٌ﴾ فاعله، وجملة: ﴿يَدْعُونَ﴾ في محل صفة له، وقد جمع الضمير مع كونه راجعاً إلى: ﴿أُمَّةٌ﴾ وذلك باعتبار عدد أفراد الأمة. ﴿إِلَى ٱلْخَيْرِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملتان: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ معطوفتان على الجملة السابقة على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [٨٢]

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥)﴾

الشرح: ينهى الله عز وجل عباده المؤمنين عن التفرُّق، والاختلاف كما اختلف اليهود، والنصارى في أمر دينهم. وانظر ما ذكرته فيما مضى. قيل: تفرقوا بسبب العداوة، واتباع الهوى، واختلفوا في دين الله، فصاروا فرقاً مختلفين. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أمر الله المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف، والفرقة، وأخبرهم إنَّما هلك من كان قبلهم بالمِراء، والخصومات في الدِّين. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ أي: الحجج الواضحات، فعلموها، ثم خالفوها. وذكِّر الفعل؛ لأنَّ البينات ليست مؤنثاً حقيقيّاً وفي كثير من الآيات: ﴿جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ...﴾ إلخ أي: لهؤلاء الذين تفرقوا، واختلفوا عذابٌ عظيم في الآخرة، وفيه زجرٌ عظيمٌ للمؤمنين عن التفرُّق، والاختلاف، وخذ ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى**» قالوا: ومن يأبى؟ قال: «**مَنْ أَطَاعَني؛ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي؛ فَقَدْ أَبَى**». أخرجه البخاري. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ، ويدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ فِي النَّارِ**». أخرجه الترمذيُّ.

وعن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ فَارَقَ الجماعةَ شِبْراً فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ**». أخرجه أبو داود. أراد بـ «**ربقة الإسلام**»: عقد الإسلام. وأصله: أنَّ

الرِّبق حبل في عدَّة عُراً، يشدُّ بها الغنم، الواحدة من العري: ربقة. وروى البغوي عن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْكُنَ بُحبوحَةَ الْجَنَّةِ؛ فَعَلَيْهِ بِالجمَاعَةِ، فَإِنَّ الشيطانَ مَعَ الْفَذِّ، وَهُوَ مَعَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ**». وقد ذكرت لك فيما مضى: أنَّ النَّهي مخصوصٌ بالتفرُّق في أصول الدِّين دون فروع الشَّريعة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿تَكُونُوا۟﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو اسمه، والألف للتفريق: ﴿كَٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿تَكُونُوا۟﴾ وإن اعتبرت الكاف اسماً بمعنى: «مثل» فهي الخبر، وهي مضاف و(الذين) مبني على الفتح في محل جر بالإضافة. ﴿تَفَرَّقُوا۟﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة صلة الموصول، لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلقان بأحد الفعلين على التنازع. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: فعل ماض، ومفعوله، وفاعله، و(ما) المصدرية، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جرٍّ بإضافة: ﴿بَعْدِ﴾ إليه، والجملة الفعلية: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾إلخ معطوفة على جملة: (اعتصموا...) إلخ لا محل لها مثلها. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ انظر إعراب مثلها في الآية رقم [٩١] وهي في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محل لها. بعد هذا: وقوع الكاف اسماً كثير في اللغة انظر ما ذكرته في الشاهد رقم [٣٢٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، وهذا نصُّه، وقائله العجَّاج: [الرجز]

بِيضٌ ثَلاثٌ كَنِعَاجٍ جُمِّ ... يَضْحَكْنَ عَنْ كَالْبَرَدِ الْمُنْهَمِّ

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾: يكون هذا يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم، تكون وجوه المؤمنين مبيضة، ووجوه الكافرين مسودة. قال تعالى في سورة (طه): ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ والمجرمون على اختلاف مللهم من كافرين، وظالمين، ومنافقين... إلخ، وفي بياض الوجوه، وسوادها قولان:

أحدهما: أن البياض كناية عن الفرح، والسرور. والسَّواد كناية عن الغمِّ، والحزن. وهذا مجاز مستعمل، يقال لمن نال بُغيته، وظفر بمطلوبه: ابْيَضَّ وجهه، يعني: من السرور، والفرح، ولمن ناله مكروه: اسْوَدَّ وجهه، وارْبَدَّ لونه؛ يعني: من الحزن، والغمِّ. قال تعالى في سورة (النحل): ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا﴾ يعني: من الحزن.

والقول الثاني: أنَّ بياض الوجوه، وسوادها حقيقة فيهما، والحكمة في بياض الوجوه وسوادها: أن أهل الموقف إذا رأوْا بياض وجه المؤمن؛ عرفوا أنه من أهل السَّعادة، وإذا رأوْا سواد وجه الكافر، والمنافق؛ عرفوا: أنه من أهل الشقاوة، وبين كلمتي، ﴿تَبْيَضُّ﴾، و(تسود) طباق، وهو من المحسِّنات البديعية.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُم...﴾ إلخ. اختلف العلماء في هؤلاء، فروي عن أُبَيٍّ بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: أنه قال: أراد به الإيمان يوم أخذ الميثاق حين قال لهم في عالم الذَّرِّ: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ فآمن الجميع في ذلك الحين، فكلٌّ من كفر بعد بلوغه؛ فقد كفر بعد الإيمان. وقال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: هم المنافقون، وذلك أنهم تكلَّموا بالإيمان بألسنتهم، وأنكروه بقلوبهم، وقال عكرمة ـ رحمه الله تعالى ـ: هم أهل الكتاب، وذلك: أنهم آمنوا بمحمد ﷺ قبل مبعثه، فلمَّا بُعِث؛ أنكروه، وكفروا به. وقيل: هم الذين ارتدُّوا بعد وفاة النبي ﷺ. وقيل: هم الخوارج، والملل، والنحل الَّتي شذَّت، وزيَّن لهم الشيطان سوء أعمالهم، فيكون في الكلام إخبار بما سيقع بعد وفاة الرسول ﷺ. وخذ ما يلي:

فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الْحَوْضِ، وَلَيُرْفَعَنَّ إِلَيَّ رجالٌ مِنْكُمْ حَتّى إذَا أَهْوَيْتُ إِلَيْهِمْ لأنالَهُمْ؛ اخْتَلَجُوا دُونِي، فَأَقولُ: أيْ رَبِّ! أَصْحَابِي! فيقولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**». متَّفق عليه. وعن زيد بن وهب ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه كان في الجيش الذين كانوا مع عليٍّ كرم الله وجهه لمَّا سار إلى الخوارج، فقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: أيها الناس! إنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي، يقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قراءتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، ولَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يقرؤون الْقُرْآنَ، وَهُمْ يَحْسَبُونَ: أَنَّهُ لَهُمْ، وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ صَلَاتُهُمْ تراقِيَهُمْ، يمرقون مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُق السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ**». متفق عليه، ويزاد في روايةٍ أخرى: «**فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ، فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّ فِي قَتْلِهِمْ أَجْراً لِمَنْ قَتَلَهَمْ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». والأحاديث في ذلك كثيرة.

﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ...﴾ إلخ: هذا الأمر للإهانة؛ أي: يقال لهم: ذوقوا جزاء كفركم. هذا؛ والذوق يكون محسوساً، ومعنىً، وقد يوضع موضع الابتلاء، والاختبار، تقول: اركب هذا الفرس، فذقه. وانظر فلاناً؛ فذق ما عنده. قال الشمَّاخ يصف قوساً: [الطويل]

فَذَاقَ فَأَعْطَتْهُ مِنَ اللِّينِ جَانِباً ... كَفَى وَلَهَا أَنْ يُفْرِقَ السَّهْمَ حَاجِزُ

وقد يعبَّر بالذَّوق عمَّا يطرأ على النفس، وإن لم يكن مطعوناً لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم، قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي: [الطويل]

فَذُقْ هَجْرَهَا إِنْ كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّهَا ... فَسَادٌ أَلَا يَا رُبَّمَا كَذَبَ الزَّعْمُ

وتقول: ذقت ما عند فلان؛ أي: اختبرته. وذقت القوس: إذا جذبتَ، وترها لتنظر ما شدَّتها؟ وأذاقه الله وبال أمره؛ أي: عقوبة كفره، ومعاصيه. قال طفيل بن سعد الغنوي: [الطويل]

فَـذُوقُـوا كَـمَـا ذُقْـنَـا غَـدَاةَ مُـحَـجَّـرٍ مِـنَ الْـغَـيْـظِ فِـي أَكْـبَـادِنَـا وَالـتَّـحُـوْبِ

وتذوَّقته؛ أي: شيئاً، فشيئاً. وأمر مستذاق، أي: مجربٌ معلومٌ. قال الشاعر: [الوافر]

وَعَـهْـدُ الْـغَـانِـيَـاتِ كَـعَـهْـدِ قَـيْـنٍ دَنَـتْ عِـنْـدَ الْـجَـعَـائِـلِ مُـسْـتَـذَاقِ

وأصل الذوق بالفم، وذوقوا في كثير من الآيات للإهانة، وفيه استعارةٌ تبعيَّةٌ تخيليَّةٌ. وذكر العذاب في كثير من الآيات استعارة مكنية، حيث شبَّه العذاب بشيءٍ يُدرك بحاسة الأكل، وشبَّه الذوق بصورة ما يذاق، وأثبت للذوق تخيلاً.

الإعراب: ﴿يَوۡمَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ ﴿عَظِيمٌ﴾ في الآية السَّابقة، أو مفعول به لفعل محذوف، تقديره: اذكروا اليوم. وقيل: متعلق بالخبر المحذوف الذي تعلق به: ﴿لَهُمۡ﴾. ﴿تَبۡيَضُّ وُجُوهٌ﴾: مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿يَوۡمَ﴾ إليها، وجملة: ﴿وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٌۚ﴾ معطوفة عليها، فهي في محل جر مثلها. ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (أمَّا): انظر الآية رقم [٥٦]. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱسۡوَدَّتۡ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿وُجُوهُهُمۡ﴾: فاعله، والهاء في محلِّ جرٍّ بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿أَكَفَرۡتُم﴾: الهمزة: حرف استفهام، وإنكار، وتوبيخ، (كفرتم): فعل، وفاعل. ﴿بَعۡدَ﴾: ظرف زمان متعلِّق بما قبله، وهو مضاف، و﴿إِيمَٰنِكُمۡ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: فيقال لهم: أكفرتم... إلخ، والفاء واقعة في جواب (أمَّا)، والجملة الفعلية في محل رفع المبتدأ، وهي في الوقت نفسه جواب (أمَّا) وهي ومدخولها كلام مفرع عما قبله لا محلَّ له. ﴿فَذُوقُواْ...﴾ إلخ: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرطٍ مقدر. (ذوقوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾: مفعول به. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر. (ما): مصدرية. ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه، وجملة: ﴿تَكۡفُرُونَ﴾ في محل نصب خبر (كان)، و(ما) المصدرية، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل: (ذوقوا) أو بمحذوف حال من: ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾: واعتبار (ما) موصولة فيه ضعفٌ ظاهر، وجملة: (ذوقوا...) إلخ لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط محذوف، التقدير: إذا كان ما ذكر مِنْ كفركم حاصلاً؛ فذوقوا. والجملة الشرطية هذه معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ...﴾ إلخ انظر الآية السابقة .﴿فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ﴾: جنته، وثوابه؛ الذي لا ينقطع. والجنَّة: هي رحمة الله الخالدة. فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «**احْتَجَّتِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الْجَبَّارُونَ، وَالْمُتَكَبِّرُونَ. وَقَالَتِ الْجَنَّةُ: فِيّ ضُعَفَاءُ الْمُسْلِمِينَ، وَمَسَاكِينُهُمْ. فَقَضَى اللهُ بَيْنَهُمَا: إِنَّكِ الْجَنَّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابِي أُعذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكِلَيْكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا**». رواه مسلم.

هذا؛ وإن الله ـ عز وجل ـ ذكر في الآية السَّابقة: أن سواد وجوه الكافرين في الآخرة، وإذاقتهم العذاب الأليم إنَّما هو بسبب كفرهم، وذكر في هذه الآية: أن بياض وجوه المؤمنين، وإدخالهم جنَّات النعيم إنَّما هو برحمة الله، ومحض كرمه، تنبيهاً على أنَّ المؤمن ـ وإن استغرق عمره في طاعة الله تعالى ـ لا يدخل الجنة إلا برحمته، وفضله. وإليك ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**». قَالُوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «**وَلَا أَنا؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلِهِ، وَرَحْمَتِهِ! فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا**». أخرجه البخاريُّ. بعد هذا انظر المقابلة في الآية رقم [٥٧] هذا؛ وكان من حقِّ الترتيب أن يقدِّم ذكر المؤمنين، ولكن قصد أن يكون مطلع الكلام، وانتهاؤه حلية المؤمنين، وثوابهم، وهو ما يعبَّر عنه في البلاغة بحسن المطلع، وحسن الانتهاء، كما يُعَبَّر عنه باللَّف، والترتيب، والنشر المشوَّش، وكرَّر الله كلمة (في) لأن في كلِّ واحدةٍ منهما معنى غير الأخرى، المعنى: أنهم في رحمة الله، وأنَّهم في الرَّحمة خالدون.

الإعراب: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾: الإعراب مثل الآية السابقة بلا فارق. ﴿فَفِى﴾: الفاء: واقعة في جواب (أمَّا). (في رحمة): متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ، التقدير: فهم في رحمة، و﴿رَحْمَةِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الاسمية هذه في محل رفع خبر المبتدأ، وهي جواب (أمَّا) و(أمَّا) ومدخولها معطوف على ما قبله في الآية السابقة، لا محلَّ له مثله. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السُّكون في محل رفع مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مفيدة للتوكيد، كأنَّه قيل: كيف يكونون فيها؟ فقال: ﴿هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ولا يُلتفت لمن يقول: (في رحمة) متعلقان بـ: ﴿خَٰلِدُونَ﴾.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾

الشرح: ﴿تِلْكَ...﴾ إلخ؛ أي: الواردة في وعده، ووعيده، المُبيِّنة لنعيم الأبرار، وتعذيب الكفار. ﴿نَتْلُوهَا﴾: نقرؤها. ﴿عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ﴾ الواضح؛ الذي لا ارتياب فيه، ولا شكَّ. ﴿وَمَا ٱللَّهُ

يُرِيدُ...﴾ إلخ؛ أي: ليس بظالم لهم، بل هو الحاكم العدل؛ الَّذي لا يجور؛ لأنَّ القادر على كلِّ شيء، العالم بكلِّ شيء، لا يعجزه شيء، لذا فلا يحتاج مع ذلك إلى أن يظلم أحداً من خلقه. والالتفات ظاهر من التكلُّم إلى الغيبة. انظر الالتفات في الآية رقم [٥٦].

هذا و(العالمين) جمع: عالَم بفتح اللام، وجُمَع؛ لاختلاف أنواعه، وهو جواب عمَّا يقال: إنَّه اسم جنس يصدق على ما سوى الله، والجمع لا بدَّ أن يكون له أفرادٌ ثلاثة، فأكثر. وجمع بالياء والنون، كما يجمع بالواو والنون تغليباً للعقلاء على غيرهم، وهو يقال لكلِّ ما سوى الله، ويدلُّ له قوله تعالى حكايةً عن قول «موسى» ـ على نبينا، وعليه أفضل الصلاة، وأتم التَّسليم ـ لمَّا قال له فرعون: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾. هذا والعوالم كثيرةٌ لا تُحصيها الأرقام، وهي منتشرةٌ في هذا الكون المترامي الأطراف في البرِّ والبحر؛ إذ كلُّ جنسٍ من المخلوقات يقال له: عالم، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ ولا واحد له من لفظه مثل: معشر، ورهط، وقال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ: العالَمون ثمانون ألف عالم، أربعون ألف عالم في البرِّ، وأربعون ألف عالم في البحر. انتهى. وجُمِع جمع المذكَّر السالم، وذلك بتغليب مَنْ يعقل على مالا يعقل. والعالم مشتقٌ من العلامة؛ لأنه دالٌّ على وجود خالقه، وصانعه، وعلى وحدانيته، جلَّ، وعلا، كما قال أبو العتاهية: [المتقارب]

فَيَا عَجَبَا كَيْفَ يُعْصَى الإلـــهُ أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ الْجَاحِدُ؟

وفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ تَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ وَاحِدُ

الإعراب: ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿ءَايَٰتُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿نَتْلُوهَا﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الواو للثقل، والفاعل مستتر تقديره: نحن، و(ها) مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من: ﴿ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ والعامل في الحال اسم الإشارة على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلِّقان بمحذوف حال من الفاعل، أو من المفعول، وهذا يعني: أنَّها حالٌ متداخلة.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية حجازية تعمل عمل «ليس». ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿ظُلْمًا﴾: مفعول به. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾: متعلقان بـ﴿ظُلْمًا﴾ أو بمحذوف صفة له. هذا؛ ونقل الجمل عن السَّمين اعتبار اللام زائدة، لا تعلُّق لها بشيءٍ، زيدت في مفعول المصدر تقويةً له، وأنَّ فاعل المصدر محذوف، التقدير: وما الله يريد أن يظلم العالمين، فزيدت اللام تقويةً للعامل؛ لكونه فرعاً في العمل، كقوله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾. انتهى بحروفه. هذا؛ والجملة الفعلية في محل نصب خبر (ما) أو في محل رفع خبر

المبتدأ؛ إن اعتبرتها مهملة، والجملة الاسمية على الوجهين معطوفة على ما قبلهما، أو هي مستأنفة، لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ١٠٩﴾

الشرح: قال المهدويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: وجه اتصال هذا بما قبله: أنه لمَّا ذكر أحوال المؤمنين، والكافرين، وأنَّه لا يريد ظلماً للعالمين؛ وصله بذكر اتِّساع قدرته، وغناه عن الظلم بكون ما في السَّموات، وما في الأرض له؛ حتَّى يسألوه، ويعبدوه، ولا يعبدوا غيره. انتهى قرطبي. والمراد: كلُّ ما فيهما ملكٌ لِله تعالى مُلكاً، وخلقاً، وعبيداً. وفي: ﴿مَا﴾ تغليب غير العاقل على العاقل؛ لأنَّهم أكثر. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أي: أمور الخلق كلِّهم يوم القيامة، فيجازي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. هذا؛ والفعل يقرأ بالبناء للمجهول، فيكون من المتعدَّي، ويقرأ بالبناء للمعلوم فيكون من الَّلازم؛ لأن هذا الفعل يكون متعدِّياً، ولازماً، فمن المتعدي صراحة قوله تعالى في سورة (التوبة): ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ﴾. ومن اللازم قوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الإعراب: ﴿وَلِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بما بعدهما. ﴿تُرْجَعُ﴾: فعل مضارع يقرأ بالبناء للمعلوم، وبالبناء للمجهول. ﴿ٱلْأُمُورُ﴾: فاعله، أو نائب فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها.

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١١٠﴾

الشرح: ذكر الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: أن سبب نزول الآية مثل ما ذكرته في الآية رقم [١٠٠] ولا وجه له، بل هو كلامٌ مستأنف. ومعنى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ...﴾ إلخ؛ أي: في علم الله تعالى، أو في اللَّوح المحفوظ، أو فيما بين الأمم المتقدِّمين. و﴿خَيْرَ﴾ أفعل تفضيل، أصله: أخير، نقلت حركة الياء للخاء قبلها؛ لأن الحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلَّة، ثم حذفت الهمزة استغناءً عنها بحركة الخاء. ومثله قل في حِبُّ، وشَرُّ، اسمي تفضيل؛ إذ أصلها أَحْبِب وَأَشْرِر، فنقلت حركة الباء الأولى والراء الأولى إلى ما قبلهما، ثم أدغم الحرفان

المتماثلان في بعضهما، ثمَّ حذفت الهمزة من أولهما، استغناءً عنها بحركة الخاء والشين، وقد يستعمل «خيرٌ» و«شرٌّ» على الأصل، كقراءة بعضهم قوله تعالى في سورة (القمر): (سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشَرُّ) بفتح الشين، ونحو قول رؤبة بن العجَّاج: [الرجز]

يَـا قَـاسِـمَ الـخـيْـرَاتِ وَابْـنَ الأَخْـيَـرِ مَـا سَـاسَـنَـا مِـثْـلُـكَ مِـنْ مُـؤَمَّـرِ

و: خير، وشر، وحب، يستعملن بصيغة واحدة للمذكَّر، والمؤنث، والمفرد، والمثنَّى، والجمع؛ لأنهنَّ بمعنى أفعل، كما رأيت. ﴿تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾: انظر الآية رقم [١٠٤] وخذ هنا ما يلي:

عن حُذيفة بن اليمان ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمعروفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ لأَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَاباً مِنْ عِنْدِهِ، ثم تَدْعُوْنَهُ، فَلَا يُسْتَجابُ لكُمْ**». أخرجه أحمد، والترمذيُّ، وابن ماجه. وعن دُرَّة بنت أبي لهب ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت يا رسول الله ﷺ! مَنْ خير النَّاس؟ قال: «**أَتْقاهُمْ لِلرَّبِّ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ، وَآمَرُهُمْ بالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ**». رواه البيهقيُّ، وغيره. وقال الإمام أحمد: قام رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ؛ وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله! أيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟... إلخ الحديث، وذكرَ ما رَوَتْهُ دُرَّة.

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: الإيمان بالله يتضمن كلَّ ما أمر أن يؤمن به. وإنَّما أخَّره، وحقُّه أن يُقدَّم؛ لأنَّه قصد بذكره الدَّلالة على أنَّهم أمروا بالمعروف، ونهوْا عن المنكر إيماناً بالله، وتصديقاً به، وإظهاراً لدينه. وأيضاً: فالإيمان يشترك فيه جميع الأمم المؤمنة، وإنَّما فُضِّلت هذه الأمَّة الإسلاميَّة على غيرها بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فكان ذلك سبباً في تأخير الإيمان بالذِّكر.

﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: اليهود، والنَّصارى بمحمَّدٍ ﷺ، وبالدِّين الذي جاء به. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ أي: لكان الإيمان خيراً لهم ممَّا هم فيه من الرِّياسة، ومن حطام الدُّنيا؛ الذي اغترُّوا فيه، ولو أنَّهم آمنوا؛ لحصل لهم عزُّ الدنيا، وسعادة الآخرة. ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ كعبد الله بن سلام، وأصحابه؛ الَّذين أسلموا من اليهود، والنَّجاشي، وأصحابه؛ الَّذين أسلموا من النصارى. ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: المتمرِّدون في الكفر، والطُّغيان، والفساد. بعد هذا فخذ ما يلي بشأن هذه الأمة.

ففي مسند الإمام أحمد، وجامع الترمذي من رواية حكيم بن معاوية بن حيدة عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنْتُمْ تُوْفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرمُهَا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**». وإنَّما حازت هذه الأمَّة قصب السبق إلى الخيرات بنبيِّها ﷺ فإنَّه أشرف خلق الله، وأكرم الرُّسل على الله، وبعثه الله بشرعٍ كاملٍ عظيم، لم يُعْطَهُ نبيٌّ، ولا رسولٌ قبله، فالعمل على منهاجه، وسبيله يقوم القليل منه مالا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه. ومن قوله ﷺ من الأمور التي خصَّه الله بها: «**وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الأُمَمِ**». رواه الإمام أحمد من حديث عليٍّ، كرَّم الله وجهه.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال النبيُّ ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي بالمواسم، فَرَاثَتْ (تأخرت) عَلَيَّ أُمَّتِي، ثُمَّ رَأَيْتُهُمْ، فَأَعْجَبَتْنِي كَثْرَتُهُمْ، وَهَيْئَتُهُمْ، قَدْ مَلَؤُوا السَّهلَ، والجبلَ. فقال: أَرَضِيتَ يا محمدُ؟ فقلتُ: نعمْ، قال: فإنَّ مَعَ هؤلاءِ سَبعينَ ألفاً، يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَهُمُ الَّذِين لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**». فقام عُكَّاشَةُ بن مِحْصَن الأسدي، فقال: يا رسول الله ادع اللهَ أن يجعلني منهم، فقال: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**». فقام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**».

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال يا رسول الله ﷺ: «**أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» فكبَّرنا.

ثمَّ قال: «**أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟**» فكبَّرنا. ثمَّ قال: «**إِنِّي لأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟**». أخرجه الشَّيخان. فهذه الأحاديث في معنى الآية الكريمة: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ...﴾ إلخ، فمن اتصَّف من هذه الأمَّة بهذه الصِّفات؛ دخل معهم في هذا المدح، كما قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: بلغنا: أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ في حجَّةٍ حجَّها رأى من الناس كثرةً، فقرأ هذه الآية: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ...﴾ إلخ، ثمَّ قال: (مَنْ سرَّه أن يكون من هذه الأمَّة؛ فليؤدِّ شرط الله فيها). رواه ابن جرير.

ومن لم يتَّصف بذلك أشبه أهل الكتاب؛ الذين ذمَّهم الله بقوله: ﴿كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾. ولهذا مدح الله هذه الأمة على هذه الصِّفات. هذا؛ وقال الحافظ أبو بكر بن أبي عاصم في كتاب السُّنن: عن محمد بن زياد، قال: سمعتُ أبا أمامة الباهلي يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الجنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفاً، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفاً، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ، وَلَا عَذَابَ، وَثَلَاثَ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي، عَزَّ وَجَلَّ**». وأكتفي بهذا القدر بشأن هذه الأمَّة.

الإعراب: ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمها. ﴿خَيْرَ﴾: خبرها، وهو مضاف، و﴿أُمَّةٍ﴾: مضاف إليه، وقال القرطبيُّ، وغيره: (كان) التَّامة، والمعنى: خلقتم، ووجدتم خير أمَّةٍ، و﴿خَيْرَ﴾ حال من تاء الفاعل.

وقيل: (كان) زائدة، والمعنى أنتمْ خَيْرُ أُمَّةٍ. وليسا بشيءٍ؛ لأنَّ كان من أفعال الاستمرار تصلح لكلِّ زمان، مثل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ وزيادة «كان» لا تقع إلا بين شيئين متلازمين، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: [الرجز]

وَقَدْ تُزَادُ كَانَ فِي حَشْوٍ كَـ: مَا كَانَ أَصَحَّ عِلْمَ مَنْ تَقَدَّمَا

﴿أُخْرِجَتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى: ﴿أُمَّةٍ﴾ والتاء للتأنيث. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية في محل جرٍّ صفة: ﴿أُمَّةٍ﴾. ﴿تَأْمُرُونَ﴾: فعل مضارع

مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، ومفعوله محذوف للعلم به، وكذا مفعول ما بعده. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية في محلٍّ نصب خبر ثان لـ (كان): أو هي في محل نصب حال من تاء الفاعل. قاله الراغب، وابن عطية. والثالث: أنها في محل نصب صفة لـ ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ قاله الحوفي. والرابع: أنها مستأنفة. وهذا أغرب الأوجه. انتهى نقلاً عن السَّمين. والجملتان بعدها معطوفتان عليها على جميع الوجوه المعتبرة فيها، وجملة: ﴿كُنتُمْ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف استئناف. (لو): حرف لِمَا كان سيقع لوقوع غيره. ﴿ءَامَنَ أَهْلُ﴾: ماض، وفاعله، و﴿أَهْلُ﴾: مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية. ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، وحذف المتعلق للعمل به بداهة، انظر الشرح. ﴿لَكَانَ﴾: اللام: واقعة في جواب (لو). (كان): فعل ماض ناقص، واسمه ضمير يعود على المصدر المدلول عليه بفعله، التقدير: لكان الإيمان خيراً لهم. والجملة الفعلية جواب (لو) لا محلَّ لها، و(لو) ومدخولها كلامٌ مستأنف، لا محلَّ له.

﴿مِّنْهُمُ﴾: مضمون الجار والمجرور مبتدأ؛ لأنهما بمعنى: بعضهم، ويؤيده عطف (أكثرهم) عليه، ومقابلته به، ولا يصح المعنى إلا على هذا الاعتبار، وهو خيرُ ما يؤيِّد ما ذهبتُ إليه فيما مضى. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، واعتبارها في محل نصب حال من: ﴿أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لا بأس به، ويكون الرابط الضمير فقط، والتي بعدها معطوفة عليها على الاعتبارين.

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾﴾

الشرح: سبب نزول هذه الآية: أن رؤساء اليهود عمدوا إلى من آمن منهم، كعبد الله بن سلام، وأصحابه ـ رضوان الله عليهم ـ يؤذونهم لإسلامهم. والمعنى: لن يضرُّوكم أيُّها المؤمنون إلا أذىً، يعني: باللِّسان، من طعنهم في دينكم، أو تهديد، أو إلقاء شبهة، وتشكيك في القلوب، وكلُّ ذلك يسبب الأذى، والغمِّ. ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾ أي: منهزمين مخذولين. ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾: لا يكون لهم النصر عليكم، بل تنصرون عليهم. فأخبر الله سبحانه: أن الدائرة على اليهود؛ إن قاتلوا، وأنَّ عاقبتهم العجز، والخذلان. وهذه الآية من الإخبار بالمغيبات؛ الَّتي وافقها الواقع؛ إذ كان كذلك حال قريظة، والنَّضير، وبني قينقاع، ويهود خيبر، كلُّهم أذلَّهم الله، وكذلك النَّصارى في الشَّام هزمهم الصَّحابة في غير ما موطن، وسلبوهم ملك الشام. والتاريخ شاهد صدقٍ على ذلك، وانظر إعلال مثل: ﴿أَذًى﴾: في الآية رقم [٣].

هذا؛ و﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾ جمع دُبر بضم الباء، وسكونها، وهو الظَّهر. ودبر كل شيء: آخره، وعقبه، فعن كعب بن عجرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، قال: «**مُعَقِّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ، أَوْ فَاعِلُهُنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ: ثَلاثٌ وثلاثونَ تسبيحةً، وثلاثٌ وثلاثونَ تحميدةً، وأربعٌ وَثلاثون تكبيرةً**». رواه مسلم، والترمذي، والنَّسائي.

الإعراب: ﴿لَن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يَضُرُّوكُمۡ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿لَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿أَذٗىۖ﴾: مستثنىً من المصدر العام،كأنه قيل: لن يضروكم ضرراً ألبتَّةَ إلا ضرر أذىً لا يُبالى به. وقيل: هو منصوب بنزع الخافض، التقدير: إلا بأذىً يسير، ولا بأس به، وعليه: فالجار، والمجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب على الاستثناء. ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية. ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿يُوَلُّوكُمُ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم مثل فعل شرطه، والواو فاعله، والكاف مفعوله الأول. ﴿ٱلۡأَدۡبَارَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف في الإعراب، وفي المعنى حرف استئناف. (لا): نافية. ﴿يُنصَرُونَ﴾ فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع... إلخ، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، ولهذا ثبتت فيها النون، وللزمخشري كلامٌ جيدٌ ملخصه: وعدل به عن حكم الجزاء إلى حكم الإخبار ابتداءً، كأنَّه قيل: ثمَّ أخبركم: أنهم مخذولون منتفٍ عنهم النصر، ولو جزم؛ لكان نفي النَّصر مقيداً بقتالهم، بينما النَّصر وعدٌ مطلق بقتالٍ، أو بدونه، فهم مخذولون على كلِّ حال. وهو جيدٌ، وألف جيد.

﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ١١٢﴾

الشرح: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي: لزمهم الذلُّ، والهوان. ﴿أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: أحاط بهم كما يحيط البيت المضروب بصاحبه، ففيه استعارة بالكناية، حيث شبَّه الذلَّ بالخباء المضروب على أصحابه. قال الشاعر في مدح ابن الحَشْرج أمير خراسان: [الكامل]

إنَّ السَّمَاحَةَ وَالْمُرُوءَةَ وَالنَّدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الْحَشْرَجِ

وقال الفرزدق في هجاء جرير، ووعيده، وتهديده له: [الكامل]

ضَرَبَتْ عَلَيْكَ الْعَنْكَبُوتُ بِنَسْجِهَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِهِ الْكِتَابُ الْمُنْزَلُ

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾: أينما وجدوا. قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾. هذا؛ والثَّقف في الأصل: الحذق في إدراك الشيء علماً كان، أو عملاً، فهو يتضمَّن معنى الغلبة، يقال: ثقف، يثقف ثقفاً، ويقال: رجل ثَقِف لَقِف، أي: خفيف حاذق: إذا كان محكماً لِمَا يتناوله من الأمور. قال الشاعر: [الوافر]

فَإِمَّا تَثْقَفُونِي فَاقْتُلُونِي فَمَنْ أَثْقَفْ فَلَيْسَ إِلَى خُلُودِ

﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: إلا بعهدٍ من الله، وهو أن يُسْلِموا، فتزول عنهم الذلَّة. ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ بعهدٍ من الناس أي: المؤمنين ببذل الجزية، والمعنى: ضربت عليهم الذلَّة في عامَّة الأحوال، إلا في حال اعتصامهم بحبل الله، وحبل من النَّاس، وهو ذمَّة الله، وعهده، وذمَّة المسلمين، وعهدهم، لا عزَّ لهم إلا بهذه الواحدة، وهي التجاؤهم إلى الذمَّة لما قبلوه من بذل الجزية، ولذا قدَّر القرطبي: إلا أن يعتصموا بحبل، وإنَّما سمي العهد حبلاً؛ لأنه يوصل إلى الأمن، وزوال الخوف. وانظر الاستعارة في الآية رقم [١٠٣].

﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ﴾ أي: انقلبوا، ورجعوا بغضب من الله؛ أي: لزمهم ذلك. وصاروا أحقاء به، ومنه قول النبي ﷺ في حديث الاستغفار: «**أَبُوْءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**» أي: أعترف بنعمتك عليَّ، وأرجع بذنبي إليك؛ لتغفره لي. وقال تعالى في سورة (المائدة) حكاية عن قول هابيل لأخيه قابيل: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ وأصله في اللغة: الرجوع، ومثله: آب بتقديم الهمزة **على** الباء، قال عمرو بن كلثوم التغلبي في معلَّقته رقم [٧٧] [الوافر]

فَآبُوا بِالنِّهَابِ وَبِالسَّبَايَا وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

أي: رجعوا، ورجعنا. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ هذا؛ والذلَّة: الذلُّ والصَّغار، والمسكنة: الفقر، فلا يوجد يهوديٌّ، وإن كان غنيّاً خالياً من زَيِّ الفقر، وخضوعه، ومهانته، ولقد أذلَّهم الله كلَّ حياتهم، وفي جميع عصورهم، فـ (بختنصر) المجوسي أذلَّهم، وامتهنهم، كما رأيت في أوَّل سورة الإسراء، ثمَّ النصارى ساموهم سوء العذاب، ولمَّا جاء الإسلام؛ طردهم الرسول ﷺ من المدينة المنوَّرة، ثمَّ طهَّر الفاروق بلاد الحجاز من رجسهم، ثمَّ لما فُتِحَ بيت المقدس في عهده ضرب عليهم الجزية، ولكن في هذه الأيام صار لهم صولةٌ، ودولةٌ بسبب تفرُّق المسلمين، وإهمالهم لتعاليم دينهم، وتركهم لسنَّة نبيِّهم، وتركهم الجهاد في سبيل الله، وإقبالهم على الدُّنيا، وكأنَّ الله نزع الذلَّة، والمسكنة من رقاب اليهود، وألبسهما أعناق المسلمين بسبب ذلك. وخذ ما يلي:

عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمُ الأُمَمُ، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا**» فقال قائل: مِنْ قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: «**بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرونَ،**

وَلكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ». قالوا: وما الوهن يا رسول الله؟! قال: «**حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ**». أخرجه أبو داود، وأحمد، وغيرهما.

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا، لَا يَنْزِعُهُ عَنْكُمْ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ**». أخرجه أبو داود. ومِنْ قول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: نحن قومٌ أعزَّنَا اللهُ بالإسلام، إذا طلبنا العزَّة بغيره؛ أذلَّنا الله.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: بسبب كفرهم بآيات الله؛ أي: التوراة، أو بالمعجزات؛ الَّتي أجراها الله على يد موسى تأييداً لدعوته، وتقويةً لحجَّته. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾ مثل: يحيى، وزكريا، وشعيا، وغيرهم، فعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «**كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلاثمئة نبي، ثمَّ يقيمون سوق بقلهم في آخر النهار**» بمعنى: لا يهمهم ذلك، ولا يكترثون به، ولا يحسبون له حساباً. رواه أبو داود الطيالسي. وكلمة: «**في اليوم**» لا تعني كلَّ يوم، ولكن في بعض الأيام، وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، أَوْ قَتَلَ نَبِيّاً، وَإِمَامُ ضَلَالَةٍ، وَمُمَثِّلٌ مِنَ المُمَثِّلِينَ**». أخرجه الإمام أحمد في مسنده. وهذا الحديث قاله الرسول ﷺ حين طَعَنَ أُبَيَّ بنَ خلفٍ في غزوة أحدٍ، وكان ذلك سبباً في موته.

﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾: معلوم: أنَّه لا يقتل نبيٌّ بحقٍّ، ولكن يقتل بالدِّفاع عن الحقِّ، فصرح بقوله ذلك للتَّشنيع عليهم، فلم يأت نبي قط بشيء يوجب قتله. فإن قيل: كيف جاز أن يُخَلَّى بين الكافرين وقتل الأنبياء؟ قيل: ذلك كرامةً لهم، وزيادةً في علوِّ مقاماتهم، كمثل من يُقْتَلُ في سبيل الله من المؤمنين، وليس ذلك خذلاناً لهم. قال ابن عبَّاسٍ، والحسن ـ رضي الله عنهم ـ لم يُقْتَلْ نبيٌّ قطُّ من الأنبياء إلا مَنْ لم يُؤمر بقتالٍ، وكلُّ مَنْ أُمِرَ بقتالٍ؛ نُصر. انتهى، ومعلوم: أن نبينا ﷺ أُمِرَ بقتالٍ، فنُصِر. والحمد لله!

﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟﴾: الإشارة إلى ما تقدَّم من ضرب الذلَّة، والمسكنة عليهم، والعصيان: خلاف الطاعة. ﴿وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾: يتجاوزون حدود الله، فينتهكونها، ويؤخذ من هذا: أنَّ صغار الذنوب يجرُّ إلى كبارها، وأنَّ صغار الطَّاعات يجرُّ إلى كبارها أيضاً، فاليهود جرَّهم ارتكاب معصية الله إلى عظائم الأمور؛ حيث قتلوا الأنبياء، واستحلُّوا المحرَّمات، وجرَّهم ذلك أيضاً إلى الكفر بمحمَّدٍ ﷺ، وتحريف التَّوراة، وغير ذلك ممَّا ذكره القرآن الكريم عنهم.

الإعراب: ﴿ضُرِبَتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث حرف لا محلَّ له. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلذِّلَّةُ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها.

﴿أَيْنَ مَا﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون، ويقال: مبني على الفتح و(ما) زائدة في محل نصب على الظرفية المكانية متعلّق بالفعل بعده. ﴿ثُقِفُوٓاْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، وإن اعتبرت الشرط متعلقاً بجوابه؛ فالجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿أَيْنَ مَا﴾ إليها، وجواب الشرط محذوف، التقدير: عذِّبوا، وذُلّوا. وقيل: دلَّ عليه ما قبله. هذا؛ وإن اعتبرت: ﴿أَيْنَ مَا﴾ ظرفاً مجرداً عن الشرطية؛ فلا يحتاج إلى جواب، ويكون متعلقاً بالفعل: ﴿ضُرِبَتْ﴾ والمعنى لا يأباه. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿بِحَبْلٍ﴾: متعلقان بمحذوف في محل نصب حال مستثنىً من عموم الأحوال، والمعنى: ضربت عليهم الذلَّة في عامَّة الأحوال إلا في حال اعتصامهم بحبلٍ. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة (حبل). ﴿وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على ما قبله، وهو مثله في إعرابه. (بَاؤُوا): فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِغَضَبٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وقال أبو البقاء: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة؛ أي: رجعوا مغضوباً عليهم، وهو جيِّد. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: (غضب) أو هما متعلقان به؛ لأنه مصدر، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾: هذه الجملة معطوفة على سابقتها، وهي مثلها في إعرابها بلا فارق.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿بِأَنَّهُمْ﴾: الباء: حرف جر. (أنهم): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿يَكْفُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله. ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(آيات) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: ﴿كَانُواْ﴾. وهذه الجملة في محل رفع خبر (أنَّ) و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل جرٍّ بالباء، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿ذَٰلِكَ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محل لها. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾: مضارع، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مثلها. ﴿بِغَيْرِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، التقدير: مبطلين بغير. و(غير) مضاف، و﴿حَقٍّ﴾ مضاف إليه.

﴿ذَٰلِكَ﴾: مبتدأ مثل سابقه. ﴿بِمَا﴾: الباء: حرف جر. (ما): مصدرية. ﴿عَصَواْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة، لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق، و(ما) والفعل في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار ولمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، التقدير: ذلك بسبب عصيانهم. والجملة الاسمية هذه مستأنفة لا محل لها، وهي مؤكِّدة لسابقتها. ﴿وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ﴾: إعرابها مثل إعراب: ﴿كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ وهي

معطوفة على ما قبلها، وتؤوَّل مثلها بمصدر بسبب العطف، التقدير: ذلك بسبب عصيانهم، وبسبب اعتدائهم.

﴿۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾﴾

الشرح: قال ابن عباس رضي الله عنه: لمَّا أسلم عبدُ الله بن سلام، وأصحابه من اليهود؛ قالت أحبار اليهود: ما آمن بمحمد ﷺ إلا شرارُنا، ولولا ذلك ما تركوا دين آبائهم. فأنزل الله الآية الكريمة. وفي قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ قولان: أحدهما: أنه كلام تامٌّ يوقف عليه. والمعنى عليه: أن أهل الكتاب الَّذين سبق ذكرهم: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ ليسوا سواءً. وقيل: لا يستوي اليهود، وأمَّة محمد ﷺ القائمة بأمر الله، الثابتة على الحقِّ. والأوَّل هو الأقوى. والقول الثاني: أنَّ قوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ متعلِّق بما بعده، ولا يوقف عليه. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾: فيه اختصار، وإضمار، والتقدير: ليسوا سواءً من أهل الكتاب.

﴿لَيْسُوا﴾: الضمير يعود إلى أهل الكتاب. ﴿سَوَآءً﴾: انظر الآية رقم [٢/٦] ﴿أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: انظر الآية رقم [٦٤] ﴿أُمَّةٌ﴾: انظر الآية رقم [٢/١٢٨]. ﴿قَآئِمَةٌ﴾: انظر إعلال مثله في الآية رقم [١٨] ومعناه: المستقيمة العادة الثابتة، وهم الذين أسلموا منهم كـ «**عبد الله بن سلام**» وأصحابه، وجماعة من نصارى نجران أسلموا. ﴿يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾: يقرؤون القرآن. وقيل: المراد: يصلون في الليل، فيقرؤون القرآن، وانظر الآية رقم [٢/٣٩] ﴿ٱللَّهِ﴾: انظر الاستعاذة. ﴿ءَانَآءَ﴾: ساعات، واحدها إِنْى بفتح الهمزة والنون، أو: إِنَى بكسر الهمزة وفتح النون، أو أَنْي بالفتح والسكون، و: إِنِّي بالكسر والسكون، أو: إِنْو بالكسر والسكون وبالواو، وكل واحد من هذه المفردات الخمس يطلق على الساعة من الزمان. وانظر مفرد آلاء في الآية رقم [٧/٦٨] فهو قريب منه. ﴿ٱلَّيْلِ﴾: انظر الآية رقم [٢/٥١] ﴿يَسْجُدُونَ﴾: يصلون. هذا وقد جمع الضمير فيه وفي يتلون، وكذلك فيما يأتي مع كونه راجعاً إلى أمة، وذلك باعتبار عدد أفرادها.

الإعراب: ﴿لَيْسُوا﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضمِّ، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿سَوَآءً﴾: خبرها، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿مِّنْ أَهْلِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، و﴿أَهْلِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾ مضاف إليه. ﴿أُمَّةٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، وهي مفيدةٌ للتفصيل المتضمِّن نفي التسوية بين المستقيمين من أهل الكتاب، وبين المنحرفين منهم. ﴿قَآئِمَةٌ﴾: صفة ﴿أُمَّةٌ﴾. هذا؛ وأجاز الفرَّاء رفع ﴿أُمَّةٌ﴾ بـ﴿سَوَآءً﴾ وليس بشيء يعتدُّ به. وقال أبو عبيدة ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿أُمَّةٌ﴾ اسم (ليس) و﴿سَوَآءً﴾ خبرها، وأتى الضمير في (ليس) على لغة مَنْ قال: أكلوني البراغيث. وهذا بعيدٌ جداً.

﴿يتلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محلِّ رفع صفة ثانية لـ﴿أُمَّةٌ﴾ أو في محل نصب حال من الضمير المستتر بـ ﴿قَآيِمَةٌ﴾. ﴿ءَانَآءَ﴾: ظرف زمان متعلِّق بالفعل: ﴿يتلُونَ﴾ وهو مضاف، و﴿ٱلَّيْلِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، والجملة بعده في محل رفع خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة. والرابط: الواو، والضمير. وأجيز اعتبارها معطوفة على جملة: ﴿يتلُونَ﴾ فتكون حالاً من الضمير المستتر بـ﴿قَآيِمَةٌ﴾ مثلها.

﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾

الشرح: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾: يقرُّون بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبسيِّدنا محمد ﷺ نبيّاً، وشفيعاً، ورسولاً. ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: يعتقدون بوجوده، وبوقوعه لا محالة، وذلك؛ لأن إيمان أهل الكتاب فيه شركٌ، ويصفون اليوم الآخر بغير ما يصفه المؤمنون مِن أمَّة محمد ﷺ، والإيمان بالله يستلزم الإيمان بجميع أنبيائه، وأهل الكتاب ليسوا كذلك، والإيمان باليوم الآخر يستلزم الحذر من جميع المعاصي، وأهل الكتاب لا يحترزون منها، فلم يحصل الإيمان الخالص بالله واليوم الآخر. ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ...﴾ إلخ: يعني غير مداهنين، كما يداهن أهل الكتاب بعضُهم بعضاً، ويأمرون بتوحيد الله وبمحمَّد ﷺ وينهوْن عن الشرك، وعن كتم صفة محمد ﷺ.

﴿وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ أي: يعملونها مبادرين غير متثاقلين لمعرفتهم بقدر ثوابها، ومبادرتهم بالعمل الصَّالح قبل الموت. قال تعالى في وصف الأنبياء في سورة (الأنبياء): ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ...﴾ إلخ. ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي: مع الصالحين في الجنة، وهم أصحاب محمد ﷺ الذين صلحت أحوالهم عند الله تعالى، واستحقُّوا رضاه، وإحسانه، وثناءه. والإشارة بالبعيد لبيان علوِّ درجتهم، ومنزلتهم في الفضل. هذا؛ والصَّلاح: ضد الفساد، فإذا حصل الصَّلاح للعبد؛ فقد حصل له أعلى الدَّرجات، وأكمل المقامات، كيف لا؛ والصِّدِّيق يوسف ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ حكى القرآن دعاءه: ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وحكى دعاء سليمان ـ على حبيبنا، وعليه ألف تحيَّة ـ: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ولكن بعض مشايخ المسلمين يمدُّ يده لِتُقَبَّل، ويقول: يُسَنُّ تقبيل يد الرجل الصَّالح، والرَّسول ﷺ رفض تقبيل يده، وخذ ما يلي:

قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: دخلت السُّوق مع النبيِّ ﷺ، فاشترى سراويل، وقال للوزان: (زن وأرجح) فوثب الوزَّان إلى يد رسول الله ﷺ ليقبِّلها، فجذب يده، وقال: « **هَذَا تَفْعَلُهُ الأَعَاجِمُ**

بِمِلُوكِهَا، وَلَسْتُ بِمَلِكٍ، وَإِنَّمَا أَنَا رَجُلٌ مِنْكُمْ» ثمَّ أخذ السراويل، فذهبتُ لأحملها، فقال: «**صَاحِبُ الشَّيْءِ أَحَقُّ بِشَيْئِهِ أَنْ يَحْمِلَهُ**» ولكنَّ المشايخ في هذه الأيام يمدُّون أيديهم للتَّقبيل.

هذا؛ وقد تكرَّر الحثُّ على الأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر في هذه السُّورة الكريمة. وخذ ما يلي ملخصاً من القرطبيِّ ـ رحمه الله تعالى ـ: أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البرِّ ـ رحمه الله تعالى ـ : أنَّ المنكر واجبٌ تغييره على كلِّ مَنْ قدر عليه، وأنَّه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللَّوم؛ الذي لا يتعدى إلى الأذى؛ فإنَّ ذلك لا ينبغي أن يمنعه من تغييره، فإن لم يقدر، فبقلبه، ليس عليه أكثر من ذلك، وإذا أنكر بقلبه، فقد أدَّى ما عليه إذا لم يستطع سوى ذلك. قال: والأحاديث عن النبيِّ ﷺ في تأكيد الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر كثيرةٌ جدّاً، ولكنَّها مقيَّدة بالاستطاعة، قال الحسن البصريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ : إنَّما يُكَلَّمُ مؤمنٌ يُرجى، أو جاهلٌ يعلم، فأمَّا من وضع سيفه، أو سوطه، فقال: اتَّقِني! اتَّقِني! فما لك، وماله. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: بحسْب المرء إذا رأى منكراً، لا يستطيع تغييره أن يعلم اللهُ مِنْ قلبه: أنه له كاره. وروى ابن لهيعة عن الأعرج، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ**». قالوا: يا رسول الله! وما إذلال نفسه؟ قال: «**يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاءِ لِمَا لا يَقُومُ لَهُ**». وروي عن بعض الصَّحابة: أنه قال: إنَّ الرَّجل إذا رأى منكراً، لا يستطيع النكير عليه؛ فليقل ثلاث مرات: اللهم إنَّ هذا منكرٌ. فإذا قال ذلك؛ فقد فعل ما عليه. وزعم ابن العربيِّ: أنَّ مَنْ رَجَا زَواله، وخاف على نفسه من تغييره الضَّرب، أو القتل؛ جاز له عند أكثر العلماء الاقتحام عند هذا الغرر، وإن لم يرج زواله؛ فأيُّ فائدة عنده؟ قال: والذي عندي: أنَّ النية إذا خلصت؛ فليقتحم، كيف ما كان، ولا يبالي.

الإعراب: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلقان به. ﴿وَالْيَوْمِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿الْآخِرِ﴾: صفة: (اليوم) والجملة الفعلية في محل رفع صفة ثانية لـ ﴿أُمَّةٌ﴾ أو في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الضمير فقط، أو من الضمير في: ﴿قَائِمَةٌ﴾ أو هي مستأنفة لا محل لها بالإعراض عمَّا قبلها. وما بعدها مثلُها في محلِّها، وإعرابها. ﴿وَأُولَئِكَ﴾: الواو: حرف استئناف، (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، وعطفها على ما قبلها لا يجيزه من لا يجيز عطف الاسمية على الفعلية.

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ...﴾ إلخ: قرئ الفعلان بالياء؛ لأنَّ الكلام متصل بما قبله من ذِكْر مؤمني أهل الكتاب، وذلك: أنَّ اليهود قالوا لعبد الله بن سلام، وأصحابه: إنَّكم خسرتم

بسبب هذا الدِّين؛ الذي دخلتم فيه ما عملتم من الصَّالحات. فأخبر الله ـ عزَّ، وجلَّ ـ: أنهم فازوا بالدَّرجات العلى، وما فعلوه من خير يجازيهم به الله. ولا يمنع خصوص السبب عموم الحكم، فيدخل فيه كلُّ فاعل للخير، وقرئ الفعلان بالتاء على أنَّه ابتداء كلام، وهو خطاب لجميع المؤمنين، فيدخل فيه مؤمنو أهل الكتاب أيضاً. ومعنى: (فَلَنْ تُكفَروه): فلن تُعدموا ثوابه، أو تمنعوه، بل يشكره الله لكم، ويجازيكم به. هذا وسمَّى الله ذلك كفراناً، كما سمَّى توفية الثواب شكراً. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ بمعنى: إنَّ الله عليم بعمل المتقين، فيجازيهم على عملهم أحسن الجزاء. ففيه بشارةٌ لهم، وإشعارٌ بأنَّ التَّقوى مبدأ الخير، وحسن العمل، وأنَّ الفائز عند الله هم المتَّقون، والله لا يُضيع أجر من أحسن عملاً.

و(المتقين) جمع: متقٍ، فهو مأخوذ من التَّقوى، وهي حفظ النفس من العذاب الأخروي بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأن أصل المادة من «**الوقاية**» وهي: الحفظ، والتحرُّز من المهالك دنيا، وأخرى. وفيه تغليب الرجال على النِّساء؛ إذ ما مِنْ شكٍّ أنَّ في النساء متَّقياتٍ، وصالحاتٍ. هذا؛ وأصل (المتقين): الْمُوْتَقِين، فيقال في إعلاله: قلبت الواو تاءً، وأدغمت في التاء، وحذفت الكسرة عن الياء الأولى، ثمَّ حذفت الياء لالتقاء الساكنين، فصار: (المتقين).

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدَّم. ﴿يَفْعَلُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من (ما). و﴿مِنْ﴾ بيان لما أبهم فيها، والجملة الفعلية ابتدائية، لا محلَّ لها من الإعراب. ﴿فَلَن﴾: الفاء واقعة في جواب الشرط. (لن): حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يُكْفَرُوهُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ (لن) وعلامة نصبه حذف النون، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأوَّل، والهاء مفعوله الثاني، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد، والجملة الشرطية مستأنفة لا محل لها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله عليم): مبتدأ، وخبر﴿بِٱلْمُتَّقِينَ﴾: متعلقان بـ ﴿عَلِيمٌۢ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من واو الجماعة؛ فلست مفنِّداً، وتكون الحال بمعنى الظرف كما رأيت في الآية رقم [٥٧]. هذا؛ وتعدَّى: ﴿يُكْفَرُوهُ﴾ إلى مفعولين؛ وإن كان: (شكر)، و(كفر) لا يتعدَّيان إلا إلى واحدٍ، تقول: شكر النِّعمة، وكفرها؛ لتضمُّنه معنى الحرمان، فكأنه قيل: فلن تحرموه؛ أي: فلن تحرموا جزاءه، وأجره.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۚ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المراد بهذه الآية بنو قريظة، وبنو النضير، وذلك: أنَّ رؤساء اليهود مالوا إلى تحصيل الأموال في معاداة الرَّسول ﷺ، وإنَّما كان مقصودهم بمعاداته تحصيل الرياسة، والأموال، فقال الله ـ عز وجل ـ: ﴿لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ﴾. وقيل: نزلت في مشركي قريش، فإن أبا جهل الخبيث كان كثير الافتخار بالأموال، وأنفق أبو سفيان مالاً كثيراً في يوميْ بدر وأُحُدٍ على المشركين. وقيل: إنَّ الآية عامَّةٌ في جميع الكفار؛ لأن اللفظ عام، ولا دليل يوجب التخصيص، فوجب إجراء اللَّفظ على عمومه. وإنَّما خصَّ الأموال، والأولاد بالذِّكر؛ لأن الإنسان يدفع عن نفسه تارةً بالفداء بالمال، وتارةً بالاستعانة بالأولاد، فأعلم الله عز وجل: أن الكافر لا ينفعه شيءٌ من ذلك في الآخرة، ولا مخلص من عذاب الله. وهو فحوى الجملة التالية. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٠] فإنَّه جيد، والحمد لله! ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ...﴾ إلخ: انظر سورة (البقرة) رقم [٢٥٧].

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم: ﴿إِنَّ﴾ وجملة: ﴿كَفَرُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿لَن تُغْنِىَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَن﴾. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿أَمْوَٰلُهُمْ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَلَآ﴾: الواو: حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي. ﴿أَوْلَٰدُهُم﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محل لها. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿تُغْنِىَ﴾ وهما في محل نصب مفعول به. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول مطلق، أو نائب عنه، وجوِّز أن يكون مفعولاً به، وعليه فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال منه، كان صفةً له، فلما قُدِّم عليه؛ صار حالاً.

﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ﴾: الواو: حرف استئناف. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محل له. ﴿أَصْحَٰبُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّارِ﴾: مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معطوفة على ما قبلها، لا محل لها على الاعتبارين. ﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿خَٰلِدُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ والعامل في الحال اسم الإشارة لما فيه من معنى التشبيه، والرابط الضمير فقط، وفيها معنى التأكيد للكلام السابق، وَجُوِّز اعتبارها خبراً ثانياً لـ (أولئك). والأول أقوى.

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾

الشرح: في الآية الكريمة تشبيه، وتمثيل لنفقات الكافرين في معاداة الرسول ﷺ، ومحاربة الإسلام. ويشمل أيضاً نفقات المرائين، كما رأيت في الآية رقم [٢٦٣] من سورة (البقرة) والتي بعدها. كما يشمل أيضاً نفقات المنَّانين، وانظر شرح (مثل) في الآية رقم [٢٦٤]: منها أيضاً، وشرح (أصاب) فيها أيضاً، ولقد وصف الله الحياة الَّتي نحياها بـ (الدنيا) لحقارتها، ومهانتها، وأنَّها لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ورحم الله من يقول: [الكامل]

يَـا خَـاطِـبَ الـدُّنْـيَـا الـدَّنِـيَّـةِ إِنَّـهَـا ... شَـرَكُ الـرَّدَى وَقَـرَارَةُ الأَكْـدَارِ
دَارٌ مَـتَـى مَـا أَضْـحَـكَـتْ فِـي يَـوْمِـهَـا ... أَبْـكَـتْ غَـداً تَـبّـاً لَـهَـا مِـنْ دَارِ

وما أحسن قول الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ في ذمِّها: [الطويل]

وَمَـا هِـيَ إِلَّا جِـيـفَـةٌ مُـسْـتَـحِـيـلَـةٌ ... عَـلَـيْـهَـا كِـلابٌ هَـمُّـهُـنَّ اجْـتِـذَابُـهَـا
فَـإِنْ تَـجْـتَـنِـبْـهَـا كُـنْـتَ سِـلْـماً لأَهْـلِـهَـا ... وَإِنْ تَـجْـتَـذِبْـهَـا نَـازَعَـتْـكَ كِـلابُـهَـا

وانظر شرح ﴿ٱلرِّيَـٰحِ﴾ في الآية رقم [١٦٤]: من سورة (البقرة) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿فِيهَا﴾: في الريح. ﴿صِرٌّ﴾: فيه وجهان: أحدهما وهو قول أكثر المفسرين، وأهل اللغة: أنَّ الصِّر: البرد الشديد. قاله ابن عباس، وقتادة، والسُّدِّي، وابن زيد ـ رضي الله عنهم ـ. والوجه الثاني: أنَّ الصِّر: هو السموم الحارَّة؛ التي تقتل. وهو رواية عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وبه قال ابن الأنباري من أهل اللغة. وعلى الوجهين فالتشبيه صحيحٌ، والمقصود منه حاصلٌ؛ لأنَّها سواء كان فيها برد، فهي مهلكة، أو حرٌّ، فهي مهلكة أيضاً، وعليه، فهو من الأضداد واللغة العربية غنيَّةٌ بالكلمات التي تعني الضدَّين، ومنه: ﴿ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ في كثير من الآيات، فهو يحتمل أن يكون بمعنى الماضين، وبمعنى الباقين. قال أبو ذؤيب الهُذليُّ من قصيدته في رثاء أولاده: [الكامل]

فَـغَـبَـرْتُ بَـعْـدهُـمُ بِـعَـيْـشٍ نَـاصِـبٍ ... وَإِخَـالُ أَنِّـي لاحِـقٌ مُـسْـتَـتْـبَـعُ

ومنها لفظ: «جَلَلْ» للعظيم، والحقير، فمن الأول قول الحارث بن وعلة بن ذهل بن شيبان الذُّهلي ـ وهو الشاهد رقم [١٩٢]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [السَّريع]

فَـلَـئِـنْ عَـفَـوْتُ لأَعْـفُـوَنْ جَـلَـلاً ... وَلَـئِـنْ سَـطَـوْتُ لأوهِـنَـنْ عَـظْـمِـي

ومن الثاني قول امرئ القيس لمَّا قُتِلَ أبوه، وهو الشاهد رقم [١٩٣] من كتابنا المذكور: [المتقارب]

بِـقَـتْـلِ بَـنِـي أَسَـدٍ رَبَّـهُـمْ ... أَلا كُـلُّ شَـيْءٍ سِـوَاهُ جَـلَـلْ

أي: هيِّن حقيرٌ، لا قيمة له. ومنها «الجون» للأبيض، والأسود، و«الْبَيْن» للقرب، والبعد و«الصَّريم» لِلَّيل، والنهار، وبهما فُسِّر قوله تعالى في سورة (ن): ﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ و«**النَّاصع**» للأبيض، والأسود، و«النَّاهل» للريَّان، والعطشان، و«السَّليم» للَّديغ، والصحيح، و«وراء» بمعنى خلف، وقدام، و: شعبت الشيء: أصلحته، وشققته، و«الصَّارخ» للمغيث، والمستغيث، و«الهاجد» للمصلِّي في الليل، والنائم، و«الوهدة» للانحدار، والارتفاع، و«التعزير» للإكرام، والإهانة، و«التقريظ» للمدح، والذم، و«تَرِب» للغنيِّ، والفقير، و«الإهماد» للسرعة في السَّير والإقامة، و«عسعس» إذا أقبل، وإذا أدبر، قال تعالى في سورة (التكوير): ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ و«الْقُرْءُ» للحيض، والطُّهر.

ومنه قيل في قوله تعالى في الآية رقم [٦٢]: من سورة (طه) وفي الآية رقم [٣]: من سورة (الأنبياء): ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَى﴾ وفي الآية رقم [٥٤]: من سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ﴾. إنَّ أسروا: يحتمل أن يكون بمعنى: أظهروا، أو أن يكون بمعنى: أخفوا، فهو من الأضداد، كما قيل به في قول امرئ القيس ـ وهو الشاهد رقم [٤٧٢]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

تَجَاوَزْتُ أَحْرَاساً عَلَيْهَا وَمَعْشَراً عَلَيَّ حِرَاصاً لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي

﴿أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٍ﴾ أي: أصابت الرِّيح التي فيها صرٌّ زرع قوم. ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾: بالكفر، والمعاصي، ومنع حق الله فيه. ﴿فَأَهۡلَكَتۡهُۚ﴾ أي: أهلكت الريح الزَّرع، وفحوى الآية: أنَّ مثل نفقات الكفار، والمنافقين، والمرائين في ذهابها وقت الحاجة إليها، كمثل زرع أصابته ريحٌ باردةٌ، فأهلكته، أو نارٌ، فأحرقته، فلم ينتفع به أصحابه. وفي الآية التشبيه المركَّب، وهو ما حصلت فيه المشابهة بين ما هو المقصود من الجملتين، وإن لم تحصل المشابهة بين أجزاء الجملتين. فعلى هذا زال الإشكال. ومن التشبيه ما حصلت فيه المشابهة بين المقصودين من الجملتين، وبين أجزاء كلٍّ واحدةٍ منهما، فإن جعلنا هذا المثل مِنْ هذا القسم؛ ففيه وجهان: أحدهما: أن يكون التقدير: مثل الكفر في إهلاك ما ينفقون، كمثل الريح المهلكة للحرث. الوجه الثاني: مثل ما ينفقون كمثل مهلك الرِّيح، هو الحرث. والمقصود من ضرب هذا المثل هو تشبيه ما ينفقون بشيءٍ يذهب بالكليَّة، ولا يبقى منه شيءٌ. ويطلق على هذا التشبيه اسم: التشبيه التمثيلي أيضاً.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: بعدم قبول نفقاتهم. ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ أي: ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي، فاستحقُّوا عقابه، وحُرِموا الأجر، والثواب. حيث لم يجعلوها محلاًّ للقبول، ومنارةً للوصول. وانظر شرح (النفس) في الآية رقم [٦١].

الإعراب: ﴿مَثَلُ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿مَا﴾: مبنية على السكون في محل جر بالإضافة، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع،

وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: مثل الذي، أو: شيء ينفقونه، وعلى اعتبار: ﴿مَا﴾ مصدرية تؤوَّل مع الفعل بمصدر في محل جر بالإضافة، التقدير: مثل إنفاقهم المال. ﴿فِي هَٰذِهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. أو هما متعلقان بمحذوف حال من المفعول المحذوف، التقدير: كائناً في هذه. ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه، وبعضهم يعتبره نعتاً. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة: ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذُّر. ﴿كَمَثَلِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿صِرٌّ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية: ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾: في محل جر صفة: ﴿رِيحٍ﴾. هذا؛ ويجوز على مذهب الأخفش تعليق الجار والمجرور بمحذوف صفة: ﴿رِيحٍ﴾ واعتبار: ﴿صِرٌّ﴾ فاعلاً بمتعلق الجار والمجرور.

﴿أَصَابَتْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿رِيحٍ﴾ والتاء للتأنيث، والجملة الفعلية في محل جر صفة ثانية لـ ﴿رِيحٍ﴾ أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدَّم. ﴿حَرْثَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿قَوْمٍ﴾: مضاف إليه. ﴿ظَلَمُوٓا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل جرٍّ صفة: ﴿قَوْمٍ﴾. ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾: الفاء: حرف عطف. ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث والفاعل يعود إلى: ﴿رِيحٍ﴾ والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿أَصَابَتْ...﴾ إلخ على الوجهين: المعتبرين فيها. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية. ﴿ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾: ماض، ومفعوله، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، واعتبارها حالاً من واو الجماعة في: ﴿ظَلَمَهُمُ﴾ لا يأباه المعنى، ويكون الرَّابط الواو، والضمير. ﴿وَلَٰكِنْ﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل لا عمل له. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به مقدَّم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يَظْلِمُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها على الوجهين المعتبرين فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في سبب نزول هذه الآية: كان رجالٌ من المسلمين يواصلون اليهود لما بينهم من القرابة، والصَّداقة، والحلف، والجوار، والرَّضاع، فأنزل الله عز وجلَّ هذه الآية، ونهاهم عن مباطنتهم خوف الفتنة عليهم. ويدلُّ على صحَّة هذا القول: أنَّ الآيات المتقدِّمة فيها ذكر اليهود، فتكون هذه الآية كذلك. وقيل: كان قومٌ من

المؤمنين يُصافون المنافقين، ويُفشون إليهم الأسرار، ويُطلعونهم على الأحوال الخفيَّة، فنهاهم الله عن ذلك. وحجَّة هذا القول الآية التالية، فإنَّها من صفات المنافقين. انتهى خازن.

هذا؛ و(البطانة) مصدر يطلق على الواحد، والجمع. وبطانة الرجل: خاصته؛ الذين يعرفون أسراره ثقةً بهم، شُبِّهوا ببطانة الثوب، كما شبهوا في الشِّعار في قول النبي ﷺ: «**الأنصار شعار، والناس دثار**» ومِثْل (البطانة): ﴿وَلِيجَةً﴾ المذكورة في سورة (التوبة) رقم [١٦].

قال الشاعر: [الطويل]

أُولَـئِـكَ خُـلْـصَـائِـي نَـعَـمْ وَبِـطَـانَـتِـي   وَهُـمْ عَـيْـبَـتِـي مِـنْ دُونِ كُـلِّ قَـرِيـبِ

فقد نهى الله عز وجل المؤمنين في هذه الآية أن يتخذوا من الكفَّار، والمنافقين دخلاء، وولجاء، يفاوضونهم في الآراء؛ لأن الإنسان يلوث بهم، وينسب إليهم، قال طرفة بن العبد في معلَّقته: [الطويل]

عَـنِ الْـمَـرْءِ لا تَـسْـأَلْ وَسَـلْ عَـنْ قَـرِيـنِـهِ   فَـكُـلُّ قَـرِيـنٍ بِـالْـمُـقَـارَنِ يَـقْـتَـدِي

إِذَا كُـنْـتَ فِـي قَـوْمٍ فَـصَـاحِـبْ خِـيَـارَهُـمْ   وَلا تَـصْـحَـبِ الأَرْدَى فَـتَـرْدَى مَـعَ الـرَّدِي

وفي سنن أبي داود عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، قال: «**المرءُ عَلَى دينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخَالِلْ**». وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٨] فإنَّه جيد. والحمد لله! وقد انقلبت الأحوال في هذه الأيَّام، فاتَّخذ المسلمون أحباباً، وأعواناً، وأنصاراً من الكافرين، والمنافقين. وخذ ما يلي: فقد روى البخاريُّ، والنَّسائي عن أبي سعيد الخدريِّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبيٍّ، وَلا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ: بطانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالخيْرِ، وَتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، وبطانةٌ تأمُرُهُ بِالشَّرِّ، وتَحثُّهُ عليه، والمعصومُ مَنْ عَصَمَهُ اللهُ**». وقيل لعمر ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ هاهنا غلاماً من أهل الحيرة، حافظٌ كاتبٌ، فلو اتَّخذته كاتباً، فقال: قد اتخذت إذاً بطانةً من دون المؤمنين. ففي هذا الأثر مع هذه الآية دليل على: أنَّ الكافرين لا يجوز استعمالهم في الكتابة، التي فيها استطالة على المسلمين، واطِّلاعٌ على دواخل أمورهم؛ التي يُخشى أن يفشوها إلى الأعداء من أهل الحرب. ومعنى ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: مِنْ سواكم، مِنْ غيركم. قال الفرَّاء في قوله تعالى: ﴿وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: سوى ذلك.

﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾: لا يقصِّرون فيما فيه الفساد عليكم، ولا يتوانون في إيصال الضَّرر إليكم. هذا؛ ويقال: لا آلو جهداً؛ أي: لا أقصِّر، قال امرؤ القيس، أمير الشعراء، وحامل لوائهم إلى النار: [الطويل]

وَمَـا الْـمَـرْءُ مَـا دَامَـتْ حُـشَـاشَـةُ نَـفْـسِـهِ   بِـمُـدْرِكِ أَطْـرَافِ الْـخُـطُـوبِ وَلا آلِ

هذا؛ والخَبَال، والخبْل: الفساد، وقد يكون ذلك في الأفعال، والأبدان، والعقول، وفي حديث النبي ﷺ: «**مَنْ أُصِيبَ بدمٍ، أو خَبْلٍ**» أي: جرح يفسد العضو. وأنشد الفرَّاء قول الشَّاعر: [الكامل]

نَظَرَ ابنُ سَعْدٍ نَظْرَةً وَيْلاً لَهَا ... كَانَتْ لِصَحْبِكَ وَالْمَطِيِّ خَبَالا

هذا؛ وأصل: (دون) من الدون، وهو القرب، ومثله: أدنى، قال تعالى في سورة (النساء): ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ ومنه تدوين الكتب؛ لأنَّه إدناء، أي: تقريب البعض من البعض، ثم استعير للرُّتب، فيقال: زيد دون عمرو، أي: في الشرف، والسيادة، ثمَّ اتُّسع فيهما؛ أي: «**دون**» و«**أدنى**»، فاستعملا في كلِّ تجاوز حدٍّ إلى حد، وتخطِّي حكم إلى حكم، قال تعالى في الآية رقم [٢٨] ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يتجاوز وقاية المؤمنين إلى الكافرين، وقال أميَّة بن أبي الصَّلت: [البسيط]

يَا نَفْسُ مَالَكِ دُونَ اللهِ مِنْ وَاقِ ... وما على حَدَثانِ الدَّهرِ مِن باقِ

أي: إذا تجاوزتِ وقاية الله، ولم تناليها؛ لم يَنْفَعْكِ غيره. ويأتي «دون» بمعنى قُدَّام، قال الأعشى: [الطويل]

تُرِيكَ الْقَذَى مِنْ دُونِهَا وَهيَ دُونَهُ ... إِذَا ذَاقَهَا مَنْ ذَاقَهَا يَتَمَطَّق

و«دون» نقيض «فوق» وهو تقصير عن الغاية. ويكون اسم فعل أمر، كقولك: دُونَكَ الدِّرهمَ، أي: خذه، ويكون ظرفاً، وهو الأصل فيه، والدُّون: الحقير الخسيس، قال الشاعر: [المتقارب]

إِذَا مَا عَلا الْمَرْءُ رَامَ الْعَلاءَ ... وَيَقْنَعُ بِالدُّونِ مَنْ كَانَ دُونَا

﴿وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي: أحبُّوا، وتمنَّوا عنتكم، والعَنَتُ: المشقَّة، والتضييق. قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ و﴿ٱلْعَنَتَ﴾ في قوله تعالى في سورة (النساء) ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ المراد به: الزنى، كما ستعرفه إن شاء الله تعالى.

﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي: ظهرت العداوة، والتكذيب لكم من أفواههم؛ لأنَّهم لا يتمالكون لفرط عداوتهم، وبغضهم، فهم فوق المتستر الذي تبدو البغضاء في عينيه. والفعل به اتصلت به تاء التأنيث، فصار بَدَاتْ، فحذفت الألف لالتقائها مع تاء التأنيث ساكنةً. ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾: هذا إخبارٌ، وإعلامٌ من العليم الحكيم بأنَّهم يبطنون من العداوة، والبغضاء أكثر ممَّا ينطقون به.

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ﴾: وضَّحنا. ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي: الدَّالة على وجوب موالاة المؤمنين، والإخلاص في العمل، والدَّالة على وجوب معاداة الكافرين، والمنافقين. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾: تفهمون ما بُيِّنَ لكم، فتتعظون به. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية رقم [١٠٠]. ﴿لَا تَتَّخِذُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية، لا محل لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿بِطَانَةً﴾: مفعول به. ﴿مِّن دُونِكُمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلِّقان بمحذوف صفة: ﴿بِطَانَةً﴾ والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَأْلُونَكُمْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والكاف مفعول به، وجمع الضمير على إرادة أفراد البطانة. ﴿خَبَالًا﴾: مفعول به ثان. وقيل: مفعول مطلق على تأويل: ﴿يَأْلُونَكُمْ﴾: لا يخبلونكم خبالاً. وقيل: منصوب بنزع الخافض. وقيل: تمييز، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثانية لـ ﴿بِطَانَةً﴾ أو بمحذوف حال منها بعد وصفها بما تقدَّم.

﴿وَدُّواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿عَنِتُّمْ﴾: فعل وفاعل، و﴿مَا﴾ والفعل في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: ودُّوا عنتكم، والجملة الفعلية مثل ما قبلها، واعتبارها حالاً من واو الجماعة؛ فلا بأس به، ولكن يجب تقدير «قد» قبلها لتقربها من الحال. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿بَدَتِ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنةً مع تاء التأنيث؛ التي هي حرف لا محلَّ له. ﴿ٱلْبَغْضَآءُ﴾: فاعله. ﴿مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْبَغْضَآءُ﴾ التقدير: ظاهرةً من أفواههم، والجملة الفعلية مثل سابقتها، واعتبار الحالية فيها قويٌّ لوجود «قد» قبلها. وقيل: الجمل الثلاث مستأنفةٌ، ومفيدةٌ للتعليل.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنيَّة على السُّكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تُخْفِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل. ﴿صُدُورُهُمْ﴾: فاعل، والهاء في محل جر بالإضافة. والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو: شيء تخفيه صدورهم. ﴿أَكْبَرُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلّاً بالإضافة، والرابط: الواو، والضمير.

«قد»: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿بَيَّنَّا﴾: فعل، وفاعل. ﴿لَكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْءَايَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والجملة الفعلية مستأنفةٌ، لا محلَّ لها.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿تَعْقِلُونَ﴾: مضارع، وفاعله، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: (كان)، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط

غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إن كنتم تعقلون؛ فقد بينا لكم الآيات. وقدره الجلال: فلا توالوهم. و﴿إن﴾ ومدخولها كلام معترضٌ مستأنفٌ، لا محلَّ له.

﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾

الشرح: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾: الخطاب للمؤمنين الصادقين. و﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ للمنافقين، والمعنى: أنتم أيها المؤمنون تحبُّون المنافقين؛ واليهود؛ الذين نهيتكم عن مباطنتهم، وموالاتهم للأسباب التي بينكم، وبينهم من القرابة، والرَّضاع، والمصاهرة، والحِلْف. ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾ أي: لا يصافونكم المحبَّة؛ وإن تظاهروا بألسنتهم بأنَّهم يحبُّونكم، ويودُّونكم. ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ﴾ أي: تؤمنون يا مسلمون بجميع الكتب السماوية؛ التي أنزلها الله على رسله، واليهود يؤمنون بالبعض، والمنافقون لا يؤمنون بشيءٍ.

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ أي: بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي أنزل عليه، ومثله في سورة (البقرة) رقم [١٤]. ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ﴾ أي: خلا بعضهم إلى بعض. ﴿عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: عضُّوا أطراف الأصابع من الغيظ، والحنق عليكم، فيقول بعضهم لبعض: ألا ترون إلى هؤلاء ظهروا، وكثروا؟! والعض: عبارة عن شدَّة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه، ويوصف المغتاظ، والنَّادم بعضِّ الأنامل، والبنان، والإبهام ومنه قول أبي طالب: [الطويل]

يَعُضُّونَ غَيْظاً خَلْفَنَا بِالأَنَامِلِ

وقال الحارث بن ظالم المُرِّيُّ: [الطويل]

فَأَقْتُلُ أَقْوَاماً لِئَاماً أَذِلَّةً يَعُضُّونَ مِنْ غَيْظٍ رُؤُوسَ الأَبَاهِمِ

وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية، قال: هم الإباضية. قال ابن عطيَّة ـ رحمه الله تعالى ـ: وهذه الصفة قد تترتَّب في كثيرٍ من أهل البدع، وهو الصحيح، فتشمل الفرق الضالَّة الاثنتين والسبعين، الذين ذكرتهم في الآية رقم [١٠٣]. والعضُّ يعبَّر به عن الشدَّة، والألم. قال الفرزدق في مدح عبد الملك: [الطويل]

وَعَضُّ زَمَانٌ يَا بْنَ مروانَ لَمْ يَدَعْ مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتاً أَوْ مُجَلَّفُ

«مُجَلَّف» معطوفة على معنى: لم يبق من المال إلا مسحةٌ، أو مجلَّفُ. والعضُّ يعبَّر به عن شدة التمسُّك بالشيء، ومنه قول النبي ﷺ في الحديث الذي يرويه عنه العِرْباض بن سارية ـ رضي الله عنه ـ: «**عَلَيْكُمْ بِسُنَّتي وَسنَّةِ الخلَفَاءِ الرَّاشِدِين الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ**». هذا؛

والأنامل جمع: أُنْمُلَة، والأصابع جمع: إصْبَع، ففيهما تسع لغات: تثليث همزتهما، وتثليث ميم أنملة، وتثليث باء إصبع، وتزيد أصبوعاً، وقد نظم بعضهم ذلك، فقال: [البسيط]

بَا إِصْبَعٍ ثَلِّثن مَعْ مِيمِ أُنْمُلَةٍ وَثَلِّثِ الْهَمْزَ أَيْضَاً وَارْوِ أُصْبُوعَا

﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾: دعاء عليهم بدوام الغيظ، وزيادته بتضاعف قوّة الإسلام، وأهله إلى أن يهلكوا، فعليه يتّجه أن يدعو عليهم بهذا مواجهة، وغير مواجهةٍ بخلاف اللّعنة. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾: خبير، وبصير، لا يعزب عن علمه شيء. ﴿بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي: إنَّ الله عليمٌ بما في صدور عباده مِنْ نيَّةٍ حسنةٍ، أو نيَّةٍ خبيثةٍ، فيفعل بهم على حسب ما تُكِنُّه صدورهم من غدرٍ، وخيانةٍ، وتبييتٍ للشرِّ، وغير ذلك.

هذا؛ و(ذات) بمعنى: صاحبة، فجُعلت صاحبة الصُّدور لملازمتها لها، وعدم انفكاكها عنها. نحو قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَابَ النَّارِ﴾. هذا، و(ذات) مؤنث «**ذو**» الذي هو بمعنى: صاحب، وقد يثنَّى على لفظه، فيقال: ذاتا، أو ذاتَيْ، كذا من غير ردِّ لام الكلمة، وهو القياس، كما يثنَّى «ذو» بـ «ذوا» أو «ذوي» على لفظه ويجوز فيها: «ذوَاتَا» على الأصل بردِّ لام الكلمة، وهي الياء ألفاً لِتَحَرُّك العين، وهي الواو قبلها، وهو الكثير في الاستعمال، قال تعالى في سورة (الرحمن) رقم [٤٨]: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وقال في سورة (سبأ) رقم [١٦]: ﴿ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾.

هذا؛ والتاء في (ذات) لتأنيث اللفظ، مثل تاء: (ثُمَّتْ، وَرُبَّتْ، وَلاتَ) ولكنَّها تعرب بالحركات الظاهرة على التّاء، فالجر كما في الآية الكريمة، ومثلها كثيرٌ، والرفع جاء في قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ﴾ والنَّصب جاء في قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ سورة (المسد) وكلُّ معانيها في القرآن الكريم: صاحبة؛ إلا في موضعين، فإنّها جاءت بمعنى: الجهة، وذلك في قوله تعالى في سورة (الكهف): ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ وقد رأيت تثنيتهما في الآيتين المذكورتين في حالتي النَّصب، والجر، ولم ترد في القرآن الكريم بمعنى الجمع. هذا؛ ولم يتعرَّض لها النحويُّون بهذا المعنى مع كثرة تعرُّضهم لـ: «ذي» بمعنى صاحب، وتثنيته، وجمعه، ولكنهم ذكروا: «**ذَاتَ**» بمعنى: الّتي، و«**ذوات**» بمعنى: اللَّواتي، وذلك في مبحث الاسم الموصول، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَكَالَّتِي أَيْضَاً لَدَيْهِمْ ذَاتُ وَمَوْضِعُ اللَّاتِي أَتَى ذَوَاتُ

قال الأشموني رحمه الله تعالى: أي: عند طيئ ألحقوا بـ «ذو» تاء التأنيث مع بقاء البناء على الضم، وحكى الفراء: «**بِالْفَضْلِ ذُو فَضَّلَكُمْ اللهُ بِهِ، وَالْكَرَامَةِ ذَاتُ فَضَّلَكُم اللهُ بِها**». وقريبٌ منه لابن هشام في أوضحه، وكلاهما أورد بيت رؤبة: [الرجز]

جَمَعْتُهَا مِنْ أَيْنُقٍ مَوَارِقِ ذَوَاتُ يَنْهَضْنَ بِغَيْرِ سَائِقِ

والفرق بين الأولى، والثانية: أن الأولى لا تكون إلا مضافة لِمَا بعدها كما رأيت، بخلاف الثانية، فإنها معرفة بالصِّلة التي تذكر بعدها، كما في بيت رؤبة. تنبه لهذا، وأفهمه، فإنَّه معنىً دقيقٌ، وأسأل الله لي المزيد من التَّوفيق. هذا؛ وأضيف: أنَّ جمع «ذات»: «ذوات» من لفظه كما يجمع على: أولات من غير لفظه، قال تعالى في سورة (الطلاق): ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾. كما يجمع المذكر «**ذو**» بمعنى صاحب: «أولُو» من غير لفظه، وهو كثيرٌ في القرآن الكريم.

الإعراب: ﴿هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾: لا أرى حاجة إلى المزيد عمَّا ذكرته في الآية رقم [٦٦] والله المستعان. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُحِبُّونَكُمْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها على جميع الوجوه المعتبرة فيها، والتي بعدها معطوفة أيضاً عليها. ﴿بِٱلْكِتَٰبِ﴾ متعلقان بما قبلهما. ﴿كُلِّهِۦ﴾: توكيد لما قبله، وهو بمعنى: الكتب، كما رأيت في الشرح، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة.

﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالحٌ لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿لَقُوكُمْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله والكاف مفعوله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: (إذا) إليها على القول المشهور المرجوح. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل، وفاعله، والألف للتفريق، ﴿ءَامَنَّا﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، والجملة: ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا﴾ جواب (إذا) لا محلَّ لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف، أو معطوف على ما قبله، لا محلَّ له على الاعتبارين. ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ﴾: إعرابه ظاهر إن شاء الله، وهو معطوف على ما قبله. ﴿عَلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْأَنَامِلَ﴾ التقدير: عضوا الأنامل مغتاظين عليكم. ﴿ٱلْأَنَامِلَ﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿عَضُّواْ﴾ وهما في محلِّ مفعولٍ لأجله.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله تقديره: أنت. ﴿مُوتُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِغَيْظِكُمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبرها. ﴿بِذَاتِ﴾: متعلقان بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ و(ذات) مضاف، و﴿ٱلصُّدُورِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية تحتمل أن تكون في محل نصب مقول القول، وأن تكون مستأنفة، ومفيدة للتعليل، ومردُّها إلى مقول القول.

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾: تصبكم أيُّها المؤمنون. وأصل المسِّ: الجسُّ باليد، ثمَّ يطلق على كل ما يصل إلى الشيء على سبيل التشبيه، كما يقال: مسَّه نصبٌ، وتعب، وهو يأتي للخير، والشرِّ، قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٧]: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. و﴿حَسَنَةٌ﴾: نعمةٌ، كنصرٍ، وغنيمةٍ، ورخاء عيشٍ، وخصب بالثِّمار، والزروع. ﴿تَسُؤْهُمْ﴾: تحزنهم. ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ﴾: شرٌّ، كهزيمة، وجدبٍ، وبلاءٍ، وأمثال ذلك. ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾: يسرُّوا بها. والمعنى في الآية الكريمة إنَّ مَنْ كان هذا شأنه، وهذه صفته من شدَّة الحسد، والحقد يفرح بنزول الشَّدائد، ويغتمُّ بنزول الخير لم يكن أهلاً لأن يُتَّخذ صديقاً، وبطانةً، تُفشى إليه الأسرار، ويطَّلع على بواطن الأمور، ويُركن إليه في هذه الحياة. ولله درُّ القائل: [الطويل]

وَدَارَيْتُ كُلَّ النَّاسِ إِلَّا حَوَاسِدِي ... مُدَارَاتُهُمْ عَزَّتْ وَعَزَّ نَوَالُهَا

وَكَيْفَ تُدَارِي عَنْكَ حَاسِدَ نَعْمَةٍ ... إِذَا كَانَ لا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُهَا

هذا؛ وعبر سبحانه بالمسِّ في الخير، وبالإصابة في الشرِّ، وذلك للإشارة إلى أنَّ الحسنة تسوء الأعداء الحاسدين، ولو كانت بأيسر الأشياء؛ ولو مسَّاً خفيفاً، وأمَّا السيئة؛ فإذا تمكَّنت الإصابة إلى الذي يرثي له الشَّامت؛ فإنَّهم لا يَرْثون، بل يفرحون، ويسرُّون. ورحم الله مَنْ يقول: [البسيط]

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِزَالَتُهَا ... إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ

هذا؛ وفي الجملتين من المحسِّنات البديعيَّة: المُقابلة، حيث قابل الحسنة، والمساءة بها بالسَّيئة، والفرح بها. ﴿وَإِن تَصْبِرُوا﴾ على أذاهم، وعلى طاعة الله، وموالاة المؤمنين، ﴿وَتَتَّقُوا﴾ الله فيما أمر وفيما نهى. ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾: لا يضرُّكم مكرُهم، وعداوتهم، وحسدهم شيئاً؛ لأنكم في حفظ الله، ورعايته، وعنايته. يقال: ضارَّه، يضُورُه ضوْراً، ويَضِيرُه ضيْراً. ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي: هو سبحانه عالمٌ بما يدبِّرونه، ويحيكونه لكم من مكائد، فيصرف عنكم شرَّهم، ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة بما يستحقُّون، فلا يفوتونه، ولا يعجزونه. يقال: أحاط السُّلطان بفلان: إذا أخذه حاصراً من كلِّ جهة، فهو من باب المجاز، بل هي استعارة تبعيَّة في الصِّفة، سارية إليها من مصدرها، وقال الشاعر: [الطويل]

أَحَطْنَا بِهِمْ حَتَّى إِذَا مَا تَيَقَّنُوا ... بِمَا قَدْ رَأَوْا مَالُوا جَمِيعاً إِلَى السِّلْمِ

ومنه قوله تعالى في سورة (الكهف): ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ﴾ وقال تعالى في آخر سورة (الطلاق): ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾. هذا؛ وأصل ﴿مُحِيطٌ﴾: (مُحْوِط) لأنَّه من أحاط يحيط، أو من حاط يحوط، وهو أولى فهو من الباب الأول، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علَّةٍ متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى الحاء فصار: (مُحِوْط) ثم انقلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة قبلها.

الإعراب: ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَمْسَسْكُمْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والكاف مفعوله. ﴿حَسَنَةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿تَسُؤْهُمْ﴾: فعل مضارع جواب الشرط، والفاعل يعود إلى: ﴿حَسَنَةٌ﴾ والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية، والجملة الشرطية مستأنفة لا محل لها. وقال الجلال، ووافقه الجمل: متَّصلة بالجملة الشرطية: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ...﴾ إلخ، وجملة: ﴿قُلْ مُوتُواْ...﴾ إلخ معترضة بين الجملتين. ﴿وَإِن تُصِبْكُمْ...﴾ إلخ: هذه الجملة إعرابها مثل إعراب سابقتها، وهي معطوفة عليها. ﴿وَإِن تَصْبِرُواْ﴾: مثل سابقه. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾: يجوز أن يكون مجزوماً بسبب العطف على فعل الشرط، ويجوز أن يكون منصوباً على إضمار: «أن» كما هي القاعدة في عطف المضارع على فعل الشرط، وعلامة الجزم، أو النصب حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، وعلى الأول فالجملة معطوفة على ما قبلها لا محل لها مثلها، وعلى اعتبار الفعل منصوباً بـ «أن» مضمرة يؤوَّل معها بمصدر معطوف على مصدر متصيَّد من الفعل السابق، التقدير: وإن يكن صبر، وتقوىً.

﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَضُرُّكُمْ﴾: هذا الفعل يقرأ بكسر الضاد، وسكون الراء على أنَّه جواب الشرط، وقد ظهر جزمه، وعليه: فهو من: ضار، يضير ضيراً بمعنى: ضرَّ، ويقرأ بضم الضَّاد، وتشديد الرَّاء، وضمها، وهو من: ضرَّ يضرُّ، وفي رفعه ثلاثة أوجه: أحدها: أنه في نية التقديم، أي: لا يضرُّكم كيدهم شيئاً؛ إن تتقوا. وهو قول سيبويه، وعليه قول زهير بن أبي سُلْمى ـ وهو الشاهد رقم [٧٨٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

وَإِنْ أَتَاهُ خَلِيلٌ يَوْمَ مَسْغَبَةٍ ... يَقُولُ لا غَائِبٌ مَالِي وَلا حَرِمُ

والثاني: أنه حُذِفت الفاء الرابطة للجواب؛ إذ التقدير: فلا يضركم، وهو قول المُبَرِّد، وعليه قول حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ، وهو الشاهد رقم [٧٨٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللَّهُ يَشْكُرُهَا ... وَالشَّرُّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللهِ مِثْلانِ

وعلى هذين الوجهين فالضمة إعرابٌ. والثَّالث: أنَّها ليست إعراباً، بل لمَّا اضطرَّ إلى التحريك؛ حُرِّك بالضم إتباعاً لِضَمَّة الضاد. وقيل: حركها بحركتها الإعرابية المستحقَّة لها في الأصل. أبو البقاء بتصرفٍ كبير. أقول: وهذا القول الأخير لا ضرورة فيه، وإنَّما هو وجه من أوجهٍ ثلاثة تجري في المضعَّف المجزوم كما هو مقرَّر في القواعد النحوية. ويقرأ بفتح الراء على أنَّه مجزوم، حُرِّك بالفتحة لالتقاء الساكنين؛ إذ كان أخف من الضم والكسر. والكاف مفعول به. ﴿كَيْدُهُمْ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿شَيْـًٔا﴾: نائب مفعول مطلق. والجملة الفعلية لا محل لها مثل ما قبلها.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿بِمَا﴾: متعلقان بـ ﴿مُحِيطٌ﴾ بعدهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿يَعْمَلُونَ﴾: التقدير: بالذي، أو: بشيءٍ يعملونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدرٍ في محل جرٍّ بالباء، التقدير: بعملهم. ﴿مُحِيطٌ﴾: خبر: ﴿إِنَّ﴾. والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ معترضةٌ في آخر الكلام، متضمنةٌ للوعيد، والتهديد لأعداء المسلمين.

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾

الشرح: في الآيات الكريمة الحديث عن غزوة أحد. ومناسبتها لما قبلها: أنَّه تعالى لمَّا حذَّر من اتِّخاذ بطانة السوء؛ ذكر هنا: أنَّ السبب في همِّ الطائفتين من الأنصار بالفشل إنَّما كان بسبب تثبيط المنافقين، وعلى رأسهم رأس النفاق ابن أُبيٍّ، كما ذكر الله تعالى أن فشل المؤمنين في هذه الحرب إنَّما هو مخالفة أوامر الرسول ﷺ. إذاً فالمناسبة واضحة.

﴿غَدَوْتَ﴾: خرجت غدوةً، وهي السَّاعات الأولى من الصَّباح. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: من بيت عائشة ـ رضي الله عنها ـ، وفيه مفخرةٌ لها، ورفعةٌ لشأنها. ﴿تُبَوِّئُ﴾: تنزل. وفي سورة (الحشر) [٩]: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ﴾: اتخذوها منزلاً. يقال: بوَّأته منزلاً، وبوَّأت له، كما يقال: مكَّنتُه، ومكَّنتُ له، والمبوَّأ: المنزل الملزوم، ومنه: بوَّأه الله منزلاً؛ أي: ألزمه إيَّاه، وأسكنه فيه، قال الرسول ﷺ: **«مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»**. أخرجه البخاريُّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. وقال الشاعر: [المنسرح]

وَبُـوِّئَـتْ فِـي صَـمِـيـمِ مَـعْـشَـرِهَـا فَـتَـمَّ فِـي قَـوْمِـهَـا مُـبَـوَّؤُهَـا

﴿مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾: مواطن، ومواقف من الميمنة، والميسرة، والقلب، والجناحين، والسَّاقة. على أنَّه جمع: مقعد، وفي سورة (الجن) قوله تعالى حكاية عن قولهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَـٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾. ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ لأقوالكم. ﴿عَلِيمٌ﴾: بنيَّاتكم، وسرائركم.

تنبيه: الآية الكريمة، وما بعدها تتحدَّث عن غزوة أُحُد. وملخَّصها كما يلي: نزل كفَّار قريش، وحلفاؤهم بأُحُد يوم الأربعاء ثاني عشر شوال، سنة ثلاث من الهجرة، وكانوا ثلاثة آلاف مقاتل، ليأخذوا بثأرهم ممَّن قُتِلَ يوم بدر، فاستشار الرَّسول ﷺ أصحابه، وقد دعا عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول رأس المنافقين، ولم يدعه من قبل، فقال هو، وأكثر الأنصار: أقم يا رسول الله بالمدينة، ولا تخرج إليهم، فو الله ما خرجنا منها إلى عدوٍّ إلا أصاب منا، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه، فكيف وأنت فينا؟! فدعهم، فإن أقاموا؛ أقاموا بشرِّ محبس، وإن دخلوا؛ قاتلهم الرِّجال، ورماهم النِّساء، والصبيان بالحجارة، وإن رجعوا؛ رجعوا خائبين. وأشار بعضهم إلى الخروج، فقال ﷺ:

«إِنِّي رَأَيْتُ فِي مَنَامِي بقراً مذبُوحَةً حَوْلي، فَأَوَّلْتُها خَيْراً. وَرَأَيْتُ فِي ذُبَابِ سيفي ثُلْماً، فأَوَّلْتها هزيمةً. ورأيتُ كأنِّي أدخلْتُ يَدِي في درعٍ حَصِينةٍ، فَأَوَّلْتُهَا المدينةَ، فَإِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُقِيمُوا فِي الْمَدِينَةِ، وَتَدَعُوهُمْ».

فقال رجال فاتتهم بدرٌ، وأكرمهم الله بالشَّهادة يوم أحد: اخرج بنا إلى أعدائنا! وبالغوا في ذلك حتى دخل الرسول ﷺ، فلبس لأمته ـ أي: درعه ـ فلما رأَوْا ذلك؛ ندموا على مبالغتهم، وقالوا: يا رسول الله! اصنع ما رأيت. فقال: لا ينبغي لنبيٍّ أن يلبس لأمته. فيضعها؛ حتَّى يقاتل، فخرج بعد صلاة الجمعة بألفٍ إلا خمسين رجلاً، وأصبح بِشِعْبِ أحد يوم السبت، ونزل في عدوة الوادي، وجعل ظهره، وعسكره إلى جبل أُحد، وسوَّى صفهم، وأمَّر عبد الله بن جُبير ـ رضي الله عنه ـ على الرُّماة الَّذين وضعهم على ظهر الجبل، وقال: «**انضحوا بالنَّبْل عنَّا، لا يأتونا مِنْ ورائنا! وقال لهم: اثبتوا في هذا المقام، فإذا عاينوكم؛ ولَّوا الأدبار، فلا تطلبوا المُدْبرين، ولا تخرجوا من هذا المقام على أيِّ حال، وإن رأيتمونا تخطفنا الطَّير؛ فلا تبرحوا مكانكم!**».

ولمَّا خالف رسول الله ﷺ رأي رأس المنافقين؛ شقَّ عليه ذلك، وقال لأصحابه:

أطاع الوِلْدان، وعصاني! ثم قال لأصحابه: إنَّ محمداً إنَّما يظفر بعدوِّه بكم. وقد وعد أصحابه: أنَّ أعداءهم إذا عاينوهم؛ انهزموا، فإذا رأيتم أعداءه، فانهزموا أنتم. فيتبعونكم، فيصير الأمر إلى خلاف ما قاله محمدٌ لأصحابه، فلمَّا التقى الجمعان، وكان عسكر المسلمين ألفاً، وكان المشركون ثلاثة آلاف؛ انخذل الخبيث بثلاثمئة من أصحابه من المنافقين، وبقي مع رسول الله ﷺ نحو سبعمئة من أصحابه، فقوَّاهم الله تعالى، وثبَّتهم؛ حتى هزموا المشركين.

فلمَّا رأى المؤمنون أصحاب عبد الله بن جبير انهزام المشركين؛ طمعوا أن تكون هذه الوقعة كوقعة بدر، فطلبوا المُدبرين، وخالفوا أمر رسول الله ﷺ، فأراد الله أن يقطعهم عن هذا الفعل؛ لئلا يُقدموا على مثله مِنْ مخالفة رسول الله ﷺ، وليعلموا: أنَّ ظفرهم يوم بدر إنَّما كان ببركة طاعة الله، وطاعة رسول الله ﷺ. ثمَّ إنَّ الله نزع الرُّعب من قلوب المشركين، فكَرُّوا راجعين

على المؤمنين، فانهزم المسلمون، وبقي رسول الله ﷺ في جماعة من أصحابه، منهم: أبو بكر، وعمر، وعلي، وطلحة، وسعد، وقُتِل الحمزةُ مع مَنْ قُتِل، رضي الله عنهم أجمعين، وكُسِرَت رَباعيَّةُ رسول الله ﷺ، وشُجَّ وجهه يومئذٍ، وكان من غزوة أُحدٍ ما كان.

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو: حرف عطف، أو استئناف. (إذ): ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب، متعلق بفعل محذوف، تقديره: اذكر، وابن هشام يعتبره مفعولاً به لهذا المحذوف. ﴿غَدَوْتَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة (إذا) إليها، والكلام معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف لا محل له على الاعتبارين. ﴿مِنْ أَهْلِكَ﴾: متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من تاء الفاعل، التقدير: خارجاً من أهلك، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿تُبَوِّئُ﴾: فعل مضارع، والفاعل تقديره: أنت. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به أوَّل منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ. ﴿مَقَٰعِدَ﴾: مفعول به ثانٍ، ويتعدَّى ﴿تُبَوِّئُ﴾ في الأصل للثاني بحرف الجر. كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾. هذا؛ وإن اعتبرت: ﴿مَقَٰعِدَ﴾ ظرف مكان؛ فلست مفنَّداً. ﴿لِلْقِتَالِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿تُبَوِّئُ﴾ أو: هما متعلقان بمحذوف صفة: ﴿مَقَٰعِدَ﴾ وجملة: ﴿تُبَوِّئُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من تاء الفاعل، والرابط الضمير فقط. هذا؛ وإن اعتبرت: ﴿غَدَوْتَ﴾ فعلاً ناقصاً؛ فالتاء اسمه، وجملة: ﴿تُبَوِّئُ...﴾ إلخ في محل نصب خبره، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

الشرح: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾: عَزَمتْ، وأرادت، والهمَّ: العزم على الشيء، والمقاربة من الفعل من غير دخولٍ فيه، ومنه قوله تعالى في سورة يوسف الصدِّيق ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ وقال عمرو بن ضابئ البرجمي: [الطويل]

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ... تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلائِلُه

والهمُّ أيضاً: الحزن، ومثله: الغمُّ، ويفرَّق بينهما بأن الأوَّل لأجل تحصيل شيء في المستقبل، والثاني: لأجل فوات شيءٍ، وفقدانه في الماضي، وبأنَّ الأوَّل يَطْرُدُ النَّوم، ويسبِّبُ الأرق، والثاني: يجلب النوم، ويسبب الهدوء والسُّكون. والهموم، والأحزان، إذا تفاقمت على الإنسان أسرع فيه الشيب، وهزل جسمه. روي عن النبي ﷺ: أنه قال: «**الْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ**». وقال أبو الطَّيِّب المتنبي: [الكامل]

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً ... وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ فَيَهْرَمُ

﴿طَآئِفَتَانِ﴾: قبيلتان، وهما: بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وكانا جناحَيْ عسكر المسلمين. وانظر شرح: ﴿طَآئِفَةٌ﴾ في الآية رقم [٦٩]. ﴿أَن تَفْشَلَا﴾: أن تجبنا عن القتال، وترجعا كما رجع الخبيث عبد الله بن أُبَيٍّ المنافق، وأصحابه، وقال: علام نقتل أنفسنا، وأولادنا؟! فتبعهم عمرو بن حزم الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ وقال: أنشدكم الله في نبيكم وأنفسكم! فقال ابن أُبَيٍّ الخبيث: لو نعلم قتالاً؛ لاتَّبعناكم، فهمَّ الحيَّان باتِّباعه، فعصمهما الله، ولم يرجعا. روى البخاريُّ عن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: فينا نزلت الآية الكريمة ونحن الطائفتان، وما نحبُّ: أنَّها لم تنزل لقول الله عزَّ وجل: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾. وانظر شرح: ﴿وَلِيُّ﴾ في الآية رقم [٢٥٧] من سورة (البقرة).

هذا؛ والتوكُّل: تفويض الإنسان الأمر إلى مَنْ يملك أمره، ويقدر على نفعه، وضره. وقالوا: المتوكل مَنْ إذا دهمه أمرٌ؛ لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصية للهِ تعالى. فعلى هذا: إذا وقع الإنسان في محنةٍ، ثمَّ سأل غيره خلاصه منها؛ لم يخرج عن حدِّ التوكُّل؛ لأنه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله تعالى، وإنَّما هو من متعاطي الأسباب في دفع المحنة. وخذ ما يلي:

فعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً، وَتَرُوحُ بِطَاناً**». أخرجه الترمذيُّ. هذا؛ وللفرق بين التوكُّل، والتَّسليم، والتَّفويض يُقال: التوكل: أن تسكن إلى وعد الله، والتَّسليم: أن تكتفي بعلم الله تعالى، والتَّفويض: أن ترضى بحكم الله تعالى. وانظرْ الآية رقم [١٦٠] تجدْ ما يسرك.

الإعراب: ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزَّمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ أو هو بدل من سابقه. ﴿هَمَّت﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿طَآئِفَتَانِ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية في محل جر إضافة: ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿طَآئِفَتَانِ﴾. ﴿أَن تَفْشَلَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والألف فاعله، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، أو هو منصوب بنزع الخافض، التقدير: بالفشل، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، ومثله قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [١١٣]. ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾. (الله): مبتدأ. ﴿وَلِيُّهُمَا﴾: خبره، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والميم، والألف حرفان دالان على التثنية، والجملة الاسمية في محل نصب حال من ألف الاثنين، والرابط: الواو، والضمير.

﴿وَعَلَى﴾: الواو: زائدة فيما أرى. (على الله): متعلقان بالفعل بعدهما. ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ﴾: الفاء: حرف استئناف، أو هي الزائدة، والواو حرف استئناف. اللام: لام الأمر، (يتوكل): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين. ﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، والجملة الفعلية هذه مستأنفة لا محلَّ لها. هذا؛ وقال أبو البقاء ـ رحمه الله تعالى ـ: دخلت الفاء لمعنى الشرط، والمعنى: إن فشلوا؛ فتوكلوا أنتم، وإنْ صعب الأمر؛ فتوكلوا. وعليه: فالواو ليست زائدة، وإنَّما هي عاطفة جملة شرطية على الكلام السابق، وتكون الفاء هي الفصيحة، ولا يخفى ما فيه من التكلُّف. وهذه الجملة مذكورة في الآية رقم [١٦٠] الآتية، انظرها هناك.

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾

الشرح: يذكِّر الله الصحابة الكرام ـ الذين أصيبوا في غزوة أحد ـ بنعمته عليهم في غزوة بدر الكبرى، وكان ذاك حين اعتمدوا، وتوكَّلوا على الله. وبدر: ماء هنالك، وبه سمي الموضع، وقال الشعبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: كان ذلك الماء لرجل من جُهينة يُسَمَّى بدراً، وبه سمِّي الموضع، ويوم بدر كان يوم الجمعة وافق السَّابع عشر من رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان؛ الَّذي أعز الله فيه الإسلام، وأهله، ودفع فيه الشرك، وحزبه مع قلَّة المسلمين، وكثرة المشركين. ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ أي: ذليلون، جمع: ذليل، واسم الذلِّ هنا مستعارٌ؛ لأنَّهم كانوا في أنفسهم أعزَّةً، ولكنْ نسبتُهم إلى عدوِّهم، وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند المتأمِّل ذلَّتهم، وأنهم يُغلبون لقلَّة عَدَدِهم، وضَعْف عُدَدِهم من ضعف الحال، وقلَّة السلاح، والمركوب، والمال، وذلك؛ لأنهم خرجوا يوم بدر على نواضح. وقد تكفَّلت سورة (الأنفال) بشرح غزوة بدر.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي: في الثبات مع رسول الله ﷺ، واصبروا، فإنَّ النَّصر مع الصبر، وأنَّ مع العسر يسراً. ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي: بتقواكم، وطاعتكم لله ما أنعم عليكم من نُصرته يوم بدرٍ مع قلَّة عددكم، وضعف قوَّتكم.

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ اللَّهَ على ما أنعم به عليكم. والترجِّي إنَّما هو بحسب عقول البشر؛ لأنَّ الله تعالى لا يحصل منه ترجٍّ لعباده. تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً! هذا، والفعل يتعدَّى بنفسه، وبحرف الجر، تقول: شكرته، وشكرت له، كما تقول: نصحته، ونصحت له، وباللام أفصح، هذا ومن أسماء الله تعالى: الشَّكور، ومعناه: هو الذي يجازي على يسير الطاعات كثير الدَّرجات، ويعطي في أيامٍ معدودة نعماً في الآخرة غير محدودة. وخذ ما يلي: قيل في معنى الشكر لله تعالى ما يلي:

قال سهل بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ: الشكر: هو الاجتهاد في بذل الطاعة مع الاجتناب للمعصية في السرِّ، والعلانية. وقالت طائفةٌ أخرى: الشكر: هو الاعتراف في تقصير الشُّكر للمنعم، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ﴾ فقال داود ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: كيف أشكرك يا ربِّ؛ والشكر نعمةٌ منك عَلَيَّ؟ فقال تعالى: الآن قد عرفتني، وشكرتني؛ إذ قد عرفتَ: أن الشكر منِّي نعمةٌ عليك. وقال موسى ـ عليه السلام ـ: كيف أشكرك، وأصغر نعمةٍ وضعتها بيدي مِنْ نعمك لا يُجازي بها عملي كله؟ فأوحى الله إليه: يا موسى! الآن شكرتني. وقال ذو النون المصري ـ رحمه الله تعالى ـ: الشكر لمن فوقك بالطَّاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان، والإفضال. قرطبي بتصرف.

هذا؛ وشكر الله يستوجب المزيد من النعم، قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾. وجحودها يستوجب سلبها، وذهابها. قال تعالى في الآية نفسها رقم [٧]: ﴿وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ﴾. لذا قيل: إنَّ الشكر قيد النعمة الموجودة، وبه تنال النعمة المفقودة. وينبغي أن تعلم: أن فائدة الشكر تعود على الشاكر نفسه، قال تعالى في سورة (النَّمل) رقم [٤٠]: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾. وقال تعالى في سورة (لقمان) رقم [١٢]: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ﴾. هذا؛ والشكر مطلوب لكلِّ منعمٍ، ومحسنٍ، ولو كان من البشر، لذا فقد ندبنا سيِّد الخلق، وحبيب الحقِّ ﷺ على أن نشكر مَن أحسن إلينا من الناس؛ لذا قال تعالى: ﴿ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ﴾ وخذ ما يلي:

فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ، قال: «**مَنْ أُعْطِيَ عَطَاءً، فَوَجَدَ؛ فَلْيَجْزِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؛ فَلْيُثْنِ، فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى؛ فَقَدْ شَكَرَ، وَمَنْ كَتَمَ؛ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ؛ كَانَ كلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**». أخرجه الترمذيُّ. وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جزاكِ اللهُ خَيْرَاً؛ فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاء**».

وعن النُّعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ؛ لَمْ يَشْكُرِ الكثيرَ. وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ؛ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ. والتَّحدُّثُ بِنِعْمةِ اللهِ شكرٌ، وَتَرْكُهَا كفرٌ، والجماعَةُ رحمةٌ، والفُرْقَةُ عَذَابٌ**». قال الخطابي ـ رحمه الله تعالى ـ: هذا الكلام يتأول على معنيين: أحدهما: أنَّ من كان طبعه كفران نعمة الناس، وترك الشكر لمعروفهم؛ كان من عادته كفران نعم الله، عز وجل، وترك الشكر له. والوجه الآخر: أنَّ الله تعالى لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه إذا كان العبد لا يشكر إحسان النَّاس إليه، ويكفر معروفهم؛ لاتصال أحد الأمرين بالآخر. ورحم الله مَنْ قال: [الطويل]

وَمَنْ لَمْ يُؤَدِّ الشُّكْرَ لِلنَّاسِ لَمْ يَكُنْ لإِحْسَانِ رَبِّ النَّاسِ يَوْمَاً بِشَاكِرِ

الإعراب: ﴿وَلَقَدۡ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، تقديره: والله. والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. هذا؛ وبعضهم يعتبر (الواو) عاطفة. وبعضهم

يعتبرها حرف استئناف، ويعتبرون الجملة الآتية جواباً لقسم محذوف. ولا أسلِّمه أبداً؛ لأنه على هذا يكون حذف واو القسم، والمقسم به، ويصير التقدير: و والله أقسم، أو: وأقسم والله، واللام واقعة في جواب القسم المحذوف. وبعضهم يقول: اللام موطئة للقسم، والموطئة معناها المؤذنة، وهذه اللام إنَّما تدخل على «إنْ» الشرطية، لتدل على القسم المتقدِّم على الشرط، وتكون الجملة الآتية جواباً للقسم المدلول عليه باللام، والمتقدِّم على الشرط حكماً، كما في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ...﴾ إلخ. الآية رقم [١٢] من سورة (الحشر). افهم هذا، واحفظه، فإنَّه جيد، والله ولي التوفيق.

فإن قيل: ما ذكرته من إعراب يؤدي إلى حذف المقسم به، وبقاء حرف القسم. فالجواب: أنه قد حذف المقسم به حذفاً مطرداً في أوائل السور، مثل قوله تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ﴾، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ فإن التقدير: وربِّ النجم، وربِّ الشمس... إلخ، الدليل على ذلك التصريح به في قوله تعالى في سورة (الذاريات): ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وحذف المقسم به ظاهر في قوله تعالى في سورة (مريم): ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا...﴾ إلخ، وأظهر منه في سورة (المائدة) رقم [٧٣]: ﴿وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قالوا: (الواو) في الآيتين حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف بلا ريب.

(قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾: ماض، ومفعوله، وفاعله، والجملة الفعلية جواب القسم لا محل لها، والقسم وجوابه كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿بِبَدْرٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو بمحذوف حال من كاف المخاطبين، والجملة الاسمية: ﴿وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ في محل نصب حال من الكاف أيضاً، والرابط: الواو، والضمير.

﴿فَٱتَّقُوا۟﴾: الفاء: هي الفصيحة. (اتقوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية لا محلَّ لها على جميع الوجوه؛ التي تعتبر في الفاء، والجملة القسمية مستأنفة لا محل لها أيضاً. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿تَشْكُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، ومفعوله محذوف للعلم به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (لعلَّ) والجملة الاسمية: ﴿لَعَلَّكُمْ...﴾ إلخ مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها.

﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ. ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ...﴾ إلخ: هذا حكاية من قول الرسول ﷺ للمؤمنين يوم بدر حين استقلُّوا عددهم،

واستكثروا عدد عدوِّهم، فوعدهم الرسول المعظم بأنَّ الله سيمدُّهم بألفٍ من الملائكة. واختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بدر، أو يوم أحد؟ على قولين: أحدهما: أنَّ هذا الكلام متعلق بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾. قاله عباد بن منصور، واختاره ابن جرير. وقال الربيع بن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أمدَّ الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثةً، ثم صاروا خمسة آلاف.

القول الثاني: أنَّ هذا الوعد متعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ...﴾ إلخ، وذلك يوم أُحُد، وهو قول مجاهد، وعكرمة، والضحَّاك، رضي الله عنهم، لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف؛ لأن المسلمين فرُّوا يومئذٍ، ولم يصبروا، ولم يثبتوا، ولكن ثبت بأنَّ الله أيَّد الرسول ﷺ يوم أحد، فقد قال عمير بن إسحاق ـ رضي الله عنه ـ: لما كان يوم أُحُد؛ انجلى القوم عن رسول الله ﷺ، وبقي سعد بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يرمي ـ وفتى شاب يَتَنَبَّل له، كلَّما فني نبله؛ أتاه به فنثره، وقال: أرْمِ أبا إسحاق! ارْمِ أبا إسحاق! مرَّتين. فلمَّا انجلت المعركة سئل عن ذلك الرَّجل، فلم يُعرف. وعن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ قال: رأيت عن يمين رسول الله ﷺ، وعن شماله يوم أحد رجلين، عليهما ثيابٌ بيض، يقاتلان عنه، كأشدِّ القتال، ما رأيتهما قبل، ولا بعد. يعني: جبريل، وميكائيل، عليهما السَّلام. متفق عليه.

وهناك من يقول: إنَّ الملائكة نزلت يوم الخندق، فقد صبر المسلمون يومئذٍ، واتَّقوا، وثبتوا. فقد قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: لما رجع رسول الله ﷺ من الخندق، ووضع السلاح، واغتسل؛ أتاه جبريل، عليه السلام، فقال: قد وضعت السِّلاح؟ والله ما وضعناه! أخرج إليهم. قال: فإلى أين؟ قال: هاهنا. وأشار إلى بني قُريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم. متَّفق عليه.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: كأني أنظر إلى الغبار ساطعاً في زقاق بني غنم موكب جبريل عليه السلام حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قُريظة. أخرجه البخاري.

هذا؛ ونزول الملائكة إنَّما هو لتشريف هذه الأمَّة، ولإلقاء الرُّعب في قلوب المشركين. ويسأل لماذا ينزل الآلاف من الملائكة، وجبريل ـ عليه السلام ـ أهلك أقواماً كثيرين بصيحةٍ واحدةٍ، كقوم لوط، وقوم صالح، والجواب: أن هذا كلَّه في عذاب الاستئصال، وقوم محمد ﷺ لم يُستأصَلُوا كما هو معروف؛ لأنَّ الله علم: أن فيهم من يؤمن بالله. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِذْ﴾: بدل من: (إذ غدوت) أو هي متعلقة بالفعل: ﴿نَصَرَكُمُ﴾ على حسب ما رأيت من الاختلاف في التفسير. وقيل: متعلق بفعل محذوف، تقديره: اذكر. ﴿تَقُولُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿لِلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أَلَن﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري. (لن): حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يَكْفِيَكُمْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (لن) والكاف مفعول به. (أن): حرف مصدري، ونصب. ﴿يُمِدَّكُمْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾: والكاف مفعول به. ﴿رَبُّكُم﴾: فاعله، والكاف في محل جر

بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، و﴿أن﴾، والفعل مضارع في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، وتقدير الكلام: ألن يكفيكم إمداد ربكم. والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿تقول...﴾ إلخ في محل جر بإضافة ﴿إذ﴾ إليها. ﴿بِثَلَٰثَةِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و(ثلاثة) مضاف، و﴿ءَالَٰفٍ﴾: مضاف إليه. ﴿مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من (ثلاثة آلاف) أو صفة له، وهما تمييز له في الأصل. ﴿مُنزَلِينَ﴾: حال من الملائكة، أو صفة ثانية له، وهو أظهر. انتهى نقلاً عن السمين.

﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟﴾: على لقاء العدو، وتثبتوا في ميدان الحرب. لكنَّهم صبروا في موقعة بدرٍ، وفي غزوة الخندق، ولم يصبروا في غزوة أُحُدٍ. ﴿وَتَتَّقُوا۟﴾ الله في جميع أحوالكم، وتخافوه في جميع تصرُّفاتكم، وحركاتكم، وسكناتكم. ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾: الفور: السرعة، والعجلة، وهو من: فارت القِدْر: إذا غلت، فاستعير للسُّرعة، ثمَّ سميت بها الحالة؛ التي لا ريث فيها، ولا تعريج على شيء من صاحبها، يقال: خرج مِنْ فوره، كما يقال: خرج مِنْ ساعته، ولم يلبث.

﴿مُسَوِّمِينَ﴾: بكسر الواو المشدَّدة، أي: مُعلمين أنفسهم، أو خيولهم بعلامة يُعرفون بها في الحرب. والسِّيماء، والسِّيمة، والسُّومة: العلامة، وهذه العلامة يعلِّمها الفارس يوم اللقاء ليعرف بها. قال عنترة في معلَّقته: [الكامل]

فَتَعَرَّفُونِي أَنَّنِي أَنَا ذَلِكُمْ شَاكِي السِّلاحِ فِي الْحَوَادِثِ مُعْلَمِ

هذا؛ ودلَّت الآية الكريمة على اتِّخاذ العلامة للقبائل، والكتائب يجعلها السُّلطان لهم لتتميز كلِّ قبيلةٍ، وكتيبةٍ من غيرها عند الحرب. وفي عصرنا هذا كلُّ دولة تتخذ علماً خاصًّا بها. ويقرأ بفتح الواو المشدَّدة بمعنى مُعلمين بعمائم صفر مرخاة على أكتافهم، أو مُعلمين بعمائم بيض. فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاً معلمين بالصُّوف الأبيض في نواصي الدواب، وأذنابها، وقد كانوا على صور الرِّجال، ويقولون للمؤمنين: اثبتوا؛ فإنَّ عدوَّكم قليل. والله معكم.

تنبيه: سئل السِّبكي ـ رحمه الله تعالى ـ عن الحكمة في قتال الملائكة مع أنَّ جبريل عليه السلام قادر على أن يدفع الكفار بريشةٍ من جناحه. وأجاب بأن ذلك لإرادة أن يكون الفضل للنبيِّ ﷺ وأصحابه، وتكون الملائكة مدداً على عادة مدد الجيوش في الحرب، رعايةً لصورة الأسباب؛ التي أجراها الله تعالى في عباده، والله فاعلٌ للجميع. وذكرت الجواب في الآية السابقة.

الإعراب: ﴿بَلَىٰٓ﴾: حرف جواب، لا محل له. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَصْبِرُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله والألف للتفريق، والمتعلق محذوف. انظر الشرح. والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، والفعلان: (تتقوا) و(يأتوكم): يجوز اعتبارهما مجزومين، أو منصوبين، كما رأيت: (تتقوا) في الآية رقم [١٢٠]. ﴿مِّن فَوْرِهِمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿هَٰذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر صفة: ﴿فَوْرِهِمْ﴾ والهاء حرف تنبيه لا محل له. ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، والكاف مفعوله. ﴿رَبُّكُم﴾: فاعله، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بإذا الفجائية. ﴿بِخَمْسَةِ﴾: متعلِّقان بما قبلهما، وباقي الإعراب مثل الآية السابقة، والآية بكاملها في محل نصب مقول القول فيما يظهر، وهو أولى من الاستئناف.

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا جَعَلَهُ﴾: وما جعل الإمداد المذكور في الآية السابقة. وقيل: تعود الهاء على المدد، وهم الملائكة. وقيل: تعود على التَّسويم. وقيل: على الإنزال، ودل عليه ﴿مُنزَلِينَ﴾ وقيل: تعود على العدد. ﴿بُشْرَىٰ لَكُمْ﴾: بشارة لكم بالنصر، والعزَّة، والكرامة. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ أي: لتسكن، وتستقرَّ ضمائركم، فلا تجزع من كثرة عدوِّكم، وقلَّة عددكم. ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تحيلوا النصر على الملائكة، والجند، وكثرة العَدَدِ، والعُدَدِ؛ فإن النَّصر من عند الله، لا من عند غيره. والفرض أن يكون توكُّلهم على الله، لا على الملائكة الَّذين أُمِدُّوا بهم. وفيه تنبيهٌ على الإعراض عن الأسباب، والإقبال على مُسبِّب الأسباب. ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فاستعينوا به، وتوكلوا عليه؛ لأنَّ العزَّ، وهو كمال القدرة، والقوَّة، والحكم، وهو كمال العلم، فلا تخفى عليه مصالح العباد، والبلاد. وعلى كلٍّ فقد كان ذلك الإمداد بمنزلة السَّكينة لبني إسرائيل[1]، بشارةً بالنَّصر، وطمأنينةً للقلوب، وهذه الآية مذكورة بجميع ألفاظها بسورة (الأنفال) رقم [١٠].

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿جَعَلَهُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض. ومفعوله الأول، وفاعله. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿بُشْرَىٰ﴾: مفعول لأجله مستثنى من عموم العلل. أو هو

(١) إشارة لقوله تعالى في سورة البقرة [٢٤٨]: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ إلخ.

مفعول ثان. والأول أقوى، منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على الألف للتعذُّر. ﴿لَكُمْ﴾: جار، ومجرور متعلقان بـ ﴿بُشْرَىٰ﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ الواو: حرف عطف. (لتطمئن): فعل مضارع منصوب بـ «أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، التقدير: فعل الله ذلك بكم؛ لاطمئنان قلوبكم، وهذا على اعتبار: ﴿بُشْرَىٰ﴾ مفعولاً ثانياً، أو هما معطوفان على: ﴿بُشْرَىٰ﴾ على اعتباره مفعولاً لأجله، وتقدير الكلام: إلا للبشارة، وللاطمئنان. ﴿قُلُوبُكُم﴾: فاعله والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿ٱلنَّصْرُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مِنْ عِندِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿عِندِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾: بدل من لفظ الجلالة. ومثله: ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ وانظر ما ذكرته في إعراب البسملة أول سورة (الفاتحة). والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها؛ إن لم تجوز عطف الاسمية على الفعلية.

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾

الشرح: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾: هذا متعلِّق بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾. والمعنى: إن المقصود مِنْ نصركم ببدر؛ ليقطع طرفاً؛ أي: ليهلك طائفةً من الذين كفروا. وقيل: المعنى: ليهدم ركناً من أركان الشِّرك بالقتل، والأسر، فقُتِلَ من سادات قريش، وقادتهم سبعون، وأُسِر سبعون. وَمَنْ حمل الآية على غزوة أحد؛ قال: قتل من الكافرين ستة عشر، وكان النَّصر فيه للمسلمين حتَّى خالفوا أمر رسول الله ﷺ. فانقلب الحال.

﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾: أصل الكبت في اللُّغة: صرع الشيء على وجهه. والمعنى: أن يصرعهم على وجوههم. والمراد منه: القتل، والهزيمة، أو الإهلاك، أو اللَّعن، والخزي. ﴿فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ﴾ أي: فيرجعوا بالخيبة، لم ينالوا شيئاً من الَّذي أمَّلوه. قال القحيف العقيلي شاعر إسلامي ـ وهو الشاهد رقم [١٧٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

فَمَا رَجَعَتْ بِخَائِبَةٍ رِكَابٌ ... حَكِيمُ بْنُ الْمُسَيَّبِ مُنْتَهَاهَا

الإعراب: ﴿لِيَقْطَعَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ وأن المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جرٍّ بلام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿نَصَرَكُمُ﴾ أو بالفعل: ﴿يُمْدِدْكُمْ﴾. وقيل: متعلقان بفعل محذوف يدلُّ عليه أحد الفعلين المذكورين. ﴿طَرَفًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿طَرَفًا﴾. ﴿كَفَرُوٓا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتَّفريق، والمتعلَّق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿أَوْ﴾: حرف

عطف. ﴿يَكْبِتَهُمْ﴾: فعل مضارع معطوف على: (يقطع) منصوب مثله، والفاعل يعود إلى: ﴿اللَّهُ﴾ أيضاً، والهاء مفعول به. ﴿فَيَنقَلِبُواْ﴾ الفاء: حرف عطف. (ينقلبوا): فعل مضارع معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿خَآئِبِينَ﴾: حال من واو الجماعة منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابةً عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ أي: بل الأمر كلُّه إليَّ. كما قال تعالى في سورة (الرَّعد): ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾. وقال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ (سورة (البقرة)). وقال محمد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ: المعنى: ليس لك من الحكم شيء في عبادي، إلا ما أمرتك به فيهم، ثمَّ ذكر بقيَّة الأقسام، فقال: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ممَّا هم فيه من الكفر، فيهديهم بعد الضَّلالة. ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ﴾ أي: في الدُّنيا، والآخرة على كفرهم، وذنوبهم، ولهذا قال: ﴿فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ أي: يستحقُّون ذلك. وخذ ما يلي:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ لما كُسرت رَباعِيَتُه، وشُجَّ وجهه يوم أحد؛ حتَّى سال الدم على وجهه؛ قال: «**كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ فَعَلُوا هَذَا بِنَبِيِّهِمْ؛ وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ عزَّ وَجَلَّ؟!**». فأنزل الله الآية الكريمة. أخرجه الإمام أحمد. وقيل: استأذن ربَّه في أن يدعو في استئصالهم، فأنزل الله الآية، فعلم: أنَّ منهم مَنْ سيسلم. وقد آمن الكثير منهم، مثل: خالد، وعمرو بن العاص، وعكرمة، وصفوان، وغيرهم. وقيل: نزلت في أهل بئر معونة، قتلهم عامر بن الطفيل، فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الرُّكوع في الركعة الثانية من الفجر يقول: «**اللهُمَّ الْعَنْ فُلاناً، وَفُلاناً، وَفُلاناً**» فأنزل الله الآية. والمعتمد: أنَّ الآية نزلت في وقعة أحد، والذي شَجَّ وجه رسول الله ﷺ وكسر رَباعِيَّته هو: عتبة بن أبي وقَّاص أخو سعد ـ رضي الله عنه ـ.

الإعراب: ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿لَيْسَ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿شَىْءٌ﴾ كان صفة له، فلما قُدِّم عليه صار حالاً، وهو غير مسلَّم، والأولى تعليقهما بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف. ﴿شَىْءٌ﴾: اسم: ﴿لَيْسَ﴾ مؤخر. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿يَتُوبَ﴾: معطوف على (يقطع) في الآية السابقة، فهو منصوب مثله، وعليه: فجملة ﴿لَيْسَ...﴾ إلخ معترضة بين المتعاطفين، ويحتمل أن يكون منصوباً بـ «أن» مضمرة بعد: ﴿أَوْ﴾ ويكون المصدر المؤول منها، ومن الفعل المضارع معطوفاً على الأمر، أو على:

﴿شَيۡءٌ﴾. التقدير: ليس لك من أمرهم شيء، أو من التوبة عليهم، أو من تعذيبهم، أو: ليس لك من أمرهم شيء، أو التعدية عليهم، أو: تعذيبهم. فيكون مثل قوله تعالى في سورة (الشورى) رقم [٥١]: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا...﴾ إلخ. ومثل هذه الآية قول ميسون بنت بَحْدَل الكلبيَّة ـ وهو الشَّاهد رقم [٤٧٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

وَلُبْسُ عَبَاءَةٍ وَتَقَرَّ عَيْنِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ لُبْسِ الشُّفُوفِ

وأيضاً قول الآخر ـ وهو الشاهد رقم [١٣٩] من كتابنا: «فتح ربِّ البرية» ـ: [البسيط]

لَوْلا تَوَقُّعُ مُعْتَرٍّ فَأُرْضِيَهُ مَا كُنْتُ أُوثِرُ أَتْرَاباً عَلَى تِرْبِ

وأيضاً قول أنس بن مدركة الخثعمي ـ وهو الشاهد رقم [١٤٠]: من الكتاب المذكور ـ: [البسيط]

إِنِّي وَقَتْلِي سُلَيْكاً ثُمَّ أَعْقِلَهُ كَالثَّوْرِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتِ الْبَقَرُ

وخذ القاعدة من قول ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

وَإِنْ عَلَى اسْمٍ خَالِصٍ فِعْلٌ عُطِفْ تَنْصِبُهُ إِنْ ثَابِتاً أَوْ مُنْحَذِفْ

وقيل: ﴿أَوۡ﴾ بمعنى: إلَّا أنْ، كقولك: ألزمنَّك، أو تعطيني حقي، على معنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن يتوب الله عليهم، فتفرح بحالهم، أو يعذبهم، فتشفى منهم، ومثل ذلك قول زياد الأعجم ـ وهو الشاهد رقم [١٠٤]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [١٤٦]: من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الوافر]

وَكُنْتُ إِذَا غَمَزْتُ قَنَاةَ قَوْمٍ كَسَرْتُ كُعُوبَهَا أَوْ تَسْتَقِيمَا

﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿يُعَذِّبَهُمۡ﴾: فعل مضارع معطوف على ما قبله، وفاعله ما قبله، يعود إلى: (الله) والهاء في محل نصب مفعول به. ﴿فَإِنَّهُمۡ﴾: الفاء: حرف تعليل. (إنهم): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿ظَٰلِمُونَ﴾: خبرها مرفوع، وعلامة رفعه الواو... إلخ، والجملة الاسمية تعليلٌ لعذابهم؛ إنْ عذبهم الله تعالى. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢٩﴾

الشرح: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [١٠٩]: ﴿يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾: بفضله، ورحمته. ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ أي: بعدله، وحكمته، يحكم فيهم بما يشاء، لا منازع له في

حكمه، ولا معارض له في فعله. وبين: ﴿يَغْفِرُ﴾ و(يعذب) طباقٌ، وهو من المحسِّنات البديعية. ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعني: أنه تعالى يستر ذنوب عباده، لا على سبيل الوجوب عليه؛ لأنه تعالى لو أدخل جميع خلقه الجنَّة؛ لكان ذلك برحمته، ولو أدخل جميع خلقه النَّار؛ لكان ذلك بمحض عدله، ولكن جانب المغفرة، والرَّحمة غالبٌ. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [١٢٩] ﴿يَغْفِرُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: (الله) ومفعوله محذوف، والجملة في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط الضمير فقط، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلست مفنّداً. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: (الله) والجملة الفعلية صلة: (مَنْ) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يغفر للذي، أو: لشخص يشاؤه. والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق. (الله): مبتدأ. ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾: خبران له، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة الاسمية، لا محلَّ لها مثلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نادى الله عباده المؤمنين في هذه الآية بأكرم وصف، وألطف عبارة؛ أي: يا مَنْ صدَّقتم بالله، ورسوله، وتحلَّيتم بالإيمان، الذي هو زينة الإنسان. وقد خاطب الله عباده المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ في ثمانية وثمانين موضعاً من القرآن الكريم. ونداء المخاطبين باسم المؤمنين، يذكِّرهم بأن الإيمان يقتضي مِنْ صاحبه أن يتلقى أوامر الله، ونواهيه بحسن الطاعة، والامتثال. وإنَّما خصَّهم الله بالنداء؛ لأنهم هم المستجيبون لأمره، المنتهون عمَّا نهى عنه؛ إذ الغالب أن يتبع هذا النداء بأمرٍ، أو بنهي.

﴿لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾: ينهى الله عن تعاطي الربا، وإنما ذكر الأكل؛ لأنَّه أعظم منافع المال؛ لأن المال لا يؤكل، إنَّما يُصرف في المأكول، ثم يؤكل... إلخ، وانظر الآية رقم [٢٧٥]. من سورة (البقرة). ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ أراد به ما كانوا يفعلونه في الجاهلية عند حلول الدَّين من زيادة المال، وتأخير الأجل. كان الرَّجل في الجاهلية إذا كان له على آخر دين، فإذا جاء الأجل، ولم يكن للمدين ما يؤدِّي؛ قال صاحب الدَّين: زدني في المال حتى أزيدك في الأجل، فربما فعلوا ذلك مراراً فيصير الدَّين أضعافاً مضاعفة، فنهى الله عزَّ وجل عن ذلك، وحرَّم الله أصل الرِّبا، ومضاعفته.

هذا؛ و﴿أَضْعَٰفًا﴾ جمع: ضِعف، وهو بكسر الضاد، وسكون العين: مثل الشيء، وضعفاه: مثلاه، وأضعافه: أمثاله. هذا هو الأصل في الضِّعف، ثم استعمل في المِثْل، وما زاد، وليس

للزيادة حدٌّ، فيقال: هذا ضعف هذا؛ أي: مثله، أو مثلاه، أو ثلاثة أمثاله، وهكذا. ويقال: أضعفت الشيء، وضعَّفته، وضاعفته. فمعناه: ضمَمْتُ إليه مثله فصاعداً. وقال بعضهم: ضاعفتُ أبلغ من: ضعَّفت، ولذا قرأ أكثرهم في سورة (الأحزاب): ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾. وفي (الفرقان): ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾. وفي (النِّساء): ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفۡهَا﴾. هذا؛ وللضَّعْف بفتح الضاد، والضُّعْف بكسرها، والضِّعْف بضمها معانٍ نظمها بعضهم بقوله: [الرجز]

فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ يَكُونُ الضَّعْفُ وَالْوَهْنُ فِي الْجِسْمِ فَذَاكَ الضِّعفُ
زِيَادَةُ الْمِثْلِ كَذَا وَالضُّعْفُ جَمْعُ ضَعِيفٍ وَهوَ شَاكِي الضُّرِّ

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: خافوه في أكل الرِّبا، واحذروه، فلا تأكلوه. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: أي لكي تسعدوا بثوابه في الآخرة؛ لأنَّ الفلاح والفوز النجاح يتوقف على التقوى. وانظر ما ذكرته بشأن الربا في سورة (البقرة) رقم [٢٧٥].

بعد هذا ينبغي أن تعلم: أنَّ ذكر الأضعاف المضاعفة في الآية الكريمة ليس للقيد، والشرط، وإنَّما هو لبيان الحالة التي كان الناس عليها في الجاهلية، وللتشنيع عليهم بأن هذه المعاملة ظلماً صارخاً، وعدواناً مبيناً؛ حيث كانوا يأخذون الربا أضعافاً مضاعفة، قال أبو حيَّان ـ رحمه الله تعالى ـ نهوا عن الحالة الشَّنعاء، الَّتي يوقعون عليها الربا، فربما استغرق بالنَّذر اليسير مال المَدِين، فالرِّبا محرَّم بجميع أنواعه، فهذه الحالة ليست قيداً في النَّهي.

وينبغي أن تلاحظ: أن هذا النهي عن أكل الرِّبا جاء اعتراضاً بين أثناء قصَّة غزوة أحد، وإنَّما خصَّه الله بالذكر من بين المعاصي؛ لأنَّه هو الذي آذن فيه بالحرب في قوله في سورة (البقرة) رقم [٢٧٩]. والحرب يؤذن بالقتل، فكأنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ يقول: إن لم تتقوا الرِّبا هزمتم، وقتلتم، فأمرهم بترك الرِّبا؛ لأنَّه كان معمولاً به عندهم، والاعتراض بشيء بين ما هو بحث في شيء آخر إنَّما هو للتنبيه على أهميته، كما في ذكر الدُّعاء الذي بين آيات الصيام، وذكر الصَّلاة بين الآيات المتعلِّقة بالنِّكاح، والطَّلاق. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية رقم [١٠٠]: ففيها الكفاية. ﴿لَا تَأۡكُلُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿أَضۡعَٰفٗا﴾: حال من: ﴿ٱلرِّبَوٰٓاْ﴾. ﴿مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾: صفة له. ﴿وَٱتَّقُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [١٢٣].

﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝١٣١﴾

الشرح: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾: هذا الوعيد لمن استحل الرِّبا، ومن استحلَّ الرِّبا؛ فإنَّه يكفر، وكلُّ معصيةٍ مَنْ يستحلُّها؛ فإنه كافر، ويستحقُّ النار، وبئس القرار. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذا تهديدٌ للمؤمنين أن يستحلُّوا ما حرَّم الله من الرِّبا وغيره مما أوجب الله فيه النَّار، وقال بعضهم: إن هذه الآية أخوف آيةٍ في القرآن؛ حيث أوعد الله المؤمنين بالنَّار المعدَّة للكافرين؛ إن لم يتقوه، ويجتنبوا محارمه. وقال الواحديُّ ـ رحمه الله ـ: في هذه الآية تقوية لرجاء المؤمنين برحمة من الله تعالى؛ لأنه قال: أعدَّت للكافرين، فجعلها معدَّة للكافرين دون المؤمنين. وجوابه ما تقدَّم من أنَّ مَنِ استحلَّ شيئاً مِنْ محارم الله؛ فإنه كافر بالإجماع.

﴿ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾: هُيئت، وفيه دليل على أنَّ النار موجودة الآن، وكذلك الجنَّة، لقوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾. وفيه ردٌّ على المعتزلة، وغيرهم الَّذين يُنكرون وجودهما الآن. هذا؛ وأصل: (اتقوا): اوْتِقيُوا، قلبت الواو تاءً، وأدغمت بالتاء، وحذفت الضمة التي على الياء فالتقى ساكنان: الياء، والواو، فحذفت الياء، فصار: (اتَّقِوْا) ثم قلبت الكسرة ضمَّة لمناسبة الواو.

أمَّا ﴿ٱلنَّارَ﴾ فأصلها: النَوَر، تحرَّكت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. وهي المؤنث من المجازي، وقد تذكَّر. وتصغيرها: نويرة، والجمع: أنْوُر، ونيران، ونِيرة، ويكنى بها عن جهنَّم، الَّتي سيعذب الله بها الكافرين، والفاسقين الفاسدين يوم الدِّين، كما أنَّها تستعار للشدَّة، والضِّيق، والبلاء، قال الشاعر: [الطويل]

وَأَلْقَى عَلَى قَيْسٍ مِنَ النَّارِ جَذْوَةً ... شَدِيداً عَلَيْهَا حَرُّهَا وَالْتِهَابُهَا

فهي مستعارة في هذا البيت لشدَّة النكاية؛ التي أذاقها قبيلة قيس. والفعل: نار، ينور، يستعمل لازماً، ومتعدياً؛ إذا بدئ بهمزة التعدية، كما في قولك: أنارت الشمس الكون.

الإعراب: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾: إعرابه مثل ما قبله. ﴿ٱلَّتِىٓ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة: ﴿ٱلنَّارَ﴾. ﴿أُعِدَّتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، ونائب الفاعل يعود إلى النَّار، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محلَّ لها. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿وَٱتَّقُواْ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها.

﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٣٢﴾

الشرح: فهذه الآية تقرن طاعة الرَّسول بطاعة الله تعالى، وهذا كثير في الآيات القرآنية، ومنه قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٨٠]: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾. وانظر ما ذكرته

في الآية رقم [٣٢]: فإنَّه جيد، والحمد لله! ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فقد أتبع سبحانه الوعد بالوعيد، ترهيباً عن المخالفة، وترغيباً في الطَّاعة. وانظر مثل هذا الترجِّي في الآية رقم [١٢٣]. هذا؛ و(لعل) و«عسى» في مثل ذلك تفيدان تحقيق ما ذكر، وفي هذه الآية إطماع من ربٍّ كريم، فيجري مجرى وعده المحتوم وفاؤه.

فائدة: وفي السَّمين ما نصه: (لعل) في كلام الله تعالى للناس فيه ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّ لعل على بابها من الترجِّي، والإطماع، ولكن بالنسبة إلى المُخاطبين؛ أي: لعلَّكم ترحمون على رجائكم، وطمعكم. وكذا قال سيبويه في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ أي: اذهبا على رجائكما. والثاني: أنَّها للتعليل؛ أي: أطيعوا الله؛ لكي تُرحموا، وبه قال قطرب، والطبري، وغيرهما. والثالث: أنها للتعرُّض للشَّيء، كأنه قيل: افعلوا ذلك متعرِّضين لأن ترحموا.

الإعراب: (أطيعوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو وفاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿وَٱلرَّسُولَ﴾: معطوف عليه. ﴿لَعَلَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿تُرْحَمُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محلِّ رفعٍ خبر (لعلَّ) والجملة الاسمية تعليل للأمر، لا محل لها.

﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَسَارِعُوٓاْ...﴾ إلخ؛ أي: سارعوا بالأعمال الصَّالحة، التي توجب المغفرة لكم من ربكم. وقيل: سارعوا بالتَّوبة؛ لأنَّها تؤدي إلى المغفرة. ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا...﴾ إلخ: لَوْ وُصِلَ بعضُها ببعضٍ. وقيل: إنَّ الله شبه عرض الجنَّة بعرض السموات والأرض، لو وُصل بعضها ببعضٍ؛ لكان عرض الجنة في قدرها جميعاً. وقيل: إنَّ السَّموات السَّبع، والأرضين السَّبع لو جعلت صفائح، وألزق بعضُها ببعضٍ؛ لكان عرض الجنة في قدرها جميعاً. وقيل: إنَّ الله تعالى شبَّه عرض الجنة بعرض السَّموات والأرض، ولا شكَّ: أن الطُّول يكون أزيد من العرض، فذكر العرض تنبيهاً على أنَّ طولها أضعاف ذلك، ومن عادة العرب: أنَّها تعبِّر عن سعة الشيء بعرضه دون طوله، قال الشَّاعر: [الطويل]

كَـأَنْ بِـلَادَ اللهِ وَهْـيَ عَـرِيـضَـةٌ عَـلَـى الخائِفِ الْـمَـطْـلُـوبِ كِـفَّـةُ حَـابِـلِ

«الكِفَّة» بكسر الكاف: ما يُصاد به الظباء، يجعل كالطوق. والأصل فيه: أنَّ ما اتَّسع عرضه؛ لم يضق، ولم يدقَّ، وما ضاق عرضُه؛ دقَّ، فَجُعِل العرض كناية عن السَّعة. وروي: أنَّ هرقل أرسل إلى النبي ﷺ: إنك تدعوني إلى جنَّة، عرضها السموات والأرض. فأين النَّار؟ فقال

رسول الله ﷺ: «**سُبْحَانَ اللهِ فَأَيْنَ اللَّيْلُ إِذَا جَاءَ النَّهَارُ؟**» قيل: معناه ـ والله أعلم بذلك ـ: أنَّه إذا دار الفلك حصل النَّهار في جانب، والليل في ضدِّ ذلك الجانب، فكذلك الجنَّة في جهة العلوِّ، والنار في جهة السُّفل.

وروى طارق بن شهاب: أن ناساً من اليهود سألوا عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وعنده أصحابه، فقالوا: أرأيتم قولكم: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فأين النَّار؟ فقال: فأين الليل إذا جاء النهار؟ فقالوا: إنَّ لمثلها في التوراة. ومعناه: حيث يشاء الله تعالى.

وقيل: هذا تمثيل للعباد بما يعقلونه، ويقع في نفوسهم وأفكارهم، وأكثر ما يقع في نفوسهم مقدار السموات والأرض فشبه عرض الجنة بعرض السموات والأرض على ما يعرفه الناس. هذا؛ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: تقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض، كما تبسط الثياب، ويوصل بعضها ببعض، فذلك عرض الجنة، ولا يعلم طولها إلا الله، وهذا قول الجمهور، وذلك لا ينكر. فإن في حديث أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَا السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرضُون السَّبْعُ فِي الكرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الأرْضِ، وَما الكُرْسِيُّ فِي العرشِ إِلَّا كَحلَقَةٍ أُلْقِيَتْ فِي فَلَاةٍ مِنَ الأرْضِ**» فهذه مخلوقات أعظم بكثيرٍجدّاً مِنَ السموات والأرض، وقدرة الله أعظم من ذلك كله. هذا وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢١] من سورة (الحديد) تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك، هذا؛ وفي الآية تشبيه بليغ حيث حذف أداة التشبيه، وصرح بها في آية (الحديد) رقم [٢١].

بعد هذا: فقد حثَّنا الله هنا إلى المسارعة إلى ما يوجب مغفرة الذنوب، وحضَّنا على المسابقة إلى مثل ذلك في سورة (الحديد) وقال في سورة (المائدة) رقم [٤٨]: ﴿فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٤٨] من سورة (البقرة) ففيها شفاء، ودواء لقلبك.

تنبيه: حثَّ الله سبحانه وتعالى في الآيات التي ذكرتُها على المسارعة إلى الأعمال الصَّالحة، كما وصف أنبياءه بأنَّهم كانوا يسارعون في الخيرات، وهذا لا يناقض ما روي: «**العجلةُ من الشيطانِ والتأنِّي منَ الرَّحمنِ**» لأنه مستثنىً منه، كما أنَّ هناك أموراً تسنُّ المبادرة إلى فعلها، كأداة الصَّلاة المكتوبة إذا دخل وقتها، وقضاء الدَّين بحقِّ الموسر، وتزويج البكر البالغ إذا أتى الكفؤ لها، ودفن الميت، وإكرام الضَّيف إذا نزل. وخذ ما يلي: فعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله له: «**يَا عَلِيُّ! ثَلَاثٌ لَا تُؤَخِّرْهَا، الصَّلَاة إِذَا أَتَتْ، والجنَازة إذا حضرت، والأيِّم إذا وجدت كفؤاً**». أخرجه الترمذيُّ، وجاء في الشعر العربيِّ الحثُّ على العجلة. قال بشار بن برد الأعمى: [البسيط]

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَمْ يَظْفَرْ بِحاجَتِهِ وفَازَ بِالطَّيِّبَاتِ الفَاتِكُ اللَّهِجُ

واختصره سلم الخاسر، فقال: [مخلَّع البسيط]

مَنْ رَاقَبَ النَّاسَ مَاتَ هَمّاً وَفَازَ بِاللَّذةِ الجَسُورُ

وَنُسِبَ للأعشى، ولغيره ما يلي: [البسيط]

وَرُبَّمَا فَاتَ قَوْمَاً جُلُّ أَمْرِهِمُ ... مِنَ التَّأَنِّي وكَانَ الْحَزمُ لَوْ عَجَّلوا

وقال آخر: [البسيط]

وربَّما ضَرَّ بعضَ النَّاس بطؤهُمُ ... وكان خيراً لهم لو أنَّهم عجَّلوا

الإعراب: ﴿وَسَارِعُوٓا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ويقرأ بدون واو على الإفراد، فتكون الجملة مستأنفة. ﴿إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلقان بـ ﴿مَغْفِرَةٍ﴾ أو بمحذوف صفة لها، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَجَنَّةٍ﴾: معطوف على: ﴿مَغْفِرَةٍ﴾. ﴿عَرْضُهَا﴾: مبتدأ، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل جر صفة: (جنَّة). ﴿وَٱلْأَرْضُ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿أُعِدَّتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى: (جنَّة) والتاء للتأنيث. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل جر صفة ثانية لـ (جنة) أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدَّم، والاستئناف ممكن.

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ﴾ أي: المال. ﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: في العسر، واليسر، في الغنى، والفقر، والرَّخاء، والشدَّة، لا يتركون الإنفاق في جميع الحالات، لا في فرح وسرور، ولا في حال محنةٍ وبلاء، وسواء أكان الواحد منهم في عرسٍ، أو حبسٍ، فإنَّهم لا يدعون الإحسان إلى النَّاس، فأول ما ذكر الله من أخلاقهم الموجبة للجنَّة السَّخاء، وبذل المال؛ لأنَّه أشقُّ على النفس، وكانت الحاجة إلى بذل المال في ذلك الوقت أعظم الأحوال للحاجة إليه في مجاهدة الأعداء، ومواساة الفقراء المسلمين مهاجرين، وغيرهم. وقد ذكرت لك فيما مضى كثيراً من الأحاديث النبوية التي تُرَغِّب في إنفاق المال في وجوه الخير. وخذ هنا ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مثلُ البَخِيْلِ والمُنْفِقِ، كَمَثِلِ رجلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ، مِنْ ثُدِيِّهِمَا إِلَى تَرَاقِيهِمَا، فَأَمَّا المُنْفِقُ؛ فَلا يُنْفِقُ شَيْئاً إلا مَادَتْ عَلَى جِلْدِهِ؛ حتى تُجِنَّ بَنَانَهُ، وتَعْفُوَ أَثَرَهُ، وَأَمَّا البخيلُ؛ فلا يريدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئاً، إِلَّا لَزِقَتْ كُلُّ حلقةٍ مَوْضِعَها، فَهُوَ يوسِّعُهَا، وَلا تَتَّسِع**». متَّفق عليه. ولا تنس: أنَّ بين ﴿ٱلسَّرَّآءِ﴾ و﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ طباق، وهو من المحسِّنات البديعية.

﴿وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ أي: إذا ثار بهم الغيظ؛ كظموه، بمعنى: كتموه، فلم يعملوه، وعفوا عمَّن أساء إليهم، وقد ورد في بعض الآثار: يقول الله عز وجل: «يا ابن آدم اذكرني إذا غضبتَ أَذكرك إذا غضبتُ، فلا أهلكك فيما أهلك». رواه ابن أبي حاتم. والغيظ: شَدَّة الغضب، ومنه رجلٌ كظيم، ومكظوم: إذا كان ممتلئاً غمّاً، وحزناً. قال تعالى في حقّ «يعقوب» على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ﴾. وقال تعالى في من يسوءه ولادة الأنثى: ﴿ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ﴾. وقال تعالى في حقِّ «ذي النُّون» على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾. والغيظ: أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، لكن فرقان ما بينهما: أنَّ الغيظ لا يظهر على الجوارح، بخلاف الغضب، فإنَّه يظهر على الجوارح مع فعلٍ ما، ولا بُدَّ، ولهذا جاء إسناد الغضب إلى الله تعالى: أنَّه هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم، وخذ ما يلي:

فعن معاذ بن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظاً، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَفِّذَهُ؛ دعاهُ اللهُ سبحانه عَلَى رُؤُوسِ الخلائِقِ حتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الْحُورِ العينِ مَا شَاءَ**». رواه أبو داود، والترمذيُّ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن النبي ﷺ قال: «**لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ**». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، وغيرهما. وانظر الترغيب، والترهيب للحافظ المنذري؛ إن أردت الزيادة.

﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾: يعفون عمَّن أساء إليهم، أو ظلمهم، والعفو عن الناس أجلُّ ضروب فعل الخير، والإحسان، والأحاديثُ المرغِّبة في ذلك كثيرةٌ، أكتفي منها هنا بما يلي:

عن أبي كبشة الأنماريِّ ـ رضي الله عنه ـ: أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**ثَلاثٌ أقسِمُ عليهنَّ، وأحدِّثكمْ حديثاً، فاحْفَظُوهُ. قَالَ: مَا نَقَصَ مَالُ عبدٍ مِنْ صَدَقَةٍ، وَلا ظُلِمَ عبدٌ مظلمةً صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زادهُ اللهُ عِزّاً، فَاعْفُوا؛ يُعِزَّكُمُ اللهُ، وَلَا فتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ بَابَ فَقْرٍ**». رواه أحمد، والترمذي. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ، قال: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدَاً بِعَفْوٍ إِلَّا عَزّاً، وَمَا تَوَاضَعَ أحدٌ للهِ؛ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ**». رواه مسلم، والترمذيُّ. وروى أنس: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله! ما أشَدُّ مِنْ كُلِّ شيءٍ؟ قال: «**غَضَبُ اللهِ**» قال: فما ينجي من غضب الله؟ قال: «**لَا تَغضَبْ**». قال العرجي: [الكامل]

وَإِذَا غَضِبْتَ فَكُنْ وَقُوراً كَاظِماً … لِلْغَيْظِ تُبْصِرْ مَا تَقُولُ وتسمعُ
فكفَى بِهِ شرفاً تَصَبُّرُ سَاعَةٍ … يَرضَى بِهَا عَنْكَ الإِلَهُ وتُرْفَعُ

وقال عروة بن الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ في العفو: [البسيط]

لَنْ يَبْلُغَ المَجْدَ أقوامٌ وإنْ شَرُفُوا … حَتَّى يَذِلُّوا وَإِنْ عَزُّوا لأَقْوَامِ

وَيُشْتَمُوا فَتَرى الأَلْوَانَ مُشْرِقَةً لَا عَفْوَ ذُلٌّ وَلَكِنْ عَفْوَ إِكْرَامِ

﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: يثيبهم على إحسانهم. قال سَرِيٌّ السَّقطي - رحمه الله تعالى - الإحسان أن تحسن وقت الإمكان، فليس كلُّ وقتٍ يمكنك الإحسان، قال الشاعر: [البسيط]

بَادِرْ بِخَيْرٍ مَا كُنْتَ مُقْتَدِراً فَلَيْسَ فِي كُلِّ وَقْتٍ أَنْتَ مُقْتَدِرُ

وقال أبو العباس الجماني، فأحسن: [الخفيف]

لَيْسَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَأَوَانِ تَتَهَيَّأ صَفَائِحُ الإِحْسَانِ

وإِذا أَمْكَنَتْ فَبَادِرْ إِلَيهَا حَذِراً مِنْ تَعَذُّرِ الإِمْكَانِ

هذا؛ وللإحسان المقبول شرطان: **أحدهما**: أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى. **والثاني**: أن يكون موافقاً للشريعة؛ التي جاء بها محمَّد ﷺ. فمتى اختلَّ شرطٌ منهما؛ كان العمل غير مقبولٍ قطعاً.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: يجوز فيه ثلاثة أوجه: **الأول**: الجر على أنَّه صفة لـ (المتقين) أو بدل منه. **والثاني**: النصب على إضمار فعل، تقديره: أعني، أو أمدح. **والثالث**: الرَّفع من وجهين: **أحدهما**: أنه خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: هم الذين. **والثاني**: أنه مبتدأ، خبره ما بعده، وهو مبني على الفتح في محل جرٍّ، أو في محل نصب، أو في محل رفع. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والمفعول محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿فِى ٱلسَّرَّآءِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ﴾: معطوف على: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ على الجر والنصب، ولم يقرأ بالرفع، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلْغَيْظَ﴾: مفعول به بـ (الكاظمين). ﴿وَٱلْعَافِينَ﴾: معطوف على: (الكاظمين) على الوجهين المعتبرين فيه، والياء هي النائبة مناب الكسرة، أو الفتحة في الاسمين؛ لأنهما صفتا جمع مذكر سالم، والنون فيهما عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿عَنِ ٱلنَّاسِ﴾: متعلقان بـ (العافين) قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به، وفاعله مستتر فيه. (الله): مبتدأ. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: مفعول به منصوب... إلخ، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (الله يُحِبُّ...) إلخ معترضة بين المتعاطفين مقرِّرة لمحبَّة الله للمحسنين.

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَـٰحِشَةً﴾: يعني: فعلةً فاحشةً خارجةً عمَّا أذن الله فيه. والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال، والأقوال. وقال جابر بن عبد الله - رضي الله عنه -:

الفاحشة: الزنى. ﴿أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾: ظلم النفس هو ما دون الزنى، مثل القبلة، والمعانقة، واللمس، والنظر. ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾: ذكروا وعيد الله، وعقابه، ووقوفهم بين يديه حين يسألهم عن أعمالهم يوم الفزع الأكبر، ذكروا عظمته، وكبرياءه. ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ﴾ أي: لأجل ذنوبهم، فتابوا منها، وأقلعوا عنها، نادمين على فعلها، عازمين على ألا يعودوا إليها. وهذه شروط التوبة المقبولة من حقِّ الله، وأمَّا التوبة من حقِّ العبد؛ فلها شرط رابع، وهو ردُّ الحقّ إلى صاحبه. ﴿وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: لا يغفر الذنوب إلا الله. وصف سبحانه نفسه بسعة الرحمة، وقرب المغفرة، وأن التائب من الذنب عنده كمن لا ذنب له، وأنه لا مفزع للمذنبين إلا إلى فضله، وكرمه، وعفوه، ورحمته، وإحسانه. وفيه تنبيه على: أنَّ العبد لا يطلب المغفرة إلا منه، وأنَّه القادر على عقاب المذنب، وكذلك هو القادر على إزالة ذلك العقاب عنه، فثبت: أنَّه لا يجوز طلب المغفرة إلا منه، عزَّ وجل.

﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ﴾ يعني: ولم يقيموا على الذنوب، ولم يستمرُّوا عليها، ولكن تابوا منها، وأنابوا، واستغفروا. والإصرار: هو العزم بالقلب على ترك الأمر، والإقلاع عنه، ومنه صرُّ الدَّنانير، أي: الربط عليها. وقال قتادة: الإصرار: الثبوت على المعاصي، قال الشاعر: [البسيط]

يُصِرُّ بِاللَّيْلِ مَا تُخْفِي شَوَاكِلُهُ ... يَا وَيْحَ كُلِّ مُصِرِّ الْقَلْبِ خَتَّارِ

قال سهل بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ الجاهل ميت، والناسي نائم، والعاصي سكران، والمصر هالك. والإصرار هو التَّسويف، والتَّسويف أن يقول: أتوب غداً. وبمعنى الثبوت قوله تعالى في سورة (الجاثية) رقم [٨]: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، وفي سورة (الواقعة) قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾. وقيل: الإصرار: ترك الاستغفار. فعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ، وَلَوْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مرَّةً**». الترمذيُّ.

﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾: فيه أقوال كثيرة، قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: وهم يعلمون: أنها معصية، وأنَّ لهم ربًّا يغفرها. وقيل: وهم يعلمون: أن الإصرار ضارٌّ. وقيل: وهم يعلمون: أنَّ الله ملك مغفرة الذنب. وقيل: وهم يعلمون: أنَّ الله لا يتعاظمه العفو عن الذنوب؛ وإن كثرت. وقيل: وهم يعلمون: أنهم إن استغفروه؛ غفر لهم. قال ثابت البناني ـ رحمه الله تعالى ـ: بلغني: أنَّ إبليس بكى حين نزلت الآية الكريمة. وذُكِرَ في مختصر ابن كثير عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ.

بعد هذا: فقد ندبنا الله عز وجل في كثيرٍ من الآيات القرآنيَّة إلى الاستغفار، وحثَّنا عليه الرسول ﷺ في أحاديثه الكثيرة الصَّحيحة. وخذ من ذلك ما يلي: فعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء منه، وإذا حدَّثني عنه غيره؛ استحلفتُه، فإذا حلف لي؛ صدَّقته، وإنَّ أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ حدَّثني، وصدق: أنَّه سمع

رسول الله ﷺ قال: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذَنْباً، فَيَتَوَضَّأُ، وَيُحْسِنُ الوضوءَ، ثمَّ يُصَلِّي ركعتينَ، فَيَسْتَغْفِرُ اللهَ، عز وجلَّ؛ إِلَّا غُفِرَ لَهُ**». ثم قرأ هذه الآية، والآية رقم [١١٠] من سورة (النساء). أخرجه أبو داود، والترمذيُّ. أقول: والمرأة مثلُ ذلك.

وعن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول، قال الله عز وجل: «**يَا بْنَ آدَمَ! إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي، وَرَجَوْتَنِي؛ غفرتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ مِنْكَ، وَلَا أُبَالِي. يَا بْنَ آدمَ! إِنَّكَ لَوْ بَلَغَتْ ذنوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ، ثمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي؛ غَفَرْتُ لَكَ، ولا أُبَالِي. يَا بْنَ آدَمَ! إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا، ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئاً؛ لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً**». أخرجه التِّرمذيُّ، وقال: حديث حسن.

وعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: «**قال إبليس: وَعِزَّتِكَ لَا أَبْرَحُ أَغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ! فقالَ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي!**». رواه الإمام أحمد، والحاكم. وعن ابن مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ الْعَظِيمَ، الَّذي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؛ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ، وَإِنْ كَانَ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ**». أخرجه أبو داود، والترمذيُّ، والحاكم. هذا بالإضافة لما ذكرته في الآية رقم [١٧] وفي الآية رقم [١٩٩] من سورة (البقرة) وخذ ما يلي:

فقد روي: أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ خرج يستسقي، فما زاد الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت فقال: لقد استسقيت بمجاديح السَّماء التي يستنزل بها المطر. شبَّه الاستغفار بالأنواء الصَّادقة التي لا تخطئ. وعن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: أنَّ رجُلاً شكا إليه الجدب، فقال: استغفرِ الله، وشكا إليه آخر الفقر، فقال: استغفرِ الله، وآخر شكا إليه قلة الأولاد، فقال: استغفرِ الله، وشكا إليه آخر قلة ريع أرضه، فقال: استغفرِ الله، فقال له الربيع ابن صبيح: أتاك رجال يشكون أبواباً، ويسألون أنواعاً، فأمرتهم كلَّهم بالاستغفار! فتلا عليه قوله تعالى في سورة نوح ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا﴾.

بعد هذا؛ فالفعل: «استغفر» يتعدَّى لاثنين، أولهما بنفسه، والثَّاني بـ «مِنْ» نحو: استغفرتُ الله من ذنبي، وقد يحذف حرف الجر، كقول الشاعر، وهو الشاهد رقم [٤٨٦]: من كتابنا فتح رب البريَّة: [البسيط]

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ ... رَبَّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْقَبَلُ

ومثل: استغفر: أمر، واختار، وكَنَى، وسمَّى، ودعا، وصدَّق، وزوَّج، وكال، ووزن.

الإعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: معطوف على ما قبله في الآية السابقة على جميع الوجوه المعتبرة فيه. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب لجوابه، صالح لغير ذلك،

مبني على السكون في محل نصب. ﴿فَعَلُوا﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿فَاحِشَةً﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محلِّ جرٍّ بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. وجملة: ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾: معطوفة عليها، وجملة: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ جواب ﴿إِذَا﴾ لا محل لها، وجملة: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾: معطوفة عليها، لا محلَّ لها مثلها، والإعراب مثل الأولى، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام لا محلَّ له؛ لأنه صلة الموصول.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف، واعتراض. (مَنْ): اسم استفهام بمعنى النفي مبني على السكون في محلِّ رفعٍ مبتدأ. ﴿يَغْفِرُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: (مَنْ). ﴿الذُّنُوبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿اللَّهُ﴾: بدل من الفاعل المستتر، والجملة الاسمية: (من يغفر...) إلخ معترضة بين المتعاطفين، مؤكدة سعة رحمة الله تعالى، وعموم مغفرته، والحثَّ على الاستغفار، والوعد بقبول التوبة.

(لَمْ): حرف نفي، وجزم، وقلب. ﴿يُصِرُّوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لم) وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿عَلَىٰ مَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، وجملة: ﴿فَعَلُوا﴾ صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: ولم يصروا على الذي، أو: على شيءٍ فعلوه، وعلى اعتبار ما مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بـ ﴿عَلَىٰ﴾ التقدير: على فعلهم، والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا...﴾ إلخ معطوفة على جواب: ﴿إِذَا﴾ لا محلَّ لها مثله، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من واو الجماعة في «استغفروا» فلست مفنداً. الواو: واو الحال «هم»: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَعْلَمُونَ﴾: فعل مضارع، والواو فاعله، وانظر تقدير المفعول في الشرح، والجملة الفعلية في محل خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل: ﴿يُصِرُّوا﴾، والرابط: الواو، والضمير، فتكون حالاً متداخلة على الوجه الثاني في الجملة قبلها.

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾

الشرح: ﴿أُولَٰئِكَ...﴾ إلخ: الإشارة إلى الموصوفين بما تقدَّم، والإشارة بالبعيد للإشعار ببعد منزلتهم، وعلوِّ مكانتهم في الفضل. ﴿جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ...﴾ إلخ: قدَّم سبحانه المغفرة على الجنَّة؛ لأنَّ التخلية مقدَّمةٌ على التَّحلية، فلا يستحقُّ دخول الجنَّة من لم يتطهَّر من الذنوب، والآثام. هذا؛ وتفيد الآية الكريمة: أنَّ المطلوب بالتوبة أمران: أحدهما الأمن من العقاب،

وإليه الإشارة بقوله جلَّ ذكره: ﴿مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ والثاني: إيصال الثواب، وإليه الإشارة بقوله تعالى شأنه: ﴿وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى...﴾ إلخ؛ أي: ذلك لهم ذخرٌ لا يبخس، وأجرٌ لا يوكس. ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ أي: ونعم ثواب المطيعين؛ أي: الجنة، وما فيها من النَّعيم، والخير العميم.

تنبيه: لا يلزم من إعداد الجنَّة للمتقين، والتائبين جزاءً لهم ألا يدخلها المصرُّون، كما لا يلزم من إعداد النار للكافرين جزاءً لهم ألا يدخلها غيرهم، بل المصرُّون يدخلون الجنَّة بعد أن يُعذَّبوا في نار الجحيم على حسب جرائمهم، ويدخل النَّارَ من غير الكافرين عصاةُ المسلمين من الفاسدين، والظَّالمين في هذه الدُّنيا. وتنكير (جناتٌ) على الأول يدلُّ على أنَّ ما لهم دون ممَّا للمتَّقين الموصوفين بتلك الصِّفات المذكورة في الآية المتقدِّمة، وكفاك فارقاً بين القبيلتين: أنَّه فصَّل آيتهم، بأن بيَّن: أنَّهم محسنون، مستوجبون لمحبَّة الله، وذلك؛ لأنَّهم حافظوا على حدود الشرع، وتخطَّوا التَّخصُّص بمكارمه. وفصَّل آية هؤلاء بقوله: ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾؛ لأنَّ المتدارك لتقصيره كالعامل لتحصيل بعض ما فوَّت على نفسه، وكم بين المُحسن، والمُتدارك، والمحبوب، والأجير! ولعل تبديل لفظ الجزاء بالأجر لهذا النُّكتة. انتهى بيضاوي.

وفي هذا ردٌّ على الزَّمخشري القائل: وفي هذه الآيات بيانٌ قاطعٌ: أنَّ الذين آمنوا على ثلاث طبقاتٍ: متَّقون، وتائبون، ومصرُّون، وأنَّ الجنَّة للمتَّقين، والتَّائبين منهم دون المصرِّين. ومن خالف في ذلك، فقد كابر عقله، وعاند ربَّه. انتهى كشَّاف. وقد صفعه ابن المنير ـ رحمه الله تعالى ـ صفعةً ناعمةً، ثمَّ ذكر ما يلي:

روي: أنَّ الله ـ عز وجل ـ أوحى إلى موسى ـ عليه السلام ـ: «**مَا أَقَلَّ حَيَاءَ مَنْ يَطْمعُ بجنَّتي بِغَيْرِ عَمَلٍ؟! كَيْفَ أَجُودُ برحمتي عَلَى مَنْ بَخِلَ عَلَيَّ بِطَاعَتِي؟!**» وعن شهر بن حوشب ـ رحمه الله تعالى ـ: طلبُ الجنَّة بلا عمل ذنبٌ من الذنوب، وانتظار الشَّفاعة بلا سببٍ نوعٌ من الغرور. وارتجاء الرحمة ممَّن لا يطاع حمقٌ، وجهالة. وعن الحسن ـ رضي الله عنه ـ: يقول الله يوم القيامة: جوزوا الصِّراط بعفوي، وادخلوا الجنَّة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم. وعن رابعة البصريَّة ـ رضي الله عنها ـ: أنها كانت تنشد، وفي كتاب أدب الدُّنيا، والدِّين: أن ذلك لأبي العتاهية الصُّوفي: [البسيط]

مَا بَالُ دِيـنِـكَ تَـرْضَـى أَنْ تُـدَنِّـسَـهُ ... وَثَـوْبُ دُنْـيَـاكَ مَـغْـسُـولٌ مِـنَ الـدَّنَـسِ

تَـرْجُـو الـنَّـجَـاةَ وَلَـمْ تَـسْـلُـكْ مَـسَـالِـكَـهَـا ... إِنَّ الـسَّـفِـيـنَـةَ لَا تَـجْـرِي عَـلَـى الْـيَـبَـسِ

الإعراب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿جَزَآؤُهُم﴾: مبتدأ ثان، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. مغفرةٌ: خبره، والجملة الاسمية في محلِّ رفع خبر المبتدأ. هذا؛

وأجيز اعتبار: ﴿جَزَآؤُهُم...﴾ بدلاً من أولئك بدل الاشتمال، فيكون المصدر خبراً عنه، وذكرت في الآية رقم [٨٧] ضعفه، والجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ...﴾ إلخ على اعتباره مبتدأ على وجه من ذكره، كما يجوز اعتباره في محل رفع خبر: (الذين إذا. . .) إلخ على اعتباره مبتدأ، وغير معطوف على سابقه، أو هي مستأنفة لا محل لها من الإعراب بالإعراض عن الكلام السَّابق. ﴿مِّن رَّبِّهِمْ﴾: متعلقان بـ ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ أو بمحذوف صفة مقدَّرة له. ﴿وَجَنَّٰتٌ﴾: معطوف على: ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾. ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الياء للثقل. ﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلقان بما قبلهما، و«ها» في محلِّ جرٍّ بالإضافة. ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر صفة: (جنات). ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، وذكرت لك فيما مضى صحَّة مجيء الحال من المضاف إليه، وفاعله مستتر فيه. وقال مكي: حال من: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ولا وجه له ألبتة. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿وَنِعْمَ﴾ الواو: حرف استئناف. (نعم): فعل ماض جامد دالٌّ على إنشاء المدح. ﴿أَجْرُ﴾: فاعله، وهو مضاف، و﴿ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جرِّه الياء. . . إلخ من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، والمخصوص بالمدح محذوف، التقدير: ونعم أجر العاملين؛ الَّذي ذُكر، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾

الشرح: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾: مضت، وذهبت. وإعلاله مثل إعلال: «بدا» في الآية رقم [١١٨]. ﴿سُنَنٌ﴾: وقائع سنَّها الله في الأمم التي كذبت رسلها؛ حيث أهلكها الله بسبب مخالفتها للأنبياء. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: الخطاب للمؤمنين الذين أصيبوا يوم أحد، ففيه تسليةٌ لهم على ما أصابهم من الحزن، والكآبة في هزيمة غزوة أحد. وهذا رجوع لتفصيل بقية قصَّة أُحُد، بعد تمهيدِ مبادئ الرُّشد، والصلاح، وأوَّلها الآية رقم [١٢١]: فقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟﴾ إلى هذه الآية اعتراض في خلال القصَّة الواحدة. وخذ قول الشاعر، من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

فَلَا تَجْزَعَنْ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا

والسُّنَّة: الإمام المتَّبع المؤتمُّ به. قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ في معلَّقته: [الكامل]

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

والسُّنة: الأمَّة، والسُّنن: الأُمَم. قاله المفضل، وأنشد: [البسيط]

مَا عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِهِمُ وَلَا رَأَوْا مِثْلَهُمْ فِي سَالِفِ السُّنَنِ

هذا؛ والسُّنة بمعنى: الشَّريعة، والطَّريقة، تكون حسنةً، إن كانت في الخير، وتكون سيِّئةً إن كانت في الشرِّ. وخذ ما يلي: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ خيراً، فاسْتُنَّ بِهِ؛ كَانَ لَهُ أَجْره، وَمِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ غَيْرَ مُنتقَصٍ مِنْ أُجُورِهِم شَيْئاً. وَمَنْ سَنَّ شَرّاً، فَاسْتُنَّ بِهِ، كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهُ، وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ تَبِعَهُ غَيْرَ مُنْتَقَصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً**». رواه الإمام أحمد، والحاكم عن حذيفة ـ رضي الله عنه ـ ورواه مسلم، وابن ماجه، والترمذيُّ عن جرير بن عبد الله البجلي بأطول من هذا.

﴿فَسِيرُواْ﴾: هذا الأمر لصحابة رسول الله ﷺ لينظروا، ويعتبروا بأحوال الأمم الماضية. وفيه ردعٌ، وزجرٌ للكافرين المكذِّبين بأنَّ الله سيهلكهم، كما أهلك مَنْ قبلهم؛ لأنَّ الكافر إذا تأملَّ أحوال الكفار المُهْلَكين تأمُّلَ اعتبارٍ؛ صار ذلك داعياً إلى الإيمان، والكف عن كثير من طغيانه، وجبروته؛ لأن النَّظر إلى آثار المتقدِّمين له أثرٌ في النفس الكاملة، كما قيل: [الخفيف]

إنَّ آثَــارَنَـــا تَــدُلُّ عَــلَــيْــنَــا فَــانْــظُــرُوا بَــعْــدَنَــا إِلَــى الآثَــارِ

هذا؛ وعاقبه كلِّ شيءٍ آخره، ونتيجته، ومصيره، ومآله. ولم يؤنِّث الفعل: ﴿كَانَ﴾ لأنَّ عاقبة مؤنث مجازي، وما كان منه يستوي فيه التذكير، والتأنيث، أو لأن عاقبة اكتسب التذكير من المضاف إليه، وهو مصدر مثل: «العافية»... إلخ.

بعد هذا: فإنِّي ألفت النظر إلى أنَّه تعالى، قال هنا: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ بعد الأمر بالسَّير في الأرض، وقال جلَّ ذكره في الآية رقم [١١] من سورة (الأنعام): ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ والفرق بينهما: أنَّ النظر جُعِلَ مسبباً عن السَّير، فكأنه قيل: سيروا؛ لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين، ومعنى السَّير هناك: إباحة السَّير في الأرض للتِّجارة، وغيرها، وإيجاب النَّظر في آثار الهالكين، ونبَّه على ذلك بـ ﴿ثُمَّ﴾ التي هي للتراخي لتباعد ما بين الواجب، والمباح. انتهى.

الإعراب: ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿خَلَتۡ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنةً مع تاء التأنيث الساكنة. ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجوز تعليقهما بمحذوف حال من: ﴿سُنَنٞ﴾ كان صفةً له، فلما قُدِّم عليه صار حالاً على القاعدة: نعت النكرة... إلخ، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿سُنَنٞ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿فَسِيرُواْ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرط مقدَّر، التقدير: إنَّ شككتم في ذلك ﴿فَسِيرُواْ﴾. (سيروا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية في محلِّ جزم جواب للشَّرط المقدَّر: «إنْ».

﴿فَٱنظُرُواْ﴾: الفاء: حرف عطف. (انظروا): مثل سابقه في إعرابه، والجملة الفعلية معطوفة على سابقتها. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب خبر: ﴿كَانَ﴾ تقدَّم عليها وعلى اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿عَٰقِبَةُ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾، وهو مضاف،

و﴿ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، وجملة: ﴿كَيْفَ كَانَ...﴾ إلخ في محل نصب مفعول به للفعل قبلهما المعلَّق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام.

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾

الشرح: ﴿هَٰذَا﴾: الإشارة إلى القرآن، أو إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ...﴾ إلخ، أو إلى ما ذكر من أحوال المتقين، والتَّائبين. هذا؛ والبيان: الدلالة التي تفيد إزالة الشبهة، بعد أن كانت حاصلةً. والهدى: بيان طريق الرُّشد المأمور بسلوكه دون طريق الغيِّ. والموعظة: هي الكلام الذي يفيد الزَّجر عمَّا لا ينبغي في طريق الدِّين، وإنَّما خَصَّ المتَّقين بالهدى، والموعظة؛ لأنَّهم هم المنتفعون بهما دون غيرهم. انتهى خازن بتصرُّف. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿هَٰذَا﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محل لهز (ذا) اسم إشارة مبنيٌّ على السُّكون في محل رفع مبتدأ. ﴿بَيَانٌ﴾: خبره. ﴿لِّلنَّاسِ﴾: متعلقان بـ ﴿بَيَانٌ﴾ لأنَّه مصدر، أو بمحذوف صفة له. ﴿وَهُدًى﴾: معطوف على ﴿بَيَانٌ﴾ مرفوع مثله، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليلٌ عليها، وليست عينها. ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾: متعلقان بـ (موعظة) أو بمحذوف صفة لها، وحذف متعلق (هدىً) لدلالة متعلق (موعظة) عليه، أو هو من باب التنازع. والجملة الاسمية مستأنفةٌ، لا محل لها.

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة يوم أُحُدٍ حين أمر رسول الله ﷺ أصحابه بطلب المشركين مع ما أصابهم من الجراح، والقتل، وكان قد قتل من الأنصار سبعون رجلاً، ومِن المهاجرين خمسةُ رجالٍ، منهم: الحمزة، رضي الله عنهم أجمعين. ومعنى الآية: لا تضعُفوا عن الجهاد، ولا تجزعوا على مَنْ قُتِلَ منكم؛ لأنهم في الجنَّة. ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾ يعني: بالعزة، والنَّصر، والغلبة عليهم.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: انهزم أصحاب رسول الله ﷺ في الشِّعب، فأقبل خالدٌ ﷺ في خيل المشركين، يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال رسول الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ لَا يَعْلُوهُ عَلَيْنَا، اللَّهُمَّ لَا قُوَّةَ لَنَا إِلَّا بِكَ**» فثاب نفرٌ من المسلمين رماةً، فصعدوا الجبل، ورموْا خيل المشركين؛ حتَّى انهزموا، وعلا المسلمون الجبل. وقيل: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ لأنَّ حالكم خيرٌ مِنْ حالهم؛ لأنَّ قتلاكم في الجنَّة، وقتلاهم في النَّار، وأنتم تقاتلون على الحقِّ، وهم يقاتلون على الباطل، ولأنَّ العاقبة الحسنة لكم بالظفر، والنصر عليهم. وفي هذه الآية بيان فضل هذه الأمة؛ لأنَّه خاطبهم بما خاطب به أنبياءه، فقد قال لموسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ:

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ وقال لهذه الأمة: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: مصدِّقين بوعد الله، فلا تهنوا، ولا تحزنوا. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَهِنُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة في المعنى على قوله تعالى: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾. ﴿وَلَا تَحْزَنُواْ﴾: معطوفة على ما قبلها، وإعرابها مثلها. ﴿وَأَنتُمُ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلْأَعْلَوْنَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابةً عن الضمة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محلِّ نصبٍ حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [١١٨] وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه. انظر الشرح.

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ﴾: انظر الآية رقم [١٢٠]، ﴿قَرْحٌ﴾: يقرأ بفتح القاف، وضمها، وهما لغتان، كالضَّعف، والضُّعف. وقيل: بالفتح: الجراح، وبالضَّمِّ: ألمها. ﴿فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ...﴾ أي: فقد أصاب الكفار أعداءكم قريب من ذلك مِنْ قتلٍ، وجراحٍ. قال تعالى في سورة (النِّساء) رقم [١٠٤]: ﴿وَلَا تَهِنُواْ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ...﴾ إلخ. ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: نصرفها بين الناس مِنْ فرحٍ، وحزنٍ، وصحَّةٍ، وسقم، وغنىً، وفقر، واجتماعٍ، وفرقة، كما قال الشاعر: [الطويل]

ثَمَانِيَةٌ لِلْمَرْءِ لَا بُدَّ مِنْهُمُ وَكُلُّ امْرِئٍ لَا بُدَّ لَهْ مِنْ ثَمَانِيَهْ
سُرورٌ وَحُزْنٌ وَاجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ عَسْرٌ وَيَسْرٌ ثم سُقْمٌ وَعَافِيَهْ

والدَّولة: الكرَّة، قال النَّمر بن تولب الصَّحابي ـ رضي الله عنه ـ وهو الشاهد رقم [٢٠٩]: من كتابنا: «فتح ربِّ البرية» ـ: [المتقارب]

فَيَوْمٌ عَلَيْنَا وَيَوْمٌ لَنَا وَيَوْمٌ نُسَاءُ وَيَوْمٌ نُسَرّ

والمداولة: مثل المُعاورة، قال الشاعر: [الكامل]

فَلأُهْدِيَنَّ مَعَ الرِّيَاح قَصِيدَةً مِنِّي مُحَيَّرَةً إِلَى الْقَعْقَاعِ
تَرِدُ الْمِيَاهَ فَلَا تَزَالُ مُدَاوَلاً فِي النَّاسِ بَيْنَ تَمثُّلٍ وَسَمَاعِ

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: ليظهر الله للناس إيمان الذين آمنوا، ويميِّزهم من غيرهم، فهو سبحانه عليمٌ بالناس، وأعمالهم، وأقوالهم، ونيَّاتهم قبل أن يُخْلَقوا وبعد أن خُلِقوا. فالعلم هنا بمعنى الظُّهور، والتمييز. ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ أي: وليكرم قوماً بالشهادة، من أراد أن يكرمهم بها، وذلك؛ لأن قوماً من المسلمين فاتهم يوم بدر، وكانوا يتمنَّون لقاء العدو، وأن يكون لهم يوم كيوم بدر، فيقاتلون العدوَّ، ويلتمسون فيه الشهادة، ، ﴿شُهَدَآءَ...﴾ جمع: شهيد، سمِّي بذلك؛ لأنَّه مشهودٌ له بالجنَّة. والشهيد بمعنى الشَّاهد؛ أي: الحاضر للجنَّة. والشَّهادة فضلها عظيمٌ، ويكفيك في بيان فضلها قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [١١١]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ...﴾ إلخ، وقوله تعالى في سورة (الصف): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ...﴾ إلخ.

هذا؛ وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الإرادة غير الأمر، كما يقوله أهل السنَّة، فإنَّ الله نهى الكفار عن قتل المؤمنين؛ حمزة، وأصحابه؛ وأراد قتلهم، ونهى آدم عن أكل الشَّجرة، وأراده، فواقعه آدم، وعكسه: أنَّه أمر إبليس بالسُّجود لآدم، ولم يرده، فامتنع، وعنه وقعت الإشارة بقوله الحق في سورة (التوبة): ﴿وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ وإن كان قد أمر جميعهم بالجهاد، ولكنَّه ـ جلَّ ذكره ـ خلق الكسل، والأسباب القاطعة عن المسير، فقعدوا. انتهى.

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: تقدَّم معنى محبة الله، وعدم محبته لعباده، وانظر شرح: ﴿ٱلْأَيَّامِ﴾ في الآية رقم [٢٥].

الإعراب: ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَمْسَسْكُمْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والكاف مفعوله. ﴿قَرْحٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿مَسَّ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلْقَوْمَ﴾: مفعول به. ﴿قَرْحٌ﴾ فاعله. ﴿مِّثْلُهُۥ...﴾: صفته، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط فيما يظهر، وعند التأمل يتبيَّن لك: أنَّ الجواب محذوف، التقدير: إن يمسسكم قرح؛ فلا تحزنوا، أو: فتأسَّوْا. وعليه فجملة: ﴿فَقَدْ مَسَّ...﴾ إلخ تعليل للجواب المحذوف، و﴿إِن﴾ ومدخولها كلامٌ مستأنف، لا محلَّ له.

﴿وَتِلْكَ﴾: الواو: حرف استئناف. (تلك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه. ﴿نُدَاوِلُهَا﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ. هذا؛ وجوز اعتبار: ﴿ٱلْأَيَّامُ﴾ خبر المبتدأ. وعليه فالجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بالفعل قبله، و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ مضاف إليه.

﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾: الواو: حرف عطف. (ليعلم): فعل مضارع منصوب بـ «أنْ» مضمرة بعد لام التعليل، و«أنْ» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور معطوفان على علة محذوفة، التقدير: نداولها بين الناس ليكون كذا، وكذا، وليظهر الله الذين آمنوا للنَّاس. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول لا محلَّ لها. ﴿وَيَتَّخِذَ﴾: الواو: حرف عطف. (يتخذ): فعل مضارع معطوف على (يعلم) منصوب مثله، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مِنكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿شُهَدَآءَ﴾ كان صفة له، فلما قُدِّم عليه؛ صار حالاً. . . إلخ. ﴿شُهَدَآءَ﴾: مفعول به.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو حرف استئناف، واعتراض. «الله»: مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله). ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ...﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء. . . إلخ، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محلَّ لها، وهو أولى من اعتبارها حالاً من فاعل (يتخذ) المستتر، وعندما تعلم: أنَّ ﴿وَلِيُمَحِّصَ...﴾ إلخ معطوف على الكلام السابق؛ يتبيَّن لك: أنَّها معترضةً لا محلَّ لها.

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤١﴾

الشرح: ﴿وَلِيُمَحِّصَ...﴾ إلخ: ليطهِّرهم، ويصفِّيهم من الذنوب؛ إن كانت الدَّولة عليهم، والتمحيص: التنقية، والإزالة. ﴿وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: يهلكهم؛ إن كانت الغلبة عليهم. ومعنى الآية: إنْ قتلَكم الكافرون؛ فهو شهادةٌ لكم، وتطهيرٌ من الذنوب، والسَّيئات، وإن قتلتموهم أنتم؛ فهو مَحْقُهم، واستئصالهم، ومحو آثارهم.

الإعراب: ﴿وَلِيُمَحِّصَ﴾: الواو: حرف عطف. (ليمحص): إعرابه مثل إعراب: (لِيَعْلَمَ) والجار والمجرور معطوفان عليه أيضاً. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ مع المتعلّق المحذوف صلته. ﴿وَيَمۡحَقَ﴾: فعل مضارع معطوف على (يمحص) منصوب مثله، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به منصوب. . . إلخ.

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾

الشرح: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن...﴾ إلخ. ﴿أَمۡ﴾ منقطعة بمعنى: «بل» وقيل: الميم زائدة، ويبقى الاستفهام للتوبيخ، والإنكار. وانظر شرح (يحسب) في الآية رقم [٢٧٣]: من سورة (البقرة)، والمعنى: لا تظنوا أيُّها المؤمنون أن تدخلوا الجنة، وتنالوا كرامتي، وثوابي. ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

جَٰهَدُواْ مِنكُمْ﴾: قال الإمام فخر الدِّين الرازي ـ رحمه الله تعالى ـ: ظاهر الآية يدلُّ على وقوع النفي عن العلم، والمراد وقوعه على نفي المعلوم، والتقدير: أم حسبتم أن تدخلوا الجنة، ولمَّا يصدر الجهاد عنكم، وتقديره: أنَّ العلم متعلِّق بالمعلوم، كما هو عليه، فلما حصلت هذه المطابقة؛ لا جرم حسن إقامة كلٍّ واحدٍ منهما مقام الآخر. وقال الواحدي ـ رحمه الله تعالى ـ النفي في الآية واقع على العلم، والمعنى على الجهاد دون العلم، وذلك لما فيه من الإيجاز في انتفاء جهاد لو كان؛ لعلمه، والتقدير: ولمَّا يكن المعلوم من الجهاد، الذي أوجب عليكم. فجرى النفي على العلم للإيجاز على سبيل التوسُّع في الكلام؛ إذ المعنى مفهوم من غير إخلال. وقال الزجَّاج ـ رحمه الله تعالى ـ: المعنى: ولما يقع العلم بالجهاد، والعلم بصبر الصابرين، أي: ولمَّا يعلم الله ذلك واقعاً منكم؛ لأنَّه يعلمه غيباً، وإنَّما يُجازيهم على عملهم. انتهى خازن بحروفه.

﴿وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ يعني: في الحرب، وعلى ما نالهم في ذات الله عز وجل من جراحٍ، وألم، ومكروه. وفي هذه الآية معاتبة لِمَن انهزم يوم أحد، والمعنى: أم حسبتم أيها المنهزمون يومً أحد أن تدخلوا الجنَّة كما دخلها الَّذين قُتِلوا، وبذلوا مهجهم لربِّهم، عزَّ وجل، وصبروا على ألم الجراح، والطعن، وثبتوا لعدوِّهم من غير أن تسلكوا طريقهم، وتصبروا صبرهم. انتهى خازن. وانظر سبب نزول الآية رقم [٢١٤] من سورة (البقرة) فهو شبيه بما هنا.

تنبيه: لعلَّك تدرك معي: أنَّ في الآيات التفاتاً كثيراً من الخطاب إلى الغيبة، ثم إلى الخطاب، ثم إلى التكلُّم، ثمَّ إلى الغيبة، ثم إلى الخطاب، ثمَّ إلى الغيبة، ثمَّ إلى الخطاب، استخرج ذلك بنفسك، وانظر شرح الالتفات الآية رقم [٥٦]. والله ولي التوفيق.

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف عطف. وهي بمعنى «بل» التي للإضراب. ﴿حَسِبْتُمْ﴾: فعل، وفاعل. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب، واستقبال. ﴿تَدْخُلُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤوَّل منهما في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي: ﴿حَسِبْتُمْ﴾ والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ منصوب على الظرفية المكانية عند بعض النُّحاة، وفي مقدِّمتهم سيبويه، والمحقِّقون، وعلى رأسهم الأخفش ينصبونه على التوسُّع في الكلام بإسقاط الخافض، لا على الظَّرفية، فهو منتصب عندهم انتصاب المفعول به على السَّعة، بإجراء اللازم مجرى المتعدِّي، ومثل ذلك قل في: (دخلتُ المدينةَ، ونزلت البلدَ، وسكنت الشَّامَ)، وأيضاً قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ وهذا إذا كان الفعل ثلاثيّاً، وأما إذا كان رباعيّاً بأن دخلت عليه همزة التعدية، ونصب مفعولين؛ فإنه يقال في المفعول ما ذكر في مفعول الثلاثي، والمفعول الأول يكون صريحاً، مثل: أدخلت خالداً البيتَ.

﴿وَلَمَّا﴾: الواو: واو الحال. (لمَّا): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَعْلَمِ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لمَّا) وحرك بالكسرة لالتقاء الساكنين، هذا وقرئ بالفتحة شاذّاً على أنَّ أصله: (يَعْلَمَنْ) فحذفت نون التوكيد الخفيفة، وبقيت الفتحة قبلها، وعليه فهو مبني على الفتح في محلِّ جزم، وتوكيد المضارع بعد «لمَّا» شاذ، لذا قلت: فالقراءة شاذة. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعوله. وجملة: ﴿جَٰهَدُواْ مِنكُمْ...﴾ صلة الموصول، لا محلَّ لها، وجملة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ...﴾ إلخ في محل نصب حال من تاء الفاعل، أو من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير المجرور محلاً بـ (مِنْ) ﴿وَيَعْلَمَ﴾: الواو: واو المعية. (يعلم): فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد الواو، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر معطوف بالواو على مصدر متصيَّد من الفعل السَّابق، التقدير: ولمَّا يحصل علم الله بالذين جاهدوا، وعلمه بالصَّابرين. هذا؛ ويقرأ الفعل بالرفع. فتكون الواو للحال، ولا يسوغ هذا إلا على إضمار مبتدأ قبله، فتكون الجملة الاسمية، كأنَّه قال: ولمَّا تجاهدوا؛ وأنتم صابرون. ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: مفعول به، ولا تنس: أنَّ الفعل (يعلم) من المعرفة، لا مِنَ العلم اليقيني. انظر الآية رقم [٢٩].

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ...﴾ إلخ: هذا خطابٌ خوطب به الَّذين لم يشهدوا بدراً، وكانوا يتمنَّون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله ﷺ؛ لينالوا كرامة الشَّهادة، وهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ في الخروج من المدينة إلى أُحدٍ، وكان رأيه الإقامة فيها. والمعنى: وكنتم تمنَّون الموت قبل أن تشاهدوه، وتعرفوا شدَّته، فقد رأيتموه معاينين مشاهدين له حين قُتِلَ إخوانكم بين أيديكم، وشارفتم أن تُقْتَلوا معهم. وهذا توبيخٌ لهم على ما تسبَّبوا له من خروج رسول الله ﷺ بإلحاحهم عليه، ثمَّ انهزموا عنه، وإنَّما تمنَّوا الشَّهادة؛ لينالوا كرامة الشُّهداء من غير قصدٍ إلى ما يتضمَّنه مِنْ غلبة الكفَّار. ولقد قال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ حين نهض إلى مؤتة. وقيل له: ردَّكم الله سالمين غانمين! [البسيط]

لَكِنَّنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً ... وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ[1] تَقْذِفُ الزَّبَدَا
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيْ حَرَّانَ مُجْهِزَةً ... بِحَرْبَةٍ تنفذُ الأَحْشَاءَ وَالْكَبِدَا
حَتَّى يُقَالَ إذا مَرُّوا عَلَى جَدَثي ... أَرْشَدَهُ اللهُ مِنْ غَازٍ وَقَدْ رَشَدَا

بعد هذا؛ فجملة: (أنتم تنتظرون) مؤكدة لما قبلها؛ لأنَّ الرؤية، والنظر بمعنى واحد، وانظر شرح الموت في الآية رقم [٩٠]. و﴿تَمَنَّوْنَ﴾ أصله: «**تتمنون**» فحذفت إحدى التاءين. وهذا الحذف

(١) ذات فرغ: أي: واسعة

كثير في كتاب الله، وفي الكلام العربيِّ. هذا؛ والتمنِّي: طلب الشيء البعيد حصوله بخلاف الترجيِّ، فإنَّه طلب الشيء الممكن حصوله. وتمنَّى الشيءَ: أحبه، ورغب فيه، ويأتي «**تمنَّى**» بمعنى: قرأ، قيل به في قوله تعالى في سورة (الحجِّ) رقم [٥٢]: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ أي: إذا تلا؛ ألقى الشيطان في تلاوته. انظر شرحها هناك، فإنَّه جيد، والحمد لله! وأنشد الشاعر في عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ آخِرَ لَيْلَةٍ ... تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ

وقال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فيه أيضاً: [الطويل]

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أَوَّلَ لَيْلِهِ ... وَآخِرَهُ لاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

الإعراب: ﴿وَلَقَدۡ﴾ انظر الآية رقم [١٢٣]. ﴿كُنتُمۡ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿تَمَنَّوۡنَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: ﴿كُنتُمۡ﴾، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها، والقسم، وجوابه كلامٌ مستأنف، لا محلَّ له. ﴿مِن قَبۡلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَلۡقَوۡهُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» وعلامة نصبه حذف النُّون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والمصدر المؤول من: ﴿أَن تَلۡقَوۡهُ﴾ في محل جر بإضافة: ﴿قَبۡلِ﴾ إليه. هذا؛ ويقرأ شاذّاً بضم لام (قبلُ) بقطعه عن الإضافة، فيكون المصدر المؤول في محل نصب بدل اشتمال من: ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ فيكون التقدير: تمنَّون الموتَ لِقَاءَه. ﴿فَقَدۡ﴾: الفاء: حرف عطف. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿رَأَيۡتُمُوهُ...﴾ فعل ماض مبني على السكون، والتاء فاعله، والميم علامة جمع الذكور، وحرِّكت بالضم لتحسين اللفظ، فتولَّدت واو الإشباع، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿كُنتُمۡ...﴾ إلخ لا محل لها مثلها. ﴿وَأَنتُمۡ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَنظُرُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من تاء الفاعل، والرابط: الواو، والضمير.

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوۡ قُتِلَ ٱنقَلَبۡتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡۚ وَمَن يَنقَلِبۡ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة، وما بعدها بسبب انهزام المسلمين يوم أُحدٍ، وكان ذلك لمَّا رمى عبد الله بن قَمِئَةَ الحارثي ـ لعنه الله تعالى ـ رسول الله ﷺ بحجر، فكسر رَباعِيَّته، وشجَّ

وجهه، وأقبل يريد قتله، فذبَّ عن النبي ﷺ مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ، وهو صاحب الراية يوم بدر، ويوم أحد؛ حتَّى قتله ابن قمئة، وهو يرى: أنَّه رسولُ الله ﷺ، فقال: قد قتلت محمداً، وصرخ صارخٌ: ألا إنَّ محمداً قد قتل! وقيل: كان الصارخ الشَّيطان، ففشا في الناس خبر قتله ﷺ فانكفا، فجعل الرسول ﷺ يدعو: إليَّ عباد الله! حتَّى انحازت إليه طائفة من أصحابه، فلامهم على هربهم، فقالوا: يا رسول الله! فديناك بآبائنا، وأمهاتنا! أتانا خبر قتلك، فرعبت قلوبنا، فولَّينا مدبرين! فنزلت.

وروي: أنه لما صرخ الصَّارخ؛ قال بعض المسلمين: ليت عبد الله بن أُبَيٍّ يأخذ لنا أماناً من أبي سفيان! وقال ناس من المنافقين: لو كان نبيّاً؛ لما قتل! ارجعوا إلى إخوانكم، وإلى دينكم. فقال أنس بن النَّضر عمُّ أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: يا قوم! إن كان محمدٌ قُتِلَ؛ فإنَّ ربَّ محمد حيٌّ لا يموت، وما تصنعون بالحياة بعد رسول الله ﷺ؟! فقاتلوا على ما قاتل عليه، وموتوا على ما مات عليه، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك ممَّا يقول هؤلاء! وأبرأ إليك ممَّا جاء به هؤلاء! ثم شدَّ بسيفه، فقاتل حتَّى قتل ـ رضي الله عنه ـ، وأرضاه!

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ...﴾ إلخ؛ أي: محمد ﷺ من جملة الرُّسل؛ الذين مَضَوْا قبله، فكما ثبت أتباعُهم على دينهم، فأثبتوا أنتم على دينكم بعد موته؛ لأنَّ المقصود من بعثة الرسل تبليغ الرِّسالة، وإلزام الحجَّة، لا وجوده بين أظهر قومه. ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ﴾ محمد ﷺ: ﴿أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ أي: رجعتم إلى دينكم الأول؟! ففيه استعارة تصريحية بالفعل، وذكرت في قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٤٣]: ﴿مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِۚ﴾ أنها استعارة تمثيلية؛ حيث مثَّل لمن يرتدُّ عن دينه بمن ينقلب على عقبيه. ومثله قوله تعالى في سورة (الأنفال): ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾.

هذا؛ والأعقاب: جمع عقب، وهو مؤخر الرِّجل، وتثنيته: عَقِبان. قال الرسول ﷺ في حقِّ الذين لا يغسلون الأعقاب في الوضوء جيداً: «**وَيْلٌ للأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ!**». ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: يرجع عن الإسلام. ﴿فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾ وإنما يضرُّ نفسه بتعريضها للسخط، والعذاب، والانتقام. ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ...﴾ أي: يثبِّت الله المطيعين؛ الذين ثبتوا على الإيمان، ولم يرتدُّ عن الإسلام. وهذه الجملة بعد سابقتها فيها اتصال الوعد بالوعيد.

ورحم الله القرطبي؛ إذ يقول: هذه الآية أدلُّ دليلٍ على شجاعة الصدِّيق، وجراءته، فإنَّ الشَّجاعة، والجرأة حدُّهما ثبوت القلب عند حلول المصائب، ولا مصيبة أعظم من موت النبيِّ ﷺ، كما هو معروف، فظهرت عنده شجاعتهُ، وعلمه، فإن المسلمين اضطربوا عند موت النبي ﷺ، وهاجوا، وماجوا، منهم عمر ـ رضي الله عنه ـ حيث طار صوابه، وأخذ يقول: مَنْ قال: إنَّ محمداً قد مات؛ قطعت رأسه بهذا السَّيف! وعثمان ـ رضي الله عنه ـ قد أُقْعِد، وعليٌّ

ـ كرم الله وجهه ـ قد أُخْرِس، واضطرب الأمر، فكشفه الصدِّيق ـ رضي الله عنه، ولعن مبغضيه ـ بهذه الآية حين قدومه من مَسْكَنِه بالسُّنْح. . . الحديث كما في البخاري، رحمه الله تعالى.

وفي سنن ابن ماجه ـ رحمه الله تعالى ـ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: لمَّا قُبض رسول الله ﷺ، وأبو بكر عند امرأته ابنة خارجة بالعوالي، فجعلوا يقولون: لم يمت النبيُّ ﷺ، إنَّما هو بعض ما كان يأخذه عند الوحي، فجاء أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ، فكشف عن وجه النَّبيِّ ﷺ، وقبَّله بين عينيه، وقال: أنت أكرم على الله أن يميتك مرَّتين. قد مات والله رسول الله ﷺ! وعمر في ناحية المسجد يقول: والله ما مات رسول الله ﷺ، ولا يموت؛ حتَّى يقطع أيدي أناس من المنافقين، وأرجلهم! فقام أبو بكر ـ رضي الله عنه، ولعن الله مبغضيه ـ فصعد المنبر. فقال: مَنْ كان يعبد الله؛ فإن الله حيٌّ لا يموت، ومن كان يعبد محمَّداً؛ فإنَّ محمداً قد مات! وتلا الآية الكريمة التي نحن بصدد شرحها فقال عمر ـ رضي الله عنه، ولعن الله مبغضيه أيضاً ـ: والله لكأني ما قرأت هذه الآية إلا يومئذ! وتلا الصدِّيق قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ...﴾ إلخ، كما تلا قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة؛ أضاء منها كلُّ شيءٍ فلمَّا كان اليوم الذي مات فيه؛ أظلم منها كل شيءٍ، وما نفضنا أيدينا عن النبي ﷺ حتى أنكرنا قلوبنا. أخرجه ابن ماجه.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية مهملة. ﴿مُحَمَّدٌ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر ﴿رَسُولٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿خَلَتْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع تاء التأنيث التي هي حرف لا محلَّ له. ﴿مِن قَبْلِهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿الرُّسُلُۚ﴾: فاعل: ﴿خَلَتْ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع صفة رسول.

﴿أَفَإِيْن﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري توبيخي. الفاء: حرف عطف، أو: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿مَّاتَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محلِّ جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿قُتِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول معطوف على ما قبله، فهو في محل جزم مثله، ونائب الفاعل يعود إلى: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ﷺ أيضاً. ﴿ٱنقَلَبْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم جواب الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جملة جواب الشَّرط، ولم تقترن بالفاء ولا بـ «إذا» الفجائية. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْۚ...﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من تاء الفاعل، والتقدير: انقلبتم مرتدِّين على أعقابكم، والكلام: ﴿أَفَإِيْن...﴾ إلخ جملة مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: انظر إعراب مثله في الآية التالية. ﴿عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلّقان بمحذوف حال من فاعل ﴿يَنقَلِبْ﴾ أي: مرتدّاً على عقبيه، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه مثنًّى، وحذفت النون للإضافة، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، و﴿شَيْـًٔا...﴾ نائب مفعول مطلق، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿وَسَيَجْزِى﴾: الواو: حرف استئناف. السين: حرف تنفيس، واستقبال. (يجزي): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الياء للثِّقل. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: مفعول به... إلخ، والجملة الفعلية لا محلَّ لها مستأنفة.

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا كَانَ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [٧٩] والمعنى: لا يصح، ولا يكون لنفسٍ الموتُ إلا بأمر الله تعالى، وقضائه، وقدره، وعلمه، وذلك: أنَّ الله تعالى يأمر ملك الموت بقبض الأرواح، فلا يموت أحدٌ إلا بإذن الله تعالى، وأمره. والمراد من الآية: تحريض المؤمنين على الجهاد، وتشجيعهم على لقاء العدو بإعلامهم بأنَّ الجبن لا ينفع، وأن الحذر لا يدفع المقدور، وأنَّ أحداً لا يموت قبل أجله؛ وإنْ خاض المهالك، واقتحم المعارك، كقوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٣٤]: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا﴾: أي: مؤقتاً، له أجل معلوم، لا يتقدَّم، ولا يتأخَّر، والمراد بـ ﴿كِتَٰبًا﴾: اللَّوح المحفوظ؛ لأنَّ فيه آجال جميع الخلائق. قال تعالى في سورة (فاطر) رقم [١١]: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ والمعتزلي يقول: يتقدَّم الأجل، ويتأخر، وأن منْ قتل فإنَّما يهلك قبل أجله، وكذلك: كلَّما ذبح حيوان؛ كان هلاكه قبل أجله؛ لأنَّه وجب على القاتل الضَّمان، والدِّية، وقد ردَّ عليهم اللَّقاني ـ رحمه الله تعالى بقوله: [الرجز]

وَمَيِّتٌ بِعُمْرِهِ مَنْ يُقْتَلُ ... وَغَيْرُ هَذَا بَاطِلٌ لَا يُقْبَلُ

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: من يرد بعمله، وطاعته الدُّنيا، ويعمل لها؛ نؤته منها ما يكون جزاءً، والمعنى نؤته منها ما نشاء على ما قدَّرناه له. نزلت في الذين تركوا الجبل يوم أُحدٍ، وطلبوا الغنيمة. قال تعالى في سورة (الإسراء): ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: نؤته جزاء عمله على ما وصف الله تعالى من تضعيف لمن يشاء، والمراد بهم: الَّذين ثبتوا من الرُّماة على الجبل. قال تعالى في سورة (الشورى): ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

﴿وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: المؤمنين المطيعين؛ الذين لم يشغلهم شيءٌ عن الجهاد، ولم يريدوا بأعمالهم إلا الله، والدار الآخرة. هذا؛ و(نجزي) من الجزاء، والمجازاة، وهي المكافأة على عملٍ ما، تكون في الخير، قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾. وتكون في الشر، قال تعالى: ﴿وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ﴾ فقد أراد جزاء الشرِّ. والجزاء من جنس العمل، إن خيراً؛ فخيرٌ، وإن شرّاً؛ فشرّ. والفعل منه ينصب مفعولين، تقول: جزى زيد عمراً خيراً. وانظر الشُّكر في الآية رقم [١٢٣]. هذا؛ و«الشَّكور» اسمٌ من أسماء الله الحسنى ويفسَّر بحقه تعالى بالَّذي يعطي على العمل في أيام معدودة نعماً في الآخرة غير محدودة. وخذ ما يلي: فعن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ؛ فَهجرَتُهُ إلى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**». متفق عليه.

وعن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ؛ فَرَّقَ اللهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ؛ جَمَعَ اللهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا؛ وَهِيَ رَاغِمَةٌ**».

رواه ابن ماجه، والطَّبرانيُّ باختلافٍ في بعض ألفاظه. ومثل هذا كثيرٌ في: «التَّرغيب والترهيب».

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما) نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِنَفۡسٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَمُوتَ﴾: منصوب بـ«أن» والفاعل يعود إلى (نفس) والمصدر المؤول من: ﴿أَن تَمُوتَ﴾ في محل رفع اسم: ﴿كَانَ﴾ مؤخر. ﴿بِإِذۡنِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من فاعل ﴿تَمُوتَ﴾ المستتر، التقدير: أن تموت إلا مأذوناً لها. هذا وجوز اعتبارهما متعلقين بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ وعليه يكون: ﴿لِنَفۡسٍ﴾ متعلقين بـ ﴿كَانَ﴾. و(إذن) مضاف ﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، مِنْ إضافة المصدر لفاعله. ﴿كِتَٰبٗا﴾ مفعول مطلق، عامله محذوف، التقدير: كتب كتاباً، والجملة الفعلية هذه في محل نصب حال أيضاً، وهي على تقدير «قد» قبلها. ﴿مُّؤَجَّلٗا﴾: صفة: ﴿كِتَٰبٗا...﴾ والجملة الفعلية: ﴿وَمَا كَانَ...﴾ إلخ مستأنفة.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُرِدۡ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿ثَوَابَ﴾: مفعول به، وهو مضاف و ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿نُؤۡتِهِۦ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر وجوباً تقديره: نحن، والهاء مفعول به. ﴿مِنۡهَا﴾:

جار ومجرور متعلقان به، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه. فقيل: جملة الشرط. وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: الجملتان. وهو المرجَّح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محلَّ لها، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق بينهما. ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾: انظر الآية السابقة، فإعرابها مثلها.

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾ أي: وكثير من الأنبياء قاتل معهم جماعات كثيرون، فأصابهم من أعدائهم قروحٌ، وجراحات. ﴿فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ﴾ بل استمروا على جهادهم أعداءهم؛ لأنَّ الذي أصابهم إنَّما هو في سبيل الله، وطاعته. وإقامة دينه، ونصرة نبيه، فكان ينبغي لكم أن تفعلوا مثل ذلك يا أمة محمد! وحجَّة هذه القراءة ما روي عن سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: أنه قال: ما سمعنا أن نبيّاً قتل في القتال، وعلى هذه القراءة فالوقف على ﴿قَـٰتَلَ﴾ جائز. هذا؛ ويقرأ: (قُتِل) بالبناء للمجهول، ففيه أوجه: أحدها: أن يكون القتل راجعاً على النبيِّ وحده. والوجه الثاني: أنَّ القتل نال النبيَّ، ومن معه من الرِّبِّيين، ويكون المراد البعض، فيكون المعنى: وكأين من نبيٍّ قُتل، وبعض من كان معه، فما ضعف الباقون لقتل مَنْ قُتِلَ من إخوانهم. والوجه الثالث أن يكون القتل نال الرِّبِّيين لا النبيَّ. والمعنى: وكأين من نبيٍّ قُتِلَ مَنْ كان معه، وعلى دينه من الرِّبِّيين. والقراءة الأولى أقوى.

هذا؛ و(الرِّبيُّون): قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: جموعٌ كثيرةٌ. وقيل: هم فقهاء علماء. وقيل: هم الأتباع. ويقال: رَبِّيون بفتح الراء منسوب إلى الرَّب. قال الخليل ـ رحمه الله تعالى ـ: الرَّبِّيُّ: الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء، وهم الرَّبانيُّون نُسبوا إلى التألُّه، والعبادة، ومعرفة الربوبية لله تعالى. وانظر شرح: ﴿رَبَّـٰنِيِّـۧنَ﴾ في الآية رقم [٧٩].

﴿فَمَا وَهَنُوا۟﴾: ضعفوا، وجبنوا. ﴿لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: من القتل، والجراح، وذهاب الأموال في سبيل إعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه. ﴿وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟﴾: خضعوا وذلُّوا، وأصله: استكن من السُّكون؛ لأن الخاضع يسكن لصاحبه ليفعل به ما يريده، والألف من إشباع الفتحة. أو أصله: اسْتَكْونَ من الكون، فنقلت حركة الواو إلى الكاف؛ لأنَّ الحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلَّة، ثم يقال: قلبت الواو ألفاً لتحرُّكها بحسب الأصل وانفتاح ما قبلها الآن. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾: انظر المحبَّة فيما تقدَّم. وانظر «الصَّبْر» في آخر السُّورة، والمراد هنا: الصَّابرين في الجهاد، والمعنى: أنَّ مَنْ صبر على تحمل الشَّدائد في طلب

الآخرة، ولم يظهر الجزع، والعجز؛ فإنَّ الله يحبُّه، ومحبَّة الله تعالى للعبد عبارةٌ عن إرادة إكرامه، وإعزازه، وإيصال الثواب له، وإدخاله الجنَّة مع أوليائه، وأصفيائه.

بعد هذا: (كأين) أصلها «أي» الاستفهامية، دخلت عليها كاف التشبيه، فصارت بمعنى «كم» الخبرية التكثيرية، وهي كناية عن عدد مبهم، مثل: كم، وكذا. وفيها خمس لغات، كلُّها قرئ بها: إحداها: (كأيِّنْ) وهي الأصل، وبها قرأ الجماعة إلا ابن كثير، وقال الشاعر: [الوافر]

وَكَأَيِّنْ مِنْ أُنَاسٍ لَمْ يَزَالُوا أَخُوهُمْ فَوْقَهُمْ وَهُمُو كِرَامُ

والثانية: كائن بوزن كاعِن، وبها قرأ ابن كثير، وجماعةٌ، وهي أكثر استعمالاً من كأيِّن، وإن كانت الأصل، وهو كثير في الشِّعر العربي، مثل قول جرير ـ وهو الشَّاهد رقم [٨٨٥]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

وَكَائِنْ بِالأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ يَرَانِي لَوْ أُصِبْتُ هُوَ الْمُصَابَا

وأيضاً قول زهير ـ وهو الشاهد رقم [٩٦] من كتابنا: «فتح ربِّ البريَّة» ـ: [الطويل]

وَكَائِنْ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجِبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ

والثالثة: كَئِين بوزن كريم. والرابعة: كَيْئِن بياء ساكنة، وهمزة مكسورة، والخامسة: كَأَنْ بوزن: كَفَنْ. هذا؛ والجلال المحلِّي اعتبر (كأين) بسيطة غير مركبة، وأنَّ آخرها نون من نفس الكلمة لا تنوين؛ لأن هذه الدَّعاوى المتقدمة لا يقوم عليها دليل ـ والشيخ رحمه الله تعالى ـ سلك في ذلك الطريق الأسهل، والنحويُّون ذكروا هذه الأشياء محافظةً على أصولهم، مع ما ينضمُّ إلى ذلك من الفوائد، وتشحين الذِّهن، وتمرينه. انتهى جمل بالإضافة إلى ما أضفته من شواهد شعرية.

الإعراب: ﴿وَكَأَيِّن﴾: الواو: حرف استئناف. (كأين): اسم كناية بمعنى كثير مبني على السُّكون في محل رفع مبتدأ، وأجاز السَّمين اعتباره مفعولاً به لفعل محذوف يفسره المذكور بعده. ﴿مِّن﴾: حرف جر صلة. ﴿نَّبِيٍّ﴾: تمييز لـ (كأين) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. ﴿قَـٰتَلَ﴾: فعل ماض. ﴿مَعَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿رِبِّيُّونَ﴾: فاعل: ﴿قَـٰتَلَ﴾، أو هو نائب فاعل: (قُتِل) مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ. هذا؛ وقيل: إنَّ فاعل: ﴿قَـٰتَلَ﴾ أو نائب فاعل (قُتِل) يعود إلى: ﴿نَّبِيٍّ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، ومعه: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم. و﴿رِبِّيُّونَ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية هذه في محل نصب حال من الفاعل المستتر، أو من نائبه. كما قيل: إن الجملة الفعلية في محل جر صفة: ﴿نَّبِيٍّ﴾، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ.

وهنالك أقوال أخر ضعيفة ضربت عنها صفحاً روماً للاختصار. ﴿كَثِيرٌ﴾ صفة: ﴿رِبِّيُّونَ﴾ والجملة الاسمية: ﴿وَكَأَيِّن...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿وَهَنُواْ﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق. ﴿لِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و (ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿أَصَابَهُمْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، أو الرابط، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و ﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه، وجملة: ﴿فَمَا وَهَنُواْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وهو أولى من العطف على ما قبلها، والجملتان: ﴿وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ﴾: معطوفتان عليها، لا محل لهما مثلها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. (الله): مبتدأ. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الله. ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾: مفعول به منصوب... إلخ، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ...﴾ إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو فقط، والحال بمعنى الظرف كما ذكرته في الآية رقم [٥٧] والاستئناف ممكنٌ بالإعراض عمَّا قبل الجملة الاسمية.

﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ﴾ أي: قول الربِّيين الذين قاتلوا مع الأنبياء. ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا...﴾ إلخ: أضافوا الذنوب، والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم ربَّانيِّين هضماً لها، واستقصاراً في العمل. والدُّعاء بالاستغفار من الذنوب جعلوه مقدَّماً على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب، والنصرة على العدوِّ؛ ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاءٍ، وطهارةٍ، وخضوعٍ أقرب إلى الاستجابة، ففيه تعريض بالمنهزمين يوم أُحُدٍ. ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾: في مواطن الحرب؛ لكي لا تزول عند لقاء العدو، وذلك يكون بإزالة الخوف، والرُّعب من قلوبهم. ﴿وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: لأنَّ النصر على الأعداء لا يكون إلا من عند الله. بيَّن الله جلَّت قدرته، وتعالت حكمتُه: أن الربِّيين كانوا مستعدِّين عند لقاء العدو بالدُّعاء، والتضرُّع، وطلب الإعانة، والنَّصر من الله تعالى. والغرض من ذلك أن يقتدي بهم في هذه الطريقة الحسنة أمَّة محمَّد ﷺ. وخذ ما يلي:

فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنه كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي، وَجَهْلِي، وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي**». أخرجه مسلم. فالرَّسول ﷺ منزَّه عن الخطأ، والجهل، والإسراف في الأمر، فعلى المسلم أن يستعمل ما في كتاب الله، وصحيح السنة من الدُّعاء، ويدَع ما سواه، ولا يقول: أختار كذا، فإن الله تعالى قد اختار لنبيه، وأوليائه، وعلَّمهم كيف يدعون؟ وانظر: «الإسراف» في سورة (النساء) رقم [٦]

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿قَوْلَهُمْ﴾: خبر كان مقدم. والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿قَالُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، و﴿أَن﴾ والفعل: ﴿قَالُواْ﴾ في تأويل مصدر في محل رفع اسم: ﴿كَانَ﴾ مؤخر. هذا؛ ويقرأ برفع (قولُهم) على أنَّه اسم كان، فيكون المصدر المؤول في محل نصب خبرها، ولهذا نظائر في كتاب الله كثيرةٌ، وجملة: ﴿وَمَا كَانَ...﴾ إلخ معطوفة على الجملة الفعلية السابقة لا محل لها مثلها، وعليه تكون الجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ معترضة بين المتعاطفتين، لا محلَّ لها. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى حذف منه أداة النداء، و(نا): ضمير متصل في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱغْفِرْ﴾: فعل دعاء، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ذُنُوبَنَا﴾: مفعول به. ﴿وَإِسْرَافَنَا﴾: معطوف على ما قبله، و (نا) في محل جر بالإضافة. ﴿فِىٓ أَمْرِنَا﴾ متعلقان بما قبلهما، و(نا) في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. ﴿وَثَبِّتْ﴾: الواو: حرف عطف. (ثبت): فعل دعاء،وفاعله: أنت. أقدامنا: مفعول به، (نا) في محل جرٍّ بالإضافة. (انصرنا): فعل دعاء، وفاعله: أنت، و(نا) مفعول به. ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: صفة: ﴿ٱلْقَوْمِ﴾ مجرور مثله، والكلام: ﴿رَبَّنَا...﴾ إلخ كلُّه في محل نصب مقول القول.

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾

الشرح: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾: أعطاهم الله، ومنحهم بسبب الاستغفار، واللُّجوء في الشدائد إلى الله ثواب الدنيا من النَّصر، والغنيمة، وقهر الأعداء، والثناء الجميل، وغفران الذنوب والخطايا. وحسن ثواب الآخرة؛ يعني: الجنة، وما فيها من النعيم المقيم. إنَّما خص ثواب الآخرة بالحسن إجلالاً له، وتنبيهاً على عظمته؛ لأنه غير زائل، ولم يشب بتنغيص، ولم يصف ثواب الدنيا بالحسن لقلَّته؛ ولأنه سريع الزوال مع ما يشوبه من التنغيص، والأكدار، والهموم، والأحزان. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ انظر الآية رقم [١٣٤].

الإعراب: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ﴾: الفاء: حرف عطف. (آتاهم): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والهاء مفعول به أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ثَوَابَ﴾: مفعول به ثان، وهو مضاف، و﴿ٱلدُّنْيَا﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر. ﴿وَحُسْنَ﴾: معطوف على ﴿ثَوَابَ﴾ وهو مضاف ﴿ثَوَابِ﴾: مضاف إليه، و﴿ثَوَابِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية: ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية [١٤٦] وهي مستأنفة، أو معترضة في آخر الكلام، لا محل لها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾

الشرح: قال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: نزلت في قول المنافقين للمؤمنين عند الهزيمة يوم أُحُدٍ: ارجعوا إلى إخوانكم، وادخلوا في دينهم. وعن الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ إنْ تستنصحوا اليهود، والنصارى، وتقبلوا منهم؛ لأنهم كانوا يستفزونهم، ويوقعون الشُّبه في الدين، ويقولون: لو كان نبيّاً؛ لما غلب، ولما أصابه وأصحابه ما أصابهم، وإنَّما هو رجل حاله كحال غيره من الناس، يوماً له، ويوماً عليه. وعن السدي: إن تستكينوا لأبي سفيان، وأصحابه، وتستأمنوهم. ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾ إلى دينهم. وقيل: هو عامٌّ في جميع الكفار، وإن على المؤمنين أن يجانبوهم، ولا يطيعوهم في شيءٍ، ولا ينزلوا على حكمهم، ولا على مشورتهم؛ حتى لا يستجروهم إلى موافقتهم. وانظر الآية رقم [١٠٠]: فهي مثلها. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾: انظر الآية رقم [١٤٤]: وانظر ما ذكرته في النِّداء في رقم [١٣٠].

﴿فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ﴾ أي: في الدَّارين، أما خسران الدنيا؛ فلأنَّ أشقَّ الأشياء على العقلاء في الدنيا الانقياد إلى العدوِّ، وإظهار الحاجة إليه، وأما خسران الآخرة؛ فالحرمان من الثواب المؤبَّد، والوقوع في العقاب المخلَّد. انتهى جمل.

الإعراب: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ انظر الآية رقم [١٣٠]: ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُطِيعُواْ﴾ فعل مضارع فعل الشر مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة: ﴿كَفَرُواْ﴾ مع المتعلِّق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها. ﴿يَرُدُّوكُمْ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والكاف مغعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جملة جواب الشرط ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية. ﴿عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول الثاني على اعتبار الفعل متعدياً لمفعولين، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الكاف على اعتباره متعدياً لمفعول واحد، والجملة الشَّرطية: لا محل لها كالجملة الندائية. ﴿فَتَنقَلِبُواْ﴾: الفاء: حرف عطف، أو هي فاء السببية. (تنقلبوا): فعل مضارع مجزوم بسبب العطف على جواب الشرط، أو هو منصوب بـ «أن» مضمرة بعد الفاء، وعلامة الجزم أو النصب حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، ويجوز في مثل ذلك رفع الفعل، كما رأيت في الآية رقم [٢٨٤]: من سورة (البقرة) وعلى وجه النصب تؤول «أن» المضمرة مع الفعل بمصدر معطوف بالفاء على مصدر مُتصيِّد من

الفعل السابق، التقدير: إن تطيعوا... يقع ردُّكم على أعقابكم، فانقلابكم. ﴿خَٰسِرِينَ﴾: حال من واو الجماعة منصوب... إلخ.

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾

الشرح: ﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾: وليكم، وناصركم، وحافظكم، فاستعينوا به، ولا تستعينوا بغيره. هذا؛ و(مولى) يطلق في الأصل على الإله المعبود بحقٍّ، كما هنا، ومن أسماء الله الحسنى: المولى، ويطلق على العبد، والسيد، والأمير، وابن العم، والحليف، والناصر، والمُعين، كما في قوله تعالى في سورة (الدُّخان): ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾. وقال تعالى في سورة (الحج): ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ و«مولى» يكون بمعنى: المَقَرُّ، والمصير، والاستيلاء. قال تعالى في سورة (الحديد) مخاطباً الكافرين، والمنافقين: ﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ كما يطلق على مولى العتاقة، والمحالفة، وكلٌّ منهما لا يكون متصل النَّسب في القبيلة، ولكنَّه لصيق بها، والمَوالي في نظر العرب من الخسَّة، والضَّعة بحيث لا يرونهم في مصافهم. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ﴾ أي: إنه تعالى قادر على نصركم، فكيف تطيعون الكفار، وتسمعون كلام المنافقين؛ وهم عاجزون عن نصر أنفسهم؛ فضلاً عن نصرهم غيرهم؟!.

الإعراب: ﴿بَلِ﴾: حرف إضراب تبتدأ بعده الجمل، انظر مبحثه في كتابنا: «فتح القريب المجيب» تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها، هذا وقرئ بنصب لفظ الجلالة، على تقدير: بل أطيعوا الله، فيكون: ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ بدلاً منه، أو عطف بيان عليه. ﴿وَهُوَ﴾: الواو: واو الحال. (هو) ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿خَيْرُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّٰصِرِينَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المستتر في: ﴿مَوْلَىٰكُمْ﴾ والرابط: الواو، والضمير.

﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾

الشرح: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ...﴾ إلخ: وذلك: أنَّ أبا سفيان، ومن معه ارتحلوا متوجهين إلى مكَّة، فلمَّا بلغوا بعض الطريق؛ ندموا، وقالوا: بئس ما صنعنا! قتلناهم؛ حتى إذا لم يبق منهم

إلا الشَّريد؛ تركناهم، ارجعوا إليهم، فاستأصلوهم، فلمَّا عزموا على ذلك ألقى الله في قلوبهم الرُّعب، يعني: الخوف الشديد، كما قال الله تعالى في سورة (الحشر): ﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ حتَّى رجعوا عمَّا همُّوا به، فعلى هذا القول يكون الوعد بإلقاء الرُّعب في قلوب الكفار مخصوصاً بيوم أحد. وقيل: إنَّه عام، وإن كان السبب خاصّاً، وقد ثبت في الصَّحيحين عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أُعْطِيتُ خَمْساً، لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِداً، وَطَهُوراً، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاس عَامَّةً**».

هذا؛ و﴿ٱلرُّعُبَ﴾ يقرأ بضم العين، وسكونها. قال عيسى بن عمر ـ رحمه الله ـ: كلُّ اسم ثلاثي يجوز فيه ضم العين، وسكونها، وذلك مثل عسر، ويسر، وحلم... إلخ.

﴿بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ أي: حجَّةً، وبرهاناً. وسمِّيت الحجَّة: سلطاناً؛ لأن السُّلطان مشتقٌّ من السَّليط؛ وهو ما تستصبح به. وقيل: السُّلطان: القوَّة، والقدرة، وسمِّيت الحجَّة سلطاناً؛ لقوَّتها في دفع الباطل. وقال بعض المفسِّرين المحقِّقين: سمِّيت الحجَّة سلطاناً؛ لأنَّ صاحب الحجَّة يقهر من لا حجَّة له، كالسُّلطان يقهر غيره. وقال الزجَّاج: السُّلطان: هو الحجَّة، وسمِّي السُّلطان سلطاناً؛ لأنَّه حجَّة الله في أرضه، هذا؛ وجمعه بمعنى الحاكم، والمالك: سلاطين، ولا يُجمع إذا كان بمعنى الحجَّة، والبرهان.

هذا؛ والإلقاء يستعمل حقيقة في الأجسام، قال تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾. وقال في سورة (الشُّعراء): ﴿فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ﴾. وقال فيها أيضاً: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ كما قد يستعار للمعاني، كما في هذه الآية، وكقوله تعالى في سورة (طه): ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾.

﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾: مستقرُّهم، وملجؤهم النَّار، وبئس القرار! ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: مأواهم، والفرق بين مأوى، ومثوى: أن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المكث، وأما المأوى فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان ولو مؤقَّتاً، وقدَّم المأوى على المثوى؛ لأنه على التَّرتيب الوجودي، يأوي، ثم يثوي. انتهى جمل. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿سَنُلْقِي﴾: السين: حرف استقبال. (نلقي): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: نحن. هذا؛ ويقرأ: (سيلقي) على أنَّ الفاعل يعود إلى (الله)، وعلى القراءة الأولى يوجد التفات من الغيبة إلى التكلُّم، وعلى هذه القراءة لا يوجد التفات. ﴿فِي قُلُوبِ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما، و﴿قُلُوبِ﴾ مضاف، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: مضاف إليه مبني على الفتح في محل جر، وجملة: ﴿كَفَرُواْ﴾ مع المتعلَّق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿ٱلرُّعْبَ﴾: مفعول: (نلقي). ﴿بِمَآ﴾: الباء: حرف

جر. (ما): مصدرية. ﴿أَشۡرَكُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، و(ما) والفعل: ﴿أَشۡرَكُواْ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: (نلقي). ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿أَشۡرَكُواْ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به لـ ﴿أَشۡرَكُواْ﴾. ﴿لَمۡ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يُنَزِّلۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمۡ﴾ والفاعل يعود إلى (الله). ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿سُلۡطَٰنٗاۖ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط: الضمير المجرور محلاً بالباء.

﴿وَمَأۡوَىٰهُمُ﴾: الواو: واو الحال. (مأواهم): مبتدأ، والهاء في جر بالإضافة من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله: ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ في المعنى؛ إذ المعنى: وتؤيهم النار. ﴿ٱلنَّارُۖ﴾ خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محلَّ لها. ﴿وَبِئۡسَ﴾ الواو: حرف عطف. (بئس): فعل ماض جامد لإنشاء الذم. ﴿مَثۡوَى﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، و﴿مَثۡوَى﴾ مضاف، و﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مضاف إليه مجرور... إلخ، والمخصوص بالذم محذوف، تقديره: النَّار، وهذا المخصوص فيه وجهان: أحدهما: أنه مبتدأ مؤخر، والجملة الفعلية في محل رفع خبر مقدَّم، والثاني: أنه خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هي النَّار، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وعطفها على ما قبلها يقوِّي الاستئناف.

﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾

الشرح: قال محمد بن كعب القرظي - رضي الله عنه -: لمَّا رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد أُحُدٍ؛ وقد أصيبوا، قال بعضهم لبعض: من أين أصابنا هذا، وقد وعدنا الله النَّصر؟! فنزلت هذه الآية، وذلك: أنَّ المسلمين قتلوا صاحب لواء المشركين، وسبعة نفرٍ منهم بعده على اللِّواء، وكان النصر ابتداءً للمسلمين؛ غير أنَّهم اشتغلوا بالغنيمة، وترك بعض الرُّماة أيضاً مركزهم طلباً للغنيمة، فكان ذلك سبب الهزيمة. وقال محمَّد بن كعب: ولمَّا قتل صاحب لواء المشركين، وسقط لواؤهم؛ رفعته عمرة بنت علقمة الحارثيَّة، وفي ذلك يقول حسَّان - رضي الله عنه -: [الطويل]

فَلَوْلَا لِوَاءُ الْحَارِثِيَّةِ أَصْبَحُوا يُبَاعُونَ فِي الأَسْوَاقِ بَيْعَ الْجَلَائِبِ

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ﴾: تقتلونهم قتلاً ذريعاً. وقيل: معناه: تستأصلونهم بالقتل بأمر الله، وقضائه، وقدره. و (الحسُّ): الاستئصال بالقتل، قال جرير: [الوافر]

تَحُسُّهُمُ السُّيُوفُ كَمَا تَسَامَى حَرِيقُ النَّارِ فِي الأَجَمِ الْحَصِيْدِ

وقال آخر: [الطويل]

حَسَسْنَاهُمُ بِالسَّيْفِ حَسّاً فَأَصْبَحَتْ بَقِيَّتُهُم قَدْ شُرِّدُوا وَتَبَدَّدُوا

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي: جبنتم، وضعفتم؛ إذ معنى الفشل: الضعف مع الجُبْن، قال تعالى في الآية رقم [١٢٢]: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ وقال تعالى في سورة (الأنفال): ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾. ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾: اختلفتم. والمراد: الرُّماة الذين أقامهم الرَّسول ﷺ رِدْءاً للجيش، حين قال بعضهم: نلحق المنهزمين من الكفَّار. وقال بعضهم: بل نثبت في مكاننا الَّذي أمرنا النبي ﷺ بالثبوت فيه. ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أي: خالفتم أمر الرسول ﷺ في الثبوت، وكان ثبت عبد الله بن جبير أمير الرماة في نفر يسيرٍ دون العشرة ممَّن كان معهُ، فلمَّا رأى خالد بن الوليد، وعكرمة ابن أبي جهل خلوَّ الجبل من الرُّماة؛ حملوا على الرُّماة الذين بقوا مع عبد الله بن جبير ـ رضي الله عنه ـ فقتلوهم، وانقضُّوا على المسلمين من خلفهم، فدهش المسلمون، وتحولت الريح دبوراً بعد أن كانت صباً، وانتفضت صفوف المسلمين، واختلطوا، فجعلوا يقتلون على غير شعار يضرب بعضهم بعضاً، وما يشعرون من الدَّهش، ونادى إبليس: إنَّ محمداً قد قتل. فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين. وذكرتُ لك فيما سبق: أنَّ الذي قال: قتلت محمداً هو: عبد الله بن قمئة.

﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾: من النَّصر، والظفر، والغنيمة يا معشر المسلمين! وذلك حين صُرِع صاحب لواء المشركين، وولَّوا الأدبار. ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: الغنيمة. قال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: ما شعرنا أنَّ أحداً من أصحاب النبي ﷺ يريد الدنيا، وعَرَضها؛ حتى كان يوم أُحُدٍ، والمراد بهم: مَنْ تركوا الجبل، كما رأيت فيما تقدم. ﴿وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: وهم الذين ثبتوا على الجبل مع أميرهم، ولم يُخالفوا أمر نبيهم ﷺ.

﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ يا معشر المسلمين بعد أن استوليتم على المشركين، ردَّكم عنهم بالانهزام، والفشل، ودلَّ هذا على: أن المعصية مخلوقةٌ لله تعالى. وقالت المعتزلة: المعنى: ثم انصرفتم. فإضافته إلى الله تعالى بإخراجه الرُّعب من قلوب الكافرين من المسلمين ابتلاءً لهم، قال القشيري ـ رحمه الله تعالى ـ: هذا لا يغنيهم؛ لأنَّ إخراج الرُّعب من قلوب الكافرين حتَّى يستخفُّوا بالمسلمين قبيحٌ عندهم، ولا يجوز أن يقع من الله قبيح، فلا يبقى لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ معنىً. ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: ليمتحنكم، ويختبركم؛ ليميز المؤمن من الكافر، ومن المنافق، ومَنْ يريد الدنيا مِمَّن يريد الآخرة.

﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ أي: سامحكم، فلم يعاقبكم أيُّها المخالفون أمر رسول الله ﷺ، فلم يستأصلكم بسبب المخالفة، والمعصية. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: بالعفو، والمغفرة، وهذا مِنْ تمام نعم الله على عباده المؤمنين؛ لأنه نصرهم أولاً، ثمَّ عفا عن المذنبين منهم ثانياً؛ لأنه ذو الفضل، والإحسان.

وفي الآية الكريمة دليلٌ على أن صاحب الكبيرة مؤمن، وأنَّ الله تعالى يعفو عنه بفضله، وكرمه إن شاء؛ لأنه تعالى سمَّاهم مؤمنين مع ما ارتكبوه من مخالفة أمر رسول الله ﷺ، وهي كبيرةٌ، وعفا عنهم بعد ذلك؛ لأنَّ الرسول ﷺ اعتبر التولِّي يوم الزحف من الموبقات، وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ، قال: «**اجتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قيل: يا رسول الله! ومَا هنَّ؟ قال: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وأكلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**». رواه الشَّيخان، وغيرهما.

الإعراب: ﴿وَلَقَدْ﴾: انظر الآية رقم [١٢٣] ففيها الكفاية. ﴿صَدَقَكُمُ﴾: فعل ماض، ومفعوله الأول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿وَعْدَهُۥ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محل لها، والقسم جوابه كلام مستأنف لا محل له. ﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب، متعلّق بالفعل: (صدق). ﴿تَحُسُّونَهُم﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذْ﴾ إليها. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما: أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿حَتَّىٰٓ﴾: حرف ابتداء، ويعتبرها الأخفش جارة لـ: ﴿إِذَا﴾. وقدَّره ابن هشام في المغني. وقد اختلف في متعلَّقها على قول الأخفش على ثلاثة أقوال: أحدها: أنها متعلقة بـ ﴿تَحُسُّونَهُم﴾ والثاني: أنها متعلقة بـ ﴿صَدَقَكُمُ﴾ وهو ظاهر قول الزمخشري. والثالث: أنها متعلقة بمحذوف دلَّ عليه السياق، تقديره: دام لكم ذلك إلى وقت فشلكم.

﴿إِذَا﴾ على القول الثاني في: ﴿حَتَّىٰٓ﴾: في محل جرٍّ بـ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ وعلى القول الأول: ظرف لما يستقبل من الزَّمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه. صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿فَشِلْتُمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على القول المشهور المرجوح. (تنازعتم): فعل، وفاعل. ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾: متعلقان به، والجملة معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جرٍّ مثلها. ﴿وَعَصَيْتُم﴾: الواو: حرف عطف. (عصيتم): فعل، وفاعل. ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها أيضاً. ﴿مَآ﴾: مصدرية. ﴿أَرَىٰكُم﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (الله) والكاف مفعول به أول. ﴿مَآ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان، والفعل بصري، لكنَّه تعدى إلى الثاني بهمزة

التعدية. ﴿تُحِبُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَّا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: أراكم الذي، أو: شيئاً تحبُّونه. و﴿مَآ﴾ المصدرية، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بإضافة: ﴿بَعْدِ﴾ إليه، التقدير: من بعد رؤيته لكم الذي تحبونه. قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: وجواب ﴿حَتَّىٰ﴾ محذوف، وعند التأمل يتبيَّن لكَ: أنَّ جواب ﴿إِذَا﴾ هو المحذوف. ثم قال: ومثل هذا جائز، كقوله تعالى في سورة (الأنعام) رقم [٣٥] ﴿فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ؛ إذ التقدير: فافعل. وقال الفرَّاء: جواب ﴿حَتَّىٰ﴾: ﴿وَتَنَٰزَعْتُمْ﴾ والواو مقحمة زائدة، كقوله تعالى في سورة (الصافات): ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ﴾ أي: ناديناه.

وقال امرؤ القيس في معلَّقته رقم [٣٧]: [الطويل]

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى ... بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي قِفَافٍ عَقَنْقَلِ

أي: انتحى. وعند هؤلاء يجوز إقحام الواو من: ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أي: حتى إذا فشلتم وتنازعتم؛ عصيتم. وعلى هذا: فيه تقديم، وتأخير، أي: حتى إذا تنازعتم، وعصيتم؛ فشلتم. وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون الجواب: ﴿صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ و﴿ثُمَّ﴾ زائدة، والتقدير: حتى إذا فشلتم، وتنازعتم، وعصيتم؛ صرفكم عنهم، وقد أنشد بعض النحويين في زيادتها قول زهير، وهو الشاهد رقم [١٨٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

أَرَانِي إِذَا أَصْبَحْتُ أَصْبَحْتُ ذَا هَوىً ... فَثُمَّ إِذَا أَمْسَيْتُ أَمْسَيْتُ غَادِيَا

وجوز الأخفش أن تكون زائدة، كما في قوله تعالى في سورة (التوبة): ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ...﴾ إلخ. وقيل: ﴿حَتَّىٰ﴾ بمعنى «إلى» وحينئذٍ لا جواب له، أي: صدقكم الله وعده إلى أن فشلتم؛ أي: كان ذلك الوعد بشرط الثبات. انتهى قرطبي بتصرُّف. انظر ما ذكرته عنه من شواهد في محالها التي ذكرتها في كتبي؛ ليتبيَّن لك: أنَّ ﴿حَتَّىٰ﴾ لا جواب لها، وأن الجواب لأداة شرط جازمةً أو غير جازمةٍ، وعليه فـ ﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام مبتدأ، أو مستأنف لا محلَّ له.

(منكم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مَّن﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر، ولا أعتمده، وإنَّما أعتمد ما ذكرته في الآية رقم [١١٠] ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿مَّن﴾. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَّن﴾ أو صفتها، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿صَرَفَكُمْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة جواب: ﴿إِذَا﴾ المقدَّرة، وعليه فالجملتان الاسميتان معترضتان بين المتعاطفتين لا محلَّ لهما.

﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل يعود إلى (الله) والكاف مفعول به، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلّقان بما قبلهما، أي: صرفكم عنهم؛ لابتلائكم، واختباركم. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾: انظر أول الآية. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿ذُو﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة لأنَّه من الأسماء الخمسة، و﴿ذُو﴾ مضاف، و﴿فَضْلٍ﴾ مضاف إليه. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلقان بـ (فضل) أو بمحذوف صفة له، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ ذُو...﴾ إلخ: مستأنفة، أو معترضة في آخر الكلام، الغرض منها بيان فضل الله، وجوده على عباده المؤمنين.

﴿۞ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾: تذهبون. والإصعاد: الذهاب في الأرض. قال القتبي، والمبرد: أصعد: أبعد في الذهاب، وأبعد فيه، فكأنَّ الإصعاد: إبعادٌ في الأرض كإبعاد الارتفاع. قال الأعشى من قصيدته الَّتي هيأها لينشدها الرَّسول ﷺ في المدينة بعد الهجرة، وقبل فتح مكة: [الطويل]

أَلَا أَيُّهَذا السَّائِلِي أَيْنَ أَصْعَدَتْ فَإِنَّ لَهَا فِي بَطْنِ يَثْرِبَ مَوْعِدَا

وقال الفرَّاء: الإصعاد: الابتداء في السَّفر. والانحدار: الرجوع منه. وأنشد أبو عبيدة: [الرجز]

قَدْ كُنْتِ تَبْكِينَ عَلَى الإِصْعَادِ فَالْيَوْمَ سُرِّحْتِ وَصَاحَ الْحَادِي

﴿وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾: تعرِّجون، وتقيمون؛ أي: لا يلتفت بعضكم إلى بعض هرباً، ولا يقف واحدٌ منكم لآخر. وانظر الآية [٧٨]: ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾: يُناديكم من ورائكم. يقول: «**إليَّ عبادَ الله! إليَّ عبادَ الله! مَنْ يَكُرَّ؛ فله الجنة**». ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ أي: فجزاكم غمّاً على غمٍّ. قال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: الغمُّ الأول بسبب الهزيمة، وحين قيل: قتل النَّبيُّ ﷺ. والثاني حين علاهم المشركون فوق الجبل، وقال النبي ﷺ: «**اللهُمَّ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا!**». وقال السُّدي ـ رحمه الله تعالى ـ: الغمُّ الأول بسبب ما فاتهم من الغنيمة، والنصر. والثاني: بإشراف العدوِّ عليهم. وقال محمَّد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: كرباً بعد كرب بقتل مَنْ قُتِلَ من إخوانكم، وعلوِّ عدوِّكم عليكم، وما وقع في أنفسكم من قتلٍ بينكم، فكان ذلك متتابعاً عليكم غمّاً بغمٍّ. وقيل غير ذلك.

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾ أي: لكي تحزنوا على ما فاتكم، وأصابكم عقوبةً لكم على مخالفتكم أوامر الرسول ﷺ. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الذي فاتهم الغنيمة، والَّذي أصابهم القتل، والهزيمة. وهذا على اعتبار (لا) صلة، وأما على اعتبارها نافية، فالمعنى يكون: ولقد عفا عنكم؛ لكيلا تحزنوا على ما فاتكم، ولا ما أصابكم؛ لأنَّ عفوه يُذهب كلَّ همٍّ، وحزنٍ.

هذا؛ وسميت العقوبة التي نزلت بالمسلمين: ثواباً على سبيل المجاز؛ لأنَّ لفظ الثواب لا يستعمل في الأغلب إلا في الخير، وقد يجوز استعماله في الشرِّ؛ لأنَّه مأخوذ من: ثاب: إذا رجع، فأصل الثَّواب كلُّ ما يعود إلى الفاعل من جزاء فعله، سواءٌ كان خيراً، أو شرّاً، فمتى حملنا لفظ الثَّواب على أصل اللغة؛ كان حقيقةً، ومتى حملناه على الأغلب؛ كان مجازاً، كقول الشاعر: [الطويل]

أَخَافُ زِيَاداً أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَدَاهِمَ سُوداً أَوْ مُحَدْرَجَةً سُمْرا

فجعل العطاء مكان العقاب؛ لأنَّ الأداهم السُّود هي: القيود الثقال. والمحدرجة هي: السياط. ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي: عالم بأعمالكم صغيرها، وكبيرها، فيجازيكم بها. فيه ترغيب في الطَّاعة، وترهيبٌ من المعصية. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿إِذْ﴾: ظرف متعلق بأحد الأفعال السابقة. وقيل: متعلق بفعل محذوف، تقديره: اذكروا، فهو مبني على السُّكون في محل نصب. ﴿تُصْعِدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والمتعلَّق محذوف، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: (إذ) إليها، والَّتي بعدها معطوفة عليها، فهي في محل جرٍّ مثلها. ﴿وَالرَّسُولُ﴾: الواو: واو الحال. (الرَّسول): مبتدأ. ﴿يَدْعُوكُمْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الواو للثقل، والفاعل يعود إلى الرَّسول، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿فِي أُخْرَاكُمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾: الفاء: حرف عطف. (أثابكم): فعل ماض، والفاعل يعود إلى الله، والكاف مفعول به أول. ﴿غَمًّا﴾: مفعول به ثان. ﴿بِغَمٍّ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿غَمًّا﴾ والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿تُصْعِدُونَ﴾ أو هي معطوفة على جملة: ﴿صَرَفَكُمْ﴾. والأوَّل أقوى.

﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا...﴾ إلخ: اللام: حرف تعليل وجر. (كي): حرف مصدري، ونصب. (لا): نافية، أو حرف صلة، كما رأيت في الشرح. ﴿تَحْزَنُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ (كي)

وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. (ما): اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل جر بـ ﴿عَلَىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فَاتَكُمْ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، أو الرابط، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): مثل سابقتها. ﴿مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله، و (كي) والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بلام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿عَفَا﴾ وعليه فـ (لا) نافية، أو: هما متعلقان بـ (أثابكم) وعليه فـ (لا) صلة.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿خَبِيرٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محلَّ لها، والحالية فيها ضعيفة. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَبِيرٌ﴾ و (ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿تَعْمَلُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: خبير بالَّذي، أو بشيءٍ تعملونه، وعل اعتبار (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بمصدرٍ في محل جرٍّ بالباء، التقدير: بعملكم. والجار والمجرور متعلقان بـ ﴿خَبِيرٌ﴾

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

الشرح: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم﴾ يا معشر المؤمنين. ﴿مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾: الأمنة، والأمن سواءٌ. وقيل: الأمنة إنَّما تكون مع أسباب الخوف، والأمن مع عدمه. فقد روى البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ أبا طلحة قال: غَشِينَا النعاسُ؛ ونحن في مصافِّنا يوم أُحُدٍ. قال: فجعل سيفي يسقط من يدي، وآخذه، ويسقط، وآخذه. والنُّعاس في مثل تلك الحال دليل على الأمان، والطُّمأنينة، كما قال تعالى في سورة (الأنفال) في قصة بدر: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾. قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: النُّعاس في القتال أمنةٌ من الله، وفي الصَّلاة من الشَّيطان. والفائدة في كون النُّعاس أمنةً في القتال: أنَّ الخائف على نفسه، لا يأخذه النوم، فصار حصول النَّوم وقت الخوف الشَّديد دليلاً على الأمن، وإزالة الخوف، والثقة بوعد الله

بالنَّصر. وينبغي أن تعلم: أنَّ النعاس في هذه السُّورة لم يعقبه نومٌ، بخلافه في سورة (الأنفال) في غزوة بدر فقد أعقبه نومٌ، كما رأيت هناك. هذا؛ والنعاس، والسِّنة، والوسَن: أوائل النوم، قال أبو الطيب المتنبِّي ـ وهو الشاهد رقم [٩٦٦]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

اَبْلَى الْهَوَى أَسَفاً يَوْمَ النَّوى بَدِنِي وَفَرَّقَ الْهَجْرُ بَيْنَ الْجَفْنِ وَالْوَسَنِ

﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾: والمعنى: أعقبكم بما نالكم من الخوف، والرُّعب أن أمنَّكم أمناً تنامون معه؛ لأن الخائف لا يكاد ينام، فأمَّنهم بعد خوفهم. ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾: المراد بهم: المنافقون، أراد الله عز وجل أن يميز المؤمنين من المنافقين، فأوقع النعاس على المؤمنين؛ حتَّى أمنوا، ولم يوقع النعاس على المنافقين، فبقوا في الخوف، والرعب. قال الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ: لقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ حين اشتدَّ علينا الخوف، أرسل الله تعالى علينا النَّوم، والله إني لأسمع قول معتِّب بن قشير، والنعاس يغشاني ما أسمعه كالحلم يقول ما قاله الله تعالى عنه: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: يظنون: أنَّ الله لا ينصر محمداً، وأصحابه، وأنَّ دينه يضمحل، والمعنى: يظنُّون غير الظنِّ الذي يجب أن يُظنَّ به مِنْ نصر دينه، ورفعة شأنه وعزة في الدنيا، والآخرة، وينصر المؤمنين، ويمكنهم من أعدائهم، ويخذل المشركين أعداءه، وأعداء المؤمنين. ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ أي: كظن الجاهلية، الذين يحاولون أن يبطلوا دين الله بشتَّى الأساليب، ومختلف المحاولات.

﴿يَقُولُونَ﴾ أي: يقول المنافقون. ﴿هَل لَّنَا﴾ أي: ما لنا. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾: وذلك: أنَّه لمَّا شاور النَّبيُّ ﷺ عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين في هذه الواقعة، وأشار عليه ألا يخرج من المدينة، فلمَّا خالفه النبيُّ ﷺ، وخرج، وقُتِل مَنْ قتل؛ قيل لابن أُبيٍّ: قد قتل بنو الخزرج، قال: هل لنا من الأمر من شيء؟ وهو استفهام على سبيل الإنكار، أي: مالنا أمر يُطاع. وقيل: المراد بالأمر: النصر، والظفر، يعني: ما لنا مِنْ هذا الذي يَعِدُنا به محمَّد من النصر، والظفر من شيءٍ، وإنَّما هو لكفار قريش، وأشياعهم، أي: مِنَ المشركين.

﴿قُلْ...﴾ إلخ: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق محمَّدٍ ﷺ أي: قل لهؤلاء المنافقين: إنَّ النصر، والظفر، والأمور كلَّها بيد الله، يُصَرِّفها كيف يشاء، ويدبِّرها كيف أراد، وأحبَّ. ﴿يُخْفُونَ...﴾ إلخ: يعني: يخفون في أنفسهم من الكفر، والشكِّ في وعد الله، عزَّ وجل، أو: يخفون النَّدم على خروجهم مع المسلمين من المدينة. وقيل: الذي أخفوه هو قولهم: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ...﴾ إلخ.

﴿قُل﴾: يا محمد لهؤلاء المنافقين: ﴿لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ﴾: أي: كتب عليهم القتل، وقُدِّر عليهم. ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾: إلى مصارعهم؛ الَّتي يُصرعون فيها وقت

القتل، ومعنى الآية: إنَّ الحذر لا ينفع مع القدر، والتدبير لا يقاوم التقدير، فالذين قُدِّر عليهم القتل، وقضاه الله، وحكم به عليهم لا بدَّ وأن يقتلوا. والمعنى: لو جلستم في بيوتكم؛ لخرجتم منها، ولظهر الذين قضى الله عليهم بالقتل، وقضاه إلى حيث يُقتلون فيه؛ لأن كلَّ إنسان يموت في المكان الَّذي قَدَّر الله فيه موته، وكذلك في الزَّمان المحدَّد فيه موته، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾.

﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾: وجرى ما جرى، وحصل ما حصل في غزوة أحد؛ ليختبر الله إيمان المؤمنين، ويظهر نفاق المنافقين، وليمحِّص ما في قلوبكم: وليكشف الله ما في قلوبكم من الإيمان، أو من النفاق. وانظر الآية رقم [١٤١]. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: انظر الآية رقم [١١٩].

تنبيه وفائدة: روي: أنَّ ملك الموت ـ عليه السلام ـ حضر مجلس سليمان بن داود ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام ـ فنظر إلى رجلٍ من أهل المجلس نظرةً هائلةً، فلمَّا قام؛ قال الرجل: يا نبيَّ الله! من هذا؟ فقال سليمان: هذا ملك الموت. قال: أرسلني مع الرِّيح إلى عالم آخر، فإنِّي رأيت منه مرأىً هائلاً! فأمر سليمان الريح، فألقته في قطرٍ سحيق ـ أي بعيد ـ من أقطار العالم، فما لبث أن عاد ملك الموت عليه السلام إلى سليمان عليه السلام، فقال: كنت أُمِرْتُ بقبض روح ذلك الرَّجل في هذه الساعة في أرض كذا، فلما رأيته في مجلسك؛ قلت: متى يصل هذا إليها، وقد أوصلته الريح إلى هناك، فقضي أمر الله في زمانه، ومكانه من غير إخلال بشيءٍ من ذلك. انتهى جمل نقلاً عن أبي السُّعود. فعليه: مَنْ قَدَّر الله موته في مكان كذا يجعل الله له حاجةً في ذلك المكان؛ حتَّى يقع كما قدَّر الله تعالى، وأراد.

الإعراب: ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، وفاعله يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿عَلَيْكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنۢ بَعْدِ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْغَمِّ﴾ مضاف إليه. ﴿أَمَنَةً﴾: مفعول به. ﴿نُّعَاسًا﴾: بدل من: ﴿أَمَنَةً﴾ بدل كلٍّ مِنْ كلٍّ. وقيل: بدل اشتمال. وقيل: ﴿نُّعَاسًا﴾ مفعول به. ﴿أَمَنَةً﴾ حال منه متقدِّمة، وساغ ذلك على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدم عليها؛ صار حالاً». وقيل: ﴿أَمَنَةً﴾ حال من كاف الخطاب، بمعنى: ذوي أمنةٍ. وقيل: مفعول لأجله، وعليهما فـ ﴿نُّعَاسًا﴾ مفعول به. ﴿يَغْشَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والفاعل يعود إلى: ﴿نُّعَاسًا﴾. ﴿طَآئِفَةً﴾ مفعول به. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿طَآئِفَةً﴾ وجملة: ﴿يَغْشَىٰ...﴾ إلخ في محل نصب صفة: ﴿نُّعَاسًا﴾ ويقرأ الفعل بتاء المضارعة، وعليه فالجملة الفعلية صفة: ﴿أَمَنَةً﴾.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾: الواو: حرف استئناف. (طائفة): مبتدأ، وصفتها محذوفة، ودلَّ عليها ما قبلها. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَهَمَّتْهُمْ﴾: فعل ماض، والهاء مفعول

به. ﴿أَنفُسُهُمْ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها. وقال أبو البقاء ـ رحمه الله تعالى ـ: الجملة في محل نصب حال، والعامل: ﴿يَغْشَىٰ﴾ وتسمَّى هذه الواو واو الحال. وسبقه مكيٌّ إلى ذلك. وقال القرطبيُّ: الواو واو الحال بمعنى: «إذ» وهذا يعني: أنَّ الحال بمعنى الظرف، والرابط: الواو فقط. انظر ما ذكرته في الآية رقم [٥٧]: تجد ذلك مفصَّلاً. ﴿يَظُنُّونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المنصوب محلاً. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿غَيْرَ﴾: نائب مفعول مطلق لإضافته لمصدر محذوف، التقدير: غير الظنِّ الحقِّ، وهو مضاف، و﴿ٱلْحَقِّ﴾ مضاف إليه. ﴿ظَنَّ﴾: بدل من ﴿غَيْرَ﴾ و﴿ظَنَّ﴾ مضاف، و﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، وهو في الأصل: كظن الجاهلية، فحذفت أداة التشبيه، فانتصب، كما ذكرت. هذا؛ وقال أبو البقاء: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ مفعول أوَّل لـ ﴿يَظُنُّونَ﴾ و﴿بِٱللَّهِ﴾ في محل المفعول الثاني، و﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ مفعول مطلق. هذا؛ وقال النَّسفي ـ رحمه الله ـ: وجملة: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ صفة لـ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ و﴿يَظُنُّونَ﴾ خبر لـ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أو صفة أخرى، أو حال؛ أي: قد أهمتهم أنفسهم ظانين.

﴿يَقُولُونَ﴾: مضارع وفاعله. ﴿هَل﴾: حرف استفهام بمعنى النفي، كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾. وقال امرؤ القيس، وهو الشاهد رقم [٦٥٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

وَإِنْ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ ... وَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

﴿لَّنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان، وبعضهم يعلقهما بمحذوف حال من: ﴿شَيْءٍ﴾ ويقول: كان صفة له، فلما قدِّم عليه صار حالاً، وهو غير مسلَّم لهم. ﴿مِن﴾ حرف جر صلة. ﴿شَيْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الاسمية: ﴿هَل لَّنَا...﴾ إلخ في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿يَقُولُونَ...﴾ إلخ بدل من جملة: ﴿يَظُنُّونَ﴾. أو هي مفسِّرة لها.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْأَمْرَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿كُلَّهُ﴾: توكيد، وصح ذلك لاختلاف أنواع الأمر. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿إِنَّ﴾. هذا؛ ويقرأ: (كُلُّهُ) فيكون مبتدأ، و﴿لِلَّهِ﴾ متعلقان بمحذوف خبره، وتكون الجملة الاسمية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ و﴿إِنَّ﴾ واسمها، وخبرها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، أو معترضة كما ستقف عليه. ﴿يُخْفُونَ﴾: فعل

مضارع، وفاعله. ﴿فِيٓ أَنفُسِهِم﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مَّا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُبْدُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَّا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يخفون الذي، أو: شيئاً لا يبدونه. ﴿لَكَۖ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿يُخْفُونَ...﴾ إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة في: ﴿يَقُولُونَ﴾ والرابط: الضمير فقط.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. ﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ مقدَّم. ﴿مِنَ ٱلْأَمْرِ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف خبر ثان، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿شَيْءٌ﴾ وهو غير مسلَّم. ﴿شَيْءٌ﴾: اسم ﴿كَانَ﴾ مؤخر، وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية. ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿قُتِلْنَا﴾: فعل ماض مبني للمجهول، مبني على السكون، و(نا) نائب فاعله. ﴿هَٰهُنَاۗ﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محل له. (هنا): اسم إشارة مبني على السُّكون في محل نصب على الظَّرفية المكانية متعلِّق بما قبله، وجملة: ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ لا محلَّ لها، و﴿لَوْ﴾ ومدخولها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿يَقُولُونَ لَوْ...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محل لها. وقال أبو البقاء: حال من الضمير في: ﴿يُخْفُونَ﴾. وقال النَّسفي: بدل من: ﴿يُخْفُونَ﴾ أو استئناف. هذا؛ وأرى جواز التفسير لما يخفون في أنفسهم. تأمَّل، وتدبَّر.

﴿قُل﴾: فعل أمر، وفاعله: أنت. ﴿لَّوْ﴾ مثل ما قبلها. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (كان) وجملة: ﴿كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ لا محل لها... إلخ. ﴿لَبَرَزَ﴾: اللام: واقعة في جواب ﴿لَّوْ﴾. (برز): فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: فاعله، والجملة الفعلية جواب: ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها، ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، ﴿ٱلْقَتْلُ﴾: نائب فاعل: ﴿كُتِبَ﴾ والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ﴾: متعلقان بالفعل: (برز) والهاء في محل جر بالإضافة، و﴿لَّوْ﴾ ومدخولها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُل...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

(لِيَبْتَلِيَ): فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾: متعلِّقان بمحذوف صلة: ﴿مَا﴾ أو: صفتها، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، التقدير: وفعل الله ذلك بكم ليبتلي... إلخ، أو عطف على محذوف، التقدير: لبرز الذين.. لنفاذ القضاء، أو لمصالح

جمَّة، وللابتلاء. أو عطف على قوله في الآية السابقة: ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ...﴾ إلخ. وقدَّر القرطبيُّ - رحمه الله تعالى - ما يلي: فرض الله عليكم القتال، والحرب، ولم ينصركم يوم أحد؛ ليختبر صبركم، وليمحِّص عنكم سيئاتكم؛ إن تبتم، وأخلصتم. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾: إعرابه مثل إعراب ما قبله.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿عَلِيمٌۢ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿بِذَاتِ﴾: متعلقان بـ ﴿عَلِيمٌۢ﴾ و(ذات) مضاف، و﴿ٱلصُّدُورِ﴾ مضاف إليه.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ﴾ أي: انهزموا، وهربوا منكم يا معشر المسلمين من ساحة الحرب. فهو خطاب لمن كان مع النَّبي ﷺ من المؤمنين يوم أحد، وكان قد انهزم أكثر المسلمين، ولم يبق مع النَّبيِّ ﷺ إلا أربعة عشر رجلاً: سبعة من الأنصار، وسبعة من المهاجرين: أبو بكر، وعمر، وعليٌّ، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهم أجمعين -. ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي: الجيشان.

﴿إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: طلب زلَّتهم، كما يقال: استعجله، أي: طلب عجلته. أو المعنى: دعاهم إلى الزلَّة، وحملهم عليها بإلقاء الوسوسة في قلوبهم. ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾ أي: بمعصيتهم النَّبيِّ ﷺ، فالإضافة إلى الشَّيطان لطفٌ، وتقريبٌ، والتعليل بكسبهم وعظٌ، وتأديبٌ، وانظر قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾.

﴿وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْۗ﴾ أي: تجاوز الله، وصفح عن الَّذين هربوا يوم أُحُد، فلم يعاقبهم بذلك، وغفر لهم، مع أنَّ الهرب من ساحة الحرب من الموبقات السَّبع كما ذكرته سابقاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ غفور لمن تاب، وأناب، حليم: لا يعجِّل بالعقوبة على مَنْ عصاه. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٦٣] من سورة (البقرة).

هذا؛ والعفو بمعنى ما ذكر كثير في القرآن الكريم كثرةً لا تعدُّ، ولا تحصى، كما يأتي (عفا) بمعنى الكثرة، قال تعال في سورة (الأعراف) رقم [٩٥]: ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ...﴾ إلخ؛ أي: حتى كثروا، ونموا في أنفسهم، وأموالهم، من قولهم: عفَا النبات، وعفا الشَّحم، والوبر: إذا كثر. قال الحطيئة: [الطويل]

بِـمُـسْـتَـأْسِـدِ الْـغِـرْبَـانِ عَـافٍ نَـبَـاتُـهُ

وعفا المنزل، يعفو عفاءً، : إذا انمحت آثاره، ومعالمه ذهبت. قال الأخطل التَّغلبي، وهو الشاهد رقم [٤٩٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

وَبِالصَّرِيمَةِ مِنْهُمُ مَنْزِلٌ خَلَقٌ عَافٍ تَغَيَّرَ إِلَّا النُّؤْيُ وَالْوَتِدِ

وعفو المال: ما يفضل عن الحاجة. قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢١٩]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ والعافي: طالب المعروف، والإحسان، قال عروة بن الورد العبسي المعروف بعروة الصَّعاليك: [الطويل]

وَإِنِّي امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِيَ شِرْكَةٌ وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدُ

وجمع العافي: عُفَاة، قال الأعشى في مدح ممدوحه: [المتقارب]

تَطُوفُ الْعُفَاةُ بِأَبْوَابِهِ كَطَوفِ النَّصَارَى بِبَيْتِ الْوَثَنْ

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم: ﴿إِنَّ﴾. ﴿تَوَلَّوْا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة، لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، التقدير: الذين تولوا كائنين منكم. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. ﴿ٱلْتَقَى﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿ٱلْجَمْعَانِ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة: ﴿يَوْمَ﴾ إليها. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿ٱسْتَزَلَّهُمُ﴾: فعل ماض، والهاء في محل نصب مفعول به. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (إنَّ) والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ...﴾ إلخ مستأنفة، أو مبتدأة لا محل لها. ﴿بِبَعْضِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بإضافة: (بعض) إليها. ﴿كَسَبُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: ببعض الذي، أو: شيء كسبوه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بإضافة: (بعض) إليه، التقدير: ببعض كسبهم.

﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، التقدير: والله، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم بالله. (اللام): واقعة في جواب القسم. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿عَفَا ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية جواب القسم لا محلَّ لها، والقسم وجوابه كلام مستأنف لا محل له. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٢٣]. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾: خبران لها، والجملة الاسمية مستأنفة، أو تعليلية، لا محل لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾

الشرح ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية [١٣٠]. ﴿لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني: المنافقين عبد الله بن أبيٍّ، وأصحابه. وأطلق الله عليهم لفظ: الكفر؛ لأنهم أخبث من الكفار في كلِّ زمان ومكان، وفي الآخرة يكون عذابهم أشدَّ من عذاب الكفار. قال تعالى في سورة (النساء): ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. ﴿وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ يعني: إخوانهم في النفاق، والكفر. وقيل: لإخوانهم في النسب، وكانوا مسلمين، فيكون المراد بهم الَّذين بعثهم الرسول ﷺ إلى بئر معونة، ويطلق عليهم اسم القراء. ﴿إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: سافروا في الأرض لتجارةٍ، وغيرها. ففيه استعارة تشبيهاً للمسافر في البر بالسَّابح الضارب في البحر؛ لأنه يضرب بأطرافه في غمرة الماء شقّاً لها، واستعانةً على قطعها.

﴿أَوْ كَانُواْ غُزًّى﴾ أي: خرجوا غازين في سبيل الله. فهو جمع: غاز، أي: خارج للحرب، والقياس: غزاة؛ لأنه جمع: غازٍ، وهو اسم منقوص، كقاضٍ، وقضاة، لكنَّه جاء على: فُعَّلْ حملاً على الصَّحيح، نحو: شاهد، وشهَّد، وغائب، وغيَّب، ونائم، ونوَّم، وصائم، وصوَّم... إلخ.

﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا﴾ أي: مقيمين في بلدنا معنا. ﴿مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ﴾ لأن المنافقين يعتقدون أن الموت،، والقتل بسبب السفر في الأرض، أو الخروج إلى الحرب، لا بالأجل.

﴿لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ﴾ أي: ظنهم،وقولهم. ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْۗ﴾ غمَّاً، وتأسُّفاً في قلوبهم، والحسرة: شدَّة الندم، وتألُّم القلب على شيءٍ فات، لا يمكن تداركه، قال الشاعر: [الطويل]

فَوَاحَسْرَتِي لَمْ أَقْضِ مِنْهَا لُبَانَتِي ... وَلَمْ أَتَمَتَّعْ بِالْجِوَارِ وَبِالْقُرْبِ

وقيل: ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم يوم القيامة؛ لما هم فيه من الخزي، والنَّدامة، ولما فيه المسلمون من النعيم، والكرامة. هذا؛ وجمعها: حسرات انظر الآية رقم [١٦٧]: من سورة (البقرة) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. وقد تكلَّم الزمخشري في فاعل الحسرة في هذه الآية بما يوافق مذهبه الاعتزالي، ولم يتعرَّض له ابن المنير كعادته.

﴿وَٱللَّهُ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۗ﴾ أي: إنَّ الله هو المؤثر في الحياة، والممات، لا الإقامة، ولا السفر، فإن الله قد يبقي المسافر، والغازي حيّاً، ويميت المقيم في بيته، والقاعد في أهله. وهذا واقعٌ ومشاهد. وفيه ردٌّ لما يعتقده المنافقون، وضعفاء الإيمان. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾: فيه تهديدٌ

ووعيدٌ للمؤمنين؛ إن قالوا واعتقدوا اعتقاد الكافرين، والمنافقين، فإنَّ الآية الكريمة تنهى المؤمنين أن يكونوا مثلهم في الاعتقاد. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

روي: أنَّ خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ قال عند موته: ما فيَّ موضع شبرٍ إلا وفيه ضربةُ سيف، أو طعنة رمح، وها أنذا أموت على فراشي، كما يموت العيرُ، فلا نامت أعين الجبناء!

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ انظر الآية رقم [١٣٠]. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَكُونُواْ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿كَٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿تَكُونُواْ﴾. هذا؛ وإن اعتبرت الكاف اسماً، فهي الخبر، فهي مبنية على الفتح في محل نصب، وتكون مضافة، و(الذين) مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿كَفَرُواْ﴾ مع المتعلَّق المحذوف صلة الموصول، لا محل لها، وجملة: ﴿لَا تَكُونُواْ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. (قَالُوا): فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ متعلقان بـ (قالوا) والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مجرَّد عن الشرطية مبني على السكون في محل نصب متعلِّق بالفعل: (قالوا). ﴿ضَرَبُواْ﴾: ماض، وفاعله. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليها. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿كَانُواْ﴾: فعل ماض ناقص، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿غُزًّى﴾: خبر: ﴿كَانُواْ﴾ منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والثابتة دليل عليها، وليست عينها، وجملة: ﴿كَانُواْ غُزًّى﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها.

﴿لَّوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿كَانُواْ﴾: مثل سابقه. ﴿عِندَنَا﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر: ﴿كَانُواْ﴾ و(نا) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿مَاتُواْ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية جواب: ﴿لَّوْ﴾ لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، و﴿لَّوْ﴾ ومدخولها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقَالُواْ...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿كَفَرُواْ﴾ لا محلَّ لها مثلها.

﴿لِيَجْعَلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب مفعول به أول، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿حَسْرَةً﴾: مفعول به ثان. ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾ متعلقان بـ﴿حَسْرَةً﴾ أو بمحذوف صفة لها، و«أنْ» المضمرة والفعل: (يجعل) في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قالوا، وهذا على أنَّ اللام لام العاقبة، وهي متعلِّقة بمحذوف؛ إن كانت للتعليل، التقدير: أوقع ذلك في قلوبهم ليجعله. وقيل غير ذلك.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿يُحْىِۦ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة، مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع

خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة مبينة قدرة الله فيما يريد من الإحياء، والإماتة. والحالية ضعيفة. وجملة: ﴿وَيُمِيتُ﴾: معطوفة على ما قبلها. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾: إعراب هذه الجملة مثل قوله تعالى في الآية رقم [١٥٣]: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾. والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها، فيها ما ذكرته في الشرح.

تنبيه: حذف مفعول: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ للعلم بهما من المقام، وقد قال ابن هشام رحمه الله تعالى في المغني: إذا تعلق الإعلام بمجرَّد إيقاع الفاعل للفعل، فيقتصر عليه، ولا يذكر المفعول، ولا ينوى؛ إذ المنويُّ كالثابت، ولا يسمَّى محذوفاً؛ لأن الفعل ينزل لهذا القصد منزلة ما لا مفعول له، ومنه قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٥٨]: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ وقوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٩]: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ وقال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٣١]: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾ ومثله في سورة (البقرة) رقم [١٨٦]: وأيضاً قوله تعالى في سورة (الدهر): ﴿وَإِذَا رَأَيۡتَ ثَمَّ رَأَيۡتَ...﴾ إلخ.

إذ المعنى: ربي الذي يفعل الإحياء، والإماتة، وهل يستوي مَنْ يتصف بالعلم، ومن ينتفي عنه العلم، وأوقعوا الأكل، والشرب، وذروا الإسراف، وإذا حصلت منك رؤية هنالك. ومنه على الأصح. قوله تعالى في سورة (القصص) رقم [٢٣]: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ...﴾ إلخ: ألا ترى: أن موسى ـ على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ إنما رحمهما؛ إذ كانتا على صفة الذِّياد، وقومهما على السَّقي، لا لكون مذودهما غنماً، ومسقيهم إبلاً، وكذلك المقصود من قولهما: ﴿نَسۡقِي﴾ السقي، لا المسقي، ومن لم يتأمل، قدَّر: يسقون إبلهم، وتذودان غنمهما، ولا نسقي غنمنا.

تنبيه: تكرار الماضي المتَّصل به واو الجماعة في هذه الآية، والإعراب المتعارف عليه هو ما ذكرته، والإعراب الحقيقي أن تقول: مبني على فتح مقدر على آخره، منع من ظهوره اشتغال المحل بالضم الذي جيء به لمناسبة واو الجماعة.

﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾

الشرح: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: في الجهاد لإعلاء كلمة الله. ﴿أَوۡ مُتُّمۡ﴾: أي على فراشكم من غير قتل. ﴿لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ لمن آمن، وعمل صالحاً، واهتدى بهدي النبي ﷺ. ﴿وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ...﴾ إلخ يعني: من الغنائم. والمعنى: ولئن وقع فيكم ما تخافونه من القتل في سبيل الله، أو الهلاك بالموت؛ فإنَّ ما تنالونه من المغفرة، والرحمة من الله أفضل من الدنيا وحطامها الفاني، ومتاعها الزَّائل.

هذا؛ والفعل: ﴿مُتُّمْ﴾ يقرأ بضم الميم، وكسرها، فالأول من باب: نصر، كـ: «قُلت» و«صُنتُ». والثاني من باب: علم، كـ «خفت» و«نمت». وقال المفسرون: مِنْ: مات، يمات، كخاف، يخاف، ونام ينام، وهو بعد الإعلال يعود على باب: علم.

الإعراب: ﴿وَلَئِن﴾: الواو: حرف استئناف. اللام: موطئة لقسم محذوف، أي دالة عليه. (إن): حرف شرط جازم. ﴿قُتِلْتُمْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء نائب فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فِي سَبِيلِ﴾ متعلقان بما قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿مُتُّمْ﴾: فعل وفاعل والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾: اللام: واقعة في جواب القسم المحذوف. (مغفرة): مبتدأ. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ (مغفرة) أو بمحذوف صفة لها. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾: معطوف على (مغفرة) وحذف متعلقه لدلالة ما قبله عليه. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر المبتدأ. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَيْرٌ﴾ و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بـ: (مِنْ)، ﴿يَجْمَعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: مِنَ الذي، أو من شيءٍ يجمعونه، وعلى اعتبار (ما) أو مصدرية تؤوَّل مع ما بعدها بمصدر في محل جر بـ (مِنْ)، التقدير: من جمعهم، والجملة الاسمية: ﴿لَمَغْفِرَةٌ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها جواب القسم المحذوف، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه، على القاعدة: إذا اجتمع شرط، وقسم فالجواب للسابق منهما. قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَاحْذِفْ لَدَى اجْتِمَاعِ شَرْطٍ وَقَسَمْ جَوَابَ مَا أَخَّرْتَ فَهْوَ مُلْتَزَمْ

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾

الشرح: المعنى: سواء متم على فراشكم، أو قتلتم في ساحة الحرب؛ فإنَّ مرجعكم إلى الله. فيجازيكم بأعمالكم، فآثروا ما يقرِّبكم إلى الله. ويوجب لكم رضاه من الجهاد في سبيله، والعمل بطاعته. ولله درُّ القائل: [الطويل]

فَإِنْ تَكُنِ الأَبْدَانُ لِلْمَوْتِ أُنْشِئَتْ فَقَتْلُ امْرِئٍ بِالسَّيْفِ فِي اللهِ أَفْضَلُ

والموت لا بد منه، ورحم الله من قال: [الطويل]

وَمَنْ لَمْ يَمُتْ بِالسَّيْفِ مَاتَ بِغَيْرِهِ تَنَوَّعَتِ الأَسْبَابُ وَالْمَوْتُ وَاحِدُ

الإعراب: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ انظر الآية السابقة. ﴿لَإِلَى﴾: اللام: واقعة في جواب القسم المحذوف. (إلى الله): متعلقان بالفعل بعدهما. ﴿تُحْشَرُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول

مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النُّون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، وانظر الآية السابقة.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾

الشرح: ﴿فَبِمَا﴾: (ما) زائدة وتسمى في القرآن صلة، وهناك مَنْ يقول: إنَّها غير زائدة، وهي نكرة موصوفة. وحجَّة من يقول هذا تنزيه كلام الله تعالى من الزيادة، وعليه ذهب أبو بكر الزبيدي وغيره، وهذا فيه نظر؛ لأنَّ القائلين بكون هذا زائداً لا يعنون أنَّه يجوز سقوطه، ولا أنه مهمل، ولا معنىً له، بل يقولون: إنَّه زائد للتَّوكيد، فله أسوةٌ بسائر ألفاظ التوكيد الواقعة في القرآن. انتهى جمل بتصرف.

أقول: زيادة (ما) ظاهرة في قوله تعالى في سورة (النِّساء) رقم [١٥٥]: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ...﴾ إلخ، وقوله تعالى في سورة (المؤمنون) رقم [٤٠]: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَـٰدِمِينَ﴾ وانظر موجز القول في (ما) وشواهدها في كتابنا: «فتح القريب المجيب» تَجِدْ ما يسرُّك، ويثلج صدرك.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي: فبسبب رحمة الله: أودعها الله في قلبك يا محمد! كنت هيناً ليناً مع أصحابك؛ مع أنهم خالفوا أمرك، وعصوْك. ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ﴾: الفظُّ: الغليظ الجافي، والأنثى فظَّة، والجمع: أفظاظ، قال الشاعر في ممدوحه: [الطويل]

لَيْسَ بِفَظٍّ فِي الأَدَانِيِّ وَالأُلَى يَؤُمُّونَ جَدْوَاهُ وَلَكِنَّهُ سَهْلُ
وَفَظٌّ عَلَى أَعْدَائِهِ يَحْذَرُونَهُ فَسَطْوَتُهُ حَتْفٌ وَنَائِلُهُ جَزْلُ

وغلظ القلب عبارة عن تجهُّم الوجه، وقلَّة الانفعال في الرَّغائب، وقلَّة الإشفاق، والرحمة، ومن ذلك قول الشاعر: [البسيط]

يُبْكَى عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَاداً مِنَ الإِبِلِ

﴿لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾: لتفرَّقوا عنك، ونفروا منك، ومن قول أبي النَّجم، يصف إبلاً: [الرجز]

مُسْتَعْجِلَات الْقَيْضِ غَيْرَ جُرْدِ يَنْفَضُّ عَنْهُنَّ الْحَصَى بِالصَّمْدِ

والمعنى: ولو كنت سيئ الكلام، والأخلاق، قاسي القلب، والطباع؛ لانفضُّوا عنك، وتركوك، ولكن الله حسَّن أخلاقك، وألان جانبك لهم تأليفاً لقلوبهم، كما قال عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ: إنِّي أرى صفة رسول الله ﷺ في التوراة: «**إِنَّهُ لَيْسَ بِفَظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا صَخَّابٍ فِي الأَسْوَاقِ وَلَا يَجْزِي السَّيِّئَةَ بِالسَّيِّئَةِ، وَلَكِنْ يَعْفُو، وَيَصْفَحُ**».

﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ أي: تجاوز عن زلَّاتهم، وما فعلوا يوم أحد من الهزيمة. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ أي: واسأل الله المغفرة لهم؛ حتَّى يشفِّعك فيهم. وقيل: فاعف ما كان منهم يوم أُحُد ممَّا يختصُّ بك، واستغفر لهم فيما يختصُّ بحقوق الله، وذلك من إتمام الشفقة عليهم، والرأفة بهم.

﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾ أي: في أمر الحرب ونحوه، مما لم ينزل عليك فيه وحي، تطييباً لنفوسهم، وترويحاً لقلوبهم، ورفعاً لأقدارهم، أو لتقتدي بك أمَّتك فيها، جاء من قول النبي ﷺ: «**مَا تَشَاوَرَ قَومٌ قَطُّ إِلَّا هدُوا لأرشَدِ أُمُورِهِمْ**». ومن قوله ﷺ: «**مَا خَابَ مَنِ استخارَ، وَلَا نَدِمَ مَنِ اسْتَشَارَ، وَلَا عَالَ مَنِ اقْتَصَدَ**». وقال الحسن البصريُّ، والضحَّاك: ما أمر الله نبيه بالمشاورة لحاجةٍ منه إلى رأيهم، وإنما أراد أن يعلِّمهم ما في المشاورة من الفضل، ولتقتدي به أمتَّه مِنْ بعده.

ولقد روى البغويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ بسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنَّها قالت: ما رأيت رجلاً أكثر استشارةً للرِّجالِ من رسول الله ﷺ استشار أصحابه في كثير من أمور الدنيا، مما لم ينزل عليه فيها وحي، فقد شاورهم حين خرج إلى بدر، واستشارهم في النزول في مكان في بدر، فأشار عليه الحُبَاب بن المنذر بغير المكان الذي أراد النزول فيه، واستشارهم في أسرى بدر، وفي غزوة الخندق، وفي الخروج إلى أحد كما رأيت فيما سبق، وغير ذلك كثير.

هذا؛ الاستشارة دعامة تقوم عليها أمور الدنيا، والآخرة، قال عليٌّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ: الاستشارة عينُ الهداية، وقد خاطر من استغنى برأيه، والتدبُّر قبل العمل يؤمِّنك من الندم. وقال بعض الحكماء: ما استُنْبِط الصَّواب بمثل المشاورة. ومن فوائدها: أنه قد يعزم الإنسان على أمرٍ، فيشاور فيه، فيتبين له الصواب في قول غيره، فيعلم بذلك عجز نفسه عن الإحاطة بفنون المصالح. ومنها: أنه إذا لم ينجح أمره؛ علم: أنَّ امتناع النجاح محض قدر، فلم يلم نفسه. وقال بعضهم في مدح المُشاورة: [الطويل]

وَشَاوِرْ إِذَا شَاوَرْتَ كُلَّ مُهَذَّبٍ ... لَبِيْبٍ أَخِي حَزْمٍ لِتَرشَدَ فِي الأَمْرِ
وَلَا تَكُ مِمَّن يَسْتَبِدُّ بِرَأْيِهِ ... وَشَاوِرْهُمُ فِي الأَمْرِ حَتْمَاً بِلا نُكْرِ

قال العلماء: وصفة المستشار في الأحكام الدينية: أن يكون عالماً دَيِّناً. وفي أمور الدنيا: أن يكون عاقلاً مُجَرِّباً وادَّاً في المستشير، قال الشاعر: [المتقارب]

إِذَا كُنْتَ فِي حَاجَةٍ مُرْسِلاً ... فَأَرْسِلْ حَكِيماً وَلا تُوصِهِ
وَإِنْ بَابُ أَمْرٍ عَلَيْكَ الْتَوَى ... فَشَاوِرْ لَبِيبَاً وَلَا تَعْصِهِ

وأكتفي بما تقدَّم هنا. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٣٨]: من سورة (الشورى) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ﴾ أي: على أمر من الأمور؛ فامض وتوكل على الله، وثق به، ولا تعتمد

إلا عليه، فإنه ولي الإعانة، والعصمة، والتسديد. والمراد: ألا يكون للعبد اعتماد على شيءٍ إلا على الله تعالى في كلِّ أموره، وإنَّ المشاورة لا تنافي التوكُّل. والعزم، والعزيمة: ما عقدت عليه نفسك من أمرٍ أن تفعله، وعزم على الشيء: قدر، وصمَّم على فعله، قال الشاعر: [الطويل]

إِذَا هَـمَّ أَلْـقَـى بَـيْـنَ عَـيْـنَـيْـهِ عَـزْمَـهُ وَنَـكَّـبَ عَـنْ ذِكْـرِ الْـعَـوَاقِـبِ جَـانِـبَـا
وَلَـمْ يَـسْـتَـشِـرْ فِـي رَأْيِـهِ غَـيْـرَ نَـفْـسِـهِ وَلَـمْ يَـرْضَ إِلَّا قَـائِـمَ الـسَّـيْـفِ صَـاحِـبَـا

الإعراب: ﴿فَبِمَا﴾: الفاء: حرف استئناف. الباء: حرف جر. (ما): حرف صلة. ﴿رَحْمَةٍ﴾: اسم مجرور بالباء، والجار والمجرور متعلقان بالفعل بعدهما. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلِّقان بـ ﴿رَحْمَةٍ﴾ أو بمحذوف صلة لها. ﴿لِنتَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف عطف، أو حرف استئناف. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿كُنتَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿فَظًّا﴾: خبر أول. ﴿غَلِيظَ﴾: خبر ثان لـ (كان)، و﴿غَلِيظَ﴾ مضاف، و﴿ٱلْقَلْبِ﴾ مضاف إليه، من إضافة الصفة المشبهة لفاعلها، وجملة: ﴿كُنتَ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَٱنفَضُّواْ﴾: اللام واقعة في جواب (لو). (انفضوا): فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب لو، لا محل لها، و(لو) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف لا محل له على الاعتبارين. ﴿مِنْ حَوْلِكَ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة.

﴿فَٱعْفُ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (اعف): فعل أمر مبني على حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الواو، والضمة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جملة جواب شرط يقدَّر بـ «إذا»، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً، وحاصلاً؛ فاعف عنهم. (اسْتَغْفِرْ): أمر، وفاعله: أنت. ﴿لَهُمْ﴾ متعلقان به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾: فعل أمر، وفاعله، ومفعوله، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿فِى ٱلْأَمْرِ﴾: متعلقان بما قبلهما.

﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبنيٌّ على السكون في محل نصب. ﴿عَزَمْتَ﴾: فعل، وفاعل، ومتعلقه محذوف، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿فَتَوَكَّلْ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (توكل) فعل أمر، وفاعله: أنت. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية جواب: (إذا) لا محل لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع،

والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مستأنفة، أو تعليلية، لا محل لها على الاعتبارين. ﴿ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾: مفعول به.

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: إن يعنكم الله بنصره، ويمنعكم من عدوِّكم، كما فعل يوم بدر؛ ﴿فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ﴾ أي: لا أحد من الناس يغلبكم، ويقهركم؛ لأنَّ الله تعالى هو المتولي نصركم. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾: كما فعل يوم أُحُد، فلم ينصركم، بل وكلكم إلى أنفسكم لمخالفتكم أمره، وأمر رسوله ﷺ. ﴿فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾: مِنْ بعد خذلانه، وهو ترك المعونة. والمعنى: لا أحد ينصركم من بعد الله. وينبغي تعميم الخطاب للمؤمنين إلى يوم القيامة، فالهاء تعود على الله جلَّ ذكره. وقيل: بل تعود على الخذلان.

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: لا على غيره؛ لأنَّ الأمر كلَّه لله، لا رادَّ لقضائه، ولا دافع لحكمه، فيجب أن يتوكل العبد في كل الأمور على الله تعالى، لا على غيره. وقيل: التوكل: أن لا تعصي الله من أجل رزقك، ولا تطلب لنفسك ناصراً غيره، ولا لعملك شاهداً سواه، وخذ ما يلي:

عن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ**» قالوا: ومن هم يا رسول الله؟! قال: «**هُمُ الَّذِينَ لَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَّلُونَ**». فقام عكَّاشة بن محصن ـ رضي الله عنه ـ، فقال: يا رسول الله! ادع الله أن يجعلني منهم! فقال: «**أَنْتَ مِنْهُمْ**». فقام آخر، فقال: يا نبي الله! ادع الله أن يجعلني منهم! فقال: «**سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ**». وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٢٢]: فإنَّه جيد، والحمد لله!

هذا؛ والخذلان: ترك العون. والمخذول: المتروك لا يُعبأ به، وخذلت الوحشية: أقامت على ولدها في المرعى، وتركت صواحباتها، فهي خذول، قال طَرَفة في معلقته رقم [٨]: [الطويل]

خَذُولٌ تُرَاعِي رَبْرَباً بِخَمِيلَةٍ تَنَاوَلُ أطرافَ الْبَرِيرِ وَتَرْتَدِي

انظر شرحه في كتابنا إعراب المعلَّقات؛ فإنَّه جيد، والحمد لله. وقال طَرَفة أيضاً: [الكامل]

نَظَرَتْ إِلَيْكَ بِعَيْنِ جَارِيَةٍ خَذَلَتْ صَوَاحِبَهَا عَلَى طِفْلِ

ولا تنس أنَّ بين: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ﴾ وبين: ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾ مقابلةٌ، وهي من المحسِّنات البديعية.

الإعراب: ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَنصُرْكُمُ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والكاف مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية. ويقال: لأنَّها جملة

شرط غير ظرفي. ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿غَالِبَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (لا)، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد، والجملة الشرطية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. ﴿فَمَن﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (مَنْ): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ذَا﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع خبره. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع صفة: ﴿ذَا﴾. أو هو بدل منها. هذا؛ وجوز أن يكون: (من ذا) اسماً مركباً مبنيّاً على السكون في محل رفع مبتدأ، والذي خبره. ﴿يَنصُرُكُم﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية: (من ذا. . .) إلخ في محل جزم جواب الشرط. . . إلخ، و(إنْ) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، لا محل له مثله. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ...﴾ إلخ: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [١٢٢].

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت هذه الآية في قطيفةٍ حمراء فُقدت يوم بدر، فقال بعض القوم: لعلَّ رسول الله ﷺ أخذها، فنزلت الآية الكريمة. أخرجه أبو داود، والترمذيّ. وروي عن الضَّحاك ـ رحمه الله تعالى ـ قال: بعث رسول الله ﷺ طلائع، وجاءت غنائم للنَّبيِّ ﷺ، فلم يقسم للطَّلائع، فأنزل الله الآية الكريمة.

وروي ابن جرير الطَّبري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله: المعنى: ما كان لنبيٍّ أن يقسم إلى طائفة من المؤمنين، ويترك طائفة، ويجور في القسم، ولكن يقسم بالعدل، ويأخذ فيه بأمر الله تعالى، ويحكم فيه بما أنزل الله، يقول: ما كان الله ليجعل نبيّاً يغلُّ من أصحابه، فإذا فعل ذلك؛ استنُّوا به.

وقال مقاتل، والكلبي: نزلت في غنائم أحد حين ترك الرُّماة المركز للغنيمة، وقالوا: نخشى أن يقول النبيُّ ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له، أو ألا تقسم الغنائم، كما لم تقسم يوم بدر، فتركوا المركز، ووقعوا في الغنائم، فقال لهم النبي ﷺ: «**ألم أعهد إليكم ألا تتركوا المركز، حتَّى يأتيكم أمري؟**» قالوا: تركنا بعض إخواننا وقوفاً، فقال النبيُّ ﷺ: بل ظننتم أنا نغلُّ، فلا نقسم. فأنزل الله هذه الآية.

وقال محمد بن كعب القرظيُّ، ومحمد بن إسحاق: هذا في شأن الوحي، يقول: وما كان لنبي أن يكتم شيئاً من الوحي، رغبةً، أو رهبةً، أو مداهنةً، والغلول: هو الخيانة، وأصله: أخذ الشيء في خفيةٍ يقال: غل فلان، يَغُل بفتح الياء، وضم الغين؛ أي: وما كان لنبي أن يخون؛ لأنَّ النبوة والخيانة لا يجتمعان؛ لأن منصب النبوة أعظم المناصب، وأشرفها، وأعلاها، فلا تليق به الخيانة؛ لأنَّها في نهاية الدناءة، والخسَّة، والجمع بين الضدَّين محالٌ. فثبت بذلك: أنَّ النبي ﷺ لم يخن أمَّته في شيءٍ، لا من الغنائم، ولا من الوحي.

وقيل: المراد به: الأمة؛ لأنه قد ثبتت براءة ساحة النبيِّ من الغلول، والخيانة، فدلَّ ذلك على أنَّ المراد بالغلول غيره. انتهى خازن بتصرف. وهذا الذي أعتمده إن شاء الله؛ لأنه قد خوطب النبي ﷺ بأشياء كثيرة، والمراد أمَّته، مثل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ...﴾ إلخ، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ...﴾ إلخ، وغير ذلك.

﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يأتي به حاملاً له على ظهره ورقبته، معذباً بحمله، وثقله، ومرعوباً بصوته، ومُوَبَّخاً بإظهار خيانته على رؤوس الناس، هذه الفضيحة التي يوقعها الله تعالى بالغالِّ نظير الفضيحة التي يوقعها الله بالغادر في أن ينصب له لواءً عند اسْتِه بقدر غَدْرَتِه.

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾: تعطى جزاء ما كسبت وافياً غير ناقص، وكان المناسب لما قبله أن يقال: ثم يوفى ما كسب، ولكنَّه عمَّم الحكم؛ ليدخل تحته كلُّ كاسب من الغالِّ وغيره، فاتَّصل به من حيث المعنى، وهو أثبت، وأبلغ. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ فلا ينقص ثواب محسنهم، ومطيعهم، ولا يزاد في عقاب سَيِّئهم. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قام فينا رسول الله ﷺ ذات يوم، فذكر الغلول، فعظَّمه، وعظَّم أمره، ثم قال: **«لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ بَعيرٍ لَهُ رُغاءٌ، يقولُ: يا رسولَ اللهِ أَغِثْنِي! فَأَقولُ، لا أملِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَومَ الْقِيامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ، لَهُ حَمْحَمَةٌ، فيقولُ: يا رسول اللهِ أَغِثْنِي! فأقولُ: لَا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُمْ يَجِيءُ يَومَ الْقِيامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ، لَهَا ثُغاءٌ، يَقولُ: يا رسولَ اللهِ أَغِثْنِي! فَأَقول: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحدكُمْ يَجِيءُ يوم القِيامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ نَفْسٌ، لَهَا صِياحٌ، فيقولُ: يا رسولِ اللهِ أَغِثْنِي! فأقولُ: لا أملِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحَدكُمْ يَجِيءُ يَومَ الْقِيامةِ عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ، فيقولُ: يا رسول اللهِ أَغِثْنِي! فأقول: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئاً، قَدْ أَبْلَغْتُكَ. لَا أُلْفِيَنَّ أَحدكُمْ يَجِيءُ يومَ الْقِيامةِ عَلَى رَقَبَتِهِ صَامِتٌ، فيقُولُ: يا رسولَ اللهِ أَغِثْنِي! فَأَقولُ: لَا أَمْلِكُ لكَ شَيْئاً قَدْ أَبْلَغْتُكَ»**.

أخرجه الإمام مسلم، وغيره. صحححة الفرس: صوته دون الصهيل. الرِّقاع: الثياب، جمع رقعة وقيل: هي التي فيها الحقوق، وخفوقها: حركتها، والصَّامت: الذهب، والفضَّة.

فتبيَّن: أن الغلول كبيرةٌ من الكبائر، بدليل الآية الكريمة، والحديث الشريف. ومن الغلول هدايا العمال، وحكمه في الفضيحة في الآخرة حكم الغال، فقد روى أبو داود في سننه، ومسلمٌ في صحيحه عن أبي حُميدٍ الساعديِّ ـ رضي الله عنه ـ: أن النبيَّ ﷺ، استعمل رجلاً من الأزد، يقال له: ابن اللُّتْبيَّة على الصَّدقة، فجاء، فقال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، وقال: «**مَا بَالُ الْعَامِلِ نَبْعَثُهُ، فَيَجِيءُ، فيقولُ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِيَ لِي؟ أَلَا جَلَسَ في بَيْتِ أُمِّهِ وَأَبِيهِ، فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى لَهُ، أَمْ لَا؟! لَا يَأْتِي أَحَدٌ مِنْكُمْ بِشَيءٍ مِنْ ذَلِكَ إِلَا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِنْ كَانَ بَعِيراً؛ فَلَهُ رُغَاءُ، أَوْ بَقَرَةً؛ فَلَها خُوَارٌ، أَوْ شَاةً تَيْعرُ**» ثمَّ رفع يديه حتَّى رأينا عُفْرَتَيْ إبطيه، ثمَّ قال: «**اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتَ. اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتَ**» وابن اللُّتبية اسمه عبد الله صحابيٌّ، واللُّتبية أمه، ومنهم من يفتح اللام.

وروى أبو داود عن بريدة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ، فَرَزَقْنَاهُ رِزْقاً، فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ غُلُولٌ**». فويلٌ ثمَّ ويلٌ، ثم ويلٌ لحكام هذا الزَّمن، ولموظفي هذا الزَّمن الذين لا يعملون إلا إذا أخذوا الرَّشوة جهراً، لا خيفةً، وينهبون من مؤسَّسات الدَّولة ما يستطيعون نهبه، كلٌّ بحسب وظيفته، ومركزه فيها، وجلالته، وعظمته في جهاز الدَّولة، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم!

الإعراب: (ما): نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِنَبِيٍّ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. (يغلَّ): فعل مضارع منصوب بأن، والفاعل يعود إلى النبيِّ، والمصدر المؤوَّل من الفعل وناصبه في محلِّ رفع اسم كان مؤخَّر، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَمَن﴾: الواو حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَغْلُلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره هو. ﴿يَأْتِ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والجملة الفعلية، لا محل لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بإذا الفُجائية، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشرط. وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها، ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿غَلَّ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ومفعوله ومفعول ما قبله محذوف، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، التقدير: يأت بالذي، أو بشيءٍ غلَّه. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، وهو مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ مضاف إليه.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿تُوَفَّىٰ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدَّرة على الألف للتعذُّر. ﴿كُلُّ﴾: نائب فاعله، وهو المفعول الأول، وقد اكتسب التأنيث

من المضاف إليه، فهو مضاف، و﴿نَفْسٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مَّا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿كَسَبَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والفاعل يعود إلى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو: بشيءٍ كسبته، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل نصب المفعول الثاني، التقدير: توفَّى كلُّ نفسٍ كسبها. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (هم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُظْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، والواو نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل: ﴿كَسَبَتْ﴾ وجمع الضمير على معنى ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ والرابط: الواو، والضمير، والجملة الفعلية: ﴿تُوَفَّى...﴾ إلخ معطوفة على الجملة الشرطية قبلها، لا محل لها مثلها.

تنبيه: ذكرت لك: أن ﴿كُلُّ﴾ اكتسب التأنيث من إضافته لنفس، واكتساب المضاف من المضاف إليه التذكير أو التأنيث باب من أبواب النَّحو معروفٌ، انظره في كتابنا: «فتح القريب المجيب». ومن أمثلته قول المجنون ـ وهو الشاهد رقم [٩٠٣] منه ـ: [الوافر]

أَمُرُّ عَلَى الدِّيَارِ دِيَارِ لَيْلَى ... أُقَبِّلُ ذَا الْجِدَارَ وَذَا الْجِدَارَا

وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفْنَ قَلْبِي ... وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارَا

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾

الشرح: ﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ﴾ أي: ترك الغلول، وصبر على الجهاد، وامتثل أمر الله فيما أمر، وانتهى عمَّا نهى عنه، وزجر، واهتدى بهدي سيد البشر ﷺ. ﴿كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: رجع بغضب من الله بأن غلَّ، أو تولَّى من الميدان في ساحة الطَّعن، والطِّعان، ثمَّ ارتكب المحرَّمات، وفعل المنهيات. والمعنى لا يستوي الأول، والثاني في الحكم عند الله، فالفرق بعيدٌ بينهما، كما بين المشرق، والمغرب، أو بين السماء، والأرض، ولهذه الآية نظائرها في سورة (الرَّعد) رقم [٢١] وسورة (السَّجدة) رقم [١٨] وغير ذلك. ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ﴾: مآله، ومصيره، ومقرُّه. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ أي: المذموم هو.

هذا؛ والهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنِ﴾ للإنكار، وهي في نية التَّأخير عن الفاء؛ لأنها حرف عطف، وكذا تقدَّم على الواو، وثم تنبيهاً على أصالتها في التَّصدير، نحو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ...﴾ إلخ ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم

بِهِۦ﴾. وأخواتها تتأخر عن حروف العطف، كما قياس جميع أجزاء الجملة المعطوفة، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾. هذا مذهب سيبويه، والجمهور، وخالف في ذلك جماعةٌ، أوَّلهم الزمخشري، فزعموا: أن الهمزة في الآيات المتقدِّمة في محلِّها الأصلي، وأن العطف على جملة مقدَّرة بينها وبين العاطف، فيقولون: التقدير في: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ...﴾ إلخ ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾: أمكثوا، فلم يسيروا في الأرض؟ أنهملكم، فنضرب عنكم؟ أتؤمنون في حياته، فإن مات، أو قتل... إلخ، ويضعف ما في قولهم من التكلف، وأنه غير مطرد في جميع المواضع. انتهى مغني بتصرف. وانظر الآية رقم [١٦٥] الآتية.

الإعراب: ﴿أَفَمَنِ﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري. الفاء: حرف عطف. (مَنْ): تحتمل الموصولة، والموصوفة ـ أي: شخص، أو: إنسان ـ مبنية على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱتَّبَعَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، تقديره: هو. ﴿رِضْوَٰنَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، مِنْ إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها، والعائد أو الرابط: رجوع الفاعل إليها. ﴿كَمَنۢ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و(من) تحتمل الموصولة والموصوفة أيضاً. ﴿بَآءَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ). والجملة الفعلية صلة (مَنْ)، أو صفتها، والعائد أو الرابط: رجوع الفاعل إليها أيضاً. ﴿بِسَخَطٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ (سخط) لأنه مصدر، أو بمحذوف صفة له، والجملة الاسمية مستأنفة، أو هي معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: يستوي الأمران، أو: الشخصان... إلخ، والمعتمد الأوَّل.

﴿وَمَأْوَىٰهُ﴾: الواو: واو الحال. (مأواه): مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدرة على الألف للتعذُّر، والهاء في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، وفي المعنى فاعله جهنَّم، التي هي خبره في الظَّاهر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من فاعل ﴿بَآءَ﴾ المستتر، والرابط: الواو، والضمير. ﴿وَبِئْسَ﴾: الواو: حرف استئناف. (بئس): فعل ماض جامد لإنشاء الذَّم، ﴿ٱلْمَصِيرُ﴾: فاعله، والمخصوص بالذم محذوف، التقدير: هي جهنم، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محل لها، ولا يجوز عطفها على ما قبلها؛ لأنها إنشائية، والإنشاء لا يكون حالاً.

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾

الشرح: أي: هم درجاتٌ متفاوتة، ومختلفو المنازل عند الله، فلمن اتَّبع رضوانه الكرامةُ، والثوابُ العظيم، ولمن باء بسخطٍ منه المهانة، والعذاب الأليم، بل هم على درجاتٍ، أو في درجاتٍ على حسب أعمالهم، فالأعمال الصَّالحة ليست بدرجةٍ واحدةٍ، من النَّفع، والحسن،

والأعمال السَّيِّئة ليست بدرجة واحدة من الضرِّ، والقبح. هذا والغالب استعمال الدَّرجات في العرف لأهل الثواب، واستعمال الدَّركات لأهل النَّار، والعقاب. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿عِندَ﴾ ظرف مكان متعلق بمحذوف صفة: ﴿دَرَجَٰتٌ﴾. و﴿عِندَ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌ...﴾ إلخ: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [١٥٣].

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾

الشرح: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: أحسن إليهم، وتفضل عليهم، والمنَّة: النعمة العظيمة، وذلك في الحقيقة لا يكون إلا من الله؛ لأنه المالك للنِّعمة حقيقةً، وغيره من المخلوقين لا يملكها حقيقةً، وإنَّما هي وكالة يقوم بها إن أحسن الوكالة. ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ يعني: من جنسهم عربيّاً مثلهم، ولد ببلدهم، ونشأ بينهم، يعرفون نسبه، وليس حيٌّ من أحياء العرب، إلا له فيهم نسب، إلا بني تغلب، فإنهم كانوا نصارى، وقد ثبتوا على النصرانية، فطهَّر الله رسوله ﷺ من أن يكون له فيهم نسب، وقرئ شاذّاً: (مِنْ أنفَسهم) بفتح الفاء. يعني: من أشرفهم؛ لأنه من بني هاشم، وبنو هاشم أفضل من قريش، وقريش أفضل من سائر العرب، والعرب أفضل من غيرهم. وقيل: أراد بالمؤمنين: جميع المؤمنين، ومعنى: ﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: أنه واحدٌ منهم، وبشر مثلهم، وإنما امتاز عنهم بالوحي، والرِّسالة. وهو معنى قوله تعالى في آخر سورة (التوبة): ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ...﴾ إلخ وقوله تعالى في سورة (الجمعة): ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ...﴾ إلخ. وخص المؤمنين بالمنَّة، والذكر؛ لأنهم المنتفعون به، والمهتدون بهديه، فالمنة عليهم أعظم.

﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾: يقرأ عليهم كتابه الذي أنزل عليه بعد أن كانوا أهل جاهلية لم يطرق أسماعهم شيءٌ من الوحي السَّماوي. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾: ويطهِّرهم من دنس الكفر، ونجاسة المحرمات، والخبائث، وسوء الأخلاق، والطِّباع. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، وهو آيات الله المذكورة، فعلى هذا؛ فهو بالنسبة لما قبله من اختلاف اللفظ، واتحاد المعنى. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: انظر الآية رقم [٤٨]. ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ﴾ أي: قبل بعثة محمد ﷺ. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾: لفي جهالةٍ، وحيرةٍ عن الهدى عُمياً صمّاً، لا يعرفون معروفاً، ولا ينكرون منكراً، فهداهم الله بنبيه ﷺ.

هذا؛ و«ضَلَّ» أكثر ما يستعمل بمعنى: كفر، وأشرك، وهو ضدُّ: اهتدى، واستقام. ومصدره: الضَّلال كما في هذه الآية، ويأتي ضل بمعنى: غاب، كما في قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ

عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ ويأتي بمعنى: خفي يخفى، قال تعالى في سورة (طه) حكاية عن قول موسى لفرعون: ﴿قَالَ عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٖۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾. وضلَّ الشيء: ضاع، وهلك، ومنه قوله تعالى في سورة (الرَّعد): ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾، وضلَّ: أخطأ في رأيه، ولولا هذا المعنى؛ لكفر أولاد يعقوب بقولهم له في حضرته: ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ﴾ وقولهم في غيبته: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، وضلَّ: تحيَّر، وهو أقرب ما يفسَّر به قوله تعالى مخاطباً حبيبه ﷺ في سورة (الضُّحى): ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ﴾.

وأضلَّ، يضل غيره من الرُّباعي، ومصدره: الإضلال، فهو متعدٍّ، والثلاثي لازم، ومصدره: الضَّلال، وهو الخروج عن جادَّة الحقِّ، والانحراف عن الصِّراط المستقيم. وينبغي أن تعلم أنَّ طريق الهدى واحدةٌ، لا اعوجاج فيها، ولا التواء، قال تعالى في سورة (الأنعام): ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ وأما الضَّلال؛ فطرقه كثيرةٌ ومتشعِّبةٌ، قال تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة وألف سلام: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ﴾. وقال الشاعر الحكيم: [البسيط]

الطُّرْقُ شَتَّى وَطُرقُ الْحَقِّ وَاحِدَةٌ ... وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الْحَقِّ أَفْرَادُ

لا يُعْرَفُونَ وَلَا تُدْرَى مَقَاصِدُهُمْ ... فَهُمْ عَلَى مَهَلٍ يَمْشُونَ قُصَّادُ

وَالنَّاسُ فِي غَفْلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِمْ ... فَجُلُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ الْحَقِّ رُقَّادُ

الإعراب: ﴿لَقَدۡ﴾: اللام: واقعة في جواب قسم محذوف، تقديره: والله. وقيل: هي لام الابتداء، (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿مَنَّ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، أو هي ابتدائية لا محلَّ لها على الاعتبارين. ﴿إِذۡ﴾ حرف تعليل، أو هي ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل: ﴿مَنَّ﴾. ﴿بَعَثَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية لا محلَّ لها على اعتبار ﴿إِذۡ﴾ حرف تعليل، وهي في محل جر بإضافة ﴿إِذۡ﴾ إليها على اعتبارها ظرفية. ﴿فِيهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رَسُولٗا﴾: مفعول به. ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿رَسُولٗا﴾ والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿يَتۡلُواْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الواو، والفاعل يعود إلى: ﴿رَسُولٗا﴾. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثانية لـ: ﴿رَسُولٗا﴾ أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدَّم. ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَيُزَكِّيهِمۡ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل،

والفاعل يعود إلى: ﴿رَسُولًا﴾ أيضاً، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وكذا جملة: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ معطوفة عليها أيضاً.

﴿وَإِن﴾: الواو: واو الحال. (إنْ): مخففة من الثقيلة مهملة لا عمل لها. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلقان بـ﴿كَانُوا۟﴾ وقد بُني ﴿قَبْلُ﴾ على الضم لقطعه عن الإضافة لفظاً، لا معنىً. ﴿لَفِى﴾: اللام: هي الفارقة بين «إنَّ» العاملة، والمهملة، وهي لازمة عند الإهمال. قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَخُــفِّــفَــتْ إنَّ فَــقَــلَّ الْــعَــمَــلُ ... وَتَــلْــزَمُ الــلَّامُ إذَا مَــا تُــهْــمَــلُ

(في ضلال): متعلقان بمحذوف خبر: (كان) وهذا الإعراب على مذهب البصريين، وأما الكوفيون فيقولون: (إنْ) نافية بمعنى «ما» واللام بمعنى: «إلا» والمعنى: ما كانوا من قبل إلا في ضلال مبين، ويستدلون على ذلك بقول الشاعر، وهو الشاهد رقم [٤٢٠]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» [البسيط]

أَمْــسَــى أَبَــانُ ذَلِــيــلاً بَــعْــدَ عِــزَّتَــهِ ... وَمَــا أَبَــانُ لِــمَــنْ أَعْــلَاجِ سُــودَانِ

والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير الواقع مفعولاً به، والرابط: الواو والضمير.

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾

الشرح: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم﴾: أَوَ حين: انظر تقدُّم الهمزة على الواو في الآية [١٦٢]: وقدمت عليها، كما تقدَّمت على الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ وغيرها كثير، وكما دخلت على (ثمَّ) في قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦ﴾. هذا قول سيبويه، وقال الأخفش: زائدة، ومذهب الكسائي: أنها «أَوْ» تحركت الواو منها تسهيلاً، وتقرأ (أَوْ) ساكنة الواو، فتجيء بمعنى «بل». وقال ابن عطية: وهذا تكلُّف، والصحيح قول سيبويه.

﴿أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ يعني: ما أصابهم يوم أحد. ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾: يوم بدر بأن قتلتم منهم سبعين، وأسرتم سبعين، والأسير في حكم المقتول؛ لأنَّ الآسر يستطيع قتل أسيره؛ إن أراد. أو المعنى: فهزمتموهم يوم بدر، ويوم أحدٍ أيضاً في الابتداء، وقتلتم فيه منهم قريباً من عشرين، فنلتم منهم في يومين، ونالوا منكم في يومٍ واحد.

﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ أي: من أين أصابنا هذا الانهزام، والقتل؛ ونحن نقاتل في سبيل الله، ونحن مسلمون، وفينا رسول الله ﷺ والوحي؟! ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: إنما وقعتم فيما

وقعتم فيه بشؤم ذنوبكم، وهو مخالفتكم أمر الرسول ﷺ في أمرين: أولهما: أنه ﷺ اختار الإقامة في المدينة على الخروج إلى العدوّ في أُحُد، واختاروا هم الخروج. والأمر الثاني: مخالفة الرُّماة أمر الرسول ﷺ الذين أقامهم على الجبل، وخذ ما يلي:

روى عُبيدة السلماني ـ رحمه الله تعالى ـ عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: جاء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، فقال: إنَّ الله كره ما صنع قومك في أخذهم الفداء من الأسارى يوم بدرٍ، وقد أمرك أن تخيِّرهم بين أن يَضْرِبُوا أعناق الأسارى، وبين أن يأخذوا الفداء على أن يُقتل منهم عدَّتهم. فذكر ذلك رسول الله ﷺ للنَّاس، فقالوا: يا رسول الله! عشائرنا، وإخواننا. بل نأخذ منهم فداءً، فنقوى به على قتال عدوِّنا، ويستشهد منَّا عدَّتهم، فقتل منهم يوم أحد سبعون عدد أسارى بدر. لم يسنده البغوي، وأسنده ابن جرير الطَّبري. انتهى خازن، وقرطبي. وفي النَّفس من هذه الرواية شيء.

الإعراب: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتقرير، وتوبيخ. الواو: حرف عطف، أو استئناف. (لمَّا): انظر الآية رقم [٣٦]. ﴿أَصَٰبَتۡكُم﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والكاف مفعول به. ﴿مُّصِيبَةٞ﴾: فاعله، والجملة الفعلية ابتدائية، لا محلَّ لها على القول بحرفية (لمَّا)، وهي في محل جر بإضافة: (لمَّا) إليها على القول بظرفيتها. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَصَبۡتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿مِّثۡلَيۡهَا﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه مثنىً، وحذفت النون للإضافة، و(ها) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع صفة: ﴿مُّصِيبَةٞ﴾ أو في محل نصب حال من الكاف الواقعة مفعولاً به، والرابط: الضمير فقط. ﴿قُلۡتُمۡ﴾: فعل، وفاعل. ﴿أَنَّىٰ﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع خبر مقدَّم، وهذا إذا كان الاستفهام عن الحال، وأما إذا كان بمعنى: «من أين» فيكون مبنيّاً على السكون في محل نصب على الظرفية المكانية متعلق بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿هَٰذَاۖ﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محلَّ له. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخَّر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلۡتُمۡ...﴾ إلخ جواب لـ: (ما) لا محل لها و(لمَّا) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. أبو السعود.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿هُوَ﴾: ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿مِنۡ عِندِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿أَنفُسِكُمۡۗ﴾: مضاف إليه، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلۡ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ: ﴿قَدِيرٞ﴾ بعدهما، و(كُلِّ) مضاف، و﴿شَيۡءٖ﴾: مضاف إليه. ﴿قَدِيرٞ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، أو هي مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها على الاعتبارين، وهي مِنْ مقول القول على اعتبارها للتعليل.

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾

الشرح: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾: الخطاب للمؤمنين، والذي أصابهم: هو القتل، والجراح، والهزيمة. ﴿يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: جمع المؤمنين، وجمع المشركين، وذلك بـ «أُحُد» يوم أحُد. ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ أي: فبعلمه، وقضائه، وقدره، وحكمه، وحكمته. وفيه تسليةٌ للمؤمنين بما حصل لهم يوم أُحُد من القتل، والهزيمة، ولا تقع التسلية إلا إذا علموا: أن ذلك كان واقعاً بقضاء الله وقدره، فحينئذٍ يرضون بما قضى الله لهم، وعليهم. وانظر شرح (أصاب) في الآية رقم [١٥٦]: من سورة (البقرة).

الإعراب: ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿يَوۡمَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله. ﴿ٱلۡتَقَى﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذُّر. ﴿ٱلۡجَمۡعَانِ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنَّه مثنًّى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿يَوۡمَ﴾ إليها. ﴿فَبِإِذۡنِ﴾: الفاء: صلة لتحسين اللفظ، وساغ ذلك لشبه الموصول بالشرط في العموم، (بإذن): متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر المبتدأ، و(إذن): مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. هذا؛ واعتبار (ما) شرطية غير مستبعد، وعليه فالفعل أصاب فعل شرطها، وهي مبتدأ، والجملة الاسمية: «فهو بإذن الله» في محل جزم جوابها، وخبرها مختلفٌ فيه، كما ذكرته لك مراراً، والجملة على الاعتبارين اسمية، وهي معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة، لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهِ﴾. و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جرٍّ باللام، والجار والمجرور معطوفان على معنى: (بإذن الله). عطف سبب على سبب. وقيل: متعلقان بمحذوف، التقدير: وفعل ما أصابكم ليعلم... إلخ. والأول أولى. ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابةً عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنُّون عوضٌ من التنوين في الاسم المفرد.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾

الشرح: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ المعنى: ليُظهر إيمان المؤمنين بثباتهم على ما نالهم، ويُظهر نفاق المنافقين بقلَّة صبرهم على ما نزل بهم. فالمراد من العلم: المعلوم، والمراد: ليتبيَّن

المؤمن من المنافق، وليتميَّز أحدُهما من الآخر، كقوله جلَّ ذكره: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ رقم [١٤١]. هذا؛ والنفاق: إظهار الإيمان، وإخفاء الكفر، وسمِّي المنافق منافقاً، أخذاً من: نافقاء اليربوع، وهو جُحْرُه الذي يقيم فيه، فإنَّه يجعل له بابين، ويدخل مِنْ أحدهما، ويخرج مِنَ الآخر، فكذلك المنافق يدخل مع المؤمنين بقوله: أنا مؤمن، ويدخل مع الكافرين بقوله: أنا كافر. وكان المنافقون في عهد الرسول ﷺ ثلاثمئة من الرجال، ومئة من النساء، هذا وقال تعالى في سورة (التوبة): ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ...﴾ إلخ.

هذا؛ وقد يتصف مؤمن بصفات المنافقين، فيكذب في القول، ويُخلِف في الوعد، ويخون في الأمانات، ويفجر في الخصومة، فهذا يقال له: نفاق العمل، وأمَّا الأول؛ فيقال له: نفاق العقيدة، وهو أخبث من الكفر، وعقابه أشدُّ منه، قال تعالى في سورة (النساء) رقم [١٤٥]: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾. وقد حذَّر الرسول ﷺ من نفاق العمل، والاتصاف به، فإنَّه يجرُّ إلى نفاق العقيدة. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: أن النبي ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ؛ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَتْ فِيْهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ، كَانَتْ فِيْهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ؛ حتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ**». رواه البخاريُّ، ومسلم.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ۖ﴾: المقول له عبد الله بن أُبَيٍّ ابن سلول المنافق، وأصحابه، وذلك: أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا خرج إلى أُحُدٍ بألف رجلٍ؛ حتى إذا كان بالشَّوط بين أُحُد، والمدينة؛ انخذل عبد الله المنافق بثلث النَّاس، وقال: ما ندري علام نقتل أنفسنا؟! فرجع بمن معه من المنافقين، فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر - رضي الله عنه -، وهو يقول: يا قوم! أذكِّركم الله أن تخذلوا نبيَّكم عند حضور عدوِّه! تعالوا قاتلوا في سبيل الله - أي: لأجل دين الله وطاعته - أو ادفعوا عن أموالكم، وأهليكم! وقيل: معناه: تعالوا كثِّروا سواد المسلمين؛ إن لم تقاتلوا، ليكون ذلك دفعاً، وقمعاً للعدو، فإنَّ السَّواد إذا كثُر؛ حصل دفع العدو. قال أنس - رضي الله عنه -: رأيت يوم القادسية عبد الله ابن أمِّ مكتوم الأعمى، وعليه درع يجرُّ أطرافها. وبيده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ فقال: بلى، ولكنِّي أكثِّر سواد المسلمين بنفسي. ومعنى قوله - رضي الله عنه -: إن لم تقاتلوا في سبيل الله، فقاتلوا دفعاً عن أنفسكم، وحريمكم. ألا ترى أنَّ قُزْمَان بن الحارث العبسي المنافق، قال: والله ما قاتلت إلا عن أحسابِ قومي، وقال فيه رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ**».

﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ﴾ أي: المنافقون في يوم أحد. ﴿أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: بينوا حالهم، وهتكوا أستارهم، وكشفوا عن كفرهم، ونفاقهم لِمَنْ كان يظنُّ: أنهم مؤمنون، فصاروا أقربَ إلى الكفر في ظاهر الحال، وإن كانوا كافرين على التَّحقيق.

﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي: يُظهرون الإيمان بألسنتهم، ويُضمرون الكفر في قلوبهم، وهذه صفة المنافقين، لا صفة المؤمنين. ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي: يخفون، ويضمرون من الكفر، والنفاق. وانظر شرح: ﴿يَكْتُمُونَ﴾ في الآية رقم [٧١]

هذا؛ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف زمان مضاف لظرف آخر، والتنوين فيه ينوب عن جملة محذوفة، دلت عليها الغاية، فإنَّ الأصل: يوم إذ جاءت قريش ورأَوْها. و(إذ) مضافة لهذه الجملة، فحذفت الجملة الفعلية، وعوِّض عنها التنوين، وكسرت الذال لالتقاء الساكنين، كما كسرت في: «صهٍ، ومهٍ» عند تنوينهما، ومثل ذلك قل في: «حينئذٍ، وساعتئذٍ» ونحو ذلك.

﴿وَلِيَعْلَمَ﴾: إعرابه مثل إعراب ما قبله، والجار والمجرور الناتجان منه معطوفان على مثلهما، والفاعل مستتر، تقديره: هو يعود إلى: ﴿اللَّهُ﴾ أيضاً. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به. ﴿نَافَقُوا﴾: فعل وفاعل، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. (قِيْلَ): فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. وقيل: هما في محل رفع نائب فاعله. وقيل: نائب الفاعل ضمير مستتر، تقديره: هو، يعود إلى مصدر الفعل. ﴿تَعَالَوْا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. وقيل: في محل رفع نائب فاعل: (قيل)، وهذا على قول مَن يجيز وقوع الجملة فاعلاً، ومفعولاً، ويكون جارياً على القاعدة في بناء الفعل للمجهول: «يحذف الفاعل، ويقام المفعول به مقامه». وهذا لا غبار عليه. قال ابن هشام ـ رحمه الله في المغني ـ: فليس هذا من باب الإسناد إلى الجملة؛ لما بيَّنا؛ أي: من أنَّ الجملة إذا قصد لفظها، يحكم لها بحكم المفردات، فيجوز حينئذٍ وقوعها مبتدأ، وفاعلاً، أو نائباً عنه، ومثَّل لذلك في شذور بقول النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**» انظر الشاهد رقم [٧٩٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك.

﴿قَاتِلُوا﴾: فعل أمر، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مثل سابقتها في المحل، وإنما لم يكن بحرف العطف؛ لأنَّه أراد أن يكون كلٌّ من الجملتين مقصودةً بنفسها. وقيل: الثانية في محل نصب حال، ولا وجه له؛ لأنَّها إنشائية. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿اللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿أَوِ﴾: حرف عطف. ﴿ادْفَعُوا﴾: فعل أمر، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وجملة: (وقيل. . .) إلخ تحتمل العطف على جملة: ﴿نَافَقُوا﴾ فتكون داخلة في حيز الموصول، وتحتمل الاستئناف.

﴿قَالُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضمِّ، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿نَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن. ﴿قِتَالًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ﴾: اللام: واقعة في جواب: ﴿لَوْ﴾. (اتبعناكم): فعل ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها، و﴿لَوْ﴾ ومدخولها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا۟...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿هُمْ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لِلْكُفْرِ﴾: متعلقان بـ ﴿أَقْرَبُ﴾ بعدهما، وكذلك ﴿لِلْإِيمَٰنِ﴾ متعلقان به، وإن كان بمعنى واحد، وجاز أن يعمل: ﴿أَقْرَبُ﴾ فيهما؛ لأنهما يشبهان الظرف، وكما عمل «أطيب» في قولهم: «هذا بسراً أطيب منه رطباً» في الظرفين المقدَّرين؛ لأن أفعل يدل على معنيين: على أصل الفعل، وزيادة، فيعمل في كلٍّ واحدٍ منهما بمعنىً غير الآخر، فتقديره: يزيد قربهم إلى الكفر على قربهم إلى الإيمان. انتهى أبو البقاء. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: ﴿أَقْرَبُ﴾ أيضاً، و(إذا): ظرف لما مضى من الزَّمان مبني على السكون في محل جرٍّ بالإضافة، وحرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين، وانظر ما ذكرته في الشرح. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿أَقْرَبُ﴾ أيضاً، والجملة الاسمية: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من واو الجماعة بـ ﴿قَالُوا۟﴾ فلست مفنداً، والرابط: الضمير فقط.

﴿يَقُولُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿بِأَفْوَٰهِهِم﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محلِّ جرٍّ بالإضافة. ﴿مَّا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به، وساغ ذلك؛ لأنها بمعنى: كلام كثير. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى ﴿مَّا﴾، وهو العائد، أو الرابط. ﴿فِى قُلُوبِهِمْ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿لَيْسَ﴾ وجملة: ﴿لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ صلة: ﴿مَّا﴾ أو صفتها، وجملة: ﴿يَقُولُونَ...﴾ إلخ تحتمل الاستئناف، وأن تكون في محل نصب حال منَ الضمير المجرور محلّاً (مِنْ)، والرابط: الضمير فقط، وهي حال متداخلة من وجهٍ واحد. (الله): مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبره. ﴿بِمَا﴾ جار ومجرور متعلقان بـ (أعلم) لأنه بمعنى: عالم، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بالباء، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: أعلم بالذي، أو بشيءٍ يكتمونه في قلوبهم، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، التقدير: أعلم بكتمانهم النفاق. والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. والاستئناف ممكن بالإعراض عمَّا قبل الجملة الاسمية. تأمَّل، وتدبر، وربُّك أعلم.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في عبد الله بن أُبَيٍّ المنافق، وأصحابه. وفي المراد بـ (إخوانهم) قولان: أحدهما: أنَّ المراد بـ (إخوانهم): الذين استشهدوا بأحدٍ، فيكون (إخوانهم) في النسب لا في الدين. والقول الثاني: أن المراد بـ (إخوانهم): المنافقون. فعلى القول الأول يكون معنى الآية: الذين قالوا في إخوانهم، أو عن إخوانهم الذين قتلوا بأُحُدٍ: لو أطاعونا ما قُتلوا. وعلى القول الثاني يكون معنى الآية: الذين قالوا: وهم ابن أُبَيٍّ، وأصحابه لإخوانهم في النفاق.

﴿وَقَعَدُوا۟﴾ أي: قالوا هذا القول، وقعدوا بأنفسهم عن القتال. ﴿قُلْ﴾: خطاب للرسول ﷺ. ﴿فَٱدْرَءُوا۟﴾: فادفعوا، والدرء: الدفع. قال الرسول ﷺ: «**ادْفَعُوا الحدودَ بالشُّبُهَاتِ**». ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: إن كنتم صادقين بقولكم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾؛ فادفعوا الموت عن أنفسكم، يعني: أن الحذر لا ينفع من القدر. وفي الآية دليلٌ على أنَّ المقتول يموت بأجله، خلافاً لمن يزعم من المعتزلة، وغيرهم: أن القتل يقطع على المقتول أجله، روي: أنَّه مات يوم قالوا هذه المقالة سبعون منافقاً. قال أبو الليث السَّمرقندي: سمعت بعض المفسِّرين بسمرقند يقول: لمَّا نزلت الآية؛ مات سبعون نفساً من المُنافقين. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، ويجوز أن يكون في محل رفع بدلاً من الواو في: ﴿يَكْتُمُونَ﴾، وأن يكون في محل رفع مبتدأ خبره: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟﴾ وهذا ضعيف جدّاً، ويجوز أن يكون في محل نصب على الذم بفعل محذوف، ويجوز أن يكون في محل جرٍّ بدلاً من الضمير المجرور محلّاً بالإضافة في قوله: ﴿بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ ومثله قول الفرزدق: [الطويل]

عَلَى حَالَةٍ لَوْ أَنَّ فِي الْقَوْمِ حَاتِمَاً ... عَلَى جُودِهِ لَضَنَّ بِالْمَاءِ حَاتِمُ

﴿قَالُوا۟﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَقَعَدُوا۟﴾: الواو: واو الحال. (قعدوا): ماض وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، وهي على تقدير «قد»قبلها. وقيل: معطوفة على جملة الصلة. ﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿أَطَاعُونَا﴾: فعل وفاعل ومفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها... إلخ. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿قُتِلُوا۟﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والجملة الفعلية جواب: ﴿لَوْ﴾ لا محلَّ لها، و﴿لَوْ﴾ ومدخولها في محل نصب مقول القول. ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلْمَوْتَ﴾ مفعول به.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿صَٰدِقِينَ﴾: خبره منصوب... إلخ، والجملة الفعلية لا محلَّ لها... إلخ، وجواب الشرط محذوف. انظر تقديره في الشَّرح. و﴿إِن﴾ ومدخولها كلام معترض في الآخر، لا محل له، المراد منه تحدِّيهم، وإظهار كذبهم.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾

الشرح: لا تزال الآيات الكريمة تتابع أحداث غزوة أُحُدٍ، وتكشف عن أسرار المنافقين، ومواقفهم المخزية لهم في الدُّنيا، والآخرة، وبينت ما أعدَّ الله من الكرامة للشهداء شهداء أحد وغيرهم إلى يوم القيامة، فهي عامَّةٌ في جميع الشهداء، فقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ؛ جعلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ، فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ؛ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا: أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الجنَّةِ، نُرْزَقُ؛ لِئَلَّا يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلَا يَنْكلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟! فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ، قَالَ: فأنزل اللهُ**: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟﴾ إلى آخر الآيات.

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: لقيني رسول الله ﷺ، فقال: «**يَا جَابِرُ! مَالِي أَرَاكَ مُنكِّسَاً مُهْتَمَّاً؟!**». قلت: يا رسول الله استشهد أبي، وترك عيالاً، وعليه دين، فقال: «**أَلا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بِهِ أَبَاكَ؟**» قلت: بلى يا رسول الله! قال: «**إِنَّ اللهَ أَحْيَا أَبَاكَ، وَكَلَّمَهُ كِفَاحَاً** (مواجهةً) **وَمَا كَلَّمَ أَحَداً قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدِي! تَمَنَّ؛ أُعْطِكَ، قَالَ: يَا رَبِّ، فَرُدَّنِي إِلَى الدُّنْيَا، فَأُقْتَلَ فِيكَ ثَانِيةً، فَقَالَ الربُّ ـ تبارك وتعالى ـ: إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي: أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ، قَالَ: يَا رَبِّ فَأَبْلِغْ مَنْ وَرَائِي، فأنزل الله عز وجل**: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟...﴾ إلخ». رواه ابن ماجه، والترمذي، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٥٤]: من سورة (البقرة). وخذ هنا ما يلي:

فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ أعرابيّاً أتى النبيَّ ﷺ، فقال: يا رسول الله! الرجلُ يقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ، والرجل يقاتل؛ لِيُذْكَرَ، والرجل يقاتل؛ لِيُرَى مكانه؛ فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سبيلِ اللهِ**». أخرجه الشيخان، وغيرهما.

وينبغي أن تعلم: أنَّ الشهيد ثلاثة أنواع: شهيدٌ في الدنيا، والآخرة، وشهيدٌ في الدنيا، وشهيد في الآخرة فقط، فالأول: من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، والثاني: من قَاتَلَ لِلمَغْنَم، أو ليذكر، أو لغرض من أغراض نفسه الدنيوية، والثالث: خذه ممَّا يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فيكُمْ؟**» قالوا: يا رسول الله مَنْ قُتِلَ في سبيل الله؛ فهو شهيدٌ. قال: «**إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذاً لَقَلِيلٌ**» قالوا: فمن هم

يا رسول الله؟! قال: «**مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعونِ؛ فهو شهيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي البَطْنِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ**». أخرجه مسلم. وفي روايةٍ لمالكٍ، والبخاريِّ، والترمذي: «**الشهداءُ خَمْسَةٌ: الْمَطْعُونُ، وَالمبْطُونُ، والغَرِيقُ، وصاحِبُ الهَدْمِ، والشهيدُ فِي سَبيلِ اللهِ**». وفي روايةٍ لأبي داود، والنسائي: «**وَمَا تَعُدُّونَ الشَّهَادَةَ؟**» قالوا: القتل في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «**الشَّهَادَةُ سَبعٌ سِوَى الْقَتلِ فِي سبيلِ اللهِ: المبطُونُ شهيدٌ، وَصَاحبُ الْحَرِيقِ شهيدٌ، والغَرِيقُ شهيدٌ، وَصَاحِبُ ذاتِ الجَنْبِ شَهِيدٌ، والمطعونُ شَهِيدٌ، والَّذي يَمُوتُ تَحْتَ الهَدْمِ شَهِيدٌ، وِالْمَرأَةُ تَموتُ بِجمعٍ شهيدٌ**».

وعن سعيد بن زيد ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ قُتِلَ دُوْنَ مَالِهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دَمِهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ دِينِهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ قُتِلَ دُونَ أَهْلِهِ؛ فَهُوَ شَهِيدٌ**». رواه أبو داود، وغيره. والأحاديث في ذلك كثيرة. ولا تنس الطِّباق بين: ﴿أَحۡيَآءٌ﴾ و﴿أَمۡوَٰتَۢا﴾ فهو من المحسنات البديعية.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَحۡسَبَنَّ﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محل جزم بـ (لا) الناهية، والنون حرف لا محلَّ له، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به أول، ويقرأ الفعل بياء المضارعة، وعليه فـ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ فاعله، ويكون المفعول الثاني محذوفاً. ﴿قُتِلُواْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿أَمۡوَٰتَۢا﴾: مفعول به ثان، وجملة: ﴿قُتِلُواْ...﴾ إلخ صلة الموصول لا محل لها، وجملة: (لا تحسبن...) إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿بَلۡ﴾: حرف عطف، وإضراب مبتدأ بعده. ﴿أَحۡيَآءٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: «بل هم أحياء»: الجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿عِندَ﴾: فيه خمسة أوجه: **أحدها**: أن يكون خبراً ثانياً للمبتدأ. **الثاني**: أن يكون ظرفاً لـ﴿أَحۡيَآءٌ﴾. **الثالث**: أن يكون ظرفاً لـ﴿يُرۡزَقُونَ﴾ بعده. **الرابع**: أن يكون نعتاً لـ ﴿أَحۡيَآءٌ﴾. الخامس: أن يكون حالاً من الضمير المستكن في: ﴿أَحۡيَآءٌ﴾. والمراد في كل ذلك متعلَّق الظرف، لا الظرف نفسه، و﴿عِندَ﴾: مضاف، و﴿رَبِّهِمۡ﴾: مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿يُرۡزَقُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع... إلخ، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والثاني محذوف. والجملة الفعلية فيها أربعة أوجه: **أحدها**: أنها خبر ثالث للمبتدأ، أو ثان؛ إذا لم نجعل الظرف خبراً. **الثاني**: أنها صفة لـ ﴿أَحۡيَآءٌ﴾. **والثالث**: أنها حال من الضمير في ﴿أَحۡيَآءٌ﴾. **الرابع**: أنها حال من الضمير المستكن في الظرف. والمراد في كل ذلك: أنَّها في محل... إلخ.

﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَرِحِينَ...﴾ إلخ أي: الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله أحياء عند ربهم، وهم فرحون بما هم فيه من النِّعمة، ومستبشرون بإخوانهم الَّذين يُقتلون بعدهم في سبيل الله: أنَّهم يقدمون عليهم، وأنهم لا يخافون ممَّا أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم. وقال محمد بن إسحاق ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: ويسرُّون بلحوق مَنْ لحقهم من إخوانهم على ما مضوا عليه من جهادهم، ليشركوهم فيما هم فيه من ثواب الله الذي أعطاهم.

وقال السُّدِّي ـ رحمه الله تعالى ـ: يؤتى الشهيد بكتاب، فيه: يقدم عليك فلانٌ يوم كذا، وكذا، ويقدُم عليك فلانٌ يوم كذا، وكذا، فيسرُّ بذلك، كما يسرُّ أهل الدُّنيا بغائبهم إذا قدم عليهم.

هذا؛ والاستبشار: هو الفرح، والسرور الذي يحصل للإنسان عند البشارة. وأصله: من البشرة؛ لأن الإنسان إذا فرح ظهر أثر السرور في وجهه. وانظر الفرح في الآية رقم [١٨٨] الآتية.

الإعراب: ﴿فَرِحِينَ﴾ فيه أربعة أوجه: أحدها: أنه حال من واو الجماعة في: ﴿يُرْزَقُونَ﴾. والثاني: أنه حال من الضمير في: ﴿أَحْيَآءٌ﴾. والثالث: أنه حال من الضمير المستكن في الظرف. والرابع: أنه منصوب على المدح بفعل محذوف. وأقواها أولها. فهو منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. هذا وقرأ ابن أبي عبلة شاذّاً: (فرحون) على أنَّه نعت لـ ﴿أَحْيَآءٌ﴾ أو خبر متعدد للمبتدأ المقدَّر قبله. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿فَرِحِينَ﴾ و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء. ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي أو بشيءٍ آتاهم الله إيَّاه. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير الواقع مفعولاً ثانياً، و﴿مِن﴾ بيان لما أبهم في (ما)، ﴿وَيَسْتَبْشِرُونَ﴾: الواو: حرف عطف. (يستبشرون): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على محل: ﴿فَرِحِينَ﴾ فهي في محل نصب حال مثله، أو هي في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: وهم يستبشرون، وعليه فالجملة اسمية، وهي في محل نصب حال من الضمير المستتر في: ﴿فَرِحِينَ﴾ فهي حال متداخلة. ﴿بِٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَلْحَقُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾ وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿بِهِم﴾: جار، ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنْ خَلْفِهِمْ﴾: متعلقان

بمحذوف حال من واو الجماعة، التقدير: لم يلحقوا بهم حال كونهم متخلِّفين عنهم، أي: متأخِّرين في الحياة، والهاء في محلِّ جرٍّ بالإضافة.

﴿أَلَّا﴾: (أن): حرف مشبه بالفعل مخفف من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنه. (لا): نافية مهملة. ﴿خَوْفٌ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، أو هما متعلقان بـ ﴿خَوْفٌ﴾ أو بمحذوف صفة له، وعليهما فالخبر محذوف، التقدير: لا خوف عليهم موجود، والجملة الاسمية هذه في محل رفع خبر (أَنْ) المخففة من الثَّقيلة، و(أَنْ) واسمها المحذوف وخبرها في تأويل مصدر في محل جر بدل من (الذين). أو في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: بأن لا . . .إلخ، والجار والمجرور على هذا بدل من قوله: (الذين)، التقدير: بعدم الخوف عليهم. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿هُمْ﴾: مبتدأ، وجملة: ﴿يَحْزَنُونَ﴾ خبره، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها فهي في محل رفع مثلها.

﴿۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾

الشرح: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ...﴾ إلخ: واو الجماعة عائدة على: ﴿ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ وكرر الفعل للتأكيد. ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بأجرٍ، وثوابٍ، وهو الجنَّة، وما أعدَّه الله فيها للمجاهدين، وغيرهم من المؤمنين. ﴿وَفَضْلٍ﴾: زيادة على الأجر والثَّواب، وهو النظر لوجهه الكريم، كما قال تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ وقوله تعالى في سورة (ق): ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: لا يبطل ثوابهم، ولا يمحق بركته، وهو يُشْعِر بأنَّ مَنْ لا إيمان له يُحبط أجره من جميع الأعمال الصالحة التي يعملها.

تنبيه: بيَّن الله عز وجل في الآية السابقة: أن الشهداء يستبشرون بالَّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، وبيَّن في هذه الآية: أنهم يستبشرون أيضاً لأنفسهم بما رُزقوا من النعيم والفضل، فالاستبشار الأوَّل كان لغيرهم، والثَّاني كان لأنفسهم خاصَّةً. وخذ ما يلي:

عن المقداد بن مَعْدِ يكرب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يَغْفِرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دُفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَه مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الْفَزَعِ الأكبرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الْوقَارِ، الْيَاقُوتة منها خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الْحُورِ الْعِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**». أخرجه التّرمذيُّ، وابن ماجه.

وعنه ﷺ: أنه قال: «**أكرمَ اللهُ الشهداءَ بِخَمْسِ كَرَامَاتٍ، لَمْ يُكْرِمْ بِهَا أَحَداً مِنَ الأَنْبياءِ، وَلَا أَنَا: أَحَدُهَا: أَنَّ جميعَ الأَنْبيَاءِ قَبْضَ أَرْوَاحَهُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَهُوَ الذي سَيَقْبِضُ رُوحِي، وَأَمَّا**

الشهداءُ فَاللهُ هُوَ الَّذي يَقْبِضُ أَرْوَاحَهُمْ بِقُدْرَتِهِ، كَيْفَ يَشَاءُ، وَلَا يُسلَّطُ عَلَى أَرْوَاحِهِمْ مَلَكُ الْمَوتِ. والثَّانِي: أَنَّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ قَدْ غُسِّلُوا بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَنَا أُغَسَّلُ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَالشُّهْدَاءُ لا يُغَسَّلُونَ، وَلَا حَاجَةَ لَهُمْ إِلَى مَاء الدُّنْيَا. وَالثَّالِثُ: أَنَّ جَمِيعَ الأَنْبِيَاءِ قَدْ كُفِّنُوا وَأَنَا أُكَفَّنُ، وَالشُّهَدَاءُ لَا يُكَفَّنُونَ، بَلْ يُدْفَنُونَ فِي ثِيَابِهِمْ. والرابع: أَنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمَّا مَاتُوا سُمُّوا: أَمْوَاتاً، وَإِذَا مِتُّ قَالُوا: مَاتَ، والشُّهداء لَا يُسَمَّوْنَ أَمْوَاتاً. والخامِسُ: أَنَّ الأَنْبِيَاءَ تُعْطَى لَهُمُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَشَفَاعَتِي أَيْضاً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَأَمَّا الشُّهَدَاءُ فَإِنَّهُمْ يَشْفَعُونَ كُلَّ يَوْمٍ فِيمَنْ يَشْفَعُونَ». انتهى قرطبي.

الإعراب: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية فيها أوجه: أحدها: أنَّها مستأنفة، والثاني: أنَّها توكيد للأولى، وإليه ذهب الزمخشري، والبيضاوي. والثالث: أنَّ الفعل بدل من الأول. ﴿بِنِعْمَةٍ﴾: متعلِّقان بما قبلهما. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ (نعمة) أو بمحذوف صفة له.

﴿وَفَضْلٍ﴾: معطوف على سابقه، (أنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُضِيعُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الله. ﴿أَجْرَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مضاف إليه مجرور، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (أنَّ). و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل جرٍّ معطوف على نعمة، هذا ويقرأ بكسر همزة (إنَّ) على أن الجملة الاسمية في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط: الواو: وإعادة الاسم الكريم بلفظه. وقيل: مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾: لبَّوْا نداء الرسول ﷺ حين دعاهم للخروج بعد غزوة أُحُد. هذا؛ و﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾ بمعنى: أجابوا، فليست السين، والتاء للطلب، مثل قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ فإنه بمعنى: أوقد، ومنه قول كعب بن سعد الغنوي من قصيدة يرثي فيها أخاه شبيباً، ومن أبياتها الشاهد رقم [٧٢٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

وَدَاعٍ دَعَا مَنْ ذا يُجِيبُ إِلَى النَّدى فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَاكَ مُجِيبُ

أي: يجبه عند ذاك مجيب. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾ انظر الآية رقم [١٤٠]. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟﴾ أي: العمل، وعملوا بما يرضي الله. هذا وروي: أن أبا سفيان، وأصحابه لمَّا قفلوا راجعين بعد غزوة أحد، ونالوا من المسلمين ما نالوا، فبلغوا الرَّوحاء؛ ندموا، وهمُّوا بالرجوع إلى المدينة؛ ليستأصلوا المسلمين قبل أن يستعيدوا قواهم، فبلغ رسول الله ﷺ ذلك، فندبَ

أصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، وقال: لا يخرجنَّ معنا إلا مَنْ حضر يومنا بالأمس. فخرج معه جماعةٌ من أصحابه؛ حتَّى بلغوا حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وكان بأصحابه القَرْحُ الذي أصابهم يوم أُحُد، فتحاملوا على أنفسهم؛ حتَّى لا يفوتهم الأجر، وألقى الله الرُّعب في قلوب المشركين، فذهبوا إلى مكَّة المكرمة، ونزلت تلك الآية، وما بعدها.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة لـ: ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أو بدل منه، أو هو في محل نصب على المدح بفعل محذوف، أو هو في محل رفع مبتدأ، خبره الجملة الاسمية الآتية. ﴿ٱسْتَجَابُواْ﴾ فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلقان بما قبلهما أيضاً. ﴿مَآ﴾: مصدرية تؤول مع الفعل بعدها في محل جر بإضافة ﴿بَعْدِ﴾ إليه، التقدير: من بعد إصابة القرح إياهم. هذا؛ وقال مكي: ﴿مِنۢ بَعْدِ...﴾ إلخ: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وهذا على اعتباره مبتدأ. ﴿أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾: ماض، ومفعوله، وفاعله. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَحْسَنُواْ﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان به، والجملة الفعلية صلة الموصول، والمفعول محذوف، كما رأيت تقديره في الشرح. ﴿وَٱتَّقَوْاْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة التي هي فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها، والمفعول محذوف، التقدير: اتقوا الله. (أجر): مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفته، والجملة الاسمية: ﴿لِلَّذِينَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها على الوجهين الأوَّلين في (الَّذين) الأول. وعلى قول مكي المتقدِّم، أو هي في محل رفع خبره على اعتباره مبتدأ.

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: المراد بهم: أصحاب النبي ﷺ. ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾: المراد به: نُعَيم بن مسعود الأشجعي قبل أن يسلم، وأطلق عليه لفظ الناس؛ لأنه من جنسهم، كما يقال: فلان يركب الخيل، وماله إلا فرس واحد، أو لأنه انضم إليه ناس من المدينة، أي: من المنافقين، وأذاعوا كلامه. وانظر الآية رقم [٥٤] من سورة (النساء). ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ﴾: المراد به: أبو سفيان، وقومه، ومَنِ انضمَّ إليهم من حلفائهم. ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾: خافوهم. والماضي: خشي، والمصدر: خشية، والرجل خَشْيَانُ، والمرأة خَشْيَا، وهذا المكان أخشى مِنْ ذاك، أي: أشد خوفاً، وقد يأتي «خشي» بمعنى: «علم» القلبية، قال الشاعر المسلم: [الكامل]

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنَّ مَنْ تَبِعَ الْهُدَى سَكَنَ الْجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

قالوا: معناه: علمت، وقوله تعالى في سورة (الكهف) حكايةً عن قول الخضر ـ عليه السلام ـ: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا﴾ قال الأخفش: معناه: كرهنا. هذا؛ والخشية: أصلها طمأنينة في القلب تبعث على التوقِّي. والخوف: فزع في القلب تخفُّ له الأعضاء، ولخفة الأعضاء سمِّي خوفاً. ﴿فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾: تصديقاً بالله، وثقةً بوعده. هذا؛ وزاد، يزيد ضد: نقص، ينقص، يكون لازماً، كقولك: زاد المال درهماً، ويكون متعدياً لمفعولين، كما في الآية التي بين أيدينا، وقولك: زاد الله خالداً خيراً، بمعنى: جزاه الله خيراً، وأما قولك: زاد المال درهماً، والبرُّ مدّاً؛ فدرهماً، ومدّاً تمييز، ومثله قل في: نقص، فمن المتعدي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمۡ يَنقُصُوكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ ومن اللازم قوله تعالى: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ﴾.

تنبيه: أفادت الآية الكريمة: أن الإيمان يزيد، وينقص، ومثلها قوله تعالى في سورة (الأنفال): ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا﴾ وكذلك الكفر، والنفاق يزيد، وينقص، قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾، قال تعالى في سورة (التوبة): ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ...﴾ إلخ. انظر شرح الآيتين في محلهما. ويعضد ذلك قول ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: قلنا: يا رسول الله! الإيمان يزيد، وينقص؟ قال: «**نَعَمْ، يَزِيدُ؛ حَتَّى يُدْخِلَ صَاحِبَهُ الْجَنَّةَ، وَيَنْقُصُ؛ حَتَّى يُدْخِلَ صَاحِبَهُ النَّارِ**». وقال ﷺ: «**لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيْمَانِ هَذِهِ الأُمَّةِ؛ لَرَجَحَ بِهِ**». وهذا هو المعتمد إن شاء، وهو مذهب الأشاعرة.

تنبيه ـ روي: أنا أبا سفيان نادى عند انصرافه من أُحُد: يا محمد! موعدنا موسم بدر القابل؛ إن شئت. فقال عليه الصلاة، والسَّلام: إن شاء الله، فلمَّا كان العام القابل خرج في أهل مكة؛ حتَّى نزل بِمَرِّ الظهران، فأنزل الله الرُّعب في قلبه، كما وعد الله بقوله: ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ...﴾ إلخ، وبدا له أن يرجع، فلقي نُعيم بن مسعود الأشجعي، وقد قدم مكة معتمراً، فسأله أن يذهب إلى المدينة، ويثبِّط همم المسلمين، ويخوفهم، وقد التزم له عشراً من الإبل، فخرج نُعيم إلى المدينة، فوجد المسلمين يتجهزون للخروج، فقال لهم: أتوكم في دياركم فلم يفلت منكم إلا الشديد. يريد ما حصل في غزوة أحد من انكسار المسلمين، أفترون أن تخرجوا؛ وقد جمعوا لكم؟! ففتروا، فقال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لأَخْرُجَنَّ، وَلَو لَمْ يخرجْ معي أَحَدٌ!**» فخرج المسلمون معه؛ وهم يقولون: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ ولم يلتفتوا إلى ما قاله نُعيم، حتى بلغوا بدراً الصُّغرى، وكانت موضع سوق للعرب، يجتمعون فيها كل عام ثمانية أيام، فأقام المسلمون تلك المدة في بدرٍ، وصادفوا الموسم، وباعوا ما كان معهم من التجارات، فربحوا الدرهم درهمين، ولم يأتهم أحدٌ من أهل مكّة. وهذا ما تفيده الآية التالية.

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ أي: كافينا الله. وروى البخاري عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

﴿ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ...﴾ إلخ قالها إبراهيم الخليل ـ عليه الصلاة والسلام ـ حين أُلْقِي في النار، وقالها محمد ﷺ حين ﴿قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ وورود «حسب» بمعنى: كافٍ كثير في القرآن مع إضافته لجميع الضمائر. قال الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [٩٦٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

إِذَا كَانَتِ الْهَيْجَاءُ وَانْشَقَّتِ الْعَصَا فَحَسْبُكَ وَالضَّحَّاكِ(١) سَيفٌ مُهَنَّدُ

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل من سابقه على جميع الوجوه فيه. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿جَمَعُوا۟﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿فَٱخْشَوْهُمْ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (اخشوهم): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب لشرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ذلك واقعاً وصحيحاً؛ فاخشوهم. والكلام كلُّه في محل نصب مقول القول. ﴿فَزَادَهُمْ﴾: الفاء: حرف عطف. (زادهم): فعل ماض، والفاعل محذوف يدل عليه المقام، أي: فزادهم قول الناس، مثل قوله تعالى في سورة (الواقعة): ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ وقوله تعالى في سورة (القيامة): ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ﴾. انظرهما في محلِّهما، والهاء مفعول به أول. ﴿إِيمَٰنًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة، لا محل لها مثلها. (قَالُوا): ماض وفاعله. ﴿حَسْبُنَا﴾: مبتدأ، و(نا): في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله ضمير مدلول عليه بلفظ الجلالة. ﴿ٱللَّهُ﴾: خبر لمبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقَالُوا۟...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿وَنِعْمَ﴾: الواو: حرف عطف. (نعم): فعل ماض جامد لإنشاء المدح. ﴿ٱلْوَكِيلُ﴾: فاعله، والمخصوص بالمدح محذوف، التقدير: ونعم الوكيل الممدوح الله. والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾

الشرح: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ...﴾ إلخ؛ أي: رجع المسلمون من بدر الصغرى بربحٍ عظيمٍ، وسلامة، وسرور كما رأيت في الآية السابقة. ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾: لم يصبهم أذىً مِنْ جرح، أو

(١) روي بالفتح، والضم، والكسر، ولكلٍّ تأويله. انظره في المصدر المشار إليه.

قتل، أو كيد عدوٍّ. ﴿وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ﴾: عملوا بما يسبب رضوان الله. ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾: الله صاحب كرمٍ، وجودٍ، وإحسانٍ على عباده المؤمنين الممتثلين أوامره المجتنبين نواهيه، وقد تفضَّل عليهم بالتثبيت، وزيادة الإيمان، والتوفيق إلى المبادرة إلى الجهاد، والتصلُّب في الدِّين، وإظهار الجرأة على العدو، وبالحفظ من كل ما يَسُوءُهم، وإصابة النفع مع ضمان الأجر، والرِّضا، والرِّضوان، والعفو، والغفران. والحمد لله ربِّ العالمين.

الإعراب: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: خرجوا مع النبي ﷺ، فانقلبوا، والكلام مستأنف لا محل له. ﴿بِنِعۡمَةٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: (نعمة)، أو هما متعلقان به. ﴿وَفَضۡلٍ﴾: معطوف على (نعمة)، وحذف متعلقة اكتفاءً بما قبله. ﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَمۡسَسۡهُمۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّمۡ﴾ والهاء مفعول به. ﴿سُوٓءٞ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال. من واو الجماعة، التقدير: غير ممسوسين بسوء. ﴿وَٱتَّبَعُواْ﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق. ﴿رِضۡوَٰنَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِۗ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله ضمير فيه، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿فَٱنقَلَبُواْ﴾ لا محل لها مثلها، أو هي معطوفة على ما قبلها، فتكون في محل نصب حال مثلها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال، أو واو الاعتراض. (الله): مبتدأ. ﴿ذُو﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنه من الأسماء الخمسة، و﴿ذُو﴾: مضاف، و﴿فَضۡلٍ﴾: مضاف إليه. ﴿عَظِيمٍ﴾: صفة: ﴿فَضۡلٍ﴾ والجملة الاسمية في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط الواو وإعادة الاسم الكريم بلفظه. وقيل: معترضة في آخر الكلام، الغرض منها بيان فضل الله، وجوده على عباده المؤمنين.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ المراد به: أبو سفيان، أو نعيم بن مسعود؛ الذي تقدَّم ذكره. قال أبو حيان: وإنما نسب إلى الشَّيطان؛ لأنه ناشئ عن وسوسته، وإغوائه، وإلقائه. فيكون في الكلام استعارة. وانظر شرح ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ في الآية رقم [٢٦٨]: من سورة (البقرة). ﴿يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾: أتباعه، وأنصاره القاعدين عن الخروج مع الرَّسول ﷺ، وهم المنافقون. أو المعنى: يخوفكم بأوليائه، فحذف حرف الجر، والضمير، ووصل الفعل إلى الاسم، فنصبه.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ﴾ أي: لا تخافوا أولياء الشيطان، ولا تقعدوا عن قتالهم. والمراد: الكافرون المذكورون فيما سبق. ﴿وَخَافُونِ﴾ أي: خافوني في ترك أمري، وجاهدوا في سبيلي مع رسولي، فإنِّي وليُّكم، وناصركم على أعدائي، وأعدائكم. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: مصدِّقين بوعدي أنى متكفِّل لكم بالنَّصر، والظفر؛ لأنَّ الإيمان يقتضي أن يؤثر العبد خوف الله على خوف غيره.

هذا؛ والخوف: الذُّعر، والرعب. وأما التَّخَوُّف؛ فهو التنقُّص، كما في قوله تعالى في الآية رقم [٤٧] من سورة (النحل): ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. يروى: أنَّ عمر الفاروق ـ رضي الله عنه ـ. قال على المنبر: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ فسكتوا، فقام شيخ مِنْ هُذيل، فقال: هذه لغتنا التخوُّف: التنقُّص، قال: فهل تعرف العرب هذا في أشعارهم؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهُذلي: [البسيط]

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكاً قَرِداً كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أيها الناس عليكم بديوانكم، لا تَضِلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم. وأصل الخوف في الباطن يحصل من توقع مكروهٍ، يقع في المستقبل، وقد أمرنا الله في هذه الآية بأن نخافه، ونخشاه، كما أمر سلفنا الصالح بذلك، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي﴾ وقال في سورة (المائدة): ﴿فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾ وقال مخاطباً نبيه وحبيبه ﷺ في سورة (الأحزاب): ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ وخذ ما يلي من قول نبينا، وحبيبنا ﷺ في الخوف:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ فيما يروي عن ربِّه جلَّ، وعلا: أنَّه قال: **«وَعِزَّتِي لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ، وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا؛ أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**. رواه ابن حبَّان في صحيحه. وعن أبي ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ حتَّى ختمها، ثمَّ قال: **«إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ، مَا فِيهَا مَوْضِعُ قَدَمٍ إِلَّا مَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِداً للهِ، واللهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ؛ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلاً، وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً، وَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاء عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجَأَرُونَ إِلَى اللهِ! وَاللهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْضَدُ!»**. رواه البخاريُّ باختصار، والترمذيُّ، إلا أنه قال: **«مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ»**. ورغب النبي ﷺ في البكاء. فخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كُلُّ عَيْنٍ بَاكِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا عَيْنٌ غَضَّتْ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، وَعَيْنٌ سَهِرَتْ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَعَيْنٌ خَرَجَ مِنْهَا مِثْلُ رَأْسِ الذُّبَابِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ عزَّ وجل»**. رواه الأصبهاني، وانظر التَّرغيب والترهيب؛ إن أردت الزيادة.

لذلك كان الخوف من الله شعار المغربين، وقرين المهتدين، وكان بشير النجاة، والأمان الأكبر عند الله، وكان طريقاً لهداية القلوب النافرة، وسبيلاً لسلوك النفوس الحائرة، من استضاء بنوره؛ وصل، ومن تمسك بحبله؛ رشد، ومن أخذ نفسه به؛ فقد هُديَ إلى صراط مستقيم. من خاف؛ سلم، ومن أطاع مولاه؛ غنم، ومن خاف ربَّه، وخشي ذنبه؛ استقام، واهتدى؛ لأنه

علم: أنَّ العمل اليوم، وأنَّ الحساب غداً، لذلك كان الخوف من الله طريق الأنبياء، وحلية الأصفياء من الأتقياء، وخوف الرَّسول ﷺ وخوف صحابته: أبي بكر، وعمر، وعلي، وعبد الله بن رواحة ـ رضوان الله عليهم ـ محفوظٌ، ومعروفٌ في بطون الكتب.

الإعراب: ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. الشَّيطان: خبره. ﴿يُخَوِّفُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ والمفعول الأول محذوف، انظر الشرح. ﴿أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾: مفعول به ثان، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ والعامل في الحال اسم إشارة، مثل قوله تعالى حكاية عن قول سارة: ﴿وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًا﴾ هذا؛ ويجوز اعتبار ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ بدلاً من اسم الإشارة، فتكون الجملة الاسمية في محل رفع خبر الأول، كما أجيز اعتبار الجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿فَلَا﴾: الفاء: هي الفصيحة. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَخَافُوهُمۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جملة جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً، وحاصلاً؛ فلا تخافوهم، وهذا الكلام مستأنف لا محل له. (خَافُونِ): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والنون للوقاية، وياء المتكلم المحذوفة المدلول عليها بالكسرة في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾: تقدم إعرابها كثيراً.

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾

الشرح: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ...﴾ إلخ: نزلت الآية في قوم أسلموا، ثمَّ ارتدوا عن الإسلام خوفاً من المشركين، فاغتمَّ الرسول ﷺ لذلك. وقيل: هو عامٌّ في جميع الكفَّار.

ومسارعتهم في الكفر: المظاهرة على حرب الرَّسولﷺ. قال القشيري ـ رحمه الله تعالى ـ: الحزن على كفر الكافر طاعة، ولكنَّ النبيَّ ﷺ كان يفرط في الحزن على كفر قومه، فنهي عن ذلك، كما قال تعالى له: ﴿فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ﴾ وقال جلَّ ذكره، وتعالى شأنه: ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا﴾. هذا؛ والحزن: ضدُّ السرور، ولا يكون إلا على ماضٍ، وحزن الرَّجل، وأحزنه غيره، أيضاً، مثل: سلكه، وأسلكه. قال اليزيدي: «حَزَنه» لغة قريش، و«أحزنه» لغة تميم، وقرئ بهما، إلا في سورة (الأنبياء)، فإنَّه في الأولى فقط. قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾. وهي أفصح اللغتين.

﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصون من ملك الله، وسلطانه شيئاً بسبب كفرهم، كما روي في حديث أبي ذرٍّ الطويل: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئاً**». أخرجه مسلم في صحيحه، والترمذيُّ، وغيرهما.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ يعني: لا يجعل لهم نصيباً في ثواب الآخرة ونعيمهما الدائم، فلذلك خذ لهم؛ حتَّى سارعوا في الكفر. وفي الآية دليل على أنَّ الخير، والشر بإرادة الله تعالى، وفيه ردٌّ على القدرية، والمعتزلة؛ الذي يقولون: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه. هذا؛ والحظُّ: النَّصيب والْجَدّ، وهو البخت، والدولة، يقال: فلان ذو حظّ، وحظيظ، ومحظوظ، وما الدنيا إلا أحاظٍ، وجدودٌ، ورحم الله المعرِّي؛ إذ يقول: [الكامل]

لَا تَطْلُبَنَّ بِغَيْرِ حَظٍّ رُتْبَةً ... قَلَمُ الأَدِيبِ بِغَيْرِ حَظٍّ مِغْزَلُ

سَكَنَ السِّمَاكَانِ السَّمَاءَ كِلَاهُمَا ... هَذَا لَهُ رُمْحٌ وَهَذَا أَعْزَلُ

السِّما كان: كوكبان، يقال لأحدهما: الأعزل، وهو منازل القمر، وهو الَّذي له النوْء، وسمِّي أعزل؛ لأنَّه لا شيء من الكواكب بين يديه، ويقال للآخر: الرَّامح، وسمِّي رامحاً بكوكبٍ يتقدَّمه. ومعنى البيتين: أنهما مع استوائهما في وجود كلٍّ منهما في السَّماء، امتاز أحدهما عن الآخر، فلهذا حظٌّ، ولا حظَّ لذاك، فالمدار على القضاء الأزليّ، والسَّعد الأولي. اللهم اجعلنا من السُّعداء، ولا تجعلنا من الأشقياء! وما أحسن قول مَنْ قال في بيان حظوظ الرِّجال: [الرمل]

خَلَقَ الْحَظَّ جُمَانَاً وَحَصَى ... خَالِقُ الإِنْسَانِ مِنْ مَاءٍ وَطِينْ

فَوَلِيدٌ تِسْجُدُ الدُّنْيَا لَهُ ... وَوَلِيدٌ فِي زَوَايَا الْمُهْمَلِينْ

وقال المتنبي، وقد أجاد، وأحسن: [الطويل]

هُوَ الْحَظُّ حَتَّى تَفْضُلَ الْعَيْنُ أُخْتَهَا ... وَحَتَّى يَصِيرَ الْيَوْمُ لِلْيَوْمِ سَيِّدَاً

هذا؛ والحظُّ: النصيب. قال تعالى في سورة(النساء) في آية المواريث: ﴿لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾. وقال تعالى في سورة (المائدة) رقم [١٤]: في ذمِّ اليهود اللُّؤماء: ﴿فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف. (لا): ناهية جازمة. ﴿يَحْزُنكَ﴾: مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، والكاف مفعول به، ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله.

﴿فِى ٱلْكُفْرِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿إِنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿لَن﴾: حرف ناصب. ﴿يَضُرُّوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ(لن)

وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، الواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (إنَّ) والجملة الاسمية: ﴿إِنَّهُمْ...﴾ إلخ مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها. ﴿شَيْـًٔا﴾: مفعول به ثان، أو هو نائب مفعول مطلق. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع.

﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. (أن) حرف ناصب. (لا): نافية. ﴿يَجْعَلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ(أن) والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿حَظًّا﴾: مفعول به. ﴿فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾: متعلقان بـ: ﴿حَظًّا﴾ أو بمحذوف صفة له، والمصدر المؤول من: ﴿أَلَّا يَجْعَلَ...﴾ إلخ في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿يُرِيدُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وهو أولى من اعتبارها حالاً. ﴿وَلَهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (لهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخَّر. عظيم: صفة له، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة، لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ الشراء هنا: مستعار، والمعنى: استحبُّوا الكفر على الإيمان، كما قال تعالى في سورة(فصلت): ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾ فعبَّر عنه بالشِّراء؛ لأنَّ الشراء إنَّما يكون فيما يحبُّه مشتريه، فأمَّا أن يكون في معنى شراء المعاوضة؛ فلا؛ لأن الكافرين، والمنافقين لم يكونوا مؤمنين، فيبيعون إيمانهم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أخذوا الكفر، وتركوا الإيمان. ومعناه: استبدلوا، واختاروا الكفر على الإيمان، وإنَّما أخرجه بمعنى الشِّراء توسُّعاً؛ لأن الشراء، والتجارة راجعان إلى الاستبدال، والعرب تستعمل ذلك في كلِّ مَنِ استبدال شيئاً بشيءٍ. قال أبو ذؤيب الهذلي ـ وهو الشاهد رقم [٧٧١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

فَإِنْ تَزْعُمِينِي كُنْتُ أَجْهَلُ فِيكُمُ ... فَإِنِّي شَرَيْتُ الْحِلْمَ بَعْدَكِ بِالْجَهْلِ

هذا؛ والباء بمعنى «بدل» وقد دخلت على المتروك.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم: (إن). ﴿ٱشْتَرَوُا۟﴾: فعل ماض مبني على فتحٍ مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿ٱلْكُفْرَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْإِيمَٰنِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ التقدير: مستبدلاً بالإيمان. ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾: إعراب هذه الجملة مثل ما قبله، وكررت للتَّوكيد، وهي في محل رفع خبر: (إنَّ). والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة، لا

محل لها. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: هذه الجملة معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها، أو هي مستأنفة لا محل لها. وانظر إعرابها في الآية السابقة.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ أي: الكفار. وقرئ: (وَلَا تَحْسَبَنَّ) بتاء المضارعة. والمعنى: لا تحسبنَّ يا محمد. وهو يعمُّ كل مخاطب. ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾: الإملاء: ألإمهال، وطول العمر مع رغد العيش. وقيل: المراد تخليتهم وشأنهم، مِنْ: أملى لفرسه: إذا أرخى لها الطول؛ لترعى كيف شاءت. ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ أي: إنَّ الله يعطيهم ما يحبُّون، ويمهلهم؛ ليزدادوا طغياناً، فهو كقوله تعالى في سورة(مريم): ﴿مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ﴾. وقوله تعالى في سورة (القلم): ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ وانظر رقم [١٩٧].

وروي عن ابن مسعودٍ، وابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قولهما: ما مِنْ أحدٍ برٍّ، ولا فَاجر إِلَّا وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ؛ لأَنَّهُ إِنَّ كَانَ بَرّاً؛ فقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ﴾ وإن كان فاجراً؛ فقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ﴾ وهذا يعارض ما ورد من قول النبيﷺ: «**لَا يَتمنَّى أَحَدُكُم الموتَ، إِمَّا مُحْسِناً؛ فَلَعَلَّهُ يَزْدَادُ، وَإِمَّا مُسِيئاً؛ فَلَعَلَّهُ يَسْتَعتِبُ**». أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه: أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله أيُّ الناس خيرٌ؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَحَسُنَ عَمَلُهُ**». قال: فأيُّ الناس شرٌّ؟ قال: «**مَنْ طَالَ عُمُرُهُ، وَسَاءَ عَمَلُهُ**». رواه الترمذيُّ، والطبرانيُّ. والآية نص في بطلان رأي المعتزلة، والقدريَّة؛ لأنَّ الله تعالى أخبر: أنه يطيل أعمارهم؛ ليزدادوا الكفر بعمل المعاصي، وتوالي أمثاله على القلب. وقد تحمَّل الزمخشري في هذه الآية تأويلاتٍ فاسدةً، فصفعه ابن المنبر ـ رحمه الله تعالى ـ صفعةً ناعمة.

هذا؛ و«عذاب» اسم مصدر لا مصدر؛ لأنَّ المصدر: تعذيب؛ لأنه مِنْ: عذَّب، يعذِّب.

ومثله: سلام، وعطاء، وكلام... إلخ، و«مهين» أصله: مُهْيِن، فإعلاله قل فيه: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلَّة، فنقلت حركة الياء إلى الهاء بعد سلب سكونها، فصار: مُهِيْن، ومثله قل في إعلال مبين، ونحوه.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف. (لا): ناهية جازمة. ﴿يَحْسَبَنَّ﴾: مضارع مبني على الفتح في محل جزم بـ (لا) الناهية، ونون التوكيد الثقيلة حرف لا محل له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. ﴿كَفَرُوٓاْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، ومتعلقه

محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿أَنَّمَا﴾: (أنَّ): حرف مشبه بالفعل. (ما): مصدرية. ﴿نُمْلِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: نحن. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) المصدرية والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب اسم: (أنَّ) التقدير: أنَّ إملاء نا. ﴿خَيْرٌ﴾: خبر: (أنَّ) ﴿لِّأَنفُسِهِمْ﴾: متعلقان بـ ﴿خَيْرٌ﴾ والهاء في محل جر بالإضافة، ويجوز اعتبار (ما) اسماً موصولاً في محل نصب اسم: (إنَّ) والجملة بعده صلته، والعائد محذوف، التقدير: أنَّ الذي نمليه لهم، و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي الفعل قبله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ...﴾ إلخ، لا محل لها، وهي مستأنفة.

وما تقدَّم إنَّما هو على قراءة الفعل بالياء، وأما على قراءته بالتاء، فالفاعل مستتر، تقديره: أنت، و﴿الَّذِينَ﴾ هو مفعولٌ واحد؛ لأنَّ التعويل على البدل، وهو ينوب عن المفعولين لو حلَّ محلَّ المفعولين كما هو معروف. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿نُمْلِي﴾: فعل مضارع... إلخ. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿لِيَزْدَادُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، و«أن» المضمرة بعد لام التعليل، والفعل في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل نملي أيضاً. ﴿إِثْمًا﴾: تمييز، والجملة الفعلية: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، والجملة الاسمية: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط الواو، والضمير. هذا؛ وهناك قراءة شاذَّة، وأوجه إعراب ضعيفة ضربتُ عنها صفحاً روماً للاختصار.

﴿مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩)﴾

الشرح: اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية، فقال الكلبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: قالت قريش: يا محمد! تزعم: أنَّ مَنْ خالفك فهو في النَّار، والله عليه غضبان، وأنَّ مَنْ أطاعك، وتبعك على دينك، فهو في الجنة، والله عنه راضٍ، فأخبرنا بمن يؤمن بك، وبمن لا يؤمن بك؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقال السُّدِّيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ قال رسول الله ﷺ: «**عُرِضَتْ عَلَيَّ أُمَّتِي فِي صُوَرِهَا فِي الطِّينِ، كَمَا عُرِضَتْ عَلَى آدَمَ، وَأُعْلِمْتُ مَنْ يُؤْمِنُ بِي، وَمَنْ يَكْفُرُ بِي**». فبلغ ذلك المنافقين، فقالوا استهزاءً: زعم محمد: أنَّه يعلم مَنْ يؤمن به، ومَنْ يكفر، ممَّن لم يُخلق بعدُ، ونحن معه، وما يعرفنا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقام على المنبر، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، ثم قال: «**مَا بَالُ أَقْوَامٍ طَعَنُوا فِي عِلْمِي؟! لَا تَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ**

السَّاعَةِ، إِلَّا نَبَّأْتُكُمْ بِهِ». فقام عبد الله بن حُذافة السَّهمي، فقال: مَنْ أبي يا رسول الله؟! فقال: «**حذَافَةُ**» فقام عمر ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله رضينا باللهِ رَبّاً، وبالإسلام ديناً، وبالقرآن إماماً، وبك نبيّاً؛ فاعف عنَّا، عفا الله عنك! فقال النبي ﷺ: «**فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟!**». ثم نزل عن المنبر، فأنزل الله هذه الآية. وقيل: إنَّ المؤمنين سألوا أن يعطوا آيةً يفرِّقون بها بين المؤمن، والمنافق، والكافر، فنزلت هذه الآية.

والمعنى: لا يترككم الله أيُّها النَّاس مختلطين، لا يُعرف مؤمنكم من منافقكم؛ حتى يميز المؤمن المُخلص من المُنافق، وذلك بالوحي إلى نبيِّكم عن أحوالكم، أو بالتكاليف الشاقَّة؛ التي لا يصبر عليها إلا المخلصون منكم، كبذل الأموال، والأنفس في سبيل الله ليختبر به بواطنكم، ويكشف به عن عقائدكم.

هذا؛ و«يَذَرُ» لا يأتي منه ماض كـ: «يَدَعُ» استغناءً عنه بتصرف مرادفه، وهو: «يترك»، وحذفت الواو من «يذر» مِنْ غير موجب تصريفي، وإنَّما حُمِل على «يدع» لأنه بمعناه و«يَدَعُ» حذف الواو منه لموجب تصريفي، وهو وقوع الواو بين عدوَّتيها، وهما: الياء، وكسرة مقدرة، وأما الواو في «يَذَرُ» فوقعت بين ياء، وفتحة أصلية. انتهى جمل نقلاً من السَّمين، أقول: وقوله كسرة مقدَّرة؛ إذ الأصل: يَوْدِع مثل: يَوْعِد، وإنَّما فتحت الدَّال مِنْ «يَدَعُ» لأنَّ لامه حرفٌ حلقيٌّ. فيفتح ما قبله، ومثله: يقَع، ويطَأ، ويسَع، وانظر «دَعْ» و«ذَرْ» في سورة (البقرة) رقم [٢٧٨] فإنَّه جيِّد، والحمد لله!

﴿حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾: ﴿يَمِيزَ﴾: مضارع، وماضيه «ماز» ومثله: ميَّز، وأماز بمعنى: فرز الشيء عن غيره، وبمعنى: فضَّله على غيره. وقرئ: (حَتَّى يُمَيِّز) بالتشديد مِنْ: مَيَّز، وكذا قوله تعالى في (الأنفال): ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ و﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾: تنقطع، وبهذا فُسِّر قوله تعالى في سورة (الملك): ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾، وقوله تعالى في سورة (يس): ﴿وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ بمعنى: اعتزلوا مِنَ المؤمنين الصَّالحين، وانظر ما ذكرته فيها هناك، فإنَّه جيد.

هذا؛ والمراد بـ ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: الكفر، والنفاق، أو الكافرون، والمنافقون، والمراد بـ ﴿ٱلطَّيِّبِ﴾: الإيمان، أو المؤمنون، كما يطلقان على العمل الصَّالح، والسيئ. وانظر قوله تعالى في سورة (النور) رقم [٢٦]: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ...﴾ إلخ ففي الكلام استعارةٌ، وطباقٌ، وهو من المحسِّنات البديعيَّة.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾: وما كان الله ليبيِّن لكم المؤمن من الكافر، فيقول: فلان مؤمن، وفلان كافر، وفلان منافق؛ لأنَّه لا أحد يعلم الغيب إلا الله، وإنَّ سنَّة الله جاريةٌ ألا يطَّلع على غيبه أحدٌ من الناس، فلا سبيل إلى معرفة المؤمن من الكافر، أو المنافق إلا بالامتحان بالآفات، والمصائب؛ ليتميز المؤمن المخلص بثباتِه على إيمانه، ويتزلزل المنافق عند المِحَنِ، والبلايا.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ أي: ولكنَّ الله يصطفي، ويختار مِنْ رسله من يشاء، فيطلعه على ما يشاء من غيبه. ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾: يقال: إنَّ الكفَّار لمَّا سألوا رسول الله ﷺ أن يبيِّن لهم مَنْ يؤمن منهم، فأنزل الله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ يعني: لا تشتغلوا بما لا يعنيكم، واشتغلوا بما يعنيكم، وهو الإيمان، والعمل الصالح، ولا تتشوَّفوا إلى إطلاع علم الغيب، فهو ليس لكم، وإنَّما قال: ﴿وَرُسُلِهِۦۚ﴾ على الجمع، لقوله جلَّ ذكره: ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء، ولأنَّ مَنْ أقر بجميع الرُّسل؛ كان مقرّاً؛ ومعترفاً بأحدهم بداهةً، وهذه صفة المؤمنين؛ لأنَّهم آمنوا بجميع الرُّسل.

﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ أي: وإن تصدِّقوا مَنْ اجتبيتُه برسالتي، وأطْلَعْتُه على ما أشاء من غيبي، وأعلمتُه بالمنافق منكم، والمؤمن المخلص، وتتَّقوا ربَّكم فيما أمركم به، ونهاكم عنه. ﴿فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي: بإيمانكم، وطاعتكم لربِّكم.

يروى: أنَّ رجلاً منجِّماً كان عند الحجَّاج، فأخذ الحجاج حصيات عرف عدَّتها، فقال للمنجِّم: كم في يدي؟ فحسب المنجِّم، فأصاب، فأغفله الحجّاج، وأخذ حصيات لم يعدَّهنَّ، فقال للمنجم: كم في يدي؟ فحسب، فأخطأ، ثمَّ حسب، فأخطأ، فقال: أيُّها الأمير أظنُّك لا تعرف عدد ما في يدك؟ قال: لا، قال: فما الفرق بينهما؟ فقال: إنَّ ذاك أحصيتَه، فخرج عن حدِّ الغيب، فحسبتُ، فأصبتُ، وإن هذا لم تعرف عددها، فصار غيباً، ولا يعلم الغيب إلا الله تعالى.

الإعراب: ﴿مَّا كَانَ﴾: ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿لِيَذَرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام الجحود، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ إذ المعنى: ما كان الله مريداً ترك المؤمنين. ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: مفعول به منصوب... إلخ. ﴿عَلَىٰ مَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل: (يذر) و﴿مَآ﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿أَنتُمۡ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية صلة: ﴿مَآ﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط الضمير المجرور بـ ﴿عَلَىٰ﴾.

﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر. ﴿يَمِيزَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد: ﴿حَتَّىٰ﴾ والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾، و«أن» المضمرة بعد: ﴿حَتَّىٰ﴾ والفعل: ﴿يَمِيزَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: (يذر). ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾: مفعول به. ﴿مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ﴾: متعلقان بالفعل ﴿يَمِيزَ﴾ أو بمحذوف حال من: ﴿ٱلۡخَبِيثَ﴾. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾: إعراب هذا الكلام مثل إعراب سابقه بلا فارق.

﴿وَلَكِنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (لكنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَجْتَبِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (لكنَّ) والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. أو هي مستأنفة لا محل لها على الاعتبارين. ﴿مِن رُّسُلِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السُّكون في محلِّ نصبٍ مفعول به، ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: الَّذي، أو: شخصاً يشاؤه.

﴿فَـَٔامِنُواْ﴾: الفاء: هي الفصيحة، (آمنوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان به. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً وحاصلاً؛ فآمنوا... إلخ، والكلام كلُّه معطوف على ما قبله. ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تُؤْمِنُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير جازم. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾: معطوف على ما قبله مجزوم مثله، أو هو منصوب بـ «أن» مضمرة بعد واو المعية، وعلامة الجزم، أو النصب حذف النون، والواو فاعله، وعلى النصب فـ «أن» المضمرة تؤول مع الفعل بمصدر في محل رفع معطوف على مصدر متصيَّد من الفعل السابق، التقدير: وليكن منكم إيمانٌ، وتقوى. ﴿فَلَكُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لكم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿فَلَكُمْ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿عَظِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنها لم تحلَّ محل المفرد، و(إنْ) ومدخولها كلامٌ مستأنف لا محلَّ له.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾

الشرح: اختلف العلماء فيمن نزلت هذه الآية، فقال عبد الله بن مسعود، وأبو هريرة، وابن عباس في رواية أبي صالح عنه، والشَّعبي، ومجاهد ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ: نزلت هذه الآية في الذين يبخلون أن يؤدُّوا زكاة أموالهم. ووجه هذا القول: أنَّ أكثر العلماء ذهبوا إلى أنَّ البخل عبارةٌ عن منع الواجب، وأنَّ مَنْ منع التطوُّع، لا يكون بخيلاً، ويدلُّ عليه الوعيد الشديد في سياق الآية.

وقال ابن عباس في رواية عطية عنه، وابن جريج عن مجاهد: أنَّها نزلت في أحبار اليهود؛ الذين كتموا صفة النبي ﷺ، ونبوَّته. وهذا القول هو اختيار الزجَّاج، ووجه هذا القول: أن البخل عبارةٌ عن منع الخير، والنفع، ويدخل فيه منع العلم، كما يقال: بخل فلان بعلمه. والمعتمد الأوَّل، وإن كان الثاني يدخل فيه. انتهى خازن. وخذ ما يلي:

أولاً: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً، فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ؛ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُجَاعَاً أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ ـ يعني: شدقيه ـ ثُمَّ يَقولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ**». ثم تلا هذه الآية. أخرجه الشيخان، وغيرهما.

ثانياً: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ، فَكَتَمَهُ؛ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**». رواه أبو داود، والترمذي، وغيرهما، وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كَتَمَ عِلْماً؛ أَلْجَمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ**». ابن حبَّان.

المعنى: ولا يظننَّ الذين يمنعون زكاة أموالهم، ويبخلون في إنفاقه في وجوه الخير خيراً لهم في الدنيا، والآخرة، بل هو شرٌّ، ووبال عليهم، وهلاك لهم. ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ﴾: أي: سيلزمون وبال ما بخلوا به إلزام الطوق في العنق. انظر الحديث الشريف المتقدِّم. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أخبر سبحانه وتعالى ببقائه، ودوام ملكه، وأنه في الأبد كهو في الأزل غنيٌّ عن العالمين، فيرث الأرض، ومن عليها بعد فناء خلقه، وزوال ملكهم، فتبقى الأملاك، والأموال، لا يُدَّعى فيها، فجرى هذا مجرى الوراثة في عادة الخلق، وليس هذا بميراث في الحقيقة؛ لأن الوارث في الحقيقة هو الذي يرث شيئاً لم يكن ملكه من قبل، والله سبحانه وتعالى مالك السموات والأرض، وما بينهما، وما فيهما، وكانت السموات وما فيها، والأرض وما فيها له، وأنَّ الأموال كانت عاريةً عند أربابها، فإذا ماتوا؛ رُدَّت العارية إلى صاحبها، الذي كانت له في الأصل، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ ومثل هذه الآية الآتية رقم [١٠] من سورة (الحديد). ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: فيه تهديدٌ، ووعيدٌ للبخلاء، والمقصرين بحقوق الله. ويقرأ الفعل بالياء، والتاء، ـ على الالتفات ـ في بعض القراءات فيه، وفي سابقه. وخذ ما يلي في البخلاء، والأسخياء:

فعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «**إِيَّاكُمْ وَالظُّلْمَ! فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ، والتَّفَحُّشَ! وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ، فَقَطَعُوا، وأَمَرَهَمْ بِالْبُخْلِ، فَبَخِلُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالْفُجُورِ، فَفَجَرُوا. . .**» إلخ. رواه أبو داود مختصراً.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَلَقَ اللهُ جَنَّةَ عَدْنٍ بيَدِهِ، وَدَلَّى فِيْهَا ثِمَارَهَا، وَشَقَّ فِيْهَا أَنْهَارَهَا، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهَا، فقالَ لهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ المؤمِنُونَ، فَقَالَ: وَعَزَّتِي، وَجَلَالِي لا يُجَاوِرنِي فِيْكِ بَخِيْلٌ!**» رواه الطَّبرانيُّ في الكبير، والأوسط.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللهِ، قَرِيبٌ مِنَ الجَنَّةِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ، وَالْبَخِيلُ بَعِيدٌ مِنَ اللهِ، بَعِيدٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّارِ، وَلَجَاهِلٌ سَخِيٌّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنْ عَابِدٍ بَخِيلٍ**». رواه الترمذيُّ.

وعنه ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا كَانَ أَمراؤُكُمْ خِيَارَكم، وَأَغْنِيَاؤُكُم سُمَحَاءُكُمْ، وَأُمُورُكُمْ شُوْرَى بَيْنَكُمْ؛ فَظَهَرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُم مِنْ بَطْنِهَا، وَإِذَا كَانَتْ أُمَرَاؤُكُم شِرَارَكُمْ، وَأَغْنِياؤُكُم بُخَلاءَكُمْ، وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ؛ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا**». رواه الترمذي.

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تبارك وتعالى بعث حبيبي جبريل ـ عليه السلام ـ إلى إبراهيم، عليه السلام، فقال له: يَا إِبْرَاهِيمُ! إِنِّي لَا أَتَّخِذُكَ خَلِيلاً عَلَى أَنَّكَ أَعْبَدُ عِبَادٍ لِي، وَلَكِنِ اطَّلَعْتُ عَلَى قُلُوبِ المؤمِنينَ، فَلَمْ أَجِدْ قَلْباً أَسْخَى مِنْ قَلْبِكَ**». أخرجه الطَّبراني، وغيره وانظر الآية رقم [٣٧]: من سورة (النساء) تجدْ ما يسرك.

الإعراب: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ﴾: انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية رقم [١٧٨]: ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنيَّةٌ على السكون في محل جرٍّ بالباء. ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والهاء مفعول به أوَّل. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط، وهو المفعول الثاني محذوف، التقدير: يبخلون بالذي، أو: بشيءٍ آتاهم الله إيَّاه. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف حال من المفعول المحذوف، والمفعول الأول لـ: ﴿يَحْسَبَنَّ﴾ محذوف، التقدير: ولا يحسبن الذين يبخلون بخلهم... والهاء في محل جر بالإضافة، ودلَّ على المحذوف: ﴿يَبْخَلُونَ﴾.

وقال أبو البقاء رحمه الله تعالى: وفي المفعول الأوَّل وجهان: أحدهما: ﴿هُوَ﴾ ضمير البخل الذي دل عليه: ﴿يَبْخَلُونَ﴾. الثاني: محذوف، تقديره: البخل، و﴿هُوَ﴾ على هذا فصل، والمفعول الثاني ﴿خَيْرًا﴾. ﴿لَّهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَيْرًا﴾ هذا، وعلى قراءة الفعل: (تحسبن) بالتاء، فالفاعل ضمير مستتر تقديره: «أنت»، المراد به النبي ﷺ، أو كلُّ مخاطب، والمفعول الأول محذوف قام مقامه: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بعد حذفه، التقدير: ولا تحسبن بُخْلَ الذين يبخلون، أي: فحذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه. قال الزجَّاج: هو مثل: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ و﴿خَيْرًا﴾ هو المفعول الثاني.

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب، وانتقال، تُبتدأ بعده الجمل، والجملة الاسمية: ﴿هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ مستأنفة لا محل لها. ﴿سَيُطَوَّقُونَ﴾: السين: مفيدة للتوكيد، وإن كانت في الأصل للاستقبال، (يطوقون): فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون... إلخ، والواو نائب

فاعله، وهو المفعول الأول. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، مبنيَّةٌ على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿بَخِلُوا﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط الضمير المجرور محلاًّ بالباء. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلِّق بما قبله، و﴿يَوْمَ﴾: مضاف، و﴿الْقِيَامَةِ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية: ﴿سَيُطَوَّقُونَ...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿وَلِلَّهِ﴾: الواو: حرف استئناف. (لله): متعلقان بمحذوف في محل رفع خبر مقدم. ﴿مِيرَاثُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿السَّمَاوَاتِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر الميمي لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَالْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [١٥٣].

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١)﴾

الشرح: مناسبة الآيات لما قبلها ظاهرةٌ، وذلك بعد أن انتهى الاستعراض القرآني لمعركة أُحُد، وما فيها من عبرٍ، وعظاتٍ، وتناولت الآيات ضمن ما تناولت مكائد المنافقين، ودسائسهم، وما انطوت عليه نفوسُهم من الكيد للإسلام، والغدر بالمسلمين، وتثبيط عزائمهم عن الجهاد في سبيل الله؛ أعقبه الله بذكر دسائس اليهود الخبيثة، وأساليبهم الشنيعة في محاربة الدَّعوة الإسلاميَّة عن طريق التشكيك، والبلبلة، والكيد، والدسِّ؛ ليحذِّر المؤمنين من خطرهم، كما حذَّرهم من المنافقين. والآيات الكريمة تتحدَّث عن اليهود، وموقفهم المُخزي من الذَّات الإلهية، وأنَّها تُهَمٌ لله عزَّ وجل ـ بأشنع الاتهامات بالبخل، والفقر، ثم نقضهم للعهود، وقتلهم للأنبياء، وخيانتهم للأمانة؛ التي حمَّلهم الله إيَّاها، إلى آخر ما هنالك من جرائم، وشنائع اتَّصف بها هذا الجنس الملعون. صفوة التفاسير.

سبب النزول روي: أنَّ النبي ﷺ أرسل مع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ كتاباً إلى يهود بني قينقاع، يدعوهم فيه إلى الإسلام، وإقام الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وأن يقرضوا الله قرضاً حسناً، فقال «فنحاص» اللَّعين ـ وكان من علمائهم، ومعه حَبْرٌ آخر يقال له: أَشْيَع ـ: إنّ الله فقير حتى سأل القرض؟ فلطمه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ على وجهه، وقال: لولا ما بيننا من العهد؛ لضربت عنقك! فشكاه إلى رسول الله ﷺ، وجحد ما قاله، فنزلت الآية الكريمة، في تصديق الصِّدِّيق ـ رضي الله عنه ـ وتكذيب «فنحاص». ومثل هذه الآية من قولهم الشنيع الآية رقم [٦٧]: من سورة (المائدة): ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ...﴾ إلخ.

﴿لَقَدْ سَمِعَ...﴾ إلخ: المعنى: لم يَخْفَ عليه ما قالوه، وأنَّه سبحانه أعدَّ لهم العقاب الشديد، و العذاب الأليم. هذا؛ و: سمع، يسمع من الأفعال الصَّوتية، إن تعلَّق بالأصوات؛ تعدَّى إلى مفعول واحد، وإن تعلق بالذَّوات؛ تعدَّى إلى اثنين، الثاني منهما جملةٌ فعليَّةٌ مصدَّرةٌ بمضارع من الأفعال الصَّوتية. مثل قولك: سمعت فلاناً يقول كذا. وهذا اختيار الفارسيِّ. واختار ابن مالك، ومن تبعه أن تكون الجملة الفعلية في محل نصب حال؛ إن كان المتقدم معرفة، مثل قولك: سمعت زيداً يقول كذا، وصفةً إن كان نكرةً، مثل قولك: سمعت رجلاً يقول كذا.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ﴾: انظر الآية رقم [٦] من سورة (النساء) لشرح (الفقير). ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾: قالوا ذلك تمويهاً على ضعفائهم، لا أنَّهم يعتقدون هذا، وغرضهم تشكيك الضعفاء من المؤمنين، وتكذيب النبيِّ ﷺ أي: إنه فقيرٌ على قول محمَّد؛ لأنه اقترض منَّا. ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾: سنجازيهم عليه. وقيل: معناه: سنكتبه في صحائف أعمالهم، وهو كقوله تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ والكاتبون للأعمال هم الملائكة الموكَّلون بذلك، والله هو الآمر بالكتابة، فأسند إليه الفعل مجازاً، والموجودون في زمن الرسول ﷺ لم يقتلوا الأنبياء، وإنَّما نُسِب لهم القتل لرضاهم له، ولما بينهم وبين أصولهم من الخبث، والمكر، والخداع، وسوء الطِّباع، فلذا صحَّت الإضافة إليهم؛ لأنَّ الرضا بالمعصية معصية، فقد روي: أن رجلاً حسَّن عند الشَّعبيِّ قتل عثمان ـ رضي الله عنه ـ، فقال له الشَّعبيُّ: شركت في دمه. فجعل الرِّضا بالقتل قتلاً. وقد روى أبو داود عن العُرْسِ بن عميرة الكندي ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**إِذَا عُمِلَتِ الخطِيئَةُ فِي الأَرْضِ؛ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا، فَكَرِهَهَا كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، ومن غاب عنها، فَرَضِيَهَا؛ كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا**». ﴿وَنَقُولُ﴾: لهؤلاء الَّذين قالوا هذه المقالة: ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ أي: فننتقم منهم، ونقول لهم. وانظر ﴿ذُوقُواْ﴾ في الآية رقم [١٠٦].

هذا؛ والقول يطلق على خمسة معان، أحدها: اللفظ الدال على معنىً. الثاني: حديث النفس، ومنه قوله تعالى في سورة المجادلة: ﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ﴾. الثالث: الحركة، والإمالة، يقال: قالت النَّخلة؛ أي: مالت. الرابع: يشهد به الحال، كما في قوله تعالى في سورة (فصلت): ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ...﴾ الخامس: الاعتقاد، كما تقول: هذا قول الأشاعرة، وهذه مقالة المعتزلة، أي: ما يعتقدونه.

هذا، وأمَّا الكلام بالنسبة إلى البشر؛ فيدلُّ على أحد ثلاثة أمور:

أولها: الحدث الذي يدلُّ على لفظ التكليم، تقول: أعجبني كلامك زيداً، وتريد: تكليمك إيَّاه، وقال الشاعر: [البسيط]

قَالُوا كَلَامُكَ هِنْداً وَهْيَ مُصْغِيَةٌ ... يَشْفِيكَ قُلْتُ صَحِيحٌ ذَاكَ لَوْ كَانَا

وثانيها: ما يدور في النفس من هواجس، وخواطر، وكلُّ ما يعبَّر عنه باللفظ لإفادة السَّامع ما قام بنفس المخاطب، فيسمى هذا الذي تخيَّلته: كلاماً في اللغة العربية، تأمل في قول الأخطل التَّغلبي: [الكامل]

لا يُعْجِبَنَّكَ مِنْ خَطِيبٍ خُطْبَةٌ حَتَّى يَكُونَ مَعَ الْكَلَامِ أَصِيلا
إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلا

ثالثها: كل ما تحصل به الفائدة، سواءٌ أكان ما حصلت به لفظاً، أو خطّاً، أو إشارةً، أو دلالةَ حالٍ، انظر إلى قول العرب: «القلمُ أحدُ اللسانين» وانظر إلى تسمية المسلمين ما بين دفتي المصحف: «كلامَ اللهِ»، ثم انظر إلى قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وقال جلَّ ذكره في سورة (التوبة): ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ وإلى كلمته جلَّت حكمته في هذه السورة: ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾. ثم انظر إلى قول عمر بن أبي ربيعة المخزومي؛ الذي نفى عن محبوبته الكلام اللفظي، وأثبت لعينها القول، والكلام: [الطويل]

أَشَارَتْ بِطَرْفِ الْعَيْنِ خِيفَةَ أَهْلِهَا إِشَارَةَ مَحْزُونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ
فَأَيْقَنْتُ أَنَّ الطَّرْفَ قَدْ قالَ مَرْحَباً وَأَهلاً وَسَهْلاً بالحبيبِ الْمُتَيَّمِ

والدليل عليه فيما نطق به الحال قول نصيب: [الطويل]

فَعَاجُوا فَأَثْنَوْا بِالَّذِي أَنْتَ أَهْلُهُ وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الْحَقَائِبُ

وقال تعالى في سورة (فصلت) حكاية عن قول السَّماء، والأرض: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ فقال قوم من العلماء: إنَّهما تكلَّمتا حقيقةً، وقال آخرون: إنَّهما لمَّا انقادتا لأمر الله عز وجل؛ نُزِّل ذلك منزلة القول والكلام. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿لَّقَدْ﴾: اللام: لام الابتداء، أو هي واقعة في جواب قسم محذوف. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿سَمِعَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿قَوْلَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جرٍّ بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. ﴿قَالُوٓاْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع مقولها صلة الموصول لا محلَّ لها، وجملة: ﴿لَّقَدْ...﴾ إلخ مبتدأة، أو جواب لقسم محذوف، لا محلَّ لها على الاعتبارين. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿فَقِيرٌ﴾: خبرها، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿وَنَحْنُ﴾: الواو: حرف عطف. (نحن): ضمير منفصل مبني على الضم في محل رفع مبتدأ. ﴿أَغْنِيَآءُ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً، وفيها معنى التأكيد للجملة قبلها.

﴿سَنَكْتُبُ﴾: السين: مفيدة للتوكيد، والتَّحقيق. (نكتب): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: سنكتب الذي، أو: شيئاً قالوه. وعلى اعتبار ﴿مَا﴾ مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: سنكتب قولهم، والجملة الفعلية هذه مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَقَتْلَهُمُ﴾: معطوف على ﴿مَا﴾ أو على المصدر، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾: مفعول به للمصدر. ﴿بِغَيْرِ﴾: متعلقان بالمصدر، و(غير): مضاف، و﴿حَقٍّ﴾ مضاف إليه. ﴿وَنَقُولُ﴾: الواو: حرف عطف. (نقول): فعل مضارع، والفاعل تقديره: نحن. ﴿ذُوقُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿عَذَابَ﴾: مفعول به، و﴿ٱلْحَرِيقِ﴾: مضاف إليه، مِنْ إضافة الموصوف للصفة؛ إذ الأصل: العذاب المُحْرِق. والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَنَقُولُ...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿سَنَكْتُبُ...﴾ إلخ لا محلَّ لها مثلها.

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾

الشرح: ﴿ذَٰلِكَ﴾: إشارة إلى العذاب المذكور في الآية السابقة. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: من قتل الأنبياء، وقولهم المذكور في الآية السابقة، وسائر الأعمال القبيحة؛ الَّتي صدرت عنهم في الدنيا، وإنَّما ذكر الله ـ عز وجل ـ الأيدي على سبيل المجاز؛ لأنَّ الفاعل هو الإنسان، لا اليد، إلا أنَّ اليد لمَّا كانت آلة الفعل؛ حسن إسناد الفعل إليها، ولأنَّ أكثر الأعمال يكون باليد، فجعل كلُّ عملٍ كالواقع بالأيدي على سبيل التَّغليب.

هذا؛ واليد تُطلق في الأصل على اليد الجارحة، وقد تُطلق على النفس، والذات، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾. وقد تطلق على القُدرة، والقوَّة، وهو كثيرٌ، مثل قوله تعالى في سورة (صَ): ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ وخذ قول عروة بن حزام العُذري ـ وهو الشاهد رقم [١١٦]: من كتابنا: «فتح رب البريَّة» ـ: [الطويل]

وَحُمِّلْتُ زَفْرَاتِ الضُّحَى فَأَطَقْتُهَا وَمَالِي بِزَفْرَاتِ الْعَشِيِّ يَدَانِ

كما تُطلق اليد على النِّعمة، والمعروف، يقال: لفلان عندي يد؛ أي: نعمة، ومعروف، وإحسان. وتطلق على الحيلة، والتدبير، يقال: لا يد لي في هذا الأمر؛ أي: لا حيلة لي فيه، ولا تدبير. ﴿لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾: ليس المراد بظلام المبالغة؛ حتَّى تنتفي المبالغة، ويبقى أصل الظلم، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، وإنَّما المراد نفي نسبة الظلم إليه تعالى؛ إذ المعنى: ليس بذي ظلم، والآية مذكورة بحروفها بسورة (الأنفال) برقم [٥١] ومن ذلك قول

الرَّسول ﷺ فيما رواه الترمذيُّ عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «**لَا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ لَعَّاناً**» فالمراد نفيٌ لِلَّعن أبداً، لا نفي المبالغة. وخذ قول امرئ القيس ـ وهو الشَّاهد رقم [١٧٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

وَلَـيْـسَ بِـذِي رُمْـحٍ فَـيَـطْـعَـنَـنِـي بِـهِ وَلَـيْـسَ بِـذِي سَـيْـفٍ وَلَـيْـسَ بِـنَـبَّـالِ

فهذه الصيغ ليست للمبالغة، وإنَّما هي للنَّسب، مثل: عطَّار، ونجَّار، وتمَّار. قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ: [الرجز]

وَمَــعَ فَــاعِــلٍ وَفَــعَّــالٍ فَــعِــلْ فِـي نَـسَـبٍ أَغْـنَـى عَـنِ الْـيَـا فَـقُـبِـلْ

الإعراب: ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف خبر المبتدأ، (ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء. ﴿قَدَّمَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿أَيْدِيكُمْ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الياء للثقل، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو: بشيءٍ قدَّمته أيديكم. ﴿وَأَنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿اللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود إلى: ﴿اللَّهَ﴾ تقديره: «هو»، ﴿بِظَلَّامٍ﴾ الباء: حرف جر صلة. (ظلام) خبر (ما) منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾: متعلقان بـ (ظلام). وجملة: ﴿لَيْسَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (أنَّ) و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر معطوف على (ما) فهو في محل جر مثلها، والجملة الاسمية: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ...﴾ إلخ في محل نصب مقول لقولٍ محذوف، التقدير: ويقال لهم إذا لقوا في جهنم: ذلك... إلخ.

أو: ونقول لهم إذا ألقوا... إلخ تقريعاً، وتوبيخاً، وتحقيراً، وتصغيراً.

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

الشرح: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا﴾: قال الكلبي: نزلت في كعب بن الأشرف، ومالك بن صيفي، ووهب بن يهوذا، وزيد بن تابوت، وفنحاص بن عازوراء، وحيي بن أخطب من اليهود، أتوا النبيَّ ﷺ، فقالوا: يا محمد! تزعم: أنَّ الله بعثك إلينا رسولاً، وأنزل عليك كتاباً، وإنَّ الله عهد إلينا في التوراة ألا نؤمن لرسولٍ يزعم: أنه جاء من عند الله، حتَّى يأتينا بقربانٍ تأكله

النَّار، إن جئتنا به؛ صدقناك! فأنزل الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ﴾ يعني: قد سمع الله قول الذين قالوا: إنَّ الله عهد إلينا، يعني: أمرنا، وأوصانا في كتبه: أن لا نؤمن لرسول. . .إلخ.

هذا؛ وذكر الواحدي عن السُّدِّيِّ: أنه قال: إنَّ الله أمر بني إسرائيل في التَّوراة: من جاءكم يزعم: أنه رسول الله؛ فلا تصدقوه؛ حتَّى يأتيكم بقربان تأكله النار؛ حتَّى يأتيكم المسيح، ومحمَّد، فإذا أتياكم؛ فآمنوا بهما، فإنَّهما يأتيان بغير قربانٍ. زاد غير الواحدي: أنَّه قال: وكانت هذه العادة باقيةً فيهم إلى مبعث المسيح، عليه الصَّلاة، والسَّلام، ثم ارتفعت، وزالت. هذا؛ وإسناد الأكل إلى النَّار استعارة؛ إذ حقيقة الأكل إنَّما تكون في الإنسان، والحيوان.

هذا؛ والقربان كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى من أعمال البر، من نسك، وصدقة، وذبح، وصوم. وكانت القرابين والغنائم لا تحل لبني إسرائيل، وكانوا إذا قربوا قرباناً، أو غنموا غنيمةً؛ جمعوا ذلك، وجاءت نار بيضاء من السماء، لا دخان لها، ولها دوي، وحفيف، فتأكل ذلك القربان، أو الغنيمة، وتحرقه، فيكون ذلك دليلاً على القبول، وإذا لم يقبل؛ بقي على حاله، ولم تنزل نار.

﴿قُلْ﴾: هذا خطابٌ لحبيب الحق، وسيِّد الخلق ﷺ. ﴿قَدْ جَآءَكُمْ﴾ يا معشر اليهود. ﴿رُسُلٌ مِّن قَبْلِى﴾ يعني: مثل: زكريا، ويحيى، ويوشع، وغيرهم. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: بالمعجزات الواضحات، والحجج الدَّامغات. ﴿وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ﴾ أي: ما ذكرتم من القربان. ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ﴾ يعني: فلم قتلتم الأنبياء؛ الذين أتوا بما طلبتم منهم من القرابين، والمراد بذلك: أسلافهم، كما ذكرته لك مراراً، والتقريع، والتوبيخ للموجودين في عهد نبينا محمد ﷺ. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: أنكم تتبعون الحقَّ، وتنقادون للرُّسل. وذكرت لك مراراً: أن ﴿رُسُلٌ﴾ وما أشبهه يجوز تسكين عينه وتحريكها بالضم. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: بدل مثله في الآية رقم [١٨١] ويجوز أن يكون في محل نصب بفعل محذوف، التقدير: أذمُّ الذين، كما يجوز أن يكون في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة مع مقولها صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿عَهِدَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿إِلَيْنَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. (أنْ) حرف مصدري ونصب. (لا): نافية. ﴿نُؤْمِنَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن) والفاعل مستتر وجوباً، تقديره: نحن، و(أنْ) والفعل في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: عهد إلينا بعدم الإيمان، والجار والمجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿لِرَسُولٍ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿عَهِدَ﴾. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية، وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿يَأْتِيَنَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن»

المضمرة بعد ﴿حَتَّىٰ﴾ والفاعل يعود إلى (رسول) ونا: مفعول به، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محلِّ جرٍّ بـ (حتى) والجار والمجرور متعلقان بالفعل (نؤمن). ﴿بِقُرْبَانٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿تَأْكُلُهُ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعول به. ﴿ٱلنَّارُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر صفة (قربان).

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿جَآءَكُمْ﴾: فعل ماض، والكاف مفعول به. ﴿رُسُلٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها. ﴿مِّن قَبْلِي﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل جاء، أو هما متعلقان بمحذوف صفة: ﴿رُسُلٌ﴾ وعلامة الجر كسرة مقدرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء في محل جر بالإضافة. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلقان بالفعل (جاء). ﴿وَبِٱلَّذِى﴾: جار ومجرور معطوفان على البينات.

﴿قُلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والعائد محذوف، التقدير: بالذي قلتموه.

﴿فَلِمَ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنها تفصح عن شرط مقدَّر. (لِمَ): جار ومجرور متعلقان بما بعدهما، وعلامة الجر الألف المحذوفة للفرق بين الخبر، والاستخبار. ﴿قَتَلْتُمُوهُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون، والتاء فاعله، والميم علامة جمع الذكور، وحركت بالضم لتحسين اللفظ، فتولدت واو الإشباع، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان قد جاءكم رسل... فلماذا قتلتموهم؟!. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾: تقدَّم إعراب مثلها كثيراً، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ﴾ أي: كذَّب اليهود، وقومُك يا محمد! ﴿فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ مثل: نوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، وغيرهم من الرُّسل. هذا؛ وذكَّرَ الفعل هنا، وأنِّث في سورة (الأنعام) رقم [٣٤]: وفي سورة فاطر رقم [٤]: مع أنَّ الفاعل ﴿رُسُلٌ﴾ في الآيات الثلاث؛ لأن رسل جمع تكسير لـ: «رسول» وجمع التكسير يجوز تذكير فعله، وتأنيثه، كما هو مقرَّر في القواعد النَّحوية. وفي الآيات الثلاث تسليةٌ للرَّسول ﷺ. ﴿جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ أي: بالدَّلالات الواضحات، والمعجزات الباهرات. ﴿وَٱلزُّبُرِ﴾ أي: الكتب. واحدها: زبور، وهو الكتاب المقصور على الحكم، مِنْ: زبرت الشيء: إذا حبسته. وقيل: الزبور: المواعظ، والزواجر، مِنْ: زبرته: إذا وعظته، وزجرته، وكلُّ زبور فهو كتاب، والعكس صحيح، قال امرؤ القيس: [الطويل]

لِـمَـنْ طَـلَـلٌ أَبْـصَـرْتُـهُ فَـشَـجَـانِـي كَـخَـطِّ زَبُـورٍ فِـي عَـسِـيـبِ يَـمَـانِـي

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾: الواضح. والكتاب: ما يتضمَّن الشَّرائع، والأحكام، ولذلك جاء الكتاب، والحكمة متعاطفين في كثيرٍ من الآيات القرآنية. وقيل: المراد بالزَّبور: الصُّحف المنزلة على الأنبياء، كصحف إبراهيم، وهي ثلاثون، وصحف موسى قبل التوراة، وهي عشرة، وكصحف شيث، وهي ستُّون، وصحف إدريس، وهي عشرةٌ، فجملة الصحف مئة وعشرة، تُضَمُّ لها الكتب الأربعة: التوراة، والإنجيل، والزَّبور، والقرآن، فجملة الكتب المنزلة على الأنبياء مئة وأربعة عشر، وسور القرآن مئة وأربع عشرة، لذا فقد حوى جميع ما نزل في الكتب التي نزلت على الأنبياء، ومثل هذه الآية الآية رقم [٢٥]: من سورة (فاطر).

الإعراب: ﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم، ﴿كَذَّبُوكَ﴾: فعل ماض مبني على الضمِّ في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿كُذِّبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿رُسُلٌ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحل محلَّ المفرد. هذا؛ وإن اعتبرت الجواب محذوفاً فالجملة الفعلية تكون مفيدة للتعليل، ويكون التقدير: فإن كذبوك؛ فلا تحزن؛ لأنَّه قد كذب... إلخ. ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿رُسُلٌ﴾ وهو أقوى من تعليقهما بالفعل: ﴿كُذِّبَ﴾ والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿جَآءُو﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل رفع صفة ثانية لرسل، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدَّم. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: متعلِّقان بما قبلهما، أو بمحذوف حال من واو الجماعة. ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ﴾: معطوفان على ما قبلهما. ﴿ٱلْمُنِيرِ﴾: صفة (الكتاب).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾

الشرح: يخبر الله جلَّت قدرته في هذه الآية، وفي سورة (الأنبياء) رقم [٣٥] إخباراً عامّاً يعمُّ جميع الخليقة بأنَّ كلَّ نفس ذائقة الموت، كقوله تعالى في سورة (الرحمن): ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾، فهو وحده الحيُّ الذي لا يموت، والجنُّ، والإنس يموتون، وكذلك الملائكة، وحملة العرش، وينفرد الواحد القهار بالدَّيمومة، والبقاء، فيكون باقياً كما كان أزليّاً قديماً، وهذه الآية، وآية (الأنبياء) فيهما تعزيةٌ لجميع الناس، فإنَّه لا يبقى أحدٌ على وجه الأرض؛ حتَّى يموت. ورحم الله من قال: [البسيط]

الْـمَـوْتُ بَـابٌ وَكُـلُّ الـنَّـاسِ دَاخِـلُـهُ فَـلَـيْـتَ شَـعْـرِيَ بَـعْـدَ الْـبَـابِ مَـا الْـدَّارُ
الـدَّارُ جَـنَّـةُ عَـدْنٍ إِنْ عَـمِـلَـتَ بِـمَـا يُـرْضِـي الإِلَـهَ وَإِنْ خَـالَـفْـتَ فَـالْـنَّـارُ

روى ابن أبي حاتم عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا توفِّي النَّبيُّ ﷺ. وجاءت التَّعزية، جاءهم آتٍ يسمعون حسَّه، ولا يرون شخصه، فقال: السَّلام عليكم أهل البيت، ورحمة الله وبركاته: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾ إنَّ في الله عزاءً من كلِّ مصيبةٍ، وخَلَفاً من كلِّ هالك، ودركاً من كلِّ فائت، فبالله ثقوا، وإيَّاه فارجوا، فإنَّ المصاب مَنْ حُرِمَ الثواب، والسلام عليكم، ورحمة الله، وبركاته. قال جعفر الصَّادق ـ رحمه الله تعالى ـ فأخبرني أبي: أنَّ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ، قال: أتدرون مَنْ هذا؟ هذا الخضر عليه السلام.

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ﴾: أبعد، وجنِّب النَّار. ﴿وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ﴾ أي: نجا من النَّار، وظفر برضا الله، ورضوانه. هذا؛ والفعل «زَحْزَحَ» يكون لازماً ومتعدياً، قال الشاعر في اللازم: [الطويل]

خَـلِـيـلَـيَّ مَـا بَـالُ الـدُّجَـى لَا يَـتَـزَحْـزَحُ وَمَـا بَـالُ ضَـوْءِ الـصُّـبْـحِ لَا يَـتَـوَضَّـحُ؟

وقال ذو الرُّمَّة في المتعدي: [البسيط]

يَـا قَـابِـضَ الـرُّوحِ عَـنْ جِـسْـمٍ عَـصَـا زَمَـنَـاً وَغَـافِـرَ الـذَّنْـبِ زَحْـزِحْـنِـي عَـنِ الـنَّـارِ

وروى النِّسائيُّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ صَامَ يَوماً فِي سَبِيلِ اللهِ؛ زَحْزَحَ اللهُ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفاً**».

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ أي: إنَّ العيش في هذه الدَّار الفانية يغرُّ الإنسان بما يُمنيه من طول البقاء، وسينقطع عن قريب. قال سعيد بن جُبير ـ رحمه الله تعالى ـ هي متاع الغرور لمن لم يشتغل بطلب الآخرة، فأمَّا من اشتغل بطلب الآخرة، فهي له متاع، وبلاغ إلى ما هو خير منها، وهذا بضم الغين، وهو بفتح الغين: الشيطان، كما في قوله تعالى: ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ ومن قول العوام ـ وليس بشيءٍ ـ: الغرور: ما تحمله المرأة أيام حيضها، أو نفاسها، ثم تلقيه في أماكن معروفة، وخذ ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عز وجل: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَالَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، اقرؤوا إن شئتم**: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾». أخرجه البخاريُّ، وزاد الترمذي: «**وَفِي الْجَنَّةِ شَجَرَةٌ يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِئَةَ عَامٍ لَا يَقْطَعُهَا، واقرؤوا إن شئتم**: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾. **وموضع سوط أحدكم في الجنة خيرٌ من الدنيا، وما فيها، واقرؤوا إن شئتم**: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ...﴾ إلخ».

هذا؛ وقد وصف الله تعالى في هذه الآية وغيرهما الحياة التي يحياها ابن آدم بـ: ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾؛ لدناءتها، وحقارتها، وأنها لا تساوي عنده جناح بعوضة، كما جاء في الحديث الشريف، ورحم الله الحريري؛ إذ يقول: [الكامل]

يَا خَاطِبَ الدُّنْيَا الدَّنِيَّةِ إِنَّهَا ... شَرَكُ الرَّدَى، وقَرَارَةُ الأَكْدَارِ
دَارٌ مَتَى مَا أَضْحَكَتْ فِي يَوْمِهَا ... أَبْكَتْ غَداً تَبّاً لَهَا مِنْ دَارِ

ولقد أحسن مَنْ قال: [المتقارب]

هِيَ الدَّارُ دَارُ الأَذَى وَالْقَذَى ... وَدَارُ الْفَنَاءِ وَدَارُ الْغِيَرْ
ولَوْ نِلْتَهَا بِحَذَافِيرِهَا ... لَمُتَّ وَلَمْ تَقْضِ مِنْهَا الْوَطَرْ
أَيَا مَنْ يُؤَمِّلُ طُولَ الْخُلُودِ ... وَطُولُ الْخُلُودِ عَلَيْهِ ضَرَرْ
إِذَا أَنْتَ شِبْتَ وَبَانَ الشَّبَا ... بُ فَلَا خَيْرَ فِي الْعَيْشِ بَعْدَ الْكِبَرْ

هذا؛ والمتاع: كل شيءٍ يتمتَّع به الإنسان في دنياه، ويتلذَّذ به من طعام، وشرابٍ، ولباسٍ، ومسكنٍ، وولدٍ، وزوجةٍ، ولذا قال الرسول ﷺ: «**الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَخَيْرُ مَتَاعِهَا الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ**» رواه مسلمٌ، والنّسائيُّ عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ. وربُّنا جلَّت قدرته قال للكافرين: ﴿تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ وقال جلَّ ذكره: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ وقال تعالى شأنه: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾.

هذا والتمتُّع بالشَّيء: التلذذ به، والانتفاع بفوائده، ومثله الاستمتاع، والاسم: المتعة، فهنيئاً لمن تمتَّع، واستمتع بالمباح الحلال، وويلٌ، ثمَّ لمن تمتَّع، واستمتع بالحرام. هذا؛ والمتعة بكسر الميم، وضمها: اسم للتمتُّع، والزاد القليل، وما يُتمتَّع به من الصَّيد، والطعام. ومتعة المرأة ما وُصِلَتْ به بعد الطلاق من نحو قميص، وإزار، وملحفة. قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًا بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. هذا؛ والتمتُّع بالمرأة إلى أجل معلوم بيَّنْتُ فساده في أول سورة (المؤمنون) وفي سورة (المعارج) وبالله التوفيق.

قال الزَّمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: شبَّه الدُّنيا بالمتاع الذي يُدَلَّس به على المستام، ويُغرُّ؛ حتَّى يشتريه، والشَّيطان هو المدلِّس، والغَرور. انتهى. أي: فهو من باب الاستعارة، قال تعالى في كثير من الآيات: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾.

الإعراب: ﴿كُلُّ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿نَفْسٍ﴾ مضاف إليه، ﴿ذَآئِقَةُ﴾: خبره، وهو مضاف، و﴿ٱلْمَوْتِ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله ضمير مستتر تقديره: هي، وقرئ بتنوين (ذائقةٍ) ونصب (الموتَ). والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَإِنَّمَا﴾:

الواو: حرف عطف. (إنّما): كافة ومكفوفة. ﴿تُوَفَّوْنَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول. ﴿أُجُورَكُمْ﴾: مفعول به ثان، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلّق بالفعل قبله، وهو مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: مضاف إليه.

﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف. (مَن): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿زُحْزِحَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الفتح في محلِّ جزم فعل الشرط، ونائب فاعله مستتر تقديره: هو يعود إلى (مَنْ). ﴿عَنِ ٱلنَّارِ﴾: متعلّقان بما قبلهما. ﴿وَأُدْخِلَ﴾ معطوف على ما قبله، ونائب فاعله يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: مفعول به ثان، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٤٢]. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿فَازَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه كما ذكرته لك مراراً، هذا وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً في محل رفع مبتدأ، فالجملة بعده صلته، وجملة: (قد فاز) في محل رفع خبره، ودخلت الفاء في الخبر؛ لأن الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة الاسمية على الاعتبارين مستأنفةٌ لا محل لها.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية مهملة. ﴿ٱلْحَيَوٰةُ﴾: مبتدأ. ﴿ٱلدُّنْيَآ﴾: صفة لها مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. هذا؛ وقال الجمل: الإضافة على معنى: في، ولا أرى له وجهاً قويّاً. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿مَتَٰعُ﴾: خبر المبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱلْغُرُورِ﴾ مضاف إليه، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها.

﴿۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾

الشرح: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾: لتختبرن، وتقع عليكم المحن، والمصائب؛ ليُعلم المؤمن من غيره. والاختبار، والامتحان يمحِّص الجيد من الرديء، كما ذكره الله سابقاً، فعلى هذا يكون معنى الاختبار في وصف الله تعالى محال؛ لأنَّ الله عالم بحقائق الأشياء قبل أن يخلقها. فعلى هذا يكون معنى الاختبار في وصف الله تعالى: أنه يعامل العبد معاملة المُختبر. ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: بكثرة المصائب فيها بالآفات التي نتعرَّض لها، وبالإنفاق في سبيل الله، وسائر

تكاليف الشرع. ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾ يعني: بالمصائب، والأمراض، والقتل، وفقد الأحباب، كقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ﴾. خوطب المسلمون بهذه الآية؛ ليوطنوا أنفسهم على احتمال الأذى، وما سيلقون من الشدائد، والمصائب؛ ليصبروا على ذلك، حتى إذا لقوها؛ لقوها؛ وهم مستعدُّون بالصبر لها، لا يرهقهم ما يرهق غيرهم ممَّن تصيبه الشِّدة بغتةً، فينكرها، ويشمئزُّ منها.

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾: يقول الله تعالى للمؤمنين عند مقدمهم المدينة قبل وقعة بدر مسلياً لهم عمَّا ينالهم من الأذى من اليهود، ومن المشركين، بل ومن المنافقين، وآمراً لهم بالصَّبر، والعفو؛ حتَّى يأتي الله بالنَّصر. وقد تحقَّق ذلك للمسلمين بعد سنوات عدَّةٍ بقتل اليهود قبيلةً، قبيلةً، وَبِذُلِّ المنافقين، وأخيراً بفتح مكة، قال عكرمة: نزلت في أبي بكر، وفنحاص كما رأيت في الآية رقم [١٨١] والأصح: أنَّها نزلت قبل وقعة بدر، كما ذكرت آنفاً.

﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟﴾: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق، ولأصحابه. والمعنى: وإن تصبروا على أذاهم، وتتَّقوا الله فيما أمركم به، ونهاكم عنه؛ لأنَّ الصبر عبارة عن احتمال الأذى، والمكروه، والتقوى عبارة عن الاحتراز عمَّا لا ينبغي. هذا؛ والإشارة بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ للصَّبر، والتَّقوى. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي: ممَّا عزمه الله، وأمر به، وقطعه قطع إيجاب وإلزام، ومنه قول النبي ﷺ: «**لَا صِيَامَ لِمَنْ لَمْ يَعْزِمِ الصِّيَامَ من اللَّيْلِ**» أي: لم يقطعه، ويجزم به بالنِّيَّة. هذا؛ ودخلت لام الابتداء في سورة (الشُّورى) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾، وهي للتَّوكيد، ولم تدخل في هذه الآية، ولا في سورة (لقمان) رقم [١٧] لأنَّ الصبر على مكروه حدث بظلم ـ كقتلٍ ـ أشدُّ من الصبر على مكروهٍ حدث بلا ظلم، كموت ولد، كما أنَّ العزم على الأول آكد منه على الثَّاني، وما في سورة (الشورى) من القبيل الأول، فكان أنسب بالتوكيد، وما هنا، وما في سورة (لقمان) من القبيل الثاني، فكان أنسب بعدمه. انتهى جمل نقلاً عن كرخي.

بعد هذا: فالفعل «تسمع» صحيح الآخر، فلمَّا أسند لواو الجماعة صار: تسمعُونَ، فلمَّا أُكِّد بنون التوكيد صار: تسمعُونَنَّ، فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال، فصار تَسمَعُونَّ، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، وبقيت الضمة على العين؛ لتدلَّ عليها، فصار (لتسمعن). وإذا أسند الفعل المعتل الآخر لواو الجماعة، مثل: يدعُو، يرمي، يسعَى، فتحذف نون الرفع وواو الجماعة، وحرف العلة، مثل: لتدعُنَّ لترمُنَّ، إلا مع المعتل بالألف، فتثبت الواو؛ لأنَّ قبلها فتحة، مثل لَتَسْعَوُنَّ، ومنه: لَتُبْلَوُنَّ.

الإعراب: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب قسم محذوف، تقديره: وعزتي، وجلالي! والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. (تبلون): فعل مضارع مبني للمجهول

مرفوع، وعلامة رفعه النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو نائب فاعله، والنون حرف لا محل له. ﴿فِي أَمْوَٰلِكُمْ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَأَنفُسِكُمْ﴾: معطوف على ما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ﴾: الواو: حرف عطف. (لتسمعن): إعرابه مثل إعراب: ﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ وواو الجماعة المحذوفة المدلول عليها بالضمة فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها؛ لأنها جواب القسم المقدَّر. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محل لها. ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ﴾: معطوفان على ما قبلهما. ﴿أَشْرَكُوٓا۟﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿أَذًى﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والألف الثابتة دليلٌ عليها، وليست عينها. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة له.

(إن): حرف شرط جازم. ﴿تَصْبِرُوا۟﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. (تَتَّقُوا): انظر إعراب مثله في الآية رقم [١٧٩]: ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب اسمها، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿مِنْ عَزْمِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: (إنَّ) و﴿عَزْمِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْأُمُورِ﴾: مضاف، والجملة الاسمية: (إن ذلك...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد، (إنَّ) ومدخولها كلام مستأنف لا محل له.

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ﴾ أي: واذكر يا محمد إذ أخذ الله. ﴿مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: اليهود، والنصارى، والمراد منهم العلماء خاصَّةً، وأخذ الميثاق هو: التوكيد، والإلزام لبيان ما أوتوه من الكتاب، وانظر الآية رقم [٨١]: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ﴾ يعني: ليبينن ما في الكتاب، وليظهرن للناس؛ حتى يعلموه، وذلك: أنَّ الله أوجب على: علماء التَّوراة، والإنجيل أن يشرحوا للناس ما في هذين الكتابين من الدَّلائل الدَّالة على نبوَّة محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾: ولكنَّهم كتموه، وتعوضوا عما وجدوا عليه من الخير في الدنيا، والآخرة بالدُّون الطفيف، والحظِّ الدُّنيوي السَّخيف، فبئست الصفقة صفقتهم! وبئست البيعة بيعتهم! وفي هذا تحذير لعلماء المسلمين أن يسلكوا مسلكهم، فيصيبهم ما أصابهم من السُّخط، والغضب، والحرمان من رضا الله في الدنيا، والآخرة. والضمير يعود إلى الميثاق، أو إلى الرسول ﷺ.

﴿فَنَبَذُوهُ﴾: طرحوه، والنبذ: الطرح. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ أي: لم يعملوا به، ولم يبينوه، فيكون الضمير عائداً إلى الكتاب أيضاً، ومثله قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٠١]: ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾. ﴿وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾: هو ما يأخذونه مِنْ سَفَلَتِهِمْ من المآكل، والرِّشا.

﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾: ذمهم الله تعالى على فعلهم ذلك، ويدخل في هذا الذمِّ علماء السُّوء من المسلمين؛ لأنهم أهل كتاب أيضاً، وهو القرآن، وهو أشرف الكتب. قال قتادة: رحمه الله تعالى: هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم، فمن علم شيئاً؛ فَلْيُعلِّمْه، وإيَّاكم وكتمان العلم؛ فإنَّه هلكة، وقال أيضاً: مَثَلُ علمٍ لا يقال به، كمثل كنزٍ لا يُنْفَق منه، ومثل حكمةٍ لا تخرج، كمثل صنم لا يأكل، ولا يشرب. وقال أيضاً: طوبى لعالم ناطق، ومستمع واعٍ، هذا عَلِمَ علماً، فبذله، وهذا سمع خبراً، فقبله، ووعاه. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سُئِلَ عِلْماً يَعْلَمُهُ، فَكَتَمَهُ؛ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ القِيَامَةِ**». أخرجه الترمذي.

هذا؛ ولا تنس الاستعارة في النبذ، والاشتراء: شبه عدم التمسك، أو العمل به بالشيء المُلقى خلف ظهر الإنسان، باشتراء ثمن قليل ما تعوَّضوه من الحطام على كتم آيات، وفي الآية الكريمة من المحسِّنات البديعية: الطباق بين (لتبيننه) و(لا تكتمونه).

هذا وجاء (وراء) هنا بمعنى: خلف، ويأتي بمعنى: أمام، وقدَّام، قال تعالى في سورة (الكهف): ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وأيضاً قوله تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ كما يأتي بمعنى «بعد» خذ قوله تعالى في سورة هود: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: من بعد إسحاق يعقوب، وقال النابغة الذبياني: [الطويل]

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وَلَيْسَ وَرَاءَ اللهِ لِلْمَرْءِ مَطْلَبُ

أي: وليس بعد الله جل جلاله، وكذلك قوله تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة وألف سلام: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ أي: من بعده. ومن مجيئه بمعنى: أمام، وقدَّام قول لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي ... لُزُومُ الْعَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الأَصَابِعُ؟

وأيضاً قول سوار بن المضرَّب السَّعدي، وكان قد هرب من الحجاج حين فرض البعث مع المهلب ابن أبي صفرة لقتال الخوارج: [الطويل]

أَيَرْجُو بَنُو مَرْوَانَ سَمْعِي وطَاعَتِي ... وَقَوْمِي تَمِيمٌ وَالْفَلَاةُ وَرَائِيَا

وثبت بما تقدَّم: أنَّه من الأضداد، وهو منصوب على الظرفية المكانية، قال الأخفش: يقال: لقيته مِنْ وراءُ، فترفعه على الغاية إذا كان غير مضاف تجعله اسماً، وهو غير متمكن، كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ وأنشد قول الشاعر: [الطويل]

إذا أنـا لـمْ أومَـنْ عَـلَـيْـكَ وَلَـمْ يَـكُـنْ لِـقَـاؤُكَ إلَّا مِـنْ وَرَاءُ وَرَاءُ

الإعراب: ﴿وَإِذْ﴾: الواو: حرف استئناف، (إذ): ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلّق بفعلٍ محذوف، تقديره: اذكر وقت، وابن هشام في مغني اللبيب يعتبره مفعولاً به لهذا المقدَّر. ﴿أَخَذَ﴾: فعل ماض. ﴿اللَّهُ﴾: فاعله. ﴿مِيثَٰقَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿أُوتُوا﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول. ﴿الْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها.

﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾: اللام: واقعة في جواب قسم محذوف، وهو مفهوم من أخذ الميثاق. (تبيننه): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة، المدلول عليها بالضمة فاعله، ونون التوكيد حرف لا محل له، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب القسم، وجملة: ﴿وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ معطوفة عليها، لا محلَّ لها مثلها، ولم تؤكد بنون التوكيد؛ لأنَّها للحال، وشرط توكيد الفعل بالنون أن يكون مستقبلاً مثل ما قبله.

﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلِّقان بما قبلهما. ﴿فَنَبَذُوهُ﴾: الفاء: حرف عطف. (نبذوه): فعل ماض، وفاعله ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿أَخَذَ اللَّهُ...﴾ إلخ فهي في محل جرٍّ مثلها، ﴿وَرَآءَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بالفعل قبله، وهو مضاف، وظهورهم مضاف إليه، والهاء في محل جر بالإضافة.

(اشتروا): فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان به. ﴿ثَمَنًا﴾: مفعول به. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جرٍّ أيضاً.

﴿فَبِئْسَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (بئس): فعل ماض جامد دال على إنشاء الذمِّ. ﴿مَا﴾: نكرة موصوفة مبنية على السُّكون في محل نصب على التَّمييز، وفاعل (بئس) ضمير مستتر دلَّ عليه هذا التمييز. ﴿يَشْتَرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محلِّ نصبِ صفة (ما) والرابط محذوف، وتقدير الكلام: بئس الشيء شيئاً مشترىً به أنفسهم. وإن أردت الزيادة؛ فانظر الآية رقم [٩٠] من سورة (البقرة).

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾

الشرح: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ﴾: قرئ بالتاء على الخطاب للنبيِّ ﷺ، أي: لا تحسبن يا محمد الفارحين؛ الذين يفرحون. وقرئ بالياء على الغيبة، يعني: لا يحسبن الذين يفرحون

فرحهم منجياً لهم من العذاب. نزلت الآية الكريمة في المنافقين. وخذ ما يلي: عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أن رجالاً من المنافقين على عهد رسول الله ﷺ كان إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو، وتخلَّوا عنه؛ فرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ، فإذا قدم رسول الله ﷺ، اعتذروا إليه، وحلفوا، وأحبُّوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت الآية الكريمة. متَّفقٌ عليه. وانظر سورة (التوبة) رقم [٨١].

وقيل: نزلت في اليهود. وخذ ما يلي: عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنهما ـ: أن مروان بن الحكم ـ وكان أميراً على المدينة ـ قال: لبوَّابِهِ: اذهب يا رافعُ إلى ابن عباس، فقل له: لئن كان كلٌّ منا فرح بما أتى، وأحبَّ أن يُحمد بما لم يفعل معذباً؛ لتُعذَّبنَّ أجمعون!

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: مالكم ولهذه الآية؟، إنَّما نزلت هذه الآية في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ الآية، والتي قبلها. وقال ابن عباس: سألهم رسول الله ﷺ عن شيءٍ، فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره. فخرجوا؛ وقد رأوا: أنَّهم قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا عليه بذلك، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم إيَّاه ما سألهم عنه. متفق عليه أيضاً. وقال محمَّد بن كعب القرظي ـ رضي الله عنه ـ: نزلت في علماء بني إسرائيل الذين كتموا الحق، وأتوا ملوكهم من العلم ما يوافقهم في باطلهم.

﴿وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ﴾ أي: ويحبُّون أن يحمدهم الناس على شيءٍ لم يفعلوه؛ أي: يحبون أن يقول الناس لهم: علماء، وليسوا بأهل العلم على الحقيقة. وقيل: فرحوا بما أتوا من تبديلهم التوراة، وأحبُّوا أن يحمدهم الناس على ذلك. ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي: بمنجاة من العذاب، والمفازة: المنجاة، وتطلق على الأرض الفقر الواسعة الشَّاسعة، سمِّيت بذلك على جهة التفاؤل، أو لأنَّ مَنْ قطعها؛ فاز. وقرئ الفعل بفتح التاء، والياء، فيكون الفعل تأكيداً للأول وقرئ بفتح التاء، وضمِّ الباء، فيكون المراد النبي ﷺ وأصحابه، والمعنى: لا تظنَّهم بمنجاة من العذاب؛ الذي أعدَّه الله لهم في الدنيا من القتل، والأسر، وضرب الجزية، والذلَّة، والصغار، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: في الآخرة، وهذه الآية وإن كانت نزلت في اليهود، أو المنافقين، فإنَّ حكمها عامٌّ في كلِّ من أحبَّ أن يحمد بما لم يفعل من الخير، والصلاح، أو ينسب إلى العلم؛ وليس هو كذل. ، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ والفرح لذةٌ في القلب في إدراك المحبوب، ولذا أكثر ما يستعمل في اللَّذات البدنية الدنيويَّة، وقد ذمَّ الله الفرح في مواضع من كتابه، كقوله تعالى في سورة (القصص) رقم [٧٦]: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ رقم [١٠] من سورة (هود) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، ولكنَّه مطلق، فإذا قيد الفرح؛ لم يكن ذمّاً، كقوله تعالى في هذه السورة في حقِّ الشهداء: ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وقال تعالى:

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾ رقم [٥٨] من سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة وألف سلام. وقال جلَّ ذكره في سورة (الروم) رقم [٤ و٥]: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾.

الإعراب: ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَحْسَبَنَّ﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة في محلِّ جزم بـ (لا) الناهية، والفاعل مستتر تقديره: «أنت». وهذا على فتح الباء، وأمَّا على ضمِّها؛ فالفاعل واو الجماعة، وهي محذوفة دلَّ عليها الضمَّة على الباء قبلها، ويكون علامة الجزم حذف النُّون؛ لأنه من الأفعال الخمسة. و﴿ٱلَّذِينَ﴾: هو المفعول الأول، والمفعول الثاني محذوف، دلَّ عليه ما بعده، تقديره: بمفازة، وأما على قراءة الياء، فالذين هو الفاعل، والمفعولان محذوفان، اكتفاءً بمفعولي الفعل الآتي، ومنه قول الكُمَيْتِ بن زيد الأسدي، وهو الشاهد رقم [١] من كتابنا: «فتح رب البريَّة»: [الطويل]

بِأَيِّ كِتَابٍ أَمْ بِأَيَّةِ سُنَّةٍ تَرَى حُبَّهُمْ عَاراً عَلَيَّ وَتَحْسَبُ

﴿يَفْرَحُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . . إلخ، والواو فاعله. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء. ﴿أَتَوا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيءٍ أتوه. (يُحِبُّونَ): مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أن يحمدوا: فعل مضارع منصوب بأن، وعلامة نصبه حذف النون، وهو مبنيٌّ للمجهول، والواو نائب فاعله، والمصدر المؤول منهما في محل نصب مفعول به. ﴿بِمَا﴾: متعلقان بما قبلهما، و(ما) مثل سابقتها. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَفْعَلُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾ وعلامة جزمه. . . إلخ، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيءٍ لم يفعلوه، ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف عطف. أو هي صلة على اعتبار الفعل بعدها بدلاً من السابق. ﴿تَحْسَبَنَّهُم﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. ﴿بِمَفَازَةٍ﴾: متعلِّقان به، وهما في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو هي بدل منها، لا محلَّ لها على الاعتبارين. ﴿مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾: متعلقان بـ (مفازة) أو: بمحذوف صفة لها. ﴿وَلَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (لهم): جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿عَذَابٌ﴾: مبتدأ مؤخر. ﴿أَلِيمٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الضمير المنصوب، والرابط: الواو، والضمير.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٨٩﴾

الشرح: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ...﴾ إلخ أي: ملكاً، وخلقاً، وعبيداً، وفي كثير من الآيات: ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ أي: الموجود بين السماء، والأرض، من أفلاك، وكواكب في السماء، وما على

الأرض من جبال، وأنهار، وبحار. . . إلخ، فكل ذلك ملك لله تعالى، لا يشركه فيه أحد، وما يملكه الإنسان في هذه الدنيا الفانية، فإنما هو له ملك في الظاهر، قد منحه الله له ليتمتع به على وجه الوكالة والأمانة، فهنيئاً لمن أحسن الوكالة، وويل لمن قصر في الوكالة، وخان في الأمانة.

﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر على كلِّ شيءٍ لا يعجزه شيءٌ، فاعبدوه، ولا تخالفوه، واحذروا غضبه، ونقمته، فإنَّه العظيم الَّذي لا أعظم منه، القدير الَّذي لا أقدر منه.

الإعراب: ﴿وَلِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿مُلۡكُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾: معطوف على سابقه، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها من الإعراب. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بقدير بعدهما، و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿شَيۡءٖ﴾: مضاف إليه. ﴿قَدِيرٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلهما لا محل لها مثلها.

﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾

الشرح: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾: انظر الآية رقم [١٦٤/ ٢] ﴿ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾: انظر الآية رقم [٥١/ ٢] والمراد باختلافهما ما يحصل فيهما من الزيادة والنقصان تبعاً لفصول السنة كما هو معروف. ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: لدلائل واضحة على وجود الصانع، ووحدته، وكمال علمه وقدرته لذوي العقول المجلوة الخالصة عن شوائب الوهم، والحس، كما سبق في الآية رقم [١٦٤/ ٢] ولعل الاقتصار على هذه الثلاثة في هذه الآية؛ لأن مناط الاستدلال هو التغيير، وهذه متعرضة لجميع أنواعه. ﴿لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: انظر الآية رقم [١٧٨/ ٢].

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿فِي خَلۡقِ﴾ متعلقان بمحذوف خبر مقدم. و﴿خَلۡقِ﴾: مضاف، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، وقال الجمل: الخلق: بمعنى المخلوق، إذ الآيات التي تشاهد إنما هي في المخلوق الذي هو السموات والأرض، وحينئذ فالإضافة بيانية. ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾: معطوف على سابقه. ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ﴾: معطوف على: ﴿خَلۡقِ﴾: وهو مضاف، و﴿ٱلَّيۡلِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله، ﴿وَٱلنَّهَارِ﴾: معطوف على الليل. ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾: اللام: لام الابتداء. (آيات): اسم (إنَّ) مؤخر منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم. ﴿لِّأُوْلِي﴾: متعلقان بمحذوف صفة: (آيات) وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و(أولي): مضاف، و﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها من الإعراب.

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ...﴾ إلخ. أي: يذكرون الله دائماً على جميع الحالات، قائمين، وقاعدين، ومضطجعين، وماشين، وراكبين. وقيل: معناه يصلُّون على الهيئات الثلاث حسب طاقتهم، لقول النَّبيِّ ﷺ لعمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ لمَّا أُصيب بالبواسير: «**صَلِّ قَائِماً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَقَاعِداً، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ؛ فَعَلَى جَنْبٍ**». أخرجه الشيخان في الصَّحيحين، ولا دليل في الآية الكريمة لِلَّذين يذكرون الله قياماً، وهم يصفِّقون، ويأتون بحركاتٍ، ويتكلَّمون بكلماتٍ ليست من الدِّين في شيءٍ. انظر ما نقلتُه عن القرطبي في سورة (الأنفال) رقم [٢] و [٣٥] تجدْ ما يسرُّك.

هذا؛ وإنَّ النَّبيّ ﷺ ذكر لنا ألفاظاً، ورغَّبنا بذكر الله فيها، لا ما ينطق به هؤلاء المبتدعة. من ذلك قوله ﷺ: «**كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ، ثَقِيلَتَانِ فِي المِيزَانِ، حَبِيبَتَانِ إِلَى الرَّحْمَنِ، سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللهِ الْعَظِيمِ**». أخرجه الخمسة ما عدا أبا داود.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وعن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال، قال رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ الْكَلامِ إِلَى اللهِ أَرْبَعٌ: سُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَاللهُ أَكْبَرُ. لا يَضُرُّكَ بِأَيِّهِنَّ بَدَأْتَ**». رواه مسلمٌ، وغيره.

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ حدَّثهم: أنَّ عبداً من عبادِ الله قال: «**يا رَبِّ لكَ الْحَمدُ، كَمَا يَنْبَغِي لِجلالِ وَجْهِكَ، وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فَعَضَّلَتْ بِالْمَلَكَيْنِ، فَلَمْ يَدْرِيَا كَيْفَ يَكْتُبَانِهَا، فصعدا إلى السَّماء، فقالا: يا رَبنا! إنَّ عَبْدَكَ قَدْ قَالَ مَقَالَةً، لا نَدْرِي كَيْفَ نَكْتُبُهَا؟ قَالَ اللهُ ـ وهو أعلم بما قال عَبْدُهُ ـ: ماذَا قَالَ عَبْدِي؟ قالا: يَا رَبِّ! إِنَّه قَالَ: يَا رَبِّ لَكَ الحَمْدُ كَمَا يَنْبَغِي لِجَلالِ وَجْهِكَ وَلِعَظِيمِ سُلْطَانِكَ، فقالَ اللهُ لَهُمَا: اكْتُبَاهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي حَتَّى يَلْقَانِي، فأنا أَجْزِيهِ بِهَا**». رواه أحمد.

وعن أبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ قال، قال رجل عند رسول الله ﷺ: «**الْحَمْدُ للهِ حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُبارَكاً فِيهِ**» فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صَاحِبُ الْكَلِمَةِ؟**» فسكت الرَّجل، وظن: أنَّه قد هَجَمَ من رسول الله ﷺ على شيءٍ يكرهه، فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ هُوَ؟ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ إلا صَوَاباً**». فقال الرَّجل: أنا قلتُها يا رسول الله! أرجو بها الخير، فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ رَأَيْتُ ثَلاثَةَ عَشَرَ مَلَكاً يبتدرونَ كَلِمَتَكَ أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا إِلَى اللهِ تبَارَكَ وَتَعَالَى**». رواه الطَّبراني، وانظر الآية رقم [١٥٢] من سورة (البقرة) تجدْ ما يسرك، ويثلجْ صدرَك.

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كان رسول الله ﷺ يذكر الله عز وجل في كلِّ أحيانه. أخرجه مسلم. وأقول: وفي كلِّ حالاته، وحركاته، وسكناته، لكن لا بالتَّصفيق، والرقص،

والتَّمايل إلى الأمام، والوراء. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ قَعَدَ مَقْعَدَاً لَمْ يَذْكُرِ اللهَ فِيهِ؛ كَانَتْ عَلَيهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ. وَمَنِ اضْطَجَعَ مَضْجَعَاً، لا يَذْكُرَ اللهَ فِيهِ؛ كَانَتْ عَلَيهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ، وَمَا مَشَى أَحَدٌ مَمْشَى لا يَذْكُرُ اللهَ فِيْهِ؛ إلا كَانَتْ عَلَيْهِ مِنَ اللهِ تِرَةٌ»**. أخرجه أبو داود. والتِّرة: النقص. وقيل: التَّبِعة بمعنى المؤاخذة.

﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: وإذا تفكَّروا؛ اتعظوا، وإذا اتعظوا؛ آمنوا، وإذا آمنوا؛ عبدوا الله. والتفكُّر في صنع الله أعظم عبادة يقوم بها العبد، وقد ورد: لَتفكُّرُ ساعةٍ في صنع اللهِ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سنةٍ. وفي روايةٍ عن النَّبيِّ ﷺ: أَفْضلُ مِنْ عِبَادَةِ ستينَ سَنَةً، وورد تفكَّروا في آلاء الله، ولا تفكروا في الله، فإنَّه لا تحيط به الفكرة. ومرَّ النبي ﷺ على قومٍ يتفكرون في الله، فقال: **«تفكَّرُوا فِي الخلْقِ، وَلا تَفكَّرُوا فِي الخالِقِ، فَإِنَّكُمْ لا تَقْدُرُونَ قَدْرَهُ»**.

وروي عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: **«لا عِبَادَةَ كَالتَّفَكُّرِ»** لأنَّه المخصوص بالقلب، والمقصود من الخلق. وروي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: **«بَيْنَمَا رَجُلٌ مُسْتَلْقٍ عَلَى فِرَاشِهِ؛ إِذْ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَنَظَرَ إِلَى السَّمَاءِ، وَالنُّجومِ، فقال: أشهدُ أَنَّ لَكِ رَبَّاً، وَخَالِقَاً! اللهُمَّ اغفرْ لِي! فَنَظَرَ اللهُ إِلَيْهِ، فَغَفَرَ لَهُ»**.

هذا؛ والفكر: تصرف القلب في طلب الأشياء. وقال صاحب المفردات: الفكر: قوَّة مطرقة للعلم إلى العلوم. والتفكُّر: جريان تلك القوة بحسب نظر العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلا فيما يمكن أن يكون له صورة في القلب. انتهى. هذا؛ والفكر يؤدِّي إلى الوقوف على المعاني المطلوبة من التآنس، والتجانس بين الأشياء، كالزوجين.

وإنَّما خصَّ السموات، والأرض بالذكر هنا وفي كثير من الآيات؛ لأنهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وجمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ دون (الأرض) وهي مثلهنَّ سبعاً بدليل قوله تعالى في سورة الطَّلاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾؛ لأنَّ طبقاتها مختلفة بالذَّات، متفاوتة في الصِّفات، والآثار، والحركات، وقدَّمها لشرفها، وعلوِّ مكانها، وتقدُّم وجودها، ولأنها متعبد الملائكة، ولم يقع فيها معصية كما في الأرض. وأيضاً: لأنها كالذَّكر، فنزول المطر من السَّماء على الأرض كنزول المني من الذَّكر في رحم المرأة، ولأنَّ الأرض تنبت، وتخضرُّ بالمطر. ووحَّد الأرض؛ لأنها بجميع طبقاتها جنسٌ واحدة، وهو التراب، والأحجار.

وآية السموات: ارتفاعها بغير عمد من تحتها، ولا علائق من فوقها، ثمّ ما فيها من الشَّمس، والقمر، والنجوم السَّائرة، والكواكب الزَّاهرة، شارقةً، وغاربة، نيِّرة، وممحوةً آية ثانية، وآية الأرض: مدُّها، وبسطها، وما فيها من الجبال، والبحار، والمعارف، والجواهر، والأنهار، والأشجار، والثمار، وما بثَّ فيها من أجناس المخلوقات، فيعلم العباد حينئذٍ: أنَّ لهما خالقاً مدبِّراً حكيماً؛ لأن عظم آثاره، وأفعاله تدلُّ على عظم خالقها، كما قيل: [المتقارب]

وَفِــي كُــلِّ شَــيءٍ لَــهُ آيَــةٌ تَــدُلُّ عَــلَــى أَنَّــهُ وَاحِــدُ

﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا﴾ أي: يقولون: ربنا ما خلقت هذا خلقاً باطلاً بغير حكمة، بل خلقته لحكمةٍ عظيمة، وهو أن تجعلها مساكن للمكلَّفين، وأدلَّةً لهم على معرفتك، وتحثُّهم على طاعتك؛ لينالوا الحياة الأبدية، والسَّعادة السَّرمدية في جوارك.

﴿سُبْحَٰنَكَ﴾: تنزيهاً لك عن جميع المعايب، والنقائص، و(سبحان): اسم مصدر. وقيل: مصدر، مثل: غفران. وليس بشيءٍ؛ لأن الفعل «سبَّح» بتشديد الباء، والمصدر تسبيح، ولا يكاد يستعمل إلا مضافاً منصوباً بإضمار فعله، مثل: معاذ الله، وقد أجري على التَّسبيح، بمعنى التنزيه على الشُّذوذ في قول الأعشى: [السريع]

قَــدْ قُــلْــتُ لَــمَّــا جَــاءَنِــي فَــخْــرُهُ سُــبْــحَــانَ مَــن عَــلْــقَــمَــةَ الْــفَــاخِــرِ

وتصدير الكلام به اعتذارٌ عن الاستفسار، والجهل بحقيقة الحال، ولذلك جعل مفتاح التوبة في قوله تعالى، حكاية عن قول موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وقد نزَّه الله ذاته في كثيرٍ من الآيات تنزيهاً يليق بجلاله، وعظمته. وجملة القول فيه: هو اسم موضوع موضع المصدر، وهو غير متمكِّن؛ لأنَّه لا يجري بوجوه الإعراب، مِنْ رفعٍ، وجرٍّ، ولا تدخل عليه الألف، واللام، ولم يجئْ من لفظه فعل، وذلك مثل: قعد القرفصاء، ولم ينصرف؛ لأن في آخره زائدتين: الألف والنون، ومعناه: التنزيه، والبراءة لله ـ عزَّ وجل ـ من كلِّ نقص، فهو ذكر لِلَّه تعالى، لا يصلح لغيره، والعامل فيه على مذهب سيبويه الفعل الذي من معناه، لا من لفظه؛ إذ لم يجر له فعل من لفظه، وذلك مثل: قعد القرفصاء، فالتقدير عنده: أُنزِّه الله تنزيهاً، فوقع: «سبحان الله» مكان: «تنزيهاً لله». وانظر الإعراب.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح، وفيه أوجه: **الأول**: في محل جر بدلاً مِنْ: (أولي الألباب) أو صفة. **الثاني**: في محل نصب بفعل محذوف، التقدير: أمدح، أو أعني. **الثالث**: في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، وعليه؛ فالجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محل لها. ﴿يَذْكُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿قِيَٰمًا﴾: حال من واو الجماعة، وهو مصدر بمعنى: قائمين. ﴿وَقُعُودًا﴾: معطوف عليه، وهو بمعنى: قاعدين. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال أيضاً، معطوف على ما قبله، التقدير: ومضطجعين على جنوبهم. والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ﴾ معطوفة على جملة الصِّلة، لا محلَّ لها مثلها. ﴿فِي خَلْقِ﴾: متعلقان به، و﴿خَلْقِ﴾: مضاف، و﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: مضاف إليه، وانظر الآية السَّابقة.

﴿رَبَّنَا﴾: منادى، حذف منه أداة النداء، ونا في محل جرٍّ بالإضافة، مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿خَلَقْتَ﴾: فعل، وفاعل. ﴿هَٰذَا﴾: الهاء: حرف تنبيه، لا محلَّ له. (ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿بَٰطِلًا﴾: حال من اسم الإشارة، وهي حال لازمة لا يُستغنى عنها؛ إذ لو حُذفت؛ لَلَزِم نفي الخلق، وهو لا يصحُّ. انظر الحال، وأنواعها في الآية رقم [٨٨]. أو هو مفعول لأجله، أي: لِلْبَاطل. أو هو منصوب بنزع الخافض. انتهى جمل نقلاً عن كرخي. وقيل: هو صفة مصدر محذوف، التقدير: ما خلقت هذا خلقاً باطلاً. وقيل: هو على المفعول الثاني، ويكون (خلق) بمعنى: «جعل» والكلام في محلٍّ نصب لقول محذوف، يقع حالاً، التقدير: قائلين: ربنا ما خلقت. . .إلخ، والحال من واو الجماعة.

﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، كما رأيت في الشرح، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة المصدر أو اسم المصدر لفاعله، فيكون المفعول محذوفاً، أو من إضافته لمفعوله، فيكون الفاعل محذوفاً، والجملة الحاصلة منه، ومن فعله مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿فَقِنَا﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرط مقدَّر. (قنا): فعل دعاء مبني على حذف حرف العلة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت. و: (نا) مفعول به أول، وانظر شرح هذا الفعل في الآية رقم [١٦]. ﴿عَذَابَ﴾: مفعول به ثان، وهو مضاف، و﴿ٱلنَّارِ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿فَقِنَا...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب لشرط غير جازم، التقدير: فإذا نزهناك، وعظمناك؛ فقنا. . .إلخ.

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾

الشرح: ﴿رَبَّنَآ﴾: انظر الآية رقم [٨]. ﴿إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾ أي: أذللته، وأهنته. وقال المفضل: أهلكته، وأنشد قول الشَّاعر: [الكامل]

أَخْـزَى الإلَـهُ مـع الـصَّـلِـيـب عَـبِـيـدهُ الـلابِـسِـيـنَ قَـلانِـسَ الـرُّهْـبَـانِ

والإخزاء هو: الإذلال، قال ذو الإصبع العدواني، وهو الشاهد رقم [٢٦٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

لاهِ ابـنُ عَـمِّـكَ لا أَفْـضَـلْـتَ فِـي حَـسَـبٍ عَـنِّـي وَ لا أَنْـتَ دَيَّـانِـي فَـتَـخْـزُونِـي

ومنه قول حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ، يخاطب به مَنْ شَجَّ وجه النبيِّ ﷺ في غزوة أُحُدٍ: [الطويل]

فَـأَخْـزَاكَ رَبِّـي يَـا عُـتَـيْـبَ بـنَ مَـالِـكٍ وَلَـقَّـاكَ قَـبْـلَ الْـمَـوْتِ إِحْـدَى الـصَّـوَاعِـقِ

مَــدَدْتَ يَــمِــيــنَــاً لِــلــنَّــبِــيِّ تَــعَــمُّــدَاً وَدمَّــيْــتَ فَــاهُ قُــطِّــعــتْ بِــالْــبَــوارِقِ

وهو على هذا من الرُّباعي، كما في الآية الَّتي بين أيدينا. وهو من الثلاثي: خزي، يخزى، خزايةً، بمعنى: استحيا، وخجل. قال نهشلُ بن حريٍّ الدَّارميُّ من قصيدة يرثي بها أخاه مالكاً، وكان قد قُتِلَ مع الإمام علي ـ رضي الله عنه ـ بصفِّين: [الطويل]

أَخٌ مَـاجِـدٌ لَـمْ يَـخْـزِنِـي يَـوْمَ مَـشْـهَـدٍ كَـمَا سَيْفُ عَـمْرٍو لَمْ تَـخُـنْـهُ مَضَارِبُـه

وهذا هو الشاهد رقم [٣٢٤]: من كتابنا المذكور، وقال ذو الرمة: [البسيط]

خِــزَايَــةً أَدْرَكَــتْــهُ بَــعْــدَ جَــوْلَــتِــهِ مِنْ جَانِبِ الْحَبْلِ مَخْلُوطاً بِهَا الْغَضَبُ

ويفهم من الآية الكريمة: أنَّ العذاب الرُّوحاني أفظع من العذاب الجسماني؛ لأنَّ الإخزاء هو الذلُّ، كما رأيت، ولا يكون إلا مِنْ مؤثِّرات الرُّوح، لا البدن. ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ﴾: مِنْ شفعاء، وأعوان، والظالمون: هم الذين ظلموا أنفسهم بالشِّرك، أو بارتكاب الكبائر، وماتوا قبل أن يتوبوا. وقد وُضِعَ المُظهر موضع المُضمر؛ للدَّلالة على أنّ ظلمهم تسبب لإدخالهم النار، وانقطاع النُّصرة عنهم في الخلاص. والأحاديث الشَّريفة تثبت وقوعها لهم. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾.

الإعراب: ﴿رَبَّنَآ﴾: انظر الآية السابقة. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمها. ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، أو في محل نصب مفعول به مقدَّم، وعلى الأوَّل؛ فالمفعول الأول لفعل الشرط محذوفٌ، التقدير: تدخله. ﴿تُدۡخِلِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿ٱلنَّارَ﴾: يقال في هذا ما رأيتَه في مفعول: ﴿تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ﴾ في الآية رقم [١٤٢]. ﴿فَقَدۡ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَخۡزَيۡتَهُۥ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد. هذا؛ وخبر المبتدأ الذي هو: ﴿مَن﴾ مختلفٌ فيه كما ذكرتُه لك مراراً، و ﴿مَن﴾ ومدخولها على الوجهين المعتبرين فيها في محل رفع خبر: (إنَّ) والكلام كلُّه في محل نصب مقول القول لقول محذوف واقع حالاً، كما رأيت في الآية السابقة، وهو أولى مِن اعتباره كلاماً مستأنفاً.

﴿وَمَا﴾: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مُقدَّم. ﴿مِنۡ﴾: حرف جر صلة. ﴿أَنصَارٖ﴾: مبتدأ مؤخَّر مرفوع، وعلامة رفعه ضمةٌ مقدَّرةٌ على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. هذا؛ وهناك مَنْ يجيز اعتبار أنصار فاعلاً بالجار والمجرور قبله، لاعتماده على النَّفي، ولم يذكر المتعلَّق، فهما متعلقان بفعل

محذوف، تقديره: وما يوجد للظالمين أنصار. هذا؛ وإن اعتبرت (ما): نافية حجازية تعمل عمل ليس؛ فالجار والمجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب خبرها مقدَّماً، و﴿أَنصَارٍ﴾ اسمها مؤخراً، وعلى الاعتبارين فالجملة الاسمية، وهي في محل نصب حال من الضمير الواقع مفعولاً به، والرابط: الواو فقط، أو هي مستأنفة، أو معترضة اعتراضاً تذييلياً في آخر الكلام، لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾

الشرح: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وأكثر المفسِّرين: المنادي هو محمد ﷺ. ويدلُّ على صحة هذا القول قوله تعالى في آخر سورة (النَّحل): ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ...﴾ إلخ. وقوله جلَّ شأنه في سورة (الأحزاب): ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ...﴾ إلخ، وقال محمَّد بن كعب القرظي ـ رضي الله عنه ـ: المنادي هو القرآن؛ إذ ليس كلُّ أحد لقي النبيَّ ﷺ. ووجه هذا القول: أنَّ كل واحدٍ يسمع القرآن، ويفهمه، فإذا وفقه الله تعالى للإيمان به؛ فقد فاز به، وذلك؛ لأنَّ القرآن مشتملٌ على الرُّشد، والهدى، وأنواع الدلائل الدَّالة على الوحدانية، فصار كالدَّاعي إليها.

﴿أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا﴾: فصدقنا. ﴿رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: كبائر ذنوبنا. ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾ أي: صغائر ذنوبنا. هذا؛ وجمع بين غفران الذنوب، وبين تكفير السَّيئات؛ لأنَّ غفران الذنوب بمجرَّد الفضل، وتكفير السَّيئات بمحوها بالحسنات. أو الأوَّل في الكبائر، والثَّاني في الصغائر، فلا تكرار، فلا يرد السُّؤال: كيف ذكر الثاني مع أنَّه معلوم من الأول؟ ﴿وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ أي: اقبض أرواحنا في جملة الأبرار، أي: اجعلنا منهم، أو محشورين معهم، والأبرار واحدهم: برٌّ وبارٌّ، وهو مَنْ يفعل أفعال البرِّ، أي: الخير، والمراد بهم الأنبياء، والصدِّيقون، والصَّالحون. وفيه تنبيهٌ على أنَّهم يحبُّون لقاء الله، ومن أحبَّ لقاء الله؛ أحبَّ الله لقاءه.

الإعراب: ﴿رَّبَّنَآ﴾: مثل سابقه. ﴿إِنَّنَا﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا): في محل نصب اسمها. ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿مُنَادِيًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ). والكلام كله في محل نصب مقول القول لقول محذوف، كما رأيت في الآيتين السابقتين. ﴿يُنَادِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى: ﴿مُنَادِيًا﴾. ﴿لِلْإِيمَـٰنِ﴾: متعلقا بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب صفة: ﴿مُنَادِيًا﴾ أو هي في محل نصب حال من الضمير المستتر في: ﴿مُنَادِيًا﴾. قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: فأيَّة فائدة في الجمع بين (المنادي) و (ينادي) قلت: ذكر النِّداء مطلقاً، ثمَّ مقيَّداً بالإيمان. تفخيماً لشأن

المنادي؛ لأنه لا منادي أعظم من منادٍ ينادي للإيمان. ونحوه: قولك: مررت بهادٍ يهدي للإسلام، وذلك: أنَّ المنادي إذا أطلق؛ ذهب الوهم إلى منادٍ للحرب، وغير ذلك انتهى.

﴿أَنْ﴾: حرف تفسير؛ لأنَّها سُبِقَتْ بجملة فيها معنى القول دون حروفه، وبعضهم يعتبرها مصدرية. ﴿ءَامِنُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِرَبِّكُمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية مفسِّرة لا محل لها، وعلى اعتبار: (أَنْ) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محلِّ جرٍّ بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: بأن آمنوا، أي: بالإيمان، والجارِّ، والمجرور متعلِّقان بما قبلهما، والأول أقوى معنىً، وأتمُّ سبكاً. ﴿فَـَٔامَنَّا﴾: الفاء: حرف عطف. (آمنا): فعل، وفاعل. والمتعلَّق محذوف، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿سَمِعْنَا...﴾ إلخ.

﴿رَبَّنَا﴾: توكيد لما قبلها. ﴿فَٱغْفِرْ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (اغفر): فعل دعاء، والفاعل تقديره: أنت. ﴿لَنَا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿ذُنُوبَنَا﴾: مفعول به، و(نا) في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان الإيمان حاصلاً مِنَّا؛ فاغفر... إلخ، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿عَنَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿سَيِّـَٔاتِنَا﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنه جمع مؤنث سالم، (نا): في محل جر بالإضافة. ﴿وَتَوَفَّنَا﴾: فعل دعاء مبني على حذف حرف العلَّة من آخره، وهو «الألف» والفاعل مستتر تقديره: أنت، و (نا): مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف حال من (نا) التقدير: توفنا أبراراً مع الأبرار. و﴿مَعَ﴾: مضاف، و﴿ٱلْأَبْرَارِ﴾: مضاف، ومثل الآية الكريمة قول النابغة في حذف متعلَّق الظرف: [الوافر]

كَأَنَّكَ مِنْ جِمَالِ بَنِي أُقَيْشٍ يُقَعْقَعُ خَلْفَ رِجْلَيْهِ بِشَنِّ

أي: كأنَّك جملٌ من جمال بني أقيش. انتهى مكي.

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾

الشرح: ﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا﴾: أعطنا، وامنحنا. ﴿مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ أي: على ألسنة رسلك من الفضل، والرَّحمة، والعزَّة، والنَّصر، والتأييد، والمعونة، ودخول الجنَّة للمطيعين. وهذا السؤال ليس من خوف الخلف في حقِّه تعالى، بل هو مخافة ألا يعمل الموعودون بما أمر الله به من قصورٍ في الامتثال، أو مخافة من سوء العاقبة، والعياذ بالله!. ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾ أي: لا تعذبنا،

ولا تفضحنا، ولا تُهِنَّا، ولا تمقتنا يوم القيامة. ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: بإثابة المؤمن المطيع، وإجابة الدَّاعي، وتحقيق النصر، وتوفير العزَّة، والكرامة للمؤمنين. وفيه: أنَّهم دعوْا بهذا الدُّعاء على جهة العبادة، والخضوع، والتوكيد لما تقدَّم، كقوله تعالى في آخر سورة (الأنبياء): ﴿قَلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ ومعلومٌ: أنه سبحان لا يقضي، ولا يحكم إلا بالحقِّ. هذا وانظر الوعد في الآية رقم [٥١]: من سورة (البقرة) فإنَّه جيد، والحمد لله!

الإعراب: ﴿رَبَّنَا﴾: تقدم إعرابها. (آتنا): فعل دعاء مبني على حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت، و(نا) مفعول به أوَّل. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنيَّة على السُّكون في محل نصب مفعول به ثانٍ. ﴿وَعَدتَّنَا﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به أول، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: آتنا الذي، أو: شيئاً وعدتناه. ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾: متعلقان بما قبلهما ويجوز أن يكونا متعلقين بمحذوف حال؛ أي: منزلاً، أو محمولاً على لسان رسلك، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة، وجملة: ﴿وَءَاتِنَا...﴾ إلخ معطوفة على جملة: (اغفر...) إلخ لا محلَّ لها مثلها. ﴿وَلَا تُخْزِنَا﴾: الواو: حرف عطف. لا ناهية جازمة. تخزنا: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف حرف العلة... إلخ، والفاعل تقديره: أنت، و(نا) مفعول به. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله، و﴿يَوْمَ﴾ مضاف، و﴿ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿إِنَّكَ﴾: حرف مشبَّه بالفعل، والكاف اسمه، والجملة الفعلية: ﴿لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ في محل رفع خبر: (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليلٌ للدُّعاء لا محلَّ لها، وجملة الكلام في محل نصبٍ مقول القول.

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾: أي: فأجاب الله دعاءهم، وأعطاهم سؤلهم. ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم﴾ أي: لا أحبط، ولا أبطل عملكم أيها المؤمنون، بل أثيبكم عليه. ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ أي: لا أضيع عمل عامل منكم ذكراً كان، أو أنثى. فعن أمِّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت يا رسول الله! ما أسمع الله تعالى ذكر النساء في الهجرة بشيءٍ، فأنزل الله تعالى: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم...﴾ إلخ. أخرجه الترمذيّ، وغيره. ﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ يعني: في

الدِّين، والنصرة، والمولاة، والأحكام، والطاعة لله، وفي العقاب أيضاً على الإساءة. وفي قوله تعالى: ﴿مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ طباق وهو من المحسِّنات البديعية.

﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا...﴾ إلخ: يعني: المهاجرين الذين هجروا أوطانهم، وأهليهم، وآذاهم المشركون بسبب إسلامهم، ومتابعتهم للرَّسول ﷺ. ومعنى ﴿فِي سَبِيلِي﴾: في طاعتي ودينين وابتغاء مرضاتي، وهم المهاجرين؛ الذين أخرجهم المشركون من مكَّة، فهاجروا إلى الحبشة، ثمَّ إلى المدينة.

﴿وَقَاتَلُوا﴾ أي: أعداء الله. ﴿وَقُتِلُوا﴾ أي: استشهدوا في سبيل الله، وجهاد الكفار. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾: لأمحونَّ عنهم ذنوبهم، ولأغفرنَّها لهم. ﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ﴾ يعني: الذي أعطاهم الله إيَّاه من تكفير سيئاتهم، وإدخالهم الجنة، ذلك ثوابٌ، وجزاءٌ من فضل الله، وإحسانه إليهم. ﴿وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾: هذا تأكيد لكون الثواب الذي أعطاهم من فضله وكرمه. وأضافه إليه، ونسبه سبحانه إليه؛ ليدلَّ على أنَّه عظيم؛ لأنَّ العظيم الكريم لا يعطي إلا جزيلاً كثيراً، كما قال الشاعر: [الخفيف]

إنْ يُعَذِّبْ يَكُنْ غَرَاماً وَإنْ يُعْـ ـطِ جَزِيلاً فَإنَّهُ لا يُبَالِي

فقد روى ابن جرير الطَّبري بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ أَوَّلَ ثُلَّةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، الَّذِينَ يُتَّقَى بِهِمُ الْمَكَارِهُ، إِذَا أُمِرُوا؛ سَمِعُوا، وَأَطَاعُوا، وَإِنْ كَانَتْ لِرَجُلٍ مِنْهُمْ حَاجَةٌ إِلَى سُلْطَانٍ؛ لَمْ تُقْضَ لَهُ حَتَّى يَمُوتَ، وَحَاجَتُهُ فِي صَدْرِهِ، فَإِنَّ اللهَ يَدْعُو الجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا، وَزِينَتَها، فَيَقُولُ: أَيْنَ عِبَادِي الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي، وَقُتِلُوا، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي، أُدْخلُوا الجَنَّةَ! فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ، فَتَأْتِي الْمَلَائِكَةُ، فَيَسْجُدُونَ، وَيَقُولُونَ: رَبَّنَا نَحْنُ نُسَبِّحُ لَكَ اللَّيْلَ، والنَّهَارَ، وَنُقَدِّسُ لَكَ، مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آثَرْتَهُمْ عَلَيْنَا، فَيقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: هَؤُلَاءِ عِبَادِي الَّذين قَاتَلُوا فِي سَبِيلي، وأوذُوا فِي سَبِيلِي! فَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ كُلِّ بابٍ، يَقُولُونَ لَهُمْ: سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقبى الدَّارِ**». انتهى خازن.

الإعراب: ﴿فَاسْتَجَابَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (استجاب): فعل ماض. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رَبُّهُمْ﴾: فاعل، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. أنِّي: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم في محل نصب اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿أُضِيعُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: أنا. ﴿عَمَلَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿عَامِلٍ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله. ﴿مِّنكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿عَامِلٍ﴾. ﴿مِّن ذَكَرٍ﴾: بدل من قوله. ﴿مِّنكُم﴾ وهو بدل الشيء من الشيء، وهما لعين واحدة، ويجوز أن يكونا متعلقين بمحذوف

صفة ثانية لـ: ﴿عَمِلٍ﴾ كما يجوز أن يكونا متعلِّقين بمحذوف حال من الضمير المستتر في: ﴿مِّنكُم﴾ التقدير: استقرَّ منكم كائناً من ذكرٍ. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿أُنثَىٰ﴾: معطوف على ما قبله مجرور مثله، وعلامة جرِّه كسرةٌ مقدَّرة على الألف للتعذُّر، وأنَّ، واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محلِّ جرٍّ بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: بأنِّي، أي: بكوني. والجار والمجرور متعلقان بالفعل استجاب، هذا وقرئ بكسر الهمزة على تضمين استجاب معنى القول، فتكون الجملة الاسمية، في محلِّ نصبٍ مفعول به.

﴿بَعْضُكُم﴾: مبتدأ، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿مِّنۢ بَعْضٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبره، والجملة الاسمية معترضة. وقيل: هي مستأنفة جيء بها لتبيين شركة النساء مع الرِّجال في الثواب الذي وعد الله به عباده العاملين، وجوَّز أبو البقاء اعتبارها حالاً، أو صفة.

﴿فَٱلَّذِينَ﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وجملة: ﴿هَاجَرُوا۟﴾ صلته، والجُمَل بعدها كلُّها معطوفة عليها، وأفعالها مبنيَّة على الضمِّ مع ملاحظة المبني للمعلوم، والمبني للمجهول منها، والواو فاعل، أو نائب فاعل. ﴿فِى سَبِيلِى﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر كسرةٌ مقدَّرة على ما قبل ياء المتكلم، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المناسبة، والياء ضمير متصل في محل جر بالإضافة. ﴿لَأُكَفِّرَنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب قسم محذوف، تقديره: وعزتي، وجلالي! (أكفرن) فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، وهي حرف لا محل له، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنا، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جواب للقسم المحذوف. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، والقسم وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ، ووقوع الجملة القسمية خبراً للمبتدأ قاله ابن مالك، ومنعه ثعلب، ومثله قوله تعالى في سورة (النساء) رقم [٧٢]: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾ ومثل ذلك قول الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [٧٥٦]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الكامل]

جَشَأَتْ فَقُلْتُ اللَّذْ خَشِيتِ لَيَأْتِيَنْ ... وَإِذَا أَتَاكِ فَلَاتَ حِينَ مَنَاصِ

وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٨] من سورة (العنكبوت) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله بلا فارق. ﴿جَنَّـٰتٍ﴾: مفعول به ثان، ويقال فيه أيضاً ما رأيته في مفعول قوله تعالى: ﴿تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ في الآية رقم [١٤٢]، فهو منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة، وجملة: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ في محل جرٍّ صفة: ﴿جَنَّـٰتٍ﴾.

﴿ثَوَابًا﴾: مفعول مطلق مؤكِّد لقوله: (لأدخلنهم) لأنَّ المعنى: لأثيبنهم ثواباً. وهذا عند البصريين. وقال الكسائي: انتصب على القطع، أي: عامله محذوف من لفظه. وقال الفراء:

على التفسير؛ أي: هو تمييز. ﴿مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ ﴿ثَوَابًا﴾ أو بمحذوف صفة له، و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: واو الحال. (الله): مبتدأ. ﴿عِندَهُۥ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدم، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿حُسْنُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ الأول. هذا وإن اعتبرت الظرف متعلقاً بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿حُسْنُ﴾ فاعلاً بمتعلقه فهو جيد لا غبار عليه، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط: الواو، وإعادة اللفظ الكريم، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ لا محل لها. و﴿حُسْنُ﴾ مضاف، و﴿ٱلثَّوَابِ﴾ مضاف إليه من إضافة الصِّفة للموصوف؛ إذ الأصل: الثواب الحسن.

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾

الشرح: روي: أنَّ بعض المسلمين كانوا يرون المشركين في رخاءٍ، ولين عيش، فيقولون: أعداءُ الله فيما نرى من الخير، والنِّعمة، والرَّفاهية؛ ونحن نهلك من الجوع، والجهد! فنزلت الآية الكريمة، ومثلها قوله تعالى في سورة (غافر): ﴿مَا يُجَـٰدِلُ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾ وقال تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿مَتَـٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ والخطاب في الآية الكريمة لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ والمراد أمته، كيف لا؟ وقد قال له في سورة (الحِجْر) وسورة (طه): ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ...﴾ إلخ، والمعنى: لا يغرنَّك أيُّها السامع، ولا تنظر إلى ما عليه الكفرة من السِّعة، ولا تغترر بظاهر ما ترى من تبسُّطهم في مكاسبهم، ومتاجرهم، ومزارعهم... إلخ.

الإعراب: ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿يَغُرَّنَّكَ﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة التي هي حرف لا محل له في محل جزم بـ ﴿لَا﴾ الناهية، والكاف مفعول به. ﴿تَقَلُّبُ﴾ فاعله، وهو مضاف، و﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها، وجملة: ﴿كَفَرُوا۟﴾ مع المتعلَّق المحذوف صلة الموصول لا محلَّ لها. ﴿فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾: متعلقان بالمصدر: ﴿تَقَلُّبُ﴾.

﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾

الشرح: ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾: انظر الآية رقم [١٨٥] وسمَّاه الله: قليلاً؛ لأنَّه فانٍ، وكلُّ فانٍ قليل؛ وإن كان كثيراً لقصر مدته، أو في جنب ما أعدَّ الله للمؤمنين في الآخرة. وفي صحيح الترمذي عن المستوْرد الفهري ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ، إِلَّا**

كَمَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟». ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: انظر الآية رقم [١٢]. هذا وبيَّن الله تعالى في كثيرٍ من الآيات: أنَّ إعطاء الله الدُّنيا للكافرين، إنَّما هو إمهال لا إهمال، واستدراج لا إكرام، قال تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٧٨].

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: جئت رسول الله ﷺ فإذا هو في مَشْرَبَةٍ، وإنَّه لَعَلَى حصيرٍ، ما بينه وبينه شيءٌ، وتحت رأسه وسادةٌ من أدمٍ، حشوها ليفٌ، وعند رجليه قرظٌ مصبورٌ، وعند رأسه أُهُبٌ معلَّقةٌ، فرأيتُ الحَصِيْرَ قد أثر في جنبهِ، فبكيتُ، فقال: ما يُبكيكَ؟ قلتُ: يا رسول الله! إنَّ كسرى، وقيصرَ فيما هما فيه؛ وَأَنْتَ يا رسول الله! تنام على حصيرٍ قد أثَّر في جنبك؟! قال: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُما الدُّنْيَا، وَلَنَا الآخِرَةُ**». رواه البخاريُّ، ومسلم. وفي روايةٍ عن ابن مسعود أطول مِنْ هذا؛ وفيه: «**مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ، وَتَرَكَهَا**». المَشْرَبَةُ: الغرفة.

الإعراب: ﴿مَتَٰعٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: تقلُّبهم متاع. ﴿قَلِيلٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها، أو هي في محل نصب حال من: ﴿تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ﴾ والرابط: المبتدأ المقدَّر. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله في المعنى ما هو خبر عنه وهو: ﴿جَهَنَّمُ﴾ والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾: تقدم إعرابها كثيراً، والمخصوص بالذمِّ محذوف، التقدير: هي جهنم.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ۝١٩٨﴾

الشرح: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ﴾: فيما أمرهم به من العمل بطاعته، واتِّباع مرضاته، واجتناب ما نهاهم عنه من معاصيه. هذا؛ ويقرأ بتشديد نون (لكنَّ). ﴿لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾: تقدَّم شرح هذه الكلمات كثيراً. ﴿نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾: النُّزل: ما يُعَدُّ للنازل، أي: للضيف من طعامٍ، وشرابٍ، وإكرامٍ. قال أبو الشعراء الضبِّي، وهو على سبيل الاستعارة التهكميَّة: [الطويل]

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ بِالْجَيْشِ ضَافَنَا … جَعَلْنَا الْقَنَا وَالْمُرْهَفَاتِ لَهُ نُزْلَا

هذا؛ وذكر أبو البقاء رحمه الله تعالى: أنه يجوز أن يكون جمع: نازل، كما قال الأعشى في معلقته: [البسيط]

إِنْ تَرْكَبُوا فَرُكُوبُ الخَيْلِ عَادَتُنَا … أَوْ تَنْزِلُونَ فَإِنَّا مَعْشَرٌ نُزُلُ

هذا؛ ويقرأ (نُزل) بضم الزاي وسكونها، مثل: عسر، وحلم.. . إلخ قال عيسى بن عمر ـ رحمه الله تعالى ـ: كل اسم على ثلاثة أحرف يجوز ضمُّ ثانيه، وسكونه.

الإعراب: ﴿لَكِنِ﴾: حرف استدراك مهمل لا عمل له على تخفيفه، وحرف مشبَّه بالفعل على تشديده. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، أو هو في محل نصب اسم: (لكنَّ) على تشديده. ﴿ٱتَّقَوۡا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة، لالتقائها ساكنةً مع واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف لتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿رَبَّهُمۡ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿جَنَّـٰتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل رفع خبر: ﴿ٱلَّذِينَ﴾. هذا؛ وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلقين بمحذوف خبر: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ و﴿جَنَّـٰتٌ﴾ فاعل بمتعلقه؛ فالتقدير: يوجد لهم جنات، وجملة: ﴿تَجۡرِی مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَـٰرُ﴾: في محل رفع صفة: ﴿جَنَّـٰتٌ﴾، وأجاز مكي اعتبارها في محل نصب حال مِنْ متعلَّق: ﴿لَهُمۡ﴾. ﴿خَـٰلِدِینَ﴾: حال من واو الجماعة وقال مكي: حال من الضمير المخفوض في: ﴿لَهُمۡ﴾ وهي حال مقدَّرة منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، وفاعله مستتر تقديره: هم. ﴿فِیهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَـٰلِدِینَ﴾.

﴿نُزُلࣰا﴾: مفعول مطلق مؤكد، فعله محذوف، التقدير: يقال لهم: انزلوها نزلاً. وقيل: حال. وقيل: تمييز. ﴿مِّنۡ عِندِ﴾: متعلقان بـ: ﴿نُزُلࣰا﴾ أو بمحذوف صفة له، و﴿عِندِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِۗ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية: ﴿لَكِنِ ٱلَّذِینَ﴾ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿عِندِ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، و﴿عِندِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِۗ﴾: مضاف إليه. ﴿خَیۡرࣱ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط: الواو، وإعادة الاسم الكريم للتفخيم، والتعظيم. ﴿لِّلۡأَبۡرَارِ﴾: متعلقان بـ ﴿خَیۡرࣱ﴾.

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَـٰبِ لَمَن یُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَاۤ أُنزِلَ إِلَیۡكُمۡ وَمَاۤ أُنزِلَ إِلَیۡهِمۡ خَـٰشِعِینَ لِلَّهِ لَا یَشۡتَرُونَ بِـَٔایَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنࣰا قَلِیلًاۗ أُو۟لَـٰۤىِٕكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِیعُ ٱلۡحِسَابِ ۝١٩٩﴾

الشرح: قال ابن عباس، وجابر بن عبد الله، وأنس بن مالك ـ رضي الله عنهم ـ: نزلت في النَّجاشي ملك الحبشة، واسمه: أصحمة، ومعناه في العربية: عطية، وذلك: أنَّه لمَّا مات؛ نعاه جبريل ـ عليه السلام ـ لرسول الله ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**اخْرُجُوا، فَصَلُّوا عَلَى أَخٍ لَكُمْ، مَاتَ بِغَيْرِ أَرْضِكُمْ النَّجَاشِيِّ**». فخرج إلى البقيع، وكُشِفَ له إلى

أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي، فصلى عليه، وكبَّر أربع تكبيراتٍ، واستغفر له، فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلِّي على علجٍ حبشيٍّ نصرانيٍّ، لم يره قط، وليس على دينه، فأنزل الله تعالى الآية الكريمة. وبهذا استدلَّ الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ على صلاة الغائب.

وقيل: نزلت في أربعين رجلاً من أهل نجران، واثنين وثلاثين من الحبشة، وثمانية من الرُّوم كانوا على دين عيسى، عليه السلام، فآمنوا بالنبيِّ ﷺ، وصدَّقوه. وقيل: نزلت في عبد الله بن سلام، وأصحابه. وقيل: نزلت في جميع مؤمني أهل الكتاب. وهذا القول أولى؛ لأنه لمَّا ذكر أحوال الكفار، وأحوال أهل الكتاب، وأنَّ مصيرهم إلى النار؛ ذكر حال مَنْ آمن من أهل الكتاب، وأنَّ مصيرهم إلى الجنَّة.

﴿خَٰشِعِينَ لِلَّهِ﴾ يعني: خاضعين لله، متواضعين له غير مستكبرين. وانظر الخشوع في الصَّلاة في أول سورة (المؤمنون) فإنَّه جيد، والحمد لله! ﴿لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ يعني: لا يغيِّرون كتبهم، ولا يحرِّفونها، ولا يكتمون صفة محمد ﷺ لأجل الرياسة، والمآكل، والرِّشا، كما يفعله غيرهم من علماء اليهود، وسمَّاه الله: قليلاً؛ لأنه لا بقاء له، ولا قيمة له بجانب نعيم الآخرة الدَّائم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى مَنْ هذه صفته من أهل الكتاب. ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾: لهم ثواب أعمالهم؛ التي عملوها لله في الدنيا، مدخرٌ لهم عند الله، يوفِّيهم إيَّاه يوم القيامة. والعنديَّة عنديَّة تكريم، وتشريفٍ، لا عندية مكانٍ. إن الله سريع الحساب: انظر الآية رقم [١٩] وخذ ما يلي:

فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثَلاثَةٌ لَهُمْ أَجْرَانِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، آمَنَ بِنَبِيِّهِ، وَآمَنَ بمحمدٍ ﷺ، والعبدُ الْمَمْلُوكُ إِذَا أَدَّى حَقَّ اللهِ، وَحَقَّ مَوَالِيهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَةٌ يَطَؤُهَا، فَأَدَّبَهَا، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَهَا، وَعَلَّمَهَا، فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَهَا، ثُمَّ أَعْتَقَهَا، وَتَزَوَّجَهَا، فَلَهُ أَجْرَانِ**». متفق عليه.

الإعراب: ﴿وَإِنَّ﴾: الواو: حرف استئناف. ﴿مِنْ أَهْلِ﴾ متعلقان بمحذوف خبر: (إنَّ) تقدَّم على اسمها. و﴿أَهْلِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿لَمَن﴾: اللام: لام الابتداء. (مَنْ): اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسم (إنَّ) مؤخر، وانظر الآية رقم [١١٠]: وقس هذه عليها. ﴿يُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: هو. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان به، والجملة الفعلية صلة: (مَنْ) لا محل لها، والجملة الاسمية: (إنَّ مِنْ...) إلخ مستأنفة لا محل لها. (ما): اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل جر معطوفة عل لفظ الجلالة. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، أو الرابط. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿خَٰشِعِينَ﴾: حال من فاعل: ﴿يُؤْمِنُ﴾ المستتر، وجمعه باعتبار المعنى، فهو منصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، وفاعله مستتر فيه. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان

بـ ﴿خَٰشِعِينَ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَشۡتَرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: متعلقان به، (آيات): مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، ﴿ثَمَنٗا﴾: مفعول به. ﴿قَلِيلًاۗ﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل نصب حال أيضاً من فاعل: ﴿يُؤۡمِنُ﴾ المستتر، فتعدَّدت الحال وهي مختلفة إفراداً، وجملةً.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿لَهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾: مبتدأ مؤخر، والهاء في محلِّ جرٍّ بالإضافة، والجملة الاسمية في محلِّ رفع خبر المبتدأ. هذا؛ وإن اعتبرت الجار والمجرور متعلِّقين بمحذوف خبر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ فـ: ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾ يكون فاعلاً بمتعلق الجار والمجرور، والجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مستأنفة لا محل لها. ﴿عِندَ﴾: ظرف مكان متعلق بـ ﴿أَجۡرُهُمۡ﴾ لأنه مصدر. و﴿عِندَ﴾: مضاف، و﴿رَبِّهِمۡۗ﴾: مضاف إليه، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿سَرِيعُ﴾: خبرها، وهو مضاف، و﴿ٱلۡحِسَابِ﴾ مضاف إليه من إضافة الصفة المشبهة لفاعلها، والجملة الاسمية مستأنفة، أو معترضة في آخر الكلام، لا محلَّ لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية رقم [١٠٠] ﴿ٱصۡبِرُواْ﴾: انظر «الصَّبر» في الآية رقم [٤٥] من سورة (البقرة) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك. ﴿وَصَابِرُواْ﴾: غالبوا أعداءكم بالصبر على شدائد الحرب، ومنه: مغالبة الشَّيطان فيما يأمر به، ومغالبة النفس الأمارة بالسُّوء فيما تأمر به. وتخصيصه بالذكر بعد الأمر بالصبر مطلقاً لشدَّته. والمصابرة: مكافحة الأعداء، والثبات في الميدان، ومنه قول عنترة: [الطويل]

فَلَمْ أَرَ حيّاً صَابَرُوا مِثْلَ صَبْرِنَا ... وَلَا كَافَحُوا مِثْلَ الَّذِينَ نُكَافِحُ

﴿وَرَابِطُواْ﴾: المرابطة هي: الحراسة، والوقوف في الثغور مترصدين للعدو، ولصدِّ هجمات الأعداء والمعتدين، فعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا عَلَيْهَا. وَمَوْضِعُ سَوْطِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا، وَمَا عَلَيْهَا. وَالرَّوْحَةُ يَرُوحُهَا الْعَبْدُ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوِ الْغُدْوَةُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيْهَا**» متَّفق عليه.

وعن فضالة بن عبيد ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إِلَّا الْمُرَابِطَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَإِنَّهُ يُنْمِي لَهُ عَمَلَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَيَأْمَنُ مِنْ فِتْنَةِ الْقَبْرِ**». أخرجه أبو داود، والترمذي. وعن عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**حَرَسُ لَيْلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَفْضَلُ مِنْ أَلْفِ لَيْلَةٍ، يُقَامُ لَيْلُهَا، وَيُصَامُ نَهَارُهَا**». أخرجه الحاكم. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**عَيْنَانِ لَا تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سبيلِ اللهِ**». أخرجه الترمذيُّ.

هذا؛ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ المرابطة: المداومة في مكان العبادة، وانتظار الصَّلاة بعد الصلاة. ويشهد له قول النبي ﷺ: «**أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الخطَايَا، وَيُكَفِّرُ بِهِ الذنوبَ؟**» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى المَكارِهِ، وَكَثْرَةُ الخطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وانتظارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ**». رواه ابن حبَّان عن جابر بن عبد الله، ـ رضي الله عنه ـ، وأخرجه مسلم، وغيره مِنْ رواية أبي هريرة.

الإعراب: (يا): أداة نداء. (أيها الذين آمنوا): انظر الآية رقم [١٣٠]. ﴿اصْبِرُوا﴾: فعل أمر، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: تقدَّم إعراب مثلها كثيراً. تأمَّل، وتدبَّر، وربك أعلم، وأجلُّ، وأكرم، وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

انتهت سورة آل عمران شرحاً، وإعراباً.

فَللهِ الحمدُ والمنَّةُ، ونَسْأله الوفاة على الكتاب والسُّنَّة.

سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم

سورة (النساء) مدنية إلا آية واحدة نزلت في مكَّة عام الفتح في عثمان بن طلحة الحجبي، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا...﴾ إلخ، وهي رقم [٥٨]. وهي مئة وخمس وسبعون آية، وثلاث آلاف وخمس وأربعون كلمة، وستة عشر ألف حرف وثلاثون حرفاً انتهى. خازن.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾

الشرح: ١ ـ سمِّيت سورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام؛ التي تتعلَّق بهنَّ بدرجةٍ لم توجد في غيرها من السُّور، ولذلك أُطلق عليها اسم سورة (النِّساء الكبرى) في مقابلة سورة (النساء الصُّغرى) التي عرفت في القرآن بسورة (الطلاق).

٢ ـ قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ في سورة (النساء) لخمس آيات ما يسرُّني أن لي بها الدنيا، وما فيها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، و﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ إلخ، و﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ﴾ و﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. رواه ابن جرير.

٣ ـ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: نداء يعمُّ بني آدم جميعاً، كقوله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ﴾. ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾: خافوا ربَّكم، واحذروا غضبه، وانتقامه؛ إن عصيتموه، وخالفتم أوامره، ونواهيه. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾: وهو آدم، عليه ألف صلاة، وألف سلام، وإنَّما أنَّث: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾ على لفظ النفس، وإن كان المراد به آدم، وهو ذَكَرٌ، كما قال بعضهم: [الوافر]

أَبُوكَ خَلِيفَةٌ وَلَدَتْهُ أُخْرَى ... وَأَنْتَ خَلِيفَةٌ ذَاكَ الْكَمَالُ

﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني: حواء، وذلك: أنَّ الله تعالى لمَّا خلق آدم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ ألقى عليه النَّوم، ثمَّ خلق حوَّاء من ضلع من أضلاعه اليسرى، وهو قصير، فلمَّا استيقظ؛ رآها جالسةً عند رأسه، فقال لها: مَنْ أنتِ؟ قالت امرأةٌ، قال: لماذا

خلقتِ؟ قالت: لتسكن إليَّ، وأسكن إليك. فمال إليها، وألفها؛ لأنَّها خُلِقت منه. هذا هو المشهور، وتؤيِّده الأحاديث الشريفة، ولكن هناك مَنْ يتبجَّح، ويقول: إن الله خلقها بدون واسطة، يعني: أنَّ الله خلقها من ترابٍ، كما خلق آدم، ولهذا يقدِّرون مضافاً محذوفاً، فيقولون: الأصل مِنْ جنسها، أي: من البشر، وهاك قول الشاعر: [الطويل]

هِيَ الضِّلَعُ الْعَوْجَاءُ لَسْتَ تُقِيمُهَا ... أَلا إِنَّ تَقْوِيمَ الضُّلُوعِ انْكِسَارُهَا

أَتَجْمَعُ ضَعْفاً وَاقْتِدَاراً عَلَى الْفَتَى ... أَلَيْسَ عَجِيباً ضَعْفُهَا وَاقْتِدَارُهَا

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اسْتَوصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ مَا فِي الضِّلَعِ أَعْلَاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ؛ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ؛ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ. فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ**». رواه البخاريُّ، ومسلم، وغيرهما. وروى ابن أبي حاتم عن قتادة، عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «**خُلِقَت المرأة مِنَ الرَّجل، فجُعِلَتْ نهمتُها في الرَّجل، وخُلِقَ الرَّجل من الأرض، فجُعِلت نهمتُه في الأرض، فاحبسوا نساءكم**».

﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ أي: نشر، وفرَّق من آدم، وحواء خلائق كثيرين ذكوراً، وإناثاً. وإنَّما وصف الله الرِّجال بالكثرة دون النساء؛ لأنَّ حال الرِّجال أتمُّ، وأكمل، وهذا كالتنبيه على أنَّ اللائق بحال الرِّجال الظهور، والاستشهار، وبحال النِّساء الاختفاء والخمول، والواقع والمشهور: أن نسبة الإناث أكثر من الذُّكور في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ. هذا؛ والرَّجل مشتق من الرجولة، وهي الشَّجاعة، والنَّجدة، والمرأة مشتقة من المَرْء، وهو الرَّجل الذي خلقت منه، كما رأيت. ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ﴾: كرَّره للتأكيد، ولا تنس الطِّباق بين: ﴿رِجَالًا﴾ و(نساءً)

﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾: يسأل بعضكم بعضاً به، فيقول: أسألك بالله، وقد حذفت منه تاء المُضارعة، أصله: تتساءلون، وقرئ بتشديد السِّين؛ فأدغمت التاء الثانية في السِّين.

﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ أي: واتقوا الأرحام أن تقطعوها. ويقرأ بكسر الميم عطفاً على الضمير المجرور بالباء، وقد استقبحها كثيرٌ من العلماء. قال أبو العباس المبرِّد ـ رحمه الله تعالى ـ: لو صليتُ خلف إمام يقرأ: (ما أَنْتُم بِمصْرِخِيِّ)، (وَاتَّقُوا اللهُ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامِ)؛ لأخذت نعلي، ومضيت. ومنه قول الشاعر: [البسيط]

فَالْيَوْمَ قَرَّبْتَ تَهْجُونَا وَتَشْتِمُنَا ... فَاذْهَبْ فَمَا بِكَ وَالأَيَّامِ مِنْ عَجَبِ

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾: حافظاً، أو عالماً، أو مطَّلعاً. هذا؛ و(الأرحام) جمع رحم، وهو القريب من جهة الأب، أو من جهة الأم، وقد عطف الله الأرحام على اسمه تنبيهاً على مكانتها عنده، كيف لا وقد أمر الله بصلتها في كثير من الآيات، وحذَّر من قطعها، وهو الذي يقول في سورة (محمَّد) ﷺ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ الَّذِينَ

لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾. والرسول ﷺ حثَّ على صلة الأرحام، وحذَّر من قطعها، وخذ ما يلي:

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وأنْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**». أخرجه البخاري، ومسلم. وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «**الرَّحِمُ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تقولُ: مَنْ وَصَلَنِي وَصَلَهُ اللهُ، وَمَنْ قَطَعَنِي قَطَعَهُ اللهُ**». رواه البخاريُّ، ومسلم. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخلْقَ حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ؛ قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى! قَالَ: فَذَاكَ لَكِ، ثُمَّ قَالَ رسول الله ﷺ: اقرؤوا إِنْ شِئْتُمْ**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ﴾». رواه البخاريُّ، ومسلم.

قال المرحوم سليمان الجمل: ومعلوم: أنَّ (كان) في القرآن الكريم على أوجه: بمعنى الأزل، والأبد، وبمعنى المضي المنقطع، وهو الأصل في معناها، وبمعنى الحال، وبمعنى الاستقبال، وبمعنى: «صار» وبمعنى: «ينبغي» وبمعنى: «حضر» أو «وجد» أو «حصل» وترد للتأكيد، وهي الزائدة. انتهى نقلاً عن كرخي، ولو قلنا: إنَّ «كان» من أفعال الاستمرار، ومعنى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ كان، ولم يزل كائناً إلى يوم القيامة، وإلى أبد الآبدين في الدُّنيا، والآخرة لكان كافياً وافياً.

الإعراب: (يا): حرف نداء ينوب مناب «أدعو» أو أنادي. (أيها): نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ (يا) وها: حرف تنبيه لا محلَّ لها، وأقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنه يجب حينئذٍ نصب المنادى. ﴿ٱلنَّاسُ﴾ بعضهم يعرب هذا، وأمثاله نعتاً، وبعضهم يعربه بدلاً، والقول الفصل: أن الاسم الواقع بعد «أيّ» واسم الإشارة إن كان مشتقّاً؛ فهو نعت، وإن كان جامداً كما هنا؛ فهو بدل، أو عطف بيان، والمتبوع، أعني: (أيُّ) منصوب محلاً، وكذا التابع أعني: (النَّاس) فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الإتباع اللَّفظية، وإنَّما أتبعت ضمة البناء مع أنَّها لا تتبع؛ لأنها وإن كانت ضمَّة بناء؛ لكنَّها عارضةٌ، فأشبهت ضمة الإعراب، فلذا جاز إتباعها. أفاده الصبَّان؛ لأنه قال: والمتجه وفاقاً لبعضهم: أن ضمة التابع إتباع، لا إعراب، ولا بناء. وقيل: إنَّ رفع التابع المذكور إعراب، واستشكل بعدم المقتضي للرَّفع، وأجيب بأنَّ العامل يقدَّر من لفظ عامل المتبوع مبنيّاً للمجهول، نحو: «يُدعَى» وهو مع ما فيه من التكلُّف يؤدِّي إلى قطع المتبوع. وقيل: إن رفع التابع المذكور بناء؛ لأنَّ المنادى في الحقيقة هو المحلَّى بأل، ولكن لمَّا لم يمكن إدخال حرف النداء عليه؛ توصَّلوا إلى

ندائه بـ (أيُّ) أي: مع قرنها بحرف التنبيه. وردَّه بعضهم بأنَّ المُراعى في الإعراب اللَّفظ، وأنَّ الأول منادى، والثاني تابع له.

﴿ٱتَّقُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها مبتدأة كالجملة الندائية قبلها. ﴿رَبَّكُمُ﴾: مفعول به، والكاف في محلِّ جرٍّ بالإضافة، مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة: ﴿رَبَّكُمُ﴾. ﴿خَلَقَكُم﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱلَّذِى﴾ وهو العائد، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿مِّن نَّفْسٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَٰحِدَةٍ﴾: صفة: ﴿نَّفْسٍ﴾ وجملة: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾: معطوفة على ما قبلها. وقيل: معطوفة على جملةٍ محذوفة، التقدير: أنشأها، وخلق... إلخ. (بَثَّ): فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱلَّذِى﴾ أيضاً. ﴿مِنْهُمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والميم والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿رِجَالًا﴾: مفعول به. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة له ﴿وَنِسَآءً﴾: معطوف على: ﴿رِجَالًا﴾ وحذفت صفته لدلالة الأول عليه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. ﴿تَسَآءَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجُملة الفعلية صلة الموصول لا محلَّ لها.

﴿وَٱلْأَرْحَامَ﴾: بالنصب. فهو على وجهين: أحدهما: أنه معطوف على لفظ الجلالة، والثاني: أنه معطوف على محل: ﴿بِهِۦ﴾ لأنهما في محل نصب مفعول به، وقرئ بالجر عطفاً على محل الهاء، وهو ضعيف كما رأيت في الشرح، كما قرئ بالرَّفع على أنه مبتدأ خبره محذوف، التقدير: والأرحام كذلك، وهو ضعيفٌ أيضاً. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسم: ﴿إِنَّ﴾ ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿رَقِيبًا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، أو هي مستأنفة، أو هي معترضة في آخر الكلام، لا محلَّ لها على جميع هذه الوجوه.

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ...﴾ إلخ: نزلت الآية الكريمة في رجلٍ من غطفان كان عنده مالٌ كثير لابن أخٍ له يتيمٍ، فلمَّا بلغ اليتيم؛ طلب المال، فمنعه عمُّه، فنزلت، فقال العمُّ: نعوذ بالله من الحُوب الكبير! وردَّ المال، فقال النبي ﷺ: «**مَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ، وَرَجَعَ بِهِ ـ هَكَذَا ـ فَإِنَّهُ يَحُلُّ دَارَهُ**». يعني: جنته. فلمَّا قَبض الفتى المال؛ أنفقه في سبيل الله. فقال النبي ﷺ: «**ثَبَتَ**

الأَجْرُ، وَبَقِيَ الْوِزْرُ». فقيل: كيف يا رسول الله؟! قال: «ثبتَ الأجرُ للغلام، وبقي الوزرُ على والِدِهِ». لأنَّه كان مُشْرِكاً.

هذا؛ وإيتاء المال لليتامى: تسليمهم مالهم الَّذي كان تحت يد الوصي، أو القيِّم، أو القاضي، وسمَّاهم الله يتامى باعتبار ما كان؛ أي: الذين كانوا يتامى؛ لأنه لا يُتْمَ بعد البلوغ، وكان يقال: يتيم أبي طالب للنَّبيِّ ﷺ استصحاباً لِمَا كان. ﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: المال الحرام. ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾: بالمال الحلال، وهذا الخطاب لأولياء اليتامى في كلِّ زمانٍ، ومكان، فكانوا في الجاهلية، وصدر الإسلام يعمد أحدُهم إلى الرديء مِنْ ماله، فيبدله بالجيِّد من مال اليتيم، ويقولون: اسمٌ باسم، ورأسٌ برأس: فنهاهم الله عن ذلك. ولا تَنْسَ الطِّباق بين: ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ و(الطيب).

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾ أي: لا تضمُّوا أموال اليتامى إلى أموالكم؛ فتختلط فيها، ويحصل الجور، والظلم. وقيل: إنَّ ﴿إِلَىٰٓ﴾ بمعنى: مع. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا﴾: ذنباً عظيماً، والهاء عائدة على المصدر، وهو الأكل المفهوم من (لا تأكلوا). هذا؛ والتحوُّب: التحزُّن، والصِّياح الشَّديد، وهو أيضاً: التوجُّع، قال طفيل: [الطويل]

فَذُوقُوا كَمَا ذُقْنَا غَدَاةَ مُحَجَّرٍ مِنَ الْغَيْظِ فِي أَكْبَادِنَا وَالتَّحَوُّبِ

هذا؛ واليتامى جمع: يتيم، وهو مَنْ فقد أباه، وأمَّه، أو فقدهما معاً، وقد يغلب أن يكون المراد: مَنْ فقد معيله، وهو الأب من بني آدم، والأمُّ من الحيوانات والطُّيور. وهناك يتيم العقل، والأدب، والتربية، والخلق، والدين، وهو أسوأ حالاً من الأول، وإن كان بلغ من العمر الخمسين، والستِّين، ويملك من المال الملايين. ولله درُّ القائل: [البسيط]

لَيْسَ الْيَتِيمُ الَّذِي قَدْ مَاتَ وَالِدُهُ إِنَّ الْيَتِيمَ يَتِيمُ الْعِلْمِ وَالأَدَبِ

وخذ قول الآخر: [الكامل]

لَيْسَ الْيَتِيمُ مَنِ انْتَهى أَبَوَاهُ مِنْ هَمِّ الْحَيَاةِ وَخَلَّفَاهُ ذَلِيلا
إِنَّ الْيَتِيمَ هُوَ الَّذي تَلْقَى لَهُ أُمَّاً تَخَلَّتْ أَوْ أَباً مَشْغُولا

الإعراب: ﴿وَءَاتُوا۟﴾ الواو: حرف عطف. (آتوا): فعل أمر مبني عل حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها في الآية السابقة، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿ٱلْيَتَٰمَىٰٓ﴾: مفعول به أوَّل منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرةٌ على الألف للتعذُّر. ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾: مفعول به ثان، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَتَبَدَّلُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلطَّيِّبِ﴾:

متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْخَبِيثَ﴾ أي: مستبدلاً بالطيب، والباء داخلة على المتروك. ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾: معطوفة على ما قبلها. ﴿إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾ التقدير: مضافة إلى أموالكم، والهاء، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾: إعراب هذه الجملة مثل إعراب ما قبلها، وهي مفيدة للتعليل.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾

الشرح: روى الأئمة - واللَّفظ لمسلم -: عن عروة بن الزبير، عن عائشة - رضي الله عنها - في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ...﴾ إلخ قالت: يا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وَلِيِّها، تشاركه في ماله، فيعجبه مالها، وجمالها، فَيُريد وليُّها أن يتزوجها من غير أن يقسط لها في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فَنُهوا أن ينكحوهنَّ إلا أن يُقسطوا لهنَّ، ويبلغوا بهنَّ أعلى سنَّتهنَّ من الصَّداق، وأمِروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النِّساء سواهنَّ. انتهى قرطبي.

هذا؛ و«تقسطوا» من الرُّباعي بمعنى: تعدلوا، قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. وهو من الثلاثي بمعنى: جار، وظلم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾.

﴿فَٱنكِحُواْ﴾: تزوَّجوا. ﴿مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: ما حلَّ لكم من النساء؛ لأنَّ منهنَّ ما حَرُمَ كاللاتي في آية التحريم رقم [٢٢]: الآتية. هذا؛ ووقعت: ﴿مَا﴾ على النساء، وهنَّ عاقلات، وهي لغير العاقل، كما هو معروف؛ لأنَّهن ناقصات العقل، كما وقعت على النساء الإماء أيضاً؛ ولأنهن ناقصات العقل أيضاً، ولأنَّهن يُبعْنَ، ويُشْتَرَيْنَ كالبهائم، وتقديم المهر للمرأة الحرَّة بمنزلة الثمن لِلأمَة. وأيضاً: إنَّ «مَنْ ومَا» قد يتعاقبان، وقد يتقارضان، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ انظر سورة (الشمس) وقال تعالى في سورة (النُّور): ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ...﴾ إلخ. هذا؛ و «خفتم» أصله: خَوِفْتم، فنقلت حركة الواو إلى الخاء قبلها، بعد سلب فتحتها، فسكنت الواو، ثمَّ حذفت لالتقاء السَّاكنين، فالكسرة على الخاء للدَّلالة على حركة المحذوف، ولو كانت دليلاً على المحذوف؛ لكانت ضمَّة.

﴿مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾: هذه الألفاظ معدولة عن اثنتين اثنتين، وثلاث ثلاث، وأربع أربع. وينبغي أن تعلم: أن الواو بمعنى «أو» للتخيير هنا، وليست لمطلق الجمع، ولو كانت كذلك؛ لكان يحلُّ للمسلم الجمع بين تسع نسوة، وهو قول الشِّيعة، وقد بينت السنة الشَّريفة الحَجْر على المسلم في الجمع بين أكثر من أربع نسوة. وخذ ما يلي:

عن الحارث بن قيس ـ رضي الله عنه ـ، قال: أسلمت وعندي ثماني نسوة، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**اخْتَرْ مِنْهُنَّ أَرْبَعَاً**» أخرجه الترمذيُّ. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ غيلان بن سلمة، أو ابن أمية الثقفي ـ رضي الله عنه ـ أسلم، وتحته عشرة نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه، فأمره رسول الله ﷺ أن يختار منهن أربعاً، ويترك سائرهن، فإن ذلك ما اختصَّ به ﷺ انظر ما ذكرته في سورة (الأحزاب) بشأن خصوصياته ﷺ؛ تجدْ ما يسرك، ويثلجْ صدرك.

هذا؛ ومجيء الواو بمعنى «أو» وارد في لسان العرب بكثرة، منه قول كُثَيِّر عزَّة ـ وهو الشاهد رقم [٦٦٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

وَقَالُوا نَأَتْ فَاخْتَرْ لَهَا الصَّبْرَ وَالْبُكَا ... فَقُلْتُ الْبُكَا أَشْفَى إِذاً لِغَلِيلِي

انظره، وانظر ما بعده من شواهد. ومجيء «أو» بمعنى الواو وارد أيضاً في لسان العرب بكثرة، من ذلك قول جرير في مدح الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ رضي الله عنه ـ: [البسيط]

جَاءَ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدَراً ... كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوْسَى عَلَى قَدَرِ

انظره في كتابنا: «فتح القريب المجيب» وانظر ما بعده برقم [٩٦] وما بعده.

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ أي: إن خفتم أن لا تقدروا على العدل بين الزَّوجات المتعدِّدة؛ فاقتصروا على واحدةٍ، ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: من الإماء، والسراري؛ أي: وإن خفتم من الجور، وعدم العدل؛ فاقتصروا على حرَّةٍ واحدةٍ، وما ملكتم من الإماء، والسَّراري؛ إذ ليس لهنَّ قسم مثل الزَّوجات الحرائر. هذا؛ وأسند تعالى الملك إلى اليمين؛ إذ هي صفة مدح، واليمين مخصوصٌ بالمحاسن؛ لتمكُّنها، ويعبَّر باليمين عن القوَّة، مثل قوله تعالى في سورة (الصَّافات): ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ وقال تعالى في سورة (الحاقة): ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ﴾. واليمين هي المبايعة، وبها سمِّيت الألية يميناً، وهي المتلقية لرايات المَجْدِ، والسُّؤدد، كما قال الشَّمَّاخ في عرابة الأوسي ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ ... تَلَقَّاهَا عَرَابَةُ بِالْيَمِينِ

وقال آخر: [الطويل]

وَلَمَّا رَأَيْتُ الشَّمْسَ أَشْرَقَ نُورُهَا ... تَنَاوَلْتُ مِنْهَا حَاجَتِي بِيَمِينِي

هذا؛ و«الإيمان» بكسر الهمزة هو التَّصديق بالجَنان، والإقرار باللِّسان، والعمل بالأركان. ولمَّا سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان، قال: «**الإِيْمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَملائِكتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، والقضاء والقدر: خَيْرِهِ، وشرِّه مِنَ الله تعالى**». والإيمان يزيد، وينقص على المعتمد كما بينته في الآية رقم [٢]: من سورة (الأنفال) وله شعبٌ كثيرة، وفروعٌ عديدة، وهي سبع وسبعون، أعلاها: (لا إلهَ إلَّا اللهُ) وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق.

﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟﴾ أي: ذلك أقرب إلى ألا تميلوا عن الحقِّ، وتجوروا. يقال: الرَّجل يعول إذا جار، ومال، ومنه قولهم: عال السَّهم عن الهدف: مال عنه. قال ابن عمر ـ رضي الله عنه ـ: إنَّه لعائل الكيل، والوزن، قال الشاعر: [البسيط]

قَالُوا اتَّبَعْنَا رَسُولَ اللهِ وَاطَّرَحُوا قَوْلَ الرَّسُولِ وَعَالُوا فِي الْمَوازِينِ

أي: جاروا. وعَال الرَّجل، يَعِيْل: إذا افتقر، فصار عالةً، ومنه قول تعالى في سورة (التوبة): ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾. ومنه قول أحيحة بن الجُلَاح: [الوافر]

وَمَا يَدْرِي الفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ وَمَا يَدْرِي الغَنِيُّ مَتَى يَعِيلُ

وقال الشافعي ـ رضي الله عنه ـ: ﴿أَلَّا تَعُولُوا۟﴾: ألا تكثر عيالكم. قال الكسائي: العرب تقول: عال، يعول، و: أعال، يعيل: إذا كثر عياله، وقال أبو عمر الدَّاوربي، وكان إماماً في اللُّغة غير مدافعٍ،: هي لغة حِمْيَر، وأنشد قول الشاعر: [الوافر]

وَإِنَّ الْمَوْتَ يَأْخُذُ كُلَّ حَيٍّ بِلَا شَكٍّ وَإِنْ أَمْشَى وَعَالا

أي: وإن كثرت ماشيته، وعياله. وقرأ طلحة بن مُصَرِّف: (أَلَّا تَعِيلُوا) من: أعال الرَّباعي، وهي حجَّةٌ للشافعي ـ رضي الله عنه ـ.

تنبيه: مسألة تعدُّد الزَّوجات ضرورةٌ إنسانيَّة، اقتضتها ظروف الحياة، وهي ليست تشريعاً، فنظمه، وشذَّبه، وجعله علاجاً، ودواءً لبعض الحالات الاضطرارية الَّتي يعاني منها المجتمع، مثل: عقم المرأة، وعدم صلاحيتها للوطء في بعض الحالات. وفي الحقيقة: إن تشريع التعدُّد مفخرةٌ من مفاخر الإسلام؛ لأنه استطاع أن يحلَّ مشكلةً اجتماعيَّةً هي مِنْ أعقد المشاكل، التي تعاينها الأمم، والمجتمعات اليوم، فلا تجد لها حلّاً، فهو سلاح يسيء الكثير من المسلمين استعمالُه بسبب الجَوْر، والظُّلم.

إنَّ المجتمع كالميزان، يجب أن تتعادل كفتاه، فماذا نصنع حين يختل التوازن، ويصبح عدد النساء أضعاف عدد الرِّجال؟ وهو في كلِّ زمانٍ، ومكانٍ أكثر من الرِّجال، أَتُحرم المرأة من نعمة الزَّوجية، ونعمة الأمومة، ونتركُها تسلك طريق الفاحشة، والرذيلة، أم نحلُّ هذه المشكلة بتعدُّد الزَّوجات، وهي طرقٌ فاضلة، نصون فيها كرامة المرأة، وطهارة الأسرة، وسلامة المجتمع؟

وأقرب الأمثلة شاهداً على ما نقول ما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث زاد عدد النساء على الرِّجال زيادة فاحشةً، فأصبح مقابل كلِّ شابٍ ثلاث فتيات، وهي حالة اختلال اجتماعي، فكيف يواجهها المشرِّع؟ لقد حلَّ الإسلام بتشريعه الرائع بتعدُّد الزوجات، بينما وقفت المسيحية حائرةً مكتوفة الأيدي، لا تُبدي، ولا تعيد.

إنَّ الرَّجل الأوربي لا يبيح له دينه التعدُّد، لكنَّه يبيح لنفسه مصاحبة المئات من الفتيات بطريق الرَّذيلة، يرى الوالد منهم فتاته مع عشيقها، فيسرُّ، ويغتبط، بل ويمهِّد لهما السبل المؤدية

لراحتهما؛ حتى أصبح ذلك عرفاً سارياً، اضطرت معه الدُّول إلى الاعتراف بمشروعية العلاقات الآثمة بين الجنسين، ففتحت باب التدهور الخلقي على مصراعيه، ووافقت على قبول مبدأ (تعدُّد الزوجات) ولكن تحت ستار المخادنة، وهو زواج حقيقي، لكنَّه غير مسجَّل بعقدٍ، ويستطيع الرَّجل أن يطردها متى شاء دون أن يتقيد حيالها بأي حقٍّ من الحقوق، والعلاقة بينهما علاقة جسد، لا علاقة أسرة، وزوجية، فياعجباً مِمَّن من منع تعدُّد الزوجات بالحلال، وأباحه بالحرام! حتى نزلوا بالمرأة من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الحيوانية، انتهى صفوة التفاسير بتصرف بسيط مني، ثم أنشد قول القائل: [الخفيف]

رَبِّ إِنَّ الْهُدَى هُدَاكَ وَآيَا تُكَ حَقٌّ تَهْدِي بِهَا مَنْ تَشَاءُ

هذا؛ ويستدلُّ بعض جهلة علماء السُّوء في هذا الزَّمن بهذه الآية، وفي الآية رقم [١٢٩]: الآتية على وجوب الاقتصار على زوجة واحدة، وهو استدلالٌ باطلٌ محضٌ، تردُّه الشريعة الغرَّاء، والسُّنَّة النبويَّة المطهَّرة، فويل لهم ممَّا يأفكون!

الإعراب: ﴿وَإِنْ﴾: الواو: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿أَلَّا﴾: (أن): حرف مصدري ونصب. (لا): نافية. ﴿تُقْسِطُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ (أن) وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و(أن) والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به صريح، أو هو في محل جر بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: إن خفتم من عدم العدل، والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿فِي ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿فَٱنكِحُواْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط، هذا في الظاهر، وقال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ واتَّفق كلُّ مَنْ يعاني العلوم على: أنَّ هذا الشرط لا مفهوم له، وأقول ـ وبالله التوفيق ـ: إنَّ جواب الشرط محذوف، التقدير: وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى؛ فلا تتزوجوهنَّ، والفاء هي الفصيحة؛ لأنها تُفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ذلك حاصلاً منكم؛ فانكحوا غيرهنَّ ما طاب. ﴿وَإِنْ﴾ ومدخولها كلامٌ مستأنفٌ لا محلَّ له. ﴿فَٱنكِحُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها جواب شرط غير جازم، وهو «إذا» المقدَّرة، وهذه الجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها مثلها. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿طَابَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿مَا﴾ وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، واعتبار: ﴿مَا﴾ مصدرية ضعيف. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من فاعل طاب

المستتر، و﴿مِّنَ﴾ بيان لما أبهم في: ﴿مَا﴾. ﴿مَثۡنَىٰ﴾: حال من فاعل: ﴿طَابَ﴾ المستتر. وقيل: حال من: ﴿ٱلنِّسَآءِ﴾. وقيل: بدل من: (ما) وضعفهما الجمل نقلاً عن السمين، وما بعدها معطوف عليه، ولم تنوَّن؛ لأنها ممنوعة من الصَّرف، للصِّفة، والعدل.

﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. (واحدة): مفعول به لفعل محذوف، التقدير: فانكحوا واحدة، وقرئ بالرفع، التقدير: فواحدةٌ كافيةٌ، فتكون الجملة اسمية، وعلى الاعتبارين فالجملة في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحل محل المفرد، والجملة الشَّرطية مستأنفة لا محلَّ لها. أو: حرف عطف. ﴿مَا﴾: معطوفة على (واحدة) على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿مَلَكَتۡ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿أَيۡمَٰنُكُمۡۚ﴾: فاعله، والكاف في محلِّ جرٍّ بالإضافة، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: ملكته أيمانكم. وقال مكي: ﴿مَا﴾ مصدرية، وهو ضعيفٌ جدّاً.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها. ﴿أَلَّا تَعُولُواْ﴾: إعرابه مثل إعراب: ﴿أَلَّا تُقۡسِطُواْ﴾ وهو مثله في التقدير، أي: أدنى من عدم العول، أو: أدنى إلى عدم العول، والجار والمجرور متعلقان بـ: ﴿أَدۡنَىٰٓ﴾.

﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ عَن شَيۡءٖ مِّنۡهُ نَفۡسٗا فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا ٤﴾

الشرح: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾ أي: أعطو النِّساء مهورهنَّ عطيةً عن طيب خاطرٍ، وسماحة نفس. وقال ابن عباس، وغيره: الخطاب للأزواج. وقيل: للأولياء، فقد كان الولي في الجاهلية يأخذ مهر المرأة، ولا يعطيها شيئاً، فنهوا عن ذلك، وأمروا أن يدفعوا ذلك إليهنَّ، ولا تزال آثار الجاهلية فاشية في المجتمع البدويِّ، ومن على شاكلتهم من الذين لم يتذوَّقوا معنى الإيمان، ولم يعرفوا تعاليم الإسلام. وأقول: إنَّ الخطاب يعمُّ الأزواج، والأولياء جميعاً، وعلى السَّواء، وخذ ما يلي:

عن ميمون الكردي، عن أبيه ـ رضي الله عنهما ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً عَلَى مَا قَلَّ مِنَ الْمَهْرِ، أَوْ كَثُرَ، لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّي إِلَيْهَا حَقَّهَا، خَدَعَهَا، فَمَاتَ، وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا؛ لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ. وَأَيُّمَا رَجُلٍ اسْتَدَانَ دَيْناً، لا يُرِيدُ أَنْ يُؤَدِّي إِلَى صَاحِبِهِ حَقَّهُ، خَدَعَهُ؛ حَتَّى أَخَذَ مَالَهُ، فَمَاتَ؛ وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهِ دَيْنَهُ؛ لَقِيَ اللهَ؛ وَهُوَ سَارِقٌ**». رواه الطَّبرانيُّ في الصَّغير، والأوسط، ويلحق بهذا مَنْ يغتصبها صداقها بعد زواجه بها.

هذا؛ و﴿نِحۡلَةٗۚ﴾: عطيَّة، وهبة، ومنحة. فعن أيوب بن موسى، عن أبيه، عن جده ـ رضي الله عنهم ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**مَا نَحَلَ وَالِدٌ وَلَداً أَفْضَلَ مِنْ أَدَبٍ حَسَنٍ**». رواه الترمذيُّ.

﴿فَإِن طِبۡنَ لَكُمۡ...﴾ إلخ. أي: سمحن، ووهبن عن طيب نفسٍ للأزواج، أو للأولياء عن شيءٍ من مهورهنَّ، فلا بأس به بعد قبضها له. وقالوا: إذا كان بعد سنة من زواجها؛ لأنَّها صاحبة الحق، تفعل في مهرها ما تشاء، والضمير في منه يعود إلى الصَّداق المفهوم مما تقدَّم. ﴿فَكُلُوهُ هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾ أي: لا إثم فيه، ولا حرج، ولا داء فيه أيضاً. أو هنيئاً في الدنيا بلا مطالبة، مريئاً في العقبى بلا تبعة. وهما صفتان من: هنؤ الطَّعام، ومرؤ: إذا كان سائغاً، لا تنغيص فيه. ومنه قول كُثَيِّر عزَّة: [الطويل]

هَنِيئاً مَرِيئاً غير داءٍ مخامرٍ لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ

روي: أن رجلاً دخل على علقمة؛ وهو يأكل شيئاً وهبته له امرأته من مهرها، فقال له: كل من الهنيء، والمريء. وروي عن عليٍّ - رضي الله عنه، وكرم الله وجهه -: أنه قال: إذا اشتكى أحدُكم شيئاً، فليسأل امرأته ثلاثة دراهم مِنْ صداقها، ثم ليشتر بها عسلاً، فليشربه بماء السَّماء، فيجمع الله هنيئاً، ومريئاً، وشفاءً، ومباركاً. وروي: أن ناساً يأكلون يتأثَّمون أن يقبل أحدهم من زوجته شيئاً ممَّا ساقه إليها من المهر، فنزلت الآية الكريمة.

الإعراب: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ﴾ مثل سابقه في إعرابه، ﴿صَدُقَٰتِهِنَّ﴾: مفعول به ثان منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿نِحۡلَةٗ﴾: مفعول مطلق على حد: قعدت جلوساً، أو هو حال بمعنى: ناحلين إن كان من واو الجماعة، أو بمعنى: منحولين، إن كانت من النِّساء، أو من الصَّدقات. وقيل: هو تمييز. (إن): حرف شرط جازم. ﴿طِبۡنَ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، ونون النسوة فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها... إلخ. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿عَن شَيۡءٖ﴾: متعلقان به أيضاً. ﴿مِّنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿شَيۡءٖ﴾. ﴿نَفۡسٗا﴾: تمييز محول عن الفاعل. ﴿فَكُلُوهُ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (كلوه): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها... إلخ. ﴿هَنِيٓـٔٗا مَّرِيٓـٔٗا﴾: حال من الضمير المنصوب. وقيل: هما صفتان لمفعول مطلق محذوف، التقدير: أكلاً هنيئاً مريئاً، والأول أقوى، وهما بمعنى: مهنَّأً ممرَّأً، و(إنَّ) ومدخولها كلام مفرغ عمَّا قبله لا محل له من الإعراب.

﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ﴿٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ...﴾ إلخ: لمَّا أمر الله بدفع أموال اليتامى إليهم فيما تقدَّم، وإيصال الصَّدقات إلى الزَّوجات؛ بيَّن أنَّ السَّفيه، وغير البالغ لا يجوز دفع ماله إليه، فدلَّت الآية على ثبوت الوصيِّ، والوليِّ، والكفيل للأيتام. وفي هذه الآية دليل الحَجْر على

السُّفهاء. وهم أقسام: فتارة يكون الحجر للصِّغر، وتارة يكون للجنون، وتارة يكون لسوء التصرُّف لنقص العقل، أو الدين، وهو المراد في الآية الكريمة بالنسبة لليتامى، وأوليائهم، وتارةً يكون الحجر لِلْفَلَس، وهو ما إذا أحاطت الديون برجلٍ، وضاقت أموالُه عن وفائها. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم بَنُوك، والنِّساء، وقال: لا تعمد إلى مالك، وما خوَّلك الله، وجعله الله معيشةً، فتعطيه امرأتك، أو بنيك، ثم تنظر إلى ما في أيديهم، ولكن أمسك مالك، وأصلحه، وكن أنت الذي تنفق عليهم. انتهى. وعليه في الآية نهيٌ لكلِّ أحدٍ أن يعمد إلى ما خوَّله الله تعالى من المال، فيعطيه امرأته، وأولاده، ثم ينظر إلى ما في أيديهم تحسُّراً، وندامةً، وكم رأينا، وسمعنا أناساً فعلوا ذلك، ولا سيَّما الذين يَحْرِمون الإناث، ويعطون الذكور، ثمَّ أهانوهم، بل وطردوهم من بيوتهم، والسَّعيد مَنْ وُعِظَ بغيره، والشَّقِيُّ من اتَّعظ غيرُه به.

هذا؛ وقوله تعالى: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾: إن كان المراد به أموال اليتامى، وأضافه إلى الأولياء، والأوصياء؛ فهو كقوله ﷺ في حجَّة الوداع: «**إنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ، وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ...**» إلخ وإن كان المراد به أموال المخاطبين أنفسهم؛ فقد رأيته فيما تقدَّم، وانظر شرح ﴿سَفِيهًا﴾ في الآية رقم [٢٨٢] من سورة (البقرة).

وقال ابن جرير عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ، قال: ثلاثة يدعون الله، فلا يستجيب لهم: رجلٌ له امرأةٌ سيِّئةُ الخلُقِ، فلم يطلقها، ورجلٌ أعطى ماله سفيهاً، وقد قال الله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ﴾ ورجل كان له على رجل دَيْنٌ، فلم يُشْهِدْ عليه. انتهى، أقول: والمراد بسيئة، عهرها، وخروجها عن طاعة ربها.

هذا؛ وإنما قال: ﴿ٱلَّتِى﴾ ولم يقل: اللاتي؛ لأنه جمع ما لا يعقل، فجرى على لفظ الواحد، كما قال تعالى في سورة (هود) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وقال في سورة (مريم): ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى...﴾ إلخ. ولو كان لما يعقل لقال: اللاتي، كما في الآية [٢٣] الآتية: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾، ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم﴾ وفي سورة (النور): ﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى...﴾ إلخ، هذا هو الأكثر في لسان العرب، وقد يجوز فيما لا يعقل: «اللاتي»، وفيما يعقل «التي».

﴿قِيَٰمًا﴾: هو ما يقام به، وإعلاله مثل إعلال «صيام» فيما تقدَّم، وأضيف هنا ما ذكره أبو البقاء؛ حيث قال: هو مصدر: قام، والياء بدل من الواو، وأبدلت منها لمَّا أُعِلَّت في الفعل، وكانت قبلها كسرة، والتقدير: التي جعل الله لكم سبب قيام أبدانكم، أي: بقائها، ويقرأ: (قِيَماً) بغير ألف، وفيه ثلاثة أوجه:

أحدها: انَّه مصدر مثل الحِوَل، والعِوَض، وكان القياس أن تثبت الواو، ولتحصُّنها بتوسُّطها، كما حُصِّنت في الحوض، والعوض، ولكن أبدلوها ياءً حملاً على «قيام» وعلى اعتلالها في الفعل.

والثاني: أنه جمع: قيمة، كديمة، وديم، والمعنى: أنَّ الأموال كالقيم للنفوس إذا كان بقاؤها بها. وقال أبو علي الفارسي: هذا لا يصحُّ؛ لأنه قد قرئ في قوله تعالى في سورة (الأنعام): ﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ وفي سورة (المائدة): ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَمًا﴾. ولا يصحُّ معنى القيمة فيها.

والوجه الثالث: أن يكون الأصل قياماً، فحذفت الألف، كما حذفت في: خِيَم.

ويُقرأ: قِواماً بكسر القاف، وبواو، وألف، وفيه وجهان:

أحدهما: هو مصدر قاومت، قِواماً، مثل: لاوذت، لواذاً، فصحَّت في المصدر لمَّا صحت في الفعل.

والثاني: هو اسمٌ لما يقوم به الأمر، وليس بمصدر، ويقرأ كذلك إلا أنه بغير ألف، وهو مصدر صحَّت عينه، وجاء على الأصل كالعِوَض.

ويقرأ بفتح القاف، وواو، وألف: قَوَاماً، وفيه وجهان أيضاً:

أحدهما: هو اسم للمصدر مثل: السَّلام، والكلام، والدوام.

والثاني: هو لغة في القَوام الذي هو بمعنى القامة، يقال: جارية حسنة القَوام، والقِوام. والتقدير: الَّتي جعلها الله سبب بقاء قاماتكم.

﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ أي: اجعلوا رزقهم، وكسوتهم من تلك الأموال، والضمير المنصوب يعود إلى الزوجة، والأولاد، أو إلى اليتامى، انظره فيما تقدَّم من الشرح. ﴿وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أراد تليين الخطاب، والوعد الجميل، واختلف في «القول المعروف» فقيل: معناه: ادعوا لهم: بارك الله فيكم، وأنا ناظر لكم، وهذا الاحتياط يرفعه نفعه إليكم. وقيل: معناه: وَعِدُوهم وعداً حسناً، أي: إن رشدتم؛ دفعنا إليكم أموالكم، ويقول الأب لابنه: مالي إليك مصيره، وأنت إن شاء الله صاحبُه؛ إذا ملكتَ رشدك، وعرفت تصرُّفك.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تُؤْتُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلسُّفَهَآءَ﴾: مفعول به أوَّل. ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾: مفعول به ثان، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿ٱلَّتِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب صفة: ﴿أَمْوَٰلَكُمُ﴾. ﴿جَعَلَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿قِيَمًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والعائد محذوف، التقدير: التي جعلها الله لكم قياماً. ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها، والتي بعدها معطوفة عليها،

لا محلَّ لها أيضاً. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿قَوْلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿مَّعْرُوفًا﴾: صفة له.

﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾: نزلت الآية الكريمة في ثابت بن رفاعة، وفي عمِّه، وذلك: أنَّ رفاعة مات، وترك ابنه ثابتاً، وهو صغير، فجاء عمُّه إلى النَّبيِّ ﷺ، وقال له: إن ابن أخي يتيم في حِجْري: فما يحلُّ لي من ماله، حتى أدفع إليه ماله؟ فأنزل الله الآية الكريمة: والمعنى: اختبروهم في عقولهم، وأديانهم، وفي تنمية أموالهم. هذا؛ وقال ابن كيسان: ويقال: أبلاه، وبلاه في الخير، والشرِّ، وأنشد قول زهير في ممدوحَيْهِ: هَرَم بن سِنَان، والحارث بن عوف المُرِّيَّيْنِ: [الطويل]

جَزَى اللهُ بالإِحْسَانِ مَا فَعَلَا بِكُمْ ... وَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو

فجمع بين اللُّغتين. وقيل: الأكثر في الخير: أَبليته، وفي الشر: بلوته، وفي الاختبار: ابتليته، وبلوته، قال النحاس: والابتلاء يكون في الخير، وفي الشرِّ، قال تعالى في حقِّ اليهود اللُّؤماء: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ أي: البلوغ، ويكون بالاحتلام، أو ببلوغه خمسة عشر عاماً عندنا، وثمانية عشر عاماً عند أبي حنيفة، وبلوغ النكاح كناية عن البلوغ؛ لأنَّه يصلح للنكاح عنده، وهو حقيقة في العقد مجاز في الوطء على الأصح عند الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ، والعكس عند غيره.

﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾: أبصرتم هدايةً في التَّصرفات، وصلاحاً في المعاملات، واستقامةً في الدِّين، والأخلاق، ووأنس: أبصر، قال تعالى في سورة (القصص): ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ وقال النابغة في معلقته: [البسيط]

كَأَنَّ رَحْلِي، وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا ... بِذِي الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحَدِ

هذا؛ وقرئ: (رَشداً) بفتحتين، وهما لغتان: فـ: ﴿رُشْدًا﴾: مصدر: رَشَد، وَرَشَداً مصدر: رَشِدَ، وكذلك الرَّشاد، فادفعوا إليهم أموالهم: أي بدون تأخير عن سن البلوغ. ﴿وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾ أي: مسرفين مبذرين ومبادرين كبرهم؛ أي: بلوغ السنِّ التي يستلمون فيها أموالهم، أو لإسرافكم، ومبادرتكم كبرهم تفرطون في إنفاقها، وتقولون: ننفق فيما نشتهي

قبل أن يكبر اليتامى، فينتزعوها مِنْ أيدينا. والإسراف في اللغة: الإفراط في كل شيءٍ؛ ومجاوزة الحد فيه، قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٣١]: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾. وقال جرير في مدح بني أميَّة: [البسيط]

أَعْطَوا هُنَيْدَةَ يَحْدُوهَا ثَمَانِيَةٌ مَا فِي عَطَائِهِم مَنٌّ وَلَا سَرَفُ

«هنيدة» اسم لكل مئة من الإبل، ومن دعاء الصَّالحين المصلحين: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ رقم [١٤٧]: من سورة (آل عمران). وقوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٢٠]: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ﴾ فيها أكبر رادعٍ، وزاجرٍ من التعدِّي على مال اليتيم.

ومن كان غنياً؛ فليستعفف: أي عن الأكل من مال اليتيم، وإن عمل فيه، وقام بمصالحه، يقال: عف الرَّجل عن الشَّيء، واستعفَّ: إذا أمسك، والاستعفاف عن الشيء: تركه، ومنه قوله تعالى في سورة (النور): ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾، والعفة: الامتناع عمَّا لا يحلُّ، ولا يُحَبُّ فعله.

﴿وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ المراد به هنا: بقدر حاجته، وأجر عمله في مال اليتيم، ولفظ: الاستعفاف، والأكل مشعرٌ بأنَّ للوليِّ حقَّاً في مال اليتيم، فقد روى أبو داود عن عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جدِّه: أنَّ رجلاً أتى النبي ﷺ، فقال: إنِّي فقيرٌ، وليس لي شيءٌ، وليَ يتيمٌ. فقال: «**كُلْ مِنْ مَالِ يَتِيمِكَ غَيْرَ مُسْرِفٍ، وَلَا مُبَذِّرٍ، ولَا مَتَأَثِّلٍ**»؛ أي: مدَّخرٍ، وهذا إذا كان العمل في مال اليتيم يصرفه عن معاشه، وما يحتاج إليه. هذا؛ وبين ﴿غَنِيًّا﴾ و﴿فَقِيرًا﴾ طباق، وهو من المحسِّنات البديعية، وبين الجملتين مقابلة لطيفةٌ، فتأمَّلها.

هذا؛ والفقير أصله في اللغة: الذي انكسر فِقَارَ ظهره، ثم أطلق على المُعدَم الذي لا يجد كفايته من المال؛ لأنه يشبه الَّذي أنبتَّ ظهره، وعدم الحول، والقوة، وهو أسوأ حالاً من المسكين عندنا معاشر الشافعيَّة، ويدلُّ عليه قوله تعالى في سورة (الكهف): ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فسمَّاهم الله مساكين مع كونهم يملكون سفينة يتّجرون فيها، وينقلون البضائع مِنْ صقعٍ إلى صقع، وكان النبي ﷺ يسأل الله المسكنة، ويتعوَّذ به من الفقر، فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِيناً، وَتَوَفَّنِي مِسْكِيناً، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ، وَإِنَّ أَشْقَى الأَشْيَاءِ مَن اجْتَمَعَ عَلَيْهِ فَقْرُ الدُّنْيَا، وَعَذَابُ الآخِرَةِ». رواه ابن ماجه، وروى الترمذيُّ مثله عن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ.

﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ أي: فإذا سلَّمتم إلى اليتامى أموالهم، فأشهدوا عليهم لئلا يجحدوا تسلُّمها، فإنه أنفى للتُّهمة، وأبعد للخصومة، ووجوب الضمان، والأمر للإرشاد، وليس للوجوب. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾: حافظاً لأعمال خلقه، ومحاسبهم عليها.

هذا؛ والفعل: «كفى» بمعنى: اكتف، فالباء زائدة في الفاعل عند الجمهور، وهو لازم لا ينصب المفعول به، ومثله مضارعه، كما في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ وقد يأتي بمعنى: حسب، وهو بهذه الصيغة، ويكون قاصراً لا يتعدَّى بنفسه إلى المفعول به، ولا تزاد الباء في فاعله، كما في قول سحيم بن وثيل الرِّياحي ـ وهو الشاهد رقم [١٦١]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إِنْ تَجَهَّزْتَ غَازِيَاً   كَفَى الشَّيْبُ وَالإِسْلَامُ لِلْمَرْءِ نَاهِيَا

وأما إذا كان بمعنى: جزى، وأغنى؛ فيكون متعدِّياً لواحد، ولا تزاد الباء في فاعله، كما في قول الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [١٦٢]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

قَلِيلٌ مِنْكَ يَكْفِينِي وَلَكِنْ   قَلِيلُكَ لَا يُقَالُ لَهُ قَلِيلُ

وإذا كان بمعنى: وقى؛ فإنَّه يكون متعدِّياً لمفعولين، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ رقم [٢٥]: من سورة (الأحزاب).

الإعراب: ﴿وَابْتَلُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿الْيَتَامَى﴾: مفعول به منصوب، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها أيضاً. ﴿حَتَّى﴾: حرف غاية، لا عمل لها عند الجمهور هنا، والأخفش يعتبرها في مثل هذا جارة لـ ﴿إِذَا﴾ ووافقه الزجَّاج، وابن دُرُسْتَوْيَهِ على ذلك. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزَّمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه صالح لغير ذلك، مبنيٌّ على السُّكون في محل نصب. ﴿بَلَغُوا﴾: فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق. ﴿النِّكَاحَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على القول المشهور المرجوح. ﴿فَإِنْ﴾: الفاء: واقعة في جواب ﴿إِذَا﴾. (إن): حرف شرط جازم. ﴿آنَسْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السُّكون في محل جزمٍ فعل الشرط، والتاء فاعله.

﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿رُشْدًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَادْفَعُوا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ادفعوا): فعل أمر، وفاعله. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿أَمْوَالَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محلَّ لها، والجملة الشرطية: (إن آنستم...) إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب: ﴿إِذَا﴾، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام مستأنف بعد: ﴿حَتَّى﴾ لا محلَّ له، واعتبره الزَّمخشري مثل قول جرير، وهو الشاهد رقم [٢٠٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

فَمَا زَالَتِ الْقَتْلَى تَمُجُّ دِمَاءَهَا   بِدِجْلَةَ حَتَّى مَاءُ دِجْلَةَ أَشْكَلُ

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَأْكُلُوهَا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، وها: مفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها،

لا محل لها أيضاً. ﴿إِسْرَافًا﴾: مفعول لأجله، أو هو حال بمعنى: مسرفين. ﴿وَبِدَارًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَكْبَرُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن...﴾ إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤوَّل في محلِّ نصب مفعول به لبداراً، والمعنى: مبادرين كبرهم، وبلوغهم.

(مَن): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، واسمه ضمير مستتر تقديره هو يعود إلى (مَنْ). ﴿غَنِيًّا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾. ﴿فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط، اللام: لام الأمر، (يستعفف): فعل مضارع مجزوم بلا الأمر، والفاعل يعود إلى (مَن) والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط... إلخ، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشرط. وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: الجملتان وهو المرجَّح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية ﴿وَمَن كَانَ...﴾ إلخ: مستأنفة لا محلَّ لها، والتي بعدها إعرابها مثلها، وهي معطوفة عليها، لا محلَّ لها مثلها.

﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (إذا): مثل سابقتها. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة في محلِّ جرٍّ بإضافة (إذا) إليها. ﴿إِلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محلِّ جرٍّ بالإضافة. ﴿فَأَشْهِدُواْ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا) وهذا يرجِّح ما ذهبت إليه من أن العامل في: (إذا) فعل شرطها لا جوابها؛ لأنه لا يعمل ما بعد الفاء فيما قبلها. ﴿فَأَشْهِدُواْ﴾: فعل أمر وفاعله، والجملة الفعلية جواب: (إذا) لا محل لها. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف.

﴿وَكَفَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿بِٱللَّهِ﴾: الباء: حرف جر صلة. (الله): فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. وقيل: الباء أصلية، والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما على أنَّهما مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره: الاكتفاء، والمعتمد الأول. ﴿حَسِيبًا﴾: تمييز. وقيل: حال، والمعتمد الأول، وجملة: ﴿وَكَفَىٰ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في أوس بن ثابت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ توفي، وترك امرأةً، يقال لها: أم كجَّة، وثلاث بنات له منها، فقام رجلان هما ابنا عمِّ الميت، ووصيَّاه،

يقال لهما: سويد، وعرفجة، فأخذا ماله، ولم يعطيا امرأته، وبناته شيئاً، وكانوا في الجاهلية لا يورثون النساء، ولا الصَّغير؛ وإن كان ذكراً، ويقولون: لا يُعطى إلا مَنْ قاتل على ظهور الخيل، وطاعن بالرماح، وضارب بالسيوف، وحاز الغنيمة. فذكرت أم كجَّة ذلك لرسول الله ﷺ، فدعاهما، فقالا: يا رسول الله ولدها لا يركب فرساً، ولا يحمل كلاًّ، ولا ينكأ عدواً. فقال عليه الصَّلاة والسَّلام: انصرفا؛ حتى أنظر ما يُحْدِث الله لي فيهنَّ، فأنزل الله الآية الكريمة ردّاً عليهم، وإبطالاً لقولهم، وتصرفهم بجهلهم، فإن الورثة الصغار كان ينبغي أن يكونوا أحقَّ بالمال من الكبار لعدم تصرفهم، والنظر في مصالحهم، فعكسوا الحكم، وأبطلوا الحكمة، فضلُّوا بأهوائهم، وأخطؤوا في آرائهم، وتصرفاتهم.

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾: مبهمٌ، بيَّنتْه آيات المواريث الآتية. ﴿مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ﴾ ففيه تغليب الأب على الأم، وأيضاً في لفظ: الأبوين، وفيه أشعار بتفضيل الأب على الأم، والذكر على الأنثى. هذا؛ والتغليب باب من أبواب النَّحو معروفٌ، ومشهور. خذ قول الفرزدق ـ وهو الشاهد رقم [١١٦٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أَخَـذْنَـا بِـآفَـاقِ الـسَّـمَـاءِ عَـلَـيْـكُـمُ لَـنَـا قَـمَـرَاهـا وَالـنُّـجُـومُ الـطَّـوَالِـعُ

﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ﴾ أي: سواء أكان الذي تركه المتوفَّي مالاً قليلاً، أو كثيراً، فلكلٍّ مِنَ الرجال، والنساء نصيب بينته الآية الآتية. ﴿نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾ أي: معلوماً مقطوعاً لكلِّ وارثٍ. هذا؛ وبين: ﴿قَلَّ﴾ و﴿كَثُرَ﴾ طباق.

الإعراب: ﴿لِّلرِّجَالِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿نَصِيبٌ﴾: مبتدأ مؤخَّر. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿نَصِيبٌ﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿مَّا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جرٍّ بـ (مِنْ). ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلْوَٰلِدَانِ﴾: فاعله مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنه مثنى والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية صلة: (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: مِنَ الذي، أو: من شيءٍ تركه الوالدان. ﴿وَٱلْأَقْرَبُونَ﴾: معطوف على ما قبله مرفوع مثله، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية: ﴿لِّلرِّجَالِ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، والتي بعدها معطوفة عليها، وإعرابها مثلها بلا فارق. ﴿مِّمَّا﴾: بدل مما قبلهما، وجوز أبو البقاء اعتبارهما متعلقين بمحذوف حال من الضمير المحذوف الواقع مفعولاً به. ﴿قَلَّ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، أو الرابط. ﴿مِنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والتي بعدها معطوفة عليها، وحذف متعلقها اكتفاء بما قبله. ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لمعنى الكلام السابق. وقيل: حال. وقيل: منصوب على الاختصاص بفعل محذوف، تقديره: أعني. ﴿مَّفْرُوضًا﴾: صفة له.

﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ...﴾ إلخ: أي: فارضخوا لهم مِنَ المال قبل القسمة؛ إن كانوا غير وارثين. واختلف العلماء في حكم هذه الآية، فقال قومٌ: هذه الآية منسوخةٌ بآية المواريث، وهذا قبل نزول آية المواريث فلمَّا نزلت آية المواريث؛ جعلت الأموال لأهلها، ونُسخت هذه الآية. وهي رواية مجاهد عن ابن عبَّاسٍ، وقول سعيد بن المسيب، وعكرمة، والضَّحاك. وقال قوم: هي مُحْكَمةٌ غير منسوخة، وهي الرواية الأخرى عن ابن عباس، وهو قول أبي موسى الأشعري، وكثير غيره، ثم اختلف العلماء بعد القول بأنَّها مُحْكَمَةٌ: هل هذا الأمر أمر وجوب، أو ندب؟ على قولين:

أحدهما: أنه واجب. فقيل: إن كان الوارث كبيراً؛ وجب عليه أن يرضخ لمن حضر القسمة شيئاً من المال بقدرٍ تطيب به نفسه، وإن كان الوارث صغيراً؛ وجب على الولي أن يعتذر إليهم، ويقول: إني لا أملك هذا المال، وهو لهؤلاء الضِّعاف، ولو كان لي منه شيء لأعطيتكم، وإن يكبروا فسيعرفوا حقَّكم. هذا هو القول المعروف. وقال بعضهم: هذا حق واجب في مال الصِّغار، والكبار، فإن كان الورثة كباراً؛ تولَّوا إعطاءهم بأنفسهم، وإن كانوا صغاراً؛ أعطى وليُّهم. انتهى. خازن.

أقول: الآية محكمة، ولفظ القسمة يوحي بأنَّها نزلت بعد آية المواريث. وقيل آية الموارث لم تكن قسمة؛ لأنَّ الكبار كانوا يحرمون النساء، والصغار من الميراث، كما رأيت في الآية السابقة، ويستولون على تركة الميت. وسواءٌ أكان الأمر للوجوب، أو للندب، فهو عملٌ إنساني نبيل، وقد طبَّقه القانون في أكثر البلاد الإسلامية على الأحفاد الَّذين مات والدُهم قبل جدِّهم، ثمَّ مات الجدُّ، فإنَّه يعطي هؤلاء الأحفاد نصيبَ أبيهم لو كان حيّاً بشرط ألا يزيد على الثلث، وقد أطلق عليه اسم الوصية الواجبة، ولا بأس به، فهو عملٌ إنسانيٌّ؛ لأنَّ النفوس في هذه الأيام قد طبعت على الشحِّ، وقست، فلم يبق فيها عطفٌ، ولا شفقةٌ.

هذا؛ والضمير في: ﴿مِّنْهُ﴾ عائد على معنى القسمة؛ إذ هي بمعنى المقسوم، كقوله تعالى في سورة (يوسف) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾ أي: السقاية؛ لأنَّ الصواع مذكَّر، وهما بمعنى واحد.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): انظر الآية رقم [٦]. ﴿حَضَرَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلْقِسْمَةَ﴾: مفعول به. ﴿أُوْلُواْ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و﴿أُوْلُواْ﴾: مضاف، و﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾: مضاف إليه

مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: معطوف على ما قبله مرفوع مثله، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذُّر. ﴿وَالْمَسَاكِينُ﴾: معطوفة أيضاً على ما قبله، والجملة الفعلية: ﴿حَضَرَ...﴾ إلخ في محل جر بإضافة (إذا) إليها... إلخ. الفاء: واقعة في جواب (إذا). (ارزُقُوهُمْ): فعل أمر، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محل لها. و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف لا محل له على الاعتبارين. ﴿وَقُولُوا...﴾ إلخ: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٥]: وهي معطوفة على جواب: (إذا).

﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في الأوصياء. أي: تذكَّر أيها الوصيُّ ذريَّتك الضِّعاف من بعدك، وكيف يكون حالهم، وعامل اليتامى الذين في حِجْرك بمثل ما تريد أن يُعامَل به أبناؤك من بعدك. وقيل: هذا في الرَّجل يحضره الموت، فيقول له مَنْ بحضرته عند وصيته: إنَّ الله سيرزق ولدك، فانظر لنفسك، وأوصِ بمالك في سبيل الله، وتصدَّق، وأعتق؛ حتَّى يأتي على عامَّة ماله، أو يستغرقه، فيضرُّ ذلك بورثته، فنهوا عن ذلك، فكأنَّ الآية تقول لهم: كما تخشون على ذريتكم، وورثتكم الضَّياع من بعدكم، فكذلك اخشوا على ورثة غيركم، ولا تَحْمِلوا المُحْتضِر على تبذير ماله، قاله ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره، وروى سعد بن جبير عن ابن عباس: أنه قال: إذا حضر الرجل الوصية؛ فلا ينبغي أن يقول للموصي: أوص بمالك؛ فإنَّ الله رازق ولدك، ولكن يقول: قدِّم لنفسك، واترك لولدك. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ﴾. وقال مِقْسَم وحَضرمِيٌّ: نزلت في عكس هذا، وهو أن يقول للمحتضر من يحضره: أمسك على ورثتك، وأبْقِ لولدك، فليس أحدٌ أحقُّ بمالك من أولادك، وينهاه عن الوصية، فيتضرر بذلك ذوو القربى، وكلُّ مَنْ يستحقّ أنْ يُوصى له، فقيل لهم: كما تخشون على ذريتكم، وتسرون بأن يحسن إليهم، فكذلك سدِّدوا القول في جهة المساكين، واليتامى، واتقوا الله في ضررهم أصوبُ. وهذا القول، والأول أقعد في معنى الآية. والله أعلم بمراده، وأسراره كتابه. هذا؛ والقول السديد: العدلُ، والصَّواب الموافق لِمَا أمر الله، ورسولُه به من الإحسان إلى اليتيم، والعدل في الوصيَّة: «لَا ضَررَ وَلَا ضِرَارَ».

قال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: ما معنى وقوع: ﴿لَوْ تَرَكُوا﴾ وجوابه صلة لـ ﴿الَّذِينَ﴾ قلت: معناه، وليخش الذين صفتهم وحالهم: أنهم لو شارفوا أن يتركوا ذريَّةً ضعافاً ـ وذلك عند احتضارهم ـ خافوا عليهم الضياع بعدهم لذهاب كافلهم، وكاسبهم، كما قال خالد القناني الخارجي. انظر الشاهد رقم [٩٢٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

لَـقَـدْ زَادَ الْـحَـيَـاةَ إِلَـيَّ حُـبَّـاً بَـنَـاتِـي إِنَّـهُـنَّ مِـنَ الـضِّـعَـافِ
أُحَـاذِرُ أَنْ يَـرَيْـنَ الْـبُـؤْسَ بَـعْـدِي وَأَنْ يَـشْـرَبْـنَ رَنْـقـاً بَـعْـدَ صَـافِـي

الإعراب: ﴿وَلْيَخْشَ﴾: اللام: لام الأمر. (يخش): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محلِّ رفع فاعل، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿لَوْ﴾: حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿تَرَكُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي.

﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾: متعلِّقان بالفعل قبلهما، ويجوز تعليقهما بمحذوف حال مِنْ: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه؛ صار حالاً، على القاعدة المشهورة. ﴿ذُرِّيَّةً﴾: مفعول به. ﴿ضِعَـٰفًا﴾: صفة: ﴿ذُرِّيَّةً﴾. ﴿خَافُوا۟﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والمفعول محذوف، التقدير: خافوا عليهم الضياع. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان به، والجملة الفعلية جواب ﴿لَوْ﴾ لا محل لها. و﴿لَوْ﴾: ومدخولها صلة الموصول.

﴿فَلْيَتَّقُوا۟﴾: الفاء: حرف عطف. (ليتقوا): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً، والتي بعدها معطوفة عليها، لا محلَّ لها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾

الشرح: قال مقاتل بن حيَّان: نزلت الآية الكريمة في رجلٍ من غطفان، يقال له: مرثد بن زيد، وَلِيَ مال ابن أخيه، وهو يتيمٌ صغير، فأكله، فأنزل الله فيه هذه الآية.

﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ يعني: سيأكلون يوم القيامة، فهو مجاز مرسل، وهو باعتبار ما يؤول إليه أمرهم، كقوله تعالى حكاية عن قول الرائي في منامه في سورة (يوسف) ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ أي: عنباً يؤول أمره إلى الخمر. وعكسه باعتبار ما كان قولُه تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ﴾ فسمَّاهم يتامى باعتبار ما كان؛ لأنَّهم لا يُعْطَوْنَ المال؛ وهم صغار يتامى.

وإنَّما خصَّ الأكل بالذكر، وإن كان المراد سائر أنواع الإتلافات، وجميع التصرُّفات الرديئة المتعلقة؛ لأن الأكل معظم المقصود من المال. وذكر البطون مع أن الأكل لا يكون إلا فيها للتأكيد، والمبالغة، فهو كقولك: أبصرت بعيني، وسمعت بأذني، ومثله قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾.

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾: يقال: صَلِيَ النار، يصلاها صليً، وصلاءً: قاسى حرها. قال تعالى في سورة (الأعلى): ﴿لَا يَصْلَاهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ والصِّلاء هو التسخن بقرب النار، أو مباشرتها، ومنه قول الحارث بن عبَّاد: [الخفيف]

لَـمْ أَكُـنْ مِـنْ جُـنَـاتِـهَـا عَـلِـمَ الـلـ ـهُ وَإِنِّـي لِـحَـرِّهَـا الْـيَـوْمَ صَـالِ

وصليْتُه في النار: شويته فيها، وأصليته مثله، وصلَّيته بتشديد اللام من التصلية لكثرة الفعل مرةً بعد أخرى، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾. وتصلَّيْتُ: استدفأت بالنار، قال الشاعر: [المنسرح]

وَقَـدْ تَـصَـلَّـيْـتُ حَـرَّ حَـرْبِـهِـمُ كَـمَـا تَـصَـلَّـى الْـمَـقْـرُورُ مِـنْ قَـرَسِ

هذا؛ وقال السُّدي ـ رحمه الله تعالى ـ: يُبْعَثُ آكل اليتيم ظلماً يوم القيامة، ولهب النار يخرج مِنْ فيه، ومن سَمْعِهِ، وعينيه، وأنفه، يعرفه مَنْ رآه بآكل مال اليتيم. وفي حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: حدَّثنا النبي عن ليلة أُسريَ به، قال: «**نَظَرْتُ فَإِذَا أَنَا بِقَوْمٍ لَهُمْ مَشَافِرُ كَمَشَافِرِ الإِبْلِ، وَقَدْ وُكِّلَ بِهِمْ مَنْ يَأْخُذُ بِمَشَافِرِهِمْ، ثُمَّ يجعلُ فِي أَفْوَاهِهِمْ صَخْراً مِنْ نَارٍ، يَخْرُجُ مِنْ أَسَافِلِهِمْ. قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ! مَنْ هؤلاءِ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً، إِنَّمَا يأكلونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً**». قرطبي، وخازن.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قِيلَ: يا رسولَ اللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قال: «**الشركُ باللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**». رواه البخاري، ومسلمٌ، وأبو داود، والنَّسائي.

هذا؛ ولما نزلت الآية الكريمة؛ ثقل ذلك على الناس، واحترزوا من مخالطة اليتامى، وأموالهم بالكلية، فشق ذلك على اليتامى، فنزل قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٢٠]: ﴿وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾. انظر شرحها هناك؛ تجدْ ما يسرك، ويثلج صدرك.

هذا؛ وقد أوصى الله، ورسوله باليتيم، وحفظ ماله، فقال تعالى في كثير من الآيات: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾. وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾. فعن سهل بن سعد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الجَنَّةِ هَكَذَا وأشار بالسبابة والوسطى، وفرَّج بينهما**». رواه البخاريُّ، وأبو داود، والترمذي. ورغَّبَ عليه الصلاة والسلام المرأة في القعود على أولادها إذا آمت من زوجها. فعن عوف بن مالك الأشجعي ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**أَنَا وَامْرَأَةٌ سَفْعَاءُ الخدَّينِ كَهَاتَيْنِ يَوْمَ الْقِيامَةِ، امْرَأَةٌ آمَتْ مِنْ زَوْجِهَا ذَاتُ مَنْصِبٍ، وَجَمَالٍ، حَبَسَتْ نَفْسَهَا عَلَى يَتَامَاهَا؛ حَتَّى بَانُوا، أَوْ مَاتُوا**». رواه أبو داود.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها، و﴿أَمْوَٰلَ﴾ مضاف، و﴿ٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿ظُلْمًا﴾: حال بمعنى: ظالمين. وقيل: مفعول لأجله. ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿يَأْكُلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿فِى بُطُونِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿نَارًا﴾ كان صفة له، فلما قدم عليه صار حالاً، وجملة: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿نَارًا﴾: مفعول به. ﴿وَسَيَصْلَوْنَ﴾: الواو: حرف عطف. السين: حرف استقبال، وهي هنا مؤكدة للتحقيق، والوعيد. (يصلون): مضارع، وفاعله. ﴿سَعِيرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الواقعة خبراً لـ ﴿إِنَّ﴾ فهي في محل رفع مثلها.

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾﴾

الشرح: اختلف في سبب نزول الآية على أقوال: منها ما ذكرته عن أمِّ كجَّة، رضي الله عنها. وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاءت امرأة سعد بن الرَّبيع ـ رضي الله عنه ـ بابنتيها من سعد إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! هاتان ابنتا سعد بن الرَّبيع، قتل أبوهما معك يوم أُحُدٍ شهيداً، وإن عمَّهما أخذ مالهما، فلم يدع لهما مالاً، ولا ينكحان إلا ولهما مال. قال: «**يقضي الله في ذلك**». فنزلت آية المواريث، فبعث رسول الله ﷺ إلى عمِّهما، فقال: «**أعط ابنتي سعد الثلثين، وأعطِ أمهما الثُّمن، وما بقي فهو لك**». أخرجه الترمذي، وأبو داود، وأحمد، وابن ماجه. وقيل: غير ذلك من الأسباب.

هذا؛ ولقد بين الله في هذه الآية ما أجمله فيما سبق، فدلَّ هذا على جواز تأخير البيان عن وقت السؤال. وهذه الآية ركنٌ من أركان الدِّين، وعُمْدةٌ من عُمُد الأحكام، وأمٌّ من أمهات الآيات، فإن الفرائض عظيمة القدر؛ حتى إنَّها ثلث العلم، بل روي: نصف العلم، وهو أول علم يُنْزَعُ من النَّاس، ويُنْسَى.

هذا؛ ولقد نسخت هذه الآية الوصية للوالدين، والأقربين المذكورة في الآية رقم ـ ١٧٩ ـ من سورة (البقرة) انظرها هناك.

فقد روى الدَّارقطني عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قال: «**تَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ، وعَلِّمُوهَا النَّاسَ، فَإِنَّهُ نِصْفُ الْعِلْمِ، وَهُوَ أَوَّلُ شَيء يُنْسَى، وَأَوَّلُ شَيء يُنْزَعُ مِنْ أُمَّتِي**».

وروي أيضاً عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**تعلَّمُوا الْقُرآنَ، وَعَلِّموه النَّاسَ، وَتَعَلَّمُوا الْفَرَائِضَ، وَعَلِّمُوهَا النَّاسَ، وَتَعَلَّمُوا العِلْمَ، وعَلِّمُوهُ النَّاسَ، فَإِنِّي امرؤٌ مقبوضٌ، وَإِنَّ الْعِلْمَ سَيُقْبَضُ، وَتَظْهَرُ الْفِتَنُ؛ حَتَّى يَخْتَلِف الاثْنَانِ فِي الْفَرِيضَةِ، لَا يَجِدَانِ مَنْ يَفْصِلُ بَيْنَهُمَا**».

﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ﴾: يعهد إليكم، ويأمركم. ﴿فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ﴾: في شأن ميراثهم منكم. ﴿لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾ فإنَّ أهل الجاهلية كانوا يجعلون للذكر دون الإناث، فأمر الله تعالى بالتسوية بينهم في أصل الميراث، وفاوت بين الصِّنفين، فجعل للذَّكر مثل حظ الأنثيين، وذلك لاحتياج الرَّجل إلى مؤنة النكاح، والنفقة، ومعاناة التكسب، وتحمُّل المشاق، فناسب أن يعطى ضعفيْ ما تأخذه الأنثى. وقد استنبط من الآية: أنَّ الله تعالى أرحم بخلقه من الوالدة بولدها، حيث أوصى الوالدين بأولادهم، فعُلم أنَّه أرحم بهم منهم.

﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ﴾ أي: إن كان الأولاد نساءً خلصاً ليس معهن ذكر يعصبهن. ﴿فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ أي: اثنتين فما فوقهما. وقد استدلَّ بعضهم بهذه الآية على أنَّ أقل الجمع اثنان فما فوق، وقد قال الرسول ﷺ: «**الإثنَانِ فَمَا فَوْقَهُمَا جَمَاعَةٌ**». وحكي عن سيبويه: أنه قال: سألت الخليل عن قوله: «مَا أَحْسَنَ وجُوهَهُمَا» فقال: الاثنان جماعة، وقد صحَّ قول الشاعر: [الوافر]

يُحَيَّى بِالسَّلامِ غَنِيُّ قَوْمٍ ... وَيُبْخَلُ بِالسَّلامِ عَلَى الْفَقِيرِ
أَلَيْسَ الْمَوْتُ بَيْنَهُمَا سَوَاء ... إِذَا مَاتُوا وَصَارُوا فِي الْقُبُورِ

فواو الجماعة عائدة على الغني، والفقير ﴿فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ﴾ أي: المتوفَّى: وهو كناية عن غير مذكور، وجاز ذلك لدلالة الكلام عليه، كقوله تعالى في سورة (صٓ): ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ﴾ وقوله جل ذكره: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾. هذا؛ ويقال: ثنتان، وثنتين، ولكن الأوَّل أحسن، وأجود، والتاء في ثنتان كالتاء في بنتان، إلا أنَّه لم يستعمل واحد الثنتين بالتاء، كما استعمل بنت، وكذلك التاء في اثنتان كالتاء في ابنتان، إلا أنهم لم يقولوا: اثنة، كما قالوا: ابنة، وخذ قول جعفر بن علبة الحارثي ـ وهو الشاهد رقم [١٠٣]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

فَقَالُوا لَنَا ثِنْتَانِ لَا بُدَّ مِنْهُمَا ... صُدُورُ رِمَاحٍ أُشْرِعَتْ أَوْ سَلَاسِلُ

﴿وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ﴾ أي: المولودة الوارثة منفردة؛ فنصيبها نصف الميراث. ﴿وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ...﴾ إلخ. أي: لكل واحدٍ من أبوي الميت سدس ميراثه؛ إن كان له ولد ذكر، أو أنثى، لكن يأخذ الأب مع البنت السدس فرضاً، ويأخذ الباقي تعصيباً، إن لم يكن ثمَّة وارث آخر مِنْ ذوي الفروض.

﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ...﴾ إلخ. أي: إن مات ذكر، أو أنثى، ولم يكن له وارث غير أبويه، فأمُّه تأخذ، وتستحقُّ الثلث فرضاً، والباقي يأخذه الأب. ومثل ذلك ما إذا كان مع الأبوين أحد الزَّوجين. فإن الأم تأخذ ثلث ما يبقى بعد فرض أحد الزَّوجين، والباقي للأب، وذلك للمحافظة على أن يأخذ الأب مثلي الأم، وهذا كله إن لم يكن للميت إخوة من أي جهةٍ كانوا، فإنَّ للأم حينئذ السدس فرضاً؛ لأن الأخوة وإن كانوا محجوبين بالأب، فهم يحجبون الأمَّ من الثُّلث إلى السُّدس حجب نقصان.

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ﴾ أي: إن تقسيم الورثة على ما تقدَّم بيانه إنَّما هو بعد تنفيذ الوصية، ووفاء الدَّين من المال الذي تركه الميت. هذا؛ وقدَّم ربنا ذكر الوصية على الدَّين، وهي متأخرةٌ عنه في الحكم؛ لأنها مشبهة بالميراث، شاقةٌ على الورثة، ولأنها صلةٌ بلا عوض، وأداؤها مظنَّةٌ للتفريط. عن الحارث عن علي ـ رضي الله عنه ـ أنَّ النبي ﷺ قضى بالدَّين قبل الوصية، وأنتم تقرؤون الوصية قبل الدَّين، قال: والعمل على هذا عند عامَّة أهل العلم: أنَّه يبدأ بالدَّين قبل الوصية. وروى الدَّارَ قُطْنِيُّ من حديث عاصم بن ضمرة عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال، قال رسول الله ﷺ: «**الدَّيْنُ قَبْلَ الْوَصِيَّةِ، وَلَيْسَ لِوَارِثٍ وَصِيَّةٌ**» أي: إلا أن يجيزها باقي الورثة.

ولمَّا ثبت هذا؛ تعلَّق الشافعي ـ رضي الله عنه ـ بذلك في تقديم دين الزَّكاة، والحجِّ على الميراث، فقال: إنَّ الرجل إذا فرَّط في زكاته؛ وجب أخذ ذلك من رأس ماله. وهذا ظاهرٌ ببادئ الرأي، ولأنَّه حقٌّ من الحقوق، فيلزم أداؤه عنه بعد الموت، كحقوق الآدميين، لاسيَّما والزكاة مصرفها إلى الآدمي. وقال أبو حنيفة، ومالك ـ رحمهما الله تعالى ـ: إن أوصى؛ أُدِّيت من ثلث ماله، وإن سكت؛ لم يخرج عنه شيء. قالوا: لأن ذلك موجب لترك الورثة فقراء، إلا أنَّه قد يتعمَّد ترك الكل؛ حتَّى إذا مات؛ استغرق ذلك جميعَ ماله، فلا يبقى للورثة حقٌّ، انتهى قرطبي.

﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ أي: لا تعلمون من أنفع لكم ممَّن يرثكم من أصولكم، وفروعكم في عاجلكم، وآجلكم، فاعملوا بما أوصاكم لا تعمدوا إلى تفضيل بعض، وحرمان بعض آخر. روي: أن أحد المتوالدين ـ أي: من الآباء أو من الأبناء ـ إذا كان أرفع درجة من الآخر في الجنَّة سأل الله أن يرفع إليه ابنه، أو أباه. فيرفع بشفاعته.

وإذا كان الأمر كذلك، فلا ينبغي للإنسان أن يحرم بعض أولاده، ويعطي الآخرين من ماله، فيسبب بذلك عقوق أولاده المحرومين في الدُّنيا، والآخرة. وإن كثيراً من المسلمين في هذه الأيام يفعلون ذلك، فيخالفون ما أوصى الله به في هذه الآية، وما أوصى به الرسول ﷺ من حسن معاملة الأولاد، والعدل بينهم؛ حتى في الابتسامة، والقُبَل.

﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذا الذي ذكر في تفصيل الميراث، وإعطاء بعض الورثة أكثر من بعض هو فرضٌ من الله، حكم به، وقضاه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: كان عليماً بالأشياء

قبل خلقها، حكيماً فيما قدَّر من الفرائض في المواريث، وفرض من الأحكام، وفي لفظة: ﴿كَانَ﴾ ثلاثة أقوال: **أحدها**: أنَّ الله تعالى كان عليماً بالأشياء قبل خلقها، ولم يزل كذلك، **الثاني**: حكى الزجاج عن سيبويه: أنه قال: إنَّ القوم لمَّا شاهدوا علماً، وحكمةً، ومغفرةً، وفضلاً، قيل لهم: إن الله كان كذلك، ولم يزل على ما شاهدتهم. **الثالث**: قال الخليل: الخبر عن الله عز وجل بمثل هذه الأشياء كالخبر بالحال، والاستقبال؛ لأن صفات الله تعالى لا يجوز عليها الزَّوال، والتقلُّب انتهى خازن.

تنبيه: موانع الإرث: اختلاف الدِّين، والرِّقُّ، والقتل وهو يمنع الإرث عمداً كان ـ أي: القتل ـ أو خطأً؛ لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «الْقَاتِلُ لَا يَرِثُ». أخرجه الترمذيُّ.

ويتعلق بتركة الميت حقوقٌ أربعة: تجهيزه، ووفاء ديونه، وتنفيذ وصاياه، ثم تقسيم تركته بين ورثته حسب الكتاب، والسنة.

الإعراب: ﴿يُوصِيكُمُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والكاف مفعول به. ﴿اللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿لِلذَّكَرِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مِثْلُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿حَظِّ﴾ مضاف إليه، و﴿حَظِّ﴾ مضاف، و﴿الْأُنثَيَيْنِ﴾ مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية مفسِّرة لمعنى الوصية، والرابط محذوف، التقدير: للذكر منهم... إلخ. وقيل: الجملة مستأنفة لا محلَّ لها. وقيل: في محل نصب مفعول به ثان للفعل: (يوصي) وعليه أبو البقاء.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿كُنَّ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، ونون النسوة اسمه. ﴿نِسَاءً﴾: خبره. ﴿فَوْقَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بمحذوف صفة: ﴿نِسَاءً﴾. وقيل: متعلِّق بمحذوف في محل نصب خبر ثان لـ (كان) والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَلَهُنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لهنَّ): جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف خبر مقدَّم، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿ثُلُثَا﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنَّه مثَّنى، وحذفت النون للإضافة. و﴿ثُلُثَا﴾: مضاف، و﴿مَا﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة فهي مبنية على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض، وفاعله يعود إلى المتوفَّى، وهو معلوم من المقام كما رأيت في الشرح، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: فلهن ثلثا ما تركه، والجملة الاسمية هذه في محلِّ جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحل محل المفرد، والجملة الشرطية: ﴿فَإِن كُنَّ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والتاء للتأنيث، واسمه يعود إلى غير مذكور أيضاً. ﴿وَٰحِدَةً﴾ خبر: ﴿كَانَتْ﴾ وقرئ برفع واحدة على اعتباره فاعلاً بـ (كانت) التَّامَّة، وهي بمعنى: وقعت، وحدثت، والجملة الفعلية لا محل لها... إلخ، والجملة الاسمية: ﴿فَلَهَا ٱلنِّصْفُ﴾ في محل جزم جواب الشرط... إلخ، والجملة الشرطية معطوفة على ما قبلها. (لِأَبَوَيْهِ): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، وعلامة الجر الياء... إلخ، وحذفت النون للإضافة والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿لِكُلِّ﴾: بدل مما قبلها بدل البعض، و(كلِّ) مضاف، و﴿وَٰحِدٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مِّنْهُمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿وَٰحِدٍ﴾ والميم والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿ٱلسُّدُسُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة لا محل لها أيضاً. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال مِن: ﴿ٱلسُّدُسُ﴾ و(ما) تحتمل ما ذكرته، وجملة: ﴿تَرَكَ﴾ صلة، أو صفة (ما)... إلخ. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص في محل جزم فعل الشرط. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ مقدَّم. ﴿وَلَدٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة لا محل لها... إلخ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص فعل الشرط. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿وَلَدٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة الفعلية لا محلَّ لها... إلخ، وجملة: ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ معطوفة على جملة شرط (إنْ) والجملة الاسمية: ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ في محلِّ جزم جواب الشَّرط، والجملة الشَّرطية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ إعرابها واضحٌ إن شاء الله تعالى.

﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلِّقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هذه الأنصباء للورثة من بعد، وجوز أبو البقاء تعليقهما بمحذوف حال من (السُّدس) كما جوز تعليقهما بفعل محذوف، التقدير: يستقرُّ لهم ذلك من بعد... إلخ، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿وَصِيَّةٍ﴾: مضاف إليه، ﴿يُوصِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء، والفاعل محذوف كما في السَّابقة، والجملة الفعلية في محل جر صفة: ﴿وَصِيَّةٍ﴾. ﴿دَيْنٍ﴾ معطوف على: ﴿وَصِيَّةٍ﴾.

﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾: مبتدأ. ﴿وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾: معطوف عليه، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تَدْرُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. ﴿أَيُّهُمْ﴾: اسم استفهام مبتدأ، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿أَقْرَبُ﴾: خبره. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿أَقْرَبُ﴾. ﴿نَفْعًا﴾: تمييز، والجملة الاسمية في محلِّ نصب سدّت مسد مفعولي الفعل قبلهما المعلَّق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام، وهو من أفعال القلوب. هذا؛ وجوِّز اعتبار: ﴿أَيُّهُمْ﴾ اسماً موصولاً مفعول به أوَّل للفعل قبله. و﴿أَقْرَبُ﴾ خبراً لمبتدأ محذوف؛ أي: هو أقرب. وهذه الجملة صلة الموصول،

والمفعول الثاني محذوف، ولكنَّ الأوَّل أشهر عند المُعربين، والجملة الفعلية: ﴿لَا تَدْرُونَ...﴾ إلخ في محلِّ رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿ءَابَآؤُكُمْ...﴾ إلخ معترضة بين الجمل المتعاطفة، لا محلَّ لها. هذا؛ وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: خبر المبتدأ محذوف، تقديره: هم المقسوم عليهم، وهم المُعْطَون وما قدَّمته أولى بالاعتبار.

﴿فَرِيضَةً﴾: مفعول مطلق مؤكد لما جاء في هذه الآية من الوصية الباهرة، على حدِّ: قعدتُ جلوساً. وقيل: هو مفعول مطلق، عامله من لفظه محذوف، التقدير: فرض الله ذلك فريضةً. وقيل: حال مؤكِّدة، والعامل: يوصيكم، وهو ضعيف. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسم ﴿إِنَّ﴾. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: خبران لـ: ﴿كَانَ﴾ والجملة الاسمية مستأنفةٌ، لا محلَّ لها.

تنبيه: كثر حذف فاعل الأفعال في الآية الكريمة كما رأيت، ومثل هذا قوله تعالى في سورة (هود) رقم [٤٤]: ﴿وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ﴾ وقوله تعالى في سورة (صٓ): ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ وفي سورة (الواقعة) قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ وفي سورة (القيامة) قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْۜ رَاقٍ﴾ ففي كل ذلك الفاعل محذوفٌ يدلُّ عليه المقام، ومثل هذه الآيات قولُ حاتم الطَّائي: [الطويل]

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّراءُ عَنِ امْرِئٍ إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ

وأيضاً قول سوار بن المُضَرِّب السَّعدي ـ وهو الشَّاهد رقم [١٩١]: من كتابنا: «فتح رب البريَّة» ـ: [الطويل]

إِذَا كَانَ لَا يُرْضِيكَ حَتَّى تَرُدَّنِي إِلَى قَطَرِيٍّ لَا إِخَالُكَ رَاضِيَا

﴿۞ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۚ وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ ٱلثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُمۚ مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَآ أَوْ دَيْنٍۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّۚ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ۝١٢﴾

الشرح: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾: الخطاب للرِّجال الوارثين من نسائهم. ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ أي: وارث ذكراً كان، أو أنثى من بطنها، أو من صلب بنيها الذُّكور، وإن

سفل؛ ذكراً كان، أو أنثى. منكم، أو من غيركم. أما بنو البنت وإن سفلت؛ فلاحظَّ لهم في الميراث؛ لأنَّهم من الأرحام. ﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ﴾ ممَّا ذكر؛ ﴿فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ﴾ فالولد منها يحجب الزَّوج من النِّصف إلى الرُّبع، سواء أكان منه، أو من غيره.

﴿وَلَهُنَّ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ﴾ من الزوجة، أو من غيرها، فالولد يحجبها من الرُّبع إلى الثُّمن، فقد فرض الله للرَّجل بسبب الزواج ضعف ما للمرأة، كما في النسب. وهكذا قياس كل رجل، وامرأة اشتركا في الجهة، والقرب، ولا يستثنى منه إلا أولاد الأم، كما ستعرفه، فإنَّهم شركاء في القسمة سواءً. وينبغي أن تعلم أنَّ الزوجة الواحدة، والاثنتين، والثَّلاث، والأربع شركاء في الرُّبع، أو في الثُّمن. وينبغي أن تعلم: أنَّ الثُّلث، والسُّدس، والرُّبع، والثُّمن تقرأ بضم أولها، وأوساطها، كما تقرأ بضم أولها وسكون أوساطها. والأولى هي اللُّغة الجيدة، والإسكان لغةٌ. قال عيسى بن عمر ـ رحمه الله تعالى ـ كلُّ اسم من ثلاثة أحرف أوَّله مضموم، يجوز ضمُّ ثانيه، وسكونه، وذلك مثل: عسر، ويسر. . . إلخ.

﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً...﴾ إلخ: الكلالة: هو الذي ليس له ولد، ولا والد، رجلاً كان، أو امرأةً، فإن مات أحدهما على هذه الصِّفة، وله أخ، أو أخت من الأم، فلأحدهما عند انفراده السُّدس من ورثة الميت، فإن كانوا اثنين، فأكثر يأخذون الثلث، ويقتسمونه بالسَّويَّة بدون تفضيل الذَّكر على الأنثى، فقد سوَّى الله بينهما؛ لأنَّ الإدلاء بمحض الأنوثة. وتفسير الكلالة بهذا هو المعتمد. وقيل: الكلالة: الورثة. وقيل: المال الموروث. وقيل: الإرث. وقيل: القرابة. هذا؛ واشتقاقها مِنَ الكلال، وهو ذهاب القوَّة من الإعياء، فكأنَّ الميراث يصير للوارث بعد إعياء، وذلك لعدم أصول، وفروع للميت، وانظر الآية الأخيرة من هذه السُّورة، وخذ هنا قول الأعشى من قصيدته؛ الَّتي مدح بها النبيَّ ﷺ: [الطويل]

فَـآلَـيْـتُ لَا أَرْثِـي لَـهَـا مِـنْ كَـلَالَـةٍ وَلَا مِـنْ وَجـىً حَـتَّـى تُـلَاقِـي مُـحَـمَّـدَا

ومنه قوله أيضاً: [الطويل]

إِلَـيْـكَ أَبَـيْـتَ الـلَّـعْـنَ كَـانَ كِـلَالُـهَـا إِلَـى الْـمَـاجِـدِ الْـقَـرْمِ الْـجَـوَادِ الْـمُـحَـمَّـدِ

﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ أي: غير مضارٍّ لورثته بالزيادة على الثلث، أو قصد المضارَّة بالوصية دون القرابة، والإقرار بدين لا يلزمه لأجنبيٍّ، فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ: قال: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيْعَمَلُ، أَو المرأةُ بِطَاعَةِ اللهِ سِتِّينَ سَنَةً، ثُمَّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوتُ، فَيُضَارَّانِ فِي الْوَصِيَّةِ، فَتَجِبُ لَهُمَا النَّارُ**». ثمَّ قرأ أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: ﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ حتَّى بلغ: ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾. رواه أبو داود، والترمذي. هذا؛ وقيل: إنَّ الإضرار في الوصية من الكبائر؛ لأنَّ مخالفة أمر الله ـ عز وجل ـ كبيرةٌ، وقد نهى الله

عن الإضرار في الوصية، فدلَّ على: أنَّ ذلك من الكبائر، فويلٌ للذين يحرمون بعض الأولاد، ويعطون البعض الآخر، وقال الرسول ﷺ: «**إنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الخيرِ سَبْعِينَ سنَةً، فَإِذَا أَوْصَى؛ حَافَ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِشَرِّ عَمَلِهِ، فَيَدْخلُ النَّارُ. وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بعملِ أهلِ الشَّرِّ سَبْعِينَ سَنَةٍ، فَيَعدِلُ فِي وَصِيَّتِهِ، فَيُخْتَمُ لَهُ بِخَيْرِ عَمَلِهِ، فَيَدْخُلُ النَّارَ**». رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. هذا؛ وذكرت لك في الآية السابقة سبب تقديم الوصية على الدِّين.

﴿وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: فريضة من الله. وقيل: عهداً من الله إليكم فيما يجب لكم من ميراث مَنْ مات منكم. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ أي: بمن جار، أو عدل في وصيته. ﴿حَلِيمٌ﴾: لا يعاجل المعتدين بالعقوبة. وهذا وعيدٌ، وتهديدٌ لهم. وانظر الآية رقم [٢٢٥]: من سورة (البقرة). وإنَّما كررت الوصية في هذه الآية لاختلاف المُوصين، كما هو واضح.

هذا؛ ويقال: رجل كلالة، وامرأة كلالة، لا يثنَّى، ولا يجمع؛ لأنَّه مصدر كالوكالة، والدَّلالة، والسَّماحة، والشَّجاعة. وأعاد ضميرَ مفردٍ في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ﴾ ولم يقل لهما على عادة العرب إذا ذكرت اسمين، ثمَّ أخبرت عنهما، وكانا في الحكم سواء، ربما أَضَفْتَ إلى أحدهما، وربما إليهما جميعاً.

هذا؛ وأصل «أخ» أَخَوٌ بدليل تثنية أخوين، وأخوان، فحذف منه، وَغُيِّر على غير قياس و«ابن» أصله بَنيٌ، فحذف منه الياء، وعوض منها الهمزة في أوله، قال الفرَّاء ـ رحمه الله تعالى ـ: ضُمَّ أول الأخت؛ لأن المحذوف منها واو. وكسر أول بنت لأن المحذوف منها الياء، وهذا الحذف والتعليل على غير قياس أيضاً.

تنبيه: كانت الوراثة في الجاهلية بالرُّجولة، والقوَّة، فقد كانوا يورِّثون الرجال دون النساء، فأبطل الله عز وجل ذلك، كما رأيت فيما تقدَّم رقم [٧]: وكانت الوراثة أيضاً في الجاهلية، وبدء الإسلام بالمُحالفة، قال الله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ انظر الآية رقم [٣٣]: الآتية، ثمَّ صارت بعد المحالفة بالهجرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾ الآية رقم [٧٢] من سورة (الأنفال)، وهذا معنى التوارث بأخوَّة الإسلام، ثم ثبت التَّوارث بآيات (النِّساء) الَّتي الكلام فيها. والحمد لله.

فائدة: المسألة الحِمَاريَّة: زوج، وأم، وإخوة لأم، وإخوة لأب، وأم. فقال قوم: للزوج النصف، وللأم السُّدس وللأخوة لأم الثلث، وسقط الأشقَّاء. وبه قال الإمام أحمد، رحمه الله تعالى. روي: أنَّ الأخوة الأشقاء قالوا لعمر ـ رضي الله عنه ـ: هب أنَّ أبانا كان حِمَاراً! وفي رواية: هب أن أبانا كان حَجَراً ملقىً في اليم، فأشركنا بقرابة أمِّنا! فأشركهم مع الإخوة لأم في الثُّلث. وبه قال مالك، والشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ، وأبو حنيفة وافق أحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ. وتسمَّى هذه المسألة: المشتركة، والحمارية، واليميَّة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَلَكُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (لكم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿نِصْفُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿مَا﴾ مبنية على السكون في محل جر بالإضافة، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: نصف الَّذي، أو: شيء تركه أزواجكم، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ﴾ انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية السَّابقة، وجواب الشرط محذوف لِدَلالة ما قبله عليه.

﴿فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ﴾: انظر إعراب مثلها في الآية السابقة. و(إنْ) ومدخولها كلام مفرَّع عما قبله، مستأنف لا محلَّ له، والجملة قبلها معطوفة على الكلام السَّابق كما ترى. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من: (الرُّبع) إن كانت «أل» للتعريف، أو في محلِّ رفعٍ صفة له إن كانت «أل» للجنس، وقل مثل ذلك فيما تقدَّم، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿تَرَكْنَ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: مِنَ الذي، أو من شيءٍ تركنه. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: انظر تعليق مثلها في الآية السَّابقة، و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿وَصِيَّةٍ﴾ مضاف إليه، ﴿يُوصِينَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون، ونون النسوة فاعله، والجملة الفعلية في محل جر صفة: ﴿وَصِيَّةٍ﴾. ﴿بِهَآ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿دَيْنٍ﴾ معطوف على: ﴿وَصِيَّةٍ﴾.

﴿وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ...﴾ إلخ: انظر إعراب مثل هذا الكلام فيما تقدَّم مع التعليق وجواب الشرط المحذوف. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾: انظر إعراب مثل هذا الكلام فيما تقدَّم أيضاً. ﴿تُوصُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والجملة الفعلية مع المتعلَّق صفة: ﴿وَصِيَّةٍ﴾. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾: معطوف على ما قبله.

(إن): حر ف شرط جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض تام مبني على الفتح في محلِّ جزم فعل الشرط. ﴿رَجُلٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها... إلخ. ﴿يُورَثُ﴾: فعل مضارع، وقرئ بالبناء للمعلوم بتشديد الراء، وتخفيفها، وعليهما فـ: ﴿كَلَٰلَةً﴾ مفعول به، والفاعل يعود إلى: ﴿رَجُلٌ﴾ والجملة الفعلية في محلِّ رفع صفة ﴿رَجُلٌ﴾. هذا؛ وعلى قراءة الفعل بالبناء للمجهول، فـ ﴿كَلَٰلَةً﴾ صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: يورث وراثةً كلالةً، وأجيز اعتبار: ﴿كَلَٰلَةً﴾ اسماً للورثة كما قدمت، فتكون: ﴿كَلَٰلَةً﴾ خبراً لـ: ﴿كَانَ﴾ وهي ناقصة، التقدير: وإن كان رجل يورث ذا كلالة، كما يجوز أيضاً أن تكون: ﴿كَانَ﴾ تامة بمعنى: وقع، وحصل، وجملة: ﴿يُورَثُ﴾: نعت لـ: ﴿رَجُلٌ﴾ و﴿كَلَٰلَةً﴾ نصب على التمييز، أو الحال على أن الكلالة هو الميت، التقدير: وإن كان رجل يورث متكلل النَّسب إلى الميت. ﴿أَوِ امْرَأَةٌ﴾ معطوف على: ﴿رَجُلٌ﴾ وحذفت الصفة و«كلالة» اكتفاءً بما ذكر بعد: ﴿رَجُلٌ﴾.

﴿وَلَهُۥٓ﴾: الواو: واو الحال. (له): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَخٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿رَجُلٌ﴾ والرابط: الواو والضمير، وصحَّ مجيء الحال منه لوصفه بما بعده، إذ الوصف يخصص، وحذف مثل هذه الجملة بعد: ﴿ٱمْرَأَةٌ﴾. ﴿فَلِكُلِّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. (لكل): متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، و(كلِّ) مضاف، و﴿وَٰحِدٍ﴾ مضاف إليه. ﴿مِّنْهُمَا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف صفة: ﴿وَٰحِدٍ﴾ والميم والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿ٱلسُّدُسُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والجملة الشرطية: ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها أيضاً.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف، (إن): حرف شرط جازم. ﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿أَكْثَرَ﴾: خبر: (كان) والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بأكثر، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿فَهُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (هم): مبتدأ. ﴿شُرَكَآءُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محلِّ جزم جواب الشرط... إلخ. ﴿فِى ٱلثُّلُثِ﴾: متعلِّقان بـ ﴿شُرَكَآءُ﴾ أو بمحذوف صفة له، و(إنْ) ومدخولها كلام مستأنف، لا محل له.

﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلِّقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هذه الأنصباء للورثة من بعد. وذكرت لك في الآية السَّابقة: أنَّ أبا البقاء جوَّز تعليقهما بمحذوف حال من الثُّلث، كما جوَّز تعليقهما بمحذوف فعل، التقدير: يستقرُّ لهم ذلك مِنْ بعد. و﴿بَعْدِ﴾ مضاف، و﴿وَصِيَّةٍ﴾ مضاف إليه. ﴿يُوصَىٰ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الألف للتعذُّر. ﴿بِهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نائب فاعله، ويقرأ بالبناء للمعلوم، فيكون الفاعل عائداً على الموصي، والجملة الفعلية في محل جر صفة: ﴿وَصِيَّةٍ﴾. ﴿أَوْ دَيْنٍ﴾ معطوف على: ﴿وَصِيَّةً﴾. ﴿غَيْرَ﴾: حال من فاعل ﴿يُوصَىٰ﴾ أو من نائب فاعله، و﴿غَيْرَ﴾ مضاف، و﴿مُضَآرٍّ﴾ مضاف إليه.

هذا؛ وقال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: فأين ذو الحال فيمن قرأ: ﴿يُوصَىٰ بِهَآ﴾ على ما لم يُسمَّ فاعله؟ قلت: يضمر بـ ﴿يُوصَىٰ﴾ فينتصب عن فاعله؛ لأنَّه لمَّا قيل: يُوصى بها، علم: أن ثَمَّ موصيًا، كما قال تعالى في سورة (النُّور) رقم [٣٦]: (يُسَبِّحُ له فيها بالغدوِّ والآصَالِ) على ما لم يُسَمَّ فاعله، فعلم: أن ثَمَّ مسبِّحاً، فأضمر في: (يُسَبِّحُ) فكما كان ﴿رِجَالٌ﴾ فاعل ما يدلُّ عليه (يُسَبِّحُ) كان ﴿غَيْرَ مُضَآرٍّ﴾ حالاً ممَّا يدل عليه: ﴿يُوصَىٰ بِهَآ﴾ انتهى بتصرف.

أقول: ومثل الآيتين قول نهشل بن حري ـ وهو الشَّاهد رقم [١٩٣]: من كتابنا: «فتح رب البرية»، والشاهد رقم [١٠٤٨]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

لِـيُـبْـكَ يَـزِيـدٌ ضَـارِعٌ لِـخُـصُـومَـةٍ وَمُـخْـتَـبِـطٌ مِـمَّـا تُـطِـيـحُ الـطَّـوائِـحُ

﴿وَصِيَّةً﴾: مفعول مطلق مؤكِّد لما جاء في هذه الآية من الوصية الباهرة على حدِّ: قعدت جلوساً. وقيل: هو مفعول مطلق، عامله من لفظه محذوف، التقدير: وصَّى الله ذلك وصية. وقيل: حال مؤكدة، والعامل فعل الوصية، وهو ضعيف. وقال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: والعامل ﴿يُوصِيكُمُ﴾ ويصح أن يعمل فيها: ﴿مُضَآرٍّ﴾ وهما ضعيفان. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ ﴿وَصِيَّةً﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾: خبران له، والجملة الاسمية معترضة في آخر الكلام، الغرض منها التَّهديد، والوعيد. تأمل، وتدبَّر، وربُّك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾﴾

الشرح: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ يعني: الأحكام التي تقدَّم ذكرها في هذه السُّورة من مال اليتامى، والوصايا، والأنكحة، والمواريث. وإنَّما سماها حدوداً؛ لأنَّ الشَّرائع كالحدود المضروبة للمكلَّفين، فلا يجوز لهم أن يتجاوزوها. والحدود جمع: حد، وهو في اللغة الحاجز بين شيئين متجاورين، والمراد هنا: الحد الفاصل بين الحلال، والحرام، فلذا يعاقب مَنْ تجاوزه بالحدِّ. وهو: العقوبة المقرَّرة لذلك، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد ما حدَّ الله من فرائضه.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يعني: في شأن المواريث، ورضي بما قسم الله له، وحكم عليه. ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ...﴾ إلخ: وحَّدَ الفاعل في هذه الآية، وفي الآية التالية؛ لأنَّ إدخال الجنَّة للمطيع، وإدخال النَّار للعاصي إنَّما هو بيد الله، والرَّسول ﷺ لا فعل له في ذلك. ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾: جَمَعَه، وهو عائد على (مَنْ) باعتبار معناها، وأفرده في الآية التالية باعتبار لفظها. ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾: النجاح الكبير في الآخرة يوم لا ينفع مالٌ، ولا بنون؛ إلا من أتى الله بقلب سليم.

الإعراب: ﴿تِلْكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسرة في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿حُدُودُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محلَّ لها، و﴿حُدُودُ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ﴾: انظر الآية التالية. ﴿جَنَّـٰتٍ﴾: مفعول به ثان منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم، ويقال فيه ما يقال في مفعول: ﴿تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾ في الآية رقم [١٤٢]: من سورة (آل عمران). ﴿تَجْرِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل.

﴿مِن تَحْتِهَا﴾: متعلقان به، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿الْأَنْهَارُ﴾: فاعل ﴿تَجْرِي﴾، والجملة الفعلية في محل نصب صفة: ﴿جَنَّاتٍ﴾. ﴿خَالِدِينَ﴾: حال من الضمير المنصوب، وعلامة نصبه الياء... إلخ، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان خالدين، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن يُطِعِ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها، وهو أقوى من العطف على ما قبلها. ﴿وَذَٰلِكَ﴾: الواو: حرف عطف. (ذلك): اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف الخطاب. ﴿الْفَوْزُ﴾: خبر المبتدأ. ﴿الْعَظِيمُ﴾: صفته، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة، لا محل لها على الاعتبارين.

﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: يخالف أوامرهما فيما أمرا به، ولم يرض بقسمة الله في المواريث. ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾: يتجاوز ما أمر الله به. ﴿يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾: قال الخازن ـ رحمه الله ـ فإن قلت: كيف قطع الله للعاصي بالخلود في النار في هذه الآية؟ وهل فيها دليل للمعتزلة على قولهم: إنَّ العصاة، والفسَّاق من المسلمين يخلدون في النَّار؟ قلت: قال الضَّحاك: المعصية هنا: الشرك. وروى عكرمة عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في معنى الآية: مَنْ لم يرض بقسمة الله، ويتعدَّ ما قال الله؛ يدخله ناراً. وقال الكلبي: يكفر بقسمة المواريث، ويتعدَّ حدود الله استحلالاً، إذا ثبت ذلك، فمن ردَّ حكم الله، ولم يرض بقسمته؛ كفر بذلك، ومن كفر؛ كان حكمه حكم الكفار في الخلود في النار؛ إذا لم يتب قبل موته، وإذا مات وهو مصرٌّ على ذلك كان مخلَّداً في النار بكفره، فلا دليل في الآية للمعتزلة.

الإعراب: ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف عطف. (من): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَعْصِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلة، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل ضمير يعود إلى (مَنْ). ﴿اللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. (يَتَعَدَّ): فعل مضارع معطوف على فعل الشرط مجزوم مثله، وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها ويجوز في مثله النصب على القاعدة التي تراها قريباً، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿حُدُودَهُ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿يُدْخِلْهُ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، وقرئ: (ندخله): على الالتفات، فيكون الفاعل مستتر وجوباً تقديره: نحن، والهاء مفعوله الأول. ﴿نَارًا﴾: مثل: ﴿جَنَّاتٍ﴾ في الآية السابقة. ﴿خَالِدًا﴾: حال من الفاعل المستتر

العائد إلى (مَنْ) وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية: ﴿وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ في محل نصب حال من الضمير الواقع مفعولاً به، والرابط: الواو، والضمير.

﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ١٥﴾

الشرح: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾ المراد بها هنا: الزنى، والفاحشة: الفعلة القبيحة، فهي مصدر كالعاقبة، والعافية، سمِّيت بذلك لفحشها، وقبحها، ومعنى ﴿يَأۡتِينَ﴾: يفعلنها. يقال: أتى الفاحشة، وجاءها، وغشيها، ورهقها: إذا فعلها. ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ أي: من المسلمين، فجعل الله الشهادة على الزنى خاصة أربعة تغليظاً على المُدَّعي، وستراً على العباد. وتعديد الشهود بالأربعة في الزنى حكمٌ ثابت في التوراة، والإنجيل، والقرآن، قال تعالى في سورة النُّور: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ﴾ وقال هنا: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ﴾ ولا بدَّ أن يكون الشهود ذكوراً، وعدولاً. والخطاب للأزواج. وقيل: هو للحكَّام، قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إنَّما جعل الله الشُّهود أربعة سِتراً ليستركم به دون فواحشكم.

﴿فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾ أي: فاحبسوهنَّ في البيوت، والحكمة في حبسهن: أن المرأة إنَّما تقع في الزنى عند الخروج، والبروز للرِّجال، فإذا حُبِست في البيت؛ لم تقدر على الزنى. ﴿حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ﴾ يعني: تتوفاهنَّ ملائكة الموت عند انقضاء آجالهن. ففيه مجاز عقلي؛ حيث أسند الوفاة إلى الموت. ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا﴾: وهذا الحكم كان في أوَّل الإسلام، قبل نزول الحدود، كانت المرأة إذا زنت؛ حبست في البيت حتَّى تموت، ثم نُسِخ ذلك بالحدود، وجعل الله لهن سبيلاً، وخذ ما يلي:

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: كان النبي ﷺ إذا أُنْزِل عليه؛ كُرب لذلك، وتَربَّدَ له وَجْهُهُ، فأُنزل عليه ذاتَ يوم، فَلُقِيَ كذلك، فلمَّا سُرِّيَ عنهُ؛ قال: «**خُذُوا عَنِّي، خُذُوا عَنِّي، قَدْ جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً، الثَّيبُ بالثَّيبِ، والبكر بالبكر، الثَّيِّب جَلْدُ مِئَةٍ، ثم رجمٌ بالحجارة، والبكرُ جَلْدُ مئةٍ، ثم نَفْيُ سنة**». أخرجه مسلم، وغيره، فقال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: يجمع على الثيب الجلد، والرَّجم بنصِّ الحديث. والجمهور على أنه يُكتفي بالرَّجم.

ويفهم من هذا: أنَّ الآية منسوخ حكمها بآية (النُّور) قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا...﴾ إلخ، وبآية الرَّجم المنسوخة تلاوةً، والباقية حكماً إلى يوم القيامة، وهي قوله تعالى:

(الشيخ والشيخة، إذا زنيا فارجموهما البتَّة نكالاً من الله، والله عزيزٌ حكيمٌ)، وهذه الآية كانت من سورة (الأحزاب) وأيَّد ذلك قولُ الرسول ﷺ وفعلُه، فقد ثبت: أنَّه ﷺ رجم ماعزاً، والغامدية في حديثٍ صحيح. انظر ما ذكرته في سورة (النور) تجدْ ما يسرُّك، ويثلجْ صدرك.

الإعراب: ﴿وَٱلَّٰتِي﴾: الواو: حرف استئناف. (اللاتي): اسم موصول مبني على السُّكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَأۡتِينَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون، ونون النسوة فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿ٱلۡفَٰحِشَةَ﴾: مفعول به. ﴿مِن نِّسَآئِكُمۡ﴾: متعلقان بمحذوف حال من نوة النسوة، والكاف في محل جر بالإضافة، وفي خبر المبتدأ وجهان: أحدهما الجملة الفعلية: ﴿فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ...﴾ إلخ، وجاز دخول الفاء زائدة على الخبر على رأي الجمهور؛ لأنَّ المبتدأ أشبه الشرط في كونه موصولاً عامّاً صلته فعلٌ مستقبل. الوجه الثاني: أنَّ الخبر محذوف، التقدير: فيما يتلى عليكم حكم اللَّاتي... إلخ، فحذف الخبر، والمضاف إلى المبتدأ للدلالة عليهما، وأقيم المضاف إليه مقامه، وهذا نظير ما فعله سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ في نحو قوله تعالى في سورة (النُّور): ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ...﴾ إلخ، وقوله تعالى في سورة (المائدة): ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا﴾ أي: فيما يتلى عليكم حكم الزانية... إلخ، ويكون الفعل المذكور في هذه الآيات دالاًّ على ذلك المحذوف؛ لأنَّه بيان له. انتهى. جمل نقلاً عن السَّمين.

(استشهدوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿عَلَيۡهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿أَرۡبَعَةً﴾: مفعول به. ﴿مِّنكُمۡۖ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿أَرۡبَعَةً﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ على الوجه الأول في الإعراب، ولا محل لها على الوجه الثاني لأنها جواب الشرط غير جازم؛ إذ التقدير: وإذا كان ذلك حاصلاً، وواقعاً؛ فاستشهدوا. وتكون الفاء: فصيحة.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (إنْ): حرف شرط جازم، ﴿شَهِدُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي، ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أمسكوهن): فعل أمر وفاعله ومفعوله، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور... إلخ. ﴿فِي ٱلۡبُيُوتِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿يَتَوَفَّىٰهُنَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» المضمرة بعد: ﴿حَتَّىٰ﴾ وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿ٱلۡمَوۡتُ﴾: فاعله. «وأن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أَوۡ﴾: حرف

عطف. ﴿يَجْعَلَ﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿لَهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به، وجوز تعليقهما بمحذوف حال من: ﴿سَبِيلًا﴾ كان صفةً له، فلمَّا قُدِّم عليه؛ صار حالاً. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به.

﴿وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾: تثنية «الذي» وكان القياس أن يقال: اللذيان، كرحيان، ومصطفيان... إلخ، قال سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ: حذفت الياء؛ ليفرق بين الأسماء المتمكنة، والأسماء المبهمة. وقال علي الفارسي: حذفت الياء تخفيفاً؛ إذ قد أُمِنَ اللبس في «اللذان» لأن النُّون لا تنحذف، ونون التثنية في الأسماء المتمكنة قد تنحذف مع الإضافة في: رحياك، ومصطفيا القوم، فلو حذفت الياء؛ لاشتبه المفرد بالاثنين.

﴿يَأْتِيَـٰنِهَا﴾ أي: الفاحشة. ﴿مِنكُمْ﴾ أي: المسلمين. ﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾ أي: عيروهما بالقول، واللسان، وهو أن يقال له: أما خفتَ الله؟! أما استحيتَ من الله حين زنيت؟! وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: سبُّوهما، واشتموهما. ﴿فَإِن تَابَا﴾: من الفاحشة، وحسنت توبتهما. ﴿وَأَصْلَحَا﴾ أي: عملهما فيما يأتي. ﴿فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ﴾ أي: اتركوهما، ولا تؤذوهما. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ أي: يعود على عبده بفضله، ومغفرته، ورحمته، إذا تاب إليه، وأناب إلى رحمته، وعفوه.

هذا؛ وقد وصف الله نفسه بأنَّه توَّاب، وتكرَّر هذا اللفظ في القرآن مُنَكَّراً، ومعرَّفاً، واسماً، وفعلاً، وقد يطلق على العبد أيضاً توَّاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ قال ابن العربي: ولعلمائنا في وصف الرب بأنه توَّاب ثلاثة أقوال: أحدها: أنه يجوز في حق الرَّبِّ سبحانه وتعالى، فيُدعَى به كما في الكتاب، والسنة، ولا يتأول. وقال آخرون: هو وصف حقيقي لله تعالى، وتوبة الله على العبد: رجوعه من حال المعصية إلى حال الطاعة. وقال آخرون: توبة الله على العبد قبول توبته، وذلك يحتمل أن يرجع إلى قوله سبحانه وتعالى: قبلتُ توبتك، وأن يرجع إلى خلقه الإنابة، والرجوع في قلب المسيء مِنْ إجراء الطَّاعات على جوارحه، وإنَّما قيل لله تعالى: تواب لمبالغة الفعل، وكثرة قبوله توبة عباده، ولكثرة من يتوب عليه.

تنبيه: كان حدُّ الزاني في ابتداء الإسلام الأذى بالتوبيخ، والتعيير باللِّسان، ثم صار بالحبس، كما رأيت في الآية السابقة، فلما نزلت الحدود، وثبتت الأحكام؛ نسخ ذلك بآية (النور) قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى...﴾ إلخ، فثبت الجلد على البكر بنصِّ الكتاب، وثبت الرَّجم على الثيب المحصن بآية (الأحزاب) المنسوخة تلاوةً، والباقية حكماً، وثبت: أنَّ رسول الله ﷺ

رجم - كما ذكرت لك - ماعزاً، والغامدية، ورجم أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليٌّ، - رضي الله عنهم أجمعين -.

الإعراب: ﴿وَٱلَّذَانِ﴾: الواو: حرف عطف.(الَّذان): مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنه مثنى، وبعضهم يعتبره مبنيّاً على الألف في محل رفع، والنُّون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿يَأْتِيَـٰنِهَا﴾: فعل مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، الألف فاعله، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من ألف التثنية، وخبر المبتدأ يقال فيه ما قيل في الآية السابقة.

﴿فَـَٔاذُوهُمَا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والميم والألف حرفان دالان على التثنية، والجملة الفعلية يقال فيها ما يقال في الآية السابقة. ﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تَابَا﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، وألف الاثنين فاعله، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية لا محل لها... إلخ.

﴿وَأَصْلَحَا﴾: معطوف على ما قبله، والألف فاعله. ﴿فَأَعْرِضُوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. ﴿فَأَعْرِضُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط... إلخ، و(إنْ) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾: انظر مثلها في الآية رقم [١١].

﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: إن قبول التوبة كالمحتوم على الله فضلاً، وكرماً بمقتضى وعده الذي قطعه على نفسه بأنَّ مَنْ يتوب يقبل الله توبته. قال تعالى في سورة (الشورى): ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وقال جلَّ ذكر في سورة (التوبة): ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ وقال في سورة (طه): ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ...﴾ إلخ. هذا؛ وقيل: ﴿عَلَى﴾ بمعنى: عند، فيكون المعنى: التوبة التي عند الله. وقيل: هي بمعنى مِنْ، أي: مِنَ الله، وقال أهل المعاني: إن الله تعالى وعد قبول التوبة من المؤمنين في قوله جل ذكره في سورة (الأنعام) رقم [٥٤]: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وإذا وعد شيئاً؛ أنجز ميعاده، وصدق فيه. فمعنى قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: أوجب على نفسه من غير إيجاب أحدٍ عليه؛ لأنه تعالى يفعل ما يريد.

﴿يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ﴾: يعني: يعملون الذنوب، والمعاصي. سميت سوءاً؛ لسوء عاقبتها؛ إذا لم يتب منها، وهو مصدر: ساء، يسوء، سوءاً، أو مساءة: إذا أحزنه. والسُّوء: الشر، والفساد، والجمع: أسواء، وهو بضم السين مِنْ ساءه، وبفتحها المصدر، تقول: رجلُ سوْءٍ بالإضافة، ورجل السَّوْء، ولا تقولُ: الرّجل السَّوْء. قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ﴾ سورة (الأنبياء).

﴿بِجَهَـٰلَةٍ﴾ قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أنَّ كل شيء عُصِيَ الله به؛ فهو بجهالة، عمداً كان، أو غيره. وكلُّ مَنْ عصى الله؛ فهو جاهل، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: من عمل السوء؛ فهو جاهلٍ، ومن جهالته عَمِلِ السوء، فكل مَنْ عصى الله؛ سُمِّي جاهلاً، وسمي فعله جهالة، وإنما سمِّي من عصى الله جاهلاً؛ لأنه لم يستعمل ما معه من العلم بالثوَّاب، والعقاب، وإذا لم يستعمل ذلك؛ سمِّي جاهلاً بهذا الاعتبار. وقيل: معنى الجهالة هو اختيار اللَّذة الفانية على اللَّذة الباقية.

﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ يعني: يتوبون من الذنب بعد الإقلاع منه بزمنٍ قريب؛ لئلا يُعَدَّ في زمرة المُصرِّين. وقيل: القريب: أن يتوب في صحَّته قبل مرض موته. وقيل: قبل معاينة ملك الموت، ومعاينته أهوال الموت. وإنما سميت هذه المدَّة قريبة؛ لأنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريب، وفيه تنبيه على أنَّ عمر الإنسان ـ وإن طال ـ قريب، وهو قليل، وإن الإنسان يتوقع كل ساعةٍ، ولحظةٍ نزل الموت به، وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ**». أخرجه الترمذي، الغرغرة: أن يُجعل المشروب في فم المريض، فيردده في الحلق، ولا يصل إليه، ولا يقدر على بلعه، وذلك عند بلوغ الرُّوح الحلقومَ. وروى البغوي بسنده عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لَا أَبْرَحُ أَغْوِي عِبَادكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ! فَقَالَ الرَّبّ تبَارَكَ وتَعَالَى: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي، وارتفاعِي فِي مَكَانِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرونِي!**».

بعد هذا: فالتوبة المقبولة هي التوبة النَّصوح، ولها شروط: الندم بالجنان. والاستغفار باللسان، ورد الحقوق لأصحابها بحسب الإمكان، ولقد أحسن محمود الورَّاق؛ حيث قال ـ رحمه الله تعالى ـ: [الكامل]

قَدِّمْ لِنَفْسِكَ تَوْبَةً مَرْجُوَّةً ... قَبْلَ الْمَمَاتِ وَقَبْلَ حَبْسِ الأَلْسُنِ

بَادِرْ بِهَا غَلَقَ النُّفُوسِ فَإِنَّهَا ... ذُخْرٌ وَغنْمٌ لِلْمُنِيبِ الْمُحْسِنِ

الإعراب: ﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿ٱلتَّوْبَةُ﴾: مبتدأ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة التوبة على اعتبار(أل) للجنس، أو في محل نصب حال منها على اعتبار(أل) للتعريف، وهذا على قول من يجيز مجيء الحال من المبتدأ. ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، ويجوز اعتبار: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلقين بمحذوف خبر المبتدأ، ويكون: ﴿لِلَّذِينَ﴾ متعلقين بمحذوف حال

من الضمير المستتر في الجار والمجرور: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾. ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿ٱلسُّوٓءَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من السوء. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف.

وجملة: ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾: معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محل لها.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: حرف عطف. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿يَتُوبُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على الجملة السابقة لا محل لها مثلها، وجملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: مستأنفة، أو هي معطوفة على ما قبلها. لا محلَّ لها مثلها.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ﴾ أي: المقبولة عند الله. ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: جمع: سيئة، وهي عمل السُّوء، وجمعها يدلُّ على كثرتها بخلاف السُّوء في الآية السَّابقة، فإنه يدلُّ على قلَّه السيئات؛ لأنَّ«أل» فيه للجنس. هذا؛ وأصل«سيئة» سيوئة، قلبت الواو ياءً، ثم أدغمت الياء في الياء. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ يعني: وقع في النزع، وعاين ملائكة الموت، وهو حالة السَّوق، حيث تساق الرُّوح للخروج مِنْ جسده. ﴿قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ قال المحققون: قرب الموت لا يمنع من قبول التوبة، بل المانع مِنْ قبولها مشاهدة الأحوال، التي لا يمكن الرُّجوع إلى الدنيا بحالٍ، ولذلك لم تقبل توبة فرعون، ولا إيمانه، كما قال تعالى في سورة (يونس) على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام رقم [٩٠]: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ...﴾ إلخ. ويدل على ذلك أيضاً قوله تعالى في سورة(غافر) رقم [٨٥]: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾. ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ أي: لا تقبل توبة الكافرين؛ إذا ماتوا على كفرهم. انظر في الآية رقم [٩١] من سورة(آل عمران) فإنه جيد، والحمد لله! ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾: هيأنا، والإعتاد: التهيئة، من العتاد، وهو العدَّة. وقيل: أصله: أعددنا، فأبدلت الدال الأولى تاءً.

قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: الآية الأولى في المؤمنين، والوسطى في المنافقين. ﴿لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ...﴾ إلخ، والأخرى في الكافرين: ﴿وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ...﴾ إلخ. هذا؛ وانظر شرح ﴿ٱلْـَٰٔنَ﴾ في الآية رقم [٧١] من سورة(البقرة) تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿وَلَيْسَتِ﴾: الواو: حرف عطف. (ليست): فعل ماض ناقص. والتاء حرف لا محلَّ له. ﴿التَّوْبَةُ﴾: اسم. (ليس). ﴿لِلَّذِينَ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (ليس) والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿يَعْمَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . . إلخ، والواو فاعله. ﴿السَّيِّئَاتِ﴾ مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنه جمع مؤنث سالم، الجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾: انظر إعراب مثل هذا الكلام في الآية رقم [٦]: ﴿قَالَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿أَحَدَهُمُ﴾. ﴿إِنِّي﴾: حرف مشبه بالفعل، وياء المتكلم اسمه. ﴿تُبْتُ﴾: فعل ماض مبني على السكون، والتاء فاعله. ﴿الْآنَ﴾ ظرف زمان متعلق بما قبله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (إنَّ)، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ جواب: ﴿إِذَا﴾ لا محل لها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي. ﴿الَّذِينَ﴾: معطوف على ما قبله مجرور مثله، ورجحه ابن هشام في المغني، وجوز أبو البقاء اعتباره مبتدأ، خبره الجملة الاسمية: ﴿أُولَٰئِكَ...﴾ إلخ.

﴿يَمُوتُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿وَهُمْ﴾: الواو: واو الحال. (هم) ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿كُفَّارٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿أَعْتَدْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ والجملة الاسمية هذه مستأنفة، لا محلَّ لها، أو هي في محل رفع خبر: (الذين) على رأي أبي البقاء. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في أهل المدينة، وذلك: أنهم كانوا في الجاهلية، وفي أوَّل الإسلام إذا مات الرَّجل، وخلَّف امرأة؛ جاء ابنه من غيرها، أو قريبه من ذوي عصبته، فألقى ثوبه على تلك المرأة، أو على خِبائها، فصار أحقَّ بها من نفسها، ومن غيره، فإن شاء؛ تزوجها بغير صَداقٍ إلا الصَّداق الأول الذي أصدقها المَيِّت، وإن شاء؛ زوَّجها من غيره، وأخذ صداقها وإن شاء؛ عضَلها، ومنَعها من الأزواج، يضارُّها بذلك؛ لتفتدي منه بما ورثت من الميِّت، أو تموت هي، فيرثها، فإن ذهبت المرأة إلى أهلها قبل أن يُلقي عليها وليُّ زوجها ثوبَه؛ كانت أحقَّ

بنفسها. وكانوا على ذلك حتَّى توفي أبو قيس بن الأسلت الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ وترك امرأته كُبَيْشَةَ بنت معن الأنصارية، فقام ابنٌ له مِنْ غيرها، يقال له: حِصْن ـ وقيل: اسمه: قيس بن أبي قيس ـ فطرح ثوبه عليها، فورث نكاحها، ثمَّ تركها، فلم ينفق عليها، يضارُّها لتفتدي منه، فأتَت كُبَيْشَةُ رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله! إن أبا قيس توفي، وورث نكاحي ابنُه، فلا هو ينفق عليَّ، ولا هو يدخل بي، ولا هو يُخَلِّي سبيلي. فقال رسول الله ﷺ: «**اقعدي في بيتك؛ حتَّى يأتي أمر الله فيكِ**». فأنزل الله عز وجل الآية الكريمة.

﴿وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ...﴾ إلخ. أي: لا تمنعوهنَّ من الأزواج. والعضل: التَّضييق، والمنع، وهو راجعٌ إلى معنى الحبس، ومن قول معاوية: مُعْضِلَةٌ ولا أبا حسنٍ لها! يريد عليًّا ـ رضي الله عنه ـ الذي كان يحل المعضلات من الأمور. والمعنى: مسألةٌ صعبةٌ ضيِّقةٌ. وقال طاوس ـ رحمه الله تعالى ـ: لقد وردت عُضَل أقضيةٍ ما قام بها إلا ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ. وكلُّ مشكلٍ عند العرب مُعْضِل، ومنه قول الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ: [المتقارب]

إِذَا الْـمُـعْـضِـلَات لَـكَ فَـاصْـطَـنِـعْـنِـي كَـشَـفْـتُ حَـقَـائِـقَـهَـا بِـالـنَّـظَـرْ

هذا؛ والعضل: الحبس. قال الشاعر: [الوافر]

وَإِنَّ قَـصَـائِـدِي لَـكَ فَـاصْـطَـنِـعْـنِـي عَـقَـائِـلُ قَـدْ عُـضِـلْـنَ عَـنِ الـنِّـكَـاحِ

وقال آخر: [الكامل]

فَـلَأَعْـضِـلَـنَّ قَـصَـائِـدِي مِـنْ بَـعْـدِهِ حَـتَّـى أُزَوِّجَـهَـا مِـنَ الأَكْـفَـاءِ

﴿لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: لتضجر، فتفقدي ببعض مالها. قيل: هو خطاب للأزواج. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هذا في الرَّجل تكون له امرأة، وهو كارهٌ لها، وَلصُحْبتها، ولها عليه مهر، فيضارُّها؛ لتفتديَ منه، وتردَّ إليه ما ساق إليها من المهر، فنهى الله عن ذلك. وقيل: هو خطاب لأولياء الميت، فنهاهم الله عن عَضْلِ المرأة. وهو ما الكلام فيه.

﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ﴾: اختلف في الفاحشة، فقيل: هي الزنى. وقيل: هي النشوز، وسوء الخلق، وإيذاء الزَّوج، وأهله، والبَذَاء في الكلام، والفجور، فكلُّ ذلك يحلُّ للزَّوج أن يأخذ منها فداءً، وهو فحوى قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٢٩]: ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ﴾ وهذا ما يسمَّى بالخلع، والمُخالعة.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ قيل: هو راجع للكلام الذي قبله، والمعنى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗۚ﴾، ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ فصدر الآية ينهى عن فعل الجاهلية، وتقاليدها، وآخرها ينهى عن سوء معاملة الزَّوج في جميع الأحيان والأمكنة، والمعاشرة بالمعروف: توفية حقِّها من المهر، والنفقة، وألا يعبس في وجهها لغير ذنبٍ، وأن يكون ليناً هيناً في القول، لا فظّاً، ولا غليظاً، ولا مُظْهِراً ميلاً إلى غيرها. والدُّستور في ذلك قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٢٩]:

﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ﴾، وقوله تعالى في الآية رقم [٢٣١]: ﴿فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ...﴾ إلخ. والرَّسول ﷺ أوصى بذلك، فَخُذْ من قوله ما يلي:

عن عمرو بن الأحوص الجُشَمِيِّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه سمع رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع يقول: بعد أن حمد الله، وأثنى عليه، وذَّكر، ووعظ، ثمَّ قال: «**أَلَا وَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرَاً، فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئَاً غَيْرَ ذَلِكَ؛ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ؛ فَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبَاً غَيْرَ مُبَرِحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً. أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقَّاً، وَلِنِسَائِكُمْ عليكم حَقَّاً، فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ. أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ، وَطَعَامِهِنَّ**». رواه ابن ماجه، والترمذي.

﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: لدمامة، أو لسوء خلق من غير ارتكاب فاحشةٍ، أو نشوزٍ؛ فهذا يندب فيه الاحتمال، والصبر، وقسر النَّفس على الرِّضا، والقناعة بهنَّ، فعسى أن يؤول الأمر إلى الخير منهنَّ بأن يرزق الله منهنَّ أولاداً صالحين، فتنقلب تلك الكراهية محَبةً، والنفرة رغبةً. وفي الآية ندب إلى إمساك المرأة مع الكراهية لها؛ لأنَّه إذا صحبها، وتحمل ذلك المكروه طلباً للثواب، وأنفق عليها، وأحسن صحبتها؛ استحقَّ الثَّناء الجميل في الدُّنيا، والثواب الجزيل في العقبى، والرسولﷺ أوصى بذلك، فخذ ما يلي مِنْ قوله:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً، إِنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقَاً؛ رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ**». رواه مسلمٌ، وغيره. وبشار بن برد في المعاشرة يقول: [الطويل]

إِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ الأُمُورِ مُعَاتِبَاً ... صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ الَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ
فَعِشْ وَاحِدَاً أَوْصِلْ أَخَاكَ فَإِنَّهُ ... مُقَارِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَمُجَانِبُهْ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ مِرَارَاً عَلَى القَذَى ... ظَمِئْتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟
وَمَنْ ذَا الَّذِي تُرْضَى سَجَايَاهُ كُلُّهَا؟ ... كَفَى الْمَرْءِ نُبْلاً أَنْ تُعَدَّ مَعَايِبُهْ

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية رقم [١]: ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَحِلُّ﴾: فعل مضارع. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿تَرِثُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤول من: ﴿أَن تَرِثُواْ﴾: في محل رفع فاعل: ﴿يَحِلُّ﴾ والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾: مفعول به. ﴿كَرۡهٗاۖ﴾: حال بمعنى: مكرهات. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية، أو ناهية. ﴿تَعۡضُلُوهُنَّ﴾: معطوف على ما قبله، فهو منصوب، أو مجزوم بـ(لا) الناهية، وعلامة النصب، أو الجزم حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والنون حرف دال على جماعة الإناث، وعلى النصب فهو داخل

في جملة التأويل بالمصدر، وعلى الجزم فالجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿لِتَذْهَبُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أن» مضمرة بعد لام التعليل: وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محلٍّ جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿بِبَعْضِ﴾: متعلقان بما قبلهما و(بعض) مضاف، و﴿مَآ﴾ مبنية على السكون في محل جر بالإضافة، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة.

﴿ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾: فعل ماض مبني على السكون، والتاء فاعله، والميم حرف دال على جماعة الذكور، وحُرِّكت بالضم لتحسين اللفظ، فتولدت واو الإشباع، والهاء مفعول به أول، والنون حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَآ﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: آتيتموهن إيَّاه. ﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب، واستقبال. ﴿يَأْتِينَ﴾: فعل مضارع مبني على السكون في محل نصب بـ ﴿أَن﴾ ونون النسوة فاعله، و﴿أَن﴾ والفعل: ﴿يَأْتِينَ﴾: في تأويل مصدر في محل نصب حال مستثنىً من عموم الأحوال، أو في محل نصب على الاستثناء، وهو أقوى. ﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾: صفة: (فاحشة). و(عَاشِرُوهُنَّ): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والنون حرف دال لجماعة الإناث. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلقان به، أو بمحذوف حال من واو الجماعة، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿كَرِهْتُمُوهُنَّ﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه، والفعل في محل جزم فعل الشرط، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنها شرط جملة شرطٍ غير ظرفي. ﴿فَعَسَىٰٓ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (عسى): فعل ماض جامد مبني على فتح مقدر على الألف للتعذُّر وهو تام، و﴿أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا﴾ في تأويل مصدر في محل رفع فاعل: (عسى) والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط. هذا؛ وأجيز اعتبار الجواب محذوفاً، التقدير: فاصبروا عليهنَّ. وعليه فجملة: (عسى) مفيدة للتعليل لا محلَّ لها. ﴿وَيَجْعَلَ﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة له.

﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله تعالى في الآية حكم الفراق؛ الَّذي سببه المرأة بنشوزها، وأنَّ للزَّوج أخذ المال منها عقَّب ذلك بذكر الفراق؛ الَّذي سببه الزوج، وبيَّن: أنَّه إذا أراد الطَّلاق من غير نشوز، وسوء عشرة؛ فليس له أن يطلب منها مالاً.

واختلف العلماء فيما إذا كان الزَّوجان يريدان الفراق، وكان منهما نُشوزٌ، وسوء عشرة، فقال مالك ـ رضي الله عنه ـ: للزَّوج أن يأخذ منها؛ إذا تسببت في الفِراق، ولا يراعى تسببه هو. وقالت جماعةٌ من العلماء: لا يجوز له أخذ المال إلا أن تنفرد هي بالنُّشوز، وتطلبه في ذلك.

هذا؛ وفي الآية الكريمة دليلٌ على جواز المغالاة في المهور؛ لأنَّ الله تعالى لا يمثل إلا بمباح. وخطب عمر ـ رضي الله عنه ـ، فقال: ألا لا تغالوا في صَدُقات النِّساء، فإنَّها لو كانت مكرمة في الدنيا، أو تقوَى عند الله؛ لكان أولاكم بها رسول الله ﷺ، ما أصدق قطُّ امرأةً من نسائه، ولا بناته فوق اثنتي عشرة أوقيَّة. فقامت إليه امرأة، فقالت: يا عمر! يعطينا الله، وتحرمنا! أليس الله يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾؟! قال ـ رضي الله عنه ـ: أصابت امرأة، وأخطأ عمر. وفي روايةٍ: كلُّ الناس أفقه منك يا عمر! والجملة فيها تفخيم الأمر، وتأكيده، والمبالغة فيه.

﴿أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: ظلماً، وباطلاً ظاهراً. والبهتان: هو الافتراء، وهو: أن تستقبل الرجل بأمر قبيحٍ تقذفه به، وهو بريء منه؛ لأنه يبهت عند ذلك، ويتحيَّر. والاستفهام للتوبيخ، والتقريع.

هذا؛ و﴿زَوْجٍ﴾ يطلق على الرَّجل، والمرأة، والقرينة تبيِّن الذَّكر، والأنثى، ويقال لها أيضاً: زوجة، وحذف التاء منها أفصح إلا في الفرائض، فإنَّها بالتاء أفصح لتوضيح الوارث، قال الأصمعي: ولا تكاد العرب تقول: زوجة. وحكى الفرَّاء: أنه يقال: زوجة، وأنشد للفرزدق: [الطويل]

وَإِنَّ الَّـذِي يَـسْـعَـى لِـيُـفْـسِـدَ زَوْجَـتِـي كَـسَـاعٍ إِلَـى أُسْـدِ الـشَّـرَى يَـسْـتَـبِـيـلُـهَـا

وقال عمَّار بن يسار ـ رضي الله عنه ـ في شأن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «والله إِنَّها لزَوْجَةُ نَبِيِّكم ﷺ في الدُّنيا وَالآخِرةِ، ولكنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ ابتلاكم ليعلمَ: إيَّاه تطيعونَ، أمْ هي؟» ذكره البخاريُّ. وعن أنسٍ رضي الله عنه: أنَّ النبي ﷺ كان مع إحدى نسائه، فمرَّ به رجلٌ، فدعاه، فقال: «**يا فُلانُ هَذِهِ زَوْجَتِي**». فقال: يا رسول الله! مَنْ كنت أظنُّ به، فلم أكن أظنُّ بك! فقال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ فِي الْعُرُوقِ**». أخرجه مسلم. والمحفوظ: أنَّ ذلك كان ليلاً، وأنَّ الرَّجل كان الزُّبير بن العوَّام، ـ رضي الله عنه ـ.

هذا؛ والزوج: القرين، قال تعالى: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: قرناءهم، الآية رقم [٢٢] من سورة (الصافات)، والزَّوج: ضد الفرد، وكلُّ واحدٍ منهما يسمى: زوجاً أيضاً، ويقال للاثنين: هما زوجان، وهما زوج، كما يقال: هما سِيَّان، وهما سواءٌ. قال تعالى لنوح ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: من كلِّ زوج

ذكراً، وأنثى. رقم [٤٠] من سورة (هود). وقال تعالى في سورة (الأنعام): ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ...﴾ إلخ، والمعنى: ثمانية أفراد، والزَّوج: الصِّنف، والنوع، قال تعالى في سورة (لقمان) رقم [١٠]: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٍ كَرِيمٍ﴾ ومثله في سورة الحجِّ رقم [٥]. وانظر (القِنْطار) في سورة (آل عمران) الآية رقم [١٤].

الإعراب: ﴿وَإِنۡ﴾: الواو: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿أَرَدتُّمُ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿ٱسۡتِبۡدَالَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿زَوۡجٍ﴾: مضاف إليه. من إضافة المصدر لمفعوله,وفاعله محذوف. ﴿مَّكَانَ﴾: ظرف مكان متعلق بالمصدر، أو مفعول ثانٍ له، والمعنى لا يأباه. (آتَيْتُمْ): فعل، وفاعل. ﴿إِحۡدَىٰهُنَّ﴾: مفعول به أول منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على الألف للتعذر، والهاء في محل جر بالإضافة، والنون حرف دال على جماعة الذكور. ﴿قِنطَارٗا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها.

﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط، (لا): ناهية. ﴿تَأۡخُذُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿شَيۡـًٔا﴾ كان صفة له... إلخ. ﴿شَيۡـًٔا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها، و(إِنْ) ومدخولها كلام معطوف على (إِنْ) السابقة ومدخولها، لا محلَّ لها مثله.

﴿أَتَأۡخُذُونَهُۥ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتوبيخ. (تأخذونه): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿بُهۡتَٰنٗا﴾: حال بمعنى: باهتين، أو هو مفعول لأجله. ﴿وَإِثۡمٗا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿مُّبِينٗا﴾: صفة له.

﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٢١﴾

الشرح: ﴿وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ﴾: كلمة تعجب، أو استفهام، وإنكار. والمعنى: كيف يليق بالعاقل أن يستردَّ ما بذله لزوجته عن طيب نفسٍ؟! ﴿وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ﴾ أصل الإفضاء في اللغة: الوصول، يقال: أفضى إليه؛ أي: وصل إليه. ثمَّ للمفسرين في معنى الإفضاء في هذه

الآية قولان: أحدهما: أنَّه كناية عن الجماع، وهو قول ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، فإنَّه قال: الإفضاء في هذه الآية: الجماع، ولكنَّ الله كريمٌ يكني. وهو قول مجاهد، والسُّدي، واختيار الزجَّاج، وابن قتيبة. وهو مذهب الشَّافعي؛ لأنَّ عنده أنَّ الزَّوج إذا طلق قبل المسيس فله أن يرجع بنصف المهر؛ وإن خلا بها. والقول الثاني في معنى الإفضاء هو: أن يخلو بها؛ وإن لم يجامعها.

قال الفراء: الإفضاء: أن يخلو الرَّجل، والمرأة؛ وإن لم يجامعها. وبه قال أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ وأصحابه، قالوا: إذا خلا بها خلوةً صحيحةً، يجب كمال المهر، والعدَّة، دخل بها، أو لم يدخل بها؛ لما رواه الدَّارقطني عن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَشَفَ خِمَارَ امْرَأَةٍ، وَنَظَرَ إِلَيْهَا؛ وَجَبَ الصَّدَاقُ**». وقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: إذا أغلق باباً، وأرخى ستراً، ورأى عورةً؛ فقد وجب الصَّداق، وعليها العدَّة، ولها الميراث. وانظر الآية رقم [٢٣٧] من سورة (البقرة) فإنَّه جيد، والحمد لله!.

﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ المراد بذلك: عقد النكاح: زوَّجتُ، وأنكحتُ. وقال سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ: هو قوله تعالى: ﴿فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾. وفي صحيح مسلم عن جابر ـ رضي الله عنه ـ في خطبة الوداع: أنَّ النبيَّ ﷺ قال فيها: «**واسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْراً، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانَةِ اللهِ، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بكلمةِ اللهِ**». وفي الآية الكريمة استعارة لفظ الميثاق للعقد الشَّرعيِّ.

الإعراب: ﴿وَكَيْفَ﴾: الواو: حرف استئناف. كيف: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال من واو الجماعة. ﴿تَأْخُذُونَهُۥ﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَقَدْ﴾: الواو: واو الحال. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَفْضَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذُّر. ﴿بَعْضُكُمْ﴾: فاعله، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿إِلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. (أخذن): فعل، وفاعل. ﴿مِنكُم﴾: متعلقان بما قبلهما، وجوز تعليقهما بمحذوف حال من: ﴿مِّيثَٰقًا﴾. ﴿مِّيثَٰقًا﴾: مفعول به. ﴿غَلِيظًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها.

﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾﴾

الشرح: سبب نزول هذه الآية والتي قبلها ذكرته في الآية رقم [١٩]. ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم﴾ أي: لا تتزوَّجوا ما تزوَّج آباؤكم من النِّساء. وهذا نهيٌ لِمَا كان الجاهليُّون يفعلونه

من التزوُّج بامرأة الأب، سواء المدخول بها، والمعقود عليها من غير دخول بها، وانظر تفسير النكاح، وشرحه في الآية رقم [٦]. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: مضى مِنْ تزوُّجِ بعضكم حليلة أبيه، قبل نزول الأحكام، وتبيين الحلال، والحرام. هذا؛ ووقعت: ﴿مَا﴾ على النِّساء، كما وقعت في الآية رقم [٣].

﴿إِنَّهُ﴾: أي: النكاح، والزواج المفهوم من الفعل السَّابق. ﴿كَانَ فَاحِشَةً﴾: سمَّاه الله فاحشةً؛ لأنَّ زوجة الأب بمنزلة الأم، ونكاح الأمهات حرام، فلمَّا كان كذلك؛ سمَّاه الله فاحشةً؛ لأنَّه من أقبح المعاصي. ﴿وَمَقْتًا﴾ يعني: أنَّه يورث المقت من الله، وهو أشدُّ الغضب، وغاية الخزي، والنَّدامة. ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ أي: وبئس ذلك طريقاً؛ لأنَّه يؤدِّي إلى مقت الله، والعرب تسمِّي الرَّجل من امرأة أبيه مقيتاً، وكان منهم الأشعث بن قيس، وأبو مُعِيط بن أبي عمرو بن أميَّة. وذكر القرطبيُّ كثيرين غيرهما.

قال أبو العباس: سألت ابن الأعرابيِّ عن نكاح المَقْتِ، فقال: هو أن يتزوَّج الرَّجل امرأة أبيه؛ إذا طلقها، أو مات عنها، ويقال لهذا الرجل: الضَّيزَن. وقال ابن عرفة: كانت العرب إذا تزوَّج الرجل امرأة أبيه، فأولدها، قيل للولد: الْمَقْتيُّ. وأصل المقت: البغض، مِنْ: مقَتَه، يمقُته، مَقْتاً، فهو مَمْقوت، ومَقيت، فكانت العرب، تقول للرَّجل من امرأة أبيه: مقيت، فسمَّى الله تعالى هذا النكاح مقتاً؛ إذ هو ذا مقتٍ، يلحق فاعله، وخذ ما يلي:

فقد روى البغويُّ بسنده عن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ قال: مرَّ بي خالي، ومعه لواء، فقلت: أين تذهب؟ قال: بعثني النبيُّ ﷺ إلى رجلٍ تزوَّج امرأة أبيه أن آتيه برأسه. وينبغي أن تعلم: أنَّ ما ذكر في هذه الآية مشروع في بيان مَنْ يحرم نكاحها، ومن لا يحرم، وإنَّما خصَّ هذا النكاح بالنَّهي، وأفرده بالذِّكر في هذه الآية مبالغةً في الزَّجر عنه، حيث كانوا مصرِّين على تعاطيه. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَنكِحُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة، فلا محلَّ لها على الاعتبارين، ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأوَّلين مبنية على السُّكون في محل نصب مفعول به. ﴿نَكَحَ﴾: فعل ماض. ﴿ءَابَآؤُكُم﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: ولا تنكحوا الذي، أو شيئاً نكحه آباؤكم. ﴿مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من المفعول المحذوف، و﴿مِّنَ﴾ بيان لما أبهم في: ﴿مَا﴾ وعلى اعتبارها مصدرية، وتؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر، والمصدر يؤول باسم مفعول، ويكون التقدير: ولا تنكحوا منكوحة آبائكم. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿مَا﴾:

تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السُّكون في محل نصب على الاستثناء المنقطع، أو المتصل. ﴿قَدْ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿سَلَفَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿مَا﴾ وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلتها، أو صفتها.

﴿إِنَّهُ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمها يعود إلى الزواج، أو النِّكاح المفهوم من الفعل السابق. ﴿فَاحِشَةً﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾. ﴿وَمَقْتًا﴾: معطوف عليه، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (إنَّ) والجملة الاسمية تعليل للنهي، لا محلَّ لها.

(ساء): فعل ماض جامد لإنشاء الذم، وفاعله ضمير مستتر فسَّره التمييز، وهو: ﴿سَبِيلًا﴾، والمخصوص بالذم محذوف، التقدير: ذلك النكاح، وجملة: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ مستأنفة لا محل لها. وقيل: هي في محل نصب مقول القول لقولٍ محذوف معطوف على خبر: ﴿كَانَ﴾ التقدير: ومقولاً فيه ساء سبيلاً. وهو تكلُّف لا داعي له.

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾﴾

الشرح: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ أي: حُرِّم عليكم نكاحهنَّ، وهو عامٌّ في كلِّ حال، لا يتخصَّص بوجهٍ من الوجوه. هذا؛ و﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ جمع: أم، والقياس أن يكون جمعها أمَّاتٍ، قال الزَّمخشري في الكشاف عند قوله تعالى في سورة (النَّحل): ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾. والهاء مزيدة في أُمَّات، كما زيدت في: أَرَاقَ، فقيل: أهراق، وشذَّت زيادتها في الواحدة كما في قول قصي بن كلاب، وهو الجدّ الرابع للنبي ﷺ: [الرجز]

أُمَّهَتِي خِنْدِفُ وَالْيَاسُ أَبِي ... عِنْدَ تَنَادِيهِمْ بِهَالٍ وَهَبِ

وقال ابن عصفور في المُمْتِع: أما أمَّهة، فمنهم مَنْ يجعل الهاء فيه زائدة، ومنهم مَنْ يجعلها أصلية، فالذي يجعلها زائدة يستدلُّ على ذلك بأنها في معنى الأم، وأورد بيت قصي؛ إلا أنَّ الفرق بين أمٍّ، وأمَّهة: أنَّ أمهة تقع في الغالب على مَنْ يعقل، وقد تستعمل فيما لا يعقل، وذلك قليل جدّاً، نحو قول السَّفاح بن بكير: [السريع]

قَـــوَّالُ مَـــعْـــرُوفٍ وَفَـــعَّـــالُـــهُ عَـــقَّـــارُ مَـــثْـــنَـــى أُمَّـــهَـــاتِ الـــرِّبَـــاعِ

و«أمٌّ» يقع في الغالب على مَنْ لا يعقل، وقد يقع على مَنْ يعقل، نحو قول جرير: [الوافر]

لَـــقَـــدْ وَلَـــدَ الأُخَـــيْـــطِـــلَ أُمُّ سُـــوءٍ عَـــلَـــى بَـــابِ اسْـــتِـــهَـــا صُـــلُـــبٌ وَشَـــامُ

وممَّا يدل أيضاً على زيادة الهاء في أُمهة قولهم: أُمٌّ بينة الأمومة ـ بغير هاء ـ ولو كانت أصلية لثبتت في المصدر، والذي يجعلها أصلية يستدلُّ على ذلك بما حكاه صاحب العين من قولهم: تَأَمَّهْتُ أُمّاً، فتأمَّهْتُ تفعَّلت بمنزلة: تنبَّهت مع أن زيادة الهاء قليلة جدّاً، فمهما أمكن جعلها أصلية؛ كان ذلك أولى فيها. والصَّحيح: أنها زائدةٌ؛ لأنَّ الأمومة حكاها أئمَّة اللغة، وأما تَأَمَّهْتُ، فانفرد بها صاحب العين، وكثيراً ما يأتي في كتاب العين ما لا ينبغي أن يؤخذ به لكثرة اضطرابه، وخلله.

هذا؛ والأمُّ تعمُّ مَنْ ولدتك، أو ولدتْ مَنْ ولدك، وإن علت. ﴿وَبَنَاتُكُمْ﴾: جمع بنت أو ابنة، انظر ما ذكرته في الآية رقم [١١] وتتناول مَنْ ولدْتها، أو ولدْت مَنْ ولدها، وإن سَفلت. ﴿وَأَخَوَاتُكُمْ﴾: من جهة الأب، أو الأم، أو منهما. ﴿وَعَمَّاتُكُمْ﴾: جمع: عمَّة، وهي كل أنثى ولدها مَنْ ولد ذكراً وَلَدَك. ﴿وَخَالَاتُكُمْ﴾: جمع: خالة، وهي كلُّ أنثى ولدَها مَنْ وَلَد أنثى وَلَدَتْك قريباً، أو بعيداً. ﴿وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ﴾ تتناول القربى، والبعدى، فهذه الأصناف السَّبعة محرَّمةٌ بسبب النَّسب بنصِّ القرآن، وجملته: أنه يحرم على الرَّجل أصوله، وفصوله، وفصول أوَّل فصلٍ مِنْ كلِّ أصلٍ بعده أصله، وقل مثله في المرأة، قال العلماء: كلُّ امرأة حرَّم الله نكاحها بالنسب، والرَّحم؛ فحرمتها مؤبَّدةٌ، لا تحلُّ بوجهٍ من الوجوه.

الصنف الثاني من المحرمات المحرمات بالسَّبب، وهنَّ سبع أيضاً: الأول، والثاني المحرمات بالرَّضاع، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ فكلُّ أنثى انتسبتَ باللَّبن إليها فهي أمُّك، وبنتها أختك. وإنَّما نصَّ الله على ذِكْر الأم، والأخت ليدلَّ بذلك على جميع الأصول، والفروع، فنبَّه بذلك: أنَّه تعالى أجرى الرَّضاع مجرى النَّسب. ويدلُّ على ذلك ما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**يَحْرُمُ مِنَ الرَّضَاعِ مَا يَحْرُمُ مِنَ الْوِلَادَةِ**». أخرجه البخاريُّ، ومسلمٌ، فزوج المرضعة أبو الرَّاضع، وأولادها أخوته، وأخواتها خالاته، وإخوتها أخواله. . . . إلخ. وإنما سمَّى الله المُرضعات: أمَّهات لأجل الحرمة، فيحرم عليه نكاحها، ويحلُّ له النَّظر إليها، والخلوة بها، والسَّفر معها، وتقديرها، واحترامها، كما فعل الرسول ﷺ في غزوة حنين مع حليمة، السَّعدية مرضعتهِ على القول بحياتها بعد انتهاء تلك الغزوة، وإكرام أخته الشَّيماء بنت حليمة ـ رضي الله عنها ـ. ولا يترتَّب على الرضاع جميع أحكام الأمومة من كلِّ وجهٍ، فلا يتوارثان، ولا تجب على كلِّ واحدٍ نفقة الآخر، وغير ذلك من الأحكام، وصلة الرَّحم مشروعة بينهما بلا شكٍّ.

وإنما يثبت الرضاع بشرطين: أحدهما أن يكون إرضاع الصَّبيّ، والصَّبيَّة في حال الصِّغر، وذلك إلى انتهاء سنتين من ولادته، لقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ وقوله تعالى في سورة (لقمان): ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾. الشرط الثاني: أن يكون الرَّضاع خمس رضعات متفرِّقات. روي ذلك عن عائشة، وبه قال ابن الزُّبير - رضي الله عنه -، وإليه ذهب الشَّافعي، ويدلُّ على ذلك ما رُوي عن عائشة - رضي الله عنها -: أنَّ النبي ﷺ قال: «**لا تُحَرِّمُ الْمَصَّةُ، ولا الْمَصَّتَانِ**». أخرجه مسلمٌ.

وعن عائشة؛ قالت: كان فيما أنزل من القرآن: (عشر رضعات معلومات يحرمن) ثمَّ نسخت بـ (خمسٍ معلومات) فتوفي رسول الله ﷺ، وهنَّ فيما يقرأ من القرآن. قولها: فتوفي رسول الله ﷺ يحتمل: أنَّه لم يبلغها نسخ ذلك، وأجمعوا على أنَّ هذا لا يُتلى، فهو ما نُسخ تلاوته وبقي حكمه كآية الرَّجم؛ التي ذكرتها مراراً.

وذهب جمهور العلماء إلى أنَّ قليل الإرضاع، وكثيره يحرِّم، وهو قول ابن عبَّاسٍ، وابن عمر - رضي الله عنهم -، وبه قال سعيد بن المسيَّب، وإليه ذهب الثوري، والأوزاعي، ومالك، وابن المبارك، وأبو حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، والرواية الثانية كمذهب الشافعي، واحتجَّ الجمهور بمطلق الآية؛ لأنه عمل بعموم القرآن، وظاهره، ولم يذكر عدداً، وأجاب الشافعي، ومن وافقه في هذه المسألة بأنَّ السُّنَّة مبينة للقرآن، ومفسرةٌ له.

﴿وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ﴾ يعني: إذا تزوّج الرَّجل بامرأةٍ حرمت عليه أمُّها الأصلية، وجميع جدَّاتها من قبل الأب، والأم كما في النسب، والرَّضاع أيضاً، ومذهب أكثر الصحابة وجميع التَّابعين، وكلِّ العلماء: أنَّ من تزوَّج امرأة حرمت عليه أمُّها بنفس العقد، سواء دخل بها، أو لم يدخل بها، وذهب جمعٌ من الصحابة إلى أنَّ أم المرأة إنَّما تحرم بالدخول بابنتها، وهو قول عليٍّ، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وابن الزُّبير، وجابر، وأظهر الروايات عن ابن عباس - رضي الله عنهم أجمعين -، والعمل اليوم على القول الأوَّل، وهو مذهب الجمهور، ويدلُّ على ذلك ما روي عن عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جدِّه: أن رسول الله ﷺ قال: «**أَيُّمَا رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً؛ فَلَا يَحِلُّ لَهُ نِكَاحُ ابْنَتِهَا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ دَخَلَ بِهَا؛ فَلْيَنْكِحْ ابْنَتَهَا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ نَكَحَ امْرَأَةً؛ فَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَنْكَحَ أُمَّهَا؛ دَخَلَ بِهَا، أَوْ لَمْ يَدْخُلْ**». أخرجه الترمذيُّ. وروي: أنَّ النبي ﷺ قال في رجل تزوَّج امرأةً، فطلقها قبل أن يدخل بها: «إِنَّه لَا بَأْسَ أَنْ يَتَزَوَّجَ ابْنَتَهَا، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ أُمَّهَا». وهذا ما يقرِّر قاعدةً شرعيَّة: (العقد على البنات يُحَرِّم الأمَّهات، والدُّخول على الأمَّهات يُحَرِّم البنات).

﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ﴾: ربائبكم: جمع ربيبة، والرَّبيب: ولد المرأة من زوجٍ آخر، سُمِّي بذلك؛ لأنَّه يربُّه، أي: يتولَّى شؤونه، ويقوم عليه،

كما يربُّ ولده في غالب الأمر. ﴿فِي حُجُورِكُم﴾: خُرِّج مخرج الغالب، وهو قيد غير لازم؛ لأنَّ الرَّبيب، والرَّبيبة يحرمان، وإن لم يكونا في حِجْر أحد الزوجين.

هذا؛ و﴿حُجُورِكُم﴾ جمع: حجر بفتح الحاء، وكسرها: مقدَّم الثوب، والمراد لازم الكون في الحجُّور، وهو الكون في تربيتهم، وتحت عنايتهم. هذا؛ والحِجْر يطلق على أمورٍ: حضن الإنسان، وهو ما بين يديه من ثوبه، يقال: نشا فلان في حِجْر فلانٍ، أي في رعايته، وحفظه. هذا؛ والحَجْر بفتح الحاء: المنع من التصرُّفات الماليَّة لسفهٍ، وفلس، وغير ذلك، وأمَّا الحِجْر بكسر الحاء، فيطلق على الفَرس، وعلى العقل، وعلى حِجْر إسماعيل، وعلى حِجْر ثمود، وعلى الكذب، وعلى الحرام، كما في قوله تعالى في سورة (الفرقان): ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ وقد نظمها بعضهم في قوله: [البسيط]

رَكِبْتُ حِجْراً وَطُفْتُ البَيْتَ خَلْفَ الحَجَر وحُزْتُ حِجْراً عَظِيمَاً فِي دُخُولِ الحَجَر

للهِ حَجْرٌ مَنَعنِي مِنْ دُخُولِ الحِجْر مَا قُلْتُ حِجْراً وَلَوْ أُعْطِيتُ ملءَ الحِجْر

هذا؛ ويقرأ (اللائي) بالهمزة، كقوله تعالى في سورة الطَّلاق: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ وقال الشاعر: [الطويل]

مِنَ اللَّاءِ لَمْ يَحْجُجْنَ يَبْغِينَ حِسْبَةً وَلَكِنْ لِيَقْتُلْنَ البَرِيءَ المُغَفَّلَا

هذا؛ و(اللاتي) و(اللائي) جمعان لـ «الَّتي» كما تُجمع على: «اللواتي» ولم يوجد هذا الجمع في القرآن، كما تجمع على: «ذوات» قال ابن مالك ـ رحمه الله ـ في ألفيته: [الرجز]

بِاللَّاتِ وَاللَّاءِ الَّتِي قَدْ جُمِعَا واللَّاءِ كَالَّذِينَ نَزْراً وَقَعَا

﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ يعني: أزواج أبنائكم. ﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾ جمع: حليلة، أو حليل، والمراد هنا الأوَّل. وقيل في اشتقاقهما: إنَّهما من الحلول، فسمِّيا بذلك؛ لأنهما يحلان منزلاً واحداً، وفراشاً، فحليل على هذا القول: فعيل بمعنى: مفاعل، مثل شريب، وأكيل، ونديم، بمعنى مشارب، ومؤاكل، ومنادم. وقيل: بل هما مشتقَّان من الحلِّ؛ لأنَّ كلاًّ منهما يحلُّ لصاحبه، فعلى هذا القول «فعيل» بمعنى: مفعل مثل: حكيم بمعنى محكم. وقيل: بل هما مشتقَّان من الحل، وهو على هذا القول «فعيل» بمعنى: فاعل، وسمِّيا بذلك لأنَّ كلاًّ منهما يحل إزار صاحبه. وقيل: سمِّيا بذلك؛ لأنَّ كلاًّ منهما يحل من الآخر محلاًّ، لا يحلُّه سواه، وهو قريب مِنَ الأوَّل.

وقوله: ﴿مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ خرج الولد المتبنَّى، فإنه يجوز له أن يتزوَّج امرأة مَنْ تبنَّاه؛ لأنه كان في الجاهلية، وصدر الإسلام الولد المتبنَّى بمنزلة الابن. وقصَّة زيد بن حارثة في سورة (الأحزاب) أكبر شاهد على ذلك، ومثل زوجة الابن مِنَ الصُّلب في التحريم زوجة الابن من الرَّضاع.

مسألة البنت المخلوقة من الزِّنى: وشرحها: لو زنى بامرأة، ولم يتزوجها بعقدٍ صحيح، وحملت منه ببنتٍ، فيجوز له أن يتزوَّج هذه البنت عند الشافعي؛ لأنَّه لا حرمة لماء الزنى، ولا يجوز له أن يتزوَّجها عند مالك، والثَّوري، وأبي حنيفة، والأوزاعيِّ، والليث. ولأحمد روايتان، وبالغوا في ذلك بأنَّه لو مسَّها بشهوةٍ؛ حَرُمَتْ عليه أمُّها، وابنتها، وحرمت على الأب، والابن. وإنِّي أجرؤ على الفتوى: أنه على رأيهم في هذا الزَّمن لا يوجد شيءٌ حلال؛ لما نسمعه، ونُسأَلُ عنه مِنْ مباضعة الحموات، أي: أمهات الزَّوجات، وغيرهنَّ، فضلاً عن المداعبة، واللَّمس، والنَّظر بشهوةٍ، ولا حول ولا قوَّة إلا بالله. وحجَّة الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ فيما ذهب إليه مبدأ: (الحرام لا يُحَرِّم الحلال) وهذا مبدأ مستقيم، والله المستعان، وبه التَّوفيق، وعليه الاتِّكال.

﴿وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ﴾: بنسبٍ، أو رضاعٍ، بل، وبملك يمينٍ؛ أي: لا يجوز للرَّجل أن يجمع بين أختين في عصمته في حياتهما، وأجمع العلماء على أنَّه لو طلق المرأة طلاقاً رجعيّاً؛ لا يجوز له أن يتزوج أختها، أو أربعاً سواها حتى تنقضي عدَّتها. واختلفوا لو طلقها طلاقاً بائناً، ولم تنقض عدَّتها؛ فالمعتمد: أنه يجوز له زواج أختها، أو أربع. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني: لكن ما قد مضى؛ فإنَّه معفو عنه بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾. وقيل: إنَّ فائدة هذا الاستثناء: أنَّ أنكحة الكفار صحيحةٌ، فلو أسلم عن أختين؛ قيل: له أختر أيتهما شئت، ويدلُّ على ذلك ما روي عن الضَّحَّاك بن فيروز عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله! أسلمت، وتحتي أختان. قال: «**طلق أيتهما شئت**». أخرجه أبو داود، ومثله ما إذا أسلم، وعنده أكثر من أربع نسوة، فإنَّه يختار أربعاً، ويطلق سائرهنَّ.

وقال بعض العلماء في حدِّ ما يحرم الجمع بينهما، أقول: قرابة بنسبٍ أو لَبَنٍ، لو فرض أحدُهما ذكراً؛ لا يجوز له زواج الآخر، لا يجوز الجمع بينهما. أقول: ويستثنى من ذلك زوجة أبي المرأة فيجوز الجمع بينها وبين ربيبتها، وعليه لا يجوز الجمع بين المرأة، وعمتَّها، ولا بين المرأة، وخالتها، ودليله ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**لَا يُجْمَعُ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَعَمَّتِهَا، وَلَا بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَخَالَتِهَا**». رواه البخاريُّ، ومسلم. والشيعة يجوزون الجمع بين من ذكر؛ لأنهم لا يأخذون بالأحاديث النبوية إلا إذا كانت مروية عن طريق أهل البيت. أعرف شيعيّاً جمع بين المرأة، وبنت أختها في حياتهما. والحكمة في منع ذلك ظاهرةٌ، وهو ما يحدث بين الضرائر من التنازع، والتشاجر، وفيه قطعٌ للرَّحم بين المرأة وبين بنت أخيها، أو بنت أختها. هذا؛ وقال ابن شهاب: فنرى خالة أبيها، وعمَّة أبيها بهذه المنزلة. وإنَّما صار إلى ذلك لأنه حمل الخالة، والعمَّة على العموم، وتمَّ له ذلك.

الإعراب: ﴿حُرِّمَتۡ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾: نائب فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها، والكاف في محل جر بالإضافة، والأسماء التالية معطوفة عليه، و(بنات) مضاف، ﴿ٱلۡأَخِ﴾ مضاف إليه، و(بنات) مضاف، و﴿ٱلۡأُخۡتِ﴾ مضاف إليه. ﴿ٱلَّٰتِيٓ﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع صفة (أمهاتكم). ﴿أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾: فعل ماض مبني على السكون، والنون فاعله، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿وَأَخَوَٰتُكُم﴾: معطوف على ما قبله. ﴿مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾: متعلقان بمحذوف حال ممَّا قبلهما. ﴿وَأُمَّهَٰتُ﴾: معطوف أيضاً، وهو مضاف، و﴿نِسَآئِكُمۡ﴾: مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ﴾: معطوف أيضاً. ﴿ٱلَّٰتِي﴾: صفة له. ﴿فِي حُجُورِكُم﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: (ربائبكم). ﴿ٱلَّٰتِي﴾: صفة له. ﴿دَخَلۡتُم﴾: فعل، وفاعل، والجملة صلة: ﴿ٱلَّٰتِي﴾. ﴿بِهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والنون حرف دال على جماعة الإناث.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَكُونُواْ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لَّمۡ﴾ وهو في محل جزم فعل الشرط، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿دَخَلۡتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية خبر: ﴿تَكُونُواْ﴾ والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنها جملة شرط غير ظرفي. ﴿بِهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إن». ﴿جُنَاحَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: (لا)، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنها لم تحلَّ محلَّ المفرد. و(إنْ) ومدخولها كلام معترض بين الأسماء المتعاطفة.

﴿وَحَلَٰٓئِلُ﴾: معطوف على الأسماء السابقة، وهو مضاف، و﴿أَبۡنَآئِكُمُ﴾ مضاف إليه، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جرٍّ صفة: ﴿أَبۡنَآئِكُمُ﴾. ﴿مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ﴾: متعلقان بمحذوف صلة: ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

﴿وَأَن﴾: الواو: حرف عطف. (أن): حرف مصدري، ونصب. ﴿تَجۡمَعُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: (أنْ) وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، و(أنْ) والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل رفع معطوف على ﴿أُمَّهَٰتُكُمۡ﴾، التقدير: وحرم عليكم الجمع...إلخ. ﴿بَيۡنَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله،

و﴿بَيْنَ﴾: مضاف، و﴿ٱلْأُخْتَيْنِ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه مثنًّى، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾: انظر الآية السَّابقة. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: خبران لـ ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾. والجملة الاسمية مستأنفة، لا محل لها.

الجزء ٥

﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: عطف على المحرَّمات المذكورات قبلُ. والتحصين: التمنُّع، ومنه الحصن؛ لأنَّه يمتنع فيه، ومنه قوله تعالى في سورة (الأنبياء): ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾. ومنه: الحِصان للفرس؛ لأنَّه يمنع صاحبه من الهلاك، والحَصان: المرأة العفيفة، والحرَّة، والمرأة المسلمة الشَّريفة. قال حسَّان ـ رضي الله عنه ـ في الصدِّيقة بنت الصدِّيق ـ رضي الله عنها ـ: [الطويل]

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تُزَنُّ بِرِيبَةٍ وَتُصْبِحُ غرْثَى مِنْ لُحُومِ الْغَوَافِلِ

والمعنى: حُرِّمت النساء ذوات الأزواج من النساء، فلا يحلُّ لأحد نكاحهنَّ قبل مفارقة أزواجهنَّ، أو موتهم، وهذه هي السَّابعة من النساء، اللَّاتي حرمن بالسَّبب. قال أبو سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: نزلت هذه الآية في نساءٍ كنَّ هاجرن إلى رسول الله ﷺ، ولهنَّ أزواج في مكَّة، فتزوجن ببعض المسلمين، ثم قدم أزواجهنَّ مهاجرين، فنهى الله عن نكاحهنَّ. والمراد تحريم نكاح المذكورات فهو على حذف مضاف.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: يعني: السَّبايا، اللاتي سُبين ولهنَّ أزواج في دار الحرب، فيحلُّ لمالكهنَّ وطؤهنَّ. فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ: بعث رسول الله ﷺ يوم حنين جيشاً إلى أوطاس، فأصابوا سبايا لهنَّ أزواج من المشركين، فكرهوا غشيانهنَّ، فأنزل الله تعالى هذه الآية. أخرجه مسلم. قال الفرزدق في هذا المعنى: [الطويل]

وَذَاتُ حَلِيلٍ أَنْكَحَتْهَا رِمَاحُنَا حَلَالٌ لِمَنْ يَبْنِي بِهَا لَمْ تُطَلَّقِ

﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾: المعنى: حرمت عليكم أمهاتكم... وكتب عليكم هذا كتاباً، بمعنى: فرضه، وقضى به. وقيل: المعنى: الزموا كتاب الله، واعملوا به، ولا تخرجوا عن حدوده.

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ أي: وأحلَّ لكم ما سوى ذلكم الذي ذكر من المحرَّمات، وظاهر هذه الآية يقتضي حلَّ ما سوى المذكورين من الأصناف المحرَّمات، لكن قد دلَّ الدَّليل من السُّنَّة بتحريم أصنافٍ أُخَر سوى ما ذكر.

فمن ذلك: أنَّه يحرم الجمع بين المرأة، وعمَّتها، وبين المرأة، وخالتها، كما رأيته في الآية السَّابقة، ومن ذلك: المطلقة ثلاثاً، لا تحلُّ لزوجها الأوَّل حتى تنكح زوجاً غيره. ومن ذلك المعتدَّة، فلا تحلُّ للأزواج حتى تنقضي عدَّتها. ومن ذلك: أنَّ مَنْ كان عنده أربع نسوةٍ حَرُم عليه أن يتزوج بخامسةٍ. ومن ذلك المُلاعِنة، فإنَّها محرَّمة على المُلاعِن بالتأبيد، لقوله ﷺ: «**الْمُتَلَاعِنَانِ لَا يَجْتَمِعَانِ**». فهذه أصنافٌ من المحرمات سوى ما ذكر في الآيتين. فعلى هذا يكون قوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾ ورد بلفظ العموم، لكن العموم دخله التَّخصيص، فيكون عامَّاً مخصوصاً.

﴿أَن تَبْتَغُوا بِأَمْوَٰلِكُم﴾ أي: وأحلَّ لكم أن تطلبوا بأموالكم، أي: تنكحوا بصداقٍ، أو تشتروا بثمنٍ. وفي الآية دليلٌ على أنَّ الصداق لا يتقدَّر بشيءٍ، فيجوز على القليل، والكثير، وهو مذهب الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ، لقوله ﷺ في حديث الموهوبة: «**الْتَمِسْ وَلَوْ خَاتِمَاً مِنْ حَدِيدٍ**». وقال أبو سعيد الخُدري ـ رضي الله عنه ـ: سألنا رسول الله ﷺ عن صداق النِّساء، فقال: «**هُوَ مَا اصْطَلَحَ عَلَيْهِ أَهْلُوهُمْ**». وروى جابر ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ رَجُلاً أَعْطَى امْرَأَةً مِلْءَ يَدَيْهِ طَعَامَاً؛ كَانَتْ بِهِ حَلَالاً**». أخرجهما الدَّارقطنيُّ في سُننه.

قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: لا يكون الصَّداق أقل من ربع دينار، أو ثلاثة دراهم كيلاً، وعند أبي حنيفة، وأحمد رحمهما الله تعالى: أقلُّه عشرة دراهم، واحتجَّا بما رواه جابر: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لا صَدَاقَ دُونَ عَشْرَةِ دَرَاهِم**». أخرجه الدارقطنيُّ. قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: وفي سنده مبشر بن عبيد متروك الحديث.

﴿مُّحْصِنِينَ﴾: متعفِّفين بالزَّواج عن الزنى. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾: غير زانين. والسِّفاح: الفجور، والزنى، وأصله من السَّفح، وهو الصبُّ، والسَّيلان، قال تعالى: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾، وإنَّما سُمِّي الزنى سفاحاً؛ لأنَّ الزاني لا غرض له إلا صب النُّطفة، ومنه قول النبي ﷺ حين سمع الدفاف في عرسٍ: «**هَذَا النِّكَاحُ، لَا السِّفَاحُ، وَلَا نِكَاحُ السِّرِّ**».

﴿فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾: الاستمتاع: التلذُّذ. والأجور: المهور، وسمِّي المهر أجراً؛ لأنَّه أجر الاستمتاع. وهذا نصٌّ في أنَّ المهر يسمى أجراً، ودليلٌ على أنَّه في مقابلة البضع؛ لأنَّ ما يقابل المنفعة يُسمَّى أجراً. واختلف في معنى الآية، فقال الحسن، ومجاهد، وغيرهما: المعنى: فما أنفقتم، وتلذَّذتم بالجماع من النِّساء بالنكاح الصَّحيح. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، فالمهر بدل المنافع ليس بدل الأعيان، كما سمِّي بدل الدَّار، والدَّابة أجراً.

وقال قوم: المراد من الآية نكاح المتعة، وهو أن ينكح امرأة إلى مدَّةٍ معلومة بشيءٍ معلوم، فإذا انقضت تلك المدَّة؛ بانت منه بغير طلاقٍ، ويستبرئ رحمها، وليس بينهما ميراث، وكان هذا في ابتداء الإسلام، ثمَّ نهى رسول الله ﷺ عن المُتعة، فحرَّمها. ففي صحيح مسلم عن الربيع بن سبرة بن معبد الجهني عن أبيه: أنَّه غزا مع رسول الله ﷺ يوم فتح مكة، فقال ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي كُنْتُ أَذِنْتُ لَكُمْ في الاسْتِمْتَاعِ بالنِّسَاءِ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ ذَلِكَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شيءٌ؛ فَلْيُخَلِّ سَبِيلَهُ، وَلَا تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شيئاً**». وإلى هذا ذهب جمهور العلماء من الصَّحابة، فَمَنْ بعدهم. وعن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، قال: نهى رسول الله ﷺ عن مُتْعَةِ النساء يوم خيبر، وعن أكل لحوم الحُمُر الإنسية. وفي روايةٍ: الأهلية. أخرجه البخاريُّ، ومسلم.

واختلفت الرِّوايات عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في المُتعة، فروي عنه: أنَّ الآية محكمة. وكان يُرَخِّص في المتعة، قال عمارة: سألت ابن عباس عن المتعة، أسفاح هي أم نكاح؟ فقال: لا سفاح، ولا نكاح، قلت: فما هي؟ قال: متعة؛ قال تعالى: ﴿فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ﴾. قلت: هل لها عدَّة؟ قال: نعم حيضة، قلت: هل يتوارثان؟ قال: لا. وروي: أنَّ النَّاسَ لما ذكروا، وتذاكروا فتيا ابن عباس بالمتعة؛ حتَّى قال أحدُ الشُّعراء: [البسيط]

أَقُولُ لِلرَّكْبِ إِذْ طَالَ الثَّوَاءُ بِنَا ... يَا صَاحِ هَلْ لَكَ فِي فُتْيَا ابْنِ عَبَّاسِ؟
فِي بَضَّةٍ رَخْصَةِ الأَطْرَافِ نَاعِمَةٍ ... تَكُونُ مَثْوَاكَ حَتَّى مرجعِ النَّاسِ

قال: قاتلهم الله! أنا ما أفتيت بإباحتها على الإطلاق، لكن قلت: إنَّما تحلُّ للمُضطر كما تحلُّ الميتة له. وروي: أنَّه رجع، وقال بتحريمها. روى عطاء الخُراساني عن ابن عباس: أنَّها صارت منسوخةً، بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾. وروى سالم بن عبد الله بن عمر: أنَّ عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ صعِد المنبر، فحمد الله ، وأثنى عليه، ثمَّ قال: ما بال أقوام ينكحون هذه المتعة، وقد نهى رسول الله ﷺ عنها؟ لا أجد رجلاً نكحها إلا رجمتُه بالحجارة. وقال: هدم المُتعةَ النكاحُ، والطلاقُ، والعدَّة، والميراث. وهذا ما اتفق المسلمون عليه جيلاً بعد جيل، وقبيلاً بعد قبيل، وآخر مَنْ تكلَّم بحلِّها من المسلمين المأمون الخليفة العباسي، وهو ما يلي:

فقد روي: أنَّه أباحَها للمجاهدين، وهم بعيدون عن أهليهم، فدخل عليه العالم الجليل يحيى بن أكثم ـ رحمه الله تعالى ـ وهو يرتعد غضباً، فقال المأمون: ما للإمام يشتاط غضباً؟ فقال الإمام العظيم: كيف لا وقد انتهكت حُرماتُ اللهِ، وأُحِلَّ ما حرَّم الله، ورسولُه؟! قال المأمون: ومَنْ فعل ذلك؟ فقال: أميرُ المؤمنين فعلَ ذلك. قال: وكيف كان ذلك؟! قال: ألم تحل المتعة؛ وقد حرَّمها الله ، ورسولُه إلى يوم القيامة؟ قال: أليست تحلُّ بعقدٍ شرعيٍّ، ومهرٍ، ورضاً،

واختيارٍ، مع رشدٍ، وعقلٍ؟! قال: يا أمير المؤمنين! فالله يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ أهي زوجة ترث، وتورث؟ قال: لا. قال: أيلحق الولد بالمتمتع إذا كان بعيداً عن البلد المتمتَّع بها؟ قال: لا، قال: فإذاً محرَّمةٌ إذا كانت ليست زوجة بالمعنى الصحيح، ولا أمةً بملك اليمين. فرجع المأمون عن تحليلها، واستغفر اللهَ.

بعد هذا أقول: تأباها المروءة، والشَّرف، فأيُّ رجلٍ فيه شيءٌ من ذلك، ثمَّ هو يرضى بأن يعطي أخته، أو بنته لشخصٍ أياماً معدودة، ثم هو يردُّها له، وقد تكون حملت منه بولدٍ؟! ثمَّ ما مصير هذا الولد؟ هل هو لقيط، أو ابن زنى، أو هو ولد شرعي، فيجب أن يرث من والده، وينتسب إليه؟! وهل يتأتَّى هذا في نكاح المتعة؟.

﴿فَرِيضَةً﴾: لازمة، وواجبة. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ﴾: اختلفوا فيهنَّ، فَمَنْ حمل ما قلتُه على نكاح المتعة قال: أراد أنَّهما إذا عقدا عقداً إلى أجلٍ على مال، فلمَّا تمَّ الأجل، فإن شاءت المرأة؛ زادت في الأجل، وزاد الرَّجل في الأجر، وإن لم يتراضيا؛ فارقها، وقد تقدَّم: أنَّ ذلك كان جائزاً، ثمَّ نُسِخَ، وحَرُم. ومَنْ حمل الآية على الاستمتاع بالنِّكاح الصحيح؛ قال: المراد بقوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ﴾ يعني: من الإبراء من المهر، والافتداء، والاعتياض. وقال الزجَّاج: معناه: لا جُناح عليكم أن تهب المرأة للزَّوج مهرها، وأن يهب الرَّجل المرأة التي لم يدخل بها نصف المهر؛ الذي لا يجب عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾: بما يصلحكم أيها الناس في مناكحكم، وغيرها من سائر أموركم. ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبَّر لكم من التدبير، وفيما أمركم به، ونهاكم عنه، ولا يدخل حكمه خللٌ، ولا زللٌ، والحمد لله!.

الإعراب: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ﴾: الواو: حرف عطف. (المحصنات): معطوف على: ﴿أُمَّهَٰتُكُمْ﴾ في الآية السابقة عطف مفرد على مفرد، أو هو نائب فاعل لفعل محذوف، التقدير: وحرمت عليكم المُحصنات، فيكون العطف عطف جملة فعلية على مثلها. ﴿مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾: متعلقان بـ(المحصنات) لأنَّه صيغة مفعول. وقيل: متعلقان بمحذوف حال منه. ﴿إِلَّا﴾ أداة استثناء. ﴿مَا﴾: مبنية على السكون في محل نصب على الاستثناء، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿مَلَكَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿أَيْمَٰنُكُمْ﴾: فاعل، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: إلا الذي. أو إلا شيئاً ملكته أيمانكم، وعلى اعتبار ﴿مَا﴾ مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر، والمصدر يؤوَّل بصيغة المفعول في محلِّ نصب على الاستثناء؛ إذ التقدير: إلا مملوكة أيمانكم.

﴿كِتَٰبَ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، دلَّ عليه: ﴿حُرِّمَتْ﴾ في الآية السابقة، أو المقدَّر قبل (المحصنات). و﴿كِتَٰبَ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله.

﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾ جار ومجرور متعلقان بالفعل المقدر، والجملة الفعلية على هذا مستأنفة، لا محلَّ لها. هذا؛ وقال الزجَّاج، والكوفيُّون: ﴿عَلَيۡكُمۡۚ﴾: اسم فعل أمر، فهو إغراء، و﴿كِتَٰبَ﴾: مفعول به مقدَّم له. وهو غير مسلَّم، فإنَّ الإغراء لا يجوز فيه تقديم معموله عليه، فلا يقال: زيداً عليك، وزيداً دونك، بل يقال: عليك زيداً، ودونك عمراً. وهناك مَنْ يقول: هو منصوب بفعل محذوف، التقدير: الزموا كتاب الله. هذا؛ وقرأ أبو حيوة، وابن السميقع: (كَتَبَ اللهُ عَلَيْكُم) على الفعل الماضي المسند إلى اسم الله تعالى، والمعنى: كتب الله عليكم ما قصَّه من التحريم.

﴿وَأُحِلَّ﴾: الواو: حرف عطف. (أحل): فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لَكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مَّا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع نائب فاعل: (أُحِلَّ) والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها، وعليه فـ﴿كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ معترض بين الجمل المتعاطفة، لا محلَّ له. ﴿وَرَآءَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة الموصول، و﴿وَرَآءَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكُمۡ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جَرٍّ بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿أَن تَبۡتَغُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤوَّل منهما في محل جرٍّ بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: لأن، أو بأن تبتغوا، وجوز اعتبار المصدر بدلاً من: ﴿مَّا﴾. وأرى صحة اعتبار المصدر في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هو ابتغاؤكم، وهذه الجمل يجوز اعتبارها حالاً من: ﴿مَّا﴾ أو مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿بِأَمۡوَٰلِكُم﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿مُّحۡصِنِينَ﴾: حال من واو الجماعة. ﴿غَيۡرَ﴾: حال ثانية، وهو مضاف، و﴿مُسَٰفِحِينَۚ﴾: مضاف إليه، وعلامة النصب في الأول، وعلامة الجر في الثاني الياء؛ لأنَّهما جمعا مذكر سالمان، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد.

﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (ما): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به. ﴿مِنۡهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف حال من الهاء العائدة إلى (ما) و(مِنْ) بيان لما أبهم فيها، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ﴾: الفاء واقعة في جواب الشرط. (آتوهن): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله الأول، والنون حرف دال على جماعة الإناث. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول به ثان، والهاء في محل جر بالإضافة، وخبر المبتدأ الذي هو (ما) مختلفٌ فيه، كما رأيت في الآية رقم [١٤]، والجملة الفعلية: (آتوهن...) إلخ في محلِّ جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها. هذا؛ ويجوز اعتبار (ما) موصولة بمعنى اللاتي، وعليه فجملة ﴿ٱسۡتَمۡتَعۡتُم﴾ صلته، وجملة: ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ...﴾ إلخ خبره، ودخلت الفاء

على الخبر، وهي زائدة؛ لأنَّ الموصول يشبه الشرط في العموم، وعلى الوجهين فالجملة الاسمية مستأنفةٌ، لا محلَّ لها.

﴿فَرِيضَةً﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: أجورهنَّ التي فرضتم لهنَّ، وهذه الجملة المقدَّرة صلة الموصول المقدَّر. وقيل: إنَّه حال مِنْ: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ فتكون بمعنى: مفروضةً. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿جُنَاحَ﴾ اسمها مبني على الفتح في محلِّ نصب. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف خبر: (لا). ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بالخبر المحذوف. ﴿تَرَاضَيْتُم﴾: فعل وفاعل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة (ما) على اعتبارها موصولة، أو صفتها على اعتبارها موصوفة، والعائد، أو الرابط: الضمير المجرور بالباء. ﴿مِنۢ بَعْدِ﴾: متعلِّقان بمحذوف حال من الضمير المجرور محلاً بالباء، والعامل: ﴿تَرَاضَيْتُم﴾، أو بمحذوف حال من (ما) وتكون ﴿مِنۢ﴾ بياناً لما أبهم فيها، والعامل هو الاستقرار المحذوف، و﴿بَعْدِ﴾: مضاف، و﴿ٱلْفَرِيضَةِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية: ﴿وَلَا جُنَاحَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ...﴾ إلخ: انظر الآية السابقة.

﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا﴾أي: لم يجد غنىً، وسعة، ومالاً يتزوَّج به النساء الحرائر المؤمنات. وسمِّي الغنى، والمال: طولاً؛ لأنَّه ينال به مِنَ المُراد ما لا ينال مع الفقر، والضيق في العيش. والطَّوْل المراد به هنا: مؤن الزَّواج، والنفقات المتعلِّقة به. ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ أي: فلينكح الإماء عند العجز عن تكاليف نكاح الحرَّة. والمراد: جارية أخيه المسلم، فإنَّ الإنسان لا يجوز أن يتزوَّج جارية نفسه بعقدٍ، بل يطؤها بملك اليمين من غير عقدٍ عليها. والخطاب لمن أراد الزواج بالأمة هو مثل قول الرَّسول ﷺ في حجَّة الوداع: «**إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ**». ﴿مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أي: من المسلمات، لا من فتيات غيركم، والفتيات الجواري: المملوكات، جمع: فتاة، يقال للأمة صغيرةً وكبيرة: فتاة، وللعبد صغيراً

وكبيراً: فتى، وأمَّا الأحرار؛ فلا يقال للذَّكر فتى، وللأنثى فتاة إلا إذا كانا شابَّين، وفي الحديث الصَّحيح عن النبي ﷺ قال: «**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي، وَأَمَتِي، ولَكِنْ لِيَقُلْ: فَتَايَ، وفَتَاتِي**».

وإنَّما كان نكاح الأمة منحطّاً عن نكاح الحرَّة لما فيه من إتباع الولد لأمِّه في الرقِّ، ولثبوت حقِّ السيِّد فيها، وفي استخدامها، ولأنَّها ممتهنةٌ مبتذلةٌ، خارجةٌ، ولَّاجةٌ، وذلك كله نقصانٌ راجعٌ إلى النَّاكح، ومهانته، والعزَّة والكرامة من صفات المؤمنين.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِكُمْ﴾ المعنى: إنَّ الله أعلم بتفاصيل ما بينكم وبين أرقائكم في الإيمان، ورجحانه، ونقصانه فيهم، وفيكم، وربما كان إيمان الأمة أرجح مِنْ إيمان الحرَّة، والمرأة أفضل في الإيمان من الرَّجل، وحقُّ المؤمنين ألا يعتبروا إلا فضل الإيمان، لا فضل الأحساب، والأنساب، وهذا تأنيسٌ بنكاح الإماء، وترك الاستنكاف منه.

﴿بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ أي: إنَّكم كلَّكم من نفس واحدة، فلا تستنكفوا من نكاح الإماء عند الضرورة. وإنَّما قيل لهم ذلك؛ لأنَّ العرب كانت تفتخر بالأنساب، والأحساب، ويسمُّون ابن الأمة: الهجين، إذا كانت الأمة ملكاً للواطئ، وإذا لم تكن ملكاً له؛ فولدُها رقيقٌ مثلها، فأعلم الله: أنَّ ذلك أمر لا يلتفت إليه، فلا يتداخلنَّكم شموخٌ، وأنفةٌ من التزويج بالإماء، فإنَّكم متساوون في النَّسب إلى آدم. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد الله : أنَّ المؤمنين بعضهم أكفاء بعض.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ﴾ أي: اخطبوا الإماء إلى ساداتهنَّ: فدلَّ على أنَّ السيِّد هو ولي أمته، لا تزوج إلا بإذنه، وكذلك العبد لا يزوِّج نفسه. فعن نافع: أنَّ ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أخذ عبداً له نكح بغير إذنه، فضربه الحدَّ، وفرَّق بينهما، وأبطل صداقها؛ لأنَّه كان يرى نكاح العبد بغير إذن وليه زنىً. وقال عبد الرزاق: أخبرنا ابن جريج عن عبد الله بن محمَّد بن عقيل، قال: سمعت جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ يقول: قال رسول الله ﷺ: «**أَيُّمَا عَبْدٍ نَكَحَ بِغَيْرِ إِذْنِ سَيِّدِهِ فَهُوَ عَاهِرٌ**». فإنْ كان مالك الأمة امرأةً زوَّجها مَنْ يزوِّج المرأة بإذنها، قال رسول الله ﷺ: «**لا تُزَوِّجُ المَرْأَةُ الْمَرْأَةَ، وَلَا الْمَرْأَةُ نَفْسَها، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا**». هذا؛ وذكرت لك في الآية رقم [٢٢١] من سورة (البقرة) قول الرَّسول ﷺ: «**لا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ، وَشَاهِدَي عَدْلٍ**». انظرها هنالك؛ تجدْ ما يسرُّك، ويثلج صدرك. ويحتجُّ أبو حنيفة في الآية، فيقول: إنَّ لهنَّ أن يباشرن العقد بأنفسهن؛ لأنَّه اعتبر إذن الولي في نكاحهنَّ لا عقدهنَّ، وهو مخالف لرأي الجمهور، كما رأيت فيما تقدم.

﴿وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: أي: وأدُّوا إليهن مهورهن بغير مطل، وضرار، وإحواج إلى الاقتضاء واللزوم، وإنَّما أضاف الأجور، أي المهور إلى الإماء، والواجب أداؤها إلى أسيادهن، لا إليهن؛ لأنَّهن وما في أيديهن مال أسيادهن، فكان أداؤها إليهن أداء إلى السيد، أو هو على حذف مضاف، أصله: فآتوا مواليهن.

﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾: عفائف شريفات. ﴿غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: غير زانيات، وبين الكلمتين طباق وهو من المحسِّنات البديعية. ﴿وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍۚ﴾: زانيات سرّاً، والأخدان جمع: خدن، وهو الصَّديق في السِّرِّ. ﴿فَإِذَآ أُحْصِنَّ﴾: زوجن. وقيل: أسلمن، والأول أولى. ﴿فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ﴾أي: بزنى. وسمي الزنى فاحشة لفحشه؛ لأنَّه لم تبحه ديانة من الدِّيانات. وذكرت ما فيه الكفاية بشأن الزنى في سورة (الإسراء) وغيرها. ﴿فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾ أي: من الحدِّ الذي على الحرائر. والجمهور على أنَّ الأمة إذا زنت فعليها خمسون جلدة، سواءٌ أكانت مسلمة، أو كافرة، مزوَّجة، أو بكراً، مع أنَّ مفهوم الآية يقتضي: أنَّه لا حدَّ على غير المحصنة من الإماء، وقد قال الجمهور: المنطوق مقدَّمٌ على المفهوم، فمن المنطوق ما رواه مسلم في صحيحه عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه خطب، فقال: يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَقِيمُوا الحدَّ عَلَى إِمَائِكُمْ؛ مَنْ أُحْصِنَ منهنَّ، ومن لَمْ يُحْصَنْ، فَإِنَّ أمةً لرسول الله ﷺ زنت، فأمرني أن أجلدها، فإذا هي حديثة عهد بنفاس، فخشيت إن جلدتها أن أقتلها، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «**أَحْسَنْتَ! اتْرُكْهَا حَتَّى تَتَمَاثَلَ**». وفي روايةٍ: «**فَإِذَا تَعَافَتْ مِنْ نِفَاسِهَا، فَاجْلِدْهَا خَمْسِينَ**».

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا زَنَتْ أَمَةُ أَحَدِكُمْ، فَتَبيَّنَ زِنَاهَا؛ فَلْيَجْلِدْهَا الْحَدَّ، وَلَا يُثَرِّبْ عَلَيْهَا**[1]**، ثُمَّ إِنْ زَنَتْ؛ فَليجلدها الحدَّ، ولا يُثَرِّب عليهَا، ثم إنْ زَنَت الثالثةَ، فَتَبَيَّن زناها؛ فَلْيَبِعْهَا وَلَوْ بِحَبْلٍ مِنْ شَعْرٍ**». أخرجاه في الصَّحيحين.

﴿ذَٰلِكَ﴾: أي: التَّرخيص في نكاح الإماء عند فقد الحرَّة، أو عند فقد مؤنتها. ﴿لِمَنْ خَشِيَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْۚ﴾ العنت: المشقة، والتضييق، قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ﴾، وقال تعالى في سورة (آل عمران) محذِّراً المؤمنين من الكافرين، والمنافقين: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ﴾ والمراد به هنا: الزِّنى. والعنَت في الأصل: انكسار العظم بعد الجبر، فاستعير لكلِّ مشقَّةٍ، وضررٍ، ولا ضرر أعظم من مواقعة الإثم بأفحش القبائح، وهو الزنى؛ لما يجرُّ مِنَ الحدِّ في الدُّنيا، والعقاب الشديد في الآخرة. هذا؛ و﴿خَشِيَ﴾ مضارعه: يخشَى، والمصدر: خشية، والرَّجل خشيان، والمرأة خَشْيَا، وهذا المكان أخشى مِنْ ذاك، أي: أشد خوفاً، وقد يأتي «خشي» بمعنى عَلِمَ القلبية، قال الشاعر المُسلم: [الطويل]

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنَّ مَنْ تَبِعَ الْهُدَى ... سَكَنَ الْجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

قالوا: معناه: علمتُ، وقوله تعالى في سورة (الكهف) حكاية عن قول الخضر ـ عليه السلام ـ: ﴿فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ قال الأخفش: معناه: كرهنا. هذا؛ والخشية أصلها: طمأنينة في القلب، تبعثُ على التوقِّي. والخوف: فزع القلب تخفُّ له الأعضاء، ولخفَّة الأعضاء سمِّي: خوفاً.

---

(١) لا يُثَرِّبُ عليها: أي لا يوبِّخها، ولا يُقَرِّعها بالزنى بعد الضرب. (النهاية).

هذا؛ ويفهم من الآية الكريمة: أنَّ نكاح الأمة مشروط بشرطين: العجز عن نكاح الحرَّة، وخوف الزنى. والحمد لله رب العالمين حيث أُلغي الرقُّ. ولم يبق للإماء وجودٌ، ولكن لا بدَّ من القول: إنَّه قد حلَّ محل الإماء الآنسات، وبنات العوائل كما يسمُّونه في هذا العصر، فهن القينات، والمغنِّيات، والرَّاقصات، والخالعات، والهالعات المبتذلات.

﴿وَأَن تَصْبِرُوا﴾ أي: وصبركم عن نكاح الإماء متعفِّفين خيرٌ لكم. قال النبيُّ ﷺ: «**الْحَرائِرُ صَلَاحُ الْبَيْتِ، والإِمَاءُ هَلَاكُهُ**». رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ، ورواه أبو إسحاق الثَّعلبي. وهذا يعني: أنَّ الصبر على العزوبة خيرٌ من نكاح الأمة؛ لأنَّه يُفضي إلى إرقاق الولد، والغضِّ من النَّفس، والصَّبرُ على مكارم الأخلاق أولى مِنَ البذالة.

هذا؛ والصبر: حبس النفس عن الجزع عند المصيبة، وحبس اللِّسان عن الشَّكوى، وحبس الجوارح عن التَّشويش، وهو مرُّ المذاق، يكاد لا يُطاق، إلا أنَّه حلو العواقب، يفوز صاحبه بأسنى المطالب، كما قال القائل: [البسيط]

الصَّبْرُ مِثْلُ اسْمِهِ مُرٌّ مذَاقَتُهُ ... لَكِنْ عَوَاقِبُهُ أَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ

وبالجملة فنفع الصبر مشهور، والحضُّ عليه في الكتاب، والسُّنة مقرَّرٌ مسطورٌ، وهو على ثلاثة أنواع: صبرٌ على الطاعة، وصبرٌ عن المعصية، وصبرٌ على البلاء، ولا تنسَ: أنَّ مِنْ أسماء الله: الصَّبور، وفُسِّر بالذي لا يعجل بالعقوبة على مَنْ عصاه. هذا؛ وقد قال تعالى في سورة (الرَّعد) رقم [٢٢]: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أي: طلباً لمرضاته، وهذا هو الصبر المحمود، وهو أن يكون الإنسان صابراً لوجه الله تعالى، راضياً بما نزل به من الله. طالباً بذلك الصبر ثواب الله تعالى، محتسباً أجره على الله. فهذا هو الصبر الذي يُدخل صاحبه رضوان الله. وأمَّا إذا صبر العبد؛ ليقال: ما أعظم صبره! وما أشدَّ قوَّته على تحمُّل النوائب! أو يصبر لئلا يُعاب على الجزع، أو يصبر لئلا تشمت به الأعداء، فهذا كلُّه مذمومٌ، ولا يُنيل صاحبه الدَّرجات العُلى، والمقام الرَّفيع عند الله، وقد يعرِّضه لشديد غضب الله، ونقمته.

هذا؛ والصَّبر على أنواع: الصَّبر عن المعصية، وله ثلاثمئة درجة، والصَّبر على الطاعة، وله ستمئة درجة، والصَّبر على البلاء، وله تسعمئة درجة في الجنَّة، لكن ذلك لا يكون إلا بالصَّبر عند الصَّدمة الأولى، كما روى البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ عن أنس ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ: أنَّه قال: «**إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُوْلَى**». وأخرجه مسلم بأتمَّ منه، وقال الأستاذ أبو علي: الصَّبر حدُّه: ألا تعترض على التَّقدير، فأمَّا إظهار البلوى على غير وجه الشَّكوى؛ فلا ينافي الصَّبر. قال تعالى في سورة قصَّة أيوب ـ على نبيِّنا، وعليه ألف صلاةٍ، وألف سلام ـ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ بعد أن أخبر عنه: أنَّه قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾.

ثمَّ اعلم: أنَّ الصبر ذُكر في القرآن الكريم في خمسةٍ وتسعين موضعاً، ومِنْ أجمعها الآية رقم [١٥٥] من سورة (البقرة) وما بعدها: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ...﴾ إلخ: ومن آنقها قوله تعالى في سورة (صّ) في حقِّ أيوب ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ﴾ حيث قرن هاء الصَّبر بنون العظمة. ومن أبهجها قوله تعالى في سورة (الرعد): ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾. ومن أعظمها بشارةً قوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [١٠]: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فائدة: قال الله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾: وقال جل ذكره: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾، وقال تعالى شأنه: ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ قالوا: الصبر الجميل هو الذي لا شكاية معه، والصفح الجميل هو الذي لا عتاب معه، والهجر الجميل هو الذي لا أذية معه.

الإعراب: ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَسْتَطِعْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾ وهو في محلِّ جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلّقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلِّقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر، و(مِنْ) بيان لما أبهم في (مَنْ). ﴿طَوْلًا﴾: مفعول به. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَنكِحَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والمصدر المؤول منهما في محلِّ نصبٍ مفعول به لـ﴿طَوْلًا﴾ أو هو بدل من: ﴿طَوْلًا﴾ بدل كلٍّ مِنْ كُلٍّ، أو في محل جر بحرف جر بمحذوف، يقدر بـ «إلى» أو بلامِ التعليل، وعلى الاعتبارين فالجار والمجرور متعلِّقان بمحذوف صفة: ﴿طَوْلًا﴾. هذا؛ وقيل: إنَّ ﴿طَوْلًا﴾ مفعول لأجله، كما قيل: مفعول مطلق لفعل محذوف، والمعتمد الأوَّل. ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾: صفة لموصوف محذوف، التقدير: أن ينكح النِّساء المحصنات. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: صفة ثانية، فهما منصوبان، وعلامة نصبهما الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّهما جمعا مؤنث سالمان. ﴿فَمِن مَّا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (مِنْ مَا): متعلّقان بفعل محذوف، التقدير: فلينكح مِنْ ما. . .إلخ. وقيل: هما متعلِّقان بمحذوف صفة لموصول محذوف، التقدير: فلينكح امرأةً كائنة مِمَّا. وقيل: متعلّقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالمنكوحة مِمَّا. . .إلخ. والكلام على جميع الاعتبارات في محلِّ جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ له؛ لأنَّه لم يحلَّ محلَّ المفرد. ﴿مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم﴾: انظر إعراب هذه الجملة في الآية السابقة، ومحلَّها، وما ذكرته فيها. ﴿مِّن فَتَيَاتِكُمُ﴾: متعلّقان بمحذوف حال من مفعول: ﴿مَلَكَتْ﴾. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾: صفة لما قبله. وقيل: هو صفة لموصوف محذوف واقع مفعولاً به للفعل المقدَّر، التقدير: من فتياتكم الفتيات المؤمنات، وفيه تكلُّف لا يخفى، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشرط. وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح لدى المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت: (مَنْ) اسماً موصولاً؛ فهو مبتدأ،

والجملة بعده صلته، والجملة المقدَّرة على جميع الاعتبارات خبره، وتكون الفاء زائدةً في الخبر؛ لأنَّ الموصول يشبه الشرط في العموم، والكلام مستأنفٌ لا محلَّ له.

﴿وَٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿أَعْلَمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال مِنْ كاف الخطاب، والرَّابط: الواو، والضمير، أو هي مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿بِإِيمَٰنِكُمْۚ﴾: متعلِّقان بـ﴿أَعْلَمُ﴾ والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بَعْضُكُم﴾: مبتدأ، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿مِّنۢ بَعْضٍۚ﴾: متعلِّقان بمحذوف خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال مِنْ كاف الخطاب، والرابط: الضمير، أو هي مستأنفة؛ لا محلَّ لها.

﴿فَٱنكِحُوهُنَّ﴾: الفاء حرف عطف. على رأي مَنْ يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها للسَّببية المحضة، وأراها الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرط مقدَّر. (انكحوهن): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعل، والهاء في محل نصب مفعول به، والنون فيه وما في بعده حرف دال على جماعة الإناث، والجملة الفعلية لا محلَّ لها على جميع الوجوه المعتبرة في الفاء. ﴿بِإِذْنِ﴾: متعلِّقان بما قبلهما، و(إذن) مضاف، و﴿أَهْلِهِنَّ﴾: مضاف إليه مِنْ إضافة المصدر لفاعله، والهاء في محلِّ جرٍّ بالإضافة. ﴿وَءَاتُوهُنَّ﴾: فعل أمر، وفاعله، ومفعوله، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿أُجُورَهُنَّ﴾: مفعول به ثان، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿بِٱلْمَعْرُوفِ﴾: متعلِّقان بمحذوف حال من: ﴿أُجُورَهُنَّ﴾. ﴿مُحْصَنَٰتٍ﴾: حال من الضمير المنصوب، وعلامة نصبه الكسرة... إلخ. ﴿غَيْرَ﴾: حال أخرى من الضمير، و﴿غَيْرَ﴾ مضاف، و﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾: مضاف إليه. ﴿وَلَا﴾: الواو حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿مُتَّخِذَٰتِ﴾: معطوف على: ﴿مُسَٰفِحَٰتٍ﴾، وهو مضاف، و﴿أَخْدَانٍۚ﴾: مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله،وفاعله مستتر فيه.

﴿فَإِذَآ﴾: الفاء: حرف استئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبنيٌّ على السكون في محل نصب. ﴿أُحْصِنَّ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على السكون، ونون النسوة نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿فَإِنْ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (إن): حرف شرط جازم. ﴿أَتَيْنَ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، ونون النسوة فاعله، والجملة الفعلية لا محلّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿بِفَٰحِشَةٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿فَعَلَيْهِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. (عليهن): جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿نِصْفُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿مَا﴾ اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾: متعلِّقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿مِنَ ٱلْعَذَابِۚ﴾: متعلِّقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور

قبلهما، و﴿مِنَ﴾: بيان لِمَا أُبهم في: ﴿مَا﴾، والجملة الاسمية: (عليهن نصف...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور... إلخ، و(إنْ) ومدخولها كلامٌ لا محلَّ له؛ لأنَّه جواب (إذا)، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنفٌ لا محلَّ له.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفعٍ مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿خَشِيَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) وهو العائد. ﴿ٱلْعَنَتَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها. ﴿مِنكُمْ﴾ جار ومجرور متعلقان بمحذوف في محل نصب حال من الفاعل المستتر، و﴿مِنَ﴾ بيان لما أبهم في: ﴿مَا﴾، والجملة الاسمية: ﴿ذَٰلِكَ...﴾إلخ مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿وَأَن﴾: الواو: واو الحال. (أن): حرف مصدري، ونصب. ﴿تَصْبِرُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ(أن) وعلامة نصبه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤوَّل منهما في محلِّ رفع مبتدأ. ﴿خَيْرٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الكاف المجرورة بـ(مِنْ)، والرَّابط: الواو، والضمير. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿خَيْرٌ﴾، والجملة الاسمية: ﴿وَٱللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. تأمَّل، وتدبَّر، وربُّك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي: يريد الله إنزال هذه الآيات من أجل أن يبيِّن لكم دينكم، ويوضِّح لكم شرعكم، ومصالح أموركم. وقيل: يبيِّن لكم ما يقرِّبكم منه، وما يحل لكم، وما يحرم عليكم، وذلك يدلُّ على امتناع خلوٍّ واقعةٍ عن حكم الله تعالى، كما قال تعالى في سورة (الأنعام): ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ أي: يرشدكم إلى شرائع مَنْ قبلكم في تحريم الأمَّهات، والبنات، والأخوات، فإنَّها كانت محرَّمةً على مَنْ قبلكم. وقيل: يرشدكم إلى ما لكم فيه مصلحة، كما بينه لِمَنْ كان قبلكم. وقيل: يهديكم مناهج مَنْ كان قبلكم من الأنبياء، والصَّالحين، والطُّرق التي سلكوها في دينهم؛ لتقتدوا بهم. ﴿وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: ويوفقكم للتَّوبة عمَّا كنتم عليه من مخالفة أوامر الله. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾: بمصالح عباده فيما يهمُّهم في أمر دينهم، ودنياهم. ﴿حَكِيمٌ﴾: فيما شرع لهم.

هذا؛ والإرادة: نزوع النَّفس، وميلها إلى الفعل، بحيث يحملها عليه، ويقال لِلقوَّة التي هي مبدأ النُّزوع، والأوَّل مع الفعل، والثَّاني قبله، وكلا المعنيين غيرُ مُتصوَّر اتصاف الباري تعالى

به، ولذا اختلف في معنى إرادته تعالى، فقيل: إرادته لأفعاله: أنَّه غير ساهٍ، ولا مُكْرَهٍ، ولأفعال غيره أمره بها. فعلى هذا لم تكن المعاصي بإرادته. وقيل: علمه باشتمال الأمر على النِّظام الأكمل، والوجه الأصلح، وانظر الآية رقم [٢٨].

هذا؛ و﴿سُنَنَ﴾ جمع: سنَّة، وهي الشريعة، والطريقة، قال خالد بن زهير الهذلي، وهو الشاهد رقم [٩٢٣]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

فَلَا تَجْزَعَنْ مِنْ سِيرَةٍ أَنْتَ سِرْتَهَا فَأَوَّلُ رَاضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُهَا

والسُّنَّة: الإمام المتَّبع المؤتم به، قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ في معلَّقته: [الكامل]

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لَهُمْ آبَاؤُهُمْ وَلِكُلِّ قَوْمٍ سُنَّةٌ وَإِمَامُهَا

والسنَّة: الأمة، والسُّنن: الأمم. قال المفضَّل، وأنشد: [البسيط]

مَا عَايَنَ النَّاسُ مِنْ فَضْلٍ كَفَضْلِهِمُ وَلَا رَأَوْا مِثْلَهُمْ فِي سَالِفِ السُّنَنِ

هذا؛ والسُّنَّة بمعنى الشَّريعة، والطريقة، تكون حسنةً إن كانت في الخير، وتكون سيئةً إن كانت في الشر، وخذ ما يلي: عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ سَنَّ خَيْراً فَاسْتُنَّ بِهِ؛ كَانَ لَهُ أَجْرُهُ، وَمِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ غَيْرَ مُنْتَقَصٍ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ سَنَّ شَرّاً، فَاسْتُنَّ بِهِ؛ كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهُ، وَمِثْلُ أَوْزَارِ مَنْ تَبِعَهُ غَيْرَ مُنْتَقَصٍ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئاً**». رواه الإمام أحمد، والحاكم عن حُذيفة ـ رضي الله عنه ـ. ورواه مسلم، وابن ماجه، والترمذي عن جرير بن عبد الله البجلي بأطول مِنْ هذا.

الإعراب: ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿لِيُبَيِّنَ﴾: في اللام أوجه: أحدها: أنَّها مزيدة في مفعول فعل الإرادة. قاله الزمخشري في غير هذا الموضع، وكأنَّ هذه اللام زيدت مع فعل الإرادة توكيداً له، لما فيها من معنى الإرادة. وقال ابن عطيَّة ـ رحمه الله تعالى ـ: اللام مؤكدة، دخلت على المفعول به؛ لأنَّ التقدير: يريد الله بما أنزل التَّبيين. وقيل: اللام لام التعليل، والفعل منصوب بـ«أن» مضمرة بعد لام التعليل، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بلام التعليل، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل قبلهما، وعليه فالمفعول محذوف، والتقدير: يريد الله بما أنزل التبيين. الثالث: أنَّها بمعنى «أن» الناصبة، وأنَّها نصبت الفعل بنفسها. قال الفرَّاء: العرب تجعل لام «كي» في موضع «أن» في: أراد، وأمر، وإليه ذهب الكسائي، وخطَّأ الزجَّاج هذا القول، وقال: لو كانت اللام بمعنى «أنْ» لدخلت عليها لام أخرى، كما تقول: جئت كي تكرمني، ثمَّ تقول: جئت لكي تكرمني، وأنشد قول قيس بن عبادة: [الطويل]

أَرَدْتُ لِكَيْمَا يَعْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ

قال: والتقدير: أراد الله به ليبيِّنَ لكم، ومثل هذه الآية الآية رقم [٣٢] من سورة (التَّوبة)، والآية رقم [٣٣] من سورة (الأحزاب)، والآية رقم [٧١] من سورة (الأنعام)، والآية رقم [٨] من سورة (الصف) ومثل ذلك قول كُثَيِّر عزَّة ـ وهو الشَّاهد رقم [٢٩٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أُرِيدُ لأَنْسَى ذِكْرَهَا فَكَأَنَّمَا تَمَثَّلُ لِي لَيْلَى بِكُلِّ سَبِيلِ

﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور، متعلِّقان بما قبلهما. ﴿وَيَهْدِيَكُمْ﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله، والفاعل يعود إلى: ﴿اللَّهُ﴾ والكاف مفعول به أول. ﴿سُنَنَ﴾: مفعول به ثان، وهو مضاف. و﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة. ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾: متعلِّقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَيَتُوبَ﴾: معطوف على ما قبله منصوب أيضاً، والفاعل يعود إلى: ﴿اللَّهُ﴾ أيضاً. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما، وتقدير الكلام بعد تأويل الأفعال بمصادر: يريد الله لكم التبيين، وهدايتكم إلى طرقِ مَنْ قبلكم، والتوبة عليكم. وجملة: ﴿يُرِيدُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها، والجملة الاسمية: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾: مستأنفة أيضاً.

﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾: كرَّره للتوكيد، وقال ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد أن يخرجكم من كل ما يكره إلى ما يحبُّ، ويرضى. وقيل: معناه: يدلُّكم على ما يكون سبباً لتوبتكم التي يغفر لكم بها ما سلف من ذنوبكم. ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ﴾: المراد بهم اليهود، والنصارى، والمجوس، فقد كانوا ينكحون الأخوات من الأب، وبنت الأخ، وبنت الأخت، فلمَّا حرَّمهن الله تعالى؛ قالوا: إنكم تحلُّون بنت الخالة، وبنت العمَّة، والخالة، والعمَّة عليكم حرام، فانكحوا بنت الأخ، وبنت الأخت، فنزلت الآية. وقيل: هم الزُّناة يريدون أن تكونوا مثلهم. هذا؛ و﴿الشَّهَوَاتِ﴾ جمع: شهوة، وهي حلال إن كانت ممَّا أباحه الشَّرع الشريف، وحرام إن كانت ممَّا حرَّمه الدِّين الحنيف.

﴿أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ أي: بموافقتهم على اتباع الشَّهوات، واستحلال المحرَّمات، فتكونوا مثلهم. هذا؛ والفعل «مال، يميل» من الأفعال التي يتغيَّر معناها بتغيُّر الجارِّ، فتقول: مِلْتُ عنه: إذا كرهته، وأعرضت عنه، وملتُ إليه: إذا أحببته، وأقبلت عليه. وانظر الآية رقم [١٢٧]: الآتية، ورقم [١٣٥].

الإعراب: (الله): مبتدأ. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله يعود إلى (الله). ﴿أَن يَتُوبَ﴾ فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، والفاعل يعود إلى (الله)، والمصدر المؤوَّل منهما في محلِّ نصبٍ

مفعول به، وجملة: ﴿يُرِيدُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿يَتَّبِعُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله. ﴿ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محلَّ لها. ﴿أَن تَمِيلُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والمصدر المؤوَّل منهما في محل نصب مفعول به. ﴿مَيۡلًا﴾: مفعول مطلق. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له.

تنبيه: إرادة الله الخير لعباده المؤمنين ثابتةٌ، وإرادة الفجرة، والكفرة الشرَّ للمؤمنين متجدِّدة في كلِّ وقتٍ، وحين. والأول مستفاد من الجملة الاسمية، والثاني مستفاد من الجملة الفعلية.

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴿٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ﴾أي: ليسهِّل عليكم أحكام الشَّرائع، فهو عامٌّ في كلِّ أحكام الشَّرع، وجميع ما يسَّره الله لنا، وسهَّله علينا، إحساناً منه إلينا، وتفضُّلاً، ولطفاً علينا، ولم يثقل التكاليف علينا، كما أثقلها على بني إسرائيل، فهو كقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾، وقوله تعالى في سورة (الحج): ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾. وكما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**بُعِثْتُ بِالْحَنِيفيَّةِ السَّمْحَةِ**».

فلذلك رخَّص لكم في المضايق، والأمور الشَّاقة، كإحلال نكاح الأَمة عند عدم القُدرة على نكاح الحرَّة، وكالإفطار في رمضان بسبب المرض، والسَّفر، وغير ذلك كثيرٌ ممَّا هو معلومٌ من الدِّين.

﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ والمعنى: أنَّ هواه يستميله، وشهوتُه، وغضبُه يستخفَّانه، وهذا أشدُّ الضَّعف، فاحتاج إلى التَّخفيف. وقال طاووس ـ رحمه الله تعالى ـ: ذلك في أمر النِّساء خاصَّةً. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّه قال: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ أي: لا يصبر عن النِّساء. وقال سعيد بن المسيب ـ رحمه الله تعالى ـ: لقد أتى عليَّ ثمانون سنةً، وذهبتْ إحدى عينيَّ، وأنا أعشو بالأخرى، وصاحبي أعمى، وأصَمُّ ـ يعني: ذكره ـ وإنِّي أخاف من فتنة النِّساء. قال عبادة بن الصَّامت ـ رضي الله عنه ـ: ألا تروني لا أقوم إلا رِفْداً، أي: إلا أنْ أُعَانَ على القيام، ولا آكل إلا ما لُوِّق لي، أي: لُيِّن، وسخِّن، وقد مات صاحبي منذ زمانٍ ـ يعني ذكره ـ وما يسرُّني أنِّي خلوت بامرأة لا يحلُّ لي ـ أي: الخلوة بها ـ وأنَّ لي ما تطلع عليه الشمس، مخافة أن يأتيني الشَّيطان، فيحركه، على أنَّه لا سمع له، ولا بصر. لذا حذَّر الرسول ﷺ من الخَلوة.

فعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ فَلا يَخْلُوَنَّ بامْرَأَةٍ لَيْسَ مَعها ذُو مَحْرَم مِنْهَا، فَإِنَّ ثَالِثَهُمَا الشَّيْطان**».

وقال ﷺ: «**مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ**».

وقال ﷺ: «**لا خَيْرَ في النِّسَاءِ، وَلَا صَبْرَ عَنْهُنَّ، يَغْلِبْنَ كَرِيماً، وَيَغْلِبُهُنَّ لَئِيمٌ، فَأُحِبُّ أَنْ أَكُونَ كَرِيماً مَغْلُوباً، وَلَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ لَئِيماً غَالِبَاً**».

هذا؛ وقيل: معنى: ﴿ضَعِيفًا﴾: أي: خلق الإنسان من شيء ضعيف، مِنْ طين، أو مِنْ نطفة، ثمَّ مِنْ علقة، ثم مِنْ مضغة. قال تعالى في سورة الرُّوم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾.

هذا؛ و﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾ كلمةٌ تُطلق على الذَّكر، والأنثى من بني آدم خاصَّةً، ومثلها: شخص، قال تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ ومعلومٌ: أنَّ الله لم يقصد الذكور خاصَّةً، والقرينة الآيات الكثيرة الدالة على أنَّ المراد: الذكر، والأنثى، واللام في الإنسان لام الجنس التي تفيد الاستغراق، ولذا صحَّ الاستثناء من الإنسان في سورة العصر. هذا؛ وإنسان العين هو المثال؛ الَّذي يرى فيها، وهو النقطة السَّوداء؛ التي تبدو لامعةً وسط السَّواد.

تنبيه: روي عن ابن عبَّاس ـ رضي الله عنهما ـ أنَّه قال: ثماني آياتٍ في سورة النساء، هي خير لهذه الأمة ممَّا طلعت عليه الشمس، وغربت: هذه الآيات الثلاث المذكورة تباعاً، وقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ...﴾ إلخ، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ...﴾ إلخ، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ...﴾ إلخ، و﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ...﴾ إلخ، و﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ...﴾ إلخ.

تنبيه: دلَّت الآيات الثلاث على أنَّ الله سبحانه وتعالى مريدٌ بإرادةٍ قديمةٍ زائدة على الذَّات. هذا مذهب أهل السنة، كما أنَّه جلَّت قدرته عالم بعلم، قادرٌ بقدرةٍ، حيٌّ بحياةٍ، سميعٌ يسمع، بصيرٌ يبصر، متكلِّم بكلام. وهذه كلُّها معانٍ وجوديَّةٌ أزليةٌ، زائدةٌ على الذَّات. وذهب المعتزلة، والشِّيعة إلى نفيها، والَّذي يقطع دابر هؤلاء أن يقال: لو لم يصدق كونه ذا إرادة؛ يصدق أنَّه ليس بذي إرادة، ولو صحَّ ذلك؛ لكان كل ما ليس بذي إرادة ناقصاً بالنسبة إلى مَنْ له إرادة، فلم يبقَ إلا أن يكون الذي لم يتَّصف بالإرادة أنقص ممَّا هو متَّصف بها، ولا يخفى ما فيه من المُحال، فإنَّه كيف يتصور أن يكون المخلوق أكمل مِنَ الخالق، والبديهة تقضي بردِّه، وإبطاله. وقد وصف الباري نفسه جلَّ جلاله، وتقدَّست أسماؤه بأنَّه مريد، فقال تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وقال جلَّ شأنه: ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ وانظر الآية رقم [٢٦].

الإعراب: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾: مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها، والمصدر المؤوَّل مِنْ: ﴿أَن يُخَفِّفَ﴾ في محل نصب مفعول به. ﴿عَنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿وَخُلِقَ﴾: الواو: واو الحال. (خلق): فعل ماض مبني للمجهول. ﴿ٱلْإِنسَـٰنُ﴾: نائب

فاعله. ﴿ضَعِيفًا﴾: حال من: ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾. وقيل: تمييز، والأوَّل أقوى، والجملة الفعلية في محل نصب حال من كاف الخطاب، والرابط: الضمير فقط، وقبلها «قد» مقدرة؛ لتقرِّب الماضي من الحال.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾: نادى الله عباده المؤمنين في هذه الآية بأكرم وصف، وألطف عبارة؛ أي: يا مَنْ صدّقتم بالله، ورسوله، وتحلَّيتم بالإيمان الَّذي هو زينة الإنسان. وقد خاطب الله عباده المؤمنين بهذا النداء في ثمانية وعشرين موضعاً من القرآن، وهذا ثاني نداء في هذه السُّورة، وخطاب خوطب به المؤمنون بالنداء الدالّ على الإقبال عليهم، ونداء المخاطبين باسم المؤمنين يذكرهم: أن الإيمان يقتضي من صاحبه أن يتلقَّى أوامر الله ، ونواهيه بحسن الطَّاعة، والامتثال. وإنَّما خصَّهم الله بالنداء؛ لأنَّهم هم المستجيبون لأمره، المنتهون عمَّا نهى عنه؛ إذ الغالب أن يتبع هذا النداء بأمرٍ، أو بنهي.

﴿لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم﴾: فقد أضاف الله الأموال إلى المخاطبين، والمراد أموال غيركم. فحذف المضاف، وأقام المضاف إليه مقامه، وفيه منتهى الزَّجر؛ لأنَّ الإنسان الكامل يجب عليه أن يحافظ على مال غيره، كما يحافظ على ماله من الضَّياع، والهلاك، وهذا من قبيل التعاون الذي حثَّ عليه ربُّنا، جلَّ وعلا، ونبينا ﷺ ذكر مثل ذلك في خطبة الوداع في حجَّة الوداع، فقال: «**إنَّ دِمَاءَكُمْ، وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ. . . إلخ**».

﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: بما لم يبحه الشَّرع الشَّريف، والدِّين الحنيف، وهو يعمُّ كلَّ مالٍ أُخذ بدون وجهٍ شرعيٍّ، وأبوابه كثيرةٌ متفرِّعة، ومتنوعة، أذكر منها على سبيل المثال ما أشاع الفساد، والضَّلال: الرِّبا بآثامه، وشروره، واستغلال النفوذ بأنواعه، وفُجوره، والرِّشوة بأنواعها، واحتكار البضائع لبيعها بثمن أعلى، وخزنها، وتصريفها بثمنٍ أغلى، والذين يأخذون معاشاتهم، ولا يؤدُّون أعمالهم، ويقبضون أجورهم، ويتهرَّبون مِنْ واجباتهم، والَّذين يسرقون، ويخونون، ويغشُّون، ويختلسون. ويدخل في ذلك: القِمار، والخِداع، والغصب، وجحد الحقوق، وما لا تطيب به نفس مالكه، كما يؤخذ بالحياء؛ إذ ما أخذ بالحياء؛ فهو حرام، أو حرَّمته الشريعة وإن طابت به نفس مالكه، مثل حلوان الكهَّان، والمنجِّمين، والمشعوذين، وأثمان الخمور، والخنازير، وأثمان المَلاهي الشَّاغلة عن ذكر الله تعالى، وربحها، بل وتجارتها حرامٌ، والغبن الفاحش في البيع والشراء، وأفحش ذلك أكل مال اليتيم بغير حقٍّ، كما رأيته في الآية رقم [١٠].

ومن الأكل بالباطل: أن يحكم الحاكم لكَ؛ وأنت تعلم أنَّك مبطل، فالحرام لا يصير حلالاً بقضاء الحاكم؛ لأنَّه يقضي بالظاهر. فقد روى الأئمَّة عن أمِّ سلمة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ، ولَعَلَّ بَعْضَكُمْ يَكُونُ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ، فَمَنْ قَطَعْتُ لَهُ مِنْ حَقِّ أَخِيْهِ شَيئاً؛ فَلَا يَأْخُذْهُ، فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنْ نَارٍ**». وفي رواية أخرى: «**فَلْيَحْمِلْهَا، أَوْ لِيَذَرْهَا**».

هذا؛ والباطل: ضد الحقِّ، والباطل بمعنى الفاسد، والبطلان عبارة عن عدم الشيء، إما بعدم ذاته، أو بعدم فائدته، ونفعه. هذا؛ و«بطل» من باب دخل، والبَطَل بفتحتين: الشجاع، والبُطْل: بضم فسكون: الباطل، والكذب، والزور، والبهتان، والبطالة: التعطُّل، والتفرُّغ من العمل، ومبطل: اسم فاعل مِنْ: أبطل الرُّباعي، والباطل في قوله تعالى في سورة (فصلت): ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ قال قتادة، والسُّدي: الباطل: الشَّيطان لا يستطيع أن يغيِّر في القرآن شيئاً، ولا يزيد، ولا ينقص منه، وقوله تعالى في سورة (الشورى): ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ الباطل: الشرك، والبطلة في قول الرَّسول ﷺ: «**لَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ**» أي: لا تستطيع قراءة سورة (البقرة) السَّحرة. هذا؛ ويجمع «باطل» على: أباطيل شذوذاً، كما شذَّ: أحاديث، وأعاريض، وأفاظيع في جمع حديث، وعريض، وفظيع. وفي القرطبي: وجمع الباطل: بواطل، والأباطيل جمع: البطولة، ولم أجده في كتب اللغة.

﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً﴾ أي: إلا أن تكون الأموال أموال تجارة، والتِّجارة في اللغة عبارة عن المعاوضة، ومنه: الأجر، والثواب؛ الَّذي يعطيه الله تعالى للعبد يوم القيامة عوضاً عن الأعمال الصَّالحة؛ التي هي بعضٌ من فعله. قال تعالى في سورة (الصف): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. وقال تعالى في سورة (فاطر): ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾. وقال تعالى في سورة (التوبة): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ...﴾ إلخ، فسمَّى الله ذلك كلَّه: بيعاً، وشراءً على سبيل المجاز. تشبيهاً بعقود البيع، والشراء؛ التي تحصل بها الأغراض، والمعاوضات. ﴿عَن تَرَاضٍ﴾: أي: عن طيب نفس كلِّ واحد من المتبايعين. وقيل: هو أن يخيِّر كلُّ واحد منهما صاحبه بعد البيع فيلزم، وإلا فلهما الخيار ما لم يتفرَّقا، لما روي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا تَبَايَعَ الرَّجُلَانِ؛ فَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِالْخِيَارِ، مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا، وَكَانَا جَمِيعاً، أَوْ يُخَيِّرُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، فَإِنْ خَيَّرَ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، فَتَبَايَعَا عَلَى ذَلِكَ؛ فَقَدْ وَجَبَ الْبَيْعُ، وَإِنْ تَفَرَّقَا بَعْدَ أَنْ تَبَايَعَا، وَلَمْ يَتْرُكْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا الْبَيْعَ؛ فَقَدْ وَجَبَ الْبَيْعُ**». رواه الشَّيخان، وغيرهما.

هذا؛ ومن هذه الآية الكريمة احتجَّ الشافعي ـ رضي الله عنه ـ على أنَّه لا يصحُّ البيع إلا بالإيجاب، والقبول؛ لأنَّه يدلُّ على التَّراضي نصَّاً بخلاف المُعاطاة، فإنَّها قد لا تدلُّ على

الرِّضا. وخالف الجمهور في ذلك: مالك، وأبو حنيفة، وأحمد ـ رضي الله عنهم ـ فرأوا: أنَّ الأقوال كما تدلُّ على التراضي، فكذلك الأفعال تدلُّ في بعض المَحَالِّ قطعاً، فصحَّحوا ببيع المعاطاة مطلقاً. هذا؛ وقد قال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾.

والرسول ﷺ رغب التُّجار في الصِّدق، والأمانة، وحذَّرهم من الكذب، والخيانة، فعن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**التَّاجِرُ الصَّدُوقُ الأمِينُ مَعَ النَّبِيِّين، والصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». رواه الترمذيُّ.

وعن عبد الرحمن بن شبل ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنَّ التُّجَّارَ هُمُ الفُجَّارُ**». قالوا: يا رسول الله! أليس قد أحلَّ الله البيع؟ قال: «**بَلَى: وَلكِنَّهم يَحْلِفُونَ، فَيأْثَمُونَ، وَيُحَدِّثُونَ، فَيَكْذِبُونَ**». رواه الإمام أحمد، والحاكم، وإنَّما قال ذلك؛ لأنَّهم أهل دينٍ واحد، فهم كنفسٍ واحدة. وصحَّ عن النَّبي ﷺ: أنه قال في حجَّة الوداع: «**ألَا لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي ضُلّالاً يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ**». وقيل: المعنى لا تقتلوا أنفسكم بارتكاب المعاصي، ويحتمل أن يكون المعنى: لا تقتلوا أنفسكم في حال ضجرٍ، أو غضبٍ. وقد احتجَّ عمرو بن العاص بهذه الآية حين بعثه النبي ﷺ في غزوة ذات السَّلاسل، فقال: احتلمت في ليلةٍ باردةٍ شديدةِ البرد، فأشفقت إن اغتسلت أنْ أهلك، فتيمَّمت، ثمَّ صلَّيت بأصحابي صلاة الصُّبح، فلمَّا قدمنا على رسول الله ﷺ ذكرت ذلك له، فقال: «**يَا عَمْرُو صَلَّيْتَ بأَصْحَابِكَ؛ وَأَنْتَ جُنُبٌ؟**» قلت: يا رسول الله إنِّي احتلمت في ليلةٍ باردةٍ شديدة البرد، فأشفقت إن اغتسلت أنْ أهلك! فذكرتُ قول الله عزَّ وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ فتيمَّمت، ثمَّ صليت. فضحك رسول الله ﷺ، ولم يقل شيئاً. رواه أحمد، وأبو داود، وانظر قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾ في سورة (البقرة) رقم [١٩٤] فله صلةٌ بهذه الآية.

هذا وأورد ابن مردويه عند هذه الآية قول الرسول ﷺ: «**مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيْهَا خَالِدَاً مُخَلَّدَاً فِيْهَا أَبَدَاً، وَمَنْ تَحسَّى سُمَّاً، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدَاً مُخَلَّدَاً فِيهَا أَبَدَاً، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ، فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجَأُ بِهَا في بَطْنِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدَاً مُخَلَّدَاً فِيهَا أَبَدَاً**». أخرجه الشَّيخان، وغيرهما عن أبي هريرة، رضي الله عنه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ يعني: إنَّ الله تعالى مِنْ رحمته بكم نهاكم عن كلِّ شيء تستوجبون به مشقة، أو محنة. وقيل: إنَّه تعالى أمر بني إسرائيل بقتل أنفسهم؛ ليكون ذلك توبةً لهم، وكان بكم يا أمَّة محمد رحيماً؛ حيث لم يكلفكم تلك التكاليف الشاقَّة الصَّعبة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: (يا) أداة نداء تنوب مناب: أدعو، أو: أنادي. (أيُّها): نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ(يا). (ها): حرف تنبيه لا محلَّ له، وأُقحم للتَّوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محلِّ جرٍّ بالإضافة؛ لأنَّه حينئذٍ يجب نصب المنادى. وانظر

الآية رقم [١] إن أردت الزيادة. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدلاً من (أيها)، وجملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ مع المتعلَّق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَأْكُلُوٓاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَا﴾ وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بَيْنَكُم﴾: ظرف مكان متعلِّق بما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بِٱلْبَٰطِلِ﴾: متعلِّقان بالفعل قبلهما أيضاً.

﴿إِلَّآ﴾: أداة استثناء منقطع بمعنى: لكن. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَكُونَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿تِجَٰرَةً﴾: يقرأ بالنصب على اعتبار الفعل ناقصاً، فيكون اسمه محذوفاً، التقدير: إلا أن تكون المعاملة تجارةً. ويقرأ بالرفع على اعتبار الفعل تامَّاً بمعنى: إلا أن تقع تجارةٌ، أو: إلا أن توجد تجارةٌ، مثل قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٨١]: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾، وقال الشاعر: [الطويل]

فِدىً لِبَنِي ذُهْلِ بْنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي إِذَا كَانَ يَوْمٌ ذُو كَوَاكِبَ أَشْهَبُ

و﴿أَن تَكُونَ﴾: في تأويل مصدر في محل نصب على الاستثناء المنقطع مِنْ: ﴿أَمْوَٰلَكُم﴾؛ لأنَّ التجارة ليست من جنس الأموال المنهي عن أكلها. ﴿عَن تَرَاضٍ﴾: متعلِّقان بمحذوف صفة: ﴿تِجَٰرَةً﴾ وعلامة الجر كسرة مقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين. ﴿مِّنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿تَرَاضٍ﴾. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾: إعراب هذه الجملة مثل ما قبلها، وهي معطوفة عليها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل... إلخ وإعرابُها ظاهرٌ.

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما سبق ذكره من قتل النفس المُحَرَّمة؛ لأنَّ الضمير يعود إلى أقرب مذكور. وقيل: إنَّه يعود إلى قتل النفس، وأكل المال بالباطل؛ لأنَّهما مذكوران في آيةٍ واحدة. وقيل: إنَّه يعود إلى كلِّ ما نهى الله عنه من أول السُّورة إلى هنا. ﴿عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا﴾ العدوان: تجاوز الحد، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وقيِّد الوعيد بذكر العدوان والظلم؛ ليخرج منه فعل السَّهو، والخطأ، وعطف (ظلماً) على ما قبله من تقارب معانيهما لاختلاف ألفاظهما، فهو من باب الترادف، كما قال عديُّ بن زيد العبادي ـ وهو الشاهد رقم [٦٦٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

وَقَدَّمَتِ الأَدِيمَ لِرَاهِشَيْهِ وَأَلْفَى قَوْلَهَا كَذِباً وَمَيْنَا

﴿فَسَوْفَ نُصْلِيهِ﴾: ندخله، فيحترق بحرِّ نار جهنم. فهذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيد، فليحذر منه كلُّ عاقلٍ لبيبٍ ممَّن ألقى السَّمع وهو شهيد. ويقرأ الفعل بفتح النون على أنَّه مأخوذ مِنْ: صَلِي نَاراً، وبضمِّها على أنَّه مأخوذ مِنْ: أَصْلَى، ويقرأ بالياء على أنَّ الفاعل يعود إلى الله. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: سهلاً ليناً هيناً؛ لأنَّ الله تعالى قادرٌ على كلِّ شيء، لا يُعجزه شيءٌ في الأرض، ولا في السماء.

الإعراب: ﴿وَمَن﴾: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محلِّ رفع مبتدأ. ﴿يَفْعَلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب مفعول به، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿عُدْوَٰنًا﴾: حال من فاعل: ﴿يَفْعَلْ﴾ المستتر، وهو مصدر بمعنى: معتدياً. وقيل: هو مفعول لأجله. (ظلماً): معطوف عليه. ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (سوف): حرف تسويف، واستقبال. ﴿نُصْلِيهِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: نحن، أو هو حسب القراءات، والهاء مفعول به أول. ﴿نَارًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه، كما رأيت في الآية رقم [٢٥]. ﴿وَكَانَ﴾: الواو: حرف استئناف. (كان): فعل ماض ناقص. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسمها. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلِّقان بما بعدهما. ﴿يَسِيرًا﴾: خبر كان، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها، واعتبارها حالاً من الضمير الواقع مفعولاً به فيه بُعْدٌ.

﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

الشرح: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾: اجتناب الشيء: المباعدة عنه، وتركه جانباً، والكبيرة: ما كبر، وعظم من الذُّنوب، وعظمت عقوبته. وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: الكبيرة: كل ذنب ختمه الله بنارٍ، أو غضبٍ، أو لعنةٍ، أو عذابٍ. وسئل ابن عباس عن الكبائر: أسبعٌ هي؟ قال: هي إلى السَّبعمئة أقرب، وفي روايةٍ: إلى السَّبعين أقرب، إلا أنَّه لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار. وقال: كلُّ شيء عُصي الله به فهو كبيرة، فمن عمل شيئاً؛ فليستغفر الله، فإنَّ الله لا يُخلِّد في النار مِنْ هذه الأمة إلا مَنْ كان راجعاً عن الإسلام، أو جاحداً فريضةً، أو مكذِّباً بقدَرٍ. وخذ ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قيل: يا رسول الله! وما هنَّ؟ قال: «**الشِّرْكُ باللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إلَّا بِالْحَقِّ،**

وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ، وأبو داود، والنَّسائيُّ.

هذا؛ والكبائر لا حدَّ لها، فهي كثيرة، مثل: الشرك، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، والزنى، واللِّواط، واليمين الغموس، والإضرار في الوصية، والغُلول. وفي كلِّ واحدة أحاديث تحذِّر من اقتحامها، وارتكابها. ويضاف إلى ذلك: أكلُ أموال الناس بالباطل، والإفطار في رمضان بلا عذرٍ، وقطع الرَّحم، والخيانة في الكيل، والوزن، وتأخير الصلاة عن وقتها بلا عذرٍ، وضرب المسلم بلا حقٍّ، والكذب على رسول الله ﷺ عمداً، وسب أصحابه، وكتمان الشَّهادة بلا عذرٍ، وأخذ الرِّشوة، والقوادة بين الرِّجال، والنساء، والسِّعاية عند السُّلطان، ومنع الزَّكاة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة عليه، ونسيان القرآن بعد تعلُّمه، وإحراق الحيوان بالنَّار، وامتناع المرأة من زوجها بلا سبب، واليأس من رحمة الله ، والأمن من مكر الله ، والوقيعة في أهل العلم، وحملة القرآن.

﴿نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي: نسترها عليكم؛ حتى تصير بمنزلة ما لم يعمل؛ لأنَّ أصل التكفير: السَّتر، والتغطية، فصغار الذنوب تكفَّر بالحسنات، ولا يكفِّر كبارها إلا التوبة والإقلاع عنها، كما ورد في الصحيح عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ، قال: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ، ورَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ؛ إِذَا اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ**». أخرجه مسلم. فقد ثبت بما تقدَّم من الأدلَّة: أنَّ الذنوب على قسمين: صغائر، وكبائر، وانظر قوله تعالى في سورة النَّجم: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ فإنَّه جيِّد، والحمد لله!.

هذا؛ والإصرار على الصَّغيرة كبيرةٌ، وخذ ما يلي:

فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ**». وإنَّ رسولَ اللهِ ﷺ: «**ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلاً، كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى جَمَعُوا سَوَاداً، وَأَجَّجُوا نَاراً، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا**». رواه الإمام أحمد، والطبراني، والبيهقي. وفي روايةٍ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ تُعْبَدَ الأَصْنَامُ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ، وَلَكِنَّهُ سَيَرْضَى مِنْكُمْ بِدُونِ ذَلِكَ بِالْمُحَقَّرَاتِ، وَهِيَ الْمُوبِقَاتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قالَ: «**يا عَائِشَةُ! إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبَاً**». رواه النَّسائيُّ، وابن ماجه.

هذا؛ والصغائر مثل: اللمسة، والنظرة، والكلمة المنهي عنهنَّ؛ لأنَّهنَّ يكنَّ ذرائع الفساد، والزنى.

﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ يعني: حسناً شريفاً، وهو الجنَّة. والمعنى: إذا اجتنبتم الكبائر، وأتيتم بالطاعات؛ نكفِّر عنكم الصَّغائر، وندخلكم مُدخلاً تُكرمون فيه، وخذ ما يلي:

قال أبو جعفر بن جرير عن صهيب مولى الصَّواري: أنَّه سمع أبا هريرة رضي الله عنه، وأبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقولان: خطبنا رسول الله ﷺ يوماً، فقال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - ثَلَاثَ مَرَّات -**»، ثُمَّ أَكَبَّ، فَأَكَبَّ كُلُّ رَجُلٍ يبكي لا ندري ماذا حلف عليه، ثمَّ رفع رأسه، وفي وجهه البُشرى، فكان أحبَّ إلينا مِنْ حُمْرِ النَّعم. فقال: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يُصَلِّي الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ، وَيَصُومُ رَمَضَانَ، وَيُخْرِجُ الزَّكَاةَ، وَيَجْتَنِبُ الْكَبَائِرَ السَّبْعَ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: ادْخُلْ بِسَلَامٍ**». رواه النَّسائيُّ، والحاكم، وابن حبان.

الإعراب: ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَجْتَنِبُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿كَبَآئِرَ﴾: مفعول به، وهو مضاف. و﴿مَا﴾: مبنية على السكون في محل جرٍّ بالإضافة، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿تُنْهَوْنَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو نائب فاعله. ﴿عَنْهُ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط الضمير المجرور بـ (عن). وتقدير الكلام: كبائر الذي، أو كبائر شيء تنهون عنه، وجملة: ﴿تَجْتَنِبُواْ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿نُكَفِّرْ﴾: فعل مضارع جواب الشرط، والفاعل مستتر تقديره: «نحن»، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية. ﴿عَنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة من الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَنُدْخِلْكُم﴾: معطوف على جواب الشرط، ويجوز في مثله النصب على إضمار «أن» والرَّفع على الاستئناف. كما رأيت في الآية رقم [٢٨٤]: من سورة (البقرة)، والفاعل مستتر، تقديره «نحن» والكاف مفعول به. ﴿مُّدْخَلًا﴾: مفعول مطلق على اعتباره مصدراً ميميّاً، أو هو ظرف مكان متعلِّق بالفعل قبله على اعتباره اسم مكان. ﴿كَرِيمًا﴾: صفة له.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾﴾

الشرح: عن مجاهد، عن أمِّ سلمة - رضي الله عنها -، قالت: قلت: يا رسول الله! يغزو الرِّجال، ولا نغزو، وإنَّما لنا نصف الميراث. فأنزل الله الآية. وقال مجاهد - رحمه الله تعالى -:

وأنزل الله : ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ...﴾ إلخ الآية من سورة (الأحزاب). أخرجه الترمذي. وقيل: قال الرجال: نرجو أن يكون أجرنا على الضِّعف من أجر النساء كالميراث. وقالت النِّساء: نرجو أن يكون وزرنا على النِّصف مِنْ وزر الرِّجال، كالميراث، فنزلت.

هذا؛ وأصل التمنِّي: تقدير الشيء في النَّفْس، وتصديره فيها، وذلك قد يكون عن تخمين أن يحصل له مال غيره مع زوال النِّعمة عن ذلك الغير، فهذا القسم هو الحسد، وهو مذمومٌ؛ لأنَّ الله تعالى يفيض نعمه على من يشاء من عباده، وهذا الحاسد يعترض على الله تعالى فيما فعل، وربما اعتقد في نفسه: أنَّه أحقُّ بالنعمة من ذلك الإنسان أيضاً، فهذا اعتراض أيضاً، وهو مذموم. القسم الثاني: أن يتمنَّى مثل مال غيره، ولا يحبُّ أن يزول المال عن الغير، وهذا حسد الغبطة، وهذا ليس بمذموم، ومن الناس مَنْ مَنَع منه أيضاً، قال: لأنَّ تلك النعمة ربَّما كانت مفسدةً في حقِّه في الدِّين، أو في الدُّنيا.

قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: لا تتمنَّ مال فلان، ولا مال فلان، فلا تدري لعلَّ هلاكك في ذلك المال، فليعلم العبد: أنَّ الله تعالى أعلمُ بمصالح عباده، فليرض بقضائه، ولتكن أمنيته الزيادة مِنْ عمل الآخرة، وليقل: اللهم أعطني ما يكون صلاحاً لي في ديني، ودنياي، ومعادي. والمعنى: اطلبوا الفضل بالعمل، لا بالحسد، ولا بالأماني الباطلة. قال الرسول ﷺ: «**لَيْسَ الإيْمَانُ بالتَّمنِّي، وَلَكِنْ مَا وَقَرَ في القَلْبِ، وَصَدَّقَهُ العَمَلُ**».

هذا؛ والتمنِّي: طلب الشيء البعيد حصوله، بخلاف الترجِّي، فإنَّه طلب الشيء المُمكن حصوله، وتمنَّى الشيء: أحبه، ورغب فيه. ويأتي تمنَّى بمعنى قرأ، قيل به في قوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٥٢]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ أي: إذا قرأ ألقى الشَّيطان في تلاوته، انظر شرحها هناك، فإنَّه جيد. والحمد لله! وأنشد الشَّاعر في عثمان بن عفَّان ـ رضي الله عنه ـ: [الطويل]

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ آخِرَ لَيْلَةٍ تَمَنِّيَ دَاوُدَ الزَّبُورَ عَلَى رِسْلِ

وقال كعب بن مالك ـ رضي الله عنه ـ فيه أيضاً: [الطويل]

تَمَنَّى كِتَابَ اللهِ أول لَيْلَةٍ وَآخِرَهُ لَاقَى حِمَامَ الْمَقَادِرِ

﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟...﴾ إلخ: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: ممَّا ترك الوالدان والأقربون من الميراث، يقول: للذَّكر مثل حظ الأنثيين. وقيل: هو الاكتساب في الأجر، يعني: أنَّ الرِّجال، والنساء في الأجر في الآخرة سواءٌ؛ لأنَّ الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها، يستوي في ذلك الرِّجال، والنِّساء، وإنْ فضِّل الرِّجال في الدنيا على النِّساء. وقيل: للرِّجال نصيب ممّا اكتسبوا من أمر الجهاد، وللنِّساء نصيب مما اكتسبن، يعني: من طاعة

الأزواج، وحفظ الفروج. هذا؛ وشبَّه الله تعالى استحقاقهم للإرث، وتملُّكهم له بالاكتساب، واشتقَّ في لفظ الاكتساب: ﴿ٱكْتَسَبُوا۟﴾ على طريقة الاستعارة التبعية.

﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يعني: مِنْ رزقه. وقيل: مِنْ طاعته، وهو سؤال التوفيق للعبادة. وقيل: لم يأمر الله عباده بالمسألة إلا ليعطيهم، وفيه تنبيه على أنَّ العبد لا يعيِّن شيئاً في الدُّعاء، والطَّلب، لكن يطلب مِنْ فضل الله ما يكون سبباً لصلاح دينه، ودنياه، وآخرته. وخذ ما يلي:

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**سَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ، وَأَفْضَلُ الْعِبَادَةِ انْتِظَارُ الْفَرَجِ**». رواه الترمذيُّ.

وخرَّج أيضاً ابن ماجه: عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ؛ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**». وهذا يدلُّ على أنَّ الأمر بالسُّؤال لله تعالى واجبٌ، وقد أخذ بعض العلماء هذا المعنى، فنظمه، فقال: [الكامل]

لَا تَسْأَلَنَّ نَبِيْ آدمَ حَاجَةً ... وَسَلِ الَّذِي أَبْوَابُهُ لَا تُحْجَبُ

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ ... وَبَنِيْ آدَمَ حِيْنَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾: يعني: إنَّه تعالى عليمٌ بما يكون صلاحاً للسَّائلين، فليقتصر العبد على المُجمل في الطَّلب، فإنَّ الله تعالى عليم بما يصلحه، فلا يتمنَّ غير الذي قُدِّر له. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه؛ حيث جعل النَّاس طبقاتٍ، ورفع بعضهم درجات.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف. (لا): ناهية. ﴿تَتَمَنَّوْا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها مبتدأة، أو مستأنفة لا محلَّ لها على الاعتبارين. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط: الضَّمير المجرور محلّاً بالباء. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿بَعْضَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلِّقان بمحذوف حال مِنْ بعضكم. ﴿لِّلرِّجَالِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿نَصِيبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفة معترضة، لا محلَّ لها. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿نَصِيبٌ﴾ أو بمحذوف صفة له، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية ضعيفةٌ. ﴿ٱكْتَسَبُوا۟﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والرابط، أو العائد محذوف، التقدير: مِنَ الذي، أو: مِنْ شيءٍ اكتسبوه. ﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ...﴾ إلخ: إعرابها مثل إعراب سابقتها، وهي معطوفة عليها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾: الواو: حرف عطف.

﴿وَسْـَٔلُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعول به أول، والمفعول الثاني محذوف، تقديره: حوائجكم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (لا تتمنَّوا...)إلخ، وما بينهما معترض. ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: متعلقان بمحذوف حال من لفظ الجلالة والهاء في محلِّ جر بالإضافة، مِنْ إضافة المصدر لفاعله.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى الله . ﴿بِكُلِّ﴾: متعلّقان بـ﴿عَلِيمًا﴾ بعدهما، و(كلِّ) مضاف، و﴿شَىْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها.

﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَلِكُلٍّ﴾: أي: لكلِّ تركة جعلنا ورَّاثاً يستحقُّونها. أو: لكلِّ ميت جعلنا ورَّاثاً يرثونه. فالتنوين في (كلٍّ) قائم مقام المضاف إليه، كما ترى، ويسمَّى تنوين العوض. فليرض كل واحد بما قسم الله له من الميراث، ولا يتمنَّ مال غيره. ﴿جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ﴾: ورَّاثاً، وموالي: جمع مولى، وهو يطلق في الأصل على الإله المعبود بحقٍّ، ومن أسماء الله الحسنى: المولى، ويطلق على العبد، والسيد، والأمير، وابن العم. قال الفضل بن العباس ـ رضي الله عنهما ـ: [البسيط]

مَـهْـلاً بَـنِـي عَـمِّـنَـا مَـهْـلاً مَـوالِـيـنَـا لا يَـظْـهَـرَنْ بَـيْـنَـنَـا مَـا كَـانَ مَـدْفُـونَـا

كما يُطلق على الحليف، والناصر، والمعين. قال تعالى في سورة (الدُّخان) رقم [٤١]: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى﴾، ويطلق على مولى العتاقة، والمحالفة، وكلٌّ منهما لا يكون متصل النَّسب في القبيلة، ولكنَّه لصيق بها، والموالي في نظر العرب من الخسَّة، والضَّعة بحيث لا يرونهم في مصافِّهم.

﴿وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾: المعاقدة: المحالفة، والمعاهدة، وقد كانوا في الجاهلية وفي بدء الإسلام إذا تحالفوا؛ أخذ كلُّ واحدٍ بيد صاحبه، وتحالفوا على الوفاء بالعهد، والتمسُّك به، فيقول أحدهم للآخر: دمي دمُك، وهَدْمي هَدْمُك، أَعْقِل عنك، وتَعْقِلُ عَنِّي، وأرثك، وترثني. فيقبل الآخر، فيكون لكلِّ واحدٍ من تركة الآخر السُّدس، هذا قولٌ. والقول الآخر: أنَّها في شأن المؤاخاة الواقعة بين المهاجرين، والأنصار، وقد نُسِخت بالآية الكريمة في آخر سورة (الأنفال): ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾.

وفسَّرها أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ بما يلي: لو أسلم رجلٌ، أو امرأةٌ على يد رجلٍ، وتعاقدا على أن يتعاقلا، ويتوارثا، وليس أحدهما بعربيٍّ، والآخر عربيٌّ، فيقول الآخر: واليتك

على أن تعقلني إذا جنيت، وترث منِّي إذا متُّ. ويقول الآخر: قبلت؛ انعقد ذلك، ويرثُ الأعلى مِنَ الأسفل.

﴿فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾: من الميراث، والنُّصرة، والمعاونة، والنَّصيحة، والوصيَّة لهم، فَنُسِخَ الحكم بالنِّسبة للميراث، كما رأيت، وهو باقٍ في البواقي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾: ولم يزل كائناً. ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا﴾: قال عطاء ـ رحمه الله تعالى ـ: يريد: أنَّه لم يغب عنه علم ما خلق، وبرأ. فعلى هذا: الشهيد بمعنى: الشاهد، والمراد منه علمه بجميع الأشياء. وقيل: الشَّهيد: هو الشَّاهد على الخلق يوم القيامة بكلِّ ما عملوه، فعلى هذا: الشَّاهد بمعنى: الخبر. وفيه وعدٌ للطَّائعين، ووعيد لِلْعاصين.

هذا؛ وقوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَا﴾ يكثر التعبير بمثل هذا في القرآن الكريم. قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح): وقوله تعالى: ﴿كَتَبۡنَا﴾، ﴿جَعَلۡنَا﴾، ﴿إِنَّا﴾، ﴿نَحۡنُ﴾، ﴿نَقُصُّ﴾، ﴿نَسۡـَٔلُ﴾ لفظ يقع في جميع اللغات على مَنْ كان له شركاء، وعلى الواحد العظيم المُطاع؛ الذي له أعوان يُطيعونه، وإن لم يكن له شركاء، ولا نظراء، والله تعالى خلق كلَّ ما سواه، فيمتنع أن يكون له شريك، أو مثل، والملائكة، وسائر العالمين جنودُه، فإذا كان الواحد من الملوك يقول: إنَّا، ونحن، وفعلنا، وضربنا... إلخ، ولا يريدون: أنَّهم ثلاثة ملوك، فمالك المُلك ربُّ العالمين، وربُّ كلِّ شيء، ومليكه، هو أحقُّ أن يقول: ﴿إِنَّا نَحۡنُ...﴾ إلخ، مع أنَّه ليس شريك، ولا مثل، بل له جنودُ السَّموات والأرض. انتهى.

أقول: و«نا» هذه تُسمَّى: نون العظمة، وليست دالة على الجماعة، فالله تعالى لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، وكثيراً ما يتكلَّم بها العبد. فيقول: أخذنا، وأعطينا، وليس معه أحد، وهذا مستعملٌ، وواقع.

الإعراب: ﴿وَلِكُلّٖ﴾: الواو: حرف استئناف. (لكلٍّ): متعلقان بما بعدهما على أنَّهما مفعوله الثاني. ﴿جَعَلۡنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿مَوَٰلِيَ﴾: مفعول به أول. هذا وجهٌ للإعراب، وهناك وجهٌ آخر، وهو: أنَّ الجار، والمجرور: (لكلٍّ) متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، والمبتدأ محذوف، والجملة الفعلية صفة(كل) والمفعول الأول محذوف، وتقدير الكلام: ولكلٍّ جعلنا لهم موالي حظٌّ. وفيه تكلُّف لا يخفى. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة «حظ» المحذوف على الوجه الثاني من الإعراب، أو هما متعلقان بفعل محذوف، تقديره: يرثون مما، وهذه الجملة تكون صفة موالي، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جرٍّ بـ(من). ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلۡوَٰلِدَانِ﴾: فاعله مرفوع وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنَّه مثنًّى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ﴾: معطوف على ما

قبله مرفوع مثله، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم. . .إلخ، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: مِنَ الذي، أو: مِنْ شيءٍ تركه الوالدان.

﴿وَالَّذِينَ﴾: الواو: حرف استئناف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. وقيل: هو منصوب بفعل محذوف، يفسِّره المذكور بعده. وقيل: هو معطوف على ﴿مَوَالِيَ﴾ والمعتمد الأول. ﴿عَقَدَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿أَيْمَانُكُمْ﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والعائد محذوف، التقدير: عقدت أيمانكم لهم. ﴿فَآتُوهُمْ﴾: الفاء: صلة. (آتوهم): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله الأول. ﴿نَصِيبَهُمْ﴾: مفعوله الثاني، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، وزيدت الفاء في الخبر؛ لأنَّ الموصول يشبه الشَّرط في العموم، والجملة الاسمية مستأنفة. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ...﴾ إلخ. انظر إعراب الآية السابقة، فإعراب هذه الجملة مثلها بلا فارق.

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا (٣٤)﴾

الشرح: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾: أي: متسلِّطون على تأديب النِّساء، والأخذ على أيديهنَّ. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أُمِّروا عليهنَّ، فعلى المرأة أن تطيع زوجها في طاعة الله. والقوَّام: هو القائم بالمصالح، والتدبير، والتأديب، فالرَّجل يقوم بأمر المرأة، ويجتهد في حفظها. ولمَّا أثبت الله القيام للرِّجال على النِّساء، بيَّن السبب، فقال: ﴿بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يعني: فضَّل الله تعالى الرِّجال على النِّساء بأمور: منها: زيادة العقل، والدِّين، والولاية، والشهادة، والجهاد، والجمعة، والجماعات، وبالإمامة، ولأنَّ منهم الأنبياء، والخلفاء، والأئمة. ومنها: أنَّ الرَّجل يتزوج بأربع نسوة، ولا يجوز للمرأة غير زوجٍ واحد، ومنها: زيادة النَّصيب في الميراث، والتَّعصيب في الميراث، وبيده الطَّلاق، والنكاح، والرجعة، وإليه انتساب الأولاد. هذا؛ والتَّعبير بالبعضية إيحاءٌ بأنَّ المرأة مِنَ الرَّجل بمنزلة عضوٍ مِنْ جسم الإنسان، وكذلك الرَّجل، ولا ينبغي أن يتكبَّر عضوٌ على عضوٍ، فالكلُّ يؤدي دوره بانتظام، ولا غنى لواحدٍ عن الآخر. ﴿قَوَّامُونَ﴾ مبالغة قائم، مثله في الآية رقم [١٣٥] الآتية.

﴿وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ﴾ يعني: وبما أعطوا من مهور النِّساء، والنَّفقة عليهنَّ. فعن أبي هريرة - رضي الله عنه -: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ كُنْتُ آمِراً أَحَداً أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ؛ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا**». أخرجه الترمذيُّ. هذا؛ وفهم العلماء من هذه الجملة: أنَّ الزَّوج متى عجز عن نفقتها؛ لم يكن قوَّاماً عليها، وإذا لم يكن قواماً عليها؛ كان لها فسخُ العقد لزوال المقصود؛ الَّذي شُرِع لأجله النكاح، وهو النَّفقة عليها، وهو مذهب مالك، والشَّافعي. وقال أبو حنيفة: لا يفسخ العقد. لقوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾.

﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ...﴾ إلخ هذا كلُّه خبر، ومقصوده الأمر بطاعة الزَّوج، والقيام بحقِّه في ماله، وفي نفسها في حال غيبته. وفي مسند أبي داود عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ النِّسَاءِ الَّتِي إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا؛ سَرَّتْكَ، وإِذَا أَمَرْتَهَا؛ أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غِبْتَ عَنْهَا؛ حَفِظَتْكَ فِي نَفْسِهَا، وَمَالِكَ**». قال: وتلا هذه الآية: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾. وقال ﷺ لعمر - رضي الله عنه -: «**أَلَا أُخْبِرُكَ بِخَيْرِ مَا يَكْنِزُهُ الْمَرْءُ؟ المرأةُ الصَّالِحَةُ، إِذَا نَظَرَ إِلَيْهَا؛ سَرَّتْهُ، وَإِذَا أَمَرَهَا؛ أَطَاعَتْهُ، وَإِذَا غَابَ عَنْهَا؛ حَفِظَتْهُ**». أخرجه أبو داود أيضاً.

ومعنى: ﴿بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ﴾ أي: بما حفظ من الله حين أوصى بهنَّ الأزواج، وأمرهم بأداء المهر، والنَّفقة إليهنَّ. وقيل: المعنى: بما حفظهنَّ الله ، وعصمهنَّ، ووفَّقهن لحفظ الغيب.

﴿وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ﴾ أي: تعلمون، وتتيقَّنون، مثل قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٢٩]: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ﴾. وقيل: الخوف فيهما بمعنى الظن. ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: عصيانهنَّ، وترفُّعهن عن طاعة الأزواج. قال ابن عبَّاس - رضي الله عنهما -: هو أن تستخفَّ بحقوق زوجها، ولا تطيع أمره، وترفع صوتها عليه. والنُّشوز مأخوذ من النَّشز، وهو ما ارتفع من الأرض، يقال: نشز الرَّجل، ينشَز، وينشِز: إذا كان قاعداً، فنهض قائماً، ومنه قوله تعالى في سورة (المجادلة): ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ﴾، وقال أبو منصور اللغوي: النُّشوز: كراهية كلِّ واحد من الزوجين صاحبه، يقال: نشزت، تنشز، فهي ناشز بغير هاءٍ.

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾ أي: بكتاب الله ، أي: ذكِّروهن ما أوجب الله عليهنَّ مِنْ حسن الصُّحبة، وجميل العشرة للزَّوج، والاعتراف بالدَّرجة التي له عليها، ويذكر له قول النَّبي ﷺ: «**أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ؛ وَزَوْجُهَا عَنْهَا رَاضٍ؛ دَخَلَتِ الْجَنَّةَ**». رواه ابن ماجه، والترمذيُّ عن أمِّ سلمة - رضي الله عنها - وقوله ﷺ: «**إذا صَلَّتِ الْمَرْأَةُ خَمْسَهَا، وَصَامَتْ شَهْرَهَا، وَحَفِظَتْ فَرْجَهَا، وَأَطَاعَتْ بَعْلَهَا؛ قِيلَ لَهَا: ادْخُلِي مِنْ أَيِّ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ شِئْتِ**». رواه الإمام أحمد، والطبرانيُّ عن عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه -. وقال للسَّائلة عن حقِّ الزوج: «**مِنْ حَقِّهِ أَنْ لَوْ سَالَ مِنْخَرَاهُ دَماً، وَقَيْحاً، فَلَحَسَتْهُ بِلِسَانِهَا؛ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ، وَلَوْ كَانَ يَنْبَغِي لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ؛ لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ**

أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا إِذَا دَخَلَ عَلَيْهَا لِمَا فَضَّلَهُ اللهُ عَلَيْهَا». رواه البزار، والحاكم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ. وقال ﷺ: «**لَا تَمْنَعْهُ نَفْسَهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ عَلَى ظَهْرِ قَتَبٍ**». رواه ابن ماجه عن ابن أبي أوفى ـ رضي الله عنه ـ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ، فَلَمْ تَأْتِهِ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيْهَا؛ لَعَنَتْهَا الْمَلَائِكَةُ؛ حَتَّى تُصْبِحَ**». رواه الشَّيخان، وغيرهما، وانظر الآية رقم [١٨].

﴿وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ﴾: الهجر في المضجع: هو أن يولِّيها ظهره في الفراش، ولا يجامعها. وقيل: هو الابتعاد عن فراشها. وهذا الأولى، فإنَّ الزَّوج إذا أعرض عن فراشها، فإن كانت مُحِبَّةً للزَّوج؛ فذلك يشقُّ عليها، فترجع للصَّلاح، وإن كانت مبغضةً له، فيظهر النُّشوز منها، ويتبيَّن: أنَّه مِنْ قِبَلها. وهذا الهجر غايته عند العلماء شهرٌ، كما فعل النبي ﷺ حين أَسَرَّ إلى حفصة، فأفشته إلى عائشة، وتظاهرتا عليه، وكما فعل ﷺ حين تآمرن عليه، وطلبن زيادةً في النفقة. انظر سورة (الأحزاب) وسورة (التحريم). ولا يبلغ به الأربعة الأشهر التي ضرب الله أجلاً عذراً للمُولي، كما رأيت في سورة (البقرة) رقم [٢٢٦]، وقد ثبت: أنَّ الهجر للمرأة خير علاجٍ لنشوزها، وترفُّعها، ولا سيما إذا كان الهجر كنايةً عن الجماع.

﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ يعني: إن لم يصلح حالهنَّ بالهُجران بعد الوعظ، فاضربوهنَّ ضرباً غير مبرِّح، ولا شائن، وهو الذي لا يكسر عظماً، ولا يشين وجهاً، فإنَّه إذا أدى إلى الضَّرر؛ وجب الضمان مثل ضرب المعلم المؤدِّب غلامه لِلْعلم، والأدب. هذا؛ وقال الرسول ﷺ في حجَّة الوداع: «**أَلَا واسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيْراً فَإِنَّمَا هُنَّ عَوَانٍ عِنْدَكُمْ، لَيْسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيْئاً غَيْرَ ذَلِكَ، إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ، فَإِنْ فَعَلْنَ؛ فَعِظُوهُنَّ، وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْباً غَيْرَ مُبَرِّحٍ، فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ، فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيْلاً، أَلَا إِنَّ لَكُمْ عَلَى نِسَائِكُمْ حَقّاً، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيْكُمْ حَقّاً، فَحَقُّكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ، وَلَا يَأْذَنَّ فِي بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكْرَهُونَ، أَلَا وَحَقُّهُنَّ عَلَيْكُمْ أَنْ تُحْسِنُوا إِلَيْهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ، وطَعَامِهِنَّ**». رواه ابن ماجه، والترمذي عن عمرو بن الأحوص الجُشمي ـ رضي الله عنه ـ.

قال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: يعظها بلسانه، فإن انتهت؛ فلا سبيل له عليها، فإن أبت؛ هجر مضجعها، فإن أبت؛ ضربها، فإن لم تتَّعظ بالضَّرب؛ بعث الحكم. وقال آخرون: هذا الترتيب مراعىً عند خوف النُّشوز، أمَّا عند تحقُّق النشوز؛ فلا بأس بالجمع بين الكلِّ.

﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ﴾ فيما أمرتموهنَّ، وطلبتم منهنَّ. ﴿فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا﴾ أي: فلا تطلبوا عليهنَّ طريقةً تحتجُّون بها عليهنَّ إذا قُمْنَ بواجب حقِّكم. وعن حكيم بن معاوية ـ رضي الله عنه ـ عن أبيه، قال: قلت: يا رسول الله ! ما حقُّ زوجةِ أحدنا عليه؟ قال: «**أَنْ تُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمْتَ،**

وَتَكْسُوهَا إِذَا اكْتَسَيْتَ، وَلا تَضْرِبِ الوجهَ، ولا تُقَبِّحْ، ولا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ». أخرجه أبو داود.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾: فيه تهديد، ووعيد، وتحذير مِنْ ظلم المرأة إذا هي انصاعت لأوامر الزَّوج بعد نشوزها. والمعنى: اعلموا: أنَّ قدرة الله عليكم أعظمُ مِنْ قدرتكم على مَنْ تحت أيديكم مِنْ نساءٍ، وضعفاء، فأنتم أحقُّ بالعفو؛ إن حصل منهم هفوات، ومخالفات. وانظر نشوز الرَّجل في الآية رقم [١٢٨].

تنبيه: نزلت الآية الكريمة في سعد بن الرَّبيع ـ رضي الله عنه ـ أحد نقباء الأنصار، نشزت عليه زوجتُه حبيبة بنت زيد بن خارجة بن أبي زهير، فلطمها، فانطلق بها أبوها إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أفرشته كريمتي، فلطمها، فقال ﷺ: «**لِتَقْتَصَّ مِنْهُ**» فانصرفت لتقتصَّ منه، فقال ﷺ: «**ارْجِعُوا، هَذَا جِبْرِيْلُ أَتَانِي**» فأنزل الله هذه الآية، فقال ﷺ: «**أَرَدْنَا أَمْراً، وَأَرَادَ اللهُ غَيْرَهُ، وَمَا أَرَادَ اللهُ خَيْرٌ**» ونقض الحكم الأوَّل. وقيل: إنَّ في هذا المردود نزل قوله تعالى في سورة (طه): ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾.

تنبيه: ممَّا تقدَّم يتبيَّن لنا: أنَّ الله عزَّ وجل لم يأمر في شيءٍ من كتابه بالضَّرب صراحاً إلا هنا، وفي الحدود العظام، فساوى معصيتهنَّ لأزواجهنَّ بمعصية الكبائر، وولَّى الأزواج ذلك دون الأئمَّة، وجعله لهم دون القُضاة بغير شهودٍ، ولا بيِّنات ائتماناً مِنَ اللهِ تعالى للأزواج على النِّساء. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿ٱلرِّجَالُ﴾: مبتدأ. ﴿قَوَّٰمُونَ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنُّون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾: متعلقان بـ﴿قَوَّٰمُونَ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿قَوَّٰمُونَ﴾ أيضاً، و(ما) تحتمل الموصولة، والمصدرية. ﴿فَضَّلَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿بَعْضَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية صلة (ما) والعائد محذوف، والتقدير: بالَّذِي فضَّل الله به. . .إلخ، وعلى اعتبارها مصدرية تؤوَّل مع ما بعدها بمصدر في محلِّ جرٍّ بالباء، التقدير: بسبب تفضيل بعضهم على بعض. ﴿وَبِمَآ﴾: جار ومجرور معطوفان على ما قبلهما، و(ما) تحتمل ما ذكر. ﴿أَنفَقُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، والتقدير: بالذي، أو: بشيءٍ أنفقوه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدرٍ في محلِّ جرٍّ بالباء، التقدير: بإنفاقهم. ﴿مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾: متعلِّقان بمحذوف حال من الضمير المحذوف. و﴿مِنْ﴾: بيان لما أبهم في (ما)، والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾: الفاء: حرف استئناف. (الصالحات): مبتدأ. ﴿قَانِتَاتٌ﴾: خبر أول. ﴿حَافِظَاتٌ﴾: خبر ثان، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿لِلْغَيْبِ﴾: متعلقان بـ﴿حَافِظَاتٌ﴾ لأنَّه اسم فاعل، لذا ففيه، وفي سابقه ضمير مستتر هو فاعله. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿حَافِظَاتٌ﴾ أيضاً، و(ما) تحتمل الموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين فجملة: ﴿حَفِظَ اللَّهُ﴾ صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيء حفظه الله ، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محل جرٍّ بالباء، التقدير: بحفظ الله لهنَّ حقوقهنَّ، وكرامتهن. ﴿وَاللَّاتِي﴾: الواو: حرف عطف. (اللاتي): اسم موصول مبني على السُّكون في محل رفع مبتدأ. ﴿تَخَافُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة (اللاتي) لا محل لها. ﴿نُشُوزَهُنَّ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والنون فيه، وفيما بعده حرف دال على جماعة الإناث، وفي خبر المبتدأ وجهان: أحدهما: أنَّه الجملة الفعلية. ﴿فَعِظُوهُنَّ...﴾ إلخ، وجاز دخول الفاء زائدة على الخبر على رأي الجمهور؛ لأنَّ المبتدأ أشبه الشرط في كونه موصولاً عامّاً، صلته فعل مستقبل. الوجه الثاني: أنَّ الخبر محذوف، التقدير: فيما يُتلى عليكم حكم اللاتي. . .إلخ، فحذف الخبر، والمضاف إلى المبتدأ لا لدلالةٍ عليها، وأقيم المضاف إليه مقامه، وهذا نظير ما فعله سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ في نحو قوله تعالى في سورة (النُّور): ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا...﴾ إلخ؛ أي: فيما يتلى عليكم حكم الزانية. . .إلخ، ويكون الفعل المذكور في هذه الآيات دالّاً على ذلك المحذوف؛ لأنَّه بيانٌ له. انتهى. جمل نقلاً عن السمين.

﴿فَعِظُوهُنَّ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ على الوجه الأول في الإعراب، وهي لا محلَّ لها على الوجه الثاني؛ لأنَّها جواب لشرط غير جازم؛ إذ التقدير: وإذا كان ذلك حاصلاً، وواقعاً؛ فعظوهن، وتكون الفاء فصيحة، والتي بعدها معطوفة عليها على الوجهين المعتبرين فيها، والجملة الفعلية: ﴿فَعِظُوهُنَّ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة، لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿أَطَعْنَكُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، ونون النسوة فاعله، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَلَا﴾: الفاء واقعة في جواب الشرط. (لا): ناهية. ﴿تَبْغُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محل المفرد.

﴿عَلَيْهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿سَبِيلاً﴾: مفعول به. و(إنْ) ومدخولها كلام مفرع، ومستأنف، لا محلَّ له. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾: إعرابها واضحٌ إن شاء الله.

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾: أي: وإن علمتم، وتيقَّنتم. وقيل: معناه الظنُّ؛ أي: إنْ ظننتم. وأصل الفعل: خَوِفْتم، فنقلت حركة الواو إلى الخاء قبلها بعد سلب فتحتها، فسكنت الواو، ثم حذفت لالتقاء الساكنين، فالكسرة على الخاء للدَّلالة على حركته المحذوفة، ولو كانت دليلاً على المحذوف؛ لكانت ضمَّة. والجمهور على أنَّ المخاطب: الحكامُ، والأمراء. ﴿شِقَاقَ﴾: للشِّقاق ثلاثة معان: أحدها: العداوة، كما في قوله تعالى حكاية عن قول شعيب لقومه: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ...﴾ إلخ. والثاني: الضَّلال: كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾. وكما في الآية الكريمة؛ التي نحن بصدد شرحها؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المتشاقَّيْن يكون في شقٍّ غير شقِّ صاحبه، أي: في ناحيةٍ، وجهةٍ. قال الشاعر: [الوافر]

وإلَّا فـاعْـلَـمُـوا أَنَّـا وَأَنْـتُـمْ بُـغَـاةٌ مَـا بَـقِـيـنَـا فِـي شِـقَـاقِ

هذا؛ و(بين) ظرف مكان بمعنى: وسْط بسكون السِّين، لا يقع إلا بين متعدِّدٍ لفظاً، وحكماً. تقول: جلست بين القوم، كما تقول: جلست وسْط القوم. هذا؛ والبَيْن: الفراق، والبعاد، وهو أيضاً الوصل، فهو من الأضداد، كالجوْن يُطلق على الأسود، والأبيض، ومن استعماله بمعنى الوصل ما قرئ به سورة (الأنعام) رقم [٩٤]: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ حيث قرئ برفعه، ومن استعماله بمعنى الفراق والبعاد قول كعب بن زهير ـ رضي الله عنه ـ من قصيدته التي مدح بها النبي ﷺ، وهو الشاهد رقم [٨٠٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

وَمَـا سُـعَـادُ غَـدَاةَ الْـبَـيْـنِ إِذْ رَحَـلُـوا إِلَّا أَغَـنُّ غَـضِـيـضُ الـطَّـرْفِ مَـكْـحُـولُ

﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾: المخاطب بذلك الحاكم الشَّرعي في هذه الأيام؛ لأنَّ تنفيذ الأحكام إليه، ويجوز أن يتولَّى ذلك جماعةٌ من المسلمين ممَّن يسعوْن في الإصلاح بين النَّاس. وقيد الله الحَكَمَيْنِ من أهل الزَّوجين؛ لأنَّهما أعرف بحال الزوجين، ويجب أن يكونا من أهل العدالة، وحسن النظر، والبصر بالفقه، فإن لم يوجد من أهلهما مَنْ يصلُح لذلك، فيرسل من غيرهم عَدْلَين، عالمين، وذلك إذا أشكل أمرهما، ولم يُدْرَ مِمَّن الإساءة منهما، فأمَّا إذا عُرِف الظَّالم منهما؛ فإنَّه يؤخذ منه الحقُّ لصاحبه، ويجبر على إزالة الضَّرر. وهذا بعد أن يختلي الحكم بِمَنْ ينوب عنه، ويتعرَّف أحواله، ومظالمه، وشكواه، وعلى

الحكمين أن يسعيا بالإصلاح بين الزَّوجين، ويذكِّرانهما بالله، وبالنَّصيحة، وما أفضى به كلٌّ منهما، فإن أنابا، ورجعا؛ تركاهما، وضمنا لهما حياةً سعيدةً رغيدةً، وإن كان غير ذلك، ورأيا الفرقة؛ فرَّقا بينهما، وتفريقهما جائز على الزَّوجين، وسواءٌ وافق حُكْمَ قاضي البلد، أو خالفه، وكَّلهما الزوجان بذلك، أو لم يوكِّلاهما. والفراق في ذلك طلاقٌ بائن.

وقال قوم: ليس لهما الطَّلاق ما لم يوكِّلهما الزَّوج في ذلك، وليعرِّفا القاضي بذلك، وهذا بناءً على أنَّهما رسولان شاهدان، ثمَّ القاضي يفرِّق إن أراد، ويأمر الحكم بالتَّفريق، وهو قول كثيرين. والصَّحيح الأول، وأنَّ للحكمين التَّطليق دون توكيل، وهو قول مالك، والشافعي، وهو مرويٌّ عن عثمان، وعليٍّ، وابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهم ـ، وخالف أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ في ذلك، فيرى: أنَّ الحكمين لا يُطلقان إلا برضا الزوج، واحتجَّ بما يلي:

فقد روى الدارَقُطْنِيُّ من حديث محمَّد بن سيرين عن عبيدة في هذه الآية، قال: جاء رجل، وامرأة إلى عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ، ومع كلٍّ واحدٍ منهما جماعةٌ من الناس، فأمرهم، فبعثوا حكماً من أهله، وحكماً من أهلها، وقال عليٌّ للحكمين: هل تدريان ما عليكما؟ عليكما إن رأيتما أن تفرِّقا؛ فرقتما. فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله بما عليَّ فيه، ولي. وقال الزَّوج: أمَّا الفرقة؛ فلا، فقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: كذبت! والله لا تبرح حتى تقرَّ بمثل الذي أقرَّت به! هذا؛ وفي الآية دليل على إثبات التحكيم، وليس كما تقول الخوارج: لا تحكيم إلا لله، فهذه كلمة حق يريدون بها الباطل، وقد وافق الإمام أحمد أبا حنيفة فيما ذهب إليه.

﴿إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا...﴾ إلخ أي: إن يرد الزوجان إصلاحاً، وصدقا فيما أخبرا به الحكمين؛ يوفِّق الله بينهما، وقال ابن عباس ومجاهد ـ رضي الله عنهم ـ: إن يرد الحكمان إصلاحاً؛ يوفِّق الله بين الزوجين. وقيل: المراد: الزوجان.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا﴾: يعني: أنَّ الله تعالى يعلم كيف يوفِّق بين المختلفين، ويجمع بين المتفرِّقين. وفيه وعيد شديد للزَّوجين، والحكمين؛ إن سلكوا غير طريق الحق. هذا؛ وذكر الله في الآية الكريمة الإصلاح، ولم يذكر ما يقابله وهو التفريق، وفيه إشارة لطيفة إلى أنَّه ينبغي للحكمين أن يبذلا جهدهما في الإصلاح؛ لأنَّ في التفريق خراب البيوت، وتشتيت الأولاد، وذلك ممَّا ينبغي أن يجتنب.

الإعراب: ﴿وَإِنۡ﴾: الواو: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿خِفۡتُمۡ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله. ﴿شِقَاقَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿بَيۡنِهِمَا﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لظرفه، مثل قوله تعالى: ﴿بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ﴾، والهاء في محل جر بالإضافة، والميم والألف حرفان دالان على التثنية، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية. ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَٱبۡعَثُواْ﴾: الفاء:

واقعة في جواب الشرط. (ابعثوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها، و(إنْ) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿حَكَمًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنْ أَهْلِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿حَكَمًا﴾، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَحَكَمًا﴾: معطوف على ما قبله. ﴿مِّنْ أَهْلِهَآ﴾: متعلقان بمحذوف صفة له، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يُرِيدَآ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والألف فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها. . .إلخ. ﴿إِصْلَٰحًا﴾: مفعول به. ﴿يُوَفِّقِ﴾: فعل مضارع جواب الشرط. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء ولا بـ «إذا» الفجائية. ﴿بَيْنَهُمَآ﴾: ظرف مكان متعلِّق بما قبله. .إلخ، و(إنْ) ومدخولها كلام مستأنف، لا محلَّ له. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾: تقدَّم إعراب مثلها كثيراً.

﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾

الشرح: أجمع العلماء: أنَّ هذه الآية من المُحكم المتَّفق عليه، وليس منها شيءٌ منسوخ، وكذلك في جميع الكتب السماوية، ولو لم يكن كذلك؛ لعرف ذلك من جهة العقل، وإن لم ينزل به كتاب. انتهى. قرطبي. ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: العبادة: غاية التذلُّل، ولا يستحقُّها إلا مَنْ له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولذلك يحرم السُّجود لغير الله تعالى. وقيل: العبودية أربعة: الوفاء بالعهود، والرضا بالموجود، والحفظ للحدود، والصبر على المفقود. ﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾: الشرك على أنواع: الأول: الشِّرك الظاهر، وهو أن يتَّخذ العبد إلٰهاً غير الله مِنْ حجرٍ، أو شمسٍ، أو قمرٍ، أو شخصٍ مِنَ البشر. والثاني: الشرك الخفيُّ، وهو أن يعتقد أنَّ للشيء تأثيراً في هذا الكون، أو تأثيراً في شيءٍ من الأشياء. ومن الشرك الخفي: الرِّياء. فعن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، قال: قال رجلٌ: يا رسول الله! إني أقف الموقف أريد وجه الله، وأريد أن يُرى موطني. فلم يَرُدَّ عليه رسول الله ﷺ حتَّى نزل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾. رواه الحاكم، والبيهقي. قال الماورديُّ: قال جميع أهل التأويل: إنَّ المراد بالآية النهي عن الرِّياء، كيف لا؟ وأحاديث الرَّسول ﷺ تصرِّح بأنَّ الرِّياءَ شِرْك.

فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصُحُفٍ مُخَتَّمَةٍ، فتنصَبُ بين يدي الله تعالى، فيقول الله عزَّ وجل: ألقوا هذه، واقبلوا هذه، فتقول**

الملائكة: **وَعِزَّتِكَ وَجَلالِكَ مَا رَأَيْنَا إِلَّا خَيْراً، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِنَّ هَذَا كَانَ لِغَيْرِ وَجْهِي، وَإِنِّي لَا أَقْبَلُ إِلَّا مَا ابْتُغِيَ بِهِ وَجْهِي»**. رواه الطبرانيُّ، والبيهقيُّ، والبزَّار.

وعن محمود بن لبيد ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ!**» قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قال: «**الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا جَزَى النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاؤُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟!**». رواه الإمام أحمد، والبيهقي. وانظر ما ذكرته في آخر سورة (الكهف) فإنَّه جيد، والحمد لله، وانظر «الإخلاص» في سورة (الزُّمر) رقم [١١].

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ أي: وأحسنوا بالوالدين، والإحسان إلى الأبوين يعرفه كلُّ واحدٍ من الناس بفطرته، وهو أن يقوم المرء بخدمتهما، ولا يرفع صوته عليهما بقدر سعته. نعم إنَّ البر بالوالدين أمرٌ عظيم حثَّ عليه الشَّرع، واستحسنه الذَّوق، والطَّبع، ولكنَّهما كما تعلم ليسا في الدَّرجة سواء، فإنَّ الأمَّ قد كابدت في سبيلك، وتعبت أكثر من تعب الأب، وجهاده أضعافاً مضاعفةً، فهي التي تحمَّلت المشقَّات، فحملتك في بطنها تسعة أشهر، وهي التي كادت تنزل إلى قبرها حينما ولدتك، ثمَّ بعد ذلك هي التي وضعت نفسها تحت تصرفك في ليلك ونهارك، تقوم إذا تحرَّكْتَ، وتنزعج إذا بَكَيْتَ، وكم أصابها المرض، وأعياها السهر، وأضناها البكاء من أجلك، كلُّ ذلك في سبيل تربيتك، وتأمين راحتك، وأنت لا تعلم من ذلك شيئاً، ولذا جاء التنبيه عليها في سورة (لقمان) رقم [١٤]، وفي سورة (الأحقاف) رقم [١٥] وخذ هنا قول القائل بالإضافة لما ذكرته في سورة (الإسراء) رقم [٢٣ و٢٤]: [الطويل]

لأُمِّكَ حَقٌّ لَوْ عَلِمْتَ كَبِيرُ ... كَثِيرُكَ يَا هَذَا لَدَيْهِ يَسِيرُ
فَكَمْ لَيْلَةٍ بَاتَتْ بِثِقْلِكَ تَشْتَكِي ... لَهَا مِنْ جَوَاهَا أَنَّةٌ وَزَفِيرُ
وَفِي الوَضْعِ لَوْ تَدْرِي عَلَيْهَا مَشَقَّةٌ ... فَمِنْ غُصَصٍ مِنْهَا الْفُؤَادُ يَطِيرُ
فَدُونَكَ فَارْغَبْ فِي عَمِيمِ دُعَائِهَا ... فَأَنْتَ لِمَا تَدْعُو إِلَيْهِ فَقِيرُ

﴿وَبِذِي الْقُرْبَىٰ﴾ أي: القرابات من جهة الأب، ومن جهة الأم، وهم الأرحام، فقد أمرنا الله ورسوله بالإحسان إليهم وصلتهم، فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ، وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ**». رواه البخاريُّ، ومسلم.

وعن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا اللهُ، وَأَنَا الرَّحْمَنُ خَلَقْتُ الرَّحِمَ، وَشَقَقْتُ لَهَا اسْماً مِنِ اسْمِي، فَمَنْ وَصَلَهَا؛ وَصَلْتُهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا؛ قَطَعْتُهُ**». رواه أبو داود، والترمذيُّ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْخَلْقَ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ مِنْهُمْ، قَامَتِ الرَّحِمُ، فَقَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِذِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ، قَالَ: نَعَمْ، أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ؟ قَالَتْ: بَلَى، قَالَ: فَذَاك لَكِ**». ثُمَّ قال رسول الله ﷺ: «**اقرؤوا إن شئتُم**: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ.

﴿وَالْيَتَامَىٰ﴾: انظر الآية رقم [٢] ورقم [٣] من هذه السُّورة ففيهما الكفاية. ﴿وَالْمَسَاكِينِ﴾ انظر الآية رقم [٨] من هذه السُّورة. ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾: الجار القريب منك، أي: فهو رَحِمٌ. ﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾ أي: الجار الغريب. وقيل: الأوَّل الذي قَرُبَ جواره منك، والثاني الَّذي بعد جواره منك. والتفسير الأوَّل قاله علقمة بن عبدة، يخاطب به الحارث بن جبلة الغسانيَّ: [الطويل]

فَلَا تَحْرِمَنِّي نَائِلاً عَنْ جِنَايَةٍ فَإِنِّي امْرُؤٌ وَسْطَ الْقِبَابِ غَرِيبُ

وقال نوْف الشَّامي ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾: المسلم، و﴿وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾: الكافر، وعلى هذا فالوصاة بالجار مأمور بها، مندوب إليها، مسلماً كان، أو كافراً، وهو الصحيح، والإحسان يكون بمعنى المواساة، وقد يكون بمعنى حسن العشرة، وكف الأذى، والمحاماة دونه، فقد روى البخاريُّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالْجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ: أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ**». وروي عن ابن عمر من وجهٍ آخر.

وعن أبي شريح الكعبي ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**واللهِ لا يُؤْمِنُ! وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ! وَاللهِ لَا يُؤْمِنُ!**» قيل: يا رسول الله ! لقد خاب وخسر مَنْ هذا؟ قال: «**مَنْ لَا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ**» قالوا: وما بوائقه؟ قال: «شَرُّه». رواه البخاريُّ.

وروى البزَّار عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْجِيْرَانُ ثَلَاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ، وَهُوَ أَدْنَى الْجِيْرَانِ حَقّاً، وَجَارٌ لَهُ حَقَّان، وَجَارٌ لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ، وَهُوَ أَفْضَلُ الْجِيْرَانِ حَقّاً، فَأَمَّا الْجَارُ الَّذِي لَهُ حَقٌّ وَاحِدٌ؛ جارٌ مُشْرِكٌ لَا رَحِمَ لَهُ، لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ، وأَمَّا الْجَارُ الَّذِي لَهُ حَقَّانِ؛ فَجَارٌ مُسْلِمٌ، لَهُ حَقُّ الإِسْلَامِ وَحَقُّ الْجِوَارِ، وأَمَّا الَّذِي لَهُ ثَلَاثَةُ حُقُوقٍ؛ فَجَارٌ مُسْلِمٌ ذُو رَحِمٍ، لَهُ حَقُّ الْجِوَارِ، وَحَقُّ الإِسْلَامِ، وَحَقُّ الرَّحِمِ**». والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورةٌ، ومسطورة.

﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾: عن عليٍّ، وابن مسعودٍ ـ رضي الله عنهما ـ، قالا: هي المرأة، وقال ابن عباس، ومجاهد ـ رضي الله عنهم ـ: هو الرَّفيق في السَّفر، وقال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: هو الرَّفيق الصَّالح. وقال زيد بن أسلم: هو جليسك في الحضر، ورفيقك في

السَّفر. قال القرطبيُّ: وأسند الطبريُّ: أنَّ رسول الله ﷺ كان معه رجل من أصحابه، وهما على راحلتين، فدخل رسول الله ﷺ غيضةً، فقطع قضيبين، أحدهما معوجٌّ، فخرج، وأعطى لصاحبه القويم، فقال: كنتَ يا رسولَ الله أحقَّ بهذا! فقال: «**كَلَّا يَا فُلَانُ إِنَّ كُلَّ صَاحِبٍ يَصْحَبُ آخَرَ فَإِنَّهُ مَسْؤُولٌ عَنْ صَحَابَتِهِ وَلَوْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ**».

﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: فعن ابن عباسٍ، وجماعة: هو الضعيف. وقال مجاهد: هو الذي يمر عليك مجتازاً في السفر. وهذا أظهر، وإن كان مراد القائل بالضَّعيف: المارّ في الطريق، فهما سواء، فعن أبي شريح خويلد بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ، فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، جَائِزَتُهُ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَضِيَافَتُهُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ، فَمَا كَانَ بَعْدَ ذَلِكَ فَهُوَ صَدَقَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لَهُ أَنْ يَثْوِيَ عِنْدَهُ؛ حَتَّى يُحْرِجَهُ**» رواه مالك، والخمسة ما عدا النَّسائي.

﴿وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾: أمر الله بالإحسان إلى المماليك. عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْماً أَنْ يَحْبِسَ عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُمْ**». رواه مسلم. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، عن النبي ﷺ قال: «**لِلْمَمْلُوكِ طَعَامُهُ، وَكِسْوَتُهُ، وَلَا يُكَلَّفُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا يُطِيقُ**». أخرجه مسلم. وعن أبي ذَرٍّ ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ قال: «**هُمْ إِخْوانكُمْ خَوَلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ، فَأَعِينُوهُمْ**». أخرجاه في الصَّحيحين.

هذا؛ وذكرتُ في سورة (النور) رقم [٣٣] كلمة حول ما يطعن به المستشرقون، والملحدون من أبناء المسلمين في الإسلام، وينعتونه بالقسوة، وبأنَّه عمل على تكديس الرِّق. انظرها تجد ما يسرك، ويثلج صدرك.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾: حب الله للعبد: رحمتُه، وغفرانه، ورضوانه. وعدم محبَّته: غضبُه، وسخطه، وانتقامه. ﴿مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾: المختال: المتكبِّر، العظيم في نفسه؛ الذي لا يقوم بحقوق الناس، والفخور على عباد الله بما أعطاه الله مِنْ نعمه، ولا يشكره عليها. وإنَّما ختم الله هذه الآية بهذين الوصفين المذمومين؛ لأنَّ المختال الفخور يأنف من أقاربه الفقراء، وَمِنْ جيرانه الضُّعَفاء، فلا يحسن إليهم، ولا يلوي بنظره عليهم؛ ولأنَّ المختال هو المتكبِّر، ومن كان مُتكبراً؛ فلا يقوم بحقوق الناس. وخذ ما يلي:

عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَا يَنْظُرُ اللهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ**». متفق عليه. وعنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ تَعَظَّمَ فِي نَفْسِهِ، أَوِ اخْتَالَ فِي مِشْيَتِهِ؛ لَقِيَ اللهَ ـ تَبَارَكَ، وتَعَالَى ـ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**». رواه الطبرانيُّ في الكبير، والحاكم بنحوه. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي**

فِي حُلَّةٍ، تُعْجِبُهُ نَفْسُهُ، ومُرَجِّلٌ جُمَّتَهُ، يَخْتَالُ فِي مِشْيَتِهِ؛ إِذْ خَسَفَ اللهُ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ». متفق عليه.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله ـ جلَّ وعلا ـ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازعني وَاحِداً مِنْهُمَا؛ أَلْقَيْتُهُ فِي النَّارِ**». رواه ابن ماجه، وغيره، والأحاديث في ذلك كثيرةٌ مشهورةٌ مسطورة.

الإعراب: ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾: الواو: حرف استئناف. (اعبدوا): فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة التي هي فاعله، والألف للتفريق بين واو العلة، وواو الضمير. هذا هو الإعراب المتعارف عليه، والمشهور بين الناس، والإعراب الحقيقي أن يقال في مثل ذلك: فعل أمر مبني على سكون مقدَّر على آخره، منع من ظهوره إرادة التخلُّص من التقاء الساكنين. أو يقال: منع من ظهوره اشتغال المحل بالضمِّ الذي جيء به لمناسبة واو الجماعة. وما أجدرك أن تلاحظ هذا في كلِّ فعلِ أمرٍ مسندٍ إلى واو الجماعة، أو إلى ألف الاثنين، مثل: اعبدا، وحرِّك بالفتحة لمناسبة ألف الاثنين، أو إلى ياء المؤنثة المخاطبة، مثل: اعبدي، وقد حرك بالكسرة لمناسبة ياء المخاطبة. والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تُشۡرِكُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا)، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها مثلها. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿شَيۡـٔٗاۖ﴾: صفة لمفعول مطلق محذوف.

﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ﴾: الواو: حرف عطف. (بالوالدين): جار ومجرور متعلِّقان بفعل محذوف، والتقدير: أحسنوا بالوالدين، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه مثنًّى لفظاً، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه من الأسماء الخمسة. و(ذي) مضاف، و﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة الجر كسرة مقدرة على الألف للتعذُّر. ﴿وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ﴾: هذه الأسماء معطوفة على (ذي القربى). ﴿ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: صفة (الجار) مجرور. . .إلخ. ﴿ٱلۡجُنُبِ﴾: صفة (الجار). ﴿بِٱلۡجَنۢبِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من (الصاحب) وهو أولى مِنَ التعليق به نفسه. ﴿وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: معطوف أيضاً على ما قبله.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): معطوفة على المجرورات السَّابقة مبنية على السُّكون في محلِّ جرٍّ، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿مَلَكَتۡ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿أَيۡمَٰنُكُمۡۗ﴾: فاعله، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، والتقدير: والذي، أو: وشيء ملكته أيمانكم، وعلى

اعتبار (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بمصدر، والمصدر يؤوَّل باسم مفعول، التقدير: ومملوك أيمانكم.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها، والمعلَّل محذوف؛ إذ التقدير: لا تفتخروا على هؤلاء؛ لأنَّ الله . . . إلخ. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿مَن﴾ وهو العائد، أو الرابط. ﴿مُخْتَالًا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾. ﴿فَخُورًا﴾: خبر ثان لها، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾ أو صفتها.

﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾﴾

الشرح: قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت الآية الكريمة في اليهود الذين بخلوا ببيان صفة النبي ﷺ فكتموها، وعلى هذا يكون المراد بالبخل: كتمان العلم. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في جماعة من اليهود كانوا يأتون رجالاً من الأنصار، ويقولون لهم: لا تنفقوا أموالكم، فإنا نخشى عليكم الفقر، ولا تدرون ما يكون. وقيل: يحتمل أن يكون المراد بالبخل: كتمان العلم، ومنع المال؛ لأنَّ البخل في كلام العرب منع السَّائل من فضل ما لديه، وإمساك المقتنيات. وفي الشَّرع: البخل عبارة عن إمساك الواجب، ومنعه. وإذا كان كذلك؛ أمكن حمله على منع المال، ومنع العلم. ولا بأس به، وبالإضافة لما ذكرته بشأن البخل، والشح في الآية رقم [١٨٠] من سورة (آل عمران) أذكر هنا ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ عَبْدٍ أَبَداً. وَلَا يَجْتَمِعُ شُحٌّ، وَإِيْمَانٌ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَداً**». رواه النَّسائيُّ، وغيره. وعن الحسن البصري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ خَيْراً؛ وَلَّى أَمْرَهُمُ الْحُكَمَاءَ، وَجَعَلَ الْمَالَ عِنْدَ السُّمَحَاءِ. وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ شَرّاً؛ وَلَّى أَمْرَهُمُ السُّفَهَاءَ وَجَعَلَ الْمَالَ عِنْدَ الْبُخَلَاءِ**». رواه أبو داود في مراسيله.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ، عن رسول الله ﷺ، عن جبريل ـ عليه السلام ـ عن الله تعالى قال: «**إِنَّ هَذَا دِينٌ ارْتَضَيْتُهُ لِنَفْسِي، وَلَنْ يَصْلُحَ لَهُ إِلَّا السَّخَاءُ، وحُسْنُ الْخُلُقِ، فَأَكْرِمُوهُ بِهِمَا مَا صَحِبْتُمُوهُ**». رواه الطَّبراني في الأوسط. وقال عليٌّ ـ كرَّم الله وجهه ـ: إذا أقبلت عليك الدنيا؛ فأنفق منها، فإنَّها لا تفنى، وإذا أدبرت عنك؛ فأنفق منها، فإنَّها لا تبقى، وأنشد: [البسيط]

لَا تَبْخَلَنَّ بِدُنْيَا وَهْيَ مُقْبِلَةٌ فَلَيْسَ يَنْقُصُهَا التَّبْذِيرُ وَالسَّرَفُ
وَإِنْ تَوَلَّتْ فَأَحْرَى أَنْ تَجُودَ بِهَا فَالْحَمْدُ مِنْهَا إِذَا مَا أَدْبَرَتْ خَلَفُ

ورحم الله مَنْ قال: [الوافر]

وَذِي حِرْصٍ تَرَاهُ يَلُمُّ وَفْراً لِوَارِثِهِ وَيَدْفَعُ عَنْ حِمَاهُ
كَكَلْبِ الصَّيْدِ يَرْكُضُ وَهْوَ طَاوٍ فَرِيسَتَهُ لِيَأْكُلَهَا سِوَاهُ

﴿وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾: قيل: هم الأغنياء؛ الذين كتموا الغنى، وأظهروا الفقر، وبخلوا بالمال. وقيل: المراد اليهود الذين كتموا صفة محمد ﷺ الموجودة في التوراة، والإنجيل.

عن عطاء بن يسار ـ رحمه الله تعالى ـ قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل، والله إنَّه لموصوف في التَّوراة بصفته في القرآن: «**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً، ومُبَشِّراً، وَنَذِيراً، وَحِرْزاً للأُمِّيينَ، أَنْتَ عَبْدِي، وَرَسُولِي، سَمَّيْتُكَ المُتوكِّلَ، لَيْسَ بِفظٍّ، وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَّابٍ بالأَسْوَاقِ، ولا يَدْفَعُ السَّيِّئةِ بالسَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَعْفُو، ويَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبضَهُ اللهُ؛ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ، بِأَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَيَفْتَحَ بِهَا أَعْيُناً عمياً، وآذاناً صُمّاً، وَقُلُوباً غُلْفاً**». رواه البخاريُّ، وأحمد، رحمهما الله تعالى!.

هذا؛ و(كتم) من باب: نصر، وربما عُدِّي إلى مفعولين، فيقال: كَتَمْتُ زَيْداً الحديثَ، ومنه الآية رقم [٤٢] الآتية، والأكثر أن يتعدَّى للثاني بحرف الجر، قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٥٩] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ...﴾ إلخ، وتزاد (مِنْ) جوازاً في المفعول الأول، فيقال: كتمت مِنْ زيدٍ الحديث، وكَتَّمَ الشيء: بالغ في كتمانه، أي: في إخفائه، قال الرسول ﷺ: «**اسْتَعِينُوا عَلَى قَضَاءِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ**» قال صاحب القاموس: والكَتَم محركةً، والكُتْمان بالضَّمِّ: نبتٌ يخلط بالحناء، ويخضَّب به الشعر، ويصنع منه مِداد الكتابة. انتهى.

ورحم الله البوصيري إذ يقول: [البسيط]

فَإِنَّ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ مَا اتَّعَظَتْ مِنْ جَهْلِهَا بِنَذِيرِ الشَّيْبِ والْهَرَمِ
وَلَا أَعَدَّتْ مِنَ الْفِعْلِ الْجَمِيلِ قِرَى ضَيْفٍ أَلَمَّ بِرَأْسِي غَيْرَ مُحْتَشِمِ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنِّي مَا أُوَقِّرُهُ كَتَمْتُ سِرّاً بَدَا لِي مِنْهُ بِالْكَتَمِ

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ﴾: للجاحدين نعمة الله عليهم؛ إذ يراد بالكفر: الجحود. ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾: أي: يُهانون به في الآخرة. وإعلاله مثل إعلال: ﴿مُّبِينًا﴾ في الآية رقم [٢٠].

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ اسم موصول مبني على الفتح في محلِّ نصبٍ بدلاً مِنْ: ﴿مَن كَانَ﴾ في الآية السابقة، أو في محل نصب على الذم بفعل محذوف، أو هو في محل رفع لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، وتكون الجملة بدلاً من جملة: ﴿كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ أو مفسرة لها، أو الموصول في محل رفع مبتدأ خبره محذوف، التقدير: الذين يبخلون بما أعطوا، ومنحوا. وأجيز اعتبار الخبر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ...﴾ إلخ على بعدٍ فيه. ﴿يَبْخَلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، ومتعلقه محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والتي بعدها معطوفة عليها، لا محلَّ لها مثلها، وكذلك جملة: ﴿وَيَكْتُمُونَ...﴾ إلخ معطوفة عليها. ﴿مَآ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذر، والهاء مفعول به أول. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلِّقان بمحذوف حال من المفعول الثاني المقدَّر. و﴿مِن﴾: بيان لما أبهم في: ﴿مَآ﴾، والهاء في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة المصدر لفاعله، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَآ﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: يكتمون الذي، أو: شيئاً آتاهم الله إيَّاه مِنْ فضله.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: الواو: واو الحال. (أعتدنا): فعل، وفاعل. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مُّهِينًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، وإعادة (الكافرين)، وكان حقُّه الإضمار، وأعاده بلفظ (الكافرين) للتشنيع على الباخلين، والكاتمين، و«قد» مقدرة قبل الجملة. وإن اعتبرتها مستأنفةً؛ فلا محلَّ لها.

﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ...﴾ إلخ: يعني: للفخار، والسُّمعة، وليقال: ما أسخاهم! وما أجودهم! لا يريدون بما أنفقوا وجه الله تعالى. نزلت الآية في اليهود الذين يبخلون، ويأمرون الناس بالبخل. . .إلخ. وقيل: نزلت في المنافقين؛ لأنَّ الرِّياء ضربٌ مِنَ النِّفاق. وقيل: نزلت في مشركي مكَّة المنفقينَ أموالهم في عداوة رسول الله ﷺ في غزوة بدر وغيرها. هذا؛ والرياء شركٌ. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: «**قال الله تبارك وتعالى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي غَيْرِي؛ تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**». أخرجه مسلم.

وعن شدَّاد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه سمع النبي ﷺ يقول: «**مَنْ صَامَ يُرَائِي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ. وَمَنْ صَلَّى يُرَائِي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ. وَمَنْ تَصَدَّقَ يُرَائِي؛ فَقَدْ أَشْرَكَ**». رواه البيهقيُّ.

﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي: الإيمان الحقيقي. ﴿وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾: هو آخر أيام الدُّنيا، فيه الحشر، والنشر، والحساب، والجزاء، ودخول أهل الجنَّة الجنَّةَ بالفضل الإلهيِّ، ودخول أهل النَّار النَّارَ بالعدل الربَّانيِّ.

﴿وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا...﴾ إلخ. يعني: من يكن الشَّيطان صاحبه، وخليله؛ فبئس الصَّاحب! وبئس الخليل الشيطان في الدنيا وفي الآخرة! وبيَّن الله نتيجة صداقة الشيطان في سورة (ق) وفي سورة (إبراهيم) على نبيِّنا، وعليه ألف صلاةٍ، وألف سلام. والقرين: المقارن، أي: الصاحب، والصديق. قال طرفة في معلَّقته ـ وينسب لعديِّ بن زيد العبادي: وهو مذكور في كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِيْنِهِ ... فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

الإعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): معطوف على ما قبله على جميع الوجوه المعتبرة فيه. ﴿يُنفِقُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. ﴿أَمْوَٰلَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿رِئَآءَ﴾: حال بمعنى مرائين، أو مفعول لأجله، أي: لأجل الرِّياء. وقيل: صفة لمفعول مطلق محذوف، والتقدير: إنفاقاً رئاء. وهو ضعيف. و﴿رِئَآءَ﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾ مضاف إليه، مِنْ إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿بِٱللَّهِ﴾ متعلقان بما قبلهما. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): حرف نفي. ﴿بِٱلْيَوْمِ﴾: معطوفان على ما قبلهما. ﴿ٱلْآخِرِ﴾: صفة: (اليوم).

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَكُنِ﴾: فعل مضارع ناقص فعل الشرط مجزوم. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: اسم: ﴿يَكُنِ﴾. ﴿لَهُۥ﴾. جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿قَرِينًا﴾: خبر: ﴿يَكُنِ﴾. ﴿فَسَآءَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ساء): فعل جامد لإنشاء الذمِّ، وفاعله ضمير مستتر يفسِّره التمييز الذي بعده، والمخصوص بالذمِّ محذوف، التقدير: فساء قريناً الشَّيطانُ، وذرِّيته! وهذه الجملة في محلِّ جزم جواب الشرط عند الجمهور، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما ذكرته مراراً، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن يَكُنِ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ...﴾ إلخ: أي: وأيَّةُ تبعةٍ، ومؤاخذةٍ، ووبالٍ عليهم في الإيمان بالله، واليوم الآخر؟! والجواب: لا تبعة، ولا ضرر عليهم. والمراد: الذمُّ، والتَّوبيخ للذين أعرضوا عن الإسلام؛ لأنَّ الواقع كلُّ مصلحةٍ، ومنفعةٍ موجودةٌ في الإيمان بالله واليوم الآخر، وهذا كقولك للعاقِّ: ما ضرَّك لو كنت بارّاً بوالديك؟! وقد علم: أنَّه لا مضرَّة في البرِّ، والإحسان للوالدين، ولكنَّه ذمٌّ، وتوبيخٌ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾: تهديدٌ، ووعيدٌ لِلَّذين أعرضوا عن الإيمان بالله، واليوم الآخر... إلخ.

الإعراب: ﴿وَمَاذَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. (ذا): اسم موصول بمعنى الَّذي مبني على السكون في محل رفع خبره. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف صلة (ذا). هذا؛ ويجوز اعتبار (ماذا) اسماً مركباً مبنيّاً على السكون في محل رفع مبتدأ، والجار والمجرور: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ متعلِّقان بمحذوف خبره، و الجملة الاسمية على الاعتبارين مستأنفةٌ، لا محلَّ لها. ﴿لَوْ﴾: مصدرية تؤوَّل مع ما بعدها بمصدر. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿ٱلْـَٔاخِرِ﴾: صفة (اليوم). و(لو) والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جرٍّ بحرف جر محذوف. انظر تقديره في الشَّرح. وقيل: هي الامتناعية جوابها محذوفٌ، التقدير: لو آمنوا؛ لم يضرَّهم الإيمان شيئاً. والأول أقوى. ﴿وَأَنفَقُوا۟﴾: معطوف على: ﴿ءَامَنُوا۟﴾، ويقدَّر مثله بمصدر، انظر الشرح. ﴿مِمَّا﴾: متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ﴾: فعل ماض، ومفعوله الأول، وفاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: وأنفقوا مِنَ الذي، أو مِنْ شيءٍ رزقهم الله إيَّاه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾: إعرابها واضح إن شاء الله. والجملة الفعلية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿بِهِمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿عَلِيمًا﴾ بعدهما.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي: إنَّ اللهَ لا يبخس الناس، ولا ينقصهم مِنْ ثواب عملهم وَزْنَ ذرَّةٍ، بل يجازيهم بها، ويثيبهم عليها، فهو كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾. وفي صحيح مسلم: عن أنس ـ رضي الله

عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِناً حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَيُجْزَى بِهَا فِي الآخِرَةِ. وأَمَّا الْكَافِرُ؛ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِها للهِ في الدُّنْيَا؛ حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ؛ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا**». هذا والذَّرَّة: النَّملة الحمراء الصَّغيرة، وتقال لكلِّ جزءٍ مِنْ أجزاء الهباء المنتشر في الفَضاء، وهي لا ترى إلا في ضوء الشَّمس الدَّاخل إلى مكانٍ مظلم.

﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا﴾ أي: يكثر ثوابها، ويبارك فيها، قال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: لأن تفضل حسناتي على سيئاتي بمثقال ذرَّة أحبُّ إليَّ من الدُّنيا وما فيها. وفي الصَّحيحين عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ في حديث الشفاعة الطَّويل، وفيه: «**فيقول الله عزَّ وجلَّ: ارْجِعُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ**». وفي لفظٍ: «**أدنَى مثقالِ حبةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمانٍ، فَأَخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ. فيُخرجون خلقاً كثيراً**». ثمَّ قال أبو سعيد ـ رضي الله عنه ـ: اقرؤوا إن شئتم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾.

وقال ابن أبي حاتم: قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: يؤتى بالعبد، أو بالأَمَة، فينادي منادٍ على رؤوس الخلائق: هذا فلان بن فلان، مَنْ كان له عليه حقٌّ؛ فليأت إلى حقِّه، ثمَّ يقول: آتِ هؤلاء حقوقهم! فيقول: يا ربِّ مِنْ أين لي، وقد ذهبت الدُّنيا عنِّي؟! فيقول الله تعالى للملائكة: انظروا إلى أعماله الصَّالحة، فأعطوهم منها. فإنْ بقي منها مثقال ذرَّةٍ مِنْ حسنة؛ قالت الملائكة: يا رب ـ وهو أعلم بذلك منهم ـ قد أُعْطِي لكلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وبقي مثقال ذرَّةٍ من حسنةٍ، فيقول الله تعالى للملائكة: ضعِّفوها لعبدي، وأدخلوه بفضل رحمتي الجنَّة. ومصداقه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ...﴾ إلخ. وإن كان عبداً شقيّاً؛ قالت الملائكة: إلٰهنا! فنيت حسناتُه، وبقيت سيِّئاته، وبقي طالبون كثير، فيقول الله تعالى: خذوا مِنْ سيئاتهم، وأضيفوها إلى سيِّئاته، ثمَّ صكُّوا له صكّاً إلى النَّار.

فالآية على هذا التفسير في الخصوم، وأنَّه تعالى لا يظلم مثقال ذرَّةٍ للخصم على الخصم يأخذ له منه، ولا يظلم مثقال ذرة تبقى له، بل يثيبه عليها، ويضعفها له، وقد تقدَّم في الآية رقم [٢٨] عن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ هذه الآية إحدى الآيات، الَّتي هي خيرٌ ممَّا طلعت عليه الشَّمس.

﴿وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: الجنة. والمعنى: يعطي مِنْ عنده أجراً عظيماً بعد مضاعفة الحسنة الَّتي توفرت له. قال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: إذا قال الله عزَّ وجل: ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ فَمَنْ يقدر قدره؟! وفيه إبطال قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة مع أنَّ له حسناتٍ كثيرةً، وأعمالاً صالحاتٍ.

هذا؛ والضِّعف بكسر الضاد، وسكون العين: مِثْلُ الشَّيء، وضعفاه: مثلاه، وأضعافه: أمثاله، هذا هو الأصل في الضِّعف، ثمَّ استعمل في المثل، وما زاد، وليس للزِّيادة حدٌّ، فيقال:

هذا ضعف هذا، أي: مثله، أو مثلاه، أو ثلاثة أمثاله، وهكذا. ويقال: أضعفت الشيء، وضعَّفته، وضاعفته، فمعناه: ضممت إليه مثلَه، فصاعداً. وقال بعضهم: ضاعفت أبلغ مِنْ ضعَّفت، ولذا قرأ بعضهم في سورة (الأحزاب): ﴿يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِۚ﴾ وفي (الفرقان): ﴿يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ﴾ وفي هذه السورة: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا﴾. هذا؛ وللضِّعف بتثليث الضَّاد معانٍ نظمها بعضهم بقوله: [الرجز]

فِي الرَّأْيِ وَالْعَقْلِ يَكُونُ الضَّعْفُ وَالْوَهْنُ فِي الْجِسْمِ فَذَاكَ الضُّعْفُ
زِيَادَةُ الْمِثْلِ كَذَا وَالضُّعْفُ جَمْعُ ضَعِيفٍ وَهْوَ شَاكِي الضُّرِّ

هذا؛ و(لدن) بمعنى: عند، وفيها إحدى عشر لغة، أفصحها إثبات النون ساكنة، وهي لغة القرآن الكريم، وهي بجميع لغاتها معناها: أول غاية زمانٍ، أو مكان، وقلَّما تفارقها «مِنْ» الجارة لها، فإذا أضيفت إلى الجملة؛ تمحَّضت للزَّمان؛ لأنَّ ظروف المكان لا يضاف منها إلى الجملة إلا «حيث». ويجوز تصدير الجملة بحرف مصدري لِمَا لَمْ يَتمحَّض. (لدنْ) في الأصل للزَّمان. وإذا أضيفت للضمير وجب إثبات النون؛ لأنَّه لا يقال: لده، ولا لدك. وانظر الآية [٨] من سورة (آل عمران).

﴿تَكُ﴾: أصله تكونُ، فلمَّا دخل الجازم؛ صار: «إنْ تكُونْ» فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، فصار «إنْ تَكُنْ» ثم حذفت النون الساكنة للتخفيف ولكثرة الاستعمال. وهذا الحذف جائز، وغير لازم، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته ممَّا اختصت به كان: [الرجز]

وَمِنْ مُضَارِعٍ لِكَانَ مُنْجَزِمْ تُحْذَفُ نُونٌ وَهْوَ حَذْفٌ مَا الْتُزِمْ

ولحذف النون شروط: أن يكون مضارعاً مجزوماً بالسُّكون، وأن لا يكون بعده ساكن، ولا ضمير متَّصل كما في الآية الكريمة، وغيره كثير، ومثلها كثير في الشِّعر العربي، ولا تُحذف عند فقد أحد الشروط إلا في ضرورة الشِّعر، كما في قول الخنجر بن صخر الأسدي ـ وهو الشاهد رقم [٢٤٣] من كتابنا: «فتح ربِّ البرية» ـ: [الطويل]

فَإِنْ لَمْ تَكُ الْمِرْآةُ أَبْدَتْ وَسَامَةً فَقَدْ أَبْدَتِ الْمِرْآةُ جَبْهَةَ ضَيْغَمِ

وأيضاً قول الآخر: وهو الشاهد رقم [٢٤٤] من الكتاب المذكور: [الطويل]

إِذَا لَمْ تكُ الْحَاجَاتُ مِنْ هِمَّةِ الْفَتَى فَلَيْسَ بِمُغْنٍ عَنْكَ عَقْدُ الرَّتَائِمِ

وقرئ شاذّاً قوله تعالى: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾ إلخ. ولم تحذف في قول أبي الأسود الدؤلي لجريانه على القاعدة: [الطويل]

دَعِ الْخَمْرَ تَشْرَبْهَا الْغُوَاةُ فَإِنَّنِي رَأَيْتُ أَخَاهَا مُجْزِئاً بِمَكَانِهَا

فَــإِلَّا يَــكُــنْــهَــا أَوْ تَــكُــنْــهُ فَــإِنَّــهُ أَخُــوهَــا غَــذَتْــهُ أُمُّــهُ بِــلِــبَــانِــهَــا

يريد نقيع الزَّبيب.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَظْلِمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محلَّ لها، ومفعول ﴿يَظْلِمُ﴾ محذوف، والتقدير: لا يظلم أحداً. ﴿مِثْقَالَ﴾: صفة مفعول مطلق محذوف، والتقدير: ظلماً مثقال ذرَّةٍ، كما تقول: لا أظلم قليلاً، ولا كثيراً. وقيل: ضمن: ﴿يَظْلِمُ﴾ معنى ما يتعدى لمفعولين، فانتصب: ﴿مِثْقَالَ﴾ على أنَّه مفعول ثان، والأول محذوف، التقدير: لا ينقص، أو لا يغصب أحداً مثقال ذرة من الخير، أو الشر. انتهى. جمل نقلاً عن أبي حيان. و﴿مِثْقَالَ﴾: مضاف، و﴿ذَرَّةٍ﴾: مضاف إليه.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿تَكُ﴾: فعل مضارع ناقص فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه السكون على النون المحذوفة للتخفيف، واسمه ضمير مستتر تقديره: هو، يعود إلى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ وإنَّما أنَّث الضمير؛ لكون: ﴿مِثْقَالَ﴾ مضافاً إلى ﴿ذَرَّةٍ﴾، وهي مؤنثة: أو الاسم محذوف، التقدير: إن تك فِعْلَتُهُ. ﴿حَسَنَةً﴾: خبر: ﴿تَكُ﴾. هذا؛ وقرئ بالرفع على اعتبار: ﴿تَكُ﴾ تامة، و(حسنةٌ) فاعلها، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿يُضَاعِفْهَا﴾: جواب الشَّرط، والفاعل يعود إلى الله، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. وقيل: معطوفة على الجملة الاسمية قبلها.

(يؤت): فعل مضارع معطوف على جواب الشَّرط مجزوم مثله، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾، والمفعول الأول محذوف، التقدير: ويؤت مَنْ يريد. هذا؛ ويجوز في مثل هذا الفعل في العربية النصب على إضمار «أن» والرَّفع على الاستئناف، كما رأيت في الآية رقم [٢٨٣] من سورة (البقرة). ﴿مِن﴾: حرف جر. ﴿لَّدُنْهُ﴾: اسم مبني على السكون في محل جر بـ ﴿مِن﴾، والهاء في محل جر بالإضافة، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلِّقان بمحذوف حال من: ﴿أَجْرًا﴾ كان صفةً له، فلمَّا قُدِّم عليه صار حالاً. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول به. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له.

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾

الشرح: ﴿فَكَيْفَ إِذَا...﴾ إلخ. يعني: فكيف يكون حال هؤلاء المشركين، والمنافقين يوم القيامة. ﴿إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد: بنبيِّها، والمعنى: يؤتى بالأنبياء يشهدون على أممهم، ولها. ﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾: يا محمد. ﴿عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ

شَهِيدًا﴾ أي: شاهداً على مَنْ آمن بالإيمان، وعلى مَنْ كفر بالكفر، وعلى مَنْ نافق بالنفاق. وقيل: المعنى: وجئنا بك يا محمد شاهداً على صدق هؤلاء الأنبياء بأنَّهم بيَّنوا لأممهم طريق الحقِّ، والصَّواب لعلمك بشرعهم، وعقائدهم. هذا؛ وفي الآية ما يسمَّى: السؤال عن المعلوم لتوبيخ السَّامع، وتقريعه.

فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقْرَأ عَلَيَّ الْقُرْآنَ**». فَقُلْتُ: يا رسول الله أقرأ عليك، وعليك أنزل؟ فقال: «**إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**». قال: فقرأتُ عليه سورة (النساء) حتى جئت هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ...﴾ إلخ. قال: «**حَسْبُكَ الآن!**» قال: فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان. متَّفق عليه، وزاد مسلم، فقال: «**وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيْهِمْ**» أو قال: «**مَا كُنْتُ فِيهِمْ**» شكَّ أحد رواته. انتهى خازن.

هذا؛ و«جاء» يستعمل لازماً، إن كان بمعنى حضر، وأقبل، ومتعدِّياً إن كان بمعنى: وصل، وبلغ، فمن الأول ما هو في هذه الآية، ومن الثاني قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾. ومثله «أتى» يستعمل لازماً، ومتعدياً.

(أمَّة): تكون واحداً إذا كان يقتدى به، كقوله تعالى في حقِّ إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا...﴾ إلخ. وقال الرسول ﷺ في زيد بن عمرو بن نفيل: «**يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ**» لأنَّه لم يشرك في دينه غيره، و«الأمَّة» الطريقة، والملَّة، والدِّين، كقوله تعالى، حكاية عن قول المشركين: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾. وكلُّ جنسٍ من الحيوان أمَّة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾، والأمة: الحين، والوقت، كقوله تعالى: ﴿وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد وقتٍ وحين، و«الأمة»: الشجة التي تبلغ الدماغ، يقال: رجل مأموم، وأميم. و«الأمة» أيضاً: القامة، يقال: فلان حسن الأمة، أي: حسن القامة. قال الشاعر: [المتقارب]

وإِنَّ مُعَاوِيَةَ الأكْرَمِينَ حِسَانُ الْوُجُوهِ طِوَالُ الأُمُمْ

الإعراب: ﴿فَكَيْفَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (كيف): اسم استفهام مبني على الفتح في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فكيف حالهم، أو في محل نصب حال، عامله محذوف، التقدير: فكيف يصنع هؤلاء الكفرة، والجملة سواء أكانت اسمية، أو فعلية: مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿إِذَا﴾: ظرف زمان مبني على السكون في محل نصبٍ متعلِّق بالفعل المقدَّر، أو هو متعلِّق بنفس المبتدأ الَّذي قدَّرناه. ﴿جِئْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محلِّ جرٍّ بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها. هذا؛ ومثل هذه الآية في إعرابها الآية رقم [٢٥]: من سورة (آل عمران)، ومثل الآيتين قول الفرزدق ـ وهو الشَّاهد رقم [٢٢٥]: من كتابنا: «فتح رب البريَّة»، والشاهد رقم [٥٢٨]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

فَكَيْفَ إذَا مَرَرْتَ بِدَارِ قَوْمٍ وَجِيْرَانٍ لَنَا كَانُوا كِرَامِ

﴿مِن كُلِّ﴾: متعلقان بما قبلهما، و(كلِّ) مضاف، و﴿أُمَّةٍ﴾: مضاف إليه. ﴿بِشَهِيدٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَجِئْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿بِكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿عَلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الهاء للتنبيه لا محل لها. (أولاء): اسم إشارة مبني عل الكسر في محل جر بـ ﴿عَلَىٰ﴾، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل: ﴿جِئْنَا﴾، أو هما متعلِّقان بـ ﴿شَهِيدًا﴾ بعدهما. ﴿شَهِيدًا﴾: حال من كاف الخطاب.

﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ...﴾ إلخ أي: في اليوم العصيب الذي يشهد فيه كلُّ نبيٍّ على أمته، ويشهد الرَّسول ﷺ على أمَّته يتمنَّى الذين كفروا، وعصوا الرسول لو يدفنوا في الأرض، ثمَّ تسوى بهم كما تسوَّى بالموتى، أو لو تنشق الأرض، فتبتلعهم، ويكونون تراباً، كقوله تعالى في آخر سورة النبأ: ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾.

﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ في رواية عطاء عنه: لو تسوَّى بهم الأرض، وأنَّهم لم يكونوا كتموا أمر محمد ﷺ، ولا كفروا به، ولا نافقوه. فعلى هذا القول يكون الكتمان ما كتموا في الدنيا من صفة محمَّد ﷺ، ونعته، وهو كلام متصل بما قبله.

وقيل: هو كلام مستأنف، قال سعيد بن جبير ـ رحمه الله تعالى ـ: سأل رجل ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فقال: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ، قال: هات ما يختلف عليك، قال: منها قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾، ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كتموا، فقال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإسلام ذنوبهم، ويدخلهم الجنة، فيقول المشركون: تعالوا نقول: ما كنا مشركين، فيقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ رجاء أن يغفر لهم، فيختم على أفواههم، وتنطق أيديهم، وأرجلهم بما كانوا يعملون، فعند ذلك عرفوا: أنَّ الله لا يُكتَم حديثاً، وعنده ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ فلا يختلف عليك القرآن، فإن كلّاً مِنْ عند الله .

وقال الحسن البصري: إنَّها مواطن؛ ففي موطن لا يتكلَّمون، ولا تسمع إلا همساً، وفي موطنٍ يعترفون على أنفسهم، وهو قوله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾. وفي موطنٍ لا يتساءلون، وفي موطنٍ يتساءلون، وفي موطن يسألون الرجعة، وآخر تلك المواطن أن يختم على أفواههم، وتتكلَّم جوارحهم، فهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

هذا؛ و﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف زمان مضاف لظرف آخر، التنوين فيه ينوب عن جملة محذوفة دلَّت عليها الغاية، فإنَّ الأصل: يوم إذ جئنا من كل أمة بشهيد. . .إلخ، و(إذ) مضافة لهذه الجملة، فحذفت الجملة الفعلية، وعوِّض عنها التنوين، وكسرت الذال لالتقاء السَّاكنين، كما كسرت في (صَهٍ، ومَهٍ) عند تنوينهما، ومثل ذلك قل في: حينئذٍ، وساعتئذٍ، ونحوهما.

الإعراب: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ظرف زمان متعلِّق بالفعل بعده. وقيل: متعلِّق بـ﴿شَهِيدًا﴾ قبله، وإذ ظرف لما مضى من الزَّمان مبني على السكون في محل جر بالإضافة، وحرِّك بالكسر لالتقاء الساكنين. ﴿يَوَدُّ﴾ فعل مضارع. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. ﴿كَفَرُوا﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق، والمتعلَّق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، وجملة: ﴿يَوَدُّ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها على تعليق الظرف بـ﴿يَوَدُّ﴾، وصفة له على تعليقه بما قبله. ﴿وَعَصَوُا﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف المحذوفة لالتقاء الساكنين، والواو فاعله، وحركت بالضم لالتقاء الساكنين، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصِّلة، لا محلَّ لها مثلها. ﴿الرَّسُولَ﴾: مفعول به. ﴿لَوْ﴾: حرف مصدري. ﴿تُسَوَّى﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿بِهِمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿الْأَرْضُ﴾: نائب فاعل، و﴿لَوْ﴾ المصدرية والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به لـ﴿يَوَدُّ﴾. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَكْتُمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله. ﴿اللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿حَدِيثًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة لا محلَّ لها. انظر الشرح، وجوز أبو البقاء اعتبارها حالاً من واو الجماعة، ويكون الرَّابط: الواو، والضمير.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (٤٣)﴾

الشرح: وجه اتصال الآية بما قبلها: أنَّ الله تعالى قال: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ثمَّ ذكر بعد الإيمان الصَّلاة التي هي رأس العبادات، ولذلك يُقتل تاركها. ولا يسقط فرضها بحالٍ من الأحوال، بل يجب أن تؤدَّى بقدر الإمكان.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...﴾ إلخ: خصَّ الله سبحانه وتعالى المؤمنين بهذا الخطاب؛ لأنَّهم كانوا يقيمون الصَّلاة، وقد أخذ بعض الصحابة من الخمر، وأتلفت عليهم عقولهم، فخصُّوا بهذا

الخطاب. وقيل لهم: لا تدخلوا في الصلاة، وتُحرموا بها في حال سكركم، ونهى عن قربان الصَّلاة في حال السُّكر، وهو أبلغ في النَّهي عن الصَّلاة في تلك الحالة. والقاعدة: أنَّ الأحكام إذا كانت نواهي؛ يقال فيها: لا تقربوها؛ على حدِّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ﴾، و﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ وهكذا، وإن كانت أوامر، يقال فيها: لا تعتدوها، أي: لا تتجاوزوها، كما في قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾. هذا وقيل: المراد بالصلاة: أمكنتها، وهي المساجد. و﴿سُكَٰرَىٰ﴾ يُقرأ بفتح السين وضمها، كما قرئ: (سَكْرَى) كهَلْكَى، على أنَّه جمع، أو مفرد بمعنى: وأنتم قوم سَكْرَى.

﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ أي: في صلاتكم من الذكر، وقراءة القرآن. وهذا كان قبل نزول تحريم الخمر، كما ستعرفه. ﴿وَلَا جُنُبًا﴾ أي: في حال الجنابة، والجنب يستوي فيه الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث؛ لأنَّه اسم جرى مجرى المصدر الَّذي هو: الإجناب، وأصل الجنابة: البعد، سمِّي الذي أصابته الجنابة جنباً؛ لأنَّه يتجنَّب الصلاة، والمسجد. وقيل: لمجانبته النَّاس؛ حتَّى يغتسل، قال علقمة بن عبدة: [الطويل]

فَلَا تَحْرِمَنِّي نَائِلاً عَنْ جَنَابَةٍ فَإِنِّي امْرُؤٌ وَسْطَ الْقِبَابِ غَرِيبُ

هذا؛ والجنابة تحصل بخروج المنيِّ بأيِّ سبب كان، وبإدخال الحشفة في فرجٍ، ولو بهيمة، ولو من غير إنزال.

هذا؛ ويحرم على الجنب خمسة أشياء: الصَّلاة، والطَّواف، وقراءة القرآن، ودخول المسجد، ومسُّ المصحف، وحمله. ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ العابر هاهنا: اسم فاعل من العبور، وهو قطع الطريق من هذا الجانب إلى الجانب الآخر. واختلف العلماء في معناه على قولين:

أحدهما: أنَّ المراد بالعبور في المسجد، وذلك أنَّ قوماً من الأنصار، كانت أبوابهم في المسجد، فتصيبهم الجنابة، ولا ماء عندهم، ولا ممرَّ لهم إلا في المسجد، فرخَّص لهم العبور فيه. فعلى هذا يكون المراد بالصَّلاة موضع الصَّلاة. والمعنى: لا تقربوا المسجد، وأنتم جنب إلا مجتازين فيه، إمَّا للخروج منه، أو للدخول فيه، مثل أن يكون قد نام في المسجد، فأجنبَ، فيجب الخروج منه، أو يكون الماء في المسجد، فيدخله إليه، أو يكون طريقه عليه، فيمر فيه من غير إقامة. وهذا قول ابن مسعود، وأنس، والحسن البصري، وكثير من التابعين، وإليه ذهب الشَّافعي، وأحمد ـ رضي الله عنهم ـ.

القول الثاني: أنَّ المراد من قوله: ﴿إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ المسافرون، والمعنى: لا تقربوا الصلاة وأنتم جنب إلا أن تكونوا مسافرين، ولم تجدوا ماءً، فتيمَّمُوا. فمنع الجنب من الصّلاة؛ حتَّى يغتسل، إلا أن يكون في سفر، ولا ماء معه، فيتيمَّم، ويصلِّي إلى أن يجد ماءً، فيغتسل.

وهذا قول عليٍّ، وابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، فمن جعل عابري السبيل المسافرين؛ منع الجنب من العبور في المسجد. وهو مذهب أبي حنيفة، رحمه الله تعالى. وصحَّح ابن جرير الطبري، والواحدي القول الأول، ويدلُّ عليه: أنَّ جميع القراء استحسنوا الوقف على قوله: ﴿حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ﴾.

تنبيه: اختلف العلماء في العبور في المسجد، فأباحه قوم على الإطلاق، وهو قول الحسن، وبه قال مالك، والشَّافعي. ومنعه قومٌ على الإطلاق، وهو قول أصحاب الرأي. وقال قوم: يقيم للعبور في المسجد. واختلف العلماء في المكث في المسجد أيضاً للجنب، فمنعه أكثر أهل العلم، وقالوا: لا يجوز للجنب المكث في المسجد بحالٍ، لِمَا روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: جاء رسول الله ﷺ، ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد، فقال: «**وَجِّهُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ**» فخرج إليهم بعدُ، فقال: «**وَجِّهُوا هَذِهِ الْبُيُوتَ عَنِ الْمَسْجِدِ، فَإِنِّي لَا أُحِلُّ الْمَسْجِدَ لِحَائِضٍ، وَلَا جُنُبٍ**». أخرجه أبو داود. وجوز الإمام أحمد المكث في المسجد للجنب بشرط الوضوء. وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يَقْرَأُ الجنُبُ، وَلَا الْحَائِضُ، وَلَا النُّفَسَاءُ مِنَ الْقُرْآنِ شيئاً**». أخرجه الدَّارقطني.

﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ﴾: جمع مريض، وأراد به المرض الذي يضرُّ معه إمساس الماء، فيخاف من استعماله التلف، أو زيادة المرض، فإنَّه يتيمَّم، ويصلي مع وجود الماء، وإن كان بعض أعضائه صحيحاً، وبعضها جريحاً؛ غسل الصَّحيح، ويتيمَّم عن الجريح في الوجه واليدين، لما روي عن جابر ـ رضي الله عنه ـ، قال: خرجنا في سفرنا، فأصاب رجلاً منَّا حجرٌ، فشجَّه في رأسه، ثم احتلم، فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمُّم؟ فقالوا: ما نحد لك رخصة، وأنت تقدر على الماء، فاغتسل، فمات، فلمَّا قدمنا على رسول الله ﷺ أُخبِر بذلك، فقال: «**قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ الله ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا، فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالُ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيْهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ، ويَعْصِرَ، أَوْ يَعْصِب ـ شَكَّ الرَّاوي ـ عَلَى جُرْحِهِ خرقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهِ، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ**». أخرجه أبو داود، والدارقطني.

ولم يُجَوِّز أصحاب الرأي الحنفيَّة الجمع بين الغُسل، والتيمم، قالوا: إذا كان أكثر أعضائه أو بدنه صحيحاً غسل الصحيح، ولا يتيمَّم عليه، وإن كان الأكثر جريحاً؛ اقتصر على التيمُّم. والحديث حجَّة لِمَنْ أوجب الجمع بين الغُسْلِ، والتيمُّم.

﴿أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ يعني: أو كنتم مسافرين، وأراد به السَّفر الطَّويل، والقصير، وعدم الماء، فإنَّه يتيمَّم، ويصلِّي، ولا إعادة عليه، لما روي عن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ قال: اجتمعت غُنَيْمَةٌ عند رسول الله ﷺ: أي: مِنْ مال الزَّكاة، فقال: «**يا أبا ذرٍّ! ابْدُ فيها**» أي: اخرج إلى البادية فيها، فبدوتُ إلى الربذة، فكانت تصيبني الجنابة، فأمكث الخمس، والستَّ، فأتيت رسول الله ﷺ

فأخبرتُه، فقال: «**ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ يَا أَبَا ذَرٍّ! لأُمِّكَ الْوَيْلُ!**» فدعا بجاريةٍ سوداء، فجاءت بعسٍّ فيه ماء، فسترتني بثوب، واستترت بالرَّاحلة، فاغتسلتُ، فكأني ألقيت عني جبلاً، فقال ﷺ: «**الصَّعِيدُ الطَّيِّبُ وَضُوءُ الْمُسْلِمِ إِلَى عَشْرِ سِنِينَ، فَإِذَا وَجَدْتَ الْمَاءَ؛ فَأَمِسَّهُ جِلْدَكَ، فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ**». أخرجه أبو داود.

أمَّا إذا لم يكن الرَّجل مريضاً، ولا على سفرٍ، وعَدِمَ الماءَ في موضع لا يعدم فيه غالباً؛ فإنَّه يتيمَّم، ويصلي، ثمَّ يعيد إذا وجد الماء، وقدر عليه. وبه قال الشَّافعيُّ. وقال مالكٌ، والأوزاعيُّ: لا إعادة عليه، وقال أبو حنيفة: يؤخِّر الصَّلاة حتَّى يجد الماء.

﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾: الغائط: المكان المطمئن من الأرض، وجمعه: الغيطان، وكانت عادة العرب إتيان الغائط للحدث، فكنوا به عن الحَدَث، وذلك أنَّ الرَّجل منهم كان إذا أراد قضاء الحاجة طلب غائطاً مِنَ الأرض ـ يعني: مكاناً منخفضاً من الأرض ـ يحجبه عن أعين الناس، فسمِّي الحدثُ بهذا الاسم، فهو من باب تسمية الشَّيء باسم مكانه.

﴿أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾: إذا أفضى الرَّجل بيده، أو بشيءٍ مِنْ بدنه إلى شيءٍ مِنْ بدن المرأة، ولا حائل بينهما؛ انتقض وضوءُهما، وهو قول ابن مسعودٍ، وابن عمر، وبه قال الزُّهري، والأوزاعيُّ، والشَّافعيُّ، لِمَا رواه الشافعي بسنده عن ابن عمر: أنَّه قال: «**قُبْلَةُ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ، وَجَسُّهَا بِيَدِهِ مِنَ الْمُلَامَسَةِ، فَمَنْ قَبَّلَ امْرَأَتَهُ، أَوْ جَسَّهَا بِيَدِهِ؛ فَعَلَيْهِ الْوَضُوءُ**». أخرجه مالكٌ في الموطَّأ. وقال الشافعي: وبلغنا عن ابن مسعودٍ مثله، وقال مالكٌ، والليث بن سعد، وأحمد: إذا كان اللمس بشهوة؛ انتقض الوضوء، وإن لم يكن بشهوةٍ؛ فلا. وقال أبو حنيفة: لا ينتقض الوضوء باللَّمس إلا أن يحدث الانتشار، وقال: إنَّ ﴿لَـٰمَسْتُمُ﴾ بمعنى: جامعتم، ويؤيد الأوَّل قراءة: (لمستم) واللَّمس يطلق في الشَّرع على الجسِّ باليد، قال تعالى في سورة (الأنعام): ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَـٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ أي: جسُّوهُ. وقال ﷺ لِمَاعِزٍ حين أقرَّ بالزنى يعرض له بالرجوع عن الإقرار: «**لعلَّك قبلت، أو لمست**». وفي الحديث الصحيح: «**والْيَدُ تَزْنِي، وَزِنَاهَا اللَّمْسُ**». وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: قلَّ يومٌ إلا ورسولُ الله ﷺ يطوف علينا، فيقبِّل، ويلمس، ولا دليل فيه لعدم النَّقض، بل هو دليل على أنَّ اللَّمس: المُلامسةُ، لا الجماعُ.

﴿فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾: اعلم أنَّ التيمم من خصائص هذه الأمَّة، خصَّها الله به؛ ليسهل عليهم أسباب العبادة، ويدلُّ على ذلك ما رُوي عن حُذيفة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِداً، وجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُوراً؛ إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ**». أخرجه مسلم.

وكان سبب بدء التيمُّم ما رُوي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره حتَّى إذا كنَّا بالبيداء، أو بذات الجيش؛ انقطع عِقْدٌ لي، فأقام رسول الله

ﷺ على الناس، وأقام الناس معه، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فأتى النَّاسُ إلى أبي بكرٍ ـ رضي الله عنه ـ فقالوا: ألا ترى إلى ما صنعت عائشة برسول الله ﷺ، وبالنَّاس معه، وليس معهم ماء؟ فجاء أبو بكر، ورسول الله ﷺ واضعٌ رأسه على فخذي؛ قد نام، فقال: حبستِ رسول الله ﷺ والناسَ، وليس معهم ماءٌ قالت عائشة: فعاتبني أبو بكر، وقال ما شاء الله أن يقول، وجعل يطعن بيده بخاصرتي، فلا يمنعني من التَّحرُّك، إلا مكان رسول الله ﷺ على فخذي، فنام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماءٍ، فأنزل الله آية التيمُّم، فتيمَّموا، فقال أُسَيْدُ بن حضير رضي الله عنه ـ وهو أحدُ النُّقباء ـ: ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر! قالت عائشة: فبعثنا البعير الذي كنتُ عليه، فوجدنا العِقْد تحته. أخرجاه في الصَّحيحين.

واختُلِف في الصَّعيد الطيب: فقال الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ: لا يقع اسم الصعيد إلا على تراب ذي غبار، وهو القُدوة في اللُّغة، وقوله في ذلك حجَّة، وقد وافقه على ذلك الفراء، وأبو عبيدة في أنَّه التراب. وجميع الأقوال في الصَّعيد صحيحةٌ في اللُّغة، وقد قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: الصَّعيد: هو التراب، ولأن النبيَّ ﷺ قال: «**جُعِلَتْ ليَ الأرضُ مَسْجداً، وترابُها طهوراً**». فخصَّ التراب بالطَّهور، ولأنَّ الله تعالى وصف الصَّعيد بالطَّيب، والطَّيب من الأرض الَّذي هو ينبت فيها، بدليل قوله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ فعلى هذا ما لا يُنبت ليس بطيِّب، وللشَّافعي أيضاً قوله تعالى: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ وكلمة (مِنْ) للتبعيض هنا، ولا يأتي ذلك في الصَّخر الذي لا تراب عليه. وأيضاً فإنَّه يقال للغبار: صعيداً؛ لأنَّه مأخوذ من الصُّعود، وهو الارتفاع، ولا يكون ذلك في الصَّخر، وما أشبهه.

وذهب أبو حنيفة، ومالك ـ رحمهما الله تعالى ـ إلى أنَّه يجوز التيمُّم بكل ما هو من جِنْسِ الأرض، كالرَّمل، والجصِّ، والنُّورة والزَّرنيخ، ونحو ذلك حتى لو ضرب يده على صخرةٍ ملساء، لا غبارَ عليها؛ صحَّ تيمُّمه عندهم، واحتجُّوا بظاهر الآية، قالوا: لأنَّ التيمُّم القصد، والصَّعيد اسم لما تصاعد من الأرض، فقوله تعالى: ﴿فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ أي: اقصدوا أرضاً، فوجب أن يكون هذا القَدْر كافياً.

﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ﴾: الوجه الممسوح في التيمُّم هو المحدود في الوضوء، وفي اليدين إلى المرافق، وذلك يكون بضربتين: ضربة للوجه، وضربة لليدين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا﴾: يتجاوز عن ذنوب عباده، ويعفو عنهم، ويصفح، فهو صيغة مبالغة. ﴿غَفُورًا﴾: ستوراً على عباده، يغفر الذنوب، ويسترها. وفيه تنبيه على أنَّ الله تعالى رخَّص لعباده أمر العبادة، ويسَّرها عليهم؛ لأنَّ مَنْ كانت عادته أن يغفر الذُّنوب، ويسترها؛ كان أولى بأن يرخِّص للعاجزين أمر العبادة.

بعد هذا: أفادت الآية الكريمة: أنَّ الجنب، والمحدث إذا فقد كلٌّ منهما الماء؛ يتيمَّم بالتُّراب، لا فرق بينهما في الحكم، ويقاس عليهما الحائض، والنفساء، وكذلك يتيمَّم المريض، والَّذي يخشى ضرراً من البرد، وأنَّ التيمُّم في الوجه، واليدين دون سائر الأعضاء.

بعد هذا انظر ما ذكرته في سورة (البقرة) رقم [٢١٩] بشأن تحريم الخمر، وكيف كان تحريمه على دفعات، ومراتب؛ تجدْ ما يسرك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: انظر إعراب مثل هذه الكلمات في الآية رقم [٢٩]. ﴿وَأَنتُمۡ﴾: الواو: واو الحال. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿سُكَٰرَىٰ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الألف للتعذر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر. ﴿تَعۡلَمُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ«أن» مضمرة بعد: ﴿حَتَّىٰ﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والفعل بمعنى: تعرفوا، فلذا اكتفى بمفعول واحد، و«أن» المضمرة والفعل في تأويل مصدر في محل جر بـ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل قبلهما. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل نصب مفعول به، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: حتى تعلموا الذي، أو: شيئاً تقولونه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤول مع الفعل بمصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: حتى تعلموا قولكم. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿جُنُبًا﴾: معطوف على الجملة الاسمية الواقعة حالاً. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿عَابِرِي﴾: مستثنى من عموم الأحوال منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم. وحذفت النون للإضافة، و﴿عَابِرِي﴾: مضاف، و﴿سَبِيلٍ﴾: مضاف إليه من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. هذا؛ وهناك قول بأنَّ ﴿إِلَّا﴾ صفة: ﴿جُنُبًا﴾ وهي بمعنى: غير، ظهر إعرابها على ما بعدها بطريق العارية لكونها على صورة الحرف، وهي مضافة، و﴿عَابِرِي﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بالحركة المنقولة إليه من ﴿إِلَّا﴾ ووقوع ﴿إِلَّا﴾، بمعنى «غير» قاله به ابن هشام في المغني، ومن شواهدها قول لبيد بن ربيعة رضي الله عنه ـ وهو الشَّاهد رقم [١١٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

لَوْ كَانَ غَيْرِي ـ سُلَيْمَى ـ الدَّهْرَ غَيَّرَهُ وَقْعُ الْحَوَادِثِ إِلَّا الصَّارِمُ الذَّكَرُ

﴿حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْ﴾: إعرابه مثل إعراب: ﴿حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ﴾ بلا فارق، والجار والمجرور الناتجان من ﴿حَتَّىٰ﴾ والمصدر المؤوَّل متعلِّقان بالفعل: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ﴾ أيضاً.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء اسمه. ﴿مَّرۡضَىٰٓ﴾: خبر كان منصوب، وعلامة نصبه

فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية. ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿أَوۡ﴾: حرف عطف. ﴿عَلَىٰ سَفَرٍ﴾: معطوفان على ﴿مَّرۡضَىٰٓ﴾ فهما متعلقان بمحذوف خبر (كان) في المعنى. ﴿جَآءَ أَحَدٌ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على ﴿مَّرۡضَىٰٓ﴾ أيضاً كذا قيل، والأصح: أنَّها معطوفة على ﴿كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ أيضاً. ﴿مِّنكُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿أَحَدٌ﴾. ﴿مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ﴾: متعلقان بـ﴿جَآءَ﴾. ﴿لَٰمَسۡتُمُ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾. ﴿ٱلنِّسَآءَ﴾: مفعول به. ﴿فَلَمۡ﴾: الفاء: حرف عطف. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَجِدُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لم) وعلامة جزمه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مَآءً﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: ﴿كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ﴾ أيضاً. ﴿فَتَيَمَّمُواْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (تيمموا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنَّها لم تحل محل المفرد. و(إن) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له من الإعراب، وبعده كلام مقدَّر، أي: فاضربوا به ضربتين.

﴿صَعِيدًا﴾: مفعول به. وقيل: منصوب بنزع الخافض؛ أي: بصعيد. وقيل: هو ظرف مكان، ومن جعل ﴿طَيِّبًا﴾ بمعنى: حلالاً نصبه على الحال، أو المصدر، وقوله تعالى: (امْسَحُوا) معطوف على المحذوف؛ الذي رأيت تقديره. ﴿بِوُجُوهِكُمۡ﴾: الباء: حرف جر صلة. (وجوهكم): مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدّرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾: خبران لـ ﴿كَانَ﴾، وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها مستأنفةٌ، ومفيدةٌ للتَّعليل.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يَشۡتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾: ألم تنظر. فهو تعجب مِنْ حال اليهود، والخطاب للنبيِّ ﷺ، ويعمُّ كلَّ مؤمنٍ عاقل عنده شيءٌ من التفكير، والتبصُّر. ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾: المراد بهم علماء اليهود، والمراد بالنصيب الذي أوتوه: ما بُيِّن لهم في التوراة من الأحكام، والعلوم التي من جملتها ما علموه من صفات النبي ﷺ وأحقيَّة الإسلام. ومعنى: ﴿أُوتُواْ﴾: أعطوا، وأصله أوتِيُوا، فاستثقلت الضمة على الياء، فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء، والواو، فحذفت الياء، فصار: (أُوتِوْا) ثم قلبت الكسرة ضمة لمناسبة الواو، فصار: ﴿أُوتُواْ﴾.

﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ أي: يختارونها على الهُدى، أو يستبدلونها به، لذا فأصل الكلام: يشترون الضلالة بالهدى، فالباء بمعنى: بدل، وهي داخلة على محذوف، والمراد بأنَّهم يأخذون الرِّشا، ويحرِّفون التوراة. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: لم يكفهم أنْ ضلُّوا في أنفسهم؛ حتَّى تعلَّقت آمالهم بضلالكم أنتم أيها المؤمنون عن سبيل الحقِّ؛ لأنَّهم أيقنوا: أنَّهم قد خرجوا من الحق إلى الباطل، فكرهوا أن يكون المؤمنون مختصين باتباع الحق، فأرادوا أن تضلوا كما ضلُّوا، كما قال تعالى في الآية رقم [٨٩] الآتية: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾. ولا تنس الاستعارة في: ﴿يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾ فالشراء هنا مستعار، والمعنى: استحبوا الكفر على الإيمان.

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت هذه الآية الكريمة في رفاعة بن زيد، ومالك بن الدخشم اليهوديين، كانا إذا تكلَّم رسول الله ﷺ لويا ألسنتهما، وعاباه، وكانا يأتيان رأس المنافقين، ورهطه، يثبطانهم عن الإسلام.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتعجُّب. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لم) وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف المقصورة، والفتحة قبلها دليل عليها، والفاعل تقديره: «أنت». ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿أُوتُواْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق. ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾: متعلقان بـ: ﴿نَصِيبًا﴾، أو بمحذوف صفة له. ﴿يَشْتَرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿ٱلضَّلَـٰلَةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو فقط، والمتعلق محذوف، كما رأيت في الشرح. (يُرِيدُونَ): مضارع، وفاعله. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿تَضِلُّواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله. . . إلخ، و﴿أَن تَضِلُّواْ﴾: في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به. ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾: مفعول به، وجملة: ﴿وَيُرِيدُونَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ﴾: أي: منكم، فيخبركم بهم لتبتعدوا عنهم، ولتكونوا على حذرٍ منهم، ومِنْ مخالطتهم. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ أي: حافظاً مِنْ شرِّهم، فثقوا به، واعتمدوا عليه. ﴿نَصِيرًا﴾ معيناً يُعينكم على أعدائكم.

هذا؛ والولي: مَنْ يتولَّى شؤون غيره، والنَّصير بمعنى المُعين، والمساعد، والفرق بينهما: أنَّ الولي قد يضعف عن النُّصرة، والمعاونة، والنصير قد يكون أجنبيّاً من المنصور، فبينهما

عمومٌ، وخصوص من وجهٍ. هذا؛ والولي لله: العارف بالله تعالى على حسب ما يمكن، المواظب على الطَّاعات، المعرض عن الانهماك في اللَّذات، والشَّهوات.

وفيه وجهان: **أحدهما**: أنَّه فعيل بمعنى: مفعول، كقتيل بمعنى: مقتول، وجريح بمعنى: مجروح. فعلى هذا هو: مَنْ يتولَّى الله حفظه، ورعايته، فلا يكله إلى غيره، ونفسه طرفة عين، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾. **الوجه الثاني**: أنَّه فعيل مبالغة مِنْ فاعل، كرحيم، وعليم، بمعنى: راحم، وعالم، فعلى هذا هو مَنْ يتولَّى عبادة الله تعالى من غير أن يتخلَّلها عصيانٌ، أو فتور. وكلا المعنيين شرطٌ في الولاية.

فمن شرط الولي أن يكون محفوظاً، كما أنَّ من شروط النَّبيِّ أن يكون معصوماً، فكلُّ مَنْ كان للشرع عليه اعتراض؛ فليس بولي، بل هو مغرورٌ مخادعٌ. ذكره الإمام أبو القاسم القشيري، وغيره من أئمَّة الطَّريقة، رحمهم الله تعالى. انتهى مِنْ شرح ألفاظ الزبد للشيخ أحمد بن حجازي الفشني، رحمه الله تعالى. وربنا يقول في الحديث القدسي: «**مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً؛ فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ**».

هذا؛ والفعل (كفى) بمعنى: اكتفِ، فالباء زائدة في الفاعل عند الجمهور، وهو لازم لا ينصب المفعول به، ومثله مضارعه، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ وانظر: الآية رقم [٦] ففيها فضل زيادة.

الإعراب: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله أعلم): مبتدأ، وخبر. ﴿بِأَعْدَآئِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿أَعْلَمُ﴾، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. (كَفَى): فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذر. ﴿بِٱللَّهِ﴾: الباء: حرف جر صلة. (الله): فاعله مرفوع،وعلامة رفعه ضمة مقدّرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. وقيل: الباء أصلية، والجار والمجرور متعلقان بما قبلهما، على أنَّهما مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره: الاكتفاء. والمعتمد الأول. ﴿وَلِيًّا﴾: تمييز. وقيل: حال. والمعتمد الأول، وجملة: ﴿وَكَفَى...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾﴾

الشرح: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾: هم اليهود سمُّوا بذلك لمَّا تابوا من عبادة العجل، مِنْ: «هاد» بمعنى: تاب، ورجع، ومنه قوله تعالى، حكاية عن قولهم في سورة (الأعراف) رقم [١٥٦]: ﴿إِنَّا

﴿هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أو سُمُّوا بذلك نسبة إلى يهودا بن يعقوب، وهو أكبر أولاده. ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ أي: يغيِّرون كلام الله في التوراة، ويبدِّلونه، فكانوا يغيِّرون صفات الرَّسول ﷺ الموجودة في التوراة، فقد وضعوا مكان أبيض ربعة: آدم طوال، وهكذا. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كانت اليهود يأتون رسولَ الله ﷺ، فيسألونه عن الأمر، فيخبرهم به، فيرى: أنَّهم يأخذون بقوله، فإذا خرجوا من عنده؛ حرَّفوا كلامَه. وانظر الآية رقم [٤١٢] من سورة (المائدة) تجدْ ما يسرُّك، ويثلجُ صدرك.

هذا؛ وقرئ: ﴿ٱلْكِلْمَ﴾ بكسر الكاف وسكون اللام، وبفتح الكاف وكسر اللام، وهو جمع: كلمة، وهو مؤلف من كلمتين، أو أكثر، أفاد فائدة، أم لم يفد. وأمَّا الكلام فلا يكون إلا مِنْ كلمتين، أو أكثر، أفاد فائدة يحسن السكوت عليها، قال ابن مالك ـرحمه الله تعالى ـ: [الرجز]

كَلاَمُنَا لَفْظٌ مُفِيدٌ كَاسْتَقِمْ ... وَاسْمٌ وَفِعْلٌ ثُمَّ حَرْفٌ الْكَلِمْ
وَاحِدُه كَلِمَةٌ والقَوْلُ عَمْ ... .

﴿وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا﴾ أي: قولك بآذاننا. ﴿وَعَصَيْنَا﴾: أي: أمرك بقلوبنا، وجوارحنا. وذلك: أنَّهم كانوا إذا أمرهم النبيُّ ﷺ بأمرٍ؛ قالوا في الظاهر: سمعنا، وقالوا في الباطن: عصينا. وهذا أبلغ في الكفر، والعناد. ﴿وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: اسمع ما نقول، لا سمعت؛ والكلام ذو وجهين: يحتمل الخيرَ، والشرَّ، فأصله للخير، أي: لا سمعت مكروهاً، ولكن اليهود اللُّؤماء، كانوا يقصدون به الدُّعاء على الرسول ﷺ؛ أي: لا أسمعك الله ، وهو دعاءٌ عليه بالصَّمم، أو بالموت. أو: اسمع غير مجابٍ إلى ما تدعو إليه، أو: اسمع غير مسمعٍ كلاماً ترضاه. أو: اسمع كلاماً غير مسمع إيَّاك؛ لأنَّ أذنك تنبو عنه.

﴿وَرَٰعِنَا﴾ معناها في العربية: أَنْظِرنا، وتمهَّل علينا، وهي في لغة اليهود سبٌّ من الرُّعونة، وكانوا يقولون لأصحابهم: إنَّنا نشتم محمداً، ولا يعرف، ولو كان نبيّاً؛ لعرف ذلك، فأطلعه الله على خبث ضمائرهم، وسوء نيَّاتهم، وما في قلوبهم من العداوة، والبغضاء. ومثل هذه الآية في معناها، ومغزاها قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٠٤]: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا...﴾ إلخ.

﴿لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: أي: صرفاً للكلام عن نهجه الصَّحيح إلى نسبة السَّبِّ؛ حيث وضعوا: ﴿غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ موضع: لا سمعت مكروهاً، وأجروا: راعنا، مجرى: أنظرنا. وأصل ليّاً: لَوْياً فقلبت الواو ياء، ثم أدغمت الياء في الياء. وأصل اللَّي: فتل الحبل، فاستعير هنا للكلام الذي قصد به غير ظاهره.

(ألسنتهم): جمع لسان، وهو على هذا مذكَّر، كحمارٍ، وأحمرة، ويُجمع أيضاً على: أَلْسُن. وهو على هذا مؤنَّث، كذراع، وأذرع. ويجمع أيضاً على: لُسُن بضم اللام، وضم

السين، وتسكينها أيضاً، وتصغيره على التذكير: لُسَيْن، وعلى التأنيث: لُسَيْنة، وقد يجعل اللِّسان كناية عن كلمة السُّوء، كما في قول الشاعر، وهو الشاهد رقم [٣٣٠] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا وَحِنْتَ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَحِينَا

فيؤنث لا غير، كما يجعل كناية عن الرسالة، أو القصيدة من الشِّعر، كقول الآخر: [المتقارب]

أَتَتْنِي لِسَانُ بَنِي عَامِرٍ فَجَلَّى أَحَادِيثُهَا عَنْ بَصَرْ

وقد يجعل كناية عن الكلمة الواحدة، كما في قول الأعشى، وكان قد أتاه خبر مقتل أخيه المنتشر: [البسيط]

إِنِّي أَتَتْنِي لِسَانٌ لَا أُسَرُّ بِهَا مِنْ عَلْوَ لَا عَجَبٌ مِنْهَا وَلَا سَخَرُ

قال الجوهري: يروى: مِنْ علو ـ بضم الواو، وفتحها، وكسرها ـ أي أتاني خبر من أعلى. والتأنيث للكلمة، وقد أطلق الله اللِّسان على القرآن بكامله مع التَّذكير في سورة (النَّحل) حيث قال جلَّ ذكره: ﴿وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ كما أطلقه على الثناء الجميل، والذِّكر الحسن في قوله جلَّ ذكره في سورة (مريم) على نبينا وعليها ألف صلاة، وألف سلام: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾.

﴿وَطَعْنًا فِي ٱلدِّينِ﴾ أي: استهزاءً، وسخريةً. ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ أي: قالوا بدل: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾. ﴿وَٱسْمَعْ﴾: أي: بدل: لا سمعت. ﴿وَٱنظُرْنَا﴾: أي: بدل قولهم: ﴿وَرَٰعِنَا﴾. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: قولهم ذلك أفضل. ﴿وَأَقْوَمَ﴾ أي: أعدل، وأصوب، وأنجى لهم في الدنيا، والآخرة. وانظر ما ذكرته في سورة (البقرة) رقم [١٠٤] فإنَّه جيِّد. والحمد لله!.

﴿وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: طردهم من رحمته، وأبعدهم مِنْ رضوانه بسبب كفرهم بمحمَّدٍ ﷺ. وانظر «اللَّعن» في الآية رقم [٦١] من سورة (آل عمران). ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: فلا يؤمن من اليهود إلا نفرٌ قليل، مثل: عبد الله بن سلام، وأصحابه. أو المعنى: إلا إيماناً قليلاً ضعيفاً، لا يُعبأ به، وهو إيمانهم بأنَّ الله خالقهم، ورازقهم، أو أراد بالقلَّة: العدم، كقول الشاعر: [الطويل]

قَلِيلُ التَّشَكِّي لِلْمُهِمِّ يُصِيبُهُ

أي: عديم التشكي. هذا؛ وقال الله هنا: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾. وقال تعالى في سورة (المائدة): ﴿مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾ فالأوَّل بمعنى الإمالة، والإزالة، والتَّغيير، والتَّبديل. وأمَّا

الثَّاني؛ فإنَّه بمعنى: أنَّه كانت له مواضع هو قَمِنٌ بأن يكون فيها، فحين حرَّفوه تركوه كالغريب، الَّذي لا موضع له بعد مواضعه، ومقارِّه. انتهى. كشَّاف.

الإعراب: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم لمبتدأ محذوف. هذا؛ وقال الزَّجَّاج ـ رحمه الله تعالى ـ: إنْ جعلتَ: ﴿مِّنَ﴾ متعلقة بما قبلُ، فلا يوقف على قوله: ﴿نَصِيرًا﴾، وإن جعلتها منقطعة عما قبلها، فيجوز الوقف على: ﴿نَصِيرًا﴾، ويكون التقدير: من الذين هادوا قومٌ يحرفون الكَلِمَ، ثمَّ حُذِف. وهذا مذهب سيبويه، وأنشد النَّحويون: [الرجز]

لَوْ قُلْتُ مَا فِي قَوْمِهَا لَمْ تِيثَمِ ... يَفْضُلُهَا فِي حَسَبٍ وَمَيْسِمِ

قالوا: المعنى لو قلت: ما في قومها أحد يفضلها. ومثله قول تميم بن عقيل: [الطويل]

وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا ... أَمُوتُ وَأُخْرَى أَبْتَغِي الْعَيْشَ أَكْدَحُ

إذ التقدير: فمنهما تارة أموت منها، وقال تعالى في سورة (الصافات) رقم [١٦٤]: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ انظرها فالكلام عليها جيِّد، والحمد لله! وعلى ما تقدَّم فالجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿هَادُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿يُحَرِّفُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله. ﴿ٱلْكَلِمَ﴾ مفعول به. ﴿عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع صفة للمبتدأ المحذوف، الذي رأيت تقديره. (يَقُولُونَ): فعل مضارع، وفاعله. ﴿سَمِعْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، والتي بعدها معطوفة عليها، وحذف مفعول الفعلين، وجملة: ﴿وَيَقُولُونَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع صفة مثلها. (اسْمَعْ): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿غَيْرَ﴾: حال من الفاعل المستتر، وهو مضاف، و﴿مُسْمَعٍ﴾: مضاف إليه، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول أيضاً. ﴿وَرَٰعِنَا﴾: فعل أمر مبني على حذف حرف العلَّة مِنْ آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل تقديره: أنت، و(نا): مفعول به، والجملة معطوفة أيضاً، فهي في محل نصب مقول القول. ﴿لَيًّۢا﴾: مفعول لأجله، عامله: (يقولون). وقيل: هو حال من واو الجماعة بمعنى: لاوين. ﴿بِأَلْسِنَتِهِمْ﴾: متعلقان بـ﴿لَيًّۢا﴾ أو بمحذوف صفة له، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَطَعْنًا﴾: معطوف على: ﴿لَيًّۢا﴾. ﴿فِى ٱلدِّينِ﴾: متعلقان بـ(طعناً) أو بمحذوف صفة له.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف استئناف. (لو): حرف لِمَا كان سيقع لوقوع غيره. ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿قَالُواْ﴾: فعل، وفاعل. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا﴾ الإعراب واضح إن شاء الله. والجمل كلُّها في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُواْ...﴾ إلخ في

محل رفع خبر (أنَّ) و(أنَّ) واسمها وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لفعل محذوف، هو شرط (لو) عند المبرد، التقدير: ولو ثبت، أو حصل قولهم. وقال سيبويه: هو في محل رفع بالابتداء، والخبر محذوف، التقدير: ولو قولهم ثابت، أو حاصل، وقول المبرد هو المرجَّح هنا؛ لأنَّ «لو» لا يليها إلا فعل ظاهر، أو مقدر، والفعل المقدَّر، وفاعله جملة فعلية لا محلَّ لها من الإعراب؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَكَانَ﴾: اللام: واقعة في جواب (لو). (كان): فعل ماض ناقص، واسمها ضمير مستتر تقديره: هو، يعود إلى القول المفهوم من الكلام المتقدِّم. ﴿خَيْرًا﴾: خبر كان. ﴿لَّهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿خَيْرًا﴾. ﴿وَأَقْوَمَ﴾: معطوف على ﴿خَيْرًا﴾ ومتعلقه محذوف، اكتفاءً بمتعلق: ﴿خَيْرًا﴾. وجملة: ﴿لَكَانَ...﴾ إلخ جواب (لو) لا محلَّ لها. و(لو) ومدخولها كلامٌ مستأنف لا محلَّ له.

﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل، لا عمل له. ﴿لَّعَنَهُمُ﴾: فعل ماض، ومفعوله. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على (لو) ومدخولها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف تعليل. (لا): نافية. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية تعليل لـ(لَعَن) لا محلَّ لها. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: إلا إيماناً قليلاً، لا يُعبأ به، أو هو صفة لمستثنىً محذوف، التقدير: إلا نفراً قليلاً. انظر الشرح.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾: هذا النداء يشمل اليهود، والنَّصارى، والمراد به هنا: اليهود خاصَّة. ﴿ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا﴾ يعني: القرآن الكريم. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم﴾ يعني: التوراة، التي كانت بيد اليهود، وأنزلها الله تعالى على موسى، وهارون، على نبينا، وعليهما ألف صلاة، وألف سلام. ومعنى تصديق القرآن للتوراة: نزوله حسبما نُعِتَ لهم فيها النبيُّ ﷺ، أو كونه موافقاً لها في القصص، والمواعيد، والدَّعوة إلى التَّوحيد، والعدل بين النَّاس، والنَّهي عن المعاصي، والفواحش، وأمَّا ما يتراءى من مخالفته لها في جزئيات الأحكام بسبب تفاوت الأعصار، والأمم؛ فليس بمخالفةٍ في الحقيقة، بل هو عين الموافقة؛ من حيث إنَّ كُلّاً منها حقٌّ بالإضافة إلى عصره، تضمَّن للحكمة الَّتي يدور عليها فلك التشريع.

هذا؛ وقال تعالى في هذه الآية: ﴿بِمَا نَزَّلْنَا﴾، وقال في كثير من الآيات: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ والفرق بينهما: أنَّ الأوَّل يفيد: أنَّ القرآن نزل مفرَّقاً في ثلاث وعشرين سنة على حسب الوقائع، ومقتضيات الأحوال على ما نرى عليه أهل الشِّعر، والخطابة، وهذا ممَّا يريب الكافرين، والملحدين، كما حكى الله سبحانه عنهم: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ فبيَّن سبحانه الحكمة من ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ الآية رقم [٣٢] من سورة (الفرقان)، وأمَّا لفظ: ﴿أَنزَلْنَآ﴾ فإنَّه يفيد: أنَّه نزل جملةً واحدةً. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا...﴾ إلخ: أي: من قبل أن نمحوَ عنهم تخطيط صورها، ونجعلها على هيئة أدبارها. يعني: الأقفاء. وقيل: نديرها، فنجعل الوجوه إلى خلف، والأقفاء إلى قُدَّام، وإنَّما جعل الله هذا عقوبةً لهم، لما فيه من تشويه الخلقة، والمثلة، والفضيحة، وعند هذا تكثر الحسرات، ويحصل لهم الغمُّ. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ﴿نَّطْمِسَ وُجُوهًا﴾: نجعلها كخفِّ البعير، أو كحافر الدَّابة. وقال قتادة، والضَّحاك: نُعميها، كقوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ رقم [٣٧] من سورة (القمر). وقيل: المعنى: نجعل منابت الشعر كوجوه القردة. هذا؛ ولم يفعل الله بهم ما هدَّدهم به؛ لأنَّ هذا الوعيد، والتَّهديد كان مشروطاً بعدم الإيمان، وقد آمن منهم ناسٌ، فرفع عن الباقين.

روي: أنَّ عبد الله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ لمَّا سمع هذه الآية، وكان قافلاً من الشَّام جاء إلى النبيِّ ﷺ قبل أن يأتيَ أهلَه، فأسلم، وقال: يا رسول الله! ما كنت أرى أن أصل إليك حتى يُحَوَّل وجهي إلى قفاي! وكذلك رُوي عن كعب الأحبار: أنَّه لمَّا سمع هذه الآية في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ أسلم، وقال: يا ربِّ! أسلمت مخافة أن يصيبني وعيد هذه الآية، فكان هذا الوعيد مشروطاً بأن لا يؤمن أحدٌ منهم، وهذا الشَّرط لم يوجد؛ لأنَّه آمن منهم جمعٌ كثير في زمن النبيِّ ﷺ وبعده. هذا؛ والوجه: ما تتمُّ به المواجهة، وقد يعبَّر به عن الذَّات، ومنه قوله تعالى في سورة (الرَّحمن): ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وفي آخر سورة (القصص): ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

﴿أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ﴾: السبت: أحد أيام الأسبوع المعروفة، قال ابن عطية ـ رحمه الله تعالى ـ: والسَّبت إما مأخوذ من السُّبوت، الذي هو الرَّاحة والدَّعة، وإمَّا مِنَ السبت، وهو: القطع؛ لأنَّ الأشياء سبتت، وتم خلقها في أيام الأسبوع السِّتَّة قبله. هذا؛ والسِّبت بكسر السين: الجلد المدبوغ بالقرظ، ولم ينجرد مِنْ شعره. وقال أبو زيد: السِّبْتُ: جلود البقر خاصَّةً مدبوغةً. قال عنترة في معلَّقته ـ وهو الشَّاهد رقم [٣٠٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»ـ: [الكامل]

بَطَلٌ كَأَنَّ ثِيَابَهُ فِي سَرْحَةٍ يُحْذَى نِعَالَ السِّبْتِ لَيْسَ بِتَوْءَمِ

هذا؛ وقصَّة أصحاب السبت كانت في زمن داود ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ بقريةٍ، يقال لها: أَيْلَة على شاطئ البحر الأحمر، وتُدعى اليوم: إيلَات، وهي مرفأ هام لليهود على البحر الأحمر، يروى: أنَّ الله تعالى اختار لهم يوم الجمعة؛ ليكون يوم راحة، وعبادة، ونظافة، وغير ذلك، فأَبَوْا، وقالوا: فرغ ربُّنا مِنْ خلق السموات والأرض يوم الجمعة، واستراح يوم السَّبت، فنحن نختاره، ولذلك، شدَّد الله عليهم بأنْ حرَّم عليهم أيَّ عملٍ دنيويٍّ ما عدا العبادة، والنظافة، وأمثالها، وكانت معيشة أهل تلك القرية مِنْ صيد الأسماك، لا مورد لهم غيرهم، فابتلاهم الله ، أي: اختبرهم، فما كان يبقى حوت في البحر إلا أخرج خرطومه يوم السَّبت، وأقبل نحوهم، فإذا مضى يوم السَّبت؛ ذهبت الحيتان في أعماق البحر، فلم يتمكَّنوا من الصَّيد طوال أيام الأسبوع. كما قال تعالى في سورة (الأعراف) رقم [١٦٣]: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾.

فظهر لهم الشَّيطان، وقال لهم: احفروا حياضاً قرب البحر، وافتحوا جداول بينها وبين البحر، فكانت الحيتان تدخل الحياض يوم السَّبت، ويصطادونها يوم الأحد، فنهاهم نبيُّهم عن فعلهم هذا، فصاروا ثلاث فرق، وكانوا سبعين ألفاً: فرقةٌ أمسكت، ونهتْ، وفرقة أمسكت، ولم تنه، وفرقةٌ اصطادت، واعتدت، فهذه هي الّتي مُسِخَتْ قردةً لهم أذناب يتعاوون. وقيل: مُسِخَ الشباب قردةً، والشيوخ خنازير، فمكثوا ثلاثة أيام فقط، ثم هلكوا، ولم يأكلوا، ولم يشربوا، ولم يتوالدوا، ونجت الفرقتان الأخريان: النَّاهية، والسَّاكتة عن النَّهي. وقيل: هلكت أيضاً.

ويقال: إنَّ النَّاهين قالوا: لا نُساكنكم، فقسموا القرية بجدار، فأصبح النَّاهون ذات يومٍ في مجالسهم، ولم يخرج من المعتدين أحدٌ، فقالوا: إنَّ للنَّاس لشأناً، فَعَلَوُا الجدار، فنظروا فإذا هم قردةً، ففتحوا الأبواب ودخلوا عليهم، فعرفت القردةُ أنسابهم من الإنس، ولا يعرف الإنس أنسابهم من القردة، فجعلت القردة تأتي نسيبها من الإنس، فتشمُّ ثيابه، وتبكي، فيقول لهم: ألم ننهكم؟ فتقول القردة برأسها: نعم، وانظر تفصيل ذلك في سورة (الأعراف).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لم يعش مسخٌ قطُّ فوق ثلاثة أيام، ولم يأكل، ولم يشرب، ولم ينسل، قال ابن عطيَّة رحمه الله تعالى: وروي عن النَّبي ﷺ، وثبت: أنَّ الممسوخ لا ينسل، ولا يأكل، ولا يشرب، ولا يعيش أكثر من ثلاثة أيام، أمَّا قول النَّبيِّ ﷺ لبني قريظة، ولبني النَّضير: «**يَا أَحْفَادَ الْقِرَدَةِ**» لم يرد به إلَّا التَّقريع، والتوبيخ.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ﴾: انظر الآية رقم [٢٩]: ﴿أُوتُوا۟﴾: فعل ماض مبني للمجهول، مبني على الضمِّ، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان. ﴿ءَامِنُوا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون،

والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِمَا﴾: جار، ومجرور متعلِّقان بالفعل قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿نَزَّلْنَا﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية صلة: (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: بالَّذي، أو: بشيء نزَّلناه، وجملة: ﴿ءَامِنُوا...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿مُصَدِّقًا﴾: حال من المفعول المحذوف. ﴿لِمَا﴾: جار، ومجرور متعلقان بـ ﴿مُصَدِّقًا﴾، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿مَعَكُم﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف صلة (ما) أو بمحذوف صفتها، التقدير: مصدقاً للذي، أو: لشيءٍ يوجد معكم، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة. هذا؛ وابن هشام في مغني اللبيب يعتبر اللام زائدة، ويسمِّيها لام التقوية، فإذاً (ما) مجرورة لفظاً، منصوبة محلّاً، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (البروج): ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ وفي سورة (المعارج): ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ وفي سورة (الأنبياء): ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾، وأورد ابن هشام قول حاتم الطائي ـ وقيل: هو لقيس بن عاصم المنقري ـ رضي الله عنه ـ وهو الشاهد رقم [٣٩٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

إِذَا مَا صَنَعْتِ الزَّادَ فَالْتَمِسِي لَهُ أَكِيلاً فَإِنِّي لَسْتُ آكِلَهُ وَحْدِي

﴿مِّن قَبْلِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿ءَامِنُوا﴾. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿نَّطْمِسَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ والفاعل مستتر فيه وجوباً تقديره: نحن، و المصدر المؤول منهما في محل جر بإضافة: ﴿قَبْلِ﴾ إليه. ﴿وُجُوهًا﴾: مفعول به. ﴿فَنَرُدَّهَا﴾: الفاء: حرف عطف. (نردَّها): معطوف على نطمس منصوب مثله، والفاعل تقديره: نحن، و(ها) مفعول به. ﴿عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ﴾: متعلقان بما قبلهما، وها: في محل جر بالإضافة. (أو): حرف عطف. ﴿نَلْعَنَهُمْ﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله، والفاعل تقديره: نحن، والهاء مفعول به.

﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿لَعَنَّآ﴾: فعل، وفاعل، و(ما) والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جرٍّ بالكاف، والجار والمجرور متعلِّقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: نلعنهم لعناً كائناً مثل لعننا أصحاب السبت. وهو قول أبي البقاء، وغيره في مثل هذا التركيب. ومذهب سيبويه في مثله النصب على الحال من المصدر المفهوم من الفعل المتقدِّم على طريق الاتساع، فيكون التقدير: نلعنهم على مثل هذه الحالة، وجملة: ﴿وَكَانَ...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾

الشرح: قال ابن جرير الطَّبري ـ رحمه الله تعالى ـ: معناه: يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا، فإنَّ الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لِمَنْ يشاء. فعلى هذا يكون

في الآية دلالة على: أنَّ اليهودي يسمَّى مشركاً في عرف الشَّرع. وقيل: إنَّ الآية نزلت في وحشي، وأصحابه، وذلك لمَّا قتل وحشيٌّ حمزة ـ رضي الله عنه ـ ورجع إلى مكَّة؛ ندم هو وأصحابه، فكتبوا إلى رسول الله ﷺ: إنَّا قد ندمنا على ما صنعنا، وإنَّه ليس يمنعنا من الإسلام إلا أنَّا سمعناك بمكَّة، تقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...﴾ إلخ الآيات من سورة (الفرقان) وقد دعونا مع الله إلٰهاً آخر، وقتلنا النفس الَّتي حرم الله ، وزنينا، فلولا هذه الآية؛ لاتَّبعناك، فنزلت: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا...﴾ إلخ الآيتان من سورة (الفرقان) بعد الأولى، فبعث بهما رسول الله ﷺ إليهم، فلمَّا قرؤوهما؛ كتبوا إليه: هذا شرطٌ شديدٌ، ونخاف ألا نعمل عملاً صالحاً، فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فبعث بها إليهم، فبعثوا إليه: إنَّا نخاف ألا نكون من أهل المشيئة، فنزلت: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ...﴾ إلخ الآية من سورة (الزمر) فبعث بها إليهم، فدخلوا في الإسلام، ورجعوا إلى النبيِّ ﷺ، فقبل منهم.

ثم قال لوحشي: «**أَخْبِرْنِي كَيْفَ قَتَلْتَ حَمْزَةَ؟**» فلمَّا أخبره، قال: «**وَيْحَكَ! غَيِّبْ وَجْهَكَ عَنِّي**». فلحق بالشَّام، فكان به إلى أن مات. انتهى خازن. والمشهور: أنَّ هذا كان بعد فتح مكة، بعد أن أهدر الرَّسول ﷺ دم وحشي فيمن أهدر، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فتوسَّل ببعض الصَّحابة، فأدله على النبي الكريم، فعفا عنه، وحصل ما حصل من المناقشة شفاهاً، ونزلت الآيات تباعاً، أو متفرقات. ولحوق وحشي بالشَّام كان بعد وفاة النبي ﷺ بزمنٍ طويل؛ إذ كان بعد فتح بلاد الشام في زمن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ. والمشهور: أنَّه أقام في بلاد الحجاز. وحارب في حروب الردَّة، وهو الذي قتل مسيلمة الكذاب، وكان يقول: قتلت خير رجلٍ في الإسلام، وشرَّ رجل في الكفر، وأرجو أن تكون هذه بهذه! ويروى: أنَّه لمَّا قال له النبيُّ ﷺ: «**وَيْحَكَ! غَيِّبْ وَجْهَكَ عَنِّي!**» قال: أنبيٌّ، وحقودٌ؟ فقال ﷺ: «**بَلْ نَبِيٌّ، وَفَقُودٌ**».

بعد هذا: المراد بالشِّرك مطلق الكفر المنتظم لكفر اليهود انتظاماً أوَّليّاً، فإنَّ الشرع قد نصَّ على شرك أهل الكتاب قاطبةً، وقضى بخلود أصناف الكفرة في النَّار. ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: ما دون الشِّرك من الذنوب صغائرها، وكبائرها. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: لمن يتكرَّم الله عليه، ويتفضَّل بالعفو، والإحسان. ﴿افْتَرَىٰٓ﴾: فَعَلَ، واقترف ﴿إِثْمًا﴾: ذنباً.

وفي الآية تهديد، ووعيد لليهود، فإنَّهم كانوا يفعلون ما يفعلون من التَّحريف في التوراة، ويطمعون في المغفرة، كما قال تعالى عنهم في سورة (الأعراف) رقم [١٦٩]. ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ ولـمَّا هددهم الله بهذه الآية؛ قالوا: لسنا مشركين، بل نحن من خواصِّ خلق الله ، كما حكى الله عنهم قولهم في سورة (البقرة): ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾، وحكى عنهم: أنهم قالوا: ﴿وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ

إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾، وحكى قولهم في سورة (المائدة): ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾.

هذا؛ وفي الآية ردٌّ على المعتزلة، والقدرية؛ حيث قالوا: لا يجوز في الحكمة أن يغفر لصاحب كبيرة. وعند أهل السنة: إنَّ الله يفعل ما يشاء، لا مُكره له، ولا حَجْر عليه، ويدلُّ على ذلك ما روي عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّه قال: كنَّا على عهد رسول الله ﷺ إذا مات الرجل على كبيرةٍ؛ شهدنا: أنَّه من أهل النَّار حتَّى نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ...﴾ إلخ، فأمسكنا عن الشهادة. ويروى عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه قال: ما في القرآن أحبُّ إليَّ من هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾. أخرجه الترمذيُّ. وخذ ما يلي:

عن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: «**الظُّلْمُ ثَلاثَةٌ: فَظُلْمٌ لا يَغْفِرُهُ اللهُ، وَظُلْمٌ يَغْفِرُهُ اللهُ، وَظُلْمٌ لَا يَتْرِكُ اللهُ مِنْهُ شيئاً، فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَغْفِرهُ اللهُ: فالشِّرْكُ؛ قال تعالى:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ **وأمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يَغْفِرهُ اللهُ: فظلمُ العبادِ لأنْفُسِهِمْ فِيْمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ رَبِّهِمْ، وأمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لَا يَتْرُكُهُ: فظلمُ العِبَادِ بَعْضِهِمْ لِبَعْضٍ**». رواه البخاريُّ، ومسلم.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَغْفِرُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يُشْرَكَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان به، وهما في محل رفع نائب فاعله، و﴿أَن يُشْرَكَ﴾ في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به. ﴿وَيَغْفِرُ﴾: فعل مضارع مرفوع، وفاعله يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. فهي في محل رفع مثلها. وقيل: مستأنفة. وليس بشيءٍ. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿دُونَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بمحذوف صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، و﴿دُونَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جرٍّ بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿لِمَن﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل: ﴿يَغْفِرُ﴾ المثبت، و(مَنْ) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جرٍّ باللام. ﴿يَشَآءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾ والجملة الفعلية صلة (مَن) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: لِلَّذي، أو لشخصٍ يشاؤه الله. ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُشْرِكْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان به. ﴿فَقَدِ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿ٱفْتَرَىٰٓ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، والفاعل يعود

إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿إِثْمًا﴾: مفعول به. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو: (مَنْ) مختلفٌ فيه، كما ذكرته مراراً. والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ إلخ: الخطاب للنَّبيِّ ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ، والاستفهام تعجيب، وتشويق إلى استماع ما بعده؛ إن كان المخاطب لم يعلم بحال المذكورين، أو هو استفهام تقرير؛ إن كان المخاطب يعلم بحالهم، ويجوز أن يخاطب به مَنْ لم ير، ولم يسمع؛ لأنَّ هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجُّب.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾: المراد بهم اليهود، حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ وقيل: جاء ناسٌ منهم بأطفالهم إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: هل على هؤلاء ذنب؟ قال: «**لا**» قالوا: والله ما نحن إلا كهيئتهم، ما عملناه باللَّيل؛ كُفِّرَ عنا بالنَّهار، وما عملناه بالنَّهار؛ كُفِّرَ عنا باللَّيل. فأنزل الله تعالى هذه الآية. وقيل: نزلت في اليهود والنصارى، حين قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾، وقالوا: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾.

والتزكية هنا عبارة عن مدح الإنسان نفسه بالصَّلاح، والدِّين، وغير ذلك، وقد نهى الله عن ذلك، فقال في سورة (النجم): ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾، ومعنى: ﴿يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم﴾: يزعمون: أنهم أزكياء؛ لأنَّهم برَّؤوا أنفسهم من الذُّنوب. قال تعالى ردّاً عليهم: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ﴾ أي: يجعله زاكياً.

هذا؛ وقيل: نزلت الآية في ذمِّ التَّمادُح، والتزكية. وفي صحيح مسلم عن المقداد بن الأسود ـ رضي الله عنه ـ، قال: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثو في وجوه المدَّاحين التراب. وفي الصَّحيحين: عن عبد الله بن أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ عن أبيه: أنَّ رسول الله ﷺ سمع رجلاً يثني على رجل، فقال: «**وَيْحَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ**» ثمَّ قال: «**إِنْ كَانَ أَحَدُكُمْ مَادِحاً صَاحِبَهُ لا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُهُ كَذَا، وَلَا يُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَداً**». وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: إنَّ الرجل ليغدو بدينه، ثمَّ يرجع، وما معه منه شيءٌ، يلقى الرَّجل ليس يملك له ضرّاً، ولا نفعاً، فيقول له: إنَّك والله كيت، وكيت! ولعلَّه يرجع، ولم يحظ من حاجته بشيءٍ، وقد أسخط الله. وما أكثر الذين يسخطون الله بمدحهم غيرهم؛ لينالوا منافع مادية، أو مناصب معنوية في كل زمانٍ، ومكان! فيبيعون دينهم، وكرامتهم، بل ومروءتهم، وهذا إذا كان المدح نفاقاً، وبالباطل.

فأمَّا مدح الرَّجل بما فيه من الفعل الحسن، والأمر المحمود؛ ليكون منه؛ ترغيباً له في أمثاله، وتحريضاً للناس على الاقتداء به في أشباهه به؛ فليس بمدَّاحٍ بالباطل، والنفاق. كيف لا؛ وقد

مُدِح الرسول ﷺ في الشِّعر، والخطب، والمخاطبة، ولم يحثُ التُّراب في وجوه المدَّاحين، ولا أمر بذلك، كمدح العباس، وحسَّان، وكعب بن زهير، وكعب بن مالك له بشعرهم، وكقول أبي طالب فيه ﷺ ـ وهو الشَّاهد رقم [٢٢٥] مِنْ كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

وَأَبْيَضَ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلأَرَامِلِ

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ أي: الذين يزكيهم الله لا يظلمون بنقص ثوابهم، ولا بزيادة سيِّئاتهم، وهو يعمُّ الذين يزكُّون أنفسهم، وغيرهم من جميع النَّاس. هذا؛ و(الفتيل) هو الخيط الذي يكون في شق التَّمرة، يضرب به المثل في الحقارة. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وغيره: هو ما يخرج بين أصبعيك، أو كفيك مِنَ الوَسَخِ إذا فتلتهما. ومثل هذا في التحقير قوله تعالى في الآية رقم [١٢٤]: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ والنقير هو: النقرة في ظهر النَّواة، تنبت منها النَّخلة. و(القطمير) هو: القشرة التي تحيط بالنواة، قال تعالى في سورة فاطر: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾. ويضرب بالثلاثة المثل في الشيء الحقير التافه؛ الذي لا قيمة له.

الإعراب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾: انظر الآية رقم [٤٤]. ﴿يُزَكُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، وجملة: ﴿أَلَمْ تَرَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿بَلِ﴾: حرف إضراب، تُبتدأ بعده الجمل. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُزَكِّي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى: ﴿اللَّهُ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يَشَاءُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿اللَّهُ﴾ والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: يزكِّي الذي، أو: شخصاً يشاؤه. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُظْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو نائب فاعله. ﴿فَتِيلًا﴾: صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: ظلماً فتيلاً. وقيل: مفعول به ثان على تضمين: ﴿يُظْلَمُونَ﴾: يُنقصون، والجملة الفعلية: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ معطوفة على جملة محذوفة، تقديرها: فهم يعاقبون، أو: هم يثابون، ولا يظلمون فتيلاً. هذا؛ والتقدير اختلف بحسب تفسير واو الجماعة.

﴿انظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَى بِهِۦ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾﴾

الشرح: ﴿انظُرْ كَيْفَ...﴾ إلخ الخطاب للنبيِّ ﷺ. وفحواه: تعجيبه ﷺ ممَّا ذكر عنهم في الآية السَّابقة. ﴿يَفْتَرُونَ﴾: يختلقون، والافتراء: الاختلاق، ومنه: افترى فلان على فلان، أي:

رماه بما ليس فيه. وفريت الشيء: قطعته. ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ أي: في زعمهم: أنهم أبناء الله، وأحباؤه، وأنَّهم مطهَّرون من الذنوب، والسَّيِّئات. وكفى به: أي: بالكذب، والافتراء. ﴿إِثۡمٗا مُّبِينًا﴾: ذنباً ظاهراً واضحاً، لا خفاء فيه.

هذا؛ والآية الكريمة تُشَنِّع على اليهود كذبهم، وافتراءهم، وقبائح أعمالهم، فتصفهم بأنَّهم كاذبون، والكذب ديدنهم، وصفةٌ لازمةٌ لهم في ماضيهم، وحاضرهم، والكذب من أفحش الذُّنوب، ومن أخبث ما يتَّصف به إنسانٌ، وأبرز صفات المنافقين، وحذَّر منه الرسول ﷺ في جميع الحالات، حتَّى في المُزاحة، والمراء، وخذ ما يلي:

عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**أَنَا زَعِيمٌ بِبَيْتٍ فِي وَسَط الْجَنَّةِ لِمَنْ تَرَكَ الْكَذِبَ، وَإِنْ كَانَ مَازِحاً**». رواه أبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ**». رواه البخاريُّ، ومسلم.

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ النَّبي ﷺ قال: «**أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيْهِ كَانَ مُنَافِقاً خَالِصاً، وَمَنْ كَانَ فِيْهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ؛ كَانَتْ فِيْهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ؛ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ؛ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ؛ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ؛ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ؛ فَجَرَ**». رواه الستَّة إلا ابن ماجه.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ الْعَبْدُ الإِيْمَانَ كُلَّهُ حَتَّى يَتْرُكَ الْكَذِبَ فِي الْمُزَاحَةِ. وَالْمِرَاءِ، وَإِنْ كَانَ صَادِقاً**». رواه أحمد، والطبراني، وغير ذلك كثيرٌ.

الإعراب: ﴿ٱنظُرۡ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، وهو معلَّق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام. ﴿كَيۡفَ﴾: اسم استفهام مبني على الفتح في محل نصب حال، عامله ما بعده. ﴿يَفۡتَرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، ويجوز أن يكونا متعلقين بمحذوف حال من الكذب، تقدَّم عليه. ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: مفعول به، وقال الجمل: أو مفعول مطلق؛ لأنَّه يلاقي العامل في المعنى؛ إذ الافتراء؛ والكذب متقاربان معنىً، أو معناهما واحدٌ، ولا وجه له، وجملة: ﴿كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ...﴾ إلخ في محل نصب مفعول به لـ(انظر) المعلَّق عن العمل لفظاً بسبب الاستفهام، وجملة: ﴿ٱنظُرۡ...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿وَكَفَىٰ﴾: الواو: حرف استئناف. (كفى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. ﴿بِهِۦٓ﴾: الباء: حرف جر صلة، والهاء فاعله مجرور لفظاً مرفوع محلّاً. وقيل: الباء أصلية، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل قبلهما على أنَّهما مفعول به، والفاعل ضمير مستتر تقديره: الاكتفاء، والمعتمد الأول. ﴿إِثۡمٗا﴾: تمييز. وقيل: حال. والمعتمد الأوَّل. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له، وجملة: ﴿وَكَفَىٰ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: انظر الآية رقم [٤٤]. ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: اختلف العلماء فيهما، فقيل: هما كلُّ معبود من دون الله تعالى. وقيل: هما صنمان لقريش سجد اليهود لهما مرضاةً لقريش. وقيل: الجبت: اسم للأصنام، والطاغوت: شياطين الأصنام، ولكل صنم شيطان يدخل فيه، ويكلِّم النَّاس، فيفترون بذلك. وقيل: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر. وقال ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: الجبت، والطاغوت هاهنا كعب ابن الأشرف، وحيي بن أخطب. وقال الفاروق ـ رضي الله عنه ـ: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، ولعلَّ قول ابن مسعود أقرب إلى الصَّواب بدليل قوله تعالى في الآية رقم [٦٠] الآتية: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾.

و(الطاغوت)، كل ما عبد مِنْ دون الله ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ رقم [٦٠] من سورة (المائدة)، وفي سورة (البقرة) رقم [٢٥٦]: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ...﴾ إلخ، وهو يطلق على المفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث. واشتقاقه مِنْ: طغا، يطغو. أو مِنْ طغى، يطغى: إذا تجاوز الحدَّ، ومنه قوله تعالى في سورة (الحاقة): ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ ويجمع على: طواغيت، ولم يرد في القرآن الكريم بلفظ الجمع.

﴿وَيَقُولُونَ﴾: أي: يقول اليهود الذين أوتوا نصيباً من الكتاب. ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾: المراد أبو سفيان، وأصحابه من قريش. ﴿أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾: أقوم ديناً، وأرشد طريقاً.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة في كعب بن الأشرف، وحيي بن أخطب، وسبعين راكباً من اليهود، قدموا مكَّة بعد وقعة أحد؛ ليحالفوا قريشاً على النبيِّ ﷺ، وينقُضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، فنزل كعب بن الأشرف على أبي سفيان، فأحسن مثواه، ونزل باقي اليهود على قريش في دورهم، فقال لهم أهلُ مكَّة: أنتم أهل كتاب، ومحمَّد صاحب كتاب، ولا نأمن أن يكون هذا مكراً منكم، فإن أردتم أن نخرج معكم، فاسجدوا إلى هذين الصنمين، ففعلوا ذلك، فذلك قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾.

ثمَّ قال كعب بن الأشرف الخبيث لأهل مكة: ليخرج منكم ثلاثون رجلاً، ومنا ثلاثون، فنلزم أكبادنا بالكعبة، فنعاهد ربَّ هذا البيت لنجهدنَّ في قتال محمَّد! ففعلوا، ثم قال أبو سفيان لكعب بن الأشرف: إنَّك امرؤ تقرأ الكتاب، وتعلم. ونحن أميُّون، لا نعلم؛ فأينا أهدى سبيلاً: نحن، أم محمد؟ فقال كعب بن الأشرف: اعرض عَلَيَّ دينكم. فقال أبو سفيان: فنحن نَنْحَرُ

للحجيج الكوماء، ونسقيهم الماء، ونقري الضَّيف، ونفكُّ العاني، ونصل الرَّحم، ونعمر بيت ربنا، ونطوف به، ونحن أهل الحرم، ومحمَّد فارق دين آبائه، وقطع الرَّحم، وفارق الحرم، ودينُنا القديم، ودينُ محمدٍ الحديث. فقال كعب الخبيث: أنتم والله أهدى سبيلاً مما عليه محمد! فأنزل الله الآية.

تنبيه: ما ذكر منقول من الخازن، والقرطبي، وهو خطأ تاريخيٌّ فإنَّ الوافد على قريش على رأس سبعين من اليهود إنَّما هو حُيي بن أخطب، وأمَّا كعب بن الأشرف لعنه الله ، فقد قتله محمَّد بن مسلمة، وصبحهُ غيلةً على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة. راجع السِّيرة الحلبية، وزيني دحلان. وذهاب اليهود إلى مكَّة كان بعد موقعة أحدٍ، وسبباً في غزوة الخندق.

هذا؛ وفي موقف اليهود من قريش، وتفضيلهم، وثنيتهم على محمَّدٍ ﷺ، يقول الدكتور اليهودي إسرائيل ولغنسون في كتابه: (تاريخ اليهود في بلاد العرب) كان من واجب اليهود ألا يتورطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش، وأن لا يصرِّحوا أمام زعماء قريش بأن عبادة الأصنام أفضل من التَّوحيد الإسلامي، ولو أدَّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم؛ لأنَّ بني إسرائيل الذين كانوا منذ عدَّة قرون حاملي راية التوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين، والذين نُكبوا نكباتٍ لا تُحصى، من تقتيل، واضطهاد بسبب إيمانهم بإلهٍ واحدٍ في عصور شتَّى من أدوار التاريخ، كان من واجبهم أن يضحُّوا بحياتهم، وكلِّ عزيزٍ لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين. هذا؛ فضلاً عن أنَّهم بالتجائهم إلى عبدة الأصنام، إنَّما كانوا يحاربون أنفسهم بأنفسهم، ويناقضون تعاليم التوراة التي تُوصيهم بالنفور من أصحاب الأصنام، والوقوف منهم موقف الخصومة. انتهى. ولغنسون يهودي. والذي دعاهم إلى هذا هو الحسد، والحقد، والبغضاء.

الإعراب: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: انظر الإعراب في الآية رقم [٤٤]. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرَّابط الضمير فقط. ﴿بِٱلْجِبْتِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَٱلطَّٰغُوتِ﴾: معطوف على (الجبت). ﴿وَيَقُولُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية مع مقولها معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها. ﴿لِلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿كَفَرُوا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها.

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محلَّ له. (أولاء): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ. ﴿أَهْدَىٰ﴾: خبر المبتدأ مرفوع وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بـ﴿أَهْدَىٰ﴾ لأنَّه صيغة تفضيل، وجملة: ﴿ءَامَنُوا۟﴾ مع المتعلَّق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿سَبِيلًا﴾: تمييز لـ: ﴿أَهْدَىٰ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ۝٥٢﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ: الإشارة إلى المذكورين في الآية السابقة. ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾: أبعدهم من رحمته. ﴿وَمَن يَلۡعَنِ ٱللَّهُ﴾: يطرده من رحمته، ويبعده من رضوانه. ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا﴾: مانعاً يمنعه من العذاب بشفاعةٍ، أو غيرها. هذا؛ و(تجد) ماضيه: وجد، والمضارع أصله: يَوْجِد، فحذفت الواو لوقوعها بين عدوَّتيها، وهما: الياء، والكسرة في مضارع الغائب يجد، وتحذف مِنْ مضارع المتكلم، والمخاطب قياساً عليه.

هذا؛ وقد أمر الله رسول الله ﷺ أن يجعل اللَّعنة على الكاذبين في سورة (آل عمران) ولقد كرَّر لعن الكافرين في سورة (البقرة) وهنا لعن اليهود المُعادين للرسول ﷺ وللإسلام، كما لعن الظَّالمين، والفاسقين والنَّاقضين للعهد في آيات متفرِّقة، وهو دليل قاطع على أنَّ من مات على كفره، فقد استحقَّ اللَّعن من الله ، والملائكة، والنَّاس أجمعين، وأمَّا الأحياء من الكفَّار؛ فقد قال بعض العلماء: لا يجوز لعن كافر معيَّنٍ؛ لأنَّ حاله لا يُعلم عند الوفاة، فلعله يؤمن، ويموت على الإيمان. وقد قيَّد الله تعالى في الآية رقم [١٦١] من سورة (البقرة) إطلاق اللعنة على مَنْ مات على الكفر. ويجوز لعن الكفار جملةً بدون تعيين، كما في قولك: لعن الله الكافرين، يدل عليه قول النبي ﷺ: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ حُرِّمَتْ عَلَيْهِمُ الشُّحُومُ، فَجَمَّلُوهَا، وَبَاعُوهَا**». وذهب بعضهم إلى جواز لعن إنسان معيَّن من الكفار، بدليل قتاله، وهو الصَّحيح، كيف لا؟! وقد لعن حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ أبا سفيان، وزوجه هنداً في شعره، ولم ينكر عليه النبي ﷺ، خذ قوله: [الكامل]

لَعَنَ الإلٰهُ وَزَوْجَهَا مَعَهَا ... هِنْدَ الْهُنُودِ طَوِيلَةَ الْبَظْرِ

وقد لعن الفاروق ـ رضي الله عنه ـ أبا سفيان، وعكرمة بن أبي جهل، وأبا الأعور السُّلمي وغيرهم، الَّذين قدموا المدينة المنورة بعد غزوة أحد، وقد أعطاهم النبي ﷺ الأمان على أن يكلِّموه، فقام معهم جماعةٌ من المنافقين، وقالوا للنبيِّ ﷺ: ارفض ذكر آلهتنا بسوءٍ، وقل: إنَّ لها شفاعة لِمَنْ عبدها، وندعُك وربَّك. فشقَّ ذلك على سيد الخلق، وحبيب الحق، فقال له الفاروق: يا رسول الله ! ائذن لي في قتلهم. فقال: «**إِنِّي أَعْطَيْتُهُمُ الأَمَانَ**». فقال الفاروق: اخرجوا في لعنة الله ، وغضبه، ولم ينكر عليه النبيُّ ﷺ ذلك، كيف لا؟! وآية (النُّور) رقم [٧] تأمر المسلم أن يلعن نفسه إنْ كان من الكاذبين.

وأمَّا العُصاة مِنَ المُسلمين؛ فلا يجوز لعن واحد منهم على التعيين قطعاً، وأمَّا على الإطلاق، فيجوز كما في قولك: لعن الله الفاسقين، والفاسقات. . .إلخ؛ لما روي: أنَّ النبي ﷺ قال: «**لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ، فَتُقْطَعُ يَدُهُ**». ولعن رسول الله ﷺ: «**الْوَاشِمَةَ،**

وَالْمُسْتَوْشِمَةَ، وآكِلَ الرِّبَا. وَلَعَنَ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ، وَمَنِ انْتَسَبَ إِلَى غَيْرِ مَوَالِيهِ، وَمَنْ عَمِلَ عَمَلَ قَوْمِ لُوطٍ، وَمَنْ أَتَى امْرَأَةً فِي دُبُرِهَا». وكل ذلك في الصَّحيح من الأحاديث، وخذ ما يلي:

عن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا لَعَنَ شَيْئاً صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إِلَى السَّمَاءِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُ السَّمَاءِ دُونَهَا، ثُمَّ تَهْبِطُ إِلَى الأَرْضِ، فَتُغْلَقُ أَبْوَابُهَا دُونَها، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِيناً، وَشِمَالاً، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ مَسَاغاً؛ رَجَعَتْ إِلَى الَّذِي لُعِنَ، فَإِنْ كَانَ أَهْلاً، وَإِلَّا؛ رَجَعَتْ إِلَى قَائِلِهَا». رواه أبو داود.

الإعراب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محلِّ رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿لَعَنَهُمُ﴾: فعل ماض، والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والعائد الضمير المنصوب. ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ على اعتبار مفعول الفعل بعده محذوفاً، أو هو في محل نصب مفعول به مقدَّم له. ﴿يَلْعَنِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿فَلَن﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لن): حرف ناصب. ﴿تَجِدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ(لن) والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿نَصِيرًا﴾ بعدهما، أو هما متعلقان بالفعل: ﴿تَجِدَ﴾، على أنَّهما مفعول به ثان تقدَّم على الأوَّل، وهو: ﴿نَصِيرًا﴾، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محل لها؛ لأنَّها لم تحل محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح عند المعاصرين.

﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾﴾

الشرح: ﴿أَمْ لَهُمْ﴾: أي: لليهود اللؤماء. ﴿نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾: الكلام استفهام إنكاري، أي: ليس لهم نصيب من الملك؛ إذ لو كان لهم نصيب من ملك الدنيا، أو من ملك الله ؛ لبخلوا به على عباد الله، فلا يعطون أحداً من الناس أقل شيء، وذلك لشدَّة بخلهم، ولؤمهم، وذلك: أنَّ اليهود كانوا يقولون: نحن أولى بالملك، والنبوة من العرب، فكيف نتبعهم؟ فأكذبهم الله ، وأبطل دعواهم. ولكن في هذه الأيام صار لهم ملكٌ، ودولة، بسبب تفرُّق كلمة المسلمين، وتمزيق وحدتهم، وأرجو أن يمنَّ الله تعالى على المسلمين بجمع شملهم، وتوحيد كلمتهم، وتنظيم صفوفهم، فعند ذلك يقضون على اليهود، وعلى دولتهم، ولا يكون هذا إلا عند نزول عيسى، عليه السلام.

تنبيه: وصف الله اليهود اللؤماء بالبخل بهذه الآية، ووصفهم بالجهل في الآية المتقدِّمة، ووصفهم بالحسد في الآية التالية، وهذه الخصال كلُّها مذمومةٌ، وهي متأصِّلة في اليهود، فكيف يدَّعون الملك، ويتمنَّون النبوَّة؟!

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف عطف، وهي منقطعة عمَّا قبلها لتضمُّنها الاستفهام الإنكاري. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿نَصِيبٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿مِّنَ ٱلْمُلْكِ﴾: متعلقان بـ﴿نَصِيبٌ﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿فَإِذًا﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن شرط مقدَّر، التقدير: وإذا كان لهم نصيب من المُلك؛ فإذاً. (إذاً): حرف جواب وجزاء مهمل لا عمل له، وهو يكتب بالنون عند الجمهور، وأجاز الفرَّاء كتابته بالتنوين. ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُؤْتُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، وقرئ بحذف النون، وذلك على إعمال (إذن). ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به أول. ﴿نَقِيرًا﴾: مفعول به ثان، أو هو صفة لمفعول مطلق محذوف، والجملة الفعلية: (إذاً...) إلخ لا محل لها؛ لأنَّها جواب للشَّرط المقدَّر بـ«إذا» وبعضهم يقدِّره بـ «لو كان لهم...إلخ» وعلى التقديرين، فالجملة الشَّرطية كلامٌ مفرَّع عمَّا قبله، لا محلَّ له.

﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

الشرح: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ﴾ أي: اليهود يحسدون. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: المراد به النبي ﷺ وحدَه، وإنَّما جاز أن يقع عليه لفظ الجمع، وهو واحد؛ لأنَّه ﷺ اجتمع فيه مِنْ خصال الخير، والبركة، ما لا يجتمع مثله في جماعة. ومِنْ هذا القبيل، يقال: فلان أُمَّةٌ وحدَه. يعني: أنَّه يقوم مقام أمَّةٍ. قال تعالى في سورة (النحل) في حقِّ إبراهيم ـ على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾. هذا؛ وقد أطلق الله لفظ: ﴿ٱلنَّاسَ﴾ على نعيم بن مسعود في سورة (آل عمران) فقال عزَّ وجل: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾. وقيل: المراد بـ﴿ٱلنَّاسَ﴾ النبي ﷺ وأصحابه؛ لأنَّ لفظ «الناس» جمع، وحمله على الجمع أولى.

والمراد بالفضل: النبوة؛ لأنَّها أعظم المناصب، وأشرف المراتب، وكذلك حسدوه على النُّصرة، والإعزاز، والقوَّة. وقيل: حسدوه على ما أحلَّ الله له من النِّساء، وكان له يومئذٍ تسع نسوة، فقالت اليهود: لو كان محمد نبيّاً؛ لشغله أمر النبوة عن الاهتمام بأمر النساء. ﴿فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾: المراد بآل إبراهيم: ذريته الأكرمون، مثل: يوسف، وموسى، وهارون، وداود، وسليمان، وغيرهم، على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاةٍ وألف سلام. والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة، والزَّبور، والإنجيل. والمراد بـ(الحكمة) النبوَّة. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾: هو ما وهبه الله لداود، وسليمان من المُلك العظيم المذكور في القرآن هنا. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المعنى: أم يحسدون محمداً ﷺ على ما أحلَّ الله له من النِّساء، فيكون المراد بالملك العظيم على هذا هو ما أحلَّه الله لداود، ولسليمان، فإنَّه كان لداود مئة امرأة، ولسليمان ألف امرأة:

ثلاثمئة حرَّة، وسبعمئة سُرِّيَّة. والفائدة في كثرة تزوجهما: أنَّه كان لكلٍّ منهما قوة أربعين نبيّاً، وقوة النبيِّ بقوة أربعين رجلاً عاديًّا، وكلُّ مَنْ كان أقوى؛ كان أكثر نكاحاً. انتهى. خازن، وقرطبي.

هذا؛ والحكمة: المعرفة بالدين، والفقه في التأويل، والفهم الذي هو منحةٌ، ونورٌ من ربِّ العالمين. قال مالك ـ رحمه الله تعالى ـ وقال أبو بكر بن دريد ـ رحمه الله تعالى ـ: الحكمة كلُّ كلمةٍ وعظتك، أو دعتك إلى مَكرمةٍ، أو نهتك عن قبيح؛ فهي حكمةٌ. وقال أبو العالية ـ رحمه الله تعالى ـ: الحكمة خشية الله، فإنَّ خشية الله رأس كلِّ حكمة، وقد روى ابن مردويه عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً عن النبي ﷺ: «**رَأْسُ الْحِكْمَةِ مَخَافَةُ الله**».

هذا؛ و﴿ءَالَ﴾ أصله: أهل، فأبدلت الهاء همزة ساكنة، فصار (أَأْل) ثمَّ أبدلت الهمزة الثانية الساكنة مدّاً مجانساً لحركة الهمزة الأولى، على القاعدة: «إذا اجتمع همزتان: الأولى متحركة، والثانية ساكنة، قلبت الثانية مدّاً مجانساً لحركة الهمزة الأولى» وذلك مثل آدم، وإيمان، وأومن، فإنَّ الأصل: أَأْدم، وإِإْمان، وأُأْمن، وقلب الهاء همزة سائغ، مستعمل لغةً في: أراق، فإن أصله: هراق، كما تقلب الهمزة هاءً، ومنه قول الشاعر ـ وهو الشاهد رقم [٤١٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

أَلَا يَا سَنَا بَرْقٍ عَلَى قُلَلِ الْحِمَى ... لَهِنَّكَ مِنْ بَرْقٍ عَلَيَّ كَرِيمُ

والأول كثير مستعمل في الشعر العربي، وغيره، وهذا مذهب سيبويه، وقال الكسائي: أصل: آل (أَوَل) كجمل، مِنْ آل يَئُول، تحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً. وقد صغَّروه على أُهَيْل، وهو يشهد للأول، وعلى أُوَيل، وهو يشهد للثاني، ولا يستعمل (آل) إلا فيما له خطر وشأن، بخلاف أهل، يقال: آل النبي، وآل المَلِك، ولا يقال: آل الحجام، ولكن: أهلُه، ولا ينقض بآل فرعون، فإنَّ له شرفاً باعتبار الدُّنيا. واختلف في جواز إضافته إلى المضمر، فمنعه الكسائي، والنَّحاس، وزعم أبو بكر الزبيدي: أنَّه من لحن العوام، والصحيح جوازه، كما في قول عبد المطلب بن هاشم جدِّ النبي ﷺ: [الكامل]

لَا هُمَّ إِنَّ الْعَبْدَ يَمْـ ... ـنَعُ رَحْلَهُ فَامْنَعْ رِحَالَكْ

وَانْصُرْ عَلَى آلِ الصَّلِيـ ... ـب وعَابِدِيهِ الْيَوْمَ آلَكْ

وفي الحديث الصحيح من قول النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ**».

هذا؛ وأمَّا (الحسد) فهو تمنِّي زوال النعمة عمَّن هو مستحق لها، وربما يكون ذلك مع سعيٍ في زوالها، والحسد مذموم، وصاحبه مغموم، وهو «**يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب**». رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ، ورواه أبو داود عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ وقد أطلت الكلام على الحسد في سورة الفلق، فانظره، فإنَّه جيد. والحمد لله! وخذ هنا ما يلي:

فقد قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم مِنْ حاسد، نفسٌ دائم، وحزنٌ لازم، وعَبْرةٌ لا تنفد. وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: لا تعادوا نعم الله ! قيل له: ومَنْ يعادي نِعَمَ الله ؟ قال: الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله، يقول الله في بعض الكتب: (الحَسُودُ عَدُوُّ نِعْمَتِي، مُتَسَخِّطٌ لِقَضَائِي، غَيْرُ رَاضٍ بِقِسْمَتِي). ورحم الله من قال: [الكامل]

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ ... طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلَا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ ... مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيْبُ عَرْفِ الْعُودِ

وقال أبو الأسود الدؤلي ـ رحمه الله تعالى ـ، وهو الشاهد رقم [٣٨٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الكامل]

حَسَدُوا الْفَتَى إِذْ لَمْ يَنَالُوا سَعْيَهُ ... فَالْكُلُّ أَعْدَاءٌ لَهُ وَخُصُومُ
كَضَرَائِرِ الْحَسْنَاءِ قُلْنَ لِوَجْهِهَا ... حَسَداً وَبُغْضاً إِنَّهُ لَدَمِيمُ

وقيل: إذا سرك أن تسلم من الحاسد؛ فعمِّ عليه أمرك، وَلِرَجلٍ من قريش قال: [الرمل]

حَسَدُوا النِّعْمَةَ لَمَّا ظَهَرَتْ ... فَرَمَوْهَا بِأَبَاطِيلِ الْكَلِمْ
وَإِذَا مَا اللهُ أَسْدَى نِعْمَةً ... لَمْ يَضِرْهَا قَوْلُ أَعْدَاءِ النِّعَمْ

هذا؛ وكلُّ ذي نعمةٍ محسود. اسمع قول القائل: [البسيط]

إِنْ يَحْسُدُوكَ عَلَى فَضْلٍ خُصِصْتَ بِهِ ... فَكُلُّ مُنْفَرِدٍ بِالْفَضْلِ مَحْسُودُ

ومآل الحسود في الدُّنيا: الهمُّ، والغمُّ، والهلاك. وفي الآخرة: عذاب النار، وبئس القرار! ولقد أحسن مَنْ قال: [مجزوء الكامل]

اِصْبِرْ عَلَى حَسَدِ الْحَسُو ... دِ فَإِنَّ صَبْرَكَ قَاتِلُهْ
فَالنَّارُ تَأْكُلُ بَعْضَهَا ... إِنْ لَمْ تَجِدْ مَا تَأْكُلُهْ

فإبليس لمَّا حسد آدم؛ طرد من رحمة الله ، وقابيل لمَّا حسد أخاه هابيل؛ كان مآله الخزي، والنكال، واليهود لمَّا حسدوا الرسول ﷺ طُردوا من رحمة الله ، واستحقُّوا اللعنة في الدنيا والآخرة، وباؤوا بغضبٍ مِنَ الله بنصِّ القرآن، والنصارى ضلُّوا سواء السبيل.

الإعراب: ﴿أَمْ﴾: حرف عطف بمعنى «بل» للانتقال مِنْ موضوع إلى آخر. ﴿يَحْسُدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفة بعد «بل» لا محلَّ لها. ﴿عَلَىٰ مَآ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿مَآ﴾: تحتمل الموصولة،

والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بـ﴿عَلَىٰ﴾. ﴿ءَاتَىٰهُمُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدّر على الألف للتعذر. والهاء مفعول به أوّل. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة ما، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: على الذي، أو: على شيء آتاهم الله إيَّاه. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف حال من المفعول الثاني المحذوف. و﴿مِن﴾: بيان لما أبهم في: ﴿مَآ﴾، والهاء في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة المصدر لفاعله. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: حرف تفريع. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي مِنَ الحال. ﴿ءَاتَيْنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿ءَالَ﴾: مفعول به أول، وهو مضاف. و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والعجمة. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ما قبله، وجملة: ﴿ءَاتَيْنَآ ءَالَ...﴾ إلخ مفرعة عمَّا قبلها، ومستأنفة لا محلَّ لها، والجملة بعدها معطوفة عليها، لا محلَّ لها مثلها، وإعرابها واضحٌ إن شاء الله تعالى.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَمِنْهُم﴾: أي: من اليهود. ﴿مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾: أي: بمحمَّد ﷺ وصدق بنبوته، ورسالته، كعبد الله بن سلام، وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ وهم قلَّة قليلةٌ. وقيل: المراد بما ذكر من حديث آل إبراهيم المتقدِّم ذكره. ﴿وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ﴾: أعرض، ولم يؤمن به، وهم الكثرة، كقوله تعالى في سورة (الحديد): ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

الإعراب: ﴿فَمِنْهُم﴾: الفاء: حرف استئناف وتفريع. (منهم): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مَّنْ﴾: اسم موصول مبني على السُّكون في حلِّ رفع مبتدأ مؤخر. ﴿ءَامَنَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿مَّنْ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل: ﴿ءَامَنَ﴾، والجملة الفعلية صلة: (مَنْ) أو صفتها؛ إن كانت نكرة موصوفة، وهذا الإعراب هو المتعارف عليه في مثل هذه الجملة، ولا أرتضيه. والأصح: أنَّ مضمون الجار والمجرور مبتدأ، و﴿مَّنْ﴾ هي الخبر لأنَّ (مِنْ) الجارة دالة على التبعيض أي: وبعض الناس، وجمع الضمير يؤيد ذلك، ويؤيده قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [١١٠]: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فأكثرهم معطوف على مضمون: (منهم) والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها، والتي بعدها معطوفةٌ عليها، وإعرابها مثلها. ﴿وَكَفَىٰ﴾: الواو: حرف عطف. (كفى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر. الباء: حرف جر صلة. (جهنم): فاعل (كفى) مجرور لفظاً، مرفوع محلاًّ. ﴿سَعِيرًا﴾: تمييز، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا﴾: هذا وعيدٌ من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للذين أقاموا على تكذيبهم بما أنزل الله تعالى من اليهود، وغيرهم من سائر الكفار، والمعنى: إنَّ الذين جحدوا ما أنزلت على رسولي محمد من آياتي الدالة على توحيدي، وصدق رسولي محمد ﷺ، سوف أدخلهم ناراً، يحترقون فيها. ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم﴾ أي: احترقت جلودهم. ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا﴾: يعني غير الجلود المحترقة. قال ابن عباس، وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ: إذا احترقوا؛ بدلت لهم جلود بيض كالقراطيس. وروي: أنَّ هذه الآية قرئت عند عمر ـ رضي الله عنه ـ، فقال عمر للقارئ: أعدها، فأعادها، وكان عنده معاذ بن جبل، فقال عند تفسيرها: تبدَّل كلَّ ساعة مئة مرَّة، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: هكذا سمعت رسول الله ﷺ. ذكره البغويُّ بغير سندٍ، وخذ ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَا بَيْنَ مَنْكِبَي الْكَافِرِ مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ**». رواه البخاريُّ، ومسلم.

وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «**ضِرْسُ الْكَافِرِ، أَوْ نَابُ الْكَافِرِ مِثْلُ أُحُدٍ، وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ**». أخرجه مسلم، والترمذيُّ.

وإن أردت الزيادة؛ فانظر التَّرغيب، والتَّرهيب للحافظ المنذري، رحمه الله تعالى.

والحكمة في توسيع جلودهم، وأعضائهم؛ ليذوقوا شدَّة العذاب، كما قال تعالى: ﴿لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾. وتبديل الجلود: إعادتها بشكل آخر، كما تقول: صنعت مِنْ خاتمي خاتماً آخر، فالثاني هو الأوَّل غير أنَّ الصناعة بدلت الصِّفة. وقيل: المراد بالجلود: السَّرابيل، كما قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاةٍ، وألف سلام: ﴿وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٤٩ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٖ﴾ سمِّيت جلوداً للزومها جلودهم على المُجاورة، كما يقال للشيء الخاص بالإنسان: هو جلدة ما بين عينيه، وأنشد ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: [الطويل]

يَلُومُونَنِي فِي سَالِمٍ وَأَلُومُهُمْ وَجِلْدَةُ بَيْنَ الْعَيْنِ وَالأَنْفِ سَالِمُ

ونظير تبديل الجلود قوله تعالى في سورة (إبراهيم) أيضاً: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهي تلك الأرض بعينها إلا أنَّها تُغَيَّر آكامها، وجبالها، وأنهارها، وأشجارها، ويزاد في سَعتها، ويُسَوَّى ذلك منها، ومِنْ هذا المعنى قول الشاعر: [الطويل]

فَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتُ أَعْرِفُ

هذا؛ و(آيات) جمع: آية، وهي في الأصل: العلامة الظاهرة، وتقال للمصنوعات في هذا الكون مِنْ حيث إنَّها تدلُّ على وجود الصانع، وعلمه، وقدرته. قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ...﴾ إلخ رقم [١٦٤]، وقال في سورة (آل عمران) رقم [١٩٠] ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ...﴾ إلخ. كما تقال لكل طائفة من القرآن، كما في هذه الآية، كما تطلق على المُعجزة الخارقة للعادة، مثل: انشقاق القمر، ونحوه، وتطلق على الموعظة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾. كما تُطلق، ويراد بها العبرة، والاعتبار، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ...﴾ إلخ رقم [١٣] من سورة (آل عمران). هذا؛ والتعبير في هذه الآية وغيرها كثيرٌ عن المستقبل بالماضي إنَّما هو لتحقق الوقوع.

هذا؛ و(الذوق) يكون محسوساً، ومعنىً، وقد يوضع موضع الابتلاء، والاختبار، تقول: اركب هذا الفرس. فذقه؛ أي: اختبره، وانظر فلان، فذق ما عنده. قال الشماخ يصف قوساً: [الطويل]

فَـذَاقَ فَـأَعْـطَـتْـهُ مِـنَ الـلِّـيـنِ جَـانِـبَـاً كَـفَـى وَلَـهَـاً أَنْ يُـغـرِقَ الـسَّـهْـمَ حَـاجِـزُ

وقد يعبَّر بالذَّوق عمَّا يطرأ في النفس، وإن لم يكن مطعوماً لإحساسها به كإحساسها بذوق المطعوم، قال عمر بن أبي ربيعة المخزومي: [الطويل]

فَـذُقْ هَـجْـرَهَـا إِنْ كُـنْـتَ تَـزْعُـمُ أَنَّـهَـا فَـسَـادٌ ألا يَـا رُبَّـمَـا كَـذَبَ الـزَّعْـمُ

وتقول: ذقت ما عند فلان، أي: اختبرته، وذقت القوس: إذا جذبت وترها؛ لتنظر ما شدّتها؟ وأذاقه الله وبال أمره، أي: عقوبة كفره ومعاصيه، قال طفيل بن سعد الغنوي: [الطويل]

فَـذُوقُـوا كَـمَـا ذُقْـنَـا غَـدَاةَ مُـحَـجَّـرٍ مِـنَ الْـغَـيْـظِ فِـي أَكْـبَـادِنَـا وَالـتَّـحَـوُّبِ

وتذوَّقته، أي: ذقته شيئاً فشيئاً. وأمر مستذاق، أي: مجربٌ معلومٌ. قال الشاعر: [الوافر]

وَعَـهْـدُ الْـغَـانِـيَـاتِ كَـعَـهْـدِ قَـيْـنٍ دَنَـتْ عِـنْـدَ الْـجَـعَـائِـلِ مُـسْـتَـذَاقِ

وأصله: ذوق بالضم، وذوقوا في كثير من الآيات للإهانة، وفيه استعارة تبعية تخيليَّة، وذكر العذاب في كثير من الآيات استعارة مكنية؛ حيث شبَّه العذاب بشيءٍ يدرك بحاسة الأكل، وشبَّه الذَّوق بصورة ما يذاق، وأثبت للذَّوق تخييلاً.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها. ﴿كَفَرُواْ﴾: ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾: متعلقان بما قبلهما، و(نا) في محل جر بالإضافة. ﴿سَوْفَ﴾: حرف

تسويف واستقبال. ﴿نُصۡلِيهِمۡ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدَّرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به أول. ﴿نَارٗا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مبتدأ، أو مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿كُلَّمَا﴾: (كُلَّ): ظرفية متعلقة بجوابها؛ إذ هي تحتاج إلى جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشرط بجوابه، و(ما) مصدرية توقيتية. ﴿نَضِجَتۡ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، حرف لا محلَّ له. ﴿جُلُودُهُم﴾: فاعل، والهاء في محل جر بالإضافة، و(ما) والفعل (نضج) في تأويل مصدر في محل جر بإضافة (كل) إليه، التقدير: كل وقت نضج جلودهم، وهذا التقدير، وهذه الإضافة هما اللذان سببا الظرفية لـ(كُلَّ). وقيل: (ما) نكرة موصوفة والجملة الفعلية بعدها صفة لها، وهي بمعنى: (وقت) أيضاً، وانظر مبحث «كلَّما» في كتابنا: «فتح القريب المجيب». ﴿بَدَّلۡنَٰهُمۡ﴾: فعل ماضٍ، وفاعله، ومفعوله الأول. ﴿جُلُودًا﴾: مفعول به ثانٍ. ﴿غَيۡرَهَا﴾: صفة: ﴿جُلُودًا﴾. و(ها): في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية جواب ﴿كُلَّمَا﴾ لا محلَّ لها، و﴿كُلَّمَا﴾ ومدخولها في محل نصب حال من الضَّمير المنصوب في نُصليهم، والرابط الضَّمير فقط، ويجوز أن تكون صفة: ﴿نَارٗا﴾ والرابط محذوف، التقدير: ناراً كلَّما نضجت فيها جلودهم.

﴿لِيَذُوقُواْ﴾: اللام: حرف تعليل وجر. (يذوقوا): فعل مضارع منصوب بـ«أن» مضمرة بعد لام التعليل، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتَّفريق. ﴿ٱلۡعَذَابَۗ﴾: مفعول به، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محلِّ جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل بدَّلناهم. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾: خبران لـ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مفيدة للتَّعليل، أو هي مستأنفة، أو هي معترضة في آخر الكلام، لا محلَّ لها على جميع هذه الوجوه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَنُدۡخِلُهُمۡ ظِلّٗا ظَلِيلًا ٥٧﴾

الشرح: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: صدَّقوا بالله، ورسوله تصديقاً صحيحاً. ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: الأعمال الصَّالحات على اختلاف درجاتها، ومراتبها من فعل مأمورات، واجتناب منهيَّات. ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾: جمع: جنة، وهي البستان المملوء بالنَّخيل، والشَّجر الكثير، المتكاثف؛ الذي يجنُّ؛ أي: يستر ما يكون متداخلاً فيه، وسمِّيت دار الثواب: جنَّة؛ لما فيها من النَّعيم؛ الذي لا ينفد، وجمع «الجنَّة» على: ﴿جَنَّٰتٖ﴾ يدلُّ على جنانٍ كثيرةٍ مرتبةٍ بحسب أعمال العاملين، لكلِّ طبقةٍ منهم جنَّةٌ مِنْ تلك الجنان، وهي سبعٌ، بل ثمانٍ: جنَّة الفردوس، وجنة

عدن، وجنَّة النَّعيم، ودار الخُلد، ودار المقامة، ودار السَّلام، وجنَّة المأوى، وعليُّون. وفي كلٍّ منها مراتب، ودرجات متفاوتة على حسب درجات الأعمال، والعمَّال.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ أي: من تحت قصورها، وأشجارها، ولم يجر لهما ذكر؛ لأنَّ الجنَّات دالةٌ عليهما، والأنهار لا تجري، وإنَّما يجري الماء فيها، فهو مِنْ تسمية الشيء باسم محلِّه، ويسمَّى مجازاً مرسلاً، وهو كثير في كتاب الله تعالى، مثل قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي: أمر ربك. ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾ أي: أهلها، وقال الشَّاعر: [الكامل]

نُـبِّـئـتُ أَنَّ الـنَّـارَ بَـعْـدَكَ أُوقِـدَتْ وَاسْتَبَّ بَعْدَكَ يَا كُلَيْبُ الْمَجْلِسُ

أي: استبَّ أهل المجلس. و﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ جمع: نهر، وهو معروف في الدُّنيا، ولكن شتان ما بين أنهار الجنَّة، وأنهار الدُّنيا. هذا؛ ويجمع النَّهر على أنْهُر، ونُهُر، وأنهار، وهاء «النَّهر» تفتح، وتسكن. هذا؛ ويروى: أنَّ أنهار الجنَّة ليست في أخاديد، إنَّما تجري على أرض الجنَّة منضبطةً بالقُدرة حيث شاء أهلُها.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: ماكثين مقيمين لا يبرحون منها. ﴿أَبَدٗاۖ﴾: هو الزَّمان الطَّويل. الَّذي ليس له حدٌّ، فإذا قلت: لا أكلمك أبداً، فالأبد من وقت التكلُّم إلى آخر العمر. وانظر الآية رقم [١٢٢] الآتية. ﴿لَّهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ﴾ أي: ولهم في الجنَّة زوجاتٌ من الحور العين، مطهَّراتٌ من الأقذار، والأدناس الحسِّيَّة، والمعنويَّة، فالحسية مثل: الحيض، والنِّفاس، والبَول، والغائط، والنُّخام. . .إلخ، والمعنوية مثل: سوء الخُلُق، وعدم الانصياع لأوامر الأزواج، وإيذاء الأزواج، وكذلك نساء الدُّنيا المؤمنات يكنَّ يوم القيامة أجمل من الحور العين، كما قال تعالى في سورة الواقعة: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾. هذا؛ ولكلٍّ واحد من أهل الجنة زوجتان مِنْ نساء الدُّنيا، وعددٌ من الحور العين على حسب درجته، ومكانته عند الله . هذا و﴿أَزۡوَٰجٞ﴾ جمع: زوج، وهو يطلق على الرَّجل، والمرأة، والقرينة تبين الذَّكر، والأنثى، ويقال لها أيضاً: زوجة، وحذف التاء أفضل إلا في الفرائض، فإنَّها بالتاء أفصح لتوضيح الوارث، وقال الأصمعي ـ رحمه الله تعالى ـ: ولا تكاد العرب تقول: زوجة. وحكى الفرَّاء: أنَّه يقال: زوجة، وأنشد للفرزدق: [الطويل]

وَإِنَّ الَّـذِي يَـسْـعَـى لِـيُـفْـسِـدَ زَوْجَـتِـي كَـسَـاعٍ إِلَـى أُسْـدِ الـشَّـرَى يَـسْـتَـبِـيْـلُـهَـا

وقال عمَّار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ في عائشة ـ رضي الله عنها ـ: والله إنِّي لأعلم أنَّها زوجة نبيكم في الدُّنيا، والآخرة، ولكنَّ الله ابتلاكم؛ لتتَّبعوه، أو إيَّاها. ذكره البخاريُّ. وعن أنسٍ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ كان مع إحدى نسائه، فمرَّ به رجل، فدعاه، فقال: «**يَا فُلَانُ! هَذِهِ فُلَانَةُ زَوْجَتِي**» فقال: يا رسول الله ! مَنْ كنت أظنُّ به، فلم أكن أظنُّ بك! فقال ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ**

يَجْرِي مِنَ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ». أخرجه مسلم، والمحفوظ: أنَّ ذلك كان ليلاً. وأنَّ الرجل كان الزُّبير بن العوَّام ـ رضي الله عنه ـ، وأنَّ المرأة كانت سودة بنتُ زمعة ـ رضي الله عنها ـ.

هذا والزوج: القرين، قال تعالى في سورة (الصافات) رقم [٢٢]. ﴿ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي: وقرناءهم، والزَّوج ضد الفرد، وكلُّ واحدٍ منهما يسمَّى زوجاً أيضاً، يقال للاثنين: هما زوجان، وهما زوج، كما يقال: هما سيَّان، وهما سواء، وقال تعالى في سورة (هود): ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: من كلِّ نوع ذكراً، وأنثى، وقال تعالى في سورة (الأنعام): ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ...﴾ إلخ. والمعنى: ثمانية أفراد، والزَّوج الصِّنف، والنَّوع، قال تعالى في سورة (لقمان): ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ أي: صنف من النَّبات، ومثلها في سورة الحجِّ رقم [٥].

﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي: دائماً مستمراً، لا تنسخه شمسٌ، ولا يؤذيهم فيه حرٌّ، ولا برد. قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن قلت: إذا لم يكن في الجنَّة شمسٌ يؤذي حرُّها، فما فائدة وصفها بالظلِّ الظَّليل؟ قلت: إنَّما خاطبهم بما يعقلون، ويعرفون، وذلك لأنَّ بلاد العرب في غاية الحرارة، فكان الظلُّ عندهم من أعظم أسباب الرَّاحة، واللَّذاذة، فهو كقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ انتهى. هذا؛ وقال تعالى في سورة (الواقعة): ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ وقال في سورة (الرَّعد): ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ وقال جلَّ شأنه في سورة (المرسلات): ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ﴾. انظر شرح هذه الآيات في محالِّها تجدْ ما يسرك، ويثلجُ صدرك.

تنبيه: لمَّا ذكر الله تعالى في الآية السابقة الكافرين، وما أعدَّ لهم من العذاب الأليم، والعقاب الشَّديد؛ ذكر في هذه الآية المؤمنين الصَّادقين، وما أعدَّ لهم من النَّعيم المُقيم في جنَّات النَّعيم، وتلك سنَّة الله في كتابه الكريم، حيث اقتضت حكمتُه تعالى ورحمتُه، فلا يذكر التَّصديق من المؤمنين، إلا ويذكر التَّكذيب من الكافرين، ولا يذكر الإيمان، إلا ويذكر الكفر، ولا يذكر الجنَّة إلا ويذكر النَّار، ولا يذكر الرَّحمة إلا ويذكر الغضب، والسخط؛ ليكون المؤمن راغباً راهباً، راجياً خائفاً.

تنبيه: ذكر الله في الآية السابقة الكفر، ولم يتبعه بشيءٍ؛ بينما ذكر الإيمان في هذه الآية، وأتبعه بذكر العمل الصَّالح، وهذا يلاحظ في الآيات القرآنيَّة الكثيرة، ممَّا يدل على أنَّ العمل الصالح قرين الإيمان، وقد لا يُجدي الإيمان بدون عمل، وهو ما أفاده قول الرَّسول ﷺ: «**الإِيْمَانُ، وَالْعَمَلُ قَرِيْنَانِ، لَا يَقْبَلُ اللهُ أَحَدَهُمَا بِدُونِ صَاحِبِه**». كما أنَّ الإيمان مشروطٌ لقبول العمل الصَّالح، ويُسمَّى مثل هذا في علم المعاني احتراساً، والله أعلمُ بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾: الواو: حرف عطف. (الذين): اسم موصول مبني على الفتح في محلِّ نصب معطوف على اسم (إنَّ)، أو هو في محل رفع معطوف على محلِّه، أو في محل رفع مبتدأ،

والكلام مستأنف. ﴿ءَامَنُوا﴾: فعل، وفاعل، والألف للتفريق، ومتعلقه محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. (عَمِلُوا): فعل ماض مبني على الضم، والواو. . .إلخ. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾: السين: حرف تنفيس، واستقبال. (ندخلهم): فعل مضارع، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء في محل نصب مفعول به. ﴿جَنَّٰتٖ﴾: ظرف مكان متعلِّق بالفعل قبله عند بعض النُّحاة، وفي مقدِّمتهم سيبويه، والمحقِّقون ـ وعلى رأسهم الأخفش ـ ينصبونه على التوسُّع في الكلام بإسقاط الخافض، لا على الظرفية، فهو منتصب عندهم انتصاب المفعول به على السَّعة بإجراء اللازم مجرى المتعدِّي، ومثل هذا يقال في مفعول «دخل» الثلاثي، ومفعول «نزل» و«سكن» وأيضاً قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا﴾ وعلى جميع الاعتبارات فهو منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة لأنَّه جمع مؤنث سالم.

﴿تَجۡرِي﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدَّرة على الياء للثقل. ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب صفة: ﴿جَنَّٰتٖ﴾. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من الضَّمير المنصوب، منصوب وعلامة نصبه الياء نيابةً عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنُّون عوضٌ عن التَّنوين في الاسم المفرد، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدٗاۖ﴾: ظرف زمان متعلِّق به أيضاً. ﴿لَّهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف حال من الضمير المستتر المستقر في: ﴿لَّهُمۡ﴾، أو هما متعلقان بمحذوف خبر ثان. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿أَزۡوَٰجٞ﴾ كان صفة له. . .إلخ، وهو غير مسلَّم؛ لأنَّ بعضهم لا يجيز مجيء الحال من المبتدأ. ﴿أَزۡوَٰجٞ﴾: مبتدأ مؤخَّر، والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. وقال أبو البقاء: حال، أو صفة، ولا أراهما قويَّين، ولو قيل بالاعتراض بين الجملتين المتعاطفتين؛ لكان أحسن، وأفضل. (ندخلهم ظلّاً): معطوفة على جملة: ﴿سَنُدۡخِلُهُمۡ﴾ إلخ، فهي في محلِّ رفع مثلها، وإعرابها مثلها بلا فارق. ﴿ظَلِيلًا﴾: صفة ﴿ظِلّٗا﴾ مؤكِّدة. كقولهم: شمسٌ شامِسٌ، وَلَيْلٌ أَلْيَل، ويومٌ أَيْوَم. تأمَّل، وتدبَّر، وربُّك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾﴾

الشرح: قال البغوي ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت في عثمان بن طلحة الحجبي مِنْ بني عبد الدَّار، وكان سادن الكعبة، فلمَّا دخل رسول الله ﷺ مكَّة يوم الفتح؛ أغلق عثمان باب الكعبة،

وصعد السَّطح، فطلب رسول الله ﷺ المفتاح، فقيل له: إنَّه مع عثمان، فطلب منه رسول الله ﷺ المفتاح: فأبى، وقال: لو علمت: أنَّه رسول الله؛ لم أمنعه المفتاح. فلوى علي ـ رضي الله عنه ـ يده وأخذ منه المفتاح، وفتح الباب، فدخل رسولُ الله ﷺ البيت، وصلَّى فيه ركعتين، فلمَّا خرج سأله العباس أن يعطيه المفتاح، وأن يجمع له بين السِّقاية، والسِّدانة، فأنزل الله الآية الكريمة، فأمر رسول الله ﷺ عليّاً ـ رضي الله عنه ـ أن يردَّ المفتاح إلى عثمان، ويعتذر إليه، ففعل ذلك، فقال له عثمان: آذيتَ، وأكرهت، ثم جئت تترفَّق، فقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: لقد أنزل الله في شأنك قرآناً، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان ـ رضي الله عنه ـ: أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأشهد أنَّ محمَّداً رسولُ الله، فقال النبي ﷺ: «**خُذُوهَا يَا بَنِي طَلْحَةَ خَالِدَةً تَالِدَةً، لَا يَأْخُذُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ**». فكان المفتاح معه إلى أنْ مات، فدفعه إلى أخيه شيبة، فالمفتاح، والسِّدانة في أولادهم إلى يوم القيامة. هذا؛ وأثبت أبو عمر بن عبد البر، وابن منده، وابن الأثير: أنَّ عثمان بن طلحة ـ رضي الله عنه ـ هاجر إلى المدينة في هدنة الحديبية سنة ثمانٍ مع خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ. انتهى خازن بتصرُّف. فيكون من السَّابقين.

هذا؛ و(الأمانة) مصدر، وحقُّ المصادر ألا تجمع؛ لأنَّها كالفعل يدلُّ على الكثير، والقليل من جنسه، ولكن لمَّا اختلفت أنواع الأمانة؛ جاز جمعها؛ لأنَّها لمَّا اختلفت أنواعها شابهت المفعول به، فجمعت كما يجمع المفعول به، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة (المعارج): ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾. والأمانة: خُلقٌ مِنْ الأخلاق الفاضلة، وصفةٌ من الصفات النبيلة، وأصلٌ من أصول الديانات، ولذلك أكَّدت جميع الشرائع أمرها، وحثَّت على الاتصاف بها، وبالإضافة لِمَا ذكرته في سورة (آل عمران) رقم [٧٥] أذكر هنا ما يلي:

فالأمانة تجري في كل شؤون الحياة، فمن أسرَّ إليك سرّاً؛ فقد أودع عندك أمانة، ومن استشار غيره في أمرٍ دنيويٍّ؛ فهو أمانة، والمال في يد الإنسان أمانة، والولد في يد الإنسان أمانة. قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، حَفِظَ، أَمْ ضَيَّعَ؛ حَتَّى يَسْأَلَ الرَّجُلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**». رواه ابن حبَّان في صحيحه عن الحسن ـ رضي الله عنه ـ. وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ. وجوارح الإنسان كلُّها أمانة، والتَّكاليف الإلٰهيَّة كلُّها أمانة، ومعاملات النَّاس كلُّها أمانة، وخذ ما يلي:

عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «**القتلُ في سَبِيل اللهِ يُكَفِّرُ الذُّنُوبَ كُلَّهَا إِلَّا الأَمَانَةَ، قَالَ: يُؤْتَى بِالعبدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ، فَيُقَالُ: أَدِّ أَمَانَتَكَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ كَيْفَ؛ وَقَدْ ذَهَبَتِ الدُّنْيَا؟ فَيُقَال: انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الهَاوِيَة، فَيُنْطَلَق بِهِ إِلَى الهَاوِيَة، وَتُمَثَّلُ لَهُ أَمَانَتُهُ كَهَيْئَتِهَا يَوْمَ دُفِعَتْ إِلَيْهِ، فَيَرَاهَا، فَيَعْرِفُهَا، فَيَهْوِي فِي أَثَرِهَا حَتَّى يُدْرِكَهَا، فَيَحْمِلَهَا عَلَى مِنْكَبَيْهِ حَتَّى إِذَا ظَنَّ: أَنَّهُ خَارِجٌ؛ زَلَّتْ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَهُوَ يَهْوِي فِي أَثَرِهَا أَبَدَ الآبِدِين. ثُمَّ قَالَ:**

الصَّلاةُ أَمَانَةٌ، وَالوضُوءُ أَمَانَةٌ، والوزنُ أَمَانَةٌ، والكيلُ أَمَانَةٌ ـ وَأَشْيَاءُ عَدَّدَهَا ـ وأَشَدُّ ذَلِكَ الْوَدَائِعُ». رواه البخاريُّ، وأحمد، والبيهقيُّ موقوفاً. وذكر عبد الله ابن الإمام أحمد في كتاب الزهد: أنَّه سأل أباه عنه، فقال: إسناد جيِّد. هذا؛ وجميع النعم التي أنعم الله بها على الإنسان أمانةٌ؛ وما أكثرها! قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾.

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ﴾ أي: ويأمركم الله أن تعدلوا بين الناس في أحكامكم. ويدخل في ذلك جميع الخلق، والخطاب يعمُّ كلَّ مَنْ تولَّى الحكم بين اثنين من ولاةٍ، وغيرهم. فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النَّبيِّ ﷺ: «**يَوْمٌ مِنْ إِمَامٍ عَادِلٍ أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً، وَحَدٌّ يُقَامُ في الأرْضِ بِحَقِّهِ أَزْكَى فِيْهَا مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحَاً**». رواه الطَّبرانيُّ في الكبير، والأوسط، وكلمة «**إمام**» تعمُّ، وتشمل كلَّ من تولَّى شأناً من شؤون المسلمين، وأمراً مِنْ أمورهم، فهو يتدرَّج من رئيس الدَّولة إلى المُحافظ.. إلى الشُّرطي الذي يتولى التَّحقيق بين اثنين متخاصمين. وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ عَنْ يَمِينِ الرَّحْمنِ ـ وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ ـ الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ، وأَهْلِيهِمْ، وَمَا وَلُوا**». رواه مسلمٌ، والنَّسائي. وأحقُّ الناس بالعدل الأهلُ، وهو يشمل الزَّوجة، والأولاد.

و(أهل) اسم جمع، لا واحد له مِنْ لفظه، مثل: معشر، ورهط، ونفر... إلخ. والأهل: العشيرة، وذوو القربى. ويطلق على الزَّوجة، والأولاد، وعلى الأتباع أيضاً، وجمعه: أَهْلون وَأَهَالٍ، وَآهال، وأهْلات، وبالأولين قُرئ قوله تعالى في سورة التَّحريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾.

﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ...﴾ إلخ أي: ويأمركم بأن تحكموا بالحق، والإنصاف، وإذا قضيتم بين الناس، فلا تميلوا عن الحق إلى أحد المتخاصمين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا﴾: لأقوالكم، ﴿بَصِيرٗا﴾: بأعمالكم. وصف الله تعالى نفسه بأنَّه سميع بصير، يسمع ويرى، كما قال تعالى في سورة طه لموسى وهارون على نبينا وحبيبنا وعليهما ألف صلاة، وألف سلام: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾، والمعنى: فَإذَا حكمتم؛ فهو يسمع حكمكم، وإذا أديتم الأمانة؛ فهو يبصر فعلكم. وأصل العدل هو المساواة في الأشياء، فكل ما خرج عن الظلم، والاعتداء سُمِّي عدلاً. قال بعض العلماء: ينبغي للقاضي أن يسوِّي بين الخصمين في خمسة أشياء: في الدُّخول عليه، والجلوس بين يديه، والإقبال عليهما، والاستماع منهما، والحكم بالحق فيما لهما، وعليهما. وحاصل الأمر فيه أن يكون مقصود الحاكم بحكمه إيصال الحقِّ إلى مستحقِّه، وأن لا يمتزج بغرضٍ آخر. هذا؛ وذُكِرَ لفظُ الجلالة في ثلاث جمل لتربية المهابة في النُّفوس، ولتعظيمه في القلوب.

هذا؛ و(نِعْم) فعل ماض جامد لإنشاء المدح، و(بئس) فعل ماض جامد لإنشاء الذَّمِّ، قال في المختار: «نعم» منقول من نَعِمَ فلانٌ بفتح النون، وكسر العين: إذا أصاب النِّعمة. وبَئِسَ فلان بفتح الباء، وكسر الهمزة: إذا أصاب بؤساً، فنقلا إلى المدح، والذم، فشابها الحروف، فلم يتصرفا، وفيهما أربع لغات: نِعْم، وبِئْس بكسر فسكون، وهي أفصحنَّ، ثمَّ نِعِم بِئِس بكسر أولهما وثانيهما، غير أنَّ الغالب في (نعم) أن يتصل بها «ما» كما في الآية التي نحن بصدد شرحها، وكما في قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٧١]: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ﴾، وبئس اتصلت بها «ما» على اللغة الفصحى، كما في قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٩٠]: ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ﴾ والآية رقم [٩٣] منها أيضاً: ﴿بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ﴾ والآية رقم [١٥٠] من سورة (الأعراف): ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى...﴾ إلخ، واللغة الثالثة: نَعْمَ وبَأْسَ بفتح وسكون، والرابعة: نَعِمَ وبَئِسَ بفتح وكسر، وهي الأصل فيهما، ولا بدَّ لهما من شيئين: فاعل، ومخصوص بالمدح، أو بالذمِّ، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته: [الرجز]

فِعْلَانِ غَيْرُ مُتَصَرِّفَيْنِ ... نِعْمَ وَبِئْسَ رَافِعَانِ اسْمَيْنِ
مُقَارِنَيْ أَلْ أَوْ مُضَافَيْنِ لِمَا ... قَارَنَهَا كَنِعْمَ عُقْبَى الْكُرَمَا
وَيَرْفَعَانِ مُضْمَراً يُفَسِّرُهْ ... مُمَيِّزٌ كَنِعْمَ قَوْماً مَعْشَرُهْ

والقول بفعليتهما إنما هو قول البصريين، والكسائي، بدليل دخول تاء التأنيث عليهما في قول النبي ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فِبِهَا، ونِعْمَتْ، وَمَنِ اغْتَسَلَ؛ فَالْغُسْلُ أَفْضَلُ**». وقال الكوفيُّون: هما اسمان بدليل دخول حرف الجر عليهما في قول أعرابيٍّ؛ وقد أُخبر بأنَّ امرأته ولدت بنتاً: وَاللهِ مَا هِيَ بِنِعْمَ الْوَلَدُ، نَصْرُهَا بُكَاءٌ، وَبِرُّهَا سَرِقَةٌ. وقول آخر: نِعْمَ السَّيْرُ عَلَى بِئْسَ الْعَيْرُ. وتأوله البصريُّون على حذف كلام مقدَّر، والتقدير: وَاللهِ مَا هِيَ بِوَلَدٍ مَقُولٍ فِيْهِ: نِعْمَ الْوَلَدُ، ونِعْمَ السَّيْرُ عَلَى عَيْرٍ مَقُولٍ فِيْهِ: بِئْسَ الْعَيْرُ. والمعتمد في ذلك قول البصريين.

هذا؛ ويجب في فاعلهما أن يكون مقترناً بأل، أو مضافاً لمقترنٍ بها، أو ضميراً مميزاً بنكرة، أو كلمة «ما»؛ فالأول: كما في قوله تعالى: ﴿نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾. والثاني: نحو قوله تعالى: ﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾. والثالث: مثل قوله تعالى: ﴿بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾. والرابع: كما في الآية التي بين أيدينا. وهذا شرح لأبيات ابن مالك.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهَ﴾، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة لا محلَّ لها على الاعتبارين. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿تُؤَدُّوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة،

والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤول منهما في محل جرٍّ بحرف جرٍّ محذوف، والجار والمجرور متعلّقان بالفعل قبلهما، وتقدير الكلام: إنَّ الله يأمركم بأداء. ﴿ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم. ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل ﴿تُؤَدُّوا۟﴾. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ﴾.

﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب متعلّق بمحذوف على مذهب البصريِّين؛ الذين لا يجيزون إعمال ما بعد «أن» المصدرية فيما قبلها، التقدير: ويأمركم أن تحكموا بالعدل إذا حكمتم، وعند الكوفيين متعلق بالفعل الآتي؛ لأنَّهم يجيزون إعمال ما بعد «أن» المصدرية فيما قبلها. ﴿حَكَمْتُم﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلّق بما قبله، و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿أَن تَحْكُمُوا۟﴾: إعرابه مثل إعراب: ﴿أَن تُؤَدُّوا۟﴾، والمصدر المؤول في محل جرٍّ بحرف جرٍّ محذوف، والجار والمجرور معطوفان على مثلهما السَّابِقَيْن. ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما على أنَّهما مفعوله، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة. ﴿نِعِمَّا﴾: (نِعْمَ) فعل ماض جامد لإنشاء المدح. (ما): نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب على التَّمييز المفسِّر لفاعل (نِعْمَ) المستتر، التقدير: نعم الشيء شيئاً. هذا؛ وجُوِّز اعتبار (ما) اسماً موصولاً على أنَّها فاعل (نعم) والمعتمد الأول. ﴿يَعِظُكُم﴾: فعل مضارع والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية صفة (ما) أو صلتها، والرابط، أو العائد هو الضمير المجرور محلاً بالباء، والمخصوص بالمدح محذوف، التقدير: نعم الشيء، أو الذي يعظكم به هو تأدية الأمانة، والحكم بالعدل، وجملة: ﴿نِعِمَّا...﴾ إلخ في محل رفع خبر: (إنَّ) والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ...﴾ إلخ مفيدة للتعليل، أو هي مستأنفة لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله في الآية السابقة الأمانة، وأمر بأدائها النَّاس جميعاً، وأمر الحكام أن يحكموا بين الناس بالعدل؛ تقدَّم في هذه الآية إلى الرَّعية، فأمر بطاعته أولاً، وهي: امتثال أوامره، واجتناب نواهيه، ثمَّ أمر بطاعة رسوله ﷺ ثانياً فيما أمر به، ونهى عنه، ثمَّ أمر بطاعة الحكام، والأمراء ثالثاً على قول الجمهور، وفي مقدِّمتهم: أبو هريرة، وابن عباس، وغيرهم من كبار الصحابة. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٩]. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَطَاعَنِي؛ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ. وَمَنْ عَصَانِي؛ فَقَدْ عَصَى اللهَ. وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ؛ فَقَدْ أَطَاعَنِي. وَمَنْ يَعْصِ الأَمِيرَ؛ فَقَدْ عَصَانِي**». متفق عليه.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اسْمَعُوا، وَأَطِيعُوا، وإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللهِ**». رواه البخاريُّ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: «**أَوْصَانِي خَلِيْلِي ﷺ أَنْ أَسْمَعَ، وَأُطِيعَ، وإن كان عبداً حَبَشِيّاً مجدوعَ الأطراف**». رواه مسلم، رحمه الله تعالى!.

وورد في بعض الكتب المنزلة: يقول الله ـ عزَّ وجل ـ: «**أنا الله ملك الملوك، ومالك المُلك، قلوبُ الملوك، ونواصيهم بيدي، فَإِنِ العبادُ أطاعوني؛ جعلتهم عليهم رحمةً، وإنْ هم عَصَوْنِي؛ جعلتُهم عليهم عقوبةً، فلا تشتغلوا بسبِّ الملوكِ، ولكن توبُوا إِلَيَّ أُعَطِّفْهُمْ عَلَيْكُمْ**». وهو معنى قول الرَّسول ﷺ: «**كَمَا تَكُونُوا يُوَلَّ عَلَيْكُمْ**».

هذا؛ وقال العلماء: طاعة الإمام واجبةٌ على الرَّعية ما دام على الطَّاعة، فإذا زال عن الكتاب، والسنة؛ فلا طاعة له، وإنَّما طاعته فيما وافق الحقَّ. وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: حقٌّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ، ويؤدِّي الأمانة، فإذا فعل ذلك؛ فحقٌّ على الرَّعية أن يسمعوا، ويطيعوا. وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**عَلَى الْمَرْءِ الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيْمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ إِلَّا أَنْ يُؤْمَرَ بِمَعْصِيَةٍ، فَإِنْ أُمِرَ بمعصيةٍ؛ فَلَا سَمْعَ، وَلَا طَاعَةَ**». رواه أبو داود. هذا؛ وفي قوله تعالى: ﴿مِنكُمْ﴾ إيحاء على أنَّ الحكام الذين تجب طاعتهم؛ إنْ حكموا بالعدل يجب أن يكونوا مسلمين حسّاً، ومعنىً، لحماً، ودماً، لا أن يكونوا مسلمين شكلاً، وصورةً. وخذ ما يلي:

قال الزَّمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: والمراد بـ(أولي الأمر منكم): أمراء الحق؛ لأنَّ أمراء الجور اللهُ ورسولُه بريئان منهم، فلا يُعطفون على الله، ورسوله في وجوب الطاعة لهم، وإنَّما يجمع بين الله، ورسوله، والأمراء الموافقين لهما في إيثار العدل، واختيار الحق، والأمر بهما، والنَّهي عن أضدادهما، كالخُلفاء الراشدين، وَمَنْ تَبِعَهُم بإحسانٍ، وكان الخلفاء يقولون: أطيعوني ما عدلت فيكم، فإن خالفت؛ فلا طاعة لي عليكم. انتهى.

هذا؛ ومن العلماء من يقول: المراد بأولي الأمر: العلماء العاملون، الذين يعلِّمون النَّاس بأمور الدين، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر. وهو قول لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وكذا قال مجاهد، وعطاء، وغيرهما، واستدلُّوا بقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ...﴾ إلخ فأمر الله تعالى برد المتنازع فيه إلى كتاب الله ، وسنَّة نبيه ﷺ، وليس لغير العلماء معرفة كيفية الردِّ إلى الكتاب، والسنة. قال تعالى في الآية رقم [٨٣]: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ

﴿مِنكُمْ﴾ ويدلُّ هذا على صحَّة كون سؤال العلماء واجباً، وامتثال فتواهم لازماً. قال سهل بن عبد الله: لا يزال الناس بخير ما عظموا السُّلطان، والعلماء، فإذا عظَّموا هذين؛ أصلح الله دنياهم، وأخراهم، وإذا استخفُّوا بهذين؛ فسدت دنياهم، وأخراهم. وانظر الآية رقم [٨٣] ومعنى: ﴿تَنَٰزَعْتُمْ﴾: تجادلتم، واختلفتم، فكأنَّ كلَّ واحدٍ ينتزع حجَّة الآخر، ويُذهبها، والمنازعة: مجاذبة الحديث، والحجج. قال الأعشى في معلَّقته: [البسيط]

نَازَعْتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحَانِ مُتَّكِئاً وَقَهْوَةً مُرَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ

﴿فِي شَيْءٍ﴾ من أمر دينكم، ودنياكم. ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ أي: ردُّوا ذلك الحكم إلى كتاب الله، عزَّ وجلَّ، وإلى رسوله ﷺ في حياته ما دام حياً، وبالنَّظر في سنَّته بعد وفاته ﷺ. ومن لم ير هذا اختلَّ إيمانه؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾. قال العلماء: في الآية دليل على أنَّ من لا يعتقد وجوب طاعة الله عزَّ وجل، وطاعة الرَّسول ﷺ، ومتابعة السنة، والحكم بالأحاديث الواردة عن النبيِّ ﷺ لا يكون مؤمناً بالله، واليوم الآخر، وهو الذي يكون فيه الحشر، والنشر، والحساب والجزاء، ودخول أهل الجنَّة الجنَّة بالفضل الإلهيِّ، ودخول أهل النَّار النّارَ بالعدل الرَّبَّانيِّ.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾: أي: ردُّكم ما اختلفتم فيه إلى الكتاب، والسنَّة خيرٌ من التنازع. ﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: أي: مرجعاً، وأحمد عاقبة، مِنْ: آل، يؤول إلى كذا، أي: صار.

هذا؛ وقال البخاريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت الآية الكريمة في عبد الله بن حُذافة السَّهمي ـ رضي الله عنه ـ إذ بعثه رسول الله ﷺ على رأس سرية، فلمَّا خرجوا؛ وجد عليهم في شيءٍ، فقال لهم: أليس أمركم رسول الله ﷺ بطاعتي؟ قالوا: بلى! قال: فاجمعوا حطباً، ثم دعا بنارٍ فأضرمها، ثمَّ قال: عزمت عليكم لَتَدْخُلُنَّها! فقال شابٌّ منهم: إنَّما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النَّار، فلا تعجلوا حتَّى تلقوْا رسول الله ﷺ، فإن أمركم أن تدخلوها، فادخلوها، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ، فأخبروه، فقال لهم: «**لَوْ دَخَلْتُمُوهَا مَا خَرَجْتُمْ مِنْهَا أَبَدَاً، إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**». وفي روايةٍ: «**لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ**». وضعَّف الدَّاوودي هذه الرِّواية.

وقال السُّديُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت في خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ وذلك: أنَّه بعثه رسول الله ﷺ على سرية، وفيها عمَّار بن ياسر ـ رضي الله عنهما ـ، فلمَّا قربوا من القوم؛ هربوا منهم، وجاء رجل منهم إلى عمَّار قد أسلم، فأمَّنه عمَّار، فجاء خالد ـ رضي الله عنه ـ، فأخذ مال الرَّجل، فقال عمَّار: إني قد أمنته؛ وقد أسلم، فقال خالد: أَتُجْيرُ عليَّ؛ وأنا الأمير؟! فتنازعا، وقدما على رسول الله ﷺ، فأجاز أمان عمَّار، ونهاه أن يُجير ثانيةً. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: انظر الآية رقم [٢٩] ﴿أَطِيعُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، وجملة: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿وَأُوْلِي﴾: معطوف على ما قبله منصوب مثله، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنّه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و(أولي): مضاف، و﴿ٱلْأَمْرِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من (أولي الأمر).

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿تَنَٰزَعْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فِي شَيْءٍ﴾: متعلِّقان بما قبلهما. ﴿فَرُدُّوهُ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ردُّوه): فعل أمر، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد. ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ متعلِّقان بما قبلهما، و(إن) ومدخولها كلامٌ مستأنفٌ لا محلَّ له. ﴿وَٱلرَّسُولِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ﴾: إعراب هذه الجملة مثل إعراب ما قبلها، وجواب الشَّرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إن كنتم؛ فردُّوه، والجملة الشرطية مستأنفةٌ.

﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿خَيْرٌ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَأَحْسَنُ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿تَأْوِيلًا﴾: تمييز.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾: ألم تنظر. فهو تعجيب مِنْ حال المنافقين. والخطاب للنبي ﷺ، ويعمُّ كلَّ عاقلٍ، وَمَنْ عنده شيء من التفكير، والتبصُّر، فهو إنكار من الله ـ عزَّ وجل ـ على مَنْ يدَّعي الإيمان بما أنزل الله على رسوله، وعلى الأنبياء الأقدمين، وهو مع ذلك يريد أن يتحاكم في فصل الخصومات إلى غير كتاب الله، وسنَّة رسوله. والآية قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ فيها: نزلت في رجلٍ من المنافقين، يقال له: بِشْر، كان بينه، وبين يهوديٍّ خصومة، فقال اليهودي: ننطلق إلى محمد، وقال المنافق: بل ننطلق إلى كعب بن الأشرف، وهو الذي

سمَّاه الله: الطاغوت، فأبى اليهوديُّ أن يخاصمه إلا إلى محمد ﷺ، فلمَّا رأى المنافق ذلك؛ أتى معه إلى رسول الله ﷺ، فقضى رسول الله ﷺ لليهوديِّ، فلما خرجا؛ قال المنافق: لا أرضى! انطلق إلى أبي بكر، فحكم الصديق ـ رضي الله عنه ـ لليهوديِّ، فلم يرض ـ ذكره الزجَّاج ـ وقال: انطلق بنا إلى عمر، فذهبا إلى عمر، فقال اليهودي: إنا صرنا إلى محمَّد، ثم إلى أبي بكر، فلم يرض، فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ للمنافق: أكذاك هو؟ قال: نعم، قال: رويدكما حتى أخرج إليكما، فدخل، وأخذ السيف، ثمَّ ضرب به المنافق، فقتله، وقال: هكذا أقضي على مَنْ لم يرضَ بقضاء الله، وقضاء رسوله. وهرب اليهوديُّ، ونزلت الآية، وقال جبريل ـ عليه السلام ـ: إنَّ عمر فرَّق بين الحقِّ، والباطل، فسمِّي الفاروق. وقال رسول الله ﷺ له: «**أنت الفاروق**»، وفي ذلك نزلت الآية كلُّها إلى قوله: ﴿تَسۡلِيمٗا﴾ وهذه إحدى الآيات الَّتي وافقت رأي عمر، ومثلها الآية رقم [٩٨]، والآية رقم [١٢٥] من سورة (البقرة)، والآية رقم [٩٤] من سورة (المائدة)، والآية رقم [٦٧] من سورة (الأنفال)، والآية رقم [٥٩] من سورة (الأحزاب)، والآية رقم [٥] من سورة (التحريم) وغير ذلك.

هذا؛ و﴿يَزۡعُمُونَ﴾: ماضيه زعم، قال الشيخ مصطفى الغلاييني ـ رحمه الله تعالى ـ: الغالب في زعم أن تستعمل للظنِّ الفاسد، وهو حكاية قول يكون مظنَّةً للكذب. فيقال فيما يشك فيه، أو فيما يعتقد كذبه. ولذلك يقولون: (زعموا) مطيَّة الكذب، أي: إنَّ هذه الكلمة مَرْكَبٌ للكذب، ومِنْ عادة العرب: أنَّ مَنْ قال كلاماً وكان عندهم كاذباً؛ قالوا: زعم فلان. ولهذا جاء في القرآن الكريم في كلِّ موضعٍ ذُمَّ القائلون به، وقد يراد الزَّعم بمعنى القول مجرداً عن معنى الظنِّ الراجح، أو الفاسد، أو المشكوك فيه، فإن كانت زعم بمعنى: تأمَّر، وترأَّس، أو بمعنى: كفل به تعدَّت إلى واحدٍ بحرف الجر، تقول: زعم على القوم، فهو زعيم، أي: تأمَّر عليهم، وترأسهم، وزعم بفلان، وبالمال، أي: كلفه، وضمنه، وتقول: زعم اللَّبن، أي: أخذ يطيب، فهو لازم. انتهى.

أقول: ولا تنس الكفالة، والضمان مِنْ (زعم) في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ نَفۡقِدُ صُوَاعَ ٱلۡمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمۡلُ بَعِيرٖ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٞ﴾ سورة (يوسف) رقم [٧٢]، وقوله جلَّ ذكره: ﴿سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ سورة (القلم) رقم [٤٠]. بعد هذا أقول: إنَّ (زعم) من الأفعال التي تنصب مفعولين؛ أصلهما مبتدأ وخبر، إن كان من أفعال الرُّجحان، والأكثر أنْ يسدَّ مسدهما: أنْ، واسمها، وخبرها مخففةً من الثقيلة، أو غيرهما، نحو قوله تعالى في سورة التغابن: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ...﴾ إلخ، وفي هذه الآية: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ...﴾ إلخ. انظر شواهد ذلك في كتابنا: «فتح رب البريَّة». والقليل أن تنصب مفعولين صريحين، وهو ناقص التصرُّف، ويأتي منه ماض، ومضارع، ولا يأتي منه أمر.

﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: القرآن الكريم. ﴿أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ المراد: التَّوراة التي أنزلها الله على موسى، وهارون، والإنجيل الذي أنزله الله على عيسى، والزَّبور الذي أنزله الله على داود، على نبينا، وحبيبنا، وعليهم جميعاً ألف صلاة، وألف سلام. ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: الطاغوت: الكثير الطغيان، والمراد به هنا: كعب بن الأشرف اليهودي اللعين. وانظر الآية [٢٥٦] من سورة (البقرة)، وقد رأيت: أنَّ الطاغوت: الشيطان، فقد شبهه الله بالشيطان، أو جعل اختيار التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ على التحاكم إليه تحاكماً إلى الشيطان بدليل ما بعده: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾: أي: أن يرفضوه، ولا يقبلوا به؛ لأنَّ الكفر بالطَّاغوت، وعدم الرضا به هو صريح الإيمان، قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾. ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ أي: يخرجهم من جادة الحقِّ والصَّواب إلى الباطل. والإضلال: خلق فعل الضلال في العبد. ﴿ضَلَٰلًا﴾: هذا مصدر، وليس جارياً على يضلهم، فيحتمل أن يكون جعل مكان الإضلال، مثل قوله تعالى في سورة (نوح) ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ فوضع مصدر الثلاثي موضع مصدر الرُّباعي، ويحتمل أن يكون مصدراً للمضارع: (يضلهم) أي: فيضلوا ضلالاً بعيداً، أي: كبيراً مستمراً إلى الموت. هذا؛ وفي إسناد البعد إلى الضلال مجازٌ عقلي؛ لأنَّ البعيد في الحقيقة إنَّما هو الضالُّ؛ لأنَّه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعلُه، كما تقول: جدَّ جدُّه.

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتعجب. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لم) وعلامة جزمه حذف حرف العلة من آخره، وهو الألف المقصورة، والفتحة قبلها دليل عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة لا محل لها. ﴿يَزْعُمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمها. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب سدَّ مسدَّ مفعولي: ﴿يَزْعُمُونَ﴾. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر بالباء. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: معطوف على سابقه، وإعرابه مثله.

﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. ﴿أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والمصدر المؤوَّل منهما في محل

نصب مفعول به، وجملة: ﴿يُرِيدُونَ...﴾ إلخ في محل نصب حال من واو الجماعة في: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ والرابط: الضمير فقط. ﴿إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَقَدْ﴾: الواو: واو الحال. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أُمِرُوٓاْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة في: ﴿يُرِيدُونَ﴾. والرابط: الواو، والضمير، وهي حال متداخلة، والمصدر المؤوَّل من: ﴿أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وتقدير الكلام: وقد أمروا بالكفر به؛ أي: بالطاغوت، وجملة: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها، وإعرابها واضح إن شاء الله. ﴿ضَلَٰلًۢا﴾: مفعول مطلق. ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾: للمنافقين. ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ يعني: هلمُّوا إلى حكم الله الَّذي أنزله الله في كتابه، وإلى الرسول؛ ليحكم بينكم به. ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ إلخ: يعرضون عنك، وعن حكمك إعراضاً، وأيَّ إعراض. وإنَّما أعرض المنافقون عن حكم رسول الله ﷺ؛ لأنَّهم علموا: أنَّه كان يحكم بالحق الصَّريح، ولا يقبل الرِّشا، وإنَّما ذكر لفظ المنافقين في موضع الإضمار للتسجيل عليهم بالنِّفاق، وذمِّهم به، والتشنيع عليهم. وانظر ما وصفهم الله به في الآية رقم [٨] من سورة (البقرة) وما بعدها.

هذا؛ و﴿قِيلَ﴾ أصله: (قُوِل) بضم القاف، وكسر الواو، فنقلت حركة الواو إلى القاف بعد سلب حركتها، فصار (قِوْل) بكسر القاف وسكون الواو، ثمَّ قلبت الواو ياءً لوقوعها ساكنة بعد كسرةٍ، فصار: قِيلَ.

وأمَّا ﴿تَعَالَوْاْ﴾؛ فقد قال ابن هشام ـ رحمه الله تعالى ـ في قطر النَّدى: وأمَّا (هاتِ)، و(تعالَ) فعدَّهما جماعة من النحويين في أسماء الأفعال، والصواب: أنَّهما فعلا أمر؛ بدليل: أنَّهما دالان على الطلب، وتلحقهما ياء المخاطبة، فتقول: هاتِي، وتعالَيْ. واعلم: أنَّ آخر «هاتِ» مكسور أبداً، إلا إذا كان لجماعة المذكرين، فإنَّه يضمُّ، فتقول: هاتِ يا زيدُ، وهاتِي يا هندُ، وهَاتِيَا يا زيدَانِ. وهاتِيَا يا هِنْدَانِ، وَهَاتِينَ يا هِنْدَاتُ. كلُّ ذلك بكسر التاء، وتقول: هاتُوا يا قومُ، بالضم، قال تعالى في كثير من الآيات: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، وأنَّ آخر «تعالَ» مفتوح في جميع أحواله من غير استثناء، تقول: تعالَ يا زيدُ، وتعالَيْ يا هندُ، وتعالَيَا يَا زيدانِ، وتَعَالَيَا يَا هندانِ، وتعالَوْا يا زيدونُ، وتعالَيْنَ يا هنداتُ (كل ذلك بالفتح) قال تعالى

في سورة (الأنعام): ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ...﴾ إلخ. وقال ـ جلَّ ذكرُه ـ في سورة (الأحزاب): ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾. ومِنْ ثمَّ لحَّنوا أبا فراس الحمداني بقوله: [الطويل]

أَيَا جَارَتَا مَا أَنْصَفَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا تَعَالِي أُقَاسِمْكِ الْهُمُومَ تَعَالِي

وأقول: إنَّ الفعلين (هَاتِ، وتَعَالَ) ملازمان للأمريَّة، فلا يأتي منهما مضارع، ولا ماض، وهما بمعنى: (أحْضِرُوا أَوْ احْضُرُوا) فالأول متعدٍّ، والثاني لازم، وهو مِنْ الثلاثي، وأمَّا تعالى، يتعالى، فهما بمعنى تعاظم، يتعاظم، أو بمعنى تَنَزَّه، يتنزَّه. وقلْ في إعلال: ﴿تَعَالَوْا﴾، أصله: تَعالَوُا، ثم تعالَيُوا، فحذفت الضمة التي على الياء للثقل، فالتقى ساكنان، فحذفت الياء، وبقيت الواو؛ لأنَّها ضمير، وبقيت الفتحة على اللام؛ لتدلَّ على الألف المحذوفة.

أمَّا الفعل: ﴿يَصُدُّونَ﴾ فهو بفتح الياء، وضم الصاد، ويقرأ بضم الياء، وكسر الصاد، وهما لغتان: صدَّ، وأصدَّ، مثل: صدَّ، وأصدَّ: إذا أنتن، وضَمَّ، وأضمَّ: إذا تغير، وهو مِنْ صَدَّ، يَصُدُّ صدوداً: إذا تنكب، وليس فصيحاً؛ لأنَّ في صدِّه مندوحةٌ عن تكلُّف التعدية بالهمزة، ويأتي الفعل بمعنى: يعرضون، ويميلون، كما في هذه الآية الكريمة. كما يأتي بمعنى: يضجون فرحاً، لكنه بكسر الصاد، كما في قوله تعالى في سورة (الزخرف): ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾، ومصدر الأولين صدَّ، وصدود، ومصدر الأخير: صديد. والصَّدَد: القرب، يقال: داري صدد داره، أي: قربها، وقبالتها، والصَّدَدُ: القصد، تقول: رجعنا إلى ما نحن بصدده، أي: بقصده، وهو أيضاً الميل، والناحية.

هذا؛ والنفاق: إظهار الإيمان، وإخفاء الكفر، وسمِّي المنافق منافقاً أخذاً من نافقاء اليربوع، وهو جحره الَّذي يقيم فيه، فإنَّه يجعل له بابين، يدخل من أحدهما، ويخرج من الآخر، فكذلك المنافق يدخل مع المؤمنين بقوله: أنا مؤمن، ويدخل مع الكافرين بقوله: أنا كافر. وكان المنافقون في عهد الرسول ﷺ ثلاثمئة من الرِّجال، ومئة من النساء. هذا وقال تعالى في سورة (التوبة): ﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ...﴾ إلخ.

هذا؛ وقد يتصف مؤمن بصفات المنافقين، فيكذب في القول، ويخلف في الوعد، ويخون في الأمانة، ويفجر في الخصومة، فهذا يقال له: نفاق العمل، وأمَّا الأوَّل؛ فيقال له: نفاق العقيدة، وهو أخبث من الكفر، وعقابه أشدُّ منه، قال تعالى في الآية رقم [١٤٥] الآتية: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ وقد حذَّر الرسول ﷺ من نفاق العمل، والاتصاف به، فإنَّه يجر إلى نفاق العقيدة. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ**». رواه البخاريُّ، ومسلم، وزاد مسلمٌ في روايةٍ له: «**وَإِنْ صَلَّى، وَصَامَ، وَزَعَمَ: أَنَّهُ مُسْلِمٌ**».

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف عطف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزَّمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿تَعَالَوْا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿إِلَىٰ مَآ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿مَآ﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنيَّة على السُّكون في محل جرٍّ بـ ﴿إِلَىٰ﴾. ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: ماض وفاعله، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَآ﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: إلى الذي، أو: إلى شيءٍ أنزله الله، وجملة: ﴿تَعَالَوْا۟...﴾ إلخ في محل رفع نائب فاعل: ﴿قِيلَ﴾، وهذا على قول مَنْ يجيز وقوع الجملة فاعلاً، ويكون جارياً على القاعدة في بناء الفعل للمجهول: «يحذف الفاعل، ويقام المفعول مقامه» وهذا لا غبار عليه. هذا؛ وقيل: الجار والمجرور: ﴿لَهُمْ﴾ في محل رفع نائب فاعله. وقيل: نائب الفاعل يعود إلى مصدر الفعل، أي: قيل قولٌ، وهذا مقاربٌ لما قبله، وعليهما تكون الجملة الفعلية: ﴿تَعَالَوْا۟...﴾ إلخ في محلِّ نصبٍ مقول القول. ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: معطوفان على ما قبلهما، وجملة: ﴿قِيلَ...﴾ إلخ في محلِّ جرٍّ بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح.

تنبيه: «إذا» ظرف لما يستقبل من الزمان، وفيه معنى الشرط، واختلف في ناصبها، فقيل: بالجواب، واعترض بأنَّ الجواب قد يقترن بالفاء. وما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها. وقيل: الشرط، واعترض أيضاً بأنَّها مضاف للشرط، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، وأجيب عن هذا الاعتراض بأنَّ القائلين: إنَّ الناصب هو الشَّرط، لا يقولون بإضافة «إذا» إليه، فلذا كان الثاني أرجح من الأوَّل، وإن كان الأوَّل أشهر، فقول بعض المعربين: خافض لشرطه، منصوب بجوابه جرى على غير الراجح، ولذا كانت عبارة سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ: «خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالحٌ لغير ذلك» محتملة لما تريد من احتمالات، ولذا ذكرتُ هذه الجملة كلَّما أعربت: «إذا».

﴿رَأَيْتَ﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿يَصُدُّونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. ﴿عَنكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿صُدُودًا﴾: مفعول مطلق، وجملة ﴿يَصُدُّونَ...﴾ إلخ في محل نصب حال مِنَ: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وإن اعتبرت: ﴿رَأَيْتَ﴾ بصرياً، متعدياً لمفعول واحد فقط. وفي محل نصب مفعول به ثان؛ إن اعتبرته متعدياً لمفعولين. وجملة: ﴿رَأَيْتَ...﴾ إلخ جواب (إذا) لا محلَّ لها، و(إذا) ومدخولها كلامٌ معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف لا محلَّ له على الاعتبارين.

﴿فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾

الشرح: ﴿فَكَيْفَ﴾: أي: فكيف يكون حالهم، أو فكيف يصنعون ﴿إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ﴾ أي: عظيمة يعجزون عنها. ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: تصيبهم عقوبةٌ بسبب ما قدَّمت أيديهم، وهو التحاكم إلى غير رسول الله ﷺ، وهذا وعيدٌ لهم على سوء صنيعهم، ورضاهم بحكم الطَّاغوت دون حكم رسول الله ﷺ. وقيل: المصيبة هي قتل عمر ـ رضي الله عنه ـ لذلك المنافق.

هذا؛ وإنَّما نُسبت الأعمال إلى الأيدي؛ لأنَّ أكثر الأعمال إنَّما تزاول بالأيدي، وإن كانت من أعمال القلوب، والأرجل، والعيون، والأيدي تغليباً للأكثر على الأقلِّ. هذا؛ واليد تطلق في الأصل على اليد الجارحة، وقد تطلق على النفس، والذات، كما في قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٩٥]: ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾. وقد تطلق على القدرة، والقوَّة، وهو كثيرٌ مثل قوله تعالى في سورة (صَ) رقم [١٧]: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ وخذ قول عُروة بن حزام العُذري، وهو الشَّاهد رقم [١١٦] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [الطويل]

وَحُمِّلْتُ زَفْرَاتِ الضُّحَى فَأَطَقْتُهَا ... وَمَا لِي بِزَفْرَاتِ الْعَشِيِّ يَدَانِ

كما تطلق اليد على النِّعمة، والمعروف. يقال: لفلانٍ يدٌ عندي، أي: نعمةٌ، ومعروفٌ، وإحسانٌ، وتطلق على الحيلة، والقوة، فيقال: لا يد لي في هذا الأمر، أي: لا حيلة لي فيه، ولا تدبير.

﴿ثُمَّ جَآءُوكَ﴾ أي: المنافقون حين تصيبهم المصائب يعتذرون إليك. ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ﴾: ما أردنا بتحاكمنا إلى غيرك. ﴿إِلَّآ إِحْسَٰنًا﴾ يعني: في التحاكم إلى غيرك، لا إساءة. ﴿وَتَوْفِيقًا﴾ يعني: بين الخصمين، لا مخالفةً لك في حكمك. نظيرها قوله تعالى في سورة (التوبة) رقم [١٠٧]: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾. وقيل: جاء أولياء المقتول المُنافق الَّذي قتله عمر ـ رضي الله عنه ـ إلى النبيِّ ﷺ يطلبون ديته، وقالوا: ما أردنا بالتحاكم إلى عمر إلا أن يحسن إلى صاحبنا، ويوفِّق بينه، وبين خصمه، وما خطر ببالنا: أنَّه يحكم بما حكم به مِنْ قتل صاحبنا. فأهدر الله دم ذلك المنافق.

هذا؛ وأصاب فلاناً البلاءُ: وقع عليه. وأصابهم المطرُ: نزل عليهم. قال تعالى في سورة (الروم) رقم [٤٨]: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾. وتقول: أصاب السَّهم، يصيب: لم يخطئ هدفه، وأصاب الرَّجل في قوله، أو في رأيه: أتى بالصواب. ويأتي «أصاب»

بمعنى: قصد، وأراد. قال تعالى في حقِّ سليمان ـ على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ وقال الشاعر: [المتقارب]

أَصَـابَ الْـكَـلَامَ فَـلَـمْ يَـسْـتَـطِـعْ فَـأَخْـطَـا الْـجَـوَابَ لَـدَى الْـمُـفْـصِّـلِ

هذا؛ و«مُصيبة» أصلها: مُؤَصْيِبَة، فحذفت الهمزة فصار: مُصْيِبة، فقل في إعلالها: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلَّة، فنقلت حركة الياء إلى الصاد قبلها، فصارت مُصِيبَة. هذا ومضارع أصاب: يصيب، وأصله: يُؤَصْيِب، فحذفت الهمزة للتخفيف حملاً على المبدوء بهمزة المضارعة (أُأصيب) الذي حذفت همزته الثانية للتخفيف مِنْ ثِقَل الهمزتين، فصار: (يُصْيِب) ثم يقال فيه ما قيل في «مُصْيِبَة» فصار: يُصِيبُ، وحذفت الهمزة من مُؤَصْيِبَة للتخلص مِنْ ثقل الهمزتين في التَّقدير.

الإعراب: ﴿فَكَيْفَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (كيف): اسم استفهام مبني على الفتح في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فكيف حالهم؟ أو: في محل نصب حال، عامله محذوف، التقدير: فكيف يصنع هؤلاء المنافقون؟ والجملة سواء أكانت اسمية، أو فعلية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿إِذَآ﴾: ظرف زمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل المقدَّر، أو هو متعلق بنفس المبتدأ؛ الَّذي قدرناه. ﴿أَصَٰبَتْهُم﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث والهاء مفعول به. ﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها، ومثل هذه الآية في إعرابها قول الفرزدق، وهو الشاهد رقم [٢٢٥] من كتابنا: «فتح رب البرية»، والشاهد رقم [٥٢٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

فَـكَـيْـفَ إِذَا مَـرَرْتَ بِـدَارِ قَـوْمٍ وَجِـيْـرَانٍ لَـنَـا كَـانُـوا كِـرَامِ

﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿مُّصِيبَةٌۢ﴾ أو بمحذوف صفة لها، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. وقيل: المصدرية أيضاً. ﴿قَدَّمَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿أَيْدِيهِمْ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الياء للثقل، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: بالذي، أو: بشيءٍ قدمته أيديهم، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلقان بـ﴿مُّصِيبَةٌۢ...﴾ إلخ، والتقدير: بتقديم أيديهم الشر، أو السوء. . . إلخ.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿جَآءُوكَ﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها، وهو أولى من العطف على ما قبلها. هذا؛ وقال الجلال: جملة: ﴿جَآءُوكَ﴾ معطوفة على جملة: ﴿يَصُدُّونَ...﴾ إلخ في الآية السَّابقة فيكون ما بينهما كلاماً معترضاً. ولا أراه قوياً. ﴿يَحْلِفُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو

الجماعة، والرابط: الضمير فقط. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿إِنْ﴾: حرف نفي. ﴿أَرَدْنَآ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية جواب القسم المفهوم مِنْ: ﴿يَحْلِفُونَ﴾ لا محلَّ لها. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿إِحْسَٰنًا﴾: مفعول به، وما بعدها معطوف عليه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: الإشارة إلى المنافقين المذكورين في الآيات السَّابقة. ﴿يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾: أي: مِنَ النِّفاق، وكذبهم في اعتذارهم، فلا ينفعهم الكتمان، والحلف الكاذب، ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: عن عقوبتهم. وقيل: عن قبول عذرهم. ﴿وَعِظْهُمْ﴾ أي: باللسان. والمراد: زجرهم بالوعظ مِنَ النِّفاق، والكفر، والكذب، وتخويفهم بعذاب الآخرة.

﴿وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا﴾ يعني: بليغاً يؤثِّر في قلوبهم موقعه، وهو التَّخويف بالله عزَّ وجل. وقيل: هو أن يوعدهم بالقتل؛ إن لم يتوبوا من النِّفاق. وقيل: هو أن يقول لهم: إن أظهرتم ما في قلوبكم من النِّفاق؛ قُتلتم؛ لأنَّ هذا القول يبلغ في نفوسهم كلَّ مبلغ. وقيل: معناه: أعرض عنهم في الملأ، وقل لهم في أنفسهم إذا خلوت بهم قولاً بليغاً، أي: أغلظ لهم في القول خالياً بهم، ليس معهم غيرهم؛ مسارَّاً لهم النَّصيحة؛ لأنَّها أنجع في السرِّ. وقيل: هذا الإعراض منسوخٌ بآية القتال. وقد تكلَّم العلماء في حدِّ البلاغة.

فقال بعضهم: البلاغة: إيصال المعنى إلى الفهم في أحسن صورة مِنَ اللفظ. وقيل: البلاغة: حسن العبارة مع صحَّة المعنى. وقيل: البلاغة سرعة الإيجاز مع الإفهام، وحسن التصرف من غير إضجار. وقيل: أحسن الكلام ما قلَّت ألفاظه، وكثرت معانيه. وقيل: خير الكلام ما شعرت أوَّله: أنَّك بشوقٍ إلى سماع آخره. وقيل: لا يستحقُّ الكلام اسم البلاغة إلا إذا طابق لفظُه معناه، ومعناه لفظه، ولم يكن لفظُه إلى السَّمع أسبق مِنْ معناه إلى القلب. وقيل: المراد بالقول البليغ في الآية أن يكون حسن الألفاظ. حسن المعاني، مشتملاً على الترغيب، والترهيب، والإعذار، والإنذار، والوعد، والوعيد بالثواب، والعقاب، فإنَّ الكلام إذا كان كذلك؛ عظم وقعُه في القلوب، وأثر في النفوس. انتهى. خازن.

ويُعرِّف علماء البلاغةِ البلاغةَ بقولهم: هي تأدية المعنى الجليل واضحاً بعبارةٍ صحيحةٍ فصيحةٍ، لها في النفس أثرٌ خلاب مع ملاءمة كلِّ كلامٍ للموطن الذي يقال فيه، والأشخاص الذين يخاطبون به. وانظر شرح الفصاحة، والبلاغة في قواعد اللُّغة العربية الذي شرحته، وعلَّقت عليه، وأعربت أمثلته، وشواهده بتوفيق الله ، ومَنّه.

هذا؛ و«القلب» قطعة صغيرة على هيئة الصَّنوبرة، خلقها الله في الآدمي، وجعلها محلاً للعلم، فيحصي به العبد مِنَ العلوم ما لا يسع في أسفار، يكتبه الله فيه بالخط الإلْهيِّ، ويضبطه بالحفظ الرَّباني، حتى يحصيه، ولا ينسى منه شيئاً، وهو بَيْن لَمَّتين: لمة مِنَ المَلَك، ولمة من الشَّيطان، كما قال النبيُّ ﷺ، وخرَّجه الترمذيُّ عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وقد مضى في الآية رقم [٢٦٩] من سورة (البقرة) وهو محلُّ الخطرات، والوساوس، ومكان الكفر، والإيمان، وموضع الإصرار، والإنابة، وموضع الانزعاج، والطمأنينة. وانظر قسوة القلب في الآية رقم [٧٤] من سورة (البقرة).

الإعراب: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿يَعۡلَمُ ٱللَّهُ﴾: مضارع، وفاعله. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿فِي قُلُوبِهِمۡ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والعائد الضمير المجرور محلاً بالإضافة، والجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿فَأَعۡرِضۡ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (أعرض): فعل أمر مبني على السُّكون، والفاعل مستتر تقديره أنت. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب لشرط غير جازم، التقدير: وإذا كان حالُهم كذلك؛ فأعرض عنهم. ﴿وَعِظۡهُمۡ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: «أنت» والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها، والتي بعدها معطوفة أيضاً عليها. ﴿لَّهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿فِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: متعلقان بـ ﴿بَلِيغٗا﴾. وقيل: متعلقان بالفعل: (قل) وهو ضعيف. ﴿قَوۡلَۢا﴾: مفعول مطلق. ﴿بَلِيغٗا﴾: صفته.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ جَآءُوكَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡتَغۡفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا ﴿٦٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ﴾: أيِّ رسولٍ من المرسلين قبلك يا محمد! ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ يعني: بأمر الله، والمعنى: إنَّما وجبت طاعة الرسول بأمر الله؛ لأنَّ الله أذن في ذلك، وأمر به. وقيل: معناه: بعلم الله، وقضائه؛ أي: تكون طاعته بإذن الله؛ لأنَّه أذن فيه، فتكون طاعةُ الرسول طاعةً لله، ومعصيتُه معصيةً لله، ففيه توبيخٌ، وتقريعٌ للمنافقين الذين تركوا حكم رسول الله ﷺ، ورضوا بحكم الطَّاغوت. وقال مجاهد ـ رحمه الله تعالى ـ: المعنى: لا يُطيع أحدٌ إلا مَنْ وفَّقته لذلك. وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: وكأنَّه احتج بذلك على أنَّ الذي لم يرض بحكم الرسول ﷺ، وإن أظهر الإسلام؛ كان كافراً مستوجباً القتل. وتقريره: أنَّ

إرسال الرَّسول لما لم يكن إلا ليطاع؛ كان مَنْ لم يُطِعْه، ولم يرض بحكمه؛ لم يقبل رسالته، ومن كان كذلك؛ كان كافراً مستوجب القتل. انتهى.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ...﴾ إلخ: يرشد الله تعالى العُصاة، والمذنبين إذا وقع منهم الخطأ والعصيان إلى الرَّسول ﷺ في حياته؛ فيستغفروا الله عنده، ويسألوه أن يستغفر لهم، فإنَّهم إذا فعلوا ذلك؛ تاب الله عليهم، ورحمهم، وغفر لهم، ولهذا قال: ﴿لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾، وخذ ما يلي:

فقد روى أبو صالح عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: قدم علينا أعرابيٌّ بعدما دفنَّا رسول الله ﷺ بثلاثة أيام، فرمى بنفسه على قبر رسول الله ﷺ، وحثا على رأسه مِنْ ترابه، فقال: قلتَ يا رسول الله، فسمعنا قولك، وَوَعَيْت عن الله، فوعينا عنك، وكان فيما أنزل الله عليك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ...﴾ إلخ، وقد ظلمتُ نفسي، وجئتُك تستغفر لي! فنودي من القبر: أنَّه قد غُفِرَ لك. انتهى قرطبي.

وفي مختصر ابن كثير: وقد ذكر جماعة منهم الشَّيخ أبو منصور الصَّباغ في كتابه: (الشَّامل) الحكاية المشهورة عن العُتبي، قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابيٌّ، فقال: السَّلام عليك يا رسول الله! سمعتُ الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ...﴾ إلخ، وقد جئتُكَ مستغفراً لذنبي، مستشفعاً بك إلى ربي، ثمّ أنشد يقول: [البسيط]

يَا خَيْرَ مَنْ دُفِنَتْ بِالقَاعِ أَعْظُمُهُ ... فَطَابَ مِنْ طِيْبِهِنَّ الْقَاعُ وَالأَكَمُ
نَفْسِي الْفِدَاءُ لِقَبْرٍ أَنْتَ سَاكِنُهُ ... فِيْهِ الْعَفَافُ وَفِيْهِ الْجُودُ وَالكَرَمُ

ثمَّ انصرف الأعرابيُّ، فَغلبتني عيني، فرأيتُ النبيَّ ﷺ في النَّوم، فقال: يا عُتَبِيُّ! الْحَق الأعرابي فبشره: أنَّ الله قد غفر له.

هذا؛ وفي قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ بعد قوله: ﴿جَآءُوكَ﴾ إجلالٌ لرسول الله ﷺ، وتفخيم له، وتعظيمٌ لاستغفاره، وأنَّهم إذا جاؤوه؛ فقد جاؤوا مَنْ خصَّه الله برسالته، وجعله سفيراً بينه، وبين خلقه، وَمَنْ كان كذلك فإنَّ الله تعالى لا يردُّ شفاعته، فلهذا السبب عدل إلى طريقة الالتفات من الخطاب إلى لفظ الغيبة، فلم يقل: واستغفرت لهم، وإنَّما قال: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾. وللالتفات فوائد كثيرة: منها تطرية الكلام، وصيانة السمع عن الضجر والملال لما جبلت عليه النفوس من حب التنقلات، والسآمة من الاستمرار على منوال واحد. هذه فوائده العامة. ويختص كل موضع بنكت، ولطائف باختلاف محلِّه، كما هو مقرَّر في علم البديع. ووجهه: حثُّ السامع، وبعثُه على الاستماع؛ حيث أقبل عليه المتكلِّم، وأعطاه فضل عنايته، وخصَّه بالمواجهة. هذا؛ وانظر: «استغفر» و«الاستغفار» في الآية رقم [١٣٥] من سورة (آل عمران) تجد ما يسرّك، ويثلجُ صدرك.

الإعراب: ﴿وَمَآ﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿أَرْسَلْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿مِن﴾: حرف جر صلة. ﴿رَّسُولٍ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الفعلية مستأنفةٌ، لا محلَّ لها. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿لِيُطَاعَ﴾: اللام: لام التعليل. (يطاع): فعل مضارع منصوب بـ«أن» مضمرة بعد لام التعليل، ونائب الفاعل يعود إلى (الرَّسول)، و«أَنْ» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بلام التعليل، والجار والمجرور متعلقان بالفعل ﴿أَرْسَلْنَا﴾، وهو على معنى المفعول لأجله، أي: أرسلنا للطَّاعة. ﴿بِإِذْنِ﴾: متعلِّقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بـ﴿أَرْسَلْنَا﴾ وقيل: متعلقان بمحذوف حال من نائب الفاعل المستتر، و(إذن) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: تحتمل العطف، والاستئناف. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿أَنَّهُمْ﴾: حرف مشبَّه بالفعل، والهاء اسمه. ﴿إِذ﴾: ظرف لما مضى من الزَّمان مبني على السكون في محل نصب متعلق بالفعل: ﴿جَآءُوكَ﴾. ﴿ظَّلَمُوٓاْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل جرٍّ بإضافة: ﴿إِذ﴾ إليها. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محلِّ جرٍّ بالإضافة. ﴿جَآءُوكَ﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محلِّ رفع خبر: (أنَّ)، و(أنَّ) واسمها، وخبرها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل لفعل محذوف هو شرط (لو) عند المبرد، التقدير: ولو حصل مجيئهم. وقال سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ: هو في محل رفع بالابتداء، والخبر محذوف، التقدير: ولو مجيئهم حاصل، أو: ثابت، وقول المبرِّد ـ رحمه الله تعالى ـ هو المرجح في هذه المسألة؛ لأنَّ (لو) لا يليها إلا فعل ظاهر، أو مقدر. والفعل المقدَّر، وفاعله جملة فعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها في محلِّ رفعٍ مثلها. وأيضاً جملة: ﴿وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ معطوفة عليها أيضاً.

﴿لَوَجَدُواْ﴾: اللام: واقعة في جواب (لو). (وجدوا): ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب (لو) لا محلَّ لها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التَّعظيم. ﴿تَوَّابًا﴾: مفعول به ثانٍ. ﴿رَّحِيمًا﴾. من تعدُّد المفعول الثاني، وقد تعدَّد كأصله، وهو الخبر.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾أي: المنافقون، وكلُّ مَنْ أعرض عن حكم الله، وحكم رسوله. ﴿فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي: اختلف، واختلط. ومنه الشَّجر لاختلاف أغصانه، ففيه

استعارة للمعقول بالمحْسُوس، حيث استعار ما اشتبك، وتضايق من الشَّجر للتَّنازع الَّذي يدخل به بعضُ الكلام في بعض، قال طرفة في مدح قومه: [الرمل]

وَهُـمُ الْـحُـكَّـامُ أَرْبَـابُ الْـهُـدَى وَسُـعَـاةُ الـنَّـاسِ فِـي الأَمْـرِ الـشَّـجِـرْ

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا﴾ أي: في صُدورهم ضيقاً، وشكّاً. قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١٢٥]: ﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾. ﴿مِّمَّا قَضَيۡتَ﴾ أي: حكمت. ﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾ أي: ويسلِّموا لحكمك تسليماً، لا شكَّ فيه، ولا اعتراض فيه بالظاهر، ولا بالباطن.

هذا؛ و«ثُمَّ»: حرف عطف يقتضي ثلاثة أمور: التشريك في الحكم، و الترتيب، والمهلة، وفي كلٍّ منها خلاف مذكور في «مغني اللبيب»، وقد تلحقها تاء التأنيث السَّاكنة، كما تلحق «رُبَّ» و«لَا» العاملة عمل «ليس» فيقال: ثُمَّتْ، ورُبَّتَ، ولاتَ، والأكثر تحريك التاء معهنَّ بالفتح. هذا؛ و«ثُمَّ» هذه غير «ثَمَّ» بفتح الثاء، فإنَّها اسمٌ يشار به إلى المكان البعيد، كما في قوله تعالى في سورة (الشُّعراء) رقم [٦٤]: ﴿وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ﴾ وقوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١١٥]: ﴿فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾. وهذه ظرف لا يتصرَّف، ولا يتقدَّمه حرف التنبيه، ولا يتصل به كاف الخطاب، وقد تتصل به التاء المربوطة، فيقال: ثَمَّةَ. وثُمَّ: تعطف المفرد، والجملة، فإن اتصلت بها التاء؛ اختصت بعطف الجمل.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة في الزُّبير بن العوَّام ـ رضي الله عنه ـ ورجل من الأنصار، يقال له: حاطب بن أبي بلتعة، فعن عروة بن الزُّبير ـ رضي الله عنهما ـ عن أبيه: أنَّ رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في شراج الحرَّة (مسايل الماء التي تكون مِنَ الجبل) التي يسقون بها النَّخل، فقال الأنصاري: سرِّح الماء يمرُّ. فأبى عليه، فاختصما إلى النبيِّ ﷺ، فقال رسول الله ﷺ للزُّبير: **«اِسْقِ يَا زُبَيْرُ! ثُمَّ أَرْسِلْ إِلَى جَارِكَ»** فغضب الأنصاري، فقال: يا رسول الله ! آن كان ابنَ عمَّتك؟! فتلوَّن وجه رسول الله ﷺ، ثمَّ قال للزبير: **«اسْقِ يَا زُبَيْرُ! ثُمَّ احْبِسِ الْمَاءَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى الْجَدْرِ»** فقال الزُّبير ـ رضي الله عنه ـ: أما إنِّي لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك، وتلاها. متَّفق عليه.

زاد البخاري رحمه الله تعالى: فاستوعى رسول الله ﷺ حينئذٍ للزُّبير حقَّه، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك قد أشار على الزُّبير رأياً، أي: أراد سعة له، وللأنصاري، فلمَّا أحفظ الأنصاريُّ رسول الله ﷺ؛ استوعى للزُّبير حقَّه في صريح الحكم، وهو أنَّ مَنْ كانت أرضه أقرب إلى فم الوادي، فهو أولى بأوَّل الوادي، وحقُّه تمام السَّقي، فرسول الله ﷺ أذن للزبير في السَّقي على وجه المسامحة، فلما أبى خصمه ذلك، ولم يعترف بما أشار به رسول الله ﷺ من المُسامحة؛ أمر الزبير باستيفاء حقِّه على التَّمام، وحمل خصمه على مُرِّ الحقِّ، فعلى هذا تكون الآية مستأنفةٌ، لا تعلُّق لها بما قبلها.

قال البغوي: وروي: أنَّهما لمَّا خرجا مرَّا على المقداد، فقال: لمن كان القضاء؟ قال الأنصاري. لابن عمَّته، ولوى شدقه، ففطن له يهوديٌّ كان مع المِقْداد، فقال: قاتل الله هؤلاء يشهدون: أنَّه رسول الله ﷺ ثم يتَّهمونه في قضاءٍ يقضي بينهم، وايم الله لقد أذنبنا ذنباً مرَّةً في حياة موسى، فدعانا موسى إلى التَّوبة منه، فقال: اقتلوا أنفسكم، ففعلناه فبلغ قتلانا سبعين ألفاً في طاعة ربِّنا؛ حتَّى رضي عنَّا! فقال ثابت بن قيس بن شمَّاس ـ رضي الله عنه ـ: أما والله إنَّ الله ليعلم منِّي الصدق، ولو أمرني محمَّد أن أقتل نفسي؛ لفعلت. انتهى. كلُّه من الخازن.

هذا؛ وفي هذا الحديث إرشاد الحاكم إلى الإصلاح بين الخصوم؛ وإن ظهر الحقُّ، فإن اصطلحوا؛ وإلا استوفى لذي الحقِّ حقَّه، وثبت الحكم. هذا؛ وقال مجاهد، والشعبيُّ ـ رحمهما الله تعالى ـ: نزلت هذه الآية في بشر المنافق، واليهودي اللذين اختصما إلى الطاغوت، وعلى هذا القول تكون الآية متَّصلةً بما قبلها.

الإعراب: ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (لا): صلة، وهو المعتمد. وقيل: هي ردٌّ لكلام تقدَّمها، تقديره: فلا يفعلون، أو ليس الأمر كما يزعمون مِنْ أنَّهم آمنوا بما أنزل إليك، ثمَّ استأنف. فعلى هذا يكون الوقف على (لا) تامَّاً. وقيل: هي نافية، والثانية: صلة، والقسم معترض بين حرف النفي والمنفيِّ، وهذا ضعيفٌ جدّاً، ومثل الآية الكريمة قول امرئ القيس ـ وهو الشاهد رقم [٤٥٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [المتقارب]

فَلَا ـ وَأَبِيكِ ـ ابْنَةَ الْعَامِرِيِّ لَا يَدَّعِي الْقَوْمُ أَنِّي أَفِرّ

﴿وَرَبِّكَ﴾: الواو: حرف قسم وجر. (ربك): مقسم به مجرور، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم، والكاف في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله، والجملة الفعلية جواب القسم، لا محلَّ لها، والجملة القسمية معطوفةٌ على ما قبلها، أو هي مستأنفةٌ، لا محلَّ لها على الاعتبارين. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ «أنْ» المضمرة بعد: ﴿حَتَّىٰ﴾، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله والكاف مفعوله، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بـ﴿حَتَّىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فِيمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنيةٌ على السكون في محل جر. ﴿شَجَرَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (ما)، وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها. ﴿بَيْنَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، والهاء في محلِّ جَرٍّ بالإضافة.

﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَجِدُوا﴾: فعل مضارع معطوف على ما قبله منصوب مثله. . .إلخ. ﴿فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾: متعلِّقان بما قبلهما، أو هما متعلِّقان بمحذوف حال مِنْ:

﴿حَرَجًا﴾ كان صفةً له، فلما قُدِّم عليه؛ صار حالاً. وقيل: هما مفعول ثانٍ لـ﴿يَجِدُواْ﴾. ﴿حَرَجًا﴾: مفعول به. ﴿مِّمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿حَرَجًا﴾ أو بمحذوف صفة له، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿قَضَيْتَ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: مِنَ الذي، أو: مِنْ شيءٍ قضيته. وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بـ(مِنْ) التقدير: من قضائك. ﴿وَيُسَلِّمُواْ﴾: معطوف على: ﴿يُحَكِّمُوكَ﴾ منصوب مثله. ﴿تَسْلِيمًا﴾: مفعول مطلق مؤكِّد لعامله.

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا﴾: حكمنا، أو فرضنا، وأوجبنا. ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي: على المنافقين. وقيل: يعود الضمير على الجميع، فيدخل فيه المنافق، وغيره. ﴿أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لو أوجبنا عليهم مثل ما أوجبنا على بني إسرائيل مِنْ قتلهم أنفسهم، أو خروجهم مِنْ ديارهم حين استتيبوا مِنْ عبادة العِجْل. ﴿أَوِ ٱخْرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا﴾: كما أوجبنا أيضاً على بني إسرائيل ذلك.

﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾: ذكرت لك في الآية السَّابقة: أنَّ ثابت بن قيس بن شماس ـ رضي الله عنه ـ قال: أما والله ـ وإنَّ الله ليعلم منِّي الصدق ـ لو أمرني محمَّدٌ أَنْ أقتل نفسي؛ لقتلتها. وروى ابن مسعود، وعمَّار بن ياسر، وعمر ـ رضي الله عنهم ـ قالوا مثل ثابت، فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ مِنْ أُمَّتِي رِجَالاً الإِيْمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرَّوَاسِي**». ومن قال: إنَّ الضمير يعود إلى المنافقين، قال: المعنى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني: رياءً، وسمعةً. وفيه توبيخٌ عظيمٌ لهم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ أي: ولو أنَّهم فعلوا ما كُلِّفوا به من طاعة الرَّسول ﷺ، والرِّضا بحكمه؛ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: في الدنيا، والآخرة، وإنَّما سمِّي ذلك التكليف: وعظاً؛ لأنَّ أوامر الله ، وتكاليفه مقرونةٌ بالوعد، والوعيد، والثَّواب، والعقاب، وما كان كذلك يسمَّى: وعظاً. ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ يعني: تحقيقاً، وتصديقاً لإيمانهم. والمعنى: أنَّ ذلك أقرب إلى ثبات إيمانهم، وتصديقهم.

وقيل في معنى الآية الكريمة: إنَّنا خفَّفْنا على المنافقين؛ حيث اكتفينا منهم في توبتهم بالرُّجوع إلى حكمك، والرِّضا، ولم نشدِّد عليهم كما شدَّدنا على بني إسرائيل في توبتهم مِنْ عبادة العجل، حيث أمرناهم بقتل أنفسهم، والخروج مِنْ ديارهم، ولو أنَّنا فرضنا عليهم ذلك؛ لم يفعله إلا بعضهم، ولو أطاعوا الرَّسول، وامتثلوا أوامره؛ لكان أفضل لهم، وأقوى لإيمانهم، وأعظم لثوابهم.

بعد هذا: انظر شرح ﴿كَتَبْنَا﴾ ونحوه في الآية رقم [٣٣]. أمَّا (النَّفس) فإنَّها تجمع في القلَّة: أنفس، وفي الكثرة: نفوس. والنَّفس تُؤنث باعتبار الرُّوح، وتُذكَّر باعتبار الشَّخص، أي: فإنَّها تطلق على الذات أيضاً، سواءٌ أكان ذكراً، أم أنثى، فعلى الأول قيل: هي جسم لطيف مشتبك بالجسم اشتباك الماء بالعود الأخضر الرَّطب، فتكون ساريةً في جميع البدن، قال الجُنيد ـ رحمه الله تعالى ـ: الرُّوح شيءٌ استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، فلا يجوز البحث عنه بأكثر من أنَّه موجود. قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٨٥]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقال بعضهم: إنَّ هناك لطيفة ربَّانيَّة لا يعلمها إلا الله تعالى، فَمِنْ حيث تفكُّرها تسمَّى عقلاً، ومن حيث الجسد بها تسمَّى روحاً، ومن حيث شهوتها تسمَّى نفساً، فالثلاثة متَّحدةٌ بالذَّات مختلفةٌ بالاعتبار، هذا ما تدلُّ عليه الآثار الصحاح، ومن الدليل على أنَّ النفس هي الرُّوح قوله تعالى في سورة (الزمر) رقم [٤٢]: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ يعني: الأرواح، وذلك بيِّنٌ في قول بلال ـ رضي الله عنه ـ لِلنَّبيِّ ﷺ في حديث ابن شهاب: «**أَخَذَ بِنَفْسِي يَا رَسُولَ الله الَّذِي أَخَذَ بِنَفْسِكَ**» وهذا كان في الوادي الَّذي ناموا فيه عن صلاة الصُّبح حتَّى طلعت الشمس، وهم قافلون من غزوة تبوك. والنَّفس أيضاً: الدَّم، يقال: سالت نفسه، قال الشاعر: [الطويل]

تَسِيْلُ عَلَى حَدِّ الظُّبَاتِ نُفُوسُنَا ... وَلَيْسَتْ عَلَى غَيْرِ الظُّبَاتِ تَسِيْلُ

وقال إبراهيم النَّخعي ـ رحمه الله تعالى ـ وهو المقرَّر في الفقه: «ما ليس له نفس سائلة، فإنَّه لا ينجس الماء إذا مات فيه». والنَّفس أيضاً: الجسد، قال الشاعر: [الكامل]

نُبِّئْتُ أَنَّ بَنِي سُحَيْمٍ أَدْخَلُوا ... أَبْيَاتَهُمْ تَامُورَ نَفْسِ الْمُنْذِرِ

هذا؛ وقد ذكر القرآن الكريم للنَّفس خمس مراتب: الأَمَّارة بالسُّوء، واللَّوامة، والمُطمئنة، والراضية، والمرضيَّة، ويزاد: المُلْهَمة، والكاملة. فالأمَّارة بالسُّوء: هي التي تأمر صاحبها بالسُّوء، ولا تأمر بالخير إلَّا نادراً، وهي مقهورةٌ، ومحكومةٌ للشَّهوات، وإن سكنت لأداء الواجبات الإلٰهية، وأذعنت لاتِّباع الحق، لكن بقي فيها ميلٌ للشَّهوات؛ سمِّيت: اللوَّامة، فإن سكن اضْطرابها، ولم يبق للنَّفس الشَّهوانية حكم أصلاً؛ سميت: مطمئنةً، فإن ترقَّت مِنْ هذا؛ وأسقطت المقامات مِنْ عينها، وفنيت عن جميع مراداتها؛ سمِّيت: راضيةً، فإن زاد هذا الحال عليها، صارت مَرْضِيَّة عند الحق، وعند الخلق، فإن أمرت بالرجوع إلى العباد لإرشادهم، وتكميلهم؛ سميت كاملة. فالنَّفس سبع طبقات، ولها سبع درجات، كما ذكرت، وقدمت.

وأخيراً: خذ ما ذكره القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ؛ فقال: وفي الخبر عن النبي ﷺ: أنَّه قال: «**مَا تَقُولُونَ في صَاحِبٍ لَكُمْ، إِنْ أَكْرَمْتُمُوهُ، وَأَطْعَمْتُمُوهُ، وكَسَوْتُمُوهُ؛ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى شَرِّ**

غَايَةٍ، وإِنْ أَهَنْتُمُوهُ، وأَعْرَيْتُمُوهُ، وَأَجَعْتُمُوهُ؛ أَفْضَى بِكُمْ إِلَى خَيْرِ غَايَةٍ؟». قالوا: يا رسول الله! هذا شرٌّ صاحب! قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّها لَنُفُوسُكُمُ الَّتِي بَيْنَ جُنُوبِكُمْ». انتهى.

أمَّا ﴿دِيَٰرِكُم﴾ فهو جمع: دار، وهي مؤنَّثة، وقد تذكَّر، وهي منزل الإنسان، ومسكنه، أصلها: دَوَر بفتحتين، قلبت الواو ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، وجمعها: ديار، ودُور، وَأَدْؤُر، وَأَدْوُر، وأدورة، وأدوار، ودُورات، ودِيارات اعتلَّت عينه بالقلب. هذا؛ والدار أيضاً: البلد، والقبيلة، ودار القرار: الآخرة، والدَّاران: الدنيا، والآخرة، ودار الحرب: بلاد العدوِّ. هذا؛ وقال أبو حاتم: إنَّ الدِّيار: العساكر، والخيام. لا البنيان، والعمران، وعليه قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: في عساكرهم، وخيامهم ميتين. وقال جلَّ شأنه: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي: في مدينتهم المعمورة. ولو أراد غير ما قيل؛ لجمع الدار، فعلم من كلامه: أنَّ الديار مخصوصة بالخيام. قال صاحب الخزانة: وهذه غفلةٌ عن قول الشاعر، وهو مجنون ليلى: (أُقَبِّلُ ذَا الْجِدَارَ) هو حائط البيت، وذلك في قوله ـ وهو الشاهد رقم [٩٠٣] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

أَمُـرُّ عَـلَـى الـدِّيَـارِ دِيَـارِ لَـيْـلَـى ... أُقَـبِّـلُ ذَا الْـجِـدَارَ وَذَا الْـجِـدَارَا
وَمَـا حُـبُّ الـدِّيَـارِ شَـغَـفْـنَ قَـلْـبِـي ... وَلَـكِـنْ حُـبُّ مَـنْ سَـكَـنَ الـدِّيَـارَا

الإعراب: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ﴾: إعراب هذه الكلمات مثل إعراب: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ في الآية رقم [٦٤] بلا فارق. ﴿أَنِ﴾: حرف تفسير؛ لأنَّ ﴿كَتَبْنَا﴾ بمعنى: قلنا لهم. ﴿ٱقْتُلُوٓاْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها مفسِّرة لـ﴿كَتَبْنَا﴾ لا محلَّ لها، وقال الشلوبين: بحسب ما تفسِّره، والتي بعدها معطوفة عليها، واعتبرت ﴿أَنِ﴾ مفسِّرة؛ لأنَّ ما قبلها مضمَّنٌ معنى القول دون حروفه. هذا؛ وبعضهم يعتبرها مصدرية تؤوَّل مع ما بعدها بمصدر في محل جرٍّ بحرف جر محذوف، التقدير: بأن اقتلوا، أو في محل نصب مفعول به، التقدير: كتبنا عليهم القتل. ﴿مَّا﴾: نافية. ﴿فَعَلُوهُ﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية جواب (لو) لا محلَّ لها، و(لو) ومدخولها معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف لا محلَّ له على الاعتبارين. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿قَلِيلٌ﴾: بدل من واو الجماعة، وقرئ بالنَّصب على الاستثناء. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار، ومجرور متعلقان بـ﴿قَلِيلٌ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يُوعَظُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع... إلخ، والواو: نائب فاعله، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط الضمير المجرور محلاً بالباء. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿لَكَانَ﴾: اللام: واقعة

في جواب (لو). (كان): فعل ماض ناقص. واسمه ضمير مستتر تقديره: هو يعود إلى التَّكليف، أو الرضا، انظر الشرح. ﴿خَيْرًا﴾ خبر (كان) والجملة الفعلية جواب (لو) لا محلَّ لها، و(لو) ومدخولها كلامٌ معطوفٌ على ما قبله. ﴿وَأَشَدَّ﴾ معطوف على: ﴿خَيْرًا﴾. ﴿تَثْبِيتًا﴾: تمييز.

﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم...﴾ إلخ، لأعطيناهم، ومَنَنَّا عليهم ثواباً عظيماً، وجزاءً وافراً، وانظر (لدن) في الآية رقم [٤٠].

الإعراب: ﴿وَإِذًا﴾: الواو: حرف استئناف. (إذاً): حرف جواب، وجزاء مهمل، لا عمل له. ﴿لَّآتَيْنَاهُم﴾: اللام: واقعة في جواب «لو» مقدَّرة، التقدير: لو ثبتوا على ما ذكر. (آتيناهم): فعل ماض، وفاعل، ومفعوله الأول، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب «لو» المقدرة. ﴿مِّن﴾: حرف جر. ﴿لَّدُنَّآ﴾: اسم مبني على السكون في محل جر بـ﴿مِّن﴾، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وجوز تعليقها بمحذوف حال مِنْ: ﴿أَجْرًا﴾ كان صفةً له، فلمَّا قُدِّم عليه صار حالاً، (نا) ضمير متصل في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول به ثان. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له.

﴿وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: لأرشدناهم إلى دينٍ مستقيمٍ هو دين الإسلام. وقيل: معناه: لهديناهم إلى الأعمال الصَّالحة؛ الَّتي تؤدِّي إلى الصِّراط المستقيم، وهو الصِّراط الَّذي يمرُّ عليه المؤمنون إلى الجنَّة؛ لأنَّ الله تعالى ذكر الأجر العظيم أولاً، ثمَّ ذكر الصِّراط المستقيم بعده؛ لأنَّه هو المؤدِّي إلى الجنَّة. وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: يصلون بسلوكه إلى جناب القدس، ويفتح عليهم أبواب الغيب، قال النبي ﷺ: «**مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ؛ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَا لَا يَعْلَمُ**».

هذا؛ والفعل (هديناهم) قد يعدَّى إلى الثاني بنفسه كما في هذه الآية. وقد يعدَّى إليه بـ «إلى» كما في قوله تعالى في سورة (الصافات) رقم [٢٣]: ﴿فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ وقد يُعدَّى باللام، كما في قوله تعالى في سورة (الأعراف) رقم [٤٣]: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾. هذا؛ والصراط المستقيم في لغة العرب: الطَّريق الواضح؛ الذي لا اعوجاج فيه. قال جرير في مدح عبد الملك بن مروان: [الوافر]

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلَى صِرَاطٍ إِذَا اعْوَجَّ الْمَوارِدُ مُسْتَقِيمِ

وقال عامر بن الطفيل: [الوافر]

شَحَنَّا أَرْضَهُمْ بِالْخَيْلِ حَتَّى تَرَكْنَاهُمْ أَذَلَّ مِنَ الصِّرَاطِ

ثمَّ إنَّ العرب تستعير «الصِّراط» في كلِّ قولٍ، وعملٍ، وصف باستقامةٍ، أو اعوجاج. والمراد به هنا: التوفيق لامتثال أوامر الله فيما أمر، وفِيما نهى، والأخذ بتعاليم الرسول ﷺ في قوله، وفعله. و(مستقيم) لا اعوجاج فيه، وأصله: (مُسْتَقْوِم) لأنَّه مِنْ: استقام، وهو أجوف واوي، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى القاف قبلها بعد سلب سكونها، فصار: «مُسْتَقْوِم» ثم قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة، فصار: مستقيم.

الإعراب: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (لهديناهم): فعل، وفاعل، ومفعول به أول. ﴿صِرَٰطًا﴾: مفعول به ثان. ﴿مُّسْتَقِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها مثلها.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾

الشرح: لمَّا ذكر الله تعالى الأمر الذي لو فعله المنافقون حين وُعظوا به، وأنابوا إليه؛ لأنعم عليهم؛ ذكر بعد ذلك ثواب مَنْ يفعله. وهذه الآية تفسير قوله تعالى في سورة (الفاتحة): ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وهي المراد في قوله ﷺ عند موته: «**اللَّهُمَّ الرَّفِيقَ الأعْلَى**». وفي البخاريِّ عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ يَمْرَضُ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ**». وكان في شكواه الذي مرض فيه أخذته بحةٌ شديدة، فسمعته يقول: ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ فعلمت: أنَّه خُيِّر.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي: فيما أمرا، وفيما نهيا عنه. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ أي: هم معهم في دارٍ واحدةٍ يستمتعون برؤيتهم، والحضور معهم، لا أنَّهم يساوونهم في الدَّرجة، فإنَّهم يتفاوتون. لكنَّهم يتزاورون للاتباع، والاقتداء وكلُّ مَنْ فيها قد رزق الرِّضا بحاله، وقد ذهب عنه اعتقاد: أنَّه مفضول، قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾. والصِّدِّيق فِعِّيل: المبالغ في الصِّدق، والصِّدِّيق هو الذي يُحقِّق بفعله ما يقوله بلسانه. وقيل: هم فضلاء أتباع الأنبياء كأبي بكرٍ الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ، وبقيَّة العشرة المُبشَّرين بالجنَّة. ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: الذين قتلوا في سبيل الله لإعلاء كلمة الله . ﴿وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾: جمع: صالح، وهو الذي استوت سريرته، وعلانيته في الخير. وقيل: الصَّالح مَن اعتقاده صواب، وعمله في سنةٍ، وطاعة. والصَّلاح:

درجةٌ عاليةٌ، ومكانةٌ رفيعة، ولذلك سألها يوسف الصدِّيق في الآية رقم [١٠١] من السورة المسمّاة باسمه، وسألها إبراهيم الخليل في الآية رقم [٨٣] من سورة (الشعراء) وسألها سليمان في الآية رقم [١٩] من سورة (النمل) وقال تعالى في حق إسماعيل، وإدريس، وذي الكفل ـ على نبينا، وعليهم جميعاً ألف صلاة وألف سلام ـ: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ الآية [٨٦] من سورة (الأنبياء)، وقال عن إبراهيم في سورة (البقرة) رقم [١٣٠]: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ﴾: الإشارة إلى المذكورين، والفعل: (حَسُن) محوَّل إلى باب فَعُل، بفتح، وضم، وهذا الباب مستعمل للمدح، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٣٢]: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾ ويستعمل في الذم كما في قوله تعالى في سورة (الكهف) رقم [٢٩]: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ فكل فعل ثلاثي إذا حول إلى باب فَعُل، يحتمل ذلك مع تضمنه التعجب، وورد في الشعر العربي بضم الحاء وسكون السين، ومنه قول الحطيئة: [البسيط]

طَافَتْ أُمَامَةُ فِي الرُّكْبَانِ آوِنَةً يَا حُسْنَهُ مِنْ قَوَامٍ مَا وَمُنْتَقَبَا

وقول سعد الغنوي ـ وهو الشاهد رقم [٦٠] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [البسيط]

لَا يَمْنَعُ النَّاسُ مِنِّي مَا أَرَدْتُ وَلَا أُعْطِيهِمُو مَا أَرَادُوا حُسْنَ ذَا أَدَبَا

تنبيه: كان ثوبان مولى رسول الله ﷺ شديد الحبِّ له، قليل الصبر عنه، فأتاه ذات يوم، وقد تغيَّر لونه، يُعرف الحزنُ في وجهه، فقال له رسول الله ﷺ: «**مَا غَيَّرَ لَوْنَكَ يَا ثَوْبَانُ؟!**» قال: يا رسول الله! ما بي مرضٌ، ولا وجع غير أنِّي إذا لم أرك؛ استوحشت وحشةً شديدةً؛ حتى ألقاك. ثم إنِّي إذا ذكرت الآخرة؛ أخاف ألا أراك؛ لأنَّك ترفع إلى عليين مع النبيين. وإني إن دخلت الجنة؛ كنت في منزلةٍ أدنى من منزلتك، وإن لم أدخل الجنَّة؛ لا أراك أبداً... فنزلت الآية الكريمة.

وذكر مكيٌّ: أنَّ عبد الله بن زيد، الذي أري الأذان في المنام هو الذي نزلت فيه الآية، وأنَّه لمَّا توفي النبي ﷺ قال: اللهم أعمني حتَّى لا أرى شيئاً بعده! فعميَ. وحكاه القشيري، فقال: اللهم أعمني فلا أرى شيئاً بعد حبيبي! فعمي مكانَه، وانظر الآية [٨٠] الآتية.

الإعراب: ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محلِّ رفع مبتدأ. ﴿يُطِعِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿اللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿وَالرَّسُولَ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. و(مع) مضاف، و﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول

مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية بعده صلته. ﴿عَلَيْهِم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الضمير في: ﴿عَلَيْهِم﴾، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد، وما بعده معطوف عليه، وخبر المبتدأ الذي هو مختلف فيه، قيل: جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. (حَسُنَ): فعل ماض. ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾: فاعله. ﴿رَفِيقًا﴾: تمييز، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

الشرح: ﴿ذَٰلِكَ﴾: الإشارة إلى ما للمطيعين مِنَ الأجر، والثواب، ومزيد الهداية،ومرافقة المُنْعَم عليهم. ﴿ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: تفضل به عليهم، لا أنَّهم نالوه بطاعتهم. خلافاً لما قالته المعتزلة: إنَّما ينال العبد ذلك بفعله، فلما امتنَّ الله سبحانه على أوليائه بما آتاهم من فضله، وكان لا يجوز لأحد أن يثني على نفسه بما لم يفعله؛ دلَّ ذلك على بطلان قولهم: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا﴾ أي: بجزاء من أطاعه، أو بمقادير الفضل، واستحقاق أهله، ولا ينبئك مثل خبير.

الإعراب: ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿ٱلْفَضْلُ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه. وقيل: صفة له. ﴿مِنَ ٱللَّهِۚ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، هذا وإن اعتبرت الفضل خبر المبتدأ فالجار والمجرور يكونان متعلقين بـ﴿ٱلْفَضْلُ﴾ أو بمحذوف حال منه، والعامل اسم الإشارة. ﴿وَكَفَىٰ﴾: الواو حرف استئناف. (كفى): فعل مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذُّر. ﴿بِٱللَّهِ﴾: الباء: حرف جر صلة. (الله): فاعله مرفوع وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. ﴿عَلِيمًا﴾: تمييز، والجملة الفعلية مستأنفة.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾﴾

الشرح: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية رقم [٢٩]. ﴿خُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾: الحذر: احتراز مِنْ مخوف، والمعنى: احذروا، واحترزوا مِنْ عدوِّكم، ولا تمكِّنوه من أنفسكم. وقيل: المراد بالحذر: هو السِّلاح، يعني: خذوا سلاحكم، وعدَّتكم لقتال عدوِّكم، وإنَّما سُمِّيَ السِّلاح حذراً؛ لأنَّه به يُتَّقى، ويحذر. ولقائل أن يقول: إذا كان المقدور كائناً؛ فما يمنع الحذر؟ فالجواب عنه بأنَّه لمَّا كان الكل بقضاء الله، وقدره؛ كان الأمر بأخذ الحذر من قضاء الله، وقدره، ومنه قول الفاروق ـ رضي الله عنه ـ: نفرُّ من قضاء الله وقدره، إلى قضاء الله وقدره.

﴿فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ﴾ أي: اخرجوا سرايا متفرِّقين سريةً بعد سريةٍ، و﴿ثُبَاتٍ﴾ جمع: ثبة، وهي الجماعة من الرِّجال فوق العشرة، وتجمع أيضاً على «ثُبين» جمع مذكر سالماً، ومنه قول عمرو بن كلثوم في معلقته: [الوافر]

وَأَمَّا يَوْمَ لَا نَخْشَى عَلَيْهِمْ فَنُصْبِحُ فِي مَجَالِسِنَا ثُبِينَا

﴿أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا﴾ أي: اخرجوا جميعاً كلكم مع نبيكم ﷺ إلى جهاد عدوِّكم. و﴿ٱنفِرُواْ﴾: بكسر الفاء، وضمها تبعاً للمضارع. هذا؛ والنفر: الجماعة، كالقوم، والرهط، لا واحد له من لفظه، والمصدر: النفور، والنَّفير، فالله يدعو المؤمنين في الآية الكريمة لمواجهة أعدائهم، ومحاربتهم مجتمعين، ومتفرِّقين حسب ما تدعو الحاجة إليه. قال البيضاويُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: والآية وإن نزلت في الحرب، لكن يقتضي إطلاق لفظها وجوب المبادرة إلى الخيرات كلِّها كيفما أمكن قبل الفوات. انتهى. فيكون مضمونها مثل قوله تعالى في سورة (آل عمران): ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ إلخ، وقوله جلَّ ذكره في سورة (الحديد): ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ...﴾ إلخ. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية رقم [٢٩]. ﴿خُذُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، و الجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿حِذْرَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. ﴿فَٱنفِرُواْ﴾: الفاء: حرف عطف. (انفروا): أمر، وفاعله. ﴿ثُبَاتٍ﴾: حال من واو الجماعة منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم، والجملة معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها مثلها، والتي بعدها معطوفة أيضاً. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من واو الجماعة أيضاً.

﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ﴾: نزلت الآية في المنافقين، وإنَّما قال الله: ﴿مِنكُمْ﴾ لاجتماعهم مع أهل الإيمان في الجنسية، والنَّسب، وإظهار كلمة الإيمان. والمعنى: وإن منكم لَمَنْ ليتأخرنَّ، وليتثاقلنَّ عن الجهاد، وهو عبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، وأتباعه. كان المنافقون يقولون للمؤمنين: لم تقتلون أنفسكم؟! تأنَّوا حتى يظهر الأمر!.

﴿فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ أي: مِنْ قتلٍ، وهزيمةٍ. ﴿قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ﴾ أي: لقعودي عن الحرب، والجهاد. ﴿إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا﴾: حاضر الحرب، فيصيبني ما أصابهم. هذا؛ وعاد الضمير على (مَنْ) مفرداً نظراً للفظها.

الإعراب: ﴿وَإِنَّ﴾: الواو: واو الحال. (إنَّ): حرف مشبَّه بالفعل. ﴿مِنكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: (إنَّ) تقدَّم على اسمها. ﴿لَمَن﴾: اللام: لام الابتداء. (مَنْ): اسم موصول. أو نكرة موصوفة مبني على السكون في محل نصب اسم (إنَّ) مؤخر. ولا أعتمده، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٥٥]. ﴿لَّيُبَطِّئَنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب قسم محذوف. (يبطئن): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة التي هي حرف لا محلَّ له، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، والقسم، وجوابه صلة: (مَنْ) أو صفتها، وتقدير الكلام: وإنَّ منكم لمن أقسم بالله ليبطئن. وساغ ذلك؛ لأنَّ القسم وجوابه يعتبر كلاماً خبريّاً، والإنشائية هي مجرد القسم. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٧] من سورة (العنكبوت) إن أردت الزيادة، والجملة الاسمية: ﴿وَإِنَّ...﴾ إلخ في محلِّ نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿فَإِنْ﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿أَصَٰبَتۡكُم﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. والتاء للتأنيث، والكاف مفعول به. ﴿مُّصِيبَةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿قَالَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم جواب الشرط، والفاعل ضمير يعود إلى: (مَنْ) تقديره: هو. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ﴾: ماض وفاعله، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿عَلَيَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿إِذۡ﴾: ظرف لما مضى من الزمان مبني على السكون في محل نصب متعلِّق بالفعل: ﴿أَنۡعَمَ﴾. ﴿لَمۡ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿أَكُن﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمۡ﴾ ناقص، واسمه ضمير مستتر تقديره: أنا. ﴿مَّعَهُمۡ﴾: ظرف مكان متعلق بـ﴿شَهِيدٗا﴾ الذي هو خبر: ﴿أَكُن﴾، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة ﴿إِذۡ﴾ إليها. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿إِذۡ﴾ حرف تعليل، فلا محل لها، وجملة: ﴿قَالَ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء ولا «إذا» الفجائية و(إنَّ) ومدخولها كلامٌ مستأنف ومفرَّع عمَّا قبله، لا محلَّ له، وهو معترض بين الجملتين المتعاطفتين.

﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾

الشرح: ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: نصر، وفتح، وغنيمة. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ أي: هذا المنافق قول نادم حاسدٍ. وقرأ الحسن البصري الفعل بضم اللام على معنى (مَنْ) ومن فتح اللام ـ وهي قراءة سبعيَّة ـ فوحَّد الضمير على لفظ (مَنْ). ﴿كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ...﴾ إلخ؛ أي: كأن لم تكن بينكم، وبينه معرفةٌ، ومودَّةٌ في الدِّين. والمعنى: كأنَّه ليس من أهل دينكم، وذلك: أنَّ المنافقين

كانوا يودُّون المؤمنين في الظاهر فحسب. ﴿يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ﴾: على وجه الحسد، أو الأسف على فَوْت الغنيمة مع الشَّكِّ في الجزاء من الله. ﴿فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ أي: فآخذ نصيباً وافراً من الغنيمة.

تنبيه: نسبة الفضل في هذه الآية إلى جانب الله تعالى، دون إصابة المُصيبة في الآية السابقة من العادات الشَّريفة في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم ـ على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام في سورة (الشعراء) ـ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ وقوله تعالى حكاية عن قول الجن في سورة (الجن): ﴿وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾. واقرأ الآية رقم [٧٩] من سورة (الكهف) وما بعدها بتأمُّل.

الإعراب: ﴿وَلَئِنۡ﴾: الواو: حرف عطف. اللام: موطئة لقسم محذوف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿أَصَٰبَكُمۡ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والكاف مفعول به. ﴿فَضۡلٞ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ﴿فَضۡلٞ﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿لَيَقُولَنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب القسم. (يقولن): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو، أي: على لفظه، وعلى قراءته بضم اللام. فيكون الفعل مرفوعاً، وعلامة رفعه النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والفاعل واو الجماعة المحذوفة المدلول عليها بالضمة، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، وحذف جواب الشرط لدلالة جواب القسم عليه على القاعدة: «إذا اجتمع شرط، وقسم فالجواب للسابق منهما». قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَاحْـذِفْ لَـدَى اجْـتِـمَـاعِ شَـرْطٍ وَقَـسَـمْ جَـوَابَ مَـا أَخَّـرْتَ فَـهْـوَ مُـلْـتَـزَمْ

والجملة القسمية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿كَأَن﴾: حرف مشبه بالفعل مخفف من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، التقدير: كأنَّه. ﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَكُنۢ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَّمۡ﴾. ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر: ﴿تَكُنۢ﴾ مقدَّم، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَبَيۡنَهُۥ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مَوَدَّةٞ﴾: اسم: ﴿تَكُنۢ﴾ مؤخَّر، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿كَأَن﴾. والجملة الاسمية معترضة بين القول، ومقوله. وقيل: في محل نصب حال مِنْ فاعل الفعل قبله. وقيل: داخلة في المقول. والمعتمد الأول.

﴿يَٰلَيۡتَنِي﴾: (يا): حرف تنبيه لا محلَّ له. وقيل: أداة نداء، والمنادى محذوف، التقدير: يا قوم، ونحوه. والأول أقوى. (ليتني): حرف مشبه بالفعل، والنون للوقاية، وياء المتكلم اسمها. ﴿كُنتُ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿مَعَهُمۡ﴾: ظرف مكان

متعلق بمحذوف خبر: ﴿كُنتُ﴾، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (ليت) والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿فَأَفُوزَ﴾: الفاء: للسببية. (أفوز): فعل مضارع منصوب بـ «أَنْ» مضمرة بعد الفاء، والفاعل مستتر تقديره: أنا، و«أن» المضمرة والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل نصب معطوف على مصدر متصيد من الفعل السابق، التقدير: أتمنى كينونة معهم، ففوزاً. هذا؛ وقرئ: (أفوزُ) بالرفع على تقدير: فأنا أفوز، فتكون الجملة اسمية، وهي مستأنفة. ﴿فَوْزًا﴾: مفعول مطلق. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له.

﴿۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾

الشرح: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ إلخ: هذا خطابٌ للمنافق المذكور في الآيتين السَّابقتين؛ أي: ليخلص المنافق الإيمان، وليقاتل في سبيل الله. وقيل: هو خطاب للمؤمنين المُخلصين؛ أي: فليقاتل المؤمنون المخلصون الباذلون أنفسهم، وأموالهم في سبيل الله الذين يبيعون الحياة الفانية بالحياة الباقية. وفي الآية استعارة، فقد استعار لفظ الشِّراء للمبادلة، والباء بمعنى: بدل، وقد دخلت على المتروك. ومثله كثيرٌ في الآيات القرآنية، و﴿يَشْرُونَ﴾ بمعنى: يشترون، ويبيعون، قال ابن مفرغ الحميري: [مجزوء الكامل]

وَشَرَيْتُ بُرْداً لَيْتَنِي ... مِنْ بَعْدِ بُرْدٍ كُنْتُ هَامَهْ

وقال أبو ذؤيب الهُذلي، وهو الشاهد رقم [٧٧١] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

فَإِنْ تَزْعُمِيني كُنْتُ أَجْهَلُ فِيكُمُ ... فَإِنِّي شَرَيْتُ الْحِلْمَ بَعْدَكِ بِالْجَهْلِ

﴿وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: في طاعة الله، ومن أجل إعلاء كلمته؛ إذ لا يُذكر لفظ القتال، أو الجهاد؛ إلا ويُقرن بكلمة: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وفي ذلك دلالة واضحة على أنَّ الغاية مِنَ القتال، والجهاد غايةٌ شريفةٌ نبيلة، هي: إعلاء كلمة الله، لا السيطرة، أو المغنم، أو الاستيلاء في الأرض، أو غير ذلك من الغايات الدَّنيئة. ﴿فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ...﴾ إلخ: وَعَدَ اللهُ المجاهدَ في سبيل الله ظافراً، أو مظفوراً به إيتاء الأجر العظيم على اجتهاده في إعزاز دين الله. وخذ ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**تَضَمَّنَ اللهُ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيْلِهِ، لَا يُخْرِجُهُ إِلَّا جِهَادٌ فِي سَبِيلِي، وَإِيْمَانٌ بِي، وتَصْدِيقٌ بِرُسُلِي، فَهُوَ عَلَيَّ ضَامِنٌ أَنْ أُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ أُرْجِعَهُ إِلَى مَسْكَنِهِ، الَّذِي خَرَجَ مِنْهُ، نَائِلاً مَا نَالَ مِنْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيْمَةٍ**». أخرجه مسلمٌ في صحيحه، وفي هذا الحديث، والآية الكريمة وعدٌ من القويِّ العزيز؛ ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾؟ لا أحد!.

هذا؛ و(السَّبيل) يذكَّر، ويؤنَّث بلفظٍ واحدٍ، فَمِنَ التَّذكير قوله تعالى في سورة (الأعراف): ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾. ومن التأنيث قوله تعالى في سورة (يوسف) رقم [١٠٨]: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ والجمع: سبول، وعلى التذكير: سُبُل، بضمتين، و: سُبْل، بضم فسكون.

الإعراب: ﴿فَلْيُقَٰتِلْ﴾: الفاء: حرف استئناف. اللام: لام الأمر. (يقاتل): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر. ﴿فِى سَبِيلِ﴾: متعلقان به، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف. و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل (يقاتل)، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿يَشْرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿ٱلْحَيَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾: صفة (الحياة) منصوب مثله، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على الألف للتعذّر. ﴿بِٱلْءَاخِرَةِ﴾: متعلقان بالفعل ﴿يَشْرُونَ﴾ أو بمحذوف حال من: ﴿ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: مستبدلة بالآخرة.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُقَٰتِلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿فِى سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما. و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه. ﴿فَيُقْتَلْ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول ونائب فاعله يعود إلى: (مَنْ) وهو معطوف على فعل الشرط مجزوم مثله، ويجوز في القواعد النَّحوية. ﴿أَوْ يَغْلِبْ﴾: ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿يَغْلِبْ﴾: معطوف أيضاً على فعل الشرط، وفاعله يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (سوف): حرف تسويف، واستقبال. ﴿نُؤْتِيهِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدَّرة على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به أول. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول به ثان. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، وجملة: (سوف...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد. وخبر المبتدأ الذي هو: (مَنْ) مختلف فيه كما رأيت في الآية رقم [٦٩]. والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ...﴾ إلخ: استفهام إنكاري توبيخي، أيْ: أيُّ شيء يمنعكم من القتال والجهاد في سبيل إعزاز دين الله ، وفي سبيل تخليص المستضعفين الذين استذلَّهم المشركون، فمنعوهم من الهجرة إلى المدينة المنورة، أو لا يقدرون على الهجرة لضعفهم،

وعجزهم. ففيه حضٌّ على الجهاد لإعلاء كلمة الله ، وإظهار دينه، واستنقاذ المؤمنين الضُّعفاء، وإن كان في ذلك تلف النُّفوس. وتخليص الأسارى، والمستضعفين واجبٌ على جماعة المسلمين، إمَّا بالقتال، وإمَّا بالأموال، لقول النبيِّ ﷺ: **«فُكُّوا الْعَانِي»** والمراد بالمستضعفين: مَنْ كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال كفَّارِ قريشٍ لهم، وهم المعنيُّون بقول النبيِّ ﷺ: **«اللَّهُمَّ أَنْجِ الْوَلِيدَ بنَ الْوَلِيْدِ، وَسَلَمَةَ بْنَ هِشَامٍ، وَعَيَّاشَ بنَ أَبي رَبِيْعَةَ، وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ المؤمنين»**. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: كنت أنا، وأمِّي من المستضعفين. و(الولدان) جمع: ولد، وإنَّما ذكر الله سبحانه الولدان مبالغةً في الحثِّ على الجهاد، وتنبيهاً على تناهي ظلم المشركين بحيث بلغ آذاهم الصِّبيان.

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾: المراد بها: مكَّة المكرمة. ﴿ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾: بالشرك، ويظلمون غيرهم بالإيذاء، والتطاول عليهم، و﴿ٱلظَّالِمِ﴾: نَعْتٌ سببيٌّ يجب فيه الإفراد، والتَّذكير، ويراعى في تذكيره، وتأنيثه، وجمعه، وتثنيته ما بعده. ﴿وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ أي: من عندك نصيراً، ومعيناً، ومخلِّصاً من إيذاء كفار قريش. وقد استجاب الله دعاءهم، وحقَّق رجاءهم بأن يسَّر الله لبعضهم الخروج إلى المدينة، وجعل لِمَنْ بقي منهم في مكَّة خير وليٍّ، وخير ناصر؛ حيث فتح الله مكَّة على يد رسوله ﷺ، فتولَّاهم، ونصرهم، ثمَّ استعمل عليهم عتَّاب بن أُسَيْد ـ رضي الله عنه ـ فحمى المستضعفين، ونصرهم حتَّى صاروا أعزَّاء أهلِ مكَّة. والحمد للهِ والمنَّة!.

هذا؛ و«القرية» اسم للمكان الَّذي يجتمع فيه القوم، وهو يُطلق على المدينة الكبيرة، وغيرها، كيف لا؟ وقد جعل الله مكة المكرمة أمَّ القرى في قوله تعالى في الآية رقم [٩٢] من سورة (الأنعام): ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، كما تُطلق على الضيعة الصَّغيرة، وهي مأخوذة من: قريت الماء في المكان: جمعته، وفي القاموس المحيط: القرية: بكسر القاف، وفتحها، والنسبة إليها: قَروي، وقِريي، والفتح أقوى.

الإعراب: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُقَٰتِلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محلِّ نصب حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور، والعامل اسم الاستفهام، كما في الآية رقم [٨٨] الآتية، وكما في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ وغير ذلك كثير. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: معطوف على لفظ الجلالة، وهذا اختيار الزجاج، وقاله الزُّهري، وقال المبرد: اختار أن يكون معطوفاً على (السبيل) أي: وفي المستضعفين لاستنقاذهم.

فالسبيلان مختلفان. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾: متعلقان بـ(المستضعفين) لأنَّه اسم مفعول، أو هما في محل رفع نائب فاعله، وهو الأولى. ﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: معطوفان على: ﴿ٱلرِّجَالِ﴾، وجوز اعتبار المستضعفين منصوباً على الاختصاص بفعل محذوف، ولا وجه له.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة: ﴿ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾، ويكون في الكلام تغليب، أو هو في محل نصب بفعل محذوف، التقدير: أعني الَّذين، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، وجملة: ﴿يَقُولُونَ﴾ مع مقولها صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿رَبَّنَآ﴾: منادى حذف منه حرف النداء، و(نا) في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿أَخْرِجْنَا﴾: فعل دعاء، وفاعله مستتر تقديره: «أنت» و(نا): مفعول به، والجملة الفعلية والندائية في محل نصب مقول القول. ﴿مِنْ هَٰذِهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾: بدل اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه. وقيل: صفة. ﴿ٱلظَّالِمِ﴾: صفة: ﴿ٱلْقَرْيَةِ﴾ صفة سببية. ﴿أَهْلُهَا﴾: فاعل به، و(ها) في محل جر بالإضافة. ﴿وَٱجْعَل﴾: فعل دعاء، وفاعله تقديره: «أنت». ﴿لَّنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول. ﴿مِن لَّدُنكَ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به ثان. هذا؛ وجُوِّز اعتبار الجار والمجرور (لنا) في محل نصب مفعول به أوَّل، ووليّاً مفعول به ثان، كما أجيز اعتبار: ﴿مِن لَّدُنكَ﴾ متعلقين بمحذوف حال من: ﴿وَلِيًّا﴾ كان صفة له... إلخ.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: المؤمنون يقاتلون لهدف سام، وغايةٍ نبيلة، وهي نصرة دين الله، وإعلاء كلمته ابتغاء مرضاته، فهو تعالى وليُّهم، وناصرهم، ومعزُّهم، ورافع شأنهم في الدُّنيا، والآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾ أي: الذين كفروا يقاتلون في سبيل الشيطان، وما يأمر به من الظلم، والفساد، وبذلك كان الشيطان وليهم، وناصرهم؛ فشتَّان بين من يقاتل لإعلاء كلمة الله، وبين من يقاتل في سبيل الشيطان. فمن قاتل في سبيل الله فهو الذي يغلب؛ لأنَّ الله وليه، وناصره، ومن قاتل في سبيل الطاغوت؛ فهو المخذول المغلوب، و﴿ٱلطَّٰغُوتِ﴾: كلُّ ما عُبِدَ مِنْ دون الله، وانظر الآية رقم [٥١]. ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي: قاتلوا يا أولياء الله أولياء الشيطان، وحزبه، وأنصاره، وهم الكفار. ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: وساوسه، وزخارفه الَّتي يُلقيها في عقل ابن آدم. ﴿كَانَ ضَعِيفًا﴾ أي: إنَّ كيده للمؤمنين بمقارنة كيد الله للكافرين ضعيفٌ، لا يؤبه له، فلا تخافوه، ولا تخافوا أولياءه. وفي هذا غاية التَّرغيب في قتال الكافرين.

تنبيه: ذكر الله هنا: أنَّ كيد الشيطان ضعيف، وهذا بمقارنته بكيد الله ، وذكر في سورة (يوسف) أنَّ كيد النِّساء عظيم، وهذا بالنسبة إلينا، على أنَّه مِنْ كلام العزيز زوج المرأة، ولا تنسَ: قوله تعالى في سورة (التَّحريم): ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾.

فائدة: في الآية الكريمة من المُحسِّنات البديعية: المقابلة، وهي أن يؤتى بمعنيين، أو أكثر، ثُمَّ يؤتى بما يقابل ذلك على التَّرتيب، تأمَّل في الآية تجد ذلك موجوداً فيها، كما في الآية رقم [٨٥] الآتية.

هذا؛ و«الشَّيطان» اسم يطلق على عدو الله إبليس، وقد يُطلق على كلِّ نفسٍ عاتيةٍ خبيثةٍ، خارجةٍ عن الصراط المستقيم من الإنس، والجن، والحيوان. وما أكثر الشياطين بهذا المعنى من بني آدم، قال تعالى في سورة (الأنعام) رقم [١١٢] ـ انظر شرحها هناك، ونصُّها ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا شَيَٰطِينَ ٱلۡإِنسِ وَٱلۡجِنِّ يُوحِي بَعۡضُهُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ زُخۡرُفَ ٱلۡقَوۡلِ غُرُورٗاۚ﴾، وقال الرسول ﷺ لأبي ذرٍّ الغفاري ـ رضي الله عنه ـ: «**يَا أَبَا ذَرٍّ تَعَوَّذْ باللهِ مِنْ شَيَاطِينِ الإنْسِ والْجِنِّ**». قال: أوَ للإنس شياطين؟! قال: «**نَعَمْ**». ولا تنس أنَّ لكلِّ واحدٍ من بني آدم شيطاناً بدليل قول النبي ﷺ لعائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**أَجَاءَكِ شَيْطَانُكِ؟**» قالت: أَوَ لي شيطان؟ قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَلَهُ شَيْطَانٌ**» قالت: وأنت يا رسول الله؟! قال: «**وَأَنَا إِلَّا أَنَّنِي أَعَانَنِي الله عَلَيْهِ، فَأَسْلَم، فَلا يَأْمُرُ إِلَّا بِخَيْرٍ**». يروى بضم الميم، وفتحها، والمعنى يختلف.

هذا؛ و«الشَّيطان» واحد الشياطين، مأخوذ مِنْ شطن: إذا بعد، والنُّون أصلية، فهو مصروف على هذا؛ وسُمِّي الشَّيطان شيطاناً؛ لبعده عن الحقِّ، وتمرُّده. قال جرير: [البسيط]

أَيَّامَ يَدْعُونَنِي الشَّيْطَانَ مِنْ غَزَلٍ ... وَهُنَّ يَهْوِينَنِي إذْ كُنْتُ شَيْطَانَا

وقيل: مأخوذ مِنْ: شاط: إذا احترق، وشاط: بطل، فالنون زائدة، وعليه فهو غير مصروف، و«شطن» من باب: قعد، و«شاط» من باب ضرب. هذا؛ واشتاط الرَّجل: إذا احتدَّ غضباً. واشتاط: إذا هلك. قال الأعشى في معلَّقته: [البسيط]

قَدْ نَخْضِبُ الْعَيْرَ فِي مَكْنُونِ فَائِلِهِ(١) ... وَقَدْ يَشِيطُ عَلَى أَرْمَاحِنَا الْبَطَلُ

ويقوِّي الاعتبار الأول، ويضعِّف الثاني: أنَّ سيبويه ـ رحمه الله تعالى ـ حكى: أنَّ العرب تقول: تَشَيْطَن فلان: إذا فعل أفعال الشياطين، فهذا بَيِّن: أنَّ تَفَعْلَلَ مِنْ شَطَنَ، ولو كان من شاط؛ لقالوا: تَشَيَّطَ.

---

(١) الفائل: عِرْقٌ مِنَ الجوف إلى الفخذ، ومنون الفائل: الدم.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿ءَامَنُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿يُقَٰتِلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما. و﴿سَبِيلِ﴾: مضاف. و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ﴾: معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها، وإعرابها واضح. ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ﴾: الفاء: هي الفصيحة. (قاتلوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب شرط غير جازم، التقدير: وإذا كان ذلك واقعاً، وحاصلاً؛ فقاتلوا... إلخ. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: مضاف إليه. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿كَيْدَ﴾: اسمها، وهو مضاف، و﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى ما قبله. ﴿ضَعِيفًا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية تعليل للأمر، لا محلَّ لها.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾﴾

الشرح: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحقِّ محمد ﷺ أو لكلِّ أحد. والاستفهام تعجيب، وتشويق إلى استماع ما بعده؛ إن كان المخاطب لم يعلم بحال المذكورين، أو هو استفهام تقرير؛ إن كان المخاطب يعلم بحالهم. ويجوز أن يخاطب به مَنْ لم ير، ولم يسمع؛ لأنَّ هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجُّب.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ...﴾ إلخ: قال الكلبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت الآية الكريمة في عبد الرحمن بن عوف الزُّهري، وجماعة من أصحاب النبي ﷺ، كانوا يَلْقَوْن من المشركين أذىً كثيراً بمكة قبل أن يهاجروا، فكانوا يقولون: يا رسول الله! ائذن لنا في قتالهم، فإنَّهم قد آذونا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**كفوا أيديكم فإني لم أؤمر بقتالهم**». ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: فيه إشكال، وهو: أنَّ الصلاة فُرِضت في السَّنة العاشرة من النبوة، والزَّكاة فرضت في السَّنة الرابعة من الهجرة، وحَلُّه ـ وبالله التوفيق ـ: أنَّ المراد بالصَّلاة الصلاة التي كانت مفروضةً: ركعتين بالغداة، وركعتين بالعشي، وأنَّ المراد بالزَّكاة مطلق الصدقة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾: فرض عليهم جهاد المشركين، وقتالهم، وأمروا بالخروج إلى بدرٍ ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: جماعةٌ منهم، أي: من الَّذين سألوا أن يُفرض عليهم الجهاد، واستأذنوا الرسول ﷺ في القتال. ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ أي: يخافون مشركي مكة، كما قال تعالى في سورة (الأنفال): ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ...﴾ إلخ. ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو؛ يعني: وأشد خشيةً. انظر ما ذكرته في سورة (البقرة) رقم [٧٤] بشأن «أو» تجد ما يسرّك، ويثلج صدرك. قال السدي رحمه الله تعالى: هم قوم أسلموا قبل فرض القتال، فلمَّا فرض القتال؛ كرهوه. وقيل: هو وصفٌ للمنافقين، والمعنى: يخشون القتال مع المشركين، كما يخشون الموت مِنَ الله.

﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ...﴾ إلخ؛ أي: هلا تركتنا، ولم تفرض علينا القتال حتى نموت بآجالنا. والقائلون لهذا القول هم المُنافقون؛ لأنَّ هذا القول، لا يليق بالمؤمنين. وقيل: قاله بعض المؤمنين، وإنَّما قالوا ذلك خوفاً، وجبناً، لا اعتقاداً، ثمَّ إنهم تابوا مِنْ هذا القول.

قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: ومعاذ الله أن يصدر هذا القول مِنْ صحابي كريم يعلم: أنَّ الآجال محدودة، والأرزاق مقسومة، بل كانوا لأوامر الله ممتثلين، سامعين، طائعين، يرون الوصول إلى الدار الآجلة خيراً مِنَ المقام في الدار العاجلة على ما هو معروف مِنْ سيرتهم، ـ رضي الله عنهم ـ. اللهم إلا أن يكون قائله مِمَّن لم يرسخ الإيمان في قلبه، ولا انشرح بالإسلام جنانه، فإنَّ أهل الإيمان متفاضلون، فمنهم الكامل، ومنهم الناقص، وهو الذي تنفر نفسه عمَّا يؤمر به فيما تلحقه فيه المشقَّة، وتدركه فيه الشدَّة. والله أعلم. انتهى.

﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء: منفعة الدنيا، والاستمتاع بلذَّاتها قليل، وسمَّاه الله قليلاً؛ لأنَّه لا بقاء له، وقال النبيُّ ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَرَاكِبٍ قَالَ قَيْلُولَةً تَحْتَ شَجَرَةٍ، ثُمَّ رَاحَ، وَتَرَكَهَا**». ومِثْلُه يروى عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وغيره كثير. وعن المستورد بن شدَّاد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَاللهِ مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُم إِصْبَعَهُ هَذِهِ في الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟**». أخرجه مسلم. ﴿وَٱلْأٓخِرَةُ﴾ يعني: وثواب الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾: يعني: اتقى الشرك، وابتعد عن معصية الرسول ﷺ. ﴿وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾: ولا تنقصون مِنْ أجوركم قَدْرَ فتيل، انظر الآية رقم [٤٩].

هذا؛ وقال ابن أبي حاتم عن هشام؛ قال: قرأ الحسن: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ فقال: رَحِمَ الله عبداً صَحِبَها على حسب ذلك، وما الدنيا كلُّها أوَّلها، وآخرها إلا كرجلٍ نام نومةً، فرأى في منامه ما يحبُّ، ثمَّ انتبه. وقال ابن معين: كان أبو مصهر يُنْشِد: [الطويل]

وَلَا خَيْرَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ ... مِنَ اللهِ فِي دَارِ الْمُقَامِ نَصِيبُ

فَإِنْ تُعْجِبِ الدُّنْيَا رِجَالاً فَإِنَّهَا ... مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَالزَّوَالُ قَرِيبُ

الإعراب: ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام، وتعجيب. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَرَ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لم) وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليل عليها، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت. ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿قِيلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿كُفُّوٓا۟﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محل رفع نائب فاعل: ﴿قِيلَ﴾، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٦١] ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ معطوفتان على ما قبلهما.

﴿فَلَمَّا﴾: الفاء: حرف عطف، أو استئناف. (لمَّا): حرف وجود لوجود عند سيبويه، وبعضهم يقول: حرف وجوب لوجوب، وهي ظرف بمعنى «حين» عند الفارسي، وابن السراج، وابن جنِّي. تتطلَّب جملتين مرتبطتين ببعضهما ارتباط فعل الشَّرط بجوابه، وصوَّب ابن هشام الأوَّل، والمشهور الثَّاني. ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول. ﴿عَلَيْهِمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلْقِتَالُ﴾: نائب فاعل ﴿كُتِبَ﴾، وجملة: ﴿كُتِبَ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية على القول بحرفية (لمَّا)، وهي في محل جر بإضافة (لمَّا) إليها على القول بظرفيتها. ﴿إِذَا﴾: كلمة دالة على المفاجأة. وهي تختصُّ بالدُّخول على الجملة الاسمية، ولا تحتاج إلى جواب، ولا تقع في الابتداء، ومعناها الحال، لا الاستقبال، نحو: خرجتُ؛ فإذا الأسد بالباب، وهي حرف عند الأخفش، وابن مالك، ويرجِّحه: «خَرجتُ فإذا إنَّ زيداً بالباب» لأنَّ «إنَّ» لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، وظرف مكان عند المبرِّد، وابن عصفور، وظرف زمان عند الزجَّاج، والزمخشري، وزعم هذا الأخير: أنَّ عاملها فعلٌ مشتقٌّ مِنْ لفظ المفاجأة. ولا يعرف هذا لِغَيْر الزَّمخشري، وإنَّما ناصبها الخبر المذكور في نحو: «خرجت فإذا زيدٌ جَالِسٌ» أو المقدَّر في نحو: «فإذا الأسدُ» أي: حاضر. و﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف صفة ﴿فَرِيقٌ﴾. ﴿يَخْشَوْنَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿ٱلنَّاسَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محلِّ جر بإضافة ﴿إِذَا﴾ إليها على القول بظرفيتها. وابتدائية لا محلَّ لها على القول بحرفية ﴿إِذَا﴾، وعلى الاعتبارين فالجملة جواب: (لمَّا)، و﴿إِذَا﴾: واقعةٌ في جوابها، هذا وقيل: (إذا) على اعتبارها ظرفاً متعلقةٌ بمحذوف خبر مقدّم، و﴿فَرِيقٌ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿مِّنْهُمْ﴾، متعلقان بمحذوف صفة: ﴿فَرِيقٌ﴾، وجملة: ﴿يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ﴾ في محل نصب حال من الضمير المستتر في: ﴿مِّنْهُمْ﴾ وقيل: هي صفة ثانية لـ﴿فَرِيقٌ﴾ وقيل غير ذلك، والمعتمد ما ذكرته أولاً. ﴿كَخَشْيَةِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: يخشون الناس خشيةً كائنةً كخشية الله . وهذا قول أبي البقاء، وغيره في مثل هذا التركيب، ومذهب سيبويه في مثله النَّصب على الحال من المصدر المفهوم مِنَ

الفعل المتقدِّم على طريق الاتِّساع، فيكون التقدير: يخشون الناس على مثل هذه الحال. و(خشية) مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، التقدير: كخشيتهم الله.

﴿أَوۡ﴾: حرف عطف. ﴿أَشَدَّ﴾: معطوف على المحذوف، وقد ردَّه البيضاوي رحمه الله تعالى، فقال: عطف على (خشية) إنْ جعلته حالاً، وإن جعلته مصدراً؛ فلا؛ لأنَّ أفعل التفضيل إذا نصب ما بعده لم يكن مِنْ جنسه، بل هو معطوف على اسم الله تعالى؛ أي: كخشية الله ، أو كخشية أشد خشية منه على الفرض، اللهم إلا أن يجعل الخشية ذات خشية، كقولهم: جدَّ جدُّه، على معنى: يخشون الناس خشية مثل خشية الله ، أو خشية أشد خشية من خشية الله . هذا؛ وقال الجلال، وتبعه الجمل: ﴿أَشَدَّ﴾: حال من (خشية) كان صفة له، و(خشية) معطوف على «خشية» المقدَّر، وقد أجمل أبو البقاء الكلام، فقال: والقول في قوله: ﴿أَشَدَّ خَشۡيَةٗ﴾ كالقول في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ﴾ وقد ذكر، أي في الآية رقم [٢٠٠] من سورة (البقرة)، وقال مكي: ﴿أَشَدَّ﴾ معطوف على الكاف، وهي عنده اسم بمعنى: «مثل».

﴿وَقَالُواْ﴾: الواو: حرف استئناف. (قالوا): فعل وفاعل، والألف للتفريق. ﴿رَبَّنَا﴾: منادى حذف منه أداة النداء. و(نا) في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿لِمَ﴾:جار ومجرور متعلقان بالفعل بعدهما، و(ما) مبنية على السكون، وهو الألف المحذوفة للفرق بين الخبر، والاستخبار. ﴿كَتَبۡتَ﴾: فعل، وفاعل. ﴿عَلَيۡنَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلۡقِتَالَ﴾: مفعول به. ﴿لَوۡلَآ﴾: حرف تحضيض. ﴿أَخَّرۡتَنَآ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿قَرِيبٖۗ﴾: صفة: ﴿أَجَلٖ﴾، والكلام كلُّه في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقَالُواْ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿قُلۡ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿مَتَٰعُ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱلدُّنۡيَا﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿قَلِيلٞ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول. ﴿وَٱلۡأٓخِرَةُ﴾: مبتدأ. ﴿خَيۡرٞ﴾: خبره، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها. ﴿لِّمَنِ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿خَيۡرٞ﴾. ﴿ٱتَّقَىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف، وفاعله يعود إلى (مَنْ) وهو العائد، أو الرابط، ومفعوله محذوف، انظر: الشرح، والجملة الفعلية صلة: (مَنْ) أو صفتها.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿تُظۡلَمُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع. . .إلخ، والواو نائب فاعله، وهو المفعول الأول. ﴿فَتِيلًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، التقدير: تجزون فيها جزاء أعمالكم، ولا تظلمون فتيلاً، والكلام في محل نصب مقول القول أيضاً.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في المنافقين؛ الذين قالوا في قتلى أحد كما حكى الله عنهم: ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟﴾ الآية رقم [١٥٦] من سورة (آل عمران)، فردَّ الله عليهم بهذه الآية. وقيل: نزلت في الذين قالوا: ﴿رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ﴾، فردَّ الله عليهم بهذه الآية، فبيَّن الله تعالى: أنَّه لا خلاص لهم مِنَ الموت، وإذا كان لا بدَّ من الموت؛ كان القتل في سبيل الله، وجهاد أعدائه أفضل من الموت على الفراش؛ لأنَّ الموت في الجهاد تحصل به سعادة الآخرة.

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ...﴾ إلخ؛ أي: في أيِّ مكان وُجدتم، فلا بدَّ أن يدرككم الموت عند انتهاء الأجل ويفاجئكم؛ ولو تحصَّنتم منه بالحصون المنيعة، فلا تخشوا القتال خوف الموت. هذا؛ والموت: انتهاء الحياة بخمود حرارة البدن، وبطلان حركته. وموت القلب: قسوته، فلا يتأثر بالمواعظ، ولا ينتفع بالنَّصائح. والموت أكبر واعظٍ. وخذ قول طرفة بن العبد: [الرمل]

وَكَفَى بِالْمَوْتِ فَاعْلَمْ وَاعِظاً ... لِمَنِ الْمَوْتُ عَلَيْهِ قَدْ قُدِرْ

فَاذْكُرِ الْمَوتَ وَحَاذِرْ ذِكْرَهُ ... إنَّ فِي الْمَوْتِ لِذِي اللُّبِّ عِبَرْ

كُلُّ شَيءٍ فيه يَلْقَى حَتْفَهُ ... فِي مُقَامٍ أَوْ عَلَى ظَهْرِ سَفَرْ

وَالْمَنَايَا حَوْلَهُ تَرْصُدُهُ ... لَيْسَ يُنْجِيْهِ مِنَ الْمَوْتِ الْحَذَرْ

وخذ ما يلي معتبراً، ومفكراً، وبالله التوفيق: [الطويل]

هُوَ الْمَوْتُ فَاحْذَرْ أَنْ يَجِيئَكَ بَغْتَةً ... وَأَنْتَ عَلَى سُوءٍ مِنَ الْفِعْلِ عَاكِفُ

وَإِيَّاكَ أَنْ تَمْضِي مِنَ الدَّهْرِ سَاعَةٌ ... وَلَا لَحْظَةٌ إِلَّا وَقَلْبُكَ وَاجِفُ

وَبَادِرْ بِأَعْمَالٍ يَسُرُّكَ أَنْ تُرَى ... إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الْحِسَابِ الصَّحَائِفُ

وواحد (البروج): بُرْج، وهو البناء المرتفع، والقصر العظيم، قال طرفة يصف ناقة: [البسيط]

كَأَنَّهَا بُرْجُ رُومِيٍّ تَكَنَّفَهَا ... بَانٍ بِشِيدٍ وآجُرٌّ وَأَحْجَارِ

هذا؛ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: (البروج): الحصون، والآطام، والقلاع، ومعنى ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾: مطولة، ومحصَّنة، ومزيَّنة بالشِّيد، وهو الجصُّ. والمشيَّدة، والمشِيد سواء،

قال تعالى في سورة (الحجِّ): ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾. هذا؛ وقال السُّدِّي ـ رحمه الله تعالى ـ: المراد بالبروج، بروج في السماء الدُّنيا مبنية. وحكى هذا القول مكيٌّ عن الإمام مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: أنَّه قال: ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ و﴿جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ و﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ الأولى في سورة (البروج)، والثانية في سورة (الفرقان)، والثالثة في سورة (الحِجْر). انظر شرح هذه الآيات في محالِّها؛ فإنَّه جيد، والحمد لله!.

وهذه الآية تردُّ على القدرية في الآجال، فعرَّفهم الله بذلك: أنَّ الآجال متى انقضت؛ فلا بدَّ من مفارقة الرُّوح الجسد، سواء أكان بذلك بقتلٍ، أو بموت، حسب ما قدَّر الله زهوقها بها، وقالت المعتزلة: إنَّ المقتول لو لم يقتل؛ لعاش، فردَّ عليهم اللَّقاني في جوهرته بقوله: [الرجز]

وَمَـيِّـتٌ بِـعُـمْـرِهِ مَـنْ يُـقْـتَـلُ ... وَغَـيْـرُ هَـذَا بَـاطِـلٌ لَا يُـقْـبَـلُ

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ...﴾ إلخ: نزلت في المنافقين، واليهود، وذلك: أنَّ المدينة كانت ذات خير، وأرزاقٍ ونِعَم عند مقدم النبي ﷺ، فلمَّا ظهر نفاق المنافقين، وعناد اليهود اللُّؤماء؛ أمسك الله عنهم بعض الإمساك، فقال المنافقون، واليهود: ما زلنا نعرف النقص في ثمارنا، ومزارعنا منذ قدم علينا هذا الرَّجل، وأصحابه، فقال الله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ﴾ أي: المنافقين، واليهود. ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي: خصب في الثمار، ورخصٌ في الأسعار، ونماءٌ في الزروع، والأولاد، وغير ذلك من وجوه الخير. ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: من قِبَل الله. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي: قحط، وجدب، ونقص في الزُّروع، والثمار، أو موت أولاد، أو نتاج، وغير ذلك ممّا يكرهونه. ﴿يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ﴾ يا محمد! أي: بسببك يا محمد! فهم ينسبون الشرَّ إلى النبيِّ ﷺ تشاؤماً به. وقد حصل التفاتٌ من الخطاب إلى الغيبة، انظر الالتفات في الآية [٦٤].

﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الحسنة والخير من: خصبٍ، ونصر، وعزٍّ، وصحَّةٍ، وعافية، والسيئة من: هزيمة، وقتلٍ، وموتٍ، ونحو ذلك، فالحسنة فضلٌ، وإنعامٌ من الله، وأمَّا السيئة؛ فابتلاء، واختبارٌ منه تعالى. ثمَّ قال تعالى منكراً على هؤلاء القائلين هذه المقالة الصَّادرة عن شكٍّ، وَرَيْبٍ، وقلَّة فهم وعلم، وكثرة جهلٍ وظلم: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ...﴾ إلخ؛ أي: لا يفهمون معاني القرآن، وأنَّ الأشياء كلَّها مِنَ الله، عزَّ، وجل، خيرها، وشرها.

هذا؛ و(يكاد): يقرب، يقال: كاد يفعل، ولم يفعل، فهو فعلٌ يدلُّ على وقوع مقاربة الفعل بعدها، ولذا لم تدخل عليه «أن» لأنَّها تخلص الفعل للاستقبال، وإذا دخل عليها حرف نفي، كما في هذه الآية؛ دلَّ على أنَّ الفعل بعدها وقع، وإذا لم يدخل عليها حرف نفي؛ لم يكن الفعل بعدها واقعاً، ولكنَّه قارب الوقوع. والفعل واوي العين، فـ «كاد» أصله: كَوِدَ، فتحرَّكت الواو، وانفتح ما قبلها، فقُلبت ألفاً، وَيَكادُ وزنه: يَكْوَد، كيعلم، فنقلت فتحة الواو إلى الساكن قبلها؛ لأنَّ الحرف الصحيح أولى بالحركة مِنْ حرف العلَّة، ثمَّ يقال: تحركت الواو بحسب

الأصل، وانفتح ما قبلها الآن، فقلبت ألفاً، فصار: يكَادُ بوزن: يَخَافُ، ومصدره: الْكَوْد، وهذا في «كاد» الناقصة، وأمَّا «كاد» التَّامة فهي يائية العين المفتوحة في الماضي كباع، المكسورة العين في المضارع كيبيع، ومصدره: الكيد، كالبيْع، فهو من الباب الثاني، بخلاف الناقص فإنَّه من الباب الرَّابع، ولذا جاء المضارع في القرآن مختلفاً، فمن الأوَّل قوله تعالى في سورة (النور) رقم [٣٥]: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾، ومن الثاني قوله تعالى في سورة (يوسف): ﴿فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا﴾ ومعنى الأول: المقاربة. ومعنى الثاني: المكر، والأول ناقص التصرف، ويحتاج إلى مرفوع، ومنصوب، والثاني تامُّ التصرف، ويكتفي بالفاعل، وينصب المفعول به.

فائدة: قد تأتي «كاد» بمعنى: أراد، قال محبُّ الدين الخطيب، شارح شواهد الكشَّاف، وجعل منه قول الراقدة الأودي: [البسيط]

وَالْبَيْتُ لَا يُبْتَنَى إِلَّا بِأَعْمِدَةٍ ... وَلَا عِمَادَ إِذَا لَمْ تُرْسَ أَوْتَادُ

فَإِنْ تَجَمَّعَ أَسْبَابٌ وَأَعْمِدَةٌ ... وَسَاكِنٌ بَلَغُوا الأَمْرَ الَّذِي كَادُوا

أي: الذي أرادوا، ومنه قول الآخر: [البسيط]

كِدْنَا وَكِدْتِ وَتِلْكَ خَيْرُ إِرَادَةٍ ... لَوْ عَادَ مِنْ زَمَنِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى

أي: أردنا، وأردتِ، دليله: «خَيْرُ إِرَادَةٍ». هذا؛ وقد شاع على الألسن أن نفي كاد إثباتٌ، وإثباتُها نفيٌ، ولذا ألغز المعرِّي بقوله: [الطويل]

أَنَحْوِيَّ هَذَا الْعَصْرِ مَا هِيَ لَفْظَةٌ ... جَرَتْ فِي لِسَانَيْ جُرْهُمٍ وَثَمُودِ

إِذَا اسْتُعْمِلَتْ فِي صُورَةِ الْجَحْدِ أَثْبَتَت ... وَإِن أُثْبِتَتْ قَامَتْ مُقَامَ جُحُودِ

فأجابه الشيخ جمال الدين بن مالك صاحب الألفية بقوله: [الطويل]

نَعَمْ هِيَ كَادَ الْمَرْءُ أَنْ يَرِدَ الْحِمَى ... فَتَأْتِي لإثْبَاتٍ بِنَفْيِ وُرُودِ

وَفِي عَكْسِهَا مَا كَادَ أَنْ يَرِدَ الْحِمَى ... فَخُذْ نَظْمَهَا فَالْعِلْمُ غَيْرُ بَعِيدِ

وقد اتفقت كلمة النُّحاة على أن «كاد» كسائر الأفعال، وكلامهم متقارب المعنى في هذا الشأن، ومتشابه.

انظر الشاهد رقم [١١٢٧] من كتابنا: «فتح القريب المُجيب» والأشموني، وغيرهما، وها أنذا أسوق لك ما ذكره السُّيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: (همع الهوامع) لتكون على بصيرة من أمرك. قال رحمه الله: والتحقيق: أنَّها كسائر الأفعال، نفيها نفي، وإثباتُها إثبات؛ إلا أنَّ معناها المقاربة، لا وقوع الفعل، فنفيها نفي لمقاربة الفعل، ويلزم منه نفي الفعل ضرورة؛ لأنَّ مَنْ لم يقارب الفعل؛ لم يقع منه الفعل، وإثباتُها إثباتٌ لمقاربة الفعل، ولا يلزم من مقاربته

وقوعه، فقولك: «كَادَ زَيْدٌ يَقُومُ» معناها: قارب القيام. ولم يقم، ومنه قوله تعالى في سورة (النور) رقم [٣٥]: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ أي: يقارب الإضاءة، إلا أنّه لم يضيء، وقولك: «لَمْ يَكَدْ زَيْدٌ يَقُومُ» معناه: لم يُقارب القيام، فضلاً عن أن يصدر منه، ومنه قوله تعالى في سورة النور رقم [٤٠]: ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ أي: لم يقارب أن يراها، فضلاً عن أن يرى، وقوله تعالى في سورة (إبراهيم) ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ أي: لا يقارب إساغته فضلاً عن أن يُسيغه، وعلى هذا الزَّجَّاجي، وغيرُه.

وذهب قوم منهم ابن جنِّي إلى أنَّ نفيها يدلُّ على وقوع الفعل ببطء؛ لآية: ﴿وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾ رقم [٧١] من سورة (البقرة)، فإنَّهم فعلوا بعد بطء، والجواب: أنَّها محمولة على وقتين، أي: فذبحوها بعد تكرار الأمر عليهم بذبحها، وما كادوا يذبحونها قبل ذلك، ولا قاربوا الذَّبح، بل أنكروا أشدَّ الإنكار؛ بدليل ما حكى الله عنهم: ﴿قَالُوٓاْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟!.

وقال ابن هشام في مُغنيه: فالجواب: أنَّه إخبار عن حالهم في أوَّل الأمر، فإنَّهم كانوا بعداء عن ذبحها، بدليل ما يُتلى علينا من تعنُّتهم، وتكرار سؤالهم. انتهى. وقوله مشابه لقول السيوطي المتقدِّم. تأمَّل، وتدبَّر، وربُّك أعلم، وأجلُّ، وأكرم.

الإعراب: ﴿أَيْنَمَا﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون، وبعضهم يقول: مبني على الفتح في محل نصب على الظرفية المكانية، متعلِّق بمحذوف خبر: ﴿تَكُونُواْ﴾ مقدَّم على نقصانه، ومتعلِّقٌ به على تمامه، و(ما): زائدة. ﴿تَكُونُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو اسمه، أو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية. ﴿يُدْرِككُّمُ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، والكاف مفعول به. ﴿ٱلْمَوْتُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ«إذا» الفجائية، والشرط ومدخوله كلامٌ مستأنف لا محلَّ له. ويحتمل: أنَّه داخل في مقول القول المذكور في الآية السابقة، والمعنى: قل لهم: أينما تكونوا في الحضر، أو في السفر يدرككم الموت الذي تكرهون القتال لأجله. وقرئ شاذّاً برفع الجواب وهو على حذف الفاء، أي: فهو يدرككم، واعتبر القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ قول عبد الرحمن بن حسَّان بن ثابت الأنصاري مثله، وهو الشاهد رقم [٨٦] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الْحَسَنَاتِ اللهُ يَشْكُرُهَا ... وَالشَّرُّ بِالشَّرِّ عِنْدَ اللهِ مِثْلَانِ

إذ التقدير: فالله يشكرها، والفرق بينهما واضحٌ، فالآية حذف فيها الفاء، والمبتدأ، والبيت حذف فيه الفاء فقط، وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: أو على أنَّه كلام مبتدأ، و﴿أَيْنَمَا﴾ متَّصلٌ بـ(تظلمون). انتهى. والمعنى لا يؤيِّد الوجهين. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: واو الحال. (لو):

وصلية. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿فِي بُرُوجٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (كان) الناقصة. ﴿مُّشَيَّدَةٍ﴾: صفة بروج، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الكاف الواقعة مفعولاً به، والرابط الواو والضمير. هذا وإن اعتبرت (لو) شرطية غير جازمة فجملة: ﴿كُنتُمْ...﴾ إلخ شرطها، ويكون الجواب محذوفاً؛ لدلالة ما قبله عليه، التقدير: ولو كنتم. . . لأدرككم الموت. هذا؛ وقال الجمل: والجملة؛ أي: (لو) ومدخولها: معطوفة على أخرى مثلها محذوفة، وقدَّر كلاماً لا داعي له، وأرى أنَّ (لو) ومدخولها معطوف على الجملة الشَّرطية قبلها.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف استئناف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿تُصِبْهُمْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والهاء مفعول به. ﴿حَسَنَةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿يَقُولُواْ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿هَٰذِهِۦ﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محلَّ له. (ذه): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ. ﴿مِنْ عِندِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿يَقُولُواْ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشَّرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية، و«إذا» ومدخولها معطوف على ما قبله لا محلَّ له مثله. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ...﴾ إلخ: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله بلا فارق بينهما.

﴿قُلْ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿كُلٌّ﴾: مبتدأ، سوغ الابتداء به الإضافة المقدَّرة. ﴿مِّنْ عِندِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، و﴿عِندِ﴾ مضاف. و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلْ...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الفاء: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. اللام: حرف جر. الهاء: حرف تنبيه لا محلَّ له. (أولاء): اسم إشارة مبني على الكسر في محل جرٍّ باللام، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿ٱلْقَوْمِ﴾: بدل من اسم الإشارة، أو عطف بيان عليه، ويقال: صفة له. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَكَادُونَ﴾: فعل مضارع ناقص مرفوع. . .إلخ، والواو اسمه. ﴿يَفْقَهُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله. ﴿حَدِيثًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محلِّ نصبِ خبر: ﴿يَكَادُونَ﴾، وجملة: ﴿لَا يَكَادُونَ...﴾ إلخ في محلِّ نصب حال مِنْ: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ﴾ والرابط الضمير فقط، والعامل اسم الاستفهام، وقال الجمل: أو هو استئناف مبني على سؤال نشأ، فقيل: ﴿لَا يَكَادُونَ...﴾ إلخ، والأوَّل أقوى. انظر الآية رقم [٧٥].

﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ۝٧٩﴾

الشرح: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٍ﴾ أي: من خيرٍ، وصحةٍ، ونعمةٍ، وخصبٍ، ونصرٍ، وغنيمة. ﴿فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾: فمن كرم الله، وإحسانه، وجوده، وفضله تعالى يتفضَّل به عليك. والخطاب للنبيِّ ﷺ، والمراد به أمَّته. وقيل: إنَّه عامٌّ، وتقديره: ما أصابك أيُّها الإنسان. وإنَّما كان من فضل الله؛ لأنَّ كل ما يفعله الإنسان من الطاعات لا يكافئ نعمة الوجود، بل، ولا شربة ماء، فكيف يقضي غيره؟! ولذا قال النبي ﷺ: «**مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللهِ**». قِيْلَ: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «**وَلَا أَنَا**». وفي روايةٍ أخرى: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَداً عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**». قالوا: وَلَا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «**وَلَا أَنَا؛ إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلِهِ، وَرَحْمَتِهِ. فَسَدِّدُوا، وَقَارِبُوا**». أخرجه البخاريُّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ﴾: قحط، وجدب، وهزيمة... إلخ. ﴿فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾ أي: فبما كسبت يداك من المعاصي، كما قال تعالى في سورة (الشُّورى): ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ وهو لا ينافي قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾: فإنَّ الكلَّ منه تعالى إيجاداً، وإيصالاً؛ غير أنَّ الحسنة إحسانٌ، وامتحانٌ، والسيئة مجازاةٌ، وانتقام. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لما نزلت آية الشُّورى قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا مِنْ خَدْشِ عُوْدٍ، وَلَا عَثْرَةِ قَدَمٍ، وَلَا اخْتِلَاجِ عِرْقٍ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ**». وقالت السَّيدة عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ وَصَبٌ، وَلَا نَصَبٌ، حَتَّى الشَّوْكَةُ يُشَاكُهَا، وَحَتَّى انقطاعُ شَسْعِ نَعْلِهِ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ**».

﴿وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ﴾ أي: أرسلناك يا محمد إلى النَّاسِ كافَّةً رسولاً؛ لتبلِّغهم رسالتي، وما أرسلتك به، وليست رسالتك مقصورة على العرب، كما يقول اليهود اللُّؤماء. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ أي: على أنَّه أرسلك للناس كافَّة، فما ينبغي لأحدٍ أن يخرج عن طاعتك، واتِّباعك، وهو عَالِمٌ بما تُبلِّغهم إيَّاه، وبما يردُّون عليك من الحقِّ كفراً، وعناداً.

بقي أن تعرف وجه الجمع بين قوله تعالى: ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، وبين قوله: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفۡسِكَۚ﴾، فأمَّا إضافة الأشياء إلى الله تعالى، فعلى الحقيقة؛ لأنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ هو خالقها، وموجدها، وأمَّا إضافة السيئة إلى فعل العبد، فعلى المجاز، تقديره: وما أصابك من سيئة؛ فمن الله بذنب نفسك عقوبةً لك. وقيل: إضافة السيئة إلى فعل العبد على سبيل الأدب، فهو كقوله تعالى حكايةً عن قول إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ: ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ فأضاف المرض إلى نفسه على طريق الأدب. ولا شكَّ: أنَّ

المُمْرِض هو الله تعالى، وانظر آية (الكهف) رقم [٨٢]، وآية (الجن) رقم [١٠] تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك.

الإعراب: ﴿مَّآ﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَصَابَكَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى: ﴿مَّآ﴾؛ تقديره: هو، والكاف مفعول به. ﴿مِنْ حَسَنَةٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الفاعل المستتر، و﴿مِنْ﴾: بيان لما أبهم في: ﴿مَّآ﴾. ﴿فَمِنَ اللَّهِ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (من الله): متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهي من الله، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محل المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو: (ما) مختلف فيه، كما ذكرته لك مراراً. هذا؛ وإن اعتبرت: ﴿مَّآ﴾ اسماً موصولاً، فهي مبتدأ، والجملة بعدها صلتها، والجملة الاسمية: «فهي من الله» في محل رفع خبرها، ودخلت الفاء على الخبر زائدة؛ لأنَّ الموصول يشبه الشرط في العموم. ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ...﴾ إلخ: هذه الجملة معطوفة على التي قبلها، لا محلَّ لها مثلها، الأولى بالاستئناف، والثانية بالإتباع، وإعرابها مثلها.

هذا؛ وقد اعتبر أبو البقاء (ما) في الجملتين شرطية لا غير، وقال: ولا يحسن أن تكون بمعنى «الذي» لأنَّ ذلك يقتضي أن يكون المصيب لهم ماضياً مخصصاً، والمعنى على العموم، والشَّرط أشبه، بينما اعتبرها مكيٌّ موصولةً لا غير، فقال: (ما) فيهما، أي: في الجملتين بمعنى: «الذي» وليست للشرط؛ لأنَّها نزلت في شيءٍ بعينه، وهو الجدب، والخصب، والشَّرط لا يكون إلا مبهماً، يجوز أن يقع، ويجوز ألا يقع، وإنَّما دخلت الفاء للإبهام الَّذي في «الذي» مع أنَّ صلته فعل. هذا؛ وقد أعربتُ (ما) في الجملتين على الوجهين اللَّذين قالاهما حتى لا يبقى عليَّ اعتراضٌ لمعترضٍ. والله الموفق، والمعين، وبه أستعين.

﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾: الواو: واو الحال. (أرسلناك): فعل، وفاعل، ومفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من كاف الخطاب على اعتباره مقصوداً به الرَّسول ﷺ، والرابط: الواو، والضمير، وهي على تقدير «قد» قبلها، ومستأنفة على اعتبار الخطاب لكلِّ إنسان. ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال مِنْ: ﴿رَسُولًا﴾ كان صفة... إلخ. ﴿رَسُولًا﴾: حال من كاف الخطاب مؤكِّدة. وقيل: مفعول مطلق؛ أي: إرسالاً، ولا وجه له ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [٧٠].

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾

الشرح: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ...﴾ إلخ: طاعة الرَّسول ﷺ من طاعة الله، كما رأيت في الآية رقم [٥٩]، ومحبَّة الرسول من محبَّة الله عزَّ، وجل ـ لِمَا روي: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ أَحَبَّنِي؛**

فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ، ومَنْ أَطَاعَنِي؛ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ». فقال المنافقون: لقد قارف الشرك، وهو ينهى عنه، ما يريد إلا أن نتَّخذه ربّاً، كما اتخذت النَّصارى عيسى ربّاً. فنزلت الآية الكريمة.

﴿وَمَن تَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عن طاعته، وامتثال أمره؛ فقد خاب، وخسر. ﴿فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾: تحفظ أعمالهم، وتحاسبهم عليها، بل كِلْ أمرَهم إلى الله، فإنَّما عليك البلاغ، وعلينا الحساب. هذا؛ وحصل في الآية الكريمة التفاتٌ من الغيبة إلى الخطاب، انظر الالتفات في الآية رقم [٦٤].

هذا؛ وقال القرطبيُّ في غير هذا الموضع: وفي حديث: أنَّ النبي ﷺ قال: «**مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ ثَلاثٍ؛ فَرَّقَ اللهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَحْمَتِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: مَنْ قَالَ: أُطِيعُ الله، وَلَا أُطِيعُ الرَّسُولَ، واللهُ يقول:** ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، ومَنْ قَالَ: **أُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَلَا أُوتِي الزَّكَاةَ، وَاللهُ يَقُولُ:** ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، **وَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ شُكْرِ اللهِ، وَشُكْرِ وَالِدَيْهِ، وَاللهُ يَقُولُ:** ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾».

الإعراب: ﴿مَّن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُطِعِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى: ﴿مَّن﴾ تقديره: هو. ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: مفعول به. ﴿فَقَدۡ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿أَطَاعَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿مَّن﴾ أيضاً. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التَّعظيم، والجملة الفعلية في محلِّ جزم جواب الشرط، وخبر المبتدأ الذي هو: ﴿مَّن﴾ مختلف فيه، فقيل: جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المُرجَّح لدى المعاصرين، والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

(مَنْ): اسم شرط جازم. ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف في محلِّ جزم فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿فَمَآ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ما): نافية. ﴿أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿حَفِيظٗا﴾ أو بمحذوف حال منه، كان صفة له... إلخ، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط، هذا في الظاهر، وعند التأمُّل؛ يظهر لك: أنَّ الجواب محذوف، التقدير: ومن تولَّى؛ فلا يهمنَّك أمرُه. وعليه تكون جملة: (ما أرسلناك...) إلخ مفيدة للتعليل لا محلَّ لها.

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنۡ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ غَيۡرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾﴾

الشرح: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٞ﴾: نزلت في المنافقين، وذلك: أنَّ المنافقين كانوا يقولون باللِّسان لرسول الله ﷺ: آمنا بك، وصدَّقناك، فَمُرْنا بما تريد، فأمرنا، وشأننا، وحالنا طاعةٌ؛

أي: مطيعون لك. ﴿فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾: خرجوا مِنْ عندك. ﴿بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ﴾ أي: زورت خلاف ما قلت لها، وما قالت لك من القبول، وضمان الطَّاعة. والتبييت: إمَّا من البيتوتة؛ لأنَّ الأمور تُدَبَّر بالليل، أو مِنْ بيت الشِّعر، أو البيت المبني؛ لأنه يُسوَّى. ويُدبَّر. انتهى. بيضاوي.

وعبارة الخازن: التبييت: كلُّ أمر يُفعل بالليل، يقال: هذا أمرٌ مبيَّت: إذا دبر بليلٍ، وقضي بليل، قال تعالى في الآية رقم [١٠٨] الآتية: ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾. والمعنى: أنَّهم قالوا، وقدروا أمراً باللَّيل غير الذي أعطوك بالنَّهار من الطَّاعة. و﴿بَيَّتَ﴾: بدَّل، وغيَّر. قال الأسود بن عامر الطَّائي: [المتقارب]

وبَـيَّـتَ قَـوْلِـيَ عَـبْـدُ الْـمَـلِـيـكِ قَـاتَـلَـهُ اللهُ عَـبْـداً كَـفُـورا

وَإِنَّما خَصَّ الله طائفةً من المنافقين بالتبييت في قوله: ﴿مِّنْهُمْ﴾، وكلمة (مِنْ) للتبعيض؛ لأنَّه تعالى علم: أنَّ منهم مَنْ يبقى على كفره، ونفاقه، ومنهم مَنْ يرجع عنه، ويتوب، فخصَّ مَنْ يصرُّ على النفاق بالذِّكر. هذا؛ و﴿طَآئِفَةٌ﴾: جماعة من النَّاس، لا واحد لها من لفظها، مثل: فريق، ورهط، ونفر، وجمعها: طوائف.

﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ أي: يُسَجِّل في صحائفهم أعمالهم؛ ليجازيهم عليها، والمسجِّل هم الملائكة الموكلون بهم يسجِّلون أقوالهم، وأعمالهم، ونفاقهم، ومكرهم، وكيدهم. ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ أي: لا تعاقبهم يا محمد، ولا تحدِّث نفسك بالانتقام منهم، وخلِّهم في ضلالتهم، فأنا منتقمٌ منهم. وهذا قبل نزول قوله تعالى في سورتي (التوبة) و(التَّحريم): ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ...﴾ إلخ.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: فوض أمورك إلى الله كلَّها سيما في شأن المنافقين. فإنَّه يكفيك شرَّهم، ويدفع عنك ضرَّهم، وينتقم لك منهم إذا قوي أمر الإسلام، وقد صدق الله وعده؛ حيث فضحهم، وأظهر خبثَهم. اقرأ سورة (التوبة)؛ فإنَّك تجد فيها العجب العجاب. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي: ناصراً، ومعيناً لك عليهم.

هذا؛ و«التوكل» تفويض الإنسان الأمر إلى مَنْ يملك أمره، ويقدر على نفعه، وضرِّه. وقالوا: التوكل: مَنْ إذا دهمه أمر؛ لم يحاول دفعه عن نفسه بما هو معصيةٌ لله تعالى. فعلى هذا: إذا وقع الإنسان في محنةٍ، ثمَّ سأل غيره خلاصه منها؛ لم يخرج عن حدِّ التوكُّل؛ لأنَّه لم يحاول دفع ما نزل به عن نفسه بمعصية الله تعالى، وإنَّما هو من تعاطي الأسباب في دفع المحنة. وخذ ما يلي:

فعن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَوْ أَنَّكُمْ تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ؛ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصاً، وَتَروحُ بِطَاناً**». أخرجه الترمذيُّ. هذا؛ والفرق بين

التوكُّل، والتسليم، والتفويض، فيقال: التوكُّل: أن تسكن النفس إلى وعد الله، والتسليم: أن تكتفي بعلم الله تعالى، والتفويض: أن ترضى بحكم الله، عزَّ وجل. وقيل: التوكل: ألا تعصي الله من أجْل رزقك، ولا تطلب لنفسك ناصراً غيره، ولا لعملك شاهداً سواه. وخذ ما يلي:

فعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ: قال: قال رسول الله ﷺ: **«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ»** قالوا: ومن هم يا رسول الله ؟! قال: **«هُمُ الَّذِين لَا يَكْتَوونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**. فقام عُكَّاشة بن محصن ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسولَ الله! ادعُ الله أن يجعلني منهم. فقال: **«أَنْتَ مِنْهُمْ»**. فقام رجل آخر، فقال: يا رسولَ اللهِ! ادعُ اللهَ أن يجعلني منهم. فقال: **«سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»**.

الإعراب: (يَقُولُونَ): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿طَاعَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: أمرنا، وشأننا طاعةٌ، أو هو مبتدأ خبره محذوف، التقدير: منَّا طاعةٌ لك، وقرئ شاذّاً بالنَّصب على أنَّه مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: نطيع لك طاعةً، والجملة على الاعتبارين في محلِّ نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَيَقُولُونَ...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿لَا يَكَادُونَ...﴾ إلخ في الآية رقم [٧٨] وما بينهما اعتراض، والاستئناف ممكن. ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (إذا): ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبنيٌّ على السكون في محل نصب. ﴿بَرَزُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية في محلِّ جرٍّ بإضافة (إذا) إليها على القول المرجوح المشهور.

﴿مِنْ عِندِكَ﴾: متعلقان بما قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿بَيَّتَ﴾: فعل ماض. ﴿طَآئِفَةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محلَّ لها. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿طَآئِفَةٌ﴾. ﴿غَيْرَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلَّذِى﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر بالإضافة. ﴿تَقُولُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يحتمل أن يكون تقديره: أنت خطاباً للرَّسول ﷺ، وأن يكون تقديره: هي يعود إلى طائفة، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محلَّ لها، والعائد محذوف. التقدير: الذي تقوله. و(إذا) ومدخولها كلام مفرَّع، ومستأنف، لا محلَّ له.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿يَكْتُبُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. وإن اعتبرتها في محل نصب حال من: ﴿طَآئِفَةٌ﴾ فالرابط: الواو فقط، والأول أقوى. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية؛ فعلى الأولين مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: يكتب الَّذي، أو شيئاً يبيتونه. وعلى اعتبارها مصدريَّةً تؤوَّل مع ما بعدها بمصدر في محلِّ نصب مفعول به، التَّقدير: يكتب تبييتهم.

﴿فَأَعۡرِضۡ﴾: الفاء: حرف عطف على رأي مَنْ يجيز عطف الإنشاء على الخبر، وابن هشام يعتبرها للسببية المحضة، وأراها الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرط مقدر؛ أي: فإذا كان هذا حالهم، وشأنهم؛ فأعرض. (أعرض): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿عَنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب للشرط المقدَّر بـ «إذا» والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: انظر إعراب مثلها في الآية رقم [٧٠] وهي مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ٨٢﴾

الشرح: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ﴾: أي: يَتَفهَّمونه، فيعلمون: أنَّه من عند الله، ويعلمون ما أعدَّ الله لِلَّذين لم يتولَّوا عن الإسلام من الخير الكثير، والفضل العميم. أو المعنى: يتفكرون في مواعظه، وزواجره. وتدبُّر القرآن لا يكون إلا مع حضور القلب، وجمع الهمِّ وقت تلاوته، ويشترط فيه تقليل الغذاء مِنَ الحلال الصِّرف. والتدبير: أن يدبر الإنسان أمره، كأنَّه ينظر إلى ما تصير إليه عاقبته. ودلَّت هذه الآية، وقوله تعالى في سورة (محمَّد ﷺ): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾؟ على وجوب التَّدبُّر في القرآن؛ ليعرف معناه، وكان في هذا ردٌّ على فساد قول مَنْ قال: لا يؤخذ من تفسيره إلا ما ثبت عن النبي ﷺ، ومنع أن يُتأوَّل على ما يسوغه لسان العرب، وهذا قول الروافض، وقول مَنْ يجري مجراهم، ويتَّبع هواهم.

﴿وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ...﴾ إلخ؛ أي: لو كان القرآن من كلام البشر، كما يزعم الكفار؛ ﴿لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا﴾: تناقضاً في معانيه، وتبايناً في نظمه، وكان بعضه فصيحاً، وبعضه ركيكاً، وبعضه تصعب معارضته، وبعضه تسهل، ومطابقة بعض أخباره المستقبلة للواقع دون بعض، وموافقة الفعل لبعض أحكامه دون بعض؛ لنقصان القوَّة البشرية عن الكمال.

قال العلماء: إنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ احتجَّ بالقرآن، والتدبُّر فيه على صحَّة نبوَّة محمد ﷺ، والحجَّة في ذلك من ثلاثة أوجه: **أحدها**: فصاحته التي عجز الخلائق عن الإتيان بمثلها في أسلوبه. **الثاني**: إخباره عن الغيوب، وهو ما يُطلع الله تعالى نبيَّه ﷺ على أحوال المنافقين، وما يخفونه من مكرهم، وكيدهم، فيفضحهم بذلك، لا يعلمها إلا الله تعالى. **الثالث**: سلامته من الاختلاف، والتناقض.

هذا؛ ولا يدخل في هذا اختلاف ألفاظ القراءات، وألفاظ الأمثال، والدَّلالات، ومقادير السُّور، والآيات، وإنَّما أراد اختلاف التناقض، والتَّفاوت، لذا أنزل الله ـ عزَّ وجل ـ القرآن، وأمرهم بتدبُّره؛ لأنَّهم لا يجدون فيه اختلافاً في وصف، ولا ردَّاً له في معنىً، ولا تناقضاً، ولا كذباً فيما يُخْبَرُون به من الغيوب، وما يُسِرُّون.

هذا؛ والهمزة في قوله: ﴿أَفَلَا﴾ للإنكار، وهي في نية التأخير عن الفاء؛ لأنَّه حرف عطف، وكذا تُقَدَّم على الواو، وثُمَّ، تنبيهاً على أصالتها في التصدير، نحو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ...﴾ إلـخ. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ...﴾ إلـخ. ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦ...﴾ إلخ، وأخواتها تتأخَّر عن حروف العطف، كما هو قياس جميع أجزاء الجملة المعطوفة، نحو قوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ...﴾ إلخ، ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾. هذا مذهب سيبويه، والجمهور، وخالف في ذلكم جماعةٌ، أوَّلهم الزمخشري، فزعموا: أنَّ الهمزة في الآيات المتقدمة في محلِّها الأصلي، وأنَّ العطف على جملةٍ مقدَّرة بينها، وبين العاطف، فيقولون: التَّقدير في: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ...﴾ إلخ، ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾، ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾: أمكثوا، فلم يسيروا في الأرض؟ أَنُهْمِلكم فنضرب عنكم؟ أتؤمنون في حياته فإن مات، أو قتل. . .إلخ؟ ويضعف قولهم ما فيه من التكلُّف، وأنَّه غير مطَّرد في جميع المواضع. انتهى. مغني اللبيب بتصرُّف.

هذا؛ و(قرآن) مشتقٌّ من: قريت الماء في الحوض: إذا جمعته، فكأنَّه جمع فيه الحكم، والمواعظ، والآداب والقصص، والفروض، وجميع الأحكام، وكملت فيه جميع الفوائد الهادية إلى طريق الرَّشاد، وخذ قول عمرو بن كلثوم في معلَّقته رقم [١٢]: [الوافر]

ذِرَاعَيْ حُرَّةٍ(١) أَدْمَاءَ بِكْرٍ ... هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا

لم تقرأ جنيناً: لم تضمَّ، ولم تجمع في رحمها ولداً قَطُّ، وهو في اللُّغة مصدر بمعنى: الجمع، يقال: قرأت الشيء قرآناً: إذا جمعته، وبمعنى القراءة، يقال: قرأتُ الكتاب قراءةً، وقرآناً، ثمَّ نُقل إلى هذا المجموع المقروء المنزل على الرسول ﷺ، المنقول عنه بالتواتر فيما بين الدَّفتين، المتعبَّد بتلاوته، المبدوء بسورة الفاتحة، المختتم بسورة الناس. وهذا التعريف متفق عليه بين العلماء، والأصوليين. أنزله الله ليكون دستوراً للأمة، وهداية للخلق أجمعين، وليكون آيةً دالَّةً على صدق الرسول ﷺ، وبرهاناً ساطعاً على نبوته، ورسالته، وحجةً قائمةً إلى يوم الدين. تشهد: أنَّه تنزيل الحكيم الحميد، بل هو المعجزة الخالدة التي تهتدي بها الأجيال، والأمم على الأزمان، والدهور، ورحم الله أحمد شوقي؛ إذ يقول: [البسيط]

جَاءَ النَّبِيُّونَ بالآيَاتِ فَانْصَرَمَتْ ... وَجِئْتَنَا بِكِتَابٍ غَيْرِ مُنْصَرِمِ

آيَاتُهُ كُلَّمَا طَالَ الْمَدَى جُدُدٌ ... يَزِينُهُنَّ جَمَالُ الْعِتْقِ وَالْقِدَمِ

وللقرآن أسماءٌ عديدة، كلُّها تدلُّ على رفعة شأنه، وعلوِّ مكانته، وعلى أنَّه أشرف كتابٍ سماويٍّ على الإطلاق، فيسمَّى: القرآن، والفرقان، والتَّنزيل، والذِّكر، والكتاب، والنُّور،

---

(١) وفي روايةٍ: ذراعي عَيْطلٍ.

والهدى. . . إلخ، كما وصفه الله بأوصاف عديدة، منها: نور، وهدىً، ورحمةٌ، وشفاء، وموعظةٌ، وعزيز، ومباركٌ، وبشيرٌ، ونذيرٌ. . . إلى غير ذلك من الأوصاف الَّتي تُشْعِر بعظمته، وقدسيَّته، ويحرم على المحدث حدثاً أكبر قراءته، ومسَّه، وحمْلَه، وعلى المحدث حدثاً أصغر حَمْلَه، ومسَّه، ولا يمنع من قراءته عن ظهر غيب. قال تعالى: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وقال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [١٠٦]: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ وعلى اعتباره مصدراً جاء قول الشاعر مع اختلاف في قائله، والمُراد به: عثمان ـ رضي الله عنه ـ وهو الشَّاهد رقم [٣٩٩] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [البسيط]

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا

أي: قراءة. هذا؛ ولم يذكر بلفظه بسورة (البقرة) إلا في الآية رقم [١٨٥]، ولم يذكر في هذه السورة إلا في هذه الآية، ولم يذكر في سورة (آل عمران)، وإنَّما يكثر ذكره بما ذكرت لك من أسمائه، وصفاته، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿أَفَلَا﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري. الفاء: حرف عطف، أو حرف استئناف. (لا): نافية، ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله. ﴿ٱلْقُرْءَانَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها على الوجهين المعتبرين بالفاء. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف عطف. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود إلى القرآن، تقديره: هو. ﴿مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾، و﴿عِندِ﴾ مضاف، و﴿غَيْرِ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَوَجَدُوا۟﴾: اللام واقعة في جواب (لو). (وجدوا): فعل ماض وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب: (لو) لا محلَّ لها. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الأول. ﴿ٱخْتِلَٰفًا﴾: مفعول به ثان. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة له. و(لو) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف، لا محلَّ له على الاعتبارين.

﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ...﴾ إلخ، وذلك: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يبعث البعوث، والسَّرايا بالقتال للكفار، فإذا غلبوا، أو غُلِبُوا؛ بادر المنافقون يستخبرون عن حالهم، ثم يُشيعونه،

ويتحدَّثون به قبل أن يحدِّث به رسول الله ﷺ فيُضعفون به قلوب المؤمنين المقيمين في المدينة، فأنزل الله الآية الكريمة، ومعنى: ﴿أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾ جاءهم خبر بفتحٍ، وغنيمةٍ. ﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾ يعني: القتل، والهزيمة. ﴿أَذَاعُواْ بِهِۦ﴾: أفشوا ذلك الخبر، وأشاعوه بين النَّاس، يقال: أذاع السِّرَّ، وأذاع به: إذا أشاعه، وأظهره، قال أبو الأسود الدُّؤلي في وصف من هذه صفته: [الطويل]

أَمِنْتُ عَلَى السِّرِّ امْرَأً غَيْرَ حَازِمٍ ... وَلٰكِنَّهُ فِي النُّصْحِ غَيْرُ مُرِيبِ
أَذَاعَ بِهِ فِي النَّاسِ حَتَّى كَأَنَّهُ ... بِعَلْيَاءَ نَارٌ أُوقِدَتْ بِثُقُوبِ

﴿وَلَوْ رَدُّوهُ﴾ أي: الأمر الَّذي تحدَّثوا به، وأفشوه، وأذاعوه. ﴿إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ ﷺ حتى يتحدَّث به هو، ويذيعه؛ لكان خيراً لهم في الدُّنيا، والآخرة. ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ أي: ردُّوه إلى ذوي العقول، والرأي، والبصيرة بالأمور منهم، وهم كبار الصَّحابة، كالصِّديق، والفاروق، وعثمان، وعليٍّ، رضوان الله عليهم. وقيل: هم أمراء البعوث، والسَّرايا، وإنَّما قال: ﴿مِنْهُمْ﴾ على حسب الظاهر، ولأنَّ المُنافقين كانوا يظهرون الإيمان، فلذا قال: ﴿وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ أي: يستخرجون تدبيره بذكائهم، وفطنتهم، وتجاربهم، ومعرفتهم بأمور الحرب، وما ينبغي لها، ومكايدها، وهم العلماء الذين علموا ما ينبغي أن يُكتم من الأمور، وما ينبغي أن يُذاع منها، و(النَّبَطُ): الماء الذي يخرج من البئر أوَّل ما تُحفر، واستنباطه: استخراجه، فاستعير لِمَا يُخرجه الرَّجل بفضل ذكائه، وصفاء قريحته، وفطنته من المعاني، والتدبُّر فيما يعضل، ويهمُّ، يقال: استنبط الفقيه المسألة: إذا استخرجها باجتهاده، وفهمه.

وفي الآية دليلٌ على جواز القياس، وأنَّ من العلم ما يدرك بالنَّصِّ، وهو: الكتاب، والسنَّة، ومنه ما يدرك بالاستنباط، وهو القياس عليهما. ومعنى الآية: ولو أنَّ هؤلاء المنافقين، والمذيعين ردُّوا الأمر مِنَ الأمن، والخوف إلى الرَّسول ﷺ، وإلى أولي الأمر، وطلبوا معرفة الحال فيهم من جهتهم؛ لعلموا حقيقة ذلك منهم، وأنَّهم أولى بالبحث عنه، فإنَّهم أعلم بما ينبغي أن يذاع، أو يُكتم. ثمَّ في هذه الآية تأديبٌ لِمَنْ يُحَدِّث بكلِّ ما سمع، وكفى به كذباً، وافتراءً، وزوراً أن يحدِّث الإنسان بما سمع قبل تمحيصه، والتأكُّد من صحَّته. قال الرسول ﷺ: **«كَفَى بِالْمَرْءِ كَذِباً أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ»**. أخرجه مسلم في مقدِّمة صحيحه عن أبي هريرة، ـ رضي الله عنه ـ.

وفي مختصر ابن كثير: ولنذكُر هاهنا حديث عمر ـ رضي الله عنه ـ المتَّفق على صحَّته حين بلغه: أنَّ رسول الله ﷺ طلَّق نساءه، فجاء من منزله حتَّى دخل المسجد، فوجد النَّاس يقولون ذلك، فلم يصبر؛ حتى استأذن على النبيِّ ﷺ، فاستفهمه: أطلقتَ نساءك؟! فقال: **«لَا!»** فقلتُ:

الله أكبر، وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم، فقلت: أطلقتهنَّ؟! فقال: «لا!» فقمتُ على باب المسجد، فناديتُ بأعلى صوتي: لم يُطلِّق رسولُ الله ﷺ نساءه، ونزلتْ هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ...﴾ إلخ، فقال ـ رضي الله عنه ـ: فكنتُ أنا استنبطت ذلك الأمر. انتهى. وانظر الآية رقم [٥٩] ففيها بحثٌ جيِّدٌ. وقد استنبط الإمام عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ أنَّ أقلَّ مدَّة الحمل ستة أشهر من آية (البقرة): ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ...﴾ إلخ، ومن آية (الأحقاف): ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ أي: ولولا إحسانه، وكرمه ببعثة محمَّدٍ ﷺ، وإنزال القرآن، ورحمته، وعنايته بالتوفيق، والهداية. ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ أي: زخارفه، ووساوسه، وبقيتم على الكفر، والجهل، والضَّلالة. وما كنتم عليه من عبادة الحجارة والأوثان. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: اختلف في هذا الاستثناء وإلى ماذا يرجع؟ فأحسنُ ما قيل فيه: إنه راجع إلى اتِّباع الشيطان، وهو قول الضحَّاك، واختاره الزَّجاج، ومعلوم: أنَّ صرف الاستثناء إلى ما يليه، ويتَّصل به أولى من صرفه إلى الشيء البعيد. وتقديره: ولولا فضل الله عليكم، ورحمته؛ لاتبعتم الشَّيطان إلا قليلاً منكم، وهم قومٌ آمنوا، واهتدوا قبل مبعث النبيِّ ﷺ، مثل: زيد بن عمرو بن نفيل، وورقة بن نوفل، وقس بن ساعدة الإيادي. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف استئناف. (إذا): انظر الآية رقم [٨١]. ﴿جَآءَهُمْ﴾: فعل ماض، ومفعوله. ﴿أَمْرٌ﴾: فاعله والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على القول المرجوح المشهور. ﴿مِّنَ ٱلْأَمْنِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿أَمْرٌ﴾. ﴿أَوِ ٱلْخَوْفِ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿أَذَاعُوا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. وقيل: الباء زائدة، والضمير مجرور لفظاً، منصوب محلاً على أنَّه مفعول به، والأصل: أذاعوه، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محلَّ لها. و(إذا) ومدخولها كلامٌ مستأنفٌ لا محلَّ له. ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ﴾: انظر إعراب مثله في الآية السابقة. ﴿وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى﴾: جار ومجرور معطوفان على ما قبلهما، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ملحق بجمع المذكَّر السالم، وحُذفت النون للإضافة. و﴿أُو۟لِى﴾ مضاف. و﴿ٱلْأَمْرِ﴾: مضاف إليه. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ﴾. ﴿لَعَلِمَهُ﴾: اللام: واقعة في جواب (لو). (علمه): فعل ماض، ومفعوله. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعله، والجملة الفعلية جواب (لو) لا محلَّ لها، و(لو) ومدخولها معطوف على (إذا) ومدخولها، لا محلَّ له مثله. ﴿يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ﴾: مضارع مرفوع، وفاعله ومفعوله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما.

﴿وَلَوْلَا﴾: الواو: حرف عطف. أو استئناف. (لولا): حرف امتناع لوجود. ﴿فَضْلُ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار

ومجرور متعلقان بـ﴿فَضْلُ﴾. ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله، والخبر محذوف وجوباً، تقديره: موجود، والجملة الاسمية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية. ﴿لَٱتَّبَعْتُمُ﴾: اللام: واقعة في جواب (لولا). (اتبعتم): فعل وفاعل، والجملة الفعلية جواب (لولا) لا محلَّ لها، و(لولا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، أو هو مستأنف لا محلَّ له على الاعتبارين. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: منصوب على الاستثناء.

﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في مواعدة رسول الله ﷺ أبا سفيان موسم بدر الصُّغرى، بعد حرب أحدٍ، وذلك في ذي القعدة، فلمَّا بلغ الميعاد دعا رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، فكرهه بعضُهم فأنزل الله الآية. وانظر تفصيل ذلك في الآية رقم [١٧٢] من سورة (آل عمران) وما بعدها؛ تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك.

﴿فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء كلمته، ونصر دينه. ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ أي: لا تُلْزَم فعل غيرك، ولا تؤَاخَذ به، بل جاهد في سبيل الله ؛ ولو وحدَك، فإنَّ الله ناصرك بلا جنود، وقد وعدك النصر عليهم، وهو لا يُخلف الميعاد. فخرج رسول الله ﷺ في سبعين راكباً إلى بدرٍ الصُّغرى، فكفاهم الله القتال، ورجعوا سالمين، وعاتب الله مَنْ تخلف عن رسول الله ﷺ بهذه الآية على ترك الجهاد، والخروج معه. وفي الآية دليلٌ على أنَّ النبيَّ ﷺ كان أشجع الناس، وأعلمهم بأمور القتال، ومكايده؛ لأنَّ الله تعالى أمره بالقتال، ولو لم يكن أشجع الناس؛ لما أمره بذلك، كيف لا؛ وقد قال ﷺ: «**والله لأُقَاتِلَنَّهُمْ حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي**»؟! وموقفه في غزوة هوازن حينما هرب المسلمون، وثبت في مكانه، وهو يقول: «**أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابن عَبْدِ الْمُطَّلِبْ**». وقد قال عليُّ بن أبي طالبٍ ـ رضي الله عنه ـ: كُنَّا إذا اشتدَّ البأسُ؛ اتَّقَيْنا برسول الله ﷺ. كلُّ ذلك يشهد بشجاعته ﷺ.

ولقد اقتدى به الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ في قتال أهل الردَّة من بني حنيفة الَّذين منعوا الزَّكاة، وارتدَّ بعضُهم عن الإسلام، فعزم على الخروج إلى قتالهم وحدَه، فقال: والله لو خالفني يميني؛ لجاهدتهم بشمالي.

﴿وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: حُضَّهم على الجهاد، ورغِّبهم في الثواب، وليس عليك في شأنهم إلا التَّحريض، فحسب، لا التوبيخ، والتعنيف. هذا؛ والحَرَضُ: الفساد في البدن، وفي المذهب، وفي العقل، والرجل الفاسد: المريض، ومنه: الهُزال بسبب همٍّ، وغمٍّ. قال تعالى

حكاية عن قول أولاد يعقوب لأبيهم: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَؤُا تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾. والحضُّ، والتحريض: الحثُّ على الشَّيء بكثرةِ تزيينه، وتسهيله للإنسان. قال الله تعالى في سورة (الأنفال): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ إلخ.

﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَكُفَّ...﴾ إلخ: أي: يكف بطش الكافرين، وشدَّتهم، وهم قريش، وقد كفَّ الله بأسهم بالرُّعب، كما رأيت، فلم يخرجوا، و(عسى) في الأصل للترجِّي، ولكنَّها في جانب الله، وكرمه للتَّحقيق، والتأكيد، وهي هنا مُطمعة، والإطماع من الله عزَّ وجل واجب، على أنَّ الطَّمع قد جاء في كلام الربِّ على الوجوب، ومنه قوله تعالى في سورة (الشعراء) حكاية عن قول إبراهيم ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ وقال ابن مقبل: [الكامل]

ظَنِّي بِهِمْ كَعَسَى وَهُمْ بِتَنُوفَةٍ يَتَنَازَعُونَ جَوَائِزَ الأَمْثَالِ

﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا﴾ أي: صولة، وأعظم سلطاناً، وأشدُّ انتقاماً من أعدائه. ﴿وَأَشَدُّ تَنكِيلًا﴾: عقوبةً، وانتقاماً، ونكَّلت بالرَّجل تنكيلاً من النَّكال، وهو اسم ما يجعل عبرةً للغير، قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٦٦]: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقال تعالى في سورة (المائدة) رقم [٣٨]: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾. انظر شرح الآيتين في محلهما.

خاتمة: قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: إنْ قال قائل: نحن نرى الكفَّار في بأسٍ، وشدَّةٍ، وقلتم: إنَّ (عسى) بمعنى اليقين، فأين ذلك الوعد؟ قيل له: قد وجد هذا الوعد، ولا يلزم وجوده على الاستمرار والدَّوام، فمتى وجد؛ ولو لحظةً مثلاً؛ فقد صدق الوعد، فقد كفَّ الله بأس المشركين ببدرٍ الصُّغرى، وأخْلَفُوا ما كانوا عاهدوا الرَّسول ﷺ من الحرب، والقتال: ﴿وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾. ومثله ما حصل في غزوة الْحُدَيْبِيَةِ، وفي غزوة الأحزاب، وأخرج اليهود من ديارهم، وأموالهم بغير قتال المؤمنين لهم، مع أنَّه قد دخل من اليهود والنصارى العدد الكثير والجمُّ الغفير تحت الجِزية صاغرين، وتركوا المُحاربة داخرين، فكفَّ الله بأسهم عن المؤمنين. والحمد لله رب العالمين. انتهى بتصرف. وأقول: إنَّ الله يكف بأس الكافرين عن المؤمنين، وأمَّا المسلمون المنافقون المزيَّفون؛ فلا يكفُّ عنهم بأس الكافرين.

بعد هذا: في الآية الكريمة حضٌّ على الجهاد، والقتال في سبيل الله، كما قال الرسول ﷺ للمؤمنين في غزوة بدر، وهو يسوِّي الصفوف: «**قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ**». وقد وردت أحاديثُ كثيرة ترغِّب في ذلك، فمن ذلك ما رواه البخاريُّ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ آمَنَ بالله وَرَسُولِهِ، وأَقَامَ الصَّلاَةَ، وَآتَى الزَّكَاةَ، وَصَامَ رَمَضَانَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، هَاجَرَ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ جَلَسَ فِي أَرْضِهِ الَّتِي وُلِدَ**

فِيْهَا». قالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر النَّاس بذلك؟ فقال: «**إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِيْنَ فِي سَبِيلِ اللهِ؛ بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ. فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ؛ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ وَسَطُ الْجَنَّةِ، وَأَعْلَى الْجَنَّةِ، وَفَوْقَ عَرْشِ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تُفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ**».

الإعراب: ﴿فَقَٰتِلۡ﴾: الفاء: واقعة في جواب شرط مقدَّر، وهي التي تسمَّى الفصيحة، وتقدير الكلام: إذا كان الأمر كما ذكر مِنْ عدم طاعة المنافقين، وكيدهم، وتقصير الآخرين في مراعاة أحكام الإسلام؛ فقاتل أنت وحدك، غير مكترث بما فعلوا. وفي السَّمين: أنَّه معطوف على قوله: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ﴾. انتهى. جمل. (قاتِلْ): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت، ومفعوله محذوف؛ إن لم تعتبره لازماً. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُكَلَّفُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، ونائب الفاعل مستتر تقديره: أنت. وهو المفعول الأوَّل. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿نَفۡسَكَۚ﴾: مفعول به ثانٍ، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية: ﴿لَا تُكَلَّفُ...﴾ إلخ في محل نصب حال من الفاعل المستتر، والرابط: الضمير فقط. ﴿وَحَرِّضِ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. والجملة معطوفة على جملة: (قاتل...) إلخ لا محلَّ لها مثلها. ﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابةً عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنُّون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد.

﴿عَسَى﴾: فعل ماض جامد مبني على فتح مقدر على الألف للتعذر، وهو ناقص. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمه. ﴿أَن يَكُفَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ والمصدر المؤوَّل منهما في محل نصب خبر (عسى) وهو يؤوَّل باسم الفاعل؛ أي: كافّاً؛ لأنَّه لا يخبر عن (عسى) بمصدر إلا بتأويله. وفاعله يعود إلى (الله). ﴿بَأۡسَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿كَفَرُواْۚ﴾ صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿وَٱللَّهُ أَشَدُّ﴾: مبتدأ وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال مِنْ فاعل: ﴿يَكُفَّ﴾ المستتر، والرابط: الواو، وإعادة اللفظ الكريم للتفخيم. ﴿بَأۡسًا﴾: تمييز. ﴿وَأَشَدُّ﴾: معطوف على ما قبله. ﴿تَنكِيلًا﴾: تمييز. وجملة: ﴿عَسَى...﴾ إلخ مفيدة للتعليل لا محلَّ لها.

﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفۡلٌ مِّنۡهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾﴾

الشرح: (الشفاعة) هي التوسُّل، وابتغاء الخير، والذي يكون منه التوسُّل يُسَمَّى: الشَّفيع. والشَّفاعة الحسنة هي الَّتي روعي فيها حقُّ مسلم، ودُفع بها عنه شرٌّ، أو جُلِبَ إليه خيرٌ، وابتُغي بها وجه الله، ولم تُؤخذ عليها رشوة، وكانت في أمر جائزٍ، لا في حدٍّ من حدود الله، ولا في

حقٌّ من حقوق العباد. والسَّيِّئةُ: ما كانت بخلاف ذلك. وقيل: الشفاعة الحسنة، هي الدعوة للمسلم؛ لأنَّها في معنى الشفاعة إلى الله، فعن أم الدَّرداء ـ رضي الله عنها ـ قالت: حدَّثني سيدي: أنَّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا دَعَا الرَّجُلُ لأَخِيْهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ: وَلَكَ بِمِثْلِ ذَلِكَ**». رواه مسلم، وأبو داود.

وعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ جالساً، فجاء رجلٌ يسأل، فأقبل علينا بوجهه، وقال: «**اشْفَعُوا؛ تُؤْجَرُوا، وَيَقْضِي اللهُ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ مَا شَاءَ**». متَّفقٌ عليه.

هذا؛ و(الكفل): النصيب، قال تعالى في آخر سورة (الحديد): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ....﴾ إلخ. والشَّافع يؤجر فيما يجوز، وإن لم يُشَفَّعْ؛ لأنَّ الله تعالى قال: ﴿مَّن يَشْفَعْ﴾، ولم يقل: يُشَفَّعْ، ورحم الله من قال في الشُّكر على المعروف سلفاً: [البسيط]

لأَشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفاً هَمَمْتَ بِهِ ... إِنَّ اهْتِمَامَكَ بِالْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَلَا أَلُومُكَ إِنْ لَمْ يُجْرِهِ قَدَرٌ ... فَالشَّيءُ بِالْقَدَرِ الْمَقْدُورِ مَصْرُوفُ

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا﴾ أي: قادراً مقتدراً، قال الزُّبير بن عبد المطلب ـ ولم يدرك النبوة ـ: [الوافر]

وَذِي ضِغْنٍ نَفَيْتُ السُّوءَ عَنْهُ ... وَكُنْتُ عَلَى إِسَاءَتِهِ مُقِيتَا

أي: قديراً، فالمعنى: أنَّ الله تعالى يعطي كلَّ إنسان قُوته، ومنه قول النبيِّ ﷺ: «**كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمَاً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يُقِيتُ**» وفي روايةٍ: (مَنْ يَقُوتُ). رواه أبو داود، والنسائي، والحاكم عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ وأمَّا قول السَّموءل بن عادياء اليهودي: [الخفيف]

أَلِيَ الْفَضْلُ أَمْ عَلَيَّ إِذَا حُو ... سِبْتُ إِنِّي عَلَى الْحِسَابِ مُقِيتُ

فقال فيه الطبري: إنَّه من غير هذا المعنى المتقدِّم، وإنَّه بمعنى: الموقوف. هذا؛ وفي الآية الكريمة فن المقابلة، كما في الآية رقم [٧٦] وهذه من المحسِّنات البديعيَّة، وهي أن يؤتى بمعنيين، أو أكثر، ثمَّ يؤتى بما يُقابل ذلك على الترتيب. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿مَّن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَشْفَعْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى: ﴿مَّن﴾ تقديره: هو. ﴿شَفَٰعَةً﴾: مفعول مطلق. ﴿حَسَنَةً﴾: صفة: ﴿شَفَٰعَةً﴾. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص جواب الشرط مجزوم. ﴿لَّهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿يَكُن﴾ مقدَّم. ﴿نَصِيبٌ﴾: اسمه مؤخَّر. ﴿مِّنْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿نَصِيبٌ﴾ أو بمحذوف صفة له، وجملة: ﴿يَكُن...﴾ إلخ: لا محلَّ لها؛ لأنَّها

جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، أو «إذا» الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو ﴿مَّن﴾ مختلف فيه كما ذكرته لك مراراً، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها، والتي بعدها معطوفةٌ عليها. وإعرابُها مثلها بلا فارق. ﴿وَكَانَ﴾: الواو: حرف استئناف. (كان): فعل ماض ناقص. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ: (مقيت). و﴿كُلِّ﴾ مضاف، و﴿شَىْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿مُّقِيتًا﴾: خبر (كان) والجملة الفعلية مستأنفةٌ، لا محلَّ لها.

﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ﴾: التحية: تفعلة مِنْ: حييت، فالأصل: تَحْيِيَة، مثل: ترضِيَة، وتسْمِيَة: فأدغموا الياء في الياء، والتحيَّة: السلام، وأصل التَّحية: الدعاء بالحياة، والتحية: الملك، قال عمرو بن معدي كرب الزَّبيدي: [الوافر]

أَؤُمُّ بِـهَـا أَبَـا قَـابُـوسَ حَـتَّـى أُنِـيـخَ عَـلَـى تَـحِـيَّـتِـهِ بِـجُـنْـدِي

أراد على ملكه، وقال زهير بن جناب الكلبي: [مجزوء الكامل]

ولَـكُـلُّ مَـا نَـالَ الْـفَـتَـى قَـدْ نِـلْـتُـهُ إِلَّا الـتَّـحِـيَّـهْ

ونقل عن مالك، وأبي حنيفة ـ رحمهما الله تعالى ـ أنَّهما قالا: المراد بـ﴿حُيِّيتُم﴾: الهبة؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ رُدُّوهَآ﴾. والصحيح: أنَّ التحية هنا السَّلام، لقوله تعالى في سورة (المجادلة): ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾، وفي كثير من الآيات قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ وعلى هذا جماعة المفسرين، وإذا ثبت، وتقرَّر؛ ففقه الآية أن يقال: أجمع العلماء على أنَّ الابتداء بالسلام سنةٌ مرغَّب فيها، وردُّه فريضة لقوله تعالى: ﴿فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ﴾ والمعنى: إذا سلم عليكم أحدٌ بسلام؛ فردُّوا بأحسن منه، يزيد الراد: وبركاتُه، وإن قال المسلِّم: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) لا يزيد الرادُّ شيئاً بل يرد هذا الكلام بعينه فقط. قال الله مخبراً عن البيت الكريم في سورة (هود) على نبينا وحبيبنا وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ألف صلاة وألف سلام: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾. فإن انتهى بالسَّلام غايته زدت في ردِّك: الواو في أوَّل كلامك، فقلت: وعليك السلام ورحمة الله، وبركاته. والردُّ بالمثل أن يقول لِمَنْ قال: السلام عليك: عليك السَّلام. إلا أنَّه ينبغي أن يكون كلُّه بلفظ الجماعة؛ وإن كان المسلَّم عليه واحداً، ذكراً كان، أو أنثى، فإنَّ معه الملائكة، وكذلك الردّ يكون بلفظ الجمع، وكذلك يرد السلام بلفظ الجمع لمن قال له: فلان يقرئك السلام، أو قرأ رسالة فيها لفظ السلام عليكم؛ لأنَّ الكتاب من الغائب كالسَّلام من الحاضر. وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّه كان يرى ردَّ الكتاب واجباً، كما يرى ردَّ السلام.

بقي أن تعرف: أنَّه اختلف العلماء في البدء بالسَّلام على الكافر، والردِّ عليه، فجوز بعضهم ذلك، فقال النَّخعي ـ رحمه الله تعالى ـ إذا كانت لك حاجة عند يهوديٍّ، أو نصرانيٍّ، فابدأه بالسلام. فظهر بذلك: أنَّ قول النبي ﷺ، الَّذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «**لَا تَبْدَؤُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بالسَّلَامِ، وإِذَا لَقِيتُمْ أَحَدَهُمْ فِي طَرِيقٍ، فَاضْطَرُّوهُمْ إِلَى أَضْيَقِهِ**». رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدؤوهم بالسَّلام مِنْ قضاء ذِمامٍ، أو حاجةٍ تعرض لكم قبلهم، أو حق صحبةٍ، أو جوارٍ أو سفرٍ. . .إلخ.

قال الطبري ـ رحمه الله تعالى ـ: وقد روي عن السَّلف: أنَّهم كانوا يسلِّمون على أهل الكتاب. وفعل ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ بدهقان صحبه في طريقه، قال علقمة: فقلت له: يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أن يُبْدَؤوا بالسلام؟ قال: نعم، ولكن حقُّ الصحبة. وسئل الأوزاعيُّ عن مسلم مرَّ بكافرٍ، فسلَّم عليه؟ فقال: إن سلمت؛ فقد سلم الصَّالحون قبلك، وإن تركت؛ فقد ترك الصَّالحون قبلك. انتهى. قرطبي في غير هذا الموضع.

أقول: لم يتعرَّض للكلام في الردِّ عليهم أحد، وأذكر ما رواه أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ، فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ**». رواه الستَّة إلا النَّسائي، وهذا يعني: أنَّه لا يُردُّ عليهم السلام كاملاً، ولكن في هذا العصر كثر الاختلاط بهم، وتغيَّرت الأوضاع، كما هو معروف، ومعلوم، فإذا كان قد أجاز بعض العلماء بدأهم بالسَّلام كما رأيت، فردُّ السلام عليهم كاملاً؛ فهو جائزٌ بالأحرى، ولا سيَّما في هذا العصر الذي ضعفت فيه الرُّوحانية الإسلاميَّة عند كثيرٍ من المسلمين، وكذلك ما أصاب المسلمين مِنْ ضعفٍ، وهوانٍ في هذه الأيام، وإن أراد المسلم التبرئة من التَّبعة؛ فلينو بالردِّ عليهم، والسَّلام عليهم الملائكة الَّذين يكتبون أعمالهم، وتصرُّفاتهم في جميع أحوالهم، وكذلك ينوي المسلمين من الجنِّ الذين يكونون قريباً منهم. أقول هذا؛ والله وليُّ التوفيق. وأضيف: أنَّه لا يردُّ عليهم بالرَّحمة، والبركة، بل يكتفي بقوله: وعليكم السَّلام.

وينبغي أن تعلم لفظ: (السَّلام عليكم) تحية الإسلام، لم تعرفها العرب، ولا العالم كلُّه، وتحيَّة العرب كانت بألفاظ، مثل: أَنْعِمْ صَبَاحاً، أَنْعِمْ مَسَاءً، ونحو ذلك، ويروى: أنَّ أبا ذر ـ رضي الله عنه ـ لمَّا أتى النبي ﷺ، قال له: أَنْعِمْ صباحاً، فقال له ـ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه ـ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَنِي مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا**» فقال أبو ذرٍّ: ما هي؟ قال: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ**». ونهي الرَّسول ﷺ عن التشبُّه باليهود، و النَّصارى بالسَّلام، فقد رُوي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَشَبَّهَ بِغَيْرِنَا، لَا تَشَبَّهُوا بالْيَهُودِ، وَلَا بالنَّصَارَى، فَإِنَّ تَسلِيمَ الْيَهُودِ الإِشَارَةُ بِالأَصَابِعِ، وَإِنَّ تَسْلِيمَ النَّصَارَى بالأَكُفِّ**». رواه الترمذيُّ، والطبرانيُّ. وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**السَّلَامُ: اسمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ**

تَعَالَى وَضَعَهُ في الأرْضِ، فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ، فَإِنَّ الرَّجُلَ إِذَا مَرَّ بِقَوْمٍ، فسلَّمَ عليهم، فَرَدُّوا عَلَيْهِ؛ كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ فَضلُ دَرَجَةٍ بِتَذْكِيرِهِ إِيَّاهُمْ، فَإِنْ لَمْ يَرُدُّوا عَلَيْهِ؛ رَدَّ عَلَيْهِ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُمْ». رواه الطبرانيُّ والبزَّار.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: انظر الآية رقم [٨١]. ﴿حُيِّيتُم﴾: فعل ماض مبني للمجهول، مبني على السكون، والتاء نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿بِتَحِيَّةٍ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فَحَيُّوا﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (حيوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محلَّ لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿بِأَحْسَنَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وعلامة الجرِّ الفتحة نيابةً عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوعٌ من الصَّرف للصفة، ووزن أفعل. ﴿مِنْهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ(أحسن). ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿رُدُّوهَآ﴾: فعل، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة بأمر على جواب (إذا) لا محلَّ لها مثله. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿عَلَىٰ كُلِّ﴾: متعلقان بـ﴿حَسِيبًا﴾ و﴿كُلِّ﴾: مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿حَسِيبًا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفعٍ خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾﴾

الشرح: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ تقرير للوحدانية؛ لئلا يُتوهم: أنَّ في الوجود إلٰهاً آخر. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت في الذين شكُّوا في البعث، والحشر بعد الموت. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: ليحشرنَّكم بعد أن يخرجكم من قبوركم. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: هو الذي يخرج الناس فيه من قبورهم للحساب والجزاء، وأصل القيامة: القوامة؛ لأنَّها مِنْ قام يقوم؛ قُلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة مثل: الصِّيام، والسِّياط، ونحوهما. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِۗ﴾: لا شكَّ فيه، بل هو متحقق الوقوع، وتقول: رابني هذا الأمر، أي: أوقعني في ريبة، أي: في شكٍّ، وحقيقة الرِّيبة: قلق النفس، واضطرابها. قال الرسول ﷺ: **«دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ»**. أخرجه الترمذيُّ، والنَّسائيُّ عن الحسن بن عليٍّ، سبط رسول الله ﷺ، وريحانته ـ رضي الله عنهم ـ. وقد يستعمل الريب في التهمة، قال جميل بن معمر العُذري: [الطويل]

بُثَيْنَةُ قَالَتْ يَا جَمِيلُ أَرَبْتَنِي ... فَقُلْتُ كِلَانَا يَا بُثَيْنُ مُرِيبُ

واستعمل أيضاً في الحاجة، كما قال كعب بن مالك الأنصاري ـ رضي الله عنه ـ: [الوافر]

قَضَيْنَا مِنْ تِهَامَةَ كُلَّ رَيْبٍ وَخَيْرٍ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ أي: لا أحد أصدق من الله في إخباره، وَوعده، ووعيده؛ لاستحالة الكذب عليه لقبحه؛ لكونه إخباراً عن الشَّيء بخلاف ما هو عليه، فلا إله إلا هو، ولا ربَّ سواه.

هذا؛ وقوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ أي: للخلق أجمعين، وهذا في الأعيان، ويقال: أجمع الأمر: إذا عزم عليه، والأمر مُجْمَع، ويقال أيضاً: اجْمَعْ أمرك، ولا تدعه منتشراً. قال تعالى حكاية عن قول فرعون، وأشياعه: ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا﴾. ولا يقال: أجمع أعوانه، وشركاءه، وإنَّما يقال: جمع أعوانه، وشركاءه، وهذا مبنيٌّ على قاعدة: «يقال: أجمع في المعاني، وجمع في الأعيان». هذا هو الأكثر، والمستعمل، وقد يستعمل كلٌّ واحدٍ مكان الآخر، قال تعالى في سورة (طه): ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾ والله أعلمُ بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿لَآ﴾: نافية للجنس تعمل عمل: «إنَّ». ﴿إِلَٰهَ﴾: اسم: ﴿لَآ﴾ مبني على الفتح في محل نصب، والخبر محذوف تقديره: موجود. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر، لا محلَّ له. ﴿هُوَ﴾: فيه ثلاثة أوجه: أحدها: كونه بدلاً من اسم: ﴿لَآ﴾ على المحلّ؛ إذ محله الرَّفع على الابتداء. وثانيها: كونه بدلاً من: ﴿لَآ﴾ وما عملت فيه؛ لأنَّها وما بعدها في محل رفع بالابتداء. وثالثها: كونه بدلاً من الضمير المستكن في الخبر المحذوف، وهو الأقوى. والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ. ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾: اللام: واقعة في جواب قسم محذوف، تقديره: والله، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم (يجمعنكم): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التَّوكيد الثقيلة؛ التي هي حرف لا محلَّ له، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ والكاف مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب القسم المقدَّر، والقسم، وجوابه كلامٌ مستأنف لا محلَّ له، أو هو في محل رفع خبر ثان للمبتدأ، انظر آية الكرسي. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من كاف الخطاب، التقدير: مفضين. و﴿يَوْمِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: مضاف إليه. ﴿لَا﴾: نافية للجنس. ﴿رَيْبَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿فِيهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿لَا﴾. والجملة الاسمية في محل نصب حال مِنْ: ﴿يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ والرابط: الضمير فقط. وقيل: في محل صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: جمعاً لا ريب فيه. والجملة الاسمية: ﴿ٱللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَمَنْ﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم استفهام مفيد للنفي مبني على السُّكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَصْدَقُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ﴿حَدِيثًا﴾ أو بمحذوف حال منه، كان صفة، فلمَّا قُدِّم عليه؛ صار حالاً. ﴿حَدِيثًا﴾: تمييز، وانظر الآية رقم [١٢٢] فهو مثلُه.

﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾﴾

الشرح: اختلف العلماء في سبب نزول هذه الآية، فقد روى مسلمٌ عن زيد بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ قال: لمَّا خرج رسول الله ﷺ إلى أُحُدٍ؛ رجع ناسٌ ممَّن خرج معه، فكان أصحاب رسول الله ﷺ فئتين، قال بعضهم: نقتلُهم. وقال بعضهم: لا. فنزلت الآية، فقال ﷺ: «**إنَّها طَيْبَةُ، وإنَّها تَنْفِي الْخَبَثَ، كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الفِضَّة**». أخرجه البخاريُّ، ومسلم. والمعنيُّ بالمنافقين هنا عبدُ الله بن أبيّ، وأصحابُه الذين خذلوا رسول الله ﷺ يوم أُحُد، ورجعوا بعسكرهم بعد أن خرجوا. كما تقدَّم في (آل عمران).

وذكر أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبيه: أنَّها نزلت في قوم جاؤوا إلى المدينة، وأظهروا الإسلام، فأصابهم وباءُ المدينة، وحمَّاها. فأُركسوا، فخرجوا من المدينة، فاستقبلهم نفرٌ من أصحاب النَّبيِّ ﷺ، فقالوا: ما لكم رجعتم؟ قالوا: أصابنا وباء المدينة، فاجتويناها. فقالوا: أما لكم في رسول الله ﷺ أسوةٌ؟! فقال بعضُهم: نافقوا. وقال بعضهم: لم ينافقوا، هم مسلمون، فأنزل الله عزَّ وجل الآية الكريمة.

﴿وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾: ردَّهم إلى حكم الكفرة، أو نكسهم بأن صيَّرهم إلى النار بسبب عنادهم، ومعاصيهم، وحكى الفرَّاء: أركسهم، وركسهم؛ أي: ردَّهم إلى الكفر، ونكَّسهم، وقال النضر بن شميل، والكسائي: والركس، والنكس: قلب الشيء على رأسه، أو ردّاً له على آخره، والمركوس: المنكوس. قال أمية بن أبي الصَّلت ـ الذي آمن شعرُه، وأبى لسانُه ـ في وصف أهل النَّار: [البسيط]

فَأُرْكِسُوا فِي حَمِيمِ النَّارِ إِنَّهُمُ ... كَانُوا عُصَاةً وَقَالُوا الإِفْكَ وَالزُّورَا

﴿بِمَا كَسَبُوٓاْۚ﴾ أي: بسبب ما اكتسبوا من الأعمال الخبيثة. وقيل: بما أظهروا من الارتداد بعد أن كانوا على النِّفاق.

﴿أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ﴾: هذا خطاب للفئة الَّتي دافعت عن المنافقين. والمعنى: أتبتغون أيُّها المؤمنون هداية هؤلاء المنافقين الَّذين أضلَّهم الله عن الهُدى. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ يعني: عن الهدى. ﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾: فلن تجد له طريقاً إلى الهداية. وفي هذا ردٌّ على القَدرية، والمعتزلة القائلين بأنَّ العبد يخلق هدايته بنفسه، ولا تنسَ الالتفات من الغائب إلى الحاضر؛ أي: الخطاب.

هذا؛ والإضلال: خلق فعل الضَّلال في العبد. والهداية: خلق فعل الاهتداء في العبد. هذا هو الحقيقة عند أهل السنة، وقد يعترض بعض الناس على خلق فعل الضَّلال في العبد، فيقول:

إذاً لا مؤاخذة على العبد! والجواب: أنَّ معنى: خلق... إلخ. تقدير ضلاله، وهذا التقدير مبنيٌّ على علم الله الأزلي بأنَّ هذا العبد لو ترك وشأنه؛ لم يختر سوى الكفر، والضلال، ولذا قدَّره الله عليه. هذا بالإضافة إلى اختياره الضَّلال، بعد أن بيَّن الله الخير، والشر، والحسن، والقبيح، كما قال جلَّ ذكره، وتعالى شأنه: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: بيَّنا له طريق الخير، والشر. وانظر الآية رقم [٢٩] من سورة (الأعراف) فإنَّه جيد، والحمد لله!.

الإعراب: ﴿فَمَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (ما): اسم استفهام إنكاري توبيخي، مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر المبتدأ. ﴿فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ جار ومجرور متعلقان بـ﴿فِئَتَيْنِ﴾ أو بمحذوف حال منه، كان صفة له، فلمَّا قُدِّم عليه صار حالاً على القاعدة المشهورة «نعت النكرة... إلخ». ﴿فِئَتَيْنِ﴾: حال مِنَ الضَّمير المُسْتَكِنِّ في: ﴿لَكُمْ﴾، والعامل اسم الاستفهام لما فيه من معنى الفعل. هذا؛ وقد اعتبره الجلال خبر لـ: «صار» محذوفة، ولذا قدّر: ما شأنكم صرتم في المنافقين فئتين، والأوَّل أقوى، وانظر الآية رقم [٧٥] والجملة الاسمية: (ما لكم...) إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿أَرْكَسَهُم﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله) والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلِّقان بالفعل قبلهما. و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فهي مبنيَّةٌ على السُّكون في محل جرٍّ بالباء. ﴿كَسَبُوٓاْ﴾: فعل ماض، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة: (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو: بشيءٍ كسبوه. وعلى الثَّالث تؤوَّل مع الفعل بمصدرٍ في محل جر بالباء، التَّقدير: بكسبهم.

﴿أَتُرِيدُونَ﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري توبيخي. (تريدون): فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفةٌ، لا محلَّ لها. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿تَهْدُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤوَّل منهما في محل نصب مفعول به. ﴿مَنْ﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل نصب مفعول به، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: أن تهدوا الَّذي، أو: شخصاً أضلَّه الله.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُضْلِلِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والمفعول محذوف؛ إن لم تعتبر اسم الشرط مفعولاً مقدَّماً له، التقدير: يضلله الله. ﴿فَلَن﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لن): حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿تَجِدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ(لن) والفاعل مستتر

تقديره: أنت. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال مِنْ ﴿سَبِيلًا﴾ كان صفة له. . . إلخ. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به، وجملة: (لن تجد. . .) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه. فقيل: هو جملة الشرط. وقيل: جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح عند المُعاصرين. والجملة الاسمية: ﴿وَمَن...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ...﴾ إلخ؛ أي: تمنَّى، وأحبَّ المنافقون أن تكونوا مثلهم في الضَّلالة. ﴿فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾ أي: مثلهم، ومساوين لهم في الكفر، والفساد، والإفساد. ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ...﴾ إلخ؛ أي: لا تُوالوهم، ولا تُصادقوهم؛ حتَّى يؤمنوا الإيمان الكامل، ويحقِّقوا إيمانهم بالهجرة، والجهاد في سبيل الله. ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ عن الإيمان، والهجرة في سبيل الله. ﴿فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ...﴾ إلخ؛ أي: خذوهم أسارى، واقتلوهم إن شئتم في أيِّ مكانٍ وجدتموهم في حلٍّ، أو حرم. ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ...﴾ إلخ: تأكيد لِمَا قبله، والمعنى: لا تستنصروهم، ولا تستنصحوهم، ولا تستعينوا بهم في أمرٍ مِنَ الأمور، ولو بذلوا لكم الولاية، والنُّصرة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

هذا؛ والهجرة على أنواع: الأولى: هجرة المؤمنين في أوَّل الإسلام من مكَّة المكرَّمة إلى المدينة المنورة. الثانية: هجرة مَنْ لم يُهاجر مع رسول الله ﷺ في سبيل الله مخلصين محتسبين. والهجرة الثالثة: هجرة المؤمنين ما نهى الله عنه، فقد قال سيد الخلق وحبيب الحق ﷺ: «**وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ**». وهناك هجرةُ الظالمين، والفاسدين المفسدين.

هذا؛ و: ﴿سَوَآءً﴾ مصدر بمعنى الاستواء، فلذا صحَّ الإخبار به عن متعدِّد. وقيل: هو بمعنى: مستوٍ، وهو لا يُثنَّى، ولا يُجمع. قالوا: هم، وهما سواءٌ، فإذا أرادوا لفظ المثنَّى قالوا: سيّان، وإن شئت قلت: سواءان، وفي الجمع: هم أسواء، وهذا كلُّه ضعيف، ونادر. وأيضاً على غير القياس: هم سواسٍ، وسواسية، أي: متساويان، ومتساوون. هذا؛ ويأتي بمعنى: الوسط، كما في قوله تعالى في سورة (الصافات) رقم [٥٥]: ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾. ويأتي بمعنى: العدل، كما في قوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٥٨]: ﴿فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ

عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾. و﴿سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾: ما استقام منه، كما في قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٠٨]: ﴿وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وسواء الجبل: ذروته. وسواء الشيء: غيره. قال الأعشى: [الطويل]

تَجَانَفُ عَنْ جَوِّ الْيَمَامَةِ نَاقَتِي ... وَمَا عَدَلَتْ عَنْ أَهْلِهَا لِسَوَائِكَا

هذا؛ وانظر الكلام على ﴿حَيْثُ﴾ في كتابنا: «فتح القريب المجيب».

الإعراب: ﴿وَدُّواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتَّفريق. ﴿لَوْ﴾: مصدرية تؤوَّل مع ما بعدها بمصدرٍ في محلِّ نصبٍ مفعول به، التقدير: ودوا كفركم. ﴿تَكْفُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، والواو فاعله، والمتعلق محذوف. ﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماض، وفاعله، والألف للتفريق. و(ما) والفعل: ﴿كَفَرُواْ﴾ في تأويل مصدر في محل جرٍّ بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمصدر محذوف يقع مفعولاً مطلقاً، التقدير: لو تكفرون كفراً مثل كفرهم، وانظر: ﴿كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ في الآية رقم [٧٧] ﴿فَتَكُونُونَ﴾: فعل مضارع ناقص مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو اسمه. ﴿سَوَآءً﴾: خبره، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿فَلَا﴾: الفاء: هي الفصيحة. (لا): ناهية. ﴿تَتَّخِذُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ كان صفة له، فلما قُدِّم عليه صار حالاً. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول به، وجملة: ﴿فَلَا تَتَّخِذُواْ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب شرط مقدَّر بـ «إذا» التقدير: إذا كان حالهم ما ذكر؛ فلا تتخذوا... إلخ. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف جر وغاية. ﴿يُهَاجِرُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ«أن» مضمرةً بعد: ﴿حَتَّىٰ﴾ وعلامة نصبه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع، في تأويل مصدر في محل جر بـ ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿تَوَلَّوْاْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدّر على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع واو الجماعة، التي هي فاعله في محل جزم فعل الشرط، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَخُذُوهُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (خذوهم): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والجملة في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد، والتي بعدها معطوفة عليها. ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب

متعلق بما قبله. ﴿وَجَدتُّمُوهُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون، لاتصاله بتاء الفاعل المتحركة، والميم علامة جمع الذكور، وحرِّكت بالضم لتحسين اللَّفظ، فتولَّدت واو الإشباع، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محلِّ جرٍّ بإضافة: ﴿حَيْثُ﴾ إليها. ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾: إعرابها مثل إعراب سابقتها، وهي مؤكِّدة لها.

﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ﴾إلخ: هذا الاستثناء يرجع إلى القتل، والأخذ، لا الموالاة، فإنَّها لا تجوز بحالٍ من الأحوال مع الإصرار على الكفر. والمعنى: إلا الذين يتَّصلون، وينتهون إلى قوم قد حصل بينكم وبينهم معاهدة، ومهادنة، فإنَّهم داخلون في عهدكم أيضاً، واجعلوا حكمهم كحكمهم. واختلف في هؤلاء الذين كان بينهم وبين النبي ﷺ ميثاق، فقيل: بنو مدلج، فعن الحسن البصري، قال: كان بينهم وبين قريش عقد، وكان بين قريش وبين رسول الله ﷺ عَهْد. وقال عكرمة: نزلت في هلال بن عويمر، وسراقة بن مالك بن جُعْشُم، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف، كان بينهم وبين النبيِّ ﷺ عهد. وفي هذه الآية دليلٌ على إثبات المهادنة، والموادعة بين المسلمين، والمشركين؛ إذا كان في ذلك مصلحة للمسلمين.

﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ...﴾ إلخ: هؤلاء قوم آخرون من المستثنيين من الأمر بقتالهم، وهم الذين يجيئون إلى مواطن القتال، وهم حصرةٌ صدورُهم؛ أي: ضيقة صدورهم، مبغضين أن يقاتلوكم، ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم، بل هم: لا لكم، ولا عليكم. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾: يذكر الله منَّته على المسلمين بكف بأس المعاهدين، وذلك لِمَا ألقى الرُّعب في قلوبهم، وكفَّهم عن قتالهم. ومعنى التسليط هنا: تقوية قلوبهم على قتال المسلمين، ولكن قذف الله الرُّعب في قلوبهم، وكفَّهم عن قتال المسلمين. وتسليط الكافرين على المسلمين: هو أن يُقدرهم على ذلك، ويُقوِّيهم عليهم؛ إمَّا عقوبة، ونقمة عند إشاعة المنكرات، وظهور المعاصي، كما قال تعالى في سورة (محمَّد ﷺ): ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ وإمَّا تمحيصاً للذنوب، كما قال تعالى في سورة (آل عمران): ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. ولله أن يفعل ما يشاء، ويسلِّط مَنْ يشاء على مَنْ يشاء إذا شاء.

﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾: فإن لم يتعرَّضوا لكم بقتالٍ، وابتعدوا عنكم. ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ﴾ أي: انقادوا، واستسلموا، ولم يتعرَّضوا لكم بسوءٍ. ﴿فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾

يعني: بالقتل، والقتال. بعد هذا فوجه النظم، واتصال الكلام بما قبله: أي: اقتلوا المنافقين الَّذين اختلفتم فيهم إلا أن يهاجروا، وإلا أن يتَّصلوا بمن بينكم وبينهم ميثاق، فيدخلون فيما دخلوا فيه، فلهم حكمهم، وإلا الَّذين جاؤوكم قد حَصِرَتْ صدورهم عن أن يقاتلوكم، أو يقاتلوا قومهم، فدخلوا فيكم؛ لا تقتلوهم.

تنبيه: ما ورد في الآية الكريمة منسوخٌ بآية السيف الآمرة بقتالهم، سواءٌ قاتلوا، أو لم يقاتلوا، وسواءٌ التجؤوا إلى المعاهدة، أو لا، وذلك لأنَّ الله لمَّا أعزَّ الإسلام وأهله؛ أمر أن لا يقبل الرَّسول ﷺ من مشركي العرب إلا الإسلام، أو القتل، بل ولا يقبل منهم جزيةً. وقيل: المراد بالَّذين حصرت صدورهم: الجماعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المُشركين مُكرهين، كالعبَّاس ـ رضي الله عنه ـ ولهذا نهى النبيُّ ﷺ يومئذٍ عن قتل العباس، وأمر بأسره.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب على الاستثناء من الضمير المنصوب في قوله: (خذوهم واقتلوهم). ﴿يَصِلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿إِلَىٰ قَوْمٍ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدَّم، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَبَيْنَهُم﴾: ظرف مكان معطوف على سابقه، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِّيثَٰقٌ﴾: مبتدأ، مؤخر، والجملة الاسمية في محل جر صفة ﴿قَوْمٍ﴾. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿جَآءُوكُمْ﴾: ماض وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصِّلة، لا محلَّ لها مثلها. ﴿حَصِرَتْ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿صُدُورُهُمْ﴾: فاعله، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الضمير فقط، وهي على تقدير «قد» قبلها. وقيل: لا محلَّ لها، وهي دعاء عليهم. وقيل غير ذلك، والمعتمد الحالية، ويؤيِّده قراءة: (حَصِرَةً صدُورُهم)، و(حَصِراتٍ صُدُورُهُمْ). ﴿أَن﴾: حرف مصدر، ونصب. ﴿يُقَٰتِلُوكُمْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعول به، و﴿أَن﴾ والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: عن قتالكم، وعن قتال قومهم، أو المصدر في محل جرٍّ بإضافة مفعول لأجله محذوف، التقدير: كراهة قتالكم، وقتال قومهم.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف استئناف. (لو): حرف لِمَا كان سيقع لوقوع غيره. ﴿شَآءَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله محذوف، تقديره: شاء الله تسليطهم عليكم. والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿لَسَلَّطَهُمْ﴾: اللام: واقعة في جواب (لو). (سلطهم): فعل ماض، والهاء مفعوله، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾، والجملة الفعلية جواب (لو) لا محلَّ لها، و(لو) ومدخولها كلام مستأنف، لا محلَّ له. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة: (لقاتلوكم): معطوفة على جواب (لو) لا محلَّ لها مثلها.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿ٱعۡتَزَلُوكُمۡ﴾: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو فاعله، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَلَمۡ﴾: الفاء: حرف عطف. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يُقَٰتِلُوكُمۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ (لم) وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿وَأَلۡقَوۡاْ﴾: الواو: حرف عطف. (ألقوا): فعل ماض مبني على الألف المحذوفة لالتقائها ساكنة مع الواو التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿إِلَيۡكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلسَّلَمَ﴾: مفعول به. ﴿فَمَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (ما): نافية. ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور. و(إن) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿لَكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال مِنْ: ﴿سَبِيلٗا﴾ كان صفةً له... إلخ. ﴿سَبِيلٗا﴾: مفعول به.

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأۡمَنُوكُمۡ وَيَأۡمَنُواْ قَوۡمَهُمۡ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴿٩١﴾﴾

الشرح: ﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ...﴾ إلخ: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: هم بنو أسد، وغطفان، كانوا من حاضري المدينة، فتكلَّموا بكلمة الإسلام رياءً؛ وهم غير مؤمنين، وكان الرَّجل منهم يقول له قومه: بماذا آمنت؟ يقول: آمنت بهذا القرد، والعقرب، والخنفساء. وإذا لقوا المسلمين؛ قالوا: إنا على دينكم، يريدون الأمن من الفريقين. وفي روايةٍ أخرى عن ابن عباس: أنَّها نزلت في بني عبد الدار، وكانوا بهذه الصِّفة. وهذه روايةٌ ضعيفةٌ؛ لأنَّ بني عبد الدار كانوا مقيمين في مكَّة المكرمة، ولما آمنوا يوم الفتح؛ لم يظهر منهم نفاق. وانظر الآيات التي ذكرها الله في صدر سورة (البقرة) عن المنافقين، وأقوالهم، وأفعالهم، وخداعهم.

﴿كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلۡفِتۡنَةِ﴾: كلَّما دُعوا إلى الشِّرك. ﴿أُرۡكِسُواْ فِيهَاۚ﴾: رجعوا إلى الشرك، وانقادوا إليه منكوسين على رؤوسهم. وانظر ﴿أَرۡكَسَهُم﴾ في الآية رقم [٨٨]. ﴿فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ﴾ يعني: فإن لم يكفُّوا عن إيذائكم، ويبتعدوا عنكم. ﴿وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ﴾ أي: ينقادوا إليكم ظاهراً، وباطناً، ويخضعوا لأحكام دينكم، وشريعتكم. ﴿وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ﴾ أي: عن قتالكم، وإيذائكم. ﴿فَخُذُوهُمۡ﴾ أي: أَسْرَى. ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ﴾: حيث وجدتموهم، وتمكَّنتم منهم. ومثله في سورة (البقرة) رقم [١٩٠]. هذا؛ والثَّقف في الأصل: الحِذْق في إدراك الشيء

علماً كان، أو عملاً، فهو يتضمَّن معنى الغلبة، يقال: ثَقِفَ، يَثْقُفُ ثَقْفاً. ويقال: رجل ثَقِفٌ لَقِفٌ أي: خفيفٌ حاذقٌ، إذا كان محكماً لما يتناوله من الأمور، فالفعل من باب ظرف، يظرف، ويأتي من باب طَرِب. قال الشَّاعر: [الوافر]

فَــإِمَّــا تَــثْــقَــفُــونِــي فَــاقْــتُــلُــونِــي فَــمَــنْ أَثْــقَــفْ فَــلَــيْــسَ إِلَــى خُــلُــودِ

﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾: الإشارة إلى المنافقين المخادعين. ﴿جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: حجة واضحة لظهور عداوتهم، وانكشاف حالهم في الكفر، والغدر، وإضرارهم بالمسلمين، أو تسلطاً ظاهراً؛ حيث أذنَّا لكم في قتلهم. هذا؛ و(سلطان): تسلُّط، وولاية، ويأتي بمعنى الحجَّة، والبرهان كما هنا، وكما في قوله تعالى: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾. ويأتي بمعنى الكتاب، قال تعالى في سورة (الرُّوم) رقم [٣٥]: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ﴾. وقال بعض المحقِّقين: سمِّيت الحجَّة سلطاناً؛ لأنَّ صاحب الحجَّة يقهر من لا حجَّة له، كالسُّلطان يقهر غيره بقوَّته. وقال الزجَّاج: السُّلطان: هو الحجَّة، وسمِّي السلطان سلطاناً؛ لأنَّه حجَّة الله في أرضه. ولا تنسَ ما قاله عثمان ـ رضي الله عنه ـ: «**إِنَّ اللهَ لَيَزَعُ بِالسُّلْطَانِ مَالَا يَزَعُ بِالْقُرْآنِ**». أي: يكفُّ عن المعاصي، ويروِّع. وجمعه بمعنى الحاكم: سلاطين، ولا يجمع إذا كان بمعنى الحجَّة، والبرهان. هذا؛ وزعم الفرَّاء: أنَّ العرب تؤنِّث السُّلطان، فتقول: قضت به عليك السُّلطان، أمَّا البصريُّون؛ فالتذكير عندهم أفصح، وبه جاء القرآن الكريم، والتأنيث عندهم جائز؛ لأنَّه بمعنى الحجَّة. هذا؛ والسُّلطان: ما يدفع به الإنسان عن نفسه أمراً يستوجب به عقوبةً، كما قال تعالى حكاية عن قول سليمان ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ في حقِّ الهدهد: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ رقم [٢١] من سورة (النَّمل).

هذا؛ و(مبين) اسم فاعل من: أبان الرُّباعي، أصله: مُبْيِن، بسكون الباء، وكسر الياء، فنقلت كسرة الياء إلى الباء بعد سلب سكونها؛ لأنَّ الحرف الصَّحيح أولى بالحركة من حرف العلَّة، ولا تنس: أنَّ اسم الفاعل من: بان الثلاثي، بائن، أصله: بَايِن، فقلبت الياء ألفاً؛ لتحرُّكها، وانفتاح ما قبلها، ولم يعتدَّ بالألف الزائدة؛ لأنَّها حاجز غير حصين، فالتقى ساكنان: الألف الزائدة، والألف المنقلبة، فأبدلت الثانية همزة، فصار: بائن، وقل مثله في إعلال: قائل، وقائم.

هذا؛ وقال مكيُّ بن أبي طالب القيسيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في التركيب: ﴿فَإِن لَّمْ﴾: دخلت (إنْ) على: ﴿لَّمْ﴾ ليرتدَّ الفعل إلى أصله في لفظه، وهو الاستقبال؛ لأنَّ (لَمْ) تردُّ لفظ المستقبل إلى معنى المضي، و(إنْ) تردُّ الماضي إلى معنى الاستقبال، فلمَّا صارت ﴿لَّمْ﴾ ولفظ المستقبل بعدها بمعنى الماضي؛ ردَّتها (إنْ) إلى الاستقبال؛ لأنَّ (إنْ) تردُّ الماضي إلى معنى الاستقبال في غير هذا الموضع.

الإعراب: ﴿سَتَجِدُونَ﴾: السين: حرف تنفيس، واستقبال، وهو مفيد للتَّحقيق هنا. (تجدون): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله. ﴿ءَاخَرِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوضٌ من التنوين في الاسم المفرد. ﴿يُرِيدُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَأْمَنُوكُمْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعول به، والمصدر المؤوَّل من: ﴿أَن﴾ والفعل بعدها في محل نصب مفعول به، وجملة: ﴿يُرِيدُونَ...﴾ إلخ في محل نصب صفة: ﴿ءَاخَرِينَ﴾ وإذا اعتبرنا ﴿ءَاخَرِينَ﴾ صفة لموصوف محذوف، التقدير: قوماً آخرين، فجملة: ﴿يُرِيدُونَ...﴾ إلخ تصلح لأنّ تكون صفة ثانية لهذا المحذوف، ولأن تكون حالاً منه لوصفه بـ﴿ءَاخَرِينَ﴾. ﴿وَيَأْمَنُواْ﴾: فعل مضارع معطوف على ما قبله منصوب مثله، ومؤوَّل مثله بمصدر. ﴿قَوْمَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿سَتَجِدُونَ...﴾ إلخ مستأنفة.

﴿كُلَّ مَا﴾: انظر الآية رقم [٥٦]. ﴿رُدُّوٓاْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق، و(ما) والفعل ﴿رُدُّوٓاْ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بإضافة (كل) إليه، التقدير: كل وقت رد، وهذا التقدير وهذه الإضافة هما اللذان سببا الظرفية لـ: ﴿كُلَّ﴾. ﴿إِلَى ٱلْفِتْنَةِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿أُرْكِسُواْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب: ﴿كُلَّ مَا﴾ لا محلَّ لها. ﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و﴿كُلَّ مَا﴾ ومدخولها كلامٌ مستأنفٌ، لا محلَّ له.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَعْتَزِلُوكُمْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾ وهو فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعوله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي، والفعلان: (يلقوا) و(يكفوا) معطوفان على فعل الشرط مجزومان مثله. ﴿إِلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أَيْدِيَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿فَخُذُوهُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (خذوهم): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد، وجملة: ﴿وَٱقْتُلُوهُمْ﴾ معطوفة على ما قبلها. ﴿حَيْثُ﴾: ظرف مكان مبني على الضم في محل نصب متعلّق بما قبله. ﴿ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون، والتاء فاعله، والميم علامة جمع الذكور، وحرِّكت بالضم لتحسين اللَّفظ، فتولَّدت واو الإشباع، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿حَيْثُ﴾ إليها، و(إنْ) ومدخولها كلامٌ مفرَّع عمَّا قبله، ومستأنف لا محلَّ له.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكُمْ﴾: الواو: حرف استئناف. (أولئكم): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف: حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿جَعَلْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الأول. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما أيضاً، ويجوز اعتبارهما متعلِّقين بمحذوف حال مِنْ: ﴿سُلْطَٰنًا﴾ كان صفة له، فلما قُدِّم عليه صار حالاً، على القاعدة. . .إلخ ﴿سُلْطَٰنًا﴾: مفعول به. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له، وجملة: ﴿جَعَلْنَا...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (أولئكم. . .) إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في عيَّاش بن أبي ربيعة المخزومي، وذلك: أنَّه أتى رسول الله ﷺ، وهو بمكَّة قبل الهجرة، فأسلم، ثمَّ خاف أن يُظهِر إسلامه لأهله، فخرج هارباً إلى المدينة، وتحصَّن في أطم مِنْ آطامها. والأطم: الحصن، فجزعت أمُّه لذلك جزعاً شديداً، وقالت لابنيها: الحارث، وأبي جهل، وهما أخوا عيَّاش لأمِّه: والله لا يُظلُّني سقفٌ، ولا أذوق طعاماً، ولا شراباً حتى تأتياني به، فخرجا في طلبه، وخرج معهما الحارث بن زيد بن أنيسة، حتَّى أتوا المدينة، فأتوا عياشاً، وهو في الأطم، فقالوا له: انزل، فإنَّ أمَّك لم يؤوها سقفٌ بعدك، وقد حلفت لا تأكل، ولا تشرب حتَّى ترجع إليها، ولك عهد الله علينا ألا نكرهك على شيءٍ يحول بينك وبين دينك! فلمَّا ذكروا له جزع أمه، وأوثقوا له العهد بالله نزل إليهم. فأخرجوه من المدينة، وأوثقوه بنسعةٍ، وجلده كلُّ واحدٍ منهما مئة جلدة، ثم قَدِموا به على أمِّه، فلمَّا أتاها؛ قالت: لا أحلك مِنْ وثاقك حتَّى تكفر بالذي آمنت به! ثمَّ تركوه موثقاً في الشَّمس ما شاء الله، فأعطاهم الَّذي أرادوا، فأتاه الحارث بن زيد، فقال: يا عياش! أهذا الذي كنت عليه؛ لئن كان هدىً؛ لقد تركت الهدى، ولئن كان ضلالة؛ لقد عكفت عليها، فغضب عيَّاش ـ رضي الله عنه ـ من مقالته، وقال: والله لا ألقاك خالياً إلا قتلتُك! ثمَّ إنَّ عيّاشاً ـ رضي الله عنه ـ رجع إلى إسلامه، وهاجر، وأسلم الحارث بن زيد أيضاً، وهاجر إلى رسول الله ﷺ ولم يعلم عيَّاش بإسلامه، فبينما عياش ـ رضي الله عنه ـ يسير بظهر قُباء؛ إذ لقي الحارث، فقتله، فقال له الناس:

ويحك يا عياش! أيُّ شيءٍ فعلت؟ إنَّه قد أسلم، فرجع عياش إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله ! إنَّه كان من أمري وأمر الحارث ما قد علمت، وإنِّي لم أشعر بإسلامه؛ حتَّى قتلتُه، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ...﴾ إلخ. وفي مختصر ابن كثير: أنَّ عياشاً ـ رضي الله عنه ـ قتل الحارث يوم فتح مكَّة.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾: ما صحَّ له، ولا استقام، وما ينبغي. والتعبير بهذين اللفظين ونحوهما معناه: الحظر، والمنع، فيجيء لحظر الشيء، والحكم بأنّه لا يجوز، كما في هذه الآية، ومثلها كثير، وربما كان امتناع ذلك الشَّيء عقلاً، كقوله تعالى في سورة (النَّمل): ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآ﴾. وربما كان العلم بامتناعه شرعاً، كما في قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٧٩]، وقوله تعالى في سورة (الشُّورى) رقم [٥١]: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا...﴾ إلخ. وربما كان في المندوبات، كما تقول على سبيل التوبيخ: ما كان لك يا فلان أن تتركَ صلاة الصبح، والعشاء في الجماعة، ونحو ذلك. ﴿أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا﴾ أي: عمداً بدون موجب لقتله. ﴿إِلَّا خَطَـًٔا﴾ أي: في حال خطئه.

هذا؛ وقيل: الخطأ على أنواع: منها: أن يقصد الإنسان شيئاً، كعصفور مثلاً، فيصيب إنساناً، لا يقصد قتله. ومنها: أن يرمي كافراً، فيصيب مسلماً. ومنها: أن يرمي شخصاً يظنُّه كافراً، فإذا هو مسلم، كالذي فعله عياش ـ رضي الله عنه ـ. ومنها: أن يقتل صبيٌّ كبيراً. وألحق بعضهم بها شبه العمد، وهو أن يضربه بما لا يقتل غالباً. ومنها: نوم الأم على ولدها حتَّى يموت، وهي لا تعلم بذلك، وحوادث السَّيارات في هذه الأيام تعدُّ من القتل خطأً(١).

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا﴾ أي: في أيِّ نوع من الأنواع المذكورة: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ...﴾ إلخ: أي: يجب على الذي يقتل مؤمناً خطأً أن يعتق عبداً مؤمناً كفارةً لِمَا فعل، وذلك بعد دفع الدِّية لأولياء القتيل. هذا؛ والتَّحرير: الإعتاق، وعبِّر بالرَّقبة عن الإنسان مِنْ إطلاق الجزء على الكلِّ، وانظر شرح (أهل) في الآية رقم [٥٨].

﴿إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ﴾ أي: يعفو ورثة القتيل عن الدِّية، أو عن بعضها، وانظر الآية رقم [١٧٨] من (سورة (البقرة)). هذا؛ والدِّية على العاقلة(٢)، أي: على أقرباء القاتل، وأمَّا الكفارة فهي على القاتل نفسه. هذا؛ وتقسم دية القتيل على ورثته، كما تقسم أمواله، فقد ورَّث النَّبيُّ ﷺ

---

(١) أقول: إن لم يكن السَّائق قد خالف أنظمة المرور المعدَّة للسلامة العامة، ويكون القتل في مثل هذا الحال شبه عمد لا خطأ.

(٢) الدِّية في قتل الخطأ على العاقلة، أمَّا في قتل شبه العمد فعلى القاتل نفسه مغلظةً، وذلك عند بعض الفقهاء، وهو المرجَّح. والله أعلم.

امرأة أشيم الضبابي مِنْ عَقْلِ زوجها ـ أي: ديته ـ و﴿يَصَّدَّقُواْ﴾ أصله: يتصدقوا، فقلبت التاء صاداً، وأدغمت الصَّاد في الصَّاد.

هذا؛ وقد سمَّى الله العفو عن الدِّية، أو عن بعضها صدقةً؛ حثّاً عليه، وتنبيهاً على فضله. هذا؛ والدِّية: ما يجري عليها الاتفاق في العملة النَّقدية المتداولة في كل قُطرٍ من أقطار الدُّنيا، ولا يلتفت لمن يتبجَّح، ويذكر أنَّ الدية مئة جمل، فإنَّه لا وجود لمئة جملٍ في هذه الأيام، ويُضرب بفتواه عرض الحائط.

﴿فَإِن كَانَ﴾ أي: القتيل خطأً. ﴿مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ...﴾ إلخ: وهم كفرة، والمقتول مؤمن؛ فيجب على القاتل إعتاق عبد مؤمن، وهذا يحصل ويكون بإسلام حربيٍّ في بلاده، ولم يهاجر إلينا. فقتله مسلمٌ خطأً، أي: لا يعرف إيمانه، فيجب فيه الكفارة بقتله للعصمة المؤثِّمة، وهي الإسلام، ولا تجب الدِّية؛ لأنَّ العصمة المقومة بدخول دار المسلمين، ولم توجد. وسقطت الدية لوجهين: أحدهما: أنَّ أولياء القتيل كفَّار، فلا يصحُّ أن تدفع إليهم الدِّيَة، فيتقووا بها علينا. والثاني: أنَّ حرمة هذا الذي آمن، ولم يهاجر قليلةٌ، فلا دية له، لقوله تعالى في سورة (الأنفال) رقم [٧٢]: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَـٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ﴾. ومن القتل الخطأ ما تراه في الآية رقم [٩٤] الآتية وقصَّة أسامة ـ رضي الله عنه ـ فيها.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ أي: وإن كان المقتول ذمِّيّاً؛ أي: معاهداً، أو داخلاً بأمانٍ؛ فحكمه حكم المسلم في دفع الدية لورثته، والكفَّارة. قاله ابن عباس، والشَّعبيُّ، والنَّخعي، والشَّافعيّ، واختاره الطبريُّ، وأجمع العلماء على أنَّ دية المرأة على النِّصف من دية الرجل، من أجل أن لها نصف ميراث الرَّجل، وشهادة امرأتين بشهادة رجلٍ، وهذا إنَّما هو في دية الخطأ. وأمَّا العمد؛ ففيه القِصاص بين الرِّجال، والنساء. انظر الآية رقم [١٧٨] من سورة (البقرة).

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: لم يجد الرقبة، وهي في هذه الأيام مفقودة حسّاً، وشرعاً، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: فعليه، أو: فالواجب صيام شهرين متتابعين، فلو أفطر يوماً في آخر الشهرين بغير عذر شرعيٍّ؛ استأنف الصيام. ﴿تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: قبولاً من الله، ورحمةً منه، أي: حيث خفَّف بدفع الدية، ولم يشدِّد عليكم بالقِصاص. أو المعنى: جعل الله ذلك مغفرةً لقاتل الخطأ، وإنَّما مسَّت حاجة المخطئ إلى التَّوبة، والمغفرة؛ لأنَّه لم يتحرَّز، وكان من حقِّه أن يتحفَّظ، ومنه قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾.

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: ولا يزال في أزله، وأبده. ﴿عَلِيمًا﴾: بجميع المعلومات، وأمور العباد: سرِّها، وجهرها. ﴿حَكِيمًا﴾: فيما قضى، وحكم، وأوجب، وأبرم.

تنبيه: من وجبت عليه كفارة القتل، وعجز عن الصَّوم؛ فهل ينتقل عنه إلى الإطعام، فيطعم ستين مسكيناً؟ ففيه قولان: أحدهما: أنَّه ينتقل إلى الإطعام، كما في كفارة الظِّهار، والوطء في رمضان. والثاني: أنَّه لا ينتقل؛ لأنَّ الله تعالى لم يذكر له بدلاً، فقال: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فنصَّ على الصَّوم، وجعل ذلك عقوبةً لقتل الخطأ، والله أعلم. انتهى خازن، وقرطبي.

أقول: وإذا انتقل إلى الإطعام، وهو الأولى؛ فليفهم معنى الإطعام، وقوله تعالى في كفارة اليمين في سورة المائدة: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ رقم [٨٩]، ولا يأخذ بقول مَنْ يفتي بإعطاء المسكين مدَّ قمح، فيعتبر المسكين حمامةً، أو دجاجةً، وقال تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ فأين مدُّ القمح في هذه الأيام من كسوة المِسْكين؟ فليتَّق أولئك المشايخ الله، وليعملوا بنصِّ الآيات القرآنية الصَّريحة الواضحة.

بعد هذا و(دية) أصله: ودْي؛ لأنَّه من وَدَى يَدي، فحذفت فاء المصدر، وعوض عنه التاء في الآخر، مثل: زنة، وعِدة، و«عدو» ضدُّ الصديق، وهو على وزن فعول بمعنى فاعل، مثل: صبور، وشكور. وما كان على هذا الوزن يستوي فيه المذكر، والمؤنث، والمفرد والمثنّى، والجمع، إلا لفظاً واحداً جاء نادراً، قالوا: هذه عدوة الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ الآية رقم [٦] من سورة (فاطر) فقد عبَّر به، عن مفرد، وفي هذه الآية عبَّر به عن جمع، ومثل ذلك: صديق، أي: في إتيانه لفظ واحد للمفرد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث، وجمع عدو: أعداء، وأعادٍ، وعُدات، وعدىً. وقيل: أعادٍ جمع: أعداء، فيكون جمع الجمع، وفي القاموس المحيط: والعدا بالضمِّ، والكسر: اسم الجمع. هذا؛ وسمِّي العدو عدواً؛ لعدوه عليك عند أول فرصةٍ تسنح له للإيقاع بك، والقضاء عليك، كما سمِّي الصديق صديقاً؛ لصدقه فيما يدَّعيه لك من الألفة، والمحبَّة، والمودَّة.

أمَّا «قوم» فإنَّه اسم جمع، لا واحد له من لفظه، مثل: نفر، ورهط، ومعشر، فإنَّ المفرد لهذه الأسماء: رجل، وجمعها: أقوام، وأنفار، وأراهط. هذا؛ و«قوم» يطلق على الرجال دون النساء، بدليل قوله تعالى في سورة (الحجرات): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾، وقال زهير بن أبي سلمى: وهو الشاهد رقم [٥٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

وَمَا أَدْرِي ـ وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي ـ أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

وربما دخل فيه النساء على سبيل التَّبع للرِّجال، كما في إرسال الرُّسل لأقوامهم؛ إذ إنَّ كلَّ لفظ: (يا قوم) في القرآن الكريم، إنَّما يراد به الرِّجال، والنِّساء جميعاً، كما في هذه الآية الكريمة، وهو يُذكَّر، ويؤنث، قال تعالى في غير ما آية: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وتأنيثه باعتبار

المعنى، وهم أنَّهم أمة، وطائفة، وجماعةٌ، وسُمُّوا: قوماً؛ لأنَّهم يقومون مع داعيهم بالشَّدائد، والمتاعب، إما بالمعاونة على كشفها، وإما بالمضايقة، والإيذاء؛ إن عارضوه، وهذا حال أعداء الخير، والإصلاح في كلِّ زمانٍ، ومكان.

هذا؛ وأمَّا (صيام) ففعل المادة وَاوِيٌّ: صَامَ، يَصُوم، ومصدره: صَوْم، وصِيام، وقد قلبت الواو ياء في الثاني لمناسبة الكسرة، ومثله: قيام مصدر: قام: يقوم، فقد ذكر السُّيوطي ـ رحمه الله تعالى ـ في كتابه: «همع الهوامع» في باب الإبدال ما يلي: تبدل الياء بعد كسرة من واو، هي عين مصدر لفعل معتل العين، موزون بفِعال نحو: قام قياماً، وعاد، عياداً، بخلاف عين غير المصدر كصِوان وسِواك، والمصدر المفتوح أوله، كرَواحٍ، أو المضموم، كقُوار، أو المكسور أوله، الذي لم تعلَّ عين فعله، كـ «لاوذ، لِواذاً، وعاد، عِواداً» أو الموزون، بفَعَل كالحَوَل، وتبدل أيضاً بعد كسرة مِنْ واو، هي جمع لواحد ساكن العين، أو معتلها، صحيح اللام موزون بفِعال، كثوب، وثِياب، وحوض، وحِياض، ودار، ودِيار، وريح، ورِياح، بخلاف عين المفرد. انتهى.

وأمَّا «الشهر» ففيه لأهل اللغة قولان: أشهرها: أنَّه اسم لمدة الزَّمان الذي يكون مبدؤها الهلال ظاهراً إلى أن يستتر، سمِّي بذلك؛ لشهرته في حاجة النَّاس إليه في المعاملات، وغيرها. والثاني قاله الزجَّاج: أنَّه اسم للهلال نفسه، ويجمع على: أشهر، وشهور.

الإعراب: ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): نافية. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدم. ﴿أَن يَقْتُلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾، والمصدر المؤوَّل منهما في محلِّ رفع اسم: ﴿كَانَ﴾ مؤخر. هذا؛ وإن اعتبرت ﴿كَانَ﴾ تامة، فالمصدر يكون فاعلاً بها، والجار والمجرور متعلقان بها. ﴿مُؤْمِنًا﴾: مفعول به. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿خَطَـًٔا﴾: حال من فاعل: ﴿يَقْتُلَ﴾ المستتر بمعنى: مخطئاً، أو هو صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: إلا قتلاً خطأً. وقال مكيٌّ ـ رحمه الله تعالى ـ: استثناء منقطع، وقال الزمخشري ـ رحمه الله تعالى ـ: مفعول لأجله، وجملة: ﴿وَمَا كَانَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَمَن﴾: الواو حرف عطف، أو استئناف. (مَنْ): اسم شرط مبني على السكون في محل رفع مبتدأ، ﴿قَتَلَ﴾: فعل ماض مبني على الفتح في محلِّ جزمٍ فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: «هو». ﴿مُؤْمِنًا﴾: مفعول به. ﴿خَطَـًٔا﴾: صفة مفعول مطلق، أو حال من الفاعل المستتر. ﴿فَتَحْرِيرُ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (تحرير): مبتدأ خبره محذوف، التقدير: فعليه تحرير، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالواجب تحرير. و(تحرير) مضاف، و﴿رَقَبَةٍ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. ﴿مُّؤْمِنَةٍ﴾: صفة رقبة،

والجملة الاسمية في محلّ جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها، وخبر المبتدأ الذي هو (مَن) مختلف فيه، كما ذكرته لك مراراً. هذا؛ وإن اعتبرت (مَنْ) اسماً موصولاً، فهي مبتدأ، والجملة الفعلية بعدها صلتها، والجملة الاسمية: فعليه، أو: فالواجب تحرير رقبة في محل رفع خبره، ودخلت الفاء على الخبر؛ لأنَّ الموصول يشبه الشرط في العموم، والجملة الاسمية على الاعتبارين لا محلَّ لها، إن اعتبرتها مستأنفة، أو معطوفة على ما قبلها. ﴿وَدِيَةٌ﴾: معطوف على: (تحرير). ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾: صفة: (دية). ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦٓ﴾: متعلقان بـ(مسلمة)، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿أَن يَصَّدَّقُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤوَّل منهما في محل نصب حال مستثنىً من عموم الأحوال؛ أي: عليه ما ذكر في كلِّ حال إلا في حال تصدُّق أهل القتيل، فلا يجب شيءٌ. وقال مكي: استثناء منقطع؛ لأنَّه ليس من جنس ما قبله. وقيل: المصدر المؤول في محلِّ جرٍّ بإضافة «حين» إليه محذوفة، التقدير: إلا حين تصدقهم على القاتل، و«حين» على هذا متعلِّقة بـ﴿مُّسَلَّمَةٌ﴾.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف تفريع واستئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، واسمه ضمير مستتر يعود إلى القتيل. ﴿مِن قَوۡمٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾. ﴿عَدُوٍّ﴾: صفة ﴿قَوۡمٍ﴾. ﴿لَّكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿عَدُوٍّ﴾ وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ لا محل لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿وَهُوَ﴾: الواو: واو الحال. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿مُؤۡمِنٞ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل نصب حال من اسم كان المستتر، والرابط الواو والضمير، وإن اعتبرتها معترضة؛ فلا محلَّ لها، وجملة: ﴿فَتَحۡرِيرُ...﴾ إلخ في محل جزم جواب الشرط. وإعرابها مثل إعراب سابقتها بلا فارق، و(إن) ومدخولها كلام مفرَّع عمَّا قبله مستأنف لا محلَّ له.

﴿وَإِن كَانَ مِن قَوۡمِۭ﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدَّم، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَبَيۡنَهُم﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مِّيثَٰقٞ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل جر صفة: ﴿قَوۡمِۭ﴾. هذا؛ وإن اعتبرت الظرف (بين) متعلقاً بمحذوف صفة: ﴿قَوۡمِۭ﴾، و﴿مِّيثَٰقٞ﴾ فاعلاً بمتعلقه، فهو وجهٌ صحيح لا غبار عليه. ﴿فَدِيَةٞ...﴾ إلخ: إعرابه مثل إعراب سابقه بلا فارق مع ملاحظة التقديم والتأخير في الكلمات. و(إن) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، لا محلَّ له مثله.

﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَجِدۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَّمۡ﴾ وهو فعل

الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) والمفعول محذوف، التقدير: فعليه صيام، أو هو خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فالواجب صيام، والجملة في محلِّ جزم جواب الشرط، وخبر المبتدأ الذي هو (من) على اعتباره شرطاً، أو موصولاً تقدَّم مثله آنفاً، و(صيام) مضاف، و﴿شَهۡرَيۡنِ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿مُتَتَابِعَيۡنِ﴾: صفة: ﴿شَهۡرَيۡنِ﴾، والجملة الاسمية: ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿تَوۡبَةً﴾: حال من القاتل المكفِّر عن فعله، أو هو مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: فليتب توبةً. وقال أبو البقاء، ومكيٌّ: مفعول لأجله. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ﴿تَوۡبَةً﴾ أو بمحذوف صفة لها، وجملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا ﴿٩٣﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة في مِقْيَس بن ضبابة الكناني، وكان قد أسلم هو وأخوه هشام، فوجد أخاه هشاماً قتيلاً في محلَّة بني النجار، فأخبر بذلك النبي ﷺ فكتب له إليهم يقول: إن علمتم قاتل هشام بن ضبابة؛ فادفعوه إلى أخيه مِقْيَسپ ليقتصَّ منه، وإن لم تعلموه؛ فادفعوا إليه دية أخيه، وكان الرَّسول ﷺ قد أرسل مع مِقْيَس رجلاً من بني فهر، فقال بنو النجار: سمعاً وطاعةً لله ولرسوله، والله ما نعلم قاتلاً، ولكنَّا نؤدي إليه دية أخيه، فأعطوه مئة من الإبل، وانصرف مِقْيَس، والفهري راجعين نحو المدينة، فأتى الشيطان مِقْيَساً، فوسوس إليه، فقال له: تقبل دية أخيك لتكون عليك سبَّةً، اقتل الفهري الذي معك، فتكون نفس مكان نفس، وفضل الدية لك، فتغفل الفهري، فرماه بصخرة فقتله، ثم ركب بعيراً، وساق بقيتها راجعاً إلى مكَّة كافراً، وقال في ذلك: [الطويل]

قَتَلْتُ بِهِ فِهْراً وَحَمَّلْتُ عَقْلَهُ ... سُرَاةَ بَنِي النَّجَارِ أَرْبَابَ فَارِعِ
حَلَلْتُ بِهِ وِتْرِي وَأَدْرَكْتُ ثَوْرَتِي ... وَكُنْتُ إِلَى الأَصْنَامِ أَوَّلَ رَاجِعِ

فارع: حصن بالمدينة. فقال رسول الله ﷺ: «**لَا أُؤَمِّنُهُ فِي حِلٍّ وَلَا حَرَمٍ**» وأمر بقتله يوم فتح مكة، وهو متعلِّق بأستار الكعبة.

هذا؛ والقتل ثلاثة أنواع: قتل الخطأ، وقد ذكر في الآية السابقة، وقتل شبه العمد، وهو متردِّد متوسِّط بين الخطأ والعمد، فالضرب مقصود والقتل غير مقصود به، فيسقط القود، وتغلَّظ الدية، وتلزم الكفارة، وبمثل ذلك جاءت السنَّة المطهَّرة. فقد روى أبو داود من حديث عبد الله بن

عمرو ـ رضي الله عنهما ـ أنَّ رسول الله ﷺ قال: **«أَلَا إِنَّ دِيَةَ الْخَطَأ شِبْهِ الْعَمْدِ مَا كَانَ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا مِئَةٌ مِنَ الإِبْلِ، مِنْهَا أَرْبَعُونَ فِي بُطُونِهَا أَوْلادُها»**. ورَوى الدارقطني عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«العَمْدُ قَوَدُ الْيَدِ، وَالْخَطأُ عَقْلٌ لَا قَوَدَ فِيْهِ، وَمَنْ قَتَلَ فِي عِمِّيةٍ بِحَجَرٍ، أَوْ عَصَا، أَوْ سَوْطٍ، فَهُوَ دِيَةٌ مُغَلَّظَةٌ فِي أَسْنَانِ الإِبْلِ»**. وروى أيضاً من حديث سليمان بن موسى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه ـ رضي الله عنه ـ، قال: قال رسول الله ﷺ: **«عَقْلُ شِبْهِ الْعَمْدِ مُغَلَّظٌ مِثْلُ الْعَمْدِ، وَلَا يُقْتَلُ صَاحِبُهُ»**. وقال الإمام أحمد: العِمِّيُّ: هو الأمر الأعمى للعصبية لا تستبين ما وجهه.

أمَّا العمد بأن يقصد قتله بما يقتل غالباً، عالماً بإيمانه، فيجب فيه القود، والكفارة في ماله على المتعمِّد، وكان مالك، والشافعي ـ رضي الله عنهما ـ يريان على قاتل العمد الكفارة، كما في الخطأ، قال الشَّافعي ـ رضي الله عنه ـ: إذا وجبت الكفارة في الخطأ؛ فلأن تجب في العمد أولى، وقال: إذا شُرِع السُّجود في السهو؛ فلأن يشرع في العمد أولى. وقيل: إنَّ القاتل عمداً، إنَّما تجب عليه الكفارة إذا عفي عنه فلم يقتل، فأمَّا إذا قتل فلا تؤخذ مِنْ ماله، ومن قتل نفسه فعليه الكفارة في ماله، أقول: وهذا يحملنا حينئذٍ على الانتقال من الصِّيام إلى الإطعام؛ لأنَّ من قتل قوداً، أو قتل نفسه تعذَّر صيامه. وقد احتجَّ مَنْ ذهب إلى وجوب الكفارة في قتل العمد بما رواه الإمام أحمد رحمه الله تعالى:

عن واثلة بن الأسقع ـ رضي الله عنه ـ قال: أتى النبيَّ ﷺ نفرٌ من بني سليم، فقالوا: إنَّ صاحباً لنا قد أوجب: (أي: فعل فعلاً يوجب له النار) فقال ﷺ: **«فَلْيَعْتِقْ رَقَبَةً يَفْدِي اللهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهَا عُضْوَاً مِنْهُ مِنَ النَّارِ»**.

هذا واختلفوا في الجماعة يقتلون الرَّجل خطأً، أو عمداً، أو شبه عمد، فقالت طائفة: على كلِّ واحدٍ منهم الكفارة، كذلك قال الحسن، وعكرمة، والنَّخعي، والحارث العكلي، ومالك، والثوري، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، وأصحاب الرأي، وقالت طائفة: عليهم كلِّهم كفارةٌ واحدةٌ، ويتصوَّر قتل الجماعة رجلاً خطأً في الجماعة يرمون بالمنجنيق، فيقتلون رجلاً، وأقول: لم يذكر أحدٌ الواحدَ يقتل الجماعة خطأً، كما يقع في حوادث السَّيارات في هذه الأيام، فأقول وبالله التوفيق: إنَّه يجب كفارة لكلِّ واحدٍ، كما تجب ديةٌ لكلِّ واحدٍ.

بعدما تقدَّم فالآية الكريمة تذكر: أنَّ جزاء قاتل غيره عمداً الخلودُ في جهنَّم، وغضبُ الله عليه، ولعنةُ الله عليه، والعذاب العظيم المعدُّ له يوم القيامة. وهذا تهديدٌ شديدٌ، ووعيدٌ أكيدٌ لِمَنْ تعاطى هذا الذَّنب العظيم، الذي هو مقرون بالشِّرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، وأمَّا الأحاديث الشَّريفة في تحريم القتل؛ فكثيرةٌ جدّاً، فمن ذلك ما يلي:

عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَوَّل مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»**. رواه الستَّة إلا أبا داود.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**» قيل: يا رسول الله! وما هنَّ؟ قال: «**الشِّرْكُ باللهِ، والسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ الْمُؤْمِنَاتِ**». رواه البخاريُّ، ومسلم، وغيرهما.

وعن البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلى اللهِ مِنْ قَتْلِ مُؤْمِنٍ بِغَيْرِ حَقٍّ**». رواه ابن ماجه. وزاد الأصبهاني فيه: «**وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ سَمَوَاتِهِ، وأَهْلَ أَرْضِهِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ؛ لأَدْخَلَهُمُ اللهُ النَّارَ**».

وروى ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة، ويقول: «**مَا أَطْيَبَكِ، وَمَا أَطْيَبَ رِيحَكِ، مَا أَعْظَمَكِ، وَمَا أَعْظَمَ حُرْمَتَكِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَحُرْمَةُ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ حُرْمَتِكِ، مَالِهِ، وَدَمِهِ**».

وعن أبي سعيد، وأبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمواتِ وَأَهْلَ الأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ؛ لأَكَبَّهُمُ اللهُ فِي النَّارِ**». رواه الترمذيُّ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُسْلِمٍ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ؛ لَقِيَ الله مَكْتُوباً بَيْنَ عَيْنَيهِ: آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**». رواه ابن ماجه، والأصبهاني.

وعن عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهِداً لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ**[1]**، وإِنَّ رِيْحَهَا يُوجَدُ مِنْ مَسِيْرَةِ أَرْبَعِينَ عَاماً**». رواه البخاري، وغيره.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَرَدَّى مِنْ جَبَلٍ، فَقَتَلَ نَفْسَهُ فَهُوَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ يَتَرَدَّى فِيهَا خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً، وَمَنْ تَحَسَّى سُمّاً، فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَسُمُّهُ في يَدِهِ يَتَحَسَّاهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيْهَا أَبَداً، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِحَدِيدَةٍ فَحَدِيدَتُهُ فِي يَدِهِ يَجأ بِهَا فِي بَطْنِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِداً مُخَلَّداً فِيهَا أَبَداً**». رواه الشيخان.

بعد هذا فهل لقاتل المؤمن عمداً توبةٌ؟ فيه خلاف. والمعتمد: أنَّ له توبةً، وهو ما عليه الجمهور مِنْ سلف الأمة، وخَلَفِها: أنَّ القاتل له توبةٌ فيما بينه وبين الله عزَّ وجل، فإن تاب، وأناب، وخشع، وخضع، وعمل صالحاً بدَّل الله سيئاته حسناتٍ، وعوَّض المقتول من ظُلامته، وأرضاه عن ظُلامته، قال تعالى في سورة الفرقان: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا﴾ وهذا خبر لا يجوز نسخُه. وقال تعالى في سورة (الزُّمر): ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ

---

(١) أي: لم يشمَّ رائحة الجنة. (نهاية).

ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ...﴾ إلخ، وهذا عامٌّ في جميع الذنوب، فكلُّ مَنْ تاب؛ تابَ الله عليه. وفي هذه السُّورة قبل الآية التي الكلام فيها وبعدها قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. وثبت في الصَّحيحين خبر الإسرائيلي الذي قتل مئة نفس، ثمَّ سأل عالماً: هل له من توبة؟ فقال: وَمَنْ يَحول بينك وبين التوبة؟ والحديث مشهورٌ مسطور، وإذا كان هذا في بني إسرائيل؛ فلأن يكون في هذه الأمَّة التوبة مقبولة بطريقة الأولى والأحرى؛ لأنَّ الله وضع عنا الآصار، والأغلال التي كانت عليهم، وبعث نبينا ﷺ بالحنيفيَّة السَّمحة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

تنبيه: تعلَّقت المعتزلة، ومن يقول بقولهم بهذه الآية لصحَّة مذهبهم على أنَّ الفاسِق مرتكب الكبائر يخلَّد في النار، وأجاب أهل السنة بأنَّ الآية نزلت في كافرٍ قتل مسلماً، فتكون الآية على هذا مخصوصةً. وقيل: هذا لِمَنْ قتل مسلماً مستحلاًّ قتله، ومن استحلَّ قتل مسلم فهو كافر، وهو مخلَّد في النار. وقيل: إنَّ الخلود كنايةٌ عن طول المكث. والله أعلم، وأجل، وأكرم.

الإعراب: ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَقْتُلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿مُؤْمِنًا﴾: مفعول به. ﴿مُّتَعَمِّدًا﴾: حال من فاعل: ﴿يَقْتُلْ﴾ المستتر. ﴿فَجَزَآؤُهُۥ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (جزاؤه): مبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. ﴿جَهَنَّمُ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه. ﴿خَٰلِدًا﴾: حال من الضمير المجرور محلاًّ بالإضافة، وساغ ذلك؛ لأنَّ المضاف قد عمل فيه، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ: [الرجز]

وَلَا تُجِزْ حَالاً مِنَ الْمُضَافِ لَهْ إِلَّا إِذَا اقْتَضَى الْمُضَافُ عَمَلَهْ
أَوْ كَانَ جَزْءَ مَالَهُ أُضِيفَا أَوْ مِثْلَ جُزْئِهِ فَلَا تَحِيفَا

﴿فِيهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿خَٰلِدًا﴾، وقال أبو البقاء ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿خَٰلِدًا﴾: حال من محذوف، تقديره: يجزاها خالداً فيها، فإن شئت جعلته من الضمير المرفوع، وإن شئت جعلته من المنصوب، ولا يجوز أن يكون حالاً من الهاء في: (جزاؤه) لوجهين: أحدهما: أنَّه حال من المضاف إليه، والثاني: أنَّه فُصِل بين صاحب الحال، والحال بخبر المبتدأ، وهو أجنبي، ونقل الجمل عن السَّمين مثله.

أقول: الأول منتقض لكون المضاف عمل في المضاف إليه، والثاني ينتقض باعتبار الجملة المقدَّرة حالاً من الضمير نفسه، واعتبارها مستأنفة غير جيِّد. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ﴾: ماض وفاعله.

﴿عَلَيۡهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل غضب، والجملة الفعلية معطوفة على جملة محذوفة، تدلُّ عليها الجملة الشرطية، التقدير: حكم الله بأنَّ جزاءه ذلك، وغضب عليه. والجملتان بعدهما معطوفتان أيضاً عليها، والجملة المقدَّرة، وما عطف عليها كلُّها في محل نصب حال مثل: ﴿خَٰلِدٗا فِيهَا﴾ وهي على تقدير «قد» قبلها، والاستئناف ممكن.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ انظر الآية رقم [٢٩] ﴿إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: سافرتم، وذهبتم إلى الغزو في سبيل إعلاء كلمة الله. فقد استُعير الضَّرب للسَّعي في قتال الأعداء، واستُعير السَّبيل له لدين الله. ﴿فَتَبَيَّنُواْ﴾: من التبيين، أي: فاطلبوا بيان الأمر، ولا تعجلوا فيه. وقرئ: (فتثبتوا) من الثبات، وهو قريب مِنْ معنى الأول. ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا﴾: حيَّاكم بتحية الإسلام، وتنفون إيمانه، وتقولون: قالها خوفاً، وتقيَّةً من قتله. ﴿تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: تطلبون الغنيمة بقتله، الَّتي هي مِنْ حطام الدنيا، سريعة النَّفاد، والذَّهاب.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٞۚ﴾: هذه عِدَةٌ مِنَ الله تعالى بما يأتي به في المستقبل على وجهه، ومن حله دون ارتكاب محظورٍ، فلا تتهافتوا. ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ﴾ أي: كنتم تخفون إيمانكم عن قومكم خوفاً منهم على أنفسكم. ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ فتكرَّم الله عليكم بإعزاز الدين، وغلبة المشركين حتَّى أظهرتم. ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْۚ﴾: أعاد الأمر بالتَّبيين للتَّأكيد. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾: تحذير من مخالفة أمر الله، أي: احفظوا أنفسكم، وجنِّبوها الزَّلل، والخطأ الموبق. وفي الآية الكريمة ردٌّ على المعتزلة، والقدرية، فإنَّ الله عزَّ وجل أخبر: أنَّه منَّ على المؤمنين من بين الخلائق حيث خصَّهم بالتَّوفيق، والهداية للإيمان، وخذ ما يلي:

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت الآية الكريمة في رجل من بني مرَّة بن عوف، يقال له: مِرداس بن نهيك، وكان من أهل فدك لم يُسلم من قومه غيره، فسمعوا بسرية لرسول الله ﷺ تريدُهم، وكان على السَرية رجلٌ يقال له: غالب بن فضافة الليثي، فهربوا منه، وأقام ذلك الرَّجل المسلم، فلمَّا رأى الخيل؛ خاف ألا يكونوا مسلمين، فألجأ غنمه إلى سفح جبلٍ، وصعد هو الجبل، فلمَّا تلاحقت الخيل؛ سمعهم يكبِّرون، فعرف: أنَّهم من أصحاب رسول الله ﷺ، فكبَّر؛

ونزل، وهو يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، السلام عليكم، فتغشَّاه أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ بسيفه، فقتله، واستاق غنمه، ثمَّ رجعوا إلى رسول الله ﷺ، وأخبروه الخبر، فوجد رسول الله ﷺ مِنْ ذلك وَجْداً شديداً، وكان قد سبقهم الخبر، فقال رسول الله ﷺ: **«أَقَتَلْتُمُوهُ إِرَادَةَ مَا مَعَهُ؟!»**، ثمَّ قرأ رسول الله ﷺ على أسامة هذه الآية، فقال أسامة ـ رضي الله عنه ـ: يا رسول الله استغفر لي! فقال: **«كَيْفَ أَنْتَ بِلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟!»** يقولها ثلاث مرات. قال أسامة ـ رضي الله عنه ـ: فما زال رسولُ الله ﷺ يكرِّرها حتى وددت أنِّي لم أكن أسلمت إلا يومئذٍ، ثم استغفر لي رسول الله ﷺ، وقال: **«أَعْتِقْ رَقَبَةً»**، وبعث رسول الله ﷺ ديته إلى أهله، وردَّ عليهم غُنيماته. وفي الآية دليلٌ على صحَّة إيمان المُكْرَه، وأنَّ المجتهد قد يُخطئ، وأنَّ خطأه مغتفر.

وروى أبو ظبيان عن أسامة ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا رسول الله! إنَّما قالها خوفاً من السِّلاح، فقال ﷺ: **«أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا خَوْفاً أَمْ لا؟»**. خازن.

وقال القرطبيُّ رحمه الله تعالى: والذي عليه الأكثر، وهو في سيرة ابن إسحاق، ومصنف أبي داود، والاستيعاب لابن عبد البر: أنَّ القاتل مُحَلِّم بن جَثَّامَةَ، والمقتول عامر بن الأضبط، فقد دعا رسول الله ﷺ على مُحَلِّم، فما عاش بعد ذلك إلا سبعاً، ثم دُفن؛ فلم تقبله الأرض، ثمَّ دُفن فلم تقبله، ثمَّ دُفن ثالثةً فلم تقبله، فلمَّا رأوا: أنَّ الأرض لا تقبله ألقوه في بعض الشِّعاب. فقال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ الأرض لَتَقْبَلُ مَنْ هُوَ شَرٌّ مِنْهُ»**.

هذا؛ وعرض الحياة الدنيا: حطامُها الفاني، وإنَّما سمَّى سبحانه منافع الدنيا: عرضاً؛ لأنَّه لا ثبات له، ولا دوام. ومنه: الدُّنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البرُّ، والفاجر، فكأنَّها تعرض، ثم تزول، بخلاف منافع الآخرة فإنَّها دائمةٌ لا انقطاع لها. وفي صحيح مسلم عن النبي ﷺ قال: **«لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ، إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ»**. وقد أخذ بعض العلماء هذا المعنى، فنظمه: [الطويل]

تَقَنَّع بِمَا يَكْفِيكَ وَاسْتَعْمِلِ الرِّضَا فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصْبِحُ أَمْ تُمْسِي
فَلَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْمَالِ إِنَّمَا يَكُونُ الْغِنَى وَالْفَقْرُ مِنْ قِبَلِ النَّفْسِ

ورحم الله مَنْ قال: [الطويل]

غِنَى النَّفْسِ مَا يَكْفِيكَ مِنْ سَدِّ خَلَّةٍ فَإِنْ زَادَ ما يَكْفِيْكَ عَادَ الْغِنَى فَقْرا

و﴿عَرَضَ﴾ بفتح العين والرَّاء هنا، وهو بضم العين وسكون الراء: ناحية الشيء، من أي وجه جئته، وهو بفتح العين وسكون الراء: ضد الطول، وهو بكسر العين وسكون الراء: النفس، يقال: أكرمت عنه عِرْضي، أي: صنت عنه نفسي، وهو أيضاً: رائحة الجسد، وغيره، طيبة كانت، أو خبيثة، يقال: فلان طيِّب العِرض، أو: منتن العِرض.

﴿لَسْتَ﴾: حذف عينه لالتقاء السَّاكنين: الياء والسين، إذ أصله: لَيِسَ بكسر الياء، ثم سكنت للتخفيف، ولم تقلب ألفاً على القياس؛ لأنَّ التَّخفيف بالتَّسكين في الجامد أسهل مِنَ القلب، فلمَّا اتصل بضمير رفع متحرك؛ سكنت العين، فالتقى ساكنان: الياء والسين، فحذفت الياء لالتقاء الساكنين، فصار: ﴿لَسْتَ﴾.

الإعراب: (يا): أداة نداء، تنوب مناب أدعو، أو أنادي. (أيها): نَكِرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ(يا). و(ها): حرف تنبيه، لا محلَّ له، وأقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنَّه حينئذ يجب نصب المنادى. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع بدلاً مِنْ: (أيها). وجملة: ﴿ءَامَنُوٓا۟﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السكون في محل نصب. ﴿ضَرَبْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿فِى سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿اللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿فَتَبَيَّنُوا۟﴾: الفاء: واقعة في جواب: ﴿إِذَا﴾. (تبينوا): فعل أمر مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب: ﴿إِذَا﴾ لا محلَّ لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها كلام متصل بالجملة الندائية لا محلَّ له مثلها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَقُولُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بلا الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع مقولها الآتي معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها مثلها. ﴿لِمَنْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. و(مَنْ) تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل جر باللام. ﴿أَلْقَىٰٓ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو، وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلة (مَنْ) أو صفتها. ﴿إِلَيْكُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿السَّلَٰمَ﴾: مفعول به. ﴿لَسْتَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون والتاء اسمها. ﴿مُؤْمِنًا﴾: خبرها، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول.

﴿تَبْتَغُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرَّابط الضمير فقط. ﴿عَرَضَ﴾: مفعول به، وهو مضاف. و﴿الْحَيَوٰةِ﴾: مضاف إليه. ﴿الدُّنْيَا﴾: صفة: ﴿الْحَيَوٰةِ﴾: مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر. ﴿فَعِندَ﴾: الفاء: أراها الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرط مقدَّر؛ إذ التقدير: وإذا كنتم تبتغون عرض الحياة الدنيا؛ فعند الله . . . إلخ. (عند): ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر مقدَّم، و(عند) مضاف،

و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿مَغَانِمُ﴾: مبتدأ مؤخَّر. ﴿كَثِيرَةٌ﴾: صفة له، والجملة الاسمية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب للشَّرط المقدَّر بـ «إذا». ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الكاف: حرف تشبيه، وجر، و(ذا): اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالكاف، والجار والمجرور متعلِّقان بمحذوف خبر (كان) تقدَّم عليها وعلى اسمها، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿مِّن قَبْلُ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿كُنتُم﴾. و﴿قَبْلُ﴾: مبني على الضم في محلِّ جرٍّ لقطعه من الإضافة لفظاً، لا معنىً. ﴿فَمَنَّ﴾: الفاء: هي الفصيحة لأنَّها تفصح عن شرط مقدّر. (تبيَّنُوا): فعل أمر وفاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب للشرط المقدَّر.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿خَبِيرًا﴾ بعدهما، و(ما) تحتمل الموصولة والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جرٍّ بالباء، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالَّذي، أو: بشيءٍ تعملونه، وعلى المصدرية تؤوَّل مع الفعل بمصدر في محل جرٍّ بالباء، والجار والمجرور متعلقان بـ: ﴿خَبِيرًا﴾ التقدير: خبيراً بعملكم. ﴿خَبِيرًا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾، وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ تعليل للأمر، لا محلَّ لها.

﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾

الشرح: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ أي: عن الجهاد في سبيل الله. ﴿غَيْرُ أُولِى ٱلضَّرَرِ﴾: المرض، أو العاهة مِنْ عمىً، أو عرج، أو زمانة، ونحوها. ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ...﴾ إلخ أي: لا يكونوا في منزلةٍ واحدةٍ عند الله، وعند رسوله. هذا؛ والفعل «يستوي» من الأفعال التي لا تكتفي بواحد، فلو قلت: استوى زيد؛ لم يصحَّ، فمن هنا لزم العطف على الفاعل. أو تعدُّده، فقد نفى الله التَّساوي بين المُجاهد، والقاعد بغير عذر ـ وإن كان معلوماً عند كلِّ إنسان ـ توبيخاً للقاعد عن الجهاد، وتحريكاً له عليه؛ ليرغِّب فيه رفعاً لرتبته، وأنفةً عن انحطاط منزلته، ونحوه قوله تعالى في سورة (الزُّمر): ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فهو تحريكٌ لطلب العلم، وتوبيخٌ على الرِّضا بالجَهْل.

﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾: قدَّم الله في هذه الآية وغيرها الجهاد بالمال على النَّفس؛ لأنَّ المال شقيق الرُّوح، وقد يبذل الإنسان روحه، وحياته في سبيل المال، وقد يهدر

كرامته، وشرفه، ومروءته في سبيله، وكثيرٌ من النَّاس يسبب لهم المال العذاب الأليم في نار الجحيم، وذلك حينما لم يراقبوا الله تعالى في جمعه، وإنفاقه.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً﴾ يعني: فضيلةً، وكرامةً في الآخرة. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أراد بالقاعدين هنا: أولي الضرر، وفضَّل الله المجاهدين عليهم درجةً؛ لأنَّ المجاهد باشر الجهاد بنفسه، وما أدراكم ما الدَّرجة؟ هي كما بين السَّماء، والأرض. وانظر الحديث في الآية رقم [٨٤]، وخذ ما يلي: روى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ في الْجَنَّةِ مِئَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمجَاهِدينَ في سَبِيْلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ، كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ**». أخرجه البخاريُّ.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: كلاً مِنَ المجاهدين، والقاعدين وعده الله الجنة بإيمانه بربِّه، وتصديقه بنبيِّه ﷺ. ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾: المراد بـ: ﴿ٱلْقَٰعِدِينَ﴾: الذين لا عذر لهم، ونكر ﴿أَجْرًا﴾ لزيادة التعظيم، والتفخيم بمعنى: لا يعلمه إلا الله، ولا تنس الطِّباق بين ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾ و﴿ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ وهو من المحسِّنات البديعية.

هذا؛ و«المال» قال فيه ابن الأثير: المال في الأصل: كل ما يُملك من الذهب، والفضة، ثم أطلق على كل ما يُقتنى، ويُملك من الأعيان، وأكثر ما يطلق عند العرب على الإبل؛ لأنَّها كانت أكثر أموالهم، وقال الجوهري: ذكر بعضهم: أنَّ المال يؤنَّث، وأنشد لحسان ـ رضي الله عنه ـ: [البسيط]

الْـمَـالُ تُـزْرِي بِـأَقْـوَامٍ ذَوِي حَـسَـبٍ وَقَـدْ تُـسَـوِّدُ غَـيْـرَ الـسَّـيِّـدِ الْـمَـالُ

وعن الفضل الضَّبِّي: المال عند العرب الصَّامت، والنَّاطق، فالصَّامت: الذهب، والفضَّة، والجواهر، والناطق: البعير، والبقرة، والشاة، فإذا قلت عن بدويٍّ: كثر ماله؛ فهو الناطق. وإذا قلت عن حضريٍّ: كثر ماله؛ فهو الصامت. هذا؛ والنَّشَبُ يطلق على المال الثابت، كالضِّياع، والدور، قال عمرو بن معدي كرب الزَّبيدي ـ رضي الله عنه ـ في ذلك، وهو الشَّاهد رقم [٥٩٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، والشاهد رقم [٤٨٥] من كتابنا: «فتح رب البرية»: [البسيط]

أَمَـرْتُـكَ الْـخَـيْـرَ فَـافْـعَـلْ مَـا أُمِـرْتَ بِـهِ فَـقَـدْ تَـرَكْـتُـكَ ذَا مَـالٍ وَذَا نَـشَـبِ

هذا؛ وقال الرسول ﷺ: «**مَنْ تَوَاضَعَ لِغَنِيٍّ لِغِنَاهُ؛ فَقَدْ ذَهَبَ ثُلُثَا دِينِه**». وإنَّما كان كذلك؛ لأنَّ الإيمان متعلِّق بثلاثة أشياء: المعرفة بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان، فإذا تواضع بلسانه، وأعضائه، فقد ذهب الثُّلثان، فإذا انضمَّ إليها القلب فقد ذهب الكلُّ.

و«غير» اسم شديد في الإبهام كـ «مثل» لا يتعرَّف بالإضافة لمعرفةٍ، وغيرها، وهو ملازم للإضافة، ويجوز أن يُقطع عنها، إنْ فهم المعنى، أو تقدَّمت عليها كلمة «ليس». يقال: قبضت

عشرةً لَيْس غَيْرَ. وهو مبنيٌّ على الضم، أو على الفتح خلاف. وإن أردت الزيادة؛ فانظر بحثها في كتابنا: «فتح القريب المجيب» تَجدْ ما يسرُّك، ويثلج صدرك.

أمَّا «أولي» فهو بمعنى أصحاب، لا واحد له من لفظه، وإنَّما واحده «ذي» المضاف إن كان مجروراً، و«ذا» المضاف إن كان منصوباً، و«ذو» المضاف إن كان مرفوعاً.

وأمَّا «الحسنى» فهي مؤنث: الأحسن الذي هو أفعل تفضيل، لا مؤنث: أحسن؛ المقابل لامرأة حسناء، والحسنى ضد السُّوءى.

خاتمة: اعلم: أنَّ الجهاد ينقسم إلى: فرض عين، وفرض كفاية، ففرض العين: أن يدخل العدو دار قوم مِنَ المؤمنين، وبلادَهم فيجب على كلِّ مكلَّف من الرِّجال مِمَّن لا عُذْرَ له، ولا ضرر به من أهل تلك البلدة الخروج إلى عدوِّهم دفعاً عن أنفسهم، وعن أهليهم، وجيرانهم، سواءٌ في ذلك الغني، والفقير، فيجب على الكافة، وهو في حقِّ مَنْ بعُد عنهم من المسلمين فرض كفاية، فإن لم تقع الكفاية بمن نزل بهم العدو، فتجب مساعدتُهم على مَنْ قرب منهم من المسلمين، أو بَعُد عنهم. انتهى. خازن.

هذا؛ وأمَّا أهل الضَّرر الذين ذكرهم الله في هذه الآية؛ فلهم أجرهم إن كانت نيَّتهم الجهاد لولا الأعذار التي منعتهم من الخروج إلى الجهاد. فعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ، قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال: «**إنَّ أَقْوَاماً خَلْفَنَا بِالْمَدِيْنَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْباً، وَلَا وَادِياً، إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**». رواه البخاري.

وعن أبي الدَّرداء يبلغ به النبي ﷺ قال: «**مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ؛ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ؛ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى، وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ**». رواه النَّسَائيُّ، وابن ماجه. وعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ الْعَبْدُ، أَوْ سَافَرَ؛ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ ما كَانَ يَعْمَلُ مُقِيْماً صَحِيْحاً**». رواه البخاريُّ، وأبو داود. ورحم الله من يقول: [البسيط]

يَا رَاحِلِيْنَ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ لَقَدْ سِرْتُمْ جُسُوماً وَسِرْنَا نَحْنُ أَرْوَاحَا
إِنَّا أَقَمْنَا عَلَى عُذْرٍ وَعَنْ قَدَرٍ وَمَنْ أَقَامَ عَلَى عُذْرٍ فَقَدْ رَاحَا

الإعراب: ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يَسْتَوِى﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدرة على الياء للثقل. ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلقان بمحذوف حال مِنَ: ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ أو مِنَ الضمير المستتر فيه، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض من التنوين في الاسم المفرد. ﴿غَيْرُ﴾: بالرَّفع صفة: ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ أو بدل

منه، ويقرأ بالنَّصب على الحال، أو الاستثناء من: ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾، ويقرأ بالجر على أنَّه صفة للمؤمنين، أو بدل منه، و﴿غَيْرُ﴾ مضاف، و﴿أُوْلِي﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ملحق بجمع المذكر السالم، وحذفت النون للإضافة، و﴿أُوْلِي﴾ مضاف، و﴿ٱلضَّرَرِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْمُجَٰهِدُونَ﴾ معطوف على: ﴿ٱلْقَٰعِدُونَ﴾ مرفوع مثله. ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بـ: (المجاهدون)، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف. و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾: متعلقان بـ(المجاهدون) أيضاً. ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، وجملة: ﴿لَّا يَسْتَوِي...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله. ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء، نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم. . . إلخ. ﴿بِأَمْوَٰلِهِمْ﴾: متعلقان بـ: ﴿ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾. ﴿وَأَنفُسِهِمْ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿دَرَجَةً﴾: مفعول به ثان، أو هو منصوب بنزع الخافض؛ أي: بدرجة، أو هو مفعول مطلق؛ لأنَّه دال على المرَّة، وتضمَّن معنى التفضيل. وقيل: هو حال بمعنى: ذوي درجةٍ، وهو ضعيف. وجملة: ﴿فَضَّلَ...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

(كُلًّا): مفعول به أول مقدَّم. ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾: مفعول به ثان منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذُّر. هذا؛ ويقرأ برفع (كل) على أنَّه مبتدأ، أي: كلُّهم، والجملة الفعلية خبره، والرابط محذوف، التقدير: وعده الله الحسنى، والجملة سواءٌ أكانت فعليةً، أم اسميَّةً معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها.

﴿فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله. ﴿عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿فَضَّلَ﴾. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول مطلق، عامله: ﴿فَضَّلَ﴾ لأنَّه بمعنى: أجر، أو هو مفعول به ثان على تأويل: ﴿فَضَّلَ﴾ بـ: «أعطى» وقيل: هو منصوب بنزع الخافض، أي: بأجر. وقيل: هو حالٌ مِنْ: ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ لأنَّه كان صفة له. . . إلخ، وهو غير صحيح، وجملة: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، وهي مؤكِّدةٌ لها لفظاً، ومعنىً، وما بينهما اعتراض.

﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾﴾

الشرح: ﴿دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ﴾: منازل بعضُها فوق بعضٍ من الكرامة، هي من فضل الله، وكرمه على المجاهدين في سبيله. قيل: هي سبع. وقيل: سبعون. وقيل: سبعمئة درجةٍ، ما بين كلُّ درجتين كما بين السَّماء، والأرض. هذا والحكمة من ذكر ﴿دَرَجَةً﴾ في الآية السابقة، وذكر ﴿دَرَجَٰتٍ﴾ في هذه الآية، فإنَّ الدَّرجة الأولى لتفضيل المجاهدين على القاعدين بوجود الضَّرر، والعذر، وأمَّا الثَّانية فلتفضيل المجاهدين على القاعدين من غير ضررٍ، ولا عذرٍ، فُضِّلوا عليهم

بدرجاتٍ كثيرةٍ. وقيل: يحتمل أن تكون الأولى درجة المدح، والتعظيم، والدَّرجات درجات الجنَّة، ومنازلها. انتهى خازن بتصرُّف. ﴿وَمَغْفِرَةً﴾ أي: لذنوبهم. ﴿وَرَحْمَةً﴾: أي: مِنَ الله تنزل عليهم، وتعمُّهم. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: للذُّنوب؛ وهي صيغة مبالغة. ﴿رَّحِيمًا﴾ أي: بعباده المؤمنين.

تنبيه: الآية الكريمة وسابقتها تَحُثَّان المؤمنين على الجهاد في سبيل الله، وتُرغِّبان فيه، وتُبيِّنان ما أعدَّه الله من الأجر العظيم للمجاهدين في سبيل الله. بعد هذا لا تنس أنَّ النبي ﷺ حثَّ على جهاد النَّفس، وكبحها عن المعاصي، وترويضها على الطَّاعات، واعتبر ذلك الجهاد الأكبر، فقد روى البيهقيُّ بإسنادٍ حسنٍ صحيح: أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ حين قدموا مِنَ الجهاد، تلقَّاهم رسول الله ﷺ، وقال لهم: «**مَرْحَباً بِكُمْ! قَدِمْتُمْ مِنَ الْجِهَادِ الأَصْغَرِ إِلَى الْجِهَادِ الأَكْبَرِ**» قالوا: يا رسول الله! وما الجهاد الأكبر؟ قال: «**جِهَادُ النَّفْسِ**».

يضاف إلى ذلك السَّعي في الدُّنيا، والعمل لها ليكسب الإنسان قوتَه، وقوتَ زوجه، وأولاده فقد اعتبره المُصطفى ﷺ في سبيل الله. فعن كعب بن عُجْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ قال: مَرَّ على النبي ﷺ رجلٌ، فرأى أصحابُ رسول الله ﷺ من جلده، ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله ﷺ: «**إِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى وَلَدِهِ صِغَاراً؛ فَهُوَ فِي سَبِيْلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى أَبَوَيْنِ شَيْخَيْنِ كَبِيْرَيْنِ؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى عَلَى نَفْسِهِ يُعِفُّهَا؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وإِنْ كَانَ خَرَجَ يَسْعَى رِيَاءً، وَمُفَاخَرَةً؛ فَهُوَ فِي سَبِيلِ الشَّيْطَانِ**». رواه الطَّبرانيُّ. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٦٠] من سورة (الأنفال) تجد ما يسرُّك، ويثلجُ صدرك.

وكذلك طلب العلم الشرعيّ(١) جهادٌ في سبيل الله؛ فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ جَاءَ مَسْجِدِي هَذَا لَمْ يَأْتِهِ إِلَّا لِخَيْرٍ يَتَعَلَّمُهُ، أَوْ يُعَلِّمَهُ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ جَاءَ بِغَيْرِ ذَلِكَ؛ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى مَتَاعِ غَيْرِهِ**». رواه ابن ماجه، والبيهقي.

وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ فَهُوَ فِي سَبِيْلِ اللهِ حَتَّى يَرْجِعَ**». رواه الترمذيُّ، وقال: حديثٌ حسن.

وعن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ غَدَا يُرِيدُ الْعِلْمَ يَتَعَلَّمُهُ للهِ؛ فَتَحَ اللهُ لَهُ بَاباً إِلَى الْجَنَّةِ، وَفَرَشَتْ لَهُ الْمَلَائِكَةُ أَكْنَافَهَا، وَصَلَّتْ عَلَيْهِ مَلَائِكَةُ السَّمَوَاتِ، وَحِيتَانُ الْبَحْرِ. وَلِلْعَالِمِ مِنَ الْفَضْلِ عَلَى الْعَابِدِ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى أَصْغَرِ كَوْكَبٍ**

---

(١) العلم الشرعي: هو علوم الدين وكل علم يرضى عنه الشرع لما فيه من خير المسلمين والبشرية جمعاء.

في السَّمَاءِ، وَالْعُلَمَاءُ وَرَثَةُ الأنْبِيَاءِ. إنَّ الأنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيْنَاراً، وَلَا دِرْهَمَاً، وَلَكِنَّهُمْ وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ؛ أَخَذَ بِحَظِّهِ، وَمَوْتُ الْعَالِمِ مُصِيْبَةٌ لَا تُجْبَرُ، وَثُلْمَةٌ لَا تُسَدُّ، وَهُوَ نَجْمٌ طُمِسَ، وَمَوْتُ قَبِيْلَةٍ أَيْسَرُ مِنْ مَوْتِ عَالِمٍ». رواه أبو داود، والترمذيُّ، وابن ماجه، وابن حبَّان.

الإعراب: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾: بدل من: ﴿أَجۡرًا﴾ منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم. وقيل: هو حال. وقيل: منصوب بنزع الخافض. وقيل: هو توكيد لـ(أجراً) وهو أضعفها، وأقواها الأول. ﴿مِّنۡهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾. ﴿وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗ﴾: معطوفان على: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾. وقيل: هما مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: غفر لهم مغفرةً، ورحمهم رحمةً. وحذف متعلَّقها اكتفاءً بمتعلَّق: ﴿دَرَجَٰتٖ﴾. وجملة: ﴿وَكَانَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ...﴾ إلخ: نزلت الآية الكريمة في أناس تكلَّموا بالإسلام، ولم يهاجروا: منهم قيس بن الفاكه بن المُغيرة، وقيس بن الوليد بن المُغيرة وأشباههما، فلمَّا خرج المشركون إلى بدرٍ، خرجوا معهم، فقُتِلوا مع الكفار الذين قُتِلوا في بدرٍ، فقال المسلمون: كان أصحابُنا هؤلاء مسلمين، وأُكرهوا على الخروج مع المُشركين، فاستغفِروا لهم، فنزلت الآية الكريمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾: يجوز أن يكون هذا الفعل ماضياً، وإنَّما لم تلحقه علامة التأنيث للفصل بين الفعل وفاعله بالضَّمير المنصوب، ولأنَّ لفظ الملائكة من التأنيث المجازي، ولأنَّه جمع تكسير، ويؤيد ذلك قراءة: (توفتهم)، ويجوز أن يكون مضارعاً أصله: تتوفاهم، فحذفت منه إحدى التاءين، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ أصله: تتصدى، وهو كثير في كلام الله تعالى.

والتوفِّي هنا فيه قولان: أحدهما: أنَّه قبض أرواحهم. الثاني: أنَّه حشرهم، وسوقهم إلى النَّار. فعلى الثاني يكون المراد بالملائكة: الزَّبانية؛ الذين يتولَّون تعذيب الكفار. والمعتمد هنا الأوَّل. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١١] من سورة (السَّجدة) تَجِدْ ما يسرُّك، ويثلج صدرك، ولولا الإطالة؛ لذكرته هنا بحذافيره.

﴿ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: المشركون ظالمون لأنفسهم بالشرك. وقيل: المراد: المسلمون الذين أقاموا في دار الشرك بعد إسلامهم مع قدرتهم على الهجرة؛ لأنَّ الله لم يقبل الإسلام من أحد

بعد هجرة النَّبيِّ ﷺ حتَّى يُهاجر إليه، ثمَّ نُسِخَ ذلك بعد فتح مكة بقوله ﷺ: «**لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**». أخرجاه في الصَّحيحين.

﴿قَالُوا﴾ أي: قالت الملائكة؛ الذين يتوفون أولئك المذكورين: ﴿فِيمَ كُنتُمْ﴾ خطاب للمذكورين، وهو سؤال توبيخ، وتقريع. أي: أكنتم في أصحاب النبي ﷺ أم كنتم مع المشركين؟ و﴿فِيمَ﴾ كلمة مؤلفة مِنْ حرف، واسم، فالحرف «في» الجارة، والاسم: «ما» الاستفهامية، وقد حذفت ألفها، كما تحذف مع كلِّ جارٍّ، نحو قوله تعالى: ﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾، ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ وذلك للفرق بين الموصولة، والاستفهامية. ويقال: للفرق بين الخبر، والاستخبار، ومن شواهدها الشِّعرية قول الكُمَيْت، وهو الشاهد رقم [٥٥٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الطويل]

فَتِلْكَ وَلَاةُ السُّوْءِ قَدْ طَالَ مُكْثُهُمْ فَحَتَّامَ حَتَّامَ الْعَنَاءُ الْمُطَوَّلُ؟

وأيضاً قول عمرو بن معديكرب ـ رضي الله عنه، وهو الشَّاهد رقم [٢٥٠] من كتابنا المذكور ـ: [الطويل]

عَلَامَ تَقُولُ الرُّمْحُ يُثْقِلُ عَاتِقِي إِذَا أَنَا لَمْ أَطْعَنْ إِذَا الْخَيْلُ كَرَّتِ؟

وقد ثبتت ألفها مع دخول الجار عليها في ضرورة الشِّعر في قول حسَّان بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ يهجو رَجُلاً من بَنِي مخزوم، وهو الشاهد رقم [٥٥٦] من الكتاب المذكور: [الوافر]

عَلَى مَا قَامَ يَشْتُمُنِي لَئِيمٌ كَخِنْزِيرٍ تَمَرَّغَ فِي دَمَانِ

﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: في مكَّة. اعتذروا عن الهجرة، وموالاة الكفَّار بعجزهم، وضعفهم. وهذا اعتذار غير صحيح؛ إذ كانوا يستطيعون الحيل، ويهتدون السبيل. ﴿قَالُوا﴾ أي: الملائكة موبخين، ومؤنِّبين لهم. ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا﴾ أي: فتخرجوا من مكة إلى بلدٍ تكونون فيه أحراراً في عقيدتكم، وعبادتكم، كما فعل المؤمنون الصادقون؛ حيث هاجروا أولاً إلى الحبشة، ثمَّ إلى المدينة المنورة. ويفيد هذا السؤال، والجواب: أنَّهم ماتوا مسلمين ظالمين لأنفسهم في تركهم الهجرة، وإلا فلو ماتوا كافرين؛ لم يُقل لهم شيءٌ من هذا.

﴿فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾: أخبر الله تعالى: أنَّهم في جهنَّم لتقصيرهم، وتقاعسهم عن الهجرة. ﴿وَسَاءَتْ﴾: فعل ذمٍّ يجري مجرى: «بئس». ﴿مَصِيرًا﴾: مقرّاً، ومآلاً، وكانت الهجرة واجبةً على كلِّ مَنْ أسلم، وانظر الآية رقم [٨٩].

تنبيه: في الآية الكريمة دليل على أنَّ الإنسان إذا كان في بلدٍ، لا يتمكَّن فيه من إقامة أمر دينه كما يجب لبعض الأسباب، والعوائق، أو علم: أنَّه في غير بلده أقوم بحقِّ الله، وأدوم على العبادة؛ حقَّت عليه المهاجرة. وعن النبي ﷺ: «**مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ أَرْضٍ إِلَى أَرْضٍ، وَإِنْ كَانَ شِبْراً**

مِنَ الأَرْضِ اسْتَوْجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وكَانَ رَفِيْقَ إِبْرَاهِيمَ، وَنَبِيِّهِ محمَّدٍ». عليهما ألف صلاة، وألف سلام.

﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مستقرهم، وملجؤهم. ﴿جَهَنَّمُ﴾، والفرق بين مأوى، ومثوى: أن المثوى مكان الإقامة المنبئة عن المُكث، وأمَّا المأوى فهو المكان الذي يأوي إليه الإنسان، ولو مؤقتاً، وقدَّم المأوى على المثوى في كثيرٍ من الآيات؛ لأنَّه على الترتيب الوجودي، يأوي، ثم يثوي.

أمَّا ﴿كُنتُمْ﴾ فأصله: «كَوَنْتُمْ» فقل في إعلاله: تحرَّكت الواو، وانفتح ما قبلهما، فصار (كَانْتُمْ) فالتقى ساكنان: الألف، وسكون النون، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين، فصار (كَنْتُمْ) بفتح الكاف، ثمَّ أبدلت الفتحة ضمَّة لتدلَّ على الواو المحذوفة، فصار ﴿كُنتُمْ﴾. وهناك إعلال آخر، وهو أن تقول: أصل الفعل: كَوَنَ، فلما اتصل به ضمير رفع متحرك؛ نقل إلى باب فَعُل، فصار: كَوُنْتُ، ثم نقلت حركة الواو إلى الكاف قبلها، فصار: كُونْتُ فالتقى ساكنان: العين المعتلَّة ولام الفعل، فحذفت عين الفعل، وهي الواو لعلَّة الالتقاء، فصار: كُنْتُ، وهكذا قل في إعلال كلِّ فعل أجوف، واوي، مسندٍ إلى ضمير رفع متحرك. مثل: قام، وقال، ونحوهما.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم (إنَّ). ﴿تَوَفَّىٰهُمُ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذر، أو هو فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر، والهاء مفعول به. ﴿الْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محل لها. ﴿ظَالِمِىٓ﴾: حال من الضمير المنصوب، منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابةً عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، وحذفت النون للإضافة، وهو مضاف، و﴿أَنفُسِهِمْ﴾ مضاف إليه، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِيمَ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (كان) مقدَّم. ﴿كُنتُمْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوا...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والرابط محذوف، التقدير: قالوا لهم. . .إلخ. وقيل: إنَّ الخبر محذوف، تقديره: هلكوا، فتكون جملة: ﴿قَالُوا...﴾ إلخ مبينة لتلك الجملة المحذوفة. وقيل: إنَّ الخبر الجملة الاسمية: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ، ودخلت الفاء على الخبر زائدة؛ لأنَّ الموصول يشبه الشَّرط في العموم. والمعتمد الأوَّل.

﴿قَالُوٓا﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿كُنَّا﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، و(نا): اسمه. ﴿مُسْتَضْعَفِينَ﴾: خبر كان منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوٓا...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿قَالُوٓا﴾: فعل، وفاعل، والألف للتفريق. ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتوبيخ. (لم): حرف نفي، وقلب،

وجزم. ﴿تَكُنْ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ(لم). ﴿أَرْضُ﴾: اسمها. و﴿أَرْضُ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَٰسِعَةً﴾: خبر: ﴿تَكُنْ﴾، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قَالُوٓاْ...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿فَتُهَاجِرُواْ﴾: الفاء: للسببية. (تهاجروا): فعل مضارع منصوب بـ«أن» مضمرة بعد الفاء، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر معطوف بالفاء على مصدر متصيَّد من الفعل السابق. ﴿فِيهَاۚ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مبتدأ ثان مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الألف للتعذر، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿جَهَنَّمُۖ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر (أولئك)، والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. وقيل: في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ وهو ضعيف، كما قدمته. (سَاءَتْ): فعل ماض جامد لإنشاء الذم، وفاعله ضمير مستتر، فسَّره التمييز، وهو ﴿مَصِيرًا﴾، والمخصوص بالذَّمِّ محذوف، تقديره: هي، والجملة الفعلية مستأنفةٌ، لا محلَّ لها.

﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾﴾

الشرح: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: انظر شرح هذه الكلمات في الآية رقم [٧٥]. ﴿حِيلَةً﴾: هي الجدُّ في تدبُّر الأمور، وتقليب الفكر؛ حتَّى يهتدي إلى المقصود، ومثلها: المحاولة. ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي: لا يعرفون طريقاً إلى الهجرة حتى يهاجروا، ولا يملكون نفقةً، ولا قوةً لهم على الخروج مِنْ مكَّة.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: مستثنى استثناءً منقطعاً لعدم دخوله في الموصول، وضميره، والإشارة إليه، فهو منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابةً عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ متعلقان بالمستضعفين. وهما في محل رفع نائب فاعله. ﴿وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾: معطوفان على: ﴿ٱلرِّجَالِ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النُّون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله. ﴿حِيلَةً﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الرِّجال، وما عطف عليه، أو في محل جر صفة لهم؛ لأنَّ «أل» التعريفية تصلح لأن تكون للجنس، وأن تكون للتَّعريف، ومثل هذه الآية: [الكامل]

وَلَقَدْ أَمُرُّ عَلَى اللَّئِيمِ يَسُبُّنِي فَمَضَيْتُ ثُمَّتَ قُلْتُ لَا يَعْنِينِي

وقال تعالى في سورة (يس): ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ وقال في سورة (الجمعة): ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾، وجملة: (لا يهتدون سبيلاً): معطوفة عليها على الوجهين المعتبرين فيها، وقال مكيٌّ ـ رحمه الله تعالى ـ: جملة: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ...﴾ إلخ والتي بعدها: في موضع نصب على الحال من ﴿ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ والمعتمد ما قدَّمته.

﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾

الشرح: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ﴾: الإشارة إلى المستضعفين المذكورين في الآية السابقة. ﴿عَسَى ٱللَّهُ﴾: عسى هي مفيدة للتَّحقيق والتأكيد، وإن كانت في كلام المخلوقين تفيد الرَّجاء، والطَّمع؛ لأنَّ المخلوق هو الذي تَعْرِض له الشُّكوك، والظُّنون، والله منزَّهٌ عن ذلك. انتهى. نقلاً من كرخي. وهو فعل جامد لا يأتي منه مضارع، ولا أمر. ﴿أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾: أن يصفح عنهم، ويغفر ذنوبهم، ويتجاوز عن سيئاتهم، والفعل «يعفو» بهذا المعنى كثير في القرآن الكريم، كما يأتي «عفا» بمعنى الكثرة. قال تعالى في الآية رقم [٩٥] من سورة (الأعراف): ﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟﴾ أي: حتى كثروا، ونموا في أنفسهم، وأموالهم، من قولهم: عفا النبات، وعفا الشَّحم، والوَبَر: إذا كثر. قال الحطيئة: [الطويل]

بِمُسْتَأْسِدِ الْغِرْبَانِ عَافٍ نَبَاتُهُ   بِأَسْوُقٍ عَافِيَاتِ الشَّحْمِ كُومِ

وعفا المنزل، يعفو، عفاء: إذا انمحت آثاره، وذهبت معالمه، قال الأخطل التَّغلبيُّ ـ وهو الشاهد رقم [٤٩٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

وبِالصَّرِيمَةِ مِنْهُمْ مَنْزِلٌ خَلَقٌ   عَافٍ تَغَيَّرَ إلَّا النُّؤيَ وَالْوَتِدُ

وعَفْوُ المال: ما يفضل عن النَّفقة. قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢١٩]: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ والعافي: طالب المعروف، والإحسان، قال عروة بن الورد العبسي المعروف بـ «عُروة الصَّعاليك»: [الطويل]

وإِنِّي امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِيَ شِرْكَةٌ   وَأَنْتَ امْرُؤٌ عَافِي إِنَائِكَ وَاحِدُ

وجمع العافي: عُفاة، قال الأعشى في مدح ممدوحه: [المتقارب]

تَطُوفُ الْعُفَاةُ بِأَبْوَابِهِ   كَطَوْفِ النَّصَارَى بِبَيْتِ الْوَثَنْ

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا﴾: صيغة مبالغة من العفو. ﴿غَفُورًا﴾: صيغة مبالغة أيضاً. هذا؛ وانظر ما ذكرته في شرح (كان) في الآية رقم [١] من هذه السُّورة.

﴿ٱللَّهُ﴾: علم على الذات الواجب الوجود، المستحق لجميع المحامد، وهو اسم الله الأعظم، الذي إذا دُعيَ به؛ أجاب، وإذا سئل به؛ أعطى، وإنَّما تخلَّفت الإجابة في بعض

الأحيان عن الدُّعاء به لتخلُّف شروط الإجابة، الَّتي أعظمها أكل الحلال، ولم يسمَّ به أحدٌ سواه، قال تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي: هل تعلم أحداً تسمَّى اللهَ غير اللهِ؟ وقد ذكر في القرآن الكريم في ألفين وثلاثمئة وستين موضعاً، علماً بأنَّه لم يذكر في سورتي: الرَّحمن، والواقعة.

الإعراب: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: حرف استئناف. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿عَسَى﴾: فعل ماض جامد مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذر، وهو ناقص هنا. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسم ﴿عَسَى﴾. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَعْفُوَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾، والمصدر المؤوَّل من الفعل، وناصبه في محل نصب خبر (عسى) بعد تأويل المصدر باسم الفاعل، التقدير: عسى الله عافياً. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة: ﴿عَسَى...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (أولئك...) إلخ مستأنفة لا محلَّ لها، والجملة الفعلية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، أو مستأنفة لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا﴾: وهذا تحريضٌ على الهجرة، وترغيب في مفارقة المشركين، وأنَّ المؤمن حيثما ذهب؛ وجد عنهم مندوحةً، وملجأً يتحصَّن فيه. والمُرَاغم: مصدر؛ تقول العرب: راغم فلان قومَه مراغَماً، ومراغمةً، قال النابغة الجعدي: [المتقارب]

كَطَوْدٍ يُلاذُ بِأَرْكَانِهِ عَزِيزِ الْمُرَاغَمِ وَالْمَذْهَبِ

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: المُراغم: التَّحوُّل من أرضٍ إلى أرض. وقيل: معناه: إنَّ الرَّجل إذا خرج عن قومه؛ خرج مراغماً لهم؛ أي: مغاضباً، ومقاطعاً. وقال الفراء: المُراغم: المضطرب، والمذهب في الأرض، وأنشد الزجَّاج في المعنى: [المتقارب]

إِلَى بَلَدٍ غَيْرِ دَانِي الْمَحَلْ بَعِيدِ الْمُرَاغَمِ وَالْمُضْطَرَبْ

وقال مجاهد: يجد متزحزحاً عمَّا يكره. وقيل: المراغمة، والمهاجرة واحدة، يقال: راغمت قومي، أي: هاجرتهم، وسمِّيت المهاجرة مُراغمة؛ لأنَّه يهاجر قومه برغمهم، وهو مأخوذ من الرُّغام، وهو التراب، يقال: رغم أنفه: إذا التصق بالتُّراب، وذلك لأنَّ الأنف عضو شريف، والتُّراب ذليلٌ حقير، فجعلوا قولهم: «رغم أنفه» كناية عن حصول الذُّلِّ له. ﴿وَسَعَةً﴾

يعني: في الرزق، وسعة في الأرض الَّتي يُهاجر إليها، فمن ضاق رزقُه في بلده؛ فليلتمسه في غيره، ورحم الله مَنْ قال: [الوافر]

بِـــلَادُ اللهِ وَاسِـــعَـــةٌ فَـــضَـــاءُ ... وَرِزْقُ اللهِ فِـــي الـــدُّنْـــيَـــا فَـــسِـــيـــحُ

فَـــقُـــلْ لِـــلْـــقَـــاعِـــدِيـــنَ عَـــلَـــى هَـــوَانٍ ... إِذَا ضَـــاقَـــتْ بِـــكُـــمْ أَرْضٌ فَـــسِـــيْـــحُـــوا

ورحم الله مَنْ قال أيضاً: [الكامل]

وإِذَا رَأَيْـــتَ الـــرِّزْقَ ضَـــاقَ بِـــبَـــلْـــدَةٍ ... وَخَـــشِـــيـــتَ فِـــيْـــهَـــا أَنْ يَـــضِـــيْـــقَ الْـــمَـــكْـــسَـــبُ

فَـــارْحَـــلْ فَـــأَرْضُ اللهِ وَاسِـــعَـــةُ الْـــفَـــضَـــا ... طُـــولاً وَعَـــرْضَـــاً شَـــرْقُـــهَـــا وَالْـــمَـــغْـــرِبُ

﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ﴾ قبل بلوغه مُهاجره. ﴿فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي: فقد وقع أجر هجرته على الله بإيجابه على نفسه بحكم الوعد، والتفضُّل، والإحسان، والكرم، لا وجوب استحقاق، وتحتُّم؛ لأنَّ الله لا يجب عليه شيءٌ لعباده. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾: للذنوب. ﴿رَّحِيمًا﴾: بعباده. وهما صيغتا مبالغة، كما ذكرتُه مراراً.

تنبيه: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: لمَّا نزلت الآية التي قبل هذه سمعها رجلٌ من بني ليث، شيخٌ كبير، يقال له: جُنْدَعُ بنُ ضَمْرَة، فقال: والله ما أنا مِمَّن استثنى الله عزَّ وجل، وإنِّي لأجد حيلةً، وليَ من المال ما يبلغني المدينة، وأبعدَ منها، والله لا أبيت اللَّيلة بمكَّة! أخرجوني! فخرجوا به يحملونه على سرير حتَّى أتوا به التنعيم، فأدركه الموت، فصفق بيمينه على شماله، ثمَّ قال: اللهم هذه لك، وهذه لرسولك، أُبايعك على ما بايعك عليه رسولُك. ثم مات، ـ رضي الله عنه ـ، وأرضاه، فبلغ خبره رسول الله ﷺ وأصحابه، فقالوا: لو وافى المدينة؛ لكان أتمَّ، وأوفى أجراً، وضحك المنافقون، والمشركون، وقالوا: ما أدرك ما طلب! فنزلت الآية الكريمة. انتهى. خازن، وقرطبي.

تنبيه: كلُّ مَنْ خرج لطلب علم أو حجٍّ، أو جهادٍ، أو فراراً إلى بلد يزداد فيه طاعةً، أو قناعة، أو زهداً، أو ابتغاء رزقٍ طيِّب ـ أي: حلال ـ فهي هجرة إلى الله ورسوله، وإن أدركه الموت في طريقه؛ فقد وقع أجره على الله . انتهى نسفي. وخذ ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ حَاجَّاً، فَمَاتَ؛ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الحَاجِّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ مُعْتَمِراً، فَمَاتَ؛ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْمُعْتَمِرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ خَرَجَ غَازِيَاً، فَمَاتَ؛ كُتِبَ لَهُ أَجْرُ الْغَازِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**». أخرجه الحافظ أبو يعلى.

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ**

لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ. والأحاديث بهذا المعنى كثيرةٌ مشهورةٌ، ومسطورةٌ.

الإعراب: ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُهَاجِرْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) تقديره: هو ﴿فِي سَبِيلِ﴾: متعلقان بما قبلهما. و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿اللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿يَجِدْ﴾: فعل مضارع جواب الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، لم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية. ﴿فِي الْأَرْضِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿مُرَاغَمًا﴾: مفعول به. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة له. ﴿وَسَعَةً﴾: معطوف على ما قبله، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه.

﴿وَمَن يَخْرُجْ﴾: مثل سابقه في إعرابه ومحلِّه. ﴿مِن بَيْتِهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿مُهَاجِرًا﴾: حال من فاعل: ﴿يَخْرُجْ﴾ المستتر. ﴿إِلَى اللَّهِ﴾: متعلقان بـ﴿مُهَاجِرًا﴾؛ لأنَّه اسم فاعل، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَرَسُولِهِ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يُدْرِكْهُ﴾: فعل مضارع معطوف على فعل الشَّرط، مجزوم مثله. وقرأ الحسن البصري بالنَّصب على إضمار «أن». وقرأ النخعي، وغيره بالرَّفع على إضمار مبتدأ، أي: ثم هو يدركه. والجملة الاسمية هذه معطوفة على الجملة الفعلية: ﴿يَخْرُجْ...﴾ إلخ، والهاء مفعول به. ﴿الْمَوْتُ﴾: فاعله. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿وَقَعَ﴾: فعل ماض. ﴿أَجْرُهُ﴾: فاعله، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿عَلَى اللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية: ﴿فَقَدْ وَقَعَ...﴾ إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحل محل المفرد. وبقيَّة الكلام مثل سابقه بلا فارق، وجملة: ﴿وَكَانَ اللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا (١٠١)﴾

الشرح: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ انظر الآية رقم [٩٤]. ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾: إثم، ومؤاخذة. ﴿أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾ أي: من أربع ركعات إلى ركعتين، وذلك في صلاة الظهر، والعصر، والعشاء. ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني: يغتالكم، ويقتلكم الذين كفروا. ﴿إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا﴾ أي: ويكونون. ﴿لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: انظر الآية رقم [٩١] و[٩٢]. وسبب نزول الآية ذكره ابن جرير عن عليٍّ ـ رضي الله عنه ـ قال: سأل قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله! إنَّا نضرب في الأرض، فكيف نُصلِّي؟ فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ...﴾ إلخ.

استدلَّ العلماء بهذه الآية على قَصْرِ الصلاة في السَّفر، على اختلافهم في ذلك. فمن قائل: لا بدَّ أن يكون السفر سفر طاعة؛ من جهادٍ، أو حجٍّ، أو عمرةٍ، أو طلب علمٍ، أو زيارة رحمٍ، ونحو ذلك. وذهب الشافعي، ومالك، وأحمد، والجمهور إلى أنَّه يجوز القصر في كل سفر مباح. وذهب أبو حنيفة، والثوري، وداود إلى أنَّه يجوز القصر لمطلق السفر، سواء أكان مباحاً، أو محظوراً، حتى لو خرج لقطع الطريق، وإخافة السبيل، وخالفهم الجمهور.

وقال داود الظَّاهري: لا يجوز القصر إلا في حال الخَوْف، واستدلَّ على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لأنَّ عدم الشَّرط يقتضي عدم المشروط. وخالفه جمهور الأمَّة، وقالوا: قد يكون هذا خرج مخرج الغالب حال نزول الآية، فإنَّ مبدأ الإسلام بعد الهجرة كان غالب أسفارهم مخوفة، بل كانوا لا ينهضون إلا إلى غزو عام، أو في سريَّة خاصَّةٍ، وسائر الأحيان كانت حرباً للإسلام وأهله. والمنطوق إذا خرج مخرج الغالب، أو على حادثة خاصَّةٍ؛ فلا مفهوم له، كقوله تعالى في سورة (النُّور): ﴿وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾، وكقوله تعالى في هذه السُّورة: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ﴾.

وقال الإمام أحمد: عن يعلى بن أميَّة ـ رضي الله عنه ـ، قال: سألت عمر ـ رضي الله عنه ـ، قلت له: قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ وقد أمن الناس؟ فقال لي عمر ـ رضي الله عنه ـ: عجبتُ ممَّا عجبتَ منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال: «**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَه**». أخرجه مسلم.

وعن أبي حنظلة الحذَّاء؛ قال: سألت ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن صلاة السَّفر، فقال: ركعتان. فقلت: أين قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾؟ فقال: سنة رسول الله ﷺ.

هذا؛ وأمَّا المسافة التي يجوز فيها قصر الصَّلاة؛ فمختلف فيها اختلافاً كثيراً، والمُفتى به في هذه الأيام أن تكون خمسة وثمانين كيلومتراً إلى تسعين كيلومتراً، كما اختلفوا في جواز الإتمام في حال السَّفر، فذهب مالك، وأبو حنيفة ـ رحمهما الله ـ إلى أنَّ القصر في السفر واجبٌ، ويدلُّ عليه ما روي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: فرض الله الصَّلاة حين فرضها ركعتين، ثمَّ أتمَّها في الحضر، وأُقِرَّت صلاة السفر على الفريضة الأولى. وفي روايةٍ أخرى: قالت: فرض الله الصَّلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحضر، والسفر، فأُقرَّت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر. أخرجاه في الصحيحين. وذهب قوم إلى جواز الإتمام في السَّفر، ولكن القصر أفضل، وهو مذهب الشَّافعي، وأحمد، وهو رواية عن مالك أيضاً، ويدلُّ على ذلك ما روى البغوي بسند الشافعي عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: كلُّ ذلك فعل رسول الله ﷺ قصر، وأتم. وعنها: أنَّها اعتمرت مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكَّة؛ حتَّى إذا قدمت مكَّة؛ قالت: يا رسول الله! بأبي أنت، وأمِّي! قصرتُ، وأتممتُ، وصمتُ، وأفطرتُ. قال: «**أَحْسَنْتِ**

يَا عَائِشَةُ». وما عاب عليٌّ. أخرجه النَّسائيُّ. فأنت ترى: أنَّ الروايتين عنها قد اختلفتا، وهذا يُسمَّى اضطراب الروايات.

هذا؛ ولا يقصر إلا بعد مجاوزة عمران بلده، وينتهي القصر بعوده إلى عمران بلده، والله الموفِّق. كما اختلفوا في المدَّة التي يقصر فيها في المكان الذي ذهب إليه، فقال مالكٌ، والشافعيُّ ـ رضي الله عنه ـ: إذا نوى الإقامة أربعة أيام؛ أتمَّ، وإن كان أقام لحاجة يتوقَّع قضاءها يوماً بعد يوم؛ قصر ثمانية عشر يوماً. وقال أبو حنيفة ـ رضي الله عنه ـ وأصحابه: إذا نوى إقامة خمس عشرة ليلة؛ أتمَّ. وقال الإمام أحمد ـ رحمه الله تعالى ـ: إذا عزم المسافر مقام إحدى وعشرين صلاةً مكتوبةً؛ قصر. وإذا اقتدى بمقيم؛ أتمَّ بالاتفاق.

هذا؛ ولم يتعرَّض المفسِّرون للجمع بين الصَّلوات، فأجازه الشَّافعي، ومالك، وأحمد بين العصرين، والعشاءين، تقديماً، وتأخيراً، لِمَا روى ابنُ عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ قال: كان رسول الله ﷺ يجمع بين صلاة الظهر، والعصر إذا كان على ظهر سفر، ويجمع بين المغرب، والعشاء. رواه البخاريُّ، ومسلمٌ.

وشروط التَّقديم أربعة: البُداءة بالأولى، ونيَّة الجمع فيهما، ولو مع السَّلام، والموالاة بينهما، ودوام السَّفر إلى الإحرام بالثانية، ويشترط في التَّأخير نيَّته قبل خروج وقت الأولى، ولو بقدر ركعة، ودوام السَّفر إلى تمامها، وإلا صارت الأولى قضاء.

فقد صحَّ: أنَّه ﷺ كان إذا ارتحل قبل الزَّوال؛ أخَّر الظهر إلى وقت العصر، ثمَّ نزل، فجمع بينهما، فإن زالت قبل ارتحاله صلاهما، ثمَّ ركب. وأنَّه كان إذا جدَّ به السير؛ جمع بين المغرب، والعشاء، أي: في وقت العشاء. وأبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ لا يرى الجمع إلا في يوم عرفة تقديماً، وليلة المزدلفة تأخيراً. وفائدة الجمع في السَّفر ملموسةٌ، وحكيمة، ونرشد مَنْ لا يرى إمامُه الجمع أن يقلِّد مَنْ يراه. والله الموفق.

أمَّا الجمع في المطر في الحضر تقديماً؛ فقد صحَّ: أنَّ النبيَّ ﷺ جمع بالمدينة بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء من غير خوفٍ، ولا سفرٍ، فقال الشافعي كمالك ـ رضي الله عنهما ـ: أرى ذلك بعذر المطر، ويؤيده جمع ابن عباس، وابن عمر ـ رضي الله عنهم ـ به، وأرى: أنَّ شروط الجمع بالمطر غير متوفرة في هذه الأيام لتسهيل الطُّرق، وتنويرها في اللَّيلِ، وإن قال بعضهم بجوازها. والله الموفق، والمعين، وبه أستعين.

الإعراب: (إذا): ظرف لما يستقبل من الزَّمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك مبني على السكون في محل نصب. ﴿ضَرَبۡتُمۡ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على القول المشهور المرجوح. ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: متعلِّقان بما قبلهما. ﴿فَلَيۡسَ﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (ليس): فعل ماض ناقص. ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان

بمحذوف خبر (ليس) تقدَّم على اسمها. ﴿جُنَاحٌ﴾: اسمها مؤخر، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محلَّ لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محلَّ له. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَقْصُرُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، و﴿أَن تَقْصُرُوا﴾: في تأويل مصدر في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: في قصر الصلاة، والجار والمجرور متعلقان بـ﴿جُنَاحٌ﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما.

﴿إِنْ﴾: حرف شرط جازم. ﴿خِفْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السُّكون في محلِّ جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَفْتِنَكُمُ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ والكاف مفعول به، والمصدر المؤول من ﴿أَن﴾ والفعل في محل نصبٍ مفعول به. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل. ﴿كَفَرُوٓا۟﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلِّق محذوف، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إن خفتم. . .فلا جناح. . .إلخ.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾: اسمها منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿كَانُوا۟﴾: فعل ماض ناقص، والواو اسمه. . .إلخ. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من: ﴿عَدُوًّا﴾ كان صفة له. . .إلخ. ﴿عَدُوًّا﴾: خبر (كان). ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له، وجملة: ﴿كَانُوا۟...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، وجملة: ﴿إِنَّ...﴾ إلخ مفيدة للتَّعليل، لا محلَّ لها.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾﴾

الشرح: روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ المشركين لمَّا رأوا رسول الله ﷺ وأصحابه؛ قاموا إلى الظُّهر يصلُّون جميعاً؛ ندموا، وتمنَّوا أنْ لو كانوا أكبّوا عليهم، فقال بعضُهم لبعضٍ: دعوهم فإنَّ لهم بعدها صلاةً هي أحبُّ إليهم من آبائهم، وأمهاتهم ـ يعني: صلاة العصر ـ فإذا قاموا إليها؛ فشدُّوا عليهم، فاقتلوهم. فنزل جبريل، عليه السلام، فقال: يا محمد!

إنَّها صلاة الخوف، وإن الله عزَّ وجل يقول: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ...﴾ إلخ فعلَّمه صلاة الخوف. وروي عن أبي عيَّاش الزُّرَقي ـ رضي الله عنه ـ في سبب نزول الآية، قال: كُنَّا مع رسول الله ﷺ بِعُسْفان، وعلى المشركين خالد بن الوليد، فصلَّينا الظهر، فقال المشركون: لقد أصبنا غِرَّةً، ولو حملنا عليهم، وهم في الصَّلاة، فنزلت الآية بين الظُّهر، والعصر.

وينبغي أن تعلم: أنَّ النبي ﷺ صلَّى صلاة الخوف بكيفيات مختلفة، ولا يمكن فعل شيءٍ منها في هذه الأيام إلا صلاة الخوف المذكورة في الآية رقم [٢٣٩] من سورة (البقرة)؛ لأنَّ وسائل الحرب قد تغيَّرت، وأحوال المسلمين، وأوضاعهم قد انقلبت رأساً على عقِب، لذا فإنَّني أكتفي بشرح ألفاظ الآية وبيان معانيها، والله الموفق.

﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ...﴾ إلخ: خطاب للنبيِّ ﷺ وقد تعلَّق بمفهومه مَنْ خصَّ صلاة الخوف بحضرة الرسول ﷺ وكافة الفقهاء على أنَّ الله علَّمه كيفيتها؛ ليأتمَّ به الأئمَّة بعده، فإنَّهم نواب عنه بعد وفاته ﷺ فيكون حضورهم كحضوره. ﴿فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ أي: فاجعلهم طائفتين: إحداهما تصلِّي معك، والأخرى تقف تجاه العدو. ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ﴾: هذا الأمر للطائفة المصلية مع الرسول ﷺ. وقيل: للحارسة. وذكر الطائفة الأولى يدلُّ عليهم. ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾ أي: المصلون مع النبي ﷺ. ﴿فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ﴾ أي: ليكن غير المصلين من خلفكم يحرسونكم.

﴿وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ﴾ أي: أول الصلاة. ﴿فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾: آخر الصلاة. ﴿وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ أي: وليكونوا حذرين من عدوِّهم متأهبين لقتالهم بحمل السلاح.

ظاهر هذا الكلام يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى مرَّتين؛ بكلِّ طائفة مرَّة، وهذا كان ببطن نخل، وإن أريد أن يصلي الإمام بكلِّ ركعة ـ إن كانت الصلاة ركعتين ـ فكيفيتها أن يصلي بالأولى ركعة، وينتظر قائماً حتَّى يتمُّوا صلاتهم منفردين، ويذهبوا إلى وجه العدو، وتأتي الطائفة الأخرى، فيتمَّ بهم الركعة الثانية، ثم ينتظرهم قاعداً حتى يتمُّوا صلاتهم، ويسلِّم بهم، كما فعل رسول الله ﷺ بذات الرِّقاع، وقد جعل الله ـ عزَّ وجل ـ الحذر آلة يتحصَّن بها المحارب، فجمع بين الحذر، وبين الأسلحة في وجوب الأخذ بالأسباب، كيف لا؟ والتيقظ، والتحرُّز من كيد العدو أعظم من السِّلاح.

﴿وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ...﴾ إلخ: تمنَّى الكافرون أن ينالوا منكم غفلةً في صلاتكم، فيشدُّون عليكم شدَّةً واحدةً، وهذا هو السبب في وجوب حمل السلاح، والتيقظ. وانظر الفعل: «مال، يميل» في الآية رقم [٢٧].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ...﴾ إلخ، أي: لا حرج، ولا إثم في عدم حمل السِّلاح إذا ثقُل عليكم بسبب مطرٍ، أو ضعفٍ بسبب مرضٍ، وهذا يؤيد: أنَّ حمل السلاح في أثناء الصَّلاة للوجوب دون الاستحباب. ﴿وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ﴾: تأكيد لسابقه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ...﴾ إلخ: هذا وعد من القويِّ العزيز بالنَّصر المبين على الكافرين بأنَّه سيهزمهم بعد الأمر بالحذر، والتيقظ، ليقوِّي قلوب المؤمنين، ويشُدَّ من عزيمتهم، وليعلموا: أنَّ الأمر بذلك ليس لضعفهم، وغلبة عدوهم، بل لأنَّ الواجب أن يحافظوا على مراسيم التيقُّظ والتدبُّر. فيتوكَّلوا على الله. قال الرسول ﷺ للأعرابي: «**اعْقِلْ وَتَوَكَّلْ**».

تنبيه: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت الآية الكريمة في النبي ﷺ، وذلك أنَّه غزا بني محارب، وبني أنمار، فنزلوا منزلاً، ولا يرون من العدو أحداً، فوضع المسلمون السِّلاح، فخرج رسول الله ﷺ لحاجةٍ حتَّى قطع الوادي، فحال السَّيل بين رسول الله ﷺ وبين أصحابه، فجلس تحت شجرةٍ، فبصر به غوْرَث بن الحارث المُحاربي، فقال: قتلني الله إن لم أقتله! ثمَّ انحدر مِنَ الجبل ومعه السَّيف، ولم يشعر به النبي ﷺ، إلا وهو قائم على رأسه، وقد سلَّ السَّيفَ مِنْ غِمْدِه، وقال: يا محمد! مَنْ يمنعك مني الآن؟! فقال رسول الله ﷺ: «**اللهُ عزَّ وجل**»، ثم قال: «**اللهمَّ اكفني غوْرث بن الحارث بما شئت!**» فأهوى غورث بالسيف ليضرب به رسول الله ﷺ، فأكبَّ لوجهه من زلقةٍ زلقها، فبدر السَّيف من يده. فقام رسول الله ﷺ، فأخذ السَّيف، وقال: «**من يمنعك مني الآن يا غورث؟!**» فقال: لا أحد! كن خير آخذ يا محمد! فقال رسول الله ﷺ: «**أتشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله؟**». قال: لا! ولكن أشهد: ألا أقاتلك أبداً، ولا أعين عليك عدوّاً. فأعطاه رسول الله ﷺ سيفه، فقال: لأنت خيرٌ منِّي، فقال رسول الله ﷺ: «**أجل أنا أحقُّ بذلك منك**». فرجع إلى قومه، وقال لهم: جئتكم من عند خير النَّاس، وذكر لهم حاله مع رسول الله ﷺ، قال: وسكن الوادي فقطع رسول الله ﷺ الوادي إلى أصحابه، وأخبرهم الخبر، وقرأ عليهم: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿وَإِذَا﴾: الواو: حرف استئناف. (إذا): انظر الآية السابقة. ﴿كُنتَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿فِيهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبره، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿فَأَقَمْتَ﴾: الفاء: حرف عطف. (أقمت): فعل وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل جر مثلها. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به. ﴿مِّنْهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿طَآئِفَةٌ﴾. ﴿مَّعَكَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل (تقم) والكاف في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿فَلْتَقُمْ...﴾ إلخ جواب (إذا) لا محلَّ لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿وَلْيَأْخُذُوٓاْ﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جواب (إذا) لا محلَّ لها مثله. ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿فَإِذَا سَجَدُواْ﴾: إعرابه واضح إن شاء الله. ﴿فَلْيَكُونُواْ﴾: الفاء: واقعة في جواب

(إذا). (ليكونوا): فعل مضارع ناقص مجزوم بلام الأمر. . .إلخ، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿مِن وَرَآئِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبره، والكاف في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿فَلْيَكُونُوا...﴾ إلخ جواب (إذا) لا محلَّ لها، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف، لا محلَّ له. ﴿وَلْيَأْخُذُوٓا﴾: فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جواب (إذا) لا محلَّ لها مثله. ﴿أَسْلِحَتَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محلِّ جرٍّ بالإضافة.

﴿وَلْتَأْتِ﴾: الواو: حرف عطف. (لتأت): فعل مضارع مجزوم بلام الأمر، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليل عليها. ﴿طَآئِفَةٌ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جواب (إذا) لا محلَّ لها أيضاً. ﴿أُخْرَىٰ﴾: صفة: ﴿طَآئِفَةٌ﴾ مرفوع مثله، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يُصَلُّوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ﴿لَمْ﴾. . إلخ والجملة الفعلية في محل رفع صفة ثانية لـ﴿طَآئِفَةٌ﴾ أو في محل نصب حال منها بعد وصفها بما تقدَّم، والجملتان: ﴿فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ معطوفتان على جواب (إذا) لا محلَّ لهما مثله، والإعراب واضحٌ إن شاء الله .

﴿وَدَّ﴾: فعل ماض. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع فاعل: ﴿وَدَّ﴾، والجملة الفعلية تعليل للأمر، أو هي مستأنفة لا محلَّ لها على الاعتبارين، وجملة: ﴿كَفَرُوا﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿لَوْ﴾: حرف مصدري. ﴿تَغْفُلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون. . .إلخ والواو فاعله، و﴿لَوْ﴾ والفعل في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به، التقدير: ودُّوا غفلتكم. ﴿عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَأَمْتِعَتِكُمْ﴾: معطوف على ما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. وجملة: (يميلون عليكم) معطوفة على ما قبلها، فهي داخلة معها بالمصدرية. ﴿مَّيْلَةً﴾: مفعول مطلق. ﴿وَاحِدَةً﴾: صفة لها.

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ» ﴿جُنَاحَ﴾: اسم (لا) مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف خبر (لا)، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. ﴿بِكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿أَذًى﴾: اسم: ﴿كَانَ﴾ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الألف المقصورة المحذوفة لالتقاء الساكنين، والثابتة دليل عليها، وليست عينها. ﴿مِّن مَّطَرٍ﴾: متعلقان بمحذوف صفة ﴿أُخْرَىٰ﴾، وجملة: ﴿كَانَ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف، لدلالة ما قبله عليه،

و﴿إن﴾ومدخولها كلام معترض بين ﴿جُنَاحَ﴾ ومتعلقه الآتي. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿كُنتُم﴾: فعل ماض ناقص مبني على السكون، والتاء اسمه. ﴿مَّرْضَىٰٓ﴾: خبر كان منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف للتعذر، والجملة الفعلية معطوفة على جملة فعل الشَّرط، لا محلَّ لها مثلها. ﴿أَن تَضَعُوٓاْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤول من الفعل وناصبه في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: في وضع أسلحتكم، والجار والمجرور متعلقان بما تعلَّق به: ﴿عَلَيْكُمْ﴾. ﴿أَسْلِحَتَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة.

﴿وَخُذُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿حِذْرَكُمْ﴾: مفعول به، والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (ليأخذوا حذرهم) وهي مؤكِّدة لها. وحصل في الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿أَعَدَّ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بـ﴿مُّهِينًا﴾ بعدهما. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مُّهِينًا﴾: صفة له، وجملة: ﴿أَعَدَّ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها.

﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾

الشرح: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فرغتم، وانتهيتم من صلاة الخوف المذكورة. ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ يعني: بالتسبيح، والتحميد، والتَّهليل، والتكبير، وأثنوا على الله في جميع أحوالكم، واسألوه النَّصر لا سيما في حال القتال، كقوله تعالى في سورة (الأنفال): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ فذكر الله مرغَّبٌ فيه في جميع الحالات، وهو في حالة الحرب، وبعد الفراغ من الحرب آكد.

﴿قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ أي: اذكروا الله في جميع الحالات، وفي حالة الخوف والحرب آكد كما قدّمت. ويقال: المعنى: إذا صليتم في دار الحرب؛ فصلُّوا كيفما قدرتم، وتمكَّنتم، كما قال تعالى في سورة (البقرة): ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا﴾ فيكون المراد بالذكر الصَّلاة، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٩١] من سورة (آل عمران) تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك.

﴿ٱطْمَأْنَنتُمْ﴾: سكنت قلوبكم من الخوف. ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي: فأتمُّوها أربعاً. فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة ترك السَّفر، المعنى: إذا صِرْتم مقيمين في أوطانكم؛ فأقيموا الصلاة تامة أربعاً من غير قصرٍ. وقيل: المعنى: أقيموا لها ركوعها، وسجودها، وقيامها، وقعودها، وخشوعها. فعلى هذا يكون المراد بالطمأنينة: سكون القلب من الاضطراب، والأمن بعد الخوف.

﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ يعني: فرضاً مؤقتاً، والكتاب: هنا بمعنى المكتوب؛ يعني: مكتوبةً مؤقَّتةً في أوقات محدودة، فلا يجوز إخراجها عن أوقاتها على أيِّ حال مِنْ خوفٍ، أو أمنٍ. وقيل: معناه: فرضاً واجباً مقدَّراً في الحضر أربع ركعاتٍ، وفي السفر ركعتين.

وقال البيضاوي ـ رحمه الله تعالى ـ: وفي الآية دليلٌ على أنَّ المراد بالذكر: الصلاة، وأنَّها واجبة الأداء حال المسايفة، والاضطراب في المعركة، وتعليل للأمر بالإتيان بها كيفما أمكن. وقال أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ: لا يصلِّي المحارب حتى يطمئنَّ. انتهى. هذا؛ وذكرت لك في الآية السابقة: أنَّ الأوضاع قد تغيَّرت، والأحوال قد انقلبت رأساً على عقب.

هذا؛ ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾ أمر معناه الوجوب، وأصله: «أَقْوِمُوا» فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علَّة متحرك، والحرف الصحيح أولى بالحركة من حرف العلة، فنقلت حركة الواو إلى القاف قبلها، فصار: «أَقِوْمُوا» ثمَّ قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة قبلها. ومعنى: (أقيموا الصلاة): أدُّوها في أوقاتها، وحافظوا على طهارتها، وأتمُّوا لها ركوعها، وسجودها، وخشوعها، ومن لم يؤدِّها على الوجه الأكمل يقال عنه: صلَّى، ولا يقال: أقام الصلاة.

وهذا؛ والصَّلاة في اللُّغة: الدعاء، والتَّضرُّع، وهي في الشرع: أقوال، وأفعال مخصوصة، مبتدأة بالتكبير، مختتمة بالتسليم، ولها شروطٌ، وأركانٌ، ومبطلاتٌ، ومندوباتٌ، ومكروهاتٌ مذكورةٌ في الفقه الإسلامي. هذا؛ وقد بيَّن الله تعالى: أنَّ أجود ما يُستعان به على تحمُّل المتاعب، والمصاعب الصَّبر، والصلاة. قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [١٥٣]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. وكان الرسول ﷺ إذا حزبه أمرٌ؛ فزع إلى الصلاة.

هذا؛ والصَّلاة من العبد معناها: التضرُّع، والدُّعاء، ومن الملائكة على العبد معناها: الاستغفار، وطلب الرَّحمة له، ومن الله على عباده معناها: الرحمة، والمغفرة، وإنزال البركات، وقد جمعت الأنواع الثلاثة في قوله تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٥٦]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾.

تنبيه: قال الشيخ أبو منصور ـ رحمه الله تعالى ـ: «القضاء» يحتمل الحكم، كقوله تعالى: ﴿لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا﴾ أي: ليحكم ما قد علم أنَّه يكون كائناً، أو ليتم أمراً كان قد أراده، وما أراد كونه، فهو مفعول لا محالة. انتهى.

هذا؛ والماضي: قضى، والمصدر: قضاء بالمد؛ لأنَّ لام الفعل ياء؛ إذ أصل ماضيه: «قَضَيَ» بفتح الياء، فقلبت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، ومصدره: «قَضَايَاً» فأبدلت الثانية همزة، فصار «قضاءً» ممدوداً، وجمع القضاء: أقضية. كعطاء، وأعطية، وهو في الأصل:

إحكام الشيء، وإمضاؤه، والفراغ منه، كما في الآية الكريمة التي نحن بصدد شرحها، ومنه قول الشَّاعر، وهو الشاهد رقم [١٧٩]: من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الخفيف]

وَجْهُكَ الْبَدْرُ لَا بَلِ الشَّمْسُ لَوْ لَمْ ... يُقْضَ لِلشَّمْسِ كَسْفَةٌ أَوْ أُفُولُ

وقال الشمَّاخ في عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يرثيه: [الطويل]

قَضَيْتَ أُمُوراً ثُمَّ غَادَرْتَ بَعْدَهَا ... بَوَائِقَ فِي أَكْمَامِهَا لَمْ تُفَتَّقِ

ويكون بمعنى الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وبمعنى العلم، تقول: قضيت كذا، أي: أعلمتك به، وبمعنى الفعل، قال تعالى حكاية عن قول السَّحرة لفرعون: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾، وبمعنى الإرادة، وهو كثير كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾، وبمعنى الموت، كقوله تعالى حكاية عن قول أهل النَّار في دار القرار: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ...﴾ إلخ.

ويأتي القضاء بمعنى الكتابة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي: مكتوباً في اللوح المحفوظ. وبمعنى الفصل، قال تعالى: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾. وبمعنى الخَلْق، كقوله تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾. وبمعنى بلوغ الأرب، والمُراد، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا﴾، وبمعنى: وفاء الدين، تقول: قضى فلانٌ ما عليه: إذا أوفى ذمَّته، وأبرأها ممَّا عليه مِنْ ديون. انتهى. قسطلاني شرح البخاري. وأضيف: أنَّه يكون بمعنى: أوحينا، كقوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ...﴾ إلخ.

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: فإذا كان القضاء بهذه المعاني، فلا يجوز إطلاق القول بأنَّ المعاصي بقضاء الله تعالى؛ لأنَّه إن أريد به الأمر؛ فلا خلاف: أنَّه لا يجوز ذلك؛ لأنَّ الله لا يأمر بها، فإنَّه لا يأمر بالفحشاء، وقال زكريا بن سلام: جاء رجلٌ إلى الحسن البصري، فقال: إنَّه طلق امرأته ثلاثاً، فقال: عصيت ربك، وبانت منك. فقال الرَّجل: قضى الله عليَّ؟ فقال الحسن، وكان فصيحاً: ما قضى الله ذلك؛ أي: ما أمر به، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ...﴾ إلخ.

بعد هذا؛ فقد جعل الله لكلِّ طاعةٍ، وعبادة أولاً، وآخراً، إلا الذِّكر، فإنَّه لا أوَّل له، ولا آخر، قال تعالى في سورة (الجمعة): ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، وقال تعالى في سورة (الأحزاب): ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾، وقال فيها أيضاً رقم [٤١]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾، وقال ابن عباسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: لم يفرض الله ـ عزَّ وجل ـ على عبادة فريضةً إلا جعل لها حدّاً معلوماً، ثمَّ عذر أهلها في حال العذر غير الذِّكر، فإنَّه لم يجعل له حدّاً ينتهي إليه، ولم يعذر أحداً في تركه إلا مغلباً على عقله، وأمرهم به في جميع الأحوال كلِّها،

وذكر الآية الكريمة التي نحن بصدد شرحها، وذكر آيتي (الأحزاب)، والمعنى: اذكروا الله في اللَّيل، والنَّهار، في البَرِّ، والبحر، في الصِّحَّة، والمرض، في السِّرِّ، والعلانية. وقيل: الذكر الكثير هو أن لا ينساه أبداً، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٩١] من سورة (آل عمران) تجد ما يسرُّك، ويثلجُ صدرك.

الإعراب: ﴿فَإِذَا﴾: الفاء: حرف استئناف. (إذا): انظر الآية رقم [١٠١]. ﴿قَضَيْتُمُ﴾: فعل وفاعل. ﴿الصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح. ﴿فَاذْكُرُوا﴾: الفاء: واقعة في جواب (إذا). (اذكروا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب (إذا) لا محلَّ لها. ﴿اللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، و(إذا) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا﴾: حالان من واو الجماعة، وهما مصدران بمعنى: قائمين، وقاعدين. ﴿وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾: متعلقان بمحذوف حال معطوف على ما قبلهما، التقدير: ومضجعين على جنوبكم: والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ﴾: الإعراب مثل سابقه، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، لا محلَّ له مثله.

﴿إِنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿الصَّلَوٰةَ﴾: اسمها. ﴿كَانَتْ﴾: فعل ماض ناقص، والتاء للتأنيث، واسمه ضمير مستتر تقديره: «هي»، يعود إلى: ﴿الصَّلَوٰةَ﴾. ﴿عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل: ﴿كَانَتْ﴾. أو هما متعلقان بـ﴿مَّوْقُوتًا﴾ بعدهما، وعلامة الجر الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿كِتَابًا﴾: خبر ﴿كَانَتْ﴾. ﴿مَّوْقُوتًا﴾: صفة له، صفة مؤكدة. وجملة: ﴿كَانَتْ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾

الشرح: سبب نزول هذه الآية الكريمة: أنَّ أبا سفيان، وأصحابه لمَّا رجعوا من غزوة أحد؛ بلغ النبيَّ ﷺ: أنَّهم ينوون الرُّجوع إلى المدينة، ليستأصلوا المسلمين، فندب الرسول ﷺ المسلمين لملاقاتهم، فَشَكَوْا من ألم الجراحات الَّتي أصابتهم في غزوة أحدٍ، فأورد الله عليهم الحجَّة في هذه الآية الكريمة، وألزمهم بها. وانظر الآية رقم [١٤٠]: ورقم [١٧٢]: من سورة (آل عمران) ففيهما الكفاية.

﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾: ولا تضعُفوا، ولا تجبُنوا في طلب المشركين، وملاقاتهم. ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ...﴾ إلخ؛ أي: إن كنتم تتألَّمون من الجراح، والقتال؛ فإنَّهم يتألَّمون منه كما

تتألَّمون. فهو مثل قوله في سورة (آل عمران) رقم [١٤٠]: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ﴾.

﴿وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ أي: أنتم وإيَّاهم فيما يصيبكم من الجرح، والآلام سواء، ولكن أنتم ترجون مِنَ الله المثوبة، والنَّصر، والتأييد، كما وعدكم في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ وهو وعد حق، وخبر صدقٍ، وهم لا يرجون شيئاً من ذلك، فأنتم أجدرُ بالجهاد، والقتال منهم، وأنتم أحقُّ في إقامة كلمة الله، وإعلانها. فما لكم لا تصبرون مِثْلَ صبرهم، مع أنَّكم أجدر بالصَّبر منهم؟!

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: هو أعلم فيما يُقَدِّره، ويقضيه، وينفذه، ويمضيه من أحكامه الكونية، والشَّرعية، وهو المحمود على كلِّ حال، وعلى كلِّ لسان. والحمد لله!.

هذا؛ و(ترجون) بمعنى: تؤمِّلون؛ لأنَّ أصل الرَّجاء الأملُ في الشَّيء، والطَّماعية فيه، قال الشاعر: [الوافر]

أَتَـرْجُـو أُمَّـةٌ قَـتَـلَـتْ حُـسَـيْـنَـاً شَـفَـاعَـةَ جَـدِّهِ يَـوْمَ الْـحِـسَـابِ

كما يأتي: «ما أرجو» بمعنى: ما أبالي، قال خبيب بن عديٍّ ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ: [الطويل]

لَـعَـمْـرُكَ مَـا أَرْجُـو إِذَا كُـنْـتُ مُـسْـلِـمَـاً عَـلَـى أَيِّ جَـنْـبٍ كَـانَ فـي اللهِ مَـصْـرَعِـي

هذا؛ و«الرَّجاء» يأتي بمعنى الخوف، قال تعالى في سورة (الفرقان): ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا...﴾ إلخ، وقال في آخر سورة (الكهف): ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا...﴾ إلخ، وهي لغة تهامة، ومنه قول أبي ذؤيب الهُذلي في صفة عَسَّال، أي: الذي يقطف عسل النَّحل: [الطويل]

إِذَا لَـسَـعَـتْـهُ الـدَّبْـرُ لَـمْ يَـرْجُ لَـسْـعَـهَـا وَخَـالَـفَـهَـا فِـي بَـيْـتِ نُـوبٍ عَـوَاسِـلُ

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف استئناف. (لا): ناهية. ﴿تَهِنُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿فِى ٱبْتِغَآءِ﴾: متعلقان بما قبلهما، و﴿ٱبْتِغَآءِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْقَوْمِ﴾: مضاف إليه، من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تَكُونُواْ﴾: فعل مضارع ناقص فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿تَأْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع. . .إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: ﴿تَكُونُواْ﴾، والجملة الفعلية هذه لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّه جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَإِنَّهُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّهم): حرف مشبه بالفعل، والهاء اسمه، وجملة: ﴿يَأْلَمُونَ﴾ في محل رفع خبره، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا

محلَّ لها؛ لأنّها لم تحلَّ محلَّ المفرد، و(أنْ) ومدخولها كلام مفيد لتعليل النهي، لا محلَّ لها، هذا وقرئ بفتح همزة (أن) فتكون ناصبة، والمصدر المؤول منها، ومِنَ الفعل بعده على هذا في محل جر بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: لأن تكونوا، وهي قراءة شاذَّة، وتكون الجملة: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ﴾ تعليلاً للنهي أيضاً بعد التعليل الأول.

﴿كَمَا﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية. ﴿تَأْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع... إلخ، و(ما) المصدرية، والفعل: ﴿تَأْلَمُونَ﴾ في تأويل مصدر في محل جرٍّ بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: فإنَّهم يألمون ألماً مثل ألمكم. وهذا ليس مذهب سيبويه، وإنَّما مذهبه في مثل هذا التركيب أن يكون منصوباً على الحال من المصدر المضمر المفهوم من الفعل المتقدِّم، وليس هذا منها، وجملة: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ﴾: معطوفة على جملة: ﴿يَأْلَمُونَ﴾، فإنَّ المعنى: وإنكم ترجون من الله. ﴿مَا﴾: مفعول به، وهي موصولة، أو موصوفة. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَرْجُونَ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: ويرجون من الله الذي، أو: شيئاً لا يرجونه؛ أي: الكفار. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: إعرابها واضح، والجملة مستأنفة.

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾: الواضح الَّذي لا خفاء فيه، ولا غموض، والمراد بالكتاب: القرآن الكريم. ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾: بما عرَّفك الله، وأوحى إليك. وإنَّما سمِّي العلم اليقيني: رؤيةً؛ لأنَّه جرى مجراها في قوَّة الظُّهور. ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ﴾: لأجل الخائنين. ﴿خَصِيمًا﴾: مخاصماً عنهم، أي: مدافعاً عنهم، ومعيناً لهم.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة، وما بعدها في طعمة بن أبيرق من بني ظفر من الأنصار، وكان قد سرق درعاً من جاره المسلم قتادة بن النُّعمان ـ رضي الله عنه ـ في جِراب فيه أثرُ دقيق، فجعل الدَّقيق ينتثر مِنْ خَرْقٍ فيه، وخبَّأها عند رجل من اليهود، يقال له: زيد بن السَّمين، فالتُمست الدِّرع عند طُعمة بسبب أثر الدَّقيق، فلم توجد، وحلف بالله ما أخذها، وما له بها مِنْ علم، فتركوه، واتبعوا أثر الدَّقيق حتى انتهى إلى نُزُل اليهودي، فأخذوها، فقال: دفعها إليَّ طُعمة بن أُبيرق، وشهد له ناسٌ من اليهود، فقال بنو ظفر: انطلقوا بنا إلى رسول الله ﷺ فنسأله أن يجادل عن صاحبنا، فذهبوا، وقالوا: يا رسول الله! إن لم تفعل؛ هلك طُعمة، وافتُضح، وبرئ اليهوديُّ! فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل، فنزل جبريل الأمين ـ عليه السلام ـ بهذه الآيات، ولمَّا

سمع طُعمة بذلك لحق بمكَّة مرتدّاً عن الإسلام، ونزل على سلافة بنت سعد بن شهيد، فقال حسَّان ـ رضي الله عنه ـ بيتين يُعَرِّض فيه بها، وهما: [الطويل]

وَقَدْ أَنْزَلَتْهُ بِنْتُ سَعْدٍ وَأَصْبَحَتْ يُنَازِعُهَا جِلْدَ اسْتِهَا وَتُنَازِعُهْ

ظَنَنْتُمْ بِأَنْ يَخْفَى الَّذِي قَدْ صَنَعْتُمُ وَفِينَا نَبِيٌّ عِنْدَهُ الْوَحْيُ وَاضِعُهْ

فلمَّا بلغها ذلك، قالت له: إنَّما أهديتَ إليَّ شعر حسَّان! وأخذت رحلَه، فطرحته خارج منزلها. ثمَّ إنَّ طُعمة بن أبيرق عدا على الحجَّاج بن علاط، فنقب عليه بيته، فسقط عليه حَجَرٌ من الحائط، فلمَّا أصبحوا، أخرجوه من مكَّة، فلقي ركباً مسافرين. فعرض لهم، وقال: ابن سبيل، ومنقطعٌ به، فحملوه معهم، حتى إذا جنَّ الليل عدا عليهم، فسرقهم، وهرب، فركبوا في طلبه، فأدركوه، فرموه بالحجارة حتَّى مات. ومن كانت هذه حاله كان كثير الخيانة، والإثم، فلذلك وصفه الله تعالى بالمُبالغة في الخيانة، والإثم.

قال بعضهم: إذا عثرت مِنْ رجل على سيئة؛ فاعلم: أنَّ لها أخوات. ويروى: أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ أمر بقطع يد سارق، فجاءت أمُّه تبكي، وتقول: هذه أوَّل سرقة سرقها، فاعفُ عنه يا أمير المؤمنين! فقال: كذبتِ ما كان الله ليفضحه مِنْ أوَّل مرة.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: حرف مشبه بالفعل. و(نا): اسمها، حذفت نونها للتَّخفيف، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿أَنزَلْنَآ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ)، والجملة الاسمية مبتدأة، أو مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الكتاب؛ أي: ملتبساً بالحقِّ. ﴿لِتَحْكُمَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ«أن» مضمرة بعد لام التعليل، والفاعل تقديره: أنت، و«أن» المضمرة، والفعل المضارع في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿أَنزَلْنَآ﴾. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه. ﴿بِمَآ﴾: جار، ومجرور متعلقان بالفعل: (تحكم)، و(ما) موصولة، أو موصوفة. ﴿أَرَىٰكَ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذُّر، والكاف مفعول به أوَّل. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف؛ إذ التقدير: بالذي، أو: بشيءٍ أراكه الله . ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية جازمة. ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ(لا) واسمه ضمير مستتر تقديره: «أنت». ﴿لِّلْخَآئِنِينَ﴾: متعلقان بـ﴿خَصِيمًا﴾ بعدهما الَّذي هو خبر: ﴿تَكُن﴾، وجملة: ﴿وَلَا تَكُن...﴾ إلخ معطوفة على جملة محذوفة، يدل عليها النظم الكريم، كأنَّه قيل: فاحكم به، ولا تكن. . . إلخ. ولا يعزب عن بالك: أنَّ الفاء المقدَّرة إنَّما هي الفاء الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرط مقدر، التقدير: وإذا كان ذلك حاصلاً؛ فاحكم. . . إلخ، والكلام كلُّه لا محلَّ له؛ لأنَّه معطوف على الجملة الاسمية قبله.

﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾: اطلب من الله المغفرة ممَّا هممت به، أي: من القضاء على اليهوديِّ بقطع يده، أو من جدالك عن طُعمة.

تنبيه: قد تمسَّك بهذه الآية من يرى صدور الذنب من الأنبياء، وقالوا: لو لم يقع من الرَّسول ﷺ ذنب؛ لما أُمِر بالاستغفار. والجواب عمَّا تمسَّكوا به: أنَّ درجة الرَّسول ﷺ أعلى الدرجات، ومنصبه أشرف المناصب، فلعلوِّ درجته، وشرف منصبه، وكمال معرفته بالله عزَّ وجل فما يقع منه ﷺ على وجه التأويل، أو الاجتهاد، كما في أسرى بدر، وإذنه للمنافقين في التخلف عن غزوة تبوك، وغير ذلك من أمور الدُّنيا، فإنَّه ذنبٌ بالنسبة إلى منصبه العظيم، وجاهه الكريم، كما قيل: حسنات الأبرار سيئات المقرَّبين، وذلك بالنسبة إلى منازلهم العالية، ودرجاتهم الرَّفيعة. والله أعلم، وانظر الآية رقم [٤٣] من سورة (التوبة) تجد ما يسرُّك.

الإعراب: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ﴾: الواو: حرف عطف. (استغفر): فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿ٱللَّهَ﴾ منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (لا تكن...) إلخ، لا محلَّ لها مثلها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: تقدَّم مثلها كثيراً وهي هنا مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها.

﴿وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَا تُجَٰدِلْ﴾: هذا الخطاب لسيد الخلق، وحبيب الحق ﷺ. ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ﴾: بتعريضها للعقاب، وحرمانها من الثواب. والاختيان: أبلغ من الخيانة، كالاكتساب، فإنَّه أبلغ من الكسب، وسمَّاه الله : خائناً لنفسه من حيث كان ضرره عائداً عليه، وكل عاصٍ لله خائنٌ لنفسه بتعريضها للعقاب، وتنقيص حقِّها من الثواب، وألف ﴿يَخْتَانُونَ﴾ مبدلة من واو؛ لأنَّه مِنْ: خان، يخون. وتقول في الجمع: خَوَنة، واسم الفاعل: خائن، وأصله: خاوِن، مثل: قائل أصله: قاوِل.

هذا؛ والمجادلة: المُخاصمة مِنَ الجدل، وهو الفَتْل، ومنه: رجل مجدول الخَلْق، ومنه الأجْدَل للصَّقر. وقيل: هو مِنَ الجَدَالة، وهي وجه الأرض، فكل واحد من الخصمين؛ يريد أن يلقي صاحبه عليها. ومنه قولهم: تركته مُجَدَّلاً؛ أي: مطروحاً على الجَدَالة.

هذا؛ والجدل، والجدال، والمجادلة: المماراة، وهي مذمومةٌ. فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ، إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ**» ثم قرأ:

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾». رواه الترمذيُّ، وابن ماجه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ﴾ أي: يبغض؛ لأنَّ معنى محبة الله للعبد: رضاه عنه، وغفر ذنوبه، وستر عيوبه، ومعنى عدم محبّته للعبد: طرده من جنّته، وإبعاده من رحمته. ﴿مَن كَانَ خَوَّانًا﴾: صيغة مبالغة بمعنى: كثير الخيانة. ﴿أَثِيمًا﴾: صيغة مبالغة أيضاً بمعنى كثير الإثم، والمراد به: طُعمة.

بعد هذا قال العلماء: ولا ينبغي إذا ظهر للمسلمين نفاق قومٍ أن يجادل فريق عنهم؛ ليحموهم، ويدفعوا عنهم، فإنَّ هذا قد وقع على عهد النبي ﷺ، وفيهم نزلت الآيات، والخطاب للنبيِّ ﷺ، والمراد منه: الَّذين كانوا يفعلونه من المسلمين دونه لوجهين: أحدهما: أنَّه تعالى أبان ذلك بما ذكره بعده بقوله: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، والآخر: أنَّ النبيَّ ﷺ كان حكماً فيما بينهم، ولذلك كان يُعْتَذَر إليه، ولا يَعْتَذِر هو إلى غيره، فدلَّ: أنَّ القصد لغيره. انتهى قرطبي بتصرف.

الإعراب: ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): ناهية. ﴿تُجَٰدِلْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها. ﴿عَنِ ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿يَخْتَانُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمه. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿مَن﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة بمعنى شخص أو إنسان، مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿مَن﴾ وهو العائد، أو الرابط. ﴿خَوَّانًا﴾: خبر: ﴿كَانَ﴾. ﴿أَثِيمًا﴾: خبر ثان، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾ أو صفتها، وجملة: ﴿لَا يُحِبُّ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ...﴾ إلخ تعليلٌ للنَّهي لا محلَّ لها.

﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾﴾

الشرح: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: يستترون من الناس خوفاً، وخجلاً. والمراد بذلك بنو ظفر قوم طُعمة بن أبيرق. ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾: وهو أحقُّ أن يستحيا منه. وأصل الاستخفاء: الاستتار، وإنَّما فُسِّر الاستخفاء بالاستحياء على المعنى؛ لأنَّ الاستخفاء من الناس يوجب الاستتار منهم. ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ بالعلم، والقدرة؛ أي: مطَّلعٌ عليهم، وعالمٌ بأحوالهم، ولا يخفى عليه شيء من أمرهم. هذا؛ وبين الجملتين طباق السَّلب، وهو من المحسِّنات البديعية. ﴿إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: أي: يدبرون، ويزوِّرون الَّذي لا يرضاه الله تعالى من عزمهم على

الحلف الكاذب، ونفي السرقة، ورمي اليهوديِّ بها، وانظر (بيَّت) في الآية رقم [٨١]: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ أي: عليماً دقيقاً، فلا يفوته شيءٌ مِنْ عملهم، ولا يعجزونه.

هذا؛ و«محيط» أصله: «مُحْوِط» لأنَّه مِنْ: أحاط، يحيط، أو مِنْ: حاط، يحوط، وهو أولى، فهو من الباب الأول، فقل في إعلاله: اجتمع معنا حرف صحيح ساكن، وحرف علَّة متحرِّك، والحرف الصَّحيح أولى بالحركة مِنْ حرف العلَّة، فنقلت حركة الواو إلى الحاء قبلها، فصار: «مُحِوْط» ثم قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة قبلها.

قال النَّسفي ـ رحمه الله تعالى ـ: وكفى بهذه الآية ناعيةً على الناس ما هم فيه من قلَّة الحياء، وعدم الخشية من ربهم مع علمهم: أنَّهم في حضرته، لا سترة، ولا غيبة عن علمه. وفي الآية دليلٌ على أنَّ الكلام هو المعنى القائم بالنَّفس حيث سمَّى التدبير: قولاً. انتهى.

الإعراب: ﴿يَسْتَخْفُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محلَّ لها، ويجوز اعتبارها في محلٍّ نصب حال من واو الجماعة في: ﴿يَخْتَانُونَ﴾. ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية، وجملة: (لا يستخفون من الله) معطوفة على ما قبلها على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿وَهُوَ﴾: الواو واو الحال. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلِّق بمحذوف خبر المبتدأ، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة، والجملة الاسمية في محلٍّ نصب حال من لفظ الجلالة، والرابط: الواو، والضمير.

﴿إِذْ﴾: ظرف لما مضى من الزّمان في الأصل، وهو هنا للحاضر، مبنيٌّ على السُّكون في محل نصب متعلِّق بالخبر المحذوف. ﴿يُبَيِّتُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة (إذ) إليها. ﴿مَا﴾: موصولة، أو موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿يَرْضَىٰ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والفاعل يعود إلى ﴿ٱللَّهُ﴾ والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، وهو المفعول به؛ إذ التقدير: الَّذي، أو: شيئاً لا يرضاه. ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المحذوف، العائد على: ﴿مَا﴾. و﴿مِنَ﴾: بيان لما أبهم في: ﴿مَا﴾.

﴿وَكَانَ﴾: الواو: حرف استئناف. (كان): فعل ماض ناقص. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿مُحِيطًا﴾ بعدهما، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية، فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بالباء، والجملة بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو: بشيءٍ يعملونه، وعلى اعتبار (ما) مصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محل جرٍّ بالباء، التقدير: بعملهم. ﴿مُحِيطًا﴾: خبر: (كان) وجملة: ﴿وَكَانَ...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾﴾

الشرح: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ...﴾ إلخ: خاصمتم، ودافعتم عنهم. والخطاب لقوم طعمة الذين حاولوا تبرئته من السَّرقة، وإلصاقها باليهوديِّ؛ أي: كما رأيت فيما تقدَّم. ﴿فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: فيه توبيخٌ، وتهديدٌ، ووعيدٌ. ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾: محامياً يحميهم من عذاب الله تعالى يوم القيامة. وانظر الآية رقم [٨١].

تنبيه: هذه الآية الكريمة تقرع قلب كلِّ مَنْ يدافع عن مجرم أثيم بالباطل: مِنْ قريبٍ للمجرم، أو محامٍ خبيث، وتصكُّ آذانهم، وتأتي على بنيانهم من القواعد، فهلا عمل المجرم الأثيم وكالةً لمحاميه الخبيث؛ ليدافع عنه أمام الله يوم القيامة؛ ليخلِّصه من العقاب الشَّديد، والعذاب الأليم.

الإعراب: ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾: (ها): حرف تنبيه لا محلَّ له. (أنتم): ضمير منفصل مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل نصب مفعول به لفعل محذوف، تقديره: أعني هؤلاء، أو هو مبني على الضمِّ المقدَّر على آخره في محل نصب بـ (يا) النداء المحذوفة، وعليه فجملة: ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة سواء أكانت فعلية، أم ندائية: معترضةٌ بين المبتدأ، والخبر، لا محلَّ لها من الإعراب، إلا أنَّ هذا لا يجيزه سيبويه؛ لأنَّ (أولاء) مبهم، ولا يُحذف حرف النداء مع المُبهم. هذا؛ ويعتبر الكوفيون: أنَّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم موصول هو الخبر، والجملة الفعلية بعده صلته. ولم يجزه البصريون؛ لأنَّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ اسم إشارة، ولا يكون بمعنى الَّذين. وهناك وجه ثالث، وهو: أنَّ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ خبر المبتدأ على تقدير مضاف محذوف، التقدير: ثمَّ أنتم مثل هؤلاء، كقولك: أبو يوسف أبو حنيفة، فعلى هذا جملة: ﴿جَٰدَلْتُمْ﴾ في محل نصب حال من: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾، والعامل في الحال معنى التشبيه. عكبري. في غير هذا الموضع. هذا؛ وأرى صحة وجه آخر، وهو أن يكون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ثانياً، وجملة: ﴿جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ﴾ في محل رفع خبره. هذا؛ ومثل الآية الكريمة في بعض أوجه إعرابها قول ذي الرُّمة ـ وهو الشَّاهد رقم [١٠٩٤] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الطويل]

إِذَا هَمَلَتْ عَيْنِي لَهَا قَالَ صَاحِبِي ... بِمِثْلِكَ ـ هَذَا ـ لَوْعَةٌ وَغَرَامُ

حيث قال الكوفيون: إنَّ التقدير: يا هذا؛ ومثله الشاهد رقم [١٠٩٥].

﴿جَٰدَلْتُمْ﴾: فعل وفاعل، ويجب تقدير «قد» قبلها على اعتبارها حالاً في بعض الوجوه. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

صفة ﴿ٱلْحَيَوٰةِ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والجملة الاسمية: ﴿هَٰٓأَنتُمْ...﴾ إلخ مستأنفةٌ، لا محلَّ لها.

﴿فَمَن﴾: الفاء: حرف استئناف، وتفريع. (مَنْ): اسم استفهام بمعنى النفي مبنيٌّ على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يُجَٰدِلُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (مَنْ)، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿عَنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلِّق بالفعل قبله، و﴿يَوْمَ﴾ مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: مضاف إليه. ﴿أَم﴾: حرف عطف. ﴿مَّن﴾: مبتدأ مثل ما قبله. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿مَّن﴾. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿وَكِيلًا﴾ بعدهما، وهو أولى مِنْ تعليقهما بالفعل: ﴿يَكُونُ﴾. ﴿وَكِيلًا﴾: خبره، وجملة: ﴿يَكُونُ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها لا محلَّ لها مثلها.

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا﴾ أي: عملاً يسوء به غيره، كما فعل طُعمة بالسَّرقة من قتادة، وإنَّما خُصَّ ما يتعدى إلى الغير باسم السُّوء؛ لأنَّ ذلك يكون في الأكثر إيصالاً للضَّرر إلى الغير. ﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ بما يختصُّ به، ولا يتعداه، وذلك كالشِّرك، والحلف الكاذب. ﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ﴾: يطلب منه المغفرة. انظر الآية رقم [١٣٥] من سورة (آل عمران) تجد ما يسرُّك، ويثلجُ صدرك.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة في ترغيب طُعمة في التَّوبة، وعرضها عليه. وقيل: نزلت في قومه الَّذين جادلوا عنه. وقيل: هي عامَّةٌ في كلِّ مذنبٍ، ومسيءٍ؛ لأنَّ خصوص السبب لا يمنع التَّعميم، وهو الأصحُّ.

تنبيه: قال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: في هذه الآية دليل على حكمين: أحدهما: أنَّ التوبة مقبولةٌ من جميع الذُّنوب: الكبائر، والصغائر؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ﴾ عمَّ الكلَّ. والحكم الثاني: أنَّ ظاهر الآية يقتضي: أنَّ مجرَّد الاستغفار كافٍ، وقال بعضهم: إنَّه مقيد بالتَّوبة؛ لأنَّه لا ينفع الاستغفار مع الإصرار. وهو المُعتمد، فالمستغفِر مِنَ الذَّنْب، وهو مصرٌّ عليه، كالمستهزئ بربِّه، وقد بيَّنتُه مراراً.

الإعراب: ﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿سُوٓءًا﴾: مفعول

به. ﴿أَوْ﴾: حرف عطف. ﴿يَظْلِمْ﴾: معطوف على: ﴿يَعْمَلْ﴾ مجزوم مثله، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿نَفْسَهُ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَسْتَغْفِرِ﴾: معطوف على فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم. ﴿يَجِدِ﴾: فعل جواب الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿ٱللَّهَ﴾ منصوب على التعظيم مفعول به أول. ﴿غَفُورًا﴾: مفعول به ثان. ﴿رَّحِيمًا﴾: مِنْ تَعدُّد المفعول الثاني؛ لأنَّ الأصل ـ وهو خبر المبتدأ ـ يتعدَّد. وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه. وجملة: ﴿يَجِدِ ٱللَّهَ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشَّرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية.

﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١١)﴾

الشرح: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾ أي: يعمل ذنباً يأثم به. ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ يعني: إنَّما يعود وبال كسبه عليه، والكسب عبارة عمَّا يفيد جر منفعة، أو دفع مضرَّة، فكأنَّ الله تعالى يقول: يا أيها الإنسان! إنَّ الذنب الذي ارتكبته إنَّما عادت مضرَّتُه عليك، فإني منزَّهٌ عن الضرِّ، فأكْثِرْ من الاستغفار، ولا تيئسْ مِنْ قبول التَّوبة. قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: فلا يُعاقِب بالذَّنب غير فاعله.

هذا؛ وقد فسِّر الإثم في آية (الأعراف) رقم [٣٢] بالخمرة، وهو قول الحسن، وعطاء. قال الجوهري: وقد تُسمَّى الخمرة: إثماً، واستدلَّ عليه بقول الشَّاعر: [الوافر]

شَرِبْتُ الإثْمَ حَتَّى ضَلَّ عَقْلِي ... كَذَاكَ الإثْمُ يَذْهَبُ بِالْعُقُولِ

قال ابن سيده صاحب المحكم: وعندي: أنَّ تسمية الخمرة بالإثم صحيحٌ؛ لأنَّ شربها إثم. وأنكر أبو بكر الأنباري تسمية الخمر بالإثم، قال: لأنَّ العرب ما سمَّته إثماً قطُّ لا في جاهلية، ولا في إسلام، ولكن قد يكون داخلاً تحت الإثم لقوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢١٩]: ﴿قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾. والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا﴾: مثل الآية السابقة. ﴿فَإِنَّمَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّما): كافة ومكفوفة. ﴿يَكْسِبُهُۥ﴾: فعل مضارع، والهاء مفعول به، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ...﴾ إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، فقيل: هو جملة الشَّرط. وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: الجملتان، وهو المرجَّح عند المعاصرين. والجملة الاسمية معطوفة على مثلها في الآية السابقة، لا محلَّ لها مثلُها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: إعراب هذه الجملة مثل إعراب ما قبلها، وهي مستأنفةٌ.

﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً﴾: ذنباً صغيراً، أو ما لا عمد فيه. ﴿أَوْ إِثْمًا﴾: ذنباً كبيراً، وما فيه عمد. وقيل: هما بمعنى واحد، وكُرِّر لاختلاف اللفظ تأكيداً. وهذه الآية لفظها عام يشمل جميع الذنوب. ﴿ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ﴾ أي: بالإثم، أو بالخطيئة، أو بهما جميعاً؛ لأنَّهما بمعنى واحد كما قدمت، أو المعنى: ثمَّ يرم بأحد الأمرين. هذا؛ وتجمع ﴿خَطِيٓـَٔةً﴾ على: خطايا، كما في الآية رقم [٥٨] من سورة (البقرة)، وعلى: خطيئات، كما في الآية رقم [١٦١] من سورة (الأعراف).

﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا﴾: استعارة؛ إذ الذنوب ثقلٌ، ووزر، فهي كالمحمولات، قال تعالى في سورة (العنكبوت) رقم [١٣]: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾. و(البهتان) مِنَ: البهت، وهو أن تستقبل أخاك بأن تقذفه بذنبٍ؛ وهو منه بريء؛ لأنَّه يبهت عند ذلك، ويتحيَّر. والبهتان: الافتراء، والفعل منه: بَهُتَ، وَبِهِتَ. وبُهِت: إذا انقطع، وسكت متحيِّراً مدهوشاً. وخذ ما يلي:

فقد روى مسلمٌ ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: **«أَتَدْرُونَ مَا الْغِيْبَةُ؟»** قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: **«ذِكْرُكَ أَخَاكَ فِيْمَا يَكْرَهُ»**. قيل: أرأيتَ إنْ كان في أخي ما أقولُ؟ قال: **«إِنْ كَانَ فِيْهِ مَا تَقُولُ؛ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيْهِ مَا تَقُولُ؛ فَقَدْ بَهَتَّهُ»**. رواه مسلمٌ، وأبو داود، والترمذي.

الإعراب: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا﴾: انظر إعراب مثله في الآية السَّابقة. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿يَرْمِ﴾: فعل مضارع معطوف على فعل الشَّرط مجزوم مثله، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿بَرِيٓـًٔا﴾: مفعول به. ﴿فَقَدِ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿ٱحْتَمَلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿بُهْتَٰنًا﴾: مفعول به، وجملة: ﴿فَقَدِ...﴾ إلخ في محل جزم جواب الشرط... إلخ. ﴿وَإِثْمًا﴾: معطوف على سابقه. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة: ﴿إِثْمًا﴾.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ﴾: كرمه، وجوده، وإنعامه. والخطاب للنبيِّ ﷺ، فقد تكرَّم الله عليه بإعلامه، وكشف ما أضمر، وبيَّت طُعمة، وقومُه مِنَ المُؤامرة، والخيانة؛ الَّتي رأيتها فيما سبق. ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾: المراد بهم: بنو ظفر قوم طُعمة، و(الطَّائفة): الجماعة من

الناس، و(همَّت) بمعنى: عزمت، وقرَّرت، وأرادت. والهمُّ: العزم على الشيء، والمقاربة من الفعل مِنْ غير دخولٍ فيه، ومنه قوله تعالى في سورة (يوسف) الصدِّيق ـ على نبينا وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾. وقال عمرو بن ضابئ البرجمي: [الطويل]

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكِدْتُ وَلَيْتَنِي ... تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَائِلُهْ

و«الهم» أيضاً: الحزن، ومثله: الغمُّ. ويفرَّق بينهما بأنَّ الأول لأجل تحصيل شيءٍ في المستقبل، والثاني لأجل فوات شيءٍ، وفقدانه في الماضي، وبأنَّ الأول يطرد النَّوم، ويسبب الأرق، والثاني يجلب النَّوم، ويسبِّب الهدوء، والسكون، والهموم، والأحزان إذا تفاقمت على الإنسان؛ أسرع فيه الشيب، وهزل جسمه. وروي عن النَّبِيِّ ﷺ: أنَّه قال: «**الْهَمُّ نِصْفُ الْهَرَمِ**». وقال أبو الطيِّب المتنبِّي: [الكامل]

وَالْهَمُّ يَخْتَرِمُ الْجَسِيمَ نَحَافَةً ... وَيُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ فَيَهْرَمُ

﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ أي: يبعدوك عن الحقِّ، والعدل مع علمهم بحقيقة الأمر. ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾: لأنَّ وباله عليهم بسبب تعاونهم على الإثم، وبشهادتهم له: أنَّه بريء، فهم لمَّا أقدموا على ذلك؛ رجع وباله عليهم. ﴿وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ يعني: وإن بذلوا جهدهم في إلقائك في الباطل، فأنت ما وقعت فيه؛ لأنَّ الله متولِّي شؤونك، وحافظك، وعاصمك من الزَّلل، والخطأ في حياتك كلِّها، وما هممت به كان اعتماداً منك على ظاهر الأمر، لا ميلاً في الحُكم، وخروجاً عن الحقِّ.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾: القرآن. ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: القضاء بهما، وانظر الآية رقم [٥٤]، فكيف يضرُّونك بتدليسهم، وخداعهم، وإلقائك في الشُّبهات؟! ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾: من أحكام الشرع، وأمور الدين، وعلَّمك من خفيات الأمور، وأطلعك على ضمائر القلوب، وعلَّمك من أحوال المنافقين، وكيدهم ما لم تكن تعلم.

﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ يعني: لم يزل فضل الله عليك يا محمد عظيماً، فاشكره على ما أولاك من إحسان، ومنَّ عليك بنبوَّته، وعلَّمك ما أنزل عليك مِنْ كتابه، وحكمته، وعصمك مِمَّن حاول إضلالك؛ فإنَّ الله هو الذي تولَّاك بفضله، وشملك بإحسانه، وكفاك غائلة مَنْ أرادك بسوءٍ. ففي هذه الآية تنبيه من الله عزَّ وجل، وتذكير لنبيه ﷺ على ما حباه مِنْ ألطافه، وما شمله مِنْ فضله، وإحسانه؛ ليقوم بواجب حقِّه. انتهى خازن.

بعد هذا: فالفعل «علم، وتعلم» في هذه الآية من المعرفة، لا مِنَ العلم اليقيني، والفرق بينهما: أنَّ المعرفة تكتفي بمفعول واحد، قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى في ألفيته ـ: [الرجز]

لِعِلْمِ عِرْفَانٍ وَظَنٍّ تُهَمَهْ ... تَعْدِيَةٌ لِوَاحِدٍ مُلْتَزَمَهْ

بخلافه من العلم اليقيني، فإنَّه ينصب مفعولين، أصلهما مبتدأ، وخبر، وأيضاً فالمعرفة تستدعي سبق جهل، وأنَّ متعلقها الذوات، دون النَّسب، بخلاف العلم، فإنَّ متعلقه المعاني، والنسب. وتفصيل ذلك: أنَّك إذا قلت: عرفت زيداً، فالمعنى: أنَّك عرفت ذاته، ولم ترد: أنَّك عرفت وصفاً من أوصافه، فإذا أردت هذا المعنى؛ لم يتجاوز مفعولاً واحداً؛ لأنَّ العلم والمعرفة تناول الشيء نفسه، ولم يقصد إلى غير ذلك. وإذا قلت: عرفت زيداً فقيهاً؛ لم يكن المقصود: أن العلم تناول نفس زيد فحسب، وإنَّما المعنى: أن العلم تناول كون زيد موصوفاً بهذه الصفة.

الإعراب: (لولا) حرف امتناع لوجود. ﴿فَضْلُ﴾: مبتدأ، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه، مِنْ إضافة المصدر لفاعله، وخبر المبتدأ محذوف، تقديره: موجود. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالمصدر: ﴿فَضْلُ﴾. ﴿وَرَحْمَتُهُۥ﴾: معطوف على المبتدأ، والهاء في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة المصدر لفاعله، ومتعلقه محذوف لدلالة ما قبله عليه، والجملة الاسمية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، وقائمة مقام شرط (لولا). ﴿لَهَمَّت﴾: اللام: واقعة في جواب (لولا). (همت): فعل ماض، والتاء للتأنيث. ﴿طَّآئِفَةٌ﴾: فاعله. ﴿مِّنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿طَّآئِفَةٌ﴾. ﴿أَن﴾: حرف مصدري ونصب. ﴿يُضِلُّوكَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعول به، والمصدر المؤوَّل من الفعل وناصبه في محل نصب بنزع الخافض، التقدير: بإضلالك، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وجملة: ﴿لَهَمَّت...﴾ إلخ جواب (لولا) لا محلَّ لها. وقيل: إنَّ جواب (لولا) محذوف، تقديره: لأضلوك، وجملة: ﴿لَهَمَّت...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. والذي حمل القائل على هذا هو أنَّ اللفظ يقتضي انتفاء همِّهم بذلك؛ لأنَّ «لولا» تقتضي انتفاء جوابها لوجود شرطها، وهمهم موجودٌ. والجواب: أنَّ المراد نفي تأثير همِّهم فيه، لا نفيه أصلاً. والجملة الاسمية: (لولا...) إلخ كلامٌ مستأنفٌ لا محلَّ له.

﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿يُضِلُّونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون.. إلخ، والواو فاعله. ﴿إِلَّآ﴾: أداة حصر. ﴿أَنفُسَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير، والجملة الفعلية بعدها معطوفة عليها، وهي في محل نصب حالٍ مثلها. ﴿مِن﴾: حرف جر صلة. ﴿شَيْءٍ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره منع من ظهوره اشتغال المحل بحركة الجر الزائد.

﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ﴾: الواو: حرف عطف. (أنزل الله): ماض، وفاعله. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: معطوف على ما قبله. (علمك): فعل ماض، ومفعوله الأول، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثانٍ. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿تَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَمْ﴾ واسمه ضمير مستتر تقديره: أنت. ﴿تَعْلَمُ﴾: فعل مضارع، وفاعله تقديره: أنت، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: ﴿تَكُن﴾، ومفعول الفعل محذوف للتعميم، والجملة الفعلية صلة ﴿مَا﴾، أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، إذ التقدير: الذي، أو: شيئاً لم تكن تعلمه، وجملة: ﴿وَعَلَّمَكَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها.

﴿وَكَانَ﴾: الواو: حرف عطف. (كان) فعل ماض ناقص. ﴿فَضْلُ﴾: اسمُها، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله. ﴿عَلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿فَضْلُ﴾، ﴿عَظِيمًا﴾: خبر (كان). والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال أيضاً، وإن اعتبرتها مستأنفة؛ فلا محلَّ لها.

﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾

الشرح: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾: أراد ما تفاوض به قوم بني أبيرق، وما دبَّروه لتخليص مجرمهم من حدِّ السرقة، وذكروه للنبيِّ ﷺ. وهو عام في كلِّ مناجاة لا تكون بطاعة الله؛ لأنَّ خصوص السبب لا يمنع التعميم. هذا؛ والنَّجوى: حديث المُسارة بين اثنين، وأكثر، وهي مشتقَّةٌ من: نجوت الشيء، أنجوه: إذا خلَّصته، وأفردته. والنَّجوة من الأرض: المرتفع، لانفراده عمَّا حوله، والنَّجوى: مصدر، وقد تُسمى به الجماعة، وبه قيل في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ رقم [٤٧] من سورة (الإسراء)، كما يقال: قومٌ عَدْلٌ، ورضاً. وخذ ما يلي:

فعنْ عبد الله بن مَسْعودٍ ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إِذَا كُنْتُمْ ثَلَاثَةً؛ فَلَا يَتَنَاجَ اثْنَانِ دُونَ الآخر، حَتَّى يختلطوا بالنَّاس؛ من أجل أن ذلك يُحْزِنه**» رواه مسلم.

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أيضاً: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**لَاْ يَنْتَجِي اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ، فَإِنَّ ذَلِكَ يُحْزِنه**». رواه أبو داود. وانظر ما ذكرته في سورة (المجادلة) فإنَّه جيِّد، والحمد لله!.

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾: حثَّ النَّاس، ورغَّبهم في إنفاق المال في وجوه الخير، وفي سبيل الله. ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾: المعروف: لفظ يعمُّ أعمال البرِّ كلِّها؛ أي: ونهى عن منكر. هذا؛ والمعروف:

كل ما يستحسنه الشَّرع، والعقول السليمة تضافرت على استحسانه. قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَة، وَإِنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلْقٍ**». وقال ﷺ: «**الْمَعْرُوفُ كَاسْمِهِ، أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَعْرُوفُ، وَأَهْلُهُ**». وقال عليٌّ ـ رضي الله عنه ـ: لا يزهدنَّك في المعروف كفر مَنْ كفره، فقد يشكر الشَّاكر بأضعاف جحود الكافر. وقال الحطيئة: [البسيط]

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْر لَا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ ... لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

وأنشد الرِّياشي: [الوافر]

يَدُ الْمَعْرُوفِ غُنْمٌ حَيْثُ كَانَتْ ... تَحَمَّلَهَا كَفُورٌ أَوْ شَكُورُ

فَفِي شُكْرِ الشَّكُورِ لَهَا جَزَاءٌ ... وَعِنْدَ اللهِ مَا كَفَرَ الْكَفُورُ

وقال الماورديُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: فينبغي لمن قدر على إسداء المعروف أن يعجِّله حذار فواته، ويبادر به خيفة عجزه، وليعلم: أنَّه مِنْ فُرَص زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بالقُدرة عليه، فكم مِن واثق بقدرة فاتت، فأعقبت ندماً، ومُعَوِّل على مِكْنَةٍ زالتْ، فأورثت خجلاً، كما قال الشاعر: [البسيط]

مَا زِلْتُ أَسْمَعُ كَمْ مِنْ وَاثِقٍ خَجِلٍ ... حَتَّى ابْتُلِيْتُ فَكُنْتُ الْوَاثِقَ الْخَجِلَا

ولو فطن لنوائب دهره، وتحفَّظ مِنْ عواقب مكره؛ لكانت مغانمه مذخورةً، ومغارمه مجبورةً، فقد روي عن النبي ﷺ: أنَّه قال: «**مَنْ فُتِحَ عَلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْخَيْرِ؛ فَلْيَنْتَهِزْهُ، فَإِنَّه لَا يَدْرِي مَتَى يُغْلَقُ عَنْهُ**». وروي عن رسول الله ﷺ: أنَّه قال: «**لِكُلِّ شَيْءٍ ثَمَرَةٌ، وَثَمَرَةُ الْمَعْرُوفِ السَّرَاحُ**» أي: التعجيل، ورحم الله من قال: [الوافر]

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَاغْتَنِمْهَا ... فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونُ

وَلَا تَغْفَلْ عَنِ الإِحْسَانِ فِيْهَا ... فَمَا تَدْرِي السُّكُونُ مَتَى يَكُونُ؟

وقال العباس ـ رضي الله عنه ـ: لا يتمُّ المعروف إلا بثلاث خصال: تعجيله، وتصغيره، وستره. فإذا عجلته؛ هنأته، وإذا صغرته؛ عظمته، وإذا سترته؛ أتممته. وقال بعض الشعراء: [الرمل]

زَادَ مَعْرُوفَكَ عِنْدِي عِظَمَاً ... أَنَّهُ عِنْدَكَ مَسْتُورٌ حَقِيرُ

تَتَنَاسَاهُ كَأَنْ لَمْ تَأْتِهِ ... وَهُوَ عِنْدَ النَّاسِ مَشْهُورٌ خَطِيرُ

ومن شرط المعروف: ترك الامتنان به، وترك الإعجاب بفعله؛ لما فيهما من إسقاط الشكر، وإحباط الأجر.

﴿أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾: عام في الدِّماء، والأموال، والأعراض، وفي كلِّ شيءٍ يقع به التداعي، والاختلاف فيه بين المسلمين، وقد قال النبيُّ ﷺ لأبي أيوب ـ رضي الله عنه ـ: «**أَلَا**

أَدُلُّكَ عَلَى صَدَقَةٍ يُحِبُّهَا اللهُ وَرَسُولُهُ: تُصْلِحُ بَيْنَ النَّاسِ؛ إِذَا تَفَاسَدُوا، وَتُقَرِّبُ بَيْنَهُمْ؛ إِذَا تَبَاعَدُوا». رواه الطبرانيُّ.

وعن أبي الدَّرداء ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلَ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ، وَالصَّلَاةِ، وَالصَّدَقَةِ؟**» قَالُوا: بَلَى. قال: «**إِصْلَاحُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ الْبَيْنِ هِيَ الْحَالِقَةُ**». رواه أبو داود، والترمذي. وقال الترمذيُّ أيضاً: ويروى عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**هِيَ الْحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ تَحْلِقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَحْلِقُ الدِّينَ**».

﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي: الأمور المتقدِّم ذكرها. ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾: يعني: طلب رضاه؛ لأنَّ الإنسان إذا فعل ذلك خالصاً لوجه الله؛ نفعه، وإن فعله رياءً، وسمعةً؛ لم ينفعه ذلك لقوله ﷺ: «**إِنَّما الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ...**» الحديث. ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ﴾ يعني: في الآخرة إذا فعل ذلك ابتغاء مرضاة الله. ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾: لا حدَّ له؛ لأنَّ الله سمَّاه عظيماً، وإذا كان كذلك؛ فلا يعلم قدره إلا الله. هذا؛ ويقرأ الفعل: ﴿نُؤْتِيهِ﴾ بالياء والنون.

الإعراب: ﴿لَّا﴾: نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ». ﴿خَيْرَ﴾: اسم: ﴿لَّا﴾ مبني على الفتح في محل نصب. ﴿فِي كَثِيرٍ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿لَّا﴾ أو هما متعلِّقان بـ ﴿خَيْرَ﴾، أو بمحذوف صفة له، وعليهما فالخبر محذوف، تقديره: موجودٌ، والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بـ﴿كَثِيرٍ﴾ أو بمحذوف صفة له، وعلامة الجر كسرة مقدَّرة على الألف للتعذر، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء، أو حرف حصر. ﴿مَنْ﴾: اسم موصول، أو نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب على الاستثناء، وهي على حذف مضاف، التقدير: إلا نجوى مَنْ. وقيل: هو على الاستثناء المنقطع، التقدير: لكن مَنْ... إلخ، وهذا يعني: أنَّ ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: (لكن)، وعلى تفسير «نجوى» بقوم، أو جماعة، فالاستثناء متَّصل، ولا حذف، ولا تقدير، أو هو بدل مِنْ: ﴿نَّجْوَىٰهُمْ﴾ بدل بعض من كل؛ لأنَّ الكلام منفي، وعلى اعتبار ﴿إِلَّا﴾ بمعنى: لكن يجوز أن تكون ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع مبتدأ، والخبر محذوف، التقدير: لكن مَنْ أمر... ففي نجواه خير، وعليه فالجملة الاسمية في محل نصب على الاستثناء من الكلام السابق، وجملة: ﴿أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ﴾ صلة: ﴿مَنْ﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط رجوع الفاعل إليها. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بـ﴿إِصْلَٰحٍ﴾ أو بمحذوف صفة له، و﴿بَيْنَ﴾: مضاف، و﴿ٱلنَّاسِ﴾: مضاف إليه.

(مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَفْعَلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل نصب مفعول به، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿ٱبْتِغَآءَ﴾: مفعول لأجله، وهو مضاف، و﴿مَرْضَاتِ﴾: مضاف إليه مِنْ إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف، و﴿مَرْضَاتِ﴾

مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله أيضاً، وفاعله محذوف أيضاً. ﴿فَسَوْفَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (سوف): حرف استقبال، وهي مفيدة للتحقيق، والتوكيد هنا. ﴿نُؤْتِيهِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدَّرة على الياء للثقل، والفاعل تقديره: نحن، والهاء مفعول به أول. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول به ثان. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، وجملة: (سوف...) إلخ في محل جزم جواب الشرط...إلخ، وخبر المبتدأ مختلف فيه كما ذكرته لك مراراً وتكراراً، والجملة الاسمية: ﴿وَمَن...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة، والتي بعدها بسبب طُعمة بن أبيرق السَّارق لمَّا حكم الرسول ﷺ بقطع يده، وهرب إلى مكَّة، وارتدَّ عن الإسلام، كما رأيته فيما سبق، ومعنى: ﴿يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾ ﷺ: يخالفه، ويخرج عن طاعته. هذا؛ وللشِّقاق ثلاثة معانٍ انظرها في الآية رقم [٣٥].

هذا؛ والفعل ﴿يُشَاقِقِ﴾ بالفكِّ هنا، وقرئ بسورة (الأنفال) رقم [١٣]، وسورة (الحشر) رقم [٤] بالفكِّ، والإدغام، وقد ذكرت هناك: أنَّهما قراءتان، والقراءة توقيفية، والقواعد النحوية تجيز في المُضارع المضعَّف المجزوم بجازم: الفكَّ، والإدغام.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ﴾: ظهر له الحق. هذا؛ ويقال: تبين الشيء، وبان، وأبان، واستبان، كلُّه بمعنى واحد، وهو لازم، وقد يستعمل بعضها متعدياً، يقال: استبان الشَّيءَ، واستبنتُه. ﴿وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: غير ما هم عليه من اعتقادٍ، أو عمل. وهو دليلٌ على: أنَّ الإجماع حجَّة شرعية لا يجوز مخالفتُها، كما لا تجوز مخالفة الكتاب، والسنة؛ لأنَّ الله تعالى جمع بين اتِّباع غير سبيل المؤمنين، وبين مشاقَّة الرَّسول في الشَّرط، وجعل جزاءه الوعيد الشديد، فكان اتِّباعهم واجباً كموالاة الرَّسول ﷺ. انتهى نسفي.

﴿نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾: نجعله والياً لما تولى مِنَ الضَّلالِ، وندعه وما اختاره في الدُّنيا لنفسه. أي: إذا سلك الطَّريق المعوجَّة؛ جازيناه على ذلك بأن نحسنها في صدره، ونزينها له استدراجاً له، كما قال تعالى: ﴿فَذَرۡنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِۖ سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾. ﴿وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾: ندخله في الآخرة جهنم جزاء إعراضه عن متابعة الرَّسول ﷺ، وطريق المؤمنين في الدنيا. ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾: ساء: فعل ذم يجري مجرى: «بئس». ﴿مَصِيرًا﴾: مقرّاً، ومآلاً.

روي: أنَّ الشافعي ـ رضي الله عنه ـ سئل عن آية في كتاب الله تعالى تدلُّ على أنَّ الإجماع حجَّة، فقرأ القرآن ثلاثمئة مَرَّة حتَّى استخرج هذه الآية. انتهى خازن.

الإعراب: (مَنْ يشاقق): إعرابه مثل إعراب ما قبله، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿ٱلرَّسُولَ﴾: مفعول به. ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من المصدر المفهوم من الفعل السابق. ﴿مَا﴾: مصدرية. ﴿تَبَيَّنَ﴾: فعل ماض. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿ٱلۡهُدَىٰ﴾: فاعل مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الألف للتعذر. و﴿مَا﴾ والفعل: ﴿تَبَيَّنَ﴾ في تأويل مصدر في محل جر بإضافة: ﴿بَعۡدِ﴾ إليه، التقدير: من بعد تبيين الهدى له. ﴿وَيَتَّبِعۡ﴾: معطوف على فعل الشرط مجزوم مثله، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً. ﴿غَيۡرَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف إليه، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿نُوَلِّهِۦ﴾: جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة مِنْ آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به أول. ﴿مَا﴾: تحتمل الموصولة، والموصوفة، فهي مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿تَوَلَّىٰ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أيضاً، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: الذي، أو: شيئاً تولاه. ﴿وَنُصۡلِهِۦ﴾: معطوف على: ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ مجزوم مثله، وجملة: ﴿نُوَلِّهِۦ...﴾ إلخ جواب الشرط، لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تقترن بالفاء، ولا بإذا الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه، كما رأيته في الآية رقم [١١١].

تنبيه: يجوز في العربية نصب: (يَتّبع)، ونصب: (نُصْلِه) ورفعه، وهذا يعتمد على قاعدة، وهي أنَّه: إذا عطف مضارع بالواو، أو بالفاء على فعل الشرط جاز نصبه على إضمار «أن» وجزمه بالعطف على فعل الشرط، وإذا عطف مضارع على جواب الشرط بالواو وبالفاء، يجوز جزمه بالعطف على جواب الشرط، ونصبه على إضمار «أن» ورفعه على الاستئناف، ولكن لم يقرأ في هذه الآية بغير الجزم. قال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته في عوامل الجزم: [الرجز]

وَالْفِعْلُ مِنْ بَعْدِ الْجَزَا إنْ يَقْتَرِنْ ... بِالْفَا أَوِ الْوَاوِ بِتَثْلِيثٍ قَمِنْ

وَجَزْمٌ أَوْ نَصْبٌ لِفِعْلٍ إثْرَ فَا ... أَوْ وَاوٍ انْ بِالْجُمْلَتَيْنِ اكْتَنَفَا

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ...﴾ إلخ: انظر شرحها في الآية رقم [٤٨]. ﴿ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾: خرج عن جادة الحقِّ، وابتعد عن الصراط المستقيم، وإن الشِّرك أعظم أنواع الضلالة، وأبعدها

عن الصَّواب، والاستقامة، وانظر الآية رقم [٦٠] ورقم [٨٨]. وإنَّما ذكر سبحانه في الآية الأولى: ﴿فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ﴾ لأنَّها متصلة بقصَّة أهل الكتاب، ومنشأ شركهم نوع افتراء، وهو دعوى التبنِّي.

تنبيه: نزلت الآية الأولى في حقِّ وحشي قاتل الحمزة - رضي الله عنه -، وهي متَّصلةٌ بالكلام على أهل الكتاب، فهي تُرغِّبهم في الإيمان. ونزلت هذه الآية في ترغيب طُعمة بن أبيرق بالتَّوبة، والرُّجوع إلى الإيمان، فلا تكرار في الكلام.

هذا؛ وقيل: جاء شيخٌ إلى رسول الله ﷺ، وقال: إنِّي شيخٌ منهمكٌ في الذنوب، والمعاصي، إلا أنِّي لم أشرك بالله شيئاً منذ عرفته، وآمنت به، ولم أتَّخذ من دونه وليّاً، ولم أقع في المعاصي جراءة على الله، ولا مكابرةً له، وما توهَّمت طرفة عين أنِّي أعجز الله هرباً، وإني لنادم تائب، فما ترى حالي عند الله تعالى؟ فنزلت الآية الكريمة. وسبق إعراب مثل هذه الآية.

﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِن يَدْعُونَ﴾: ما يعبدون؛ أي: الكفار. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: من دون الله. ﴿إِلَّآ إِنَٰثًا﴾: المراد بها: الأصنام المسمَّاة باللات، والعزى، ومناة، ونحوها، كان لكلِّ حيٍّ صنمٌ يعبدونه، ويسمُّونه: أنثى بني فلان، وذلك لتأنيث أسمائها، أو لأنَّه كانت جمادات، والجمادات تؤنَّث من حيث ضاهت الإناث لانفعالها، أي: لخلقها، ومن حقِّ المعبود أن يكون خالقاً. وقيل: أنِّثت؛ لأنَّهم كانوا يقولون في أصنامهم: هنَّ بنات الله. وقيل: لأنَّهم كانوا يلبسونها أنواع الحلي، ويزيِّنوها على هيئات النِّساء.

﴿شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾: لأنَّه هو الذي أمرهم بعبادتها، فكانت طاعته في ذلك عبادةً له. ونظيره في المعنى قول الله عزَّ وجل في سورة (التوبة): ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: أطاعوهم فيما أمروهم به، لا أنهم عبدوهم. وانظر شرح «الشيطان» في الآية رقم [٧٦]. هذا؛ وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: لكلِّ صنم شيطان يدخل في جوفه، ويتراءى للسَّحرة، والكهنة، ويكلِّمهم: فلذلك قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا﴾.

هذا؛ و(مَرِيْد) هو الذي بلغ النهاية في الشرِّ، والفساد، يقال: «مرد» من بابي: نصر، وظرف: إذا عتا، وتجبر؛ فهو مارد، ومريد. هذا؛ وأصل (دون) مِنَ الدُّون، وهو: القرب، ومثله: أدنى، قال تعالى في الآية رقم [٤]: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ ومنه تدوين الكتب؛ لأنَّه إدناء؛ أي: تقريب البعض من البعض، ثمَّ استُعير للرُّتب، فيقال: زيد دون عمرو؛ أي: في الشرف، والسيادة، ثم اتُّسع فيهما، فاستُعملا في كلِّ تجاوز حدٍّ إلى حدٍّ، وتخَطِّي حكم إلى حكم، قال تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٢٨]: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: لا يتجاوز وقاية المؤمنين إلى الكافرين، وقال أميَّة بن أبي الصَّلت: [البسيط]

يَـا نَـفْـسُ مَـا لَـكِ دُونَ اللهِ مِـنْ وَاقِ وَلَا لِـسَّـبْـعِ بَـنَـاتِ الـدَّهْـرِ مِـنْ رَاقِ

أي: إذا تجاوزتِ وقاية الله، ولم تناليها لم يقكِ غيره. ويأتي (دون) بمعنى قُدَّام، قال الأعشى: [الطويل]

تُـرِيـكَ الْـقَـذَى مِـنْ دُونِـهَـا وَهْـيَ دُونَـهُ إِذَا ذَاقَـهَـا مَـنْ ذَاقَـهَـا يَـتَـمَـطَّـقُ

و(دون) نقيض: فوق، وهو تقصير عن الغاية، ويكون اسم فعل أمر، كقولك: دُونَكَ الدِّرهمَ؛ أي: خذه، ويكون ظرفاً، وهو الأصل فيه، والدون: الحقير، الخسيس، قال الشاعر: [المتقارب]

إِذَا مَـا عَـلَا الْـمَـرْءُ رَامَ الْـعُـلَا وَيَـقْـنَـعُ بِـالـدُّونِ مَـنْ كَـانَ دُونَـا

الإعراب: ﴿إِن﴾: حرف نفي بمعنى «ما». ﴿يَدْعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿إِلَّآ﴾: حرف حصر. ﴿إِنَٰثًا﴾: مفعول به، وجملة: ﴿وَإِن يَدْعُونَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. وقال الجمل: الجملتان بمنزلة التَّعليل لما قبلهما. تأمَّل، وتدبَّر، وربُّك أعلم، وأجل، وأكرم.

﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿١١٨﴾﴾

الشرح: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾: أبعده من رحمته، وطرده من جنَّته، وانظر الآية رقم [٥٢]. ﴿وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ﴾: أي: لأجعلنَّ لي. ﴿مِنۡ عِبَادِكَ﴾: (عباد) جمع: عبد، وهو الإنسان حرّاً كان أو رقيقاً، ويقال للملوك: عبد قِن، وله جموع كثيرة، أشهرها عبيد، وعباد، وعبدان، وعبدة، والإضافة في نحو قوله تعالى: ﴿قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلخ إضافة تشريف، وتكريم، وذِكْرُ العبودية مقامٌ عظيم، ولو كان للنبيِّ ﷺ اسم أشرف منه، وأعظم؛ لسمَّاه به حينما أسرى به مِنَ المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى حيث قال جلَّ ذكره: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ﴾. وفي معناه أنشدوا: [السريع]

يَـا قَـوْمُ قَـلْـبِـي عِـنْـدَ زَهْـرَاءَ يَـعْـرِفُـهُ الـسَّـامِـعُ وَالـرَّائِـي
لَا تَـدْعُـنِـي إِلَّا بِـيَـا عَـبْـدَهَـا فَـإِنَّـهُ أَشْـرَفُ أَسْـمَـائِـي

﴿نَصِيبٗا﴾: حظّاً مقطوعاً واجباً لي، وهذا النصيب المقطوع هم الذين يتبعون خطواته، ويقبلون وساوسه، وهم تسعمئة وتسعة وتسعون من كل ألف، فيدخل الجنَّة من كلِّ ألف واحد، لقول النبي ﷺ: «**مَا أَنْتُمْ فِيْمَنْ سِوَاكُمْ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي جِلْدِ الثَّوْرِ الأَسْوَدِ**». ويعضده قوله

تعالى لآدم يوم القيامة: «**يَا آدمَ! أَخْرِجْ مِنْ ذُرِّيَتِكَ بَعْثَ النَّارِ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ! وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: أَخْرِجْ مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِئَة وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ فعند ذلك تشيب الأطفال من شدَّة الهول**». أخرجه مسلم. فنصيب الشَّيطان هو بعث النَّار، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٧] من سورة المُزمِّل؛ تجد ما يسرك.

الإعراب: ﴿لَعَنَهُ﴾: فعل ماض ومفعوله. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب صفة ثانية لـ﴿شَيْطَٰنًا﴾ في الآية السابقة، أو في محل نصب حال منه بعد وصفه بما تقدَّم، وجوَّز «الجَمَلُ» فيها الاستئناف، وقال: إمَّا إخبار بذلك، وإما دعاءٌ عليه. (قال): فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿شَيْطَٰنًا﴾. ﴿لَأَتَّخِذَنَّ﴾: فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، واللام واقعة في جواب القسم المحذوف، والنون حرف لا محلَّ له، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنا، والجملة الفعلية جواب القسم المحذوف، والقسم وجوابه في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقَالَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب صفة مثلها، أو هي في محل نصب حال من الضمير المنصوب، وهي على تقدير «قد» قبلها، والرابط: الواو، والضمير، وجُوِّز اعتبارها مستأنفة. ﴿مِنْ عِبَادِكَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محلِّ نصب مفعول به ثان، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿نَصِيبًا﴾: مفعول به. ﴿مَّفْرُوضًا﴾: صفة له.

﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾ أي: لأبعدنَّهم عن طريق الحقِّ. والمراد: التَّزيين، والوسوسة، وإلا؛ فليس له من الإضلال شيءٌ. قال بعضهم: لو كانت الضلالة إلى إبليس؛ لأضلَّ جميع الخلق. ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ﴾ قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد تسويف التوبة، وتأخيرها. وقال الكلبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: أي: الأماني الباطلة، كطول الحياة، وأنْ لا بعث، ولا حساب، ولا عقاب، ولا جنَّة، ولا نار. انتهى. والأماني لا تنحصر؛ لأنَّ كل واحد في نفسه إنَّما يمنِّيه بقدر رغبته، وقرائن أحواله. ﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ أي: يقطِّعونها، ويُشعرونها، وهو ما كانوا يفعلونه بالبَحيرة، والسَّائبة، والوصيلة من الحيوانات المذكورة في سورة (المائدة) رقم [١٠٣]، والبتك: شَقُّ الأذن، وهو أيضاً: القطع. ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: مأكولة اللَّحم من: بقرٍ، وغنمٍ، وإبلٍ، وماعز.

﴿وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ أي: عن وجهه صورةً، أو صفةً، ويندرج فيه ما قيل مِنْ فَقْءِ عين الحامي، وخِصاء العبيد، والوشْمِ، والْوَشْر، والوسْم في الوجه، واللِّواط، والسِّحاق

ونحو ذلك، وعبادة الشمس، والقمر، وتغيير فطرة الله التي هي الإسلام، ويلحق به تغيير الشيب بالسَّواد، والتَّخنُّث والخنسة، وغير ذلك.

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمَّاد ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**قَالَ اللهُ عَزَّ وَجلَّ: إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ، فَجَاءتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، فَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ يُغَيِّرُوا خَلْقِي**».

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه قال: «**لعن رسول الله ﷺ الْوَاشِمَاتِ، وَالْمُسْتَوْشِمَاتِ، وَالْمُتَنَمِّصَاتِ، وَالْمُتَفَلِّجَاتِ لِلْحُسْنِ؛ الْمُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللهِ**». فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ فِي ذَلِكَ، فقال: وَما لي لَا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟! وفي كتاب الله قال الله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾. أخرجه السِّتَّة.

﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني: يتَّخذه ربَّاً يطيعُه فيما يأمره. ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾: حيث استبدل طاعة الشَّيطان بطاعة الله تعالى، والفساد بالصَّلاح، والعقاب بالثَّواب. هذا؛ وقيل في تفسير (الخُسران): أنَّه جُعِلَ لكلِّ واحدٍ من بني آدم منزل في الجنَّة، ومنزل في النَّار، فإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل الكفار الَّتي في الجنة، وجعل للكفار منازل المؤمنين التي في النَّار، فذلك هو الخسران، وأيُّ خسرانٍ أعظم من هذا الخسران!! وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحدٍ، إِلَّا وَلَهُ مَنْزِلانِ: مَنْزِلٌ فِي الجَنَّةِ، ومَنْزِلٌ في النَّارِ، فَإِذَا مَاتَ، فَدَخَلَ النَّارَ؛ وَرِثَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنْزِلَهُ**». فذلك قوله تعالى في سورة (المؤمنون): ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾.

تنبيه: قَدْ يَرِدُ سؤال: من أين لإبليس العلم بالعواقب حتَّى يقول ما قاله الله تعالى عنه: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ...﴾ إلخ، وقال تعالى في سورة (الأعراف) حكايةً عنه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ وفي (الإسراء): ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وأكَّد ذلك ما حكاه الله من قوله في سورة (صٓ): ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وما يشبهه في سورة (الحجر)؟ والجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّ إبليس ـ لعنه الله ـ ظنَّ: أنَّ هذه الأمور التي يريدها تقع منهم، فحصل له ما ظنَّه، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى في سورة (سبأ): ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ﴾.

الوجه الثَّاني: قال ابن الأنباري: المعنى: لأجتهدن، ولأحرصنَّ في ذلك، لا أنَّه كان يعلم الغيب.

الوجه الثالث: قال الماوردي: من الجائز أن يكون قد علم ذلك من الملائكة بخبرٍ مِنَ الله تعالى: أنَّ أكثر الخلق لا يؤمنون.

تنبيه: النصيب المفروض: هو الشيء القليل، وهو ما ذكرته آية (الإسراء)؛ فكيف الجمع بينه وبين حديث: «**بعث النار**»؟ والجواب: أنَّ الكفار الذين هم حزب الشَّيطان، وإن كانوا أكثر

مِنَ المسلمين في العدد؛ لكنَّهم أقلُّ مِنَ المؤمنين في الفضل، والشرف، وعلوِّ الدَّرجة عند الله، والمؤمنون وإن كانوا أقلَّ مِنَ الكفار؛ لكنَّهم أكثر منهم؛ لأنَّ لهم الفضل، والشرف، والسُّؤدد، والغلبة في الدُّنيا، وعلو الدَّرجة في الآخرة. وأنشد بعضُهم في هذا المعنى، فقال: [الكامل]

وَهُمُ الأَقَلُّ إِذَا تُعَدُّ عَشِيْرَةٌ وَالأَكْثَرُونَ إِذَا يُعَدُّ السُّؤدُدُ

بعد هذا؛ فأصل: ﴿فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾: يُغيِّرون، فلمَّا اتَّصلت به نون التوكيد؛ صار: لَيُغَيِّرُونَنَّ، فحذفت نون الرفع لتوالي الأمثال فصار: لَيُغَيِّرُونَّ، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، وبقيت الضمة على الراء قبلها؛ لتدلَّ عليها، فصار: (لَيُغَيِّرُنَّ)، وقل مثله في إعلاله: ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾، وكلُّ مضارع من الأفعال الخمسة فاعله واو الجماعة، واتصلت به نون التَّوكيد.

الإعراب: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾: الواو: حرف عطف. (لأضلنهم): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة؛ الَّتي هي حرف لا محلَّ له، واللام واقعة في جواب قسم محذوف، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنا، والهاء مفعول به، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها في الآية السابقة، لا محلَّ لها مثلها، والجملتان: ﴿وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ﴾ معطوفتان عليها، وإعرابهما مثلها بلا فارق، والمتعلق محذوف. ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: الفاء: حرف عطف. (ليبتكن): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه النون المحذوفة لتوالي الأمثال، وواو الجماعة المحذوفة المدلول عليها بالضمة في محل رفع فاعل، والنون حرف توكيد لا محلَّ له. ﴿ءَاذَانَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: مضاف إليه، واللام واقعة في جواب قسم محذوف مثل ما قبلها. ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ﴾: إعرابهما مثل إعراب ما قبلهما. ﴿خَلْقَ﴾: مفعول به، وهو مضاف. و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَتَّخِذِ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿ٱلشَّيْطَٰنَ﴾: مفعول به أول. ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به ثان. ﴿مِّن دُونِ﴾: متعلقان بـ﴿وَلِيًّا﴾ أو بمحذوف صفة له. و﴿دُونِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿خَسِرَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿خُسْرَانًا﴾: مفعول مطلق. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له، وجملة: ﴿فَقَدْ...﴾ إلخ في محلِّ جزم جواب الشرط... إلخ، وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه، كما ذكرته مراراً، وتكراراً.

﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾

الشرح: ﴿يَعِدُهُمْ﴾ أي: الشَّيطان الوعود الكاذبة، وترَّهاته مِنْ طول العمر، وبأنَّه لا بعث، ولا حساب، ولا جنَّة، ولا نار، ويوهمهم الفقر؛ حتَّى لا ينفقوا في الخير. ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾ الأماني

الباطلة ممَّا لا ينالون. وانظر الآية رقم [٣٢]. ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: خديعةً. قال ابن عرفة ـ رحمه الله تعالى ـ: الغرور: ما رأيت له ظاهراً تحبُّه، وهو إمَّا بالخواطر الفاسدة، أو بألسنة أوليائه. ولا تنس الطباق بين السَّلب، والإيجاب.

الإعراب: ﴿يَعِدُهُمْ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى «الشَّيطان» والهاء مفعول به أوَّل، والثاني محذوف، تقديره: طولَ العمر، ونحوه. والجملة الفعلية مستأنفةٌ، لا محلَّ لها. ﴿وَيُمَنِّيهِمْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرة على الياء للثِّقل، والفاعل يعود إلى ﴿ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ أيضاً، والهاء مفعول به أوَّل، والثاني محذوف، انظر المعنى والشرح، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿يَعِدُهُمُ﴾: فعل مضارع، ومفعوله الأول. ﴿ٱلشَّيْطَـٰنُ﴾: فاعله. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿غُرُورًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الفاعل المستتر، والرابط: الواو، وإعادة ﴿ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ بلفظه، وكان حقُّه الإضمار، فأعاده لزيادة التَّحقير، والتَّحذير منه. وإن اعتبرت الجملة مستأنفةً؛ فلا محلَّ لها.

﴿أُولَـٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾

الشرح: ﴿أُولَـٰٓئِكَ﴾: الإشارة لأولياء الشَّيطان، المتَّبعون وساوسه، وزخارفه. ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مقرُّهم، ومصيرهم، ومآلهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾: مهرباً، ومفرّاً.

الإعراب: ﴿أُولَـٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿مَأْوَىٰهُمْ﴾: مبتدأ ثان مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّةٌ مقدَّرةٌ على الألف للتعذُّر، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿جَهَنَّمُ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿أُولَـٰٓئِكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَلَا﴾: الواو: واو الحال. (لا): نافية. ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله. ﴿عَنْهَا﴾: جار، ومجرور متعلِّقان بـ﴿مَحِيصًا﴾ بعدهما. ﴿مَحِيصًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، أو مِنْ: ﴿جَهَنَّمُ﴾ والرابط على الاعتبارين: الواو، والضمير.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [٥٧] ففيها الكفاية. وأضيف هنا: أنَّ الأبد عبارة عن مدَّة الزمان الممتد الذي لا انقطاع له، ولا يتجزَّأ، كما يتجزأ

غيره من الأزمنة؛ لأنَّه لا يقال: أَبَدُ كذا، كما يقال: زمن كذا، وفي قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ﴾ دليلٌ على أنَّ الخُلود لا يفيد التأبيد، والدَّوام؛ لأنَّه لو أفاد ذلك؛ لزم التَّكرار، وهو خلاف الأصل، فعلم من ذلك: أنَّ الخلود عبارة عن طول الزَّمان، لا على الدَّوام، فلمَّا أُتْبع الخلود بالأبد؛ علم: أنَّه يراد به الدَّوام؛ الَّذي لا ينقطع.

﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾: يعني: وعد الله ذلك الذي ذُكِر وعداً حقّاً. ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾: أصله: قِوْلاً؛ بكسر القاف، وسكون الواو، فقلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة قبلها، والقيل: والقال، والقول بمعنى واحد. والمقصود مِنَ الآية الكريمة معارضة المواعيد الشَّيطانية الكاذبة لأوليائه بوعد الله الصادق لأصفيائه، والمبالغة في توكيده، ترغيباً للعباد في تحصيله. وانظر الآية رقم [٨٧] فهو جيِّد. هذا؛ ولا تنس المُقابلة بين هذه وما تضمَّنت من الوعد وبين ما قبلها، وانظر شرح المقابلة في الآية رقم [٨٥].

الإعراب: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ﴾: انظر الآية رقم [٥٧] ففيها الكفاية. ﴿وَعۡدَ﴾: مفعول مطلق مؤكِّد لمضمون (ندخلهم) لأنَّه وعدٌ من العزيز الحكيم، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾ مضاف إليه من إضافة المصدر لفاعله. ﴿حَقّٗاۚ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، تقديره: حقَّ ذلك حقّاً، والجملة الفعلية هذه صفة وعد الله، وجُوِّز اعتبارها حالاً من المصدر قبله، وهو ضعيف.

﴿وَمَنۡ﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم استئناف بمعنى النفي مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَصۡدَقُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ﴿أَصۡدَقُ﴾، أو هما متعلقان بـ﴿قِيلٗا﴾ لأنَّه مصدر أيضاً. ﴿قِيلٗا﴾: تمييز، وانظر الآية رقم [٨٧].

﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾

الشرح: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ﴾: الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ليس الأمر على شهواتكم، وأمانيكم أيُّها المسلمون. ﴿وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ﴾: وليس الأمر على شهوات أهل الكتاب: اليهود، والنصارى. هذا؛ و(أماني) جمع: أمنية بتشديد الياء، وتخفيفها فيهما، قال أبو حاتم ـ رحمه الله تعالى ـ: كلُّ ما جاء من هذا النحو واحد، مشدَّد، فلك فيه التَّشديد، والتخفيف، مثل: أثافي، وأغاني، وأماني، ونحوه. وهذا من قولهم: مانَ الرجل في حديثه مَيْناً، وتمنَّى، تمنياً، أي: كذب، ومنه قول عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ: ما تمنَّيت مذ أسلمت؛ أي: ما كذبت.

أو هي جمع: أمنية من التمنِّي، وهو طلب شيءٍ محبوب، لا يُرجى حصوله لكونه مستحيلاً: أو بعيد الوقوع. وإذا كان متوقَّع الحصول؛ فإنَّ ترقُّبه يسمَّى ترجياً، وعليه: فالأماني التي يتمنَّاها

سفلة اليهود، ويَعِدُهم بها رؤساؤهم مواعيد فارغة؛ مِن أنَّ الجنة لا يدخلها إلا مَنْ كان هوداً، وأنَّ النَّار لن تمسَّهم إلا أياماً معدودة، وأنَّ آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنَّهم أبناءُ الله، وأحباؤه... إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة. هذا؛ وأصلها: «أُمْنُوْيَة» على وزن «أفعولة» فقل في إعلالها: اجتمعت الواو والياء، والأوَّل ساكن، فقلبت الواو ياءً، وأدغمت الياء في الياء، ثمَّ قلبت ضمَّة النُّون كسرةً لمناسبة الياء، فصار: أمنية، وانظر (تمنى) في الآية رقم [٣٢].

﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ أي: من المشركين، وأهل الكتاب، والمسلمين، فمات عليه من غير توبةٍ يُجْزَ به النَّار، وهو قول الجمهور، ولفظ الآية عام، فالكافر، والمؤمن، مجازى بعمله السُّوء، فأمَّا مجازاة الكافر؛ فالنَّار لأنَّ كفره أوبقه، وأمَّا مجازاة المؤمن؛ فبنكباتِ الدنيا، كما روى مسلمٌ في صحيحه عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، قال: لمَّا نزلت الآية بلغت من المسلمين مبلغاً شديداً، فقال رسول الله ﷺ: «**قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ لَهُ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، وَالشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا**».

وعن أبي بكر الصدِّيق ـ رضي الله عنه ـ قال: كنت عند رسول الله ﷺ، فنزلت الآية الكريمة، فقال رسولُ الله ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَا أُقْرِئُكَ آيَةً أُنْزِلَتْ عَلَيَّ؟**». قلت: بلى يا رسول الله! قال: فأقرأَنِيْها، فلا أعلم أنِّي وجدت انقصاماً في ظهري، فتمطَّأت لها، فقال رسول الله ﷺ: «**مَا شَأْنُكَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟!**» قلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمِّي! وأيُّنا لم يعمل سوءاً؟! وإنا لمجزيُّون بأعمالنا؟! فقال رسول الله ﷺ: «**أَمَّا أَنْتَ يَا أَبَا بَكْرٍ، وَالْمُؤْمِنُونَ فَتُجْزَوْنَ بِذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى تَلْقَوا اللهَ؛ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ ذُنُوبٌ، وَأَمَّا الآخَرُونَ، فَيَجْتَمِعُ ذَلِكَ لَهُمْ حَتَّى يُجْزَوْا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**». أخرجه الترمذيُّ، وقال: حديثٌ غريب. وفي روايةٍ قال له رسول الله ﷺ: «**أَمَا تَمْرَضُ، أَوْ يُصِيبُكَ بَلَاءٌ؟**» قال: بلى يا رسول الله! قال: «**هُوَ ذَلِكَ**».

﴿وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ...﴾ إلخ هذا في حقِّ الكافر، فأمَّا المؤمن؛ فله وليٌّ، ونصير. قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: فإن حُمِلَت الآية على الكافر؛ فليس له غداً ولي، ولا نصير، وإن حُمِلَتْ على المؤمن؛ فليس له وليٌّ، ولا نصيرٌ دون الله.

تنبيه: روي: أنَّ المسلمين، وأهل الكتاب تفاخروا، فقال اليهود: نبيُّنا قبل نبيِّكم، وكتابُنا قبل كتابِكم، ونحن أولى بالله منكم. وقال المسلمون: نحن أولى بالله منكم، فنبيُّنا خاتم النبيين، وكتابنا يقضي على كتابكم. فنزلت الآية الكريمة، وقرَّرت: أنَّ الجزاء من جنس العمل، وأنَّ الإيمان ليس بالتمنِّي.

قال الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ: ليس الإيمان بالتمنِّي، ولكن ما وقر في القلب، وصدَّقه العمل، إنَّ قوماً ألهتهم الأماني حتَّى خرجوا من الدُّنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نُحْسِن الظنَّ بالله تعالى، كذبوا، لو أحسنوا الظنَّ؛ لأحسنوا العمل.

هذا؛ ومن أماني أهل الكتاب قولهم: ﴿لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ﴾. وقولهم: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾. وقيل: الخطاب للمشركين؛ حيث قالوا: لا بعث، ولا حساب. . .إلخ، والله أعلم.

الإعراب: ﴿لَّيْسَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر، ولم يتقدَّم له ذكر؛ أي: ليس الأمر الذي ادعيتموه، أو: ليس ذلك، أو: ليس ثواب الله . ﴿بِأَمَانِيِّكُمْ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: ﴿لَّيْسَ﴾؛ أي: منوطاً بأمانيّكم، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿وَلَآ﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿أَمَانِيِّ﴾: معطوف على سابقه، وهو مضاف، و﴿أَهْلِ﴾: مضاف إليه، وهو مضاف، و﴿ٱلْكِتَـٰبِ﴾: مضاف إليه، وجملة: ﴿لَّيْسَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿مَن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَعْمَلْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى: ﴿مَن﴾. ﴿سُوٓءًا﴾: مفعول به. ﴿يُجْزَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الألف، والفتحة قبلها دليلٌ عليها. ونائب الفاعل يعود إلى: ﴿مَن﴾ أيضاً، وهو المفعول الأوَّل. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء ولا بـ: «إذا» الفجائية، وخبر المبتدأ الذي هو: ﴿مَن﴾ مختلفٌ فيه، كما رأيته مراراً، والجملة الاسمية مستأنفة. وقيل: تعليل النَّفي، لا محلَّ لها على الاعتبارين. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يَجِدْ﴾: معطوف على جواب الشرط مجزوم مثله، وقرئ بالرفع على الاستئناف، والفاعل يعود إلى: ﴿مَن﴾ أيضاً. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلِّقان بـ﴿نَصِيرًا﴾ بعدهما. ﴿مِن دُونِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، هما مفعوله الأول، و﴿دُونِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به ثان. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿نَصِيرًا﴾: معطوف على ما قبله.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ أي: بعضها، فإنَّ ﴿مِن﴾ للتبعيض هنا؛ لأنَّ كل واحد لا يستطيع القيام بجميعها، وليس مكلَّفاً بها كلِّها. ﴿مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾: هذا بيانٌ مِنَ العليِّ القدير: أنَّ الأنثى مثل الذَّكر في الثَّواب، والعقاب، والمسؤولية أمام الله، وما أكثر الآيات التي تبيِّن، وتصرِّح بهذا. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي: بالله، ورسوله، واليوم الآخر، والإسلام،

والقرآن، ومحمد ﷺ. وهذا يسمَّى في البلاغة: احتراساً؛ إذ لولاه؛ لدخل الجنَّة كلُّ من عمل صالحاً في الدُّنيا، من مسلم، ويهوديٍّ، ونصرانيٍّ، لكن هذا الشَّرط يخرج غير المسلمين، ويحرمهم من دخول الجنَّة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يعملون الصالحات، وهم مؤمنون. ﴿يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾: بنقص شيءٍ من الثَّواب، ولا بزيادة شيءٍ من العقاب؛ لأنَّ المجازي أحكم الحاكمين، ولا يظلم أحداً بمثقال ذرَّةٍ، كما رأيت في الآية رقم [٤٠] وانظر شرح «النَّقير» في شرح الآية رقم [٤٩]. هذا؛ وروعي لفظ (مَنْ) في أوَّل الآية، وروعي معناه في آخرها.

الإعراب: ﴿وَمَن يَعْمَلْ﴾: انظر الآية السابقة. ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به. ﴿مِن ذَكَرٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال من فاعل: ﴿يَعْمَلْ﴾ المستتر، و(مِنْ) بيان لما أبهم في: (مَنْ). ﴿أَوْ أُنثَىٰ﴾: معطوف على: ﴿ذَكَرٍ﴾ مجرور مثله، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذر. ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية في محل نصب حال من الفاعل المستتر أيضاً، والرابط: الواو، والضمير. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشَّرط. (أولئك): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿يَدْخُلُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: (أولئك...) إلخ في محل جزم جواب الشرط... إلخ، وانظر تتمة الكلام في الآية السابقة. ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾: منصوب على الظرفية المكانية عند بعض النُّحاة، وفي مقدِّمتهم سيبويه، والمحقِّقون، وعلى رأسهم الأخفش ينصبونه على التوسُّع في الكلام بإجراء اللازم مجرى المتعدِّي، ومثل ذلك قل في: «دخلت المدينة، ونزلت البلد، وسكنت الشام» وأيضاً قوله تعالى: ﴿ٱهْبِطُواْ مِصْرًا﴾ وهذا إذا كان الفعل ثلاثيّاً، وأمَّا إذا كان رباعيّاً؛ فانظره في الآية رقم [٥٧].

﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُظْلَمُونَ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول، والواو نائب فاعله. ﴿نَقِيرًا﴾: مفعول به ثان، وهو على تقدير مضاف؛ أي: لا يظلمون بمقدار النَّقير. وقيل: هو تمييز، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾

الشرح: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ﴾ أي: لا أحد أحسن ديناً ممَّن انقاد لأمر الله، وشرعه، وأخلص عمله لله تعالى، وأقبل بكلِّيته عليه. وخصَّ الوجه بالذِّكر؛ لأنَّه أشرف الأعضاء الظَّاهرة، وفيه أكثر الحواس، ولأنَّه موضع السجود، ومظهر آثار الخشوع، والخضوع، وفيه يظهر العزُّ، والإذلال، والفرح، والحزن، والسُّرور، والغمُّ، وغير ذلك، والعرب تخبر

بالوجه عن جملة الشيء، قال الله عزَّ وجل لِنبيِّه ﷺ: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ﴾ رقم [٢٠] من سورة (آل عمران)، وإذا جاء العبد بوضع وجهه على الأرض في السُّجود؛ فقد جاء بجميع أعضائه، فقال زيد بن عمرو بن نُفَيل، وهو مِنَ الذين تفرقوا في البلدان في الجاهلية يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم ـ عليه السَّلام ـ: [المتقارب]

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِيْ لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الأَرْضُ تَحْمِلُ صَخْراً ثِقَالَا
وَأَسْلَمْتُ وَجْهِيْ لِمَنْ أَسْلَمَتْ لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِلُ عَذْباً زُلَالَا

يعني بذلك: استسلمت لطاعة مَنِ استسلم لطاعته الأرضُ والمُزن.

﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: أي: في عمله. فله شرطان: أحدهما: أن يكون خالصاً لله تعالى، والثاني: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة التي جاء بها محمَّد ﷺ. فمتى اختلَّ شرطٌ منهما؛ كان العمل غير مقبول قطعاً.

هذا؛ و(الدين) اسم لجميع ما يُتعبَّد به الله تعالى، والدِّين: الملة، والشَّريعة، ومنه قوله تعالى في سورة (يوسف) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة وألف سلام: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ﴾. ويوم الدين: يوم الجزاء، والحساب. هذا؛ ويُطلق الدِّين على العادة، والشأن، والحال، ومنه قول امرئ القيس في معلَّقته: [الطويل]

كَدِيْنِكَ مِنْ أُمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَهَا وَجَارَتِهَا أُمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

هذا؛ والدَّيْن بفتح الدَّال: الدَّين المؤجل، وجمع الأوَّل: أديان، وجمع الثاني: ديون وأَدْيُن، والدَّينونة: القضاء، والحساب، والدِّيانة: اسم لجميع ما يُتَعَبَّد به الله تعالى.

﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ﴾: مِلَّةُ إبراهيم: دينُه، وطريقته، وهي بكسر الميم، وهي بفتح الميم: الرَّماد الحار، و(حنيفاً) مائلاً عن كلِّ دين باطلٍ إلى دين الحقِّ. قال الشاعر: [الوافر]

وَلَكِنَّا خُلِقْنَا إِذْ خُلِقْنَا حَنِيْفَاً دِيْنُنَا عَنْ كُلِّ دِينِ

ورجلٌ أحنف، وهو الذي تميل قدماه كل واحدة منهما إلى أختها بأصابعها، قالت أمّ الأحنف بن قيس: [الرجز]

وَاللهِ لَوْلَا حَنَفٌ بِرِجْلِهِ مَا كَانَ فِي فِتْيَانِكُمْ مِنْ مِثْلِهِ

وقال قوم: الحنف: الاستقامة، فسمِّي دين إبراهيم حنيفاً لاستقامته، وسمِّي المعوجُّ الرِّجلين أحنف تفاؤلاً بالاستقامة، كما قيل لِلَّديغ: سليم، وللهلكة: مفازة، والعرب تسمي كلَّ مَنْ حجَّ، أو اختتن: حنيفاً، تنبيهاً على أنَّه على دين إبراهيم. وخذ قول سيدنا الرَّسول ﷺ: «**بُعِثْتُ بِالْحَنيفيَّةِ السَّمْحَةِ**».

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: لقد ذُكِرَتْ أسبابٌ كثيرةٌ لاتخاذ الله إبراهيم خليلاً، أكتفي بأمرين من ذلك:

١ـ روي: أنَّ إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ بعث غلمانه إلى خليلٍ له بمصر في أزمةٍ أصابت النَّاس بشدَّةٍ؛ ليمتاروا منه، فقال خليله للغلمان: لو كان إبراهيم يريد الطَّعام لنفسه؛ لفعلت، ولكن يريده للأضياف، وقد أصابنا ما أصاب النَّاس من الشدَّة، فرجع غلمانه بدون ميرةٍ، فمرُّوا في طريقهم ببطحاء من الرملة سهلةٍ، فملؤوا الغرائر منها؛ لئلا يرى النَّاس: أنَّهم رجعوا بدون ميرةٍ، فلما أخبروا إبراهيم بذلك ساءه الخبر، فغلبته عيناه فنام، وقامت سارةُ ـ عليها السَّلام ـ إلى غرارة منها، ففتحتها فإذا هي ملأى بأجود دقيق، فأمرت الخبَّازين، فخبزوا، وأطعموا النَّاس، فاستيقظ إبراهيم ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ فوجد ريح الخبز، فقال: يا سارة! من أين لكم هذا؟ فقالت: من عند خليلك المصري. فقال: بل هذا من عند خليلي الله . قال: فيومئذٍ اتَّخذه الله خليلاً.

٢ـ روى الطَّبرانيُّ عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَعَثَ حَبِيبِي جبريلَ ـ عَلَيْهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ ـ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ لَهُ: يا إِبْرَاهِيمُ! إِنِّي لا أَتَّخِذُكَ خَلِيْلاً عَلَى أَنَّك أَعْبَدُ عِبَادٍ لِي، وَلكن اطَّلَعْتُ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، فَلَمْ أَجِدْ قَلْبَاً أَسْخَى مِنْ قَلْبِكَ**».

هذا؛ وقد اتَّخذ الله محمَّداً ﷺ خليلاً، كما اتَّخذ إبراهيم خليلاً، فقد ثبت في الصَّحيحين عن أبي سعيدٍ الخدري ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ: أنَّه قال: «**لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذاً خَلِيْلاً غَيْرَ رَبِّي؛ لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيْلاً، وَلَكِنَّه أَخِي، وَصَاحِبِي، وَقَدِ اتَّخَذَ اللهُ صَاحِبَكُمْ خَلِيْلاً**». أخرجه مسلم.

فقد ثبت بهذين الحديثين الخلَّة لـ(إبراهيم) عليه السلام، وللنبيِّ ﷺ، وزاد على إبراهيم ـ عليه السلام ـ بالمحبَّة، فمحمَّدٌ خليل الله، وحبيبه، فقد جاء في حديثٍ عن ابن عباس ـ رضي الله عنهم ـ: أنَّ النبي ﷺ قال: «**وَأَنَا حَبِيْبُ اللهِ، وَلَا فَخْرَ! وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وأَوَّلُ مُشَفَّعٍ؛ وَلَا فَخْرَ! وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يُحَرِّكُ حَلْقَةَ الْجَنَّةِ، فَيَفْتَحُ اللهُ، وَيُدْخِلُنِيهَا؛ وَمَعِيَ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ؛ وَلَا فَخْرَ! وَأَنَا أَكْرَمُ الأَوَّلِينَ، وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ وَلَا فَخْرَ!**». أخرجه الترمذيُّ بأطول من هذا.

بعدما تقدَّم فالخلَّة بين الآدميين: الصَّداقة، مشتقَّةٌ مِنْ تَخَلُّل الأسرار بين المتخالِّين. وقيل: هي من الْخَلَّةِ، فكل واحد من الخليلين يسدُّ خلَّة صاحبه. هذا؛ والخليل: هو الصديق الذي صفت مودَّتُه، فتجد من خلاله مثل ما يجد مِنْ خلالك، ويسعى لمصلحتك كما يسعى لمصلحته، بل قد يؤثرك على نفسه، ويبذل روحه مِنْ أجلك، كما قال ربيعة بن مقروم الضبِّي: [الوافر]

أَخُوكَ أَخُوكَ مَنْ تَدْنُو وَتَرْجُو ... مَوَدَّتَهُ وَإِنْ دُعِيَ اسْتَجَابَا

إِذَا حَارَبْتَ حَارَبَ مَنْ تُعَادِي ... وَزَادَ سِلَاحَهُ مِنْكَ اقْتِرَابَا

وهو معدوم في هذا الزّمن؛ الَّذي فسد أهلُه، وصاروا خَلّاً، ودوداً، كما قال القائل: [الوافر]

سَــأَلْــتُ الــنَّــاسَ عَــنْ خِــلٍّ وَدُودٍ فَـقَـالُـوا: الـنَّـاسُ مِـنْ خَـلٍّ وَ دُودِ
فَـقُـلْـتُ أَلَـيْـسَ فِـيـهِـمْ ذُو وَفَـاءٍ فَـقَـالُـوا: كَـانَ ذَلِـكَ فِـي الْـجُـدُودِ

احفظ البيتين، ولا تنس ما فيهما من الجناس التَّام، لذا فإنَّه لا وجود للصَّديق بالمعنى الحقيقي، بل صار وجوده مستحيلاً، كما قال القائل: [الكامل]

قَـدْ قِـيْـلَ إِنَّ الْـمُـسْـتَـحِـيـلَ ثَـلاثَـةٌ الـغُـولُ وَالـعَـنْـقَـاءُ وَالْـخِـلُّ الْـوَفِـي

وقال الآخر: [الوافر]

سَــأَلْــتُ الــنَّــاسَ عَــنْ خِــلٍّ وَفِــيّ فَــقَــالُــوا مَــا إِلَــى هَــذَا سَــبِــيــلُ
تَــمَــسَّــكْ إِنْ ظَـفِـرْتَ بِـذَيْـلِ حُـرٍّ فَـإِنَّ الْـحُـرَّ فِـي الـدُّنْـيَـا قَـلِـيـلُ

وممَّا هو جديرٌ بالذِّكر: أنَّ كل صداقة لا تكون على أساس من التَّقوى، تنقلب عداوةً في الدُّنيا، والآخرة، خذ قوله تعالى في سورة الزُّخرف: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وانظر نتيجة صداقة إبليس اللَّعين في سورة (إبراهيم) رقم [٢٢] وفي سورة (ق) أيضاً. وفي مصنَّف أبي داود عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيْلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ**». ولقد أحسن مَنْ قال: [السريع]

مَــنْ لَــمْ تَــكُــنْ فِــي اللهِ خُــلَّــتُــهُ فَــخَــلِــيــلُــهُ مِــنْــهُ عَــلَــى خَــطَــرِ

الإعراب: ﴿وَمَنْ﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم استفهام مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿أَحْسَنُ﴾: خبره، والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿دِينًا﴾: تمييز. ﴿مِّمَّنْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿أَحْسَنُ﴾، و(مَنْ) تحتمل الموصولة، والموصوفة؛ فهي مبنية على السكون في محل جر بـ(مِن). ﴿أَسْلَمَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ) أو صفتها، والعائد، أو الرابط: رجوع الفاعل إليها. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بالفعل: ﴿أَسْلَمَ﴾، أو هما متعلِّقان بمحذوف حال مِنْ: ﴿وَجْهَهُۥ﴾، والجملة الاسمية: (هو محسنٌ) في محل نصب حال من فاعل: ﴿أَسْلَمَ﴾ المستتر، والرابط: الواو، والضمير، وإن اعتبرتها معترضة؛ فلا محلَّ لها، والاعتراض يزيد الكلام تقويةً، وتسديداً. (اتَّبَعَ): فعل ماض، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿مِلَّةَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿حَنِيفًا﴾: حال مِنْ: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ وقيل: هو حال من فاعل: (اتَّبع) المستتر، وهو ضعيف، وجاز مجيء الحال من المضاف إليه؛ لأنَّ المضاف كجزء منه، قال ابن مالك رحمه الله تعالى في ألفيته: [الرجز]

وَلَا تُــجِــزْ حَــالاً مِــنَ الْــمُــضَــافِ لَــهْ إِلَّا إِذَا اقْــتَــضَــى الْــمُــضَــافُ عَــمَــلَــهْ

أَوْ كَـانَ جُـزْءَ مَـا لَـهُ أُضِـيـفَـا أَوْ مِـثْـلَ جُـزْئِـهِ فَـلَا تَـحِـيـفَـا

وجملة: ﴿وَٱتَّبَعَ...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿أَسْلَمَ...﴾ إلخ على الوجهين المعتبرين فيها. ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾: فعل ماض، وفاعله، ومفعولاه. وقيل: ﴿خَلِيلًا﴾: حال من: ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾، ولا وجه له. والجملة الفعلية معترضة في آخر الكلام، لا محلَّ لها من الإعراب. قال الزمخشري، كنحو ما يجيء في الشعر من قولهم: «وَالْحَوادِثُ جُمَّةٌ»[1] الشَّاهد رقم [٧١٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»، وقال: فائدتها تأكيد وجوب اتِّباع ملَّته؛ لأنَّ مَنْ بلغ الزُّلفى عند الله بأن اتَّخذه خليلاً؛ كان جديراً بأن تُتَّبع ملَّته، وطريقته، ولو جعلتها معطوفة على الجملة قبلها؛ لم يكن لها معنىً. انتهى كشاف.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلخ: ملكاً، وخلقاً، وعبيداً، والمعنى: أنَّ الله اتَّخذ إبراهيم بحسن طاعته، لا لحاجته إلى مخالَّته، ولا للتكثير به، والاعتضاد بقوَّته، كيف، وله ما في السموات وما في الأرض؟! وإنَّما أكرمه لامتثاله لأمره، واجتنابه لنهيه. وفيه تغليب غير العقلاء على العقلاء. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا﴾: انظر الآية رقم [١٠٨] ففيها الكفاية.

الإعراب: ﴿وَلِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلِّقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَمَا﴾: معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول. (كَانَ): فعل ماض ناقص. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمها. ﴿بِكُلِّ﴾: متعلقان بـ: ﴿مُّحِيطًا﴾ بعدهما، و(كل) مضاف، و﴿شَىْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿مُّحِيطًا﴾: خبر (كان)، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها، لا محلَّ لها.

﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾﴾

الشرح: نزلت الآية الكريمة بسبب سؤال قومٍ من الصَّحابة عن أمر النساء، وأحكامهن في

---

(١) البيت بتمامه: [الكامل]

يـا لـيـتَ شِـعـري والـحـوادثُ جـمَّـةٌ هـل مـرَّةً أغـدو وأمـري مُـجْـمَـعُ

الميراث، وغير ذلك، فأمر الله نبيه ﷺ أن يقول: ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾ أي: يبيِّن لكم حكم ما سألتم عنه. وهذه الآية رجوع إلى ما افتتحت به السُّورة من أمر النساء، وكانوا قد بقيت لهم أحكام لم يعرفوها، فسألوا، فقيل لهم: ﴿ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾.

وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت في بنات أم كجَّة، وقد تقدَّمت قصَّتهنَّ في الآية رقم [٧] مِنْ هذه السُّورة. وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: هي اليتيمة تكون في حِجْر الرَّجل، وهو وليُّها، فيرغب في نكاحها، إذا كانت ذات جمالٍ، ومالٍ بأقلَّ من سُنَّة صداقِها، وإذا كانت غير مرغوب فيها لقلَّة الجمال، والمال؛ تركها. وانظر الآية رقم [٣] من هذه السورة. هذا؛ والاستفتاء: طلب الفتوى، وهو إظهار ما أشكل من الأحكام الشَّرعية، وكشفه، وتبيينه.

قال المفسِّرون: والذي استفتوه فيه هو ميراث النِّساء، وذلك: أنَّهم كانوا لا يورِّثون النِّساء، ولا الصِّغار من الأولاد، فلمَّا نزلت آيتا الميراث رقم [١١ و١٢] قالوا: يا رسول الله ! كيف نورِّث المرأة، والصغيرة؟ فأجابهم بهذه الآية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾. ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ المعنى: الله يفتيكم في النِّساء بما أنزل في كتابه عليكم. ﴿فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾: قيل: معناه: في النِّساء اليتامى. وقيل: في اليتامى أولاد النساء؛ لأنَّ الآية نزلت في يتامى أمِّ كجَّة. ﴿ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ﴾ يعني: ما فُرِض لهنَّ من الميراث، وهذا على قول مَنْ يقول: إنَّ الآية نزلت في ميراث اليتامى الصغار. وعلى القول الآخر: معناه: ما كُتِبَ لَهُنَّ من الصَّداق.

﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ التقدير: في أن، أو: عن أن تنكحوهن، فإنَّ أولياء اليتامى كانوا يرغبون في نكاحهن إذا كنَّ جميلات، ويأكلون مالهنَّ، وإلا فيرغبون عن نكاحهنَّ إن كنَّ غير جميلاتٍ، ويعضلوهنَّ عن الزَّواج بغيرهم، انظر الآية رقم [٣] من هذه السُّورة.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾: فهو معطوف على ما قبله، أي: داخل في المبهم المطلوب بيانه في الفتوى؛ لأنَّ العرب لم يكونوا يورِّثون مَنْ لم يقاتل من النِّساء، والولدان. ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ انظر الآيتين رقم [٢ و٣] فالبحث فيهما كافٍ ضافٍ. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ...﴾ إلخ: هذا وعد من الكريم لمن آثر الخير في ذلك، وفعله، وقد حذف مقابله اكتفاءً به، فإنَّ التقدير: وما تفعلوا من شرٍّ... إلخ.

تنبيه: روي: أنَّ عيينة بن حصن أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: أُخبرنا أنَّك تُعطي الابنة النصف، والأخت النصف، وإنَّا كنَّا لا نورِّث إلا مَنْ يشهد القتال، ويحوز الغنيمة! فقال ﷺ: بذلك أُمِرْتُ. ونزلت الآية الكريمة.

تنبيه: رأيت: أنَّ الفعل «يرغب» تغيَّر معناه بتغيُّر الجار الذي تعلَّق به، وهذا أحد الأفعال التي يتغيَّر معناها بتغيُّر الجار، كما رأيت في الآية رقم [٢٧] والآية رقم [١٣٥] الآتية، لذا كان قول القائل ـ وهو الشَّاهد رقم [٩٢٥] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ محتملاً للمدح والذَّمِّ: [الطويل]

وَيَــرْغَــبُ أَنْ يَــبْــنِــيَ الْــمَــعَــالِــيَ خَــالِــدٌ وَيَــرْغَــبُ أَنْ يَــرْضَــى صَــنِــيــعَ الأَلأَئِــمِ

هذا؛ و(نساء) اسم جمع لا واحد له من لفظه؛ لأنَّ مفرده: امرأة، وجمعها في القلَّة: نسوة، وفي الكثرة: نساء، وتجمع أيضاً على نِسوان، ونَسُون، ونَسْنِين، وهذه الجموع كلُّها مأخوذة من النِّسيان، فهي مطبوعة عليه، إمَّا إهمالاً، وإما كذباً، ويقال لكلِّ واحدٍ من هذه الجموع: اسم جمع، لا واحد له من لفظه، أما «المرأة» فهي مأخوذة من «المرء» وهو الرَّجل، فلذا سميت بذلك، والأم الأولى حوَّاء ـ عليها السَّلام ـ سمِّيت بذلك؛ لأنَّها مأخوذة من: حي، وهو آدم، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلامٍ.

الإعراب: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعول به، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿فِي ٱلنِّسَآءِ﴾: متعلِّقان به. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُفْتِيكُمْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ والكاف مفعول به. ﴿فِيهِنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والنون حرف دالٌّ على جماعة الإناث، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿قُلِ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَمَا﴾: موصولة، أو موصوفة، ومحلُّها يحتمل الجرَّ، والنصب، والرفع، فالجرُّ بالعطف على الضَّمير المجرور بـ(في) من غير إعادة الجار والمجرور على مذهب الكوفيين، والنصب على تقدير فعل محذوف، التقدير: ونبيِّن لكم ما يتلى. والرفع ـ وهو المختار ـ وفي ذلك ثلاثة أوجه: أحدها: هو معطوف على ضمير الفاعل في: ﴿يُفْتِيكُمْ﴾، وساغ ذلك لوجود الفاصل بالجار والمجرور. والثاني: هو معطوف على (الله) الواقع فاعلاً. والثالث: هو مبتدأ، خبره: الجار، والمجرور: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾. وقيل: هو محذوف، التقدير: ﴿وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ يبيِّن لكم. ﴿يُتْلَىٰ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدَّرة على الألف للتعذُّر، ونائب الفاعل يعود إلى (ما). ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال مِنْ نائب الفاعل المستتر، وتقدَّم وجهٌ ثالثٌ، انظره. وجملة: ﴿يُتْلَىٰ...﴾ إلخ صلة (ما) أو صفتها. ﴿فِي يَتَٰمَى﴾: بدل مِنْ: ﴿فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ بدل اشتمال، وهناك مضاف محذوف، أي: في حكم يتامى. أو هما متعلقان بالفعل: ﴿يُتْلَىٰ﴾ أو هما بدل من قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾، أو هما متعلقان بـ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ نفسه: أي: فيما كتب في حكم يتامى. أو هما متعلقان بمحذوف حال من نائب الفاعل، و﴿يَتَٰمَى﴾ مضاف، و﴿ٱلنِّسَآءِ﴾: مضاف إليه. ﴿ٱلَّٰتِى﴾: اسم موصول مبني على السُّكون في محل جر صفة: ﴿يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾. ﴿لَا﴾: نافية. ﴿تُؤْتُونَهُنَّ﴾: فعل مضارع، وفاعله، ومفعوله الأول، والنُّون حرف دالٌّ على جماعة الإناث، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿مَا﴾: اسم موصول، أو

نكرة موصوفة مبنية على السكون في محل نصب مفعول به ثان. ﴿كُتِبَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى: ﴿مَا﴾ وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها. ﴿لَهُنَّ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والنون حرفٌ دالٌّ على جماعة الإناث. ﴿وَتَرْغَبُونَ﴾: مضارع وفاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة، لا محلَّ لها مثلها، أو هي في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: وأنتم ترغبون. والجملة الاسمية هذه في محل نصب حال من واو الجماعة، والرابط: الواو، والضمير. ﴿أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والهاء مفعوله، والمصدر المؤول من الفعل وناصبه في محلِّ جرٍّ بحرف جرٍّ محذوف، انظر الشرح، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما.

﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ﴾: معطوف على: ﴿يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أو على الضمير بقوله: ﴿فِيهِنَّ﴾ وقيل: منصوب بفعل محذوف، التقدير: ويبيِّن حال المستضعفين. ﴿مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ﴾: متعلقان بـ(المستضعفين) أو بمحذوف حال منه، والمصدر المؤول من: (أن تقوموا...) إلخ معطوف على: ﴿فِيهِنَّ﴾ من غير إعادة الجار على مذهب الكوفيين، أو هو معطوف على: ﴿يَتَـٰمَى ٱلنِّسَآءِ﴾ أو هو معطوف على محل ﴿فِيهِنَّ﴾، والتقدير: ويبيِّن الله لكم أن تقوموا...إلخ.

﴿وَمَا﴾: الواو: حرف استئناف. (ما): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدَّم لفعل شرطه. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾: متعلقان بمحذوف حال مِنْ (ما)، و﴿مِنْ﴾ بيان لم أبهم فيها. (إنَّ): حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما بعدهما. ﴿عَلِيمًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ) والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والجملة الشرطية بكاملها مستأنفة، لا محلَّ لها.

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ﴾: جمْعُها من غير لفظها كما رأيت في الآية السابقة. ﴿خَافَتْ﴾: توقَّعت، ورأت. وقيل: علمت. والعلاقة بينهما: أنَّ الإنسان لا يخاف شيئاً حتَّى يعلم: أنَّه ممَّا يُخاف منه، فهو من باب التعبير عن السَّبب بالمسبَّب. ومن مجيء الخوف بمعنى العلم قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٢٩]: ﴿إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾. هذا؛ وأمَّا التخوُّف؛ فهو التنقُّص، كما في قوله تعالى في سورة (النَّحل) رقم [٤٧]: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ

لرءوف رحيم﴾. يروى: أنَّ عمر ـ رضي الله عنه ـ قال على المنبر: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿أو يأخذهم على تخوّف﴾ فسكتوا، فقام شيخ من هُذيل، فقال: هذه لغتنا، التخوُّف: التنقُّص. قال: فهل تعرف العرب هذا في أشعارهم؟ قال: نعم، قال شاعرنا أبو كبير الهُذَليُّ: [البسيط]

تَـخَـوَّفَ الـرَّحْـلُ مِـنْـهَـا تَـامِـكـاً قَـرِداً كَـمَـا تَـخَـوَّفَ عُـودَ الـنَّـبْـعَـةِ الـسَّـفَـنُ

فقال عمر ـ رضي الله عنه ـ: أيُّها النَّاس عليكم بديوانكم لا تضلُّوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإنَّ فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم. هذا؛ وأصل الخوف: انزعاج في الباطن، يحصل من توقع مكروه يقع في المستقبل. وأصل «خاف»: «خَوِفَ» فقل في إعلاله: تحركت الواو، وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً.

﴿من بعلها﴾ أي: زوجها سمِّي الزوج بعلاً؛ لعلوِّه على الزوجة بما قد ملكه من زوجيتها، ومنه قوله تعالى في سورة (الصافات) رقم [١٢٥]: ﴿أتدعون بعلا﴾، والبعل: المستعلي على غيره، ولمَّا كان الزوج مستعلياً على المرأة، قائماً بأمرها؛ سمِّي بعلاً، ويقال للمرأة أيضاً: بعل، وبعلة، كما يقال لها: زوج، وزوجة، والتاء لاحقة لتأنيث الجمع كما في: الحزونة، والسهولة.

﴿نشوزا أو إعراضا﴾: الفرق بينهما: أنَّ النُّشوز: التباعد. والإعراض: أن لا يكلمها، ولا يأنس بها. فالأول هو التَّجافي عنها، والترفُّع عن محبَّتها، كراهةً لها، ومنعاً لحقوقها، أو إيذاءً لها بِسَبٍّ، أو ضرب. وانظر نشوز المرأة في الآية رقم [٣٤]. هذا؛ و(النُّشوز) في الأصل الترفع، وهو مأخوذ من النَّشْز، وهو المرتفع من الأرض. و(الإعراض) بأن يقلَّ مجالستها، ومحادثتها، ومؤانستها بسبب كبر، أو دمامة، أو سوء خُلُق، أو خَلْق، أو ملالٍ، أو طموح عين إلى أخرى، أو غير ذلك.

﴿فلا جناح عليهما﴾: فلا مؤاخذة، ولا إثم عليهما. ﴿أن يصلحا بينهما﴾: وفي قراءة: (يَصَّالحا) بتشديد الصَّاد، وأصله: يتصالحا، فقلبت التاء صاداً، ثم أدغمت الصَّاد في الصَّاد. وقرئ: (يصطلحا) بإبدال التاء طاءً، والمصالحة بينهما تكون بحطِّ بعض المهر، أو القَسْم، أو بإسقاط بعض النَّفقة. ﴿والصلح خير﴾ أي: من الفُرقة، أو سوء العشرة، والخُصومة. ويجوز ألا يراد به التفضيل، بل بيان: أنَّه من الخير، كما أنَّ الخصومة من الشرور.

﴿وأحضرت الأنفس الشح﴾ أي: جعلت الأنفس حاضرةً للشحِّ، مطبوعةً عليه، فلا تسمح المرأة بالإعراض عنها، والتقصير في حقِّها، والرَّجل لا يسمح بأن يوفِّيها حقَّها كاملاً، ويمسكها عنده، وكلُّ واحدٍ منهما يتشدَّد فيما يطلب، ويريد. وانظر نشوز المرأة في الآية رقم [٣٤].

﴿وإن تحسنوا﴾: إلى المرأة بالصُّحبة الصَّالحة، والعشْرَةِ الطَّيِّبة مراعاةً لحقِّ الصحبة الماضية. ﴿وتتقوا﴾: الله، وتخافوه، أي: أن تجعلوا بينكم وبين النُّشوز، والإعراض عن

المرأة، وما يؤدِّي إلى الخصومة والشرِّ، والفساد وقايةً تمنعكم من ذلك. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ﴾ ولا يزال كائناً ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ﴾: من سوء العشرة، ومن حسنها. ﴿خَبِيرًا﴾: فيثيبكم خير الجزاء. وخذ ما يلي:

عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: نزلت الآية في المرأة تكون عند الرجل لا يستكثر منها، يريد طلاقها، ويتزوَّج غيرها، فتقول له: أمسكني، لا تطلِّقني، ثم تزوَّج غيري، وأنت في حل من النفقة عليَّ، والقسمة لي. فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًاۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌۗ﴾. متَّفق عليه.

تنبيه: كان عمران الخارجي من أقبح بني آدم، وكانت امرأته من أجملهم، فنظرت إليه يوماً، وقالت: الحمد لله، على أنِّي، وإيَّاك من أهل الجنَّة! قال: كيف؟! قالت: لأنَّك رُزِقْتَ مثلي، فشكرت، ورُزِقْتُ مثلك، فصبرت، والجنَّة موعودة للشَّاكرين، والصَّابرين.

عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: خشيتْ سودةُ ـ رضي الله عنها ـ أن يُطلِّقها رسولُ الله ﷺ فقالت: لا تطلِّقني، وأمسكني، واجعل يومي لعائشة. ففعل. فكان رسولُ الله ﷺ يقسم لعائشة يومين: يومها، ويوم سودة. أخرجه الترمذيُّ.

هذا؛ وروى مالك عن ابن شهاب عن رافع بن خديج ـ رضي الله عنه ـ: أنَّه تزوَّج خولة. وقيل: اسمها عمرة بنت محمد بن مسلمة ـ رضي الله عنهما ـ فكانت عنده حتى كبرت، فتزوَّج عليها فتاة شابة، فآثر الشابَّة عليها، فناشدته الطَّلاق، فطلَّقها واحدةً، ثم أهملها حتَّى إذا كانت تحلُّ؛ راجعها، ثم عاد، فآثر عليها الشَّابة، فناشدته الطَّلاق، فطلَّقها واحدةً، ثمَّ راجعها، فآثر الشَّابة عليها، فناشدته الطَّلاق، فقال: إنَّما بقيتْ لك واحدةٌ، فإن شئت استقررت على ما ترين من الأثرة، وإن شئت فارقتُك؟ قالت: بل أستقرُّ على الأثرة، فأمسكها على ذلك، ولم ير رافع ـ رضي الله عنه ـ إثماً حين استقرَّت عنده على الأثرة.

قال أبو عمر بن عبد البر ـ رحمه الله تعالى ـ: قوله والله أعلم: «فآثر الشابة عليها» يريد في ميل نفسه إليها، والنشاط لها، لا أنَّه آثرها عليها في مطعمٍ، وملبسٍ، ومبيتٍ؛ لأنَّ هذا لا ينبغي أن يُظنَّ بمثل رافع، والله أعلم.

بعد هذا: أُضيف الشُّحُ إلى الأنفس: لأنَّه غريزة فيها. والشحُّ في كلام العرب: البخل مع الحرص، وقد فرَّق العلماء بين البخل، والشح، فقالوا: البخل نفس المنع، والشحُّ الحالة النفسانيَّة، التي تقتضي ذلك المنع. وقد ذكرت لك البخل، والشح، وأضرارهما في مواضع كثيرةٍ من هذا الكتاب، وأكتفي هنا بما يلي:

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «**إيَّاكُمْ وَالظلْمَ؛ فَإِنَّ الظلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُحْشَ، وَالتَّفَحُّشَ، وَإِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ**

قَبْلَكُم بِالشُّحِّ، أَمَرَهُمْ بِالقَطِيعَةِ، فَقَطَعُوا، وَأَمَرَهُمْ بِالبخلِ، فَبَخِلُوا، وأمرهم بالْفُجُورِ، فَفَجَرُوا». رواه أبو داود، والحاكم، وقال: صحيحٌ على شرط مسلم، وخذ ما يلي:

قال القرطبيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: وقد روي: أنَّ النبيَّ ﷺ قال للأنصار: مَنْ سَيِّدُكُمْ؟ قالوا: الْجَدُّ بن قيس على بخلٍ فيه. فقال النبي ﷺ: «**وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟!**» قالوا: وكيف ذاك يا رسول الله؟! قال: «**إِنَّ قَوْماً نَزَلُوا بِسَاحِلٍ، فَكرِهُوا لِبُخْلِهِمْ نُزُولَ الأَضْيَافِ بِهِمْ، فَقَالُوا: لِيَبْعُدِ الرِّجَالُ مِنَّا عَنِ النِّسَاءِ حَتَّى يَعْتَذِرَ الرِّجَالُ إِلَى الأَضْيَافِ بِبُعْدِ النِّسَاءِ، وَيَعْتَذِرَ النِّسَاءُ بِبُعْدِ الرِّجَالِ، فَفَعَلُوا، وطَالَ ذَلِكَ بِهِمْ، فَاشْتَغَلَ الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ**». ذكرهُ الماورديُّ. انتهى.

الإعراب: ﴿وَإِنِ﴾: الواو: حرف استئناف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿ٱمۡرَأَةٌ﴾: فاعل لفعل محذوف يفسِّره المذكور بعده، وهذا مذهب سيبويه، والبصريين. وقال الكوفيُّون: هو مبتدأ خبره الجملة الفعلية بعده، والمعتمد الأول. ﴿خَافَتۡ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث حرف لا محلَّ له، والفاعل يعود إلى المرأة، والجملة الفعلية مفسِّرة، لا محلَّ لها. ﴿مِنۢ بَعۡلِهَا﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، ويجوز تعليقهما بمحذوف حال من: ﴿نُشُوزًا﴾ كان صفة له، فلما قُدِّم عليه صار حالاً، و(ها): في محل جر بالإضافة. ﴿نُشُوزًا﴾: مفعول به. ﴿أَوۡ إِعۡرَاضًا﴾: معطوف على سابقه. ﴿فَلَا﴾: الفاء، واقعة في جواب الشرط. (لا): نافية للجنس تعمل عمل «إنَّ» ﴿جُنَاحَ﴾: اسمها مبني على الفتح في محل نصب. ﴿عَلَيۡهِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر (لا)، والميم والألف حرفان دالان على التثنية، والجملة الاسمية في محلِّ جزم جواب الشرط عند الجمهور. والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محلَّ المفرد، و(إنْ) ومدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له.

﴿أَن يُصۡلِحَا﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والألف فاعله، والمصدر المؤول من الفعل وناصبه في محلِّ جرٍّ بحرف جر محذوف، التقدير: في الصُّلح، والجار والمجرور متعلقان بما تعلَّق فيه ما قبلهما. ﴿بَيۡنَهُمَا﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله. وقيل: متعلق بمحذوف حال مِنْ: ﴿صُلۡحًاۚ﴾، والهاء في محل جر بالإضافة، والميم والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿صُلۡحًاۚ﴾: مفعول مطلق، أو هو مفعول به على حسب القراءات. ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ﴾: مبتدأ، وخبر، والجملة الاسمية معترضة، لا محلَّ لها، وإن اعتبرتها في محل نصب حال من ألف الاثنين؛ فلا بأس به، ويكون التقدير: والصلح خيرٌ لهما.

﴿وَأُحۡضِرَتِ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث. ﴿ٱلۡأَنفُسُ﴾: نائب فاعل، وهو المفعول الأول. ﴿ٱلشُّحَّۚ﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ألف الاثنين، وهي على إضمار «قد» قبلها، والرابط: الواو فقط. وقيل: معترضة لا محلَّ لها، والأوَّل أقوى.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿تُحۡسِنُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿وَتَتَّقُواْ﴾: معطوف على ما قبله مجزوم مثله، ومفعولاهما محذوفان. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾. ﴿بِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿خَبِيرًا﴾ بعدهما، و(ما) تحتمل الموصولة والموصوفة، والمصدرية. فعلى الأولين مبنية على السكون في محل جر بالباء، والجملة الفعلية بعدها صلتها، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف، التقدير: بالذي، أو بشيءٍ تعملونه، وعلى المصدرية تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محل جرٍّ بالباء، التقدير: بعملكم. ﴿خَبِيرًا﴾: خبر ﴿كَانَ﴾، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ) والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط. هذا في الظاهر، وعند التأمُّل يظهر لك: أنَّ الجواب محذوف، التقدير: وإن تحسنوا، وتتقوا الله؛ فهو يثيبكم على ذلك. أقام كونه عالماً بأعمالهم مقام إثابته إيَّاهم عليها؛ الذي هو في الحقيقة جواب الشرط إقامةً للسَّبب مقام المسبَّب، وعليه فالجملة الاسمية: (إن الله . . .) إلخ مفيدة للتعليل، والشرط، ومدخوله معطوف على ما قبله، لا محلَّ له مثله.

﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ١٢٩﴾

الشرح: ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ...﴾ إلخ: أخبر الله تعالى بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء، وذلك مِنْ ميل الطبع في المحبَّة، والجماع، والحظِّ من القلب، فوصف الله تعالى حالة البشر، وأنَّهم بحكم الخلقة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعضٍ دون بعضٍ في حال تعدُّدهنَّ حتى لا يقع ميلٌ البتة، فتمام العدل أن يسوي بينهنَّ في المبيت، والنفقة، والتعهد، والنَّظر، والإقبال، والمفاكهة، وغيرهما، والمحبَّة، والمودَّة، وهذا متعذِّر، ولذلك كان النبي ﷺ يقسم بين نسائه في كلِّ شيءٍ، فيعدل، ويقول: «**اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلَا تُؤَاخِذْنِي فِيمَا تَمْلِكُ، وَلَا أَمْلِكُ**». أخرجه الإمام أحمد، وأصحاب السنن عن عبد الله بن يزيد عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، فهو ﷺ يريد القلب. هذا؛ والتسوية بين الضرائر واجبةٌ في المأكل، والملبس، و المسكن، والبيتوتة، أما في الجماع؛ فلا؛ لأنَّ ذلك يدور على النَّشاط، وميل القلب، وليس ذلك إليه.

﴿فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ﴾ أي: فإذا ملتم إلى واحدة منهنَّ؛ فلا تبالغوا في الميل بالكليَّة. ﴿فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: لا هي ذات زوج، ولا مطلقة، كالشيء المعلَّق لا هو في السَّماء، ولا هو في الأرض. وفي الجملة تشبيهٌ مرسلٌ

مجمل، فقد روى الإمام أحمد، وأصحاب السنن عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ، فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَحَدُ شِقَّيْهِ سَاقِطٌ**». وعند أبي داود: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ امْرَأَتَانِ، فَمَالَ إِلَى إِحْدَاهُمَا جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَشِقُّهُ مَائِلٌ**».

﴿وَإِن تُصْلِحُوا﴾: أعمالكم بالعدل بين النساء بعد الجور. ﴿وَتَتَّقُوا﴾ أي: الجور، أو تخافوا الله في الجور. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ...﴾ إلخ؛ أي: يغفر لكم ما مضى من الجَوْر، أو يغفر لكم الميل القلبي.

بعد هذا: فإنَّ بعض جهلة علماء السُّوء في هذا الزَّمن يستدلُّون بهذه الآية، وفي الآية رقم [٣] من هذه السُّورة على وجوب الاقتصار على زوجة واحدة، وهو استدلالٌ باطلٌ محض تردُّه الشريعة الغرَّاء، والسنة النبوية المطهَّرة. فويل لهم ممَّا يأفِكون، ويفترون.

الإعراب: ﴿وَلَن﴾: الواو: حرف استئناف. (لَنْ): حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿تَسْتَطِيعُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ(لن) وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿أَن تَعْدِلُوا﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿أَن﴾. . .إلخ، والمصدر المؤول منهما في محل نصب مفعول به. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿النِّسَاءِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَلَوْ﴾: الواو: واو الاعتراض. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿حَرَصْتُمْ﴾: فعل وفاعل، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي، وجواب (لو) محذوف، تقديره: لما استطعتم، و(لو) ومدخولها بمنزلة الاعتراض؛ لأنَّه أعطى الكلام تقويةً، وتسديداً.

﴿فَلَا﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن شرطٍ مقدَّر؛ إذ التقدير: وإذا كان العدل غير ممكنٍ كليةً؛ فلا. . .إلخ. (لا): ناهية. ﴿تَمِيلُوا﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿كُلَّ﴾: نائب مفعول مطلق، و﴿كُلَّ﴾ مضاف، و﴿الْمَيْلِ﴾ مضاف إليه، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب للشرط المقدر بـ «إذا» والشرط ومدخوله معطوف على ما قبله لا محلَّ له مثله. ﴿فَتَذَرُوهَا﴾: الفاء: تحتمل العطف، والسببية. (تذروها): فعل مضارع مجزوم بسبب العطف، أو هو منصوب بـ «أن» مضمرة بعد الفاء، وعلامة الجزم، أو النصب حذف النون، وعلى نصبه تؤوَّل «أن» المضمرة مع الفعل بمصدر معطوف بالفاء على مصدر متصيد من الفعل السابق، التقدير: لا يكن منكم ميلٌ وترك. . .إلخ. و(ها): مفعول به. ﴿كَالْمُعَلَّقَةِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من الهاء، وإن اعتبرت الكاف اسماً بمعنى «مثل» فتكون حالاً، أو مفعولاً ثانياً؛ لأنَّ (تذر) بمعنى: تترك، وهو ينصب مفعولين. ﴿وَإِن تُصْلِحُوا...﴾ إلخ: انظر الآية السَّابقة، فهي مثلها في إعرابها جملةً، وإفراداً.

﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ١٣٠﴾

الشرح: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا﴾: وقرئ: (يتفارقا) أي: إن لم يصطلح الزَّوجان على شيءٍ ممَّا تقدَّم في الآية رقم [١٢٨]: وحصلت الفرقة بينهما بالخُلع، أو بتطليقه إيَّاها، وإعطائها حقوقها كاملةً من مهرٍ، ونفقةٍ، وغير ذلك. ﴿يُغْنِ ٱللَّهُ...﴾ إلخ؛ أي: يغني الله كلَّ واحدٍ من الزوجين من فضله، أي: بأن يرزق كلَّ واحدٍ زوجاً خيراً من زوجه، وعيشاً أهنأ من عيشه. ﴿وَٰسِعًا﴾ أي: واسِع الفضل، والرَّحمة. وقيل: واسع القدرة، والعلم، والرزق. وقيل: هو الغني الذي وسع جميع مخلوقاته غناه. انتهى. خازن. ﴿حَكِيمًا﴾: فيما قضى، وحكم؛ حيث رخَّص بالفرقة بين الزوجين إذا اشتدَّ الخصام بينهما، وساءت عشرتُهما مع بعضهما. وقد أدرك الأجانب حكمة الطلاق، والفرقة بين الزوجين، فأقرُّوه في محاكمهم بعد تشدُّدهم في منعه عشرين قرناً من الزَّمن. فلله الحمد، والمنَّة على ما شرع لنا مِنْ تعاليمَ؛ النَّاسُ كلُّهم بحاجةٍ إليها.

روي: أنَّ رجلاً شكا إلي جعفر الصَّادق بن محمَّد الباقر الفقر، فأمره بالنِّكاح، فذهب الرَّجل، وتزوَّج، ثمَّ جاء إليه، وشكا إليه الفقر، فأمره بالطَّلاق، فسئل عن ذلك، فقال: أمرته بالنكاح لعلَّه يكون من أهل هذه الآية: ﴿إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦۗ﴾ فلمَّا لم يكن من أهل تلك الآية أمرته بالطلاق، فقلت: لعلَّه من أهل هذه الآية: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا...﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿يَتَفَرَّقَا﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، وألف الاثنين فاعله، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿يُغْنِ﴾: فعل مضارع جواب الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية، لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ «إذا» الفجائية. ﴿كُلًّا﴾: مفعول به. ﴿مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، و(إنْ) ومدخولها كلامٌ معطوف على مثله في الآية السابقة لا محلَّ له مثله، وجملة: ﴿وَكَانَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ١٣١﴾

الشرح: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِۗ﴾: انظر الآية [١٢٦]. ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: اليهود، والنصارى، ومَنْ قبلهم، والمراد بـ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: جميع الكتب السماوية،

التي أنزلت على الأنبياء. ومعنى: ﴿أُوتُوا﴾: أعطوا، وأصله: أُوتِيُوا، فاستثقلت الضمة على الياء فحذفت، فالتقى ساكنان: الياء، والواو، فحذفت الياء، فصار: (أُوتِوْا) ثمَّ قلبت الكسرة ضمة لمناسبة الواو، فصار: ﴿أُوتُوا﴾.

﴿أَنِ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: وحِّدوه، وامتثلوا أوامره، ونواهيه. والمعنى: أنَّ الأمر بتقوى الله شريعةٌ قديمة، أوصى الله بها جميع الأمم السَّالفة في كتبهم. هذا؛ والتقوى: حفظ النفس من العذاب الأخروي بامتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه؛ لأنَّ أصل المادة من الوقاية، وهي الحفظ، والتحرُّز من المهالك دنيا، وأخرى.

﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلخ؛ أي: فإنَّ الله مالك الملك كلِّه، لا يتضرَّر بكفركم ومعاصيكم، كما لا ينتفع بشكركم، وطاعتكم، وتقواكم، وإنَّما أوصاكم بذلك رحمةً بكم. لا لحاجته لذلك، وهذا كما في الحديث القدسي، الَّذي رواه مسلم عن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل: أنَّه قال: «**يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شيئاً، يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ، وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شيئاً**».

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا﴾: عن الخلق، وعن عبادتهم. ﴿حَمِيدًا﴾: محموداً على كلِّ حال من الخير، والشر، والتعذيب، والإثابة، وهو سبحانه مستحقٌّ للحمد في ذاته، محمود تحمده الملائكة، وتنطق ذرات المخلوقات بحمده.

هذا؛ والفعل: (وصَّى) حكمه حكم الأمر في معناه، وتصرُّفه، يقال: وصيت زيداً بأن يفعل كذا، كما تقول: أمرته بأن يفعل كذا، ومنه قول الشاعر: [الوافر]

وَذُبْيَانِيَّةٍ وَصَّتْ بَنِيْهَا ... بِأَنْ كَذَبَ الْقَرَاطِقُ وَالْقُرُوفُ

يصف امرأة وصَّت بنيها بحفظ القراطق، جمع القُرطق، وهي القطعة المخملية، والقروف: أوعيةٌ مِنْ أدم. ومنه قوله تعالى في سورة (البقرة): ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾ بكلمة التوحيد، وأمرهم بها.

الإعراب: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: انظر الآية رقم [١٢٦] ففيها الكفاية، والكلام مستأنف لا محل له. ﴿وَلَقَدْ﴾: الواو: حرف قسم وجر، والمقسم به محذوف، التقدير: والله، والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. واللام: واقعة في جواب القسم. ﴿وَصَّيْنَا﴾: فعل وفاعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب مفعول به. ﴿أُوتُوا﴾: فعل ماض مبني للمجهول مبني على الضم، والواو نائب فاعله، وهو

المفعول الأول. ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾: مفعول به ثان. ﴿مِن قَبۡلِكُمۡ﴾: متعلقان بأحد الفعلين، أو هما متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، وجملة: (لقد...) إلخ جواب القسم، لا محلَّ لها، والقسم وجوابه كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿وَإِيَّاكُمۡ﴾: ضمير منفصل مبني على السكون في محل نصب معطوف على: ﴿ٱلَّذِينَ﴾. ﴿أَنِ﴾: مفسرة، وجملة: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ لا محلَّ لها؛ لأنَّها مفسرة لمعنى: ﴿وَصَّيۡنَا﴾، وهو بمعنى: قلنا. هذا؛ وبعضهم يعتبر ﴿أَنِ﴾ مصدرية، ويؤوِّلها مع الفعل بعدها بمصدر في محل جر بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: وصينا... إلخ بتقوى الله، والجار والمجرور متعلقان بالفعل: ﴿وَصَّيۡنَا﴾، وأعتمدُ الأول.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿تَكۡفُرُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (إنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر: (إنَّ) تقدم على اسمها. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسم (إنَّ) مؤخر. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله، والجملة الاسمية: (إنَّ لله...) إلخ في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور... إلخ، وهو في الظاهر، وعند التأمُّل يتبيَّن لك: أنَّ جواب الشرط محذوف، التقدير: إن تكفروا؛ فلا تضروا الله شيئاً، وعليه فالجملة الاسمية: (فإنَّ لله...) إلخ مفيدة للتعليل. والشرط ومدخوله في محل نصب مقول القول لقول محذوف، التقدير: وقلنا لهم: إن تكفروا... إلخ، والجملة الفعلية على هذا التقدير معطوفة على جملة: ﴿وَلَقَدۡ وَصَّيۡنَا...﴾ إلخ لا محلَّ لها مثلها، وجملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدٗا﴾ مستأنفة لا محلَّ لها، وإعرابها واضح.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ١٣٢﴾

الشرح: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾: انظر شرح هذا الكلام وإعرابه في الآية رقم [١٢٦]. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: انظر إعراب هذه الجملة في الآية رقم [٨١].

تنبيه: في تكرير: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلخ تقرير لما هو موجب تقواه؛ لأنَّ الخلق لمَّا كان كلُّه له، وهو خالقهم، ومالكهم؛ فحقُّه أن يكون مطاعاً في خلقه غير معصي، وأنَّه تعالى متَّصف بجميع الكمالات، وله القدرة التَّامة على خلقه... إلخ.

وقال الخازن ـ رحمه الله تعالى ـ: الفائدة في ذلك: أنَّ لكلِّ آية معنىً تختصُّ به، أمَّا الآية الأولى؛ فمعناها: فإنَّ لله ما في السموات وما في الأرض، وهو يوصيكم بتقوى الله، فاقبلوا وصيته. وقيل: لمَّا قال تعالى: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ﴾ بيَّن أنَّ الله له ما في السموات وما في الأرض، وأنَّه قادر على إغناء جميع الخلائق، وهو المستغني عنهم.

وأمَّا الآية الثانية؛ فإنَّه تعالى قال: ﴿وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد: أنَّه تعالى منزَّهٌ عن طاعات الطائعين، وعن ذنوب العاصين، وأنَّه لا يزداد جلاله بالطَّاعات، ولا ينقص بالمعاصي. وقيل: لمَّا بيَّن: أنَّه له ما في السموات وما في الأرض، وقال بعد ذلك: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ فالمراد منه: أنَّه تعالى هو الغنيُّ، وله المُلك، فاطلبوا منه ما تطلبون، فهو يُعطيكم؛ لأنَّ له ما في السموات وما في الأرض.

وأمَّا الثالثة؛ فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ...﴾ إلخ؛ أي: فتوكَّلوا عليه، ولا تتوكَّلوا على غيره، فإنَّه المالك لِمَا في السموات وما في الأرض. وقيل: تكريرها تعديد لما هو موجب تقواه، أي: تتقوه، وتطيعوه، ولا تعصوه؛ لأنَّ التقوى، والخشية أصل كلِّ خير.

هذا؛ وكرَّر السَّموات، والأرض، وخصَّهما في الذِّكر هنا، وفي كثير من الآيات؛ لأنَّهما أعظم المخلوقات فيما يرى العباد، وجمع السَّموات دون الأرض، وهي مثلهنَّ سبعاً؛ بدليل قوله تعالى في سورة (الطَّلاق) [١٢]: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لأنَّ صفاتها مختلفة بالذَّات، متفاوتةٌ في الصفات، والآثار، والحركات، وقدَّمها لعلوِّ مكانها، وشرفها، وتقدُّم وجودها، ولأنَّها متعبَّد الملائكة، ولم يقع فيها معصيةٌ كما في الأرض، وأيضاً: لأنَّها كالذَّكر، فنزول المطر من السَّماء على الأرض كنزول المني من الذَّكر في المرأة، ولأنَّ الأرض تنبت، وتخضرُّ بالمطر، ووحَّد الأرض؛ لأنَّها بجميع طبقاتها جنسٌ واحد، وهو التُّراب. هذا؛ وأطلق الله (ما) على مَنْ في السموات والأرض، وفيهما من يعقل، ومن لا يعقل، وذلك من باب التَّغليب، كما تطلق (مَنْ) على ما فيهما أيضاً.

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾: يفنيكم جميعاً بالموت، والإهلاك. ﴿أَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: يريد المشركين؛ والمنافقين. وقيل: الآية عامَّة، وهو أولى. ﴿وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ يعني: بغيركم، أي: يخلق أطوع لله منكم، وهو مثل قوله تعالى في سورة (محمد) ﷺ: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم﴾ وقال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

قال الكلبي: هم كندة، والنخع مِنْ عرب اليمن. وقال الحسن: هم العجم. وقال عكرمة: هم فارس، والرُّوم، وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ...﴾ إلخ، فقالوا: ومن يستبدل منَّا يا رسول الله ؟! قال: فضرب رسول الله ﷺ على منكب سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ ثمَّ قال: «**هَذَا، وأَصْحَابُهُ**». أخرجه الترمذي، وقال: حديث

غريب، وفي إسناده مقال، وله روايةٌ أخرى عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: يا رسول الله مَنْ هؤلاء الذين ذكر الله عزَّ وجلَّ إن تولينا، اسْتُبْدِلُوا منا، ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال: وكان سلمان ـ رضي الله عنه ـ بجنب رسول الله ﷺ، فضرب رسول الله ﷺ فخذ سلمان، فقال: «**هَذَا، وَأَصْحَابُهُ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ كَانَ الإِيْمَانُ مَنُوطاً بالثُّرَيَّا؛ لَتَنَاوَلَهُ رِجَالٌ مِنْ فَارِسَ**». ولهذا الحديث طريقٌ في الصحيح.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾ أي: الإعدام، والاستبدال. ﴿قَدِيرًا﴾: بليغ القدرة، لا يعجزه شيء، وفي هذه الآية تقرير أيضاً لغناه تعالى، وكمال عزته، وعظمته، وفيها تهديدٌ، ووعيدٌ لِمَن عصاه، وخالف أوامره. والقدرة: صفة أزلية، لا تتناهى مقدَّرات الله، كما لا تتناهى معلوماته. والماضي والمستقبل في صفاته بمعنىً واحد، والمعنى: كان، ولا يزال كائناً قادراً مقتدراً.

الإعراب: ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾: الإعراب واضح إن شاء الله تعالى. ﴿وَيَأْتِ﴾: فعل مضارع معطوف على جواب الشَّرط مجزوم مثله، وعلامة جزمه حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، وفاعله وما قبله يعود إلى الله تعالى، وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١١٥]. ﴿بِـَٔاخَرِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. و﴿إِن﴾ مدخولها كلام مستأنف لا محلَّ له. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ: الإعراب واضح.

﴿أَيُّهَا﴾: نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب بـ «يا» المحذوفة، و(ها): حرف تنبيه لا محل لها، وأقحم للتوكيد، وهو عوض من المضاف إليه، ولا يقال: ضمير في محل جر بالإضافة؛ لأنَّه يجب حينئذ نصب المنادى. ﴿ٱلنَّاسُ﴾: بعضهم يعرب هذا، وأمثاله نعتاً، وبعضهم يعربه بدلاً، والقول الفصل: أنَّ الاسم الواقع بعد «أي» واسم الإشارة إن كان مشتقاً؛ فهو نعت، وإن كان جامداً كما هنا؛ فهو بدل، أو عطف بيان، والمتبوع ـ أعني: «أي» أو اسم الإشارة ـ منصوب محلاً، وكذا التابع أعني: ﴿ٱلنَّاسُ﴾ فهو منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة الإتباع اللَّفظية، وإنَّما أُتبعت ضمة البناء مع أنَّها لا تُتبع؛ لأنَّها وإن كانت ضمة بناء، لكنَّها عارضةٌ، فأشبهت ضمَّة الإعراب، فلذا جاز إتباعها. أفاده العلامة الصبَّان؛ لأنَّه قال: والمتَّجه وفاقاً لبعضهم: أنَّ ضمة التابع إتباع، لا إعراب، ولا بناء. وقيل: إنَّ رفع التابع المذكور إعراب، واستشكل بعدم المقتضى للرَّفع، وأجيب بأنَّ العامل يقدَّر مِنْ لفظ عامل المتبوع مبنيّاً للمجهول نحو: يُدعى، وهو مع ما فيه من التكلُّف يؤدِّي إلى قطع المتبوع. وقيل: إنَّ رفع التابع المذكور بناءٌ؛ لأنَّ المنادى في الحقيقة هو المحلَّى بأل، ولكن لمَّا لم يمكن إدخال حرف النداء عليه؛ توصَّلوا إلى ندائه بـ «أي» أي: مع قرنها بحرف التنبيه، وردَّه بعضهم بأنَّ المُراعى في الإعراب اللَّفظ، وأنَّ الأوَّل منادى، والثاني تابعٌ له، والإعراب السَّائد الآن أن تقول: مرفوع تبعاً للفظ.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾﴾

الشرح: ﴿مَن كَانَ...﴾ إلخ؛ أي: مَنْ عمل بما افترضه الله عليه طلباً للآخرة؛ آتاه الله ذلك في الآخرة. ومن كان يطلب بعمله ثواب الدُّنيا، أي: حطامها الفاني، كالمجاهد للغنيمة، أو للسُّمعة، والمحمدة، وكذا المتصدِّق، ونحوه، قال تعالى في سورة (الشُّورى): ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾.

﴿فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۚ﴾ أي: عند الله خير الدُّنيا، والآخرة، فما له يطلب أخسَّها؟! أي: يؤثر الفاني الخسيس على الباقي النَّفيس، فليطلبهما معاً، كمن يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً﴾. والأولى أن يطلب أشرفهما، وهو ثواب الآخرة، فإنَّ مَنْ جاهد خالصاً لله؛ لم تخطئه الغنيمة، وله في الآخرة من النَّعيم المقيم ما هو في جنبه كلا شيء. وفي هذا ترغيبٌ في إخلاص العمل لوجه الله تعالى، وأنَّه ينبغي للمؤمن أن يطلب الآخرة الباقية. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا﴾ أي: لأقوالكم. ﴿بَصِيرًا﴾ بأعمالكم، عارفاً بالنيات والمقاصد، فيجازي كلَّ واحدٍ بحسب قصده، ونيَّته.

نزلت الآية الكريمة في مشركي العرب، وذلك: أنَّهم كانوا يقرُّون بأنَّ الله تعالى خالقهم، ولا يقرُّون بالبعث يوم القيامة، فكانوا يتقرَّبون إلى الله ليعطيهم من خير الدنيا، ويصرف عنهم شرَّها. وقيل: نزلت في المنافقين؛ لأنَّهم كانوا لا يُصَدِّقون بيوم القيامة، وإنَّما كانوا يطلبون بجهادهم مع رسول الله ﷺ عاجل الدنيا، وهو ما ينالونه مِنَ الغنيمة. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿مَن﴾: اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط، واسمه ضمير مستتر يعود إلى: ﴿مَن﴾ تقديره: هو. ﴿يُرِيدُ﴾: فعل مضارع، وفاعله يعود إلى: ﴿مَن﴾ أيضاً. ﴿ثَوَابَ﴾: مفعول به، وهو مضاف، و﴿ٱلدُّنْيَا﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره كسرة مقدرة على الألف للتعذُّر، والجملة الفعلية في محل نصب خبر: (كان) وجواب الشرط محذوف، تقديره: فله ذلك، أو: فهو مخطئ، ونحو ذلك. وخبر المبتدأ الذي هو ﴿مَن﴾ مختلف فيه كما ذكرته مراراً، هذا وإن اعتبرت ﴿مَن﴾ اسماً موصولاً؛ فهي مبتدأ، والجملة بعدها صلتها، والجملة المقدَّرة خبر المبتدأ. ﴿فَعِندَ﴾: الفاء: حرف تعليل. (عِنْدَ): ظرف مكان متعلِّق بمحذوف خبر مقدَّم. و(عند): مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿ثَوَابُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف. و﴿ٱلدُّنْيَا﴾: مضاف إليه. ﴿وَٱلْأَخِرَةِۚ﴾: معطوف على ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، والجملة الاسمية: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ...﴾ إلخ مستأنفة على جميع الاعتبارات، والجملة الفعلية: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

الجزء ٦

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية رقم [٢٩] فإنَّه جيد، والحمد لله!. ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ﴾: مجتهدين في إقامة العدل. مواظبين عليه، و﴿قَوَّٰمِينَ﴾: صيغة مبالغة مثله في الآية رقم [٣٤]، و(القسط): العدل، قال تعالى في سورة (الحجرات): ﴿وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾. ﴿شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ معناه: شهداء بالحقِّ لذات الله، ولوجهه، ولمرضاته، وثوابه. ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ أي: ولو كانت الشَّهادة على أنفسكم بأن تقرُّوا بها، وتؤدُّوها على الوجه الأكمل؛ لأنَّ الشهادة بيانٌ للحقِّ؛ سواء أكانت عليه، أو على غيره، ولا يظهر الحقُّ إلا بأدائها على الوجه الأكمل. ﴿أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَۚ﴾ أي: ولو كانت الشَّهادة على الوالدين، والأقربين من ذوي رحمه، أو أقاربه. فالمعنى: أدُّوا الشهادة، وأقيموها لله تعالى، ولا تحابوا قريباً لقرابته، ولا غنيّاً لغناه، ولا فقيراً لفقره، فذلك قوله تعالى: ﴿إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَاۖ﴾ أي: أرحم بهما منكم، والمعنى: كِلُوا أمرهم إلى الله تعالى، فهو أعلم بهم، وبحالهم، وإنَّما قال: ﴿بِهِمَاۖ﴾ على التثنية؛ لأنَّه ردَّ الضمير إلى المعنى دون اللّفظ، يعني: فالله أولى بالغني، وبالفقير؛ أي: الله أولى بكلٍّ واحدٍ منهما. وقيل: إنَّما قال: بهما؛ لأنَّه تقدَّم ذكرهما، كما قال تعالى في الآية رقم [١٢]: ﴿وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُۚ﴾، وانظر شرح «الفقير» في الآية رقم [٦].

﴿فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ﴾: يقصر، ويمدُّ، والمراد بالأول: العِشق؛ والغرام، وهو أيضاً محبة الإنسان للشيء، وغلبته على قلبه، وهو ما في الآية الكريمة، ومنه قوله تعالى في سورة (النازعات): ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: نهاها عن شهواتها، وما تدعو إليه مِنْ معاصي الله تعالى، ويُراد بالممدود: ما بين السَّماء والأرض، وقد جاء «الهواء» بمعنى العِشْق ممدوداً في الشِّعر، ومنه قول الشاعر: [الطويل]

وَهَانَ عَلَى أَسْمَاءَ إِنْ شَطَّتِ النَّوَى ... نَحِنُّ إِلَيْهَا وَالْهَوَاءُ يَتُوقُ

وإليك هذين البيتين إنَّهما من النُّكت الحِسَان: [الكامل]

جُمِعَ الْهَوَاءُ مَعَ الْهَوَى فِي مُهْجَتِي ... فَتَكَامَلَتْ فِي أَضْلُعِي نَارَانِ

فَقَصَّرْتُ بِالْمَمْدُودِ عَنْ نَيْلِ الْمُنَى ... وَمُدِّدْتُ بِالْمَقْصُورِ فِي أَكْفَانِي

وقال أبو عبيدة ـ رحمه الله تعالى ـ: لم نجد الهوى يوضع إلا موضع الشر؛ لأنَّه لا يقال: فلان يهوى الخير، بل يقال: فلان يحبُّ الخير، وجمعه: أهواء، وجمع الممدود: أهوية. وقال الشعبيُّ

ـ رحمه الله تعالى ـ: إنَّما سُمِّي الهوى هوىً؛ لأنَّه يهوي بصاحبه إلى النار. وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: ما ذكر الله هوىً في القرآن إلا ذمَّه، وذكر آياته الكثيرة، وقال عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعَاً لِمَا جِئْتُ بِهِ**». والأحاديث في ذلك كثيرةٌ، وقال الأصمعي ـ رحمه الله تعالى ـ: سمعتُ رجلاً يقول: [الكامل]

إنَّ الْهَوَانَ هُوَ الْهَوَى قُلِبَ اسْمُهُ ... فَإِذَا هَوِيتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانَا

وَسُئِلَ ابن المقفَّع عن الهوى، فقال: هوان سُرِقَتْ نونه، فأخذه شاعر، فنظمه: [الكامل]

نُونُ الْهَوَانِ مِنَ الْهَوَى مَسْرُوقَةٌ ... فَإِذَا هَوِيتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانَا

وقال سهل بن عبد الله التستري: هواك داؤك، فإن خالفته، فدواؤك، وللعلماء في هذا الباب في ذمِّ الهوى ومخالفته كتبٌ، وأبوابٌ أشرنا إلى ما فيه كفاية منه، وحسبك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

﴿أَن تَعْدِلُوا۟﴾ أي: لأن تعدلوا عن الحقِّ، أو كراهة أن تعدلوا. مِنَ العدل. والأول بمعنى: أن تميلوا، وهو أحد الأفعال التي يتغيَّر معناها بتغير الجار، تقول: عدلت عنه بمعنى: أعرضت عنه، وتقول: عدلت إليه بمعنى: أقبلت عليه. وانظر الآيتين رقم [٢٧ و١٢٧] والفعل «تعدل» جاء هنا محتملاً لمعنى الميل، والمعنى العدل، وقد يجيء محتملاً لمعنى الميل، ومعنى التَّسوية، فذلك كما في قوله تعالى في أول سورة (الأنعام): ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ فإن جعلت الجار والمجرور: ﴿بِرَبِّهِمْ﴾ متعلقين بـ﴿يَعْدِلُونَ﴾ كان المعنى: إنَّ الكفار يُسَوُّون الأصنام بربهم، وإن جعلتهما متعلقين بالفعل: ﴿كَفَرُوا۟﴾ كان: ﴿يَعْدِلُونَ﴾ بمعنى: يميلون، والمعنى: إنَّ الكفار يميلون، وينحرفون عن إفراد الله تعالى بالوحدانية. وانظر (المائدة) رقم [٨].

﴿وَإِن تَلْوُۥٓا۟﴾ أي: ألسنتكم عن شهادة الحقِّ، فلا تؤدُّونها كما ينبغي. هذا ويقرأ بضم اللام، وإسكان الواو من الولاية، بمعنى: وإن وليتم إقامة الشَّهادة فأدُّوها على وجهها. ﴿أَوْ تُعْرِضُوا۟﴾ أي: عن أدائها؛ إذا دعيتم إلى أدائها. وهو حرامٌ قطعاً، قال تعالى في آخر سورة (البقرة): ﴿وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ انظر شرحها هناك؛ فإنَّه جيد، والحمد لله!.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الجور في الشَّهادة، أو مِنْ أدائها على وجهها. ﴿خَبِيرًا﴾: بأقوالكم، وأفعالكم. ففي الآية تهديدٌ، ووعيدٌ شديدان.

تنبيه: قال السُّدِّيُّ ـ رحمه الله تعالى ـ: إنَّ فقيراً، وغنيّاً اختصما إلى النَّبيِّ ﷺ، فكان صغوه، واستماعه للفقير أكثر، يرى: أنَّ الفقير لا يظلم الغنيَّ، فأنزل الله هذه الآية، وأمر بالقيام بالقسط مع الفقير، والغني. وقيل: إنَّ هذه الآية متعلقة بقصَّة طُعمة بن أبيرق المذكورة في الآية رقم [١٠٥] وما بعدها، فهي خطاب لقومه الَّذين جادلوا عنه، وشهدوا بالباطل. والأولى التَّعميم لحكمها في كلِّ زمانٍ، ومكان.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: انظر الآية التالية. ﴿كُونُواْ﴾: فعل أمر ناقص مبني على حذف النون لاتصاله بواو الجماعة التي هي اسمه، والألف للتفريق. ﴿قَوَّٰمِينَ﴾: خبره منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: متعلقان بـ﴿قَوَّٰمِينَ﴾. ﴿شُهَدَآءَ﴾: خبر ثان للفعل الناقص أو هو نعت لـ: ﴿قَوَّٰمِينَ﴾. أو هو حال من الضمير المستتر بـ﴿قَوَّٰمِينَ﴾. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بـ﴿شُهَدَآءَ﴾ أو بمحذوف صفة له.

﴿وَلَوْ﴾: الواو: حرف عطف. (لو): حرف لما كان سيقع لوقوع غيره. ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾: متعلقان بمحذوف خبر «كان» محذوفة مع اسمها. انظر الشَّرح، والجملة المقدَّرة، لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿أَوِ﴾: حرف عطف. ﴿ٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾: معطوف على ما قبله مجرور مثله. ﴿وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾: معطوف أيضاً فهو مجرور، وعلامة الجرِّ فيهما الياء؛ لأنَّ الأول مثنىً، والثاني جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، وجواب (لو) محذوف، التقدير: لا تكتموها، و(لو) ومدخولها كلام معطوف على ما قبله، لا محلَّ له مثله. هذا؛ وإن اعتبرت (لو) وصليَّة؛ فلا جواب لها، وتكون الجملة المقدَّرة في محل نصب حال مِنْ لفظ الجلالة، والرَّابط: الواو فقط.

﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿يَكُنْ﴾: فعل مضارع ناقص فعل الشرط، واسمه محذوف مفهوم من المقام، التقدير: إن يكن المشهود عليه. وقيل: التقدير: إن يكن الخصمان. مراعاةً لِمَعنى: ﴿أَوْ﴾. ﴿غَنِيًّا﴾: خبر: ﴿يَكُنْ﴾. ﴿أَوْ فَقِيرًا﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الفعلية لا محل لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿فَٱللَّهُ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (الله) مبتدأ. ﴿أَوْلَىٰ﴾: خبره مرفوع، وعلامة رفعه ضمَّة مقدَّرة على الألف للتعذُّر، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدُّسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محل المفرد، وهذا في الظَّاهر، وعند التأمُّل يظهر لك: أنَّ الجواب محذوف. التقدير: فلا تمتنعوا عن إقامة الشَّهادة لله، وعليه فالجملة الاسمية تعليلٌ للنَّهي المقدَّر. ﴿بِهِمَا﴾: جار ومجرور متعلقان بـ: ﴿أَوْلَىٰ﴾ والميم والألف حرفان دالان على التثنية، والجملة الشرطية فيها معنى التعليل لإقامة الحق، والعدل.

﴿فَلَا﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرط مقدَّر بـ «إذا» (لا): ناهية. ﴿تَتَّبِعُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا) الناهية وعلامة جزمه حذف النُّون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتَّفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب للشَّرط المقدَّر بـ «إذا»، التقدير: وإذا كان الأمر كما ذكر؛ فلا . . .إلخ، وهذا الكلام معطوف على ما قبله. ﴿ٱلْهَوَىٰٓ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدَّرة على الألف للتعذر.

والمصدر المؤول من: ﴿أَن تَعۡدِلُواْۚ﴾ في محل جرٍّ بحرف جر محذوف عند الكوفيين، التقدير: لئلا تعدلوا عن الحقِّ. وعند البصريِّين، التقدير: كراهة العدول عن الحق، فهو في محل جر بإضافته لمفعول لأجله محذوف، وهذا؛ إن كان الفعل بمعنى: تميلوا، وأمَّا إن كان الفعل على ظاهره بمعنى العدل؛ فالمصدر في محل جرٍّ بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: للعدل، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ...﴾ إلخ: انظر إعراب مثل هذا الكلام مفصلاً في الآية رقم [١٢٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: انظر الآية رقم [٢٩] فإنَّه جيد. ﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾: هذا خطاب للمؤمنين، والمعنى: اثبتوا على الإيمان، ودوموا عليه. ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ يعني: القرآن الَّذي أنزله على محمد ﷺ. ﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي: جنس ما أنزل على الأنبياء قبله من كتب. ﴿وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ...﴾ إلخ. أي: وَمَنْ يكفر بشيءٍ من ذلك؛ ﴿فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾: انظر الآية رقم [٦٠].

هذا؛ وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت الآية الكريمة في عبد الله بن سلام، وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ: فهؤلاء مؤمنو أهل الكتاب، أتوا النبي ﷺ، فقالوا: إنا نؤمن بك، وبكتابك، وبموسى، والتوراة، وعزير، ونكفر بما سوى ذلك من الكتب، والرُّسل، فقال لهم النبيُّ ﷺ: بل آمنوا بالله، وبرسوله محمد، والقرآن، وبكلِّ كتابٍ كان قبله، فأنزل الله تعالى الآية. وقيل: الخطاب للمنافقين، والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بألسنتهم، ولم تؤمن قلوبُهم، آمنوا بقلوبكم حتى ينفعكم الإيمان؛ لأنَّ الإيمان باللِّسان لا ينفع من غير مواطأة القلب. وقيل: هو خطاب للمؤمنين. والمعنى: يا أيها الذين آمنوا في الماضي، والحال آمنوا في المستقبل، ودوموا، واثبتوا على الإيمان.

هذا؛ وقد قال تعالى في حق القرآن: ﴿نَزَّلَ﴾، وقال في حقِّ الكتب السَّابقة: ﴿أَنزَلَ﴾؛ لأنَّ الأول يفيد التكثير مرَّةً بعد مرَّةٍ، وهو ممَّا اتصف به القرآن الكريم؛ لأنَّه نزل مفرقاً في ثلاثٍ وعشرين سنة على حسب الوقائع، ومقتضيات الأحوال على ما نرى عليه الشعر، والخطابة، بخلاف التوراة، والإنجيل؛ فإنَّهما نزلا دفعةً واحدةً. ونزول القرآن مفرَّقاً كان ممَّا يريب الكافرين، كما حكى الله عنهم بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً

وَٰحِدَةً﴾. فبيَّن الله سبحانه الحكمة من ذلك بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ الآية رقم [٣٢] من سورة (الفرقان).

هذا؛ والكتاب في اللغة: الضم، والجمع، وسمِّيت الجماعة من الجيش: كتيبة؛ لاجتماع أفرادها على رأيٍ واحدٍ، وخطَّةٍ واحدة، كما سمِّي الكاتب كاتباً؛ لأنَّه يضم الكلام بعضه إلى بعض، ويجمعه، ويرتِّبه. وهو في الاصطلاح: اسم لجملة مختصَّةٍ من العلم، مشتملةٍ على أبواب، وفصول، ومسائل غالباً، وقد أكثر الشعراء في مدح الكتاب.

وبالجملة فالكتاب هو نعم الذُّخر، والعُدَّة، والشُّغل، والحرفة، جليسٌ لا يضرُّك، ورفيقٌ لا يَمَلُّك، يطيعك باللَّيل طاعته بالنهار. ويُطيعك في السَّفر طاعته في الحضر، إنْ ألفته على الأيام؛ خلَّد ذكرك، وإن درسته؛ رفع بين النَّاس قدرك. وإن أردت الزِّيادة فانظر سورة (البقرة) رقم [١٠١].

وأمَّا الكفر: فهو ضدُّ الإيمان، وهو المراد في الآية، وقد يكون بمعنى جحود النِّعمة، والإحسان، ومنه قول النبي ﷺ في النِّساء، في حديث الكسوف: «**وَرَأَيْتُ النَّارَ، فَلَمْ أَرَ مَنْظَراً كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ، وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ**» قيل: بِمَ يَا رسولَ اللهِ؟! قال: «**بِكُفْرِهِنَّ**» قيل: أيكفرن بالله ؟ قال: «**يَكْفُرْنَ الْعَشِيْرَ، وَيَكْفُرْنَ الإِحْسَانَ، لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَى إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ، ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيئاً؛ قَالَتْ: مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْراً قَطُّ**». أخرجه البخاريُّ، وغيره. ويروى بأطول مِنْ هذا من رواية أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ. وأصل الكفر في كلام العرب السَّتر، والتغطية. قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ في معلَّقته في وصف بقرةٍ وحشيةٍ: [الكامل]

يَعْلُو طَرِيقَةَ مَتْنِهَا مُتَوَاتِرٌ ... فِي لَيْلَةٍ كَفَرَ النُّجُومَ غَمَامُهَا

وسمِّي الزارع: كافراً؛ لأنَّه يُلقي البذر في الأرض، ويغطِّيه، ويستره بالتُّراب. قال تعالى في تشبيه حال الدنيا في سورة (الحديد) رقم [٢٠]: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ ويسمَّى الليل: كافراً؛ لأنَّه يستر كلَّ شيء بظلمته. قال لبيد ـ رضي الله عنه ـ: [الكامل]

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَداً فِي كَافِرٍ ... وَأَجَنَّ عَوْرَاتِ الثُّغُورِ ظَلَامُهَا

كما يطلق الكافر على النَّهر، قال المُتَلَمِّسُ حين ألقى الصَّحيفة في النَّهر: [الطويل]

وأَلْقَيْتُهَا بِالثَّنْيِ مِنْ جَنْبِ كَافِرٍ ... كَذَلِكَ أُلْقِي كُلَّ رَأْيٍ مُضَلِّلِ

رَضِيتُ لَهَا بِالْمَاءِ لَمَّا رَأَيْتُهَا ... يَجُولُ بِهَا التَّيَّارُ فِي كُلِّ جَدْوَلِ

هذا؛ وكفر فلان النِّعمة، يكفرها، كفراً، وكفوراً، وكفراناً: إذا جحدها، وسترها، وأخفاها. قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام:

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ وقال القطامي - وهو الشاهد رقم [٥٣١] من كتابنا: «فتح ربِّ البريَّة» -: [الوافر]

أَكُفْراً بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمِئَةَ الرِّتَاعَا

هذا؛ والإيمان الصحيح هو: الإقرار باللِّسان، والتَّصديق بالجَنان، والعمل بالأركان. ولما سئل رسول الله ﷺ عن الإيمان، قال: «**الإيمانُ أنْ تُؤْمِنَ باللهِ، ومَلَائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ مِنَ اللهِ تَعَالَى**». والإيمان يزيد، وينقص على المعتمد، كما بينته في الآية رقم [٢] من سورة (الأنفال) وله شعبٌ كثيرة، وفروع عديدةٌ، وهي سبعٌ وسبعون أعلاها: «**لا إله إلا الله**» وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق. وهو بفتح الهمزة جمع: يمين بمعنى الحلف بالله. أو بصفة من صفاته، أو باسم من أسمائه، قال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٢٢٤]: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾. واليمين أيضاً: اليد اليمنى، وتجمع أيضاً على: أيمان، كما في قوله تعالى في كثير من الآيات: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. ولا يجمع بالمعنى الأوَّل؛ لأنّه مصدر، والمصدر لا يثنى، ولا يجمع. (اليوم الآخر): هو آخر أيام الدُّنيا، فيه الحشر، والنَّشر، والحساب، والجزاء، ودخول أهل الجنَّة الجنَّة بالفضل الإلٰهيِّ، ودخول أهل النَّار النَّار بالعدل الربَّاني.

الإعراب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ انظر الآية رقم [١٣٣]. ﴿آمِنُوا﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَرَسُولِهِ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿وَالْكِتَابِ﴾: معطوف أيضاً. ﴿الَّذِي﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر صفة (الكتاب). ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله)، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والعائد محذوف، التقدير: الذي نزله، وعلى قراءته بالبناء للمجهول، فنائب الفاعل يعود على: ﴿الَّذِي﴾ وهو العائد. ﴿عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ﴾ معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله بلا فارق. ﴿مِن قَبْلُ﴾: متعلقان بما قبلهما، وبني: ﴿قَبْلُ﴾ على الضم لقطعه عن الإضافة لفظاً، لا معنىً.

﴿وَمَن﴾ الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَكْفُرْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿بِاللَّهِ﴾: متعلِّقان بما قبلهما. ﴿وَمَلَائِكَتِهِ...﴾ إلخ: هذه الأسماء معطوفة على لفظ الجلالة. ﴿الْآخِرِ﴾: صفة (اليوم). ﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿ضَلَّ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (من). ﴿ضَلَالًا﴾: مفعول مطلق. ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، وخبر المبتدأ؛ الذي هو (مَنْ) مختلفٌ فيه كما ذكرته مراراً، والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نزلت الآية الكريمة في اليهود آمنوا بموسى. ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بعبادتهم العجل. ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ بعد ذلك، ﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى، والإنجيل، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بمحمَّد ﷺ. وقيل: نزلت في المنافقين وذلك: أنَّهم كفروا بعد الإيمان، ﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: بألسنتهم، وهو إظهارهم الإيمان؛ لتجري عليهم أحكام المؤمنين، ﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بموتهم على الكفر. والمعتمد الأوَّل.

﴿لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ﴾ ذنوبهم إذا أقاموا على الكفر، وماتوا عليه؛ لأنَّ الله تعالى أخبر: أنَّه يغفر الكفر؛ إذا تاب منه بقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ يعني: مِنْ كفرهم، الآية رقم [٣٨] من سورة (الأنفال). ﴿وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا﴾: طريقاً إلى الجنة. وقيل: لا يخصُّهم بالتوفيق كما يخصُّ أولياءه، وفي هذه الآية ردٌّ على أهل القدر، والمعتزلة بأنَّ الله تعالى بيَّن: أنَّه لا يهدي الكافرين طريق خير؛ ليعلم العبد: أنَّه إنَّما ينال الهدى بالله تعالى، ويحرم الهدى بإرادة الله تعالى أيضاً.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم: ﴿إِنَّ﴾. ﴿ءَامَنُوا۟﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على آخره، منع من ظهوره اشتغال المحل بالضم الذي جيء به لمناسبة واو الجماعة، التي هي فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والجمل بعدها معطوفة عليها. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَكُنِ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمه. ﴿لِيَغْفِرَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: «أن» المضمرة بعد لام الجحود، والمصدر المؤول منهما في محل جر بلام الجحود، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿يَكُنِ﴾ التقدير: لم يكن الله مريداً لغفران ذنوبهم. والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿لِيَهْدِيَهُمْ﴾: مثل إعراب ما قبله، والجار والمجرور بعد التأويل معطوفان على ما قبلها. ﴿سَبِيلًۢا﴾: مفعول به ثان.

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾﴾

الشرح: ﴿بَشِّرِ﴾: أمر مِنَ البشارة، وهي الإخبار بما يسرُّ المخبر به، سمِّي بشارة؛ لأنَّ الخبر السار يظهر سروراً في البشرة؛ أي: ظاهر الجلد. والإنذار: الخبر الشاقُّ على النَّفس، ففي

الكلام استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة، وقد تستعمل بالشرِّ، وبما يسوء على سبيل التهكم، والاستهزاء، كما في هذه الآية، وكثير غيرها. ثمَّ إنَّ الغالب في الشرِّ أن يستعمل مقيداً منصوصاً على المبشَّر به على سبيل التهكُّم، كما ذكرت، قال تعالى في سورة (النحل) رقم [٥٨]: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ﴾. وهذا التهكُّم كثيرٌ في الشعر العربيِّ، ومنه قول أبي الشُّعراء الضبِّي: [الطويل]

وَكُـنَّـا إِذَا الْـجَـبَّـارُ بِـالْـجَـيْـشِ ضَـافَـنَـا جَـعَـلْـنَـا الْـقَـنَـا والـمُـرْهَـفَـاتِ لـه نُـزْلَا

وأيضاً قول عمرو بن كلثوم في معلَّقته، وهو الشاهد رقم [٤٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب»: [الوافر]

نَـزَلْـتُـمْ مَـنْـزِلَ الأَضْـيَـافِ مِـنَّـا فَـعَـجَّـلْـنَـا الْـقِـرَى أَنْ تَـشْـتُـمُـونَـا

الإعراب: ﴿بَشِّرِ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر تقديره: أنت. ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الفعلية مبتدأة، أو مستأنفة لا محلَّ لها على الاعتبارين. ﴿بِأَنَّ﴾: الباء: حرف جر. (أنَّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: (أنَّ) مقدَّم. ﴿عَذَابًا﴾: اسمها مؤخر. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له، والمصدر المؤَّول من (أنَّ) واسمها، وخبرها في محل جر بالباء، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل قبلهما، التقدير: بشر المنافقين بالعذاب الأليم.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: هم المنافقون اتَّخذوا اليهود الذين كانوا يساكنون المسلمين في المدينة أنصاراً، وأعواناً. ﴿مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: فكانوا يلوذون بهم، ويؤمِّلون منهم المنعة، والنُّصرة، ويقولون: لا يتم أمر محمد. هذا هو كلام ابن أبيّ ابن سلول، ومن معه من المنافقين؛ الَّذين حالفوا بني قينقاع من اليهود. انظر سورة (المائدة) رقم [٥٢] وما بعدها، فإنَّه جيد، بحمد الله!.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ﴾: يطلبون عندهم القوَّة، والمنعة، فإنَّ العزَّة لله جميعاً: يعزُّ بها، ويكرم بها عباده المؤمنين، كما قال تعالى في سورة (فاطر) رقم [١١]: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾، وقال في سورة (المنافقون): ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. والمقصود من هذا: التهييج على طلب العزَّة، والقوة من جناب الله، والإقبال على عبوديته، والانتظام في جملة عباده؛ الَّذين لهم النُّصرة في الحياة الدُّنيا، ويوم يقوم الأشهاد.

وفي الصحيح عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أنَّ رجلاً من المشركين لحق النبيَّ ﷺ يريد أن يقاتل معه، فقال له: «**ارْجِعْ فَإِنَّا لا نَسْتَعِينُ بِمُشْرِكٍ**». وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٢٨] من سورة (آل عمران) فإنَّه جيِّد، والحمد لله!.

الإعراب: ﴿الَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل جر صفة المنافقين، أو هو بدل منه، أو في محل نصب على الذمِّ بفعل محذوف، التقدير: أذمُّ، أو هو في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: هم الذين، وجملة: ﴿يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ لا محلَّ لها صلة الموصول. ﴿مِن دُونِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من واو الجماعة، و﴿دُونِ﴾ مضاف. و﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾: مضاف إليه مجرور... إلخ. ﴿أَيَبْتَغُونَ﴾: الهمزة: حرف استفهام إنكاري. (يبتغون): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون... إلخ، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿عِندَهُمُ﴾: ظرف مكان متعلِّق بما قبله، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿الْعِزَّةَ﴾: مفعول به. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: حرف عطف. (إنّ): حرف مشبَّه بالفعل. ﴿الْعِزَّةَ﴾: اسمها. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر (إنَّ). ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الضمير المستتر في الجار، والمجرور: ﴿لِلَّهِ﴾، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا (١٤٠)﴾

الشرح: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾: الخطاب لجميع من أظهر الإيمان من مؤمنٍ، ومنافقٍ؛ لأنَّه إذا أظهر الإيمان؛ فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله، كما قال تعالى في سورة (الأنعام) [٦٨]: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ فالآية هنا مدنيَّة تنهى المسلمين عن مجالسة المنافقين، واليهود، وآية (الأنعام) مكيَّةٌ تنهى المسلمين عن مجالسة المشركين في مكَّة. هذا؛ والفعل: ﴿نَزَّلَ﴾ يقرأ بالبناء للفاعل، وللمفعول.

﴿إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ﴾: انظر (آيات) في الآية رقم [٥٦] والمراد بها هنا: آيات القرآن، وما شرعه الله، وبيَّنه من أحكام، وتعاليم. ﴿يُكْفَرُ بِهَا﴾ أي: لا يصدِّق بها الكافرون. ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾: يستهزئ بها المنافقون، ويسخرون منها، فأوقع السَّماع على الآيات، والمراد سماع الكفر، والاستهزاء، كما تقول: سمعت عبد الله يلام، أي: سمعت اللَّوم فيه. ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ﴾: فلا تجالسوهم. ﴿حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ أي: حتى يأخذوا في حديثٍ غير حديث الاستهزاء بآيات الله. هذا؛ والخوض: الدُّخول في الشيء كالماء، ونحوه، فاستعير هنا للحديث بالباطل، والبهتان، والاستهزاء.

﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ أي: في الإثم، والوزر إذا قعدتم معهم؛ لأنَّكم قادرون على الإعراض عنهم، والإنكار عليهم. وهذا يدلُّ على أنَّ الرِّضا بالمعصية معصيةٌ، كالَّذي يجالس شاربي الخمر، ولاعبي القمار، ونحو ذلك، والمعاصي، والمنكرات. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ...﴾ إلخ: أي: كما أشركوهم في الكفر، والرِّضا بالباطل، وقعدوا معهم، وجالسوهم، كذلك يشارك الله بينهم في العذاب في نار جهنَّم، ويجمع بينهم في دار العقوبة، والنَّكال، والقيود، والأغلال، وشراب الحميم، والغسلين... إلخ؛ لأنَّ المرء مع مَنْ أحبَّ، كما هو صريح قول الرَّسول ﷺ.

الإعراب: ﴿وَقَدْ﴾: الواو: حرف استئناف. (قد): حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿نَزَّلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى (الله) والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾: جارَّان، ومجروران متعلِّقان بما قبلهما. ﴿أَنْ﴾: حرف مشبه بالفعل مخفَّف من الثقيلة، واسمه ضمير الشأن محذوف، التقدير: أنَّه. ﴿إِذَا﴾: ظرف لما يستقبل من الزمان، خافض لشرطه، منصوب بجوابه، صالح لغير ذلك، مبني على السُّكون في محل نصب. ﴿سَمِعْتُمْ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية في محل جر بإضافة: ﴿إِذَا﴾ إليها على المشهور المرجوح. ﴿ءَايَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم، و﴿ءَايَٰتِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿يُكْفَرُ﴾: فعل مضارع مبني للمجهول. ﴿بِهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل رفع نائب فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال مِنْ: ﴿ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ والرابط: الضمير المجرور بالباء فقط، وجملة: ﴿وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا﴾: معطوفة عليها، وهي مثلها في إعرابها، وفي محلها.

﴿فَلَا﴾: الفاء: واقعة في جواب: ﴿إِذَا﴾. (لا): ناهية. ﴿تَقْعُدُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية جواب: ﴿إِذَا﴾ لا محلَّ لها، و﴿إِذَا﴾ ومدخولها في محلِّ رفع خبر: ﴿أَنْ﴾ المخففة من الثقيلة، و﴿أَنْ﴾ واسمها المحذوف، وخبرها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول به للفعل: ﴿نَزَّلَ﴾ على بنائه للفاعل، وفي محل رفع نائب فاعله، على بنائه للمفعول. ﴿مَعَهُمْ﴾: ظرف مكان متعلِّق بالفعل قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿حَتَّىٰ﴾: حرف غاية وجر بعدها «أن» مضمرة. ﴿يَخُوضُوا۟﴾: فعل مضارع منصوب بـ«أن» المضمرة بعد (حتى) وعلامة نصبه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتَّفريق، و«أنْ» المضمرة، والفعل: ﴿يَخُوضُوا۟﴾ في تأويل مصدر في محل جر بـ: ﴿حَتَّىٰ﴾، والجار والمجرور متعلِّقان بالفعل: ﴿تَقْعُدُوا۟﴾. ﴿فِى حَدِيثٍ﴾: متعلِّقان بما قبلهما. ﴿غَيْرِهِۦٓ﴾: صفة: ﴿حَدِيثٍ﴾، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة.

﴿إِنَّكُمْ﴾: حرف مشبه بالفعل، والكاف اسمه. ﴿إِذًا﴾: حرف جواب وجزاء، مهمل لا عمل له. ﴿مِّثْلُهُمْ﴾: خبر (إنَّ) والهاء في محل جر بالإضافة، ويقرأ بفتح اللام، فيكون مبنيّاً على الفتح

في محل رفع خبر المبتدأ، مثل قوله تعالى في سورة (الذاريات): ﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾، ومنه قول الفرزدق ـ وهو الشاهد رقم [١٢٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [البسيط]

فَـأَصْـبَـحُـوا قَـدْ أَعَـادَ اللهُ نِـعْـمَـتَـهُـمْ إِذْ هُـمْ قُـرَيْـشٌ وَإِذْ مَـا مِـثْـلَـهُـمْ بَـشَـرُ

والجملة الاسمية: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾: تعليل للنهي، لا محلَّ لها. ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿جَامِعُ﴾: خبرها، وهو مضاف، و﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: مضاف إليه مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَٱلْكَٰفِرِينَ﴾: معطوف على سابقه بالواو العاطفة. ﴿فِى جَهَنَّمَ﴾: متعلقان بـ ﴿جَامِعُ﴾، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوع من الصرف للعلمية، والعجمة. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الضمير المستتر في متعلق الجار والمجرور، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ...﴾ إلخ تعليل لكونهم مثلهم في الكفر، فهو تعليل للتَّعليل.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾﴾

الشرح: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ﴾: أي: ينتظرون وقوع أمرٍ بكم يغمُّكم، ويحزنكم. والخطاب للمؤمنين. ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾: نصرٌ، وغنيمة، وغلبةٌ على المشركين. ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: معاونين لكم في الحرب، ونحن على دينكم، فأعطونا من الغنيمة. ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ﴾ أي: حظ من الغلبة على المسلمين، كالذي حصل في غزوة أحد. ﴿قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ﴾: ألم نغلبكم، ونتمكَّن من قتلكم، ولكنَّنا أبقينا عليكم. أو المعنى: ألم نغلب عليكم حتَّى هابكم المسلمون، وذلك بتثبيطنا لهم، وتقاعدنا عن مشاركتهم في الحرب، كالَّذي حصل في غزوة أحد حين انخزل المنافقون عن المؤمنين. هذا؛ وقد سمَّى الله ظفر المسلمين بالكافرين: فتحاً تعظيماً لشأنهم، وعلوِّ قدرهم؛ لأنَّه أمر عظيم تُفتح له أبواب السَّماء. وسمَّى ظفر الكافرين: نصيباً، تحقيراً لحظِّهم؛ لأنَّه لحظة من الدُّنيا يصيبونها، أمَّا الاستحواذ؛ فهو: الاستيلاء، يقال: استحوذ على كذا؛ أي: استولى، وغلب عليه، وهذا الفعل جاء على الأصل، ولو أُعِلَّ؛ لكان: ألم نَسْتَحِذْ، والفعل على الإعلال: استحاذ، يستحيذ. وانظر سورة المجادلة رقم [١٩] فالكلام فيها جيد، وجيِّد، والحمد لله!.

﴿فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ...﴾ إلخ يعني: بين المؤمنين، والمنافقين. والمعنى: إنَّ الله وضع السيف عن المنافقين في الدُّنيا، لا لإكرامهم، بل أخَّر عذابهم إلى الآخرة؛ ليضاعفه لهم، كما ستقف عليه في آيةٍ تالية.

﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ...﴾ إلخ في هذا أقوال:

أحدها: وهو قول عليٍّ، وابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهم ـ: أنَّ المراد به يوم القيامة بدليل عطفه على ما قبله.

الثاني: أنَّ هذا في الدنيا، والمعنى: أنَّ حجَّة المؤمنين غالبةٌ في الدُّنيا على الكافرين.

الثالث: معناه: إنَّ الله لم يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً بأن يمحو دولة المؤمنين بالكلِّية؛ حتى يستبيحوا بيضتهم، فلا يبقى أحدٌ من المؤمنين، كما في صحيح مسلم ـ رحمه الله تعالى ـ من حديث ثوبان ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي أَلَّا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ عامةٍ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنِّي قَضَيْتُ قَضَاءً، فَإِنَّه لا يُرَدُّ، وَإِنِّي أعطيتُكَ لأمتِكَ أَلَّا أهلكَهُمْ بِسَنَةٍ عامةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عدوّاً مِنْ سوَى أَنْفُسِهِمْ، فيستبيحَ بيْضَتَهُمْ، وَلَو اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضَاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضَاً**».

الرابع: إنَّ شريعة الإسلام باقية إلى يوم القيامة، ولا تتغلب عليها شريعة ما.

الخامس: إنَّ الله سبحانه لا يجعل للكافرين على المؤمنين سبيلاً إلا أن يتركوا الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، ويتركوا أوامر الله تعالى، ويُهملوا سنَّة الرسول ﷺ، كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾. والأحاديث الشريفة كثيرةٌ في ذلك، وأكتفي بما يلي:

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ، فقال: «**يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسُ خِصَالٍ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ ـ وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ ـ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ؛ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ، وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فِي أَسْلَافِهِمْ؛ الَّذِينَ مَضَوْا. وَلَمْ يَنْقصُوا الْمِكْيَالَ، وَالْمِيزَانَ إِلَّا أُخِذُوا بالسِّنينَ، وَشِدَّةِ الْمَؤونة، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلَّا مُنِعُوا الْقَطرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَوْلَا الْبَهَائِمُ؛ لَمْ يُمْطَرُوا. ولَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ غَيْرِهِمْ، فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ تَعَالَى، وَيَتَخَيَّرُوا فِيمَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَّا جَعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ**». رواه ابن ماجه، والبيهقيُّ.

ويتفرَّع عما تقدَّم مسائل؛ منها: أنَّ الكافر لا يرث المسلم. ومنها: أنَّ الكافر لا يتزوَّج مسلمة. واستئجار الكافرِ المسلمَ لعملٍ فيه أمرٌ، ونهي مكروه.

الإعراب: ﴿ٱلَّذِينَ﴾: انظر مثله في الآية رقم [١٣٩]. والجملة الفعلية: ﴿يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ﴾ صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف تفريع، واستئناف. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص

مبني على الفتح في محل جزم فعل الشرط. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿كَانَ﴾ تقدَّم على اسمها. ﴿فَتْحٌ﴾: اسم كان مؤخر. ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ: ﴿فَتْحٌ﴾؛ لأنَّه مصدر، أو بمحذوف صفة له، وجملة: و﴿كَانَ...﴾ إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿قَالُوٓاْ﴾: فعل ماض مبني على الضم في محل جزم جواب الشرط، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية مع مقولها لا محلَّ لها؛ لأنَّها جملة جواب الشرط، ولم تقترن بالفاء، ولا بـ: «إذا» الفجائية، و(إن) ومدخولها كلام مستأنف مفرَّع عمَّا قبله، لا محلَّ له. ﴿أَلَمْ﴾: الهمزة: حرف استفهام وتقرير. (لم): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿نَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ: (لم) واسمه ضمير مستتر تقديره: نحن. ﴿مَّعَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بمحذوف خبر: ﴿نَكُن﴾ والكاف في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ...﴾ إلخ: إعراب هذا الكلام مثل إعراب سابقه بلا فارق. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به. و(إنْ) ومدخولها معطوف على ما قبله، لا محلَّ له مثله.

﴿وَنَمْنَعْكُم﴾: فعل مضارع معطوف على: ﴿نَسْتَحْوِذْ﴾ مجزوم مثله، والفاعل مستتر تقديره: نحن، وقرئ بنصبه على إضماره «أن» بعد الواو في جواب الاستفهام، كما يجوز في العربية رفعه على إضمار مبتدأ كما ذكرته مراراً. ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني. ﴿فَٱللَّهُ﴾: الفاء: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿يَحْكُمُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿بَيْنَكُمْ﴾: ظرف مكان متعلق بما قبله، والكاف في محل جر بالإضافة. ﴿يَوْمَ﴾: ظرف زمان متعلق بما قبله أيضاً، و﴿يَوْمَ﴾: مضاف، و﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَلَن﴾: الواو: حرف استئناف. (لن): حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يَجْعَلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ(لن). ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الأول. ﴿عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿سَبِيلًا﴾ كان صفةً له... إلخ. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية: ﴿وَلَن يَجْعَلَ...﴾ إلخ مستأنفة.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾: الخداع، والمخادعة: أن يوهم المرء صاحبه خلاف ما يريد من المكروه؛ ليوقعه فيه من حيث لا يشعر، أو يوهمه المساعدة على ما يريد هو به؛

ليغترَّ بذلك. وكلام المعنيين مناسب للمقام، فإنَّهم كانوا يريدون أن يطلعوا على أسرار المؤمنين، فيذيعونها إلى المنابذين، وأن يدفعوا عن أنفسهم ما يصيب سائر الكفرة. وانظر سورة (البقرة) رقم [٩] إن أردت الزيادة في ذلك، والخداع، والمخادعة من مكايد الحرب، وهي ممدوحة فيه، قال الرسول المعظم ﷺ: «**الحربُ خُدْعَةٌ**» والمراد بخداعهم الله: خداع الرسول ﷺ؛ لأنَّ الله لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء.

﴿وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ أي: هو مجازيهم على أعمالهم، وذكر لفظ الخداع للمشاكلة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ﴾ وإن الله فاعل بهم ما يفعل الغالب في الخداع؛ حيث تركهم في الدنيا معصومين الدماء، والأموال، وأعدَّ لهم في الآخرة الدرك الأسفل من النار. وقيل: يُعطون على الصراط نوراً، كما يُعطى المؤمنون، فيمضون بنورهم، ثم يطفأ نورهم، ويبقى نور المؤمنين، فينادون المؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ﴾ انتهى جمل. ﴿كُسَالَىٰ﴾: قرئ بضم الكاف وفتحها، مثل: سكارى، وقرئ: (كَسْلَى) مثل: سَكْرَى، وهو جمع كسلان. هذا؛ والكسل: الفتور، والتواني، وانحطاط الجسم.

﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾: مِنَ المُراءاة، وهي مفاعلة من الرؤيا، ومعناها: أنَّ المرائي يري النَّاس عمله حسناً، ولا يُراقب الله في هذا الحسن. والرياء: شرك، كما صرَّحت به الأحاديث الشَّريفة الكثيرة، وخذ ما يلي:

عن جندب بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ؛ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي؛ يُرَائِي اللهُ بِهِ**». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**مَنْ تَزَيَّنَ بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَهُوَ لَا يُرِيدُهَا، وَلَا يَطْلُبُهَا؛ لُعِنَ فِي السَّمَوَاتِ، وَالأَرْضِ**». رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَحَبَّبَ إِلَى النَّاسِ بِمَا يُحِبُّونَ، وَبَارَزَ اللهَ بِمَا يَكْرَهُونَ؛ لَقِيَ اللهَ؛ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ**» رواه الطَّبرانيُّ في الأوسط.

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ، وَأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو، فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ اسْتَهَانَ بِهَا رَبَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى**». رواه أبو يعلى.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ أَثْقَلَ صَلَاةٍ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ، وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمونَ مَا فِيهِمَا؛ لأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْواً، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ، فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلاً، فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنطَلِق مَعِيَ بِرِجَالٍ مَعَهُم حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِم بُيُوتَهُمْ**». رواه البخاريُّ، ومسلمٌ. وانظر الإخلاص في الآية [١٤٦].

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: اسمها منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابةً عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿يُخَٰدِعُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله. ﴿ٱللَّهَ﴾: منصوب على التعظيم، والجملة الفعلية في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية مستأنفة، أو مبتدأة لا محلَّ لها على الاعتبارين. (هُوَ): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ. ﴿خَٰدِعُهُمْ﴾: خبره، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه، والجملة الاسمية في محل نصب حال من واو الجماعة، أو من لفظ الجلالة، والرابط: الواو، والضمير على الاعتبارين. وقيل: معطوفة على خبر: ﴿إِنَّ﴾ وقيل: مستأنفة، والحالية أقوى. (إذا): انظر الآية رقم [١٤٠]، وجملة: ﴿قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ﴾ في محل جر بإضافة (إذا) إليها على المشهور المرجوح، وجملة: ﴿قَامُواْ كُسَالَىٰ﴾ جواب (إذا) لا محلَّ لها، و(إذا) ومدخولها كلام معطوف على جملة: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾ الواقعة خبراً لـ: ﴿إِنَّ﴾؛ فهي في محل رفع مثلها. ﴿كُسَالَىٰ﴾: حال من واو الجماعة منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدّرة على الألف للتعذر، وجملة: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ في محل نصب حال ثانية من واو الجماعة. وقيل: مِنَ الضمير المستتر في: ﴿كُسَالَىٰ﴾. وقيل: إنَّها مستأنفة. وقيل: إنَّها بدل من: ﴿كُسَالَىٰ﴾ وهذان ضعيفان، وجملة: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ﴾ معطوفة على ما قبلها على جميع الوجوه المعتبرة فيها. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿قَلِيلًا﴾: صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: إلا ذكراً قليلاً. وقيل: صفة لـ: «زمان» محذوف، التقدير: إلا زماناً قليلاً. والأول أقوى.

﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾﴾

الشرح: ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾: متحيِّرين، متردِّدين بين الإيمان، والكفر، وهو بفتح الذال من: الذبذبة، وهي الاضطراب، ومنه قول النابغة الذبياني يخاطب به النُّعمان بن المنذر: [الطويل]

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللهَ أَعْـطَـاكَ سُـوْرَةً تَـرَى كُـلَّ مَـلْـكٍ دُونَـهَـا يَـتَـذَبْـذَبُ

وقرئ بكسر الذال، بمعنى: يُذَبْذِبُون قلوبَهُمْ، أو دينهم، ومنه قول البعيث بين حريث: [الطويل]

خَـيَـالٌ لأُمِّ الـسَّـلْـسَـبِـيـلِ وَدُونَـهَـا مَـسِـيـرَةُ شَـهْـرٍ لِـلْـبَـرِيـدِ الْـمُـذَبْـذِبِ

وقرئ بالدَّال بمعنى: أخذ تارة في دَبَّة، وتارة في دَبَّة، وهي الطريقة. ومنه ما روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: اتبعوا دَبَّة قريش، أي: طريقتهم، وملتهم، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء؛ أي: لا منسوبين إلى المؤمنين، ولا إلى الكافرين. ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾: انظر الآية رقم [٨٨] ففيها الكفاية، وخذ ما يلي:

عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً**». متفق عليه.

الإعراب: ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾: حال من واو الجماعة، أو هو منصوب على الذم بفعل محذوف، وعلامة نصبه الياء؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلق به، و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿لَآ﴾: نافية. ﴿إِلَىٰ﴾: حرف جر. ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾: الهاء: حرف تنبيه لا محلَّ له. (أولاء): اسم إشارة مبني على الكسر في محل جر بـ: ﴿إِلَىٰ﴾ والجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في: ﴿مُّذَبْذَبِينَ﴾ انظر الشرح. ﴿وَمَن يُضْلِلِ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [٨٨] ففيها الكفاية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: انظر مثل هذا النداء في الآية رقم [٢٩] فإنَّه جيد والحمد لله! ﴿لَا تَتَّخِذُوا۟﴾: ينهى الله المؤمنين في هذه الآية عن موالاة الكافرين لقرابةٍ، أو صداقةٍ، ونحوهما؛ حتى لا يكون حبُّهم، وبغضُهم إلا لله، كما ينهى عن الاستعانة بهم في الغزو، وسائر الأمور الدِّينية، والدنيوية، وإنَّما يجب الحبُّ للمؤمنين خاصَّةً، والمعاونة والمساعدة لهم، وبهم، ومثل هذه الآية رقم [٢٨] من سورة (آل عمران): ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ والآية رقم [٥١] من سورة (المائدة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ...﴾ إلخ، وقوله تعالى في أول سورة (الممتحنة): ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى...﴾ إلخ، وكل هذه الآيات تنهى المؤمنين الصادقين عن أن يكونوا مثل المنافقين؛ الذين ذكرهم الله في الآية رقم [١٣٩].

﴿أَتُرِيدُونَ﴾: أيها المؤمنون ﴿أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾: حجَّة، وبرهاناً قاطعاً على نفاقكم، حتى يعاقبكم في الآخرة، كما يعاقب المنافقين. وتقدَّم شرح الكلمات، وإعلال بعضها في الآية [٣] و[٦] من سورة (البقرة). وانظر الآية رقم [٨٩].

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ انظر الآية رقم [١٣٣] ففيها الكفاية. ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تَتَّخِذُوا۟﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها كالجملة الندائية قبلها؛ لأنَّها ابتدائية. ﴿ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: مفعول به أوَّل. ﴿أَوْلِيَآءَ﴾: مفعول به ثان. ﴿مِن دُونِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بـ: ﴿أَوْلِيَآءَ﴾، أو بمحذوف صفة له، و﴿دُونِ﴾

مضاف، و﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الياء نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿أَتُرِيدُونَ﴾: الهمزة: حرف استفهام توبيخي. (تريدون): فعل مضارع مرفوع، والواو فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿أَن تَجْعَلُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿أَن﴾، وعلامة نصبه حذف النون. . .إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق والمصدر المؤوَّل من الفعل وناصبه في محل نصب مفعول به. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به ثان تقدَّم على الأوَّل. ﴿عَلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿سُلْطَانًا﴾ كان صفةً له. . .إلخ. ﴿سُلْطَانًا﴾: مفعول به. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له.

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾: المراد به: الطبقة التي في قعر جهنَّم. وإنَّما كان عقابهم كذلك؛ لأنَّهم أخبث الكفرة، ضمُّوا إلى الكفر استهزاءً بالإسلام، وخداعاً للمؤمنين. هذا؛ ودركات النار: منازل أهلها؛ إذ النَّار دركات، والجنَّة درجات، فالدَّرك إلى أسفل، والدَّرج إلى أعلى، ودركات النَّار: طبقاتها، وهي سبع: العليا لعصاة المسلمين، وهي جهنَّم، تكون بعد خروجهم منها خراباً، لا نار فيها، والثانية: لظى للنَّصارى، والثالثة: الحُطَمة: لليهود، والرَّابعة: السَّعير للصابئين، والخامسة: سقر للمجوس، والسادسة: الجحيم لأهل الشِّرك، والسَّابعة: الهاوية، وهي الدَّرك الأسفل للمنافقين، وقد يسمَّى جميعها باسم جهنَّم، ويُطلق عليها لفظ النَّار جميعاً. هذا؛ و﴿ٱلدَّرْكِ﴾ يقرأ بسكون الراء، وفتحها. ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾: ناصراً ينصرهم، ويمنعهم من عذاب الله تعالى.

هذا؛ ودرجات الجنَّة ثمانٍ، وهي: دار الجلال، ودار السَّلام، وجنَّة عدن، وجنة المأوى، وجنة الخُلد، وجنة الفردوس، وجنَّة النَّعيم، ودار الكرامة، وهي المعبَّر عنها بدار المُقامة، بقوله تعالى في سورة (فاطر) رقم [٣٥] حكاية عن قول المؤمنين: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ....﴾ إلخ.

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾: اسمها منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿فِى ٱلدَّرْكِ﴾: متعلِّقان بمحذوف خبر: ﴿إِنَّ﴾ التقدير: مقيمون في الدَّرك. ﴿ٱلْأَسْفَلِ﴾: صفة له. ﴿مِنَ ٱلنَّارِ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلدَّرْكِ﴾، أو من الضمير المستتر في: ﴿ٱلْأَسْفَلِ﴾. والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَلَن﴾: الواو: حرف عطف. (لن): حرف ناصب. ﴿تَجِدَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: (لن) والفاعل مستتر تقديره: أنت. ﴿لَهُمْ﴾:

جار ومجرور، متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الأول، وتعليقهما بـ: ﴿نَصِيرًا﴾ بعدهما ممكن، والمعنى لا يأباه، والجملة الفعلية: ﴿وَلَن تَجِدَ...﴾ إلخ معطوفة على خبر: ﴿إِنَّ﴾ وإنِ اعتبرتها مستأنفةً؛ فلا محلَّ لها.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾

الشرح: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾: رجعوا عن النفاق. ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾: أي: سرائرهم، وأحوالهم بأن طهَّروها من النِّفاق. ﴿وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ﴾: وثقوا به، وتمسَّكوا بدينه. وانظر الآية رقم [١٠٣] من سورة (آل عمران) فإنَّه جيد، والحمد لله! ﴿وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ أي: لا يريدون بعملهم غير وجه الله تعالى. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: إنْ فعلوا ما تقدَّم؛ فيكونون مع المؤمنين في الدَّارين، ورفاقهم في أعلى علِّيين. ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ أي: ثواباً في الآخرة كثيراً، لا يعلم قدره إلا الله تعالى.

تنبيه: المنافق أخطر على الإسلام، والمسلمين من الكافر، ولهذا كان عذابه أشدَّ من عذاب الكافر، كما رأيت في الآية السابقة، وقد شرط تعالى للتَّوبة على الكافر الانتهاء عن الكفر فقط، قال تعالى في سورة الأنفال رقم [٣٨]: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، وأمَّا المنافق؛ فقد شرط الله عليه للتوبة أربعاً: التوبة من النفاق، وإصلاح العمل، والاعتصام بالله، وإخلاص الدِّين له.

هذا؛ و: (الإخلاص) رأس العبادات في التَّوحيد، واتِّباع الأوامر، واجتناب النَّواهي، كيف لا وقد قال الله تبارك وتعالى في سورة (الزمر) رقم [٣]: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي: مِنَ الشرك، والرياء، والنِّفاق. وقال جلَّ ذكره في سورة (غافر) رقم [١٤]: ﴿فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، وقال تعالت كلمته في سورة (البينة): ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. وخذ من قول الرَّسول ﷺ ما يلي:

فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ عن رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَى الإِخْلَاصِ للهِ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وأَقَامَ الصَّلَاةَ، وآتَى الزَّكَاةَ؛ فَارَقَهَا وَاللهُ عَنْهُ رَاضٍ**». رواه ابن ماجه، والحاكم.

وعن ثوبان ـ رضي الله عنه ـ عن النَّبي ﷺ قال: «**طُوبَى لِلْمُخْلِصِينَ أُولئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى، تَنْجَلِي عَنْهُمْ كُلُّ فِتْنَةٍ ظَلْمَاءَ**». رواه البيهقيُّ، وعن ابن عبَّاسٍ ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ أَخْلَصَ للهِ أَرْبَعِينَ يَوْماً؛ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ**». رواه ابن حبان. وحذَّر الرسول ﷺ من الرِّياء، وبالإضافة لِمَا ذكرتُه في الآية رقم [١٤٢] فخذ هنا ما يلي:

فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يَخْرُجُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ رِجَالٌ يَخْتِلُونَ**(١) **الدُّنْيَا بِالدِّينِ، يَلْبَسُونَ لِلنَّاسِ جُلُودَ الضَّأْنِ مِنَ اللِّينِ، أَلْسِنَتُهُمْ أَحْلَى مِنَ السُّكَّرِ، وقُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الذِّئَابِ**» يقول الله عزَّ وجل: «**أَبِي يَغْتَرُّونَ، أَمْ عَلَيَّ يَجْتَرِئُونَ؟! فَبِيْ حَلَفْتُ: لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولئِكَ مِنْهُمْ فِتْنَةً تَدَعُ الْحَلِيمَ حَيْرَاناً!**». رواه الترمذيُّ برقم [٢٤٠٦] والأحاديث في ذلك كثيرةٌ مسطورةٌ.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب على الاستثناء من: ﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أو: من الضمير المجرور محلّاً باللام، أو هو في محل رفع مبتدأ. ﴿تَابُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، التقدير: تابوا من النفاق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها، والجملتان بعدها معطوفتان عليها. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿دِينَهُمْ﴾: مفعول به، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال من: ﴿دِينَهُمْ﴾.

(أُولَٰئِكَ): اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محل له. ﴿مَعَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بمحذوف خبر المبتدأ. و﴿مَعَ﴾: مضاف، و﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ مضاف إليه مجرور. . .إلخ، والجملة الاسمية مستأنفة على الوجه الأول في: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ وفي محل رفع خبره على اعتباره مبتدأ، وزيدت الفاء في خبره؛ لأنَّ الموصول يشبه الشرط في العموم، ومضمون الجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مستثنىً من الكلام السَّابق، واعتبار المفرد الموصول مستثنىً من الكلام السابق يجعل الجملة الاسمية: (أولئك. . .) إلخ غير مرتبطة بما قبلها إعراباً مع كونها مرتبطة بها معنىً، وانظر الآية رقم [١٦٠] من سورة (البقرة).

﴿وَسَوْفَ﴾: الواو: حرف استئناف. (سوف): حرف تسويف، واستقبال. ﴿يُؤْتِ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدّرة على الياء للثقل. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: مفعول به أول منصوب. . .إلخ. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول به ثان. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له.

﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾

الشرح: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ...﴾ إلخ؛ أي: لا غاية لله في عذابكم؛ لأنَّه لا يَشْفي غيظاً، ولا يدفع ضرّاً، ولا يجلب نفعاً، فهو الغني المتعالي عن النَّفع، والضرِّ، وهذا إن شكرتم، وآمنتم،

(١) أي: يطلبون الدنيا بعمل الآخرة.

وإلّا؛ فهو سبحانه يعاقب المصرَّ على كفره، ونفاقه، وعصيانه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ﴾: ويكون، ولا يزال كائناً. ﴿شَاكِرًا عَلِيمًا﴾: قد قدَّم الله الشكر على الإيمان في الآية؛ لأنَّ العاقل ينظر إلى ما عليه من النِّعمة العظيمة في خلقه، وتعريضه للمنافع، فيشكر شكراً مبهماً، فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المُنعم؛ آمن به، ثمَّ شكره شكراً مفصلاً، فكان الشكر مقدَّماً على الإيمان.

هذا؛ والفعل منه يتعدَّى بنفسه، وبحرف الجر، تقول: شكرته، و: شكرت له، كما تقول: نصحته، و: نصحت له، وباللام أفصح. هذا؛ ومن أسماء الله تعالى: الشَّكور، ومعناه: هو الذي يجازي على يسير الطَّاعات كثيرَ الدَّرجات، ويعطي بالعمل في أيامٍ معدودةٍ نعماً في الآخرة غير محدودة. وخذ في معنى الشُّكر لله ما يلي:

قال سهل بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ: الشكر هو: الاجتهاد في بذل الطَّاعة مع الاجتناب للمعصية في السرِّ، والعلانية. وقالت طائفة أخرى: الشُّكر: هو الاعتراف في تقصير الشُّكر للمنعم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا﴾، فقال داود ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ: كيف أشكرك يا رب، والشُّكر نعمةٌ منك علي؟! فقال تعالى: الآن شكرتني، وعرفتني؛ إذ قد عرفت: أنَّ الشكر منِّي نعمةٌ عليك. وقال موسى ـ عليه السلام ـ: كيف أشكرك يا رب! وأصغر نعمةٍ وضعتها بيدي مِنْ نعمك، لا يجازي بها عملي كلُّه؟! فأوحى إليه: يا موسى! الآن شكرتني. وقال ذو النُّون المصري ـ رحمه الله تعالى ـ: الشكر لمن فوقك بالطَّاعة، ولنظيرك بالمكافأة، ولمن دونك بالإحسان، والإفضال.

هذا؛ وشكر الله يستوجب المزيد من النعم، قال تعالى في سورة (إبراهيم) على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾. وجحودها يستوجب سلبها، وذهابها، قال تعالى في الآية نفسها رقم [٧]: ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ﴾ لذا قيل: إنَّ الشكر قيد النعمة الموجودة، وبه تنال النعمة المفقودة. وينبغي أن تعلم: أنَّ فائدة الشكر، تعود على الشَّاكر نفسه، قال تعالى في سورة (النَّمل) رقم [٤٠]: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾، وقال تعالى في سورة (لقمان) رقم [١٢]: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾.

هذا؛ والشُّكر مطلوبٌ لكلِّ منعم، ومحسن؛ ولو كان من البشر، لذا فقد ندبنا الله ورسوله على أن نشكر مَنْ أحسن إلينا من النَّاس، لذا قال الله تعالى: ﴿ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ أُعْطِي عَطَاءً، فَوَجَدَ؛ فَلْيَجْزِ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ؛ فَلْيُثْنِ، فَإِنَّ مَنْ أَثْنَى؛ فَقَدْ شَكَرَ، وَمَنْ كَتَمَ؛ فَقَدْ كَفَرَ، وَمَنْ تَحَلَّى بِمَا لَمْ يُعْطَ؛ كَانَ كَلَابِس ثَوْبَي زُورٍ**». أخرجه الترمذيُّ.

وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ: جَزَاكَ اللهُ خَيْرَاً؛ فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاء**».

وعن النُّعمان بن بشير ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ؛ لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ؛ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ. والتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُها كُفْرٌ، والْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ**». قال الخطابي ـ رحمه الله تعالى ـ: هذا الكلام يتأول على معنيين: **أحدهما**: أنَّ مَنْ كان طبعُهُ كفران نعمة النَّاس، وترك الشكر لمعروفهم؛ كان من عادته كفران نعم الله، عزَّ وجل، وترك الشكر له. **والمعنى الثاني**: أنَّ الله تعالى لا يقبل شكر العبد على إحسانه إليه؛ إذا كان العبد لا يشكر إحسان النَّاس إليه، ويكفر معروفهم، لاتصال أحد الأمرين بالآخر. ورحم الله مَنْ قال: [الطويل]

وَمَنْ لَمْ يُؤَدِّ الشُّكْرَ لِلنَّاسِ لَمْ يَكُنْ   لإِحْسَانِ رَبِّ النَّاسِ يَوْماً بِشَاكِرِ

الإعراب: ﴿مَّا﴾: اسم استفهام مبني على السكون في محل نصب مفعول به مقدم. وقيل: (ما) نافية. ﴿يَفْعَلُ ٱللَّهُ﴾: فعل مضارع وفاعله، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿بِعَذَابِكُمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والباء زائدة في المفعول به على اعتبار (ما) نافية، والكاف في محل جر بالإضافة، من إضافة اسم المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿شَكَرْتُمْ﴾: فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط، والتاء فاعله، ومفعوله محذوف، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. ﴿وَءَامَنتُمْ﴾: معطوف على ما قبله جملةً، وإفراداً، ومتعلقه محذوف، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: إن شكرتم الله، وآمنتم به؛ فما يفعل الله . . . إلخ، وجملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿۞ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾﴾

الشرح: ﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ...﴾ إلخ: أي: لا يرضى ربُّنا أَنْ يجهر المسلم بالقول السيِّئ إلا المظلوم، فإنَّه يجوز له أن يجهر بظلمه، فيقول: فلان ظلمني، أو سرقني، أو شتمني، ونحو ذلك، كما فسِّر بدعاء المظلوم على الظالم، فإنَّه يجوز له أن يدعو على ظالمه سرّاً، وجهراً. وقيل: نزلت الآية في الضَّيف إذا نزل بقوم، فلم يُقروه، ولم يُحسنوا ضيافته؛ فله أن يشكوَ، ويذكر ما صُنِع به.

وقال مقاتل ـ رحمه الله تعالى ـ: نزلت في أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وذلك: أنَّ رجلاً نال منه، والنبيُّ ﷺ حاضر، فسكت عنه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ مراراً، ثم ردَّ عليه، فقام النبيُّ ﷺ مِنْ مجلسه، فقال الصدِّيق: يا رسول الله! شتمني الرَّجل، فلم تقل له شيئاً؛ حتَّى إذا رددت عليه؛ قمتَ! فقال النبي ﷺ: «**إنَّ مَلَكاً كَانَ يُجِيبُ عَنْكَ، فَلَمَّا رَدَدْتَ عَلَيْهِ؛ ذَهَبَ الْمَلَكُ، وَجَاءَ الشَّيْطَانُ، فَقُمْتُ**». ونزلت الآية الكريمة.

هذا؛ وقرئ: (إلَّا مَنْ ظَلَمَ) بفتح الظَّاء، واللام. والمعنى عليه: إلا مَنْ ظلم في فعلٍ، أو في قولٍ فاجهروا له بالسُّوء من القول. ففيه معنى النهي عن فعله القبيح، والتوبيخ له، والردِّ عليه، فإنَّه يقال للمنافق: ألست المنافق الكافر الذي لك في الآخرة الدَّرك الأسفل من النَّار؟! وقال قوم: معنى الكلام: لكن مَنْ ظَلَمَ، فإنَّه يجهر بالسوء ظلماً، وعدواناً، وهذا شأن كثير من الظَّلمة، ودأبهم، فإنَّهم مع ظُلمهم يستطيلون على الناس بألسنتهم، وينالون مِنْ عِرْض مظلومهم ما حرَّم الله عليهم. والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾: تحذير للظَّالم حتَّى لا يَظْلِم، وللمظلوم حتى لا يتعدَّى الحدَّ في الانتصار. وخذ قوله تعالى في سورة (الشورى): ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾. وقوله جلَّ ذكره فيها أيضاً: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾. وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**الْمُسْتَبَّانِ مَا قَالَا، فَعَلَى الْبَادِئِ مِنْهُمَا مَا لَمْ يَعْتَدِ الْمَظْلُومُ**». أخرجه أبو داود برقم: [٤٨٩٤]، ومسلم برقم [٢٥٨٧]، وعن عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ قال: قلت: يا نبي الله! الرجل يشتمني، وهو دوني، أَعَلَيَّ مِنْ بأس أن أنتصر منه؟ قال: «**الْمُسْتَبَّانِ شَيْطَانَانِ يَتَهَاتَرَانِ يَتَكَاذَبَانِ**». رواه ابن حبَّان في صحيحه.

الإعراب: ﴿لَّا﴾: نافية. ﴿يُحِبُّ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿ٱلْجَهْرَ﴾: مفعول به. ﴿بِٱلسُّوٓءِ﴾: متعلقان بـ﴿ٱلْجَهْرَ﴾ لأنَّه مصدر، فهما في محل نصب مفعول به. ﴿مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾: متعلقان بمحذوف حال مِنَ (السوء). ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. أو أداة استثناء. ﴿مَن﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل جر بإضافة اسم محذوف إليه، التقدير: إلَّا جَهْرَ مَنْ. وهذا المحذوف بدل من: ﴿ٱلْجَهْرَ﴾، أو هو مستثنىً منه. والأول أقوى؛ لأنَّ الكلام تامٌّ منفي، و﴿مَن﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿ظُلِمَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، أو للمعلوم، ونائب الفاعل، أو الفاعل يعود إلى: ﴿مَن﴾، والجملة الفعلية صلة: ﴿مَن﴾ أو صفتها، وجملة: ﴿وَكَانَ...﴾ إلخ مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾

الشرح: ﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا...﴾ إلخ؛ أي: إنْ أظهرتم أيُّها النَّاس عمل الخير، أو أخفيتموه، أو عفوتم عمَّن أساء إليكم. والخير في هذه الآية يشمل جميع أعمال البرِّ مِن طاعة الله، ومن إحسانٍ، ومعروفٍ لأي مخلوقٍ يدبُّ على وجه الأرض. والعفو يشمل التَّجاوز عن كلِّ إيذاءٍ، وإساءةٍ، ومضرَّة من أيِّ مخلوق. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ...﴾ إلخ. يعني: لم يزل ذا عفوٍ مع قدرته على الانتقام، فاعفوا أنتم عمَّن ظلمكم، واقتدوا بسنَّة الله، ورسوله؛ يعفُ عنكم يوم القيامة؛ لأنَّه أهلٌ للتَّجاوز، والعفو عنكم.

روى ابن المبارك؛ قال: حدَّثني مَنْ سمع الحسن؛ يقول: إذا جثت الأمم بين يدي ربِّ العالمين؛ نودي: ليقم مَنْ أجره على الله ! فلا يقوم إلا مَنْ عفا في الدنيا عن المُسيئين. ويصدقه قوله تعالى في سورة (الشُّورى): ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾. هذا؛ وبين: ﴿تُبْدُواْ﴾ و﴿تُخْفُوهُ﴾ طباق، وهو من المحسِّنات البديعية.

الإعراب: ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿تُبْدُواْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي، والجملتان بعدها معطوفتان عليها، وإعرابُهما مثلها، وجواب الشَّرط محذوفٌ، تقديره: فهو أولى لكم مِنْ تركه، و(إنْ) ومدخولها كلامٌ مستأنفٌ لا محلَّ له.

﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: حرف تعليل. (إنَّ): حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱللَّهَ﴾: اسمها. ﴿كَانَ﴾: فعل ماض ناقص، واسمه ضمير مستتر يعود إلى: ﴿ٱللَّهَ﴾ تقديره: «هو». ﴿عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ خبران لـ: ﴿كَانَ﴾ والجملة الفعلية في محل رفع خبر: (إنَّ)، والجملة الاسمية لا محلَّ لها؛ لأنَّها تعليلية.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ...﴾ إلخ: نزلت الآية الكريمة في اليهود، والنَّصارى جميعاً، وذلك: أنَّ اليهود آمنوا بموسى، والتوراة، وكفروا بعيسى، والإنجيل، وبمحمد، والقرآن. والنصارى آمنوا بعيسى، والإنجيل، وكفروا بمحمَّد ﷺ والقرآن. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: بين الإيمان بالله، والإيمان برسله. فنصَّ الله سبحانه وتعالى: أنَّ التفريق بين الله، ورسله كفرٌ، وإنَّما كان كفراً؛ لأنَّ الله تعالى فرض على الناس أن يعبدوه بما شرع لهم على ألسنة الرُّسل. فإذا جحدوا الرُّسل؛ ردُّوا عليهم شرائعهم، ولم يقبلوها منهم، فكانوا ممتنعين من التزام العبودية؛ الَّتي أُمِروا بالتزامها لله تعالى.

﴿وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾: هو ما ذكرته مفصلاً من إيمان اليهود، وإيمان النصارى آنفاً. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ أي: بين الإيمان بالبعض دون البعض يتَّخذون مذهباً يذهبون إليه، وديناً وسطاً بين الإسلام، واليهودية يدينون به، ولا دين وسط لله تعالى؛ إذ الحقُّ لا يختلف، فإنَّ الإيمان بالله لا يتمُّ إلا بالإيمان برسله، وتصديقهم فيما بلَّغوا تفصيلاً، وإجمالاً، فالكافر ببعضٍ كالكافر بالكلِّ في الضَّلال، كما قال جلَّ ذكره: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾.

تنبيه بل فائدة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الإيمان، والكفر، ولم يقل: بين ذينك؛ لأنَّ ذلك تقع للواحد، وللاثنين، ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٨٦]: ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾. ومن شواهدها الشِّعرية قول عبد الله بن الزِّبَعْرَى ـ وهو الشاهد رقم [٣٦٧] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» والشاهد رقم [١٨٤] من كتابنا: «فتح رب البريَّة» ـ: [الرمل]

إنَّ لِلْخَيْرِ وَلِلشَّرِّ مَدًى ... وَكِلَا ذَلِكَ وَجْهٌ وَقَبَلْ(١)

وقال ابن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ في ألفيته مشيراً إلى ذلك في (الإضافة): [الرجز]

لِمُفْهِمِ اثْنَيْنِ مُعَرَّفٍ بِلَا ... تَفَرُّقٍ أُضِيفَ كِلْتَا وَكِلَا

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبَّه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محلِّ نصبِ اسم (إنَّ). ﴿يَكْفُرُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والجملة الفعلية صلة الموصول لا محلَّ لها، والجملة بعدها معطوفة عليها، لا محلَّ لها مثلُها. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿وَيُرِيدُونَ﴾: فعل مضارع، وفاعله. ﴿أَن يُفَرِّقُواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ: ﴿أَن﴾ وعلامة نصبه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤول من الفعل، وناصبه في محلِّ نصبٍ مفعول به. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بما قبله. و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَيَقُولُونَ﴾: مضارع، وفاعله. ﴿نُؤْمِنُ﴾: فعل مضارع، وفاعله مستتر تقديره: نحن، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول. ﴿بِبَعْضٍ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب مقول القول مثلها. ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ﴾: إعراب هذه الجملة مثل إعراب ما قبلها. ﴿بَيْنَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بما قبله، أو هو متعلِّق بمحذوف حال مِنْ: ﴿سَبِيلًا﴾ كان صفة له. . .إلخ. و﴿بَيْنَ﴾ مضاف، و﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل جر بالإضافة، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿سَبِيلًا﴾: مفعول به.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾

الشرح: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المذكورون في الآية السابقة. ﴿هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: الكاملون في الكفر؛ لأنَّه لا اعتبار بإيمانهم. ﴿حَقًّا﴾: تأكيد يزيل التوهُّم في إيمانهم حين وصفهم الله بأنهم يقولون: ﴿نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ﴾. وإذا كفروا ببعض الرُّسل، فقد كفروا بالله ـ عزَّ وجل ـ

---

(١) أي: طريق واضح.

كفراً محقَّقاً، وكفروا بكلِّ رسول مبشِّرٍ بمحمد ﷺ. ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ...﴾ إلخ أي: كما استهانوا بِمَنْ كفروا به من الرُّسل. يعذبهم في الآخرة عذاباً شديداً يهينهم به جزاء كفرهم، واستهانتهم برسل الله محمدٍ، وعيسى، عليهما ألف صلاة، وألف سلام.

الإعراب: ﴿أُولَٰئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محلِّ رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿هُمُ﴾: ضمير فصل لا محلَّ له. ﴿الْكَافِرُونَ﴾: خبر المبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد. هذا؛ وإن اعتبرت الضَّمير مبتدأ ثانياً، و﴿الْكَافِرُونَ﴾ خبره؛ فالجملة الاسمية تكون في محلِّ رفع خبر الأول، والجملة الاسمية: ﴿أُولَٰئِكَ﴾إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾ في الآية السابقة، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿حَقًّا﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: حقَّ ذلك حقّاً، والجملة في محلِّ نصبٍ حال مؤكدة لمضمون الجملة الاسمية، أو هو حال صريحة مؤكِّدة لمضمون الجملة الاسمية، ومثله قول سالم بن دارة اليربوعي ـ وهو الشاهد رقم [٣٨٥] من كتابنا: «فتح رب البريَّة» ـ: [البسيط]

أَنَـا ابْـنُ دَارَةَ مَـعْـرُوفـاً بِـهَـا نَـسَـبِـي ... وَهَـلْ بِـدَارَةَ يَـا لِـلـنَّـاسِ مِـنْ عَـارِ؟!

وقيل: ﴿حَقًّا﴾ صفة لمصدر محذوف، التقدير: الكافرون كفراً حقّاً. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بـ﴿مُّهِينًا﴾ بعدهما. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿مُّهِينًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها، أو هي معترضة بين المتعاطفتين.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾

الشرح: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يعني بذلك أمَّة محمد ﷺ، فإنَّهم يؤمنون بكلِّ كتاب أنزله الله، وبكلِّ رسولٍ بعثه الله تعالى، كما قال الله تعالى في آخر سورة (البقرة): ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ...﴾ إلخ، والآية رقم [٨٤] من سورة (آل عمران): ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ...﴾ إلخ. ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ﴾ أي: بالإيمان، وأمَّا بالتَّفضيل فهو موجودٌ، كما ذكرته مراراً. ﴿أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾ فهذا وعد من الجليل بالثَّواب الجزيل، والعطاء الجميل، و﴿سَوْفَ﴾: هنا بحقِّ الله تعالى للتَّحقيق، والتَّأكيد، ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾؟! ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾: ولا يزال كائناً. ﴿غَفُورًا﴾ لذنوب عباده. ﴿رَّحِيمًا﴾ بهم.

بعد هذا فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يقابل قوله جلَّ ذكره: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾. وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَمْ يُفَرِّقُوا﴾ يقابل قوله تعالت قدرته: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن

يُفَرِّقُواْ...﴾ إلخ. وأما قوله تعالت حكمتُه: ﴿وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ...﴾ إلخ؛ فداخل فيما قبله، فتمَّت المقابلة.

قال النَّسفي ـ رحمه الله تعالى ـ: والآية تدلُّ على بطلان قول المعتزلة في تخليد مرتكب الكبيرة؛ لأنَّ الله أخبر: أنَّ من آمن بالله، ورسله... إلخ يؤتيه أجره، ومرتكب الكبيرة مِمَّن آمن بالله ورسوله، ولم يفرِّق بين أحد منهم، فيدخل تحت هذا الوعد.

هذا؛ و(أحد) أصله: وحد؛ لأنَّه من الوحدة، فأبدلت الواو همزة، وهذا قليل في المفتوحة، وإنَّما يحسن في المضمومة، والمكسورة، مثل قولهم في: وجوه: أوجه، وفي وساءة: إساءة. وهو مرادف للواحد في موضعين: أحدهما: وصف الباري جلَّ عُلاه، فيقال: هو الواحد، وهو الأحد. والثاني: أسماء العدد، فيقال: أحدٌ وعشرون، وواحد وعشرون، وفي غير هذين الموضعين يفرق بينهما في الاستعمال، فلا يستعمل أحد إلا في النفي، وهو كثير في الكلام، أو في الإثبات مضافاً، كما في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ﴾ بخلاف الواحد، وقولهم: ما في الدَّار أحد. وهو اسم لِمَنْ يعقل، ويستوي فيه الواحد، والمثنى، والجمع، والمذكر، والمؤنث، ولذا صحَّت إضافة (بين) إليه، قال تعالى في سورة (الأحزاب) رقم [٣٢]: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. وقال جلَّ ذكره في سورة (الحاقة) رقم [٤٧]: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ وإن أردت الزيادة؛ فانظر الآية رقم [٢٦] من سورة (الجن) تجدْ ما يسرُّك ويثلجُ صدرك.

الإعراب: (الَّذِينَ): اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وجملة: ﴿ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ صلة الموصول، لا محلَّ لها. (لَمْ): حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يُفَرِّقُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: (لم)، وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية معطوفة على جملة الصلة، لا محلَّ لها مثلها. ﴿بَيۡنَ﴾: ظرف مكان متعلِّق بما قبله، و﴿بَيۡنَ﴾ مضاف، و﴿أَحَدٖ﴾: مضاف إليه. ﴿مِّنۡهُمۡ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف صفة: ﴿أَحَدٖ﴾.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب لا محلَّ له. ﴿سَوۡفَ﴾: حرف تسويف، واستقبال، وهو هنا للتَّحقيق. ﴿يُؤۡتِيهِمۡ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾، والهاء مفعول به أوَّل. ﴿أُجُورَهُمۡۚ﴾: مفعول به ثان، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ...﴾ إلخ في محل رفع خبر المبتدأ الأوَّل، والجملة الاسمية: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ...﴾ إلخ معطوفة على الجملة السابقة الواقعة خبراً لـ: (إنَّ) فهي في محل رفعٍ مثلها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾: إعراب هذه الجملة واضح، وهي مستأنفةٌ، لا محلَّ لها.

﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾﴾

الشرح: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ إلخ؛ أي: سألك يا محمد أهل الكتاب من اليهود، وذلك: أنَّ كعب بن الأشرف، وفِنْحاص بن عازوراء، وغيرهما قالوا لرسول الله ﷺ: إن كنت نبيّاً؛ فائتنا بكتاب من السماء جملةً واحدة، كما أتى موسى بالتوراة. وكان هذا السؤال من اليهود سؤال تعنُّتٍ، واقتراح، لا سؤال استرشاد، وانقياد، والله عزَّ وجل لا ينزل الآيات على اقتراح العباد، ولأنَّ معجزة الرسول ﷺ كانت قد تقدَّمت، وظهرت، فكان طلب الزيادة من باب التعنُّت.

﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ﴾ أي: أعظم من الَّذي سألوك يا محمد! ففيه تسليةٌ للنبي ﷺ وتوبيخٌ، وتقريع لليهود؛ حيث سألوا رسول الله ﷺ سؤال تعنُّت. والمعنى: لا تَعْظُمَنَّ عليك مسألتُهم يا محمد! فإنَّهم من فرط جهلهم، واجترائهم على الله لو أتيتهم بكتاب من السماء؛ لما آمنوا بك. وإنَّما أسند السؤال إلى اليهود الذين كانوا في زمن النبي ﷺ، وإن وجد هذا السُّؤال من آبائهم الذين كانوا في زمن موسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ لأنَّهم كانوا على مذهبهم، وراضين بسؤالهم، ومشاكلين لهم في التعنُّت. وما أكثر مثل هذا التوبيخ للموجودين في عهد الرسول ﷺ بما فعل آباؤهم الأوَّلون في سورة (البقرة). انظر الآية رقم [٥٥] وما بعدها.

﴿فَقَالُوٓا۟﴾: يعني أسلاف اليهود. ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾: أرناهُ نره عياناً. وذلك: أنَّ سبعين من بني إسرائيل خرجوا مع موسى ـ عليه الصَّلاة والسَّلام ـ إلى الجبل ليعتذر إلى الله من عبادة العجل، انظر الآية رقم [٥٥] من سورة (البقرة).

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ﴾ أي: بسبب ظلمهم، وسؤالهم الرؤية. والصَّاعقة: الصيحة، وهي صوت هائل سمعوه من جهة السَّماء. وقيل: هي نارٌ. وفي سورة (الأعراف) رقم [١٥٥]: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾: وهي الزلزلة، ويمكن الجمع بأنَّهم حصل لهم الجميع، انظر الآية [٥٥] من سورة (البقرة) والآية [١٥٢] من سورة (الأعراف).

﴿ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ﴾ يعني: إلٰهاً، وهم الذين خلَّفهم موسى مع أخيه هارون حين خرج إلى ميقات ربِّه ليأتيهم بالتَّوراة؛ التي وعدهم بها. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾: المعجزات الواضحات الدَّالة على صدق موسى، وهي: العصا، واليد، وفلق البحر، وغير ذلك من المعجزات الباهرة.

هذا؛ وأصل (اتخذ) ائْتَخَذ من الأخذ، وزنه: اِفْتَعَل؛ سهلت الهمزة الثانية لامتناع همزتين، فصار: «ايْتَخَذَ» فاضطربت الياء في التَّصريف. فجاءت ألفاً في: «يَا تَخِذُ» وواواً في: «مُوتَخِذُ»

فبدِّلت بحرف ثابت من جنس ما بعدها، وهي التاء، ثم أدغمت التاء في التاء، ثم اجتلبت ألف الوصل للنطق بها، وقد يستغنى عنها إذا كان معنى الكلام التقرير، كقوله تعالى في سورة (البقرة) رقم [٨٠]: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا﴾ فاستغني عن ألف الوصل بألف التَّقرير، ومثله قول ذي الرُّمَّة: [البسيط]

أَسْتَحْدَثَ الرَّكْبُ عَنْ أَشْيَاعِهِمْ خَبَرَاً ... أَمْ رَاجَعَ الْقَلْبَ مِنْ أَطْرَابِهِ طَرَبُ؟

ومثل ذلك كلِّه قولُه تعالى في سورة (مريم) رقم [٧٨]: ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾؟، وقوله تعالى في سورة (الصَّافات) رقم [١٥٣]: ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾؟، وقوله تعالى في سورة (صٓ) رقم [٧٥]: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؟، وقوله تعالى في سورة (المنافقون) رقم [٦]: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾. انظر شرح هذه الآيات في محالِّها.

﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ أي: عن ذلك الذنب العظيم، فلم نستأصل عبدة العجل. والمقصود من هذا تسلية النبيِّ ﷺ. والمعنى: أنَّ هؤلاء الذين يطلبون منك يا محمد أن تُنزل عليهم كتاباً من السماء إنَّما يطلبونه عناداً، ولجاجاً، فإنِّي قد أنزلت التَّوراة جملةً على موسى، وآتيته من المعجزات الباهرات، والآيات البينات ما فيه كفاية، ثمَّ إنَّهم طلبوا الرؤية على سبيل العناد، وعبدوا العجل، وكلُّ ذلك يدلُّ على جهلهم، وأنَّهم مجبولون على العناد، واللَّجاج، وفي قوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ﴾ استدعاء إلى التَّوبة، والمعنى: أنَّ أولئك الذين أجرموا لمَّا تابوا؛ عفونا عنهم، فتوبوا أنتم؛ نعف عنكم... انتهى خازن.

الإعراب: ﴿يَسْـَٔلُكَ﴾: فعل مضارع، والكاف مفعول به أول. ﴿أَهْلُ﴾: فاعله، و﴿أَهْلُ﴾ مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ مضاف إليه. ﴿أَن تُنَزِّلَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ﴿أَن﴾ والمصدر المؤول منهما في محل نصب مفعول به ثان، والفاعل ضمير مستتر تقديره: أنت. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿كِتَٰبًا﴾: مفعول به. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿كِتَٰبًا﴾، والجملة الفعلية: ﴿يَسْـَٔلُكَ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿فَقَدْ﴾: الفاء: واقعة في جواب شرط مقدَّر، التقدير: إن تعجبت من سؤالهم؛ فقد سأل آباؤهم أعظم من ذلك. وهذا قول البيضاوي، والنَّسفي تبعاً للزَّمخشري. وأرى: أنَّ الفاء للتعليل، التقدير: لا تستغرب، ولا تتعجَّب من سؤالهم؛ لأنَّهم سألوا موسى... إلخ. (قد): حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿سَأَلُوا۟﴾: ماض مبني على الضم، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿مُوسَىٰٓ﴾: مفعول به أوَّل منصوب، وعلامة نصبه فتحةٌ مقدَّرة على الألف للتعذر. ﴿أَكْبَرَ﴾: مفعول به ثان. ﴿مِن ذَٰلِكَ﴾: متعلقان بـ: ﴿أَكْبَرَ﴾، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له، وجملة: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟...﴾ إلخ في محل جزم جواب الشرط على رأي البيضاوي... إلخ، ولا محلَّ لها على تقديري. والكلام برمَّته مستأنفٌ لا محلَّ له.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾: الفاء: حرف تفسير، مثل: توضأ، فغسل وجهه. . .إلخ. (قالوا): ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿أَرِنَا﴾: فعل أمر، والتماس، مبني على حذف حرف العلَّة من آخره، وهو الياء، والكسرة قبلها دليلٌ عليها، والفاعل مستتر تقديره: أنت، و(نا): مفعول به. ﴿ٱللَّهَ﴾: مفعوله الثاني، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: (قالوا. . .) إلخ مفسرة لسؤالهم موسى لا محلَّ لها. ﴿جَهۡرَةٗ﴾: مفعول مطلق نوعي؛ لأنَّ الجهر بعض الرؤية. وقيل: حال من الفاعل المستتر، أو من لفظ الجلالة. وقيل: مفعول مطلق لفعل محذوف، التقدير: جهرتم جهرةً. ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾: الفاء: حرف عطف. (أخذتهم): فعل ماض، والتاء للتأنيث، والهاء مفعول به. ﴿ٱلصَّٰعِقَةُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية معطوفة على جملة: (قالوا. . .) إلخ لا محلَّ لها مثلها. ﴿بِظُلۡمِهِمۡۚ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة المصدر لفاعله. ﴿ثُمَّ﴾: حرف عطف. ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلۡعِجۡلَ﴾: مفعول به أول، والثاني محذوف، التقدير: اتخذوا العجل إلٰهاً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿مِنۢ بَعۡدِ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف صفة «إلهاً» المقدَّر. ﴿مَا﴾ مصدرية. ﴿جَآءَتۡهُمُ﴾: فعل ماض، والتاء للتأنيث، والهاء: مفعول به. ﴿ٱلۡبَيِّنَٰتُ﴾: فاعله، و(ما) المصدرية، والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بإضافة: ﴿بَعۡدِ﴾ إليه، التقدير: مِنْ بعد مجيء البينات.

﴿فَعَفَوۡنَا﴾: الفاء: حرف عطف. (عفونا): فعل، وفاعل. ﴿عَن ذَٰلِكَۚ﴾: متعلقان بما قبلهما، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿وَءَاتَيۡنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿مُوسَىٰ﴾: مفعول به أول. ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾: مفعول به ثان. ﴿مُّبِينٗا﴾: صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ١٥٤﴾

الشرح: ﴿وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ﴾: هذه الجملة تفسِّر معنى قوله تعالى في سورة الأعراف رقم [٧٠]: ﴿وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ و﴿ٱلطُّورَ﴾ يطلق في الأصل على كلِّ جبل، والمراد به هنا: جبل مخصوص في سيناء مِنْ أرض فلسطين، كان موسى ـ على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ يناجي ربَّه عليه كلَّما أراد مناجاته، ومخاطبته. والميثاق: العهد، وأصله: الموثاق، قلبت الواو ياءً لمناسبة الكسرة قبلها، والجمع: مواثيق، فهو مِنْ: وثق، يثق، ومثله في كلِّ ذلك: ميعاد، وميقات، وميزان. . .

وكان سبب رفع الجبل فوقهم: أنَّ بني إسرائيل سألوا موسى أن يأتيهم بكتاب من عند ربِّه ليحكم بينهم فيه، فسأل ربَّه، فأعطاه التَّوراة، فلمَّا رأَوْا ما فيها من التكاليف الشَّاقَّة؛ كبُرت

عليهم، فأبوْا قبولها، فأمر الله جبريل، عليه السلام، فقلع جبل الطُّور من مكانه، وكان على قدر عسكرهم، وفوق رؤوسهم قدر قامتهم كالظُّلَّة. وقيل لهم: إن لم تقبلوا التوراة؛ وإلا أنزلته عليكم! فقبلوها مكرهين، وسجدوا على أنصاف وجوههم اليُسرى، وجعلوا يلاحظون الجبل بأعينهم اليُمنى، وهم سجود، فصار ذلك سنَّةً في سجود اليهود، لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم، وقالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبَّلها الله، ورحم بها عباده، فلمَّا رفع عنهم الجبل؛ رجعوا إلى عنادهم، وكفرهم.

﴿وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ والطور فوق رؤوسهم. والمُراد به: بابُ بيت المقْدِس، أو باب أريحا، انظر شرح هذا؛ وتفصيله في الآيتين رقم [٥٨ و٥٩] من سورة (البقرة). ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾: انظر الآية رقم [٤٧] تجد ما يسرُّك. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: مؤكَّداً، وهو العهد الذي أخذه عليهم في التوراة. وانظر شرح (نا) في الآية رقم [٣٣] ففيها الكفاية.

الإعراب: (رَفَعْنَا): فعل، وفاعل. ﴿فَوْقَهُمُ﴾: ظرف مكان متعلق بالفعل قبله، أو هو متعلق بمحذوف حال من ﴿ٱلطُّورَ﴾ والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿ٱلطُّورَ﴾: مفعول به. ﴿بِمِيثَٰقِهِمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وقال أبو البقاء: هما في محل نصب مفعول به، ولا أراه قويّاً، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة، لا محلَّ لها على الاعتبارين، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. من إضافة المصدر لفاعله. (قُلْنَا): فعل، وفاعل. ﴿لَهُمُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿ٱدْخُلُواْ﴾: فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿ٱلْبَابَ﴾: انظر إعراب الجنَّة في الآية رقم [١٢٤]. ﴿سُجَّدًا﴾: حال من واو الجماعة، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقُلْنَا﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ﴾: مثل ما قبله. ﴿لَا﴾: ناهية جازمة. ﴿تَعْدُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ: ﴿لَا﴾ الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق. ﴿فِى ٱلسَّبْتِ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَقُلْنَا...﴾ إلخ: معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها أيضاً. ﴿وَأَخَذْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿مِنْهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعول به أول. ﴿مِّيثَٰقًا﴾: مفعوله الثاني. ﴿غَلِيظًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها أيضاً.

﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ﴾ أي: بسبب نقضهم العهود، وخلفهم الوعود؛ التي قطعوها على أنفسهم بأنَّهم يقبلون الكتاب؛ الذي يأتيهم به موسى. ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: وبجحودهم

المعجزات؛ التي جاء بها موسى، ثمَّ كفرهم بعيسى، والإنجيل، وكفرهم بمحمد ﷺ والقرآن سخطنا عليهم، ولعناهم، وطردناهم من رحمتنا. هذا؛ و«النقض» يستعمل في الشيء المحسوس كالجدار، والحبل، ونحوهما، وقد استُعير هنا لشيءٍ معنوي، وهو الميثاق، ونقضه. ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ أي: بغير استحقاق، فقد قتلوا زكريا، ويحيى، وغيرهم كثيرين، كما ذكرته لك فيما تقدَّم، وقتل الأنبياء لا يكون حقَّاً؛ لأنَّهم لا يفعلون ما يستوجب القتل، لعصمتهم من الكبائر، بل ومن الصَّغائر.

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ﴾: جمع أغلف، أي: مغطاة بأغطية، فلا تعي ما تقول يا محمد! فهم يريدون: أنَّها خلقت مُغشَّاة بأغطية خلقية، فهي لا تعي ما جئت به، وهو مستعارٌ من الأغلف، الذي لم يُختَنْ، واستعار الغلاف بمعنى الغطاء لعدم الفهم والإدراك، وقرئ بسكون اللام وضمها مثل: رسل، ونحوه، وقال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أي: قلوبنا ممتلئةٌ علماً، لا تحتاج إلى علم محمَّد ﷺ، ولا غيره، ومثل هذه الآية رقم [٨٨] من سورة (البقرة) والآية رقم [٥] من سورة (فصلت)، ونصها: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾.

﴿بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ﴾: جعلها محجوبةً عن العلم، أو خَذَلَهَا، ومنعها التوفيق للتدبُّر في الآيات، والتذكر في المواعظ. ﴿فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ أي: إلا إيماناً قليلاً لا قيمة له. وقيل: المراد بالقليل عبد الله بن سلام، وأصحابه؛ الَّذين آمنوا بمحمَّد ﷺ إيماناً صحيحاً.

هذا؛ و«الطبع» الختم، وهو التأثير في الطِّين، ونحوه، فاستُعير هنا، وفي كثير من الآيات لعدم فهم القلوب ما يُلقى عليها، وإذا طُبع على قلب إنسان؛ فلا تؤثِّر فيه حينئذٍ الموعظة، ولا تُجدي معه النصيحة، كما قال تعالى في كثير من الآيات: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ﴾. هذا؛ والطَّبع: السَّجية، والخلق الذي طُبع عليه الإنسان، والطَّبيعة مثله، وجمع الأول: طباع، وجمع الثاني: طبائع، والطَّبع: تدنس العرض، وتلطُّخه، يقال: طبع السيف، إذا دخله الجرب من شدَّة الصدأ، وطبع الرجل: إذا أتى عيباً، يقال: نعوذ بالله من طمع يدني إلى طبع، أي: إلى دنس، قال ثابت بن قطنة: [البسيط]

لَا خَيْرَ فِي طَمَعٍ يُدْنِي إِلَى طبعٍ وَغُفَّةٌ مِنْ قَوَامِ الْعَيْشِ تَكْفِينِي

الإعراب: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم﴾: الفاء: حرف استئناف، وهو أقوى من العطف على الآية السَّابقة. (بما نقضهم): (ما) مقحمة بين الجار والمجرور. وقيل: (ما): نكرة موصوفة في محل جر بالباء و﴿نَقۡضِهِم﴾: بدل منها، وهو ضعيف. وهما متعلقان على رأي الزمخشري، والبيضاوي بمحذوف، تقديره: فخالفوا، ونقضوا، ففعلنا بهم ما فعلنا بسبب نقضهم. وقالا: يجوز تعليقهما بالفعل الآتي: ﴿حَرَّمۡنَا﴾، وصحَّح الجمل تبعاً للجلال تعليقهما بمحذوف تقديره: «لعناهم»، وذلك لأنَّه صرَّح به في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ﴾ الآية رقم [١٣] من سورة

(المائدة) والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله، ومثله ما بعده من الضَّمائر. ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾: مفعول به للمصدر، والهاء في محل جر بالإضافة، والميم في الكلِّ حرفٌ دالٌّ على جماعة الذكور. ﴿وَكُفْرِهِم﴾: معطوف على ما قبله... إلخ. ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾: متعلقان بما قبلهما. و(آيات): مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ﴾: معطوف على ما قبله، وهو مثله في إعرابه. ﴿بِغَيْرِ﴾: متعلقان بالمصدر: (قَتْل)، و(غير) مضاف، و﴿حَقٍّ﴾: مضاف إليه. ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾: معطوف على ما قبله أيضاً. ﴿قُلُوبُنَا﴾: مبتدأ. (نا): في محل جر بالإضافة. ﴿غُلْفٌۢ﴾: خبره، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول للمصدر: (قولهم).

﴿بَلْ﴾: حرف إضراب تبتدأ بعده الجمل. ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ﴾: ماض، وفاعله، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿عَلَيْهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾: متعلقان به أيضاً، والهاء في محل جر بالإضافة... إلخ. ﴿فَلَا﴾: الفاء: حرف عطف. (لا): نافية. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون... إلخ. والواو فاعله. ﴿إِلَّا﴾: حرف استثناء. ﴿قَلِيلًا﴾: مستثنىً بـ: ﴿إِلَّا﴾، على أنَّ المراد به عبد الله بن سلام، فيكون استثناءً متصلاً، أو هو صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: فلا يؤمنون إلا إيماناً قليلاً، على التفسير الثَّاني.

قال الجمل: يحتمل كونه نعتاً لزمانٍ محذوف، أي: إلا زماناً قليلاً، وقال: ولا يجوز نصبه على الاستثناء مِنْ فاعل: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنَّ الضمير في: (لا يؤمنون) عائد على المطبوع على قلوبهم، وَمَنْ طبع على قلبه بالكفر؛ فلا يقع منه إيمان! أي: فيكون الاستثناء من غير جنسه.

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾

الشرح: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ أي: بعيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ...﴾ إلخ حين رموها بالزنى، وذلك: أنَّهم أنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من غير أب، ومُنْكِرُ قدرة الله كافرٌ، فالمراد بقوله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾ هو إنكارهم قدرة الله تعالى، والمراد بقولهم: ﴿عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا﴾ هو رميهم إيَّاها بالزنى، وإنَّما سمَّاه بهتاناً عظيماً؛ لأنَّه ظهر عند ولادة مريم من المعجزات ما يدلُّ على براءتها من ذلك، وانظر شرح البهتان في الآية رقم [١١٢] وانظر تكريمها، وتشريفها، وتفضيلها في سورة (آل عمران).

الإعراب: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ﴾: معطوفان على ما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة من إضافة المصدر لفاعله. ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء... إلخ. ﴿عَلَىٰ مَرْيَمَ﴾: متعلقان بالمصدر قبلهما، أو هما متعلقان بـ﴿بُهْتَٰنًا﴾؛ لأنَّه مصدر أيضاً، أو بمحذوف حال منه، كان صفة له، فلما قُدِّم عليه؛ صار حالاً. وعلامة الجرِّ الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوعٌ من الصَّرف للعلمية، والتأنيث. ﴿بُهْتَٰنًا﴾: مفعول به للمصدر قبله، فإنَّه متضمن معنى كلام كثير، نحو: قلت

خطبةً، وشعراً. وقيل: منصوب على نوع المصدر، كقولهم: قعد القرفصاء. وقيل: صفة لمصدر محذوف، التقدير: قولاً بهتاناً. وقيل: هو مصدر في موضع الحال، أي: مباهتين، وإنِّي أعتمدُ الأوَّل، فهو جدير بالاعتبار.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾

الشرح: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا...﴾ إلخ؛ أي: بزعمهم. وهناك مقدَّر محذوف، بدليل ما بعده، أي: وصلبناه. ففيه اكتفاء. ﴿ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: انظر شرح هذه الكلمات في سورة (المائدة).

﴿رَسُولَ ٱللَّهِ﴾: قد يقال: إنَّهم كفروا به وسبُّوه، وسبُّوا أمه. وقالوا: ساحرٌ، وابن ساحرة، فكيف يقولون فيه: رسول الله ؟ والجواب: أنَّهم قالوا ذلك تهكُّماً على حدِّ قول المشركين في حقِّ محمد ﷺ: ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾، وقول فرعون فيما حكاه الله عنه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾. وأجيب أيضاً بأنَّ هذا من كلام الله تعالى لمدحه، وتنزيهه عن مقالتهم فيه.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ هذا ردٌّ لما ادَّعاه اليهود من قتل عيسى ـ عليه السلام ـ وصلبه، وتكذيب النَّصارى الذين صدَّقوا اليهود في دعواهم قتله، وصلبه، فقد روي: أنَّ رهطاً من اليهود سبُّوا عيسى، وسبُّوا أمَّه ـ عليهما السلام ـ فدعا عليهم بقوله: اللهم أنت ربِّي، وبكلمتك خلقتني، اللهم العن مَنْ سَبَّني، وسبَّ والدتي! فمسخ الله مَنْ سَبَّهما قردةً، وخنازير، فاجتمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنَّه يرفعه إلى السَّماء، ويطهِّره من صُحْبَةِ اليهود الخبثاء، فذلك قوله تعالى في سورة (آل عمران) رقم [٥٥]: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ...﴾ إلخ. انظر شرحها هناك فإنَّه جيد. والحمد لله! فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقى عليه شبهي، فيُقْتَل، ويُصْلَب، ويكون رفيقي في الجنَّة؟ فقال رجل منهم: أنا يا روح الله ! فألقى الله عليه شبهه، وصلب، ورُفع عيسى على نبيِّنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام من البيت إلى السَّماء. وقيل: كان رجل ينافق عيسى، عليه السلام، فلمَّا أرادوا قتله؛ قال: أنا أدلُّكم عليه، فدخل بيت عيسى، ورُفِع عيسى، وألقى الله شبهه على ذلك، فدخلوا عليه، وقتلوه، وهم يظنُّون: أنَّه عيسى. وجاز هذا على قوم متعنِّتين حكم الله بأنَّهم لا يؤمنون. وقيل: دخل طيطايوس اليهودي بيتاً كان فيه عيسى، فلم يجده، وألقى الله عليه شبهه، فلمَّا خرج؛ ظنُّوا: أنَّه عيسى، فأُخِذ،

وصلب، وأمثال ذلك من خوارق العادات؛ التي لا تستبعد في زمان النبوَّة. وإنَّما ذمَّهم الله تعالى بما دلَّ عليه الكلام من جراءتهم على الله، وقصدهم قتل المؤيَّد بالمعجزات الباهرة.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ﴾ أي: اليهود، واختلفوا في شأن عيسى، على نبينا وعليه ألف صلاة وألف سلام، حيث قال بعضهم: إنَّ الوجه المصلوب وجه عيسى، والبدن بدن صاحبنا، وقال بعضهم: إن كان هذا عيسى، فأين صاحبنا؟ وقال بعضُهم: قد قتلناه حقّاً، وقال قوم: صُلِبَ النَّاسوت، وصعد اللاهوت. كما اختلفوا في شأنه، وذاته، فقالت فرقةٌ منهم: كان الله فينا ما شاء الله، ثمَّ صعد إلى السماء. وهؤلاء هم اليعقوبية. وقالت فرقةٌ: كان فينا ابن الله ما شاء، ثمَّ رفعه الله إليه. وهؤلاء هم النَّسطورية. وقالت فرقةٌ: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله، ثمَّ رفعه الله إليه، وهؤلاء هم المسلمون منهم الموحِّدون، فتظاهرت الكافرتان على المسلمة الموحِّدة، فغلبوها، وقتلوها، فلم يزل التوحيد طامساً حتى بعث الله محمَّداً ﷺ. وانظر ما ذكرته في سورة (التوبة) رقم [٣٠] بشأن «بولص» لتتعرَّف على الحقيقة، والله أعلم.

﴿لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ﴾: أي: في تردُّد، وتحيُّر في شأن عيسى، على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، والشك كما يطلق على تساوي الطرفين يطلق على مطلق التردُّد، وعلى ما يقابل العلم. ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ﴾ أي: إنَّ اختلافهم في شأن عيسى، وأقوالهم المذكورة، كلُّ ذلك ظنٌّ من غير علم. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا﴾ أي: وما قتلوه متيقنين: أنَّه عيسى، بل شاكِّين متوهِّمين. وقال ابن عباس، والسُّدِّي: المعنى: ما قتلوا ظنَّهم يقيناً، كقولك: قتلته علماً: إذا علمته علماً تامَّاً، فالهاء عائدة على الظنِّ. والله أعلم بمراده وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ﴾: معطوف على ما قبله، فهو مجرور أيضاً، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿إِنَّا﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا): اسمها. حذفت نونها وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿قَتَلۡنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿ٱلۡمَسِيحَ﴾: مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر (إنَّ). والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول للمصدر: (قولهم). ﴿عِيسَى﴾: بدل، أو عطف بيان من: ﴿ٱلۡمَسِيحَ﴾. ﴿ٱبۡنَ﴾: صفة: ﴿عِيسَى﴾، وهو مضاف. و﴿مَرۡيَمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والتأنيث المعنوي. ﴿رَسُولَ﴾: بدل، أو عطف بيان من: ﴿ٱلۡمَسِيحَ﴾، أو هو منصوب بفعل محذوف، تقديره: أعني، أو أمدح، ويجوز في العربية رفعه على الابتداء، التقدير: هو رسولُ، و﴿رَسُولَ﴾: مضاف. و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَمَا﴾: الواو: واو الحال. (ما): نافية. ﴿قَتَلُوهُ﴾: فعل ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من ﴿ٱلۡمَسِيحَ﴾، والرَّابط: الواو، والضمير، والَّتي بعدها معطوفة عليها. ﴿وَلَٰكِن﴾: الواو: حرف عطف. (لكن): حرف استدراك مهمل، لا عمل له. ﴿شُبِّهَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى

﴿ٱلْمَسِيحَ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال أيضاً، ورجَّح الزمخشري اعتبار: ﴿لَهُمْ﴾ نائب فاعل: ﴿شُبِّهَ﴾.

﴿وَإِنَّ﴾: الواو: واو الحال. (إنّ): حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسمها، وجملة: ﴿ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿لَفِى شَكٍّ﴾: اللام: هي المزحلقة. (في شك): متعلقان بمحذوف خبر (إنَّ). ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿شَكٍّ﴾ أو بمحذوف صفة له، والجملة الاسمية: ﴿ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ في محل نصب حال من: ﴿عِيسَى﴾ والرابط: الواو، والضمير. ﴿مَا﴾: نافية. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلِّقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿بِهِۦ﴾: متعلقان بالخبر المحذوف، أو هما متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في الخبر المحذوف. ﴿مِنْ﴾: حرف جر صلة. ﴿عِلْمٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد، والجملة الاسمية: ﴿مَا لَهُم...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها، وجوَّز أبو البقاء اعتبارها في محل جرٍّ صفة: ﴿شَكٍّ﴾ وهو ضعيف. ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿ٱتِّبَاعَ﴾ مستثنى منقطع. هذا؛ ويجوز في العربية رفعه على اعتباره بدلاً من محل: ﴿عِلْمٍ﴾ وأنشد سيبويه قول جران العود ـ وهو الشاهد رقم [٤١٨] من كتابنا: «فتح رب البرية» ـ: [الرجز]

وَبَـلْـدَةٍ لَـيْـسَ بِـهَـا أَنِـيـسُ ... إِلَّا الْـيَـعَـافِـيـرُ وَإِلَّا الْـعِـيْـسُ

هذا؛ و: ﴿ٱتِّبَاعَ﴾ مضاف، و﴿ٱلظَّنِّ﴾: مضاف إليه من إضافة المصدر لمفعوله، وفاعله محذوف. ﴿وَمَا﴾: الواو: حرف عطف. (ما): نافية. ﴿قَتَلُوهُ﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله، والجملة الفعلية معطوفة على الجملة الاسمية قبلها لا محلَّ لها مثلها. ﴿يَقِينًا﴾: صفة مفعول مطلق محذوف، التقدير: وما قتلوه قتلاً يقيناً، أو هو حال بمعنى: متيقنين.

﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾

الشرح: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي: رفع الله عيسى ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ إلى ملكوته الواسع إلى؛ حيث لا حكم فيه إلا لله تعالى. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾: ولا يزال كائناً قويّاً لا يُغلب على ما يريده. ﴿حَكِيمًا﴾ أي: في فعله، وفي خلقه، وفيما دبَّر لعيسى عليه السلام، وانظر الآية السابقة، والآية رقم [٥٥] من سورة (آل عمران) تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك.

تنبيه: صرحت الآيات القرآنية على أنَّ الله تعالى نجَّى رسوله عيسى ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ من كيد اليهود الخبثاء، فلم يقتل، ولم يُصلب، وإنَّما صلبوا

شخصاً غيره ظنُّوه عيسى، وهو الذي ألقى الله شبه عيسى عليه. وهذا ما نعتقده نحن المسلمين بتوفيق الله وفضله؛ حيث بيَّن لنا في قرآنه ذلك، وأبطل معتقد النَّصارى، وخرافاتهم، فيعتقدون: أنَّه صلب، وأن اليهود أهانوه، ووضعوا القذر، والشَّوك على رأسه، وأنَّه تضرَّع، وبكى مع زعمهم: أنَّه هو الله، ولقد أحسن مَنْ قال: [المتقارب]

أَعُبَّادَ عِيسَى لَنَا عِنْدَكُمْ سُؤَالٌ عَجِيبٌ فَهَلْ مِنْ جَوَابْ؟
إِذَا كَانَ عِيسَى عَلَى زَعْمِكُمْ إِلٰهاً قَدِيراً عَزِيزاً يُهَابْ
فَكَيْفَ اعْتَقَدْتُمْ أَنَّ الْيَهُودَ أَذَاقُوهُ بِالصَّلْبِ مُرَّ الْعَذَابْ
وَكَيْفَ اعْتَقَدْتُمْ بِأَنَّ الإِلهَ يَمُوتُ وَيُدْفَنُ تَحْتَ التُّرَابْ

ولقد أحسن من قال: [الوافر]

إِذَا صُلِبَ الإِلٰهُ بِفِعْلِ عَبْدٍ يَهُودِيٍّ فَمَا هَذَا الإِلٰهُ؟

وبعضهم يزعمون: أنَّه ابن الله جاء ليخلِّص البشرية من أوزارها إلى غير ما هنالك من التناقض العجيب الغريب، ولقد أحسن من قال: [الخفيف]

عَجَباً لِلْمَسِيحِ بَيْنَ النَّصَارَى وَإِلَى أَيِّ وَالِدٍ نَسَبُوهُ؟
أَسْلَمُوهُ إِلَى الْيَهُودِ وَقَالُوا: إِنَّهُمْ بَعْدَ ضَرْبِهِ صَلَبُوهُ
فَإِذَا كَانَ مَا يَقُولُونَ حَقّاً وَصَحِيحاً فَأَيْنَ كَانَ أَبُوهُ؟
فَلَئِنْ كَانَ رَاضِياً بِأَذَاهُمْ فَاحْمَدُوهُمْ لأَنَّهُمْ عَذَّبُوهُ
وَلَئِنْ كَانَ سَاخِطاً فَاتْرُكُوهُ وَاعْبُدُوهُمْ لأَنَّهُمْ غَلَبُوهُ

والعجب العجاب بأنَّ اليهود يقولون عن مريم: إنَّها زانية، وإنَّ عيسى ابن زنى، وفعلوا بعيسى ما فعلوا من القتل والصلب، بزعمهم، والإسلام، ونبي الإسلام، وقرآن الإسلام ينزه مريم وابنها من كلِّ مفتريات اليهود، ويعظِّمون عيسى برفعه إلى ملكوت الله، ويصفون اليهود بالخيبة واللعنة، ومع ذلك فالنصارى يدعمون اليهود ماديّاً، ومعنويّاً، ويحاربون الإسلام، والمسلمين ماديّاً ومعنويّاً، فلا حول، ولا قوَّة إلا بالله العلي العظيم!!

الإعراب: ﴿بَل﴾: حرف عطف، وإضراب، تُبتدأ بعده الجمل. ﴿رَّفَعَهُ﴾: ماض، والهاء مفعول به. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿إِلَيۡهِ﴾: متعلقان بما قبلهما، وجملة: ﴿وَكَانَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها.

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾

الشرح: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المراد: اليهود، والنصارى. ﴿إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾: ليعترفنَّ بعيسى: أنَّه عبد الله، ورسوله، وروحه، وكلمته. ﴿قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ أي: موت الأحد المقدَّر كما ستعرفه في الإعراب، والمعنى: ما مِنْ أحدٍ من اليهود، والنصارى إلا ليعترف عند خروج روحه بأنَّ عيسى ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة وألف سلام ـ عبدُ اللهِ، ورسوله، ولكن لا ينفعه هذا الإيمان، وهذا كالوعيد لهم، والتَّحريض على معاجلة الإيمان قبل أن يضطروا إليه، ولم ينفعهم إيمانهم ساعتئذٍ. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: معناه: إذا وقع في اليأس حين لا ينفعه إيمانه، سواءٌ احترق، أو تردَّى مِنْ شاهق، أو سقط عليه جدارٌ، أو أكله سبع، أو مات فجأة، فقيل له: أرأيت إن خرَّ من فوق بيت؟ قال: يتكلَّم به في الهواء. فقيل له: أرأيت إن ضُربت عنقه؟ قال: يتلجلج به لسانه. وقال شهر بن حوشب ـ رحمه الله تعالى ـ: إنَّ اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة بأجنحتها وجهه، ودبره، وقالوا: يا عدو الله! أتاك عيسى نبيّاً، فكذَّبت به. فيقول: آمنت: أنَّه عبد الله، ورسوله. وتقول للنَّصراني: أتاك عيسى نبيّاً، فزعمت: أنَّه الله، وابن الله، فيقول: آمنت: أنَّه عبد الله، فأهل الكتابين يؤمنون إيماناً حقيقيّاً عند الموت، ولكن حيث لا ينفعهم ذلك الإيمان.

هذا؛ وذهب جماعة من أهل التفسير إلى أنَّ الضميرين يعودان إلى عيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام، وهذا يكون في آخر الزمان حينما ينزل عيسى ـ عليه السلام ـ من السَّماء، ويخرج الدَّجَّال، فيقتلُه عيسى ـ عليه السلام ـ بالمعاونة مع المهدي، عليه السلام، فلا يبقى يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ إلا آمن به إيماناً صحيحاً، حتى تكون الملَّة واحدةً، وهي ملَّة الإسلام، وسيعمُّ السَّلام، والأمان الدُّنيا في عهده، ويمكث في الأرض أربعين سنة، يتزوَّج، ويولد له ولدان، يسمِّيهما موسى، وأحمد، ثم يموت موتته المقدرة على كلِّ حي، فيصلي عليه المسلمون، ويدفنونه في الحجرة الشَّريفة بجوار أخيه المُصطفى ﷺ، ويدلُّ على ذلك ما يلي:

عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِيكُمُ ابْنُ مَرْيَمَ، حكماً مُقْسِطاً، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيْضَ الْمَالُ، لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، وَحَتَّى تَكُونَ السَّجْدَةُ الْوَاحِدَةُ خَيْراً مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيْهَا**». أخرجه البخاري، ومسلم.

ومعنى: يضع الجزية: لا يقبلها من أحدٍ من أهل الأديان الكافرة، بل لا يقبل إلا الإسلام، أو السَّيف. وكان أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ يقول: اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ...﴾ إلخ. علماً بأنَّه يحكم بالقرآن، ويكون مِنْ أتباع الرَّسول محمد ﷺ، وواحداً من أمته.

وسيعمُّ الأمان، والسلام الدُّنيا في عهده، وسيرعى الأسد مع الإبل، والنَّمر مع البقر، والذِّئب مع الغنم، وتلعب الصِّبيان بالعقارب، والحيات، فلا يؤذي مخلوقٌ مخلوقاً، وسيكون الناس كالملائكة يمشون في الأرض مطمئِّنين، وستعمُّ الرَّحمة، والعدالة جميعَ الكائنات. وخذ ما يلي من الأحاديث الشريفة:

فقد روى ابن ماجه في سننه عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ قال: خطبنا رسول الله ﷺ، فكان أكثر خطبته حديثاً حدَّثناه عن الدجال، وحذَّرناه، فكان من قوله أن قال ﷺ: «**لَمْ تَكُنْ فِتْنَةٌ في الأرض منذ ذرأ الله ذرية آدم ـ عليه السلام ـ أعظم من فتنة الدَّجال، وإنَّ الله ـ عزَّ وجل ـ لم يبعث نبيّاً إلا حذَّر أمَّته الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج فيكم لا محالة، فإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم؛ فأنا حجيج كلِّ مسلم، وإن يخرج بعدي؛ فكلٌّ حجيج نفسه، وإنَّ الله خليفتي على كلِّ مسلم، وإنَّه يخرج من خَلَّة بين الشام، والعراق، فيعيث يميناً، ويعيث شمالاً، ألا يا عباد الله! أيها الناس فاثبتوا، وإنِّي أصفه لكم صفة لم يصفها إيَّاه نبيٌّ قبلي: إنَّه يبدأ، فيقول: أنا نبيٌّ ـ ولا نبيَّ بعدي ـ ثم يُثنِّي فيقول: أنا ربُّكم ـ ولا ترون ربكم حتى تموتوا ـ وإنه أعور ـ وإن ربكم عزَّ وجل ليس بأعور ـ وإنَّه مكتوب بين عينيه كافر، يقرؤه كلُّ مؤمنٍ كاتب، أو غير كاتب، وإنَّ مِنْ فتنته: أنَّ معه جنَّةً، وناراً، فناره جنة، وجنته نار، فمن ابتُلي بناره؛ فليستغث بالله، وليقرأ فواتح سورة (الكهف) فتكون عليه برداً وسلاماً، كما كانت برداً وسلاماً على إبراهيم.**

وإن مِنْ فتنته أن يقول للأعرابي: أرأيت إن بعثتُ لك أمك، وأباك أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم، فيتمثل له شيطان في صورة أبيه، وأمِّه، فيقولان: يا بُنيَّ اتبعه، فإنَّه ربُّك. وإن مِنْ فتنته أن يسلَّط على نفسٍ واحدةٍ، ويَنشرها بالمنشار حتى يُلْقى شِقَّين، ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا، فإنِّي أبعثه الآن، ثم يزعم: أنَّ له ربّاً غيري، فيبعثه الله، فيقول له الخبيث: مَنْ ربك؟ فيقول: ربِّي الله، وأنت عدوُّ الله أنت الدَّجال، والله ما كنت بَعْدُ أشد بصيرةً بك مني اليوم.

وإنَّ مِنْ فتنته أن يأمر السماء أن تمطر، فتمطر، ويأمر الأرض أن تُنْبِتَ فتنبت، وإنَّ مِنْ فتنته أن يمرَّ بالحيِّ، فيكذبونه، فلا تبقى لهم سائمةٌ إلا هلكت، وإنَّ مِنْ فتنته أن يمرَّ بالحيِّ، فيصدِّقونه، فيأمر السَّماء أن تُمْطِرَ، فتمطر، ويأمر الأرض أن تُنْبِتَ، فتنبت، حتى تروحَ مواشيهم مِنْ يومهم ذلك أسمن ما كانت، وأعظمه، وأمدَّه خواصر، وأدرَّه ضُروعاً. وإنَّه لا يبقى شيء من الأرض، إلا وطئه، وظهر عليه، إلا مكَّة، والمدينة، فإنَّه لا يأتيهما من نقب مِنْ نقابها إلا لقيته الملائكة بالسُّيوف صلتة حتى ينزل عند الظَّريب الأحمر عند منقطع السَّبخة، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فلا يبقى منافقٌ، ولا منافقةٌ إلا خرج إليه، فَتَنْفي الخَبَثَ منها، كما يَنْفِي الكِيْرُ خبثَ الحديد، وَيُدْعَى ذلك اليوم يوم الخلاص».

فقالت أم شريك بنت أبي العكر ـ رضي الله عنها ـ: يا رسول الله ! فأين العرب يومئذٍ؟ قال: «**هم قليلٌ، وجلُّهم يومئذٍ ببيت المقدس، وإمامهم رجلٌ صالحٌ، فبينما إمامهم قد تقدَّم يُصَلِّي بهم الصبح؛ إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم، عليه السلام، فرجع ذلك الإمام يمشي القهقرى ليتقدم عيسى ـ عليه السلام ـ يُصَلِّي بالناس، فيضع عيسى يده على كتفيه، ثم يقول: تقدَّم، فصلِّ، فإنَّها لك أُقيمت. فيصلي بهم إمامُهم، فإذا انصرف؛ قال عيسى: افتحوا الباب، فيُفتح، ووراءه الدَّجال معه سبعون ألف يهوديٍّ، كلُّهم ذو سيف محلَّىً، وسَاجٍ، فإذا نظر إليه الدَّجال؛ ذاب، كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هارباً، فيقول عيسى ـ عليه السلام ـ: إنَّ لي فيك ضربةً لن تسبقني بها، فيدركه عند باب اللُّدِّ الشرقي، فيقتله، ويهزم اليهود، فلا يبقى شيءٌ ممَّا خلق الله تعالى يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر، ولا شجر، ولا حائط، ولا دابة ـ إلا الغرقدة؛ فإنَّها من شجرهم لا تنطق ـ إلا قال: يا عبد الله المسلم، هذا يهوديٌّ، تعال فاقتله**». انتهى. بعض حديث ابن ماجه.

وفي مسلم عن النَّواس بن سمعان ـ رضي الله عنه ـ قال: ذكر رسول الله ﷺ الدَّجال ذات غداة. وفيه: قلنا: يا رسول الله ! وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أربعون يوماً، يومٌ كَسَنَةٍ، ويومٌ كَشهرٍ، ويومٌ كجمعة، وسائر أيَّامه كأيَّامكم**» قلنا: يا رسول الله ! وذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؛ قال: «**لا، اقْدُروا له قَدْرَهُ**». انتهى بعض حديث مسلم. وفي مختصر ابن كثير الكثيرُ الكثيرُ مِنْ ذلك.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي: يكون عيسى ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ شاهداً على اليهود: أنَّهم كذَّبوه، وطعنوا فيه، وفي أمِّه، وعلى النَّصارى: أنَّهم اتخذوه ربّاً، وأشركوا به، ويشهد على تصديق مَنْ صدَّقه منهم، وآمن به. وقال قتادة ـ رحمه الله تعالى ـ: معناه: أنه يكون شهيداً يوم القيامة: أنَّه قد بلَّغ رسالة ربه، وأقرَّ على نفسه بالعبودية، كما حكى عنه قوله في سورة (مريم): ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

الإعراب: ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف استئناف. (إنْ): حرف نفي بمعنى (ما). ﴿مِّنْ أَهْلِ﴾: متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف مؤخر، التقدير: وما من أهل الكتاب أحد، و﴿أَهْلِ﴾ مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿لَيُؤْمِنَنَّ﴾: اللام: واقعة في جواب قسم محذوف، التقدير: وعزتي، وجلالي. والجار والمجرور متعلقان بفعل محذوف، تقديره: أقسم. (يؤمنَنَّ): فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الثقيلة، التي هي حرف لا محلَّ له، والفاعل يعود إلى «أحد» المقدر. هذا؛ ويقرأ بضم النون فيكون مرفوعاً، وعلامة رفعه النون المحذوفة لتوالي الأمثال، والواو المحذوفة المدلول عليها بالضمة فاعله. ﴿بِهِۦ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية جواب القسم لا محلَّ لها، والقسم المحذوف

وجوابه في محل رفع صفة «أحد» المحذوف. ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (الصافات) رقم [١٦٤]: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ وانظر الآية رقم [٤٦]، والجملة الاسمية: ﴿وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ...﴾ إلخ مستأنفة، لا محلَّ لها. ﴿قَبۡلَ﴾: ظرف زمان متعلق بالفعل قبله، و﴿قَبۡلَ﴾: مضاف، و﴿مَوۡتِهِۦ﴾ مضاف إليه، والهاء في محل جرٍّ بالإضافة.

﴿وَيَوۡمَ﴾: الواو: حرف عطف. (يوم): ظرف زمان متعلق بـ: ﴿شَهِيدًا﴾ بعده، و(يوم) مضاف، و﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: مضاف إليه. ﴿يَكُونُ﴾: فعل مضارع ناقص، واسمه ضمير مستتر، تقديره: هو، يعود إلى عيسى. ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾: جار ومجرور متعلّقان بـ﴿شَهِيدًا﴾ الذي هو خبر: ﴿يَكُونُ﴾ والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، أو هي مستأنفة، لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ﴿١٦٠﴾﴾

الشرح: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ﴾ أي: فبسبب ظلم منهم. ﴿حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ يعني: ما حرمنا عليهم الطيِّبات التي كانت حلالاً لهم؛ إلا بظلم عظيم ارتكبوه، وذلك الظلم هو ما ذكره الله مِنْ نقضهم الميثاق، وما عدد عليهم من أنواع الكفر، والكبائر العظيمة، مثل قولهم: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، وكقولهم: أرنا الله جهرة، وكعبادتهم العجل، وأكلهم الربا، وأكلهم أموال الناس بالباطل، فبسبب هذه الأمور، وكثير غيرها حرَّم الله عليهم طيباتٍ كانت حلالاً لهم، وهي ما ذكره الله في الآية رقم [١٤٦] من سورة (الأنعام): ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖ...﴾ إلخ. وقال الطبريُّ ـ رحمه الله تعالى ـ في معنى الآية: فحرمنا على اليهود ـ الذين نقضوا ميثاقهم؛ الذي واثقوا به ربَّهم، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءهم، وقالوا البُهتان على مريم، وفعلوا ما وصفهم الله في كتابه ـ طيبات في المآكل، وغيرها؛ التي كانت حلالاً لهم، عقوبة لهم بظلمهم، الَّذي أخبر الله عنه في كتابه.

هذا؛ وقال الواحدي: فأمَّا وجه تحريم الطَّيبات عليهم: كيف، ومتى كان، وعلى لسان مَنْ حُرِّمَ عليهم. . .؟ فلم أجد فيه شيئاً أنتهي إليه، فتركتُه. ولقد أنصف الواحدي ـ رحمه الله تعالى ـ فيما قال، فإنَّ هذه الآية في غاية الإشكال، وبيانه: أنَّ الله تعالى، لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه، وقد ذكر المفسِّرون في معنى الظُّلم المذكور في الآية مما تقدَّم ذكره، وكلُّها ذنوبٌ في المستقبل بعد التَّحريم.

فإن قلت: علم الله تعالى وقوع هذه الذنوب قبل وقوعها، فحرَّم عليهم ما حرَّم مِنَ الطَّيِّبات؛ التي كانت لهم حلالاً عقوبةً لهم على ما سيقع منهم، قلت: جوابه ما تقدَّم، وهو: أنَّ الله تعالى

لا يعاقب على ذنب قبل وقوعه، ولهذا لم يذكر الإمام فخر الدين في تفسير هذه الآية ما ذكره المفسِّرون، بل ذكر تفسيراً إجمالياً، فقال: اعلم: أنَّ أنواع الذنوب محصورةٌ في نوعين: الظُّلم للخلق، والإعراض عن الدِّين الحقِّ. أمَّا ظلم الخلق، فإليه الإشارة بقوله: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾، ثم إنَّهم في غاية الحرص على طلب المال، فتارةً يُحَصِّلونه بطريق الرِّبا مع أنَّهم قد نُهوا عنه، وتارةً يحصِّلونه بطريق الرشا، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾؛ فهذه الأربعة هي الذنوب التي شدَّد الله عليهم بسببها في الدُّنيا والآخرة، أمَّا التشديد في الدنيا، فهو ما تقدَّم من تحريم الطَّيبات عليهم، وأمَّا التَّشديد في الآخرة، فهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال المفسِّرون: إنَّما قال: منهم؛ لأنَّ الله علم: أنَّ قوماً منهم سيؤمنون، فيأمنون مِنَ العذاب. انتهى خازن.

الإعراب: ﴿فَبِظُلْمٍ﴾: الفاء: حرف استئناف. (بظلم): متعلقان بالفعل: ﴿حَرَّمْنَا﴾ بعدهما. وقال الزجَّاج: هذا بدل من: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ قاله القرطبيُّ، ولا وجه له قطعاً. ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ﴾: متعلقان بـ (ظلم) أو بمحذوف صفة له. ﴿هَادُواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿حَرَّمْنَا﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية مع متعلَّقاتها مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿عَلَيْهِمْ﴾: جار ومجرور متعلِّقان بما قبلهما. ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم. ﴿أُحِلَّتْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، والتاء للتأنيث، ونائب الفاعل يعود إلى: ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب صفة: ﴿طَيِّبَٰتٍ﴾. ﴿وَبِصَدِّهِمْ﴾: معطوفان على (بظلم) فهما متعلقان حكماً بالفعل: ﴿حَرَّمْنَا﴾، والهاء في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة المصدر لفاعله. ﴿عَن سَبِيلِ﴾: متعلقان بالمصدر: «صد»، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿كَثِيرًا﴾: صفة لمفعول به محذوف، التقدير: بصدهم ناساً كثيراً. وقيل: صفة لمصدر مفعول مطلق محذوف. وقيل: صفة لزمان محذوف: أي: زماناً كثيراً، والمعتمد الأوَّل.

﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾

الشرح: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾: كان الربا محرَّماً عليهم، كما حُرِّمَ علينا، وكانوا يتعاطونه. ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أي: بالرِّشا، وسائر الوجوه المحرَّمة. ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: هيأنا، والاعتداد التهيئة من العتاد، وهو العدّة. وقيل: أصله: أعددنا، فأبدلت الدال الأولى تاء.

هذا؛ و﴿ٱلنَّاسِ﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه، مثل: قوم، ورهط. . .إلخ، واحده: إنسان، وإنسانة من غير لفظه، وتصغيره نُوَيْس، وناس، وإنسان، وأناسِيَّ، وإنس مِنْ مادةٍ

واحدة، وهو يطلق على الإنس، والجن، لكن غلب استعماله في الإنس، قال تعالى: ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ وأصله: الأُناس، حذفت منه الهمزة تخفيفاً على غير قياس، وحذفها مع لام التعريف كاللازم، لا يكاد يقال: الأُناس، وقد نطق القرآن الكريم، بهذا الأصل ولكن بدون لام التعريف، قال تعالى في سورة (الإسراء) رقم [٧١]: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾، وقال تعالى في سورة (البقرة) رقم [٦٠]: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ﴾ وقيل: إنَّ أصله النَّوس، ولم يُحذف منه شيء، وإنَّما قلبت الواو ألفاً لتحرُّكها وانفتاح ما قبلها.

هذا؛ وقيل: «الناسُ» مأخوذٌ من النَّوسِ، وهو الحركة، يقال: ناس، يَنُوس: إذا تحرَّك. وقيل: أصله مِنْ نَسِيَ، فأصل ناس: نَسِيَ، قُلِبَ فصار نَيِسَ، وتحركت الياء وانفتح ما قبلها، فقلبت ألفاً، ثمَّ دخلت الألف واللام، فقيل: الناس. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: نَسِيَ آدَمُ عهد الله، فَسُمِّيَ إنْسَاناً، وقال النبيُّ ﷺ: «**نَسِيَ آدَمُ فَنَسِيَتْ ذُرِّيَّتُهُ**»، وقال تعالى في سورة (طه) رقم [١١٥]: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ وعلى هذا فالهمزة زائدة، قال الشاعر: [الكامل]

لَا تَنْسَيَنْ تِلْكَ الْعُهُودَ فَإِنَّمَا ... سُمِّيْتَ إِنْسَاناً لأَنَّكَ نَاسِي

وقال آخر: [البسط]

فَإِنْ نَسِيتُ عُهُوداً مِنْكَ سَالِفَةً ... فَاغْفِرْ فَأَوَّلُ نَاسٍ أَوَّلُ النَّاسِ

وقيل: سُمِّيَ: إنساناً؛ لأُنسه. وقيل: لأنسه بربِّه، قال الشاعر: [الطويل]

وَمَا سُمِّيَ الإِنْسَانُ إِلَّا لأُنْسِهِ ... وَلَا الْقَلْبُ إِلَّا أَنَّهُ يَتَقَلَّبُ

الإعراب: ﴿وَأَخْذِهِمُ﴾: معطوف على (بظلم) والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿ٱلرِّبَوٰاْ﴾: مفعول به للمصدر منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة عل الألف للتعذر. ﴿وَقَدْ﴾: الواو: واو الحال. (قد): حرف تحقيق يقرِّب الماضي من الحال. ﴿نُهُواْ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، مبني على الضم، والواو نائب فاعله، والألف للتفريق. ﴿عَنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل نصب حال من الضمير المجرور محلاً بالإضافة، أو من (الرِّبا) وعلى الاعتبارين فالرابط: الواو، والضمير. ﴿وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله. ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ﴾: متعلقان بالمصدر، أو بمحذوف حال من الضمير المجرور محلاًّ بالإضافة، أو بمحذوف حال من: ﴿أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ﴾. (أَعْتَدْنَا): فعل، وفاعل. ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بما بعدهما. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ (الكافرين)، أو بمحذوف صفة له. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول به. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له، وجملة: ﴿وَأَعْتَدْنَا...﴾ إلخ معطوفة على جملة: ﴿حَرَّمْنَا...﴾ إلخ في الآية السابقة، لا محلَّ لها مثلها.

﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ١٦٢﴾

الشرح: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ﴾: المراد: عبد الله بن سلام، وأصحابه؛ الذين أسلموا من أهل الكتاب ـ رضي الله عنهم ـ، وذلك: أنَّ اليهود الخبثاء، أنكروا ما تقدَّم، وقالوا: إنَّ هذه الأشياء كانت حراماً في الأصل، وأنت تحلُّها، ولم تكن حرِّمت بظلمنا، فنزلت الآية الكريمة. انتهى قرطبي.

هذا؛ و: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي: المبالغون في علم الكتاب، الثابتون، وهم الذين أتقنوا علمهم بحيث لا يدخل في علمهم شكٌّ، والرسوخ: الثبوت في الشَّيء، وكل ثابتٍ راسخ، وأصله في الأجرام: أن يرسخ الجبل، والشَّجر، ونحوهما في الأرض، قال الشاعر: [الطويل]

لَقَدْ رَسَخَتْ فِي الصَّدْرِ مِنِّي مَوَدَّةٌ ... لِلَيْلَى أَبَتْ آيَاتُهَا أَنْ تَغَيَّرَا

هذا؛ وقال ابن أبي حاتم بسنده: حدَّثنا عبيد الله بن يزيد ـ وكان قد أدرك أصحاب النبي ﷺ: أنساً، وأبا أمامة، وأبا الدَّرداء ـ رضي الله عنهم ـ: أنَّ رسول الله ﷺ سئل عن الرَّاسخين في العلم، فقال: «**مَنْ بَرَّتْ يَمِينُهُ، وَصَدَقَ لِسَانُهُ، وَاسْتَقَامَ قَلْبُهُ، وَعَفَّ بَطْنُهُ، وفَرْجُهُ؛ فَذَلِكَ مِنَ الرَّاسِخينَ في الْعِلْمِ**». وقال ابن المنذر في تفسيره عن نافع بن يزيد: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾: المتواضعون لله، المتذلِّلون في مرضاته، لا يتعاظمون على مَنْ فوقهم، ولا يَحْقِرون مَنْ دُونهم. هذا؛ وفي قوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ استعارةٌ، والمراد بها المتمكِّنون في العلم، تشبيهاً برسوخ الشيء الثقيل في الأرض الخوَّارة. وهذا أبلغ من قوله: الثابتون في العلم. هذا؛ والرَّاسخ في العلم مَنْ وجد في علمه أربعة أشياء: التقوى فيما بينه وبين الله تعالى، والتَّواضع فيما بينه وبين النَّاس، والزُّهد فيما بينه وبين الدُّنيا، والمجاهدة فيما بينه وبين النَّفس.

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ أي: منهم، والمؤمنون من المهاجرين، والأنصار. ﴿يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ﴾ أي: يصدقون بالقرآن الذي أنزل عليك يا محمد! ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ﴾: المراد به: الكتب السماوية المنزلة على الرُّسل السابقين: التوراة، والإنجيل، والزَّبور، والصحف الَّتي أُنزلت على إبراهيم وغيره، صلوات الله، وسلامه على نبينا، وعليهم أجمعين. ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ﴾: انظر الآية رقم [١٠٣]. ﴿وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾: التي فرضها الله عليهم في أموالهم. ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾: هو آخر أيام الدنيا، فيه: البعث، والحشر، والحساب، وإدخال أهل الجنَّة الجنَّة بالفضل الربَّاني، وإدخال أهل النَّار النَّارَ بالعدل الإلهي.

﴿أُولَٰئِكَ﴾: الإشارة إلى المذكورين في هذه الآية. ﴿سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يعني: سنعطيهم على ما كان منهم من طاعة الله، وامتثال أمره ثواباً عظيماً، لا يَعْلم مقداره إلا الله تعالى. وفي الآية التفاتٌ من الغيبة إلى التكلم، انظر الالتفات في الآية رقم [٦٤].

الإعراب: ﴿لَّٰكِنِ﴾: حرف استدراك مهمل، مفيد للاستثناء. ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾: مبتدأ مرفوع، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمَّة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد. ﴿فِي ٱلْعِلْمِ﴾: متعلقان بـ: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾. ﴿مِنْهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من الضمير المستتر في: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: معطوف على: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ مرفوع مثله. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فعل مضارع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، وما عطف عليه. وقيل: هي في محل نصب حال من: (المؤمنون). وقيل: هي معترضة بين المبتدأ وخبره الآتي. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة. ﴿أُنزِلَ﴾: فعل ماض مبني للمجهول، ونائب الفاعل يعود إلى (ما) وهو العائد، أو الرابط، والجملة الفعلية صلة (ما)أو صفتها. ﴿إِلَيْكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾: معطوف على ما قبله، وإعرابه مثله.

﴿وَٱلْمُقِيمِينَ﴾: منصوب على المدح بفعل محذوف. وهو قول سيبويه، رحمه الله تعالى. وقيل: معطوف على (ما) المجرورة بالباء، التَّقدير: وبالمقيمين، فيكون المراد بهم الأنبياء والرُّسل، الإيمان بهم واجبٌ كما لا يخفى، وذكر مكي أقوالاً كثيرةً أيضاً، وكلُّها ضعيفة لا يعتدُّ بشيءٍ منها؛ لأنَّ مثل هذا وارد في كتاب الله تعالى، قال الله عزَّ وجل في سورة (البقرة) رقم [١٣٦]: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ ومنه قول ابن خياط: [البسيط]

وَكُلُّ قَوْمٍ أَطَاعُوا أَمْرَ سَيِّدِهِمْ ... إِلَّا نُمَيْرَاً أَطَاعَتْ أَمْرَ غَاوِيهَا
الظَّاعِنِينَ، وَلَمَّا يُظْعِنُوا أَحَدَاً ... وَالْقَائِلُونَ لِمَنْ دَارٌ نُخَلِّيهَا

المعنى: يخافون من عدوهم لقلَّتهم، وذلِّهم، فيظعنون، ولا يخاف منهم عدوُّهم، فيظعن عن دارهم خوفاً منهم، وقالت خِرْنِقِ بنت عفاف مِنْ بني قيس، تصف قومها بالظُّهور على العدوِّ، ونحر الجزر للأضياف، واللازمة للحرب، والعفة عن الفواحش: [السريع]

لَا يَبْعَدَنْ قَوْمِي الَّذِين هُمُو ... سُمُّ الْعُدَاةِ وَآفَةُ الْجُزْرِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُعْتَرَكٍ ... وَالطَّيِّبُونَ مَعَاقِدَ الأُزْرِ

الشاهد في البيتين الأولين قوله: «الظاعنين» وفي الآخرين قولها: «النَّازلين». هذا وقد قرئ: (والمقيمون) عطفاً على: ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ أو على الضمير في: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ أو على أنه مبتدأ خبره ما يأتي. ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾: مفعول به لـ: (المقيمين). ﴿وَٱلْمُؤْتُونَ﴾: يجوز في ما ذكرته في

سابقه في حالة رفعه، وتكون جملة: «أمدح المقيمين» معترضة لا محلَّ لها. ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: معطوف على: (المؤتون). ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ: (المؤمنون). ﴿وَٱلْيَوْمِ﴾ معطوف على ما قبله. ﴿ٱلْآخِرِ﴾ صفة: (اليوم).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: اسم إشارة مبني على الكسر في محل رفع مبتدأ، والكاف حرف خطاب. لا محلَّ له. ﴿سَنُؤْتِيهِمْ﴾: السين: حرف تنفيس، واستقبال. (نؤتيهم): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمةٌ مقدَّرةٌ على الياء للثقل، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والهاء مفعول به أوَّل. ﴿أَجْرًا﴾: مفعول به ثان. ﴿عَظِيمًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو ﴿ٱلرَّٰسِخُونَ﴾ على وجهٍ مرَّ ذكره، أو في محل رفع خبر: (المقيمون) على رواية رفعه، وتكون الجملة الاسمية معطوفةً على الجملة الاسمية السَّابقة.

﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: أصل الوحي: الإشارة السَّريعة، وهو: الكتاب المنزل على الرسول المرسل لقومه، مثل: موسى، وعيسى، ومحمد، صلى الله عليهم أجمعين. والوحي أيضاً: الكتابة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكلُّ ما ألقيته إلى غيرك. وتسخير الطير لما خُلِق له إلهام، والوحي إلى النَّحل، وتسخيرها لما خلقها الله له إلهام. واختلف في الوحي إلى أمِّ موسى، فقيل: كان في المنام. وقيل: كان إلهاماً. وقيل: كان يكلِّمها جبريل، عليه السلام. قال تعالى في سورة (طه) حكايةً عمَّا أجاب به موسى فرعون: ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ والخطاب للرسول ﷺ، وانظر كيف يأتي الوحي للرَّسول ﷺ في الآية رقم [٤٤] من سورة (آل عمران).

﴿كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: المراد: هود، وصالح، فإنَّهما كانا بين نوح، وإبراهيم. ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ...﴾ إلخ: انظر الآية رقم [٣٣] من سورة (آل عمران) تجد ما يسرّك، ويثلج صدرك. ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ قدَّم إسماعيل على إسحاق في الذِّكر لسببين: أولهما: أنَّه أسبق منه في الوِلادة بأربع عشرة سنة، وثانيهما: أنَّه جدُّ نبينا محمد ﷺ، فاستحقَّ التقديم لذلك.

﴿وَيَعْقُوبَ﴾: هو ابن إسحاق. ﴿وَٱلْأَسْبَاطِ﴾: أولاد يعقوب الاثنا عشر، فتفرَّع عنهم قبائل بني إسرائيل، فالأسباط في بني إسرائيل كالقبائل في العرب من بني إسماعيل، والسِّبط: ولد الولد، وهو الحافد، والحفيد، ومنه قيل للحسن، والحسين: سبطا رسولِ الله ﷺ.

﴿وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾: كلُّهم من ذرية إبراهيم، على نبيِّنا، وحبيبنا، وعليهم ألف صلاة، وألف سلام. ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾: هو اسم للكتاب الذي أنزل على داود، عليه السَّلام، وهو مئة وخمسون سورة، ليس فيها حكم تشريع، ولا حلال، ولا حرام، بل فيها تسبيحٌ، وتقديسٌ، وتحميدٌ، وثناءٌ على الله، عزَّ وجلَّ، ومواعظ وكان داود عليه السلام يخرج إلى البريَّة، فيقوم، ويقرأ الزَّبور، وتقوم علماء بني إسرائيل خلفه، ويقوم الناس خلف العلماء وتقوم الجنُّ خلف الناس، والشَّياطين خلف الجنِّ، وتجيء الدوابُّ التي في الجبال، فيقمن بين يديه، وترفرف الطُّيور على رؤوس الناس، وهم يستمعون لقراءة داود، ويتعجَّبون منها، فلمَّا قارف الذّنب؛ زال عنه ذلك. وقيل له: «كان ذلك أنس الطاعة، وهذا ذلُّ المعصية». انتهى. خازن. وأضيفُ: أنَّ داود ـ عليه السلام ـ كان حسن الصوت، وفي الآخرة يقرأ القرآن في الجنَّة، فيجتمع عليه أهل الجنَّة، فيستمعون لقراءته، فلا يكون شيءٌ ألذَّ عندهم من الاستماع إليه. والله أعلم، وأجل، وأكرم.

عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال له رسول الله ﷺ: **«لَوْ رَأَيْتَنِي الْبَارِحَةَ، وأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءتِكَ، لَقَدْ أُعْطِيتَ مِزْمَاراً مِنْ مزَامِيْرِ آلِ دَاوُدِ»**. متفق عليه. قال الحميدي: زاد البرقاني: قلت: يا رسول الله! لو علمت: أنَّك تسمع قراءتي؛ لحبَّرتها لك تحبيراً. التَّحبير: تحسين الصوت بالقراءة.

هذا؛ وقال بعض العلماء: إنَّما لم يُذكر موسى في هذه الآية؛ لأنَّ الله أنزل عليه التوراة جملة واحدة، وكأنَّ المقصود بذكر مَنْ ذُكِر من الأنبياء في الآية: أنَّ الله لم ينزل على أحدٍ منهم كتاباً جملةً واحدةً، فلهذا لم يذكر موسى عليه السَّلام.

تنبيه: نزلت الآية الكريمة جواباً لأهل الكتاب عن سؤالهم رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السَّماء، واحتجاجاً عليهم بأنَّ شأنه في الوحي كشأن سائر الأنبياء الذين ذكروا في هذه الآية، وقد خصَّ بالذكر الرُّسل المذكورين مع اشتمال النبيين عليهم تعظيماً لهم. وقال المفسِّرون: وإنَّما بدأ الله عزَّ وجل بذكر نوح عليه السلام لأنَّه أول رسول بعث بشريعةٍ بعد آدم، وأوَّل نذير على الشِّرك، وأنزل الله عليه عشر صحائف، وكان أول من عُذِّبَتْ أمته لردِّهم دعوته، وأهلك الله أهل الأرض بدعائه، وكان أبا البشر كآدم عليهما السلام، وكان أطول الأنبياء عمراً، عاش ألفاً وخمسين سنة. وقيل: ألفاً ومئتين، ولم تنقص قوَّته، ولم يشب، ولم تسقط له سنٌّ، وصبر على أذى قومه طول عمره، وبشريعته غُيِّرت بعض أحكام شريعة آدم، ولا سيَّما تحريم زواج الأخوات.

الإعراب: ﴿إِنَّآ﴾: حرف مشبه بالفعل، و(نا) اسمها، حذفت نونها للتخفيف، وبقيت الألف دليلاً عليها. ﴿أَوْحَيْنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل

رفع خبر (إنَّ) والجملة الاسمية: ﴿إِنَّآ...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿كَمَآ﴾: الكاف: حرف تشبيه وجر. (ما): مصدرية، تؤول مع الفعل بعدها بمصدر في محل جرٍّ بالكاف، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف صفة لمفعول مطلق محذوف، التقدير: أوحينا إليك إيحاءً مثل إيحائنا، وهو قول أبي البقاء، وغيره في مثل هذا التَّركيب. ومذهب سيبويه في مثله النصب على الحال من المصدر المفهوم مِنَ الفعل المتقدِّم على طريق الاتساع، فيكون التقدير: أوحينا إليك على مثل هذه الحالة. هذا؛ وجوز اعتبار (ما) موصولة بمعنى «الذي» فتكون الكاف اسماً بمعنى «مثل» مفعولاً به، وهي مضاف، و(ما) في محل جرٍّ بالإضافة، والجملة الفعلية بعدها صلتها، والعائد محذوف، التقدير: كالذي أوحيناه. ﴿إِلَىٰ نُوحٍ﴾: متعلِّقان بما قبلهما. ﴿وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾: معطوف على نوحٍ مجرور، وعلامة جره الياء. . .إلخ. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: (النبيين) والهاء في محل جر بالإضافة.

﴿وَأَوْحَيْنَآ﴾: فعل، وفاعل. ﴿إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، وعلامة الجر الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوعٌ من الصرف للعلمية، والعجمة. والأسماء بعده معطوفة على إبراهيم مجرورة مثله. ﴿وَءَاتَيْنَا﴾: فعل، وفاعل. ﴿دَاوُۥدَ﴾: مفعول به أوَّل. ﴿زَبُورًا﴾: مفعول به ثان، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها.

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾

الشرح: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ﴾: القصص: مصدر: قصَّ فلان الحديث، يقصُّه، قصّاً، وقصصاً، وأصله تتبُّع الأثر، يقال: فلانٌ خرج يقصُّ أثر فلان، أي: يَتَتَبَّعُه؛ ليعرف أين ذهب، ومنه قوله تعالى في سورة (القصص): ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ أي: اتَّبِعي أثره، ومعنى: ﴿قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ﴾: سميناهم في القرآن، وعرَّفناك أخبارهم من قبل نزول هذه السُّورة، أو قبل اليوم. ﴿وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾: لم نذكرهم في القرآن. ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ أي: بلا واسطة. وتكليم الله موسى ـ عليه السَّلام ـ منتهى مراتب الوحي، خُصَّ به موسى من بين المرسلين، وقد فَضَّل الله محمداً ﷺ بأن أعطاه مثل ما أعطى كل واحدٍ منهم، وكلَّمه في ليلة الإسراء، والمعراج بلا واسطة.

هذا؛ والنبيُّون: جمع نبيٍّ، يقرأ بالهمز، وبدونه، وهو مأخوذ من النَّبأ، وهو الخبر؛ لأنَّ النبي يخبر عن ربِّه. وقيل: بل هو مأخوذ من النَّبْوَة، وهو: الارتفاع؛ لأنَّ رتبة النَّبيِّ ارتفعت عن رتب الخلق. هذا؛ والنبيُّ غير الرسول، بدليل عطفه في قوله تعالى في سورة (الحج) رقم [٥٢]: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ...﴾ إلخ.

وقيل: هو أعمُّ منه؛ لأنَّ كلَّ رسولٍ نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً. أمَّا تعريفهما؛ فالرَّسول: ذكرٌ حرٌّ من بني آدم، سليمٌ عن منفِّرٍ طبعاً، أوحي إليه بشرع، يعمل به، ويؤمر بتبليغه، فإن لم يؤمر بالتَّبليغ؛ فهو نبيٌّ، وليس رسولاً، فنبينا ﷺ صار نبيّاً بنزول سورة (اقرأ) عليه، وبعد ستَّة أشهر من نزولها صار رسولاً بنزول صَدْر سورة (المدثر) عليه.

هذا؛ ويروى: أنَّ أبا ذرٍّ ـ رضي الله عنه ـ سأل رسول الله ﷺ عن عدد الأنبياء، فقال: «**مِئَةُ أَلفٍ وَأَرْبَعَةٌ وعِشرونَ أَلْفَاً**» قال: كم عدد الرُّسل؟ قال: «**ثَلاثُمِئَةٍ وَثَلاثَةَ عَشَرَ، أَوَّلهم آدمُ، وآخرهم نبيُّكم**». أخرجه الإمام أحمد، وفي بعض ألفاظه اختلافٌ بسيطٌ. هذا؛ وأربعة منهم من العرب: هم صالح، وهود، وشُعيب، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام مستعربٌ لسكناه مكَّة مع قبيلة جُرهم، وتزوُّجه بامرأتين منهم، والمذكور من الرُّسل في القرآن بأسمائهم خمسةٌ وعشرون، ومعرفتهم بأسمائهم واجبةٌ على كلِّ مسلم، ومسلمةٍ من المكلَّفين، وأعني بمعرفتهم: أنَّه لو عرض اسم رسول منهم على مسلم؛ فيجب أنْ يعرف أهو من المرسلين، أم لا؟ هذا؛ وقال تعالى في سورة (غافر) رقم [٧٨] كما في هذه الآية التي بين أيدينا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾.

هذا؛ وقد روي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أنَّه قال: كلُّ الرسل من بني إسرائيل إلا عشرة: نوحاً، وشعيباً، وهوداً، وصالحاً، ولوطاً، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، ومحمداً، صلوات الله عليهم جميعاً. وذكروا من أنبياء العرب: حنظلة بن صفوان بُعِثَ إلى أصحاب الرَّسِّ، وخالد بن سنان العبسي. انظر أصحاب الرَّس، في الآية رقم [٣٨] من سورة (الفرقان) فإنَّه جيد، والحمد لله!.

هذا؛ وقد ذكر الله في آيات (الأنعام) رقم [٨٣] وما بعدها ثمانية عشر رسولاً بأسمائهم من غير ترتيب، لا بحسب الزَّمان، ولا بحسب الفضل؛ لأنَّ الواو العاطفة لا تقتضي التَّرتيب، وبقي منهم سبعةٌ لم يذكروا في سورة (الأنعام) وقد ذكروا في غيرها، وهم: إدريس، وشعيب، وصالح، وهود، وذو الكفل، وهو ابن أيوب الذي ذكر في سورة الأنبياء، وآدم، ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين، وسلَّم تسليماً كثيراً، فهؤلاء الخمسة والعشرون رسولاً، الَّذين يجب الإيمان بهم، ومعرفتهم تفصيلاً، وقد نظموا في قول بعضهم: [البسيط]

حَتْمٌ عَلَى كُلِّ ذِي التَّكْلِيفِ مَعْرِفَةٌ ... بِأَنْبِيَاءِ عَلَى التَّفْصِيلِ قَدْ عُلِمُوا
فِي (تِلْكَ حُجَّتُنَا) مِنْهُمْ ثَمَانِيَةٌ ... مِنْ بَعْدِ عَشْرٍ وَيَبْقَى سَبْعَةٌ وَهُمُ
إِدْرِيسُ هُودٌ شُعَيْبٌ صَالِحٌ وَكَذَا ... ذُو الكِفْلِ آدمُ بِالمُخْتَارِ قَدْ خُتِمُوا

ويعني بقوله: في (تِلْكَ حُجَّتُنَا) آيات الأنعام [٨٣] وما بعدها. وينبغي أن تعلم: أنَّ هؤلاء الرسل ليسوا بدرجةٍ واحدةٍ من الفضل، بل أرفعهم درجةً، وأعلاهم منزلةً أولو العزم منهم، وهم

خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، وسيد الجميع، وأفضل الخلق قاطبة محمَّدٌ، صلى الله عليهم جميعاً، وسلم تسليماً. والأنبياء ـ صلوات الله، وسلامه عليهم أجمعين ـ تجوز عليهم الأعراض البشرية، فهم يأكلون، ويشربون، ويصحُّون، ويمرضون، وينكحون النِّساء، ويمشون في الأسواق، وتعتريهم الأعراض البشرية، مِنْ ضعفٍ، وشيخوخةٍ، إلا أنَّهم يمتازون بخصائص كريمةٍ عاليةٍ، ويتَّصفون بصفاتٍ عظيمةٍ جليلةٍ، هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم، وهي ما يلي: الصِّدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة، والعصمة من المعاصي قبل النبوة، وبعدها، والسَّلامة من العيوب المنفِّرة. ويستحيل عليهم ضدُّها.

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾ أي: تكليماً حقيقيّاً، وهو يدل على بطلان مَنْ يقول: خلق لنفسه كلاماً في شجرةٍ، فسمعه موسى، بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلماً. هذا؛ وقال وهب بن منبه: إنَّ موسى ـ عليه السلام ـ قال: يَا رَبِّ! بِمَ اتَّخَذْتَنِي كَلِيْمَاً؟ ـ طلبَ العَمَل الَّذِي أَسْعَدَهُ الله به لِيُكْثِر منه ـ فقال الله تعالى له: أتذكر؛ إذ ندَّ مِنْ غنمك جَدْيٌ، فاتَّبعته أكثر النَّهار، وأتعبك، ثمَّ أخذته، وقبَّلته، وضَمَمْتَه إلى صدرك، وقلت له: أتعبتني، وأتعبت نفسك. ولم تغضب عليه. مِنْ أجل ذلك اتَّخذتُك كليماً.

الإعراب: ﴿وَرُسُلًا﴾: الواو: حرف عطف. (رسلاً): مفعول به لفعلٍ محذوف، التقدير: أرسلنا، أو: بعثنا، وقرئ: (ورسلٌ) فيكون مبتدأ خبره محذوف، التقدير: ومنهم رسلٌ. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿قَصَصۡنَٰهُمۡ﴾: فعل، وفاعل، ومفعول به، و الجملة الفعلية في محل نصب صفة (رسلاً). ﴿عَلَيۡكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿مِن قَبۡلُ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، وبُني: ﴿قَبۡلُ﴾ على الضم لقطعه عن الإضافة لفظاً، لا معنىً، وجملة: «أرسلنا رسلاً. . . إلخ» معطوفة على جملة: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ...﴾ إلخ فهي في محل رفع مثلها. (رُسُلاً): مفعول به لفعل محذوف أيضاً، والجملة الفعلية المقدرة معطوفة على ما قبلها. ﴿لَّمۡ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿نَقۡصُصۡهُمۡ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ ﴿لَّمۡ﴾، والفاعل مستتر تقديره: نحن، والجملة الفعلية صفة: (رسلاً) أيضاً. ﴿عَلَيۡكَ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَكَلَّمَ﴾: فعل ماض. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿مُوسَىٰ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه فتحة مقدرة على الألف. ﴿تَكۡلِيمًا﴾: مفعول مطلق مؤكد لفعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. وقيل: هي في محل نصب حال على إضمار «قد» ولا أراه قويّاً.

﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾

الشرح: ﴿رُّسُلًا﴾: جمع رسول، وهو بضم الرَّاء، والسين، ويجوز تسكين السين، قال عيسى بن عمر ـ رحمه الله تعالى ـ: كلُّ اسم على ثلاثة أحرف، أوله مضموم، وأوسطه ساكن،

فمن العرب مَنْ يخففه، ومنهم من يثقِّله، وذلك مثل: عسر، ويسر، ورحم... إلخ. ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾ المطيعين بالجنَّة، والرِّضا، والرضوان. (منذرين) أي: مُخوِّفين العاصين من النار، وغضب الواحد القهار. ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ أي: فيقولون: لولا أرسلت إلينا رسولاً، فيوقظنا من غفلتنا، وينبهنا إلى ما يجب الانتباه له، ويعلِّمنا ما يلزمنا في ديننا، ودنيانا ممَّا سبيل معرفته السَّمع، كالعبادات، والشرائع. أعني: في حقِّ مقاديرها، وأوقاتها، وكيفياتها، دون أصولها، فإنَّها ممَّا يُعرف بالعقل. انتهى. نسفي بتصرف. وفيه دليل على أنَّ الله لا يعذِّب الخلق قبل بعثة الرُّسل، كما قال تعالى في سورة (الإسراء): ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ وفيه دليل أيضاً لمذهب أهل السنة على أنَّ معرفة الله تعالى لا تثبت إلا بالسمع؛ لأنَّ صريح الآية يدلُّ على أنَّ قبل بعثة الرسل تكون لهم الحجَّة في ترك الطَّاعات، والعبادات.

هذا؛ ومثل هذه الآية قوله تعالى في سورة (طه): ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾. ومثل ذلك الآية رقم [٤٧] من سورة (القصص).

وعن المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال سعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ: لو رأيتُ رجلاً مع امرأتي؛ لضربته بالسَّيف غير مصفح. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، فَوَاللهِ لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللهِ حَرَّمَ اللهُ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا، وَمَا بَطَنَ، وَلَا أَحَداً أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُنْذِرِينَ، وَالْمُبَشِّرِينَ، وَلَا أَحَداً أَحَبُّ إِلَيْهِ المِدْحَةُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ وَعَدَ الْجَنَّةَ**». متفق عليه. ويروى باختلاف الألفاظ في الصَّحيحين عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾: قويّاً غالباً في انتقامه مِمَّن خالف أمره، وعصى رسله. ﴿حَكِيمًا﴾: فيما قضى، وقدَّر، وحكم.

الإعراب: ﴿رُّسُلًا﴾: منصوب على المدح بفعل محذوف، أو بتقدير: أرسلنا رسلاً، أو على الحال من الضمير المنصوب أو على البدلية مِنْ: (رسلاً) حالاً في الآية السابقة. ﴿مُّبَشِّرِينَ﴾: صفة: ﴿رُّسُلًا﴾ أو حال من الضمير المنصوب في الآية السابقة، فيكون: ﴿رُّسُلًا﴾ حالاً موطئة على وجهٍ فيه. (مُنْذِرِينَ): معطوف على سابقه منصوب مثله، وعلامة النصب فيها الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد.

﴿لِئَلَّا﴾: اللام: حرف تعليل، وجر. (أَنْ): حرف مصدري، ونصب. (لا): نافية. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ: (أن). ﴿لِلنَّاسِ﴾: متعلِّقان بمحذوف خبر: ﴿يَكُونَ﴾ تقدَّم على اسمه. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلِّقان بالخبر المحذوف، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في الجار والمجرور قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال مِنْ: ﴿حُجَّةٌۢ﴾ كان صفة له، وهو غير مسلَّم، وأرى جواز تعليقهما بـ: ﴿حُجَّةٌۢ﴾ لأنّه مصدر، خلافاً لمن منع ذلك؛ لأنَّ الظروف

يتوسَّع فيها ما لا يتوسع في غيرها. ﴿حُجَّةٌ﴾: اسم: ﴿يَكُونَ﴾ مؤخر. ﴿بَعْدَ﴾: ظرف زمان متعلق بـ: ﴿حُجَّةٌ﴾ أو بمحذوف صفة له، و﴿بَعْدَ﴾ مضاف، و﴿الرُّسُلِ﴾: مضاف إليه، وهناك محذوف؛ إذ التقدير: بعد إرسال الرُّسل، فلما حذف المضاف حلَّ المضاف إليه محلَّه، و(أن) والفعل: (يكون) في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بـ: ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ أو بـ: (منذرين) على اختلافٍ بين البصريين والكوفيين، وهو على التنازع. وقيل: متعلقان بفعل محذوف، التقدير: أرسلناهم لعدم كون حجَّةٍ للناس باقيةً على الله، وتكون الجملة الفعلية في محل نصب حال من: ﴿رُسُلًا﴾ بعد وصفه بما تقدَّم، أو هي صفة ثانية له. ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾: إعراب هذه الجملة واضح، وهي مستأنفةٌ لا محلَّ لها. تأمَّل وتدبَّر، ربُّكَ أعلم وأجلُّ، وأكرم، وصلى الله على سيدنا محمَّدٍ، وعلى آله، وصحبه، وسلم.

﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾

الشرح: قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: دخل على رسول الله ﷺ جماعةٌ من اليهود، فقال لهم: «**إِنِّي وَاللهِ أَعْلَمُ أَنَّكُمْ لَتَعْلَمُنَّ أَنِّي رَسُولُ اللهِ**» فقالوا: لا نعلم ذلك، فأنزل الله هذه الآية. وفي روايةٍ ثانية عن ابن عباس: أنَّ رؤساء مكة أتوْا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد! إنا سألنا اليهود عنك، وعن صفتك في كتابهم، فزعموا: أنَّهم لا يعرفونك، فأنزل الله الآية الكريمة:

﴿لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ...﴾ إلخ؛ المعنى: إنْ جحدك اليهود يا محمد، وكفروا بما أوحينا إليك، وقالوا: ما أنزل الله على بشرٍ من شيءٍ؛ فقد كذبوا بما ادَّعوا، فإنَّ الله يشهد لك بالنبوَّة، ويشهد بما أنزل إليك من كتابه، ووحيه.

﴿أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ﴾ أي: الخاص به؛ الَّذي لا يعلمه غيره، وهو تأليفه على نظم يعجز عنه كلُّ بليغ، وأنزله بعلمٍ تامٍّ، وحكمةٍ بالغة. أو: أنزله بعلمه بحال مَنْ أُنزِل عليه، واستعداده لاقتباس نوره، والأخذ بهديه.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ بأنَّ الله أنزله عليك، ويشهدون بتصديقك، وبنبوَّتك، ورسالتك، وإنَّما عرفت شهادة الملائكة؛ لأنَّ الله تعالى إذا شهد بشيءٍ شهدت الملائكة بذلك الشَّيء، قال تعالى في سورة (آل عمران): ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾. وقد ثبت: أنَّ الله يشهد بأنَّه أنزله بعلمه، فلذلك الملائكة يشهدون بذلك. ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: وحسبك يا محمد: أنَّ الله يشهد لك، وإن لم يشهد معه أحد غيره. ففيه تسلية للنبي ﷺ عن شهادة أهل الكتاب له، والله أعلم بمراده.

الإعراب: ﴿لَّٰكِنِ﴾: حرف استدراك مهمل لا محلَّ له. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يَشۡهَدُ﴾: فعل مضارع، والفاعل يعود إلى الله، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية معطوفة بـ﴿لَّٰكِنِ﴾ على الكلام المقدَّر قبلها، والذي رأيته في الشَّرح. ﴿بِمَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. و(ما) تحتمل الموصولة والموصوفة، فهي مبنيَّةٌ على السكون في محل جر بالباء. ﴿أَنزَلَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿إِلَيۡكَ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية صلة (ما) أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: يشهد بالذي، أو: بشيء أنزله إليك، وجملة: ﴿أَنزَلَهُۥ﴾ مفسرة للجملة قبلها، محلُّها مثلها، وإن اعتبرتها بدلاً منها؛ فلا بأس به. ﴿بِعِلۡمِهِۦ﴾: متعلقان بمحذوف حال من الضمير المنصوب، أي: معلوماً بعلمه، أو من الفاعل المستتر؛ أي: عالماً به، والهاء في محلِّ جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله، والجملة الاسمية: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَشۡهَدُونَۚ﴾ معطوفة على الجملة الاسمية السَّابقة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: جحدوا نبوَّة محمد ﷺ. ﴿وَصَدُّواْ﴾ منعوا الناس عن الدخول في الإسلام بكتمهم نعت محمد ﷺ الموجود في التوراة، وانظر: ﴿يَصُدُّونَ﴾ في الآية رقم [٦١]. ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دين الله الذي ارتضاه للناس، وانظر الآية رقم [٧٤]. ﴿قَدۡ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا﴾ انظر الآيتين رقم [٦٠ و٨٨].

الإعراب: ﴿إِنَّ﴾: حرف مشبه بالفعل. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل نصب اسم: ﴿إِنَّ﴾. ﴿كَفَرُواْ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدر على آخره منع من ظهوره اشتغال المحل بالضم الذي جيء به لمناسبة واو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق، والمتعلق محذوف، والجملة الفعلية صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿وَصَدُّواْ﴾: ماض، وفاعله، ومفعوله محذوف، والجملة معطوفة على ما قبلها. ﴿عَن سَبِيلِ﴾: متعلقان به، و﴿سَبِيلِ﴾ مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق يقرب الماضي من الحال. ﴿ضَلُّواْ﴾: ماض، وفاعله، والألف للتفريق. ﴿ضَلَٰلَۢا﴾: مفعول مطلق. ﴿بَعِيدًا﴾: صفة له، والجملة الفعلية: ﴿قَدۡ ضَلُّواْ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ إلخ مبتدأة، أو مستأنفة، لا محلَّ لها على الاعتبارين.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾﴾

الشرح: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾: مثل سابقه. ﴿وَظَلَمُواْ﴾ أي: ظلموا محمداً ﷺ بإنكار نبوَّته، وظلموا النَّاس بصدهم عما فيه صلاحهم في الدنيا، وخلاصهم من عذاب الله في الآخرة، وظلموا أنفسهم بإدخالها نار الجحيم، وإذاقتها العذاب الأليم، والمراد: اليهود بلا ريبٍ.

﴿لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ...﴾ إلخ: نفي المغفرة لهم إذا ماتوا على كفرهم، وعنادهم، وأمَّا إذا آمنوا؛ فالإيمان يجبُّ ما قبله. هذا؛ و«الهداية»: دلالةٌ بلطف، وانظر الآية رقم [٦٨].

الإعراب: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ﴾: انظر الآية السابقة. ﴿لَمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَكُنِ﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ ﴿لَمْ﴾. ﴿ٱللَّهُ﴾: اسمه. ﴿لِيَغْفِرَ﴾: اللام: لام الجحود. (يغفر): فعل مضارع منصوب بـ «أنْ» مضمرة وجوباً بعد لام الجحود، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾. ﴿لَهُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما، و«أن» المضمرة والفعل: (يغفر) في تأويل مصدر في محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿يَكُنِ﴾، التقدير: لم يكن الله مريداً لغفران ذنوبهم، وجملة: ﴿لَمْ يَكُنِ...﴾ إلخ في محل رفع خبر: ﴿إِنَّ﴾، والجملة الاسمية بمنزلة التوكيد لما قبلها. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): صلة لتأكيد النفي. ﴿لِيَهْدِيَهُمْ﴾: إعرابه مثل إعراب ﴿لِيَغْفِرَ﴾، والجار والمجرور الناتجان معطوفان على ما نتج مِنْ: ﴿لِيَغْفِرَ﴾، وقد نصب الفعل هنا مفعولين.

﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾

الشرح: ﴿إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾ أي: الطريق المؤدي إلى جهنَّم؛ لقضائه المبرم، ووعده المحتوم على أنَّ مَنْ مات على كفره؛ فهو خالد في النار، أي: لا يخرج منها أبداً، وانظر «**الأبد**» في الآية [١٢٢]. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: جعلهم خالدين في جهنَّم. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾: سهلاً؛ لأنَّه تعالى لا يعجزه شيءٌ في الأرض، ولا في السماء.

الإعراب: ﴿إِلَّا﴾: أداة استثناء. ﴿طَرِيقَ﴾: مستثنىً بـ (إلا) وهو مضاف، و﴿جَهَنَّمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوع من الصَّرف للعلمية، والعجمة. ﴿خَٰلِدِينَ﴾: حال من واو الجماعة منصوب، وعلامة نصبه الياء. . .إلخ، وفاعله مستتر فيه. ﴿فِيهَآ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿خَٰلِدِينَ﴾. ﴿أَبَدًاۚ﴾: ظرف زمان متعلق به أيضاً. ﴿وَكَانَ﴾: الواو: حرف استئناف. (كان): فعل ماض ناقص. ﴿ذَٰلِكَ﴾: اسم إشارة مبني على السكون في محل رفع اسم (كان)، واللام للبعد، والكاف حرف خطاب، لا محلَّ له. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بـ ﴿يَسِيرًا﴾ الذي هو خبر (كان)، والجملة الفعلية مستأنفةٌ، لا محلَّ لها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ...﴾ إلخ: لمَّا قرَّر الله أمر نبوَّة محمد ﷺ، وبيَّن الطريق الموصل إلى العلم، وقرَّر وعيد مَنْ أنكرها، وجحدها؛ خاطب النَّاس عامَّةً بالدَّعوة إليها.

والوعد بالإجابة إليها، والوعيد على جحدها وإنكارها. و﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده. وقيل: جاءكم بالقرآن الذي هو الحق. ﴿فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾ أي: فآمنوا، وصدقوا بما جاءكم به محمَّد ﷺ يكن الإيمان بذلك خيراً لكم من الكفر الذي أنتم عليه. ﴿وَإِن تَكۡفُرُواْ﴾ أي: تجحدوا نبوَّة محمد ﷺ، وتكذبوا بما جاءكم به من الحقِّ من عند ربكم.

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾: ملكاً، وخلقاً، وعبيداً، وَمَنْ كان كذلك لم يكن محتاجاً إلى شيءٍ، وهو القادر على ما يشاء، ويُريد، وانظر الآيتين رقم [١٣١ و١٣٢] تجد ما يسرُّك، ويثلج صدرك. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾: تقدَّم مثلها كثيراً.

هذا؛ و(خير): أفضل، فهو أفعل تفضيل، أصله: أَخْيرَ. نقلت حركة الياء إلى الخاء قبلها؛ لأنَّ الحرف الصَّحيح أولى بالحركة مِنْ حرف العلة، ثمَّ حذفت الهمزة استغناءً عنها بحركة الخاء، ومثله قل في: حبُّ، وشرُّ اسمي تفضيل، إذ أصلهما: أحبب، وأشرر، فنقلت حركة الباء الأولى والراء الأولى إلى ما قبلهما، ثم أدغم الحرفان المتماثلان في بعضهما، ثم حذفت الهمزة من أولهما استغناء بحركة الخاء، والشين، وقد يستعمل: خير، وشر على الأصل، كقراءة بعضهم قوله تعالى في سورة (القمر): (سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الأَشَرُّ) ونحو قول رؤبة بن العجاج: [الرجز]

يَا قَاسِمَ الْخَيْرَاتِ وَابْنَ الأخْيَرِ مَا سَاسَنَا مِثْلُكَ مِنْ مُؤَمَّرِ

وخير، وشر، وحب يستعملن بصيغة واحدة للمذكر، وللمؤنث، والمفرد، والمثنى، والجمع.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾: انظر الآية رقم [١٣٣] ففيها الكفاية، والجملة الندائية ابتدائية، لا محلَّ لها. ﴿قَدۡ﴾: حرف تحقيق، يقرِّب الماضي من الحال. ﴿جَآءَكُمُ﴾: ماض، ومفعوله. ﴿ٱلرَّسُولُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية في محل نصب حال من: ﴿ٱلنَّاسُ﴾، والرابط: الضمير فقط، والعامل في الحال أداة النداء؛ لأنَّها بمعنى: أدعو، ووقوع الحال من المنادى مستعمل عربيةً، كما في قول الشاعر: [البسيط]

يَا أَيُّهَا الرَّبْعُ مَبْكِيّاً بِسَاحَتِهِ

﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: متعلقان بمحذوف حال من: ﴿ٱلرَّسُولُ﴾. أو هما متعلِّقان بالفعل قبلهما. ﴿مِن رَّبِّكُمۡ﴾: متعلِّقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف حال مِنَ: (الحقِّ) فتكون حالاً متداخلةً، والكاف في محل جر بالإضافة، مِنْ إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿فَـَٔامِنُواْ﴾: الفاء: هي الفصيحة؛ لأنَّها تفصح عن شرط مقدَّر. (آمِنُوا): فعل أمر مبني على حذف النون، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها جواب لشرط

غير جازم، التقدير: وإذا كان ما ذكر واقعاً حقيقةً؛ فآمنوا، والمتعلَّق محذوف، انظر الشرح. ﴿خَيْرًا﴾: مفعول به لفعل محذوف عند سيبويه، التقدير: ائتوا خيراً، وصفة لمفعول مطلق محذوف عند الفرَّاء، التقدير: فآمنوا إيماناً خيراً، وخبر لـ«كان» محذوفة مع اسمها، التقدير: فآمنوا يكن الإيمان خيراً. وهذا ضعيفٌ؛ لأنَّ «كان» لا تحذف مع اسمها إلا بعد: «إنْ» و«لو» الشرطيتين. ﴿لَّكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ ﴿خَيْرًا﴾.

﴿وَإِن﴾: الواو: حرف استئناف. (إنْ): حرف شرط جازم. ﴿تَكْفُرُوا۟﴾: فعل مضارع فعل الشرط مجزوم، وعلامة جزمه حذف النون... إلخ، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمتعلَّق محذوف، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائيَّة. ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي، وجواب الشرط محذوف، تقديره: فهو غني عنكم. ﴿فَإِنَّ﴾: الفاء: حرف تعليل. (إنَّ): حرف مشبَّه بالفعل. ﴿لِلَّهِ﴾: متعلِّقان بمحذوف خبر: (إنَّ) تقدَّم على اسمها. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل نصب اسم: (إنَّ) مؤخر. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: متعلِّقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله، والجملة الاسمية: (إنَّ لله...) إلخ مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها، وجملة: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾: مستأنفة لا محلَّ لها، وإعرابُها واضح.

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾: نزلت هذه الآية في النصارى، وذلك: أنَّ الله تعالى لمَّا أجاب عن شُبَهِ اليهود فيما تقدَّم؛ أتبع ذلك بإبطال ما تعتقده النَّصارى في عيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. وأصناف النَّصارى أربعة: اليعقوبية، والملكانية، والنَّسطورية والمرقوسية. أمَّا اليعقوبية، والملكانية، فقالوا في عيسى: إنَّه الله. وقال النَّسطورية: إنَّه ابن الله، وقالت المرقوسية: ثالث ثلاثة. وقيل: إنَّهم يقولون: إنَّ عيسى جوهر واحد، وثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القُدس، وإنَّهم يريدون بأقنوم الأب: الذات، وبأقنوم الابن: عيسى عليه السلام، وبأقنوم روح القدس: الحياة الحالَّة فيه، فتقديره عندهم: الإله ثلاثة. وقيل: يقولون في عيسى: ناسوتية، وألوهية، فناسوتيته من قبل الأم، وألوهيته من قبل الأب. تعالى الله عمَّا يقولون علوّاً كبيراً! يقال: إنَّ الذي أظهر للنَّصارى هذا رجل من اليهود، يقال له: بولص، تنصر، ودسَّ هذا في دين النَّصارى؛ ليضلَّهم بذلك، انظر الآية رقم [٣٠] من سورة التَّوبة؛ تجدْ ما يسرُّك، ويثلجُ صدرك.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد بأهل الكتاب: اليهود، والنصارى جميعاً، فإنَّهم غلوا في أمر عيسى، على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام. فأمَّا اليهود؛ فإنَّهم بالغوا في التقصير في حرمته؛ حتَّى حطُّوه عن منزلته؛ حيث جعلوه مولوداً من الزنى. وغلت النَّصارى في رفعه عن منزلته، ومكانته؛ حيث جعلوه ممَّا وصفته، فقال الله تعالى ردّاً عليهم جميعاً: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾.

وأصل «الغلو» مجاوزة الحد، وهو في الدِّين حرام. والمعنى: لا تفرِّطوا في أمر عيسى، ولا تحطُّوه عن منزلته، ولا ترفعوه فوق قدره، ومنزلته، فالإفراط، والتقصير كلُّه سيئة، وكفر، ولذلك قال مطرف بن عبد الله ـ رحمه الله تعالى ـ: الحسنة بين سيئتين، وقال الشاعر: [الطويل]

وَأَوْفِ وَلَا تَسْتَوفِ حَقَّكَ كُلَّهُ ... وَصَافِحْ فَلَمْ يَسْتَوفِ قَطُّ كَرِيمُ
وَلَا تَغْلُ فِي شيءٍ مِنَ الأَمْرِ وَاقْتَصِدْ ... كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الأُمُورِ ذَمِيمُ

وقال آخر: [الطويل]

عَلَيْكَ بِأَوْسَاطِ الأُمُورِ فَإِنَّهَا ... نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولاً وَلَا صَعْبَا

وقال الرسول ﷺ: «**لَا تُطْروني كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى عِيْسَى، وَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ، ورَسُولُهُ**». أخرجه البخاريُّ عن عمر ـ رضي الله عنه ـ. وانظر الآية رقم [٧٧] من سورة (المائدة) فإنَّه جيد، والحمد لله!.

﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ أي: لا تقولوا: إن لله شريكاً، أو ابناً. ولمَّا منعهم اللهُ من الغلوِّ في دينهم؛ أرشدهم إلى طريق الحق في أمر عيسى، عليه السلام، فقال جلَّ ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ المعنى: إنَّ المسيح هو عيسى ابن مريم، ليس له نسب غير هذا، وهو رسول الله، فمن زعم غير هذا؛ فقد كفر، وأشرك. ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ هي قوله تعالى: ﴿كُن﴾، فكان بشراً من غير أبٍ، ولا واسطةٍ. ﴿أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ﴾ أي: أوصلها إلى مريم. ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ أي: كسائر الأرواح التي خلقها الله تعالى، وإنَّما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف، والتكريم، كما يقال: بيت الله، وناقة الله، وهذه نعمة من الله. وقيل: الرُّوح هو الذي نفخ فيه جبريل عليه السَّلام في جيب درع مريم، فحملت منه بإذن الله، وكان ذلك النفخ بمنزلة اللِّقاح بين الذَّكر، والأنثى. وانظر ما ذكرته عن الواقدي في الآية رقم [٤٥] من سورة (آل عمران) فإنَّه جيد، والحمد لله! وفيها شرح ﴿ٱلۡمَسِيحُ﴾ أيضاً.

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ أي: فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله، وأنَّه لا ولد له، وصدقوا رسله فيما جاؤوكم به من عند الله، وصدِّقوا بأنَّ عيسى مِنْ رسل الله، فآمنوا به، ولا تجعلوه إلٰهاً. ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ﴾ أي: ولا تقولوا: إنَّ الآلهة ثلاثة. وذلك: أنَّ النصارى يقولون: أب،

وابن، وروح القدس. وهو ما قدَّمته آنفاً، وهو محض الكفر. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [٧٣] من سورة (المائدة).

﴿ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ أي: يكن الانتهاء عن القول بالتثليث خيراً لكم. ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله. ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: تنزيهاً عن أن يكون له ولد؛ لأنَّ الولد جزء من الأب، وتنزه الله عن التجزئة، وعن صفات الحدوث، ولأنَّ الولد يشبه الأب، ولا شبيه لله، عزَّ وجل. ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾: وما فيهما خلقاً، وعبيداً، وملكاً، وعيسى، وأمُّه من جملة ما فيهما، فهما ملكه، وعبيده، فإذا كانا عبدين له، فكيف يعقل مع هذا أن يكون له زوجة، وولد، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾: انظر الآية رقم [٨١]، وانظر شرح (سبحان) في الآية رقم [١٩١] من سورة (آل عمران).

الإعراب: (يا): أداة نداء تنوب مناب: أدعو. (أهل): منادى، وهو مضاف، و﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾: مضاف إليه. ﴿لَا﴾: ناهية. ﴿تَغْلُواْ﴾: فعل مضارع مجزوم بـ(لا) الناهية، وعلامة جزمه حذف النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية كالجملة الندائية قبلها. ﴿فِى دِينِكُمْ﴾: متعلِّقان بالفعل قبلهما، والكاف في محل جر بالإضافة، وجملة: ﴿وَلَا تَقُولُواْ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها، وإعرابها مثلها. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿إِلَّا﴾: حرف حصر. ﴿ٱلْحَقَّ﴾: مفعول به.

﴿إِنَّمَا﴾: كافة، ومكفوفة. ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: مبتدأ. ﴿عِيسَى﴾: بدل من﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ أو: عطف بيان عليه ﴿ٱبْنُ﴾: صفة عيسى، وهو مضاف، و﴿مَرْيَمَ﴾: مضاف إليه مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة؛ لأنَّه ممنوع من الصرف للعلمية والتأنيث المعنوي، هذا وأجيز اعتبار: ﴿عِيسَى﴾ مبتدأ، و(ابن) خبره، والجملة الاسمية في محل رفع خبر: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾. ﴿رَسُولُ﴾: خبر أوّل، أو: خبر ثان، وهو مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَكَلِمَتُهُۥ﴾: معطوف على: ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ والهاء في محل جرٍّ بالإضافة. ﴿أَلْقَىٰهَآ﴾: فعل ماض مبني على فتح مقدَّر على الألف للتعذر، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهِ﴾، والهاء: مفعول به، والجملة الفعلية في محل نصب حال مِنْ: (كلمته) والرابط الضمير فقط، و«قد» قبلها مقدَّرة. ﴿إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَرُوحٌ﴾ معطوف على ﴿رَسُولُ ٱللَّهِ﴾. وقيل: معطوف على فاعل: ﴿أَلْقَىٰهَآ﴾ المستتر. ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ(روح) أو بمحذوف صفة له، والجملة الاسمية: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ...﴾ إلخ مفيدة للتعليل.

﴿فَـَٔامِنُواْ﴾ انظر إعراب مثله في الآية السابقة. ﴿بِٱللَّهِ﴾: متعلقان بما قبلهما. ﴿وَرُسُلِهِۦ﴾: معطوف على ما قبله، والهاء في محل جر بالإضافة، وجملة: (آمنوا...) إلخ لا محلَّ لها؛ لأنَّها جوابٌ لشرطٍ غير جازم، التقدير: وإذا كان ما ذُكر حاصلاً، وواقعاً، فآمنوا بالله ورسله. ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾: إعرابه مثل إعراب سابقه. ﴿ثَلَٰثَةٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: الآلهةُ ثلاثةٌ.

وقال أبو علي الفارسي: التقدير: هو ثالثُ ثلاثةٍ فحذف المبتدأ، والمضاف، وعلى الاعتبارين فالجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، وجملة: ﴿وَلَا تَقُولُواْ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، لا محلَّ لها مثلها. ﴿انتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾: إعراب هذه الجملة مثل إعراب: ﴿فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ﴾ في الآية السابقة، والجملة الفعلية هنا مبتدأة، أو مستأنفة لا محلَّ لها.

﴿إِنَّمَا﴾: كافة ومكفوفة. ﴿اللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿إِلَهٌ﴾: خبره. ﴿وَاحِدٌ﴾: صفته، والجملة الاسمية مفيدة للتعليل، لا محلَّ لها. ﴿سُبْحَانَهُ﴾: مفعول مطلق لفعل محذوف، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر، أو اسم المصدر لفاعله، أو لمفعوله، والجملة الناتجة منه ومن فعله المحذوف مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ﴿أَن﴾. ﴿لَهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر ﴿يَكُونَ﴾ مقدم. ﴿وَلَدٌ﴾: اسمه مؤخر، والمصدر المؤول من: ﴿أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ في محل جر بحرف جر محذوف، التقدير: من كونه له ولد، والجار والمجرور متعلقان بـ ﴿سُبْحَانَهُ﴾.

﴿لَهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مَا﴾: اسم موصول مبني على السكون في محل رفع مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية تعليلية، لا محلَّ لها. ﴿فِي السَّمَاوَاتِ﴾: متعلقان بمحذوف صلة الموصول. ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾: معطوف على ما قبله وإعرابه مثله. ﴿وَكَفَى﴾: الواو: حرف استئناف. (كفى): فعل ماض مبني على فتح مقدر على الألف للتعذُّر. ﴿بِاللَّهِ﴾: (الباء): حرف جر صلة. (اللهِ): فاعله مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره، منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد. ﴿وَكِيلًا﴾: تمييز، والجملة الفعلية مستأنفة؛ لا محلَّ لها.

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا (١٧٢)﴾

الشرح: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ﴾ أي: لن يتكبَّر، ويترفَّع عيسى ـ على نبينا، وحبيبنا، وعليه ألف صلاة، وألف سلام ـ أن يكون عبداً لله، وكيف لا يستنكف، وأول كلمة نطق بها، وهو في المهد: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ...﴾ إلخ سورة (مريم). ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي: فإنَّهم لا يأنفون، ولا يترفَّعون أن يكونوا عبيداً لله، مع كونهم لا أبَ لهم، ولا أمَّ؛ أي: فإنَّه أجدرُ ألا يستنكف أن يكون عبداً لله. ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ...﴾ إلخ: فيه وعيدٌ، وتهديدٌ للْمستكبرين عن عبادة الله، مع العلم: أنَّ الحشر، والحساب يكونان للمطيعين، والمتكبِّرين على السَّواء، فيجازي كلاًّ بما يستحقُّ من الثَّواب، أو العقاب، وهو ما تفيده الآية التالية. ولا تنس: أنَّ الاستكبار دون الاستنكاف.

تنبيه: رُوي: أنَّ وفد نجران الَّذين مرَّ ذكرهم في الآية رقم [٥٩] من سورة (آل عمران) وما بعدها قالوا للنبي ﷺ: يا محمد! إنَّك تعيب صاحبنا، فتقول: إنَّه عبد الله، فقال ﷺ: «**إنَّه ليس بعارٍ على عيسى أن يكون عبداً للهِ**». فنزلت الآية الكريمة.

تنبيه: لقد استدلَّ بالآية الكريمة مَنْ يقول بتفضيل الملائكة على البشر، وجه الدَّليل: أنَّ الله ارتقى مِنْ ذكر عيسى عليه السَّلام إلى ذكر الملائكة الكرام، ولا يُرتقى إلا من الأدنى إلى الأعلى. والجواب عنه: أنَّ الله تعالى لم يقل ذلك رفعاً لمقامهم على مقام البشر، بل قاله ردّاً على مَنْ يقول: إنَّ الملائكة بناتُ الله، أو: أنَّهم آلهةٌ، كما ردَّ على النَّصارى قولهم: إنَّ المسيح ابن الله. وصفوة القول عند أهل السنة، والجماعة: أنَّ خواص البشر، وهم الأنبياء ـ عليهم الصَّلاة والسَّلام ـ أفضل من خواصِّ الملائكة، وهم العشرة المقرَّبون: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وعزرائيل، ورقيب، وعتيد، ومنكر، ونكير، ورضوان، ومالك. وخواصُّ الملائكة أفضل من عوامِّ البشر، أي: المؤمنين منهم. وعوامُّ المؤمنين من البشر أفضل من عوامِّ الملائكة.

والدليل على تفضيل البشر على الملائكة ابتداءً؛ أنَّهم قهروا نوازع الهوى في ذات الله تعالى، مع أنَّهم جُبِلوا عليها، فضاهت الأنبياء عليهم السَّلام الملائكة في العصمة، وتفضَّلوا عليهم في قهر البواعث النفسانية، والدَّواعي الجسدية، فكانت طاعتُهم أشقَّ؛ لكونها مع الصوارف بخلاف طاعة الملائكة؛ لأنَّهم جُبِلوا عليها، فكانت أزيدَ ثواباً بالحديث. انتهى خازن، ونسفي بتصرف.

الإعراب: ﴿لَّن﴾: حرف نفي، ونصب، واستقبال. ﴿يَسْتَنكِفَ﴾: فعل مضارع منصوب بـ ﴿لَّن﴾. ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾: فاعله، والجملة الفعلية مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب، واستقبال. ﴿يَكُونَ﴾: فعل مضارع ناقص منصوب بـ ﴿أَن﴾ واسمه ضمير مستتر يعود إلى: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾. ﴿عَبْدًا﴾: خبره، والمصدر المؤول منه، ومن ناصبه في محل جرٍّ بحرف جرٍّ محذوف، التقدير: مِنْ كونه عبداً، والجار والمجرور متعلقان بالفعل قبلهما. ﴿لِّلَّهِ﴾: متعلقان بمحذوف صفة: ﴿عَبْدًا﴾. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: معطوف على: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾. ﴿ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾: صفة: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مرفوع مثله، وعلامة رفعه الواو نيابة عن الضمة؛ لأنَّه جمع مذكر سالم، والنُّون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد.

هذا؛ ولم يسوغ الجمل تبعاً للجلال العطف على: ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ وقال الجمل: إذ لا يصح الإخبار عن الملائكة بـ ﴿عَبْدًا﴾؛ لأنَّه مفرد، واعتبراه مبتدأ، وخبره محذوفاً، التقدير: ولا الملائكة المقرَّبون عند الله يستنكفون أن يكونوا عبيداً لله، فتكون الجملة الفعلية هذه في محل رفع خبر: ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتكون الجملة الاسمية معطوفة على الجملة الفعلية، لا محلَّ لها.

﴿وَمَن﴾: الواو: حرف استئناف. (مَنْ): اسم شرط جازم مبني على السكون في محل رفع مبتدأ. ﴿يَسْتَنكِفْ﴾: فعل مضارع فعل الشرط، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة. ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾: معطوف على فعل الشرط مجزوم مثله، والفاعل يعود إلى (مَنْ). ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط، والسين: حرف استقبال وتسويف، وهي هنا للتَّحقيق. (يحشرهم): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (مَنْ) والهاء مفعول به، والجملة الفعلية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور. وخبر المبتدأ الذي هو (مَنْ) مختلف فيه. فقيل: جملة الشرط. وقيل: هو جملة الجواب. وقيل: الجملتان وهو المرجَّح عند المعاصرين. هذا؛ وإن اعتبرت الجواب محذوفاً، التقدير: فهو يجازيه. فتكون الجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿جَمِيعًا﴾: حال من الضَّمير المنصوب.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي: الأعمال الصَّالحات على اختلاف مراتبها، ودرجاتها، من فعل مأمورات، وترك منهيَّات، وعَطْفُ: (عمِلُوا) على: ﴿ءَامَنُواْ﴾ يشير إلى أنَّ الإيمان وحده لا يكفي للنَّجاة من النار. وأنت إذا تأمَّلت في آيات القرآن؛ قلَّما تجد ذكر الإيمان، إلا ويُعطف عليه الأعمال الصالحات، ويؤيِّد ذلك ما ورد من قول الرَّسول الأعظم ﷺ: **«الإِيْمَانُ وَالْعَمَلُ قَرِيْنَانِ، لَايَقْبَلُ اللهُ أَحَدَهُمَا بِدُونِ صَاحِبِه»**.

﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾: يعطيهم ثواب أعمالهم الصالحة كاملاً غير منقوص. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يمنحهم من فضله ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وقيل: المراد بالزيادة: الشَّفاعة فيمن وجبت له النار مِمَّن صنع إليهم المعروف في دنياهم. والأولى: أنَّ الزيادة المراد بها: النظر إلى وجهه الكريم، قال تعالى في سورة (يونس) على نبينا وحبيبنا وعليه ألف صلاة وألف سلام: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾. وقال عزَّ وجل في سورة (ق): ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ...﴾ إلخ: هذا مقابل لـ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ لأنَّه قد جرت سنة الله في كتابه أن لا يذكر العمل الصَّالح إلا ويذكر العمل السيئ، ولا يذكر الإيمان إلا ويذكر الكفر، والضَّلال، ولا يذكر الجنة إلا ويذكر النار؛ ليكون العبد راغباً في الخير، خائفاً من الشر. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾: يلي أمورهم، ويدبِّر مصالحهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾: ينصرهم مِنَ الله تعالى، وينجِّيهم من عذابه.

تنبيه: التفضيل في هذه الآية غير مطابق للمفضَّل في الآية السابقة؛ لأنَّ التفضيل اشتمل على الفريقين كما رأيت، والمفضَّل على فريق واحد. وجوابه: أنَّه حذف أحد الفريقين في المفضَّل لدلالة التفضيل عليه، ولأنَّ ذكر أحدهما يدلُّ على ذكر الثاني، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله تعالى بعد هذا: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾. ويجاب أيضاً بأن الإحسان إلى غيرهم بما يفهم، فكان داخلاً في جملة التنكيل بهم، فكأنَّه قيل: ﴿وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ﴾ فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين، وبما يصيبه من عذاب الله تعالى. انتهى. نسفي بتصرف كبير.

الإعراب: ﴿فَأَمَّا﴾: الفاء: حرف تفريع عما سبق. (أمَّا): أداة شرط، وتوكيد، وتفصيل.

أمَّا كونها أداة شرط؛ لأنَّها قائمة مقام أداة الشرط، وفعله بدل لزوم الفاء بعدها؛ إذ الأصل: مهما يك من شيءٍ؛ فالذين آمنوا... إلخ، فأنيبت (أمَّا) مناب: «مهما يك من شيء» فصار: (أما الذين آمنوا).

وأمَّا كونها أداة تفصيل؛ فلأنَّها في الغالب تكون مسبوقة بكلامٍ مجمل، وهي تفصله. ويعلم ذلك من تتبَّع مواقعها.

وأمَّا كونها أداة توكيد؛ فلأنَّها تحقِّق الجواب، وتفيد: أنَّه واقعٌ لا محالة؛ لأنّها علَّقته على أمر متعين. ﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ، وجملة: ﴿ءَامَنُواْ﴾ مع المتعلق المحذوف صلة الموصول، لا محلَّ لها. ﴿وَعَمِلُواْ﴾: فعل ماض مبني على الضم لاتصاله بواو الجماعة؛ التي هي فاعله، والألف للتفريق، والجملة معطوفة على ما قبلها، لا محل لها مثلها. ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: مفعول به منصوب، وعلامة نصبه الكسرة نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه جمع مؤنث سالم، وهو صفة لموصوف محذوف، التقدير: الأعمال الصالحات. ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب (أمَّا). (يوفيهم): فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (الله) المفهوم من المقام، والهاء مفعول به أوَّل. ﴿أُجُورَهُمْ﴾ مفعول به ثان، والهاء في محل جر بالإضافة، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ الَّذي هو﴿ٱلَّذِينَ﴾: هذا، وأجيز اعتبار الجملة الفعلية خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو يوفيهم، وعليه فالجملة الاسمية في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو يوفيهم، وعليه فالجملة الاسمية في محل رفع خبر المبتدأ الذي هو: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ والجملة الاسمية مفرعة عمَّا قبلها، ومستأنفة لا محلَّ لها، وجملة: ﴿وَيَزِيدُهُم﴾ مع المفعول الثاني معطوفة على ما قبلها فهي في محل رفع مثلها. ﴿مِّن فَضْلِهِۦ﴾: متعلقان بما قبلهما، والهاء في محل جر بالإضافة، من إضافة المصدر لفاعله. ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ﴾: إعراب هذا الكلام مثل إعراب سابقه بلا فارق. ﴿عَذَابًا﴾: مفعول مطلق. ﴿أَلِيمًا﴾: صفة له. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف.

(لا): نافية. ﴿يَجِدُونَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله. ﴿لَهُم﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الأول، وتعليقهما بـ ﴿وَلِيًّا﴾ أو بـ ﴿نَصِيرًا﴾ فلا بأس به، وذلك على التنازع. وقيل: متعلقان بمحذوف حال من أحدهما، كان صفة له، فلما قُدِّم عليه؛ صار حالاً. على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدَّم عليها؛ صار حالاً». ﴿مِّن دُونِ﴾: متعلقان بما تعلق به قبلهما، و﴿دُونِ﴾: مضاف، و﴿ٱللَّهِ﴾: مضاف إليه. ﴿وَلِيًّا﴾: مفعول به. ﴿وَلَا﴾: الواو: حرف عطف. (لا): زائدة لتأكيد النفي. ﴿نَصِيرًا﴾: معطوف على ما قبله، وجملة: ﴿وَلَا يَجِدُونَ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾

الشرح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ...﴾ إلخ: لمَّا قرَّر الله عبودية عيسى، على نبينا، وعليه ألف صلاة وألف سلام، وقرَّر وعيد مَنِ اعتقد فيه غير ذلك من بنوَّةٍ، أو ألوهية؛ خاطب النَّاس عامَّة، وبيَّن لهم الطَّريق السَّوي الذي مَنْ سلكه نجا في الدنيا، والآخرة. ﴿بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني: محمداً ﷺ. قاله الثَّوري، وسمَّاه برهاناً؛ لأنَّ معه البرهان، وهو المعجزات الباهرات، وقال مجاهد هاهنا: الحجَّة، والمعنى متقارب، فإنَّ المعجزات حجَّته ﷺ. والنُّور المنزل هو القرآن الكريم، وسمَّاه الله نوراً لأنَّ به تتبين الأحكام، ويُهتدى به من الضَّلالة. وفحوى الكلام: قد جاءكم دلائل العقل، وشواهد النقل، ولم يبقَ لكم عذرٌ، ولا حجَّة تدفعون بها عقاب الله السرمديَّ.

الإعراب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾ انظر الآية رقم [١٣٣ و١٧٠] ﴿مِّن رَّبِّكُمْ﴾: متعلقان بالفعل قبلهما، أو هما متعلقان بمحذوف صفة: ﴿بُرْهَٰنٌ﴾ والكاف في محل جر بالإضافة من إضافة اسم الفاعل لمفعوله، وفاعله مستتر فيه. ﴿وَأَنزَلْنَآ﴾: فعل، وفاعل، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل نصب حال مثلها، و«قد» قبلها مقدرة. ﴿إِلَيْكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿نُورًا﴾: مفعول به. ﴿مُّبِينًا﴾: صفة له.

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾

الشرح: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾: صدَّقوا بوحدانيته، ونزَّهوه عمَّا لا يليق به من ولد، وصاحبة، وشريك في الذَّات، أو في الصِّفات، أو في الأفعال. ﴿وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ﴾: وثقوا به، وتمسَّكوا بدينه، وتوكَّلوا عليه. ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ﴾: في ثواب قدَّره بإزاء عمله، وإيمانه رحمةً منه تعالى، لا قضاء لحق واجب عليه. ﴿وَفَضْلٍ﴾: إحسان زائد على الأجر، والثَّواب،

ولعلَّه النظر إلى وجهه الكريم في الجنَّة لأحاديث شريفة وردت في ذلك. ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾. انظر الآية رقم [٦٨] ففيها الكفاية، والمعنى هنا: يدلُّهم إلى ما يوصلهم إلى ذلك الخير الموعود بسبب التثبيت على الإيمان، والطاعة.

تنبيه: قد ذكر الله في هذه الآية أصحاب الإيمان، وثوابهم، ولم يذكر الكفر، وأهله إشارةً إلى إهمالهم؛ لأنَّهم في حيز الطَّرح. وانظر ما ذكرته في الآية رقم [١٧٣].

الإعراب: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُواْ بِهِۦ﴾: انظر الآية رقم [١٧٣] ففيها الكفاية. ﴿فَسَيُدْخِلُهُمْ﴾: الفاء: واقعة في جواب (أمَّا) والسين: حرف استقبال، وتسويف، وهي هنا للتحقيق. (يدخلهم): فعل مضارع، والفاعل يعود إلى (الله) والهاء مفعول به أول. ﴿فِى رَحْمَةٍ﴾: متعلِّقان بما قبلهما، وهما في محل نصب مفعوله الثاني، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ ﴿ٱلَّذِينَ﴾.

هذا؛ وأجيز اعتبار الجملة خبراً لمبتدأ محذوف، التقدير: فهو سيدخلهم... إلخ، وعليه؛ فالجملة الاسمية في محل رفع خبر: ﴿ٱلَّذِينَ﴾، والجملة الاسمية: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ...﴾ إلخ مفرعة عمَّا قبلها، لا محلَّ لها. ﴿مِّنْهُ﴾: جار ومجرور متعلقان بـ﴿رَحْمَةٍ﴾ أو بمحذوف صفة له. ﴿وَفَضْلٍ﴾: معطوف على: ﴿رَحْمَةٍ﴾.

﴿وَيَهْدِيهِمْ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدَّرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى (الله) والهاء مفعول به أول. ﴿إِلَيْهِ﴾: جار ومجرور متعلقان بالفعل قبلهما. وقيل: متعلقان بمحذوف حال مِنْ: ﴿صِرَٰطًا﴾ كان صفة له، فلما قُدِّم عليه صار حالاً على القاعدة: «نعت النكرة إذا تقدَّم عليها. صار حالاً». ﴿صِرَٰطًا﴾: مفعول به ثان. وقيل: مفعول به لفعل محذوف، التقدير: ويعرِّفهم صراطاً. وقيل: هو حال. وقيل: منصوب بنزع الخافض، والجملة الفعلية معطوفة على ما قبلها، فهي في محل رفع مثلها. وقيل: الجملة في محل رفع خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: وهو يهديهم، وعليه فالجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿١٧٦﴾﴾

الشرح: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ﴾: يطلبون منك الفتوى في ميراث الكلالة، فحذف المتعلق لذكره في الجواب. ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾: يبيِّن لكم حكم الكلالة. والإفتاء: تبيين المبهم من

الأمور. والكلالة: هو الذي لا ولد له، ولا والد، رجلاً كان أو امرأة. وتفسيرها بهذا هو المعتمد. وقيل: الكلالة: الورثة. وقيل: المال الموروث، واشتقاقها من الكلال، وهو ذهاب القوَّة مِنَ الإعياء، فكأنَّ الميراث يصير للوارث بعد إعياءٍ، وذلك لعدم أصولٍ، وفروعٍ للميِّت، وخذ قول الأعشى: [الطويل]

إِلَـيْـكَ أَبَـيْـتَ الـلَّـعْـنَ كَـانَ كَـلَالُـهَـا إِلَـى الْـمَـاجِـدِ الْـقَـرْمِ الْـجَـوَادِ الْـمُـحَـمَّـدِ

وقوله أيضاً في قصيدته التي مدح بها النَّبيَّ ﷺ: [الطويل]

فَـآلَـيْـتُ لَا أَرْثِـي لَـهَـا مِـنْ كَـلَالَـةٍ وَلَا مِـنْ وَجًـى حَـتّـى تُـلَاقِـي مُـحَـمَّـدا

﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾: مات، قال تعالى في آخر سورة (القصص): ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ أي: كل شيءٍ يفنى، ولا يبقى إلا الله، عزَّ وجل. هذا؛ وأصل «امرئ» المرء، ولمَّا كثر استعمالهم لها حتَّى أصبحت تستعمل للدَّلالة على الإنسان، وعلى الحيوان مجازاً، وكان الهمز في آخرها ثقيلاً بعد السكون خفَّفوها بحذف الهمزة، وإلقاء حركتها على الرَّاء، فقالوا: المرُ، وبذلك أشبهت الرَّاء منها مِنْ: (ابن) في تلقي حركات الإعراب، ولإعلالهم هذه الكلمة كثيراً بحذف الهمز، شبَّهوها بما حذف آخره، نحو: (اسْم، ابْن، اسْت) فجبروه بهمزة وصل في حالة التنكير، ثم ردُّوا إليها الهمزة، فقالوا: امرؤٌ، وبذلك أصبحت تُعرب مِنْ مكانين، فتظهر حركات الإعراب فيها على الرَّاء والهمزة، فتقول: هذا امرؤٌ، ورأيت امرأً، ومررت بامرئٍ، قال تعالى: ﴿إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ﴾، ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾، ﴿كُلُّ ٱمْرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾.

ومثل «امرئ» كلمة: (ابن) إذا زيدت في آخرها (ما) فإنَّ حركة الإعراب تظهر على النون والميم، فتقول: حضراً ابْنُمٌ، ورأيت ابْنَماً، ومررت بِابْنِمٍ. ولا ثالث لهما في اللغة العربية، فاحفظه؛ فإنَّه جيد، والحمد لله.

﴿لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ أي: ابن، بخلافه في الآية رقم [١٢] فإنَّه يطلق على الابن، والبنت، وليس له والد أيضاً، وإنَّما فسر الولد بالابن الذَّكر هنا؛ لأنَّه يُسقط الأخت، ولا تسقطها البنت، بل ترث معها؛ لأنَّها تصير معها عصبةً، كما هو مقرَّر في المواريث.

﴿وَلَهُۥٓ أُخْتٌ﴾ أي: لأب، أو لأبوين معاً، أما الأخت، والإخوة لأم فإنَّهم من الأرحام، وقد تقرَّر حكمهم في الآية رقم [١٢]. ﴿فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾: يرث كلَّ مالها عند عدم وجود الابن لها، وما يبقى بعد فرض البنت إن وجدت لها، وكذا بعد فرض الزَّوج إن وجد، وانظر شرح: ﴿إِن لَّمْ﴾ في الآية رقم [٩١].

﴿فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي: فإن كانت الأختان اثنتين، أو أكثر. ﴿فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾: وإنَّما ثنَّى الضَّمير، ولم يتقدَّم إلا ذكر واحدةٍ؛ لأنَّه محمول على المعنى؛ لأنَّ تقديره عند الأخفش:

فإن كان مَنْ ترك اثنتين، ثم ثنَّى الضمير على معنى (مَنْ) وانظر شرح (اثنتين) في الآية رقم [١١] فإنَّه جيد، والحمد لله!.

﴿وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ﴾: لأبٍ، أو لأبوين. ﴿فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ﴾ انظر الآية رقم [١١]. ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ﴾: أي يبيِّن الله لكم أحكام دينه من مواريث وغيرها؛ لأن لا تضلوا؛ أي: تحيدوا، وتخرجوا عن جادة الحقِّ، والصَّواب. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ﴾ أي: خبير بمصالح العباد في الحياة، والممات. فهو صيغة مبالغة.

تنبيه: عن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنهما ـ قال: مرضت، فأتاني رسولُ الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشِيَيْن، فأغميَ عليَّ، فتوضَّأ النبيُّ ﷺ، ثمَّ صبَّ عليَّ مِنْ وَضوئه، فأفَقْتُ، فقلت: يا رسول الله! كيف أصنع في مالي؟ وفي بعضها قال الرَّسول ﷺ: «**يَا جَابِرُ لَا أَرَاكَ مَيِّتاً مِنْ وَجَعِكَ هَذَا**». وقد عاش جابر ـ رضي الله عنه ـ بعد مرضه هذا طويلاً، ويقال: إنَّه آخر مَنْ مات من الصَّحابة في المدينة المنورة. ويروى: أنَّه توفي ـ رضي الله عنه ـ عن أخواتٍ.

تنبيه: اشتملت السُّورة الكريمة على ثلاث آيات في المواريث: الأولى برقم [١١] وقد تضمَّنت بيان إرث الأصول، والفروع، والثانية برقم [١٢] وقد تضمَّنت بيان إرث الزَّوجين، والإخوة، والأخوات لأم، والثَّالثة، وهي الخاتمة لهذه السُّورة الكريمة، وقد تضمَّنت بيان إرث الإخوة والأخوات الأشقَّاء، أو من الأب فقط، وأمَّا أولو الأرحام فمذكورون في آخر سورة (الأنفال). والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

الإعراب: ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ثبوت النون؛ لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والكاف مفعوله، والمتعلَّق محذوف، انظر الشرح، والجملة الفعلية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿قُلِ﴾: فعل أمر، وفاعله مستتر فيه تقديره: أنت. ﴿ٱللَّهُ﴾: مبتدأ. ﴿يُفۡتِيكُمۡ﴾: فعل مضارع مرفوع، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على الياء للثقل، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱللَّهُ﴾ والكاف مفعول به. ﴿فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ﴾: متعلقان بما قبلهما، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب مقول القول، والجملة الفعلية: ﴿قُلِ ٱللَّهُ...﴾ إلخ: مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿إِنِ﴾: حرف شرط جازم. ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾: فاعل لفعل محذوف يفسّره المذكور بعده، وهذا مذهب سيبويه، والبصريِّين، وقال الكوفيون: هو مبتدأ خبره الجملة الفعلية بعده، والمعتمد الأول. ﴿هَلَكَ﴾: فعل ماض، والفاعل يعود إلى: ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾ والجملة الفعلية مفسِّرة، لا محلَّ لها. ﴿لَيۡسَ﴾: فعل ماض ناقص. ﴿لَهُۥ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر: ﴿لَيۡسَ﴾ تقدَّم على اسمه. ﴿وَلَدٞ﴾: اسم ليس مؤخر، والجملة الفعلية في محل رفع صفة: ﴿ٱمۡرُؤٌاْ﴾، وجوز اعتبارها حالاً من فاعل: ﴿هَلَكَ﴾ المستتر، والرابط الضمير فقط. ﴿لَهُۥٓ﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر

مقدم. ﴿أُخْتٌ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية معطوفة على ما قبلها على الاعتبارين فيها. ﴿فَلَهَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لها): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿نِصْفُ﴾: مبتدأ مؤخر، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط عند الجمهور، والدسوقي يقول: لا محلَّ لها؛ لأنَّها لم تحلَّ محل المفرد، و﴿نِصْفُ﴾ مضاف. و﴿مَا﴾ مبنية على السكون في محل جر بالإضافة، وهي تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية. ﴿تَرَكَ﴾: فعل ماض: والفاعل يعود إلى: ﴿امْرُؤٌا﴾ والجملة الفعلية صلة: ﴿مَا﴾ أو صفتها، والعائد أو الرابط محذوف، التقدير: لها نصف الذي، أو شيء تركه، وعلى اعتبارها مصدرية تؤوَّل مع الفعل بمصدر في محل جر بالإضافة، التقدير: لها نصف تركته، والجملة الشرطية: ﴿إِنِ امْرُؤٌا...﴾ إلخ مفسرة للكلالة. وقيل: مستأنفة لا محلَّ لها، والأوَّل أقوى، وأولى.

﴿وَهُوَ﴾: الواو: واو الحال. (هو): ضمير منفصل مبني على الفتح في محل رفع مبتدأ ﴿يَرِثُهَا﴾: فعل مضارع، والفاعل ضمير مستتر تقديره: هو، و(ها): مفعول به، والجملة الفعلية في محل رفع خبر المبتدأ، والجملة الاسمية في محل نصب حال من: ﴿أُخْتٌ﴾ أو من فاعل: ﴿تَرَكَ﴾ المستتر، والرابط على الاعتبارين: الواو، والضمير. وقيل: مستأنفة. والأول أقوى، وأولى. ﴿إِن﴾: حرف شرط جازم. ﴿لَّمْ﴾: حرف نفي، وقلب، وجزم. ﴿يَكُن﴾: فعل مضارع ناقص مجزوم بـ﴿لَّمْ﴾ وهو فعل الشرط. ﴿لَّهَا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبره مقدَّم. ﴿وَلَدٌ﴾: اسمه مؤخر، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية. ويقال: لأنَّها جملة شرط غير ظرفي. والجملة المقدرة: «هلك امرؤ» مثلها، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه، التقدير: «فهو يرثها»، والجملة الشرطية مستأنفةٌ لا محلَّ لها.

﴿فَإِن﴾: الفاء: حرف استئناف. (إن): حرف شرط جازم. ﴿كَانَتَا﴾: فعل ماض ناقص مبني على الفتح في محلِّ جزم فعل الشرط، والتاء للتأنيث، وحرِّكت بالفتح لالتقائها ساكنةً مع ألف الاثنين الَّتي هي اسمه. ﴿اثْنَتَيْنِ﴾: خبره منصوب، وعلامة نصبه الياء نيابة عن الفتحة؛ لأنَّه مثنى، والنون عوض عن التنوين في الاسم المفرد، ، والجملة الفعلية لا محلَّ لها؛ لأنَّها ابتدائية، ويقال... إلخ. ﴿فَلَهُمَا﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (لهما): جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم، والميم والألف حرفان دالان على التثنية. ﴿الثُّلُثَانِ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع، وعلامة رفعه الألف نيابة عن الضمة؛ لأنَّه مثنىً، والنون عوضٌ عن التنوين في الاسم المفرد، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط... إلخ، والجملة الشرطية مستأنفةٌ لا محلَّ لها. ﴿مِمَّا﴾: جار ومجرور متعلقان بمحذوف حال من: ﴿الثُّلُثَانِ﴾، و(ما) تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدرية مثل سابقتها، وجملة: ﴿تَرَكَ﴾ صلة (ما)، أو صفتها، والعائد، أو الرابط محذوف... إلخ. ﴿وَإِن﴾: الواو: حرف عطف. (إن): حرف شرط جازم.

﴿كَانُوٓاْ﴾: فعل ماض ناقص مبني على الضم في محل جزم فعل الشرط، والواو اسمه، والألف للتفريق. ﴿إِخْوَةً﴾: خبر: ﴿كَانُوٓاْ﴾. ﴿رِّجَالًا﴾: بدل بعض من: ﴿إِخْوَةً﴾. ﴿وَنِسَآءً﴾: معطوف عليه. ﴿فَلِلذَّكَرِ﴾: الفاء: واقعة في جواب الشرط. (للذكر): متعلقان بمحذوف خبر مقدَّم. ﴿مِثْلُ﴾: مبتدأ مؤخر، وهو مضاف، و﴿حَظِّ﴾: مضاف إليه، و﴿حَظِّ﴾ مضاف، و﴿ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾: مضاف إليه مجرور. . .إلخ، والجملة الاسمية في محل جزم جواب الشرط، والجملة الشرطية: ﴿وَإِن كَانُوٓاْ...﴾ إلخ معطوفة على ما قبلهما.

﴿يُبَيِّنُ﴾: فعل مضارع. ﴿ٱللَّهُ﴾: فاعله. ﴿لَكُمْ﴾: جار ومجرور متعلقان بما قبلهما. ﴿أَن﴾: حرف مصدري، ونصب. ﴿تَضِلُّواْ﴾: فعل مضارع منصوب بـ(أَنْ) وعلامة نصبه حذف النون لأنَّه من الأفعال الخمسة، والواو فاعله، والألف للتفريق، والمصدر المؤوَّل من الفعل وناصبه فيه ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنَّه مفعول به للفعل قبله، التقدير: يبين الله لكم ضلالكم؛ أي: إذا تُرِكْتُم وشأنكم. **والثاني**: أنَّ المصدر المؤوَّل في محل جر بإضافة مفعول لأجله محذوف، التقدير: مخافة، أو كراهة ضلالكم. وهذا عند البصريِّين. **والثالث**: أنَّ التقدير: لئلا تضلُّوا، فحذفت اللام الجارة، و(لا) النافية من هذا عند الكوفيين، ويكون التقدير: يبين الله لكم الحقَّ لعدم ضلالكم، أو مخافة ضلالكم، فيكون مفعول: ﴿يُبَيِّنُ﴾ على هذين الوجهين محذوفاً. وقد بيَّن ابن هشام ـ رحمه الله ـ هذين الوجهين في كتابه: مغني اللبيب، وذكر قول عمرو بن كلثوم التَّغلبي في معلقته ـ وهو الشاهد رقم [٤٨] من كتابنا: «فتح القريب المجيب» ـ: [الوافر]

نَـزَلْـتُـمْ مَـنْـزِلَ الأَضْـيَـافِ مِـنَّـا فَـعَـجَّـلْـنَـا الْـقِـرَى أَنْ تَـشْـتِـمُـونَـا

وجملة: ﴿يُبَيِّنُ...﴾ إلخ مستأنفة لا محلَّ لها. ﴿وَٱللَّهُ﴾: الواو: حرف استئناف. (الله): مبتدأ. ﴿بِكُلِّ﴾: متعلقان بـ﴿عَلِيمٌ﴾ بعده، و(كل) مضاف، و﴿شَيْءٍ﴾: مضاف إليه. ﴿عَلِيمٌ﴾: خبر المبتدأ، والجملة الاسمية مستأنفةٌ لا محلَّ لها، والله أعلم بمراده، وأسرار كتابه.

انتهت سورة النِّساء شرحاً، وإعراباً بحمد الله تعالى، وتوفيقه،
وصلَّى الله على سيِّدنا محمدٍ، وعلى آله، وصحبه، وسلَّم.

فهرس

رفع أ. علاء الدين شوقي أسكنه الله الفردوس